

خاضة العالم الإسلامي

تأليف لوثروب ستودارد

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نوح يحيى

وقد تم تصحيحه وإضافة تعليقات وتحويلات مستفيضة
من دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديثة

بقلم أمير البيان والمجاهد الكبير

الإمير شيكيب أمربللا

دار الفكر

خاضة العالم الإسلامي

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

حاضر العالم الإسلامي

تأليف لوثروب ستودارد الامريكى

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهيض

وفيه فصولٌ وتعليقاتٌ وخواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

الجزء الثالث

دار الفكر

الطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسْرٍ وَأَعْيُنٍ

حُقوق الطبع محفوظة للمترجم

فهرست

المجلد الثالث

من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

- الدعوة الاسلامية فى افريقية للامير شكيب من صفحة ١ — ٥٤
الصراع بين الاسلام والنصرانية وأيهما الغالب فى امر المدنية صفحة ٢
الخلاصة صفحة ١١
التبشير والمبشرون صفحة ١٢
الكامرون صفحة ١٦
السودان صفحة ٢١
سكوتو و بورنو صفحة ٢٣
الباقرى والسينغال وواداى و كانم صفحة ٢٤
مملكة مالى صفحة ٢٩
مسألة الرقيق والشرع صفحة ٤٣
تممة ذكر السودان صفحة ٤٥
الاسلام فى السودان مقال للاستاذ ديريش وسترمان الألمانى فى مجلة العالم الاسلامى
الألمانية من صفحة ٥٥ — ٥٨
العرب فى الكونغو للامير شكيب من صفحة ٥٩ — ٦٢
سلطنة راج للامير شكيب من صفحة ٦٢ — ٦٤
ممالك أواسط افريقية للامير شكيب من صفحة ٦٥ — ٦٨
شرقى افريقية للامير شكيب من صفحة ٦٩ — ٧٧
مساھو الحبشة للامير شكيب من صفحة ٧٨ — ١١٩

الاسلام في ماداغسکر وجزائر القومور و بيانات عن الحضارمة للامير شكيب

من صفحه ١٢٠ — ١٨٢

جزائر القومور أو القمر صفحه ١٤٢

جزائر انجوان صفحه ١٤٨

تصحيح وتوضيح و بيانات عن الحضارمة بقلم العلامة المؤرخ المدقق السيد محمد

ابن عبد الرحمن بن شهاب العلوى الحضرمى من صفحه ١٥٧ — ١٨٣

الأمير محمد بن عبد الكريم زعيم الريف للامير شكيب من صفحه ١٨٤ — ٢٠٧

التعصب الأوربى أم التعصب الاسلامى ومائة مشروع لتقسيم تركيا للامير شكيب

من صفحه ٢٠٨ — ٣٤٢

مباحث اجتماعية ورمى الاوربيين الشرع الاسلامى بالجود للامير شكيب

من صفحه ٣٤٣ — ٣٥٠

قضية فصل الدين عن السياسة من صفحه ٣٥١ — ٣٦٤

احصاء المسلمين للامير شكيب من صفحه ٣٦٥ — ٣٦٧

مسلمو الفيليين صفحه ٣٦٧

قفقاسيا صفحه ٣٦٨

ترجة القرآن صفحه ٣٦٩

مسألة الصلب وقول ابن حزم صفحه ٣٧٠

عود الى رأى هورغرونيه صفحه ٣٧٢

السيد احمد الشريف السنوسى صفحه ٣٧٤

تقرير عن القضية الطرابلسية البرقاوية من صفحه ٣٧٦ — ٣٨٥

رئيس الجامعة الاسلامية بجمهورية ليبيا من صفحه ٣٨٥ — ٣٨٨

الدفاع عن الحروف العربية من صفحه ٣٨٩ — ٣٩٣

اظهار محاسن الاسلام لعالم ايطالى من صفحه ٣٩٤ — ٣٩٦

طرابلس وبرقة أيضاً من صفحه ٣٩٧ — ٣٩٨

الدعوة الإسلامية في افريقية

للشيخ
مكي

- ١ — الصراع بين الاسلام والنصرانية وأيهما الغالب في المدينة
- ٢ — الخلاصة
- ٣ — الكامرون
- ٤ — السودان . سكوتو . بورنو . البايرى . السنغال . واداي . كانم . مملكة مالي
- ٥ — مسألة الرقيق والشرع
- ٦ — تنمة ذكر السودان

قال المسيو موري : فلننظر الآن الى مجارى الدعاية الاسلاميه قى قارة افريقية :

فالمجرى الاول هو التيار المراكشى ، الذى يتسمن من زوايا المغرب العديدة ، ومدارس فاس ومراكش ، ويخترق بلاد الأدرار (بجهة السنغال) فينشر دعوة الاسلام فى كآرته ، وفوتالون ، والسودان .

والمجرى الثانى هو الذى يخرج من مدارس القادرية فى تمبكتو ، ومن بعض زوايا التيجانية ، ويتبع مجرى النيجر الى بلاد صانقا (من الكونغو الفرنسى) ، فيتلاقى مع مراكز التبشير المسيحى فى ملتقى نهري النيجر والبنوى .

والمجرى الثالث هو الذى يصدر عن زوايا السنوسية فى الجغبوب وغدامس منتحيا جهات بحيرة تشاد ، وبه أصبحت وادى وبورونو ، مراكز تتأجج فيها حرارة الاسلام .

والمجرى الرابع يخرج من الأزهر بمصر فيتبع النيل الى كردوفان ، الى الاوغاندة حيث ينازع مبشرى البروتستانت والكاثوليك على قيادة الارواح .

وأهم مجارى الدعاية الاسلامية هو ما يقوم به تجار المسلمين ، الذين يقصدون دارفور والسودان تارة من مصر وطورا من طرابلس ، وأفعل من هؤلاء رهط التجار الذى يقوم من ززيبار قاصدا بلاد البحيراب الكبر الى الكونغو ، تابعا مجرى هذا النهر الى بلاد

الباتو^(١) حيث يسابق البعثات المسيحية على أرواح هذا الشعب .
والحق يقال ان الاسلام في هذه الصفحة الاخيرة من تاريخه قد دل على أنه يملك حيوية عظيمة ، وقابلية شديدة للانتشار . فليتذكر الناس حركات أمة البله^(٢) ونشاط الدراويش أتباع الطرق ، وتكاثر الزوايا ، وثورة الحاج عمر الفوتى وخلفائه ، والمهدى السودانى ، وتجارة الرقيق . ولا ينكر أن الرق ألغى وان أجود وسامورى ومجد أحد انكسروا ، وان الغارة الاسلامية توقفت في السودان الفرنسى وفي السودان المصرى ، ولكن التعصب الاسلامى لم ينطفى* وانما هو يتوقد تحت الرماد ، وتجد الدعوة الاسلامية ماشية بالرغم من كل الحوائل في الاوغاندة ، ووادى الكونغو ، ووادى النيجر ، ووادى الغامبية ، وساحل غينية ، وسرى في الفصل الآتى مواقف الديانتين بعضهما بازاء بعض .

الصراع بين الاسلام والنصرانية

وأيهما الغالب في أمر المدينة

قال : ان الديانتين الاسلامية والنصرانية ، واقفتان كل منهما في مقابلة الاخرى على خطين طويلين ، فاذا خططنا خطأً يمتد من مصب السينغال الدرجة ١٦ من العرض الشمالى ، قاطعا الى شرقى افريقية الدرجة ٢ والدقيقة ٣٠ من العرض الجنوبى . وخطا ثانياً ، يمتد من الدرجة ٥ من العرض الشمالى مع الدرجة ١٠ من الطول الغربى الى الدرجة ١٥ من العرض الجنوبى مع الدرجة ٤٠ من الطول الشرقى في قرب موزامبيق ، تكونت لنا منطقة واسعة جدا ، يضطرب ضمنها مائة مليون نسمة هم معترك النزاع بين الاسلام والنصرانية .

وقد تقدم كون مراكز دعوة الاسلام هي فاس ، وطرابلس ، وجنوب ، والازهر ، وزنزيبار ، وان طلائعها في بحيرة تشاد وتمبكتو . وأما النصرانية فدعاتها من فرنسيس ، وطليلان والمان ، وسكندينايفيين ، وانكليز ، وامريكيين ، قد اخترقوا الكتلة الفتيشية من

(١) شعب زنجى كبير يتألف منه سكان الكونغو ، وأهالى بلدان البحيرات الكبرى ، وأقاليم إفريقيا الجنوبية كالزولو ، والبشوانة الخ

(٢) أمة سودانية تسكن ضفة السينغال الشمالية ، ومنها أهالى فوتاجلون ، وبلاد النيجر العليا والوسطى وسمره ألوان هذه الأمة مشربة بجمرة ، وشعورهم مائلة الى السبابة ، وسحتهم تكاد تكون أوربية ، ويقال لهم أيضاً الفولاه والفولبه وكلهم مسلمون

ثلاث أو اربع نقاط وهى : وادى غامبيه وأعلى السنيغال ، وسيراليون وساحل غينية ، ومثلث النيجر ، وأعلى الزامبيز ، وبلاد البحيرات الكبرى . وأعز مراكز النصرانية اليوم هى السودان الغربى ، والكونغو ، وبلاد الكافر ، والاوغانده ، والزامبيز الاعلى . (١)

أما من جهة العدد فالمتصرون من السود لا يزيدون على سبعة ملايين وخمسة الف ، حال كون المسلمين ٣٦ مليوناً اكثرهم مستعمرات فرنسا فانهم فى السنيغال الى شرقى بافولابه ومنهم أكثر أهالى نيورو ، وغومبو ، وسوكوتو وجميع منطقة فاقيين ، وتمبكتو ، ووادى النيجر ، وبلاد فوتاجالون ، وبلاد كيتا ، وبامباكو ، وستادونغوالح .

ثم أخذ يسرد المسيوبونه مورى الاسباب التى جعلت للاسلام الفوز فى افريقية بين السود ، وأهم هذه الاسباب بساطة العقيدة الاسلامية ، التى تنحصر فى كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله ، مما يقبله عقل الزنجى بدون عناء كبير ، كذلك الجنة التى عند المسلمين تطابق ميول الزوج ، أكثر من فردوس النصارى ، كذلك الاسلام ليس فيه طبقات ودرجات ، فالزنجى لا يرى نفسه محقر فى الجماعة الاسلامية . قال: ومع كون الفقير والغنى متساويين عند كل الملل فليس عند أغنياء المسلمين هذه العظمة والخشونة اللتان عند أغنيائنا ، بل أغنياء الاسلام أكثر تذكراً لزوال النعم وتحول الاحوال من أغنياء النصارى ، والفقير المسلم لا يعز عليه أن يدخل ييب أى واحد من أغنياء الاسلام وان يجد هناك مضافاً .

(١) الكونغو نهر عظيم فى أواسط افريقية يخرج من غرب بحيرة نياسا وينتهى فى الأوقيانوس الاطلانتيكى ، طوله ٤٦٠٠ كيلو متر وحجمه مائة من ٤٠ ألف الى ٧٠ ألف متر مكعب ، والبلاد التى تجاوره تسمى بلاد الكونغو وهى أربعة أقسام الكونغو الألمانى فى الشمال وهو الكامرون ، والكونغو البرتغالى وهو اقوله فى الجنوب ، والكونغو الفرنسى ، ثم الكونغو البلجيكى ، وأعظمها البلجيكى الذى عدد سكانه ١٤ مليوناً . وأما الاوغانده فحقها أن تكون من السودان المصرى وهى شمالى بحيرة فيكتوريا نيازها الى الغرب ، أهلها مليون نسمة حصلت فيها قن بعد وفاة ملكها ميتزا بسبب الدعوات الدينية ، بين المسلمين والبروتستانت والكاثوليك ويقول موريس فال الفرنسى فى قاموسه ان الغلبة كانت للبروتستانت بسبب عضد الضباط الانكليز لهم . والاوغانده كما لا يخفى أدخلتها انكلترا فى مستعمراتها . وأما بلاد الكافر فهى فى افريقية الجنوبية قد مر ذكرها ، وأما الزامبيز فهو نهر عظيم يتكون من ملتقى ليا وكامبومبى ، اللذين ينبعان فى نحو الدرجة ١٢ من العرض الجنوبى تسبب الى هذا النهر مستعمرة الزامبيز البريطانية وأهلها مليون وثلاثمائة ألف

ثم ان العرب والمغاربة والبربر يتزوجون بالسودانيات ، فتحصل بينهم وبين الزوج وشائج انساب وأرحام تريد نفوذ أولئك عليهم ، حال كونه من النادر الاندر أن يتزوج أوربي بسمراء أو يرضى بمصاهرة رجل اسود . ثم ان تعدد الأزواج ، وجواز الرق (كذا) ، ومنع القرآن للمسكرات ، كلها أسباب تجعل الرجحان في كفة الاسلام .

وأكثر الذين صنفوا على افريقية حتى الذين منهم اشتهروا بعداوة الاسلام ، اعترفوا بحسن عاقبة اسلام السود من الوجهة الدينية والادبية . لانهم تخلصوا من عبادة الاوثان والحيوانات ، وأقلعوا عن عادة الذبائح البشرية ، وتركوا السحر والسحرة ، وانصرفوا الى عبادة اله واحد عدل ، يعبدونه عبادة روحية منزهة . ثم ان دعاة الاسلام يعلمون المهتمين بمبادئ اللغة العربية التي هي في الاسلام بمثابة اللاتينية في أمم النصرانية . وبما لا شك فيه ، أن الاسلام يزيد النفس عزة ، وينهض بوجدان الزنجي كما قال آتربوري Atterbury وهو قوله : « بمجرد ما يدخل الزنجي في الاسلام يشعر بكرامة نفسه ، و بعد أن كان يعتقد ذاته عبدا ، يصبح في نظر نفسه حراً . »

وان جميع وصايا جمعيات المبشرين بترك المسكرات ، لم تبلغ شيئاً من درجة تأثير الاسلام في حظر هذه الرذيلة . وربما قيل انه كما كان الامسك عن شرب الخمر يرفع درجة الانسان ، فالتزوج باكثر من واحدة يعمل عكس ذلك . والجواب على هذا أن أكثر المسلمين يقتصرون على الزوجة الواحدة أولاً لأن القرآن شرط لتعدد الزوجات شروطاً ثقيلة ، ثانياً ، لأن النفوذ الاوربي ازداد في العالم الاسلامي ، وصار كثيرون من المسلمين ينفرون من تعدد الزوجات — وأتى بونه موري على ذلك بشواهد كثيرة ، وخاض في بحث المرأة الجديدة في الاسلام ، وتكلم على كتاب المرحوم قاسم أمين ، وعلى مدارس الاناث المحدثه في الاسلام الى أن قال : « أما مواطن ضعف الاسلام بازاء النصرانية فمنها تعدد الزوجات . »

لأن تعدد الزوجات بذاته يسقط من مكانة المرأة ، التي هي في نظر السواد الاعظم من المسلمين واسطة شهوة ، ووسيلة للنسل لا غير . فهذا من مواطن ضعف الاسلام بازاء النصرانية ثم هناك ضعف آخر وهو فساد القضاء الاسلامي وفقد العدل فيه ، اذ كل ما هو مشهور عن قضاة الحكومات السابقة في فرنسا من الرشوة والتزوير والظلم . لا يحسب

شيثا في جنب مساوى قضاء الاسلام في افريقية . فانه يكاد يكون مستحيلا نجاح فقير في دعوى مع غنى ، أو انصاف أرملة وقاصرين في نزاع مع وصى . فليفكر جيداً المسامون في هذه الكلمة ، وليعلموا أنه اذا كان الله تعالى أباح تعدد الزوجات تحت شروط ، فلم يبح الظلم بوجه من الوجوه . بل الاسلام وضع العدل فوق العبادة ومع هذا فقد صار الأمر الى أن فساد القضاء وفقد العدل في محاكم الاسلام ، أصبحتا حجة على الاسلام ، ونقطة يهاجم بها . ولا شك أن أمثال هؤلاء القضاة من المسلمين ، هم بأعمالهم أخس نكايه بالاسلام من جميع أعدائه . أفلا يعلم هؤلاء أن مثل هذه الأحوال ، هي التي رفعت ثقة الاوربيين ، لابل الشرقيين من المحاكم الشرعية ، وحلت الكثيرين على طلب الغائها ، أو وضعها تحت السيطرة الأوربية ؟ فأى عار على الاسلام أكبر من هذا ؟ وأى جناية على الاسلام أفظع من أن يصوره رجال الشرع بغير صورته بسوء أعمالهم ، فبدلاً من أن يرغب فيه الناس تراهم يرغبون عنه بسببهم .

جعل المسيو بونه موري استحلال الرق من جملة نقائص الاسلام ، واعترف بان العبيد أبناء العبيد الذين يخدمون في البيوت ويدينون بالاسلام ، لاتساء معاملتهم ، ولكن أفاض في وصف سوء المعاملة التي يلقاها أسرى الحرب ، وطعن كثيراً في تجار الرقيق لاسيما من العرب ، ووصف القسوة التي تظهر منهم في معاملة من يصادونهم من الزوج . وجعل أصل التبعة في ذلك على الاسلام . ونسى أن الرق وجد في جميع الأزمان ، وانه وجد في النصرانية أيضاً . وان البوير الأوربيين في جنوبي افريقية ثقل عليهم تحرير الرقيق ، أكثر من تجار العرب . وان الحرب في أميركا استمرت عدة سنوات ، بسبب أن قسماً عظيماً من أهالي أميركا أبوا الخضوع لقانون ابطال الرق . ونسى أيضاً صاحبنا أن أكثر الأمة الروسية ، وهم الفلاحون كانوا أرقاء للامراء والأشراف ، ولم يتحرروا الا منذ نحو ١٥٠ سنة وهم من الجنس الأوربي لا من الزنج . كذلك غفل أو تغافل عما أوصى به الاسلام بشأن الرقيق ، وما عظم من فضيلة تحرير الرقاب ، وكيف أن آخر كلام النبي ﷺ وهو على فراش احتضاره كان ، التوصية بالأرقاء . فنظر المؤلف من جهة واحدة ، وذكر السيئات وأغفل الحسنات .

ثم خاض المسيو بونه موري في ثمرات الدعوة المسيحية فقال ، ان عدد المنتصرين

من المسلمين لا يكاد يذكر ، ولكن لا يخرج من ذلك أن الدعوة المسيحية لم تكن ذات تأثير على المسلمين بل ان الميل الحاضر عندهم الى الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، والاعتناء بترقية سوى المرأة ، واصلاح المحاكم ، كل هذا كان من نتائج الدعوة المسيحية . فاما بين الوثنيين فان دعاة الانجيل قاوموا عبادة الفتيش^(١) والاعتقاد بالسحر والتعاويذ ، والذبايح البشرية ، والرق ، وأصلحوا حال المرأة ، واجتهدوا في تعليم الزنجي ، الاقتصار على الزوجة الواحدة ، وأفهموا السود أن على المرأة واجبات غير الولادة ، وهي تهذيب الأولاد وتمريض المرضى والزمني ، بخلاف المسلمين الذين يرون في المرأة واسطة للنسل لا غير . (كذا) وعاموا السود النظافة وقوانين حفظ الصحة ، ومروهم على الأشغال اليدوية والزراعة وأما من جهة المستشفيات ولا سيما ملاجئ المجذومين ، فحدث في هذا الباب ولا حرج . ثم ان المبشرين هم الذين نشروا في أوربا فظائع صيد البشر حتى اهتمت الدول بذلك ، وعقدت المؤتمرات التي قررت فيها منع بيع الرقيق . ولم يتوقف المبشرون عن التشهير بمساوي تجار الرقيق بل شهروا بسيئات المستعمرين الاوربيين أنفسهم فيما لو خبطوا الاهالي بعضا العسف وذلك كما فعل المبشرون الانكليز ، عند ما رأوا أعمال بعض البلجيكين في الكونغو . وبما لا يمكن السكوت عنه أن بعض الاوربيين ارتكبوا جريمة بيع المسكرات بين الزوج ، ومنهم ضباط وحكام استعملوا القسوة في معاملتهم ، فكانوا مثالا سيئا وان بعض المبشرين أنفسهم ، ارتزقوا من حرف غير لائقة بالعمل الذي بعثوا من أجله ، وان كثيراً من المبشرين تشاجر بعضهم مع بعض ، لاسيما الكاثوليك والبروتستانت ، وحصلت في الاوغاندة وقائع دموية بسبب نشر الدين ، فهذا مما يقدر الشكوك في قلوب الذين ذهب المبشرون لهدايتهم ، وماذا تقول في حرب الترانسفال التي دارت بين أمتين مسيحييتين تحت أعين الزوج ، فجاءت بتكذيب دعوى البيض بكون انجيلهم هو واسطة السلام . قال : وبالجملة فاذا كان الاسلام قد رجح من جهة عدد الذين اتبعوه من السود ، فالنصرانية كانت الرجحى في أهمية النتائج الأدبية والاقتصادية ، ثم لا يوجد وجه للقياسة بين المدارس النصرانية وبين كتابات الزرايا فضلا عن كون مبشرى الانجيل أسسوا مدارس صناعية مثل باقامويو Bagamoyo ومدرسة لوفيدال Lovedale ومدارس زراعية

(١) لفظة برتقالية الأصل معناها الوثن أو المبود من الحيوانات

مع انموذجاتها نظير مؤسسة الآباء البيض في كيتا Kita وأبن تجمد عند دعاة الاسلام من دور الأيتام وملاجئ العجزة والزمنى ومستشفيات المجازيم ، ما تجده عند دعاة النصرانية ، وأبن في العالم الاسلامى النسوة اللاتى مثل راهبات الرحمة الكاثوليكيات والاخوات الانجيليات ، ونساء المبشرين . لاجرم أن النصرانية في هذا الموطن هي العليا وان كان الاسلام هو الفائق في قضية منع الكحول .

فنحن لا نتكر ما قاله السيوبونه مورى من أنه لا وجه للاقيسة بين مؤسسات الاسلام والنصرانية في افريقية وغيرها من جهة الاتقان والتفنن ، وتنوع العلوم ، والصناعات ، واشتراك النساء مع الرجال في هذه المشروعات الخيرية ، وما تأتى به هذه الراهبات من الخوارق في خدمة الانسانية . كلا والله لا نتكر ذلك ، (والحق من ربك فلا تكونن من الممترين) . ولكن بما لا ينكر أيضاً أن انحطاط المؤسسات الخيرية الاسلامية ، انما وقع بانحطاط القوة السياسية الاسلامية في الاعصر الاخيرة ، اما قبل ذلك فلم تكن مدينة تذكر في الاسلام الا فيها البيمارستانات ، ودور المجازيم ، والمجاذيب ، وملاجئ الزمنى ، وملاجئ العميان وكل هذه المؤسسات كانت لها أوقاف دارّة ، ومنابع رزق ينفق منها عليها عن سعة .

لا بل الذى خطر ببال المسلمين من جهة اسداء الخير ، واماطة الأذى ، وتخفيف آلام البشر قد وصل من التناهي الى درجات ، لم تبلغها أوربا في عصر مدينتها هذه ، ودل على أن في الاسلام من رقة الشعور ، ودقة اللحظ ، وتوقع النادر من النوازل ، ما ليس في غيره . واليك هذا المثال :

كانت في دمشق الشام عدا دور المجانين والمجاذيب والمجازيم ، أوقاف على الحيوانات ، ويقال ان مرجة دمشق هذه التي هي اليوم متنزه أهل الحاضرة ، كانت وقفا على الخيل التي تعبت في الجهاد وأسفت ، يطول لها فيها دون غيرها .

وسمعت رواية من أفواه بعض الأدباء لم أجد عليها نصاً ، ولكنها قريبة الى التصديق وهي ، أنهم وجدوا في الوثائق المتروكة عن المستشفى النورى الشهير (١) وظيفة من جلة وظائف المعالجة لم يخطر ببال الاوربيين ، مع تاهيمهم في الترف والعناية بالصحة

(١) محل المحكمة الفرعية الآن وهو منسوب الى الملك العادل نور الدين زنكى رحمه الله

أن يجعلوها وظيفة ، ولا أن يرتبوا لها جعلا معلوماً ، وهي تكاليف اثنين بان يقفا بسمع من المريض ، وبدون أن يلحظ أن ذلك جار منهما عمداً يسأل أحدهما الآخر عن حقيقة علة ذلك المريض ، فيجاوبه رفيقه بأنه لا يوجد في علته ما يشغل البال ، وأن الطيب رتب له كذا وكذا من الدواء ، ولا يظن أنه يحتاج الى أكثر من كذا من الوقت حتى ينقه ، وغير ذلك من الحديث ، الذي اذا تهامس به اثنان على مسمع عليل ثقيل الحال وظنه صحيحاً ، زاد في نشاطه ، ونهض من قوته المعنوية بما يفعل فعل انجع الادوية لاسيما عند ذوى الامزجة العصبية . فهذه نكتة ، لم يتنبه الاوربيون الى أن يدخلوها في جملة وظائف المستشفيات الى هذه الساعة ، مع انها في منتهى درجات الرقة والفائدة .

ومن أرق وألطف ما وجد في الاسلام من هذا المعنى وقف الزبدي ، الذي كان في دمشق ، وقد حدث عنه ابن بطوطة وهو مكان توجد فيه صحاف من الخزف الصيني الجليل القدر ، وقفها أصحابها لأجل انه اذا كان غلام كسر آنية لسيده وتعرض بذلك لغضبه ، يذهب الى هذا المكان ويضع الاناء المكسور ، ويأتى باناء صحيح بدلا عنه . فهل لحظ أرباب المبرات من الافرنج معروفاً ، بلغ هذا المبلغ من الكياسة ، واطف الشعور ؟

ووجد في الشام وقف تزويج البنات الفقيرات .

ووقف لسقيا الماء المتلوج في الصيف لعابري السبيل ، وقد يسقونه بماء الخروب أو غيره من الأشربة .

ووقف لمستشفى المجازيم ، من جملة أراضي القرى التي كانت للرحوم أجد باشا الشمعة في حوران .

أما أوقاف البيمارستانات فهذه لاتحصى في الاسلام .

وفي مكة المكرمة وقف ، مخصص ريعه لمنع الكلاب من دخول مكة .

وقف لاعارة الحلى والزينة في الاعراس والأفراح ، بحيث ان العامة والفقراء لابل الطبقة الوسطى يرتفقون بهذا المعهد الخيري ، فيستعرون منه ما يلزمهم من الحلى لأجل التزين به في الحفلات ، ويعيدونه الى مكانه بعد انتهائها فيتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة ، ولعروسه أن تجلي بحلية رائقة مما يجبر خاطرهما ، وكذلك يستغنى المتوسط في الثروة عن أن يشتري مالا طاقة له به .

وفي مكة وقف آخر تستعار منه ، لأدوات السفر والمفروشات للولائم والوضائم .
وبلغني أنه يوجد بمصر وقف لسكنى الأيامي . ووقف آخر لكسوة أولاد الفقراء .
ووقف لاطعام الكلاب .

ويوجد بتونس الخضراء وقف مرصدر يعه لتزويج بنات الفقراء واليتيمات ،
ووقف للصبيان ، لهم يوم مخصوص هو يوم الخيس يسألونهم فيه عن جميع ماقرأوه في
الاسبوع ، ويعطونهم بعد ذلك دراهم بعناً لهمهم ، وتفريحاً لقلوبهم . ووقف للاستحمام
مجاناً ، توضع فيه صرر من الدراهم كل صرة فيها مقدار أجرة الحمام ، فيدخل المحتاج الى
الاستحمام أو ازالة الجنابة ، ويتناول احدى هذه الصرر ويذهب الى الحمام ، فيدفعها
بعينها ويستحم .

ويوجد في تونس وقف غير الوقف الأول ، لتزويج البنات الابكار اللائي بمحل
الزواج .

وفي تونس وقف لدار المجازيم . ووقف آخر للعاتيه .

وفي تونس وقف لختان أولاد الفقراء ، يحنن الولد ويعطى كسوة ودراهم . وهناك
وقف توزع منه الحلواء في رمضان مجاناً .

وقيل لي ان في تونس كما في دمشق وقفا لمن انكسر بيده اناء ، فيذهب ويأخذ منه
بدل الاناء الذي انكسر .

ويأتي الى تونس في بعض أيام السنة نوع من السمك تفيض به شواطئها ، فيوجد
في تونس وقف يشتري من ريعه جانب كبير من هذا السمك ، ويوزع على الفقراء .
ويوجد في فاس وقف أشبه بالوقف الذي في دمشق ، والآخر الذي في تونس ، لمن
ينكسر بيده اناء .

وفيهما وقف لاحتياط آخر ، وهو أن من وقع عليه زيت مصباح ، أو تلوث ثوبه
بشيء آخر ، يذهب الى هذا الوقف ويأخذ منه ما يشتري به ثوبا آخر .

وهناك وقف سيدي أبي العباس السبتى للعريان والزمنى ، يأخذون كل يوم من ريعه
ما يعيشون به ذكوراً وانانا على كثرة عددهم .

ويوجد وقف اسمه وقف سيدي على أبي غالب ، ينفق منه على ذوى العاهات .

ووقف في فاس ، ينفق منه لرفع الحجارة من الطرقات .

ووقف للمؤذنين الذين يحيون الليل بالنوبة ، كل منهم يسبح الله نحو ساعة بصوته الرخيم ، ويسمى هذا المؤذن « بمؤنس الغرباء » أو « مؤنس المرضى » لأن المريض لا يقدر أن ينام ولا يوجد في كل الاحيان من يحيي الليل لأجله ، فليس له أنيس احسن من هذا المؤذن الذي يشجبه بصوته الرخيم في تسبيح البارئ تعالى في ساعات الليل الأخيرة .

وفي مدينة مراکش وقف لسقي الماء المتلوج في أيام القيظ كما في دمشق .

وفيها مؤسسة اسمها « دار الدقة » وهي ملجأ تذهب اليه النساء اللاتي يقع نفور بينهن وبين بعولتهن فلهن ان يقمن به آكلات شاربات ، الى ان يزول ما بينهن وبين أزواجهن من النفور . وعلى دار الدقة هذه ، أوقاف عديدة دارة .

ويوجد في مراکش مكان اسمه « سيدى فرج » عليه أوقاف كثيرة دارة فائضة ، وذلك لا يواء المجاذيب والمعانيه ، ولتجهيز الموتى من الضعفاء والمساكين . ويؤخذ من ريع أوقاف سيدى فرج هذا ، لشراء ملابس توزع على الفقراء في أول الشتاء .

وروى جان وجيروم تارو الاخوان ، الكاتبان الفرنسيان في رحلتهم الى مراکش ، ان في مدينة مراکش ملجأ لا يوجد مثله في الدنيا بأسرها ، وهو بناء يكاد يكون بلدة ، وله ساحة يكاد الطرف لا يأتى على آخرها ، وفي هذا الملجأ ستة آلاف أعشى ينامون ، وبأكلون ويشربون ، ويقراون ، ولهم أنظمة ، وقوانين ، وهيئة ادارة ، وصندوق الخ .

فهذا مثال مما في العالم الاسلامي من المشروعات الخيرية والماسر الانسانية ، مما لم يتفطن لاكثره العالم الأوربي بعد ان وصل الى ما وصل اليه من الغاية القصوى في العمران ، والدرجة العليا في الاحتياط لازاحة علل الانسان . وربما كان كثير من هذه الأوقاف والملاجئ قد انحط أودرس ، أو استأثر نظاره بريعه لسوء الحظ ، ولكن هذا لا يمنع من أن تكون هذه المؤسسات الجليلة ، وهذه الخواطر الخيرية الدقيقة قد وجدت في الاسلام أيام عزه ، ولا يزال قسم كبير منها موجودا . فافتخر المسيو بونه موري على الاسلام بوفرة الملاجئ ودور الايتام ، وكثرة معاهد الخير في النصرانية ، دون الاسلام ليس في عمله . ولو اطلع على هذه المعلومات ، التي هي قليل من كثير مما في الاسلام من المبرات العامة لرجع عن كلامه .

الخلاصة

استخلص صاحب كتاب الاسلام والنصرانية في افريقية من ابحاث كتابه هذا ، التي لخصنا أكثرها تلخيصا مطابقا للأصل ، ان الأديان التي جاءت افريقية بأفضل وأسلم مبادئ المدنية هي الإديان الثلاثة ، الموسوية ، والنصرانية ، والإسلامية . وان الوثنية التي كانت عليها قرطاجنة والاسكندرية في الأعصر القديمة لم تفد افريقية شيئا ، كما أن الفتيشية الحاضرة بين الزوج ، هي مصدر لافظع الأعمال واستخف العبادات .

وقد كان لليهودية دور عظيم بمصر لعهد البطالسة وفي افريقية الرومانية ، قبل مولد السيد المسيح بقرن وبعده بقرنين . ولكنها الآن انحطت كثيرا في هذه القارة ، فليس في شمالي افريقية أكثر من ٣٦٠ ألف نسمة من اليهود ، أقلهم انحطاطا يهود الجزائر ومصر ، وترى جمعية الاتحاد الاسرائيلي عاملة لاعلاء سويهم بهمة عظيمة .

أما النصرانية فازدهرت كثيراً في القرن الثاني الى السابع ليلاد وعمت شمالي افريقية من مصر الى أقصى المغرب ، فلما جاء الفتح العربي الأول في القرن السابع ثم الثاني في القرن الحادي عشر جرفا كل آثار النصرانية هناك الا ما كان للقبط بمصر والحبشة .

وأما الاسلام فبعد أن أشرقت به أنوار العلوم والصناعات بمصر والمغرب توقف على مستوى واحد ، ثم شرع بالتهور بعد سقوط الأندلس .

ثم عادت النصرانية بواسطة جمعيات التبشير المسيحي الى العمل بين الزوج الفتيشين ، ولكنك ترى دعائها في سواحل زنجبار ، ونواحي البحيرات الكبرى وفي وادي ، وحول بحيرة تشاد ، وفي البلاد الواقعة بين منحدر النيجر ومنابع السنغال ، يتصامون مع رجال الطرق الاسلامية ، وطلبة فاس ، والأزهر الذين يأبون النصرانية بأى وجه كان . فبداية القرن التاسع عشر اشتدت المزاخمة بين هاتين الديانتين ، وتسابقنا على السيادة الدينية بل على السيادة الدينية السياسية ، بما لا يقل حرارة عن مساجلتها أيام القرون الوسطى .

فاذا ينبغي لنا أن نتمنى من جهة نتيجة هذه المصارعة بين هاتين الديانتين ؟ وأية

خطة يجب أن يتبعها مبشرو النصرانية لا كمال عملهم ؟

الجواب على السؤال الأول : لا ينبغي لنا ان تمنى لافضل الاسلام ولا فوزه . لا ينبغي أن تمنى فشل الاسلام لأنه مما لامشاحة فيه أن دين محمد قد أعلى مستوى القبائل الفتيشية التي دانت به ، وخدم بذلك الانسانية . فان غاب هذا الدين عن بعض تلك المراكز ، سادت فيها البربرية وعم شرب الخمر . ولا ينبغي لنا أن نستهي فوزه لأنه اذا فاز ، هاج التعصب الاسلامي وعقبت ذلك حروب دموية ، وربما مذابح يهلك فيها الأوربيون . هذا فضلا عن كون الاسلام اذا رفع مستوى الزنجي فانه يقف به فيما بعد على درجة ، لا يتقدم عنها ولا يتأخر . (يشير الى الجلود الحاضر) .

وعندي ان الاولى بقاء الديانتين في مراكزهما الحاضرة تسمى كل منهما سعيها مع التسامح والتفاهم . فأما في البلاد التي دخلت في الاسلام فيجب العدول عن سياسة التنصير والاكتفاء بادخال مبادئ مدنيتنا بواسطة المدارس الفرنسية العربية ، أو الانجليزية العربية والمستشفيات والملاجئ ، ومدارس تعليم البنات الخ . وكذلك يحسن بالاوربيين أن يقتدوا بالمسلمين في الامتناع عن المسكرات وفي احترامهم الفتيشي ، الذي يقطع عن عقيدته الأولى ، وعده مساويا للابيض ، وفي الالفة بين الغني والفقير .

ولكن حيث أباح الأسلام التعذيب في القضاء ، أو تجارة الرقيق ، أو الشعوذات السحرية ، فيجب على ممثلي النصرانية أن يأذنوا بذلك حكوماتهم ، حتى تبطل هذه الأمور بالقوة .

وعلى دعاة النصرانية أن يسرعوا في عملهم ، ويضاعفوا همهم ونشاطهم بحيث يسبقون دعاية الاسلام ، ويعرفوا المائة مليون زنجي الباقيين على الفتيشية بانجيل المسيح ، قبل أن يسمع هؤلاء بذكر القرآن . وعليهم أن يتوخوا البساطة في التعليم المسيحي ، وينهجوا الطريق الذي نهجه حواريو المسيح في وقتهم عند ما كانوا يهدون الوثنيين . وأما الفضائل فيجب على المبشرين أنفسهم أن يكونوا هم القدوة بها ، ليمحوا سيئات غيرهم من النصارى البيض . اهـ

التبشير والمبشرون

هذه خلاصة كتاب الاسلام والنصرانية في افريقية عولنا عليه ، لأنه أجمع ما رأينا في هذا الموضوع . وكان ستودارد قد نقل عنه . واطلعت على كتاب عنوانه « عصر في افريقية والاوقيانوس » لجمعية التبشير الانجيلية الباريزية مطبوع في السنة ١٩٢٣ الماضية

فوجدت فيه بعض نبذات تتعلق بالاسلام في أواسط افريقية .

فذكر ان في السنغال خمسة أو ستة أجيال ، مجموعهم مليون ونصف مليون نسمة ، وان أحصاهم عددا جيل يقال لهم الاولوف Ouolof فقال ان هؤلاء قاطبة كانوا مسلمين ولا يزالون مسلمين ، ولكنهم بمجيء شباهم أثناء الحرب الكبرى الى فرنسا ، حصلت ثورة في أفكارهم ونسأهوا في الدين . قال : ولا تقدر ان تقول ان هذه الثورة الفكرية أفادتهم من الوجهة الأدبية . كلا بل صاروا مدمنين للسكر ، بعد أن كانوا لا يذوقون الاشربة المتخمرة أصلا ولم تقتصر هذه التلثة في سور التعاليم القرآنية على شرب الخمر بل تجاوزت الى عدم الصوم في رمضان وترك الصلاة .

قال وحصل منذ نحو عشر سنوات أن شاباً مسلماً ابن عائلة وجيبة في سور Sor ، تردد كثيراً على المدرسة الانجيلية في هذه البلدة ، الى أن التمس من المسيو أندري درانكو تعليمه الدين المسيحي ، ولحظ أهله ذلك فلم يعارضوه في أول الأمر ظناً بأنه لا يصبأ عن دينه ، ولكنهم لم يلبثوا أن عرفوا أن الشاب ترك صلاة المسلمين وصيام رمضان ، وانه مرق من الاسلام ، فأرسلوه الى جهة بعيدة لم يرجع منها .

قال فاما في هذه الأيام فحوادث كهذه لاتقع لالكون الأهالي تركوا الاسلام ، بل لكون النثر الجديد تلمص من القيود العتيقة . فصار بعض الشبان يغشون محلات العبادة عند النصارى سواء في سان لويس ، أو في دافار ، ويشتركون في الأناشيد الروحية ، مما يدل على حالة عقلية لم تكن من قبل . فعلى المبشرين أن يستغلوا هذه الحالة الجديدة بتوجيهها الى جهة المسيح . وقد آن لنا أن نستفيد عبراً من الماضي ، فانتا نحن منذ مدة طويلة مستولون على السنغال ، وعند ما جاء أول مبشر الى السنغال منذ ٦٠ سنة ، كانت مقاطعات كثيرة من السنغال لم يقبل أهلها دين الاسلام . ولكن نقصنا الثقة وأعوزنا الثبات ، مع أن الأرض اذا كانت خصبة تحتمت فلاحتها وزرعها ولو تأخر الوقت . نعم ان السنغال بلاد اسلامية ، ولكن فيها طوائف لا يزالون فتيشين مثل السيريرين Sereres ، الذين يبلغ عددهم ٣ الى ٤ مائة ألف ، وكذلك أهالي كازامانس الذين معظمهم وثنيون .

في السنغال مليون ونصف مليون نفس كلها خلائق الله ، وكلها في حاجة الى المخلص

ولقد كانت تربيتها الى هذا اليوم اسلامية بحتة ، ولكن جرى تحول في الأفكار بهذه المدة الأخيرة ، فالساعة اذاً قد أزفت للعمل . اه

وكاتب هذا الفصل المبشر البرت درانكورت يحرض قومه على البذل والاهتمام وبث الدعوة في السنغال .

ثم اطلعت في هذا الكتاب نفسه عن فصل آخر ، لمبشر يقال له الميسو فور Faure يتكلم على البعثة الانجيلية في بلاد الغابون أو الكونغو الفرنسى ، ويقول فيه ان هذه البلاد بعد ان ضمت اليها مستعمرة الكامرون الألمانية ، صارت بقدر فرنسا أربعاً أو خمس مرات ، وان سكانها أقوام مختلفة من سود افريقية منهم مسامون وأكثرهم فينشيون . ومن جملة ما ورد في هذا الفصل قوله :

ان الأوربيين ، قد جنوا على السلالة السوداء جنائيات كثيرة لا مندوحة لهم من التكفير عنها . فاذا كانت أمم المبونغوى ، Mpongwé والغالوه ، Galoa والنكوى ، Nakomi وغيرها وقد انقرض كثراً فماذاك الا لكون النحاسين البيض كانوا يصطادون أبناء هذه الأقوام ، ويستعبدونهم ويبيعونهم ، ولكون أكثر أرباح التجار البيض ، هى من تجارة السلاح والبارود والمسكرات ، وبالأخر فلنقل الحقيقة وهى ان الزنا مع ما يجره من الأمراض التى كادت تفتى هؤلاء الزنوج ، انما فشا فيهم بواسطة الأوربيين . ولكم من جرم جره الأوربيون بين هؤلاء السود البؤساء ، وما لا نقدر أن نكابر فيه هو أن الاستعمار العصرى ان هو الا استغلال المستعمرات وأهلها ، بأى وجه كان . فمسئولية أوطاننا من هذه الجهة باهظة ولا سبيل لانكارها ^(١) فن الواجب اذاً علينا . نحن البروتستانت أن نعوض الضرر الذى ألحقه أبناء جنسنا بأهل افريقية ، وان نحمل كلمة الحياة والنور والقوة ، الى حيث الانحطاط والظلمات ولنتذكر ان مئات ألوف من هؤلاء الأهالى لبوا نداء بلادنا فى الحرب الكبرى ، وقتلوا فى سبيلنا ، فان ثلثى هؤلاء الذين سقناهم الى الحرب لم يعودوا الى أوطانهم ، لأن منهم من قتل ومنهم من مات بالأمراض الخ .

ومما يستجلب النظر فى هذا الكتاب فصل لمبشر اسمه فريدريك فرنيه Frédéric Vernier عن التبشير الانجيلي فى ماداغسكار أشار فيه الى نجاح الدعوة فى تلك

(١) فليتأمل القارىء فى شهادة هذا المبشر الانجيلي على قومه

الجزيرة الكبرى ، ولكنه لم يخل كلامه من شكوى مرة من أعمال الجزويت ، الذين لبثوا مدة طويلة مستخدمين قوة الحكومة الفرنسية لاعنات البروتستانت ، ولم يتمكن هؤلاء من رفع الظلم والانتقام عنهم الا ببذل أموال جزيلة ودماء زكية . وكذلك شكوا من حملة الملاحدة من الأوربيين الذين كانوا يناوئون الدعوة الدينية من أصلها ، ثم من فساد الأخلاق وفتور العزائم المستوليين على سكان ماداغسكار ، وما يجعل وصاية البعثات الانجليزية على الكنائس الوطنية حتماً .

ثم ذكر ان نسبة المسيحيين الى الوثنيين في مقاطعات اميرنيه Imérina ، وبيتسليو Betsiléo ، وتاماتاف Tamatave ، وبلاد السكالاف Sakalaves هي نسبة اثنين الى ثلاثة . وشكا من كون الوثنية في المدة الأخيرة أخذت تتقدم الى الامام ، وان مبشرا انجيلياً فاجأ ٦٠٠ وثني مجتمعين لعبادتهم . قال : « وان جميع الأهالي في ماداغسكار يعتقدون باله واحد يسمونه « اندريامانيترا » أو « ادريا ماناهارى » أى أبدى وخالق . وكما يستدل عليه من أمثالهم وعباراتهم ، لا تخلو ديانتهم من مبادئ أدبية سامية . مثلاً يقولون : اندريا ميتراتسى تياراتسى . ومعناها : الله لا يحب الشر . ويقولون عبارات معناها : انه يوجد عدل لا بد أن ينتصر يوماً . والله لا ينخدع . والله لا يخطئ ولكن الناس هم الذين في الضلال وغير ذلك . ومع هذا فهذه العقيدة بقيت عاجزة عن اعطاء الماداغسكاريين ديانة قيمة قادرة على تزكية النفوس . فانهم يوجهون صلاتهم الى جاجم الموتى ، ويظنون ان أرواح الأهالي الأصليين الذين طردتهم أمة الهوفا Hovas من ديارهم ، عادت فاتخذت مساكن في بعض الحجارة والينابيع ، فلهذا يقدمون لها القرابين لتسكين غضبها . وهم يعتقدون بالسحر والسحرة ، وبالتعاويد والرقى ، والطلسمات ، وبالاجال فدينهم دين الخوف ، ولا يعرفون شيئاً عن الاله الكريم العفو الغفار قابل التوب . الى آخر ما قال .

ثم ان في هذا الكتاب فصلاً مهماً عن الكامرون نلخص منه بعض معلومات مفيدة وهو من قلم المبشر المسيو الليغره Allegret . قال :

الكامرون

ان الكامرون قطر واقع في داخل خليج غينية ، مساحتها أربع مائة وتسعون ألف كيلومتر مربع أى بقدر مساحة فرنسا ، وهو من بحيرة تشاد الى الاقيانوس من الشرق الى الغرب ، ومن النيجر الى الغابون من الشمال الى الجنوب . وأما أهالى الكامرون فعددهم أربعة ملايين أى ضعف أهالى ماداغسكار ، هذا عدا القبائل العاصية المعصمة بالجبال والمظنون أن نحو ثلثى الأهالى لا يزالون وثنيين . ويسكن فى الآجام الجنوبية جبل متوحش اسمهم البيغمه Pygmé ، والباقيون من الأهالى ثلاثة أقسام :

الأول البانتو ، فى السواحل والوسط والجنوب وكلهم فتيشيون ، وهم فرق الدواله ، والباسة والثورى والبولو الخ . وبين هؤلاء تأسست مرا كز التبشير بالانجيل .

الثانى السودانىون الباقى أ كثرهم على الفتيشية ، وأصلهم مهاجرون من الشرق وهم سكان شمالى الكامرون ، ولهم امارات وحكومات وطيدة .

الثالث المسلمون وهم الحاوسة ، والفولبة ، والعرب الذين فى سواحل بحيرة تشاد ، فأما الحاوسة ، فان بأيديهم جميع التجارة من شمالى الكامرون الى جنوبيها وهم يهود هاتيك البلاد وتراهم فى كل مكان لا تخلو منهم بقعة ، وفى كل قرية من قرى الجنوب حارة للحاوسة . كما أنه على أبواب المدن الكبيرة توجد قرى للحاوسة والأهالى لا يحبون الحاوسة ولكنهم محتاجون الى البضائع التى يأتون بها ، ويظهر أن هذه النفرة منهم ستزول شيئاً فشيئاً وسينتهى الأمر بسيادة الهلال (أى الاسلام) على كل محل ان لم يبادر المسيحيون بانتقاء الخطر . وفى الحالة الحاضرة لا تجدهم مفرطين فى التعصب ، فلا يزال عند المبشرين المسيحيين الوقت الكافى لمساوقة دعايتهم .

ولقد كان احتلال أمة الفولبة لبلاد الآداموا ، منذ عهد غير بعيد . جاءوا من بلاد السنيغال والنيجر ، وبورنو وانتجعوها ، وكان أصل اتجاعهم ها ارتياد المراعى لمواشيهم ، ولبشوا حقبه يؤدون اتاوة لملوك الوثنيين ، كما أنه لا يزال طائفة منهم اسمهم البورورو Bororos ، بقرب مدينة فومبان يؤدونها الى اليوم . ولكن لما تكاثر الفولبه اعصوبوا حول زعيم لهم يقال له آدما وهو الذى انتسبت الى اسمه بلاد الآداموا فاستولى على

المملكة ، وصار الوثنيون هم الذين يؤدون الجزية للمسلمين وصار هؤلاء يأخذونهم أرقاء ، وانهمز جم من الوثنيين الى الجبال حرصاً على استقلالهم . ومع هذا فقد بقي طوائف من المسلمين تحت سيادة الوثنيين . ويوجد أقوام مثل التيكار والبامون والقوت ، يتكون منهم مناطق حائلة بين المسلمين والفتيشيين .

ثم قال وان الكامرون هي أرض مختارة للتبشير ولها مستقبل عظيم ، كأن تتمكن من تنصير الوثنيين الذين فيها ونقف حاجزاً بينهم وبين الدعوة الاسلامية ، وأخيراً ننشر النصرانية بين المسلمين أنفسهم . انتهى كلامه بحرفه

ثم في محل آخر تكلم هذا المبشر عن آفات الدعوة الدينية من تزامم الأوربيين على التجارة والريج المالى . وزعم أن الألمان اغتصبوا الأهالى أراضيهم ، وانهم فى أغسطس سنة ١٩١٤ شقوا ملك دواله ، بحجة أنه تمرد على السلطة الألمانية . ثم انتقل الى ذكر الحرب العامة فقال انها جاءت كصرصر عاتية لم تبق ولم تذر ، فجيل للناس أن عمل المبشرين حبط تماماً بزوال الحكومة الألمانية من الكامرون . إذ أنه لما سيق المبشرون الى الساحل أسارى هجمت العساكر السوداء من الفريقيين ، وثار الأهالى وخرّبوا المؤسسات والمرامير التى كانت للتبشير . وأناس كثيرون هجروا القرى ولاذوا بالجبال فراراً من العساكر وان ١٥ ألفاً من الألمان وأعوانهم قبض عليهم وسيقوا الى دواله حيث كان منهم الى سنة ١٩٢٠ يعملون فى الأرض . فلا حاجة الى ذكر ما حل بالضامر ونزل بالعقائد من جراء هذه الحوادث ، فقد مات التبشير ودرست معالمة ، وحصل رد فعل استؤنفت به قوة الوثنية ، ورفعت رؤوسها دعاء الكنيسة النصرانية الأهلية ، وصاروا ينادون علناً : لا يزيد أن نكون تحت سيطرة البيض ولا أن نكون مسيحيين ، اذ هذه أفعال البيض قد ظهرت للعيان ، فلنعد الى عقائد آبائنا . وهكذا عادت الوثنية الى سطوتها الأولى . وانفرد بعض تلاميذ البعثات الأوربية بمذاهب مزجوا بها بين العقائد المسيحية والفتيشية . وعاد كثير من الزوج الى تعدد الزوجات ، واغتنمت هذه الفرصة الكنيسة الافريقية التى قاعدتها « افريقية للافريقيين » وأخذت تنفر الأهالى من المبشرين الأوربيين ، وأباحت لأتباعها تعدد الزوجات . فان هذه الكنيسة الأهلية لم تكن فى الحقيقة ثمرة نهضة روحية ، بل هى نتيجة دخول روح الوثنية فى النصرانية . فانقسمت الكنائس الى ثلاث كل منها تقاقل

الأخرى . واتتهز دعاة الكاثوليك هذه الغرة ليقولوا للزوج البروتستانتين : « أما وقد صرتم من تبعة فرنسا الآن فلا تستطيعون أن تكونوا بروتستانتاً . »

وبينا الوثنية تهاجم النصرانية من هذه الجهة اذ هاجها الاسلام من الجهة الأخرى فان سلطان بامون الذي كان من قبل دعا المبشرين من نفسه ولي وجهه شطر الاسلام وبني جامعاً ودعا جميع تبعته أن يتخذوا الاسلام ديناً .

ثم ذكر هذا المبشر كيف أن الحكومة الفرنسية أرسلت بعثة لاصلاح هذه الحال ، وما عانوه من الصعاب حتى أعادوا الشيء كما كان أو قريباً مما كان ، وكيف وحدوا بين الكنائس وأقاموا جبهة واحدة بازاء الاسلام من جانب ، والوثنية من جانب آخر . ثم ختم فصله بقوله :

أما موضوع الاسلام فهو من الطول بحيث لا أقدر أن أفتحه ، فقد سبق لنا أن بيند كيف أن نجويا Njoya سلطان البامون ولي وجهه شطر الاسلام ، ولكن اسلامه كان ممزوجاً بعقائد وثنية وأخرى مسيحية . وقد صنف كتاباً يعلن فيه مذهبه وسماه « طريق الحياة » وفي الحقيقة أنه فتيشي ، لم يسلم الا ليكون القائد المطلق لشعبه . ولولم تكن البعثة الانجيلية قد دخلت في البلاد ، لربما كان الاسلام قد عمها . وقد خالطت بنفسى أمة البله الذين في بامون فوجدتهم مسلمين غير متعصبين وهم على جانب من الوداعة ، فظهر لي أنه يمكننا أن نبذر زرع الانجيل بين هذه الامم التي تغلغل فيها الاسلام ، وان نقف تقدمه بل نهاجه رأساً في أما كنهه فيلزم أن نعيد الى الكنائس الاهلية الصبغة التبشيرية ، ونجعلها دائماً تحت سيطرة رسالات الدعاية ولا تنفك عن الدعوة ، ونذكر كنائس سواحل الكامرون بان الاسلام الذي أخنى على جميع كنائس شمالي افريقية ، يمكنه أن يخنى عليها هي ان لم تتدارك هذا الخطر عاجلاً . انتهى

وقد اطلعت على كتاب عن المستعمرات الالمانية للاستاذ رورباخ Rohrbach

الالمانى ذكر فيه بلاد الآداموا من شمالي الكامرون فقال : « ان هذه البلاد هي مركبة من القسم الذي كان يخص المانية من قبل ، وأضيف اليه القسم الذي تخلت عنه فرنسا لالمانية بموجب اتفاق ١٩١١ . فالآداموا من الجنوب تتصل بالقسم الاعلى من الكامرون ، وتشتمل على أعالي بلاد فنومع النواحي التي بين فنو وارضى لوغونه ، التي هي حدود

الامان من جهة الاملاك الفرنسية المتاخمة لبحيرة تشاد . قال ، وفي هذه الجهات أقوام وطنيون كثيرون لهم سلاطين من أنفسهم ، ويقال للسلطان عندهم لاميدوس Lamidos ، والاهالي منذ عهد طويل هنا هم تحت نفوذ التعليم العربي ، واكثرهم مسلمون . وتوجد مدن مهمة مثل غاروه Garua ، وماروه Marrua ، الى الشمال من فنو . وأعظم امارات بلاد الفلاحين أى المسلمين هي ريبوبه Riebuba ، ثم من الآداموا المقتطعة من الاملاك الفرنسية بموجب اتفاق سنة ١٩١١ مدينة ليرة Lere ، وبندر Binder ، وعلى الحدود الالمانية من جهة لونغونه مدينة كوسرى Kusseri ، وفي الشمال على بحيرة تشاد بلدة المونغو Mongo . قال : والاهالي فى الآداموا حسنو القيام على الزراعة ، وعندهم مواسم حبوب عظيمة ، ويستخرجون زيت الزيتون والسمن والقطن بكثرة ، وعندهم صناعة النسيج متريفة ، وهم يتفننون بها ويكتسون منها ، ولا شك أن للآداموا مستقبلاً عظيماً من جهة زراعة القطن .

ثم ذكر بلاد الطوغو من مستعمرات المانية فى خط الاستواء ، وقال ان الاسلام فيها هو فى تقدم مستمر ، ونشر صورة مسجد اسلامى فى مدينة سانزانه مانغو Sansane Mango فى شمالى الطوغو .

وقد ورد فى كتاب يسمى « المملكة الاستعمارية الألمانية » كلام طويل ، على مسلمى الكامرون وأواسط افريقية نلخص منه ما يأتى :

« انه فى القرون الوسطى ، كانوا فى شمالى افريقية يعتقدون بوجود شعوب زنجية سمراء فى بلاد التوارق العليا والتيبستى من جهة وادى دراعة وقزان ، ويظن الرحالة الألماني ناختيغال Nachtigal ، ان هؤلاء هم الذين يقال لهم كارامانت Karamant ، وكان قد ذكرهم هيرودوتس المؤرخ . ولما فتح العرب شمالى افريقية جاء قسم من البربر وأجلوا الغويير Gobir الذين هم من أطراف أمة الحاوسة الحاضرين الى السودان فامتدوا هناك وأسسوا الامارات السبع التى يرون انها كانت للحاوسة ، فأما الامارات الخارجة عنها فيظن انها ممالك الأمم التى غلب الحاوسة عليها ويرجح كون مملكة كانم أقدم من ممالك الحاوسة وفى القرن الثانى عشر للمسيح ، جاء الاسلام ودخل بقوة عظيمة ، وانتشر فى جنوبى بحيرة تشاد وفى غربىها ، وبعد حروب شديدة مع أمة تسمى الايزو Eso ، انتهى الأمر بتغلب

الاسلام . وفي القرن الرابع عشر والخامس عشر ، استولى البولالا Bulala ، الذين هم من أصل عربي سوداني مختلط على الكانم . و تراهم اليوم يسكنون في الجنوب الشرق من بحيرة تشاد ، وقد تمكنوا من بورنو الى الغرب من البحيرة ، وباختلاط هؤلاء مع الايزو والمر ذكروهم تولد الجيل المسمى بالكانوري Kanuri ، ثم عظمت سلطنة بورنو في القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر الى أن سقطت حديثاً^(١) . وقد حقق المؤرخ دسبلاغنس Desplages انه في سنة ١٢٠٠ ، جاء شعب من أصل بربري ، وأجلب بنحيله على غربي السودان ، وكان اسمه السوسو ، وكان شعارهم على أسلحتهم الافى . ويظن انهم أنفَس اِهيكسوس خرجوا من وادي النيل الى شرق السودان فهؤلاء السوسو يحتمل أن يكونوا هم أنفَس الايزو الذين في مدة أربع سنوات قتلوا أربعة من ملوك بورنو . والرحالتان بارت وناختيفال يظنان وقوع هذا الحادث في القرن الرابع عشر . وعلى كل حال فان عددا من القبائل العربية جاءوا من شرق السودان ، وانتجعوا البلاد الواقعة جنوبي بحيرة تشاد ، واستقروا في دارفور ووادى واختلطوا بأهلها ، وهم أصحاب البلاد لهذا العهد . ثم جاء شعب آخر من الغرب من بلاد السنغال ، وهو الشعب الذي يقال له الفولبه واشتهر باسم الفلانه ، فهؤلاء أسسوا بلاد الكامرون ، ويظن بارت أن أصلهم من جنوبي مرا كش ، ويقول دسبلاغنس انهم بدو من القبائل الرحل في الصحراء فنذ عدة قرون جاء هؤلاء من السنغال وأوطنوا بلاد تشارى رعاة لمواشيهم :

وسنة ١٨٠٦ حصل انقلاب في مملكة سو كوتو ، أسسه حركة زعيم ديني اسمه الشيخ عثمان يوديو ، وظهر من الفولبه هؤلاء تعصب شديد في الاسلام ، وتأسست حكومة أمراء ممتدة من النيجر الى البلاد العالية ، الى جنوبي بلاد الاداموا . وصارت سكو توهي العاصمة وصارت تحت حكم سكو توه عدة ممالك ، من جلتها الاداموا التي كانت عاصمتها يولا Jola وكان من توابعها مدينتا تيباتي Tibati وناغاومدره Nagaumdere ، وخضع لمملكة الاسلام جانب من الوثنيين . وجرت حروب كثيرة بين أمة الفولبه ومملكة بورنو ، حضر بعض وقائعها الرحالة الانجليزى دنهام Denham ، وثبت أهالي مدينتي لره Lere ، ولامه Lama ، الوثنيون أمام الفولبه ، ولكن الفولبه استولوا على ناغا ومدره ، وبانقو ، والانحاء

(١) على أيدي المستعمرين الأوربيين

الجنوبية .

ولما سقطت الحكومة المصرية مدة في السودان الشرقي ظهر الأسود المسمى رايح ، وفتح دارفور ، ودار بنسده ، ودار يوتقه ، ومملكة الباقرمي وبورنو وبلاد بحيرة تشاد ، وأسس سلطنة عظيمة . (وسيأتي خبر رايح) .

وجاء في كتاب « المملكة الاستعمارية الألمانية » بمناسبة ذكر الكامرون ، انه يوجد الآن في جنوبي بحيرة تشاد ، مائة ألف عربي يقال لهم شوا Schua ، جاءوا من أوائل أعصر الاسلام وقد حافظوا على لغتهم طاهرة نقية الى يومنا هذا ، حال كون قبائل عربية أخرى ، جاءت الى الاداموا واندمجت في الأهالي ، ففقدت لغتها . على انه مالا ينكر ، ان اللغة العربية تمثل دوراً مهماً في جميع العالم السوداني الاسلامي ، لسكونها لغة مكتوبة ، وهي لغة القرآن .

السودان

تنقل عن المسيوموريس فال Maurice Wahl معلم التاريخ والجغرافية في مدرسة كوندورسه Condoreet ومفتش المعارف في المستعمرات الفرنسية تحت عنوان كلمة « سودان » الفصل الآتي ملخصاً :

« بلاد من افريقية تمتد من الصحراء شمالاً الى خط الاستواء جنوباً ، (البحيرات الكبرى والكونغو) ومن الاوقيانوس الاطلانتيكي غرباً الى الحبشة والبحر الأحمر شرقاً ، وهو السودان المطلق في الغرب والوسط ، والسودان المصري في الشرق . فالسودان المطلق اذا دخل فيه ساحل الاطلانتيك مثل السنغامبيه وغينية العليا ، فمساحته ثلاثة ملايين كيلومتر مربع واكثره يفاع من الأرض قليل الارتفاع من ٥٠٠ الى ٦٠٠ متر ، فيه بعض سلاسل من الجبال مثل سلسلة فوتاجالون في الغرب تعلو من ١٣٠٠ الى ١٥٠٠ متر ، وسلسلة نياوري في الجنوب الغربي علوها ١٨٠٠ متر ، وسلاسل جبال الاداموا وسوكوتو في الوسط وهي تعلو ٢١٠٠ متر ، وجبال دارفور في الشرق ارتفاعها ١٨٣٠ متراً . وتهطل الأمطار في هذه البلاد من حزيران (يونيو) الى اكتوبر ، وهي تنقص كلما أخذت شمالاً ، وهذه الأمطار تملأ الأنهار المسماة بالسنيغال والغامبية والكازامانس وريوغراند ومالا كوري ، في الجانب الغربي ، وكافالي أوباندامه وكوموي وفولتا وويجي ، في الجنوب . وأهم الجميع

النيجر، وهناك الشارى والدومادوغو في نواحي بحيرة تشاد. وأما الساحل الاطلانتيكى فهو شواطئ رملية من الرأس الابيض الى الرأس الاخضر، وجبال منقطعة مشرفة على البحر من الرأس الأخضر الى جزيرة شربر والمراسى الجيدة فيه قليلة، والمناخ وبي. وهواء السودان حار مع يبوسة صوب الشمال، ومع رطوبة نحو الجنوب، والحراج الكبار لا توجد الا في الجنوب الغربى. وأهم المحاصيل الذرة، والارز، والقطن، والتبغ، وهناك من الحيوانات الخيل والبقر والمعزى والغنم والجواميس، ومن المعادن الرصاص والنحاس والذهب والفضة، ويمكن تقسيم السودان الى أربع مناطق، الاولى في الشمال الغربى وهى السنغال والبلاد الواقعة شمالى النيجر، وأرضها ليست خصبة. والثانية، بلاد النيجر وجبال كونغ وفوتالون، وهى ذات أرضين مرورية وهواء مقبول. والثالثة، بلاد الغابات المتاخمة خط الاستواء وسواحل غينية. والرابعة، البلاد التى فى الوسط سوكتو والآداموا وغيرها وهى خصبة معمورة.

أما الاهالى فانهم من ١٥ الى ٢٠ مليوناً، منهم سود يقال لهم الاولوف Oulofs والسيرير Sérères والبامباره Bambara والماندينغ Mandinges والكرو Krou والقاتى Fanti والاشانتى Achantis والداهوى الخ فى الغرب والجنوب. ومنهم الحاوسه والسونغاي والكانورى فى الوسط. ومنهم البهل Peuhls والتوكولور Toucouleurs والبربر والتوارق والعرب فى الوسط والشمال. والاكثرية الساحقة فى هذه البلدان كلها للاسلام، والديانة الاسلامية تكسب دائماً من أمم القتيش. وأكثر السودان أصبح الآن مستعمرات للاوربيين، فالسنغال وغينية الفرنسية والسودان الفرنسى وساحل العاج والداهوى لفرنسا. والغامبية وسيراليون وساحل الذهب ولاغوس وأراضى شركة النيجر لانكلتره. وبين السنغال وغينية الفرنسية غينية البرتغالية للبرتقال. ولامانية بلاد توغو على ساحل غينية. وأما الممالك الاهلية المستقلة بعض الاستقلال، فهى جمهورية ليبريه^(١) على الساحل الجنوبى الغربى، ومملكة كونغ، وأملاك ساموى على النيجر ومملكة سوكتو بين البنيوى والنيجر والآداموا جنوبى النيجر، و بورنو الى الغرب والجنوب من بحيرة تشاد، والكام فى الشمال الشرقى، والبايرى فى الجنوب الشرقى تمتدا الى الشرق

(١) هذه مستقلة تماماً

بواسطة وادى .

وأما السودان الشرقى فهو الواقع شرقى البلاد التى ذكرناها ، يشتمل على جميع وادى النيل من غوندوكور و الى وادى حلفا ماخلا الحبشة ، متوسط ارتفاعه عن سطح البحر ٥٠٠ متر ، والنيل يخترقه من الجنوب الى الشمال ، منضمة اليه من الشمال انهر بحر الغزال ، ومن الجنوب السوبات وانهر الحبشة وبحر الازرق والعطيرة . والأهالى نحو عشرة ملايين نسمة وهم سود فى ناحية الجنوب يقال لهم دينكا وبونغوس ونوير وشيلاق ، وعرب وبهل فى دارفور ، وأما فى بلاد النوبة فأجناس مختلطة ، برايرة وبجة وبيشارى متمزجون بالعرب . ويقال للناحية الجنوبية الشرقية من السودان المصرى بلاد سنار ، وللبلاد التى شمالي النيل الكردوفان وللتى الى الغرب منه دارفور ، وللتى فى الشمال بلاد النوبة » . اهـ

سوكوتو

وقال الجغرافى المذكور عن مملكة سوكوتو :

« مملكة فى السودان بين النيجر الأذى والبنوى ، مستوية فى الشمال ، مزرسة فى الجنوب ، يرويهانهر سوكوتو وكومادوقو الصادران من بحيرة تشاد ، هواؤها ناشف فى الشمال كثير الرطوبة فى الجنوب ، زراعتها الارز والقطن وقصب السكر والتمر ، مساحتها ٤٠٠ ألف كيلومتر ، وعدد الاهالى ١٠ ملايين سود ، من الحاوسه والبهل والتوكولور والسونغاى ، كلهم مسلمون ، الا القليل . أعظم مدنهم كانو واورنو وسوكوتو وكفى ابديسانغه Keffi - Abdes - senga وياقوباوغومبي . وقد كانت تأسست سلطنة سوكوتو على يد عثمان دانغ فوديه سنة ١٨٠٢ ، ومدت رواقها على جميع الاقطار الواقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد ، فانفصلت عنها فيما بعد ممالك بورنو والاداموا وغاندو ونوبى ، ولكنها لاتزال تعترف بسيادة سلطان سوكوتو الدينية » .

بورنو

ثم قال عن مملكة بورنو مايتى :

« مملكة فى السودان الى الجنوب والغرب من بحيرة تشاد ، بين هذه البحيرة

والصحراء وسوكوتو والآداموا والباقيري ، مساحتها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع ، وأهلها خمسة ملايين من جنس الكانوري الذين هم متولدون من اختلاط السود والبربر والعرب . والبلاد خصيبة تجود فيها زراعة القطن ، وفيها الغنم والبقر والخيول والنحل بكثرة ، وأهلها ينسجون الثياب والسجادات ، وعاصمتها كوكا .

الباقيري

وقال عن مملكة الباقيري ما يأتي :

« مملكة من السودان الأوسط الى الجنوب الشرقي من بحيرة تشاد ، يسبقها نهر شاري ، واقعة اليوم ضمن منطقة النفوذ الفرنسي ، وأهلها مليون نسمة ، وعاصمتها ماسينيه Massenya ، ويقم السلطان ببلدة بوقومان على الضفة اليسرى من الشاري . »

السنغال

وذكر عن بلاد السنغال : « انها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع ، وان أهلها مليون وثلاثمائة ألف ، من الأولوف والسيرير والبابماره والمالينكه الخ . وقال ان الفرنسيين دخلوا الى السنغال في القرن السادس عشر ، ولكنهم لبثوا أحقاباً لا يملكون غير سان لويس وآرغين وغوري ، ثم أخذوا يوسعون فتوحاتهم شيئاً فشيئاً ، ولم تصر السنغال مستعمرة حقيقية الا سنة ١٨٧٨ ومن السنغال تبسط الفرنسيين في أواسط افريقية . »

واداي

وقال عند ذكر واداي :

« بلاد في السودان الأوسط بين دافور من الشرق ، والبرقوات من الشمال ، والكانم والباقيري من الغرب ، والكونغو الفرنسيين من الجنوب ، مساحتها ٤٥٠ ألف كيلو متر مربع ، وأهلها مليونان ونصف مليون سودانيون مختلطون بعرب ، كلهم مسلمون والطريقة السنوسية سائدة هناك ، وأرض واداي خصبة في الوسط والجانب الشرقي منها . »

كانم

وذكر عن كانم « أنها الى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد ، وان أهلها عرب وتيبو ،

وعدددهم مائة ألف وهى اليوم تابعة واداي » . اهـ .

وللفاضل الأديب الشيخ محمد بن عمر التونسي ، رحلة الى دارفور وواداي مترجة الى اللغة الفرنسية بقلم الدكتور برون Perron مدير المدرسة الطبية في مصر أيام محمد على وأحد أعضاء الجمعية الآسيوية ، وقد تضمنت هذه الرحلة فوائد عظيمة عن تاريخ دارفور وواداي والباقيرى وما جاورها ، وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية وحروبها الداخلية ، نأثر منها نبذة عما يتعلق بسكان واداي ، الذين بينهم قبائل كثيرة من العرب ، وقد اضطررنا لنقل ذلك من الترجمة الفرنسية لعدم وصول يدنا الى الأصل العربى ، قال فى الصفحة ٢٤٥ :

« ان سكان دارصليح (اسم وادى) هم المصاليث والميمة والداجو والكاشميرة والقرعان والكوكا والجنادرة والبيرقيد . وكل من هذه الشعوب يسكن فى ناحية ، فالمصاليث يسكنون فى دار الصباح أى بلاد الشرق وهم انساب لمصاليث دارفور ، وعدددهم كثير سواء فى دارفور أو فى واداي ، وهم مرايبع القامات شديدو السمرة ، وأكثر بلادهم سهول . وأما أهل واداي الأصليون فيسكنون فى وسط البلاد ، ومنهم ينتخب وزراء السلطان وأجناده ، وبلادهم جبلية وأعظمها جبل أبوسنون ، وهم يزعمون أنهم أصل أهل واداي وان سائر أقوام واداي متشعبة منهم ، وهم طوال القامات أشداء كالعالمقة . وأما الكشامرة ، فيسكنون على مسافة أربعة أيام من « واره » عاصمة واداي ، فى واد لطيف تجرى فيه المياه وتسمى أراضيهم ، وهم كثيرو العدد ، وقراهم معمورة جداً ، واذا قرع طبل الحرب خرج من أصغر قراهم ٥٠٠ رجل شاكى السلاح ، وهم اذا اجتمعوا يشكلون وحدهم جيشاً عظيماً مع أنهم أطوع من غيرهم للسلطان ، وعندهم وداعة بدون ضعة ، ولونهم بين الأبيض والاسود ، ولغتهم تختلف عن سائر لغات أهل واداي . وأما الكوكا فانهم كثيرو العدد ، ونساؤهم موصوفة بالجمال يضاھين أجل النساء الحبشيات ، وهم طوال رشيقيو القدود أقوياء ، مفتولو السواعد ، وقراهم معمورة وأراضيهم مروية ، والسلطين تنزوج منهم لجمال نساؤهم .

«وأما القرعان فانهم فى شمالى واداي، ونساؤهم أيضاً موصوفات بالجمال، وعندهم كثير

من المواشي^(١).

«وأما الجادو فأنهم في جنوبي دار صليح جيران للكوكا، ولكنهم غلاظ الطباع قريبون للتوحش . ويجاورهم الميمة وهؤلاء في الجنوب . والجنا كرة هم عبيد السلطان ، وعددهم وافر ، ومساكنهم الى الجنوب الشرقي من وادى . والبيرقيد هم شرار أهل وادى ليس عندهم عهد ولا صدق ، يقطعون الطرق وينهبون السابلة ، قصر القامات ، وهم سقاط في نظر أهل وادى . وحول وادى تسكن قبائل عربية صريحة ، فمن الشرق ، الزبيدية ، وعرب البحر والعريقات ، ثلاث قبائل غنية قوية . وقد حقق لى الفقيه موسى زعيم الزبيدية أخو بدر الدين الامام الذى يصلى بالسلطان صابون صاحب وادى أن الزبيدية هم من زييد في اليمن ، أصلهم من حير . أما العريقات فقال لى الفقيه محمد أحدهم وهو ترجان السلطان ان أصلهم من العراق ، من سلالة لخم وجذام ، وأما عرب البحر فأنهم كثير ، العدد ، ينقسمون الى عدة بطون ويلى أمرهم زعيم واحد . والى الشمال من وادى الحاميد ، وهم بطون وأخاذ عديدة ، وعندهم أموال لا تحصى من الابل والخيول وغيرها ، وفي الجنوب يوجد عرب المسيرة والفلان وهم كثيرين جداً . انتهى بتصرف .

وجاء ذكر العرب في محل آخر من هذه الرحلة فيقول في صفحة ٢١ : « ان قبائل الكوكا والكودكو والبيقو والداجو والماوييه والبيرقيد والحيمات والبنداله والفيرتى في الجنوب والغرب والبرقى والميمة والغيمير والمسمجة والمدافو والبلاله والهليلات في الشمال ، والمصاليث في الشمال ، وغيرهم ، كل قبيلة منها لها ملك والقبائل العربية التى كلها تسكن أرض وادى أو بعضها مثل السلامة والجعاتنة وبنى راشد ، عليهم أيضا مشايخ ، وكلهم تحت نظر ولاة السلطان ، كل زعيم أو ملك تابع لوكيل السلطان الذى يليه » . هـ .

وكنتم سمعت أن سلاطين وادى ينتسبون الى بنى العباس ، وأخبرنى سيدى أحمد الشريف السنوسى أن هذا هو المشهور عند أهل السودان ، وأن أهل وادى لا يدعون على منابرهم الا لسلطانهم ولا يعرفون خليفة ولا اماماً غيره . فلما كنت أطلع رحلة الشيخ محمد بن عمر التونسى وجدته يشير الى انساب سلاطين دارفور وكردوفان ووادى ، فقال ما يأتى ملخصاً :

(١) ذكر لى الاستاذ السنوسى الكبير سيدى أحمد الشريف أن بلاد القرعان هؤلاء تمتد الى أطراف الصحراء والى الواح التى هى بلاد السنوسية جنوبي الكفرة .

« عند ما جئت الى واداي وكنت أصلي الجمعة كنت أسمع الخطيب يدعو دائماً بنصر السلطان محمد عبد الكريم ابن السلطان محمد صالح بن السلطان محمد جوده ابن السلطان صليح ، فخطر لي أن أسأل شيوخ البلاد عن نسب السلطان صليح ومحمد ، فكانت الأجوبة مختلفة ، فبعضهم قال لي انه سناوى أى من أهل واداي الأصليين سكان جبل أبوسنون . ثم لحظت ان ختم السلطان مكتوبة عليه هذه الكلمات « السلطان محمد عبد الكريم ابن السلطان صالح العباسى » فسألت عن كيفية اتصال نسبه بيني العباس ، فبعضهم ذهب الى أنها نسبة غير حقيقية ، وآخرون وثقوا هذه النسبة ، فسألت العقيد أحمد من أكابر رجال الدولة وكان متوقفاً للذهن واسع المعرفة ، فقال انه عند استيلاء التتار على بغداد انهزم العباسيون الى مصر ، ولما غلبت دولة المماليك على مصر تفرقوا أيضاً في الأطراف ، فذهب منهم واحد الى الحجاز وولد له ولد سماه صالحاً ، فلما كبر صالح صافى في مكة حجاجاً من سنار ، وكان فقيهاً عالماً حكيماً ورعاً ، مواظباً على الفروض الدينية ، يحبه العلماء والصلحاء ، فأحبه السناريون ورغبوه في زيارة بلدهم ، فجاؤا الى سنار ، فرأى فيها من الفسق والفجور ما اشمأزت منه نفسه فلم يطل المقام عندهم ، وما زال يضرب في البلاد حتى وصل الى جبل أبوسنون في واداي . وكان أهل هذا الجبل وثنيين ، فأسلموا على يده لما رأوا من دينه وصلاحه وارشاده ، وأقاموه رئيساً عليهم وكانوا في كثرة عظيمة ففرض الزكاة على الأغنياء لاعانة الفقراء . ثم دعا الى الجهاد في المشركين ، فأطاعه الذين شرح الله صدورهم للإسلام وغزوا الكفار . الا أن صالحاً قدم بين يدي السيف الدعوة باللطف ، فأجابه الى الاسلام أربع قبائل كبيرة ، قبيلة أبوسنون ثم الملائقة والماداب والماداله ، وهم أصل مملكة واداي . ولا يمكن أن يكون سلطان الا اذا كانت أمه من إحدى هذه القبائل . ثم يليهم قبيلة أبو داراغ ، ولا تساوى أولئك في الشرف لأن اسلامها وقع متؤخراً . ثم شرع صالح في الجهاد وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فلما اتسع نطاق الاسلام في تلك البلاد ، بويع صالح سلطاناً وصار الملك في أعقابها

قال : « وسمعت من جهة أخرى من الشريف سميح ، ان ملوك واداي ودارفور وكردوفان ، كانوا ثلاثة اخوة من فزارة . وذكر تفاصيل هذه الرواية ولدنه قال ، انه لا يوجد دليل من خطأ أو من تاريخ مكتوب على شيء من هذه الروايات ، وكلها

مسموعات وأخبار شفوية غير موثوقة ، ولكن قال ان الذي اشتهر من سجايا السلطان صليح أشبه بمناب الرشيد والمأمون ، في العقل والحزم والكرم وشدة البأس . وعلى كل حال فسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح ، فان عهد تأسيس هذه الممالك الثلاث ، واداي ودارفور وكردوفان ليس بقديم ، ولا يزيد على مائتي سنة » انتهى

أقول ان صح كون أهل واداي لم يدينوا بالاسلام الا منذ مائتي سنة كما يذهب اليه الفاضل الشريف الشيخ محمد بن عمر التونسي ، فن المقرر ان الاسلام دخل السودان قبل ذلك بكثير . فهذا صاحب صبح الأعشى الذي عاش قبل هذا العهد بنحو خمسمائة سنة ، يقول عن أهل برنو انهم مسلمون ، ويذكر أنه وصل كتاب من ملك البرنو في أواخر الدولة الظاهرية (برقوق) يذكر فيه انه من ذرية سيف بن ذى يزن ، الا انه لم يحقق النسب ، فذكر انه من قريش وهو غلط منهم فان سيف بن ذى يزن من أعقاب تبابعة اليمن من حير . قال : وقاعدتهم مدينة « كا كا » بكافين بعد كل منهما ألف ، فيما ذكر لي رسول سلطانهم ، الواصل الى الديار المصرية صحبة الحجيج في الدولة الظاهرية برقوق .

واليك ما قال عن الكانم: « والكانم بكاف بعدها ألف ثم نون مكسورة ، وميم في الآخر وهم مسلمون أيضاً ، والغالب على ألوانهم السواد . قال في « مسالك الأبصار » : وبلادهم بين افريقية وبرقة ، ممتدة في الجنوب الى سمت الغرب الأوسط . ثم نقل عن « مسالك الأبصار » ان أحوال كانم وأحوال أهلها حسنة وربما كان فيهم من أخذ في التعليم ، ثم قال نقلا عن « مسالك الأبصار » وسلطان هذه البلاد رجل مسلم قال في « تقويم البلدان » وهو من ولد سيف بن ذى يزن . وقال في « مسالك الأبصار » وأول من بث فيهم الاسلام ، الهادي العثماني ، ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضى الله عنه وملكها ثم صارت بعده لليزيين . وذكر في « التعريف » ان سلطان الكانم من بيت قديم في الاسلام ، وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن . قال في « مسالك الأبصار » : وملكهم على حقارة سلطانه وسوء بقعة مكانه ، في غاية لا تدرك من الكبرياء يمسح برأسه عنان السماء مع ضعف أجناد وقلة متحصل بلاد ، لا يراه أحد الا في العيدين بكرة وعند العصر ، أما في سائر أيام السنة ، فلا يكلمه أحد ولو كان أميراً ، الا من وراء حجاب . قال : والعدل قائم في بلادهم ، ويتمنهبون بمنه الامام مالك رضى الله عنه ، وهم ذوو اختصار في اللباس

يأسون في الدين ، وعسكرهم يتلثمون ، وقد بنوا مدرسة للمالكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم » . اهـ . قلت من كان العدل به قائماً فلا يعد ملكه حقيراً .

مملكة مالي

ثم ذكر في صبح الأعشى مملكة مالي في السودان قال : « ومالي بفتح الميم وألف بعدها لام مشددة مفخمة وياء مثناة تحت في الآخر وهي المعروفة عند العامة ببلاد التكرور ، قال في « مسالك الأبصار » وهذه المملكة في جنوبي المغرب متصلة بالبحر المحيط . قال في « التعريف » وحدها في الغرب البحر المحيط ^(١) وفي الشرق بلاد البرنو ، وفي الشمال جبل البربر ، وفي الجنوب الهمج » ونقل عن الشيخ سعيد الدكالي : « انها تقع في جنوب مرا كش ودواخل بر العدو ، جنوبا بغرب الى البحر المحيط . قال : وهذه المملكة هي أعظم ممالك السودان المسلمين » : وذكر صاحب « العبر » أنها تشتمل على خمسة أقاليم كل اقليم منها مملكة بذاتها . الاقليم الأول اقليم مالي ، واقع بين اقليم صوصو واقليم كوكو . صوصو من غريبه وكوكو من شرقيه . ثم ذكر اقليم صوصو ^(٢) ثم ذكر اقليم غانة ^(٣) فقال : « بفتح الغين المعجمة ثم نون مفتوحة وهاء في الآخر وهي غربي اقليم صوصو المقدم ذكره ، تجاور البحر المحيط الغربي » . قال : وقد حكى ابن سعيد : « ان لغانة نيلا شقيق نيل مصر (هو النيجر) ، يصب في البحر المحيط الغربي عند طول عشر درج ونصف وعرض أربع عشرة . واليها تسير التجار المغاربة من سجلماسة في بر مقفر ومفاوز عظيمة في جنوب الغرب نحو خمسين يوما ، فيكون بين غانة وبين مصبه نحو أربع درج ، وهي مبنية على ضفتي نيلها هذا . قال في العبر : « وكان أهلها قد أسلموا في أول الفتح الاسلامي . وقد ذكر في « تقويم البلدان » أنها مدينتان على ضفتي نيلها احدهما ، يسكنها المسلمون والثانية يسكنها الكفار » .

(١) أي الاقياوس الاطلاتيكي ، والظاهر أن بلاد مالي هي السنغال ومضافاتها ، فقد مر بك أن

الأوربيين يذكرون من أعظم شعوب السنغال المالينكة ، وبينها وبين كلمة مالي من المشابهة مالا يخفى

(٢) تقدم ذكر أمة السوسو تقلا عن بعض مؤرخي الافرنجة وذهاب بعضهم الى انهم من الهكسوس ،

وقال ربما أبلوا الصاد سينا مهملة

(٣) هي التي تقول لها الافرنجة غينية

ثم ذكر اقليم كوكو وقال ان ملكها قائم بنفسه ، له حشم وأجناد وقواد وزى كامل ، قال : وقاعدته مدينة كوكو بفتح الكاف وسكون الواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو بعدها ، وموقعها في الجنوب عن الاقليم الأول ، قال ابن سعيد حيث الطول أر بعوار بعون درجة والعرض عشر درج قال : وهى مقر صاحب تلك البلاد . قال : وهو كافر يقاتل من غريبه من مسلمي غانة ومن شرقية من مسلمي الكانم . وذكر المهلبى في العزيزى أنهم مسلمون و بينها وبين مدينة غانة مسيرة شهر ونصف .

وذكر بلاد التكرور وهى الاقليم الخامس . قال فى « الروض المعطار » وهى مدينة على النيل على القرب من ضفاه . قال : « و بينها وبين سجلماسة من بلاد المغرب أر بعون يوما بسير القوافل . وأقرب البلاد اليها من بلاد لمتونة بالصحراء (آسفى) بينهما خمس وعشرون مرحلة » . قال فى « مسالك الأبصار » ان هذه المملكة تشتمل على أربعة عشر اقليما وهى : غانة وزافون وترنكا وتكرور وسنغانه وبانغو وزرنطابنا وبيترا ودمورا وزاغا وكابرا وبراغودى وكوكو ومالى . قال : وفى شمالى بلاد مالى ، قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها وهم ينتصر وتيفراس ومدوسة وملتونة . وبعد شروح طويلة ذكر مقاله صاحب « العبر » وهو : ان هذه الممالك كانت بيد ملوك متفرقة ، وكان من أعظمها مملكة غانة ، فلما أسلم المثلثون من البربر تسلطوا عليهم بالغزو ، حتى دان كثير منهم بالاسلام ، وأعطى الجزية آخرون . وضعف بذلك ملك غانة واضمحل ، فتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم وملكوا غانة من أيدي أهلها . وكان ملوك مالى قد دخلوا فى الاسلام من زمن قديم . قال : ويقال ان أول من أسلم منهم ملك اسمه « برمندانه » ثم حج بعد اسلامه ، فاقتفى سننه فى الحج ملوكهم من بعده . ثم جاء منهم ملك اسمه « مارى جازه » ومعنى مارى الأمير الذى يكون من نسل السلطان ، ومعنى جازه الأسد ، فقوى ملكه وغلب على صوصو وانتزع ما كان بأيديهم من ملكهم القديم ، وملك غانة الذى يليه الى البحر المحيط ، ثم ملك بعده ابنه « منساولى » ومعنى منسا بلغتهم السلطان ، ومعنى ولى على . وكان من أعظم ملوكهم . وحج أيام الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر . ثم ملك بعده أخوه « والى » ثم ملك بعده أخوه « خليفة » وكان أحق ، فوثب عليه أهل مملكته وقتلوه . ثم ولى عليهم سبط من أسباط مارى جازه المقدم ذكره ، اسمه أبو بكر . ثم تغلب على الملك

مولى من مواليم اسمه « ساكبوره » ويقال « سيكره » فانسع نطاق مملكته وغلب على البلاد المجاورة له ، وفتح بلاد كوكو واستضافها الى مملكته ، واتصل ملكه من البحر المحيط الغربى الى بلاد التسكرور ، وحج أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون ورجع فقتل فى أثر عوده .

وملك بعده « قو » ابن السلطان مارى جازه : ثم ملك بعده محمد بن قو . ثم انتقل الملك من ولد مارى جازه الى ولد أخيه أبى بكر ، فولى منهم « منسى موسى » بن أبى بكر قال فى « العبر » وكان رجلا صالحا وملكاً عظيماً ، له أخبار فى العدل تؤثر عنه وعظمت المملكة فى أيامه الى الغاية ، وافتتح الكثير من البلاد . قال فى « مسالك الأبصار » حكى ابن أمير حاجب والى مصر عنه ، انه فتح بسيفه أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع . قال فى « مسالك الأبصار » قال ابن أمير حاجب : سألته عن سبب انتقال الملك اليه فقال : « ان الذى كان قبلى كان يظن ان البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مئين سفن وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفذ أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ثم عادت منهم سفينة واحدة ، وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم . فقال : سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة وادله جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتى ، فلم يصدق ، فجهز البنى سفينة ألفاً للرجال وألفاً للأزواد ، واستخلفنى وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك . فكان آخر العهد به وبمن معه » .

قلت : ان صححت هذه الرواية ولا يوجد دليل على كذبها ، فيكون المسامون قد حاولوا اكتشاف القارة الجديدة مرتين ، أولاهما ، عند ما أبحر الاخوة المغرورون من اشبونة عاصمة البرتغال موعلين فى بحر الاطلانتيك ، والثانية ، على يد هذا الملك الذى حاول هذا الأمر مرتين وذهب فى سبيله شهيداً .

قال فى « العبر » وكان حج الملك منسى موسى سنة أربع وعشرين وسبعمائة فى الأيام الناصرية (محمد بن قلاون)

قال فى « مسالك الأبصار » قال لى المهندار خرجت للالتقاء من جهة السلطان ،

فأكرمني اكراماً عظيماً وعاملني بأجل الآداب ، ولكنه كان لا يحذثني الا بترجان ، مع اجادته اللسان العربي . قال : ولما قدم ، قدم للخزانه السلطانية حلامن التبر ، ولم يترك أميراً ولا رب وظيفة سلطانية الا وبعث اليه بالذهب ، وكنت أحاوله في طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حسب الأوامر السلطانية . فبأبي خشية تقبيل الأرض للسلطان ويقول : « جئت للحج لا لغيره » . ولم أزل به حتى وأفق على ذلك . فلما صار الى الحضرة السلطانية قيل له : قبل الأرض ، فتوقف وأبى اباء ظاهراً . وقال : « كيف يجوز هذا ؟ » فأسر اليه رجل كان الى جانبه كلاماً . فقال : « أنا أسجد لله الذي خلقني وفطرني ثم سجد » وتقدم الى السلطان . فقام له بعض القيام وأجلسه الى جانبه وتحدثنا طويلاً . ثم قام السلطان موسى فبعث اليه السلطان بالخلع الكاملة له ولائحجابه (وأفاض في وصف الخلع) ولما آن أوان الحج بعث اليه بمبلغ كبير من الدراهم ، وهجن جليلة كاملة الاكوار والعدة لمركبه ، وهجن اتباع لائحجابه وأزواد جته ، وركزله العليق في الطرق ، وأمر أمير الركب باكرامه واحترامه . ولما عاد بعث الى السلطان من هدية الحجاز تبركا ، فبعث اليه بالخلع الكاملة له ولائحجابه . وذكر عن ابن أمير حاجب والى مصر انه كان معه مائة رجل ذهابا أنفقها في سفرته تلك على من بطريقه الى مصر من القبائل ، ثم بمصر ، ثم من مصر الى الحجاز توجهها وعوداً حتى احتاج الى القرض ، فاستدان على ذمته من تجار مصر بما لهم عليه فيه المكاسب الكثيرة ، بحيث يحصل لأحدهم في كل ثلاثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً ، وبعث اليهم بذلك بعد توجهه الى بلاده . قال في « العبر » ودام ملكه خساً وعشرين سنة ومات فلك بعده ابنه « منسامغا » ومعنى مغا عندهم محمد يعنون السلطان محمداً ، ومات لاربع سنين من ولايته . وملك بعده أخوه « منسا سليمان بن أبي بكر » . قال في « مسالك الابصار » واجتمع له ما كان أخوه افتتحه من بلاد السودان وأضافه الى يد الاسلام ، وبنى به المساجد والجوامع والمنارات ، وأقام به الجمع والجماعات والأذان ، وجلب الى بلاده الفقهاء من مذهب الامام مالك رضى الله عنه ، وتفقه في الدين . قال في « العبر » ودام ملكه أربعمائة وعشرين سنة ، ثم مات وولى بعده ابنه « قنبتا بن سليمان » ومات لتسعة أشهر من ملكه . وملك بعده « ماري جازه » بن منسامغا بن منسى موسى ، فأقام أربعمائة سنة أساء فيها السيرة ، وأفسد ملكهم ، وأتلف ذنأثرهم بسرفه وتبذيره ، حتى

انتهى به الحال في السرف ، أنه كان بخزائنه حجر ذهب زنته عشرون قنطاراً منقولاً من المعدن من غير سبك ولا علاج بالنار وكانوا يرونه من أنفاس ذخائرهم لندوز وجود مثله في المعدن ، فباعه على تجار مصر المترددين اليه بأبخس ثمن وصرف ذلك كله في الفسوق ، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم وهو مرض كثيراً ما يصيب أهل تلك البلاد ، لا سيما الرؤساء منهم ، يأخذ أحدهم النوم حتى لا يكاد يفيق ، فأقام به سنتين حتى مات سنة خمس وسبعين وسبعائة .

وملك بعده ابنه موسى ، فنسب عن طريق أبيه وأقبل على العدل وحسن السيرة . وتغلب على دولته وزيره « ماري جازه » فحجره وقام بتدبير الدولة ، وكان له فيها أحسن تدبير . وبقى « منسا موسى » حتى مات سنة تسع وثمانين وسبعائة . ومالك بعده أخوه « منسا مغا » وقتل بعده بسنة أو نحوها . ومالك بعده « صندكي » زوج أم موسى المقدم ذكره ومعنى صندكي الوزير ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت ماري جازه . ثم خرج من ورائهم من بلاد الكفرة رجل اسمه محمود ، ينسب الى « منسا قوب بن منسا ولي بن ماري جازه » ولقبه منسا مغا ، وغلب على الملك في سنة ثلاث وتسعين وسبعائة قال في « التعريف » وصاحب التكرور هذا يدعى نسباً الى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجوههم . قلت : هو صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون ابن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد ذكر في تقويم البلدان « أن سلطان غانة ، يدعى النسب الى الحسن بن علي عليهما السلام ، فيحتمل أنه أراد صاحب هذه المملكة ، لأن من جلة من في طاعته ، غانة . » انتهى ببعض تصرف .

فأنت ترى ما للاسلام في تلك الديار من القدم ورسوخ القدم . وجاء في « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » تحت عنوان « تلخيص القول في السودان المغرب والاشارة الى ممالكهم ودولهم من لدن الفتح الاسلامي الى هذا التاريخ » ما يأتي :

« اعلم أن هؤلاء السودان هم من نسل حام بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين والمؤرخين ، ويجاور البربر بأرض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها أهل مملكة غانة ، وهم المتصلون بالبحر المحيط من جهة الغرب على مصب النيل السوداني فيه . وتتصل بهم من

جهة الشرق أمة أخرى تعرف بصوصو (بصادين أو سينين مهملتين مضمومتين) ثم بعدها أمة أخرى يقال لها مالى ، ثم بعدها أمة أخرى تسمى كوكو ويقال كاغو ، ثم بعدها أمة أخرى تعرف بتكرور ويقال لها أيضاً سغاي (١) ثم بعدها أمة أخرى تدعى كأم ، وهو أهل مملكة برنو المجاورة لافريقية من جهة قبلتها ، ثم بعدها أرض النوبة المجاورة لبلاد مصر ، فأما أهل غانة فقد كانوا في صدر الإسلام من أعظم أمم السودان ، أسلموا قديماً وكان لهم ملك ضخم ، وكانت حاضرة ملكهم هي غانة ، وهي مدينتان على ضفتي النيل السوداني من أعظم مدن العالم وأكثرها عمراناً ، ذكرها صاحب نزهة المشتاق (الشريف الادريسي) وصاحب المسالك والممالك وغيرها . وقال الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي في شرح المقامات الحريرية ما نصه : غانة بلد من بلاد السودان واليهما ينتهي التجار (يعنى من المغرب) والمدخل اليها من سجلماسة ومن سجلماسة اليها ذهاباً مسيرة ثلاثة أشهر ، ومن غانة الى سجلماسة اياً مسيرة شهر ونصف ، وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز اليها من سجلماسة بالأمته والأتقال فتباع في غانة بالنسب ، فن سافر اليها بثلاثين جلا يرجع منها بثلاثة أجمال أو بحملين ، واحد لركوبه ، وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها الخ . الى أن قال : والاماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن فوق المراد ، من ملامسة الأبدان وتفثق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف وبياض الأسنان وطيب الروائح . اه . وقال ابن خلدون كان في غانة فيما يقال ملك ودولة لغوم من العلويين ، يعرفون ببني صالح . قال صاحب الاستقصا الشيخ أحمد الناصري السلوى : ثم ان أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم في المائة الخامسة ، واستفحل أمر الملتهمين المجاورين لهم من جهة الشمال مما يلي البربر ، وزحف اليهم الأمير أبو بكر بن عمر المتوفى فاتح المغرب ومستخلف يوسف بن تاشفين عليه ، فلما رجع الأمير أبو بكر الى الصحراء غزا بلاد السودان وفتح منها مسيرة ثلاثة أشهر ، واقتضى منهم الأتاوات ، وحل الكثير منهم ممن لم يكن أسلم قبل ذلك على الاسلام ، فدانوا به . ثم اضمل ملك أهل غانة بالسكينة ، وتغلب عليهم أهل مملكة صوصو المجاورين لهم ثم ان أهل مالى كثروا أمم السودان في نواحيهم تلك واستطالوا على الأمم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو ، وملكوا

(١) مر بك ذكر السونفاى في ما قلناه عن كتب الأوربيين

ما كان بايديهم وبايدى أهل غانة ، ثم افتتحوا بلاد كوكو وأضافوها الى ملكهم وصارت دولة مالى متصلة فيما بين غانة فى الغرب وأرض التكرور فى الشرق ، واعتز سلطانهم وهابيتهم أمم السودان ، ومن هذه الدولة كان السلطان منسا موسى بن أبى بكر وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما وبين السلطان أبى الحسن المرينى (صاحب المغرب) من المهاداة والمواصلة ما تقدم ذكره (١) ، وكان مع السلطان منسا موسى المذكور ، الأديب الشاعر أبو اسحاق الطويجى الأندلسى الذى بنى له القبة المربعة ، العجيبة الصنعة ، البديعة النقش والتخريم ، التى أجازة عليها بائى عشر ألف مثقال من التبر ، وغير ذلك مما مر فى أخبار الدولة المرينية . وكان منها أيضا السلطان مارى زاطه (٢) ، الذى هادى السلطان أباسالم المرينى وأغرب عليه بالزرافة حسبما تقدم ، قالوا وكان هذا السلطان مسرفا مبسرا بحيث أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم (٣) ، ثم مات بمرض النوم . ثم توارث بنوه الملك من بعده ، فكانوا فى تراجع وانتقاص الى أن انقرض أمرهم شان غيرهم من الدول ، وظهرت دول آل سكية من أهل مملكة كوكو ، ويقال كاغو . قال الامام التكرورى فى كتابه « نصيحة أهل السودان » : ان آل سكية أصلهم من صنهاجة وملكوا كثيرا من بلاد السودان ، وأول ملوكهم الحاج محمد سكية (بضم السين وسكون الكاف بعدها ياء مفتوحة ثم هاء تأنيث) وكان الحاج محمد المذكور رحل فى أواخر المائة التاسعة الى مصر والحجاز ، بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه ﷺ ، فلقى بمصر الخليفة العباسى ، اذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائما بها يومئذ ، حتى محاه السلطان سليم العثمانى أيام تغلبه على مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، فلما اجتمع الحاج محمد سكية بالخليفة المذكور طلب منه أن يأذن له فى امارة بلاد السودان ، وان يكون خليفته هناك ففوض اليه الخليفة العباسى النظر فى أمر ذلك الاقليم وجعله نائبه على من وراءه من المسلمين ، فرجع الحاج محمد سكية الى بلاده وقد بنى أمر رياسته على قواعد الشريعة ، وجرى على منهاج أهل السنة ، ولقى بمصر أيضا الامام شيخ الاسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطى فاخذ عنه عقائده ، وتعلم

(١) ومنسى موسى هو الذى حج ومر بمصر فى أيام الناصر ابن تولاوون حسبما تقدم

(٢) وفى صبح الأعشى يقول مارى جاظه

(٣) ونقل الحكايات التى نقلناها عن صبح الأعشى

منه الحلال والحرام ، وسمع عليه جلا من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه . فرجع الى السودان ونصر السنة ، وأحيى طريق العدل ، وجرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه وسائر اموره ، ومال الى السيرة العربية وعدل عن سيرة العجم ، فصلحت الأحوال ، وكان الحاج محمد المذكور سهل الحجاب ، رقيق القلب ، خافض الجناح ، شديد التعظيم لأئمة الدين ، محبا للعلماء مكرما لهم ، ولم يكن في أيامه كلها بؤس ولا بأس ، بل كانت رعيته في خفض عيش وأمن سرب ، وفرض عليهم شيئا خفيفاً من المغارم وظفه عليهم ، وزعم انه ما فعل ذلك حتى استشار الامام السيوطي شيخه ، ولم يزل على سيرته المذكورة الى أن اخترتمه المنية . فقام بالامر بعده ولده داود بن محمد ، فأحسن ما شاء وتبع سيرة أبيه الى أن لحق بر به . فقام بالامر بعده ولده اسحاق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه واستمر حاله الى أن غزته جيوش المنصور ^(١) ، فنقضت ملكه ونثرت سلسكه ، وانقرض آل سكية بعد أن كان تحت طاعتهم مسيرة ستة أشهر من بلاد السودان . وأما مملكة تكروور وكانم فقال ابن خلكان ، ان كانم (بكسر النون) جنس من السودان وهم بنو عم تكروور ، وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب الى أب ولا أم ، وانما كانم اسم بلدة بناوحي غانة ، وتكروور اسم للارض التي هم فيها . قال في الاستقصا انه كان لاهل كانم مع الدولة الحفصية (بتونس) في المائة السابعة وما بعدها ، مهادة ومواصلة كما كان لاهل مالي مع بني مرين . ونقل عن الشيخ أجد بابا السوداني من تقييده المسمى بمعراج الصعود ، أن أهل السودان اساموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم ، كاهل كانوا وكنتي وبرنو وسنغاي ، ماسمعنا قط ان أحداً استولى عليهم قبل اسلامهم ومنهم من هم قديما الاسلام كاهل مالي أساموا في القرن الخامس أو قربه ، وكاهل برنو وسنغاي . اه . قال وقد علمت ان أهل غانة تقدم اسلامهم على هذا التاريخ

وقال المسيو اندرى آرسين André Arcin مدير القلم المخصوص بوالى غينية في كتابه المسمى غينية الفرنسية La Guinée Française المطبوع سنة ١٩٠٧ ، ان اجد بابا المذكور ، يزعم انه سنة ٦٠ للهجرة ، كان في مدينة غانة العظيمة لا أقل من ١٢ جامعا ولكن في هذا القول مبالغة عظيمة ، والارجح أن مملكة السونغاي لم تدخل في الاسلام

الافى القرن الحادى عشر (١) .

اما ياقوت الجوى فيقول فى معجم البلدان عن أهل كانم انهم سودان مشركون ، وقد كان ياقوت فى أواخر القرن السادس الى أوائل السابع فيظهر أن اسلام أهل كانم أحدث عهداً من اسلام أهل مالى وغانه ، أو ان خبر اسلامهم لم يبلغ ياقوت فى وقته . وذكروا ياقوت شاعراً بمراكش اسمه الكانمى ، كما أن صاحب الاستقصا ذكر شاعراً هو أبو اسحاق ابراهيم بن يعقوب الكانمى الذى أنشد المنصور الموحدى قوله : —

أزال حجابہ عنى وعينى تراه من المہابة فى حجاب
وقربى تفضله ولكن بعدت مہابة عند اقترابى

قلت أظن الشاعر الكانمى الذى ذكره ياقوت هو هذا الذى ذكره صاحب الاستقصا لأن عهد ياقوت هو عهد الموحدين ، وأما هذا المعنى الذى نظمه فقد أخطر ببالي من شعر الحدائث قصيدة نظمها وأنا ابن ست عشرة سنة ومنها :

لقد أناك بالقدر التدانى وقد أدناك بالحب التناى
توقد شدة وتدوب لطفاً كطبع السيف من ناروماء

وذكر صاحب الاستقصا من علماء برنو ، الشيخ العارف بالله أبا محمد عبد الله البرنوى شيخ الولى الكبير أبى فارس عبد العزيز الديباغ قال ، وكان فيهم العلماء والصلحاء والادباء والشعراء .

وذكر صاحب الاستقصا دخول ملك برنو فى طاعة السلطان المنصور السعدى صاحب المغرب فى خبر طويل نقلا عن « مناهل الصفا » خلاصته أنه فى سنة تسعين وتسعمائة ، ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدم رسول ملك برنو ، ومعه هدايا مما جرت عادتهم بأن يجلبوه من قتيان العبيد والاماء وكسى السودان وطرفه . وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئين . فوافى المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس ، وكان يوم ملاقاته يوماً مشهوداً حسناً وأبهة وجلالة ، جلس بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقبابه واستوقف الموالى والمماليك سباطين من التوأمتين الى القبة العربية ، ثم منها الى فسطاط الجالوس المعلوم بالديوان ، ثم منه الى باب المعسكر القبلى وأتى بالرسول يخترق السباطين حتى نزل

بالديوان ، وكان الملا من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوساً ، وكرسى المملكة وسرير الخلافة منصوباً به ، والمهابة قد اخرجت الألسن وأخشعت القلوب والأبصار ، فجلس الرسول هنالك ملياً ، ثم توجه به على سبيل الترقى الى القبة العربية فجلس بها ، ثم جاء الاذن الكريم بايصاله الى مقر أمير المؤمنين بالتوأمتين فوقف بين يديه وتشرف بالنظر الى طلعه السعيدة ، فأدى الرسالة وقضى فرض التهنة وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله ، واعترف للمملكة العظيمة بحقها ، وأظهر من الخضوع والاستكانة والطواعية ما أوصاه به مرسله ثم توجه به الى معسكر ولى العهد تاج الاسلام ، وكافل الأمة بعد والده المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله ، وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء . فأشرف الرسول على دنيا اخرى ، وأبهة مدهشة ، ومحلة هائلة ، فوقف موقف الحيرة واستدرج الى أن وصل لقباب ولى العهد ومضار به ، وكان قد قعد له بفسطاط جلوسه انخم قعود ، ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه ، حيى وفدتى وانصرف عنه الى محل نزوله بالقصبة من فاس ، وأدر عليه من الإنعام والاکرام ما لم يكن له فى حساب . وكان من أغراض الرسالة التى أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والاجناد وعدة البندق ومدافع النار ، لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار . وكان هذا الرسول قد وفد من قبل على سلطان الترك بالاصطنبول السلطان مراد العثماني ، يطلب منه المدد لجهاد كفار السودان ، واخفق سعيه ولم يحصل على طائل ، فوجهه فى هذه النوبة الى ملك المغرب يطلب منه المدد ، فكان الذى دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول ، جر اليهم ذلك توغلهم فى الجهل ، وعدم من يحسن الاعراب عن مقاصدهم من فرسان الانشاء ، لظموس معالم العلوم عندهم على الجملة . وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويج قطرى توات وتكورارين وأمل أن يجعلهما ركاباً لبلاد السودان ، والاستيلاء على ممالكها التى وجه اليها عساكره بعد ذلك . فبلغت مملكة مالى الى أن وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب . فاغتم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة ، وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو ، ورجع الرسول الى مرسله بعد مكافأته ، وتوجيه هدية من عتاق الخيل بكسى من ملابس الخلافة ، واسباب آخر . ولما بلغ الرسول ، والتى المعنرة ، الى سلطانه ، استأنف الهدية واعرب اذ ذلك عن مراده ، ورد الرسول ثانية الى باب امير المؤمنين

فوفاه بحضرتة ودار خلافته من مراکش ، فزال اللبس وبين الغرض ، فلما تحقق المنصور بقصده ، صدع له بالحق والدعاء الى التي هي أقوم ، وطالبهم بالبيعة له والدخول في دعوته النبوية ، التي أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد الانقياد اليها ، وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق ، ان الجهاد الذي ينتحلونه ويظهرون الميل اليه لا يتم لهم فرضه ، ولا يكتب لهم عمله ما لم يشدوا في أمرهم الى اذن من امام الجماعة الذي اختص الله أمير المؤمنين بوصفه ، اذ هو الكافل لهذه الأمة ووارث تراث النبوة ، وقيضه الله لخلافة بيضة الاسلام ، وخصه بالشرف القرشي ، الذي هو شرط في الخلافة باجماع من علماء الاسلام ، وأئمة السنة الاعلام ، والزهم القيام في اقطارهم بدعوته . ومجاهدة اعدائهم الكفار بكلمته ، وعلق لهم أيده الله (١) الامداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط ، فالتزمه الرسول وزعم أيضا عن سلطانه بالقبول والاجابة ، وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة اذ ليس ببلدهم من يحسن الانشاء ، فانشأها كاتب الدولة ابو فارس عبد العزيز الفشتالي ونصها : « الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق منارا ، يسمي في مطالعها النجوم ، وزاح بها عن شمس الهداية المنيرة ، غياهب الغباوة المدهمة ، وسحاب الغواية المركوم » الخ وارسلوا نص البيعة الى السلطان أبي العلاء صاحب مملكة برنو . وانتخب المنصور رسولا عارفا مجربا بمن لهم بصيرة باحوال السودان فبعثه معهم عينا يأتيه باخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها . وبعث معه رسالة الى السلطان اسحق بن داود من آل سكية صاحب مملكة كاغو من أرض السودان يأمره فيها ، بأن يرتب على معدن الملح الذي في تغازي بين المغرب والسودان وظيفا ، بأن يجعل على كل من يحمل منه شيئا من الواردين عليه مثقالا من الذهب العين تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار ، لأن ذلك بحر لا ساحل له . وكان المنصور لم يكاتبه في ذلك حتى استفتى علماء ايلته وأشياخ الفتيا بها ، فأفتوه بما هو المنصوص من أن النظر في المعادن مطلقا انما هو للامام ، وانه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك الا عن اذن السلطان أو نائبه . وبعث اليه المنصور بتلك الفتاوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول ، من انشاء العلامة الأديب مفتي الحضرة المرا كشية ، المولى أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي . ولما بلغت رسالة المنصور الى السلطان

(١) صاحب مناهل الصفا محرر هذا الكلام معاصر للمنصور

اسحق سكية واطلع عليها ، شق عليه ذلك وماطل في الجواب ، وحيث أبطأ الرسول ، فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم اجابته لما طلب من الوظيف على الملاحه ، فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر الى السودان . قال الفشتالى لما رجعت ارسال المنصور اليه من عند اسحق سكية وأعلموه بمقاتله وامتناعه واحتجاجه بأنه أمير ناحية والمنصور أمير ناحية ، وانه لا تجب طاعته عليه ، شاور المنصور أصحابه وأهل الرأي والتقى في يوم مشهود . فقال لهم « انى عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كنفو لتجتمع كلمة المسلمين ولأن بلاد السودان كثيرة الخراج يتقوى بها جيش الاسلام » الخ فلما فرغ المنصور من كلامه سكت الحاضرون ، فقال لهم اسكنم استصواباً لرأى ، أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لى . فأجاب كلهم بلسان واحد ان ذلك رأى عن الصواب منحرف ، وذلك لأن بيننا وبين السوادان مهامه فيحاء ، تقصر فيها الخطى وتحار فيها القطا ، وليس فيها ماء ولا كلاً ، فلا يتأتى السفر فيها ، وأيضا فان دولة المرابطين على ضخامتها ، ودولة الموحيدين على عظمتها ودولة المرينيين على قوتها ، لم تطمح همه واحد منهم لشيء من ذلك ، وحسبنا أن نفتق أثر تلك الدول ، فان المتأخر لا يكون أعقل من الأول . فلما قضى أولئك الأقوام كلامهم قال لهم « ان كان هذا غاية ما استضعفتم به أمرى وفيلتم به رأى ، فليس فيه حجة ولا ما يندش فيما عندى ، فاما قولكم بيننا وبينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجدوبتها وعطشها ، فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك المهامه فى كل وقت ، ويخوضون احشاءها مشاة وركباناً وجماعة ووحادانا ، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها ، وأنا أقوى أهبة منهم ، وللجيش همه ليست للقوافل . وأما قولكم ان من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك ، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقابلة الافرنج ، والموحدون اقتفوا سبيلهم فى ذلك وزادوا بحرب ابن غانية والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بنى عبد الواد بتلسان ، ونحن اليوم قد انسد عنا باب الأندلس باستيلاء العدو عليها جلة ، وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها ، ثم ان أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم لأن جيوشهم كانت فرسانا راحمة ورماة ناشبة ، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق ، وأهل السودان ليس عندهم الآن الا الرماح والسيوف ، وهى لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة ، فمقاتلتهم سهلة

وحر بهم أيسر من كل شيء^(١) وأيضاً فإن السودان أنفع من افريقية فلاشتغال بها أولى من منازلة الترك لأنه تعب كثير في نفع قليل. فهذا جواب ما عرض لكم، ولا يحملنكم ترك الملوك الأول ذلك على استبعاد القريب، فانه كم ترك الأول للاخر». فلما فرغ المنصور من خطابه، انفصل الجمع على البعث الى السودان ومتابعة المنصور في رأيه عليه. قال صاحب الاستقصا: وفي كلام المنصور امران يحتاجان الى مزيد بيان الأول، مقاله من ان الملتئمين لم تكن لهم سلطنة على السودان، يعنى بهم الذين أقاموا بأرض المغرب مثل يوسف بن تاشفين وبنيه، فلا يرد عليه ان الامير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر، لان ذلك بعد رجوعه الى الصحراء واستقراره بها، واعراضه عن ملك المغرب. الثانى، مقال من أن البارود لم يكن في تلك الدول الفارطة، يعنى به لم يكن موجوداً فيها بكثرة، فلا يرد عليه ان ظهوره كان في أوائل المائة السابعة لأول دولة بنى مرين. ثم انه في سنة سبع وتسعين وتسعمائة. اخذ باعداد آلة السفر ومهمات، وتهيئة المدافع والعجلات التى تحملها، والبارود والرصاص، وبقى في الاستعداد مدة طويلة. وفي اليوم السادس عشر من ذى الحجة سنة ٩٩٨ خرجت العساكر وعدتها اثنان وعشرون ألفاً، منهم ألفان من المدفعية والبحرية وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جوذر، وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة، وكتب الى قاضى تنبكتو العلامة أبى حفص عمر بن الشيخ محمود بن عمر آقيت الصنهاجى، يأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة. فنهض العسكر من تانسيغت الى نثية الكلاوى الى درعة ودخلوا القفر فقطعوه مائة مرحلة، ولم يضع لهم عقاب بعير الى أن وصلوا الى تنبكتو نغر السودان، فأراحوا بها أياماً وساروا قاصدين دار اسحق سكية، فاحتشد لهم أمم السودان وقبائلها، والملتئمين المهادين لهم يقال انه جمع فوق مائة ألف مقاتل. ولما تقارب الجمعان عبي الباشا جوذر عساكره للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة، وعقلوا أرجلهم مع الابل وصبروا من الضحى الى العصر، وكانت أسلحتهم هى السيوف والرماح، فلم تغن مع البارود شيئاً. ولما كان آخر النهار، انهزم السودان وحكمت في رقابهم سيوف جوذر وجنده، حتى كان السودان ينادون نحن مسلمون، نحن

(١) لله در المنصور السعدى كأنه دولة استعمارية تتكلم

اخوانكم في الدين ، والسيوف عاملة فيهم^(١) ، وتم النصر لساكر المنصور في منتصف جادى الاولى سنة ٩٩٩ ، وراسل ابن سكية جؤذرا في الصلح على مال معين يدفعه ، فاجابه الى ذلك على مشورة المنصور وامضائه اياه وكانت العساكر أصابتها الحى فانفق رأى الامراء على الرجوع الى تنبكتو ، وكتبوا الى المنصور ولبثوا ينتظرون الجواب . وأخذ جؤذر في انشاء السفن وتركيبها ، ولما كملت دفعها في النيل ، ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد ، وقوم عسكرا خفيفاً أرسله مع مملوكة الآخر محمود باشا وهو أخو جؤذر ، وقلده أمر العساكر كلها وعزل جؤذرا عنها ، وأمر محمود باشا أن يبقيه معه وكتب الى أمراء العساكر يعاتبهم على الصلح مع ابن سكية ، ويؤكد عليهم في الرجوع الى بلاده ، واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل الى العدو الأخرى . وخرج محمود باشا في عسكره في زمن الحر ، في وقت لا يقدر على الحركة فيه الا القطا الكدر ، وقطع القفر في خمسين مرحلة ، ونزل بالعساكر على رأس تنبكتو على رأس سنة الألف . ثم شحنوا السفن وساروا بالملاحين والجند الى أن نزلوا على مدينة كاغوقاعدة ملك سكية ، وكان هذا حشد لهم أمم السودان ، لكنهم لما سمعوا رعد المدافع والمهاريس ورأوا ارتفاع القنابر في الجو ، انهزموا وسار اسحق سكية في فل من جوعه وعبر النيل الى العدو الأخرى ، فتبعه محمود وعبر النيل خلفه وأوقع به ، ونهب جميع ما احتوى عليه معسكره ، فانهزم الى القفر وهلك فيه . وقام اخو اسحق وجع جوعا وزحف الى محمود باشا ، فهزمه هذا وقتله . وتمهدت السودان كلها وكتب بنجر الفتح الى المنصور ، فأقام مهرجانا عظيما بظاهر الحضرة ، وزينت الأسواق وأخرج فيها المنصور الصدقات ، وأعتق الرقاب ، ووصلته من محمود باشا الغنائم مما لا يحصى من جلته أربعون جلا من التبر الخ واتظمت الممالك السودانية في سلك طاعته ما بين البحر المحيط من أقصى المغرب ، الى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر . وكان في تنبكتو أسرة يقال لها بواقيت ، ممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والقضاة ، وتوارثوا رياسة العلم في السودان مدة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد لايبالون بالسلطان فن دونه ، فلما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم محمود باشا على حالهم الى ان كانت سنة ١٠٠٢ ، فكان أهل السودان

(١) اذا لم تصدق دعوى المنصور بأنه انما يغارب لاجل الاسلام

سئموا ملكة المغاربة فتحوف المنصور من آل آقيت ، فكتب بالقبض عليهم وتغريبهم الى مراکش ؛ فقبض على جماعة منهم ، فيهم العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت المدعو أحمد بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التآليف ، والقاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد آقيت ، وغيرهما ، وجلوا مصفدين في الحديد الى مراکش ومعهم حريمهم ، وانهت ذنائبهم وكتبهم . واستمروا مدة في مراکش في حكم التقاف الى أن انصرم امد المحنة ، فسرحوا في ٢١ رمضان سنة ١٠٠٤ وفرحت قلوب المؤمنين لذلك . ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور قال له : أي حاجة لك في نهب متاعى وكتبي وتصفيدي من تنبكتو الى هنا ، حتى سقطت عن ظهر الجبل واندقت ساقى . قال له المنصور : « أردنا ان تجتمع الكلمة ، واتم في بلادكم من أعيانها ، فان أذعنتم اذعن غيركم » . فقال له الشيخ أبو العباس : فهلا جعت الكلمة بترك تلمسان ، فانهم أقرب اليك منا ؟ فقال المنصور : « قال النبي صلى الله عليه وسلم ، اتركوا الترك ماتركوكم ، فامتثلنا الحديث . فقال أبو العباس : ذاك زمان ، وبعده قال ابن عباس ، لانتركوا الترك وان تركوكم . فسكت المنصور وانفض المجلس ، وبقى آل آقيت بمراكش الى أن مات المنصور ، فاذن لهم ابنه بالرجوع الى تنبكتو . » انتهى ببعض تصرف . وعقب على ذلك صاحب الاستقصا بفصل في مسألة الرقيق والشرع آثرنا تلخيصه

مسئلة الرقيق والشرع

قال : قد تبين لك بما قصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الاسلام من قديم ، وانهم من أحسن الأمم اسلاما وأقومهم ديناً ، وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى المغرب (والمشرق) من استرقاق أهل السودان مطلقاً ، وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة ، وبيعها في أسواق المغرب ، يسمرون بها كما تسمسر الدواب ، بل أخش ، قد تمالأ الناس على ذلك ، وتوالت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون ان موجب الاسترقاق شرعاً هو اسوداد اللون ، وكونه مجلوباً من تلك الناحية . وهذا لعمرى من أعظم المناكر في الدين ، اذ أهل السودان قوم مسلمون ، فلهم مالنا ، وعليهم ما علينا . ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر ، فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم هو الاسلام ، والحكم للغالب . ولو فرضنا أن

لا غالب ، وان الكفر والاسلام هناك متساويان ، فمن لنا بأن المجلوب منهم هو من صنف الكفار . والأصل في نوع الانسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق ، ومدعى خلاف الحرية مدعى خلاف الأصل . ولا ثقة بخبر الجالين لهم والبائعين ، لما تقرر في الباعة من الكذب مطلقا عند بيع سلهم ، وفي باعة الرقيق خصوصا ، ولا يعتمد أيضا على قول ذلك العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء . لاختلاف الأغراض والأحوال في ذلك ، فان البائع قد يضرهم حتى لا يقرروا الا بما لا يقدر في صحة بيعهم ، وقد يكون للعبد أو الأمة غرض في الخروج عن ملك من هو بيده بأي وجه كان ، فيهون عليه أن يقر على نفسه كي ينفذ بيعه عاجلا . وقد استفاض عن أهل العدل ان أهل السودان اليوم وقبل اليوم ، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ، ويسرقونهم من الأماكن النائبة عن مدائيرهم وعمرانهم ، وان فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب (والمشرق) في اغارة بعضهم على بعض ، واختطاف مواشيهم ، والسكل مسلمون . وانما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع ، فكيف يسوغ للاحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل . (الى أن يقول) أما وضع يد الجالين لهم عليهم ، فلا تكفي شرعا في جواز الاقدام على شرائهم . لضعف هذه العلامة بما احتف بها من القرائن المكذبة لها ، وليستف المرء قلبه فقد قال ﷺ استفت قلبك وان أتوك . فانه اذا رجع الى قلبه في هذه المعضلة ، لا يقدر أن يحوم حول هذا الحى بحال . ونقول لولم يكن في ذلك الا الشبهة القوية وفساد الزمان ، ورقة ديانة أهله ، لكان في هذه الأمور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذي هو أحد أصول الشريعة لاسما عند الامام مالك رضى الله عنه ، ما يوجب التخلي عن ملابسة هذه المفسدة بالعرض والدين نسأل الله أن يوفق من ولاة أمر العباد لحسم مادة هذا الفساد ، فان سبب الاسترقاق الشرعى الذى كان على عهد النبي ﷺ والسلف الصالح مفقود اليوم ، وهو السبي الناشئ عن الجهاد المقصود به اعلاء كلمة الله ، وسوق الناس الى دينه الذى اصطفاه لعباده ، هذا هو ديننا الذى شرعه لنا نبينا ﷺ وخلافه خلاف الدين ، وغيره غير المشروع . انتهى ببعض تصرف . والحمد لله على كون الحكومات الاسلامية العصرية ، انتبهت لسد الذريعة ووافقت على ابطال الرق .

تتمة ذكر السودان

وذكر المسيو اندرى راسين صاحب كتاب « غينية الفرنسية » ماحصله ان البربر هم الذين من الشمال زحفوا على أمم الفتيش ونشروا بينها الاسلام ، فصارت في الجنوب مرا كز عظيمة للدعاية الاسلامية مثل « ديينه » Diéne المدينة التي يقطنها السونغاى ، فقد اجتمع فيها بعد اسلامها بقليل سنة ١٠٥٠ مسيحية ، من جميع أصناف مسلمي الشمال ، لاسيا المانده ، وصارت أعظم ملتقى للتجار في غربى افريقية بل من أعظم مرا كز الاسلام التجارية . وبنى فيها كومبور و مسجدا جامعاً مدهش البناء ، ثم تأسست مدينة تنبكتو في الشمال ، فصارت مركزاً آخر يتسرب منها دعاة الاسلام الى الجنوب . ودخلوا الى بلاد سارا كوله Sarakholé على ضفاف السينغال ، و بلاد منابع النيجر (النيل السودانى) وغينية وبورى Bouré وقسم من سانكاران Sankaran ومن وازولو Ouasoulou ، مع المدينة الدينية كانكان Kankan وما زال الاسلام ينمو على النيجر حتى أسلم أكثر أهالى وادى النيجر وسواحل السينغال وسيراليون ، و بقيت كورة واحدة أ كثرها فنيشية لجهة البحر. وأكثر هذا النمو الاسلامى، كان سببه أمة الفولة والحاج عمر وسامورى وانما كان الذين أتوا بالاسلام من الأصل، قبائل من البربر المتعلمين، مثل القبيلة المسماة أهل سيدى على وأولاد فاضل وأولاد برى والشيوخ والجيلوبه والكوتته وغيرهم . ومن هؤلاء الكوتته البكاءون الذين اشتهروا في جهات تنبكتو . وأصل الكوتته من زناتة من بلاد التوات هاجروا الى الجنوب في القرن الثالث عشر للمسيح ، و بنوا في تنبكتو المدارس والرباطات مما لعت به تلك المدينة طويلا ، و تراهم الآن متفرقين في السوادين ، لكن أهم مرا كزهم تاغان Tagan وارينده Aribinda . والبكاءون يزعمون انهم من سلالة عقبة (بن نافع بن عبد القيس الفهرى) الفاتح العربى ، ثم انضم الى ذلك تأثير الطرق الصوفية ، لأن هذه الطرق هى من أحسن الأجهزة للنضال . وأحدثها عهداً وأشدّها عزماً هى السنوسية ، والتيجانية. وهذه الثانية هى في السودان الغربى والسواحل أعظم انتشارا . وأما الطريقة القادرية فهى أعظم من الجميع ، وقد اشتهرت بالتسامح والتساهل ، وان كان المهدي السودانى وكثير ممن حاربونا نحن ، هم من أتباعها . وتجد القادرية في السودان أقساماً منها القادرية البكاية

والقادريه المختاريه ، والقادريه أتباع زين العابدين ابن سيدنى أحمد ، والقادريه أتباع الشيخ سيديا ، والقادريه الفاضليه جماعة الشيخ سعد بو . فالسواد الأعظم من مسلمي السنغال وغامبيه وضينيه والنيجر الأعلى هم قادريه من أتباع هؤلاء ، ثم فى بلاد أولاته Oualata القادريه الرقانيه أتباع الشيخ أحمد الرقانى ، وهم ثلاث فرق . أما التيجانية فهى حديثه العهد تأسست فى سنة ١١٨٦ للهجرة ، وأشهر من شهرها فى السودان الحاج عمر ، ومن الغرب إنها فى الجزائر تنصح بالموالاة للفرنسيين ، وفى السودان ترفع راية الجهاد . وأما السنوسية فوصوفون بالشدة وعداوة الأجانب أكثر من الجميع ، واتباعهم فى السودان الغربى ليسوا كثيرين ولكن مملكة واداي أكثرها لهم .

ولا يوجد فى غينية مرابطون على النحو الذى فى المغرب ، بل يوجد بمقام المرابطين رؤساء سياسيون حولهم أتباع وأعوان ، وطبقة أخرى هم معلمو المدارس والفقهاء فى الدين ، ويسمى الواحد من هؤلاء « كاراموكو » Karamokho وعندهم لقب آخر للجهادين والذين فتحوا البلدان وهو « المامى » منحوتنا من « أمير المؤمنين » (أو نسبة الى الامام) .

وليس عند أهل غينية رغبة عظيمة فى الحج ، بل الذين يحجون الى مكة كل سنة هم عدد قليل بالرغم من كون تور ودو الحاج موسى بنى لهم فى مكة رباطا . ولكن لا ينبغي أن نغتر ببعض ظواهر الفتور التى تلوح على اسلام غينية ، بأن نعتقد عدم رسوخ الاسلام فيهم وعدم امكان تحفزهم للقيام علينا : فانك لتجدهم شديدي الرغبة بتعليم عقائدهم وفيهم علماء كثيرين لا يكتفون بالقرآن ، بل يقرأون السنة وكتاب خليل فى الفقه المالكي وعندهم مكاتب شرعية مهمة . أخبر الدكتور بليدن Blyden انه عرف منهم اناسا يشترون النسخة الواحدة من المصحف بخمس ليرات انكليزية ، ولا يجدون ذلك كثيرا . وتجد منهم كثيرين مؤلفين وأكثر تاليفهم مخطوطة ، ولكن القرآن صار يطبع فى سيراليون وكونا كرى . وان الترتية الدينية فى تلك البلاد ، هى أوسع مما يظن لا سيما فى جهات فوته وكنكان ، فالبناات يدرسن سنتين والذكور أربع سنوات وأحيانا ثمانى سنوات . ومدة الدرس كل يوم تبلغ أربع ساعات . ومن التلاميذ من يرغب فى زيادة التفقه ، فيذهب الى الشمال مثل بلديينه وتورو أو يقصد المغرب . ولدينا احصاء ادارى عن مدارس الاسلام

في بعض النواحي . ففي الديرين Ditinn ٣٤٦ مدرسة فيها ٢٩٦٢ تلميذاً ، وفي كانكان ٦٠ مدرسة فيها ٨٠٠ تلميذ ، وفي كوين Koin ٤١ مدرسة فيها ٥٧٤ تلميذاً ، وفي سيفوري Sguri ٢٨ مدرسة فيها ١٦٠ طالبا . وكان في فوكومبه Foukoumba مركز بلاد فوته الديني سنة ١٨٩١ ثلاثون مدرسة للذكور والاناث . وكان في دينغيراي Dinguiray سنة ١٩٠٠ نحو ٢٠٠ مسجد و ١٨٠ مدرسة فيها ٨٠٠ طالب . وهذا العدد في دينغيراي على ٣٢ ألف نسمة لازيادة . ووظيفة المعلم محترمة موقرة ، وكثيرون من الزعماء هم يعلمون أولادهم بأنفسهم . ويأخذ المعلم عادة ٢٠ فرنكا على كل سورة يحفظها التلميذ . وعند ما يحفظ نصف القرآن يقدمون له ثوراً ، ومتى حفظ القرآن كله يعطونه فرسا . والمعلم يعلم الأولاد الكتابة بواسطة ألواح في أيديهم ، وهذا هو التعليم الابتدائي . ولكن الذين يريدون اكمال التحصيل يتعلمون التفسير . وانما قد تبين من تقرير رسمي فرنساوي على حالة التعليم في احدى كور وادي النيجر ، انه من بين ألف ولد يخرج ٧٠٠ لايعلمون شيئاً ، و ٢٥٠ يعرفون القراءة والكتابة و ٤٠ يحفظون القرآن كله بدون أن يحسنوا تفسيره بلغتهم ، و ١٠ يمكنهم أن يفسروه بلغتهم . أما الصلاة وأحكام العبادة فمحفوظة جيداً ، واسم الصلاة « سالي » أو « دالي » وساعة الصلاة « ساليفانا » وفي بعض السواحل « سولوفانا » ، وصلاة الفجر في السواحل « سونغوفو » وصلاة العصر « لانسارا » ، ويقال لها عند المالاينكة « لانساما » وصلاة المغرب « سونغوماني » وأما أمم الديولا والسونينكي والماندي فيطلقون عليها أسماءها العربية . ونهار الجمعة يجتمع المسلمون في المسجد الجامع ، ولكن مما يذكرون أن هذه العادة قد خفت كثيراً بعد استيلائنا لاسيا في فوتا ديالو Fouta Dialo ، وقل ازدحام المصلين في صلاة الجمعة . ويصومون رمضان لكن لا بالشديد الذي عليه المغاربة ، وعند ما يلوح اهللال يكون العيد الصغير ، فيطلقون البواريد . ويسمون عيد الفطر « سونغالو سالي » أو « كالوسالي » وهذا بلغة الماندي ، أما في لغة الفولة فاسمه « كوريلبور وسوماني » ، وفي العيد الكبير يضحون كل واحد كنبشا . ويسمى هذا العيد « تاباسكي » بلغة الأولوف و « ساليبا كالو » أو « دونكي سالي » بلغة المالاينكة و « باناسالي » بلغة السانينكة . (ثم ذكر اندري ارسين بعض الحروب التي وقعت بين المسلمين والفتيشيين ، وقال)

ان هؤلاء طالما قاوموا الاسلام بشدة بالغة الحد ، وقد استولى الفتيشيون مرة على كانكان هذه المدينة الاسلامية المقدسة ، ولكن أمة السونينكة الاسلامية كانت تواصل التقدم من الشمال ، وصارت بوري وموسادوغو وموساردو مدنا اسلامية ، وهي أحسن المدن وأعمرها وأنظفها هناك ، ولكن الفتيشين لبثوا فتيشين . وكانت غينية العليا أسلمت بتمامها في أيام المامى سامورى ، ولكن بعد موته رجع الكورما ، والوازولو ، والتورون ، والسانكاران ، والكورانكو ، والكيسى الى أوثانهم ، وعادوا الى شرب المسكر . وأما بلاد التوما فمن البداية لم تطع سامورى .

أما في الأوان الحاضر فمدن الاسلام في غينية العليا ممتدة على طول الأنهر، وفيها كثير من الغرباء الذين يتواردون اليها منذ قرنين . وبالاجال في مقاطعة بوري من غينية أشهر مدن الاسلام ، كيرانه Kérouané ، والاهينا Alahina ، ومدينة Medina ، وكاكاتومبو Kakatoumbo ، وفي مقاطعة سييكة Sieké بيرامفيرا Biramfira ، وسيندوقو Sindougou ، وتوقين Togin ، وفي مقاطعة كولوكالان Kouloukalan دوقوره Dougoura ، وكوبانى Kobani وكينيكرو Kiniékrou ، وفي المادينغ Mading ، أهم مدنها بالانكوما كونا Balankoumakana وأما في سائر المدن لاسيما في مقاطعتي ديوما Diouma ونوغا Nouga ، فالأكثرية ليست للاسلام . وأما كانكان فهي من أعظم كراسى الاسلام في السودان الفرنسى ، أكثر أهلها سونينكة . وكذلك كونغ ودينه . وقد أسس أشياخ الطريقة التيجانية مدارس في كانكان ومكاتب ، ونشأ فيها مرابطون كثيرون كانت لهم اليد الطولى في نشر الاسلام في افريقية الغربية والجنوبية . والى هذا اليوم هي مركز جاذبية لبلاد سيفيرى وكرروسه . وفيها آل سريفو الذين يدعون انهم أشرف من آل البيت ، وان اسمهم مشتق من شريف . ومن المدن الاسلامية العظيمة مدينة طوبا Tonba في ساحل العاج ، وبيلا Beyla وذاكر الله ، وبلال الله ، ونيالا وديا كوليدغو الخ . وأما بلاد الفوته دياوفان لها تاريخا مهما في الاسلام هناك ، فقد جاءت بها الدعوة من الشمال بواسطة التوكولور ، ومن الشرق بواسطة السونينكة ، ولذلك تألف بها حزبان أحدهما يقال له « ألفيا » Alfaia والثانى « سوريا » Soria ، فالصوريا هم الشرقيون اتخذوا الطريقة القادرية حال كون الألفيا بحسب قول المسيو لوشاتليه

Le Chatelier ، تمسكوا بالسنة ولم يعرفوا الطرق وقد كان مبدأ الاسلام في فوته على أيدي البهل والسونينكة ، ولكن لما أسلم على أيديهم الديالونكة صار هؤلاء من أشد الدعاة حية وليست بلاد فوته منقسمة الى كور اسلامية وأخرى وثنية كما هو الحال في غينية العليا ، بل جميعها دار اسلام . والمدينة المقدسة فيها هي فوكومبا ، وفي جامعها جرت العادة بمبايعة المامي ، وهذا الامتياز لها ، من أجل كون أمير هذه البلدة هو أقدم أمراء تلك البلاد اسلاما ومن البلدان الاسلامية العظيمة « فوناطورو » وهي أقرب البلاد الى ديالو . وبلاد السارا كولى وهم من الأقوام الشديدة الاعتقاد ، وفيها مدارس للعلوم الدينية . ومن المراکز المشهورة في تعليم الدين « تبي » و « لاني » و « دونهول فلاح » و « فوكومبا » و « بارفلا » و « دتاري » و « كولانتي » وغيرها وفيها الجوامع العظيمة

والاسلام ممتد أيضاً في الجهات الجنوبية الغربية من غينية ، والسبب في امتداده الى هناك هي فتوحات القبائل الشمالية مثل السونينكة والتورودو والديولا والديا كانكة ، ومن هذه الأقوام جند الحاج عمر أحسن عساكره ، وخلف مرديدن قاوموا الفرنسيين أشد المقاومة ، مثل المرابط محمد ، ولامينادراي . وقد كان اختلاط السونينكة والديولا بأهالي الجنوب سببا في زيادة نشر الدعوة المحمدية ، حتى لا يكاد يخلو منها مكان في سواحل غينية . واشتهر بشدة التمسك بالاسلام أمة النالوماندي . حتى ان ملك النالو تلقب بأمر المؤمنين . كذلك زعيم السارا كولى في بلاد ميلاكوري لقب بمامي موريا أي امام موريا . فوريا وموريبايا وكالوم وسومبويا وبراميا وبونغو ونونز العليا ، الأثرية فيها هي للاسلام والأهالي من جنس الصوصو . وكان الميكيفوري Mikiforé باقين على الفتيشية ، لكن الضابط بروكارد Brocard قرر بعد فحص أجراه ، ان الاسلام غلب عليهم اليوم ، حتى قال انهم يعتقدون ان الرجل الحر له وحده الحق بالقاء السلام . وكذلك قبيلة الباغافوره Baga Foré التي هي من أشد قبائل السواحل عتواً . دخلها الاسلام وبدأ كثير من رؤسائها بهجرة الحجر . وفي بعض الأماكن تجد الزعماء قد صاروا مسلمين وان كان عامة شعبهم باقين على الوثنية . ولقد سرت مع أحد حكام غينية السفلى وهو الميسونوارو Noirof في أطراف هذه البلاد ، وكانت مضت عليه سنون طوال في جنوبي غينية ، فاندش بما رآه من آثار العقيدة الاسلامية مما لم يكن رآه قبلا ، اذ في كل قرية حتى في صغريات القرى تجد

مصليات للاسلام . نعم ان مسلمي جنوبي غينية ليس عندهم تعصب مسلمي الشمال . ومن المدن الاسلامية المشهورة في الجنوب « بنا » و « كيسى كيسى » و « كونا كرى » و بلاد « الهوبو » و أما بلاد « كادى » و « كونسوتامى » و « بومبايا » فهى اسلامية بحتة ، ومعودة من أقسام « فوته » الضاربة في نحر الاوقيانوس . ومن علامات تقدم الاسلام في الجنوب شيوع لقب « المامى » فى ملوكهم مما يعضب أهل فوته ديالو ، الذين يقولون : مامن مامى فى كل غينية سوى أميرهم . وقد يعترفون بهذا اللقب لمامى موريا ، ولكن يصعب عليهم اقرار به للملك « ريوبونعو » و « كانبا » و « تاميسو » و « نالو » و « كالوم » . وجميع المرابطين الدعاة فى كورة « واسو » هم فى الأصل من السونينكة ، ويقال لهم « السيسى » و « الدارامى » والتورى والى الشرق من ميلاكورى يوجد قوم اسمهم « اليولا » متمسكون جدا بالاسلام ، وكان لهم يد فى نشره بين الأمم المجاورة ، كذلك فى جهة « فارانا » يوجد قوم اسمهم « الفيريا » مقيمون لشعائر الاسلام بكل دقة لاسيا فى « داندو » و « أولادا » .

والشرف الأعظم فى نظر مسلمي السودان هو الانتساب الى العرب ، فالعرب عندهم هم انموذج الشعوب كما قال المسيو فامشون Famechon ، لاسيا الاتماء الى آل البيت . وأنهى المسيو اندرى آرسين كلامه على غينية أوغانة بقوله : ان الاسلام انتشر بسرعة عظيمة فى بلاد الزوج نعم ان تقدمه اليوم أصبح أبطأ من ذى قبل ، لكنه صار أرسخ من ذى قبل بسبب السكون والامان . واذا اعتبر الانسان انه منذ مائة وخمسين سنة لم يكن مسلمون فى غينية السفلى ، وانهم الآن صاروا نحو النصف من الأهالى عرف مقدار سير الاسلام فى هذه الأقطار . كذلك المرابط منذ ثلاثين سنة فقط ، لم يكن يجرؤ ان يتوغل فى هاتيك الاصقاع ، فصار اليوم يسير و بين يديه جماعات وله اتباع . ثم علل مؤلف « غينية الفرنسوية » نمو الاسلام بين السود ببساطة قواعده ، وما أشبه ذلك من الأسباب التى أشار اليها مؤلف كتاب « الاسلام والنصرانية فى افريقية » .

وقد عرفت الرحالة الشيخ عبد الكريم مراد ، نزيل كانو من بلاد النيجر ، أصله من طرابلس الشام زارنى فى لوزان سويسرة فى العام الماضى ١٩٢٣ ، فسألته عن بلاد النيجر والسوادين فقال لى : « ان بلاد النيجر تشتمل على ٢٠ مليون نسمة ، مقسومة بين

الانكليز والفرنسيين ، وان عاصمة النيجر الانكليزي مدينة لاغوس Lagos ، وان سلطان سوكتو كان كبير سلاطين السودان كلهم قبل دخول الانكليز ، فلما دخل الانكليز أخرجوا كل أولئك السلاطين من طاعته ، فبقيت له سيادة اسمية . وأما السلاطين المذكورون ، فمنهم سلطان كشيما حج في العام الماضي . و سلطان كانو . و سلطان برنو . و سلطان زاريا . و سلطان بدّا . و سلطان آبدان . و سلطان لوري وغيرهم . وأما سلطان لاغوس و سلطان أبي كتا ، فمشركان . ولكن للإسلام قوة في بلادهما وفي جميع بلاد الفتيشيين . و سلطان هؤلأ يحتفل بعيد الاسلام ، و يلبس فيه الملابس الرسمية وعند سلطان أبي كتا وزير مسلم ، والجوامع كثيرة في بلاد الكفار تقام فيها ، الجع والاذان مسموع . وسألته عن مدينة كانو التي كان فيها ، فأجابني ان أهلها نحو ثلاثين ألف نسمة وهم مسلمون »

وأختم هذا الفصل بنكتة سمعتها من المرحوم الشيخ عبيد الجليل براده من علماء المدينة المنورة ، وأدباء عصره ، قال : سأل واحد من أهل الأدب وهو في موسم الحج حاجاً أسمر عن بلده في السودان ، فأجابه : غاته . فأنشد السائل على الفور هذا البيت :

كذا كذا فليزر مولاه من عرفه من غاته غاية الدنيا الى عرفه

وجدنا من تمام الفائدة في الاعلام عن غربى افريقية عقد فصل خاص بجنوبي الصحراء الكبرى بين المغرب الأقصى والسنغال واعتمدنا فيه على رحلة المسيو « غاسطون دونه » Gaston Donnet الافرنسي الذي أرسلته وزارة المستعمرات الافرنسية سنة ١٨٩٣ الى تلك البقاع لارتياها

قال انه كلّف اختراق البلاد المسماة « الترازة » و « أولاد أبو سبع » و « أولاد دليم » و « بلاد الادرار » والاقامة مدة من الزمن في مستعمرة « ريو دو اورو » الاسبانولية ثم التقدم من جهة الشمال الشرقى الى حد « تين دوف » ثم « رأس جوبي » أي وادي دراعة .

وقد كانت هذه الرحلة قبل احتلال فرنسة للمغرب الأقصى . ولصاحبها كتاب آخر اسمه « من السنغال الى تيريس »

و بلاد السنغال مأخوذ اسمها من نهر السنغال . وهذا منسوب الى قبيلة صنهاجة البربرية الشهيرة التي منها فروع في تلك الأصقاع ولما كان الأهالي يلفظون جيم « صنهاجة »

كالكتاب الفارسية أو الجيم المصرية قالوا « صنهاكة » وجاء الفرنسيين فجعلوا منها اسم بلاد « السنيكال » واصطلح كتاب العرب على كتابتها بالغين أي « سنيغال » و قبيلة صنهاجة هي شعب كبير من البربر قد اختلط بالعرب بالزواج وتولد منه الشعب الذي يسكن الآن في أطراف الصحراء على حدود السنيغال

وأهم القبائل المجاورة للسنيغال هي ثلاث : الترارزة في شمالي والو والبراختة في شمالي ديمار وفوتا والدويش في شمالي دمنغة الى الشرق والمغاربة في تلك الديار ينقسمون الى مغاربة شماليين وقبليين فالشماليون هم الذين لا يفارقون أعالي الصحراء والقبليون ويقال لهم القبالة هم الذين يذهبون جنوباً حتى يشرفوا على النهر ويبيعوا هناك الصمغ الذي هو محصولهم الى تجار سان لويس ، وللطرارزة عائلتان وجيهتان فيما بينهم إحداهما أولاد دايمان والأخرى عائد . فأولاد دايمان مرابطون أي لهم الرئاسة الدينية وأولاد عائد محاربون أي لهم إمارة السيف . ولقد تناقصت أهمية هاتين العائلتين بعد أن صار أحمد سلوم أميراً على الطرارزة بمعاونة فرنسا . وأما عائلات المرابطين المشهورة فهم أولاد دامان وعائلة يقال لها أهل أبياي وعائلة يقال لها أهل ريس وتاغيت وتاجا كاند والبارك الله وايت وأولى وايت أبو الحسن وتنداغة وايت يعقوب والسويلات وغيرهم .

وأما طبقة المحاربين فهي مختلطة من عرب وبربر وسودان والجيش الذي يعتمد عليه أحمد سلوم أمير الطرارزة هو مؤلف من مغاربة مختلفين بسودان من الجيل الذين يقال لهم ألوف . وأشهر عائلات هذه الطبقة الهيب الله وأولاد أكحر وأولاد بوسبع والعييدات وأولاد رقيق وأولاد عايد وزنبوق وأولاد البلمية وأولاد عبد الواحد والمبارك والزقيبات والدغموة والسبحات وأولاد عمران وغيرهم . وأكثر هذه القبائل تدفع ضريبة لأحمد سلوم من غنم وبقر وهجن ومعزى وسكر وسمك مقدد وتمر وبارود وبعض مسكوكات . أما عائلات المرابطين فهي معفاة من هذه الرسوم ويوجد قبيلة اسمها أليب هذه تكاد تكون مستقلة فلا تخضع لأحمد سلوم وهي ترعى المواشي وتكثر بينها وبين أولاد دليم الحروب لأن هؤلاء تغلب عليهم اللصوصية وهم عرب في الأصل^(١)

وأكثر الخوف في الصحراء من أولاد دليم وهم يجوبون البيداء من كل جهة ويبدأ

(١) قبائل دليم كثيرة بين المدينة المنورة ونجد

مكان سلطنتهم في قنيطير وينتهي في ريو دو أورو

ولما أهالى بلاد تاسيست ونيجريت وإمشيرى ففي تاسيست البركة الله مرابطون والغورا والبنى عمر البود وهم من أولاد دليم والبويلي . وأما في نيجريت فالبركة الله والفودير وبعض بربر من صنهجة . وأما في الامشيري فيوجد من هذه القبائل ومن أولاد لاب وهم من أولاد دليم في الأصل . وأولاد لاب هؤلاء متفقون مع الطرارزة . وأما أولاد بوسبع فهم طائفة من المراكشيين المهاجرين الى الرقيبات وتكنه وبلادهم تبدأ بأعلى أغادير وحدها الشمالى قيريس . وحدها الشرقى تاسيست ونيجريت . وأكثرهم صيادو سمك يصطادون على سواحل طاغولتى وقنيطير وهم تابعون للامير أحمد سلوم

والعادة في جميع هذه القبائل أن يسودها صاحب السيف وهو الامير ثم المرابط وهو الزعيم الدينى ويأتى بعدهما العامة الذين يدفعون الضرائب ولكنهم أحرار تماماً . ثم يأتى الأرقاء وهؤلاء أصلهم من السود غير المسلمين و اذا استرق الانسان زنجياً غير مسلم لا يجبره على الاسلام ، و اذا أسلم الزنجى لا يتخلص من الرق ولكن لا يسوغ لصاحبه أن يبيعه من غير مسلم . ويجب على السيد أن يطعم عبده بقدر طاقته ولا يحمله أحمالاً شاقة لا يطيقها والعبد يأكل ويلبس نظير سيده وإذا تحقق أن عبداً كان سيده لا يطعمه فانه يجبر على بيعه . وأكثر هؤلاء العبيد لا يريدون الحرية فانه يقدر الواحد منهم أن يفر الى سان لويس في السنغال ففي الحال ينال حريته . ولكنهم لا يذهبون ليتحرروا لأنهم يرون أنهم لو رجعوا الى السودان وعاشوا بين قبائلهم فإن حريتهم فيها لا توازى رقهم عند المغاربة ومعيشة هذه القبائل هي على وتيرة واحدة دائمة فهم ينتقلون من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب . وأرقاؤهم يشتغلون لهم وأكثر أوقاتهم يقضونها بالأحاديث يجتمعون ويضطجعون ويشربون الشاي ويتحدثون تارة عن سلطان المغرب وأحياناً عن استانبول وأحياناً عن الافرنج وكثيراً ما يشنون الغارات على القوافل ثم ذكر صاحب هذا الكتاب أنه بقى مدة عند أحد المرابطين الشيخ باباؤلد حمدى رهو من المشايخ المشهورين هناك وكان يقيم في قرية اسمها « بوزورة » قال : وكنت أرى الأهالى يقومون الصبح ويصلون وراء هذا الشيخ وكان يعظهم وطالما نهاهم عن النهب والتبعدى ولكنهم قلما ينتهون . وتكلم أيضاً عن الشيخ سعد بو وأصله من الحوض لكنه من ثلاثين

سنة مقيم في تاسيست وهو رجل محمود السيرة وكان قد أنقذ الافرنسي « بول سُلَيْمِيه » من يد أولاد دليم ولذلك كسب اسما حسنا عند الافرنج . وهو يسكن في بيت من الحجر لا في مضارب وبر كغيره ويجلس على كرسي لا على الأرض ويقرأ القرآن ويفسره . وله أخ اسمه ماء العينين له اسم كبير ، وقد ذكر المؤلف تفاصيل كثيرة عن سعد بو وأخيه أهملناها نظراً لمضى زمانها ولكون الفرنسيس بعد ذلك التاريخ احتلوا بلاد المغرب وأصبحوا هم أصحاب الكلمة في تلك الأصقاع فتغيرت الحالة هناك . وهو يذكر أن هذه القبائل المغربية كانت تنفر من الأوروبي وترى فيه العدو الدائم وليست أسباب هذه البغضاء هي العداوة بين المسلم والمسيحي فقط بل يظهر أن الافرنج الذين في سان لويس يسيئون معاملة هؤلاء المغاربة عندما يذهبون الى تلك المدينة ويحتقرونهم ويجرحون عزة أنفسهم والمؤلف ينصح قومه بتبديل هذه المعاملة

ويذكر عن كسل هذه القبائل شيئاً كثيراً ويقول ان شغل أراضيهم ومواسيهم كله بيد العبيد . ولا يمدح منهم غير أولاد بو سبع ويقول انهم القبيلة الوحيدة التي تشتغل وتأخذ وتعطي وأكثر شغلهم بالسلك المقدد . ولا شك أن الحالة قد تغيرت الآن هناك عما كانت يوم كتب هذا التأليف أي منذ خمس وثلاثين سنة الى أربعين سنة لأنه طرأ على العالم تغييرات كثيرة غير أننا نستبعد أن يكون وقع تغيير في حالة العلاقات بين المغاربة والأوربيين وربما كانت العداوة اليوم أشد منها قبل أن بسطت فرنسا حيايتها على المغاربة وذلك لأسباب لا تخفى عن أحد

الاسلام في السودان

مقال قيم للاستاذ ديريش وسترمان الألماني

في مجلة العالم الاسلامي الألمانية

نشر الاستاذ الالماني المعروف ديريش وسترمان مقالا في مجلة (العالم الاسلامي) الالمانية عن الاسلام في السودان ، ننشره فيما يلي .

تقتصر الابحاث الآتية عن الاسلام في بلاد السودان الممتدة من الصحراء وسواحل غيانا العليا الى سواحل الكمرون ومنها الى الحدود الغربية للوادي في اتجاه شمالي شرقي ، أو بعبارة أوضح على مناطق نفوذ قبائل « الماندينجو » و « الهوسا » و « الفولبا » السياسية والاقتصادية ، ولوان نفوذ قبيلتي « الهوسا » و « الفولبا » في شمالي بحيرة تشاد أقل أثراً ، الا ان اتصال هذه المنطقة بالجهات الغربية وثيق ومتعدد النواحي بحيث لا يمكن التفويق بين مقاطعتي « بورنو » و « باجيرسي » وبين المقاطعات الاخرى الغربية

يصعب جداً تقرير درجة انتشار الاسلام على وجه التحديد في بلاد السودان ، من حيث مساحة الاراضي أو من حيث عدد المسلمين ، فان عدد السكان على العموم لم يحص احصاء دقيقاً للآن في هذه الجهات ، هذا علاوة على عدم احصاء عدد التابعين لكل دين بالمره ، وذلك لصعوبة التفرقة في كثير من الاحوال لانتشار الجهل وتعدد النحل والمذاهب المختلفة ، اذ انه توجد درجات دينية كثيرة بين المسلم المتعلم المتمسك بدينه مثل قبائل « تيمبوس » و « كانوس » و بين عبيد الغابات التي تقتصر معارفهم الدينية على تقليد بعض العادات السطحية دون أن يكون لهم بأبسط قواعد الاسلام أي معرفة ، الا انه يمكن التنبؤ بأن مستقبل هذه الجهات في صالح الاسلام وليس في صالح الوثنية أو الاديان الاخرى و بما أن الاسلام دخل الاراضي السودانية من الشمال فاننا نجد جهاته الشمالية أكثر وأشد إسلاما من باقي البقاع ، ويحتل المسلمون اغلب هذه المساحات حتى حدود الغابات ، ولو انهم جاسوا خلالها في كثير من الجهات ووصلوا بطريق المواصلات الحديثة حتى

السواحل . ويعتبر العرب في هذه البلاد اشد القبائل اسلاما وغيره على دينهم ويليهم مباشرة الحاميون : المغاربة والفلوبا والتواريج والهوسا ، ولو اتنا نسمع من حين لآخر عن بعض الوثنيين في قبيلة الفولبا ولكن ذلك يرجع في الغالب الى مصادر غير موثوق بها ، ويوجد كذلك القليل من الوثنيين الآن بين من يتكلم بلغة الهوسا ولكنهم ليسوا من أفراد الهوسا الحقيقية .

أما في افريقيا الغربية الفرنسية فيمكننا أن نعتمد على احصائيات دقيقة ، ففي السنغال مثلا يعيش ٧٨٥٠٠ من الفولبا و ١٥٨٠٠٠ من الذكور وكل من الفريقين نخور معتر بأصله ومتعلق بالديانة الاسلامية جداً ، وأما الولوف واليولوف وهم أكبر عنصر في المستعمرة الفرنسية فأكثرهم من المسلمين وتكاد تختفي الوثنية بينهم على عكس قبيلة السيرز وعددهم ١٩٠ ألفاً وهم خليط بين الفولبا والولوف فأكثرهم بقى على الوثنية ، أما قبائل السونكة التابعين للماندينجو فشديدو الغيرة على اسلامهم . وكذلك أصبح عبد الوثنيين قليلا جداً بين قبائل المالكه

أما في غيانا الفرنسية فيبلغ عدد المسلمين الفولبا حوالي ٦٧٠ ألف نسمة و ٤٩٢ ألفاً من المالكه وغالبيتهم الساحقة من المسلمين ، وأما باقي السكان فمنهم ٣٨٥ ألفاً من الجالونكه وكانوا في الاصل يقطنون في الجهات الشمالية في فوتاجالون فأغلبهم من الوثنيين ، الا ان الاسلام يتقدم بينهم تقدماً سريعاً بفضل جهود قبائل الفولبا ، وباقي الاهالي من قبائل تمنا ومندا ونالوتوما وكيسي يكادون يكونون جميعاً وثنيين

ويبلغ عدد سكان ساحل العاج حوالي مليوني نسمة ، منهم ٢٤٢ ألفاً مانداجولا من المسلمين والسينو فو وأغلبهم وثنيون وباقي الاهلين يكاد لا يكون للاسلام بينهم اثر ، وكذلك الحال في داهومي التي يبلغ عدد سكانها ٦٥٥ ألفاً ، ولا يزيد عدد المسلمين بها على ٧٠ ألفاً ، وأما المقيمون على شواطئ نهر نيجرو يطلق عليهم اسم دندي فهم شديدو التمسك بالدين الاسلامي ، وكذلك قبائل الفولبا الرحل الذين يقيمون في مقاطعة باربا بجوار قرى الوطنيين ، وأما الاهالي الوطنيون فلم يبلغ الاسلام بينهم مبلغاً بعيداً ففي سنغال الأعلى لا يوجد أكثر من ٢٠ ألف مسلم بين قبائل البامبارا الوثنية البالغ عددهم ٤٧٧ ألف نسمة ، الا أن الاسلام يتقدم بينهم بسرعة فائقة بعد زوال الفوارق السياسية بين

السكان على وجه العموم . وكذلك الحال فى مقاطعة موسى التى يمكن الآن اعتبار الاسلام فيها هودين المستقبل ، بالرغم من أن معظم سكانها الآن يتبعون العادات والتقاليد الوثنية و يبلغ عدد سكان سنغال الأعلى من خمسة الى خمسة ملايين ونصف مليون لا يقل عدد المسلمين به عن مليونين

وعلى العموم يمكن القول بأن الاسلام يتقدم بين الوثنيين فى ساحل العاج وداهومي وكذلك فى غيانا الفرنسية وسنغال الأعلى بخطوات بطيئة لأن الأهالى فى هذه الخطوات يعدون من الوثنيين العنيدى فى تقاليدهم وعباداتهم وأما فى المستعمرات الانجليزية فلانكاد نحصل على معلومات بالمرّة عن عدد المسلمين و يضطر الباحث أن يكتفى ببعض المعلومات التى يحصل عليها عرضاً

و يبلغ عدد سكان سيراليونا مليوناً و ٣٠٧ آلاف أغلبهم وثنيون ، لا يتبع الاسلام فيها غير القليل من الفولبا من سكان الجهات الشمالية وغالبية الماندينجو ، وأما قبائل تمنا ومندا فأغلبهم وثنيون ولو أن الاسلام يتقدم بينهم بسرعة عظيمة أيضاً وفى المدن الساحلية يغاب عدد الأهالى المسلمين ، فى بورت لوكوه سنة ١٩٠٣ كان جميع السكان تقريباً من المسلمين ، وفى فريتون توجد ٥ مدارس اسلامية حكومية بها مالا يقل عن ٧٦٠ تلميذاً مع أن عدد السكان لا يزيد على ٣٤ ألف نسمة

فالحال اذاً فى سيراليونا هى أن الاسلام جاءها من داخل البلاد الى الشواطىء حتى عم جميع المدن الساحلية فى حين أن سكان القرى الداخلية بقيت على وثنتها ، وأما فى ساحل الذهب فيبلغ عدد السكان مليوناً وستمئة ألف نسمة كانت غالبيتهم وثنية ، الا أن الاسلام تقدم بينهم تقدماً سريعاً ، فانه لا توجد ناحية تجارية هامة تخلو من جامع ومدارس اسلامية ، ولو أن المسلمين ليسوا من الأهالى الوطنيين بل من الأجانب النازحين الى البلاد من جهات مختلفة ، فأصبح بمدينة تامالا وهى عاصمة المقاطعات الشمالية مالا يقل عن ألف مسلم من ٦٠٠٠ عدد السكان ، وكذلك يتقدم الاسلام يوماً بعد يوم فى المقاطعات الأخرى وعلى السواحل الهامة ، وأكثر عناصر القبائل الاسلامية انتشاراً هى الهوسا والماندينجو الذين كثرت مهاجرة التجار منهم الى هذه البلاد

وقد قدرت جريدة « الجمعية الافريقية » المسلمين فى جميع نواحي ساحل الذهب فى عام ١٩٠٩ بمالا يقل عن مائة ألف وقد أصبح الآن بدون مغالاة لا يقل عن ضعف هذا العدد

وأكثرهم في المقاطعات الشمالية

وقد لا توجد جهة أخرى في البلاد السودانية انتشر فيها الاسلام في الفترة الأخيرة مثل نيجيريا ويبلغ عدد سكانها حوالي ١٦ مليوناً ، خصوصاً في الأقاليم الجنوبية التي كانت حتى زمن قريب تعتبر موطناً للوثنيين ، وأما في شمال نيجيريا وهي البلاد التي فتحها قبائل الهوسا وال فولبا فإن الاسلام هو الدين الغالب .

وأما القبائل التي تقطن جنوب نهر النيجر والبنوى وعلى امتداد الشواطئ الشمالية والشرقية من نهر النيجر فأغلبها من الوثنيين . وفي شمال نيجيريا مالا يقل عن ٢ أو ٣ ملايين وثنيين من عدد السكان وهو عشرة ملايين نسمة ، الا أنهم في طريقهم الى الدخول في الدين الاسلامي بفضل مجاورتهم للأغلبية الاسلامية الساحقة هذا فضلاً عن أثر ثقافة الاسلام فيهم

وأما في جنوب نيجيريا فإن المسلمين لا يكونون شعباً موحداً رغمًا عن التقدم الباهر الذي أحرزه الاسلام بين الأهالي في السنوات الأخيرة خصوصاً في المدن الكبيرة حتى أصبحت للأئمة المسلمين القيادة الفكرية في هذه النواحي ، حتى ان سكان مدينة لاجوس — وهي مركز رئيسي للتبشير المسيحي — يدين الآن أكثر من نصفهم بالدين الاسلامي ، وكذلك يتقدم الاسلام في باقي البلدان الأخرى الشرقية والساحلية بسرعة غريبة وفي مستعمرة غامبيا أصبح الآن من يدين بالاسلام أكثر من ٩٠٠٠ ولا يزيد عدد سكانها على ١٦ ألف نسمة أما الحال في المستعمرات الألمانية السابقة فإن توجو تكاد تكون كلها وثنية ، فلا يكاد يزيد عدد المسلمين بها عن ١٤ ألفاً من تعداد يبلغ المليون ، وهو عدد يكاد لا يذكر بجانب الأغلبية الوثنية الساحقة . وفي الكمرون يوجد شعب اسلامي موحد لا يستثنى منه غير سكان جبال المنديرا الوثنيين والذين هم في عزلة تامة عن كافة المواصلات الحديثة ، ولو أن سكان بلادهم الكبيرة يدينون بالاسلام أيضاً بالرغم من ذلك . وفي اداماوه تدين البقاع التي احتلتها قبائل الفولبا كذلك بالدين الاسلامي ولو أن الوثنية تعم النواحي الجنوبية .

ويلاحظ أن تقدم الاسلام قدوقف قليلاً في هذه النواحي منذ زالت دولة الفولبا وان كانت التقاليد التي ورثها رؤساء القبائل الوثنية عن أسيادهم المسلمين لازالت متبعة ومحبوكة عندهم ، وقد تقدمت قبائل الهوسا المسلمين نحو مناطق الغابات والشواطئ في المدة الأخيرة ولو أنهم لم يتمكنوا من مساعدة انتشار الاسلام هناك كثيراً ، وعلى الجملة فإن الاحصائيات الأخيرة تدل على أن ما يقرب من ثلث سكان الكمرون يدين بالديانة الاسلامية

(عن مجلة نور الاسلام)

العرب في الكونغو

للأمير شكيب

اطلعت على رحلة لأحد أدباء البلجيك المسمى فريزفان در ليندن Fritz Van der Linden استوفى فيها الشرح على الكونغو، فعثرت فيها على بعض جل تتعلق بالعرب في الكونغو، وعلمت أن الاسلام قد دخل في هذه المملكة العظيمة التي هي الكونغو البلجيكي . قال في الصفحة ٢٦١ ، في بحث عن تداول الأهالي للمسكوكات : « ان أكثر الأهالي المستعربين Arabisés يعرفون النقود ، وان تجار العرب من الكاسونغو وأكبر التجار الذين لهم علاقات مع زنزيبار ، يؤثرون الذهب لاسيا الليرة السترلينية ، لأن علاقاتهم متصلة مع عرب الأوغانده ، والمستعمرات الألمانية في شرقي افريقية . وتراهم مع شدة مراقبة الحكومة ، يتمكنون من أخذ العاج وادخال البارود الى مستعمراتنا سراً . وأما تجارة الزيق فانهم لا يتعاطونها الا في داخل البلاد من قرية الى قرية ومنع ذلك يكاد يكون مستحيلاً ، اذ ليس الاسترقاق هو اليوم بالقوة المسلحة كما كان قبلاً ، بل فظائع الاستعباد التي كان يصفها ليفنسون وستورم وهوديستر هذه كلها دخلت في خبر كان . ولكن العربي أو المستعرب لا يشتغل بيده فلا يستغنى عن العبد ، لأجل الغراس وخدمة البيت والنقل والجل ، وليست معاملته للعبد بسبئية وقد ينتقل العبد من سيد الى سيد ، والذي يظهر انه لو تحرر هؤلاء العبيد كلهم دفعة واحدة لكانت ضربة قاضية على سعادة البلاد ، وتحول هؤلاء الى رعايا متشردين .

وان العنصر العربي لا يزال عظيمًا في جهات كاسونغو ، لكن مجده الماضي قد زال ، والمرأ كز التي كانت لموني محره (١) وسعيد بن عبدلى قد ذهبت . أما كاسونغو القديمة ، فهي قرية جميلة مبنية باللبن مقطعة بالشوارع وهناك عرب صراح يلبسون جيباً بيضاء ، ويتلفعون بكوفيات مطرزة نظرياً بديعاً ، سيأهم تدل على الكرامة والوقار ، وحركاتهم

(١) يظهر انه اسم زعيم عربي

وسكناتهم مقرونة بالأدب التام ، والكياسة المتناهية ، والرصانة الفائقة ، فنسق حياتهم يختلف كثيراً عن نسق الزنزيباريين العبيد القدماء ، الذين يظهرون عظمة تستحق السخرية ، بتقليدهم ساداتهم العرب في كسوتهم ورفاهيتهم .

ومرة دعاني أحد العرب في كاسونغو الى منزله قائلاً : سفا كيدى كاريبو . ومعناها : صباح الخير تفضل . فدخلت الى بيته فوجدته مفروشاً بالحصير ومزيناً بالمتاع اللطيف ، وأبواب البيت والشبايك كلها منقوشة ، وعلى أحد الأبواب كتابة عريضة أظنها آية من القرآن . فقدم لى العربى طاساً لذيذاً من القهوة ، وباعنى بعض الحصر ، وهو يظهر انه انما أسدى الى مكرمة .

وترى القرى على الطريق المؤدية من كاسونغو القديمة الى كاسونغو كلها جميلة نظيفة والمسحة العريضة بادية عليها ، ولكن مرض النوم فاش في هذه الأنحاء ، وقد نقص كثيراً في عدد الأهالى في جوار كاسونغو . ولا تجد في جوار كاسونغو أكثر من ألف مستعرب من الرجال البالغين ، وثلاثة أو أربعة عرب صراح ، وأربعة أو خمسة زنجباريين . وليس بين الأهالى جامعة يخشى من عواقبها ، فنقدر أن ننظر الى المستقبل باطمئنان .

ثم ذكر مدينة نيانغفة Niangwe، فنقل عن قائم المقام السويدي غليروب Gleerub قوله في سنة ١٨٨٦ :

« ان نيانغفه هي مقر العرب الأصلى وهي مقسومة الى قسمين يفصل بينهما واد عميق تكثر فيه مزارع الأرز ، فاذا بلغ ارتفاع نهر الكونغو معظمه طمت المياه على هذا الوادى . وقد ازدادت هذه المدينة من عهد ستانلى ازدياداً عظيماً ، فأهلها اليوم يبلغون نحو عشرة آلاف . وترى على جانبي الوادى أنغر المزارع والمغارس وجميع الأشجار المثمرة المجلوبة من افريقية الشرقية ، كذلك العرب أدخلوا فيها المواشى والحير الفاراهة للركوب » . قال فريتزفان درلين : « أما اليوم فقد نزلت نيانغفه عن درجتها هذه ، بسبب ثورة سنة ١٨٩٣ ، وبمرض النوم أيضاً ، ولم يبق فيها الا ألفا رجل . وتحولت تلك المخاريف البديعة التي كانت مصطفة بها الأشجار على ضفتى النهر ، الى شعاب سطا عليها العوسج والشوك ، ولم يبق في نيانغفه منزل يستحق الذكر ، سوى بيت بيانيسنغا Pianisengha

هذا الزعيم العربي الذي بقى أميناً للحكومة البلجيكية ، وحظى بمقابلة الملك في قصر بروكسل .

ثم في الصفحة ٢٧٤ من الكتاب ذكر المؤلف نهراً ينشعب من الكونغو ، ويمتد نحو ٣١٥ كيلومترا بعرض يتفاوت من ٢٠٠٠ الى ٦٠٠ متر ، وقال ان على جانبه القرى ، وان الأهالي هم من العرب والمستعربين ، والظرءاء من أما كن بعيدة . ووصف العرب بالنظافة والالتقان في العمل ، وقال ان المستعربين والعبيد الذين يخدمونهم يشكلون قرى نظيفة تحيط بها مزارع أرز واسعة . ثم أطرى هؤلاء الأهالي في شدة انهما كهم بالتجارة .

وفي الصفحة ٢٩٠ ذكر قرية مستعربة مدحها بنظافتها ، وبين الفرق العظيم بينها وبين القرى الأخرى التي يسكنها غير المستعربين ، وشاهد فيها سوقاً مهمة تقام كل يوم من الصباح الى نحو الظهر في ساحة القرية ، ووصف الدكاكين التي فيها ، معروضة أمامها أصناف البضائع ، وحوانيت الخياطين وباعة الخبز والحوص وغير ذلك ، وقال ان المستعربين رحبوا بهم ترحيباً ودعوهم الى منازلهم ، فعاوجوا على معلم كتاب أمامه جماعة من الصبيان يعلمهم القرآن .

وذكر ان سكان هذه القرية المستعربة يبلغ عددهم ألفي رجل . وقال انه سأل الميسو دومولستر المندوب العام في الكونغو ، عن عدد المستعربين في الولاية الشرقية من الكونغو فقال له : لا أقدر أن أجزم بشيء ، ولكنني أظن انهم نحو مائتي ألف . فقال له : أفلا تراهم خطراً دائماً على المستعمرة ؟ فأجابه : كلا . لأنهم متفرون ، ولاننا نحن نملك القوة اللازمة لقمع كل ثورة . ثم قال له :

« طالما انهم هؤلاء العرب والمستعربون تمهما باطلة ، فلا أنكر انه يجب علينا مراقبتهم واجبارهم على طاعة القوانين ، ولكن بما لأنكره أيضاً انهم عنصر جيد في البلاد ، لأنهم قوامون على الزراعة ، مديون بطبعهم ، وعندهم ميل الى الجنس الأبيض ، ونحن كل سنة نشترى منهم في جهات ستانليفييل وبونتيارفييل ولوكاندو وكيروندو ، مقداراً مهماً من الأرز » . اهـ

سلطنة راج

الدكتور شكيب

معلوم انه كان رجل يقال له الزير باشا حاكما من قبل الايالة المصرية على بلاد بحر الغزال من السودان ، فصرفته الحكومة المصرية من هناك برجل ايطالى الأصل ، اسمه غسى باشا ، واعتقلت الزير باشا بمصر . فثار ابنه سليمان انتقاما لأبيه ، فانهزم وقتل ، وتفرق الجماعة الذين كانوا حوله وحول أبيه ، ومنهم عبد للزير اسمه راج ، انفرد بنفسه وتبعه كثير من الضباط الذين كانوا مع الزير ، فشد ثمانية ييارق كل يرق ١٢٠ رجلا الى ١٣٠ رجلا مسلحا . ووقع ذلك سنة ١٨٧٩ فباشر راج بهذه القوة غزواته الشهيرة ، ولقبه رهطه السلطان راج وهذا كان مبدأ أمره .

وقد كتب كثير من الأوربيين على راج هذا ، من جلتهم صديقنا البارون ماكس أو بنهايم الألماني الذي هو من أشهر الرحلات الذين عرفوا الشرق وأهله ، فانه ألف كتابا اسمه Rabeu und Tchadgebiete أى ، « راج وبلاد تشاد » ، جاء فيه بخبر هذا الرجل الأفاق على وجهه (١٩٠٢) وكذلك كتاب جنثيل Gentil المسمى « سقوط سلطنة راج » المطبوع سنة ١٩٠٢ أيضا . وقد جاء ذكر راج في كتاب للدكتور دكورس Decorse طبيب الجنود في المستعمرات الفرنسية ، والمسيو دمومين Demombynes أحد أساتذة مدرسة المستعمرات ، واسم هذا الكتاب « راج وعرب الشاري » وألف المسيو دوجارى Dujarrie كتابا اسمه « حياة السلطان راج » وغير ذلك .

وأول ما بدأ راج بالعمل كان في « دارمانغا » اذمنها غزا غزوة في دارفور ، ثم في واداي ، ثم واصل غزواته في باطن السودان ، وجعل مركزه في بلاد شارى . ثم صعد في نهر شارى الى ضفته الشمالية ، ثم نزل الى ضفته الجنوبية وأقام مدة ببلد « كوتى » وغزا بلاد « سومراى » ومازال من غزاة الى غزاة الى سنة ١٨٩٢ فأقام ببلدة « بوسو » على الشاري وجهاز حملة على « البايرى » ، فاستولى عليها . والتجأ سلطان البايرى الى بلاد الشاري الأسفل ، ثم الى واداي (١٨٩٤) فوجه راج حينئذ عزمه الى بورنو واستولى على

« كرنالك لوغبون » فأرسل اليه سلطان بورنو قوة يقودها محمد طاهر وما لا كريم ، فهزمها راجح وزحف راجح قاصدا « كوكا » عاصمة بورنو بطريق « نقالة » فخرج هاشم سلطان بورنو نقتاله ، والتقى في أم « حيس » فانكسر هاشم ودخل راجح « كوكا » ، وجعل عاليها سافلها ثم اعتصم ببلدة اسمها « ديكوا » فقام بسطنة بورنو أبو خياري عم السلطان هاشم ، وناوش راجحا القتال . ثم انبرى لمقاومة راجح زعيم ديني اسمه الشيخ أبو قنطور ، فصارت بينهما واقعة في « غاجيبو » الى الشرق من ديكوا ، ومع هذا فبقى راجح سائدا ، وكان سلطان زيندر يدفع اتاوة لسلطان بورنو ، فلما استولى راجح على بورنو ابي دفعها له ، فزحف فضل الله بن راجح الى سلطان زيندر المذكور وقتاله فلم يظفر منه بطائل .

وبينا الأمور متسقة لراجح وهو يفكر في تأسيس سلطنة عظيمة اذ زحف اليه الفرنسيين الذين هالهم مستقبل أمره ، فقصدوا خضد شوكته قبل أن يستفحل شأنه ، ففي ١٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٩٩ وصل الضابط بريتونه Bretonnet الى كونو ، فهدى اليه راجح بقوة صاعدا نهر شارى وما زال من بلد الى بلد حتى وصل الى كونو ، فلما علم الضابط الفرنسي بوصوله أخلى كونو واعتصم بهضاب عالية موافقة للدفاع من بلاد « نياليم » ، ولكن راجح استأصل تلك القوة الفرنسية بأسرها مع قوة « غاورانغ » سلطان البايرى ، الذى كان حليفاً للفرنسيين ، وذلك في ١٧ يوليو سنة ١٨٩٩ .

وعاد راجح الى كونو فهاججه الفرنسيين بقيادة جنيتيل في ٢٧ اكتوبر من السنة المذكورة ، فلم يقدروا على أخذ المدينة ، ولكنهم اضطروا راجحا الى اخلائها من نفسه . فانحاز راجح الى بلدة « ميلتو » ثم قصد « لوغون » من جهة بحر الرقيق وعاد الى ديكوا ، فلم يبق بها الا شهرا وذهب يحشد جنوده في « كوسرى » .

فزحفت اليه معاً جنود البعثة الصحراوية ، وبعثة افريقية الوسطى ، وبعثة شارى ، تحت قيادة جولاند Jolland وما نييه Maynier وذلك في ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٩ ثم في السنة التالية أردفا بقائدين آخرين ، فورو Foureau ولامى Lamy فجاء فضل الله بن راجح وناوش مانبيه القتال ، وكانت قوة فضل الله ستمائة بندقية . ثم بلغه ان لامى استولى على كوسرى . فزحف الى كوسرى من الجنوب ثم اضطرا ان يرجع الى لوغون . وجاء راجح بنفسه نجيم في « لخته » ودارت رحى الحرب فانكسر راجح وقتل في ٢٢ ابريل ، ولكن

رجاله قتلوا من الفرنسيين عدداً كبيراً ، منهم القائد لامي نفسه ، وقائد آخر اسمه «كوانته» . وبلغ فضل الله خبر مقتل أبيه ، وهو في لوغون ، فأخلى هذه المدينة قاصداً ديكوا التي كان فيها اخوه «نيابي» ، فقصده الفرنسيين الى ديكوا فخرج منها بدون قتال ، فتعقبه الفرنسيين بقوة أدرتته في ٢ مايو سنة ١٩٠٠ في مكان يقال له «دغيمبه» فدحرتته الى الجنوب فساروا وراءه الى محل يقال له «ايشيغوية» فلم يفوزوا منه بطائل ، ثم وقف فضل الله في بلدة تسمى «برغامه» وأخذ يحشد جنوده مراقباً حوادث بورنو .

وكان سلطان بورنو «عمر ساندا» يكره الفرنسيين فعزله هؤلاء وولوا مكانه اخاه «غراباي» فقصده فضل الله وتغلب عليه في واقعة «نقاله» ففر الى جهة كانم . فاشتد عزم فضل الله وكشع عن ناب العداوة للفرنسيين وبعث الى قائد منهم اسمه «رو بيليو» يطالبه باسلا ب أبيه التي أخذوها من كوسرى ، فأرسل رو بيليو الى فضل الله ثلاثة رسل يعرض عليه الملاقاة فأمر فضل الله بقطر قابهم . فقصده رو بيليو بجيشه وهزمه : فالتجأ فضل الله الى مستعمرة النيجر الانكليزية ثم رجع الى معسكره الأصلي في «برغامه» وهناك دخل في مفاوضات مع الانكليز وزاره الماجور «ماك كلينتوك» ، ثم بلغ فضل الله ان غراباي عاد الى بورنو واستوى على عرشها . فقصده وهزمه ودخل ديكوا . فزحف الكولونل الفرنسي دستناف الى ديكوا فوجد فضل الله قد برحها فأرسل في أثره قوة دهمته في «قوجيه» من أراضي المستعمرة الانكليزية فقتل فضل الله في المعركة وتشتت الذين معه ، ودخلوا الى بلاد «كيردي» التي أهلها وثنيون فقاتلهم بالسهم فاضطر نيابي بن رباح أن يستسلم الى الفرنسيين . وهكذا انتهت سلطنة راج وأولاده بعد أن لمعت سيوفهم لمعانا هائلا في باطن افريقية.

﴿ تابع للكلام على مملكة واداي ودارفور وباقيرمي ﴾

وبونو وغيرها من ممالك أواسط افريقية ﴿

المؤلف

تقدم ما نقلناه عن تأسيس سلطنة واداي من رحلة الشريف بن عمر التونسي ، وقد اطلعنا على رحلة لرجل انكليزي محفوظة عند السادة السنوسية ولم يصرح فيها باسم المؤلف ، ففيها رواية ثانية وهي هذه ملخصة :

في السنة العشرين بعد الألف أسقط عبد الكريم بن يامي حكومة « تينجر » الكافرة وأسس حكومة واداي . وابنه خاروط الذي خلفه أسس مدينة « وارا » وجعلها عاصمة للمملكة المذكورة . وخلفه ابنه خريف الذي قتلته قبيلة « تاما » لثلاث سنين من ملكه . وخلف هذا أخوه الأصغر يعقوب عروس . وهذا هو الذي كان قاتل سلطان دارفور موسى ابن سليمان وسليمان هذا هو أول سلطان مسلم على دارفور . وقد دارت الدائرة على يعقوب سلطان واداي وخلفه ابنه خاروط الثاني الذي استمر ملكه أر بعين سنة بالراحة والسعادة . ثم خلفه ابنه جوده الملقب بخريف التيمان ، والملقب أيضاً بمحمد صولاي الذي معناه محمد المنجي ، لأنه نجى واداي من نير دارفور في مدة السلطان أبي القاسم سلطان دارفور وهذا هو المسلم السادس من سلاطين هذه المملكة . ثم ان محمد صولاي هذا استولى على كانم ، انتزعها من يد السلطان بورنو ، وتولى أر بعين سنة . وخلفه ابنه صالح الملقب « بدر » ولم يكن محمود السيرة . وفي السنة الثامنة من حكمه نار عليه ابنه عبد الكريم الملقب بصابون فقتل الوالد وتولى الولد وكانت حكومته أكثر حكمة من جميع الحكومات التي عرفتها واداي . فتقوت في أيامه واداي وطوت عت الباقرمي وأراد أن يفتح طرقاً إلى الشمال إلى البحر الأبيض ، لكنه توفي سنة ١٢٣٠ تاركا ستة أولاد من الذكور لعشر سنوات من ملكه . ووقع اختلاف بين أولاد صابون وحروب ، انتهت بظفر حزب ولده يوسف . فهذا تولى ١٦ سنة بالظلم والقهر ثم قتل سنة ١٢٤٥ وخلفه ابنه راكب ، مات بتلك السنة . وجلس على كرسي الملك

أحد أفراد البيت المالك واسمه عبد العزيز بن راداما ، فتولى نحو خمس سنوات ونصف سنة وتوفى ، فتولى ولده الصغير آدم فهذا بقى سنة واحدة ثم أخذ أسيراً الى دارفور بطلب محمد صالح أخى السلطان عبد الكريم صابون الذى استمد محمد فضل سلطان دارفور لاسترجاع ملكه . جلس محمد صالح على كرسي واداي سنة ١٢٥٠ وأحسن السياسة ، وفى سنة ١٢٦١ هاجم مملكة بورنو فلم يفز بطائل ثم نار محمد بن محمد صالح بابيه ونشبت حرب داخلية . قال الرحالة الانجليزى : ولما برح الناقل باقرمى ، كان سمع أن الابن غلب أباه وجلس مكانه فليس فى هذه الرواية شئ من خبر انتساب سلاطين واداي الى بنى العباس .

وذكر هذا الرحالة فوائد كثيرة عن أواسط افريقية ، فلما كان فى سياحته هناك أى منذ ثمانين سنة ، كان جيش دارفور عشرة آلاف فارس ، وكان فى وسع واداي أن تجهز خمسة أو ستة آلاف من الخيالة ، وكانت مملكة الباقرمى تقدر أن تجند ثلاثة آلاف فارس ، هذا مع العرب الذين يقال لهم « شوا » ويقولون لهم « شيوا » .

قال : وعرب شيوا الذين فى باقرمى ، ينقسمون الى أولاد سلامه وبنى حسن وأولاد موسى وأولاد على وديغاغره

وذكر معلومات أخرى عن تأسيس ممالك دارفور والباقرمى أو الباجيرمى ، نالها : انه من السنة التسعمائة الى الألف للهجرة ، كانت أمة التينجر من الكفرة تملك جميع دارفور وواداي والباقرمى ، ففى نحو السنة الألف غلب على دارفور الأمير المسمى كورد وأسس سلطنة دارفور وكان خلفه الثالث سليمان وهو أول من أسلم من ملوك دارفور . ثم فاز عبد الكريم ابن يامى بسلطنة واداي . وأسلمت سلطنة الباقيرمى بعد واداي بعشر سنوات ، وأول من ملكها من المسلمين السلطان عبد الله ، وخلفه ولده « وانجا » وخلف وانجا « لاونى » وفى مدة لاونى اضطرت الباقيرمى أن تدفع اتاوة لسلطنة بورنو . ثم ملك السلطان بوغوماندنا فى الباقيرمى ، ثم الحاج محمد الأمين ، وكان ملكه حليفاً للاقبال والمجد وخلفه ابنه عبد الرحمن فخار به عبد الكريم صابون سلطان واداي ، وقهره وقتله بطلب محمد الكانمى شيخ بورنو من عبد الكريم^(١) ووضع عبد الكريم على تخت الباقيرمى ابن السلطان المقتول وهو عبد الرحمن وكان صغيراً . فجاءه أخوه الأكبر عثمان وسمل عينيه

(١) الرحالة التونسي يذكر أن سبب غزو عبد الكريم صابون للباقرمى ، هو سوء سيرة سلطان هذه البلاد وتماديه فى اتباع شهوته حتى انه تزوج باخته مع نهي علماء الدين له بأجمعهم

وجلس مكانه فعاد سلطان واداي الى الباقرى وحارب عثمان وهزمه وأعاد الى السلطنة أخاه الأعمى . ولما عاد عبد الكريم الى بلاده ، ظهر عثمان وغلب أخاه وأغرقه في النهر وجلس محله ثانية . ثم نار به الأهالى نخلعوه ، ونصبوا أخاً آخر له يسمى الحاج فالتجأ عثمان الى عيونه القديم سلطان واداي . فأعاده عبد الكريم الى ملكه ولكنه ضرب عليه اناوة أعظم مما كانت تؤدى الباقرى الى بورنو . فلما رأى الشيخ سلطان بورنو أن الباقرى لا تريد أن تكون تحت سلطة بورنو ، استمد يوسف باشا والى طرابلس لقتال الباقرى ، فأرسل اليه أمير فزان مصطفى الأحمر ومعه قوة سنة ١٢٣٣ ، ثم فى سنة ١٢٤٠ كانت حرب انفالا الثانية ولم يوفق سلطان بورنو لتدوين الباقرى . ومات عثمان سنة ١٢٦٠ وخلفه ابنه عبد القادر الذى كان هو الجالس على عرش باقرى يوم حرر ذلك السائح رحلته وقال ان سكان باقرى يومئذ كانوا مليوناً ونصف مليون نسمة .

وذكر سياحته الى مملكة « لوغون » ومقابلته لسلطانها ، ولكن بدون أن يشاهده وجهاً لوجه بل كان السلطان قاعداً وراء ستر من الحصر ، وكان يترجم بينهما ضابط بورنوى ، اسمه « كاشلا ممدى » كان ذهب الى هناك لقبض الاتاوة السنوية التى تدفعها لوغون الى بورنو . ويقال لسلطان لوغون « ميأرا » (بتشديد الياء) فعرض السائح الانكليزى السلطان المذكوران الدولة الانكليزية كانت أرسلت ضابطاً معتمداً من قبلها وهو المسمى بالرئيس خليل ، لاجل تقديم التحية لوالده « ميأرا صالح » ، وهى الآن مرهلتة هو لاجل تقديم التحية لسعادته السلطانية . فسر السلطان بذلك وكان اسم هذا السلطان ميأرا يوسف . وكانت مملكته تدفع اتاوة لبورنو وللباقرى معا . ويقول السائح الانكليزى ان مملكة لوغون كانت جديدة ولم يكن مضى على دخولها فى الاسلام أكثر من ستين سنة ، يوم جاءها السائح . وقال ان فيها قبائل من العرب وذكر انه فارق مدينة قارناق لوغون عاصمة لوغون قاصداً الباقرى ، وبعد أن ذكر تفاصيل كثيرة عن أحوال تلك البلدان ، وصناعتها وزراعتها وغاباتها وأثمارها ، ومن عرف من رجالها ، ذكر رجلاً اسمه الحاج أبو بكر صادق من أهل الباقرى كان يحسن العربية ، أنه سهل له أموره وساعده فى شئنا كثيرة عرضت له ، وفى دخول « ماضه » عاصمة الباقرى . وكان سلطان الباقرى يوم وصول السائح غائبا فتعرف فيها بثلاثة رجال أحدهم الحاج أحمد ، أصله من البامبارة

على ساحل البحر المحيط ، كان يتجر بين تنبكتو والتوات ثم قصد المدينة المنورة ، ومنها جاء الى بر الشام وحضر حصار ابراهيم باشا ابن محمد على لعكا ، ثم ذهب الى بغداد والبصرة وأخيراً عاد الى المدينة المنورة ، وكان مجيئه الى الباقيرى لاجل أخذ عبيد لخدمة الحرم النبوى . والثانى هو المسمى بالفقيه سامبو من الفلاتنه ، كان مكفوفاً ، لكنه فى غاية النباهة ، قرأ فى الازهر وتبحر فى الآداب والفلسفة ، وكان قصد مدينة زيد فى اليمن لدرس الحساب والجبر لاشتهار زيد بهذه العلوم ، فبال دون وصوله الى زيد ما كان من حروب الوهاية ، فجا الى دارفور ومنها الى واداي ، واتصل بسلاطنها عبد العزيز ، ثم بعد موت هذا السلطان تحول الى الباقيرى . قال السائح الانكليزى ان فقيه سامبو كان يروى تاريخ الخلافة ، ويحدث عن عظمتها من بغداد الى الاندلس ، ويعرف ذلك حق المعرفة . وأما الثالث ، فكان رجلاً مصرياً اسمه سليمان هو فى غاية التهذيب ، وقد عرف استانبول ومكة وغيرهما من البلدان . قال واثناء اقامته بمأضه احتبس المطر طويلاً ، فطير به الاهالى وقالوا ان قدوم هذا السائح الانكليزى هو السبب فى امتناع الفيث فقال لهم : ان هذا عيب عليكم لانكم مسامون ولا يجوز أن تكون لكم أفكار عبدة الاصنام . فقال له أحد رجال تلك الدولة : نعم انه لا يحتبس المطر بسبب أحد ولكن نرغب اليك أن تشترك أنت مع الاهالى فى الدعاء بنزول الفيث . ثم وردت الى السائح كتب من الحكومة الانكليزية تشكره فيها على عمله ، ومن سلطان بورنو يلمس منه الرجوع اليه . فوقع هذه الكتب فى أيدي رجال الحكومة الباقيرمية ، فحصلت لهم فيه شبهة وأرادوا أن يعتقلوه ، وطلبوا منه كتاب الرحلة الذى كان يحرره ، وأحيلت هذه الكتب والرحلة الى جماعة العلماء الذين هناك ومنهم الفقيه سامبو ، فبعد البحث فيها قالوا للحكومة ليس فى هذه المكاتبات شىء يوجب الحنر ، وهذا الرجل انما غاية العلم والاطلاع . وبعد ذلك امكنت السائح مقابلة السلطان عبد القادر الباقيرى ، فقال للسلطان : ان الدولة الانكليزية هى متفقه مع سلطان استامبول ! ومن هنا يظهر انه طالما تقرب الانكليز الى ملوك الاسلام ، حتى فى السودان ، بدعوى الاتفاق مع سلطان استانبول

شرقى افريقية

للشركىس

من البلاد الاسلامىة المعدودة فى افريقية ، بلاد سواحل زنجبار والصومال والغالاه Gallas والقسم الاسلامى من الحبشة . ولما كان هدفنا الذى نرمى اليه فى هذه التعليقات ليس التعريف بجميع بلدان الاسلام وشؤون الاسلام ، بل التعريف بما نأى من البلاد ونمض من الشؤون وخفى من الأخبار ، مع ترك الحقائق المشهورة والتواريخ التى يعرفها الخاص والعام ، رأينا أن نقول كلمة عن هذه البلاد .

لا يخفى أن سياسة « المناطق » هى الصفحة الأولى من الاستعمار ، ولا يوجد شىء أشد خطراً على الممالك المستقلة من تعيين الدول العظام « المناطق » التى يتفقن على اعطائها لكل منهن ، فقد تكون أعدى من الجذام ، وقد تجر الى الحروب العظام . وما أخذت فرنسا مرا كش الامقابلة لأخذ انكلترة مصر ، وما دخلت ايطالية طرابلس الامقابلة لأخذ تينك الدولتين مرا كش ومصر . وما شبت حرب البلقان الا على أثر الغارة الايطالية على طرابلس وذلك أن دول البلقان الصغىرة لما رأأت ايطالية قد استباحت حى الدولة العثمانىة بدون أدنى تحرج ، وخلافاً للعاهدات الدولىة ، أباحت هى لنفسها ما أباحه غيرها لنفسه ، فكانت الحرب البلقانىة التى هى بلا مرء أم الحرب العامة . فأنت ترى ما ولده جشع الدول الكبرى وما نشأ عن تقسىمات فرنسا وانكلترة فى افريقية بموجب عقد سنة ١٩٠٢ ، ولندكر لك الآن خلاصة استيلاء الألمان على مستعمرة شرقى افريقية ، وقضاءهم على سلطنة تلك البلاد التى كانت للعرب فنقول :

كان بشارك يكره الاستعمار ويذهب الى كون ألمانيا يجب أن تكفى باستثمار داخل بلادها ، وتمضى فى طريق ترقىها الصناعى الذى فاقت فيه جىع الأمم ، وكان يتجنب مشكلات الاستعمار التى هى مفاتيح للحروب والمصائب ، ولكن جىع الألمان الذين كانوا يسبحون فى البلدان الشرقىة ، وىرون أعلام فرنسا وانكلترة وهولاندة خافقة على بلاد

السود والجر والصفىر ، لم يكونوا يرون رأى بسمارك ، بل كانت تأخذهم الغيرة من تبسط هاتيك الدول وراء البحار مع انكماش ألمانيا فى داخل بلادها . مع أنه كما قال الشاعر :

فلا كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع

تم لما اتسعت تجارة ألمانيا وارتقت صناعتها هذا الارتقاء الهائل ، لم تنشأ الشركات الألمانية أن تبقى فى استجلاب المواد الخام عالة على تجار الممالك الأخرى ، بل أحببت أن تكون لها مستعمرات هى أيضاً تأخذ منها ما تحتاج اليه رأساً ، وما زال الأمل بسمارك حتى أنزلوه الى ميدان الاستعمار .

وأول شركة تجارية ألمانية حاولت التملك فى افريقية هى شركة فرمن Wöermann

النقلية ، كانت لها مصالح عظيمة فى سواحل افريقية الغربية ، فأرادت عام ١٨٨٢ أن تملك لنفسها مرسى على تلك السواحل ، وسنة ١٨٨٣ أبلغ سفير ألمانيا فى لندن حكومة بريطانيا العظمى ، ان الأراضى التى لا يكون عليها دعوى من انكلترة أو دولة أخرى ، تحفظ ألمانيا لنفسها حق وضع اليد عليها . وفى ٢٤ ابريل سنة ١٨٨٤ أبلغت ألمانيا انكلترة أن الأراضى التى تملكها الألمان داخل مرسى « انغرابكينيا » وشمالى نهر الاوراج بموجب صكوك بينهم وبين بعض زعماء الهوتنتوه هذه ، قد صارت تحت الحماية الألمانية . وأبدت حكومة مستعمرة الكاب معارضة لهذا التملك الألمانى فى تلك الناحية ، فأرسل بسمارك بارجتين حريتين سلعتا الالمان هاتيك الأراضى بالقوة .

وفى تلك الاثناء كانت فرنسا قد اتفقت مع انكلترة على اقتسام البلدان الواقعة شمالى سيراليون ، وانكلترة اتفقت مع البرتغال على اقتسام مستعمرات جنوبى افريقية ، فاشتدت حركة الغيرة فى المانية ، وسنة ١٨٨٣ اشترت شركة فرمن السالفة الذكر أرض مالنبا Malinba فى الكامرون ، وسنة ١٨٨٤ التمس بعض زعماء بلاد توغو باغراء تجار الالمان حاية الامبراطورية الالمانية ، ومنذ ذلك الوقت تأستت مستعمرة الكامرون واضطرت انكلترة وفرنسا ان تحددا حدود مستعمراتهما بينها وبين المانية ، التى صارت مالكة الكامرون والتوغو ، وتم ذلك سنة ١٨٨٥ و ١٨٨٦ .

ولم يقتصر الالمان على منافسة الانكليز والفرنسيين فى غربى افريقية بل تبسطوا فى شرقى هذه القارة ، فاشترت « شركة الاستعمار الالمانى » سنة ١٨٨٤ أراضى واسعة فى

بلاد فيتو Witu ، واتفقت مع سلطان فيتو على أن يعترف بحمايتها للاراضي المذكورة . فاحتج سلطان زنجبار على عمل سلطان فيتو وزعم أنه لا يملك حتى النزول للامان عن شى ، و سرح جنودا الى هاتيك الارجاء لحفظ حقوق سيادته عليها . وكان سلطان زنجبار يدعى حق السلطنة على جميع البلاد الممتدة من رأس دلغادو Cap Delgado جنوبا ، الى فارشيخ Warscheich شمالا ، والتي تمتد من البحر الى البحيرات الكبرى داخل القارة .

فالامان نالوا من الانكياز الاعتراف بصحة عملهم ، في اتفاق مؤرخ في ٣٠ مايو سنة ١٨٨٥ وفي ٧ أغسطس من تلك السنة جاءت خمس بوارج حربية المانية ، وهددت سلطان زنجبار في عاصمته بجزيرة زنجبار . فانهى الخلاف بعقد معاهدة بين السلطان والامان ، على أن تعفى من المكوس جميع البضائع والمتاجر المشحونة الى بلاد الامان ، وجعلت فرصة دار السلام على الساحل الافريقى في يد المانية . وتأسست مستعمرة شرقى افريقية الالمانية ، وتعينت لجنة المانية مختلطة بانكليز وفرنسيس لتحديد حدود هذه المستعمرة .

وسنة ١٨٨٦ تم تعيين الحدود ، فخرج في نصيب سلطان زنجبار جزر زنجبار وبما ولامه Lamce ومافيا Mafia ، وعشرة أميال بحرية من العرض على طول سيف البحر الممتد من مصب نهر المينيفانى في جون زونفى Zunghi الى كيبينى Kipini ، مع بلاد كيساجو Kisma u وبارافا Barawa ومركا Merka ومقديشو Makdishu وفارشيخ . وتعين لسلطان فيتو البلاد التي تمتد من كيبينى الى شمالى جون ماندا Manda .

وكان حد المستعمرة الألمانية من الجنوب نهر رفوما Rovuma ومن الشمال خط يمتد من مصب نهر الفانغا Wanga الى بحيرة جيب Jipe ومن هناك في وسط أراضى زافتا Zaveta ودشاقا Dechagga تابعاً للمصب الشرقى من « الكيلمانجارو » حتى بحيرة فكتوريا نيازا وتعهدت المانية بان لا تمتد شمالى هذا الخط ، وانكثرة بان لا تمتد جنوبيه وأما البلاد التي في الشمال الى زانا Zana ومنها الى معارضة الدرجة ١ من العرض الشمالى مع الدرجة ٣٧ من الطول الشرقى ، فجعلت منطقة نفوذ انكليزية . واتفقت دولتا انكثرة والمانية على اقناع سلطان زنجبار بقبول معاهدة الكونفو ، كما ان المانية رضيت بامضاء الاتفاق الانكليزى الفرنسى ، المتعلق بتام استقلال زنجبار . وفي ٤ ديسمبر سنة ١٨٨٦

امضى سلطان زنزيبار هذا الاتفاق الذي امضته فرنسا أيضا . وفي ١٠ ديسمبر رضيت البرتغال أن يكون نهر وفوما حداً بينها وبين المستعمرة الألمانية ولكن الألمان اتبعوا خطة غيرهم في التوسيع ، فاضطرت انكلترا ان تذكر المانية بكون معاهدة سنة ١٨٦٢ الانكليزية الفرنسية تضمن استقلال سلطنة زنزيبار ليس الجزر فقط ، بل السواحل التي تقابلها . فادعت المانية أن كلا من سلطان زنزيبار و سلطان فيتو عاجز عن توطيد الامن والنظام في أرضه ، وأرادت ارسال حملة عسكرية بحجة الغاء الرقيق وتنظيم البلاد . ولما كان بسمارك بدعائه لا يريد ايجاد معضلة سياسية بينه وبين دولة عظيمة كانكلترا لاجل مستعمرة ، فقد اختار طريقة اخرى وهو ان يشتري سدوت انكلترا ببعض المساحات ، فاعترف في ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٩ بان المانيا تعتبر الاوغانده ووادلاي والاراضي الواقعة شمالي الدرجة الواحدة من العرض الجنوبي ، خارجة عن دائرة العمل الألماني .

وفي مدة كابرني عقدت المانية مع انكلتره اتفاقا تنزل فيه هذه عن جزيرة هليجولاند التي في البحر الشمالي ، بمقابلة تحلى المانية لانكلترا عن حماية سلطنة فيتو وساحل الصومالي ، وصار لانكلترا بموجب هذا الاتفاق حق السيطرة على ساطنة زنزيبار . مع جزر بمبا والاراضي التابعة لفيتو ، وأزل سلطان زنزيبار للمانية عن جزيرة مافيا وما يقابلها . وذهبت سلطنة فيتو باستيلاء انكلترا عليها ، وهكذا تمزقت هذه السلطنة العربية كل ممزق باتفاق انكلترا مع المانية ، وهو الذي نقصت بموجبه جميع هاتيك العهود السالفة . وكان ينبغي للعرب الذين اغتروا بمواعيد انكلترا لهم في أثناء الحرب العامة ، أن يطاعوا على ما جريات هذه الدولة ومعاهداتها مع عرب آخرين مثلهم ، فربما كان لهم بذلك عبرة يعتبرون بها ...

ولم تقبل فرنسا ان تصدق هذه المواطات الانكليزية الالمانية الا ببدل ، هو اعتراف انكلترا بحماية فرنسا لماداعسكر .

وتبلغ مساحة المستعمرة الألمانية المسماة بمستعمرة شرق افريقية ، ٩٩٥٠٠٠ كيلو متر وعدد سكانها سبعة ملايين وخمسمائة وأحد عشر الف نسمة ، من أصلها ثلاثة ملايين من أمم البانتو والواميهي والمافيتي والفاهوما والمأساي . وهم سكان البلاد الأصليون ، ومن بقي فهم جنس اسمه السواحلي ، متولد من اختلاط العرب والزوج ، فهؤلاء يبلغون ثلاثة

ملايين ونصف مليون هذا بحسب تقويم المسيو براديه Prader ناموس مجلس الأمة الفرنسى فى كتابه المسمى « بالمستعمرات الألمانية وقيمتها » المطبوع فى سنة ١٩١٩ ، ويقول المؤلف المذكور ان فى هذه المستعمرة خمسة آلاف عربى . ونحو عشرة آلاف هندى ؛ ونحو ٥٣٠٠ أوربى أكثرهم ألمان . وهذه البلاد من أوفر بلاد الله محاصيل وغللات ، وفيها معادن كثيرة ، وقبل الحرب بقليل صدر منها الى ألمانيا ١٢ ألف بالة قطن ، ونصف مليون كيلو من البن ، وأطال الكتاب .

وقد ورد فى كتاب « السلطنة الاستعمارية الألمانية » ما يأتى ملخصا :

« ان البرتغاليين لما جاءوا الى هذه البلاد فى أواخر القرن الخامس عشر ، وجدوا فيها كثيرا من التجار الهنود والصينيين ، ولكن هؤلاء لم يتركوا أدنى أثر من مدينتهم بين الأهالى السود حتى ان ما يوجد من الخزف الصينى بهذه البلاد انما وجد بواسطة العرب والفرس .

يقول المؤرخ بطوليموس ان العرب فى النصف الثانى من القرن الأول للمسيح ، كانوا بدأوا يتجرون مع شرقى افريقية بالعاج والعبيد ويصلون الى حدود الموزامبيق . أما بعد ظهور الاسلام فازدادت هذه التجارة فى شرقى افريقية ازديادا عظيما حتى انقلبت فى نحو القرن الثامن للمسيح استعماراً حقيقياً . وتأسست فى أوائل القرن العاشر «مغدشو» و « بارا كا » وفى السنة ٩٧٥ جاء فرس من شيراز وأسسوا « كيلفا » ، وتوغلوا فى السواحل الى « رودسيا » طالبين الذهب ، وانتشروا على طول الساحل الشرقى ووصلوا الى مغدشو وبارا كا وماليندى ومونباسه وتونغونى وزنزيبار وبما عند دار السلام الحالية ومافيا وغيرها . ووجدت امارات فارسية صغيرة بين الامارات العربية . ولما ورد البرتغاليون تلك البلاد ، وجدوا فيها المدينة الاسلامية مؤسسة مؤهلة . ولم يقتصر هؤلاء العرب والفرس على التجارة فى أعمالهم هناك ، بل اشتغلوا بالزراعة وعاموا غيرهم ، وغرسوا شجر الكوكو وعدداً لا يحصى من أشجار جزيرة العرب وفارس ، مثل المانغو والرمان والارج وقصب السكر وأدخلوا زراعة القطن والسهم الهندى والبهارات الهندية والأرز واتوا بكثير من حيوانات بلدانهم . وبقيت المدينة الاسلامية قروناً طويلة فى هذه السواحل ، لكنها فى القرن التاسع عشر أدخلها العرب الى الداخل . على أن البرتقال ، كانوا قد

وضعوا حداً للدور الأول من مدينة العرب عند ما احتلوا زنجبار سنة ١٥٠٣، وباراكا سنة ١٥٠٤ وكيفا سنة ١٥٠٥، ومونباسه فى السنة نفسها. وكان مقصدهم بهذا الاحتلال تأسيس قواعد تجارية للبضائع التى تأتى من الهند، ووضع اليد على معادن الذهب فى «سوفالا» وبقى البرتقال هم السادة فى تلك السواحل الى أواسط القرن السابع عشر اذ قاتلهم عرب عمان قتالا شديداً، بدأوا به فى ساحل عمان نفسها سنة ١٧٥٠، فلما جلوهم من هناك، هاجوهم فى مستعمراتهم بالهند وفى شرقى افريقية، وفتحوا زنجبار ومافيا وبمبا ومونباسه فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر. ثم ان حروباً داخلية فى عمان جلت السلطان سعيداً على تحويل كرسية الى زنجبار، ثم صار ماجد سلطاناً لشرقى افريقية، وبقى السلطان توينى على كرسى مسقط. وهذا فى نحو سنة ١٨٥٦، ثم توفى ماجد وخلفه أخوه برغش. وفى أيام هذا السلطان بدأت الحوادث، التى انتهت بتقسيم هذه السلطنة العربية. وبالجملة فالسلطنة العمانية العربية، التى استمرت من آخر القرن السابع عشر الى آخر القرن التاسع عشر، قد تمكنت من التوغل فى داخل افريقية أكثر من جميع الدول التى قبلها ولم يكن السبب فى ذلك هو التجارة فحسب، بل الزراعة التى كان العرب يستجلبون لها العملة من داخل البلاد. وازدادت تجارة الرقيق بازدياد الغراس ونمو الزراعة فى السواحل، وأسس العرب فى البلاد الداخلية فى قسم انجامفيزى Unjamwesi المدينة المسماة «طابوره» و«اودجيدشى» وغيرهما، ووصلوا الى الكونغو الأعلى وأسسوا فيها مدناً وقرى، وكانت لهم هناك جنود مسلحة لحماية قوافلهم ولا جرم أن العرب بحضارتهم كانوا يفيدون الأمم الزنجية السوداء. ولما ألغيت تجارة الرقيق فى زمان السلطان برغش سنة ١٨٧٣ ساءت حالة الزراعة فى السواحل وتقهقرت البلاد الى الوراء بسبب ندرة العملة. اهـ.

ثم ذكر مؤلفو كتاب «السلطنة الاستعمارية الألمانية» تاريخ بسط انكارتة وألمانية حاجيتهما على سلطنة زنجبار وملحقاتها مما لا يخرج عما تقدم، ولكنهم قالوا: انه فى ٨ ابريل سنة ١٨٨٨ استاجرت الشركة الألمانية الاستعمارية من سلطان زنجبار مكوس السواحل كلها فلما أرادت وضع اليد عليها ثار العرب مع من معهم من الزنوج ثورة عظيمة لاسيا مع كراهيتهم من قبل للجنس الأوروبى، وكان مقدام هذه الثورة الشيخ أبو شيرى

وسنة ١٨٩٠ في الثلاثين من يناير (كانون الثاني) أصدر المجلس الألماني (الرايستاغ) قراراً بتجنيد جيش من السود واتحاد نار الثورة، وعين اهرفيزمان قائداً عسكرياً والياً، وكانت حرب شديدة صعبة المراس، لأنه كان لابد من ايجاد كل شيء من العدم، ولكن هذا الجيش بمساعدة الأسطول تمكن من فتح البلاد.

ثم جاء في هذا الكتاب ذكر أهالي البلاد، فقبل انهم عرب وعجم وهنود وكومور وزنوج والأمة التي يقال لها السواحليون، وهم من أصل يقال له فانقفانا Wangvana اختلطوا مع العرب من ألف سنة، واختلطوا مع السود سكان الداخل ومع سائر الأجناس حتى الأجناس البيضاء. وهم يزعمون كونهم من أصل شيرازي، وصورهم جميلة، وتقطيعهم لطيفة، وهم أهل نظافة ينظفون أسنانهم ويغتسلون دائماً ولا يستعملون الوشم مثل الزوج ويحتنون لأنهم مسامون. ومن عاداتهم لبس البيض، ويجعلون على رؤسهم كمة بيضاء ان لم يلبسوا الطربوش الأحمر. ولكنهم الى اليوم لا يلبسون البنطلون. ونساؤهم لا يتنقبن، ولكنهن يأتزرن بشيء اسمه (الشقة) يغطي الجسم ويجعلون على الاكتاف شيئاً اسمه (كسونو) وهم اجالا سواء منهم سكان المدن أو القرى، لا يشبهون في شيء سكان الداخل من الزوج، بل عندهم أدب وكياسة، ومن صفاتهم حسن المعاشرة، وقرب الألفة، وسرعة العاطفة والبر بالاهل والحنو على الأولاد ويحبون السكنى بعضهم بقرب بعض، ومنزلهم بغاية النظافة بل الشوارع التي بين بيوتهم نظيفة، وبينون بيوتهم صفوفاً ويفرسون أمامها صفوفاً من الأشجار الكبيرة مثل الكوكو والتاماريند، وأينما وجد السواحي اعتنى بفرس الشجر. وأكثر شغل الحقول يقوم به نساؤهم وأما الرجال فيصطادون السمك أو يتجرون بالبضائع أو يحملون الأثقال. وبالاجال فلا تعد هذه الأمة بين الأمم الموصوفة بالشجاعة، لكن بين الأمم الموصوفة بالوداعة. ويتال ان عندهم شيئاً من الكذب والكسل، وان عندهم ميلا عظيماً الى الطرب، يحبون الزفن والغناء، ويعرفون بالبطول والطنابير، ويقضون أوقاتهم بالسرر. ولغة السواحليين أكثر لغات تلك البلاد انتشاراً يقال لها «كيسواحلي» Kist aheli وأنتق هذه اللغة ما يتكلم به في بلد (لامو) ويسمى (كينغوزي) وهو بمقام لغة ثقيف أو سعد بن بكر في العربية. وأردأ السواحلي ما يتكلمون به في جزيرة زنجبار، لأنه خليط من العربي والفارسي والاوردو

والانكليزى والبرتغالى، و بعد الاحتلال الألماني دخل فيه الألماني أيضا . وليس للغة السواحلية كتابة ولا آداب وكانوا يكتبون بالحروف العربية ، وصاروا اليوم يكتبون كثيرا بالاماني والانكليزى ، واللغة المذكورة غنية بالكلمات الدالة على العواطف والمعاني المجردة . ويوجد فى لغتهم خاصة لا توجد فى غيرها ، وهى ان بعض الكلمات يتغير معناها بتغير كيفية لفظها كأن تمد الحرف أو تقصره أو ترفع صوتك عند اللفظ أو تخفضه .

أما شعب جزائر الكومور أو القمر فاسمهم (انغاسيغا) أجسامهم حسنة التركيب وعقولهم جيدة ، ولكن أخلاقهم غير جيدة ، وبسبب لباقتهم وذكائهم يستخدمهم الأوربيون فى البيوت حثما وفى السفن نواتية .

أما السوماليون فكانوا يأتون الى هذه السواحل للتجارة ثم استقروا بها ، وهم طوال القامات مع دقة فى العضلات .

وأما العربى العماني النبيل ، فقد بدأ يقل وجوده هناك (وباللاأسف) ! وكانت له هيئة جميلة جدا فى زئزبار وتلك السواحل ، وكانت على العربى سيماء الشرف والسرادة ، حتى الى مابعد سقوط سلطنة العرب هناك وانقضاء دورهم السياسى والتجارى . فلم يزل الباقون منهم يعيشون معيشة الأكار محفوفين بالحشم والعبيد ولا يعملون بأيديهم . وهم يناظرون الهنود فى التجارة . وكانت منهم بيوتات غنية كثيرة ، هوت فى الفقر بسقوط دولة العرب السياسية ولكنها بقيت حافظة وقارها وكرامتها ، لأن العرب فى تلك البلاد هم أشرف البلاد ، لا يشتغلون بأيديهم أينما وجدوا . ويرتدون ملابس بهية منها مايسمونه القفطان ، جوخ أسود مطرز مفتوح من الأمام تحته قيص أبيض طويل يسمى كانزو ثم نطاق واسع يحملون من فوقه خنجرا محلى بالفضة ، وهم طوال القامات ، رشاق القدود ، سمر الألوان ظاهره والرصانة تجد حركاتهم كلها موزونة بدون تملق بل بشيء من الانقباض ويوجد صنف آخر من العرب اسمه « شجرى » نسبة الى الشجر من جهات حضرموت ، فهذا الصنف ليس من النمط الأول لأنهم فقراء يتجرون بالسجاد والزيت ، وليسوا ممن يقدرن على مزاجة الهنود فى التجارة .

وفى سواحل زنجبار أناس من البلوج ، وهم فقراء ، قليلو العدد . وأناس من الفرس الباقين على عبادة النار ، يعرف الانسان بمجرد رؤيتهم انهم من الجنس الأرى ، ويلبسون

مثل الأوربيين تقريبا ، ويجعلون على رؤوسهم قبعات مخروطية الشكل وهم تجار ،
ومنهم محامون صغار لدى المحاكم

وأكثر الغرباء في تلك السواحل هم الهنود ، وهم قسبان المسلمون والوثنيون ،
فالمسلمون أكثرهم من طائفة « الخوجه » (قسم من الاسماعيلية) وهم تجار وصناع ،
منهم صاغة ، ومنهم خياطون وحذاءون وقصارون ، ومتى أتى الخوجه عاد الى وطنه .
وأما الوثنيون فبراهمة وبوذيون ، وكلهم يتعممون كالعرب لكن بعمائم مطرزة بالقصب ،
ويستحضرون نساءهم الى تلك البلاد ، وهن جيلات يتحلين بالجواهر الكريمة ، ولكن
داخل منازلهم قدر لا يعرفون النظافة ، حتى ان الشوارع التي أمام منازلهم تغلب عليها
القدارة . ومن الهنود صنف اسمهم البنجان ، ضعفاء لا يأتون لكون لحوم الحيوان ، ولا طعام
لهم الا من النباتات ، ولا يقدرون أن يقربوا سائر الأمم ، ولا يأتون بعائلاتهم من الهند .
وبالاختصار فانهم مثقلون تحت التكاليف الدينية ، ومنذ مدة بدأ الهنود يدخلون الى الداخل
ويوغلون في البلاد ، فازداد عددهم في « موروغورو » و « كيلوسا » و « ايرنيغا »
و « طابوره » و « موازه » و « بوكوبا » واجتمع منهم طرءاء كثيرون .

وهناك صنف اسمهم « الغوازه » نسبة الى « غوا » بلدة من الهند تولاهما
البرتقاليون مدة طويلة ، فاختلطوا بالأهالي وتناسلوا وجاء منهم هذا الصنف ، ويسمون
أنفسهم بأسماء برتقالية مثل « دوسيلفا » و « دوسوزا » وما أشبه ذلك ، وهم يشتغلون
بالتجارة والخياطة والطبخ وخدمة القنادق .

وفي تلك السواحل عدة آلاف من الألمان ، ثم عدة مئات من الانكليز ، ثم جماعات
من الهولانديين والنموسيين والسويسريين والطلينان ، وهناك أروام وسوريون ويقال
لهم « الاوربيون المتوحشون » وهؤلاء يشتغلون بالزراعة والتجارة والصناعة ، وبأيديهم
القنادق ، وهم في غاية الجد والنشاط وقد تملكوا الأملاك ، ففي الثلاثمائة رجل منهم ١٥ رجلا
متملمون . اهـ ملخصاً وقد آلت مستعمرة شرقي افريقية الألمانية الى مستعمرات انكثرة
بموجب معاهدة فرساييل .

مسلمو الحبشة

المؤلف

أما الحبشة فبلاد من شرقي افريقية يحدها من الشمال النوبة والبحر الأحمر ومن الشرق بلاد الدناويل والصومال ومن الجنوب بلاد الغاله ومن الغرب السودان المصري وهي بلاد جبلية من تفعة متوسط ارتفاعها ٢٠٠٠ متر وفيها قنن يبلغ علوها نحو ٤٦٠٠ متر كالتي في جبل « أبا » في الشمال وأخرى يبلغ علوها ٤١٢٠ كالتي في جبل « غونة » في الجنوب ويوجد الثلج على قنن الجبال المتناهية في العلو صيفاً شتاء . وأما الهواء فهو حار في القسم الأدنى الذي هو دون ارتفاع ١٥٠٠ متر ومعتدل في الأماكن التي ارتفاعها يقع بين ١٥٠٠ متر و ٢٧٠٠ متر وبارد فيما هو أعلى من ذلك . وفي أراضيها الحديد والذهب والصفير وفيها زراعات متنوعة ولكن اعتماد أهلها على المواشي . وفي جنوبي الحبشة بحيرة « تانا » التي يخرج منها بحر الأزرق والى الشمال من هناك يخرج نهر العظيرة الذي مصبه في النيل ومارب الذي لا ينفذ من صحارى بلاد النوبة . والأحباش أجناس مختلفة منها من السلالة السامية ومنها من البهل ومنها من الزنج وهم يفتقرون عن الجنس الزنجي بالرغم من شدة سوادهم . وبين اللغة العربية واللغة الحبشية تشابه يثبت كون اللغة الحبشية هي من اللغات السامية . وبلاد الحبشة ثلاثة أقسام ففي الشمال بلاد « التيغرى أو التيجرى » ومدنها عدة واكسوم . وفي الوسط « الأمبار » وعاصمتها غندار وفي الجنوب « الشوا » ومدينتها آنكوب . والى ولاية الشوا هذه أضيفت بلاد هرر التي أخذها الأحباش من يد أمراءها المسلمين سنة ١٨٨٧ .

و بلاد الحبشة من قديم الزمان هي في منازعات وحروب دائمة منها ما هو بين الأحباش النصارى والأحباش المسامين ومنها ما هو بين رؤوس الأحباش بعضهم مع بعض . وفي سنة ١٨٥٥ نزل على عرش الحبشة قائد اسمه كاساي بعد أن قهر جميع أقرانه وتزوج ملكا ملوك الحبشة باسم تيودوروس الثالث إلا أنه خاشن في معاملته دولة انكلترا فسأقت عليه حلة قهرته فاتحرت سنة ١٨٦٨ خلفه في السلطنة أمير التيغرى وتلقب يوحنا . وحصلت

بينه وبين المصريين حرب كانت الطائفة له فيها آخر مرة فكف الخديوي اسماعيل عن قتاله . ثم خلفه نجاشي آخر اسمه يوحنا في أيامه دبت دولة ايطالية الى هناك تبغى الاستعمار فصادمها بقوة الا ان السودانيين جاعة المهدي تغلبوا عليه وقتلوه . خلفه منليك ملك شوا وصالح الطليان وامتد هؤلاء في الاريترة وأطراف التيغري لولا أن الخلاف وقع بينهم سنة ١٨٩٥ فاتسهي بواقعة « عدوه » الشهيرة التي انهزم فيها الطليان هزيمة شنيعة عدلوا من بعدها عن استعمار الحبشة واكتفوا بالأريتره .

أما عدد أهالي الحبشة جغرافيات الاوربيين تحصيه خمسة ملايين . وهو من باب المتابعة والتقليد لأقوال قديمة العهد اذ مما لاشك فيه أن الحبشة اليوم فيها أكثر من ثمانية ملايين وقد ورد في جريدة الطان (عددها المؤرخ في ١٧ مايو سنة ١٩٢٤) فصل عقده بمناسبة الرأس تافاري كافل ملك الحبشة لهذا العهد وزيارته لباريز جاء فيه ما يأتي :

« ان الحبشة مساحتها نحو ٦٠٠ الف كيلومتر مربع وأهلها نحو ٧ ملايين الى ٨ ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف مليون نصارى (على مذهب الكنيسة القبطية) وثلاثة ملايين مسلمون داخلا في هذا العدد البلاد الاسلامية التي أطاعب مؤخرا . ومليون ونصف مليون وثنيون ونصف مليون يهود وبعض كاثوليك وبرتستانات .

« ان البلاد الواقعة في شرقي افريقية المسماة بالحبشة هي أشبه بقلعة طبيعية كبرى شواغها مطلة على سيف البحر الأحمر وبلاد الصومال الفرنسي والصومال الانكليزي والاريترة الايطالية وأرض النوبة والسودان المصري ، ولا يدخل الى هذه القلعة الا من منافذ ضيقة تحميها قبائل عاتية .

« أما ملك الحبشة الحديثة فينتهي الى زعيم وصل بغزواته وحروبه الى أن أخذ تاج الحبشة وتلقب بتيودروس الثالث ثم غلبه الانكليز سنة ١٨٦٨ فاتحدر في مغللة وخلفه أمير آخر تسمى على الملك وتلقب بالنجاشي الأكبر أي ملك ملوك الحبشة . واسمه يوهانس وكان في زمانه حاكم ولاية شوا واسمه (ساهاالا ماريم) قد حارب يوهانس هذا وعانده ثم صاهره واتسهي الأمر بأنه خلفه على العرش باسم منليك الثاني وذلك لأنه ادعى كونه من ذرية سليمان بن داود الذي عشق الملكة سبا وجاء منها ولد اسمه منليك كان هو النجاشي الأول . ولأجل توطيد وشائج الملك أعطى منليك ابنته (زاوديتو) الى ابن يوهانس فات

هذا بدون ذرية ولم يكن لمنليك أولاد ذكور وإنما كانت له ابنة ثانية (شوارقاد) زوجها من أمير مسلم كان حاربه وتغلب عليه ثم تنصر على يده وهو المسمى بالرأس ميكائيل .
 وولده من ابنته هذه ولد اسمه (ليج ياسو) فجعله ولي عهده فلم يرق ذلك للإمبراطورة (تايتو) ولا للإلهاي ولكن توج بالرغم من ذلك ياسو امبراطورا سنة ١٩١٤ وتسمى أبوه الرأس ميكائيل ملكا على (فولو) و(التيفرى) والنائب العام للمملكة . وكان مولد الامبراطور الفتى سنة ١٨٩٧ فظهرت منه أفعال شاذة أغضبت الأهالي واشتد الغضب عند ما أظهر الاسلام راجعا الى دين أهله فاجتمع الاساقفة والامراء وعظماء المملكة وعقدوا مجمعا خلعوا فيه ياسو وبايعوا زاوديتو ابنة منليك امبراطورة وجعلوا الرأس تافارى كافلا للمملكة ووليا للعهد (٢٧ سبتمبر ١٩١٦) وكان الرأس تافارى متزوجا بابنة الرأس ميكائيل أخت ياسو فعزله ياسو من ولاية هرر فزحف على رأس العساكر الحبشية لقتال حيه وابن حيه فكانت حربا ضروسا طالت واشتدت ولكنها انتهت بتغلب تافارى على حيه وجمي بهذا مصفدا بالحديد الى اديس بابا بعد ان دارت عليه الدائرة في وقعة « دبره برهام » (٢٧ أكتوبر ١٩١٦) وفي ٢ نوفمبر استعرضت الامبراطورة الجيوش وجمي بالرأس ميكائيل أيضا مقيدا بالسلاسل امام العرش الامبراطوري فيقال ان صهره وغالبه الرأس تافارى رق لحاله وتذكر ما بينهما من الرحم فقام وأجلسه مكانه . أما ياسو فبعد مقاتلات شديدة أيضا أخذ أسيراً وحبس في قلعة واستوسقت الأمور للرأس تافارى « انتهى » .

فقد ظهر لك ان الحبشة هم مسلمون ونصارى وان المركز الأول في هذه المملكة للنصارى وجريدة الطان تنقل ان عدد النصارى ثلاثة ملايين ونصف مليون وعدد المسلمين ثلاثة . ولكن الملحوظ ان عدد المسلمين في مملكة الحبشة بعد ان توسع ملك الحبش الى جهات هرر والصومال والغاله أصبح أكثر من عدد النصارى حتى نقل عن كافل ملك الحبشة يوم كانت الحرب واقعة مع تركية على أثر الحرب العامة انه لا يريد زوال تركية لأنها مملكة اسلامية ولأن المسلمين من رعاياه أكثر من النصارى . وقد اطلعنا على حديث أفاض به رجل من علماء الترك أقام بالحبشة مدة طويلة وعاد الى الاستانة في العام الماضي فسأله أصحاب مجلة سبيل الرشاد ان يفيدهم ماعرفه من أحوال الحبشة فذكر لهم فوائد جمة وقدر عدد مسلمي الحبشة بسبعة ملايين .

وقد يظن بعض القراء ان في هذا العدد مبالغة وليس هذا الظن بصحيح . فعليك بأن تقرأ ما ذكره المسيو موريس فال في معجمه الجغرافي تحت اسم غاله Gallas : « شعب من افريقية منتشر في جنوبي الحبشة وفي البلدان الضاربة الى الجنوب أيضا مما يجاور اقليم البحيرات الكبر المنفصل عن البحر ببلاد الصومال . وهم أقوام جيالة الخلفة لونهم نحاسي يختلفون في الشكل عن الأقوام المجاورين لهم من جنوبيهم كما أنهم يختلفون عن الأحباش والصومال ويقدر عددهم من ٦ الى ثمانية ملايين وأكثرهم سكان مدر والغالب عليهم الزراعة ومعظمهم مسلمون . وقد كانوا أكثر الأحيان مع الاحباش وأخيرا تغلب هؤلاء عليهم فقسم من قبائل الغاله يؤدون أتاوة لملك شوا من الحبشة »

فانت ترى انه ليس في كلام السائح التركي أدنى مبالغة لأنه عدا القسم الخاضع من الغاله لملكة شوا الحبشية يوجد مملكة هبر التي استلحقها الاحباش بمساعدة بعض الدول الاوربية ويوجد مسلمو نفس الحبشة الذين هم كثيرون في وسط تلك المملكة منذ وجد الاسلام .

وقد ذكر جغرافيو العرب بلاد المسلمين التي في أطراف الحبشة فقال ياقوت : زيلع بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح اللام وآخره عين مهملة جيل من السودان في طرف أرض الحبشة وهم مسلمون . ثم ذكر غرائب من عاداتهم في أمر الزواج وغيره .

ونقل صاحب صبح الاعشى جلا كثيرة عن الحبشة القسم المسيحي والقسم الاسلامي منها فناخذ نتفا مما قال : مملكة عظيمة جليلة المقدر متسعة الارحاء فسيحة الجوانب . قال في مسالك الابصار : وأرضها صعبة المسلك لكثرة جبالها الشاخطة وعظم أشجارها واشتباك بعضها ببعض حتى ان ملكها اذا أراد الخروج الى جهة من جهاتها تقدمه قوم مرصدون لاصلاح الطرق بالآت لقطع الأشجار واحراقها بالنار . قال : وهم قوم كثير عددهم ولم يملك بلادهم غيرهم من النوع الانساني لأنهم اجبر بنى حام واخبر بالوغل في القتال والاقترحام طول زمنهم في الأسفار وصيد الوحوش وقتالهم انما يكون عريا من غير لامة تدفع عنهم ولاعن خيلهم . ثم وصفهم بعد ذلك بأوصاف لولا ما هم عليه من الشرك لكانوا في الرتبة العليا من مراتب بنى آدم فذكر أن المشهور عنهم مع ما هم عليه من المجاعة انهم يقبلون الحسب ويصفحون عن الجرائم ومن عاداتهم أن من رمى سلاحه في القتال حرم قتاله

ويكرمون الضيف ولا ينقض الصديق منهم عهد صديقه واذا أحبوا أظهروا المحبة واذا أبغضوا أظهروا البغض والغالب عليهم الذكاء والفظنة وصدق الحدس . ولهم قلم يكتبون به من اليمين الى الشمال كما في العربي حروفه ستة عشر حرفا لكل حرف منها سبعة فروع فيكون عدتها مائة واثنين وثمانين حرفا سوى حروف آخر مستقلة بذاتها لا تنفقر الى حرف من الحروف المذكورة مضبوطة بحركات نحوية متصلة بالخط لامنفصلة عنه . ومع كونهم جنسا واحداً فلغاتهم تزيد على خمسين لسانا الخ ثم ذكر في صبح الأعشى القسم الأول من الحبشة وهو بلاد النصرانية قال وهو القسم الأوفر عددا الأوسع مجالا . وهو الذي يملكه ملك « أمحرا » بفتح الألف وسكون الميم وفتح الحاء والراء المهملتين والفاء في الآخر وهم جنس من الحبشة . ثم ذكر تقاسيم مملكة أمحرا وصفات تلك البلدان بلدا بلدا الى أن قال ان ملكهم في الزمن المتقدم كان يلقب بالنجاشي وقد ذكر المقر الشهابي ابن فضل الله في مسالك الأبصار ان الملك الأكبر الحاكم على جميع أقطارهم يسمى بلغتهم « الحطى » بفتح الحاء المهملة وتشديد الطاء المهملة المكسورة وياء مثناة تحت في الآخر ومعناه السلطان اسما موضوعا لكل من قام عليهم ملكاً كبيراً . الى أن قال : ومع ما هم عليه من سعة البلاد وكثرة الخلق والاجناد مفتقرون الى العناية والملاحظة من صاحب مصر لأن المطران الذي هو حاكم شريعتهم في جميع من أهل النصرانية لا يقيم الامن الأقباط اليعاقبة بالديار المصرية بحيث تخرج الأوامر السلطانية من مصر للبطرك المذكور بارسال مطران اليهم وذلك بعد تقديم سؤال ملك الحبشة الذي هو الحطى وارسال رسله وهدايا ، قال : وهم يدعون أنهم يحفظون مجارى النيل المنحدر الى مصر ويساعدون على اصلاح ساوكة تقربا لصاحب مصر وقد ذكر ابن العميد مؤرخ النصارى في تاريخه انه لما توقف النيل في زمن المستنصر بالله الفاطمي كان ذلك بسبب فساد مجاريه من بلادهم وان المستنصر أرسل البطرك الذي كان في زمانه الى الحبشة حتى أصلحوه واستقامت مجاريه .

ثم ذكر القسم الاسلامي من بلاد الحبشة وقال انه البلاد المقابلة لبر اليمن على أعالي بحر التلزم (البحر الأحمر) وما يتصل به من بحر الهند ويعبر عنها بالطراز الاسلامي لأنها على جانب البحر كالطراز له (١١)

(١١) قرأت في تاريخ نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبي ان ساحل فلسطين يقال له أيضا الطراز الأخضر

قال في مسالك الأبصار وهي البلاد التي يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع قال : والزيلع
انما هي قرية من قرأها قال الشيخ عبد المؤمن الزيلعي الفقيه : وطولها براً وبحراً خاصاً
بها نحو شهرين وعرضها يمتد أكثر من ذلك لكن الغالب في عرضها انه مقفراماً مقدار
العمارة فهو ثلاثة وأربعون يوماً طولاً وأربعون يوماً عرضاً . الى أن قال : ان بلادهم
ليست بذات اسوار ولا لها نخامة بناء ومع ذلك فلها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب
والجمع والجماعات وعند أهلها محافظة على الدين الا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه
ولارباط ولا زاوية وهي بلاد شديدة الحر وألوان أهلها الى الصفاء وليست شعورهم في غاية
التفلفل كما في أهل مالي وما يليها من جنوب المغرب . وفطنهم أنه من غيرهم من
السودان وفطرهم أذكي وفيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء ويمتدحون بمذهب أبي حنيفة
خلا « وفات » فان ملكها وغالب أهلها شافعية .

وقال ان هذه البلاد تشتمل على سبع قواعد : الأولى « وفات » والعامية تقول أوفات
ويقال لها أيضاً « جبرة » والنسبة اليها جبرتي وموقعها بين الاقليم الأول وخط الاستواء .
وقال الشيخ عبدالله الزياي : وطول مملكته خمسة عشر يوماً وعرضها عشرون يوماً بالسير
المعتاد وكلها عامرة أهلة بقرى متصلة وهي أقرب أخواتها الى الديار المصرية والى السواحل
المسامية لليمن وهي أوسع الممالك السبع أرضاً وعسكرها خمسة عشر ألفاً من الفرسان
ويتبعهم عشرون ألفاً فأكثر من الرجلة . والقاعدة الثانية « دوارو » وطولها خمسة أيام
وعرضها يومان وهي على هذا الضيق ذات عسكر جم نظير عسكر أوفات في الفارس والراجل
والثالثة « أرايني » وطولها أربعة أيام وعرضها كذلك وعسكرها يقارب عشرة آلاف فارس
أما الرجلة فكثيرة للغاية . والرابعة « هديت » بالهاء والبدال المهملة والياء المثناة التحتية ثم
هاء في الآخر وموقعها بين الاقليم الأول من الأقاليم السبعة وبين خط الاستواء وطول
مملكته ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام وصاحبها أقوى اخوانه من ملوك هذه الممالك السبع
وأكثر خيلاً ورجلاً وأشد بأساً على ضيق بلاده عن مقدار اوفات وملكها من العسكر نحو
أربعين ألف فارس سوى الرجلة فانهم خلق كثير مثل الفرسان مرتين أو أكثر . والخامسة
« شرعا » وطولها ثلاثة أيام وعرضها أربعة أيام وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجالة مثل
ذلك مرتين فأكثر . والسادسة « بالي » وهي تلى شرعا المتقدمة ولكنها أكثر خصبا

وأطيب سكنا وأبرد هواء . والسابعة « دارة » وهي تلي بالى المقدمة الذكر وطولها ثلاثة وعرضها كذلك وهي أضعف اخواتها حالا وأقلها خيلا ورجالا وعسكرها لا يزيد على ألفى فارس ورجالة كذلك . انتهى ملخصاً .

ثم ذكر ان هذه الممالك السبع هي كلها خاضعة « للحطى » أو النجاشى سلطان أمحرا . وان الملك فيها في بيوت محفوظة الا بالى اليوم فان الملك فيها صار الى رجل ليس من بيت الملك تقرب الى سلطان أمحرا حتى ولاء مملكة فاستقل ملكا بها . قال نقلنا عن مسالك الأبصار : وجميع ملوك هذه الممالك وان توارثوها لا يستقل منهم ملك الا من أقامه سلطان أمحرا واذا مات منهم ملك ومن أهله رجال قصدوا جميعهم سلطان أمحرا وتقربوا اليه جهد الطاقة فيختار منهم رجلا يوليه فاذا ولاء سمع البقية له وأطاعوا فهم له كالنواب وأمرهم راجع اليه ثم كلهم متفقون على تعظيم صاحب أوفات منقادون اليه . ثم قال : وهم مع ذلك كلمتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة ثم حكى عن الشيخ عبدالله الزيلعى وغيره انه لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم قدروا على مدافعة الحطى أو الهاسك معه ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة بينهم تنافس . ثم قال : وقد كان الفقيه عبدالله الزيلعى قد سعى فى الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسول سلطان أمحرا الى مصر فى تنجز كتاب البطريك اليه بكف أذيته عن فى بلاده من المسلمين وأخذ حریمهم وبرزت المراسيم السلطانية للبطريك بكتابة ذلك فكتب اليه عن نفسه كتابا بليغاً شافياً فيه معنى الانكار لهذه الأفعال وأنه حرم هذا على من يفعله بعبارات أجاد فيها . قال : وفى هذا دلالة على الحال . قال : القلقشندى صاحب صبح الأعشى . قلت وقد كتب فى أوائل الدولة الظاهرية « برقوق » كتاب عن السلطان فى معنى ذلك وقرينه كتاب من البطريك متى بطريك الاسكندرية يومئذ وتوجه به الى الحطى سلطان الحبشة برهان الدين الدمياطى الخ ملخصاً .

ثم قال : وأهمل المقر الشهبانى بن فضل الله فى مسالك الابصار والتعريف عدة بلاد من ممالك الحبشة المسلمين منها جزيرة « دهلك » وهي جزيرة مشهورة عن طريق المسافرين فى بحر عيذاب الى اليمن وبينها وبين بر اليمن نحو ثلاثين ميلا . وملك دهلك من الحبش المسلمين . ومنها مدينة « عوان » على ساحل بحر القلزم مقابل تهامة اليمن . واذا كان

وقت الضحى ظهر منها «الجنح» وهو جبل عال في البحر. ومنها مدينة مقدشو قال في «مزبل الارياب» وهي مدينة كبيرة بين الزنج والحبشة وهي على بحر الهند ولها نهر عظيم شبيه بنيل مصر في زيادته بالصيف وقد ذكر أنه شقيق لنيل مصر في مخرجه من بحيرة كورا ومصبه ببحر الهند على القرب من مقدشو. ثم قال القلقشندي: وقد أتى الحطى ملك الحبشة على معظم هذه الممالك بعد الثمانمئة وخربها وقتل أهلها وحرقت ما بها من المصاحف وأكراه الكثيرين منهم على الدخول في دين النصرانية ولم يبق من ملوكهم سوى ابن مسمار المقابلة بلاده لجزيرة دهلك تحت طاعة الحطى ملك الحبشة وله عليه اتاوة مقررة. والسلطان سعد الدين صاحب زيلع وما معها وهو عاص له خارج عن طاعته وبينه وبينه الحروب لا تنقطع وللسلطان سعد الدين في كثير من الأوقات النصر عليه والغلبة والله يؤيد بنصره من يشاء اه ملخصاً.

وقد حرر كثير من مؤرخي الافرنج ورحلاتهم كتباً عن الحبشة ملأى بوقائع الحروب بين مملكة الحبشة النصرانية وملوك الحبشة المسلمين كأصحاب هرر وبلاد الزيلع وكما أنه وجد في ملوك الحبشة النصارى من قهر الاسلام وأثنخ في المسلمين وقتل وسبي وأحرق ودمر كذلك وجد في أمراء الاسلام هناك من كال ملوك الحبشة بكيلهم وأزيد ومن أشهرهم السلطان سعد الدين هذا وأشهر منه الامام أحمد بن ابراهيم الذي ألف على غزواته وفتوحاته شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الملقب بعرب فقيه كتاباً ممتعاً اسمه فتوح الحبشة نشر الجزء الأول منه بنصه العربي المستشرق الفرنسي «رينه باسه» René Basset مع فذلكة للكتاب باللغة الفرنسية فهذا الامام الغازي أحمد بن ابراهيم يصح أن يقال انه صلاح الدين يوسف الحبشة فقد والى الهزائم على الحبشة النصارى مع شدة بأسهم وصعوبة مراسيم ووعورة جبالهم وكون بلادهم بقيت بكرراً لم تطمئنها قدم فاتح ولا ترقى اليها همة غاز فكان هو الذي أوغل في قلب بلادهم وملكهم من نواصيمهم واستزلم من صياصيمهم حتى قال المستشرق «باسه» ان أشهر دور من أدوار تاريخ الحبشة التي بقيت أخبارها محفوظة في أذهان الغربيين هو دور أحمد جران (لقب الفاتح المذكور) الذي كاد أن يسحق نصرانية الحبشة ويعيدها كبلاد النوبة. وقد كان دخول البرتغاليين في هذه العممة هو الذي استجلب الأنظار الى هذه القطعة من تاريخ المشرق وجاءت كتابات البرتغاليين والاطليان

موضحة لها فلهدا نقول : « ان هذا الدور هو أصح أدوار تلك البلاد أخباراً لتضافر الروايات على وقائعه من كل جهة فقد انضمت الى منابع الغربية منابع الشرقية مثل الكتاب العربي الذي نحن ناشره الآن (تأليف عرب فقيه) وكتب مؤرخي الحبشة أنفسهم فيكون لدينا شهادات من جميع الأمم التي اشتركت في هذه الحرب وتجد الغالب والمغلوب مديين بالوثائق والبيانات التي يكمل بعضها بعضاً ويؤيد واحدها الآخر على أنني أذهب الى كون الموقع الأول في غزارة التفاصيل هو للتأليف العربي الذي حرره شهاب الدين أحمد عرب فقيه لا من جهة كونه أقل ميلا من غيره الى قومه بل من جهة كونه شهد بنفسه أكثر وقائع الامام غران فلهدا تجد في مؤلفه تفاصيل دقيقة موضحة لا تجدها في كتاب آخر من كتب المسيحيين على أن هؤلاء متفقون معه في الروايات عن الحوادث الواردة في كتابه .

واند روى عرب فقيه من خبر الامام أحمد بن ابراهيم ما ملخصه :

كان للسلطان سعد الدين من الأولاد أبو بكر وبدلاى فبدلاى له ولدان أحدهما محمد ابن بدلاى جد السلطان عثمان بن سليمان .

ولأبي بكر وادان أحدهما على وهو جد السلطان بركات وحيب . فعلى له أولاد منهم أظهر الدين وهذا له محمد ومحمد له عمر دين . والولد الثاني لأبي بكر اسمه آزر وهو جد السلطان محمد ابن أبي بكر بن محمد بن آزر بن أبي بكر بن سعد الدين .

والولد الثاني الذي لبدلاى بن سعد الدين اسمه شمس الدين وقد انقرض ذريته وتولى البلاد السلطان محمد بن آزر بن أبي بكر بن سعد الدين ثلاثين سنة من القرن التاسع وخرج السلطان محمد للجهاد فالتقى المسلمون والحبشان فكانت الدائرة لهؤلاء على المسلمين وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً . وعاد السلطان محمد الى بلاده فقتله صهره محمد بن أبي بكر ابن محفوظ وملك البلاد بعد سنة فقتله ابراهيم بن أحمد صاحب بلاد هو بت وملك بعده ثلاثة أشهر فقتله « وسنى » مملوك الجراد محفوظ وملك البلاد ثلاثة أشهر وأسر بعد ذلك أسره منصور بن محمد وقيده وأرسله الى زيلع وقتل في زيلع . وملك البلاد بعده الأمير منصور بن محفوظ بن محمد بن الجراد آدش وتحارب الأمير منصور مع الجراد ابون سبع سنين وأقام الحق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر واستأصل قطاع الطرق وأبطل الخور واللعب والرقص وعمرت في زمانه البلاد وصلحت الأحوال . وكان

أحمد بن ابراهيم (مترجم عرب فقيه) يومئذ فارساً من فرسان الجراد ابون وكان ذا عقل ورأى وشور في صغره وكبره الهاماً من الله تعالى للامر الذي أراه الله على يديه وكان الجراد ابون يحبه حباً شديداً لما رأى من شجاعته وبراعته . وكان السلطان ابو بكر بن السلطان محمد بن آزر من ذرية سعد الدين قد جمع جوعاً من الصومال وغيرهم وقاتل الجراد ابون فقتل الجراد ابون بن آدش وتولى السلطان أبو بكر البلاد ولكنه أساء السيرة في الرعية وظهر قطاع الطرق وحدثت أمور أوجبت انكار العلماء والفقهاء من المظالم وشرب الخمر وكان الامام أحمد (الغازي) في عسكر الجراد ابون كما تقدم فخرج هو وجاعة من رفاقه واجتمعوا في محل يسمى هوبت وكانوا نحو مائة فارس وأمروا عليهم الجراد عمردين فيينا هم كذلك اذ سمعوا بأن بطريقاً من بطارقة الخطي ملك الحبشة من النصارى يسمى فانيل من أهل دواروا ومعه جاعة من البطارقة قصدوا بلاد المسلمين وأسروهم وسبوا عيالهم ونهبوا مواشيهم . فسمع أحمد بن ابراهيم بذلك فقصده جيش النصارى في مكان يسمى عقم وهو نهر عظيم كثير الماء فاشتبك الفريقان في قتال شديد انتهى بالدبرة على النصارى وقتل جاعة من البطارقة وغنم المسمو غنائم كثيرة ورجعوا فرحين مستبشرين الى محل اسمه زيفه بقرب بلد السلطان أبي بكر بن محمد . فلما سمع السلطان بنجرهم وما فعلوه من الجهاد وحازوه من الغنائم انهزم هو ومن معه من الصومال الى بلد يسمى كداد من بلاد الصومال فقصدهم أحمد ابن ابراهيم الى هناك فتلاقى الفريقان عند نهر يقال له قرن فاقتتلوا وانهزم السلطان ومن معه وقتل منهم جاعة . فأنشئ أحمد وأصحابه راجعين الى بلادهم هرر من برسعد الدين فلم يستقروا بالجلوس حتى جمع السلطان أبو بكر جوعاً من الصومال وغيرهم وجاء بنحبول وجيوش لا يحسبها حاسب فاخلي أحمد بن ابراهيم هرر وسار الى بلد اسمه هوبت وزبرت واعتصم بجبل عظيم فيه فقصدهم السلطان بجموعه وحصرهم وضيق عليهم فنزّلوا من الجبل وناجزوا السلطان فانهزموا وقتل أميرهم عمردين ورجع أحمد بن ابراهيم وأصحابه الى بيوتهم ودخل الناس واصلحوا بينهم . وما طال الصلح حتى غدر السلطان أبو بكر باحمد وجرده من خيله ورجله وقتل أميراً كبيراً اسمه عثمان بن يس ففر أحمد من وجهه لاحقاً ببلده زعكه وليس معه الا ثلاثة من الخيل فتلاقى مع غلام للسلطان جدوش بن محفوظ معه اربعة من الخيل فاخذها منه وخرج الى

مكان اسمه شيخ ومعه سبعة من الخيل فانضم اليه أمير يسمى جراد أبو بكر ابن اسماعيل ثم وصل اليه الامير حسين الجاتري فقصدهم السلطان بعساكره فلم يزالوا من بلد الى بلد يغير السلطان عليهم ويغيرون عليه فحدثت بين الفريقين وقائع عديدة انتهت بظفر أحد ابن ابراهيم ودخوله هرر فاقام الحق وأزال المنكر وصاح المنادي كل أحد يلزم بيته وكل على عادته ولا تخافوا ولا تحزنوا . ولكن السلطان عاد لجمع الجوع من الصومال وغيرهم وقصد أحد للقتال فرتب هذا عساكره وزحف اليه فاعتصم السلطان بجبل اسمه حون فدخل الناس من الاشراف والفقهاء بينهم بالصلح على ان السلطان يكون سلطانا على حله وأحد بن ابراهيم يكون من تحته ويقاب بالامام والباد بينهم بالسوية فارتضى أحد بذلك حقنا للدماء واقام ببلدة سيم واقام السلطان بهرر . وأما وجه تسمية أحد بالامام فاشهر رواية فيها ان رجلا اسمه سعد ابن يونس العرجي رأى النبي (ﷺ) وعن يمينه أبو بكر الصديق وعن يساره عمر بن الخطاب وبين يديه علي بن أبي طالب رضى الله عنهم وبين يدي علي ابن أبي طالب أحد بن ابراهيم فقال الرائي لهذه الرؤيا يا رسول الله من هذا الرجل الذي بين يدي علي بن أبي طالب فقال (ﷺ) هذا رجل يصلح الله به بلاد الحبشة . وكانت هذه الرؤيا والامام حينئذ جندي ولم يكن الرائي يعرفه من قبل . فوصل هذا الرائي الى هرر في زمان الجراد ابون ققص رؤياه على أهل البلد فقالوا له هذا الذي رأيته في منامك فقال لا فلم يزل يتولى البلاد أمير بعد أمير الى ان جاء الرائي في زمن أحد بن ابراهيم فلما رآه عرفه وقال لاهل البلد هذا الذي رأيته في الرؤيا بين يدي علي بن ابي طالب فسماه الناس الامام . وقيل ان بعض المشايخ رأى في المنام الولي الصالح أحد بن محمد بن عبد الواحد القرشي التونسي والشريف الولي أبا بكر بن العيدر وسي وهما يقولان لاتسموه السلطان ولا الامير ولكن سموه امام المسلمين .

وبدأ من ذلك الوقت الامام أحد بن ابراهيم يغزو الحبشة النصراني لانهم كانوا في زمان سعد الدين وفي زمان من تولى بعده وفي زمان الجراد أبون يغزون بلاد المسلمين وقد خربوها مرارا كثيرة وكان بعض المسلمين يؤدون لهم الخراج فلما ظهر الامام أحد منعهم من ذلك وكان يجلس لاقامة العدل ويرفق بالمساكين ويرحم الصغير ويوقر الكبير ويعطف على الارملة واليتيم وينصف المظلوم من الظالم ولا تأخذه في الله لومة لأثم .

ثم اختلف الامام مع السلطان أبي بكر وتجددت الحرب فقتل السلطان وانفرد الامام بالامر وأقام عمردين أحدهما السلطان محل أخيه . وغزا النصارى بلاد المسلمين وكان عليهم بطريق كبير من الجبابرة اسمه دجلجان صهر الملك وتحتته بطارقة كثيرة فوصل الى أطراف بلاد المسلمين وخربها ونهب أموالهم وسبي حريمهم وسبي أم أمير من أمراء المسلمين اسمه الامير أبو بكر قطين . فسار الامام اليهم بعسكره فالتقى الجمعان في موضع يقال له الدير (بكسر الدال) وكانت واقعة شديدة انتصر فيها المسلمون وأسروا نحو خمسمائة أسير وعاد الامام الى بلده منصوراً محبوباً . وكان عمره مع كل ذلك يومئذ احدى وعشرين سنة لا غير . ثم توالى غزواته منها غزاة الفطجار وغزاة قيجي وغزاة وانباريه في داوارو وغزاة افات التي كانت فيها امرأة الامام مع زوجها . وكانت واقعة هائلة غنم فيها المسلمون ما لا يحصى وسبوا نساء كثيرة منهن بنت خالة الملك فوهبها الامام الى وزيره عدلى ففداها ملك الحبشة بخمسين أوقية من الذهب الأحمر . واستولى الامام بعد هذه الواقعة على أنطوكية ودخل كنيستها العظيمة ومعه زوجته دلونبره بنت الأمير محفوظ وجم غفير من الأمراء مثل الأمير حسين الجاترى صاحب دوارو وبعد الفتح والأمير على صاحب عنقوت بعد الفتح والجراد اجوش وكوشم أبو بكر والشيخ الزاهد حامد ابن الزاهد الفاضل شيخ واشره ثم خرب الكنيسة وأحرقها . وقصد الامام بلدة جندبله وهى بلدة يملكها ملك الحبشة ولكن أهلها مسلمون فتلقوا الامام بالفرح والسرور وأعانوه بعشرين أوقية من الذهب وقالوا له نحن نعطي هذا الذهب لزوجتك دلونبره فرفض الامام ذلك وتوسط الأمير حسين الجاترى والوزير عدلى والجرادين والأمير على صاحب عنقوت فى أن يقبل الامام هذه الهدية لزوجته فأصر الامام على الرفض وقال لا يحل هذا وأنفقها على الجهاد واشترى بها ١٠٠ سيف وشهدوا بها واقعة شيزكوره (أول رجب سنة ٩٣٥ هجرية) .

وسار الامام من جندبله فى طريق حار دليه فما درى هو وجيشه الا وهم وسط شجر مشتبك أصبحوا لا يقدرون معه أن يتقدموا فأمرهم الامام بقطع الاشجار فما زالوا يقطعون منها حتى خرجوا الى الطريق الواضحة ووصلوا الى الدير فقسم فيها الغنائم وعاد الى هرر مؤيداً منصوراً . ثم استفز قبائل الصومال للجهاد فكانت أول قبيلة لبت نداءه «هبرمقدى» مع مقدمهم أحمد جرى بن حسين الصومالى فوصلوا الى هرر بعدتهم وخيولهم

وسر بهم الامام سروراً عظيماً . ووصل بعدهم قبيلة جرى ومقدمهم متان بن عثمان بن خالد الصومالي فأظهروا آلاتهم وسلاحهم وتنكبوا قسيهم وركبوا جيادهم وكانت معهم أخت الامام فردوسة وهي امرأة كبيرهم . ثم طلعت قبيلة زر به ومقدمهم السلطان محمد بن عمه الامام ومعه من الرجلة الصناديد ألف وستون رجلاً وتخلفت قبيلة مريحان بعدم استقامة مقدمها حرابو فعزله الامام وأمر عليها ابن أخيه فجاء منهم نحو ثمانمائة مجاهد بين فارس وراجل . وبعد ذلك تهبأ الامام لنعص بلاد الحبشة وجهز الجيوش وأنفق الأموال وباع حتى حلّى نسائه وأثاث بيته وخرج بجيوشه ومعه امرأته دلونبره وكانت حاملاً ووصلوا الى زيفه فتلقاهم الجراد دين ابن آدم وكان رجلاً صالحاً فأضافهم وأكرمهم وكذلك الجراد شمعون والجراد كامل صهر الامام والامير مجاهد فأكرموا الامام اكراماً زائداً . ووضعت امرأة الامام في زيفه غلاماً سماه محمداً وتأخرت بسبب الوضع عن المسير وبقيت في زيفه عند مؤنسة أخت الامام . وسار الامام قاصداً ملك الحبشة « وناج سجد » وهو في أرض بادقي فأخذ ملك الحبشة يجمع جموعه قبائل التجري أو التيغري وقبائل آقوا وقبائل قجام وأهل العنقوت وأهل جن وأهل قده وغيرهم وانقلبت الحبشة بأسرها وكان بطارقة التجري أربعة وعشرين بطريقاً كل منهم تحته جيش عظيم . وكان من جملة البطاريق بطريق اسمه عثمان بن دار على كان مسلماً وكان أبوه مسلماً أسره الاحباش في زمان السلطان محمد فارتد وصار بطريقاً وولد له أولاد كثيرون نصارى ثم في آخر عمره عاد الى الاسلام وجاهد واستشهد . ثم ان ملك الحبشة ما زال يحشد الجيوش ويستفز القبائل للملاقاة الامام وبقى ينتظره في أمجره كما أن جيوشاً أخرى كانت معبأة في بادقي . وكان الامام قاصداً كنيسته بادقي ناوياً احراقها والاحباش يقولون لا يصل الى الكنيسة حتى تقتل عن آخرنا . وقيل ان خيل الحبشة كانت ١٦ ألفاً والرجلة كانت نحو مائتي ألف لذلك طالت الوقائع في شبركوره وكانت أيام للمسلمين وأيام للنصارى وعبي الامام أحد جموعه هكذا : السلطان محمد بن السلطان علي ابن خالته والشيخ أنس ابن الشيخ شهاب بن عبد الوهاب وقبيلة « زمن برة » وقبيلة « برزرة » وقبيلة « يقله » وقبيلة « جاسار » وقبيلة « عرب تخا » وقبيلة « التي » وغيرهم من قبائل الحزله في اليمنة . وقبيلة « جرى » وقبيلة « مريحان » وقبيلة « يبرى » وقبيلة « هرثي » وقبيلة « جران » وقبيلة « مزر » وقبيلة « برسوب » وكلهم صومال في

الميسرة وكل قبيلة بأمرها . وكان الامام في القلب ومعه أعيان الفرسان مثل الأمير حسين الجاترى والأمير زحر بوى محمد . وفرشحم على والوزير نور بن ابراهيم والأمير مجاهد وفرشحم السلطان وعبد الناصر والشيخ داوه وأبو بكر قطين وفرشحم دين والجراد احمدوش وصبر الدين وجاسا عمر والجراد عثمان بن جوهر الخ وجمع خمسمائة من الابطال ممن حضروا الحروب والغزوات وأمرهم بأن يلازموه . وضم اليهم ثلاثمائة من قبيلة هرتى من الصومال وأربعمائة من قبيلة يبرى لشدة صلابتهم وكان الثلاثمائة من أهل السيوف والاربعمائة من أهل القسى . ثم التقى الجمعان وكان المسلمون كالشامة البيضاء في جلد الثور الاسود . وقام الامام يخطب في المسلمين ويحرضهم على الجهاد وقرأ : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . حينئذ قال له المسلمون دعنا نحمل عليهم . فنعهم الامام من الحلة وقال لهم اثبتوا مكانكم ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم به واشرعوا الرماح واستروا بالدرق ولا تخطوا بأرجلكم خطوة واحدة الا وأنتم تذكرون الله . ثم جل الحبشة على المسلمين من جهة الميمنة حلة رجل واحد فصبر المسلمون لهم وحلت ميمنة الحبشة على ميسرة المسلمين من الصوماليين وحلت قبائل التيجرى والبطارقة على القلب الذى فيه الامام واختلط الجمعان واستمر القتل فانكشفت ميسرة المسلمين التى فيها الصومال وقتل الحبشة منهم ثلاثة آلاف واسروا كثيراً وانحاز من ثبت منهم الى القلب وأماميمنة المسلمين من الحرله فتكاثرت عليها الحبشة أيضا وزلزلوها فانحازت أيضا الى القلب فحمل الحبشة بأجمعهم على القلب ودامت الحرب من الضحى الى العصر الاخير فرد الامام الحبشة على أعقابهم وقتل منهم ألوف وامتلأت الارض من جثث القتلى وضع المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وولى الحبشة الادبار والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون فقتل من بطارتهم البطريق روبييل من بطارقة التيجرى قتله أرعدى من خدمة الامام . وقتل البطريق عقبا أخوه وكان من أبطالهم قتله الامام بنفسه طعنه بالرمح فى صدره نخرج السنان يلمع من ورائه وقتل بطريق سيرى شوم قتله الجراد دين . وقتل البطريق زمنحان ابن عم البطريق وسن سجد قتله الوزير عدلى . وقتل بطريق محنطى

رماه رجل من الصومال مقدم الرماة فقتله . وقتل بطريق زونجيل قتله عبد الرازق بن سوحه أخو الأمير مجاهد . وقتل بطريق شوم عجمية . وقتل بطريق النبتين وقتل بطريق عمدو قتله رجل اسمه آداموا . وكان جملة من قتل من الحبشة عشرة آلاف ومن البطارقة مائة وأربعة عشر . وكل بطريق تحته ألف فارس أو خمسمائة أو مائتان وعرقب المسلمون من خيل الحبشة في المعركة ستمائة فرس . وكانت جملة من قتل من المسلمين من الصومال ومن الحرله ومن المساي ومن العرب خمسة آلاف ختم الله لهم بالشهادة . وغنم المسلمون غنائم لا تحصى وأسروا بطريقاً كان صهراً لملك اسمه تخلي مدحن ففدى نفسه بخمسمائة أوقية من الذهب الأحمر .

وبعد هذه النصر الطائلة أراد الامام أن يسير المسلمين الى قاب بلاد الحبشة ويجهز على الباقي من جيشها فشكاه المسلمون ما حل بهم من الجهد وطلبوا الجمام فعاد الامام الى بلده واستراح شعبان ورمضان ونصفا من شوال ثم نهض غازيا الى جهة دوارو فدخلها من جهة نهر الوبي وهو نهر كبير يكثر فيه التمساح وطواهش كثيرة يسدب في البحر المسالخ من ناحية مقدشو وقسم الجيش الى فرقتين فرقة عليها الوزير نور بن ابراهيم والفرقة الثانية قادها الامام بنفسه فوصلوا الى الجواتر وقتلهم بطريق ادل مبرق فهزموه وأسروه ويقال ان الذي أسره كان رجلا اسمه تسكية قد قطع الامام يده اليمنى ورجله اليسرى في حق الله تعالى فبلغ من شجاعته ان اسر البطريق وهو مقطوع اليد والرجل . وغزا الامام بلد راس بنيات فاتفق مع بطريقها على أن يقدم له الضيافة وبعض هدايا والامام لا يتعرض له . ثم تقدموا الى بلد اسمه مصيحب فغربوها وخلوها رماداً وساروا الى بلد اسمها « مى فلح » ونهبوها وكان رجل اسمه راجح أصله مسلم تنصر وأعطاه ملك الحبشة أرضا وصار يغير على أطراف بلاد المسلمين فلما قرب الامام من أرضه أرسل اليه الامام قائلاً : أنت مسلم وابن مسلم ومجاهد بن مجاهد من أول الزمان وقدر الله بالذي كان فنب وارجع الى الاسلام وكن أخانا ولا تنقط من رحمة الله . فلما وصل اليه الرسول . قال : كم فعلت وقتات ونهبت من المسلمين وأخشى اذا رجعت ان تأخذوني بما فعلته . فراجعه الامام قائلاً قد عفونا عنك فارسل راجح يقول : ارسلوا الى أميراً بجيوش كثيرة حتى أدلكم على أموال العدو فذهب اليه الوزير عدلى ومعه جيش فقتلوا وأسروا ونهبوا وعادوا وزاجح

معهم . وحصلت بعد ذلك عدة غزوات والفريقان يبديان من صروب الصبر وصدق اللقاء ما يندر مثله في التواريخ . وعاد الامام الى هر رثم جمع جوعه وقصد بلاد الحبشة وجمع هؤلاء جوعهم وتلاقوا في محل اسمه انطاكية وكان المسلمون خمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل فاجتمع عليهم من الحبشة ستة آلاف فارس ومائة ألف راجل وكانت مع الامام مدافع وأمر الامام عشرة من شجعان رجاله وهم الأمير زحربوى وأجد جويتا والأمير على والجراد أحمد بن لاد عثمان والأمير أبو بكر قطين وتكية السابق الذكر مقطوع اليد والرجل بأن يسيروا معه الى جهة «بلى» وكان عسكرهم قد آذى المسلمين كثيراً وأمر بأن يأتوا له بمدفع وأمر مقدم المهرة من العرب بأن يضرب عليهم بالمدفع فضرب فاج بعضهم في بعض فحمل عليهم المهرة والمساى فهزموهم وذهبوا في طريق أخرى ولم يرجعوا الى بطريقهم . وكان تكية مقطوع اليد والرجل قال للامام في بلده : ان شاء الله هذا السوط الذى في يدي أضرب به فارساً من الكفرة وانزله عن فرسه وأخذ فرسه . وكان الأمر كما قال ففي ذلك اليوم ضرب فارساً حبشياً بسوطه وزماه عن فرسه وغنم فرسه . ثم ان الحرب دارت رحاها وانتهت بفوز المسلمين وأشبهت وقعة صمبر كورى في كثرة من قتل فيها من الأحابيش . واحرق المسلمون كنيسة انطاكية وغنموا غنائم لا تحصى وكان ذلك في الخامس من رجب سنة ٩٣٧ هجرية . وأوغل بعدها الوزير عدلى في بلاد الحبشة وانحن فيها . وكان ممن أسره اثنان من كبار الحبشة عرضا فدية أنفسهما الواحد بمائتي أوقية ذهب والآخر بمائة أوقية فرفض الوزير الفداء وقتلها وأقام أياماً بأرض جنبه ثم سار الى أرض شرخه وتلاقى فيها مع الوزير نور واسروا وسبوا . وكان من جملة السبي امرأة البطريق ازماج وأولاده فلما علم هذا بأسرهم دخل وأسلم فردوا عليه امرأته وأولاده وأسلم كثير غيره . وبعد ذلك وصل الامام ومعه وزيراه الى عندورة . وفيها كنيسة لوسن من أعظم كنائسهم وأغناها فأحرقوها ونهبوا ماوصلت اليه أيديهم .

فجمع ملك الحبشة جوعاً أخرى وأمر عليهم بطريقاً اسمه تخلى سوس وكان معه ثلاثون بطريقاً من التجرى فجاء اثنان من المنتصرة أحدهما اسمه عمر والآخر اسمه سكوكانا ارتدا عن الاسلام وأقطعهما ملك الحبشة بلداً يأكلان خراجه فلما وصل الامام بجيوشه الى قرب بلدهما دخلا على الامام وطلبا العفو ودلاه على عورات النصارى فقصدهم الامام

وتلاقوا في واد فحمل المسلمون على النصارى وكان أول من حمل منهم صبر الدين صاحب وشلة بعد الفتح ودخل وسطهم ومن بعده على الوزادى وعبد الله بن ناصر الدين الجوى وآش ابن ماسى وانضى هذا سيفه وضرب به رأس البطريق تخلى سوس ضربة ابانت رأسه عن جسده وحمل سائر المسلمين فانهزم الأقباش وقتل منهم البطريق اسلامو قتله أبو بكر بن جراد يماج واسر بطريق مرجاى والبطريق شوتلاى أسرهما فرشحهم على ثم اسلم شوتلاى وحسن اسلامه وقتل في الجهاد وكذلك أسلم بطريق مرجاى وجاهد في صفوف المسلمين .

واسر في ذلك اليوم البطريق كطفى والبطريق أسير واسر البطريق جرجيس صاحب قجام وكان جلة من قتل من البطارقة الكبار مائة وثلاثون واما فرسانهم ورحالهم فقتل منهم الوف وغنم المسلمون خمسمائة فرس وكثيرا من الاثقال . ثم سار الامام في أثر المهزومين الى عواش ومنها الى دل ميده ثم الى حيت وقسم الامام الغنائم وفرق الخيل والبغال على المجاهدين ثم سار الامام من حيت الى قنبورة وسوق دوارو وكان أهل سوق دوارو مسلمين يدفنون الخراج لبطريق داورو . وفي تلك الاثناء تشاور أهل دوارو بعضهم مع بعض وقر رأيهم على مهادنة الامام وكف الحرب ولو نذبهم النجاشى لم يطيعوه وان يبق كل منهم على ملكه ودينه ومن أراد منهم الاسلام فله ذلك فكف عنهم الامام وتقبل هداياهم وسار الى الامام فوصل الى أرض المائة ودخلوا المرزير من أرض المائة . وكان فيها كنيسة عظيمة فأحرقوها وكان نجاشى الحبشة على مسافة يومين من هناك فعلم ان الامام يقصده فرحف الامام الى أرض بادقى طانا ان ملك الحبشة يخرج لصدته فيقاتله . فلما وصل الامام الى نهر دوخم نظروا نارا تشتعل في وسط بادقى فاستدعى الامام بطريق حيب الذى كان أسلم وصار معه فسأله عن موضع هذه النار فقال له هذه قرى الملك فقال له هل تعرف سبب هذا الحريق فقال له نبئت هنا ولا نلتب أن يأتينا الخبر واذا بتجار مسلمين يسكنون بادقى اخبروا ان الملك كان في أرض جبرجى فلما علم بقرب وصول المسلمين أرسل بطريقا من بطارقه وقال له سر الى بادقى وحرق بيوتى وبيوت اخوانى قبل أن يسبقك المسلمون اليها فيحرقوها ويقولوا حرقنا بيت الملك أما الكنيسة فلا تحرقها اذ لا يحل لنا تحريقها في كتبنا . فلما كان الغد أرسل الامام سرية عليها فرشحم على فأحرقوا كنيسة بادقى وكان في شراريفها ذهب ومن فوقها صليب من الذهب الأحمر . وسار الامام وجيشه الى « اندوتنه »

وهي قرية الملك نفسه وكان له فيها بيت فيه تصاوير كصورة الأسد وصورة الآدمي والطيور
فدخل المسلمون البيت وحرقوه وعين الملك تنظر وكان بينه وبين البيت مرحلة واحدة
فأصابه من الحزن أشد مما أصابه لئحريق بيوته في بادق وبكى وجع الجوع وعبي الجيوش
وسار الى قتال المسلمين وكان نهر عواش فاصلا بين الفريقين وكان فياضا لايقدر أحد أن
يقطعه فأخبرت طلائع المسلمين الامام بأن النصارى وصلوا الى نهر عواش فأرسل الامام عبد
الناصر صاحب جنز وبشاره وشمعون وصبر الدين وعلى وراى ومعهم ثلاثون فارساً
يستقصى أخبار الحبشة فوصلوا الى النهر فوجدوهم على شاطئه من الجانب الآخر ومعهم
الملك بنفسه فقتلوا بالكلام ولم يصل أحد الى الآخر. ثم رجع النصارى الى أرض « ورب »
وجلسوا فيها واثبت المسلمون في الاطراف ينهبون الكنائس وكان فيها من الذهب والفضة
والنفائس مالا يقع عليه احصاء فوقعت كلها في أيدي المسلمين وأحرقوا الكنائس . ثم
تجاوز المسلمون عواش بعد أن قل ماؤه ووصلوا الى جبرجى وحرقوا بيت الملك فيها فانحاز
الملك الى « نزارجج » من أرض الداموت ووافاه بطريق كبير اسمه « وسن سجد » كان
معظمهم عندهم يسمونه أبا المساكين ويخافونه أكثر مما يخافون الملك فقال للبطارقة كيف
ترضون أن يفعل بكم المسلمون هذه الفعائل وقد مات آباؤكم وأجدادكم وما فعل بهم أحد
من المسلمين مثل ما فعل هذا الرجل (يعنى الامام) وما هذا الا من ظلمكم وجوركم فسلط الله
عليكم هؤلاء المسلمين أخربوا عليكم بلاد دواروا وفضجار وبادق وبرارة وحرقوا
الكنيسة التى فيها بطرككم والتابوت الذى فيه جسد البطررك الخ فلما سمعوا كلام
وسن سجد هذا قالوا له مر بما شئت فنحن نقاتل المسلمين ونموت بين يديك فقال
لهم مضى ما مضى فكونوا بعد الآن رجالا ثم كتب الى الامام كتابا يقول له فيه :
أما بعد اتم المسلمون ونحن النصارى وقد كنا نسير الى بلادكم ونخربها ونحرقها والآن
فقد أدالكم الله علينا والنصر لا يدوم كل يوم والآن يكفيك ما فعلت وارجع الى بلادك
وأنت تقول فى نفسك انك هزمت الملك فى صمبر كورى وتقول فعلت فى انطاكية وفعلت
فى لزرى فلا تغتر بنفسك فان الملك صارت عنده جيوش كثيرة مارأيتها ولا سمعت بها
فأرجع الى بلدك بغنيمتك وذهبك والا فالليعاد بيننا وبينك يوم السبت فانا الذى قتل أخاك
الجرادابون ابن الجراد ابراهيم وهو أكبر منك وهزمت جيشه وفعلت ذلك مرارا ولا تظن

انتي مثل من لقيت من البطارقة . فلما وصل هذا الكتاب الى الامام كان الامام مريضاً فقال
 الأمرء الذين بين يديه لرسول البطريق وسن سجد : أما ماخوفتنا به من لقائنا يوم السبت
 فقد أعلمنا مشايخنا ان قتلك يكون يوم السبت وان القتال هو بغيثنا ومرادنا وهذه البلاد
 لسنا بتاركها حتى نأخذ الحبشة بأسرها ان شاء الله . فرجع الرسول وأخبر البطريق بما سمع
 فداخله الخوف والجزع وأرسل الى الامام مرة أخرى يقول : انتي ماتكلمت بكلامي الأول
 الا خوفاً من الملك والبطارقة ولقد أعلمني الرهبان انتي سأقع في يدك فاذا وقعت فارحني .
 فلما جاء رسوله وأخبر الامام بذلك ضحك الامام وقال له ، قل له ، اذا صرت في أيدينا
 رحمتك .

وفي الثالث والعشرين من رمضان سنة ٩٣٧ تعافى الامام من مرضه ونوى أن يقصد
 ملك الحبشة في أرض الداموت فراوده من معه عن ذلك فلم يسمع لأحد كلاماً وزحف وأول
 ما حط في بلدة زرارة وهي بلدة كبيرة يسكنها التجار من نصارى مصر ونصارى الشام ومن
 تولد منهم بأرض الحبشة يسكنها لطيب هوائها . ثم تقدم منها الى ويز وهي أيضاً مدينة
 عظيمة فيها سوق ليس في الحبشة مثلها وجاءت جواسيس للامام تخبره ان الملك دخل أرض
 الداموت وان البطريق وسن سجد رجع الى وراء في أرض وج كأنه يتهدد بلاد المسلمين .
 فغضب الامام يطلب الملك فاعتصم الملك بجبل مانع له طريق واحدة لاغير وعي جوعه في
 الجبل واكل بمدخل الطريق الواحدة رجلا اسمه أورعى عثمان بن دار على وكان مرثداً فجاء
 المسلمون وهاجوهم وتسلق فريق منهم الجبل قاصدين الملك في مكان ظن أن لن يصلوا اليه
 ففر الملك وجيشه قاصدين بلاد وج والمسلمون في أثرهم ثم قصدوا بلادشوا لأخذ خزائن
 الملك وأحرقوا كنيسة اند قبطن وكنيسة داردبني . وخضع للامام أهل شوى وأهل ورب
 وأدوا الجزية وصالحوا على بلادهم ووصل الامام الى برارة فقدم له أهلها الطاعة والضيافة .
 وهطلت في هاتيك المدة الأمطار الغزيرة واشتدت العواصف وكل هذا لم يثن الامام عن
 عزيمته في متابعة الجهاد وأرسل من أحرق كنيسة دير لبانوس على شاطئ نهر أورمه وهي
 من أعظم وأقدس كنائسهم . وما زال طول هاتيك المدة يضيق على الملك وهو يفر من وجه
 الامام من مكان الى مكان ومعه أربعون رجلاً من الافرنج . ولكن البطريق وسن سجد
 تلاقى مع المسلمين واشتدت الحرب وجرت عدة وقائع وتبارز البطريق وسن سجد مع فارس

من أمراء المسلمين اسمه الجراد عابد فطعن البطريق الجراد عابداً بالرمح طعنة نافذة في يده اليسرى وكان عليه عدة مانعة نخرج السنان من يده ومن العدة وأراد البطريق أن ينزع رمحاً فانكسر في يد الجراد عابد فأراد أن يسلم سيفه ويضرب الجراد عابداً فكان هذا قد ضربه في رأسه ثم ثنى فأسقطه عن جواده فقال له لا تقتلني أنا وسن سجد فنأدى الجراد عابد أمحابه إن وسن سجد قد سقط فنأدى المسلمون الأحباش إن رئيسكم وسن سجد قد مات فانهزموا وأخذ البطريق يصيح وهو في الأرض صريع : الح بلا ، الح بلا . أى أنا حى ولكن الحبشة كانوا انهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وأجهز الجراد عابد على وسن سجد فعاتبه الامام فيما بعد قائلاً له : لم قتلته قبل أن أنظره ؟ فأجاب : قلت له أريد أن أوصلك الى سيدى فاضطجع الى شجرة هناك وأبى وقال اقتلنى فى مكانى هذا وشتمنى فقتلته . وبعد هذه الواقعة أمر الامام بالأسارى من البطارقة فكانوا ثلاثين بطريقاً فقتلهم منهم البطريق جان نهد الذى أسره الوزير عدلى والبطريق قاسم وكان مسلماً مرتداً ولاء الملك جان أموره بين التجرى والعنقوت ، وكان من أشد البطارقة أذى للإسلام أسره رجل من الصومال من قبيلة متان . ومنهم بطريق هنه . ومنهم بطريق اسمه جبر اندرياس عمره تسعون سنة مابقى أرض فى الحبشة من زمان الملك ادماس الى اسكندر الى ناود الى أيام الملك وناج سجد الأتولاها .

قال شهاب الدين أحمد الملقب بعرب فقيه : فلما قتل وسن سجد افتتحت البلاد وذلت جيوش الكفرة وأسلم أكثرهم كإسياتى ذكره . ثم وصل الامام الى جان زلق فهرب أهالى البلد الى بلد شجره فأرسل الامام بعض من أسلم من الأحباش فنصحوهم فجاءوا الى الامام وأسلموا . وأرسل الوزير عدلى الى « زقالة » والى « لال بلا » فسبقه الأمير مجاهد ونهبهم فأسلموا . فلما وصل الوزير وجدهم مسلمين . فسار الوزير عدلى الى « عواش طبوا » فأسلم أهلها . وسار الامام الى أرض انطيط وكان هناك كنيسة للملك اسكندر مملوءة ذهباً فخط المسلمون عندها وأخذوا مافياها من الذهب ثم أحرقوها . وفر أهالى جان زلق الى الجبال ولم يسلموا فأرسل اليهم الامام خالد الواردى وكان يعرف مسالك بلادهم فقال لهم : تعرفون أتى أعرف جميع بلادكم فأسلموا قبل أن نقاتلكم . فقتلوا بعضهم مع بعض وقالوا إن لم نسلم نحن وقد أسلم أكثر الحبشة يرسل الينا الامام جيشاً يأخذنا كلنا ولايفلت منا أحد

فقدموا على الامام هم وأهل قوت وأسلموا جميعاً . وأسلم من البطارقة بطريق دلو و بطريق دبل و بطريق اسمه حيزو وحسن اسلامهم وشهدوا المشاهد التي كانت بعد . ولما أسلم أهل قوت كانوا الف فارس وأربعة آلاف راجل كان معهم بطريق اسمه ايبس لحطى أبى أن يسلم وقال أنا ماجئت لهذا ولا أفارق ديني الذي مات عليه آبائي وأجدادي فقال له الامام : أنت أحسن من هؤلاء الذين أسلموا ؟ . فقال البطريق : هؤلاء بدو لا يعرفون دينهم ولادينكم فاذا أسلموا لا عار عليهم أما أنا فاذا أسلمت يعيرني الناس عند الملك والرهبان . فقال له الامام . لا تفعل فأنت كبير النصارى وبيننا وبينك مصاهرة . وذلك لأن جارية الامام هاجرة كانت ابنة عمه . فبقى أسيراً ولكنه على دينه فقام البطارقة الذين أسلموا وقالوا له أسلم والا نتفلك أفانت أحسن منا فاسلم وجلس مع الامام ثلاثة أشهر فلما غزا الامام أمحرا هرب ولحق بالملك ورجع الى النصرانية ثم أمر الامام على جان زلق الجراد عثمان بن جوهر وعلى أهل قوت خالد الورادى فسار اليهم وأسلم نساؤهم وأولادهم وحسن اسلامهم . ثم سار الامام الى بلد شجرة فتقبله الجراد نصر وقال له : بلادنا كلها أسلمت ببركة الله تعالى وبيركتك . فقال له الامام : أمرتك على الذين أسلموا وأما الذين لم يسلموا فسر اليهم واقنني بهم فسار اليهم وقتلهم وأتى ببطريقين أسيرين فقال لهما الامام : كل البلاد أسلمت فالكما لاتسلمان . فايبا الاسلام . فقال الامام : حكمتنا بضرب أعناقكما . فقالا : مرحبا . فتعجب الامام من كلامهما وأمر بقتلها .

وأمر الامام أميراً اسمه شمسو ان يسير الى افات ويفتحها فسار اليهم وقهرهم وحصروهم فى الجبال فأسلموا وأحرق المسلمون كنيسة لللك المتقدم اسكندر كان فيها ذهب كثير وانجيل ورقه من الذهب لايحمله الارجلان . وسار الامام الى ابونه فأسلم أهلها ومعهم بطريقهم اسلامو . فلما سار الامام الى أمحرا ارتد البطريق ولحق بالملك أما عسكره فقد جلسوا على الاسلام وقاتلوا مع شمسو عامة فتوح الحبشة . وكان اورعى عثمان المرتد فى افات فلما رأى جيوش الامام أقبلت وايقن ان قد احيط به قال لعساكره : أنا أقاتل المسلمين ولا يدخلون بلادى . ولكنه من جهة ثانية ارسل الى الامام سراً يقول : أنا مسلم وابن مسلم اسرني المشركون ونصروني وقلبي مطمئن بالايمان والآن أنا جبار الله وجار رسول الله وجارك أن تقبل توبتي ولا تؤاخذني بما عملت وهذه الجيوش التي معي أحتال عليهم حتى

يدخلوا عليك ويسلموا . فاجابه الامام : اذا فعلت هذا فقد قال الله تعالى : « قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » . لا تخف ولا تحزن . ويكون الميعاد بيننا وبينك ارض طويبة فاني سائر اليها . وأرسل اليه الامام مسبحة للامان وطيبة لنفسه . وبعد أيام جاء اورعي عثمان ومعه مرتدان آخران من صبيان الامام يريدان الرجوع الى الاسلام ومعهم نحو عشرين الف نسمة من الحبشة من رجال ونساء واولاد فدخل اورعي عثمان على الامام وقبل يده وطلب العفو فتقبله الامام تقبلا حسنا وقال له : لا تخف ولا تحزن وقل للعسكر اسلموا . فاسلموا جميعهم من الظهر الى المغرب ومعهم نساؤهم وأولادهم وكان فرشحهم على في دبر برهان فأرسل اليه الامام أن يسير الى أرض « تقلت » والى وقدة والى مجر ويقاتل أهل هذه البلدان أو يسلموا ففعل فرشحهم على ما امره به وسار الامام الى « جدم » فاسلم أهلها باجمعهم .

أما ملك الحبشة فقطع الامل من استرجاع البلاد التي ذهبت من يده وانهمزم الى بيت احمره أصل المملكة وجع حوله ما بقي من قوته : وكان هناك كنيسة أسس بناءها الملك ناود أبو الملك وناج سجد اشتغل بينها ثلاث عشرة سنة ثم خلفه ابنه فقام يجهد في عملها أحسن مما جهد أبوه وبقى يتم بناءها خمسا وعشرين سنة . وكان طولها مائة ذراع وعرضها مائة ذراع وعلاؤها مائة وخمسين ذراعا وكلها بالذهب مرصعا بفصوص الجواهر واللؤلؤ والمرجان وكان قبر الملك ناود ابن ادماس بن زراقوب فيها . فلما فرق الملك جيوشه الى أبواب المدينة دخل هذه الكنيسة فنظر اليها يمينا وشمالا وقال : هؤلاء المسامون يريدون أن يحرقوا هذه الكنيسة وهي دار ملكي ودار الملوك المتقدمة . فقال له من معه : المسامون لا يصلون الى هنا أبدا ونحن نقاتل دونها حتى نموت .

أما الامام فأرسل احد امراء جيشه « جويته نور » الى بلد كسايه من أرض جدم وكان بها كنيسة عظيمة فيها ألف راهب فنهبها وأحرقها . وأرسل أناسا الى بلد جن يدعوهم الى الاسلام فأسلم بعضهم . ثم وصل الى الامام رجل من النصرارى اسمه « وسن جان » ومعه خمسمائة من أهل الدرقي الأبيض فأسلموا . وما زال الامام يجهد في أثر ملك الحبشة حتى أدركه ودارت بينهما الوقعة المسماة بوقعة واصل فانهزم الملك ومن معه وقتل من رجاله خلق كثير وبلغ الأمر به أن فر بنفسه شريداً ماشياً على رجليه ومعه خمس جنائب تقاد أمامه نالحتها

وعدها وذلك من وعورة الطريق . وذهب الامام من طريق أخرى هو وأصحابه وقد ترجلوا من صعوبة الطريق أيضاً . وممر الجراد عثمان بن جوهر وأورعى عثمان من على مقربة من الملك وهم لا يعلمون به وهو قد اختفى في شجرة في تلك الأوعار الى أن مر المسلمون ففروا قاصداً بلد العنبا واحتوى المسلمون على غنائم لا تحصى ووصلوا الى خيمة الملك وهي منصوبة كما هي وفيها سريره وسلاحه وفرحوا وفرحاً عظيماً وكانت هذه الواقعة في ١٦ ربيع الأول سنة ٩٣٨

ودخل الامام بعدها بيت المحرر في أيام برد شديدات فيه بعض عسكره من شدة البرد وكان العسكر يطعنون الماء المتجمد بالحديد حتى يكسروه . ولما وصل الى كنيسة المحرر العظيمة التي سبق الكلام عليها دخل اليها هو والمسلمون فاعتزتهم الدهشة مما شاهدوا فيها من بدائع الصنعة وروائع العظمة ووفرة الكنوز ونهبوها وبات الامام بجانبها واستدعى من كان معه من العرب وسألهم هل يكون في الروم أو في الهند أو غيرها مثل هذه الكنيسة ؟ فأجابوه لا نظن في الدنيا مثلاً . وكانت بجانب الكنيسة ثلاثة بيوت للملك يسكنها وكانت فيها عجائب لمن نظرها جلس الامام في أحدها وأعطى بيتاً الى الامير اجوشه والامير أبي بكر بن قطين وجعل البيت الثالث مسجداً . وأما الوزير نور فوصل الى كنيسة اتووس مريم ووصل آخرون الى كنيسة بيت سمايات التي بنتها أم الملك وآخرون الى كنيسة دبر نقدقاد وكان الملك ادماس قد بناها وهو مدفون فيها كما أن أم الملك مدفونة في كنيسة بيت سمايات فاتهب المسلمون جميع هذه الكنائس وأخرجوا منها من أجمال الذهب والفضة والديباج والحري ما يعجز وصف الواصفين وأحرقوا الكنائس ووجدوا في كنيسة بيت سمايات أربعة رهبان لما شبت النار بها دخلوا اليها واحترقوا معها . ووصل عبد الناصر الى كنيسة يقال لها جنت جرجس من بناء الملك اسكندر فلم يجد فيها شيئاً لأن أهلها كانوا أخذوها معهم فخرقها . وأرسل الامام ألفين من أصحابه الى بلد « واله » فوجدوا فيها أربع كنائس منها كنيسة مصفحتان مصفاحتان بصفائح الذهب فجعلوا يقلعون الذهب بالقداديم . وأرسل الامام سرية الى جبل العنبا وهو جبل يسكن فيه أولاد الملوك ومن عاداتهم أنه اذا ولد للملك ولد ذكر أصدوه الى هذا الجبل وبقى فيه حتى لا يكون خلاف في الدولة فاذا مات الملك أنزلوا من يريدون توليته من أبناء الملوك من هذا الجبل ولوله الملك . وهو جبل لا يصعد

اليه الا بالسلام فووقت هناك مقاتلات انهزم في آخرها المسلمون وقتل أورعى عثمان وعلى وراى والجراد متان الصومالى وعبد الله بن ناصر الدين الجوى وأسر الجراد اجوشه . وكانت هذه الهزيمة لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ٩٣٨ ورجع المنهزمون الى الامام وأخبروه بما جرى لآخزن لا سيبا على صهره متان واسترجع وبكى ولكنه أراد أن يعاقب المنهزمين فربط أكابهم فرشحم على والجراد اجدوش ومائة فارس معهم وأراد قتلهم فشفع فيهم الفقهاء والأمرء اخلوا كتافهم ولكنه قال لا بد أن تسيروا الى جبل العنبا وتقاتلوا فقال الأمرء للامام أتريد أن تخلص الجميع فى ذلك المكان الضيق فان كنت تريد أن تهلك الجميع فسر أنت بنفسك على أنه ان أعطاك الله النصر وفتحتها لم تجد الا أولاد الملوك اذ ليس فيها شىء غير ذلك ونحن والحمد لله صار عندنا مال مثل التراب والأولى أن نرجع الى الوراى ونجتمع مع الوزير عدلى والجيوش التى خلفناها فى فطبحار . فانقاد الامام لتصيحهم ورجع وسار يريد عنقوت فخط فى بحر حيق وهو عنب الماء فى وسطه جزيرة وفى وسط الجزيرة كنيسة وبتاتين فيها أئذ الفواكه وكان الامام أرسل الأمير زحروى محمد بن عمه والوزير مجاهدأ وعبد الناصر وجيشه والجراد صديقاً وأورعى أجد وضم اليهم ثلاثمائة فارس فتقاتلوا مع الحبشة عند كنيسة دبرازهير ونهبوها وأخذوا منها من الكنوز ما لا يحصى عدده . وكان لها من التاريخ يوم أحرقوها سبعمائة وعشرون سنة . أرسل الامام الى أهل جزيرة بحر حيق يدعوهم الى الطاعة ويأمرهم بتسليم الأسير المسلم الذى عندهم . وكان من قصة هذا الأسير انه غزامع السلطان محمد فلما انهزم المسلمون فى « دل ميده » وقع أسيرا فلما علم الملك انه من حشم السلطان محمد أرسله الى تلك الجزيرة وأمرهم أن ينصروه فتنصروا بقى عندهم ١٦ سنة وقلبه مطمئن بالايامن . فهذه المرة أرسل الامام رسولا سبى فى البحر حتى وصل الى الجزيرة فرماه أهلها بالحجارة فقال لهم : لآرمونى أنا رسول . فقالوا له : أنت رسول هذا الساحر أى الامام فكلمنا من بعيد . فبلغهم الرسالة فأجابوه : قل لسيدك لا نعطي الجزيرة ولا الطاعة ولا نترك الأسير يفعل الذى يقدر عليه عرفنا انه يطلع الجبال بالخيلى والرجال أما هذا فبحر . فرجع الرسول وأخبر الامام بما وقع فجمع الأشراف والعرب والمغاربة والمهرة وقال لهم : نحن مانعرف أيها العرب الا البر والجبال وأما البحر فهو شغلكم تعرفون أموره فطلب منه العرب الأخشاب والجبال فجمعوا لهم

أخشاباً كثيرة ونحو عشرة آلاف جبل فشدوا بها شيئاً يقال له الرمس (١) وأزلوه فسار سيراً بطيئاً فقال لهم الامام لا تصلون بهذا السير الى قرب الجزيرة حتى يكونوا أهلكوكم بالحجارة والنشاب . فاحتالوا للسرعة بشيء آخر وهو انهم وضعوا تحت الخشب قرباً فسارت مثل السهم ففرح الامام وقال هذا ما كنت أريد . وأمر مقدم المهرة احمد بن سليمان المهري أن يركب البحر هو وأصحابه وأردفهم بغيرهم من الجيش وكان أهل الجزيرة قد نظروا تجربة الارماس وعلموا أن المسلمين واصلون اليهم وقالوا هذا من شغل العرب ومعهم المدافع واذا خالفنا أمرهم أخذونا عنوة ، فعولوا على طلب الأمان وأرسلوا الاسير في سنبوق ليلا فأوصله رجلان منهم وعادا في الليل فلما أصبح الصباح شاهده الأمير ايسماور عند صلاة الصبح فقال له من أنت فقال : أنا حرب أرعد بن أرعد بن اروعي حبر الدين الاسير في الجزيرة . فأخبر الامام بخبره فأمر بدخوله فلما رآه الامام بكى شفقة عليه لما رآه من تغير حاله بالاسر وبكى الاسير ثم أبلغه أن أهل الجزيرة خافوا من شغل العرب وهم يطلبون الصلح على شرط انك لا تقتلهم ولا تحرق كنيستهم فقبل الامام ذلك وقال له : ارجع اليهم وقل لهم يكون ذلك . فرجع الاسير وأخبرهم وأشار عليهم بأن يرسلوا الأبون الذي عندهم (الرئيس الديني) ويعقد لهم الامان . فركب الابون سنبوقه وجاء الى الامام وأراد أن يقبل الارض فنعه الامام وقال له : يا خيس لاسجد للناس . ثم قال له : تكلم حاجتك . فقال : جميع الرهبان يريدون أن تعطيهام الامان على أنفسهم وكنيستهم . فقال الامام بشرط أن لا تخفوا المال فقال : السمع والطاعة أنا أذهب الى الجزيرة وأجىء بالمال . فقال الامام : لا تأمن لكم ولا بد أن يذهب أصحابي الى الجزيرة ويأتوا بالمال . فقال الابون : اذا كان لابد من دخول أصحابك فأوصهم بأن لا يغيروا على كنيستنا ولا ينقضوا عهدك . فقال له الامام : اذا أعطيتك الأمان أنا فلا أحد يقدر أن ينقض عهدي . فأمر الامام زحربوى محمداً بأن يذهب ومعه رجال من العرب والمهرة والمغاربة وأوصاه بأن لا يفعل شيئاً سوى نقل المال . فكان من الذهب والفضة جل مائة رجل وأصاب كل رجل من المسلمين ثلاثمائة أوقية ذهب وفضة وأرسلوا الى الامام الارمسة ثلاث مرات مشحونات وليس في الواحد منها أكثر من خمسة رجال مع انها يسع الواحد منها ١٥٠ رجلاً . فرأى الامام أموالا هائلة وقسمها فسهم

(١) ارتمس في الماء انفس فيه

أعطاه للعرب وسهم أعطاه لبحر بوى ولعسكر بحر والسهمان الباقيان فرقهما على جيوش المسلمين . ثم سار الامام الى بيت احمره وذلك لأنه كان بقي فيها كنيستان فأراد أن يحرقها احدهما مكان مريم والاخرى دبرته مريم فوصل الى احمره وأحرقهما . وذهب منها الى حنبورة حيث جلس لمرض الشريف أحمد القديمي الذي كان معه فبقي معه الى أن مات رحمه الله وصلى الامام عليه . وأرسل الامام الوزير عدلى الى دوار و فوصلوا الى نهر عواش فوجدوه ملائ وفي جانبه جيش الحبش فجعلوا يرمون المسلمين بالسهم في الليل فقام من أبطال المسلمين الجراد شمعون وقال نحمل في الماء وخيولنا تسبح فيه وحمل هو وخبيله في الماء وحمل المسلمون من ورائه والحبشة يرمونهم بالنشاب الى أن خرجوا الى الجانب الآخر . فدخل الجراد شمعون وسط صفوفهم وهو يجندل أبطالهم وحمل معه أصحابه فانهمز الاحباش وقتل منهم ثلاثمائة وخمسون . ثم جاءتهم من الاحباش كرة أخرى فتقاتلوا قتالا شديداً وانهمز هؤلاء وقتل منهم نحو ١٥٠ رجلاً ثم أعادوا الكرة ثالثة فانهمزوا وقتل منهم نحو ٥٠ رجلاً .

ثم سار الجراد شمعون الى « دبر برهان » فصادفه البطريق جرجيس فاقتتلوا قتالا شديداً وقتل من الحبشة ألوف . أما الامام فكان سار الى بلد ملك الحبشة وهزمه هو وبطارفته وسبي نساءهم وفر الملك برأسه . وعاد الامام بالغنائم الى معسكر الوزير عدلى . وكان هذا سار الى دبر برهان فلما وصل الامام أحب الوزير عدلى أن يعرض أمامه الجيوش لأنهم كانوا في وسط بلاد الحبشة وعليهم جواسيس للعدو فاستحسن الامام رأيه وجاء الوزير عدلى بخمسين راية وكل راية بمقدمها من الجرادات والامراء فكان عدد خيل الوزير يومئذ ثلاثة آلاف فارس لابس وثلاثة آلاف فارس غير لابس وكان عدد أصحاب التروس البيض عشرين ألف تراس وكان عدد أهل القسي مثلهم وكان مع الامام خمسة آلاف فارس كلهم لا بسون بتجافيف التماسيح والقטיפفة المثقلة بالذهب لا تظهر منهم الا احداق عيونهم من الدروع . ودخل أصحاب عدلى في الصف الاول من الصومال مع مقدميهم والتقوا مع الامام وسلموا عليه وداروا ناحية الى جنب المحطة . ودخل الصف الثاني من أهل النطبجار والمالية وأهل شوا ومن دخل في الاسلام وسلموا على الامام وداروا ناحية جنب الصف الأول . وجاء الصف الثالث وفيه الوزير عدلى والأمير حسين والأمير شمعون واورعى نور

وكانوا خسين أميراً في عدد عديد وزرد نضيد فجعلهم صفا بعد صف لكثرة جيوشهم فتواجهوا مع الامام وسلموا عليه وجلسوا وتحذثوا فبكى الامام بكاء السرور . وكان من يوم فارقهم الامام الى اليوم الذي واجههم فيه سبعة أشهر وأخرج الأمام الغنائم من الذهب والفضة والحريز وفرقها وكثر الذهب بين أيدي الناس حتى صار البغل يباع بأربعين أوقية من الذهب لكثرة الذهب وابتداله وكان الرجل يعطى صاحبه مائتي أوقية من الفضة فلا يرضى بها .

ولما رجع الامام الى دبر برهان ارسل ملك الحبشة البطريق راس بنيات وكان من أعظم البطارقة وأمره بكس افات والقبض على اورعى ابون الذي كان فيها . وكان الامام أرسل الى افات الوزير عباس مع نجدة فتلاقى الفريقان في كساية وانهمز البطريق ومن معه . ثم شاور الامام أصحابه فيما يوضع فقال بعضهم ان البلاد ما أسلمت من نهر عواش الى نهر وبي وكذلك أرض بالي والجزز والوج فالرأى أن نسير اليها . فقال لهم الامام : ان أهل افات وجدم وشجره أسلموا فاذا سرنا عنهم وتركناهم بلا عسكر فقد يرتدون . فقالوا له : المهم هو البلاد التي تقصدها لا التي نحن فيها . فوافقهم الامام وساروا الى أرض انباية وبعد قتال شديد في الجبال والاوعار قاتل فيه الحبشة بالسهم المسمومة فلم تنفعهم وتغلب عليهم المسلمون فأسلموا وأرسل فرشحهم على الذي كان قائد الحملة في جهة الماية بكتاب الى الامام يقول فيه ان أهل «مايه» أسلموا وكذلك أرض «زقاله» وبلاد «جتوا» و «ارحتلو» و «شجن» أسلموا جميعهم ففرح الامام فرحا شديدا . وكذلك كان أرسل عبد الناصر الى «جنز» وقال له قاتلهم أو يسلموا أو يعطوا الجزية . وأرسل الوزير مجاهدا الى أرض «وج» والى «جبرجي» وقال له : قاتل وأنا سأتر من ورائك . فاهل وج وجبرجي أعطوا الطاعة وأدوا الجزية واما بطريقهم «اسلام دحر» والبطريق الآخر «وينداب» صهر الملك فأبيا أن يسلموا . فلما وينداب فسار بجاته وخسين فارساً لاحقا ببلاد الداموت وأما اسلام دحر فأرسل الى الامام ولده و بطريقا اسمه عسبو ليتكلم مع الامام في الصلح وكان عسبو فصيحاً لييبا فقال للامام : هذا ولد البطريق اسلام دحر وأنا صهره جنتاك على أن لا تخرب بلادنا ولا تحرق كنائسنا ونؤدى الجزية ونبقى على ديننا . فرضى الامام بهذا منهما فأظفرا رغبتهما في الاسلام بعد ذلك فقال لهما الامام : قولوا نشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول

الله . فأما البطريق فقاها وحسن اسلامه . وأما ولد البطريق اسلام دحر فقال انا لأسلم حتى تحلف لى انك تتخذنى ولدا فضحك الامام من قوله وقال له : أسلم انا أفعل لك ماأردت كله . فقال لا اله الاالله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم انه كان معهما ثلاثون فارساً فأسلموا جميعا . واما « تسفو » مقدم بلاد المايه فارس الى الامام قائلا : لاتخرب بلادى فانى أسلمت على يد فرشحم دين . فأمنه الامام وقدم عليه هو والنبي راجل من الرماة فأكرمهم الامام وأقر تسفو على امارته . وجاء الوزير مجاهد مع أهل وج الذين أسلموا ووصل فرشحم دين بعد الوزير مجاهد ومعه من أسلم على يده وهم أهل ستة بلدان بفارساها وبطارقتها وكانوا الوفا فسجد الامام لله شكرا ودعا لفرشحم دين . وأما عبد الناصر فاقر الجزية على الذين فتح بلادهم وبعضهم تحصنوا بالجبال فسار الى « كنبات » وقتلهم وقتل منهم خلقا كثيرا الى ان اقر الجزية ورجع الى « جيطو » من أطراف بلاد هديه فقاتلوه فقاتلهم الى ان اقر الجزية .

اما الامام فكان فى أرض وج صام فيها رمضان وأفطرى « جراجى » وأرسل جيشا فيه عدة امرءا تحت قيادة الأمير حسين الى دوار و فدخلوا أرض زرى ثم أرض وطمات وكان هناك سافو ابن البطريق وسن سجد وغيره من البطارقة فأنهزموا من وجه المسلمين . ودخل سافو أرض « جان زجرة » فتعقبوه اليها فأنهزم الى عنقوت لاحقا بالملك وأخبره بما فعل المسلمون فخرن جداً . أما الأمير أبو بكر فانه دخل جان زجرة وخر بها وأحرق كنائسها ثم سار الى أرض « جراو رارى » وحط فوق نهر « بور » فدخل عليه بطريق جراو رارى والبطريق « ر و بيل » والبطريق « وسن جش » والبطريق « تيدروس » وأسلموا جميعا وحسن اسلامهم . وكذلك أسلم الجراد هنو وتحصن خمسة من البطارقة فى الجبال فقاتلهم الأمير أبو بكر وأسرههم هم ونساءهم وأولادهم .

وأما الأمير حسين والوزير عدلى فدخلوا أرض جاتر جفاء أهل « ادل مبرق » اليهما وأسلموا جميعا . وكذلك أهل « اواولده » و « وتن » و « أجيت » و « ارقوى » كل هذه من أرض دوار و فأسلموا جميعا .

اما الامام فسار من جراجى مسيره يومين وحط فوق بحر زواى وهو بحر ماؤه عنب تسير فيه سنابيقهم مسيرة ثلاثة أيام وفيه ثلاث جزائر كل جزيرة فيها ثلاث كنائس فأراد

الامام غزو هذه الجزر فقال له المسلمون دع البحر الآن وسر الى أرض هديه فجاء صاحب هديه وهو مسلم من الأصل وكان يؤدي جزية لملك الحبشة وكان يقدم كل سنة بنتا من أبنكارهم جميلة للملك يأخذها وينصرها . فلما دخل صاحب هديه على الامام مع جنده قال أنا مسلم وأتم مسلمون فأكرمه الامام وخلع عليه وهو وأهل بلده أضافوا العسكر فسألهم الامام بصنعهم الذى كانوا يصنعونه وهو أن يصفقوا كل سنة بنتا لحسنها وجالها ويقدموها لملك النصارى . فقالوا له : انه حكم على آباءنا الأولين وحكم علينا أن لانبس عدة الحرب ولا نمسك السيف ولا نركب الخيل بالسروج وحكم أن نعطيه البنت فكنا نعطيه مخافة أن يقتلنا ويحرب مساجدنا وكنا متى جاءنا الذى يريد أخذ البنت غسلناها وكفناها بثوب وحسبنا أنها ميتة وأعطيناه اياها فانا وجدنا آباءنا يفعلون ذلك ففعلنا فالآن اتانا الله بكم وقد هزمت الذى يحكم علينا وقتلتم جيوشه فنحن نجاهد معكم . فسار الامام الى أرض « أى فرس » ومعه صاحب هديه وأرسل « أحمد جويتا » الى « شرخه » فأسلم أهلها وسار الامام الى جاتر فأسلم أهل جاتر . وأهل « جانجى » وهم خلق كثير . وأسلم عثمان بن نخلى وكان أبوه مسلماً فارتد فى أيام السلطان محمد فعاد هذه المرة الى الاسلام هو وأخوه خالد ومعهما عدد عديد جدا من الفرسان والرجالة فولى الامام أرض جاتر شهابا وولى الأمير عمر ارض « استر جاتر » وفرق حسين أميرا على البلاد التى فتحها . وجلس الامام فى « عندوره » وأرسل عبدالناصر الى « جينه » وقال له : لا يسعك غيرها لأن معك جيوشاً كثيرة . وبينما الامام فى عندوره أرسل اليه البطريقان « سيمو » و « صبرو » انهما معه لامع أهلها ويطلبان منه جيوشا حتى يقاتلا فيها فأرسل الامام الى الوزير عدلى والأمير حسين بالمحجى بجيوش كافية فخصرا اليه فبلغه ان الاحباش خربوا بلاد هديه وبلاد جزر فاعاد عبد الناصر الى جزر وجعل صهره فى هديه وأسلم البطريق صبرو على يد الامام وأرسل الامام وزيره عدلى الى بالى وولاه عليها فسار اليها ومعه من أبطال المسلمين الوزير عباس ابن أخى الامام والجراد أحمد جويتا واورعى قاط عمر والجراد أحمد وش بن محفوظ وفرشحم سطوت وفرشحم على واورعى أحمد بن هرجاى محمد وحامد بن سوحه . ثم لما بلغ الامام أن صاحب بالى فى قوة عظيمة أرسل عبد الناصر صاحب الجزر والجراد صديق صاحب شرخه وصاحب هديه مديداً للوزير عدلى وكان دليلهم البطريق صبرو الذى أسلم وكان فارساً مشهوراً ووافاهم البطريق سيمو واسلم أيضاً .

فأرسلوا إلى بطريق بالي ينصحونه أن يخضع لثلاثينم ويخوفونه بكثرة جيوش الإسلام فأجاب
بأنه لا يسلم ولا يؤدي الجزية وأنه حاضر للقتال وأمر صاحب بالي جوعه أن يخرجوا للحرب
ومعهم نساؤهم وأولادهم وتلاقى الجمعان في بلدة زلة وأما المسلمون فكان على ميمتهم
الوزير عباس والجراد عثمان وعلى الميسرة عبد الناصر وأصحابه وفي القلب الوزير عدلى
وأصحابه وفي المقدمة اسماء نور وصبر الدين البطل المشهور . وأما صاحب بالي فصف التروس
قدام الخيول وركب فرسه وقام في وسط القلب كأنه برج من حديد وجعل نساءه وراءه
وعليهن زينتهن وفعل سائر البطاريق مثل فعله . ولما اختلط الجمعان حمل فرشم على على
بطريق بالي حتى اقتلعه من سرج فرسه وضرب به الأرض وسقطا معا فهض فرشم على
واستل خنجرا كان معه وقطع رأس البطريق فلما رأى الحبشة زعيمهم قد قتل ولوا الأديار
وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل من الحبشة عدة الوف وكانت نساء المسلمين جلن
أيضا وراء رجالهن وهن على بغالهن فكانت المرأة منهن تقول بعد الواقعة اسرت أربع
نسوة وتلك تقول حسا وتلك تقول ستا أو سبعا . وكان جملة البطارقة الذين قتلوا مائة
بطريق منهم البطريق اسحق قتله اسماء نور . وايب بطريق جابر وكان شيطانا شجاعا قتله
البطريق سيمو الذي أسلم . و بطريق ليمو صاحب شرخة قتله الجراد احمدوش بن محفوظ .
والبطريق غفاني قتله حبشى أسلم . وقتل زمنكر ابن بطريق بالي قتله تماش ابون .
والبطريق مجن قتله البطريق صبرو الذي أسلم مع سيمو . واسر نحو مائتي بطريق منهم
« ازاج زخره » وكان من خواص الملك . ومنهم البطريق نقديّة وكان مسلما مرتدّا .
ومنهم البطريق جرجيس ومنهم ابن دحرجويته . وقتل من الرجلة والفرسان ممن لم تعرف
اسماؤهم ثلاثة آلاف . وملك الله المسلمين خيولهم ومتاعهم ونساءهم وأولادهم وما ملكوا
جميعا . وحط الوزير عدلى في بيت البطريق عدلو في زله وسأل هل بقي من البطارقة أحد
فقالوا نعم وعدوا له خمسة بطارقة . قال الآن ابن يونون . قال البطريق سيمو : ما يقصدون
الأرض « قاقمة » . عند البطريق ايدبس فارس فرسل الوزير البطريق سيمو ومعه أربعون
فارسا فلقبهم محتفين في الأشجار فاسروهم وأخذوا معهم خمسين فارسا . وكان الوزير عدلى
لما سار إلى بالي أرسل الامام الجراد « جوشو » ابا بشاره إلى باب دارة وقال له الذي يخرج
من بالي لا يفلت منك لأنه لا طريق الا من هذا الباب فكان ما توقع وهو ان خمسة بطارقة

ومعهم ستون فارسا قصدوا العبور وهم منهزمون فاشعروا الا والمسلمون عند الباب فاسروهم وضربوا أعناقهم وقطع الجراد جوشو رأس البطريق « حجه » وأرسل به الى الامام لان الامام كان يتحرق عليه غضبا اذ كان ارسل الى الامام يقول له اريد أن أسلم فارسا اليه الامام رسولا فقتله ولحق بارض بالي فلما وقع هذه المرة في يد الجراد جوشو قتله وأرسل برأسه الى الامام ففرح به . ولم يكن وصل اليه خبر انتصار الوزير عدلى في بالي فلما رأى الامام الراس قال للرسول : من أين لقيتم صاحب هذا الراس . فقال الرسول : أما جاءكم الخبر من الوزير عدلى بما جرى . فقال الامام : وما ذا جرى . فأخبره الرسول بالنصر العظيم الذى من الله به . فصلى الامام ركعتين شكرا وخلع على البشير خلعة تامة وجلس فى القلاة وأمر بضرب النقارات والطبول . ثم وصل بشير الوزير عدلى بتفصيل خبر المعركة وهو يسأله كيف يفعل بالاسارى ونساء البطارقة وأولادهم فأجاب : أما البطارقة ونساؤهم وأولادهم والخيول التى عنتموها فأخرج خسه وفرق الباقي على المجاهدين . وأما امرأة البطريق عدلو فخذها لك ومن أسلم من البطارقة يكون معك ومن لم يسلم فاقتله . وأما نقديه المرتد فاشنقه بباب البلد زله . وأما خارج وازاج زخره وجرجيس وابن دحرجويته فارسلمهم الى . ثم ارسل الامام الى البطريق سيمو سيفا من الذهب الاخر فيه ٢٠ اوقية على مقبضه وذلك لما فعل من الجليل وكونه لم يغدر . فأنفذ الوزير أمر مولاه وفرق الاموال ونساء البطارقة واخذ امرأة البطريق عدلو لنفسه . وارسل الى الامام الاسارى الذين طلبهم فامر بضرب أعناقهم . وأما خارج المرتد فشنع به المسلمون وقالوا للامام : هذا قد تربي في بيتك وهو صغير وقد تاب . فعفا الامام عنه . أما أهل بالي فاسلموا باجمعهم بعد هذه الواقعة . وكانت واقعة بالي يوم الجمعة يوم الحج الاكبر سنة ٩٣٨ .

ثم ارسل الامام الوزير مجاهدا الى أرض وج فقاتله بطريقها « اسلام دحر » صهر الملك اسكندر ومعه ثلاثون بطريقا بجنودهم فهزيمهم . وقتل اسلام دحر ومن معه من البطارقة واطاعت وج سهلها وجبلها وارسل الوزير مجاهد بنجر الفتح الى الامام وهو فى جراجى . وكان ملك الحبشة أرسل بطريقا اسمه « أيكير » ومعه جيش الى بلاد جنز فقصد عبد الناصر من أرض هديه وهزمه وأسر عسكره ولم يفلت الا البطريق وحده واسلم العسكر الذين وقعوا فى يد عبد الناصر وحسن اسلامهم وشهدوا فيما بعد عامة الوقائع . وارسل

الامام قائداً اسمه يعقيم الى ارض ورب فاجتمع الحبشة تحت قيادة بطريق اسمه الكليل وقاتلوا يعقيم فهزمهم وقتل منهم الف رجل وكتب الى الامام بالفتح وسأله ماذا يفعل فاجابه بأن يأخذ من أهل ورب جزية سنوية مقدارها ١٥ الف حل من الخنطة والف اوقية ذهب وalf كدوجة من العسل والسمن . فاطاعوا على ذلك وجلس يعقيم في بلادهم .

فبعد فتح الامام لبلاد دوار ووبالى وهدية وجز ووج وورب وفطبحار وافات وما حولها لم يبق خارجا عن طاعته الا قدر ثلث الحبشة فارسل الامام الى بر سعد الدين يطلب امراته وأمر المجاهدين بان يطلبوا نساءهم ويسكنوا ببلاد الحبشة ففعلوا وبعث الوزير عدلى الى بلاد الداموت ففتحها وهزم بطارقتها وفتح بلاد جافات وغنم غنائم لا تحصى . ثم جمع الامام الامراء في دبر برهان ، وقال لهم : قد انفتحت بلاد الحبشة ولم يبق الا بلاد التيجرى ومدن والقوجام فاما أن نسير اليها واما أن نجلس في هذه البلاد سنة حتى نقررها . فاشار بعضهم بالجلوس سنة واحدة حتى تتقرر الاحوال وقال الآخرون مثل الوزير عدلى وعبد الناصر والوزير مجاهد وزحريوى محمد لابل الاحزم أن نقصد ملك الحبشة من الآن لاننا في قوة ومنعة . فقبل الامام رأيهم وسار بجيوشه من عدة طرق وجزت معه وقعة بقرب بيت احمره أخذ فيها أربعة آلاف مع بطريقتهم ابن دجلحان فعرض عليهم الاسلام فاسلموا ولبثوا مع الامام الا ان ابن دجلحان فر فيما بعد .

ثم سار الامام الى جبل الغنبا الذى تقدم ذكره وهو الذى يحفظون فيه أولاد الملوك ولا يمكن الصعود اليه الا بالسلام وكان المسلمون عجزوا عنه أول مرة فخط الامام على هذا الجبل وأمر ملك الحبشة جميع جيوش التيجرى أن تقابل الامام دون هذا الجبل فقاتلهم الامام نحو شهرين وما زال حتى فتح الحصن الأول والصخور والحجارة من فوق المسلمين مثل البرد تقع عليهم . وكان مع النصارى وأهل التيجرى مدافع وبنادق وكان يضرب لهم بالمدافع رجلا من المسلمين أحدها عربى اسمه حسن البصرى والآخر عبد أصفر تركى كان عند الامام ثم تنصروا لخلق بالحبشة . ولكن الامام كان أرسل الى زيلع فاشترى مدفعا كبيرا من نحاس ومدفعين صغيرين من حديد وجى بها على الجمال الى جندبله ثم حملتها الرجال الى محلة الامام لأن الجمال كانت لا تقدر على السير في تلك الأوعار وكان مع المدافع مهتران من الهنود فضربا بالمدافع واشتد القتال وكان حسن البصرى يضرب بالمدافع على

المسلمين فلما رأى الامام أن لا سبيل الى أخذ الحصن الثاني أمر بالرحيل وقصد بلاد التيجرى ومر بكنيسة اسمها « لابللا » وهي كلها منقورة في الصخر وأعمدتها من الصخر وفيها صهريج ماء منقور في الصخر وليس في هذه الكنيسة خشب سوى التماثيل والتوايت فأحرق الامام ما فيها من التماثيل . وسارت طلائع المسلمين مع مقدمها شمسو مع مسيرة يومين حتى بلغت نهر حرار وكان الأحباش عبروه وتركوا أنقالم ومعها بنت أخت ملك الحبشة فوصل المسلمون وأخذوا الأتقال و بنت أخت الملك وعادوا بها الى الامام فتسرى الامام بنت أخت الملك وولدت له . ثم قدم الامام القائد شمسو فسار يومين فتلاقى مع الأحباش وهم في عدة عظيمة ومن جملة ما معهم جبال كثيرة هيأوها لربط المسلمين فهزمهم شمسو وقتل منهم ثلاثة آلاف وربط كثيراً منهم بحالهم . وزحف الامام الى الأمام واستشهد معه زحربوى محمد بحربة مسمومة فخرن عليه حزناً شديداً وهزم العدو وحط عند كنيسة مارية . وولدت له زوجته هناك ولداً أسماه أحمد النجاشي وكان أول ولد في التيجرى ثم سار حط في « قرقاره » وهي كثيرة البر والعسل فأقام الامام بها وسرح جيوشه تغزو البلاد فتلاقى المسلمون مع العدو في أرض التنبين فهزمهم . وقتل منهم ثلاثة آلاف وسار يريد مدينة أ كسوم حط في أرض « ارعدة » ودخل عليه أناس من مسلمى بلاد التيجرى من قبيلة بلو وقالوا له : ان الأحباش اجتمعوا بجبل هناك فقسم جيشه قسمين وقصدهم وأفنى منهم أكثر من عشرة آلاف حتى امتلأ السهل والوعر بجيف القتلى ونهبوا من مواشيهم ما لا يقع تحت حصر . ووصل الخبر الى ملك الحبشة أن المسلمين دخلوا الى التيجرى وأخربوها فبكى وحزن حزناً شديداً وجع جميع بطارقه وجيوشه وسار الى ا كسوم وأخرج الصم الكبير من كنيسة ا كسوم وهو حجر أبيض مرصع بالذهب ومن كبره لم يمكن اخراجه من الباب بل نقبوا من الكنيسة على قدره وأخرجوه وجمه أربعمائة رجل وذهبوا به الى حصن اسمه تابر . وسار الامام قاصداً ا كسوم فر بثلاثة حصون صالحه على الجزية أهل حصنين منها فغلاهم . وقاتله أهل الحصن الثالث فقهرهم وقتلهم عن آخرهم وفر ملك الحبشة الى « مزجة » وسلطانها مسلم اسمه مكثر . فأرسل هذا الى الامام يستصرخه قائلاً : أدركنى قبل أن يقتلوني فجد الامام في السير حتى ينقذ مسلمى مزجة ومر بكنيسة اباسامثيل وكان فيها خمسمائة راهب فقتلهم جميعاً وصادف جمعاً من الحبشة مقبلين لنجدة

الملك فاستأصلهم . ووصل اليه من السلطان مكرت رسول يخبره بأن النصارى ضيقوا عليه وقتلوا كثيراً من رجاله وثلاثة من أولاد أخته وهو ينتظر وصول الامام فأرسل اليه الامام أنه قادم اليه ففرح فرحاً لا مزيد عليه وخرج وهو مريض وركب فرسه ولبس درعه وسار يلاقى الامام ومعه خمسة عشر ألف مقاتل من النوبة . فنزل الامام بجيشه عند السلطان مكرت فأضافهم عشرة أيام . وبلغ ملك الحبشة أن الامام صار الى هناك فانهزم بجيشه الى أرض قجام وسار الامام وراه فبعد مسيره بثلاثة أيام مات السلطان مكرت فأخفت أخته « جعوة » خبر موته عن العساكر وأرسلت تخبر الامام بموته فولى الامام ابنه نافع مكانه وهو صغير بكفالة عمته وكانت تدبر الأمور في حياة أخيها . ثم تقدم الامام الى أرض الدنية وسأل عن ملك الحبشة فقالوا له فاتك من ثمانية أيام . فسار الامام وحط عند كنيسة انفران وأحرقها وقام يتبع الملك في الطريق أدركوا فارساً من النصارى فأسروه فاذا هو أبون أخو الوزير مجاهد وكان قد ارتد ولحق بملك الحبشة فسأله الامام عن الملك قائلاً : اما نلحقه اذا سرنا وراه . فقال لا لأنه قطع بلداناً كثيرة . ثم أمر الامام بضرب أبون المرتد هذا وعفا عنه فلم يقتله . وبقى الامام مجدداً في السير فصادف خيام الملك ومطابحه قد رموها في أرضها ثم لقي صناديقهم مرمية قد تركوها حتى لا يتأخروا بسببها . وأدرك الامام ساقه جيش النصارى وفتك بهم ولم يدرك الملك وهذا نزل على نهر « ابوين » الذي يتصل بنيل مصر وكان الامام في طليعة جيشه اختلط بعسكر النصارى ولم يشعر الا وهو في وسطهم فكانوا يتكلمون بكلام النصارى حتى لا يعرفوهم . ولما يدرك الملك وقف حتى وصل اليه جيشه . وأسر في تلك النوبة أحد صبيانه واسمه أنس كان ارتد ولحق بابن البطريق دجلحان فأمر الامام بقطع يديه وأسروا البطريق اقباسات الذي هو قاضي الحبشة وهو عندهم ثاني البطرك فقتله الأمير ايسمانور وأسروا أخت ملك الحبشة وكان اسمها « امتى دنقل » . ودخل الامام بلاد التيجرى وقد اشتد بها الغلاء والجوع فبلغ ثمن كل ثلاثة أصع مثقالين من الذهب وصارت الأحباش تسرق بغال المسلمين . وكانوا لما دخلوا أرض التيجرى كل واحد منهم معه خمسون بغلاً فما خرج منها الواحد الا ببغل أو بغلين . وكان الوزير عباس ذهب الى أرض السراوى ثم تبعه الوزير عدلى وأهلها مسلمون ومنهم نصارى فأسلموا . وقاتل البطريق « تسفولولو » في مكان خرج مشتبك الأشجار وهناك طريق ضيقة لا يقدر أن يمر بها الفارس الا وحده يتبعه

الفارس . فأراد الوزير عدلى أن يتقدم الجميع في هذه الطريق فلما توسط الطريق رماه النصارى بالخراب والمزاريق فأثخنوه بالجراحات فسقط فتقدم من المسلمين رجل اسمه بربرى فمّله على ظهره وبه حشاشة على أن يهرب به والسهام عليهما مثل المطرفقال الوزير عدلى لبربرى ارمنى عن ظهرك فما بقيت بي روح . فتقدم فارس من صبيان الوزير عدلى يسمى كبير محمد فقتلوه فتقدم آخر اسمه الجراد هيجو من أهل بالى فاستشهد . فلما رأى المسلمون أن لا سبيل للورور رجعوا الى الورااء وحطوا في مكان فسيح وقطع النصارى رأس الوزير عدلى وأرسلوا به الى ملك الحبشة ولما وصل خبر موت الوزير الى الامام جمع الجيوش وكان أكثرهم من الذين أساموا جديداً فأمر منادياً ينادى ان عبداً من عبيد الامام مات ويقوم واحد مكانه وهو الوزير عدلى فحينئذ ارتجت المحطة بالبكاء والنحيب وحزن المسلمون حزناً شديداً . أما النصارى فلما وصل رأس الوزير عدلى الى الملك جلسوا ثمانية أيام يضرّبون طبولهم ونقيرهم ويظهرون زينتهم ويشربون خورهم .

وجعل الامام الوزير عباساً مكان الوزير عدلى وأرسله الى أرض السراوى فقصد البطريق « تسفولولو » وأسرع بالمسير آملا الظفر وأمام جيشه راهب على حمار يقول للحبشة اليوم لكم النصر على الوزير عباس فتلاحم الفريقان وحمل رجل من المسلمين على البطريق تسفولولو فخنّده صريعاً فلما رأى الأحباش بطريقهم قتيلا ولوا الأديبار فقتلهم المسلمون فلم يفلت منهم أحد وقتل الراهب وهو على حماره ، وقتل أولاد البطريق وأخذ الوزير عباس بثأر الوزير عدلى وأرسل برأس البطريق ورؤوس أولاده الى الامام ففرح بالنصر وأخذ الثأر .

وجلس المسلمون في بلاد تيغرى سنة واحدة حتى فرغ زادهم وأضرّبهم الجلاس فأت منهم أناس كثيرون في أرض السراوى بالطاعون مات أورعى أبو بكر ومات أحد النجاشى ولد الامام ومات طاوسى امرأة الوزير عدلى ومات الجراد عبد الناصر وامراته بلقيسة وارتد بعض المسلمين ومنهم أخو فرشحهم سلطان مع كثير من كانوا أسلموا وذلك من الجهد الذى جرى للمسلمين . ولم يبق لهم ظهر ولا حمار يحملون عليه فكان كثير منهم يحمل دبه على ظهره . فلما رأى الامام ما حل بالمسلمين في أرض تيغرى سار بهم قاصداً أرض « بتي مدر » لكثرة خيراتها وولى ولاية من قبله على بلاد السراوى وبحر نجاش

والجاسين وعزل الشريف بورا عن ذخنو وولى مكانه السلطان أحمد بن اسماعيل الدهلكي ومر الامام بأرض مزجة التي أهلها مسلمون وصام عندهم رمضان سنة ٩٤١ ثم سار الى بتي مدر فكمّن له الأحابيش في الطريق وكان عليهم بطريق بتي مدر ومعه ثلاثة بطاريق فهزموهم وأسروهم . وفر منهم بطريق ساول الى بلاد سمين ، وهي جبال لا يوجد أعصى منها في جميع الحبشة وأهلها من يهود الحبشة ويقال لهم بلغتهم فلاشة يقرون بوحدانية الله ولا يعرفون غير ذلك من الايمان . وكان أهل « بحر عنبا » استعبدهم أربعين سنة يحرقون لهم ويستخدمونهم فلما انتصر الامام على الحبشة جاءوا اليه من كهوف جبالهم وخدموه وصاروا حرائين للمسلمين ثم استفتح الامام بتي مدر وصار أهلها فلاحين للمسلمين واستفتح « وقرة » وبنى فيها مساجد وولى عليها الجراد صبر الدين واستولى على بلاد « درجه » من بتي مدر وولى عليها فرشح عليا وبنى فيها المساجد وصار أهلها فلاحين للمسلمين . وأخذ بلاد الوفاة وكنفات الى أرض واق وجعل فيها الأمير أبا بكر قطين مع جيشه وبنى فيها المدن والمساجد ودخل بلاد الدينيه وهي كثيرة الخيرات وبندر الذهب فاتخذها مسكنا وأصلحها وبنى فيها المساجد وصار أهلها فلاحين للمسلمين . وأعطى بلاد « تاكه » وهي نغر بلاد الهمج الى الوزير عباس واستراح المسلمون وسار الامام الى بلاد قجام فأخربها وتلقى فيها مع الأمير شمعون وكان لما تركه الامام في جدم قصده ملك الحبشة بمجموعه فهزموه شمعون وأخذ كل مامعه . وكان في الدينيه بحر عنب مسيره أربعة أيام في وسطه ثلاثون جزيرة مملوءة فواكه ورياحين وكان كل من لم يطع المسلمين من الأحباش التجأ الى هذه الجزائر فغزاهم الامام بالسناييق الى جزائرهم . انتهى

هذه خلاصة الجزء الأول من كتاب عرب فقيه ولم يعثر المستشرقون على الجزء الثاني وانما يجمل الأخبار التي في هذا الكتاب مؤيد بكتب الحبشة وتواريخ الافرنج . وقد ظهرنا أن بلاداً كثيرة مما عده صاحب مسالك الأبصار من ممالك المسلمين في الحبشة ونقله عنه صاحب صبح الأعشى كانت في أيام الامام أحمد بن ابراهيم من بعض ولايات الحبشة مثل أوقات ودوارو وهديه وشرخه وبالي وان الامام الغازي أحمد انما فتح البلدان التي كان أصلها للمسلمين . وأغرب من هذا وذلك المبالغة التي حصلت في احصاء أجناد تلك الممالك الاسلامية وان هذه فرسانها أربعون ألفاً وهذه عشرون ألفاً الى غير ذلك مما لا يمكن أن

يكون بدليل أن جميع فرسان الامام الذي هو أكبر غاز في الحبشة عند ماعرض الجيش الوزير عدلى كانوا أحد عشر ألف فارس وأربعين ألف راجل وهو الجيش الذي يمثل قوة مسلمي الحبشة بأجمعها ثم ان صاحب « هدية » الذي قال عنه انه أقوى اخوانه وأكثرهم خيلا ورجلا وان عنده أربعين ألف فارس سوى الرجالة فانهم مثل الفرسان مرتين وأكثر هو هو الذي ذكر صاحب « فتوح الحبشة » انه كان يقدم كل سنة للمليك الحبشة بنتا مسامة يتسراها وينصرها وانه لما وبجهم الامام الغازي أحمد بن ابراهيم على قبول ذلك قالوا له : كان هذا الملك مستبداً بنا ضاربا علينا الفلة والمسكنة محظورا علينا مسك السيوف وركوب الخيل بالسروج فكنا نقدم له الطاعة والمال والبنت هذه فداء عن أنفسنا ومساجدنا . فكيف تخاط هذه القصة التي تاريخها في القرن العاشر للهجرة (٩٣٠) مع قصة الأربعين ألف فارس والثمانين ألف راجل التي يجب أن يكون تاريخها قبل ذلك بقرنين أو قرنين ونصف قرن ولا يظهر من حال هاتيك البلاد بحسب وصف عرب فقيه انها تحتمل هذه القوى الهائلة كلها لاسيما ما كان منها مثل مملكة هديه ضيق الرقعة قليل المادة . ولاشك ان عرب فقيه الذي كان في البلاد نفسها ادري من الشهابي بن فضل الله ومن القلقشندی ومن المقریزی الذين نقل بعضهم عن بعض .

اتقد لخصنا فتوحات الامام أحمد جران وفتكته بالحبشان النصارى وجملة اياهم على الاسلام وليس ذلك الاجزاء مما كان يفعلها الحبشة النصارى بالحبشة المسلمين والصومال والنوبة قبل ظهور السلطان سعد الدين والامام أحمد وبعدهما ومما كانوا لا يزالون يفعلونه الى عهد قريب وهاك ملخصا تعريب ماجاء في الانسيكلو بيدة الاسلامية الفرنسية تحت اسم الحبشة ، فبعد أن ذكر فيها ان جغرافي العرب الأولين والمتوسطين مثل ابن خرداذبه والمقدسى والمسعودى والادريسي وأبا الفدا والدمشقي وابن الوردي والحراني لم يذكروا شيئا طائلا عن الحبشة جاء فيها ان المؤلف الوحيد الذي تكلم بالتفصيل عن تاريخ الحبشة في الأعصر الأخيرة وأخبار ممالك الاسلام فيها هو المقریزی في رسالته « الاعلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام » .

فالمقریزی يتكلم عن اقليم من الحبشة يسمى زيلع يشتمل على سبع امارات : أوفات ودوار وواراباني وشرخه وبالي وداره ومملكة هدية القوية . فكل من هذه الممالك

كان عليها أمير مستقل بها لكنهم جميعاً كانوا تحت سيادة الحطى سلطان أمحمد وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر دخل مسلمون كثيرون في أرض شوا ووصلوا الى بيق مدر^(١) وأول من أساء معاملة المسلمين من ملوك الحبشة يقال انه الملك يقونوا ملك (١٢٧٠-١٢٨٥) فخر هذا الاضطهاد الى حروب ووقائع مستمرة اشتهرت كثيراً لاسيا في أيام الملك عمدسيون الذى انتصر على ملوك عدال صبر الدين وجمال الدين الخ (١٣١٤ - ١٣٤٤) واستمرت هذه الحروب في أيام خلفاء عمدسيون مثل نوايا كريستوس (١٣٤٤ - ١٣٧٢) ودافيت (١٣٨٢ - ١٤١١) ويسحق (١٤١٤ - ١٤٢٩) وزارا يعقوب (١٤٣٤ - ١٤٦٨) وبيدامريم (١٤٦٨ - ١٤٧٨) واسكندر (١٤٧٨ - ١٤٩٤) الخ وقد أخضع بيدامريم ملك الدناقيل أيضاً وهم أمة مسامة لانزال سا كنة الاقليم بين جبال الحبشة والبحر الأحمر في أوائل القرن السادس عشر (أى منذ نيف وثلاثمائة) كان الاسلام في هاتيك الأصقاع في ذل عظيم .

وكانت تلك الحروب كلها مدة قرنين كاملين خارج الحبشة الأصلية ولكن سنة ١٥٢١ نقل سلطان « عدال » أبو بكر بن محمد كرسيه الى هرر فازداد الاحتكاك بينه وبين شوا والحبشة ثم لم يلبث ان ظهر أحمد بن محمد جران القائد الصومالى^(٢) الذى عاونه الترك بالمدافع والجنود^(٣) فشن الغارات على الحبشة حتى بلغ أقصى شمالها ونهبها مراراً واحرق كنيسة اكسوم . وكتاب هذه الفتوحات الذى ألفه عرب فقيه (١٥٤٣) هو التأليف العربى الوحيد الذى يذكر كثيراً أقاليم الحبشة . وسنة ١٥٤٤ انتصر الملك غلادىوس على جران هذا وقتله ولكن نور الدين خلف جران أخذ بثأره فغلب غلادىوس وقتله سنة ١٥٥٩ وكان الأتراك قبل ذلك بستين احتلوا مصوع وبمساعدة أمير البلاد الساحلية احتلوا عدة مدن من جلتها « دباروه » وثار هذا الأمير واسمه يسحق على الملك « سارسا دنقل » وظهره الترك فانكسروا جميعاً في واقعة « عبا جريمه » سنة ١٥٨٩ هزم سارسا دنقل الباشا التركى « قداورت » بقرب اركيكو وقتله .

وبسبب هذه الطوائف وغيرها مما احرزه الملك سارسا دنقل على محمد الرابع سلطان

(١) تقدم ذكرها في فتوحات الامام

(٢) الذى نعرفه أنه أحمد بن ابراهيم

(٣) على كل حال في الوقائع التى لخصناها عن صاحب تاريخ فتوح الحبشة لا يوجد أثر للترك

عدال و بمساعدة البرتغاليين للحبشة ضعف المسلمون في الجنوب والشمال ولم يبق منهم خطر. ثم فتح الملك سوسنيوس مملكة سنار (١٦٠٧ — ١٦٣٢) وسنة ١٦٣٢ استنفر المسلمون العصاة سلطانهم طلحة لمقاتلة الحبشة فجأوبهم بأن هذا لم يعد ممكناً. ثم ان البجة الذين كانوا أسوا سنة ١٦٥٠ مملكة سنحار لم يقدروا على ملوك الحبشة مع اعتدائهم أحياناً على الحدود واضطر النائب موسى بسبب نهب أمتعة تخص الملك ياسو الأول أن يذهب الى اكسوم ويطلب العفو. وسنة ١٦٩٧ تغلب الحبشان على أمير البجة وسنة ١٧٦٩ ثار البجة على ملك الحبشة فدوخ الراس ميكائيل بلادهم على أن غزوات الاسلام لا سيما فتوحات جران فتحت أبواب الحبشة للاسلام وقد فهمنا من كتاب عرب فقيه ان مغازى جران جلت كثيرين في نفس بلاد الحبشة مثل فاقو ودينيه الخ على الدخول في دين الاسلام وشيدت فيها مساجد مما يحمل على الاعتقاد بأن الدخول في الاسلام لم يقع على حدود الحبشة فقط. وفي سنة ١٦٤٨ وصلت رسل اسماعيل المتوكل امام صنعاء الى الحبشة فوجدوا بقرب غندار مدينة أهلها كلهم مسلمون وشاهدوا في بلاد اندرته (سبق ذكرها) مسلمين شافعية، وكان في نفس غندار حارات للمسلمين. وسنة ١٦٦٨ عقد الملك يوهانس مجمعا قرر منع المسلمين من السكنى مع النصارى ثم تجدد هذا الأمر سنة ١٦٧٨ مما يدل على كثرة المسلمين الذين كانوا بين النصارى.

وفي القرن الثامن عشر انتشر الاسلام في أمة الغاله الذين الى الجنوب الشرقي من الحبشة والى الشمال من شوا ويقال ان أمة الفولو هداهم الى الاسلام عربى اسمه دبلو. وقد حقق روبرل Rüppel انه سنة ١٨٣٠ كان الاسلام ينمو في الحبشة وبالفعل ظهر ان أمة من التيجرى كانوا في أوائل القرن التاسع عشر نصارى هم اليوم جميعاً مسلمون مثل الحباب والتاماريان والتا كل الخ وان اما أسلم بعضهم مثل المنسا وغيرهم.

ولا يجوز أن نغفل أن التجارة قد أفادت الاسلام في الحبشة كثيراً فان التجار لأجل الوصول الى هناك كان عليهم أن يمرروا ببلاد المسلمين فأنحصرت التجارة في أيدي هؤلاء وازداد عددهم ونفوذهم. وكان الراس على من الغاله الذى نفتت كلمته كثيراً من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٥٥ مع تظاهرة بالنصرانية يساعد المسلمين كثيراً مما أوجب حصول رد فعل في أيام الملك تيودور وس عدو الاسلام الاكبر. وازدادت هذه

العداوة عند احتلال المصريين بعض أقاليم الشمال من الحبشة (١٨٣٠ — ١٨٤٠) فأرسل الخديوي جيشاً الى مصوع فاستأصله يوهانس (١٧ نوفمبر ١٨٧٥) وسنة ١٨٨٠ أصدر هذا الملك أمراً بموجه يبنى فيه للمسلمين أن يتنصروا أو يهاجروا من الحبشة . فهاجر كثير منهم الى القلابات وختل غندار منهم تماماً . وأما مسلمو سراك وهمازن وغيرها فنالوا الاذن بأن يسكنوا في بلدين خاصين بهم لكن هذه الاوامر لم يطل بها العمل . وكان المسلمون قبل تيودورس ويوهانس متفرقين بدون نسبة في العدد فكانوا قلائل في قوجان (تقدم ذكرها) وكانوا نصف أهالي الفولو وادجو والى اليوم تجد المسلمين كثيرين جداً في بلاد كوالاحال كون المسيحيين كثيرين في الداقا . أما في الشوا فالمسلمون كثيرون جداً ولكنهم ليسوا كثيرين في دنييه مثلاً . أما مستعمرة الاريتره الايطالية ففيها مائتا ألف مسلم أى ثلثا أهل المستعمرة ولهم أربعة قضاة في المدن الاربع مصوع وكرن واقوردا واسماره وهناك امامة للحجاب متوارثة في بيت امارة من قبيلة الدركي

وما عدا أهل مصوع فسلمو الاريتره أربع فرق : الأولى السوحو واتباعهم الى الجنوب الشرقي من الاريتره وكان قسم منهم قد أسلم في القرن التاسع عشر . والثانية مسلمو الساحل والانساب الأوسط واسلامهم حديث العهد ولكنهم شديدو التمسك به . الثالثة البجة والحبشان الذين أسلموا من قديم وانشروا الدين المحمدي بين قبائل القيدن والباريا فهؤلاء منذ ٥٠ سنة فقط دخلوا في الاسلام . الرابعة مسلمو البلاد التيجرية من الاريتره .

على ان اسلام الحبشة المنتشر بين الغاله والسحو والبجة ليس له من القوة والشدة ماله في البلاد الأخرى فليس ثمة مدارس دينية مربوطة بالمساجد وان وجد بعض افراد من مصوع يحبون أن يتفقهوا في الدين ذهبوا الى الأزهر بمصر وفي الغالب لا يرجعون الى أوطانهم كما أن الطرق الصوفية التي هي من أعظم أسباب قوة الاسلام في هذا العصر مجهولة في الحبشة . انتهى .

وذكرت الانيسكولويدية الاسلامية الفرنسية هرر فقالت ما محصله :

ان هرر مركز تجارى عظيم في شرقي افريقية هي الآن داخله في ملك الحبشة وقاعدة ولاية اسمها ولاية هرر . موقعها بين ٤٢ و ٢٤ و ٣٦ من الطول الشرقي و ٩ و ٢٣

من العرض الشمالى وعدد سكانها ٥٠ ألفاً منهم الثلث فقط هرريون فى الأصل والباقيون صومال وغاله وجبشان وهنود وسوريون وأرمن وأروام وأوريون وأشهر مساجدها مسجد الشيخ أبى ذر ومسجد عمر الدين . ويقال ان الأول هو الذى أدخل الاسلام فى هرر ونشره فى تلك الأصفاع أما الثانى فكان سلطانا على هرر فى أيام أحمد جران (١) وهرر هى مراكز الدعاية الاسلامية فى شرقى افريقية ومنها يذهب دعاة الاسلام الى بلاد الوثنيين من الغاله وعلاقتها كثيرة ببلاد العرب ومصر . وقد سقطت هذه الأهمية وخفت هذه الحركة الدينية بعد استيلاء الحبشة النصارى عليها ولكن أهالى هرر لا يزالون متعصبين للدين . وألوان أهالى هرر شديدة السواد لكن ما مال منها الى الصومالى كان أميل الى الصفاء ولما كان الحبشان فى القديم استولوا على هرر فاللغة الاحمرية معروفة فيها وان كان دخلها كثير من الصومالى والغالى ولا سيما من العربى . ولا يوجد وثائق تاريخية عن فتح الحبشة الأول لهرر والمظنون أنه كان فى القرن الحادى عشر والذى يليه ثم الذى يليه . أما فى القرن الرابع عشر فقد تدفق السيل الاسلامى الى الغرب حتى وصل الى الحبشة نفسها وطمى عليها فى القرن السادس عشر . وأول ما ذكرت هرر فى تاريخ الحبشة هو فى زمان الملك عمداسيون لأن أمراء هرر تألبوا عليه مع غيرهم فكانت يومئذ هرر قاعدة بلاد الزيلع وأول أمير عرف من أمراء هرر هو عمر ولا شما الذى يظن أنه تولاها سنة ١١٥٠ ثم ان الأمير أبابكر جعل كرسيه فيها سنة ١٥٢١ ولا شك أن السبب فى ذلك هو قدوم الترك فى زمان سليم الاول اذ استولوا على اليمن وجميع سواحل افريقية الشرقية الى رأس غواردافى فاشتبكوا فى الحرب مع البرتقال . ثم ظهر أحمد جران ومعنى جران الاعسر وكانت ولادته سنة ١٥٠٥ وخدم فارسا فى عسكر الامير ثم دبر مكيذة وعصى سيده وما زال حتى استقل واجبر الصومال أن ينضموا الى عسكره ولا يزال الى يومنا هذا اسمه عظيما فى الحبشة ولم يتخذ لقب سلطان ولا أمير بل اتخذ لقب امام ومنذ عام ١٥٢٦ لم يزل يوالى الغارات على مملكة الحبشة حتى دوخها كلها وأحرق الكنائس والاديرة والكتب ونهبها وسبى النساء والاولاد واسترقهم فدخل كثيرون من النصارى فى الاسلام بحيث انهم فيما بعد التزموا فى الكنيسة الحبشية أن يوجدوا هيئة خاصة لاعادة الذين أسلموا الى النصرانية .

(١) تقدم ان جران جماله سلطاناً بعد قتل أخيه

وقتل جران سنة ١٥٤٣ في حربه مع الحبشان والبرتقال وقد كان الملك غلوديوس ممن
اشتهروا في قتال أمراء الاسلام ولكنه قتل هو في حرب مع الامير نور صاحب هرر. ثم
نزلت هرر عن مقامها الاول وبقيت تضعف الى سنة ١٨٧٥ اذ افتتحها القائد المصري
رؤوف باشا بينما كان الامير حسن باشا ابن الخديوى اسماعيل يقاتل الحبشة من الشمال فاما
جلات حسن باشا فقد فشلت وأما رؤوف باشا فقد تمكن في هرر وزيلع وسنة ١٨٧٨ عزل
رؤوف باشا وتوالى على هرر عدة ولاة مصريين الى أن قرروا اخلاءها سنة ١٨٨٤ وساموها
الى الأمير عبدالله فرحف اليها منليك الثانى من شوا واستولى عليها في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٧
فحازها الحبشة النصارى بعد ٦٠٠ أو ٧٠٠ سنة من فتحهم الأول . انتهى .

أما بلاد الصومال فهى الممتدة من مرسى تاجورة الى راس غواردافى ومن راس
غواردافى على البحر الهندى الى نهر جوبا . وفيها سلسلة جبال تعلو الى نحو ٢٠٠٠ متر عند
بربرة وهوؤها حار والامطار فيها غزيرة لا سيما فى السواحل وزراعتهم قليلة وأكثر
اعبادهم انما هو على المواشى والخيول والجمال . وعدد الصوماليين مليون نسمة أصلهم مختلط
من الغاله والسودان والعرب وكلهم مسامون وهم أشداء البأس أعزة . وشمالى بلادهم داخل
فى مستعمرة أبوك الفرنسية وباقى هذا الساحل مع زيلع وبربرة يخص انكلترة وادارته
فى عدن وأما الساحل الشرقى من راس الخيل الى نهر جوبا مع مراسى اوبيا ومقدشو ومركا
فهو تحت الحماية الايطالية

الاسلام فى ماداغسکر

وجزائر القومور

للشيخ
عبدالمجيب

اشرنا فى غير هذا المكان الى كون الغرض الذى توخيناه فى هذه الشروح ، هو التعريف ببلاد الاسلام النائية ، ومطارحه القاصية ، والمواضيع التى تحتاج منه الى ايضاح ، دون البلدان المعروفة ، والمواضيع المطروقة . ولما كان من جملة هذه المواضيع مبحث الاسلام فى ماداغسکر ، وجزائر القومور ، فقد لخصنا منه ما يأتى معتمدين فى أكثره على كتاب « المسلمون فى ماداغسکر وجزائر القومور » لـلسيو غابريال فران الفرنسى Gabriel Ferrand أحد معتمدى الوزير المقيم من قبل فرنسا فى ماداغسکر ومن أعضاء الجمعية الآسيوية بباريز .

قال فى مقدمة كتابه هذا ما مؤداه :

ان تاريخ الاسلام ونموه فى بلاد خط الاستواء الافريقية ، والجزر المجاورة لها ، لا يوجد لنا الا بكلمات قلائل على الأشخاص والاشياء فى بحر الهند . فاداغسکر وجزائر القومور الأربع ، وسائر الجزر التى فى الشمال الغربى من ماداغسکر ، لا تكاد تذكر فى جغرافيات العرب ولا رحلاتهم الا نادراً^(١) وقد أثبتنا نقصان معلومات الشرقيين عن هذه الأماكن فى نشر تذكراتنا على الصومال ونحو اللغة الصومالية سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٦ . ولم يعرف ساحل افريقية الشرقى الا منذ سنين معدودات ، ومن عرف الشعوب التى تأهلها اليوم وقدر حالتهم الاجتماعية علم لماذا أسلافهم لم يلعبوا دوراً خطيراً فى التاريخ السياسى والدينى

(١) قلت جاء فى معجم البلدان لياقوت قوله : والقمر بالضم ثم السكون جمع أقر ، وهو الأبيض الشديد البياض ، ومنه سُمى القمرى من الطير ؛ وقمر بلد بمصر الى أن قال : والقمر أيضاً جزيرة فى وسط بحر الزنج ليس فى ذلك البحر جزيرة أكبر منها ، فيها عدة مدن وملوك كل واحد يخالف الآخر ؛ ويوجد فى سواحلها العنبر وورق القمارى الخ . وأكثر ما تذكر العرب هذه الجزائر فى كلمات قصار كهذه .

فيما مضى من العصر، لأن أقواما تنقوت بحفنة من الارز ، وتكتفي من كل اللباس بقطعة من القماش ، وتحلى بحلقة من النحاس في الاصبع ، لم تكن لتشاطر غيرها المعارك الحيوية الكبرى ، فهذا تجدها معتزة بقية الناس جاهلة غيرها بل جاهلة نفسها ، راغبة في أن تبقى مجهولة . وهذا هو أكثر السبب في سكوت مؤلفي العرب عن الكلام عليها أما عن ماداغسکر فإن معلوماتهم كانت عدما ، فإن أكبر شعب فيها وهو « الهوفا » لم يعرف الكتابة الا مذن من قصير وقد كانت قبيلة « الانتيمورونا » استعملت الخط العربي قبل الهوفا بكثير ، وصار عندهم بعد دخولهم في الاسلام شئ من الادب اللغوي ، فترجة بعض كتبهم تهدينا الى معرفة أصول القبائل التي تسكن ماداغسکر ان لم يكن كلها .

وأما جزر القومور الثلاث « نجزيجة » و « انجوان » و « موحلى » فالمكتوب عنها نزر جدا . حرر « المستركوست » بعض مقالات عن لغة سكان هذه الجزر . ونقل الربان البحري « جوان » في كتابة حررها على القومور عن كتاب عربي مخطوط في مايوت ^(١) وذكر المسيو غفرای Gevrey في بحثه عن القومور ما معناه ان مهاجرة الساميين الى تلك الجزائر هي من عهد سليمان بن داود .

وفي « ماجونقه » ^(٢) جالية قومورية عظيمة من المسلمين السنيين وجميعهم يكتبون لغتهم بالاحرف العربية ، وبعضهم يتكلمون بالعربية جيدا وقد قضت علينا ضرورات الخدمة بان تكون لنا علاقات حبية مع مسلمي ماجونقة اثناء اقامتنا مدة سنتين بهذه البلدة ، فاتيح لنا أن ندرس أحوالهم وأخلاقهم وان نستفيد منهم حصة مما يتعلق بتاريخ هذه الجزر ، واطلعنا عندهم على كتاب مخطوط بلغة نجزيجة ، مع ترجمة عربية له ، يذكر شيئا على وجه الاختصار عن أهالي جزيرة القومور الكبرى قبل الاسلام . ولقد ذكر « فون در ديكن » : « ان لهجات القومور ان هي الا لهجات سواحلية الاصل ، تغيرت عن أصلها باختلاف اللفظ ، وباختلاط القومور مع الماداغسكريين . فان هؤلاء منذ احقاب متطاولة في صلة مستمرة مع القوموريين ، ومنهم من تقلد عندهم مناصب عالية ، فان

(١) مايوت هذه جزيرة من القومور في المنفذ الشمالي من قناة الموازيق بين ١٢ و ٣٩ و ٥٩ من العرض الجنوبي و ٤٢ و ٤٦ و ٤٣ و ٤ من الطول الشرق مساحتها ٣٦٦ كيلومترا مربعا وسكانها تسعة آلاف نسمة عرب وماداغسكريون وسواحليون وهنود وفيها ٢٠٠ فرنسي

(٢) ثغر من ثغور جزيرة ماداغسکر

الامير سولى صار سلطانا على جزيرة مايوت ، وهو الذى نزل عنها لفرنسا . وعندينا ان درسا مدققا فى نفس الجزر المذكورة يأتى بمعلومات ذات بال عن لغات القوموريين وآدابهم . وقد اكدوا لنا ان من استقرى هذه الجزر ، وجد كتباً مخطوطة ، منها ما هو عربى ومنها ما هو قومورى ، يؤخذ منها تاريخ القومور السياسى والدينى .

ثم قال فران « ان تأليفنا هذا ثلاثة أقسام أولها يتكلم عن مسامى ماداغسकर وجزائر القومور ، والثانى عن القبائل الاسلامية الساكنة فى الساحل الشمالى الغربى من ماداغسकर وفى الجزر الاربع نجزيجة وموحلى وانجوان ومايوت الصغيرة . والقسم الثالث موضوعه نشر بعض مخطوطات قومورية وضبط كلمات من لغات القومور مع مقابلتها باصلها من السواحلى أو العربى ونضم الى ذلك متن لغة من كلام ماداغسकर الخاص بالمسلمين الذين فيها مع ذكر ما هو منها من أصل سواحلى أو عربى . »

ثم ذكر من القبائل للماداغسकरية الكبيرة التانالا Tanala ، والاتانكارانا ، Antankarana والانتسيهانانا Antsihanaka ، والسالكالا Sakalava والتسميزارا Betsimisaraka والهوفا والاتا مورونا Antaimorona وقال انها مع اختلاف اصولها متشابهة بعضها مع بعض تشابها شديدا تمثل امة واحدة من كل وجه تقريبا . ولا شك ان الذين دخلوا ماداغسकर من الطراء ، سواء كانوا ممن جاءوها جرد العاص ، مثل امة الهوفا أو ممن قدموا اليها زرافات ووحدان مثل العرب ، قد أدخلوا فيها عاداتهم وعقائدهم . ولكن لم يطل الامر حتى امتزجوا بالاهالى الاصليين ولم يبق من عقائدهم ومنازعهم الا الشئ اليسير يحفظه الافراد لا الجماعات فالهوفا الفاتحون تلقوا ديانة الماداغسकरيين وعبدوا اصنامهم ، واقتدى الغالب بالمغلوب . وأما العرب فلم يظهر تأثيرهم الا فى قبيلة الاتا مورونا ، التى اسلمت ولكن اسلاما ضعيفا . واناس منها رجعوا الى كثير من عقائدهم الاصلية التى لا تزال كثير من القبائل متمسكة بها ويحجد الانسان آثارها حتى بين المتنصرين من الاهالى .

ثم تكلم المسيو فران على قبيلة الاتا مورونا الاسلامية ، فقال انها تسكن فى الساحل الجنوبى الشرقى من ماداغسकर بين مصب نهر « المانانجاراه » ومدينة « مازيندرانو » أى على طول ٢٢٥ كيلو متراً . ويسكن الى الشمال من هذه القبيلة قبيلة

البتسيميزاكا ، والى الشمالى الغربى قبيلة البتسيليو ، والى الجنوب الغربى قبيلة تانالا ، والى الجنوب أقوام متفرقة . وعاصمه الاتنامورونا هى مدينة مايتانانا على ضفة النهر المسمى باسمها . ويوجد فروع كثيرة من الاتنامورونا مستقلة بعضها عن بعض لكنها خاضعة من الوجهة الدينية والحكومية لقبيلة الاناكارا والاناكارا هؤلاء فيهم بيت الملك ولهم التقدم على الجميع ولا يتزوج بعضهم الا من بعض فكأنهم قريش الاتنامورونا ، ومنهم ملوك القبيلة كلها . وهم أمناء الديانة وفى أيديهم ادارة الجوامع التى يفرضون لاجل نفقاتها ضريبة غير زهيدة على أبناء ملتهم . ويزعم الاتنامورونا ان أصلهم من مكة ويحفظون كتباً خطية عربية متناهية فى القدم ، والوانهم نحاسية ، وأبصارهم حادة ، وشعورهم جعدة وهم أشد الماداغسكريين اعتقاداً بالخرافات ، ولكنهم هم وحدهم الذين سبقوا سائر الماداغسكريين الى تعليم أولادهم ، كما قرر ذلك المسيو دسكامب والدليل على ذلك كثرة الكتابات التى عندهم والقانون الذى هم ملتزموه من ان كل انسان منهم يجب عليه أن يقرأ ويكتب العربى ليكون أهلاً لتقلد منصب أو لزاوج . والى الزمن الذى أدخل فيه مبشرو الانكليز استعمال الحروف اللاتينية فى تاناناريت (عاصمة ماداغسكرك) كانت جميع الكتابات الرسمية فى قصور ملوك الهوفا يكتبها امناء السر من الاتنامورونا باللغة العربية . والاتنامورونا مشهورون بالاعتناء بأولادهم ، وعندهم عادة أن يخلقوا شعور أولادهم ماداموا فى حجور آبائهم ، فلا يؤذن للولد بارسال شعره الا بعد الزواج .

وهم رجالاً ونساء لا يختلفون فى ازيائهم عن سائر أهالى ماداغسكرك وبالرغم من دعواهم شدة التمسك بالاسلام يشربون المسكرات ، ويصنعون هم بانفسهم المسكر المسمى « الروم » من عصير قصب السكر مع اضافة قشر شجر يسمى آمبولوا يعجل فى تخمير قصب السكر .

والخصومات والامور العامة يفصل فيها محتسب معين من قبل الملك . وعندهم مجموعة قواعد فى العقوبات أشبه بقانون جزاء . فالسرقة مثلاً يعاقب عليها بالحبس والتسكيل بالحديد من سنتين الى عشر سنوات بحسب درجة الجريمة . وأما سرقة المواشى فيعاقب عليها بالقتل لأن اقتناء المواشى ذات القرون هو عندهم فى غاية الاهمية . وأما القتل فيجزى بمثله ولا يتحرجون من التعذيب فى القتل . ولا ينفذ حكم القتل الا بإرادة الملك الذى

عنده أعوان يتولون أمر القتل ، وهؤلاء الجلادون يقومون بإيصال البرد الملوكية وهم عند ملوك الاتتامورونا أشبه بطبقة يقال لها « تسياندو » لدى ملوك الهوفا . وإذا قتل الرجل ابنه وكان الولد في سن الخمس عشرة سنة فما فوق ، عوقب الوالد بالقتل . وإن كان الولد دون تلك السن حصروا الوالد في غلاف من قصب « البامبو » يمنعه من كل حركة ، وبقى محصورا هكذا الى أن يموت . ويقال ان مثل هذا العقاب معروف عند الحبشة وأمة الغالة الذين يظن بعض المؤرخين ان أصل الأمة الماداغسकरية منهم . وإذا أنكر المتهم الجرم امتحنوه بعدة أمور ليثبت براءته فيسقونه كأس ماء بارد وضعوا فيها قطعة ذهب ، وقرأوا على هذه القطعة نصيبا من العزائم ، فإن لم يصبه بعد شربها شيء عد بريئا . وقد يكلفونه أن يقطع نهر الماتيتانا سباحة ، فإن وصل الى الضفة الاخرى سالما من أذى التماسيح الكثيرة التي في ذلك النهر فهو برى أو يشيرون اليه باحتياز حقل من الارز ، فإن لم تتعرض في طريقه أفعى ، ولا طار فوق رأسه طائر ، ولا حصل حادث غير معتاد أثناء اجتيازه هذا ، كان أيضا بريئا .

وإذا أراد الاتتاموروني الزواج ، تنكب قوسه وحمل ترسه على ذراعه ، وذهب مساء الى من يكون خطب ابنته فيقول له: ادخل . فيدخل ، فيفاجئه بضربة حربة يجب عليه أن يتقيها بلباقة ، وبدون أن يحدث للضارب أذى ، فإذا وفق لذلك جالس بين العائلة وأخذ الفتاة ، والا فإن أصيب أو لم يحسن انقاء الضربة خرج متعثرا باذيال الحياء . والاتتامورونا بحسب قول الأب لافسيار L. Vaissiere أصحاب أخلاق فاضلة وطهارة وآداب ، يبالغون في جماعاتها ، وهم يتزوجون بأكثر من واحدة ، وتسمى المرأة الأولى « فاديب » ومعناه الزوجة الكبرى .

وكان الاتتامورونا في جاهليتهم ، قبل أن دانوا بالاسلام في أدنى درجات الجهل . وكان عندهم كهنة يحفظون بعض مبادئ أصلية ، ويقدمون قرايين دينية ، ويحتجنون ذلك لأنفسهم دون أن يطلعوا عليه العامة ، ويسمون الخلق « زاناهارى » وليس في ماداغسकर تواريخ عن أصل الأهالي ، وما كانوا عليه في القدم تتجاوز القرن السادس عشر ، فتاريخ تلك الجزيرة مظلم جدا الا ما كان عند الاتتامورونا بسبب وجود الكتابة العربية عندهم . والذي قدرنا أن نفهمه من هذه الكتابات ان القبيلة الماداغسकरية ، التي باختلاطها

بالعرب نشأ منها الاتنا مورونا ، كانت قبل دخولها في الاسلام تعتقد باله واحد ، أزلنى ، أبدى ، خالق الكون كله بيده كل شىء ، لكن كانوا يتصورون لهذا الاله جسما وصورة على منتهى الجلال والكمال بحيث لا يمكن تشبيه تلك الصورة بصور الآدميين . وكانوا يقولون بوجود آلهة صغار حول ذلك الاله الأعظم ، هم الشفعاء لديه وكل منهم له وظيفة خاصة به ، واليهم يلجأ الناس في حاجاتهم ، لان الاله الأكبر هو أعلى من أن تصل اليه مطالب العباد ، فكان لابد ثمة من الوسطاء ^(١) فكان أصل تلك العقيدة توحيداً انقلب بسبب هؤلاء الشفعاء والوسطاء شركا . واقبلت العامة على عبادة أولئك الآلهة الصغار وبالغوا في الأمر حتى انقسمت تلك الامة الى قسمين أحدهما الرساء والعامة والارقاء ، وهم حزب الوسطاء الذين جعلوهم لله أنداداً ، وانتهى الأمر بأن رفضوا الاعتقاد بالاله الأعظم . والثانى الكهنة ، وأتباعهم الذين لبثوا على الاعتقاد بالاله الواحد ، ورفض اشراك غيره في القدرة والتصرف فووقت بين الحزبين منازعات تغلب فيها المشركون على الموحدين والتزم هؤلاء أن يتظاهروا بعبادة الانداد الا أنهم كانوا يعبدون الاله الواحد سرّاً .

وفى تلك الاثناء جاء العرب بتوحيدهم فاتتصر بهم حزب الكهنة الموحدين ، لأن العقيدة العربية جاءت مؤيدة لما بين أيديهم فلما أسلم الجميع عاد هؤلاء الى مقامهم الاول بل ازدادوا سناء ورفعة . أما الزمان الذى وقع فيه اهتداء الاتنا مورونا - ويقال الاتنا موروا والاتنا مور - الى الاسلام فغير معلوم ، وانما يرجح كون هذا التحول لم يصادف معارضة شديدة ، بل تلقى هؤلاء القوم الدين الجديد بالفرح والنشاط ، ثم لم يطل الأمر حتى عادوا الى كثير من عقائدهم الاولى فصار اسلامهم مختلطا بالوثنية (كذا) وهم مثل العرب يستعملون غالباً جلا عربية ، هي دائماً على شفاه المسامين مثل : ان شاء الله . مكتوب الله . ويبدأون جميع كتاباتهم بجملة : الحمد لله وحده . ويكتبون : بسم الله الرحمن الرحيم . لاله الا الله محمد رسول الله . ولا يبدأون بعمل الا بعد تلاوة هذه الجملة .

وهم يحافظون على الصلوات ، ويمتنعون عن أكل الحيوانات النجسة ، ويختنون أطفاهم . ومن العادات الاسلامية عند الاناكارا الذين فيها بيت الملك ، أنهم يقرأون أمام

(١) عبارة ما كان عليه العرب في جاهليتهم بعينها جعلوا لأنفسهم آلهة صغارا نحتواهم أصناما ، وقالوا « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلنى »

كل عمل صلاة تناسبه مثلا اذا أرادوا ذبح حيوان قالوا اللهم اجعل لحمه صالحا ، اللهم اجعل أجسادنا تنعم بهوما أشبه ذلك . واذا مات الانسان جعلوا على جبينه و بطنه و عنقه أوراقا كتبوا عليها أدعية وقال أحدهم : هذه عادة قديمة جداً عندنا جاءتنا من مكة والمدينة . ويقولون للمدينة أحيانا «مدينازي» وأحيانا «مديناي» ويقولون لمكة والمدينة «المدينتين» ويدعى الانكارا انهم من ذرية على .

وبالاختصار فالانتآمور اجتازوا عدة أدوار دينية . الأول في الجاهلية قبل الاسلام ، وهو قسمان : دور توحيد ، ودور شرك . والثاني بعد الاسلام ، وهو أيضا قسمان : اسلام صرف و اسلام مشوب بوثنية . فالآلهة الصغار الذين يعتقدون بهم بعد الاسلام هم ستة « جو بوريلينا » و « مينكالو » ، و « سيرافيلى » ، و « زار بزلو » ، و « بيزيلو » ، و « شيرا كيزيلو » وباللغات السامية يقال جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وعزرائيل . فإبرائيل هو المكاف بالوحى الى الأنبياء وميكائيل هو المكاف بالطباع والقيم والمطر . وعزرائيل هو ملك الموت . واسرافيل هو الذى ينفخ بالصور فى آخر الزمان . فأما المسلمون الماداغسكريون فيجعلون لهؤلاء مقامات بائنة عن البارى تعالى ، وهى سبع طبقات منفصلة بعضها عن بعض بمجران غليظة بينها أبواب من حديد فالطبقة الاولى منها هى مكان الجزاء الآلهى من الناس من تكون آثامه فظيعة فيخلد فى عذاب النار . ومنهم من تكون آثامه خفيفة ، فيعذب الى أجل مسمى ثم بعد ان يتطهر يدخل الى النعيم المعد للصالحين . وهذه عقيدة تشابه تماما ما عند النصرى . والطبقة الثانية هى التى فيها « شيرا كيزيلو » الموكل بالزرع والأشجار وهو الذى يلتمس منه تزكية الزروع والطبقة الثالثة مقر « بيزيلو » وهو الموكل بالمواشى . وفى شهر يناير يقدمون له القرابين من النعاج . ثم ان « زريزلو » هو اله الأنهار والبحيرات ، و« سرافيلو » هو اله الحوادث السماوية والأرضية . ومينكالو هو اله الكواكب والشمس والقمر . وأكبرهم جو بوريلينا ، وهو ذو المقاوم الاول ، ولكنه دون الله ، وهو المبلغ ارادة البارى تعالى الى البشر سواء رأساً أو بواسطة سائر الآلهة (١)

(١) الذى نرجحه ان الذين ساهم المؤلف هنا آلهة ، وزعم أن مسلمى ماداغسकर اتخذوهم آلهة ، ان هم الاملائكة لكل منهم وظيفة كما هو فى سائر الأديان السامية ولكن قد تكون خيالات الماداغسكريين أو سعت هذه الوظائف وزادت عليها .

ويعتقد الاتنامور بخلود النفس ، ولكن اعتقادا يخالف اعتقاد الهوفا . فان الهوفا يقولون ان النفس يمكنها أن تترك الجسد مدة بدون أن تفنى بذلك شخصية الانسان أما الاتنامور فيقولون انه بمجرد انقطاع نفس الانسان تصعد نفسه الى السماء ، وتمثل أمام جو بوريلينا الذى يعين لها مشوى بحسب استحقاقتها . وان النفس عند تمثيلها فى الملكوت تتخذ غلافا شبيها بالجسد الذى تكون فارقة فى هذه الدنيا ، وهذا القالب يشاطر تلك النفس أقدارها كلها من اذنة أو ألم فى الدار الآخرة^(١) ولاشك ان الاتنامور بسبب معرفتهم للخط العربى تفوقوا على سائر سكان جزيرة مادا غسكر ، وهؤلاء بجهلهم اعتقدوا أن هذا النوع من من ترجة الضائر بالاشارات على الورق لا يمكن أن يكون الاسحراً ، وفنا عندهم الرأى بأن الاتنامور بأيديهم أفعال الغيب وأنهم مطلعون على كل شئ .

وعندهم المنوع أو النجس اسمه « فادى » وقبيلة السنا كالاف تقول « فالى » لعله محرف عن الفال العربى كما ان المقدس يقال له « اودى » ومن اشتهر بالتقوى من المسلمين ولم يعهدوا عليه طول حياته سوءاً يصير بينهم موضوع تقديس حتى فى حال حياته ويذهبون الى تأثير شفاعته لدى البارى تعالى ، ويستشيرونه فى العضلات ، ويأخذون رقاعاً مكتوبة بيده يتقون بها المصائب .

والكتاب المقدس عند الاتنامور يسمى بلسانهم « سوراب » ومعناه الكتابة الكبرى روى البشر الانكليزى هوكت Hockett الذى كان قاطنا « فياناراتسوا » قال : ضربنا الى الشمال على طول الساحل فزرنا مدن « نوسيكالى » و « اندرينامى » و « أمبوهاب » و « أمبوهينو » وصرنا بين قوم يقال لهم « تيمورو » أو « نيمورو » يظن أنهم جالية عربية . ومما لاشك فيه أن أسلاف هؤلاء الناس من جهة الذكور عرب ، فدف بهم البحر الى هذا الساحل وعندهم « السوراب » أى الكتابة المعظمة ، وهى نسخة من القرآن مع التفسير ، و تراهم مفتخرين بأصلهم و متمسكين جداً بكتابتهم . ففى المصائب والأحزان والأمراض يرجعون الى هذا الكتاب ويأخذون منه ما هو فى الموضوع وينسخونه على ورقة من شجر « الرافنياالا » ثم ينقعون الورقة فى الماء ثم يشرب المصاب

(١) هذه النظرية تتخلص من مشكل بعث الاجساد يوم الحساب بعد أن تكون بليت ودخلت أجزاءها فى تركيب أجسام أخرى

هذا الماء أما المسيو فران فيقول ان السوراب هو كتاب غير القرآن اناهم به أسلافهم العرب ، وليس بذى فصول ولا أبواب وقد زيد عليه بتداول أيدي المشايخ له . وفيه تاريخ القبيلة ووقائعها المهمة وتجد فيه آيات كريمة من القرآن وكلاماً على المغيبات ، وأحرفاً وطلاسم ، مما يستعمل في دفع النوائب ومعالجة الأوصاب الى غير ذلك .

وكان جغرافيو العرب ماعلى ما يظهر يجعلون جزيرة ماداغسकर من جملة جزائر القمر ويرونها كبرى هذه الجزائر ، كما ان الأوربيين يسمون « نجزيجه » بجزيرة القمر الكبرى ، حال كون المسامين الذين يأخذون ويعطون على الساحل الغربي من ماداغسकर لا يسمونها الانجزيجه وان الحكومة الفرنسية عند ماضرت النقود لحساب سلطان جزيرة القومور الكبرى، كتبت عليها هذه العبارة : « سيد على بن سيد عمر سلطان نجزيجه حفظه الله تعالى » .

أما ماداغسकर عند أهل عمان العرب فتسمى جزيرة القمر ، كما كان الجغرافيون الأولون يظنون . وأما باللغة السواحلية فيقال لها « بوكيني » وهي مركبة من « بوكي » التي معناها « غريب » و « ني » وهي حرف بمعنى « في » أي « في بلاد الغريب » .

ولقد ذكر الجغرافي العربي ابن سعيد تفاصيل كثيرة على جزيرة القمر تطابق حال ماداغسकर مثل كونها طويلة عريضة طولها مسيرة أربعة أشهر وعرضها مسيرة ٢٠ يوماً ومن مدنها مدينة ليران زارها ابن فاطمة . وقال انها هي وماغداشو تحت حكم المسلمين ولكن أهلها أوشاب من جميع الأجناس وهي مرسى يرفأ اليه ويقلع منه الخ . وقد ذكر شمس الدين أبو عبدالله محمد الدمشقي في فصل على بحر الزنج جزائر عديدة يظن أن منها ماداغسकर وهي جزيرة قنبلو التي فيها الأبتوس ومعادن الذهب والبحيرات . وجزيرة طابسان التي فيها جبال نار تقذف بالحم فلا يستطيع أحد أن يسكنها بسبب حرارة البراكين وجزيرة بربرة وجزيرة القطرية فيها مدينتان للزنج . وجزيرة زنجه . وجزيرة المحترقة . وجزيرة العور .

وكان البرتغاليون يعرفون أيضا ماداغسकर باسم جزيرة القمر ، وآخرون من البرتغاليين والطلين كانوا يطلقون على ماداغسकर اسم جزيرة سان لورانت St. Laurent انظر الى مقاله السائح « اندريا كورسالة » الذي كان في خليج موازمبيق سنة ١٥١٤ :

« عند ما كنا في موازمبيق وجدنا سفينتين برتقاليين قادمين من جزيرة سان لورانت الواقعة في عرض البحر بازاء موازمبيق ، وهي من أعظم الجزائر التي اكتشفت في أيامنا هذه » وبعد أن وصف ما فيها من الحيوانات والحاصلات والمعادن قال : « ان أهلها لا يكادون يفقهون حديثا وانهم يتكلمون بلغة غير لغة الموازمبيق ، وانهم ليسوا بشيدي السواد ، ولكنهم في جموعة شعرهم كسائر أهل تلك السواحل ، وان المورو (أي المسلمين) هم الذين بأيديهم مراسى هذه الجزيرة يشترون محاصيل البلاد بما يأتون به من القطن ومتاجر الهند » .

وقال « ادوارد وباربوزا » في نحو سنة ١٥١٦ ما يأتي : « بازاء هذه الأرض على مسافة ٦٠ مرحلة من راس « كوريات » توجد جزيرة عظيمة جدا اسمها سان لورانت ، يسكنها الوثنيون وفيها بعض مدن للمورو . وفيها ملوك كثيرون من الوثنيين والمورو معاً الخ » وسنة ١٥٢٩ كان اسم ماداغسكار قد صار معروفاً ، وقد أشار « بارمانتيه » Parmentier الى وجود مورو وبيض في هذه الجزيرة . وذكر « جان دوس سانتوس » في تاريخ انيوية الشرقية : « ان مورو جزيرة سان لورانت ناروا على البرتقال ، وان هذه الجزيرة قد اكتشفت في سنة ١٥٠٦ ، وصل اليها القبطان « تريستان دا كونيا » أثناء سفره الى الهند وسميت سان لورانت لسكونهم وطئوا أرضها في عيد سان لورانت مع ان اسمها الأصلي ماداغسكار » . الى أن قال : « وفي أيام ولاية « جورج دومنيس » في موازمبيق نار المورو على البرتقاليين ، وحاولوا منعهم من دخول المراسى ، زاعمين انهم يعارضونهم في جمع الحبوب . والحقيقة انه كان تعاللا مقصدهم به اخراج المسيحيين الذين كانوا يضررون لهم أشد العداوة . فأرسل جورج دومنيس بارجة حربية معلنا الحرب على المورو فيما لو استمروا على المعارضة ، فاما وصلت البارجة مال المورو الى السلم وادعوا انهم لا ينوون شرا ، ولكن البرتقاليين لم يأمنوا شرهم ، ولم ينزلوا الى البر الاراهبا منهم اسمه الأب « دوسان توما » ورجعت البارجة الى موازمبيق بمن فيها . ولكن وردت اذ ذلك بارجة من مكة (كذا) فيها مورو ، فاما علموا بما وقع أرادوا الانتقام وسمموا الراهب المذكور ، فاتم البرتقال عن ذلك في السنة التالية ، وخرّبوا البلاد ورجعوا الى موازمبيق وصادف أن مركباً آخر للمورو جاء من مكة فغرق ، فنهبوه وتم بذلك الفوز » .

ومن نكات الأوربيين في معلوماتهم عن المسلمين لا سيما في الأعصر الماضية ما ذكره رجل اسمه « جواو دوباروس » قال :

« أول من سكن زنجبار عصاب من بلاد العرب دخلت في الاسلام يقال لها « اموزيدى » بحسب تاريخ وجد عن مملكة « كيوا » كانوا نفوهم الى هناك لأنهم اتبعوا مذهب رجل مورو اسمه زيد هو ابن أخی الحسين بن على ، الذى هو ابن عم محمد ، وزوج ابنته عائشة ، فزيد هذا كانت له آراء مخالفة للقرآن . ومن تبعه يقال لهم « اموزيدى » . يريد أن يقول ان أول من سكن بلاد زنجبار هم أناس من الزيدية ، نفوا الى هناك بحسب اختلاف مذهبهم ، وانهم ينتسبون الى زيد بن على بن الحسين بن على ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء وليس في مذهب الزيدية شئ يخالف القرآن ولكن معلومات الأوربيين عن الاسلام لا سيما بذلك العصر كانت ملأى بمثل هذا الخلط والى هذا اليوم مع تغلب روح التدقيق عليهم لا تخلو من الخلط والخطب أيضاً .

اتفق المؤرخون على جعل مدينة « ماتانان » أو « ماتيتانانا » هي البلدة الأولى التى نزلتها الجالية العربية . وهى التى صارت عاصمة للقبايل الماداغسكرية التى اتبعت الاسلام ولا تزال الى هذه الساعة المركز السياسى والأدبى للمسلمين الماداغسكريين فى الساحل الشرقى من الجزيرة ، وبها يقيم أشهر المتعلمين والمتأديين من الاتتامور .

وعن أشار الى وجود الاسلام بماداغسकर ، السائح الشهير ماركو بولو الايطالى البندقى وفى أواسط القرن السابع عشر ذكر الاتتامور المسلمين هؤلاء رجل فرنسى اسمه « فرانسواغوش » خلط فى أخباره عنهم على طريقة قومه فى ذلك الوقت وبما قال : « ان الديانة المحمدية التى يدين بها أهالى السواحل المقابلة لماداغسकर لا شك أنها وصلت الى أهالى ماداغسकर ، فانهم يَحْتَنُونَ ولا يشتغلون يوم الجمعة ^(١) ولا يأكلون لحم الخنزير وكذلك أهالى جزر القومور القريبة منهم ، أكثرهم عرب وفرس تابعون لدين محمد ﷺ ويكتبون بالعربية ، ولا يأكلون الحيوان الا اذا كان مذبوحاً ، فلا يأكلون المحتنقة ، ولا يجلسون الا متربعين على السجاد أو على الحصير على عادة الترك ، ولا يعملون شيئاً من الشعائر بدون أن يغسلوا » انتهى .

(١) لا حرج فى الشغل يوم الجمعة الا وقت الصلاة

وفي نحو سنة ١٦٥٨ ذكر المؤرخ « فلاكور » Flacourt أن أهالي مقاطعة مايتانانا يستعملون الحروف العربية التي كانت معروفة عندهم منذ قرنين ، ولكن الماداغسكريين بدلوا بعض صور التلغظ فيجعلون الياء زايا والثاء تاء .

وقال الكونت « دومانداف » De Mandave الذي عرف ماداغسکر سنة ١٧٦٨ ان جالية عربية وصلت الى ماداغسکر في أوائل القرن السادس . ومما قاله : ان الروهانديان حكام بلاد « آنوسى » هم غرباء مثلنا أصلهم عرب جاءوا الى الجزيرة منذ مائتين وخمسين سنة ، وعندهم معرفة بالكتابة يستعملون الحروف العربية والورق يصنعونه في وادى امبول وبدلا من القلم يستعملون البامبو . على أن العربية غير منتشرة في الجزيرة ما عدا الشمال الغربى . ثم قال : معلوم ان العرب أسسوا ممالك عظيمة على ساحل افريقية المقابل لماداغسکر ثم استولوا على جزائر القومور ويتجرون في مسقط وعدن وسواحل اليمن ، ولكن أكثر تردد مرا كبهم الى ماداغسکر ثم ذكر دومانداف وجود كتب عربية ماداغسكرية ، وقال هو وغيره انه يرجى بواسطة المخطوطات العربية الاطلاع على تاريخ تلك الجزيرة .

ثم ذكر المسيو فران نفسه أنه حصل على بعض مخطوطات عربية بواسطة رجل اسمه رامازينورو (رمضان) هو ابن ملك الانا كارا وشرح مضمونها وتكلم عن الكتب العربية الماداغسكرية التي في المكتبة الوطنية في باريز وفي غيرها ثم ذكر عناية الماداغسكريين بعلم الفلك والنجوم والحروف ومعرفة المغيبات وأطال في ذلك وتكلم على لغة ماداغسکر وامتزاجها بالعربية ثم قال :

« ان قبائل الاسلام في الجنوب الشرقى من ماداغسکر تزعم أنها سلائل أناس هاجروا الى ماداغسکر من مكة » الى أن يقول « وهذه القصص التي نجدها عند كثير من الأمم التي دخلت في الاسلام مؤداها أن الاتامورونا قد أساموا في زمان النبي ﷺ نفسه . قال المسيو رينيه باسه René Basset يجب الحذر من تصديق هذه الأقاويل فن هذا القبيل أن أسرة مالكة كانت تلى هرر في الحبشة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فكانت تزعم أن أول من قدم هرر هو عقيل بن على ^(١) مع أن عقيل ما وطفىء تلك الأرض .

(١) الذي نعرفه أن عقيل هو أخو على

وأن مسلّمى كانتون في الصين يزعمون أن الذى بنى مسجد كنتون هو وهب ابن أبى كبشة خال الرسول ﷺ ، مع أن مؤرخى سيرة الرسول مع احاطتهم بكل ما يخصه لم يذكروا شيئاً من هذا .

قال المسيو فران ان دعوى الانتساب الى آل البيت فاشية عند مسلّمى السواحل الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من ماداغسकर ، ولكنه مما لا يبنى أن يوثق به كثيراً . ثم ذكر باللغة الماداغسकरية وبالحروف العربية كتابات على سبيل المثال ، اخترنا منها الفصّة الآتية ننشرها بحروفها وحركاتها ونردفها بترجمتها :-

طَطَّرَ طَمِينِ اعْلَى مُحَمَّدُ

طَطَّرَ طَمِينِ اعْلَى مُحَمَّدُ . نَبِيَّ رَكْبِيْ امِينِ اَنْكَرَنِيْ بُوَاهْنِيْ . امَكَّ امْدِينَا امْدِينَاتِيْ نَبِيْ
دِي طَمِينِ اَفِي رَوْنِي رَوّاً اَعْلَى مُحَمَّدُ بُونِيّاً طَقِيْ بُوْ اطُوْ لُوْرُ . اَنْسَكْرَ . اَطِيْ وَاَرِيْ
كِنِيْ وَاْ هَوَكِنِيْ . نَبِيْ اَرْكَ طَمِينِ عِى الْاَهْاطِيْ عِى مَكَّ امْدِينَا امْدِينَاتِ . طُوْدِيْ
طِيْ مَهْوَرُوْ اِى اِيُوْنِيْ اَطْرَ الْاُ وِرِيْ اَنْفِيْرِ كِنِيْ طُوْ اَنْسَكْرَ نَادِيْ هَانِيْ عِى نِيْ مُوْطُوْ
امْطِيْطَنَا . طِيْ مَهَاتَرِ . نَاشِيْ طَا كِيْ عِى اَطِيْ تِيْ مِىْ طَبُوْ . طُوْفُوْ طِيْنِ طَاوْ اَلُوْهَا
اَطِيْ تِيْ امِيْبَطُوْ . نِيْ شِيْ طَا كِيْ . طَعِ بَطُوْ نَاشِيْ طَبِكِيْ . اَطِيْ اِنِيْ مِيْطَبُوْ اَكْ هِيْ
رِنِيْ يُوْا وُطُوْ مَشِيْنِ اَنْكَرَانِيْ اَبِيْ اِيَاهِيْ طَرَنْكِيْ اَعْلَى مُحَمَّدُ تِيْ طِيْ طَا اِنِيْنِيْ قِنْدَا
فِيْ اِعِى اَللّهُ كَبْرُ اَللّهُ كَبْرُ اَللّهُ كَبْرُ .

الترجمة

تاريخ على ومحمد الى أن جاء الى الانا كارا . جاء من مكة والمدينة . وتقاتلها
الانسان مع فاراوى (فرعون) واجرا مع الاتنا لوترا ، والانا كارا . والاتنا فاندريكي ،
شعوب كانت تصحبها من مكة والمدينة . فوصلوا الى ماهورى ، وميازومبي . أما
الاتنا لوترا فلبشوا هناك وأما الانا كارا فاوغلوا في الجنوب الى ماتيتانانا . ففي ماهاتزارا
طردهم الاتنا سياتو . لأن هؤلاء كانوا اصحاب الارض قبلا فذهبوا الى آمباتو . فطردهم
الاتنا سياتو ثانية . فأقاموا أخيراً بفاتو مازينا حيث هم الى الآن . فنحن ذرية على ومحمد
هذه ليست بلادنا انما جئنا من وراء البحر . الله أ كبر الله أ كبر الله أ كبر .

ثم ذكر المسيو فران في الجزء الثاني من تأليفه قبائل سبعا هن « الزافيندارامينا » و « الاتامباهاواكا » و « الاونجاسى » و « الآتآيونى » و « الزافيكاز يامبو » و « الاتآفانديكا » و « الساهانفى » وقال انهم يسكنون بين قرى « مانانجارى » و « فارافانغانا » بين ٢١ و ٢٣ من العرض الجنوبى . فهؤلاء عقائدهم وأطوارهم تشابه عقائد الاتآمورونا وأطوارهم قال و يزعمون انهم يرجعون الى أصلين أحدهما : خنى رامينيا . وهم الزافيندارامينا والاتامباهاواكا والثانى : أبناء الذين هاجروا من مكة الى ماداغسکر وهم القبائل الخمس الباقية . وذكر المؤلف ما يحيط بهذه المهاجرة من الحكايات والخرافات التى فيها من الخلط ما تقدمت له أمثلة ، ولكن القوم معتقدون بها . ويظهر ان رامينيا محرف من رجن أو عبد الرجن ، ويقولون من جلة خرافاتهم ان هذا الرجل كان صهرا للرسول ﷺ وأنه هاجر مع امرأته الى ماداغسکر على أثر المظالم التى وقعت على آل البيت .

وقد اشتهر الاونجاسى ، والاينا كارا ، والزافيكاز يمامبو ، والزافيتسياتو ، بالسحر والطلسمات واجراء الخوارق . ويقول بعضهم ان أجدادهم رافقوا رامينيا جد الاتامباهاواكا فى هجرته من مكة وهؤلاء جلودهم مائلة الى الحرة وشعورهم سبطة وذكر الاب رشون أنهم أهل شجاعة وبصائر بالحرب على أنه من نسبة عند قبيلة الاتامباهاواكا الى الاسلام سوى ما يدعونه من كونهم من ذرية رامينيا الذى قدم من مكة . فانهم تركوا حتى بقية العبادات الاسلامية التى لا تزال عند الاتآمورونا ، وكذلك هم يجهلون الخط العربى ، وانما يحترمون التعاويذ والرق .

وعلى بعض الروايات ، أصل الذين هاجروا من مكة خمسة أمراء « راما كارارو » و « راجوزوفا » و « آندريامار وهالا » و « رالفوازيرى » و « آندريانمبوازيريه » جاوا من هناك بسبب ثورة أسقطت الأول منهم عن عرشه . وثلاثن من هذه الأسماء أصلها عربى ظاهر وهى راجوزوفا محرف عن يوسف . و رالفوازيرى يظن أنها محرفة عن على الوزير واندريانمبوازيرىب يحللونها بأنها من اندريانا وهى بالماداغسكرى الأمير ، ثم الوزير ، ثم البه ومعناه الكبير أى الأمير الصدر الأعظم .

وذكر المسيو فران رحلة لأحد البرتغاليين الى ماداغسکر سنة ١٦١٣ جاء فيها : « ان أهالى هذه الجزيرة يزعمون أن أصلهم من مانغالور ومن مكة ، جاءوا من جهة الهند ووطئوا

شاطئ الجزيرة الشمالي ثم انتشروا الى الجنوب ، وكانوا ينسبون قبائلهم الى أصلها ، منها ما عرفوا منها الى حد ١٧ بطنا ومنها الى حد ١٤ بطنا ، وهم مورو اوسوليا^(١) عندهم القرآن مكتوب بالعربي ، ولهم مشايخ يعامونهم القراءة والكتابة وهم يختنون ويصومون رمضان ولا يأكلون لحم الخنزير ، ومنهم من يتزوج بأكثر من واحدة ، وألوانهم كألوان مسلمي الهند والجاوى ومن أعجب العجب محافظتهم على أصل عقيدتهم ونسبتهم مع تقطع ما بينهم وبين المساميين في سائر الأقطار اهـ

وذكر الأب روشون الانكليزي الذي ساح الى ماداغسکر سنة ١٧٨٢ أحوال أهالي هذه الجزيرة فقال « ان السود منهم أربع قبائل : « القوادزيرى » و « اللوهافوهتيز » و « الاونتراوا » و « الاونديفا » وأعلامهم درجة القوادزيرى الذين يقال انهم سلائل ملوك البلاد ، وعندهم كثير من العبيد والمواشي ، وللواحد منهم الحق بأن يملك أكثر من قرية واحدة ، أما اللوهافوهتيز ، فليسوا بدرجة أولئك ولا حق للواحد منهم بأن يملك أكثر من قرية ، ويجوز لهم الاستكثار من الماشية ، ومن العادات المعروفة انهم لا يقدرون على ذبح الحيوان الا بيد واحد من قبيلة الروهانديريان ، أو الانا كانديريان (المنسويين الى العرب) أما القوادزيرى ، فيقدرون أن يذبحوا الحيوان بأيديهم الا اذا وجد واحد من هؤلاء ، فتكون الأولية له في ذلك ، وبعد اللوهافوهتيز ياتي الأونتراوا وليس لهم شيء من المسكاة . أما الاونديفا ، فهم عبيد منذ ولادتهم . وأما البيض ، فانهم يسكنون مقاطعة أنوسى ، ومقاطعة كاركانوسى ، ويزعمون انهم أنسباء محمد ﷺ ويسمون « زافراهيميني » وأما البيض الذين في « فولبوانت » و « نوسى ابراهيم » وخليج آتونجيل ، فيقال ان أصل بعضهم قرصان ، وأن الآخرين من أصل يهودى لذلك لقبوهم زافى ابراهيم أى أولاد ابراهيم وهناك طبقة أخرى من البيض يروى أنهم أرسلوا من مكة لأجل هداية أهل ماداغسکر الى الاسلام . فاستولى هؤلاء على ماتانانا ويقال لهم زافى كازيمامبو ومهنتهم تعليم اللغة العربية ويعتقد الزافراهيميني ان أجدادهم قدموا من مكة وهم ثلاثة أقسام : الروهانديريان ، والانكادريان ، والاونتراسى . وأعلامهم درجة الروهانديريان ولهم الحق في ذبح الحيوان ، ومنهم ينتخب الملوك . وأما الانكادريان ، فاصلهم من الروهانديريان من جهة الأب ،

(١) اليوم مسلو الساحل الغربى من ماداغسکر يقال لهم سوليا ويظن انها محرقة من اسلام

ولكن أهمهم كانت أدلى نسبا فلذلك انحطت درجتهم عن الروهانديريان . أما الانزاسي ، فانهم عسكر لا مزية لهم سوى الحرب » اهـ

أما مسلعو الساحل الغربي من ماداغسكار فانهم خمس فرق : الاتانكارانا الذين يسكنون في أعلى راس العنبر من شريقه ومن غريبه . وقبائل الايوانا الذين عاصمتهم موجانغا أو ماجونغا . والسالكالافا أصحاب بلاد الآبونغو الذين من أشهر رؤسائهم الملكة « باره رافوني » صاحبة خليج « مارامبيني » والملكتان « سافيتامو » و « سافيامبالا » صاحبتا « بالي » و « سوالالا » ثم السالكالافا الذين في « ميناب » الشمالية حول مدينة « ماتيرانو » وما عدا بعض فصائل من الاتانكارانا والسالكالافا الذين هم في علاقات دائمة مع مؤسساتنا في « ديبغو سوارس » و « نوسى به » وبعض فرق من سالكالافا خليج « بوميتوك » الذين معاشرة الأوربيين هذبتهم شيئاً ، فالأهالى الذين يسكنون بين أعلى رأس العنبر ونهر موروندافا ، كلهم في حالة الهمجية ، والملوك الذين عندهم سلطتهم اسمية تقريبا ، وإذا شهروا حربا فلا بد لهم من استشارة رعاياهم فيها ، وأكثر السالكالافا رحل يعيشون في وسط الغابات ، والحضر منهم الذين في السواحل على جون « ناريندرى » و « ماهاجاما » وجنوبي موجانغا يزرعون الأرز والبطاطة ، وعندهم بعض المواشى ولكن أراضيهم المزروعة عالية دائماً عن البحر ، ولا يقطنون قراهم البحرية الا من شهر ديسمبر الى شهر مايو حينما تبدأ سفن الهند ، ومسقط ، وزنبار بالتردد على سواحلهم . ولم يكن الانزر من هذه القبائل خاضعاً لملوك الانتيارينا الذين في تانا ناريف ، حتى انه لما دخل الفرنسيس تانا ناريف ، وخضعت لهم الملكة رانافالونا ، الثالثة ، وأبلغ الفرنسيس الملكة باره رافوني انه لم يبق امامها الا الخضوع أجابت بكل اباء : « انتى أنا لم أكن خاضعة لهؤلاء » الأمبوالامبو »^(١) حتى بمجرد خضوعهم أخضع لكم ، وأن عساكرهم لم تدخل بلادى الا أسرى ، فالتصارع عليهم لا يمسنى أنا ، فأنا باقية على استقلالى » وباره رافوني هذه ملكة مسامة كسائر رؤساء الساحل الممتد من رأس العنبر الى موروندافا .

ويقول المسيو فران : « ان الجغرافى العربى المسعودى أشار الى كون العرب فتحوا جزيرة قباو ، التى يترجح أنها هى انجوان الحاضرة ، من أرخبيل القمر فى أواخر

(١) لفظة تحقير معناها الكلب الحنزير

أيام نبى أمية أى فى نحو ٥٧٠ سنة للميلاد ، فلا يبعد أن يكون فاتحو القمر أو القوموز قد وصلوا الى ماداغسकर لمصاقتها للقمر ، فيكون مضى على العرب أحد عشر قرنا وهم ينشرون عقيدتهم وتجارهم فى هذه الأرض . ومن هذا يفهم الانسان الموقع الرفيع الذى نالوه فى جزيرة ماداغسकर لا سيما بين السا كالافا .

وهؤلاء نظير الاتنا مورونالم يتعاملوا من الاسلام الا ما وافق عاداتهم وأذواقهم ، وراهم يكتبون بحفظ الشهادتين : « لا إله الا الله محمد رسول الله » . وبجمل مثل بسم الله الرحمن الرحيم . وان شاء الله . وبعضهم يقرأ القرآن ، ولكنهم يجهلون العربية وبعضهم لا يأكل الخنزير ، لكنهم يحبون الأشرطة المتخمرة و يصنعونها بأيديهم .

ويوجد فى مدينة موجونغا جوامع ومدارس اسلامية ، والأذان مسموع عندهم فى الأوقات الخمسة ، وأبنية البلدة الحجرية التى على شاطئ البحر تخطر فى البال المدن العربية التى على ساحل الأوقيانوس الهندى أو البحر الأحمر . ولكن المسلمين الهنود يصلون فى مسجد الشيعة ، والمسلمين العمانيين والزنزيباريين والقوموريين يصلون فى مسجد أهل السنة . وأما الأولاد الذين يقرأون فى المدارس ، فجميعهم أبناء المسلمين الغرباء أو أبناء الذين هم متزوجون بينات ماداغسकरيات . ولم يعهد أن أحداً من السا كالافا أرسل ابنه الى هذه المدارس ، وقد زرت بعض قرى هؤلاء مثل انداموتى ، وسوالالا ، وبالى ، وهى القرى التى يزورها العرب والباتو المسلمون فلم أشاهد فيها مسجداً ولا مدرسة ، ولا رأيتهم يقيمون الصلاة ، ومن الغريب انهم يحتفلون برمضان بدون أن يصوموه ، بل تراهم فى هذا الشهر يقومون قبل طلوع الشمس ويجتمعون فى ساحات قراهم ويشربون ويرقصون وهم على شكل حلقات ، ويعملون بأيديهم وأرجلهم حركات موافقة لأغاني النساء اللادئ بجانبهم يغنين ويصفقن بالأيدي ، ويدور فى وسط الحلقة السحرة يتولون ادارة الحلقة وتسمع الراقصين يهتفون معا بكلمة « الله أكبر » واذا ختنوا أولادهم تضرعوا فى وقت واحد الى الله والرسول محمد ﷺ ، والى زاناهارى اله الخير والى انغاترا اله الشر . والغالب على الأمة الماداغسकरية انها ولو دخلت فى دين جديد لا تترك عقائدها الأولى . وتجد أعظم رجالهم مثل « رآنيليار يفونى » الصدر الأعظم الذى كان عند الملكة رانافالونا الثالثة ، يستشيرون العرافين ويستمعون لهم ، وفى ثورة ١٨٩٥ ثبت أن السحرة والعرافين ، هم الذين

دفعوا الشعب الى الرجوع الى عبادة «الصامبي» أى الصنم والى قتل الأوربيين . وفى غربى مقاطعة آمبوديرانو ناروا ونهبوا بيوت المنتصرين والمبشرين ، وقتلوا أسرة مبشر انكليزى ، فسافت السلطة الفرنسية عليهم تابورا من الجند ، فقاوموه أشد مقاومة ، لأن السحرة كانوا وزعوا عليهم تعاويذ اعتقدوا أنها واقيتهم من النار ، فزالوا يقاتلون حتى ماتوا عن آخرهم .

وقد وصف بعضهم قبائل الساحل الغربى بالتعصب الاسلامى وليس ذلك بصحيح ، وإنما السا كالأفام لم يزالوا فى الهمجية ، أما القبائل الاسلامية الأخرى مثل الاتامور الاتامباهاوا كا ، فقد تلطفت طباعهم كثيراً وصار الأبيض يسافر بين قراهم بدون وجل بل يكون له قبول حسن بخلاف القبائل الوثنية مثل «الاتازا كا»^(١) وجماعة «مانامبونور» وجماعة «آفيولا» وجماعة «مانانتينا» الخ ، فإن الغريب بينهم لا يأمن على نفسه وهم لا يحبون الضيف . وكانت البعثة النورجية أرسلت الى ملك «الاندرىابا كارا» تلتمس منه رخصة فى فتح مدرسة لتعليم أولادهم ، فأجابها الملك : « ان اندرىابا كارا لا حاجة لهم بمدرسة لتعليمهم زراعة الأرز والبطاطة واجتناء الكاوتشوك ونحن لا نحتاج الا الى هذه الأشياء الثلاثة » فبدلوا كل ما يمكن وقدموا له هدايا ليسمح لهم بتأسيس المدرسة ، فاصر على المنع وصرف المبشرين من بلاده ، وكذلك السا كالأفام ، المسلم منهم والوثنى يكرهون الغريب وكل أبيض يصادفونه بينهم يظنونه جاسوسا للملكة تاناناريف ، التى تكره استقلال قبائل الساحل الغربى ، وحصل اعتداء فى «ماتيرانو» عاصمة ميناب على بعض الأوربيين . فهذه البلدة هى من أهم المراكز الاسلامية وأهلها يرفضون قبول الأجانب ، وليس هذا الأمر بحديث العهد ، بل منذ القرن السابع عشر وقعت الحرب بين قبيلة السا كالأفام هذه والبرتقاليين الذين كانوا يغزونهم من موزامبيق ، ولكن كانت الطائفة أكثر الأحيان للماداغسكريين الذين كان يقودهم العرب من القمر أو ززيبار ، مما يدل على أن عدد العرب كان يومئذ كثيراً فى تلك الديار

وبالاجال فان مسلمى الساحل الجنوبى الشرقى اختلفوا مع الأوربيين وأصبحوا لا ينفرون منهم بخلاف أهالى الساحل الغربى الذين منهم السا كالأفام ، والانتسيوانا المسلمون

(١) كلمة اتا معناها جماعة فاذا قبل الاتازا كاللمنى جماعة زا كا

المستقلون ، والميناب والملازيكورو ، والمهاغالي الوثنيون المستقلون فانهم يكرهون الأوربيين ولا يطيقون وجودهم بينهم . ومن هنا يقدر الانسان أن يقول ان دخول بعض هذه الأقسام في الاسلام لم يزد لهم بغضا للأوربيين . قال الميسو فران : « ولا أريد هنا المطاع عن الاسلام ، بل المسلمون خلقوا أعداء لكل من ليس بمسلم وما ليس من القرآن ، وان عدم تسامحهم لا حده . ولكن اسلام الوثنيين في افريقية كان مرحلة لهم في طريق المدنية . نعم هذه المرحلة يقفون عندها ولا يترقون عنها » . وأفاض المؤلف هنا في شرح هذه النظرية التي كثيرا ما تقرأها في كتب الأوربيين وهو كون الاسود يترقى بدون شك متى أسلم عما كان عليه وهو وثني . ولكن ترقيا محدودا بخلاف مالودان بدين الافرنج فان رقيه لا حده . والجواب على هذا ، ان ليس هناك رقى محدود ورقى غير محدود : بل الرقى كله غير محدود وان كانوا يرون رقى الذين اسلموا من الزنج محدودا ، فالسبب فيه ليس طبيعة الاسلام بل التأخر والجمود اللذان يلي بهما الاسلام في الأزمنة المتأخرة مما ليس هنا محل شرحه ، والأشبه أن يكون السبب فيه قلة العمل بمبادئ الاسلام الحقيقية من أن يكون العمل بها .

ثم قال ما يأتي بحرفه : يكون مخالفا للسياسة أن نعصد الدعاية الاسلامية في مستعمرتنا الجديدة (ماداغسكر) أو أن نترك في ساحلها الغربي أقل نفوذ لليبي^(١) . نعم ان مسلمي الساحل الجنوبي الشرقي لا يحتاجون الى هذه المراقبة الشديدة ويمكن أن يتمتعوا بحقوق « التمييز ازاكا » . ولكن التدابير الاستثنائية الشديدة لا بد منها في معاملة الجماعات الاسلامية في الساحل الغربي » اهـ

ثم قال : « أما المسلمون الغرباء في الساحل الغربي الذين أصلهم من زنزيبار والجزائر القمر الاربع انجزيجة ، ومحلى ، وانجوان ، ومايوت ، ومن عمان ، ومن صور (غربي مسقط) ، ومن السكلا وحضرموت ، فان عددهم قليل ، وهم يجيئون ويرجعون . وأكثر من يهاجر الى ماداغسكر القوم المسمون بالباتتو من زنزيبار والقومور ، فهؤلاء يظهرون بمظهر عظيم من الصلاح ويلتزمون المساجد ، ويحملون المساجح ، ويكحلون أعينهم ، ويخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء ويلبسون الحجب الواسعة ويطوفون في الأسواق ، ويحنون الناس

(١) الليبي هو المسلم القوموري أو اللنزباري الذي تزوج بملكة من السالكالا

على العبادات ، و يذكرون بالثواب والعقاب ، وأخيراً تصير لهم الكلمة العليا عند السا كالافا الذين يأخذون منهم التعاويذ والتهايم ، وبسبب معرفتهم الكتابة يتفوقون بالبداهة على السحرة الماداغسكريين وقد يصلون الى أن يتزوجوا بنات زعماء البلاد وأحياناً بالملكات . فتصير لهم الكلمة النافذة ويأخذون من العوائد والمكوس ، وأحياناً يصيرون هم الوزراء عند ملوك السا كالافا ، وأهل الحل والعقد . »

ولكن مع كون الاسلام معروفاً منذ عشرة قرون من تلك الديار ولا يزال القوموريون والزنجباريون ، يدعون اليه ويعلمون عقائده ، فلا يبرح في ماداغسكراً تأثيره سطحياً ، فان السا كالافا والاتامور والاتامبا هو كما قد تقبلوا الاسلام بدون أن يتركوا عقائدهم الاولى ، ولا تجد جوامع الا في موجانغا وماتيرانو ، والذين بنوها هم العرب والهنود .

والحقيقة ان الماداغسكرى لا يقرر أن يغير عقيدته ، فالتقبائل الماداغسكرية كلها ، التي هي الانتيارينا والتبسيليو في وسط الجزيرة ، والتبسيميزاراكا والسهياناكا في الشرق ، والاتامورونا والاتامبا هو كما في الجنوب الشرقي ، والانتيبوانا والسا كالافا في الغرب والشمال الغربي ، والبارا في الجنوب ، والمازيكورو والماهافالي والابتاندروى والاتانوسى والاتازاكا في الجنوب والجنوب الغربي والجنوب والشرقي ، كلهم غير قابلين للاهتداء .

فالمسلمون يعلمونهم الاسلام منذ قرون . ومن سنة ١٨٢٠ وصلت اليهم جماعات المبشرين من جمعية لندن ، ثم وصل الجزويت واخوان العقيدة المسيحية ، وراهبات مار يوسف وراهبات التبشير بالانجيل ، والمبشرون النورفيجيون والأميركيون والعازيون الفرنسيون ، وأخيراً مبشرو البروتستانت الفرنسيين . وكل هذه الجمعيات حصلت على اتباع ، ورؤساء الانتيارينا يهذبون أولادهم فيها ، وحرمة التنصير ماشية بدون انقطاع منذ ثلاثة أرباع قرن وبحماسة فائقة . وقد تعلم كثير من الماداغسكريين القراءة والكتابة ، وتعلموا كثيراً من الحرف ، ومن اللغات كالانجليزى ، والفرنسوى ، ولكن الايمان لم يدخل في قلوبهم . واذا ذهبوا الى الكنائس وأبطلوا العمل يوم الأحد ، فذلك اطاعة لأوامر الحكومة وخوفاً من العقاب الصارم لأن المبشرين حلوا الحكومة على سن قانون يجبرهم على الصلاة وغشيان الكنائس ، ومن لم يفعل يعاقب بشدة . وأما سريرة

الماداغسكريين ، فهي الاعتقاد بزاناهاى وانغاترا ، والاستماع للعرافين والسحرة لا غير . والآداب المسيحية لم يحصل لهم نصيب منها بل هي عندهم كالاسلام مما لا يطبقون حمل تكاليفه . فانهم شعب عائش تحت قانون الطبيعة . وأما الفضائل الاخلاقية ونقاء العرض والطهارة ، فامور لا يعرفونها ، فالمرأة في ماداغسكر ، من الملكة الى الأمة ، لا تمتنع نفسها من شهوة ولا تجدد النساء في ذلك سوى استعمال وظيفة طبيعية . فالرجل والمرأة عندهم وجد كل منهما للآخر . ولذلك لا يقدر ان يتصوروا التبتل والرهبانية ، بل يجدونها مخالفين للطهارة . وهم لا يجدون اثما كبيرا في الكذب والسرقة والسكر وسائر الرذائل ، وفي هذا لا يختلفون عن سائر الأمم المايزية والبولينيزية ، التي هم واياها من أصل واحد ، ويسمون الذهاب الى الكنائس « فانومبوانا » أى سخرة قهرية ، لأنهم يذهبون اليها بالرغم من أنوفهم . وهم يتساءلون . « أيتها هي الديانة الحقيقية من جميع هذه الديانات التي جاءتنا من وراء البحر ؟ اهي الكاثوليكية أم البروتستانتية ؟ وأيتها من النحل البروتستانتية هي أصحهن قولاً ؟ أترى هي الانجليكانية أم المتيودية ، أم الكويكرس ، أم النورفيجية أم اللوثيرية الأميركية ، أم البرتستانتية الفرنسية ؟ أم الاسلام ؟

وكان واعظ كاثوليكي في كنيسة « فينارانوسوا » يتكلم يوم الأحد على جهاد سيمون دوموتفور في أصحاب البدعة الابيجية Albigois وكيف أن هذا المجاهد الكاثوليكي صدع بأمر البابا اينوشنسيوس الثالث واستأصل تلك الفتنة الخارجة . وفي الأحد الذي يليه ، قام المبشر الانكليزي وتكلم في المسئلة نفسها وقال ، ان سيمون المذكور لم يكن الاسفاحاً ، قام يستأصل الألبيجيين لكونهم تمسكوا بالحق وتركوا الضلال . ففهم الماداغسكريون من ذلك أن الفرنسي الكاثوليك كانوا قاتلوا الانكليز البروتستانت ، وان تذكر هذه المنازعات لا يزال حياً . وكذلك سمع الماداغسكريون مبشرى الكاثوليك والبروتستانت يطعنون أخس الطعن في المسلمين ، وهؤلاء يسمون اولئك كفارا . فتجد الماداغسكريين يذهبون الى كهنتهم ويسألونهم عما يرون . فيجوابهم هؤلاء : « لا تصدقوا شيئا من خرافات هؤلاء الأجانب أترى الانسان قادرا أن ينزل الله في قطعة من الخبز أو قطرات من الخمر ! أليكون شخص واحد ثلاثة ! أليكون الابن مساويا لأبيه ! هذه أضحيك . والحقيقة ان زاناهاى (اله الخير) وانغاترا (اله الشر) هما المحركان لهذا

السكون قد عرفهما أبأونا فاقتدوا بهم وباحترامهما تكونونوا احترامتم آباءكم . «
نعم ان الأصنام الرسمية قد أحرقت سنة ١٨٦٨ عندما دخلت الملكة رانافالونا الثانية
في البروتستانتية ، ولكن العقيدة الأصلية لم تتغير .

وكذلك العمل بأوامر القرآن ونواهيها شاق عليهم ، لاسيما منع الخمر والميسر والانصاب
والسحر فهي امور يحبونها حباً جاً . وأما الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، والعفة ،
فلا يعملون منها شيئاً ، ويجنون آلهة ماداغسكراً أقل تكاليف من آله النصراني واليه
المسلمين . فالقبائل الاتانكارانا ، والانيتبوانا ، والاتانبونغو ، والميناب يسمون أنفسهم
« سيلامو » أى مسلمين وليس فيهم من الاسلام سوى الاسم .

والخلاصة التي استخلصها المسيو فرّان من المباحث التي أجراها بنفسه ومن الكتب
والرحلات التي قرأها عن ماداغسكراً ، والكتابات العربية الماداغسكرية التي اطلع عليها ،
ان الاسلام دخل الى السواحل الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية من ماداغسكراً بواسطة
العرب أو المسلمين المتكلمين بالعربية ، مما يستدل عليه من الكلمات العربية الكثيرة التي
يجدها الانسان في لغة ماداغسكراً . فلا شك أن العرب الذين كانوا في الساحل الشرقي من
افريقية منذ القرن السابع للميلاد ، نشروا دعوة الاسلام في بحر الزنج منذ القرن الثامن .
جزيرة قنبالو التي ذكر المسعودي ان العرب فتحوها سنة ٧٥٠ ليست الا على مسيرة ٦٠
ميلا من مايوت و ٢٥٠ ميلا من خليج بومباتوك في ماداغسكراً ، وهي هي انجوان الحالية .
ثم ان العرب نزلوا موجانقا ، ووصلوا إلى ماتيتانانا ، ومن هناك أحاط بقصص مجيئهم الى
هناك من الخرافات والخيالات ومن خلط قصة باخرى ماتقدم لك مثاله . انتهى .

ونحن نرى أن العرب نزلوا بتلك الجزيرة منذ القرن الثاني والثالث للهجرة ، وان
تلك الحكايات التي يروونها دائماً من كون مسلمي ماداغسكراً أصلهم من مكة هي من جملة
الافتخار بالاصل العربي ولم يكفهم ان يكونوا عرباً حتى جعلوا أنفسهم قرشيين ، بل من
آل البيت - على انه لا يوجد مانع من أن يكون أناس من قریش ، أو من الطالبين وصلوا
الى هناك . فاما بقاء المسلمين في ماداغسكراً على ما هم عليه من الجهل ، لا يمتازون عن
سائر أبناء وطنهم الا قليلاً فله سببان أحدهما ، شدة تمسك أهالي ماداغسكراً بعقائدهم
القديمية ، بحيث انه لا الاسلام ولا النصرانية أمكنهما قلع تلك العقائد من رؤوسهم تماماً ،

الثاني قصور المسلمين في ماداغسکر كما في سائر الأقطار من جهة التشكيلات اللازمة للدعاية ، ولو كانت لهم هناك مدارس ومكاتب وطرق منتشرة ، لكان الاسلام أرسخ وأنقى مما هو الآن في ماداغسکر بدون شبهة .

جزائر القومور أو القمر

العرب الأولون يسمون هذه الجزائر بالقمر بضم القاف وسكون الميم وقد تحرك الميم فتلفظ قمر بضمين ، ومنها قول الافرنج « قومور » ، وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب ان قنبالو أو انجوان فتحت سنة ٨٢٤ (بالحساب المسيحي) على أيدي الازد الاباضيين . وبحسب قول كلارتي Carthy في كتابه « جزر افريقية في بحر الهند والجزر العربية » المطبوع في باريز سنة ١٨٨٥ ليس تاريخ هذا الفتح معلوما ، وانما ثبت أن رجلا عربيا امتاز بالبسالة والاقدام جعل نفسه سلطانا على جزيرة القمر الكبرى ولكن بسلطة محدودة . ولا شك ان أعقاب هذا الرجل ، هم الذين اشتبكوا في الحرب مع البرتغاليين عندما طرأوا على هاتيك البحار . ثم انه بعد ذلك طرأت جالية عديدة من شيراز العجم ، فترت بساحل الزنج . وكان لهم زعيم اسمه محمد بن عيسى ، فاستولى على جزيرة القمر الكبرى ، وعلى جزيرتي هنجوان ومحلى ، وجعل فيهما ابنتيه ملكتين ، ثم جاء فزار جزيرة مايوت فأحسنوا استقباله ، فاستحبها على هنجوان ، وتزوج بنت سلطان مايوت .

ثم نقل المسيو كلارتي عبارة حررها كاتب عربي ، اسمه الشيخ يوسف ابن المعلم موسى ، لسأخ فرنسوى ، اسمه فيكتور نويل وهي هذه :

« ان جزيرة مايوت كانت تابعة لامراء جزيرة انجوان بحسب قول هؤلاء ، ولكن المايوتيين لم يكونوا يذكرون اسم أمير أنجوان في خطبة الجمعة الا في بعض فترات . ولما آل الأمر في انجوان الى السلطان أحمد الذي ملك من سنة ١٧٦٠ الى ١٧٨٥ ، جرت حوادث من غارات الساكالافا ومن الفتن الأهلية زعزعت ملك الانجوانيين ، فاضرب حبل الامن فيها ، وكانت أسرة عربية أصلها من عمان أقامت ببلدة « تشينغوني » حاضرة خزيرة انجوان القديمة ، وكانت ذات ثروة طائلة من تجارتها ، وقد أحسنت استعمال المال في وجوه الخير والبر ، وتزوج واحد من هذه العائلة واسمه صالح بن محمد بن بشير بن المنظاري

العاني ، وكان شاباً ماضياً في الأمور عظيم الجاه بابنة سلطان مايوت . وسنة ١٧٩٠ مات سلطان مايوت ، خلفه صهره صالح بن محمد بن بشير وتحول عن مذهب الاباضية الذي عليه أهل عمان ، الى مذهب الشافعية أهل السنة والجماعة الذي عليه أهل جزائر القمر الخ » وقال المسيو غافراي : Gevrey ان أصل سكان القومور يهود أو ايدوميون ، جاءوا من البحر الأحمر بعد عهد سليمان ، وجاء اليها في الوقت نفسه زنوج من زنجبار ، وكانت تختلف اليها كثيراً سفن العرب ، ولكن هؤلاء لم يتوطنوا فيها الا في القرن الخامس للهجرة . ثم في القرن السادس عشر ليلاد جاء البرتغاليون وفتحوها ، ولكنهم مروا عليها كعابري سبيل ، وبعد انصرفهم من هناك جاءت طارئة من الشيرازيين ، فنزلت بها تحت قيادة محمد بن عيسى أما تاريخ جزيرة « محلى » فلا يعلم عنه شيء كثير ، وغاية ما يعلم أن أول من سكنها زنوج جاءوا من افريقية ، ثم جاءها العرب والماداغسكريون ، وفي سنة ١٥٠٦ جاءها طائفة من الشيرازيين تحت قيادة أحد أولاد محمد بن عيسى . وأما جزيرة انجوان أو انزوان فقد عمرت نظير ما عمرت محلى ، وفي العهد نفسه فقد جاءها أولا الزنج ثم العرب ثم الماداغسكريون ولما وصل محمد بن عيسى الى جزيرة القمر الكبرى أرسل ابنه حسن بن محمد ، فاحتل انجوان بشرذمة من الشيرازيين .

نجزيجة أو جزيرة القمر الكبرى

نأخذ زبدة معلوماتنا عنها من رسالة للدكتور نيقولا دو بلانتيه Du Plantier رئيس الاطباء في جيش المستعمرات الفرنسي ، مطبوعة بباريز سنة ١٩٠٤ اسمها « القومور الكبرى » La Grande Comore قال : « ان ارخبيل القومور مؤلف من أربع جزائر : مايوت وانجوان ومحلى والجزيرة الكبرى ، كلها واقعة في مضيق موازمبيق طولها نحو ٢٤٥ كيلو مترا ، مع انحراف من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي . فالقومور الكبرى هي بين ٤٠ ر ٥٥ و ٤١ ر ١٢ من الطول الشرقي و ١١ ر ١٣ من العرض الجنوبي ، وبينها وبين شاطئ افريقية ١٦٠ ميلا ، ومنها الى محلى ٢٨ ميلا ، والى انجوان ٥٠ ميلا ، والى مايوت ١٦٩ . وطول هذه الجزيرة ٦٦ كيلو مترا في عرض ٢٤ ، وأكبر مراسيها « مروني » في الغرب ، و « ميتساميولي » في

الشمال الغربي ، « وشينديني » في الجنوب الشرقي ، و « سالمانى » في الجنوب الغربي . وهي جزيرة مرتفعة فيها جبل يقال له « الكاراتالا » علوه ٢٥٠٠ متر وفي رأسه حطمة نار . وتكثر في هذه الجزير الحراج ، ويتندى الفيض فيها بشهر مايو وينتهى باكتوبر . وتكثر في الشتاء العواصف والزوايع ، ويفزر المطر ، ومع هذا فليس في هذه الجزيرة مياه جارية كما في اخواتها الجزر الأخرى . وكل ما فيها من العيون عينان نساختان احدهما ، في مقاطعة بادغيني والأخرى في مقاطعة ميتساميولى . واعتماد الناس انما هو على الحياض التي تجتمع فيها مياه المطر ، وأهل سيف البحر يحفرون على الشاطئ ، فيستنبطون ما يثر بون . وبالرغم من قلة المياه فأراضي الجزيرة خصبة جدا ، ومناخها من أجود ما يكون يناسب الغريب ، والحيات المالارية غير معروفة فيها ، والصحة العمومية فيها جيدة جدا . ومن قصد الفرار من الحر يجدي في الأماكن المرتفعة غير البعيدة عن الشاطئ ما يرضيه ، وأجسام أهالي هذه الجزيرة في غاية القوة والنشاط وهم يحبون النظافة كثيرا .

وعدد أهالي القومور الكبرى خمسون ألف نسمة ، لكن النساء أكثر جدا من الرجال حتى انهم حسبوا بازاء كل رجل ثلاث نسوة . وسبب نقصان عدد الرجال عن النساء ، هو الحروب التي كانت قد وقعت فيها بين سلاطينها ، مع كثرة المهاجرة الى زنجبار . اذ انتقل منهم سنة ١٨٩٩ ، نحو ١٥ ألف رجل الى تلك الجزيرة . ويقال ان العرب نزلوا في القرن العاشر بهذه الجزيرة قادمين من مسقط وغيرها ، ومعهم عبيد كثيرون . ووجدوا فيها زنوجا من أمة « الكافر » لم يعلم عهد مجيئهم . فباختلاط هذه الأجناس من السلالة السامية الخالصة الى المادغسكارية ، الى الباتو ، تكون الجنس القومورى الحالى وكذلك جاء فيما بعد هنود وعرب . والقومورى طويل القامة ، غليظ الشفتين بدون برطمة ، على الجبهة ، أفتى الانف ، أسود العينين ، قليل شعر اللحية . أما المرأة القومورية فهي صغيرة ، حسنة التقاطيع ، طويلة الدواب ، لكن اذا تزوجت حلفت شعرها . وكبار القوم يخضبون أظفارهم بالحناء والنساء يستعملن الوشم والرجال الأغنياء يلبسون القميص الطويل من الجوخ الأسود أو الحرير المزركش وعلى رؤسهم الكوفية المطرزة بالقصب ، ويحملون في أوساطهم خناجر معقوفة بقبضات من ذهب أو فضة . أما النساء فيلبسن الحرير ضافيا ويجعلن على أكتافهن ورؤوسهن منديلا من الحرير ، ويرخين أحيانا نقابا مزركشا

مفتوحا عند العينين ، ويتحلين با نواع الحلى من عقود اللؤلؤ ، والاساور والخلخيل ، المذهب منها والفضة ، ويتطين بأ نواع الطيوب ، وفي النهار تجلس المرأة من هؤلاء في منزلها محاطة بجواريها ، أو تنزه على سطح البيت ، فاذا غابت الشمس كان لها ان تخرج من منزلها وتنزه في الشوارع متنقبة جيدا . فاما الفقيرات ، فيظهرن في الاسواق و يشغلن ويلبسن ثوبا واحدا من القطن و ينتظن عليه .

أما المساكن فبنية بالحجر والجير ، وأ كثرها ذات طبقة واحدة و سطوحها مستوية ، وسقفها ودورها بالخشب ، والابواب والنوافذ مصنوعة بالخشب المنقوش المحرم . وعندهم مقاعد من خشب ذوات أرجل أربع مغطاة بالطنافس والمساند . ويشربون بالنارجيلة ، ويحبون الراحة ، ويقضون جانبنا من أوقاتهم إما في الجوامع أو في ساحات البلدة مستأنسين للاحاديث ، وكل واحد سبخته في يده . وهم قوم متوكلون ، لكنهم كسالى لا ينشطون للعمل الا قليلا ، ويميلون الى اللذة والرقص والغناء ، والى الاسراف في النفقة ، فقد وجد منهم من يرهن عقاراته بمبلغ من المال و يشتري عدة رؤوس من البقر و يتصدق بلحمها على فقراء بلده أو يشتري ثيابا مزركشة بالذهب ، أو يتزوج امرأة جديدة . وللزواج عندهم أفرح طويلة عريضة تستمر أياما ، وقد يكون ذلك شهرا ، وتقدم الهدايا النفيسة الى العروس ، وتذبح الذبائح العديدة ، وتولم الولائم طول مدة الفرح لجميع الاهالى بين الزفن والغناء والطبل والزرمر .

والطلاق معروف في القومور ، ولكن الولد في هذه الحالة يبقى عند أمه ويتبع حالتها ، فهو أمير اذا كانت أميرة وفقير اذا كانت فقيرة ، وللرأة حق التصرف المطلق بأ ملاكها .

ويحتفلون أيضا بالختان ، فاذا ختن أحد الاكابر ولده ، عمل عيداً اشتركت فيه جميع أهالى المدينة . والمآتم عندهم لها شأن كبير أيضاً .

وجميع القوموريين ، أهل الطبقة العالية ، شديدو التمسك بدينهم الاسلامى ، وأهل الطبقات الدنيا يميلون الى الخرافات . والجوامع كثيرة في المدن والقرى ففي « مرونى » مقر المقيم الفرنسى ١٢ مسجد ، مع أن أهل هذه البلدة لا يزيدون على ٢٥٠٠ نسمة والمشايخ يعاصون الاولاد القراءة والكتابة ، والجميع يراعون الشريعة أمم المراعاة و يوجد مدارس في كل المدن

والقرى ، أمانتهم ، فهي نوع من اللغة السواحلية الزنزيبارية وتكتب بالأحرف العربية ، أما لغة دواوين السلطان ، فهي العربية الفصحى .

ولما جاءت فرنسا وبسطت يد حمايتها على القومور الكبرى كان فيها ١٢ مقاطعة ، لكل منها سلطان وأكبرهم اسمه « سلطان تيبه » يخضع له جميعهم . وقد كان السلطان السيد على ابن السلطان السيد عمر صاحب هذا المقام ، وأبوه السيد عمر كان سلطانا على جزيرة انجوان ، وقد قام بخدمات جزيلة لفرنسا ، وذهب على في صفه الى مايوت وتعلم الفرنسية ، وكان السلطان تيبه في القومور الكبرى عمه السلطان أحد ، فقبلما توفي أوصى بأن يكون هو خلفه ، فلما مات أحد وجاء على يتسلم الملك ، اعترض بقية السلاطين وقالوا انه غريب ، واعصوا صبوا حول الامير موسى فومو ، سلطان مقاطعة ايتساندرا ، الذي طمع أن يكون السلطان تيبه . فوقعت الحرب ودارت الدائرة على الامير موسى بسبب معاونة سلاطين انجوان ومحلى ، وسكان مقاطعة بادغيني الكبيرة للسلطان على . وبعد ذلك جاء مركب من قبل سلطان زنزيبار ، عليه قنصل انكلترة يعرض على السلطان على حاية الانكليز ، فرفض على حاية انكلترة ، وأرسل الى قائد مايوت يعرض دخوله تحت حاية فرنسا (١) فلم يحصل يومئذ على جواب ، لكن بعد ذلك بثلاثة أشهر ، جاء المسيو همبلو Humblot العالم الطبائى الفرنسوى بمهمة علمية الى القومور الكبرى ، فأعظم السلطان على موصله ، وشاهد المسيو همبلو خصب الاراضى ، فحول مأموريته من علمية الى سياسية . وكان الأمير موسى فومو قد رضى بحماية انكلترة ، وأرسل له الانكليز ذخيرة وأسلحة ، فتهافت السلطان على طلب حاية فرنسا ثانية ، فرجع المسيو همبلو الى فرنسا وأدى الرسالة . وفي ٦ يناير (ك ٢) سنة ١٨٨٦ ، عقدت فرنسا مع سلطان القومور الكبرى معاهدة تتضمن أن يكون لفرنسا الموقع الأول دون سائر الأجانب في جزيرة القومور الكبرى ، وان السلطان لا ينزل عن شئ من الاراضى لدولة أجنبية ، ولا يعقد مع دولة من الدول معاهدة الابرضى فرنسا . ورضى السلطان بابقاء خمس مقاطعات وهي ، بامباو وايتساندرا ، وميتساميولى ، وبودى ، وبادغيني ، ككل مقاطعة منها يليها سلطان تابع للسلطان على الذى يلي مقاطعة بامباو رأسا ، جاعلا مركزها بلدة مرونى . وان السلطان

(١) هذه رواية المؤلف الفرنسوى

لا يعزل أحداً من أولئك السلاطين ، ولا يعلن حرباً الإبرضى الحكومة الفرنسية . وعند موت السلطان يكون لفرنسا وحدها الحق في تعيين الخلف ، أو تعيين شكل إدارة البلاد . وقد تعهد السلطان على باقرار الاعطيات التي أعطاها الفرنسيين من أراضي الجزيرة ، وبتسهيل اعطاء غيرها لهم . وفي السنة المذكورة جاء المسيو وير معتمداً من قبل الدولة الفرنسية مقبلاً بالجزيرة .

فأثارت هذه المعاهدة ثأر القوموريين الذين اتهموا السلطان علياً بأنه ، أتى لهم بالفرنسيين الى الجزيرة وباعها من المسيو همبلو ، وخرب ديارهم وصيرهم عبيداً . وكانت الثورة بدأت سنة ١٨٨٩ في مقاطعة بادغيني ، وتولاها أمير اسمه آشيمون ، فأرسلت فرنسا قوة وأخذت نارها ، وقتل آشيمون في أثناءها ، ولكن أهالي الجزيرة بأجمعهم بقوا ناكبين^(١) بحيث اضطر السيد على أن يفر ليلاً الى محلي (٢٣ فبراير ١٨٩١) بجاء القائد الفرنسي من مايوت الى محلي ، وأخذ السيد علياً معه على ظهر بارجة حربية الى القومور الكبرى ، وحاول اقناع الأهالي بكون السيد على لا يزال سلطاناً وان فرنسا لا تزال معترفة بسلطنة القومور ، فلم يقبلوا كلامه فأعاده معه الى مايوت وازدادت الثورة ، فأرسلت فرنسا قوة ضئيلة قعت الثورة . وفي ٦ يناير سنة ١٨٩٢ ، عقدت مع السيد على اتفاقاً الغت بموجبه السلطنات الخمس وقسمت الجزيرة الى ١٢ مقاطعة ، وجعلت الحكم في كل مقاطعة لقاض وعلى رأس كل قرية شيخاً ، وصارت السيادة التي كانت للسلطان الى مجلس القضاة الذي ينعقد بحضور معتمد فرنسا المقيم ، وفرض على كل مكلف من الأهالي من سن ١٢ الى سن ٦٠ سنة دفع رويتين ونصف روية سنوياً .

ولكن بعد ذلك جرى اعتداء على بعض الفرنسيين ، وقصد أناس من الأهالي اغتيال المسيو همبلو ، فجرح وجرح صهره المسيو لوغرو ، فاتهم السلطان على أنه هو مدبر هذه المؤامرات ، فنفى الى دياغو سوارس ثم الى بوربون ، وخلفته فرنسا^(٢) وصار الأمر الى المعتمد المقيم وهو المسيو همبلو ، فبقى الى سنة ١٨٩٦ ، ثم خلفه المسيو دو كاز De Cazes ثم المسيو بو بيغوين Pobequin ، ثم خلفه المسيو بلانتيه (الذي تنقل عنه هذا التاريخ)

(١) ولا تراهم مخطئين

(٢) كما خلفت عبد الحفيظ سلطان الغرب مم انه هو الذي أدخلها الى مملكته وكل منهما لقي جزاءه

وتوالى من بعده المقيمون الى اليوم .

وليس جزائر القومور حق في ارسال مبعوثين في البرلمان الفرنساوى (كما ليس جزائر الغرب) ، وانما يوجد لها ممثل خاص في مجلس المستعمرات الأعلى ، ويكون فرنسا من أصحاب الأملاك المستعمرين في تلك الجزائر .

وأما الادارة الوطنية في الجزيرة ، فهي في أيدي ثمانية قضاة ، و ١٤١ شيخ قرية . فالقاضي يفصل الدعاوى وينفذها ويصدق العقود ، وفي حال استئناف الدعاوى يوجد مجلس مركب من كل القضاة . وأما شيخ القرية فيجبي الأموال ، ويقوم بالقبض والربط في القرية وله أعوان في مهمته . واذا وقعت دعاوى مدنية بين الأهالي والفرنسيين ، فالقاضي فيها المعتمد المقيم . أما في الدعاوى الجزائية فالمرجع هو محكمة مختلطة يرأسها المقيم ، ويكون فيها اثنان من القضاة الوطنيين واثنان من الفرنسيين . وفي قسبة مروني مدرسة فرنسية يتعلم فيها الاحداث ، ويحضر دروسها كثير من الرجال البالغين ، وفي القومورى ذكاء مفرط واستعداد عظيم للتعلم والتمدن .

وميزانية الجزيرة المالية هي ١٥٠ الف فرنك ، يؤدي منها سنويا خمسة آلاف الى السيد على في منفاه ، و ٤٥ الفا الى شركة المسيو همبلو عن فائض الدين الذي كان لها عند السيد المشار اليه ، فلا يبقى لادارة الجزيرة كلها سوى مائة الف فرنك .

جزيرة انجوان

هذه الجزيرة هي أيضا من أرخبيل القومور ، وكان لها سلطان مستقل بها نلخص أخبارها من كتاب اسمه « سلطنة انجوان » تأليف المسيو جول ر بليكه Repliquet من كبار مأمورى المستعمرات الفرنسية قال : « انها بين ٤١ ، ٥٢ ، ٤٢ ، ١١ ، ١٥ من الطول الشرقى و ١٢ ، ٣ ، ٣٥ ، ١٢ ، ٢٢ ، ٣٠ من العرض الجنوبى على ٢٠ مرحلة شمالى مايوت الى الغرب و ٩ مراحل عن محلى الى الشرق ، و ١٥ مرحلة عن القومور الكبرى . ومساحة انجوان ٣٧٨ كيلو مترا مربعا ، وأعلى قمة فيها ارتفاعها ١٥٧٨ مترا . وهي جزيرة بديعة كثيرة الأشجار ، غنية بالنباتات ، لاسيما المقاطعة المسماة منها بوموني : والقسم الفاصل منها هو القسم الغربى ، والى الشمال الغربى منها جزيرة صغيرة مغطاة

بالشجر ، اسمها جزيرة السرج . وفي أكثر جزيرة انجوان تجد مياهها جارية تفيض من بين الأودية ، وتسقى الأراضى الى الساحل سائلة من شلال الى شلال ، وكان الأهالى لجهلهم يسرفون فى قطع الأشجار ، فأصدر السلطان عبد الله برأى المعتمد الفرنسى المقيم المسيو أورميير أمراً يمنع فيه استئصال الشجر .

ومن جداول انجوان التى تسيل صيفاً وشتاءً اكيباني ، وبوزيني ، وشيكوني ، والباجى الذى له مصب فى جون ترفاً اليه السفن ، وموروياجيني ، وباتسى عوانى ، وهذه الجداول تجدها من الغرب الى الشرق . وأما فى الشرق فجدول يقال له التانغا مجرورة مياهه الى مزارع القصب والجيجى . ثم الى الجنوب جومانى . وأنها وسواق أخرى أقل بالا من تلك تدلك كلها على غزارة المياه الجارية فى هذه الجزيرة الصغيرة البديعة . وفى جهتها الشرقية ، بحيرة صغيرة مساحتها عشرة آلاف متر متناهية فى العمق وصفاء الماء وبرودته يظن أنها خزان الجداول الشرقية .

وفى انجوان مراس جسيمة للسفن مثل فرضة انجوان ، ومرسى فومبانى ، ومرفاً بوزيني وباجى وباتسى ، وهى فى الشمال . ومراسى آجو ، وبومباو ، وغيرها فى الشرق . وبميينى وسيامسانغانى فى الغرب . ومرفاً بومونى فى الغرب ، يصلح لايواء البوارج الكبير .

وهواء انجوان معتدل الحرارة ، وفى الصيف متوسط درجة ميزان الحرارة هو ٢٣ فى الظل ، والمناخ فى الجزيرة جيد ، والحيات قليلة مع وفرة المياه والاصطياف فى أعالي الجزيرة يفيد الصحة جداً .

وتنقسم الجزيرة الى نواح ، فمنها فى الشمال الشرقى موتسامودو ، وعوانى ، وباندانى وفى الغرب شيزوانى . وفى الشرق دومونى . وفى الجنوب بومونى ونيوما كيلي . وفى الوسط يوجد بامباو متونى وكونى . والعاصمة هى موتسامودو ، تنسب الى رجل زنجي كان اسمه موسى مودو أى موسى الاسود ، كان يرعى مواشيه حول جون انجوان ثم استقر هناك ، وكان أول من بنى هناك بيتاً ، ثم جاء الآخرون وبنوا بجانبه . وكانت لمدينة موتسامود أيام سعيدة لعهد سلاطين الجزيرة الذين سوروها بجدران عالية وحصنها بقلعة . أما الآن فكل

هذه الأسوار متداع الى الخراب . وفي الحارة المسماة « آمومبو » ^(١) التي هي محلة الاشراف تجد قصر سمو السلطان ، والمحكمة المختلطة ، ودار الخزانة القديمة ، وبعض الدور القديمة الباقية على جاهها . وبالقرب من هناك « موكيره جيموى » أى الجامع الأعظم بمنارته السوداء ذات المصاييح وفي الخارج من السور على طول نهر موروجاجينى الضواحي المسماة بانداماجى ، فيها أكواخ الفقراء

أما القلعة ، فهي شاهقة مبنية على صخرة سينيڨو ، لها برجان عاليان مربعان و برج آخر يرتفع عليه العلم السلطاني الأبيض والأحمر فى الأعياد ، ومن القلعة الى المدينة سلم عدة درجه ٢٨٠ ولكن هذه القلعة تنهار يوماً فيوماً بانهباء السلطنة العربية التي كانت شيدها . وقد كان آخر عهدا بالفوة سنة ١٨٩١ يوم اطلقت مدافعها النار على البوارج الفرنسية . والى اليوم فى هذه القلعة ١٠ مدافع قديمة بالية .

وعلى مسافة أربعة كيلو مترات من موتسامودو ، تظهر بلدة عوانى بمنارتها وسورها ومنازلها . وهناك عاصمة ثانية للجزيرة ، اسمها دومونى واقعة فى شبه جزيرة . وهى نظير أختها موتسامودو متداعية الى الخراب . وكانت قبلاً كرسى السلاطين . ونظراً لمنعة موقعها ، كان أهلها اذا هاجهم الماداغسكريون من البحر قرعوا طبول الحرب ، فهرع الأهالى من الجوار ودخل رعاة المواشى وآووا الى جدرانها بقطعانهم . فلم يبق اليوم من سابق عظمة دومونى سوى بعض جوامع ، وبعض منازل للاشراف . وفى أحد هذه الجوامع صومعة منحوتة فى الحجر ، داخلها مزخرف بالنقوش العربية . وهو أثر معمارى يستحق الذكر . والى جنوبى الجزيرة فى نيوماكىلى مدينة صغيرة اسمها « موبا » وفى الجزيرة كلها ٨٠ قرية أكثر أهلها من جنس الماكوا الزنوج . وأما مبانى الادارة الفرنسية فهي على ارتفاع ٢٠٠ متر بمحل يقال له « هومبو » يشرف على موتسامودو وقلعتها . وتجدها جميع الدوائر الرسمية والمستشفى والسجن مخفية تحت أشجار المانغا وغيرها من الأدواح الكبيرة وتحت اكمة هومبو مقبرة الجنود الفرنسيين ، الذين قتلوا فى حوادث سنة

(١) ان العرب من عادتهم أن لا يلفظوا الباء بعد الميم أبداً بل لا يسبق الميم عندم الا النون مثل تنبكو مثلا ، ولكن الافرنج يجعلون أبداً محل هذه النون ميا فيقولون تمبكتوا Tomboucto ولما كنا نتقل عن كتب الافرنج حافظنا فى الأسماء على كيفية نطقهم بها مع علمنا بأن الاصطلاح العربي هو لفظ مثل هذه الكلمات بنون بعدها باء كما حقق ذلك العلامة اللغوي ، الأب أنستاس الكرملى

١٨٩٦ (يوم استولوا على الجزيرة).

وجميع سكان هذه الجزيرة ١٥ الف نسمة ، يرجعون الى ثلاثة أجناس ، من العرب والبوزمن والماكوا . ويقال ان أول من عمر هذه الجزيرة هم البوزمن ، ثم جاء العرب ومعهم الماكوا . والبوزمن هم من أصل مالى بولينيزى كاهل ماداغسکر . وهم أقوياء شجعان يجيئون الحرية أسلموا في القرن السادس عشر ، ولكنهم لم يقبلوا الرق . وذهبوا من وجه العرب الى الجبال أما من جهة التمسك بالاسلام ، فانهم في الدرجة القصوى يعملون بالأوامر والنواهي القرآنية بحرفها ، ولا يؤولونها بحسب أهوائهم مثل العرب (كذا) .

أما العرب ، فأصلهم من سواحل خليج فارس أو سواحل البحر الأحمر ، وعليهم سحنة أهل اليمن ، وفي نسائهم جلال بدقة التقاطيع ، وتدوير الوجه ، وملاسة الشعر ، وسواد العينين ونفوذ اللحظ . وأكثر العرب كسالى أهل مكر ودعوى (كذا) وكلهم تقريبا يدعون الشرف وكونهم من ذرية الرسول ﷺ وأكثر أوقاتهم يقضونها مضطجعين في داخل بيوتهم بين نسائهم ، حتى اذا أظف الغروب ذهبوا الى الجامع للصلاة ، ومن هناك يفيضون بالأحاديث التي فيها يكثر لعن الكافر الأبيض (١) وهم شديدو البغضاء لنا لاننا نصارى ، ولأننا نجح الشغل وبحركتنا ونشاطنا صار لنا التفوق عليهم . وقد فهموا أنهم كانوا هم المغلوبين ، لكنهم لا يريدون أن يجعلوا كسلهم هو المسؤول عن ذلك وهم مهما تقربوا الينا يكذبون ولا يوثق بظاهر محبتهم (كذا) . أما الماكوا فاصلهم عبيد من الموزامبيق ومن سواحل شرقى افريقية ، أتى بهم العرب ليعملوا في أراضيهم فكانوا هم الحرائين لهم وصاروا الآن الحرائين في أراضي المستعمرين الأوربيين ، وهم أهل مودة ومعرفة للجميل . ولا تخلو انجوان من الهنود البانيان ومن الماداغسكريين . أما لغات انجوان مع صغر حجمها فهي أربع العربية ، ثم السواحلية ، ثم الانجوانية ، ثم الماكوية فالعربية « لاينية الشرق » هي لغة الديوان والدين ، وبها تصدر الأوامر السلطانية ومضابط القضاة الى هذا اليوم . وأما السواحلية فهي لغة التجارة ، وكثيرا ما تكتب بها أوراق رسمية . وأما الانجوانية فهي خليط ، من العربي والسواحلي والماكوي والبرتقالى

(١) الذى لا يقدر أن يحبه لأنه استولى على الجزيرة وسلبهم ملكهم

(٢) يقال له في جبل لبنان الباكور أو البكور

والفرنساوى والانكليزى ويتكلمون بها في كل الجزيرة . وأما الماكوية فهي لغة الزوج ،
وهي تتلشى أمام اللغات الأخرى

وذكر المؤلف عن ملابس أهل انجوان ما يقرب مما تقدم عن ملابس القومور الكبرى وهي في الحقيقة ملابس العرب الضافية مع الكوفية على الرأس ، والخنجر في الوسط ، وذكر أن الشبان يحملون بأيديهم عصيا يسمى واحدها « البانكوره » من الخشب الصلب ^(١) ، وقال ان العرب رجلا ونساء تطيبون ، ويرشون على ثيابهم ماء الورد والمسك ، ويكحلون عيونهم ، ويخضبون أظافرهم بالحناء .

والانجوانيون يتبعون الشريعة الاسلامية بجميع أوامرها ونواهيها ، ولكن عندهم عادات غلبت عليهم ولولم توافق الشرع ، مثلا ، المرأة هي دائما صاحبة البيت الذى تسكن فيه مع بعلاها فاذا وقع الطلاق ، وجب على الرجل أن يفارق البيت .

وكذلك الانجوانيون لا يعتبرون رقبته الملك للسلطان ، بل يرون أن تملكهم للأراضى هو من الله تعالى . وحكم القضاة هو بمذهب الامام الشافعى ، والكتب التى يعتمدون عليها من المذهب هي منهاج الطالبين ، والفتح القريب . ولم يبق في الجزيرة سوى قاض واحد في موتسامودو . وكان السلطان في الماضى يبلغ الحكم بمجلس مشهود من الأعيان والقضاة ، أما الآن فلم يبق للسلطان الا اعطاء بعض النصائح لا غير .

ثم تكلم المؤلف عن العادات المألوفة في انجوان ، في الولادة والختان والزواج والجنائز مما لا يخرج عما تقدم في الكلام على القومور الكبرى ، وما هو معهود في البلاد العربية مع بعض الزيادات . ولكنه قال ان الخاطب اذا خطب البنت من أهلها وارتضاه والداها ، زوجها بدون معرفة الفتاة ، اذ الشريعة المحمدية لا تشترط رضی المخطوبة في الزواج وهذا خطأ فظيع هو من جملة خلط الأوربيين ، الذين يلقفون كل ما يسمعون وأحيانا ما لا يسمعون ، بل ما يتصورون بمجرد خيالهم ، فيقرررونه وقائع ثابتة . فانه مما لا ينكر كون الوالدين في كثير من الأحيان يستبدان بالبنت ، ويعقدان عليها بدون استشارتها وهي تطيعهما حرمة وتأدبا معهما . ولكن القول أن هذا هو من الشريعة الاسلامية خطأ فاحش ، فان البنت البالغة لا بد من رضاها في الزواج ، واذا عقد العقد قبل البلوغ وبلغت المعقود عليها ، كان لها الحق أن تفسخه .

(١) يقال له في جبل لبنان الباكور أو البعكور

ثم ذكر ما عند الانجوانيين من حب الرقص والغناء ، والضرب بالمعازف وآلات الطرب وما عندهم من سرعة الخاطر في ارتجال الأزجال العامية الرقيقة ، التي يطرب لها كل من يسمعها . وقال انهم يضربون بالطمطم (نوع من الدربكة) ، والقابوسي (نوع من العود) وقال انهم مغرمون أيضاً بلعب الورق والشطرنج ، ويحبون المصارعة ولعب السيف والترس وغير ذلك مما هو من أوضاع العرب

وفي السادسة من العمر يرسلون أولادهم الى الكتاب ذكورا وانانا ولا يفصلون بعضهم عن بعض الا في سن البلوغ ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة والحساب والتقويم والعقائد ، ويكتب لهم على ألواح بيضاء بقلم من قصب الكامو ، وجبر يقال له نيونفو (١) آيات من القرآن لا بد للاولاد أن يحفظوها . ويواظب أهالي انجوان على الصلوات الخمس ويوم الجمعة يخرج السلطان الى صلاة الجمعة وامامه اثنان يحملان العلم السلطاني والمظلة السلطانية ذات العذبات الخضراء ، ومن العادات القديمة أن أهالي قرية ميرونسي يؤلفون موكب السلطان في ذهابه الى صلاة الجمعة . وجميع الأهالي يصومون رمضان ، حتى الذين ليسوا مسلمين من الزوج يصومون . وتقل في انجوان الأوقاف لكن يوجد منها ما هو مربوط بالجوامع ، ومنها ما يقفه الانسان على جهة برٍّ ويجعل نظارته في ذريته حفظاً لثروة البيت بعدم امكن بيع الوقف . وأما حجاب النساء فهو شديد في انجوان حتى الذين ليسوا معروفين بشدة العقيدة ، ومن يشرب الخمر سراً ، لا يتساحون في أمر الحجاب . وتسود الخرافات عند البوزمن والزوج في انجوان حتى ان العرب قلدوهم فيها ، فانهم يتمتعون السارق ، مثلاً ، بأن يجبروه على مضغ حفنة من الأرز غير المسالوق وهم يقرأون عليه سورة يس ، فمن لم يمكنه أكلها ثبت أنه سارق (٢) أما الصناعات في انجوان فهي قليلة ، يعملون الفخار البسيط ، وينسجون الحصر والزناويل ، وعندهم مطاحن على الهواء ، ويستخرجون عصير السكر ، وكان السلطان عبد الله قه أسس معمل سكر في بامباو ، وغيره من الأهالي صنعوا السكر ونجحوا فيه . وأما الزراعة فهي في حال التأخر ، والفضل

(١) مركب من البخار المتلبد محولاً بالماء

(٢) القالب على الأوربيين انهم اذا اطلعوا على حادثة أو حادثتين جعلوا ذلك قاعدة فلذلك تقل الثقة

في المحاصيل انما هو لخصب الاراضى . وللعرب في الاودية مزارع لطيفة من قصب السكر والكوكو، وكان عندهم كثير من شجر البن . أما التجارة فلمهم فيها نفاذ عظيم ، فقد ولدوا من بطون أمهاتهم نواتيه وتجارا . ومنذ القرن السابع عشر ، كان الاجوانيون ينقلون بضائع ماداغسकर وساحل شرقى افريقية الى خليج فارس ومسقط ، أما تجارة الرقيق فقد بطلت منذ سنة ١٨٤١ ، عند ما استولت فرنسا على جزيرة مايوت ، و بعد الغاء هذه التجارة سقطت تجارة انجوان عن درجتها الاولى ، أما سفنهم فهى قوارب ذات قلع واحد وهم في غاية المهارة في البحر سواء في ادارة السفن الشراعية أو ذات المظنّف

أما تاريخ انجوان فهو تابع لتاريخ سائر القومور ، وكان استولى البرتغاليون مدة على هاتيك الجزر ، ثم نار الاهالى بهم فاخلوها ، وجاء محمد بن عيسى من شيراز مع جماعته ونشر فيها الاسلام واستقر ابنه حسن بن محمد فى أنجوان ، فتلقاه الاهالى برأ وترحيباً ، وبنى جوامع فى جميع القرى ، وأسس هو سلطنة انجوان اذ كان زعيم بلدة موتساموندوا المسمى فانى على قد أعطاه ابنته ، فتزوجها وتلقب بالسلطان ثم خلفه ابنه محمد فتزوج بأيمينة ابنة ماسيلاحا ، رئيس جزيرة مايوت ، فألحق بهذه الواسطة مايوت بانجوان ، ثم استضاف محلى واطاعته ملوك القومور الكبرى ، ولكن هذه الطاعة لم تطل كثيراً حتى انقلبت الى طاعة اسمية فى أيام عيسى ابن محمد ، ثم مات عيسى وعهد بالامارة الى امرأته موللانه ، فانتقض أهالى مايوت عليها ولولا حزم « موانيه فانى » زعيم موتسامودو لمكانت نجحت ثورتهم ، الا أن موانيه فانى هذا استأثر بالامر وفرت الملكة موللانه الى مدينة دومونى ، وهناك زارها ربان البارجة الهولندية « ناسو » وتكلم أحد ضباطها فان دن بروك فى رحلة كتبها عن اكرام هذه الملكة لهم ، ثم مات موانيه فانى وخلفته امرأته فاتنة فى الملك فصارت ملكة فى دمونى وملكة فى موتسامودو . وبقيت الاحوال مختلفة الى زمان « عالة » التى بنت الجامع الكبير فى موتسامودو (١٦٧٠) وبعد ذلك شن الماداغسكريون الغارة على انجوان واكتسحوها ، وأحرقوا قراها واستباحوا حرمها ، وأسروا رجالها ، وقتلوا اسراها فقام فى وجوههم أجدى حفيد عالة ودفع غارات الماداغسكريين ثم خلفه الشيخ سليم وملك الى سنة ١٧٩٧ ، فات وبويع ابنه أحمد وهو دون البلوغ ، فقام عمه علوى وأحدث ثورة ليستأثر هو بالملك ، ففشل أول مرة والتجا الى زنزيبار ، ثم

عاد بعد سنتين وخلع أحد وتولى مكانه ، وبقى في الملك الى سنة ١٨٢٠ وبعد موته خلفه عبد الله الاول ، وقضى معظم ملكه في قتال الزعيم الماداغسكري « راماناتيكا » وهذا الرجل كان ابن عم « راداما » ملك الهوفا ، فبعد موت الملك نفى مع جاعته من ماداغسكري فالتجأ الى أنجوان لما كان اشتهر به عبد الله من حسن الوفاة ونجدة المهلوب فلتقاهم عبد الله بالاكرام وأزلهم أحسن منزل . ولكن راماناتيكا كان كمنودا للنعمة كسائر الهوفا ، فلم يلبث أن أخذ يحرك الثورة على مضيغه ، وأخيراً عاله الحرب ، فدارت الدوائر على الباغي ، وفر هذا من انجوان الى محلى واستولى عليها . فأخذ عبد الله بجهاز قوة لاسترداد محلى . وكان في هذه الجزيرة أمير من السا كالافا ، اسمه سولى ، أبى أن ينقاد الى راماناتيكا ، ولم يلبث عبد الله أن هاجم الضيف الخائن في مايوت . وطرده منها ، فنصب سولى السكالافى أميراً كما كان وجاء يطارد العدو في محلى (١٨٣٦) فصادفه اعصار شديد فرق مرآكه وقذف بالسفينة التي كان فيها الى الشاطئ ، فوقع في يد راماناتيكا ، فقتل جاعته صبراً وأمر بوضعه في السجن ، ومنع عنه الطعام الى أن مات . فجمع الأمير سولى فل الجند الذي كان لعبد الله وجاء بهم الى انجوان وبايعوا علوى بن عبد الله مكان أبيه بالرغم من دسائس عمه سالم الذى طمع فى الامارة . ثم اشتعلت الفتنة بين العم وابن أخيه ، فرحف سالم برجاله ، وحصر علوى فى مونسامودو ، فكان سولى أمير مايوت ينجد علوى برجاله ، فثبت هذا فى وجه عمه نحو أربع سنوات . ولكن سالما أثار ثورة فى نفس مايوت حالت دون ارسال النجديات الى علوى ، ثم تعاهد مع راماناتيكا الذى كان متولياً أمر محلى وهاجت جنودها مونسامودو ، فتسلقوا جدران قلعتها ليلاً وانسل علوى خفية الى البلدة وركب قارباً أخذه الى القومور الكبرى ومنها ذهب الى موزامبيق ، ثم أخذه الانكليز الى كلكتا ، ثم جعلوا اقامته بجزيرة موريس حيث مات سنة ١٨٤٢ فانفرد سالم بالامارة . ودفعه الانكليز لمقاومة احتلال فرنسا لمايوت باعتبار أنها تابعة لسلطنة انجوان ، فلما نزل الأمير سولى عن مايوت لفرنسا احتج على ذلك بشدة ، فلم تبال وزارة غيزو باحتجاجه واستضافت فرنسا هذه الجزيرة الى مستعمراتها .

وبعد موت سالم خلفه ابنه عبد الله الملقب فى بلده بالكبير . وكان صديقاً للانكليز وقد امضى معهم معاهدة رضى فيها بابطال الرق ، وكان يجب تنظيم ادارة بلاده على الطريقة

العصرية الاوربية واتخذ لنفسه مستشاراً طيباً اميركيا اسمه ويلسون . وفي سنة ١٨٥٤ حاول علوى حسيني اغتياله ليملك مكانه ، فدخل عليه في القصر فجأة بشرذمة من رجاله ، ولكن جماعة عبدالله استماتوا من دونه وقبضوا على المعتدى وصلب . وسنة ١٨٨٢ عندما امضى عبد الله معاهدة ابطال الرق ، نار عليه أخوه الأمير محمد واعصوب حوله جماعة وهاجم أخاه مرتين ، فهزمه السلطان في كل منهما ، وعفا عنه فيما بعد . ولكن تلك الحرب الأهلية مع علوسن عبد الله أوهنت قواه وفتت في عضده ، فطلب حاية فرنسا . وفي ١٥ اكتوبر سنة ١٨٨٧ أصدر أمراً بقبول نظام الحماية ، وأرسل الفرنسي معتمداً مقياً عنده اسمه المسيو ترويل . فكانت مذاك الوقت سياسة المقيمين في أنجوان اقامة النفوذ الفرنساوى مكان النفوذ العربى باسقاط سلطة السلطان تدريجاً . ولكن لم تكن هذه الطريقة لتتم بدون صعوبة اذ قدم المقيم للسلطان مرة صورة أمر طلب منه امضاءه ، وهو يقضى بأن تكون الادارة الداخلية في يد معتمد فرنسا ، فأبى السلطان امضاءه ، ونار العرب وهاجموا على مقام المقيم ، وأهانوا العلم الفرنسى وأنزلوه فانسل المقيم المسيو اورمير الى مايوت ليأتى بسفينة حربية وفي هذه الأثناء مات السلطان عبد الله قيل مسموماً وقيل مخنوقاً . فبايع الماكويون (الزنوج) السيد عثمان أخا عبد الله ، وبايع أهل موتسامودو السيد سالما بن عبد الله ، فهجم الزنوج على البلدة واضطروا سالما والعرب الذين معه أن ينهزموا الى دومونى فسار عثمان خلفهم الى دومونى ونهبها ، وقتل كثيراً من أعيانها ، وقبض على سالم ورهطه وجاء بهم الى موتسامودو . وكان الفرنسي في تلك الأثناء أتوا باسطوهم وأنزلوا عساكرهم الى البر ، وسلم سالم الأمر اليهم ، أما عثمان فبقي يقاومهم نحو شهرين الى أن فرغ كل ماعنده فاستسلم اليهم أيضاً . فبنى عثمان ونفى سالم معا الى كليدونية الجديدة^(١) وأخذت الأسلحة من أيدي الأهالى وجيء بالسيد عمر ، وهو أمير من امراء انجوان خدم سياسة فرنسا كثيراً فى القومور ، وجعل سلطانا فى يوم مشهود سنة ١٨٩١ ، واتحد العلم المثلث الألوان مع علم الهلال والنجمة الانجوانى ، وسنة ١٨٩٢ امضى قبول الحماية تأكيداً لما كان سبق من السلطان عبد الله ، ومات فى تلك السنة وخلفه ابنه السيد محمد ، وفى مدته جعل لسلطنة (!) انجوان وسام اسمه « نجمة أنجوان » وجعلت طوابع بريدية خاصة بانجوان . اهـ .

(١) جزيرة فى البحر المحيط من الجزر البولنيزية تنفى اليها فرنسا المجرمين السياسيين

وأما جزيرة محلى فهي مع انجوان أخصب القومور ، وأما مايوت فأرضها بركانية وقد سبق الكلام عليها .

وربما يقال لماذا أطلنا البحث عن جزر صغيرة كهذه ، سكان أكبرها ٥٠ ألفا ، وسكان الأخرى ١٥ ألفا . وما هي الفائدة من ذلك ؟ والجواب ، ان الذى حدانا الى اطالة البحث عنها إنما هو صغرهما مع الأدوار التي مرت بها والحكومات التي تأسست فيها ، والسلطين الذين لم يمنع ضيق بلادهم وقلة عدد رعاياهم من أن يكونوا مستقلين ذوى شأن وأن تكون لهم جنود وقلاع ومدافع ، بما يدل على ماتبلغه هذه الأمة العربية ، من النفاذ والمضاء ومعالي الهمم في الصغير من البلدان فضلا عن كبيرها . هذا اذا سلمت من الشقاق والنفاق اللذين هما آفة عزاها وسلطانها .

تصحيح وتوضيح

بقلم عالم حضرمي

نحن عندما نقلنا ماتقلناه عن ماداغسکر وجزائر القمر إنما اعتمدنا على كتب الاوربيين . وهؤلاء كما لا يخفى يخطون كثيراً عندما يخوضون في المباحث المتعلقة بالشرقين ولا يأمن الانسان العثار في النقل عنهم غير انه مما لامرية فيه ان للاوربيين مزية طرق المواضع الشرقية التي يستجلب طرقها النظر فاذا جاء الموضوع ناقصاً تداولته الناس الواحد بعد الآخر الى أن يمل . وهذا ما لا نراه عند الشرقيين الذين يهملون الاماندر ذكر ما يعلمون عن أحوال بلادهم

غير ان من الشرقيين من يشذ عن قاعدة الاهمال هذه . فانه لما انتشر كتابنا حاضر العالم الإسلامي ووصل الى بلاد الجاوى اطلع عليه العلامة المؤرخ المدقق السيد محمد بن عبد الرحمن بن شهاب العالوى الحضرمي في بتاوى فوجد فيما أثنائه عن الافرنج بشأن ماداغسکر وجزائر القمر ما يقتضى التصحيح أو التوضيح ونشر في جريدة « حضرموت » الصادرة في سورابايا سلسلة مقالات في غاية الافادة والاجادة اشتملت على معلومات نفيسة عن تلك الجزائر ومن استعمرها من العرب وعن مآثر السادة العلوية الحضارم وراء تلك الأبحر الحضارم وخاض في تقاسيم فروع تلك الشجرة الزكية وسلسل أنسابها على الوجه الذى يشق الغليل والذى يدل على سعة اطلاع لا يضطلع بها الا القليل فهو كاتب نقاد مدقق مالك لموضوعه

يمتاز بدقة النقل مع سداد المنطق ورجاحة العقل قد سرنا جداً استمراكه على هذا المقام بما استدرك به ووعدنا القراء بإضافة مقالاته هذه الى الطبعة الثانية من حاضر العالم الاسلامي وهانحن أولاء منجزون للوعد قال :

طلعت كتاب حاضر العالم الاسلامي وما عليه من التعاليق للأمير الكبير والبحاتة النقاد الشهير ، والبلغ المصقع التحرير شكيب أرسلان . فرأيت فيه فوائد عزيزة . وإبحاثا نفيسة ، فنقدم لذلك الأمير وفيه الشكر وعاطر الثناء . ولا ننسى فضل مترجم الكتاب عجاج الناهض ، فقد قدم لأهل الشرق آراء أهل الغرب فيهم وذلك أمرتهم معرفته ، وقد رأيت في مواضع من تعاليق الأمير حفظه الله أموراً جديرة بالعناية والتنبه فأحيت نشرها في جريدة حضرموت الغراء فأرجو أن تسارع الى نشرها فلعل أن يطلع على ما أكتبه الأمير شكيب فيجد فيه فائدة يحسن السكوت عليها .

من هم الفاتحون لجزيرة مدغسكار وجزائر القمر

جاءت أسماء هذه الجزائر عند الأمير شكيب هكذا (انجزيجه ، انجوان ، او انزوان مهلى) وهى فى شجرات الانساب عندنا وعلى ألسنة العرب بافريقية الشرقية هكذا (جزائر القمر وهنزوان ، وانقيزجه ومولاي) وقد نقل الأمير عافاه الله فى تاريخ هذه الجزائر كلاماً طويلاً عن مؤرخى الافرنج من صفحة ٣٦٦ الى صفحة ٣٩٩ من الجزء الأول بالحرف الصغير وتكرر فيما نقله عنهم ذكر الأشراف وأسماء بعض سلاطينها ، وأصل تلك العائلة التى فتحتها ونشرت الاسلام فيها ، فرة يقولون انه محمد بن عيسى من شيراز ، ومرة يقولون انه أحد أولاد محمد بن عيسى وانه بعد استيلائه على جزيرة القمر الكبرى أرسل ولده حسن بن محمد فاحتل بشرذمة من الشيرازيين مواضع أخرى ، وجاء فى كلامهم ذكر السلطان السيد على ابن السلطان السيد عمر ، وأبوه السيد عمر ، كان سلطانا على زنجبار والسلطان محمد بن حسن والشيخ سالم واحد بن سالم وعمه علوى وعبد الله الأول ، وعلوى بن عبد الله وعبد الله بن سالم الملقب بالكبير ، وعلوى حسيني الى غير ذلك مع خبط وظنون لا يتحصل المطالع منها على حقيقة ، مما يدل على أن أولئك المؤرخين قد أخذوا ما كتبوه عن مجهل انساب أولئك السلاطين وأصولهم كل الجهل .

وقد يدعش المطلع منا اذا رأى ذلك وهو يعلم أن أولئك السلاطين الفاتحين انما كانوا

من السادة العلويين الحسينيين الحضرمين المعروفة انسابهم وأسماءهم وأخبارهم وأنبأؤهم والمتضمنة شجرات أنساب السادة العلويين لأسمائهم فرداً فرداً . ويعجب كيف يستحيل التاريخ وتنظمس الحقائق اذا أهملها أهلها وأغفلها وعانها ودراتها وشوها نقلتها ورواتها . أما الأمير شكيب فهو مشكور ومعذور والأفأى وسيلة يتأنى له الحصول على الحقيقة من أخبار تلك الأطراف النائية والأقطار الشاسعة وليس لها توارخ منشورة ، ولا آثار مأثورة ، ومن أين يمكنه الاطلاع على توارخ السادة العلويين الحضرمين وتنقلاتهم وهم من أقصى حجر باليمن بالبلاد الحضرمية التي يرحل منها ولا يرحل اليها ، والتي عرف أهلها باضاعة أخبار اوليهم ومناقب أهلهم وتعفية آثارهم ونسيان ديارهم ، وكيف لا نعذر على عدم اطلاعه على أخبار أهل هذا القطر البعيد وقد شكى انقطاع أخبار أهله أبو الفرج الاصبهاني على شدة تنقيبه عن أخبار العلويين وميله اليهم . فانه قال في كتابه مقاتل الطالبين « على أنا لا نتنى أن يكون الشئ من أخبار المتأخرين منهم فاتنا ولم يقع علينا لنفرقم في أقاصى المشرق والمغرب ، وحلولهم في نأى الأطراف وشاسع المحال ، التي يتعذر استعلام أخبارهم فيها ومعرفة قصصهم لاستيطانهم إياها سيما مع قصور زماننا وأهله وخلوه وإياهم من مدون خبر أو ناقل لأثر ، كما كان المتقدمون قبلهم يدونون ويصنفون وينظمون ويرصفون » وقال في آخر كتابه أيضاً « على أن بنواحي اليمن في هذا الوقت وبنواحي طبرستان جماعة من آل أبي طالب (ع) قد ملكوها وغلبوا عليها الا أن أخبارهم منقطعة عنا لقلة من ينقلها الينا بل لعدمهم وفقدانهم وما نتنى من أن يكون لهم أخبار قد فاتتنا ولم نقدر على علمها » اه فهذا قول أبي الفرج في زمانه فكيف بزماننا وكيف لا يعنر الأمير شكيب أرسلان وعذره أوضح وأوضح .

ذكر البطون العلوية المستوطنة بإفريقية

الشرقية والجزائر القمرية

أقدم قبل بسط القول في ذلك تعديد البطون العلوية الحسينية الحضرمية الساكنة بتلك الديار ومنها كان سلاطين القمر مع الاشارة الى مراجع أنسابها فأقول : يوجد بتلك الجهات منهم ثلاثة عشر بطناً وان شئت قلت نخداً .

الفخذ الأول يرجع نسبه الى أبي بكر بن احمد بن الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم العلوى الحسينى بافريقية الشرقية .

الفخذ الثانى يرجع نسبه الى محمد بن سالم المهاجر بن احمد بن الحسين الخ ما تقدم بيته من جزائر القمر .

الفخذ الثالث يرجع نسبه الى صالح بن احمد بن الحسين الخ ما تقدم بهنزان وبته .
الفخذ الرابع يرجع نسبه الى محمد المجنوب ابن الشيخ على بن أبي بكر السكران العلوى الحسينى بيته وسيوى وزنجبار ، وسلاطين سيع من أرض الملايو أبناء عمهم يرجع نسبهم الى حسن بن عمر بن حسن ابن الشيخ على المذكور .

الفخذ الخامس يرجع نسبه الى عبد الرحمن بن ابراهيم ابن الامام عبد الرحمن السقاف العلوى الحسينى بالقمر بهنزان .

الفخذ السادس يرجع نسبه الى شيخان بن الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم العلوى الحسينى بافريقية الشرقية

الفخذ السابع يرجع نسبه الى محمد بن علوى بن عبد الله بن على بن عبد الله باعلوى الحسينى وهم الفخذ المعروفون بأل المسيلة بافريقية الشرقية بيته ومولاي (مهلى) .

الفخذ الثامن يرجع نسبه الى عبد الرحمن بن احمد بن عبد الله ابن الشيخ محمد الشهر بجمل الليل باحسن العلوى الحسينى المتوفى سنة ٠٨٤٥ . بافريقية الشرقية وبالقمر وفى (آشى) أبناء عمهم يرجع نسبهم الى حسن بن احمد بن عبد الله بن الشيخ محمد المذكور

الفخذ التاسع يرجع نسبه الى أحمد بن عبد الله باحسن بن محمد بن سالم بن احمد ابن عبد الرحمن بن على بن محمد جل الليل بافريقية الشرقية وبملاكة (ملقا) من أرض الملايو ، أبناء عمهم المعروفون بأل القدرى ذرية محمد القدرى ابن سالم بن عبد الله باحسن المذكور .

الفخذ العاشر يرجع نسبه الى محمد جد آل باحسن الحديلي بن حسن الطويل بن محمد بن عبد الله بن احمد بن عبد الرحمن بن علوى عم الفقيه بالقمر .

الفخذ الحادى عشر يرجع نسبه الى حسين بن عبد الله الأعين النساخ بافقيه بن محمد عيديد بن على صاحب الحوطة بن محمد بن عبد الله بن احمد المذكور بالقمر ، بمولاي

(مهلي) . — الفخذ الثاني عشر يرجع نسبه الى عبد الله بن علي بن محمد عبيد بن علي صاحب الحوطة الخ ما تقدم في نسب الفخذ الذي قبله بافريقية الشرقية .
 الفخذ الثالث عشر يرجع نسبه الى محمد سميط بن علي الشنيزي بن عبد الرحمن بن احمد بن علوى عم الفقيه بزنجبار .

فهذه ثلاثة عشر بطناً يرجع نسب أربعة بطون منها الى عم الفقيه وبقيتها الى الفقيه محمد بن علي . وهما أعنى الفقيه وعمه مرجعا جميع أفاذ السادة العلويين وقد بلغ عددها مائة وتسعة وتسعين نفداً فساكن البادية منهم الذين يعانون حمل السلاح يبلغون ثمانية عشر نفداً أو يزيدون ، والباقيون متحضرون ، ويجتمع نسب الكل على سيدنا محمد صاحب مرباط ابن علي خالع قسم بن علوى بن محمد بن علوى بن عبيد الله بن المهاجر الى الله احمد^(١) ابن عيسى بن محمد النقيب بن علي العريض بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي الوصي المرتضى أخو رسول الله وابن عمه صلوات الله عليهم أجمعين .

عتاب موجع

لاباس أن يقف قلبي برهة قبل انجاز الكلام على سلاطين جزائر القمر لعتاب اخواننا العلويين اذ يقول القائل لماذا لم تنشر مناقب أولئك الأبطال الذين فتحوا تلك الجزائر البعيدة ونشروا فيها الاسلام وشادوا فيها المساجد وبنوا المعامل وبسطوا لأهلها بسط العدل ؟

فنقول له ولماذا لم تنشر آثار بقية أئمتهم التي انتشرت في الشرق فان فخاؤ السادة العلويين كما سبق قد بلغت في وقت ما مائة وتسعة وتسعين نفداً وقد أحصى عددهم منذ نحو خمسمائة سنة فكان عشرة آلاف نفس ، وقد أصاع اخلافهم آثار اسلافهم . فان أنكرت قولي هذا أيها القارئ واستكبرته وعددته شينا وعيبا . فارني أي شيء نشر من أخبار وآثار من نزل منهم الديار الهندية في سالف الدهر كالذين نزلوا

(١) أول من هاجر من البصرة الى خرموت

أحمد اباد ، وسورت ، وبروج ، حيدر اباد الدكن ، وبيجافور ، وكنور وقزرات ودلى وبرودة ومان كيسر وكاليسكوت وبلقام وبنقرا باد ومليبار وبنقاله ، ألم تعلم ان أول داخل منهم الى البلاد الهندية دخلها سنة ٩١٧ . فلماذا لم تنشر أخبارهم مع ملوك الهند العظام ووزرائها الكبار ، وما كان لهم من الجاه والمنزلة عندهم وما لهم من الآثار والنفع العام ، ومن أصهر اليهم من السلاطين كالسلطان شاه جهان والسلطان ابراهيم عادل شاه وابنه السلطان محمود بن السلطان ابراهيم عادل شاه والسلطان حبش خان والسلطان فتح خان ، والسلطان برهان نظام شاه ، وكيف جعلوا السلطان ابراهيم عادل شاه على أن يلبس لباس العرب . ومن اتصلاوا به من الوزراء كالوزير عنبر قبل أن يصير ملكا وبعد تملكه ، ووزير أحمد اباد الأعظم عماد الملك وغيرهما .

ولماذا لم تنشر أخبار أول من دخل آشى منهم في خلال القرن التاسع اعنى منذ أربعة قرون تقريبا فاكرمه سلطانه آشى في ذلك الحين وزوجه بعض وزرائها ابنته فاقام هناك واعقب بها . وهو السيد أحمد بن محمد بن أبي بكر الشلى ، بل لعلمهم دخولها قبل ذلك ، وكالسيد أبي بكر بن حسين المتوفى بها سنة الالف وكالسيد محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن علوى الشاطرى الذى أزال ما انتشر بأشى على عهده من القول بالتشبيه دخلها في أوائل القرن الحادى عشر ، وفي ذلك التاريخ دخل جاوى السيد على بن عمر بن على باعمر فنشر بها الدعوة الدينية والعلم الاسلامى ، ولو نشر مثل هذا لما كنا نرى تحبط المتخبطين من مؤرخى الأفرنج في أول من دخل البلاد الجاوية واسلم أهلها على يديه .

فهل تحسب ان السيد ابراهيم المقبور بقرسى والذى أسلم على يديه أهل جاوى كان من غير العلويين ؟ كلا .

لو نشرت لنا الاصول الأولى من شجرات انساب العلويين لا ستد لنا حننا على شئ كثير ، ولكن مما يؤسف له انهم اكتفوا في الشجرات المتداولة بالنقول عن تلك الاصول ولم يعنوا بذكر من لم تتصل بهم أخباره من النائين في الأقطار البعيدة ، فإن اصل شجرة النسب التى الفها أبو الحسن على بن أبي بكر بن الشيخ السقاف المسماة بالجواهر السنية في نسبة العتره الحسينية والتي جمعها ونقحها من بعده السيد على بن أحمد بن على بن حسن

أبو جبهات والتي جمعها وحررها وهذبها تاج العارفين زين العابدين العيدروس ، نعم ان الشجرة التي حررها من قبلهما سيدنا شيخ بن عبد الله العيدروس كان يظن انها مفقودة . ولدن قد ظفر الشهم الغيور السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف منها بنسخة ثمينة وجدها في خزائن السادة العيدروسيين العلويين بالهند ، وفيها ذكر لكثير من اتقل عن الجهة الحضرمية من السادة وتدير غيرها من البلدان .

ألم تعلم أن بطناً عظيماً منهم قد انتشر في البلاد الهندية منذ سبعة قرون فلم تحتو الشجرات المتعددة على تفصيل أخذهم وتسلسل ذريتهم لقدم رحلتهم عن البلاد الحضرمية . واتقطاع أخبارهم وهم بنو عبد الملك بن علوي بن عم الفقيه المتوفى سنة ٦١٣ وغاية ما حفظته لنا الشجرات عن ذرية عبد الملك هذا قولها ان لها عقباً منتشراً بالهند يعرفون بال عظمت خان معروفين بالشجاعة ، ميالين الى التجند والعسكرية فلم لا يكون السيد ابراهيم منهم

ان أسلافنا قد تفننوا في ضبط أنسابهم حتى جعلوا للألقاب شجرة خاصة ، وللأمهات شجرة خاصة ، وهكذا ولكنهم ما كانوا يميلون الى التنويه بما لهم من الأعمال في البلاد التي يرحلون اليها وينشرون الدعوة الاسلامية بها ، ميلا منهم الى التواضع وكسر النفس وعدم الرضا عنها ولكننا قد احتجنا اليوم الى ذكرها ونشرها لما يعلم المنصف الخير ، ولو ترك القطا ليلا نام .

فن المطالب والمخاطب بنشر ما بقي بأيدينا من المناقب والأعمال العظيمة ونسخ ما غفلت عنه أيدي الضياع من تواريتهم وطبقاتهم وتحريه وطبعه ونشره ؟

المطالب بذلك أغنياؤنا ولكن أين هم ؟ ! ان الإهمال والاضاعة قد بلغ عندنا مبلغاً يفوق حد التصديق فان للسيد أحمد بن عبد الله الشهر بشنبل تاريخاً مفيداً في بابه ألفه في حدود التسعمائة فهل تحس منه من خبر أو تسمع له ركزراً .

وللسيد عمر بن محمد باشيان تاريخ لعل أكثر خزائن اخواتنا خلية منه ولكنه موجود بخزانة لندن قد نقلته أيدي الإهمال والضياع الى تلك البقاع .

وللوجيه الشيخ عبد الرحمن بن علي بن حسان ثلاثة تواريت أكبر وأوسط وأصغر فاسأل عنها ان أردت أن تتحقق أين بلغت السنة والنوم من اخواننا .

وأين تاريخ باعيسى وتاريخ باز رعه وتاريخ أبى شكيل المسعودى . وتاريخ الطيب بأفقيه وتاريخ الطيب بأخرمه الى آخر ما يطول عده منها الخاص بالعلويين الحضرميين ، ومنها العام وفيه من ذكرهم الكثير الطيب فهل اعتنى بها أحد منا أو استنسخها أو لخصها كلا .

أما يفتخر أغنياؤنا اليوم بأوتومبيل يقتنيها أحدهم ويبدل الألواف فيها . قد أفى فيها عمره وجعلها غفرة ، أو بيت يشيده أو ملهى يشهده ، أو امرأة يتزوجها وهم يفتخرون بالنع والبخل كما يفتخر الكرام بالعتاء والبذل .

فان قال قائل ان هذه التواريخ النافعة كانت موجودة ولكن جاءتها الكارثة العظمى وهو دخول الوهابيين الى تريم سنة ١٢٢٢ فقد جاءوا الى خزائنها المشحونة بنفائس كتب التفسير والسنة والفقه والتاريخ فطموا بها الآبار جفاءً وغلظة وبدأوة وغبأوة . ولقد أتلفوا من بيت واحد اثنتى عشرة خزانه ومن آخرست خزائن الى غير ذلك مما يطول عده كما فعلوا ذلك باليمن حينما دخلوها ، قلنا هذا صحيح ولكن هل تداركنا ما فائنا واستنسخنا ما فقد منها من أيدينا وهو لا يزال فى أقطار أخرى كخزائن العيدر وسيين بسورة ويحافور وغيرها وكلوجود باليمن وعدن ؟ كلا .

لقد أراد بعض اخواننا استنساخ تاريخ القاضى أبى شكيل المسعودى فوجده بصنعاء فاستنسخه من هناك فما رأيك فى تاريخ حضرمى لا يوجد بحضرموت .

دع هذا وارجع بي الى العلويين الموجودين اليوم فى الاقطار المتباعدة ألا يحسن أن يكون بينهم نوع ارتباط وتعاون ومساعدة ، فهل فكر وسعى فى ذلك أحد من علمائنا أو وجهائنا وأغنيائنا ، وماهى المعلومات التى بأيدينا عن اخواننا المتفرقين فى قطر اليمن وهو أقرب الأقطار الينا كالموجودين منهم بحوطة الفقيه على ، ويبعث ، وجبان ، ويشيم وأحور ، وعياذ وانصاب ومرخة ، وحورة ، وردمان ، والسوادية وبلاد الرصاص ، والبيضاء ويافع ويحان ورداع واين والحرا وتعز والمكلا^(١) والحديدة وبيت الفقيه وبلاد الدرهمى وزبيد والحجرية ونحلة وأبى عريش وحيس والليث والقنفذة ورباط اليمن ورباط الصفا وخنفرا بين ودينة وغير ذلك مما لا يتسع له هذا المحل .

(١) من أرض اليمن وهى غير المكلا المشهورة

سبحان الله ! لماذا نذهب الى اليمن وهنا أمر أقرب من ذلك ، هؤلاء اخواننا أهل البادية جمال السلاح والمعروفون بالشجاعة والحماسة والذين لن نستغنى عنهم يوماً ما . فهل أرسلنا اليهم علماً أو مذكراً أو واعظاً وهل عقدنا بينهم عقداً أو جددنا عهداً أو أسسنا ودأ ، وهل واسيناهم ولو مرة واحدة بشيء من الاموال التي تذهب جزافاً فيما يرضى النساء والسفهاء . ويفض جبار السماء وماذا نعرف من حال اخذهم ورجلهم واعدادهم ؟

منهم بيت سهل وبيت حودة وبيت مشأخ وبيت قرموص وبيت الكهالى وبيت عقيل وبيت الخشش وبيت محسن وبيت الاخسف وبيت كدحوم وآل البحرى وبيت مسلة وآل الحكم ، وبيت رزينة وبيت هبارين وبيت الدجج وبيت الهادى .

وماذا نعرف من اخواننا بحول ، وعياد ، وخورة ، ومرخة ، وهم الشجعان الذين فاقوا أسود خفا وعثر وزادوا على من يليهم شجاعة وفتوة وانوف حية .

ذكر الامير شكيب عافاه الله فى صفحة ٣٤٢ من الجزء الاول من حاضر العالم الاسلامى فصلا طويلا عن مسامى الحبشة والجهاد الذى قام به الامام المجاهد الغازى أحمد بن ابراهيم مما تفرغ به العيون ، جاء فيه انه منقول عن تاريخ عرب فقيه^(٢) وتردد فيه ذكر الاشراف والمهرة من الغزاة وهم من العلويين لا محالة ، فأين الذى بيدنا من أخبارهم وماذا نعرف عن اخواننا القاطنين بالحبشة وسواحلها كزبلع وغيرها ومن بهرروكيلاذ وقلب وبوش .

ذكر عافاه الله فى صفحة ٣٤٣ ج ١ دخول الأشراف فى الصلح بين السلطان أبى بكر ابن محمد من آل سعد الدين الغزاة المجاهدين وبين الغازى المجاهد الامام أحمد بن ابراهيم جران ، وذكر فى صفحة ٣٥٣ منه ان الامام أحمد الغازى جمع الأشراف والعرب والمغاربة ، وذكر فى صفحة ٣٥٤ جلوسه لمرض الشريف أحمد القديمى وفى صفحة ٣٦١ منه انه عزل الشريف نور عن ذخنو الخ كما انه ذكر الشريف أبى بكر العيدروس فى صفحة ٣٤٣ منه . فهذا كله يدل على مشاركة السادة العلويين وبنى عمهم من بنى قديم فى ذلك الجهاد . وعلى انتشارهم فى تلك النواحي فى ذلك العهد وقد أضيقت أعمالهم وأهل ذكرها كما أضيع

(٢) لعله بافقيه السيد الطيب أو غيره

غيرها وان كان يوجد في شجرات أنسابهم ذكر عدد ليس بالقليل ممن كانوا بها أو استشهدوا هناك ، وهاك من ذلك ماتيسر ، ذكر وامنهم السيد أبا بكر بن علوى خرد توفى بالحبشة سنة ٨٩٥ والسيد على بن عبدالرحمن المنفر وكان سيدا جليلا سر يا ناسكا صالحا توفى بدوار من أرض الحبشة سنة ٩١٥ وقبر بجانب المجاهد محمد مرزوق وقبره بها مشهور ، والسيد عمر بن أحمد بن علوى من آل عبدالله بن علوى قتل شهيدا بئر سعد الدين ، وأحمد بابريك العلوى توفى بزيلع في الطاعون ، وابنه أحمد وعمه عبدالرحمن بن على ، ومن كان بهرر في ذلك العصر نور بن عقيل بن علوى بن على من آل عبدالله باعلوى وقالوا في جده على انه كان وليا صالحا فاضلا له الجاه الواسع ، والصيت الشاسع . وانه توفى بهرر سنة ١٠٢٣ والسيد أبا بكر بن عقيل من آل الشلى قتل شهيدا بأوسه وأخاه اسماعيل أيضا وأخاهما عبد الله بئر سعد الدين ، وعمهما توفى به أيضا ، وذكروا أيضا السيدين عبد الرحمن وعمر ابني حسن بروم العلوى توفيا بالطاعون الكبير في الحبشة الذى مات فيه عشرة آلاف ومن السادة عشرون رجلا ، وكان ذلك سنة ٩١٧ وهو غير الطاعون الصغير الكائن في حدود سنة ٩٤٠ .

وهذا ذكره الأمير شكيب في صفحة ٣٦١ من الجزء الأول ، وقد ترجم للسيد عبد الرحمن المذكور في السنا الباهر تاريخ أهل القرن العاشر ، والسيد محمد بن عمر الشاطرى العلوى توفى بزيلع سنة ٩٧٤ ومن كان من آل الشاطرى بها على عهده أبو بكر بن محمد الشاطرى وأخوه على العلويان والسيد المجاهد محمد بن أحمد بن أبى بكر بن عبد الله السقاف العلوى ووالده أحمد توفى بالحبشة سنة ٩١٦ واعقب بها وحفيده المجاهد أبو بكر بن علوى ابن أحمد المذكور توفى بعده سنة ٩٥٥ وأخواه عمر وعثمان بالحبشة ، ومن هذه العائلة أيضا ممن كان بالحبشة في ذلك الوقت السيد عبد الوهاب بن عبدالله السقاف وبنوه عبدالله ومحمد ونور واعقب منهم محمد بها ، والسيد عبد الرحمن بن عبدالله بن حسين توفى بقلب بالحبشة سنة ٩٤٠ وله عقب هناك ، والسيد محمد بن عبد الله بن حسن بن عبد الله السقاف العلوى وبنوه عبدالرحمن وعامر وحسن وعبدالله وقد توفى أخوهم الخامس على بن محمد بتريم سنة ٩٧٦ ، ومنهم عم السيد محمد المذكور السيد محمد بن حسن وبنوه عمر وعبد الرحمن وعبد الله وأخوه السيد عقيل بن حسن توفى بقلب بالحبشة وعقبه بها وكان من الأسخياء والسيد

عبدالرحمن القاري وأخوه أجد أبناء ابراهيم بن عبدالله السقاف العلوي والأول منهما توفي ببالي بالحبشة سنة ٩٤٤ ، ومن عائلة آل شيخ بن عبد الله المثني بن عبيد الله بن السقاف العلوي السادة محمد وشيخ وخلف بنو علي بن شيخ بن عبد الله المثني وجدهم شيخ المذكور ومن عائلة آل عبدالله بن محمد بن مولى الدويلة العلوي السيد سالم بن علي بن عبد الله توفي بهرر سنة ٩٧٩ ، وعائلة آل حسن الورع بن محمد مولى الدويلة العلوي عبدالله بن محمد بن عبدالله وجده السيد عبدالله بن عمر الهندوان توفي ببر سعد الدين بقلب سنة ٩١٦ ، ومن عائلة آل باعبود مولى الدويلة العلوي أبو بكر ومحمد وشيخ وأبوهم عبد الرحمن توفي شهيدا بالطاعون بها سنة ٩١٧ والسيد علي بن أبي بكر بن عبد الرحمن باعبود العلوي توفي ببر سعد الدين سنة ٩٤٢ ، ومن عائلة آل شيخ بن اسمعيل بن ابراهيم بن السقاف العلوي عدة منهم أبو بكر بن ابراهيم بن أبي بكر البيتي كانت وفاة جده أبي بكر سنة ٩٠٥ ، ومن عائلة آل حسين بن السقاف السادة حسين وعلوي ابني أحمد بن حسين بن السقاف وعمر بن حسين بن محمد توفي سنة ٩١٥ وحسن بن عمر قتل بها سنة ٩١٥ وعبد الله بن سليمان و بنوه حسن وسليمان وعلي ونور وحفدته وهم عدة ، ومن عائلة آل محمد بن السقاف العلوي عبد الرحمن ابن علي وأبوه علي بن عبد الرحمن وبالجملة فغير هؤلاء كثير من يضيق بهم نطاق التعديد .

فهل حفظ أحد منا تاريخ هؤلاء الأبطال ؟ دع ذا وقل لي هل حفظناهم في أعقابهم فعرفناهم بنا وبأنفسهم وحفظنا أنسابهم كلا وحاشا ، انما يقوم بذلك أهل الغيرة والحمية وقد فقد أهلها اليوم ، ولورحل أحد من هؤلاء المتفرقين في الأقطار البعيدة وساعدته الفرص فوصل الى (تريم) هل تظن أنه يقدر على اثبات نسبه ؟ لا . لأن الحفظة على الشجرات لا يقبلون كلامه حتى يأتي بجملة من أهل بلده يشهدون له ويأتى بقرائن تثبت مدعاه ، ومتى يتيسر ذلك له فلا هو يقدر على ما يطالبونه به ولا هم يحيدون عن القواعد التي هم ملتزموها ، وانى يتيسر ذلك لأهل القمر وهنزوان تلك الجزائر النازحة فلا غرو أن تدرس أنسابهم وتضع أعقابهم .

وماظنك بهذه الجنود المجتدة المتفرقين في جزائر الشرق في سيليبس وبرنيو وسومترا وجاوى وملقا (ملاك) وآشئ وقد دخل بعضهم منذ أربعة قرون ، ومنهم من لم يكتب اسمه ولا اسم أبيه ولا جدته في الشجرات الى اليوم .

وانى لأعرف قبيلة مشهورة فيها بيت ذو ثروة عظيمة وهم لا يزالون متصلين ببلادهم الحضرمية لم تكتب أسماؤهم ولا اسم أبيهم في الشجرات الى اليوم . ولو علموا ذلك لانزعجوا ولكنهم لا يعلمون بل يوجد كثير من بالبدان الحضرمية التي تبعد عن تريم بثلاثة أيام أو أربعة لم يكتبوا واذا دام الحال لا يبعد أن يتعذر تقييد أنسابهم فيما بعد فلا بد من المبادرة مادام العهد قريباً والشواهد بينة .

والعبارة ظاهرة فيما وقع منذ ٣٥ سنة أو نحوها في مسألة آل ابن ناصر وابن شيخان والضوضاء التي قامت حول ميراث بعض المقرضين منهم بمكة .

ولا حيلة لضبط ذلك الا انتداب جماعة من أذكى السادة للرحلة والطواف في سائر البلاد الجاوية والهندية وافريقية واليمن وغيرها لهذا الأمر المهم وتلافيه قبل فوات وقته . وبهذه المناسبة أقول ان من أعظم الناس منة على السادة العلويين الحضرميين سلطان المغرب الأقصى الادريسي اذ أرسل في أواخر القرن الحادى عشر مائة ألف ريال لتقسم بينهم بالسوية والحق بها الشريف سرور أمير مكة ستين الفا فتدب السيد الغيور الهمام الرحالة على بن شيخ بن شهاب الدين جباب الأقطار واحتمل الاخطار ليقيد أسماءهم ويحفظ أنسابهم ففعل جزاء الله خير الجزاء فكانت هذه الصلة المادية سببا لتلك الفائدة الأدبية الكبرى .

فهل تظن أن الأغنياء من اخواننا العلويين التي تعد ثروتهم بالملايين ومئات الألوف يتدبون فيفعلوا كما فعل سلطان المغرب ؟ لك أن تظن بهم أيها القارئ ما شئت أما أنا فلا أظن وهم أضعف أخلاقاً وأقل توفيقاً من أن يحظوا بهذه المكرمة الجليلة .

العود الى الكلام على سلاطين القمر وهنزوان

نقدم اشارة لطيفة الى الحالة العامة في ذلك القرن الذى كان فيه رحيل تلك العائلة العلوية الحضرمية الى تلك الأقطار والقرن الذى قبله .

الحضرمى حلف أسفار وركاب اخطار وأبعد الناس منتوى وأقصاهم رحلة وقد كان ذلك شأن الحضارمة من قبل التلويح حتى لقد ظن كثير من المؤرخين كالمؤرخ (جس هنرى بريستيد) ان سكان مصر القدماء ومؤسسى الحضارة فيها وبعض أهل افريقية الشمالية انما جاءوا من تلك البلاد وما جاورها ، ومن نظر في الفتوحات الاسلامية رأى انهم كانوا

في مقدمة النازحين الى الفتوحات البعيدة عن بلادهم فكان سدس الجيش الذي فتح الاسكندرية من المهرة وفيه كثير من التجييين والصدفيين كما انه قد دخل الأندلس كثير منهم بركة من تدير العراق والشام ، فهم أشهر من أن يشار اليهم ، فلما نزل السادة العلويون بنو أحد بن عيسى المهاجر بين ظهرانيهم أخذوا إخذهم بل اناروا لهم السبل في غرباتهم ووطأوا لهم المسالك الوعرة وسبقوهم في ذلك سبقاً بينا وقد ساعدهم على ذلك أمور منها ما يحصل لهم في كل بلاد ووطنوها من الجاه والاجلال لمكان أهلهم وسلفهم الطاهر ومنها كثرة العلماء منهم بالعلوم الاسلامية حينما وقعوا نفعوا ، ومنها تفوقهم في سبيل الدعوة الى الله والى دينه ومنها لطف اخلاقهم وغلبة آداب التصوف عليهم فهم الين أخلاقاً واسمى تربية ، واذا نظرت الى قديمهم رأيت ان قريشاً عامة كانوا ذوى رحمة وأسفار وقد قص الله ذلك علينا وامتن به في القرآن العزيز ، وكان هاشم بن عبد مناف هو الذي أخذ الايلاف أى العهد والأمان لقريش وكان رجلاً كثير الأسفار ، قال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الايلاف وأجاز لها العيرت لهاشم والله ما شدت قريش رحالا ولا حبلا بسفر ولا أناخت بعيرا لخصر الا بهاشم ، والله ان أول من سقى بركة ماء عنبا وجعل باب الكعبة ذهابا لعبدالمطلب ، فاجتمع هؤلاء السادة ماورثوه من آباءهم وما أخذوه من جيرانهم وقد مضى لهم اليوم منذ سكنوا البلاد الحضرمية ما يزيد على أحد عشر قرنا ولا نعلم أحدا من القبائل الموجودة اليوم بمحضرموت أقدم سكنى بها منهم الا نحو أربع أو خمس قبائل ، وانك لتجد من بعض ذوى الطيش والنزق من الحضارمة من يظن أنه أقدم استيطاناً بها منهم ويبنى على ذلك مالانحب ذكره ، ولو حقق تاريخه لرأى انه هو الطارئ الدخيل ولا نحب أن نمثل لذلك في جريدة سيارة ولكن التاريخ لا ينسى .

وقد كان أكثر الحضارمة في أول ما قدم سيدنا المهاجر الى الله أحد بن عيسى منعزلين عن العالم الاسلامي لمكان منهبهم الشاذ الاقليات منهم ، والحضرمي لا بد له من رحلة وسفر فكان أهل الجماعة منهم يرحلون الى اليمن والعراق والشام ومصر ومنهم آل التنعى الذين اوعبوا كلهم الى البصرة وكان الآخرون يرحلون الى جهات افريقية الشمالية والى برقة وقابس وبودان منهم جمع غفير وكانت لهم قرية تسمى بوصى ، فلما اتحد المذهب الحضرمي وذهب الخلاف عادوا يرحلون الى العالم الاسلامي الى الهند وافريقية الشرقية

والجزائر الملايوية والجاوية وكان السادة الحضارمة في مقدمتهم .

وقد كان في أوائل القرن العاشر زمن حرب وسلب وأمور كثيرة تقتضى نزوح الحضرمي عن بلاده مثلبسا لباس المكافحة والمناضلة . وكانت الروح الحربية شائعة فيهم اذ ذلك وكانت البلاد الحضرمية منقسمة قسمين يتنازع السلطان فيها قبيلان مشهوران وكانت المهاجمات بينهما مستمرة وكان أحد القبيلين يتلقى المدد من الأمير التركي بتهمة ، والثاني منهما يتلقاه من امام اليمن ، وانقسمت قبائل حضرموت الى فرقتين فرقة تشايح هذا وفرقة تشايح ذلك ودامت الحال كذلك نحو مائة وعشرين سنة وانتهت بخروج جيش امام اليمن سنة ١٠٦٩ فاصلح بين ذينك القبيلين وحداً لها حدوداً وأبقى كلا منهما على ملكه . وكان البرتغال قد أخذوا يهاجون السواحل الحضرمية في أوائل القرن العاشر وكانت أساطيلهم تخمر البحر من سواحل الهند الى سواحل افريقية الى ساحل حضرموت . وهذا البحر هو مضطرب الحضرمي فكانت سفن الحضارمة والمهرة كثيراً ما تصادفها سفن البرتغال ويقوم بينهم القتال الشديد فتمرن الحضارمة على قتال البحر واذا اندر أهل الشحر (ساحل حضرموت) بأساطيل البرتغال أرسلوا الصريح الى داخلية البلاد فكان أهل الفقه والعلم يتسابقون للقيام بفريضة الجهاد وتبعهم العامة فاجتمع منهم الجموع هناك ترابط حتى تنصرف أساطيل العدو .

وفي شجرات أنساب العلويين ذكر عدد منهم ممن أسرهم الافرنج أو قتلوهم في البحر فجازوا مرتبه الشهادة العلية .

وقد زاد في حمية الحضارمة القتال القائم بين سعد الدين والحبشة وفيه كثير منهم ، وكانت أخباره ترد تباعاً الى حضرموت حتى كان السيد محمد بن الطيب بافقيه العلوي الشحري يأتي بها مشروحة يوماً فيوماً في تاريخه .

وقد زاد في ضيق خناقهم القحط الواقع في سنة ٩٤٥ حتى أكلوا الجلود . والسيول العظيمة التي وقعت سنة ٩٣٩ فانها اتلفت نخيلهم وأرضهم حتى لم يبق منها الا القليل واضرت بالجهات الجنوبية الغربية من حضرموت ضرراً بليغاً .

فزادت هذه الحوادث الحضرمي اذ ذلك محبة في الرحلة والضرب في البلاد وبغضا في البرتغال الذين يقطعون عليه طريقه فعزم على مناوأتهم ومطاردتهم فكان لا يسمع بمناوئهم

الا وانضم اليه ولا يحل ببلاد الا وشحنها بغضا لهم ، وقد كان للعمايين في ذاك القدرح المعلى ولكن كان عملهم في افريقية الشرقية متأخرا عن عمل الحضارمة بنحو ثمانين سنة فلما ابتدأوا في العمل كان من جملة جنودهم كثير من أهل حضرموت .

وكان عدد العرب بافريقية لذلك العهد كثيراً وكانوا تجاراً فلما يتعرضون للامور السياسية حتى أهاجمهم البرتغاليون بعسفهم وظلمهم ، وكان العرب على اتصال ببلادهم وأخبارها ترد اليهم في سفنهم الأنباء بأفعال البرتغال في بحر العرب فكان ذلك مما يزيد في نقيمتهم عليهم وتسبب عن ذلك قيام أهالي زنجبار عليهم سنة ١١١٠ فطردوهم منها وهاجت عليهم افريقية الشرقية وجزائر القمر واتصلت بينهم حروب زعزعوها بها مركزهم فلم يستقروا الا بسفالة وما والاها . وكان العرب هناك في مقدمة الثأرين بل كانوا كثيراً مايتولون قيادتهم .

أما العمايون فقد تولوا زنجبار سنة ١١٩٩

بما فانتى التنبية علمه امتياز العائلة المعروفة بأل ابن حسن من السادة العلويين ببعده الهمة ونفاذ العزمة ، والاستشراف الى تنفيذ الشرع الاسلامي وجع الناس عليه ، والتوسل اليه بايجاد القوة المنفذة وأعنى بهم المنتسبين الى سيدنا حسن بن الشيخ علي بن أبي بكر فان بنى محمد المجذوب بن حسن هم أكثر الانخاذ الموجودة بجزائر القمر بينتوسيوى وبزنجبار أيضا ، وقد ذكرناهم وبنى أعمامهم بنى عمر بن حسن هم الذين قد دخلت سومطره سيطرتهم وهم سلاطين سيك وهم المعروفون الآن بأل شهاب الدين (سيع) الى اليوم وان منهم دويلة صغيرة في (فرليس) في جاية سيام ، وان ملوك فنتياتق (فنتيانه) من آل القدرى العلويين يعود نسبهم الى سيدنا محمد جل الدين بن حسن المعلم بن أسدالله وقد ذكرنا اخوانهم بافريقية ، ومنهم نخذ باشى وآخر بمقدشوه ، ومن سلاطين فنتياتق (فنتيانه) من آل القدرى السيد عبد الرحمن (المتوفى سنة ١٢٣١) بن حسين بن احمد بن حسين بن محمد القدرى المتوفى بتريم سنة ١١٧٩ وقد تقدم بقية نسبهم ، وأما ابنه أبو بكر فتوفى بفنتياتق سنة ١٢٧٧ وفي تلك السنة أيضا توفى أخوه عثمان بن عبد الرحمن ولهما عقب وقد بلغ عدد آل القدرى بفنتياتق آلافاً واقطعت الآن صلاتهم أو كادت ببلادهم

واخوانهم ، وأكثرهم يجهل حقيقة نسبه وتبعة ذلك واقعة على كواهل أغنيائنا وسروائنا ، أما سلطان سولوك سندكان فلفاين فهو من آل العيدروس .

ومما ينبغي الإشارة إليه ان العائلة التي ظننا انها أول عائلة من العالوين دخلت الى القمر هي العائلة التي اشتهر كثير من أفرادها بالبطولة والشجاعة في حرب المسلمين مع الحبشة فان السيد احمد خطيب بته بجزائر القمر بن علوى بن محمد بن احمد بن مرزق بن عبد الله وطب المتقدم ذكره قد اشتهر جده السيد محمد بن احمد بالجهاد كما تقدم ، وأخو جده عبدالله ابن احمد فلا يبعد أن يكون السيد علوى ابن السيد المجاهد محمد بن احمد قد كان مع والده بالحبشة ثم نزع الى القمر مجاهداً وناشراً للإسلام ، وهذه العائلة وعائلة آل ابن حسن آل سيوى وبته هم أول من دخل القمر يقضيه السبر بخلاف الانفاذ المنتسبة الى الشيخ أبي بكر بن سالم فانما جاءوا بعدهم ولعل أول رحيلهم اليها كان بعد جهاد الشحر والنفير العام الذي نودى به في حضرموت سنة ١٠٩٧ فقد نفر له كثير من المجاهدين من السادة العالوين وغيرهم من الحضارمة وقد منحهم الله النصر فهزموا البرتقال بعد أن احتل الشحر سنة و بضعة أشهر ، وقد استشهد بتلك المعارك عدة من السادة العالوين منهم السيد عبدالله ابن محمد بن احمد الفقيه على بن المعلم عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٨٧٣ ابن على (المتوفى سنة ٨٤٠) بن سيدنا عبد الرحمن السقاف العالوى الحسينى، وكانت حضرموت لاتزال لذلك العهد حية معمورة .

قالوا وقد خرج من نواحي هيتن فقط ستائة فارس فذهبوا مع النفير العام وربما يستغرب بعض اخواتنا هذا ويقول كيف تنسع هيتن لهذا القدر ومن أين يجدون لها الخشيش والعلف وهذا كلام من يجهل التاريخ ويجهل كيف كانت حضرموت وما كانت عليه من العمارة ، وليس لأهلها في تلك الاوقات من الاتصال بجهاث المعمور وانتشار التجارة والفتى فيهم عشر مالمهم اليوم ولكنهم كانوا ذوى محبة لوطانهم واقتصاد في شؤونهم وكان مهمم موجها الى عمارة بلادهم ولم يكونوا كخلفهم اليوم لاهم لهم الا تدمير بلادهم ولاهم لأغنيائهم الاجع المال جمعاً قارونياً أو بذله لاثارة الفن وقطع السبل أو للترهات والعوائد والموائد والقصف والترف ، وقد كانت ظفار مثابتهم ومتردد تجارهم ومرعى خيلهم ، وكان لهم ضراوة باقتناء الخيل حتى لقد كان لسيدنا الحسين ابن أبي بكر بن سالم

وحده سبعون رأساً من الخيل ، وقد زار نبي الله هود عليه السلام مرة فزار معه من أبنائه وأحفاده أربعون فارساً (وكان معمرًا) .

ويكفيك شاهداً على ما ذكرناه انه لما أسر السلطان بدر بن عبد الله بن جعفر أبو طريوق محمد بن علي بن فارس في سنة ٩٣٨ غضب له نهد فلما أصدد السلطان يريد دوعن اعترضه من السور (١) مائة وستون فارساً من نهد غضبا لصاحبهم ولكن تم الأمر بينهم على اطلاقه وكانوا يستعملون الآلات الحربية القوية في حروبهم فان ثابت بن علي فارس النهدي استولى على القرين (٢) سنة ٩٤٠ باستعمال الرمي بحجر العرادة (٣) ولو جئت اليوم الى بلاد نهد كلها لم تجد فيها فرسا واحداً وأكبر داهية حلت بحضرموت حتى خرب خراباً لا يتصوره العقل هي الداهية التي حلت به سنة ١١١٧ فانها داهية هلكت بها العباد والبلاد وبقيت الى حدود سنة ١٢٧٠ ، وجاء في أثناء ذلك الوهاية سنة ١٢٢٢ الى سنة ١٢٢٦ تقريباً فكان مجيئهم ضغناً على ابالة وأعنى بتلك الداهية المتغلبين من يافع على السلطان عمر بن جعفر بن علي وكان الذي جلبهم هو السلطان بدر ابن محمد بن عمر بن بدر أبو طويوق خرج بهم من هناك سنة ١١١٦ وتم استيلاؤه على حضرموت بهم سنة ١١١٧ وقد غلوا يد ولده السلطان محمد بن بدر ثم استقلوا بالأمر وجرت أمور يطول شرحها .

ومن عجائب ما يراه الناظر في تاريخ حضرموت ان الأباضية قد جلبوا على حضرموت من المصائب والبلايا والحروب والقتل ما يطول شرحه ولكن لم يؤثر ذلك في خراب حضرموت خراباً يماثل ما وقع في الرمن الأخير فانهم باحتلالهم حضرموت واستغواهم أهلها ورميهم بهم في تلك النحلة قد جعلوا العالم الاسلامي البأ عليهم فصارت حضرموت ميداناً لهجمات جنود الاسلام اذ ذاك وأعظم واقعة مشهورة كانت سنة ١٤٠ فان معن بن زائدة الشيباني الجواد المشهور وكان أميراً على اليمن للنصور العباسي غزا حضرموت بجيش جرار فقتل رئيس الأباضية عبد الله بن يحيى وقتل معه من الخوارج خمسة عشر ألفاً حتى رجز بذلك الرجاز وأشاد بذكره الشعراء فقال الاعرابي :

(١) بلد من بلدان نهد قد خرب (٢) بلد بدوعن

(٣) العرادة آلة أصغر من المنجنيق يرمى بها الحصون والأسوار

يامعن من شبان أنت اتنا عامت أهل حضرموت الموتنا
وقال شاعره مروان بن أبي حفصة في قصيدة يمدحه بها أولها :
أرى القلب أمسى بالأوانس مولعاً وإن كان من عهد الصبا قد تودعا
الى أن قال :

لقد أصبحت في كل شرق ومغرب بسيفك أعناق المربين خضعا
وطئت حدود الحضرميين وطأة لها هد ركن منهم فتضعضا
فاقعوا على الأذنان اقعاء معشر يرون لزوم السلم أبقى وأودعا
فلو مدت الأيدي الى الحرب كلها لكفوا ومادوا الى الحرب أصعبا

ثم توالى الأمراء على اليمن وحضرموت من ناحية العباسيين فبلغوا الى سنة ٢٦٣ زهاء نيف وخمسين عاملا أعنى الى ولاية المعتمد بن أحمد المتوكل وكان العامل على عهده محمد بن جعفر فامتنع عليه أهل حضرموت فغزاهم وأخضعهم ، ومعن بن زائدة هو أول من أزم أهل حضرموت واليمن لبس السواد شعار العباسيين فصار زينتهم الى اليوم ، ولما جاء سادتنا العلويون لبسوا البياض واقتدى بهم وذلك شعارهم وهذا هو السر في انكار جمهور العلويين على من لبس السواد من اخوانهم والتزامهم لبسه الى اليوم .

ومما وقع فيه مؤرخو الأفرنج من الخبط والخلط ما نقله الأمير شكيب عن المسيو فزان والمسيو رينيه باسه في الجزء الأول من كتاب حاضر العالم الاسلامي في الصفحة ٣٧٤ فنقول ما يتعلق به الغرض مما قالاه ثم تتعبه ، قال عن المسيو فزان : ان قبائل الاسلام في الجنوب الشرقي من ماداغسکر تزعم أنها سلائل أناس هاجروا الى ماداغسکر من مكة - الى أن قال - قال المسيو رينيه باسه : يجب الحذر من تصديق هذه الأقاويل فن هذا القبيل أن أسرة مالكة كانت تلى هرر في الحبشة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فكانت تزعم أن أول من قدم هرر هو عقيل بن علي ^(١) مع أن عقيلاً ما وطئ تلك الأرض - الى أن قال - عن المسيو فزان : ان دعوى الانتساب الى أهل البيت فاشية عند مساحي السواحل الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من ماداغسکر ولكنه مما لا ينبغي أن يوثق به كثيراً اه ونقول

(١) الذي نعرفه أن عقيلاً هو أخو علي

ان الميسور ينيه قد استعجل أمراً كان له فيه أناة ، وقد كان الواجب عليه أن يعرف المسمى عقيلاً بن على وأن يتفطن لكون عقيل بن على لا بد أن يكون غير عقيل بن أبى طالب أخى على عليهما السلام ، وكثيراً ما يؤتى المؤرخ من العجالة وترك البحث كما يؤتى من الغرض وسوء القصد . وذلك أن هناك عقيلاً آخر غير من ظنه وهو عقيل ابن علوى بن على بن محمد بن حدون بن علوى المتوفى سنة ٩١٤ ترجمه فى المشرع والسنا الباهر ابن محمد المترجم فى المشرع أيضاً ابن على الملقب بجحدب بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٨١٦ بن محمد المترجم فى الجوهر والمشرع والمتوفى سنة ٧٤٣ بن سيدنا عبد الله باعلوى المترجم فى الجوهر والغرر والمشرع والترىاق وشرح العينية المتوفى سنة ٧٣١ وهو ابن علوى ابن الفقيه المقدم محمد بن على الى آخر النسب المتقدم فى المقالات السابقة ، وقد كان السيد على بن محمد جد عقيل المذكور قد قطن هرر من بلاد الحبشة وكان فاضلاً وصار له بها جاه واسع وصيت عظيم ونفوذ مذكور مشهور ، وقد توفى ضحوة يوم الثلاثاء سنة ١٠٢٣ وأعقب هناك والعقب منه فى ابنه علوى ، وأعقب علوى من عقيل المشار اليه وعثمان وجيدون وكلهم لهم عقب هناك والعدد فى ذرية عقيل أكثر من أخويه . ولسنا بصد التفصيل فانما المراد التنبية والاشارة . وقد سبق أن السادة العلويين قد ترددوا الى الحبشة ودمشوها بخطاهم للتجارة والدعوة وكان دخول أول داخل منهم اليها سنة ٨٣٧ - أى منذ ٥٦٧ سنة وكانت تجارتها من بندر زيلع فكان للسادة العلويين بها مقام سام مالى وأدبى . ومن هذا القبيل تخبط مؤرخى الافرنج فى الدعاة الذين أسلم على يدهم الجاويون فتارة يقولون انهم كجراتيون^(١) وتارة يقولون انهم فارسيون ولهم فى هذا الباب جولات لا تحلو عن تجاهل .

وقد يعتذر عنهم بأنهم رأوا هؤلاء الدعاة يأتون من ناحية تلك البلاد ولا يعرفون حقيقتهم وقد كان العرب الحضارمة وفى مقدمتهم السادة العلويون لهم ترددات الى مليبار وكجرات وكاليكوت وغيرها من البلاد الهندية ولهم بها مرا كز تجارية ودينية ، وقد كان لكثير من العلويين رباطات مفتوحة لطالبي العلم وكانت السفن تذهب من ساحل حضرموت قاصدة الى مليبار ثم تأخذ شرقاً على السواحل الهندية ومنها الى سومطرا وبلاد آشى منها

(١) أى من كجرات من الهند

وفليمباغ (فولو امباغ) جفاوى ، وقد ترجم في المشرع لبعض علماء السادة العلويين الذين دخلوا جاوى قبل وصول الهولنديين إليها بمدة طويلة الى آشى منذ ثلاثة قرون ونصف قرن ولا يزال اسم السيد هاشم يدور على ألسنة سكان آشى الى اليوم لأنه كان العامل الأكبر في الحرب المعروفة بحرب البوقيس قبل أن يطأ بلاد جاوى هولندي ولا غيره ، وآل هاشم هم من السادة العلويين آل عم الفقيه وهم ذوو عدد بيننجر (برنيو) وبسيلان يرجع نسبهم الى السيد هاشم بن أحمد بن علوى بن احمد بن عبد الرحمن بن علوى المشهور بعم الفقيه الح النسب المتقدم ، وهناك من هو أقدم منهم دخولا الى آشى وهو السيد هاشم ابن محمد المتوفى سنة ٩٧٨ بن عبد الله بن مبارك بن عبد الله المتوفى سنة ٨٨٤ وهو المعروف بوطب ، وهو بن محمد بن سيدنا عبد الله باعلوى فان السيد هاشم قد دخل آشى ومكث بها حتى توفى وفي آشى مقابر محتوية على كثير من السادة العلويين وقد تولى منهم عدة سلاطين في تلك الجزيرة وهو أمر معروف عند الأهالي وان تعامى عنه المتعاملون ولا يزال أهل آشى يطلقون على كل عربى لفظه حبيب وهذه الكلمة هي اللقب الذى يدعى به كل سيد علوى ولم نرفعا قرأناه مما كتبه الافرنج انصافا الا فى مقالة نشرتها بمجلة فانجى فستاكا التى تصدر من ويلفريدين فى عددها الخامس عشر الصادر فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٦ فانها ذكرت تعاهد الحبيب حسين القدرى جد سلاطين فنتيانق (فنتيانه) هو وثلاثة من اخوانه من العلويين وهم السيد أبو بكر العيدروس والسيد عثمان باحسين السقاف (١) والسيد أحمد الكوريس (٢) واتفق هؤلاء الاربعة بعد الحصول على الاذن لهم من شيخهم بلمبار (٣) على التوجه الى الشرق للدعوة الى دين الاسلام فاقام السيد أبو بكر العيدروس باآشى وأما باحسين (٤) فاقام فى سيك (سيع) واقام السيد محمد فى ترشقانو (٥) ثم ساقطت المجلة ترجمة الحبيب حسين القدرى وتولى ولده عبد الرحمن بن حسين

(١) الصواب عثمان بن عبد الرحمن بنحسن وهو أول سلطان بسيك (سيع) بسومطرا من هذه العائلة

(٢) لعل الصواب الكريشة تصغير كرش فيكون هو السيد احمد بن علوى بن بركات بن محمد كريشة

العلوي ، وقد توفى بالهند وله عقب بجزائر القمر بهنزوان

(٣) كذا قالت ولعله سيدنا شيخ بن علوى الجفري مؤلف كثر البراهين وغيره المتوفى سنة ١١٧٢

(٤) الصواب بنحسن ويعرفون الآن فى سيع بأل شهاب

(٥) هكذا قالت ولم يتقدم لمحمد ذكر وقد اشتهر بترشقانو آل محمد وزين ابني حسين بن مصطفي العيدروس

المرجع فى مرآة الشمس فان لهم بترشقانو ذرية مباركة فيها علماء نفعا كثيرا ، وكان السيد محمد بن زين

ابن حسين اماما كاملا وعالما عاملا له صيت كبير يحضر درسه نحو ألف نفر فليحذر

سلطنة فنتيانق الخ ما فيها فليراجعه من اراده ، وقد كان بجزيرة سمبه (سومبه) من جزائر التيمور سلطان من آل القدرى الى زمن دخول هولندة اليها وله ذرية هناك معروفون ، والمقصود انه من المحتمل أن يكون من تكلم في هذا الموضوع من الافرنج انما جاءه الوهم من جهة أن اولئك الدعاة انما جاءوا من طريق الهند وهذا صحيح فانه ما كان أحد يلبغ من حضرموت الى جاوى بل كانوا يسبرون اليها من الهند كما تقدم وكانت الهند مثابتهم بل قد تأسست بها دول كان من العوامل في تأسيسها بعض السادة العلويين كملكة الملك عنبر فقد كان من العوامل الكبرى في تأسيسها ارشادات الحبيب على بن علوى بن محمد الحداد العلوى ، ولذلك قصة غريبة ذكرها في عقد الجواهر والدرر ونقاها عنه صاحب خلاصة الأثر فلترجع ، وما كان الامير جوهر سحرتى الا تلميذ الشيخ الامام شيخ بن عبدالله العيدروس العلوى ولذلك لما توفى اعنتى به السادة وجهازوه وكان له مشهد عظيم ودفنوه في مقبرة السادة والعرب تحت مدينة بيجافور ، ترجمه في عقد الجواهر والدرر ونقله عنه صاحب خلاصة الأثر ، ولا يحتمل المقام بسط حالهم هناك وتعدد من دخل من اخاذهم الى الهند ، ومن دواعى الوهم لاولئك المؤرخين الذى يستعمله العلويون فانه اشبه شئ بزى علماء فارس وفي كلامهم توهمات وظنون لا تخفى على المتأمل .

ولا يزال اناس ممن دخل جاوى منذ قرون ينتسبون الى آل باشيبان أحد أفاذ السادة العلويين ويصلون أنسابهم بالدعاة المغاربة^(١) أعنى الموجودة قبورهم بموجو أقونغ ودونك مثلا واحدا من الانساب التى بايديهم فمنهم الآن كياهى (أى العالم) منصور بن طه بن محمد باقر بن مجاهد بن على اصغر بن على اكبر بن سليمان المقبور فى بلد موجو أقونغ بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الشيبانى العلوى وآل باشيبان منهم عدد كثير بشربون وفكالكوتقان (باككتقان) وغيرهما وعبد الرحمن الذى ارجعوا انسابهم اليه توفى سنة ٩٧٣ وابنه عبد الله توفى بأشى وله عقب بالهند ببلقام والدكن وله ابن يسمى شهاب الدين قد خفى حاله ولم يذكره فى الشجرات أعقب أم لا ، ولم يذكره سليمان هذا فلا بد من بحث وتنقيب فان المواصلات كانت قليلة بين حضرموت و جاوى ولا سيما فى القرن العاشر بسبب حروب البرتقال وغيرها فينبغى أن يبحث عن تاريخ عبد الرحمن هذا والبلاد

(١) لعلمهم أطلقوا عليهم المغاربة لأنهم جاءوا من غرب جاوى وكل جزيرة العرب غرب بالنسبة الى جاوى

التي رحل اليها وتزوج بها ولنا عودة الى هذا الموضوع ان شاء الله ، أما عدد الآباء في نسبهم الى أمير المؤمنين على عليه السلام فيبلغون على ما حكيناه عنهم اثنين وثلاثين أباً على أن عدد الآباء في نسب الطبقة الحاضرة من العلويين يتراوح بين ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ أباً ، أما السيد عبد الرحمن صاحب المقام بشربون و فاتح بلاد السودان جميعها وناشر الاسلام فيها و ماحي آثار الشرك بها وابنه بصري^(١) المتملك بشربون وابنه حسن المتملك بيانتان من بلاد السودان بجاوى فقد أقر مؤرخو الافرنج بأنهم لا يعلمون أصله من أى قوم وكانت وفاة السيد أبى بكر باشيبان جد آل باشيبان بعد الثمانمائة و وفاة ولده أحمد سنة ٨٧٠ ، وقد كان السيد عمر بن عبد الله بن عبد الرحمن باشيبان العاوى المتوفى سنة ١٠٦٦ ببلقار من بلاد الهند ممن تصدر للنفع والقيام بنفقة الطلبة وكان الملك عادل شاه قد سوغ له خراج جرام موضع قرب بلقار وكان ذلك بعد أن أقام مدة بجوار الملك عنبر ملك الدكن وقد قلنا ان أباه عبد الله توفى بأشى فهل يكون السيد عبد الرحمن فاتح السودان من أحد انسابه ينبغي اتّمام البحث في هذا الموضوع ولنا اليه عودة ان شاء الله تعالى .

أما الكلام في بقية أفاذ السادة العلويين المنتشرة في سومطرا و برنيو و جاوى وملاكا (ملقا) و جزائر التيمور فيطول ولا تزال غالب انسابهم محفوظة وان كنا نخاف الآن ضياع أنسابهم وآدابهم وعوائدهم وسائر مميزاتهم اذا طال نومهم ولا سيما وقد سرت العجمة الى أكثرهم ودب داء التفرنج العضال الى كثير منهم ولا قوة الا بالله .

وقد أهدت الى جريدة حضرموت الغراء ما جاد به اخوانا العلامة عمر بن أحمد ابن سميط العاوى قاضى زنجبار الآن عن بيان نسب السادة المعروفين بأل بته قال حفظه الله : من أولاد شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم عدد بلامو ومباسه وزنجبار ويدعون بأل بته ، من الموجودين الآن منهم بلامو سالم بن عبد الرحمن بن أبى بكر وهذا هو الملقب بيته لكونه ولد بها وهو ابن أحمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن أحمد بن أبى بكر وهذا هو أول من طلع من حضرموت وهو ابن عبد الله بن شيخان .
ومن أولاد شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم عدد بلامو وزنجبار

(١) بحرفه الجاويون فيقولون بصريان

لا ينسبون الى أبي بكر بته ، من الموجودين منهم الآن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن مجتمع مع أبي بكر بته في عبد الرحمن بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الله بن شيخان بن حسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم .

وأما أولاد علي بن أبي بكر السكران فمنهم عدد بلامو وسيوى ويدعون هناك بالآل السقاف ، ومن الموجودين منهم الآن بلامو عمر بن محمد بن عمر ينتهي نسبه الى عبد الله ابن عيدروس بن عبد الله بن عيدروس بن حسين بن محمد بن عمر بن حسين بن الشيخ علي بن أبي بكر السكران ، وما تقرر يعلم ان آل بته هم من ذرية شيخان بن حسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم لا من ذرية علي بن أبي بكر السكران كما تبادل الى الذهن ، وبته هي من البلدان الجنوبية (بافريقية الشرقية) الواقعة في عرض ٢ ر ٢ وطول ٤٠ ر ٦٣ كانت في الزمن الغابر معمورة بالعلوم والعلماء وأما اليوم فليس بها أحد من يشار اليه اه فنقدم شكرنا لأخي السيد عمر وزجوه أن يمن علينا بشئ من وقته الثمين ويطلع ما جاء في الجزء الاول من حاضر العالم الاسلامي صفحات ٣٦٦ و ٣٦٧ و ٣٨٤ و ٣٩٠ وما بعدها من أسماء سلاطين هنزوان وانقيزيه وترتيبهم وسلسلة أنسابهم فانه أقدر الناس على حفظ ذلك والبحث عنه أبقاه الله ذخيرة للمسلمين والاسلام .

وقد آن لنا أن نذكر معلومات مهمة عن شاهد عيان خير تردد الى ماداغسکر وجزائر القمر منذ خمسين سنة وهو الشيخ محمد الكلالي الشهير فقد أبلغني بعض اخواني انه لقي الشيخ محمد المذكور ليلة في بتاوى في احدى ليالى شعبان سنة ١٣٤٤ مع جماعة من الاخوان وتحادث معه في المقالات التي نشرتها جريدة حضرموت الغراء فافضى اليه بالمعلومات الآتية وقد كتبها عنه ذلك الاخ واستأذنه في نشرها فاذن له قال : (مداغسکر) جزيرة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات والغلال يسكنها شعبان عظيمان من شعوب البشر أحدهما يعرف بالسكلافا (بفتح السين والكاف) وهم على سواحل الجزيرة وأطرافها وسحنتهم أشبه شئ بسحنة العرب وكانوا قبل احتلال فرنسا لمداغسکر يكتبون بالحروف العربية واللغة العربية ويزعمون أنهم عرب ، ولكنهم ليسوا بمسلمين ، ثانيهما البلامبو ويقال لهم أيضا الهوته (بضم الهاء) وهم أشبه الناس بالملايو ولقبتهم محرقة عن لغة الملايو وأعدادهم مركبة من أعداد الجاوى والسوندا والملايو وهي ريكي . ديوا . تيلو . ايفت .

ديمي شيتو . فيتو . والو . سيوي . فولو . ويسمون الشراع لاي . والصدر . دا . والتمساح
بوي ، فهذا كله محرف عن شبهه من لغة الجاويين والسونداويين والملايو وهو سيجي .
دوا . تلو . اوفت . ليمو . فيتو (صحيحة غير محرفة) أولو . سغو ^(١) سفوله دادا . لايا .
بوايا وكانوا رجال حرب شجعانا وتتجند نساؤهم للحرب ويقاتلن بشجاعة وبسالة نادرتين
قال وقد رأيت جنداً من نساءهم يقاتلن الفرنسيين متوشحات وتمنطقات بمناطق رصاص
البنادق قال : ولقد كنا مرة في مرسى مجنقا (بكسر أوله وفتح ثانيه) في سفننا وقد كومت
غلال الارز والذرة على الساحل كأنها الجبال أعدها لمجيء التجار وقيام السوق فلم نشعر
الابمركب حربى فرنساوى قد وصل الى المرسى وأمرنا بالخروج منه فخرجت السفن كلها
فدنا من البلدة وضربها بالمدافع فأحرقها وأحرق غلالها حتى اذا تركها جحيا تسعر عاد
ادراجه والنار تأكلهم وتأكل بيوتهم وغلالهم . أما الجزر الرابع فهذا ترتيبها من الشمال
الى الجنوب . انقيزجه موالى (بضم الميم وفتح الواو بعدها ألف ولام مكسورة)
هنزوان . ميوتا (بيم مكسورة فياء مشددة مفتوحة فتحا غير محقق فناء بعدها ألف)
أما انقيزجه فقد أدرك بها سلطانا من آل الشيخ أبى بكر بن سالم العلوى خرجته
فرنسا بعد ان وقع في حبالها بعد سنة ١٢٩٩ تقريبا فسار منها الى ميوتا وأقام بها حيناً
فلم تطب له فانتقل الى مداغسكر الى بلديقال له سلالا (بفتح السين) فلم تطب له أيضا فسار
عنها الى زنجبار ومنها الى المسكلا ساحل حضرموت . ثم خرج الى سيوون من وادى
حضرموت ونزل عند الحبيب العارف بالله على بن محمد الحبشى العلوى وقرأ عليه مدة في العلوم
النافعة ثم بعد مدة احتاجت اليه فرنسا فأرسلت مراكبا حريا الى المسكلا وطلبت من هناك
وأعادته الى انقيزجه ملكا كما كان . ومن كبار ذوى النفوذ سيد من آل الشيخ أبى بكر
العلوى فى شيله (بفتح أوله وثالثه وسكون الياء) وكان يسمى مكه بريكى ، قال وهؤلاء هم
الذين يعرفون بالآل بته لأنهم نزلوا أول دخولهم الى افريقية الشرقية ببلد بته وهى بساحلها
الجنوبى وهم يدعونهم (بانا مكه بريكى) ومعنى بانا سيدى .

(١) العين على هذه الصورة تلفظ في لغة الملايو والسوندا غينا مشوبة بفتة واضحة وتقط بثلاث قط بدلا
من نقطة واحدة وهكذا ما تقدم من أسماء البلدان الملايوية والجاوية مثل فكلوغن فحقيقة رسمها
فكلولفن فليفس على ما ذكرناه مالم نذكره

وأما موالى فسلطينها السادة آل القدرى (١) فنتياتق (٢)

قال : وأما هنزان فاردك بها سلطانا من العلويين يسمى السيد عبد الله وكان أعمى وكان عنده عدد من فبريكات السكر ودخلت فرنسا هنزان على عهده وقد احتلتها في حدود سنة ١٣٠٠ ثم تولى بعد السيد عبد الله الأعمى صاحب هنزان السيد علوى ويسمونه منيو علاوى (٣)

وأما ميوتا فهى من أغرب الجزائر وذلك أن الله قد أحاطها وسورها بسور حجرى خلقى يفصله عن الجزيرة خليج مستدير بها فكأنها قد تسورت بسوارين من فضة وزبرجد أو كأنها دارت بهادائرتان من ماء فخر ثم وراء ذلك البحر وليس لهذا السور الطبيعى الخلقى الا منفذان متقابلان ويوجد فيها قصب السكر مثل هنزان ، وقد أدرك بها السيد عمر من آل الشيخ أبى بكر وكان علما فاضلا قال دخلت عليه فوجدته محاطا بكتبه العلمية من كل ناحية وهو فى قسم الجزيرة المسمى مسفيرا (بكسر الميم وفتح السين والفاء المشددة) والقسمان الآخران فسانزى (بفتح فالف فنون سا كنة) وميو (بيمين مفتوحين وياء مشددة مضمومة) ويوجد بانقيزجه كثير من بنى يعرب وبنى نيهان أهل عمان قد سكنوها وهم من ذوى الثراء بها ، وكان لبنى نيهان بها بلد تسمى مويرا (بضم ففتح فسكون) وكانت ولادة السيد العلامة المحقق الشاعر الناثر قاضى زنجبار أحمد بن أبى بكر بن سميظ العلوى المتوفى أوائل العام الماضى بانقيزجه .

وقد ذكر الشيخ محمد السكالى من أحكام فرنسا الجبروتية ما يعرفه كل أحد وان تجاهله المستأجرون الذين يصفونها بناصرة الأمم الضعيفة والام الخنون ! اه فنشكر الشيخ محمد على ما أفادنا به من ذلك وقد ضبط موالى كما تقدم وهى فى كتب الانساب عندنا مولاي وكذلك ذكرها فى نهاية الارب للنويرى فانه ذكر جزيرة القمر قال وتسمى

(١) قد علم القارى أنهم أبناء عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد الشهرى بجمل الليل وآل القدرى سلاطين

(٢) فتيانه هكذا ينطق بها العرب وهو الصواب فان قاعدة الملايو أن يكتبوا الهاء والمهزة المتطرفة فى لغتهم قافاً وينطقوا بها همزة فلما عانى لغتهم الأوريدون قرأوها قافا فوق من أجل ذلك خبط فى الأسماء واللغة الملايوية طويل الليل ، تقدم ذكرهم م أبناء عمهم يجتمعون معهم فى محمد جمل الليل

(٣) منيو بلغتهم هو السيد وعلاوى محرف عن علوى

جزيرة ملای و ذکر من بلدانها کیدانه وملای و غیرها راجع الجزء الاول صفحه ٢٤٢ منه فلعل اسمها تحرف على طول الزمان .

وقد استدرک علينا الشيخ الکلالی اهمالنا آل النضیر من انفاذ السادة العلویین بمقدشوه وقد صدق فی ذلك وظهر لنا اننا أغفلنا غیرهم أيضاً کآل بافرج وآل علی لالا وآل الحداد وآل البار و غیرهم .

فأما آل النضیر فهم من آل عم الفقيه ومنهم بمقدشوه عدد ليس بالقليل وعدد بسورت من بلاد الهند وهم بنو محمد النضیر بن عبدالله بن عمر المعروف بابن الصنہجیة (١) وهذا هو الملقب أحر العیون أيضاً ابن عبدالرحمن المعروف بصاحب مسجد بابطینة (٢) ابن أجد بن علوی بن أجد المتوفی سنة ٧٢٠ بن عبدالرحمن بن علوی المتوفی سنة ٦١٣ وهو عم الفقيه المقدم ویکنى به فیقال عم الفقيه بن محمد صاحب مزباط الخ النسب المعروف ویجتمعون هم وبنو عمهم آل هاشم فی أجد بن علوی المذكور وآل باهائتم منهم عدد ینجر (برنیو) وسیلان وقد دخلت العجمة فی بعض أسماء آل النضیر بمقدشوه فانك تجد فی أسماءهم عددا من أسماء اعتاد البربر (الصومال) التسمية بها مثل حرمین . نور . سعاده دونی . موجود . منیا . مبانی . مقالو . ودخول العجمة فی الأسماء آخر حلقة تنقطع بها صلتهم بماضیهم ویتم معها اندغامهم فی غیرهم واطحاء رسومهم ، وأما آل الحداد فمنهم بمقدشوه آل عبدالله بن عمر بن محمد بن عمر بن علوی بن محمد بن أجد بن عبدالله بن محمد بن علوی ابن أجد الحداد بن أبی بکر بن أجد بن محمد بن عبد الله بن أجد بن عبد الرحمن بن علوی عم الفقيه .

وأما آل علی لالا فهم من آل عم الفقيه أيضاً ومنهم هناك آل أبی بکر بن علوش ابن نور بن أجد بن علی بن لالا ومنهم آل خلف بن نور بن أجد بن علی لالا وهو ابن أجد بن حسن الطویل بن محمد بن عبد الله بن أجد بن عبد الرحمن بن علوی عم الفقيه ، وأما آل بافرج فیرجع نسبهم الى فرج المتوفی سنة ٨٧٢ بن أجد بن محمد بن عبدالله بن

(١) أمه من الصناهجة قبيلة من حمير بمحضرموت كانت لهم قارة الصناهجة المعروفة هناك وكان يضرب بها المثل فی المظم فیقال أعظم من صناهجة
(٢) اسم مسجد مشهور بتریم هو الذی بناه

أحمد بن عبد الرحمن بن علوي عم الفقيه ومنهم هناك نور ومحمد وأحمد بن عثمان بن محمد ابن أبي بكر بن نور صادق بن أحمد بن صادق بن أحمد بن نور بن سعد الدين بن محمد بن شيخ بن محمد بن عثمان بن أحمد بن شيخ بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن حسن بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن علوي عم الفقيه ومنهم أناس بقلب وهله ومقدشوه وبها أناس من آل البار وغيرهم فلا نطيل بذكرهم .

ومما ذكرناه يظهر ان آل النضير وآل بافرج من أقدم من رحل الى افريقية من العلويين الذين تديروها فان لهم هناك ماينيف على ثلاثة قرون ، أما من تردد اليها ولم يتديروها فنذ ما يناهز سبعة قرون ، وأما سلطان انقیزجه الذي ذكر الشيخ محمد السكالي خروجه الى حضرموت فقد ذكرناه سابقا وهو أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر ذكره في كتاب شمس الظهيرة وفي شرح الصدور .

ثم ان لنا الى ذكر حاضر العلويين ومستقبلهم لعودة بعد عودة كلما سنحت الفرصة ان شاء الله تعالى .

وانى لأشكر من صميم فؤادي جناب الأمير الشهير والعلم الساطع المنير على ما أظهره من العناية بمقالاتي الملققة وأسأل الله له عمرا مديداً وخيراً مزيداً وتأيداً على ما وقف نفسه عليه من النفع العام للمسلمين والاسلام والتمس منه أن لا يرضن على إخوانه المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بأمثال تلك الينبات الواضحة والهدايات الصريحة وان يزيدنا من ذلك ما وجد الى الزيارة سبيلا فلقد بين لنا من تاريخ حاضر الاسلام وحال أهله في مختلف الأقاليم ما كشف به عن أبصارنا الغشاوة وأزاح به عن عقولنا حجب الجهالة فجراه الله عن الاسلام وأهله خير الجزاء .

ثم انى أحت أخواني المسلمين على اقتناء ذلك الكتاب أعنى كتاب حاضر العالم الاسلامي والاطلاع على ما فيه مما لا يستغنى عن معرفته من يهيم مستقبل المسلمين والله الموفق والمعين .

محمد بن عبد الرحمن

بتاوى :

الامير محمد بن عبد الكريم

زعيم الريف

للشيخ

لا نبالغ اذا قلنا ان الأمير محمد بن عبد الكريم ، متولى كبر الثورة على الأسبانيول فى شمالي سلطنة المغرب ، هو فى التوة الحاضرة ، بطل الاسلام ، وأسده الضرغام ، والعلم المفرد الذى سار بذكره القاصى والدانى والخاص والعام ، لا بل اذا نظر الناس بعين الانصاف يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الأمم لا بين المسلمين وحدهم .

وذلك أن العبقريّة لا يجب أن تحدّد على نسبة الأعمال التى يقوم بها الانسان من حيث الأهمية بل على نسبة الأعمال من حيث الوسائل التى يملكها عند العمل . فإذا نظرنا الى رجل عظيم قام فى دولة عظيمة ، وبسط يده الى ما حوله ، فامتلاّت بالوسائل والأسباب الكافلة بحصول المرام ، الواقعة على طرف الثام ، ففاز بالغبلة على العدو ، أو بآتمام مقصد من المقاصد العالّية ، فليس فى ذلك من دواعى الاعجاب ، ما فى عمل رجل عظيم ، اذا بسط يده وجدها خلاء من كل شئ ، سوى بعض المواهب الفطرية ، واذا نظر فيما حوله ، لم يجد من جميع أسباب القوة سوى قوة الارادة . لهذا لا نجد فى شخصية « المارشال فوش » قائد جيوش دول الحلفاء ، الذى حاز الغلبة القاطعة فى أعظم حرب عرفها التاريخ ، ولا فى شخصية « المارشال هندنبورغ » ، الذى وقف فى وجه قوى تفوق قواه عدة مرات مدة تزيد على أربع سنوات ، ولا فى شخصية الغازى مصطفى كمال ، الذى أحيى الدولة التركية بعد أن أرادت انكثرة أن تطويها طىّ السجل للكتاب ، ولا فى شخصية لنين ، الذى نلّ عرش أعظم قيصرية فى العالم وحل محلها بحكومة صعاليك مغاليس لم يسبق لها مثيل على وجه الكرة ، ما نجده من حقيقة الرجولية ، والبطولة ، وجد الفضل ، والحصل ، التى فى شخصية محمد بن عبد الكريم الريفى الذى تغلب على دولة اسبانية وأجرها على الجلاء عن الريف .

فان « فوش » عندما انتصر على جيوش الألمان ، كانت تحت قيادته نحو خمسة عشر مليون جندي تامة العدد والاعتاد ، وراءها سبعة وعشرون دولة هن أكثر سكان المعمور وأوفرهم ثروة . وان هندنبورغ عندما توافق مع هذه السبع والعشرين دولة مجتمعة ظهرة واحدة على دول أربع لا يساوين ربعها ولا خمسها ، انما كان على رأس الجيش الألماني الشهير أحسن جيوش العالم دربة ونظاماً واتقان عدة . وان مصطفى كمال نهض بأمة قديمة العهد بالاستقلال ، حديثه العهد باتساع السلطنة والبسطة ، مفطورة على حب الغزو والقتال ، مالكة لكثير من أسباب الدفاع ، قد أراد لويد جورج أن يحرمها كيائها السياسي دفعة واحدة ، وأن ينزلها من السنام الأجدد الى الحضيض الأوهده ، ورمائها بدولة صغيرة كاللدولة اليونانية ليست بكفه للترك في قوة ولا منعة ولا عدد ولا نخوة ، فتمكن مصطفى كمال ورفاقه بحسن قيادتهم واستبسال أمتهم التي عرض عليها الموت صلحاً ، فأثرت الموت حربياً وبتراخي ميادين القتال على جيش نظير الجيش اليوناني مدة سنوات متوالية أنقضت ظهره وأوهت صبره ، فقهر مصطفى كمال العدو وأخرجه من الأناضول ، وأخذته أخذاً عزيزاً ، وأعاد لتركية وجودها السياسي الذي لم يكن من السهل نزعه منها . وان لنين كان يمثل ألوفاً ومئات ألوفاً من الصعاليك الذين كانت لهم جمعيات واشجة العروق في جميع البلاد ، على حين قد ضرست الروسية الحرب الكبرى تضريراً أتي فيها على الحرث والنسل ، وانشب فيها أنياب الجوع ، فتهيأت فيها الفرصة لثل أعظم عرش بنيت قوائمه على الظلم والغشم ، وامتهان الشورى ، وتقديس ارادة الفرد ، والعمل باهواء اللذات والمودات ، والعبث بحقوق الشعب ، فكان أعظم عامل للانقلاب الهائل هو رد الفعل ، وأقوى نصير للنين على تأسيس الحكومة الشيوعية هو ما ينشأ من تجاوز الحد من تحول الأمر الى الضد ، سنة الله في الخلق وما لسنة الله من مرد .

أما محمد بن عبد الكريم ، فانه قد تغلب على اسبانية ، وهزم جيوشها عن الريف ، وهو بالقياس الى اسبانية بمثابة واحد الى أربعين في العدد ، وأقل من ذلك في العتاد . وهذا تقدير قد يكون فيه نقص أو زيادة ، ولكنه على كل حال لا يخرج منطقة الريف بجملتها عن هذه النسبة . فقد قيل ان عدد سكان الريف الذي تدعى اسبانية « جايته » هو نصف مليون نسمة ، وقيل انه ستمائة ألف ، وقيل انه سبعمائة ألف وقيل بل هو لا يزيد

على أربع مائة ألف . وليس للريف احصاء محدد ، ولا لسلطنة المغرب كلها احصاء وثيق ، وإنما الذي نسمعه أن الريف هو سبع السلطنة المغربية ، فإذا كان المغرب سبعة ملايين فيكون الريف مليوناً ، اللهم إلا إذا قيل ان رقعة الريف أقل سكاناً من سائر المغرب بالنسبة الى المساحة . فلهذا لم يكن في الريف مليون نسمة . أما من جهة الثروة فلا ثروة في هذه المنطقة وفي الحقيقة لا ريف في الريف^(١) وسفوح جبال الريف لا تجرى فيها الأنهار كما في سفوح الجبال الأخرى كالأطلس مثلاً . وأعظم مدن الريف هي سبتة ، ومليلا ، وهما من المدن الإسبانية من القديم ، ومنها تطاون ، والعرائش ، وكلها لأهمية لها في جانب مدن المغرب . فلهذه الأحوال والظروف كان بدعا لا ينظر في التاريخ ، وسراً تحيرت فيه العقول ، ان يتمكن ابن عبد الكريم من طرد الإسبانيول بعد حرب ضروس استمرت عدة سنوات ، وان يخرج من هذه الهيجا ظافرا ، في عصر لم تتعود فيه أوروبا أن تجد أمة اسلامية غالبية على أمة مسيحية ، ولا ان ترى أمة متبدية أو غير متمدنة ظاهرة على أمة متمدنة راقية . لاسيما وهوة الفرق بينهما عميقة جداً في العدد والعدد . فان مملكة اسبانية عدد سكانها ٢٢ مليوناً ، وهي مجهزة بجميع أدوات الحضارة العصرية ، وجيشها معدود من الجيوش المنظمة التي لا تقل عن سائر الجيوش الأوروبية دربة ونظاماً ، وجودة سلاح ، وتفنن ضباط . وقد سافت اسبانية الى ميدان حرب الريف فيقال جرارة . كانت تبلغ مائة ألف جندي أحيانا و ١٥٠ ألفا الى ٢٠٠ ألف . وقرأت ساعة تحرير هذه السطور في جريدة « الجورنال » الباريزية ، رسالة لمكاتب هذه الجريدة في الريف ، يصف بها « الخزامي » مركز الأمير محمد بن عبد الكريم ، ويذكر فيها ملاقاته معه . وقد ورد فيها في موضع الدهشة من أمر هذا الرجل « انه هو الذي قهر جيشاً عسريا عدده مائة وخمسة وسبعون ألف جندي اسبانيولي » . فكيف كانت الحال غرب الريف هذه ، وظهور الريفيين فيها ، هما من بواهر الآيات وخوارق العادات ، ومحمد بن عبد الكريم رجل أخذ مكانه من التاريخ وأخجل جميع عظماء الرجال ، بعظمة عمله ، وصغرهم في أعين أنفسهم ، حتى اذا ما أخذت أحدهم هزة بأو وعجب ، فتذكر عظمة عمل ابن عبد الكريم ، مع فقدان جميع الوسائل التي لا يتأتى

(١) الريف في اللغة هو ما قارب الماء من الأرض ولذلك يطلق أحيانا على الساحل وعلى المكان الذي فيه المياه والحضرة . والريف هو أيضاً الحصب والسعة

الظفر بدونها، رأى نفسه غير عظيم بجانب ذلك العبقري الكبير. ولا جرم أن حرب الريف ومقاومة السنوسيين في طرابلس، قد رفعت من شأن الاسلام، وحثت أوروبا على أن تحسب له حساباً، ولا تسترسل في الاغترار الى قوتها، والاحتقار للامم الاسلامية التي كانت تحسبها بتجردها من السلاح الحديث، بما قد انطوى بساطها. فلوربا اليوم. ولا سيما دول الحلفاء « انكلترة وفرنسا وايطالية » صارفة جد اهتمامها الى منع السلاح عن الأمم الاسلامية بجميع الطرق، ومراقبة سواحل افريقية، وآسية وامضاء المعاهدات والمواثيق الدولية بعدم بيع الاسلحة الى الأمم التي « مدينتها من الدرجة الثانية » تريد أن تعبر بذلك عن الأمم الاسلامية ولم يذهب قلق هذه الدول بمجرد منع الآلات والاعتاد الحربية عن هذه الأمم، حتى قام رجال سياستها يتشاورون ويدوكون في عمل ما يسمونه « جبهة » بازاء الاسلام، على أثر تسحب الجيش الاسبانيولى مدحوراً عن الريف، وثبوت استقلال الحكومة الريفية تحت امارة ابن عبد الكريم. ففرنسا قامت وقعت ولم تكتم جرائدها كونها لا تطبق استقلالاً اسلامياً بجانب المغرب، والجزائر، وتونس، وعلى ساحل البحر المتوسط. وانكلترة، خشيب مغبة ظفر الريف في استئساد الاسلام شرقاً وغرباً، وصرورة قصة الريف مثالا يحتذى عليه، فتهيج له الخواطر في مصر، وبلاد العرب، الى الهند. وايطالية، واقعة مع طرابلس في حيص بيص، فلا تزيد أخبار الريف عزائم الطرابلسيين الاثباتاً.

وقال الكاتب سبنسر برايز على أثر عودته من زيارة الأمير ابن عبد الكريم في حديث له مع مكاتب جريدة منشتر غارديان :

« ذهبنا برأ من طنجة متنكرين بملابس عربية فاجتزنا المناطق الجبلية وأول ما أدركناه هو أن بلاد الريف وعرة المسالك، كثيرة الأودية والمرتفعات الشاهقة، وهي شقة من الارض يبلغ طولها نحو ثلاثمائة ميل، وعرضها نحو سبعين ميلاً الى الشرق من طنجة، وهي أوعر الأقطار التي رأيتها في حياتي. وليس في داخليتها طريق معبدة ما، اللهم الا طريقيان ينشئهما اسرى الاسبانيين الآن قرب اجدير، وقد شأ الاسبانيون طريقاً عسكرياً من تطوان الى ششوان ولكن لا يمتد من هذه الطريق فروع الى أماكن أخرى .

« أما نحن فأتنا ذهبنا الى أجدير على ظهور البغال ، وكان يرافقنا خسون خيالا من العرب وقضينا عشرة أيام في السير من طنجة الى اجدير . وعند عودتنا ، ساءت المسالك في سبيلنا لأن الأمطار هطلت والأودية فاضت بالأنهر ، فصرنا نتربص في السير ريثما يهدأ ثوران الطبيعة .

« وبما لحظناه ، أنه على الرغم من الخلاف الذى كان متأسلا بين القبائل ، تمكن عبد الكريم من توحيد نزعاتها ، وجمع شتاتها ، وضم أطرافها ، فأصبحت كتلة واحدة تأتمر بأمره وتحارب الاسبانيين الى جانبه .

« وقد ذهبنا الى سنادة ، حيث مركز الاسرة الشريفة ، فاستقبلنا سيدى هنيديو الوزانى رئيس هذه الاسرة ، وأدبت لنا المآدب الشائقة حسب عادات القوم ، حتى ضقنا ذرعا بكرم الوفاة ، وحسن الضيافة . وزرنا أماكن لم يزرها أوربى بعد ، مع أنها لا تبعد عن جبل طارق سوى ٣٠٠ ميل .

« أما ما قيل عن ان الريفيين يسيئون معاملة اسرى الحرب ، فقد عرفنا بالاختبار أنه كذب صراح . فالاسرى يعاملون معاملة حسنة ، ويستخدمون فى انشاء الطرق . ولا صحة أيضاً لما يقال عن ان الاسبانيين يكثرون من استعمال الغاز الخناق ، فهم رجال قتال مملوون شهامة . ولا شك أنهم لا يجدون بدأ من القاء القذائف والقنابل على القرى ، لأنه لا يمكن التفريق بين جنود الجيش الريفى وأفراد الأهالى ، ويذهب كل فرد من الأهالى الى الانضمام للجيش والمقاتلة تحت لوائه عند مايتيه الدور .

« وأما ما يقال عن المركز العسكرى ، فان الاسبانيين قد عمالوا بانسحابهم عملاً باهراً ، كان معرضاً لكثير من المصاعب والمشقات . فقد انسحبوا من عدد من المراكز المتفرقة انسحاباً منظماً ، وعسكروا على خط تطوان — فندق الحصين . فاذا أراد الريفيون مواصلة القتال فانهم سيصطدمون بهذا المركز المنيع ، وهم غير مسلحين بغير البنادق والمدافع التى أخذوها من الجيش الاسباني ، ومعظمها من بندق موزر ومدافع شنيدر التى تجرها البغال .

« والريفيون فى حاجة عظيمة الى المساعدة الطبية . نعم انهم لم يصابوا بخسائر جسيمة ، وليس فيما بينهم أمراض وافدة عمومية ، ولكن جميع رجالهم يذهبون الى الحرب

بالدور ، حتى ان البلاد كلها تحارب . وليس في الريف كله طيب ما ، ولا عقاير صحية ما عدا القليل الذي أخذناه نحن معنا ، مرسلا من جمعية الهلال الأحمر البريطانية ، فالحاجة عظيمة جداً الى المساعدة الطبية .

« والريفيون شعب من الزراع والرعاة ، وهم يعيشون في قرى تبنى منازلها باغصان الأشجار وبالطين .

« ويعزى معظم نجاح عبد الكريم الى مقدرته على بسط سلطته على جميع القبائل . فاستطاع بذلك أن يزيل من بينها الضغائن والخصومات . والريفيون يجيدون الرماية والخطط التي يسلكونها في مقاتلة الاسبانيين هي مهاجمة المراكز المنفردة ، حتى يتعذر على الاسبانيين أن يحتفظوا بها . أما الآن فقد تبدل الموقف أمامهم بعد انسحاب الاسبانيين التام من تلك المراكز ومرابتهم على خط واحد . » اه .

والحاصل ان المستعمرات هي سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض ، فلا تجد قطرا تحت استعمار أمة أوربية قامت فيه ثورة ، الا وضعت جميع الدول الاستعمارية أيديها على قلوبها الواجفة ، ترجو أن ينتهي الخطب بظفر الدولة المستعمرة ، حتى لا تدب الثورة الى المستعمرات الأخرى ويتبع بعضها اثر بعض . والاسلام في نظر أهل أوربا أمة واحدة ، مهما تفككت اجزائه ، وتباعلت أقطاره ، وقد شبهه المارشال ليوتى معتمد فرنسا في المغرب « بصندوق رنآن » أي اذا ضربت عليه برأسه رن الى كعبه . فسياسة الدول المستعمرة هي سياسة من يعلم شدة ارتباط الاسلام بعضه ببعض ، ومن يأخذ أخذه لمنع هذا الارتباط بقدر الامكان ، فان لم يتأت منع هذا الارتباط تماماً — وكيف يتأتى وهو مع الضغط الأوربي والعسف الاستعماري لا يزداد الا شدة — فعلى الأقل العمل على أن لا تظهر له نتائج فعلية . ولقد أصيب المسلمون في هذه السلسلة الاستعمارية بشد مما أصيبوا به في كل المواقف ، فانك اذا طالبت باستقلال وطن متمدن راق مستحق للاستقلال ، مثل مصر ، لم تلبث أن تسمع أن الدول التي ليس لها شيء بمصر ، والتي تدعى بحجة أهل مصر ، لارتناح الى قيام دولة مصرية عزيزة ، خشية عدوى الاستقلال المصري لسائر المستعمرات . ومثل ذلك سورية ، ومثل ذلك تونس ، ومثل ذلك العراق . ومن شواهد ان (الوفد السوري) الذي محرر هذه السطور من أعضائه كان يراجع البعثة الاسبانية في جمعية الأمم بمدينة جنيف ، في أمر

استقلال سورية ، فكان جواب المندوب الاسبانيولى لزملائي الذين لم أكن معهم في ذلك اليوم : « ان اسبانية لاتقدر أن تروج هذا المبدأ لأنه مخالف لمصلحتها ، وعندها من داهية الريف ما يكفيها » . فانت ترى ان الشام والريف حلقتان من سلسلة . لابل مصر ، وفلسطين ، والعراق ، والهند ، وزنجبار ، والسودان ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس الخ كلها . حلقات من نفس السلسلة . وما اجتهدت دول الحلفاء أن تقضى على الدولة العثمانية التي كانت تحمل الخلافة الاسلامية ، الا على خوف انها قد تكون السبب في فك هذه السلسلة . فاولت الدول المذكورة أن تجعلها من جملة تلك الحلقات ، وتضمها للسلسلة ، توثيقا لسلكها ، حتى كان ذلك هو السبب الأعظم في الغاء الأتراك اسم الدولة العثمانية ، والاكتفاء باسم « تركيا » وابطال الخلافة الاسلامية من عندهم ، فراراً من الوقوع في هذه السلسلة . ولقد بلغ التضامن الاوربي الاستعماري بازاء الاسلام ، ان صارت حكوماتهم تخاطب بعضها بعضا في المسائل الاستعمارية كأنها امور مشتركة بينها . ومنذ أيام جعنى القدر بأحد رجال الحكومة الاسبانيولية ، فتجاذبنا أهداب القضية الريفية ، ولما كنت أنصح لهم بالصلح مع زعيم الريف على قاعدة استقلال هذه المنطقة ، أقسم لى أن اسبانية تود من أعماق قلبها مصالحة هذه الأمة والاعتراف باستقلال الريف رسمياً . ولكن فرنسا وانكاثرة تمنعنا من هذا الاعتراف ، وتستظهران عليها بالعاهدات المشتركة . فترى اسبانية من هذه الجهة متحيرة في أمرها . فهى قد أخذت الريف الى الساحل ، ولكنها كما لاتقدر على امضاء صلح رسمى مع عبد الكريم لاتقدر أن تستمر على محاربه . وبما لامشاحة فيه ، أنه لولا خشية فرنسا مغبة حرب الريف بأنها تفتح عليها باب ثورة في المغرب يتعذر عليها سده ، وتبتلع من النفقات الباهظة ما لا قبل لها به مع ماهى عليه من الارتباك في أحوالها المالية ، لكنت في هذه الحزة الحرب مشتعلة بينها وبين الريف ، وكانت طيارات الجيش الفرنسى الآن تمطر قرى الريف وابلا من الكرات المحشوة بالمواد السامة — لأن الدول تعاهدت على منع استعمال المواد السامة ، والغاز المنق في الحروب الاوربية ، واستثنين من هذا القيد المستعمرات التي تجيز فيها اوربا « المتمدنة » طرق الحرب الوحشية . كما أن الاسبانيول رموا قرى الريف بالغازات السامة ، وقتلوا بها كثيراً من الأطفال والنساء والضعفاء — ولكن فرنسا اجتزأت عن اجتياح الريف كله باقتصاص بعض أطرافه ، وتحصين المراكز

التي على الحدود بين المنطقتين ، والتر بص بعدد الكريم الدوائر ، عاملة على اثاره الريفيين بعضهم على بعض ، وقصم عروة وحدتهم ، مما هو أحد وأمضى أسلحة الاستعمار الاوربي في قتال الأمم الاسلامية .

فقضية الريف حين تحرير هذه الاسطر هي بالمركز الآتي لك تحديده : -

أما فرنسا ، فانها تحصن الحدود التي بين المنطقتين ، وتبني المسالحو والمعازل ، حيطه وراء الحرب التي تنوى اصلاها الريفيين في أول فرصة ، وهي مع ذلك لاتهمل شيئاً من الوسائل السياسية لاسقاط سلطة عبد الكريم ، ومنع تأسيس استقلال اسلامي في الريف ، يكون بحسب زعمها « بؤرة » للجامعة الاسلامية في افريقية .

وأما انكلترا ، فهي في حيرة عظيمة من أمر الريف ، لأنها من جهة ترى اسبانية عاجزة عن المضي في مصارعة أهل الريف ، فلا مندوحة لها من الانكماش في جوار مليلا وسبته في منطقة ضيقة . ومن جهة أخرى تخشى أن فرنسا تفتح الريف في يوم من الأيام فتصير بازاء جبل طارق ، وفي ذلك من الخطر مافيه ، فتود لو استعصى الريف على فرنسا . ولكنها توجس في فوز الريف خيفة نشاط ينبعث في العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وذلك عندها هو الهلاك الأكبر . وقد عولت أخيراً على منع اسبانية من عقد صلح رسمي مع الريف الى أن تكون ازدادت الحوادث جلاء .

وأما اسبانية ، فانها مخضت الريف من أنفها ورفعته من ذهنها ، بعد تجارب استمرت سنوات عديدة ، فلم تعد عليها الا بالخسارة . وقصارى ماتنويه هو الاحتفاظ بمنطقة ضيقة حول مليلا وسبته ، ومنع الريفيين عن الاتصال بالبحر ، أملاً بأن ينفادوا للحكومة الاسبانية تحت تضيق الحصر ، وأن تلعب بينهم أيدي الشقاق ، فتتال اسبانية بحوادث الدهر ، مالم تنله بوسائل القهر . ولذلك تعلن أن منطقة ابن عبد الكريم لم تبرح تحت « حاجتها » (١) .

(١) نصرت (مجلة المجلات) الانكليزية بعددها الصادر في يناير - فبراير ١٩٢٥ ، ترجمة نداء بليغ لأحد أعظم الكتاب الاسبان ، السنيور ايبانيز ، أذاعه هذا في بني قومه في نوفمبر ١٩٢٤ ، بين لهم فيه فضائح الملك الفونس الثالث عشر والحاكم بأمره الجنرال بريمودي ريفيرا ، في سياسة الدولة وفي حرب الريف ، ويدعو هذا الكاتب امته لاسقاط الملكية واستبدال الجمهورية بها . ومما جاء في هذا النداء التقيم المعقد الذي كانت طيارتان مستأجرتان تجوبان آفاق اسبانية وترميان الناس به كراديس ، انه لما قام

وأما ايطالية، فتزعم انه لا حق لفرنسا فيما لو أخلى الاسبانيول الريف أن تجرد زحوفها عليه، وتبت أمره بدون مشورة الدول. ومرادها بذلك ليس أن تأخذ حصة من الريف الذي لو عرضت جرتة على ايطاليا لاعتذرت عن مديدها اليها، وانما هي مساومة تقصد بها الحصول على التعويض في مكان آخر.

وأما العالم الاسلامي، فقد تخلى بأجمعه عن الريف، ولم يفكر في معاضدته بشيء وذلك للأسباب الآتية: —

الأول: انصراف كل من الأقطار الاسلامية الى هم نفسه، والاشتغال بقضيته الوطنية الداخلية. فما كان منها مستقلا تمام الاستقلال مثل تركيا، وفارس، والحجاز، ونجد، واليمن، وافغانستان، تجده مشغولا بلم شعث نفسه، عن اغاثة الريف ولو بما يبيل الصدى. وما كان استقلاله لما يتم، مثل مصر والشام، والعراق أو كان باقيا رهن الاستعمار مثل الهند تجده مشغولا عن النظر الى الريف بمسئلة استكمال استقلاله أو الحصول على الاستقلال الداخلي.

الثاني: الازمة الاقتصادية التي ولدتها الحرب العامة، ولا تزال تفعل مفعولها

شرقا وغربا

الثالث: فنسو الاعتقاد في تركيا، ومصر، وقسم من بلاد العرب، بأن سياسة الاتحاد الاسلامي شيء مضر بالمسلمين، حافظ لأوروبا على التآلب عليهم، ومنعها استقلال ما يرجي استقلاله منهم، حال كون الشعوب الاسلامية لو قامت بصأحة وطنية أو قومية خالية من صبغة الدين، لما وجدت أوروبا باسأ من اعطائها استقلالا. فاما شعور أوروبا بكون الاسلام في وجهها متماسكا بعضه مع بعض، فانه مما يزيد تصميمها على سد كل طريق

ملك أسبانية والجنرال بريودي ريفريا، منذ عدة أشهر، بزيارة البابا في الوايكان، ألقى الملك الاسباني خطابا لدى البابا، ملؤه الغيرة الشديدة على الكتلكة خاصة والنصرانية عامة. ومما جاء في هذا الخطاب، قول الملك: —

«ان اسبانية أيضاً قد تجندت لحرب المسلمين في افريقية حربا لا تنفك عنها حتى تفوز بفرس الصليب في ديار المسلمين، وجعلت اتباع محمد يخنعون له قهراً» وهذا الخطاب لم يرتجله الملك ارتجالا، بل سبق له فأعده في مدريد قبل أن آتى رومية، وكان الأب توريس الجزويتى الشهير بمديريد هو الذى أنشأ وأعد هذا الخطاب للملك.

«العرب»

فرج في وجه أبنائه . وقد زاد هذه العقيدة رواجاً في تركيا ، فشو الدعوة التورانية التي معناها ان الأتراك ينبغي أن يكونوا تركاً في الأول ثم مسلمين في التالي ، بل يذهب الغلاة من التورانية الى محاربة الاسلام بكل الوسائل، لأجل قلع نفوذه لمحو الصبغة العربية من بين الأتراك . كما زاد ذلك رواجاً بمصر مراعاة جانب القبط الذين رأى بعض كبار الزعماء ان ادماجهم الحقيقي في الكتلة الوطنية المصرية ، متوقف على نفص اليد من الجامعة الاسلامية فكانت خطة هؤلاء الزعماء مؤثرة في سياسة الشعب ، لا سيما مع غلو الشعب المصرى في متابعة ذوى الزعامة فيه . ولا تخلو هذه النزعة من البلاد العربية أيضاً ، لا سيما بين الحزب الذى انتفض على الأتراك أيام الحرب العامة ، والذى تحالف مع الانكليز وتمنى فوزهم في الحرب ، بحجة ان الذى ينبغي أن يكون نصب نظر العرب هو القومية العربية ، لا الجامعة الاسلامية ، وان هذه الجامعة توجب نفور انكلترا التى كانت عند هذه الفئة مناط آمال العرب . . . بخلاف ما لو كانت النزعة عربية قومية ، فان انكلترا ترحب بها ترحيباً (١) ولقد خاب ظن هذا الحزب ، وتناقص عدده جداً ، ولكنه مازال يفر من الجامعة الاسلامية مراعاة لانكلترا ، أما فى الماضى فتفة واعتقاداً ، وأما فى الحاضر فخوفاً ورتاء . ولقد كان لهذا الحزب العربى المناوى للجامعة الاسلامية ، اليد الطولى فى حمل الأتراك على نبذها ، لأن التورانيين احتجوا بأنه ان كان العرب الذين ظهر الاسلام بهم وظهروا به ، بدأوا بما كسبه أو امره ونواهيه ، وأخذوا بالسياسة القومية ، ومالأوا الانكليز على الترك ، فالترك الذين لم يكن الاسلام الا دخيلاً فيهم ، أولى بترك ما تركه العرب من جهته والخلاصة أن شيوع هذه المبادئ فى الآونة الحاضرة كان مما صرف الانظار عن مساعدة الريف .

الرابع : ان الاعتقاد بكون نجاح الريفيين موقناً ، وانه لا بد من أن تكون الطائفة الاخيرة لاسبانية . لان المسلمين ، لا سيما المفكرين أو الذين يقال انهم مفكرون منهم ، قد عمهم التشاؤم وفقدوا كل ثقة فى الاسلام ، وصاروا ينظرون الى كل مقاومة اسلامية لسلطة أوربية من قبيل حركة المذبوح تحت السكين . ويقولون ان أوربا نائلة منهم كل مرادها لا محالة ، الى غير ذلك من العقائد السياسية التى زادت الاسلام وهناً على وهن ، والتي كان هؤلاء المفكرون يتبارون فيها اظهاراً لدرجة تعقلهم . وبعد أفكارهم عن الخيالات . . . الا ان مصطفى كمال وعبد الكريم كذبا هذه المبادئ التى كانت سائدة

بينهم وان انهزام الاسبانيول عن الريف غير متعمدين الكرة عليه آخر مرة ، قد انعش آمال المسلمين ، وأثبت لهم عدم استحالة المقاومة الاسلامية للسلطة الأوربية ، بعد ان كان القول بها عنوان التعقل ودليل بعد النظر . وان ظفر عبد الكريم القاطع ، فت في عضد التشاؤم ، وجذب بضعب التفاؤل ، وصاروا يفكرون بمقتضى قول شاعر الجاسة :

قاتلى القوم يا خزاع ولا يلحقكم من قتلهم وهل
القوم أمثالكم لهم شعر في الحرب لا ينشرون ان قتلوا

نعم انهم لا يزالون خائفين على عبد الكريم من فرنسا ولكنهم أيقنوا بأنه يتأقى للمسلم اذا ترحل وقام بالواجب عليه ، أن يصارع الأوربي ويصرعه . فلهجت الألسن لاسيما في بلاد العرب والهند ، بذكر محمد بن عبد الكريم وأجمع الناس على أنه أحق انسان بلقب « بطل الاسلام » ونشرت أخباره الجرائد الشرقية بالاعجاب ، والجرائد الأوربية بالعبء العجائب ، والجرائد الفرنسية خاصة بالتشاؤم والارتياب . وظهرت عند الحزب التوراني من الترك غيرة ونفاسة من عظمة عمل محمد بن عبد الكريم مع قلة وسائله ، فسلوا على ذلك بزعمهم أنه بربرى غير عربى ، وان أهل الريف هم من جنس البربر . ولكن لحظنا أن الأمير محمد بن عبد الكريم يقال له الخطابى وهذا دليل على نسبه العربية ، وسنشرع الآن فى ترجمة حاله اذ أن كتابا فى حاضر العالم الاسلامى ، لا يجوز أن يخلو من ترجمة الامير محمد بن عبد الكريم فنقول :-

لا شك أنه ستنشر فيما بعد سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الريفى وتؤلف كتب على وقائعه ، ومنشأه ، وأصله وفصله ، ويستفيض خبره عند الخاص العام ، ولا يبقى شىء من أمره مجهولا . أما الآن فانتا لا نعرف من خبر نسبه شيئاً نبتا ، وبلغنى أنه قد أخرج أحد الفلسطينيين فى ترجمة الأمير المشار اليه كتابا اطلعت على وصفه فى جريدة « الشورى » التى ظهرت حديثا بمصر ، ولكنى لم أقرأ فيما قرأته نقلا عن هذا الكتاب فى « الشورى » الا نعتة « بالخطابى » ولم أعلم ماوجه فيجوز أن يكون شريفا فاطميا ، ويجوز أن يكون قرشيا ، ولكن لا بد للمتحقق من الاطلاع . فاما ما عندى من المعلومات عنه ، فهو خلاصة أخذتها من فم رجل شريف ادريسى ، يقال له السيد أحد بن محمد الثمان من أشرف فاس وله علاقة ببلاد الريف ، وقد وجدت رواية عن وقائع الحرب تطابق أخبار الجرائد

الأوربية والجوائب الطارئة علينا من تلك البلاد .

قال لى ان السيد محمد بن عبد الكريم الذى هو أمير الريف اليوم هو من بنى ورياغل من تاجرت . و بنو ورياغل هؤلاء هم من القبائل الريفية العانية على الاسبانيول ، ومعهم بنو تثمان ، و بنو ولبشك ، و بنو تافر كسيث ، و بنو توزين ، و بنو سعيد ، (١) و يضم اليهم قسم من بنى الطف ، و بنى بقيوه ، و بنى زرقط ، و هؤلاء هم القائمون بجهاد الريف ، و أكثرهم بربر و منهم عرب ، و يوجد بجانبهم قبائل مثل قلعية ، و المطالسة ، و العبادة ، و كبذانة (٢) ، قال : و عدد الجيش الدائم الذى يقاتل الاسبانيول هو ٣٠ ألفاً ، و إنما المقاتلة فيه تحضر بالناوابة ، كل ثلاثة أيام النوبة على قسم . و كثيراً ما قرأت فى الجرائد الأوربية أن الجيش الريفى لا يتجاوز ٣٠ ألفاً ، مع أنه يناوئ من ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف جندى منظم من الاسبانيول . و الأمير هو فى نحو الثالثة و الاربعين من العمر ، كان قاضياً عند الاسبانيول فى مليلا ، و كان تحصيله للعلم بمادريد ، و كان الاسبانيول يحبونه جداً ، و لكن وقعت له واقعة فى مليلا تحامل عليه بها الاسبانيول ، فخاصمهم ، فالتقوا به فى السجن ، ففر منه بان رمى بنفسه من النافذة ، فانكسرت فخذه و احتمله الاسبانيول الى المستشفى حيث بقى الى أن انجبر كسره ، فلاطفه الاسبانيول و جلوه على البقاء فى منصبه ، و لكنه كان فى نفسه قد آلى أن يفارقهم و يلحق بقومه . و بما هو متواتر أن سبب خصامه مع الاسبانيول ، بعد أن تربى و نشأ و تولى القضاء عندهم ، هو ما كان يراه من عسفهم ببناء قومهم ، و احتقارهم للمسلمين ، و معاملتهم اياهم بما يعامل به السيد عبده أو بما يعامل به سائر المستعمرين الأوربيين أهالى مستعمراتهم . و قد اطلعت فى جريدة « الأومانيتيه » الاشتراكية الفرنسية ، على فصل لكاتب اشتراكى اسبانيولى ، بعثت به الى جريدة « السياسة » بمصر فعرّبه و نشرته ، فان صح جزء من الأخبار الواردة فيه من طغيان الاسبانيول و تعديهم على حقوق المسلمى ، و خبطهم اياهم بعضا القهر الى تجاوزهم على أعراض النساء ، كان كافياً لأشعال هذه الثورة عند شعب مثل هذا الشعب الباسل ،

قال لى الشريف الذى روى لى خبر محمد بن عبد الكريم : و كان الاسبانيول يومئذ

(١) و سلف هؤلاء من الاندلس

(٢) هؤلاء كانوا فى البداية مذبحين

في حرب مع أهالي الريف ، على حسب العادة باستمرار الحروب بين الفريقين . وكان لا يقدر مغربي على الخروج من مليلا الا باجازة من الحكومة الاسبانية . وكانت هذه الحكومة قد عهت باعطاء الاجازات ووضع الاشارات على التذاكر الى ابن عبد الكريم نفسه . فاستأذنهم في الخروج من مليلا ، فلم يأذنوا له ، ففر من مليلا خفية الى تاجدرت من طريق البحر . والمسافة بينهما في البحر أربع ساعات . وقبل فراره كان عنده في البنك ١٧ ألف ريال فسحبها منه ، وقطع علاقته مع مليلا ، ووطن نفسه على قتال الاسبان .

وكان هؤلاء قد بنوا ٤٦٠ معقلا وثكنة للاجناد ، وشحنوها بالمقاتلة والعتاد ، وكانت كل قبيلة تقا تل في أرضها منفردة بدون نظام يجمع بينها . ولا علم يوحد حركاتها . فبمجرد وصول ابن عبد الكريم أبرم بينها اتفاقا أكيدا على الحركة الباطنية في وقت واحد فحصرت القبائل جميع هذه الثكنن وهذه الحصون ، وقطعوا عنها الماء فكاد يهلك الجنود الذين فيها عطشا فصارت اسبانيا تبعث اليهم بالجد والتلج بالطيارات لتبيل من ظمأهم . ولكن لم يطل الأمر حتى اضطروا الى التسليم بعد ستة أيام من وقوع الحصار . وكان في كل ثكنة مئات من العساكر ، فاخذهم المغاربة وقتلوا منهم عددا كبيرا ، واستحيوا الضباط وكانوا ٥٧٠ ضابطا فارسل الاسبان الى ابن عبد الكريم يلتمسون منه ارسال الضباط ، ويقولون له ان أرسلت الضباط نخل لك مليلا . فاجابهم . لا يزيدان نخلوا مليلا ، ولكن ارسلوا بمؤونة الضباط والاماتوا جوعا . فارسلوا اليه بعل باخرة ارزاقا ، ومعها مبلغ عظيم من المال . وقد هدم الريفيون جميع هاتيك الثكنن والنقاط العسكرية ، وأخذ كل ما فيها من سلاح وكراع ومتاع ، فكانت جلة الغنائم ١٦٠ مدفعا ، و ١٥٠ رشاشا ، وبنادق لا تحصى ، وأمتعة لا يقع عليها حصر . وضيق المغاربة على مليلا ، وأحرقوا قطر السكة الحديدية والمحاط ، وفر كثيرون من الاسبانيول في البحر الى بلادهم . قال لي الراوي : ورشي الاسبانيول قبيلة « قلعية » و « بويحي » بواسطة رجل يقال له عبد القادر بن شلال ، فانجازوا الى الاسبانيول ، ولولا خيانة غمارة وبويحي وقلعية والعبادة لم يبق من الاسبانيول أحد في تلك الديار . قال : وبعد أن فاز الريفيون هذا الفوز اجتمعوا في محل يقال له « انوال » واتخبت كل قبيلة قوداها ، ورتبوا ما يلزم للحرب ، وبدأوا بحفر

الخنادق ، وجعلوا جزءا على كل من يتخلف في النوبة عن الرباط ، وجزاء على كل من يترك الصلاة ، واتفقوا على قتل القاتل ، ورجم الزاني ، وقطع السارق . وهذه الحادثة وقعت من نحو ثلاث سنوات . اهـ

وسألت الشريف المذكور عن الرسول وما شأنه ، وما هي نسبه ، وما هي خطته في الريف فقال لي : ان الرسول هو من ذرية سيدنا عبد السلام بن مشيش الولي الكبير الحسنى الادريسي شيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنهما . وله مقام بجبل العلم (محرقة) على مسيرة ستة أيام من فاس وثلاثة أيام من الريف . ومسكن الرسول في الريف هو بجوار غمارة ، والخماس ، ووادرس ، وهي قبائل كثيرة يسكنها الرسول بأموال يأخذها من الاسبانيول . اهـ .

والظاهر ان الشريف الذي روى لي هذه الأخبار يشير بما تقدم الى الواقعة التي جرت سنة ١٩٢١ في شهر يوليو واستأصل الريفيون فيها ٢٥ الف مقاتل ، وقيل بل أكثر من ذلك جداً ، وغنموا ١٧٠ مدفعاً على رواية الجرائد الأوربية ، و ١٠ طائرات و ٧٠ الف بندقية ، ومقدارا لا يقع عليه الاحصاء من القرطاس المحشو ، وازراقا في غاية السعة ، وفي الحقيقة أن الريفيين يحاربون اليوم بأسلحة الاسبانيول وعددهم وعتادهم . وقد هجع الاسبان بعد هذه الواقعة نحو سنة ، ثم جهزوا بهوثا جديدة نحو مائة وستين الف مقاتل ، فصادمها الريفيون بقلوب من حديد ، وردوها على أعقابها بخسائر فادحة . ثم لما آل الأمر الى الجنرال دوريفيرا ، الحاكم بأمره اليوم في اسبانية ، وكان مذهبه ترك الريف ، أراد أن يطبق برنامجه هذا من التسحب الى ساحل البحر ، فثارت عليه الضباط والقواد ، ورأوا في التقهقر الى الورا امام قبائل بربرية وقوة غير منظمة ، ذلة ومهانة لا تليقان بدولة أوربية ، فالتزم مجاراة رجال العسكرية ، وذهب بنفسه الى مليلا ، وتولى القيادة ، وظن أنه أخذ قريبا بناصية عبد الكريم ، وصرح بذلك على الملأ . فلما بدأ القتال ، صلى من نار الريف بنار لم يقو على أوارها ، وبعد وقائع متوالية ذهب فيها من الاسبانيول أكثر من ٢٠ الف مقاتل عاد الجنرال المذكور الى رأيه الأول ، وأخرست عظمة الخسائر الاسبانيولية بالمال والرجال أفواه أولئك الذين كانوا يرددون ويبرقون ، بل صاروا راضين من الغنيمة بالاياب . فسحب الجنرال الجيوش الى الورا ، واختط خطا في جوار سبتة

ومليلا ، يدور على منطقة صغيرة لا نعلم مقدار سكانها ، لكن يرجح أنه لا يكون أكثر من ٨٠ أو ٩٠ الف نسمة . وقد كان الاسبانيول أثناء اخلائهم المراكز الريفية ، ونكوصهم على الأعقاب ، عرضة لمهاجات الريفيين الذين كانوا لا يمهلونهم فوفا ، فلما دخل الاسبانيول المنطقة التي اختطوها لأنفسهم ، عدوا ذلك فوزاً عظيماً ، أى حسبوا ظفراً كونهم لم يهلكوا جميعاً . وعاد الجنرال ريفيرا الى مادريد ، بعد أن باء بالفشل وأصيبت جيوشه بالزايال الوجيعة ، ولكنه قوبل في عاصمة الاسبان بمقابلة فاتح آب من الحرب بفتوحات عنراء وتلقى الاسبانيول خبر الانكماش الى سيف البحر والاكتفاء بمنطقة ضيقة جداً ، كبشرى فرحوا وتهللوا بها . هذا بعد أن كانوا ينزلون صواعق النقم بمن تحدته نفسه بترك شبر أرض من الريف أو صلح مع عبد الكريم .

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد الى قليل تقنع
وصدق من قال : السيف وجهه أبيض .
ولى فى هذا المعنى من قصيدة :
فدأ لجانا كل من يمنع الحى
ومن ليس يرضى حوضه متهدماً
فما العيش الا أن نموت أعزة
وما الموت الا أن نعيش ونسلاً
تأملت فى صرف الزمان فلم أجد
سوى الصارم البتار للسلم سلماً
ولم أر أنأى عن سلام من الذى
تأخر يعتد السلامة مغماً
يقولون وجه السيف أبيض دائماً
وما أبيض الا وهو أحر بالدماء
فان كان دفع الشر بالرأى حازماً
فما زال دفع الشر بالشر أحزماً
تجاهل أهل الغرب كل قضية
إذا لم يحجى فيها الحسام مترجماً
وكابر قوم ينظرون بأعين
الأعمه الانسان أعمى من العى

وقضية الريف هذه هى أيضاً من القضايا التي تجاهلتها أوربا ، ولم تفهم فيها أدنى نغية ، حتى جاء فيها الحسام ترجاناً فصيحاً فأصنى اليه الجميع . وأتذكر اننا لما كنا فى لندنرة فى يوليو سنة ١٩٢٢ لأجل الاحتجاج على مجلس عصبة الأمم عندما قرر ما يسمونه « بالانتداب » الفرنسى على سورية و « الانتداب » البريطانى على فلسطين ، تلاقينا فى عاصمة انكلترة باثنين من جماعة الأمير محمد بن عبد الكريم ، أحدهما السيد عبد الكريم ابن الحاج على ، والثانى السيد محمد بن محمدى صهر الأمير ، وكانا موفدين من قبله الى الدعوة

الانكليزية لأجل طلب وساطتها في الصلح ، فدارت بيني وبينهما أحداث طويلة ، وكاننا لم يحصلنا على جواب شاف من انكلترة على ما التمسنا ، فقلت لهما : « لا أظن أن انكلترة تقبل هذه الوساطة وهذا محافظة منها على رضى دولة اسبانية أولا^(١) ، ولما تعتقده من كون الاسبانيول لابد من أن تكون الغلبة الأخيرة لهم نانيا . والذي أشير عليكم به هو أن تطلبوا الوساطة ، لكن بدون تهافت يشعر بالضعف ، لأن انكلترة لاتحب ضعيفاً . واتى على يقين بأن الانكليز إذا رأوكم قد ثبتتم في مواقفكم الى الآخر يعودون فيستمعون لكم » وهكذا حصل فبعد أن كانت الجرائد الانكليزية مثل التيمس ونحوها تعرض عن الريف والريفين ، وتصد عن كل كلمة صلح بينهم وبين الاسبان ، صارت تشير على هؤلاء بحسم هذه المادة ، وتتسكلم في عقم هذه الحرب وضررها باسبانية ، وحسبك ان من جملة من ذهبوا الى وجوب مصالحة الاسبان للريفين ، أى الوقوف عن التجريدات والحلات ، هو لويد جورج ، في مقالة حررها بهذه السنة ولم يكن السبب في ذلك سوى مشاهدته الانكليز من ثبات الريفين مع النجاح .

وهذا لا يمنع من كون إنكلترة تهوى هذا الصلح بشرط أن لاتأسس في الريف دولة اسلامية مستقلة ، يكون شأنها مثالا لغيرها ، وتمتد شرارتها الى سائر المستعمرات ، لأن البلاد الاسلامية مهما تناعت بعضها عن بعض سريعة التأثر بعامل واحد . على أن الجرائد الانكليزية تشبه سياسة الكووص الاسباني عن الريف بحركة الانكليز في الهند الشمالية الغربية^(٢) اذعول الانكليز هناك على التخلية بعد الدخول، وقد ردت عليها بعض الجرائد الاسبانية بأن الفرق عظيم بين المكانيين ، لأن بلدان الهند الشمالية الغربية خارجة عن

(١) وهذا هو تصريح مستر تشمبرلين وزير الخارجية يؤكد هذا الرضى والعطف . فقد نشرت جريدة « الاهرام » في ١٧ فبراير ١٩٢٥ ، برقية لمراسلها الخاص في لندن تحت عنوان (موقف انكلترا تجاه حرب الريف) مايلي :-

تسكلم مستر تشمبرلين في مجلس النواب البريطاني اليوم . وما قاله عن حرب الريف ما يأتي : « يسرنى أن أعتم هذه الفرصة لأنكر صراحة جميع الأنباء التي ذاعت في طنجة عن حصول الريفين على عطف الحكومة البريطانية ومساعدتها في حملتهم على اسبانيا . فالحكومة البريطانية تعطف على الحكومة الاسبانية في المصاعب التي أمامها في مرا كس وقد رفضت في كل حين وما زالت ترفض اظهار أي رضى عن علاقات أو مخاطبات بين بعض الرعايا البريطانيين وعبد الكريم . (المغرب)

(٢) أفغانستان وما جاورها

الطرق العامة العالمية ، بخلاف الريف و « الجباله » الواقعة على مضيق جبل طارق ، وقد حثت هذه الصحف الاسبانية على اتحاد الدول الأوربية في وجه الاسلام واعتبرت تقهقر الاسبان الحالى أمراً موقتا .

وقد اطلعنا على بعض مقالات واردة في الصحف الأوربية لمشاهدي عيان ذهبوا بأنفسهم الى الريف وتحادثوا مع الأمير ، وسبروا غور الأمور الريفية ، فنها رسالة للكاتبين سبنسر برايز والكاتبين غوردون كاتنج ظهر تعريبها في جريدة الاهرام بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٤ نقلا عن جريدة « مانشستر غارديان » وهي التي تقدمت في هذا الكتاب وفيها فوائد شافية .

وجاء في جريدة الجورنال الفرنسية رسالة لمكاتبها المسيو جاك مارسيلياك ظهرت في الجورنال بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٢٥ أى منذ خمسة أيام ، يصف فيها الكاتب قرية اجدير مقر ابن عبد الكريم ، ثم يصف الأمير ، ويروي مادار بينهما من الحديث بحضور من يقول ان اسمه « ازرخان » وهو ناظر الأمور الخارجية في دولة الريف ، وسيدى عبد السلام ناظر المالية فيقول ان عاصمة امارة الريف المستقلة عبارة عن قرية صيادي سمك فيها مساكن عبدالكريم وأعوانه ، وكلها أبنية بسيطة ، ليس فيها شيء من صنعة البناء ولا تطاول البنيان . وذكر منها المقعد الذي استقبله فيه الأمير ، وليس فيه شيء سوى حيطان مجيرة بالكس البسيط بدون زخرف ولا نقش ، وبعض كراسي من المتاع المأخوذ من الاسبانيول . وذكر ان عبد الكريم هو في نحو الأربعين من العمر ، وفقا لما تقدم من كلام الشريف أحمد بن محمد الثمثن . وكذلك يقول مارسيلياك انه يعرج من احدى رجله ، وهذا أيضاً مطابق لما سبق من رواية الشريف ، وانه متوسط القامة ، أسود العينين ، حاد النظر ، أفلج الأسنان ، ذو لحية سوداء خفيفة ، بسيط اللبس كل ما عليه جلابة من تحتها ثوب من القطن وهو محتد بابوجا أصفر ، وليس في أصبعه خاتم ولا عليه شيء من الشارات المعتادة للامارة ، وعليه ملامح رجل ساكن ، رابط الجأش ، راجح العقل ، موفق الطالع وكثيراً ما يتبسم قال المكاتب : « صاغني الامير ، ودخلنا في الحديث تارة بالاسبانيولى الذى يجيد الكلام فيه ، وطورا بالعربى الذى يختار المكالته فيه بواسطة الترجان ، لأجل أن يطلع أصحابه على معنى المحاوره

ولم يطل على الديباجة بل سألتى فوراً عن غرضى من هذه الزيارة فقلت له : لما كنت قد عقبته حركات الجيش الاسباني كنت شديد التوق الى معرفة ذلك الذى تمكن من تلك الطوائف الحربية عليه . ونحن نبنى أن نعرف فى فرنسا ما هي غايتك من هذه الحرب ؟ أهى نشر لواء القتال لطرد الأجنبي أيا كان ، أم هي مجاهدة لأجل الريف فتنى استقلال الريف كفى الله المؤمنين القتال ؟

فأصغى عبد الكريم الى الآخر ، شأنه فى جميع مفاوضاته ، ثم قال : عرفت ماذا تريد أن تسأل عنه . ان الجنرال دو ريفيرا وأصحابه أرادوا أن يحدثوا شبهة ، بأن يذيعوا كون مرادنا حرباً دينية لا حرباً وطنية ، وأن مرمانا هو ن نطرد من المغرب جميع الافرنج ، فهذا كذب : نحن نريد الريف ولا نريد غير الريف .

فقلت له : ان بعض الناس ممن لهم خلطة بك يزعمون أن مرادك الوثوب على المراكز الفرنسية فى « ورغا » ، واذا خرقتها زحفت الى فاس حيث يبايعك القوم سلطاناً على المغرب فى جامع سيدى ادريس .

فقال : هذه كلمات مسلوب من العقل ، وأنا والحمد لله أظن نفسى عاقلاً .

فقلت : مع ذلك وجد بين المقاتلة التى صدت جنودنا على الحدود التى لم تتجاوز فيها على الريف رجال من ربعك . فأنت تكون فى مقاومتك للسلطان قد هاجت فرنسا . قال : صحيح انه كان بعض رجال من جماعتى بين الذين قاموكم فى زحفتكم هذه . وذلك أتى كنت راجعتكم بعدة كتب ، أسألكم فيها ماذا تبتغون من هذا التقدم ، وما هي المراكز التى هي هدفكم ، فأيتيم الجواب . ومن جهة أخرى كان رؤساء الناحية يستصرخونى ويتذمرون من عدم اعتنائى بهم ، وعليه فأتم تدرؤن المركز الذى وجدت فيه حينئذ . فانا لست عدوا لفرنسا بل أنا باغى الاتفاق معها . وفى أثناء أزمات شديدة كنتم تعاونها كان كثير من الزعماء يحرضوننى على القيام والزحف عليكم ، فكنت أرفض اقتراحهم لا بل أشير عليهم بمصالحكم وطالما كتبت لكم عن ذلك ولكن ولا مرة حظيت منكم بجواب ، ولا لمجرد المجاملة .

فقلت له : وأنت أيضاً ينبغي لك أن تعرف مركزنا فى مسألة الريف ، فانتا نحن مقيدون بعهود نعتز بها لاسبانية بأنها هي وحدها صاحبة الريف .

فقال الأمير : الريف هولى ولأصحابي أهل البلاد (١)

فقلت : لماذا لم ترفعوا احتجاجاتكم في وقتها؟ ولماذا لم تؤيدوا حقوقكم يوم انفصلت قضية المغرب في مؤتمر الجزيرة؟

فقال : ان عهد الجزيرة كان ضامناً لنا جميع حرياتنا الاقتصادية ، والتجارة ، والدينية فخذت بدأت اسبانيا بغصب حقوقنا ، رفعنا احتجاجنا . وطالما نبهت أنا الحكومة الاسبانية الى المظالم والمغارم التي كان رجالها يرتكبونها ، وبينت لها الطريق المصلحة التي تسير عليها فلم يشأ الاسبان أن يلتفتوا الى كلامي . (٢)

فقلت له : أ كدوا لي في تطاون انك تنوى محاربة فرنسا ، وان نيتك هذه قديمة منذ سنة ١٩١٤ اذ أردت اثاره القبائل علينا وهربت اليهم السلاح .

فثار دم عبد الكريم عند هذا السؤال الحسن وقال بحدة : لما كنتم في نضال مع عبد المالك كانت سيرتي معكم معروفة . وأما تهريب السلاح فقد كنت عاملا عند الاسبانيول لما حصل وكانت قوافل السلاح تخرج من مليلا تخفها ضباط الاسبانيول وهي لتجار المان . ولقد أثبت بعد مصير الريف الى رياستي انني أود الاتفاق مع فرنسا . ولقد جاءني كتب من المغرب ومن جميع بلاد الاسلام تحثني على قيادة الحركة لطرده كل رومي من المغرب (٣) فأبيت ذلك حياً للسلام معكم . أما أتم فكنتم دائماً تقابلون تقربي اليكم بالانقباض ، ومنعتم أن تمر في منطقتكم الى أقل الاشياء ، فلم تسمحوا بمرور حتى أدوات الحرث ، والمجارف ، والمعاول ، والحير ، والزيت اللازم للاوتوموبيلات .

فقلت له : أظن اننا اذا تكلمنا بحرية نجد الفرنسيين في هذا غير مخطئين . اذ متى اعتقدنا أنك ستهاجنا في أحد الأيام ، فلماذا نسمح لك بمرور المعاول والمجارف ؟ أفلاجل أن تحفر بها خنادق للقتال ؟ أو نسمح لك بالكس لأجل أن تشيد به مواقى للرشاشات ، وبمادة لتسير السيارات الكهربية لاجل سرعة حركة أركان حربك . فهذه المواد ان لم

(١) على قاعدة مصر للمصريين وسورية للسوريين والريف للريفيين

(٢) سيرة الاستعمار واحدة في جميع البلدان

(٣) هذه رواية مارسيلياك الفرنسي عن عبد الكريم ، ولا ينبغي أن تلقى جميع ما يرويه آية منزلة ، لأن الصحفيين الأوربيين لا يرون الا ما في اذاعته مصلحة لدولهم . واذا لم يجدوا بدا من النقل زادوا وقصوا ، بحسب مقتضى مصلحة قومهم

نمنعها نحن رعاية لليهود مع الاسبانيول ، منعناها من أجل الشبهات التي عندنا من جهتك أفترى الحرب الدينية مستحيلة الى هذه الدرجة ؟ على أن فرنسا لم تزل تحترم دين البلاد التي تحتلها كما هو في المغرب وسائر مستعمراتها .

فقال : قلت لك انني أعتبر فرنسا نوعا من ملكة للاسلام ، ولا أقول انها تضطهد المسلمين وأنا ممن يرى اطلاق الحرية الدينية للمسيحيين أيضا في بلادنا . فهذه الاديان كلها صالحة ، دياتكم صالحة لكم وديانتنا صالحة لنا . ويكفي للاتفاق في هذه النقطة وغيرها صدق النية وحسن الارادة من الجانبين

قلت له : اذا ان صرت أميرا للريف غير مدافع ترضى بدخول الأجانب الى مملكتك فاجاب : هذا بدون شك . أفلا ترى كيف نعامل من يقدم علينا من الفرنسيين ، وكيف قوبلت أنت . اتنا لنودو رغبة أكيدة في الاخذ والعطاء معكم لتتجروا عندنا ونستفيد من أساليبكم .

قلت له : وفي ورغا ! أفلا ترى لنا حقا أن نصل الى حيث وصلنا ، أم أنت تبغى مهاجتنا هناك ؟

قال : هذا الحد هناك لا أعرفه جيدا ولا أظن ان قد جرى هناك تخطيط حدود بين المنطقتين . مع هذا أنا مستعد للمناقشة في هذه المسئلة مع الميل الاكيد للتسوية . انني لست برجل سياسي وأرى الاولى الحرية والصراحة في القول ، فانا أرجو منك أن تقول علنا اني أود الاتفاق مع فرنسا وانني أبذل كل ما في طاقتي في هذه السبيل .

قلت له : اسمح لي أن أراجعك أيضا في مفاوضة اسبانية معك في الصلح واشترطت عدا أداء الغرامة تسليم معدات حرية ، لاسيما من المدافع ذات العيار الكبير ، فالى من توجه هذه المدافع ؟ بديهي ليست موجهة نحو الاسبانيول لأنك ستصالحهم . اذا مرادك بأخذها حرب فرنسا .

فتبسم عبد الكريم ساعتئذ . وقال : ان المفاوضة المذكورة لم يكن هو الذي تولها ثم قال : هذه مساومات فعلى فرض اننا لم نحصل على الذي طلبناه كله فلا ينبغي من ذلك تعطيل كل شيء .

وصلت عند ذلك الى مركزه بازاء سلطان مرا كمش وهي أدق المسائل . وكنت أعلم

ان الكثيرين رغبوه في اعلان الخروج على السلطان وأن يتخذ هو لقب سلطان لنفسه . ولكن عبد الكريم ظهر بمظهر رجل حكيم موزون العقل ، لم تسكره فتوحاته المدهشة ، ولا أضع في ظفره الحزم والروية ، فانه أقنع أصحابه بالاكتفاء بلقب « أمير » ولذلك مغزى كبير اذ لورضى أن يحمل لقب « سلطان » لصعب عليه فيما بعد أن يطيع سلطان مرأ كس . ولقد تلطفت كثيراً معه في المدخل بهذه المسئلة ، وتحوطت كثيراً بحيث لأسوءه عند ذكر السلطان مولاي يوسف الذى يسميه أعداؤه « بسلطان الفرنسيس » . فأجابني : كتبت اليه مراراً بأن يضع حداً لتعدى الاسبانيول بما له من صفة سلطنة المغرب ، فلم يجاوبني ولا مرة . (١)

فقلت : وهل تانى أن تعترف به الآن سلطاناً للمملكة الشريفة كما قد يطلب منك الفرنسيس ؟

ففكر قليلاً ثم قال : ولماذا لا ؟ وان الفرنسيس ماهرون في ايجاد الصيغ . فليجربوا العمل فقد يجدون صيغة يمكن أن أرضاها « انتهى . من تأمل في هذا الحديث مع كونه من الممكن أن يكون الراوى الفرنسيوى اختزل بعض مالا يوافق منه ، يحكم بدهاء محمد بن عبد الكريم في السياسة ، وبعده غوره في المفاوضات الدولية ، وتحاشيه مالا يفيد من الكلام ، ويقول انه أهل لما صار له ، وانه أصبح الخوف عليه قليلاً ، الا ان طراً ما ليس في الحساب .

أما فرنسا ، وهل تقنعتها تأكيدات ابن عبد الكريم المكررة بحبه لها وخطبته لولائها ! لانعتقد ذلك أبداً . انما نعتقد انها مادامت أحوالها المالية غير مساعدة لها فلا تعلن عليه حرباً ، وتكتفى بمصانعة ، كما يريد هوان يصانعها . وما تجده يكرر من خطبته ولأها الا لما يعلم من ثقل ظفره على كل أوربا ، ولا سيما على فرنسا ، وما لا يخفى عليه من تحفظها لصدده وتوجسها خيفة مجده . فهو يحاول أن يسكن روعها بالتودد ، ويخدر أعصابها بالقول اللين ، وكل هذا يدل على عبقريته في ادارة السلم ، كعبقريته في ادارة الحرب .

فدحت في أهل الريف الرزايا ، وعظم نقصهم في الأنفس والثمرات ، وفشت فيهم الجراحات والعاهات ، وعضتهم المسغبة بأنيابها ، مما هو كله بديهى بالنظر الى فقرهم ،

(١) لانه مادام الفرنسيس لا يجاوبون فولاي يوسف لا يقدر أن يجاوب

وضيق أراضيهم ، ووعورة مسالكهم ، وتأخر المدنية في بلادهم ، مع تفوق عدوهم عليهم في كل الوسائل . ولقد مضت على الريف بضعة سنين وهم في أشد بلاء ، وأعظم كرب ، وتولوا كبر هذه الحرب ، ولم تمتد اليهم يد مسعف ولا منجد من جميع العالم الاسلامي برغيف خبز ، ولا ضمادة جرح ، ولا زجاجة حامض فينيكي . وقد كان الأمير محمد بن عبدالكريم خايط العالم الاسلامي بمنشور بعث به منذ ثلاث سنوات مختصا به مسلمي الهند ، والصين ، والافغان ، والجاوى ، فلم يعج بالترك ، ولا بالعرب ، ولا بالمصريين ، ولا بالمغاربة لعلهم ان الترك هم في شغل عنه وعن غيره . وان العرب يكفيهم ما هم فيه من التخاذل والتواكل ، فيما هو أدنى اليهم من الريف فما ظنك بالريف ، ولا بالمصريين لما هم فيه من الانصراف الى مسألة مصر دون غيرها ، حتى في الأمور التي ليست من السياسة . ولا بالمغاربة لثقل الضغط الواقع عليهم الحائل دون أدنى مساعدة للريف من جانبهم . وكذلك لم يكتب في منشوره الى أولئك كلمة يستمدهم فيها الاعانة بالمال أو القوت ، وإنما عرفهم انه مع العدو المعتدى في جهاد .

وكنت فيما أظن ، أول من نبه في الصحف السيارة الى وجوب اغاثة الريف بمعالجة الجرحى ، ومسك ارماق الأطفال والعيال الذين برحت بهم هذه الحرب الضروس . وحررت في ذلك النداء تلو النداء ، فلم أحس أدنى نجدة . ثم تصدى لهذا الموضوع الأستاذ الفاضل الشيخ فراج المنيأوى رئيس جمعية تضامن السادة العلماء بمصر بعد خطاب ورده من معتمد امانة الريف بطنجة ، فنشر نداء في الجرائد المصرية لم يكن فيه الا كلنا فح في رماد . ولكن وردت الأخبار الأخيرة بأنه جدت حركة في الهند لارسال بعثة طبية الى الريف لمعالجة الجرحى والمرضى . وقد بدأ بعض الناس بمصري تبرعون بشيء ، فربما تهتاج الحية ، وتأخذ القلوب الرأفة ، فيزداد التبرع ولا ينحصر في مصر والهند . وقد اطلعنا على رسالة وارودة الى الاهرام بتاريخ ٨ يناير ١٩٢٥ بامضاء « محمد سعد الدين الجباوى » الذى يقول انه كان هناك فمن الاطلاع عليها غنى عن التعريف بالحال الحاضرة في الريف وهي هذه :

« عدت من الريف منذ ثلاثة أشهر ، بعد أن مكثت به مدة من الزمن ، وقد تحملت مشاق ومخاطر في سبيل الوصول الى تلك الديار يعجز قلبي عن سردها . وأهم تلك الموانع كان اجتياز الحدود الفرنسية الريفية تارة ، واختراق المناطق العسكرية الاسبانيولية ليلاتارة أخرى ، بين الجبال ، وذلك في منطقة الرسولى التي يطلق عليها اسم « الجبالا » وقد حيل

ينى وبين الوصول الى حدود المنطقة المذكورة من قبل الرسولى ، حتى أرغمت على العودة بعد اجتيازى مائة وخسين كيلو مترا فى مرتفعات صخرية صعبة المسالك ، الى أن تمكنت من الدخول عن طريق « وجدة » و بلاد « المطلسة » رغما من المراقبة الفرنسية ، وذلك بواسطة مندوب الأمير ورجاله ، الذين يدخلون ويخرجون الى المنطقه المذكورة بقصد شراء مواد اقتصادية .

« وقد كنت ضيفاً مدة وجودى كلها بالريف ، فى منزل دارجهورية الريف ومع وزير الداخلية القائد يزيد ، الى أن اقتضى الحال عودتى الى هذه الديار السعيدة لطلب النجدة والمعونة من هذه الأمة النبيلة ، وهذا الشعب الكريم ، ولاشك انهم ملبون الدعوة لتكوين هيئة صحية ، باقرب مايستطاع ، وارسالها باسم الهلال الاحمر لاسعاف المجاهدين عن أوطانهم والمدافعين عنها بكل ماأوتوا من قوة .

« وبهذه المناسبة تنفى على صفحات جريدتكم الغراء صحة الاشاعات التى أشيعت على لسان الجرائد الأجنبية ، و بالأخص منها الفرنسية من أن بالريف ضباطا من الترك والامان ، وان هناك أجناب يبيعونهم أسلحة ، وكذلك تنفى ماأشيع منذ مدة من أن الهلال الاحمر العثمانى أرسل بعثة صحية .

« ويعلن الريف الى العالم انه ليس للمجاهدين بالريف كبيرهم وصغيرهم ماآرب الاستقلال التام ، وهم يدافعون عن أنفسهم غير مأجورين من رئيس جمهوريتهم الأمير عبدالكريم ، ولا مرغمين من حكومتهم على ذلك . وهم وحدهم بشجاعتهم وقوتهم المعنوية وأساليبهم الحربية ، وذكائهم الفطرى ، حصلوا على كميات وافرة جداً من أعدائهم الاسبانيين من مدافع ميدان مختلفة العيارات ومدافع متريوزات تعد بالمئات ، عدا بضع طيارات ، وكذلك لديهم جميع ما يحتاج اليه هذا العدد الوافر من الذخائر الحربية المنوعة .

« وقد كان لبعض الجنود الريفيين الذين كانوا يخدمون فى الجيش الاسبانى قبل هذه الحرب نشاط عظيم فى تعليم أبنائهم استعمال هذه الأدوات الحربية بطريقة فنية ، حتى أصبحوا اليوم كما يعلم العالم ، قادرين ان شاء الله على مقاومة أكبر عدو يريد الاعتداء على استقلال بلادهم .

وهم يعلنون للعالم أنهم لا يريدون من هذه الحرب الاستقلال بلادهم ، وهم يحترمون

المناطق المجاورة لهم إذا احترمت مناطق حدودهم ، والريف يفضل الاتفاق مع أقرب جارة من الدول اليه للاشتراك في استخراج معادنيهم ، اذ تكون المنفعة متبادلة بين الحليفين ، اذ لا يمكن لأمة على الأرض أن تعيش وحدها منقطعة عند العالم .

«والشعب الريفي يرجو تذليل صعوبة الطريق ، ويرجو ذلك من الأمة الفرنسية وحكومتها في داخل منطقتها للهيئة الصحية المنتظرة اذ يكون هذا التسهيل اعلانا للرغبة في توثيق عرى المحبة والوداد بين الريف وبين فرنسا .»

محمد سعد الدين الجباوي

ولانظن الا أن العالم الاسلامي يعطف أخيراً على الريف ، ويلبي استغاثة أهله ، لاسيما وقد جاء منهم هذا البطل العظيم أحسن الله عاقبته .

التعصب الاوربي أم التعصب الاسلامي ؟

الاول هو الأشد بشهادات شهود من أهله

ومائة مشروع لتقسيم تركيا

للذكريات

مازلنا نؤكد أن الأوربيين في عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أقل من الترك تعصبا^(١) ولا جفاء وان تاريخهم في الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس من ذبح ٧٠ ألف مسلم في المسجد الأقصى حتى سبغت الخيل الى صدورها في الدماء ومن استنصاهم شأفة المسلمين من الأندلس، وصقلية وجنوبي فرنسا وسردانية، مع انهم كانوا يحصون في هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة ما نقول، فقد عني الاوربيون كل أثر للاسلام في أوربا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد، حال كون الترك الذين يقال انهم برابرة بقى تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون في أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء، كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب. وقد يقال ان الذى منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الاسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدى الذى يمنع الاكراه فى الدين ويرضى من المعاهد بالجزية. وقالوا ان السلطان سليمان القانونى كان فكر فى سوء المغيبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم فى الممالك العثمانية، وأحب اخراجهم، وقيل بل السلطان سليم، وكان كل مرة يعترض فى ذلك شيخ الاسلام ويقول: ليس لنا عليهم الا الجزية. والجواب قد يكون ذلك ويثبت ان الاسلام هو الذى هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من

(١) راجع صفحة ١٥ من الجزء الاول

ديارهم ، فلماذا ياليت شعري لم يهذب الانجيل الشريف أقوام أوربا ولم يمنع البابا اسكندر السادس واساقفة الكنيسة في اسبانية ، والملك فرديناند ، والملكة ايزابلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكثلكة من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع في العرب واليهود ممن بقى على دياتته سراً الى أن جلاهم بأجمعهم عن ذلك القطر الذى أوطنه العرب زهاء ٨٢٠ سنة ، مع أن الانجيل كما لا يخفى لا يجيز شيئاً من هذه الأفعال بل يوصى الناس بحب الأعداء فكيف تتألف مع شريعة الانجيل التى هذا مبلغ وداعتها وتسامحها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم

لا نريد أن نعزو الى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأوربيين انصافاً وتحريماً ، ولكن ثمة أمور لا يزال الاوربي مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلاً عنها أو هو لما يعتقد من علو قومه وكونهم محبوبين من طينة هي غير طينة الآخرين ، لا يقدر أن ينظر الى عيوب قومه وآثام بنى جلدته بالعين التى يرى بها عورات غيرهم من الأقوام . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة في موضوع التسامح وعدمه ، فكنا نراهم يعتقدون أنه لا يوجد في الدنيا أقل تسامحاً وسجاجة من أهل الشرق فاذا ذكرناهم بما فعلوه بعرب الأندلس قالوا ذاك شيء آخر . والى الآن لا نفهم لماذا هو شيء آخر . وبعضهم يقول هذه حوادث جرت في القرون الوسطى . فاذا سامنا بكونها جرت في القرون الوسطى فماذا يقولون في المواقف والفظائع التى جرت من الجنس الأبيض الأوربي في هذا العصر نفسه سواء في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين مما فعلوه في مستعمراتهم بافريقية الوسطى وشمالى افريقية والكونغو والسودان المصرى وبما فعلوه في الهند وغيرها من آسية بل بما وقع بمعرفة منهم في الروملى أثناء الحرب البلقانية بل بما أوقعه بعضهم ببعض في الحرب العامة

هذا كله لم يقع في القرون الوسطى ، ولا في الجاهلية الأوربية ، بل جرى في عصر النور وبحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الاوربي . نعم لا نفهم كيف اذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشا وبربرية وتمتلىء الصحف بألفاظ القسوة والوحشية والهمجية ، وتقوم القيامة ، فاذا ذبح البلقانيون مسامى الروملى واستباحوا حرمهم أو الأروام مسامى غربى

الأناضول ، لم تجد شيئاً من تلك القيامة ولا هاتيك النعرة وان عبر عنها بشيء قيل انها حوادث مؤسفة أو ماجريات لا تخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتدات سبقته ويجهده كل الاجتهاد في تغطيتها وجر ذبول النسيان عليها . هذا الذي نعترض عليه ولما نجد عليه جواباً سديداً ، ولكن ليس صاحب هذا الكتاب بالذي يتعمد تعمية الحقائق

قد ذكرنا هنا البراهين الساطعة على كون تعصب الأوربيين على المسلمين يفوق مرات تعصب المسلمين على الأوربيين . وأوردنا على هذه القضية الشواهد المحسوسة التي لا تقبل المكابرة . وما أئذ كره أن أحد وزراء الدولة العثمانية - رحما الله وجزاها عن الاسلام خيراً - كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال دول أوربة فيما يتعلق بهذا الموضوع . فقال لهم الوزير العثماني : « اتنا نحن المسلمين من ترك وعرب وفرنس وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا الى درجة استئصال شأفة أعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم . ولقد مررت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على أن لا نبقى بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للاسلام . فاهجس في ضمائرنا كهدا الاخطر أصلاً وكان اذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة ويحاجه مثل زنبيلي على افندى شيخ الاسلام ويقول له بلا محاباة ليس لك على النصارى واليهود الا الجزية وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم . فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الشريف . فبقى بين أظهرنا حتى في أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وكلهم كانوا وافرين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين . أما أتم معاشر الأوربيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد واشترطتم عليه اذا أراد البقاء بينكم أن يتنصر . ولقد كان في اسبانية ملايين وملايين من المسلمين وكان في جنوبي فرنسة وفي شمالي ايطالية وفي جنوبيها مئات ألوف منهم لبشوا في هاتيك الأوطان أعصراً مديدة وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالاسلام . ولقد طفت في بلاد اسبانية كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم » فلما سمعوا هذه المقارنة بهتوا ولم يحيروا جواباً . وبعد ايراد هذه الرواية

لأحد كبار الاسلام يجمل بنا أن نورد شواهد من كلام رجال النصرانية أنفسهم حتى يصح لنا أن تمثل بالآية الكريمة من سورة يوسف : « وشهد شاهد من أهلها » أو بالآية الكريمة من سورة الأنعام : « وشهدوا على أنفسهم » فنقول :

قد ألف « هنرى دو كاسترى » Henry De Castries كتاباً اسمه « الاسلام » ذكر فيه الأوهام المترامية في أوربة بحق الاسلام فمن شاء فليرجع الى هذا الكتاب وقد كتب فولتير نفسه في كتابه « بحث في عادات الأمم وأرواحها » وفي كتابه الآخر « القاموس الفلسفي » كتابة مؤثرة عن هذه القضية وأشار الى الأغاليط والضلالات التي ارتكبتها كتأب القرون الوسطى بحق المسلمين وأورد حقائق في هذا الباب لا يزال الأوربيون يجهلونها الى هذه الساعة

وقد نقل اسماعيل حامد مؤلف Les Mosulmans Français Du Nord De L'Afrique في فصل من كتابه عنوانه « التسامح الاسلامي » عن الأب « برولى » L'Abé De Broglie ما يفيد أن الأب المذكور — وهو قسيس شهير — قد أطرى ما كان عليه أبو بكر وعمير من الصدق والاستقامة وشدة الذكاء وقال انهما كانا أعلى كثيراً من القياصرة والملوك المسيحيين الذين كانوا يقاتلونهما

ونقل اسماعيل حامد — وهو من الجزائر بين المتفرنسين — عن الأب ميشون مجلة استشهد بها أيضاً « دو كاسترى » والدكتور « غستاف لوبون » وهي هذه : « ان من المحزن للامم المسيحية أن يكون التسامح الديني الذي هو أعظم ناموس للحجة بين شعب وشعب هو مما يجب أن يتعلمه المسيحيون من المسلمين »

ونقل دوزى المستشرق الهولاندى عن « بوركارد Burckhard (١) » الذى يعده دوزى أعرف سائح بأحوال العرب أنه قال عنهم انهم أشد الأمم الأسيوية تسامحاً وقال الدكتور « برون » Perron في كتابه L'Islamisme : « ان من احسن فضائل المسلم انه متسامح مع من يخالفه في الدين تسامحاً عملياً »

وقال الكاتب الاسبانيولى « رافائيل كونتره راس » Contreras : « ان كثيرين

(١) سائح سويسرى ولد في لوزان كان أول أوربى دخل الى مكة والمدينة وقد كآنت وفاته سنة ١٨١٨

من المسيحيين الذين يعدهم الاسبانيول شهداء لم يكونوا ليقتلهم المسلمون لو اكتفوا بان يعتقدوا بالمسيحية ويسكنوا ولم يذهبوا حتى ابواب الجوامع يقذفون بعقيدة المسلمين في وجوههم »

ثم ذكر اسماعيل حامد الادوار التي مرت بها النصرانية في بلدان المغرب بعد ان علت فيها كلمة الاسلام وقال انه بعد ان اسلم اهل المغرب بقرون بقيت فيه كنائس واسقفيات أتباعها من اهالى البلاد ولم تزل لهذه الاسقفيات بقايا حتى الى ما بعد زحفة بنى هلال على المغرب . وكان في قلعة بنى حماد مركز اسقفية وقد كان النصارى هناك يعاملون بمزيد الرعاية . ثم انه كانت اسقفيات في قرطاجنة وغومي والقلعة في المغرب الشرقى فدرست في ايام البابا اينوشاينوس الرابع ولكن بقي نصارى متفرقون في البلاد وصارت امورهم الدينية راجعة الى اسقفية فاس في المغرب الاقصى . وقد ذكر البكرى انه في القرن الثاني عشر للمسيح كان في تلمسان كنيسة وطائفة من المسيحيين وقد نقل « ماشلترى » عن ليون الافريقى انه كان في سنة ١٥٥٠ قبل مجيء الاتراك الى تونس طائفة من المسيحيين في هذه البلدة وكان المسلمون يعاملونهم بكل رعاية . فانقرض النصرانية من شمال افريقية لم يكن بسبب اضطهاد واقع من المسلمين على المسيحيين بل كان المسيحيون يعادى بعضهم بعضا كانت أساقفتهم تتزاحم على الرياسات . ثم اخذت علاقات الاساقفة مع روما ترتخي بمرور الايام حتى انتهى الأمر بأن المسيحيين الباقين دخلوا من انفسهم في الاسلام . واما في اسبانية فكانت حرية المسيحيين في ايام العرب اكثر منها في ايام القوط انفسهم كما يعترف بذلك المؤرخ دوزى الشهير ولم تقتصر الحرية الدينية على المسيحيين بل بلغ منها ان المجوس عبدة النار كانوا يقيمون شعائرهم علنا في عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . وكان الأمير حبّوس البربرى صاحب غرناطة مستورا رجلا يهوديا بلغ مقاما عظيماً ولم تشعر اسبانية بشئ من التعصب الاسلامي الا في عهد المرابطين الذين كانوا أحاس في الدين . ولكن المرابطين كانوا من البربر وكانت فيهم شدة فطرية ومع هذا فان ابن خلدون يروى انه كان عند المرابطين جيش من المسيحيين كان له قائد يدعى « زو بؤر تيار » وقد كانت العادة ليست عند المرابطين فقط بل عند جميع الدول التي تعاقبت على

مراكش وتلمسان وتونس واسبانية ان تستخدم جنداً من النصارى وكان هؤلاء يتمتعون بجميع حريتهم الدينية و يقيمون شعائرهم واذا ذهبوا الى الحرب يكونون جيشاً مستقلاً بنفسه بين جيوش المسلمين وكانت الحكومات المسيحية تأذن لهم في الخدمة في بلاد الاسلام . ومن امتاز برعاية المسيحيين عبد المؤمن بن علي رأس دولة الموحدين فقد عقد معاهدات مع الجنوية واهل ييزا وغيرهم واطلق لهم الحرية أن يتجروا في بلاده وأذن للرهبان الفرنسيسكانيين والدومينيكانيين في دخول بلاده واقامة شعائر الدين المسيحي بين الاوربيين الطارئين اليها للتجارة . وروى ماسلترى Maslatrie ان الاوربيين الذين كانوا في المغرب تكاثر عددهم سنة ١٢٢٣ مسيحية الى ان استأذن البابا هونوريوس الثالث من سلطان المغرب لذلك العهد ان يجعل على رأسهم اسقفاً فأذن له .

ولما جاء القديس لويس ملك فرنسة يحاصر تونس كان في جيش المستنصر الحفصي أمراء من المسيحيين الأروبيين مثل « فريديريك القشتالي » « وفريديريك لانزا » وكذلك كان « الفونس غوزمان » قائداً في جيش أبي يوسف بالمغرب وكان جميع هؤلاء النصارى يعيشون بين المسلمين مع عائلاتهم كأنهم في بلادهم وطالما كان النصارى والمسلمون في ذلك العهد في اسبانية يزوج بعضهم بعضاً ، وكثيراً ما تزوج أمراء المسلمين بمسيحيات ويهوديات . وحسبك أن عبد العزيز بن موسى بن نصير فاتح الأندلس تزوج بارملة لودزيق ملك الأندلس الذي غلبه العرب . وتزوج الأمير عثمان بن أبي نسعة بالأميرة لاميجيا ابنة دوق اكيثانيا . وقد كانت فلورا المسيحية التي ماتت شهيدة بحسب قول المسيحيين سنة ٨٥١ مسيحية في قرطبة مولدة من أب مسلم ووالدة مسيحية وكان اخوتها مسلمين . وكان نبلاء الرومانيين في اشبيلية قد أسلموا وتزوجوا من المسلمين . مثل « بنى أنجلينو » و « بنى سباريكو » كما ان بنى حجاج من البطون العربية الشهيرة في اشبيلية كانوا من جهة الأم سلالة غيطشة ملك اسبانية قبل لودزيق . وكان الأمير بكر من أمراء « شانتمرية » الغرب ، حفيداً من جهة الأم لرجل مسيحي ، وكانت جدة الحاجب الشهر المنصور بن أبي عامر مسيحية أيضاً . وكانت زوجة الخليفة الحكم صبيحة المشهورة من أمة الباشكؤنس . وفي أواسط القرن الحادى عشر للمسيح أسلمت أسرة مالكة في أرغون اسمها بنو قصي أصلهم

من القوط . ويقال أيضا ان عائلة بنى خطاب من مُرسيّة أصلهم كذلك من القوط ويطنون انهم من سلالة تدمير صاحب أُرزُوله . ومن المعلوم ان ولد المنصور بن أبي عامر الذي ذهب الملك من يده كان اسمه شَانجُول لان أمه كانت بنت شانجو ملك نافار وقيل ان علي بن حزم وزير عبد الرحمن الناصر كان من سلالة عائلة مسيحية من « نبله »

وفي سنة ١٢٣٠ مسيحية كان المأمون سلطانا في مراکش وكانت عنده حلائل مسيحيات وكانت احداهن حبيب أم ولده الرشيد مسيحية وكان عند المأمون جيش من النصارى نحو من اثني عشر ألف مقاتل . وطالمطلب الباباوات من ملوك المغرب أن يعطوا هؤلاء القواد من المسيحيين بعض القلاع البحرية ولكن الملوك كانوا أحذر من أن يرضخوا لهم بذلك خوفاً من مغبة هذا الأمر

وقد ورد في الاستقصا للناصرى السلاوى عن جيش النصارى الذى كان عند المأمون المتقدم الذكر ماملخصه : ان الموحدين بمراكش خنقوا الملك العادل وبايعوا أخاه المأمون وكان فى اشبيلية ثم بعد انفصال البريد ندم الأهالى وبايعوا ابن أخى المأمون يحيى بن الناصر ولكن المأمون نشر بيعته على منابر الأندلس وأعمل فى الحركة الى مراکش ولما وصل الى الجزيرة الخضراء بلغه اتقاض الناس عليه فكتب الى ملك قشتاله يستنصره على الموحدين ويسأله أن يبعث له جيشا من الفرنج يجوز بهم الى العدو لقتال يحيى ومن معه ، فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلى بلاده يختارها هو وان يبنى بمراكش اذا دخلها كنيسة لجيش النصارى الذين يكونون معه وأن يضر بوا فيها نواقيسهم وان من أسلم منهم لا يقبل اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه باحكامهم الى غير ذلك فأسعفه المأمون فى جميع ماطلب منه . قال : ودخل المأمون الى العدو ومعه اثنا عشر ألفا من جنود النصارى وقال انه هو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب . وروى أنه لما مات كان فيمن أخذ البيعة لولده الرشيد فرنسيل قائد جيش الفرنج وذكر الناصرى اسم زوجة المأمون أم الرشيد وقال ان اسمها حباب وكانت فرنجية الأصل وكانت من دهاة النساء

وفى مقابلة هذه الشواهد من أخبار تسامح المسلمين وصفاء سرائرهم نذكر الآن مايقابلها من حقد الأوربيين وشدة شنائهم للمسلمين ويكفى من القلادة مأحاط بالجد لان

الاستقصاء متعذر ومما يضيق عنه هذا الكتاب فنأتي أولاً على ذكر الحروب الصليبية التي أشار بها الباباوات رؤساء الكنيسة الذين هم خلفاء عيسى رسول السلام الناهي عن كل مقاومة والأمر بان من ضرب على خده الأيمن يدير لضار به الخد الأيسر فنقول:—

جاء في تاريخ الباباوات تأليف الميوسو فرناند هايوارد Fernand Hayward وهو مؤرخ كاثوليكي المشرب أن البابا سيلقستر الذي عاش في أوائل الألف سنة بعد المسيح كان أول من نادى المسيحيين في أوروبا لمحاربة المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم وكان البابا المذكور افرنسيا وكان من العلماء في اللاهوت والطبيعات والطب والفلسفة وهو الذي كان يدعى جربرت Gerbert تلقى العلوم في اسبانية أيام العرب عندما كان راهباً: وهو الذي أدخل الأرقام العربية الى أوروبا وكانت معارفه في ذلك الوقت مما يجهله الأوربيون . أما دعوته للمسيحيين للزحف الى الشرق واستنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين فلم تصادف في ذلك الوقت الحجاسة اللازمة لها . لأن أوربا لم تكن مستعدة لحرب كهذه . وفي سنة ١٠٧٤ استنجد ميخائيل الثاني قيصر بيزانطية البابا غريغور يوس السابع لينصره على السلاجقة المسلمين الذين كانوا يشنون الغارات على أطراف السلطنة البيزنطية . ففي ذلك الوقت فكر البابا غريغور يوس في اصلاء الاسلام حرباً صليبية يهاجم بها الترك في الشرق والعرب في الغرب لان العرب كانوا في صقلية وأطراف ايطالية . ويقول المؤرخ المذكور ان غريغور يوس السابع هو أول بابا فكر في مناقشة المسلمين حرباً صليبية ولكن لم تدخل هذه الفكرة في حيز الاجراء الا في زمان البابا اربانوس الثاني .

قال انه كان قد مضى قراب مئة سنة وأوربا تحدث نفسها بالزحف صفاً واحداً لحرب المسلمين ولا يتيسر ذلك لأسباب متعددة الا انه لما توالى من دولة بيزانطية الدعوات للبابا بأن ينصر مسيحيي الشرق على المسلمين توجه البابا اربانوس الى فرنسا وطاف في كثير من مدنها وعقد جمعاً في كليرمون Clermont في سنة ١٠٩٥ في ١٨ نوفمبر فحضر ذلك المجمع أربعة عشر رئيس أساقفة ومثان وخسون مطراناً وأربع مائة قسيساً ممن يقال لهم أنصاف مطارين وبعد أن تذاكروا في مسائل كنسية خرج البابا الى ساحة فسيحة تسع الجمهور وخطب الشعب قائلاً: ان شعباً ملعوناً قد اجتاح بلاد المسيحيين وأعمل فيها الحديد والنار وأهان المعابد وعذب المسيحيين وهتك الأعراض فمن ينتقم لهذه الاهانات سواكم أتم

معشر الفرنسيين الذين رفعكم الله فوق سائر الشعوب في الشجاعة فتذكروا ماثر آباءكم وأعيدوا ذكرى شارلمان وابنه لويس وملوككم الآخرين الذين قاتلوا ملوك الاسلام وان أهم ما يجب أن يحرك شعوركم هو استخلاص قبر الخلد والاسيلاء على الأماكن المقدسة التي استولى عليها شعب غير طاهر فيا أيها الشجعان سلالة أولئك القوم الذين لم يغلبهم أحد قط شقوا طريقاً الى القبر المقدس وأنزعو الأرض المقدسة من يد ذلك الشعب الملعون.

فعند ما ألقى البابا رانوس هذا الخطاب قابله الشعب الافرنسي بحماسة زائدة وعلا الصراخ هكذا يريد الله . ووضعوا علامات الصليب على أثوابهم وطاف بطرس الناسك في البلدان يستنفر الأهالي للزحف وقاتل المسلمين في الشرق ولسنا الآن في مقام تاريخ الحرب الصليبية وانما نحن في ذكر كيفية تولدها . ولقد زحف الصليبيون واستولوا فعلا على بيت المقدس في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وكان منهم ما كان من الفطائع التي يعترف مؤرخوهم بها في جميع الأماكن التي اجتازوها من بلاد الاسلام ولما سقطت القدس في أيديهم بعد قتال شديد استمر زيادة على أربعين يوماً ارتكبوا في ظل القبر المقدس الذي زعموا أنهم زاحفون لتطهيره من أيدي أمة غير طاهرة من القتل العام والتفان في القسوة ما يندر وجود مثله في تاريخ البشرية من أول ما عرف التاريخ . قال أبو الفداء : ولبت الفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس أسبوعاً وقتل من المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور في ذلك الموضع جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور في ذلك الموضع الشريف وغنموا مالا يقع عليه الاحصاء ووصل المستنفرون الى بغداد في رمضان فاجتمع أهل بغداد في الجوامع واستغاثوا وبكوا حتى انهم أفتروا من عظم ماجرى عليهم انتهى . وكان أبو الفداء قد ذكر فطائع ماعمله الافرنج عند استيلائهم على انطاكية والبلدان التي مروا بها وقال انهم ساروا الى المعرة وقتلوا فيها أكثر من مئة ألف انسان . وفي فاجعة القدس هذه عند ما وصل الصريح الى بغداد قال المظفر الأبيوردي :

مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يُفِيضُه اذا الحرب شُبت نارها بالصوارم
فايها بنى الاسلام ان وراءكم وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء حفونها على هفوات أيقظت كل نائم

واخوانكم بالشام صرعى مقيلهم
 يسومهم الروم الهوان وأتم
 وكم من دماء قد أبيضت ومن دمي
 وبين اختلاس الطعن والضرب وقعة
 وتلك حروب من يغيب عن غمارها
 سلن بأيدي المشركين قواضا
 يكاد لمن المستكن بطيبة
 أرى أمي لا يشرعون الى العدا
 وتجتنبون النار خوفاً من الردي
 أرضى صناديد الأعراب بالأذى
 فليتهم إذ لم يندودوا حية
 وان زهدوا في الأجر اذ حى الوغى
 ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
 تجرون ذيل الخفض فعل المسلم
 تواري حياء حسنها بالمعاصم
 يظل لها الولدان شيب القوادم
 ليسلم يقرع بعدها سن نادم
 ستعمل منا في الطلى والجاجم
 ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم
 رماهم والدين واهى الدعائم
 ولا تحسبون العار ضربة لازم
 وترضى على ذل كجاة الأعاجم
 على الدين ضنوا غيرة للحارم
 فهلا آتوه رغبة في المغنم

هذا وفي زمان البابا أوجانوس الثالث عادت الحرب الصليبية الى الشدة وذلك ان الأتراك كانوا قد استولوا على الرها سنة ١١٤٤ وعادوا الى مهاجمة الصليبيين وفي سنة ١١٨٧ دعا البابا غريغوريوس الثامن الى حرب صليبية جديدة عند ما بلغه أن صلاح الدين الأيوبي استرجع بيت المقدس .

وقد جاء في تاريخ الباباوات هذا مواقف أخرى لهم في اثاره الحروب على الاسلام بينهم رسل السلام على وجه الأرض منها موقف البابا كاليكستوس الثالث فقد ارتقى كرسي البابوية وهو في سن الثمانين ورغم شيخوخته هذه لم يكن عنده مهم أكثر من اثاره المسيحيين على المسلمين . وفي سنة ١٤٥٦ بنى هذا البابا أسطولاً بحرياً خمساً وعشرين سفينة حربية ودعا ملوك النصارى ليلتحقوا به ويشنوا الغارات على بلاد الاسلام وتطوع لذلك أناس كثيرون في انكلترا وفرنسة والمانيسة وبلاد المجر . وفي سنة ١٤٥٨ جمع البابا بيوس الثاني مجمعاً عاماً دعا اليه ملوك المسيحيين الى حرب عامة يصالونها الأتراك وفي سنة ١٤٦٠ قرروا أن تستمر هذه الحرب ثلاث سنوات بالأقل الا ان الملوك لم يتفقوا وخطر ببال البابا بيوس الثاني أن يتولى هو بنفسه قيادة غزوة صليبية برغم مرض النقرس ومرض

الحصى اللذين كانا معه الا انه مات سنة ١٤٦٤ قبل أن أم عملة . وسنة ١٤٧٠ استولى محمد الفاتح على بلان اليونان وسرح أسطولا أربعمائة سفينة تجوس في سواحل بحر الأدياتييك وكان البابا يومثذ بولس الثاني فدعا ملوك المسيحيين الى صليبية جديدة فلم تتفق كلمتهم . وفي سنة ١٤٨٩ اختلف الأمير جم بن محمد الفاتح مع اخيه بايزيد فالتجا الى رومة وكان البابا يومثذ اينوشانسيوس الثامن فتلقيه بالترحيب أملا بالاستفادة من خلافه مع اخيه . وفي زمن البابا اسكندر السابع اشتد العمل لمحاربة المسلمين وقدم البابا نفسه أسطولا لهذه الحرب المقدسة واجتهد البابا اكليمنصوس التاسع في توحيد كلمة فرنسة واسبانية وجمهما على محاربة الأتراك الذين كانوا استولوا على جزيرة اقريطش (كريت)

هذه انموذجات مما حرض به رؤساء الكنيسة ابناء ملتهم على حرب المسلمين نقلناها من تاريخ الباباوات ملؤف كاثوليكي ولأخذ انموذجات اخرى من كتاب مئة مشروع تقسيم لتركيا Cent Projets de Partage de la Turquie تأليف دجوئارا Djuvara من افاضل وزراء رومانيا قال الوزير دجوئارا لن اصل العداوة المزمنة التي يشعر بها الاوربيون للأتراك ويميلون ابدًا من اجلها الى حصرهم في آسية هي راجعة الى العداة الشديد الواقعة بين النصرانية والاسلام ونقل عن « غودفروا كورت » Godefroid Kurth كلاماً كتبه هذا في سنة ١٨٨٩ في كتاب عنوانه « الصليب والهلل » قال فيه : ان الاسلام قد عمل مالم يقدر ان يعمل بل مالم يجزؤ ان يعمل دين آخر وذلك بأن الصليب تغلب على كل شيء أمامه وجاء الاسلام أحيانًا فتغلب عليه . وكان الصليبيون يقولون في قتال الاسلام . هكذا يريد الله ، ونحن يمكننا ان نعيد اليوم العبارة نفسها وان نحارب العدو الذي حاربه آباؤنا . وقال المسيو دوفاريك De Varrick من علماء الحقوق : انه من الواجب القيام . بحرب دينية يستخلص بها القبر المقدس وتوضع بلاد يسوع تحت حراسة أمير مسيحي وحماية مجموع الدول العظام . ثم قال دجوئارا : ان المسلمين كانوا أربعوا اوربة وخضعت لهم اسبانية مع عظمتها وفي أواخر القرن الثاني عشر امتد سلطان العرب من الهند الى الاطلانتيك وصارت حضارة بغداد والبصرة أعلى وارقى من حضارة إكس لاشابل وباريس وكان الفرنج Frances تحت قيادة شارل مارتل هم الذين كسروا المسلمين في « بواتيه » وانفذوا النصرانية فمن ذلك الوقت لم يعرف المسلمون اوربة الا تحت اسم بلاد الفرنج . وكان اول من دعا

الأوربيين إلى حرب صليبية هو البابا سلفستر الثاني وذلك سنة الف وائنين ولم يتوقف إلى تحقيق ما اراده ثم جاء البابا غريغوريوس السابع فاستنفر جميع ملوك أوروبا لحرب دينية يصلونها الاسلام وذلك سنة ١٠٧٥ إلا انها هذه المرة أيضاً لم تتحقق هذه الامنية وتأخرت نحو عشرين سنة عن ذلك التاريخ . ثم بدأت الحروب الصليبية فأخرت فتح الأتراك للقسطنطينية مدة ثلاثمائة وخمسين سنة وانتهت الحروب الصليبية سنة ١٢٧٠ مسيحية إلى سنة ١٢٩١ بسقوط عكا وخسر المسيحيون عدا ما كانوا فتحوه من بلاد الاسلام مملكتين مسيحيتين قبرص وارمينية . ثم ان الأتراك دخلوا إلى اوروبا سنة ١٣٥٦ بعبورهم مضيق الدردنيل وافتتحوا ادرنة في سنة ١٣٦٠ وفي جميع هذه الازمنة ومن قبل ان يدخل الترك إلى اوروبا كان كتاب النصارى والفكرتون منهم لا يريدون ان يتعزوا عن اخفاق الحروب الصليبية ولا يفتأون يهيجون خواطر الشعوب الأوروبية ويحرضونهم على عمل مشترك يقومون به لدحر الاسلام ولا سيما عن فلسطين واشتهر من بين هؤلاء المحرضين يردوبوا Pierre Du Bois ومارينو مارينو Marino وسانوتو Sanuto وهايتون Hayton وريموندول Raymond Lulle وغيليوم دونوغارى Guillaume De Nogaret وكذلك الشعراء مثل بترارك Pétrarque كانوا في مقدمة المحرضين على قتال المسلمين

قال: ولما سقطت عكا وصور كتب البابا نيقولا الرابع كتاباً تاريخه ٢٣ اوجسطس سنة ١٢٩١ إلى فيليب لو بيل ملك فرنسا يظهر له به ألمه ويستجده ليجمع كلمة ملوك النصارى وينتقم من الاسلام ولكن البابا مات قبل تحقيق امله . وكان قد تلقى برنامجى حرب احدهما من ملك صقلية كارلوس الثانى والثانى من راهب يقال له «فيدانس دُو بادُو» وكان برنامج كارلوس الثانى العدول عن قتال المسلمين بالسيف إلى مقاتلتهم بالتجارة قال لانهم اذا زحف الأوربيون إلى بلادهم تركوهم يطؤون السواحل ويعمل فيهم تأثير الاقليم فيضعفوا فكان الأولى قطع الطريق على متاجرهم واعداد اساطيل لهذا المقصد وتوحيد القيادة ويسمى هذا المشروع في حرب الاسلام بمشروع كارلوس الثانى ملك صقلية. اما مشروع فيدانس دُو بادُو فلم يكن مقتصرأ على حرب تجارية بل كان يشير بتجريد جيش يطاء البر ويكون وراءه أسطول من ثلاثين إلى خمسين بارجة حربية وان تنزل الجنود في سواحل انطاكية ثم يجعل الصليبيون انطاكية معصماً لهم وقاعدة لغزواتهم . وقد انتقد بعضهم هذا المشروع وحكموا

باستحالتة وفي سنة ١٣٠١ جدّ برنامج آخر صاحبه «كارلوس دوفالوا» أخو فيليب لوبيل ملك فرنسا وكان هذا الأمير قد تزوج بكاترينة ابنة «فيليب دوكونيه» Philippe آخر ملوك اللاتين في القسطنطينية — لأنه كما لا يخفى بان اللاتين غلبوا الروم على القسطنطينية وملكوها مدة خمسين سنة — فتعلق أمل كارلوس المذكور بالاستيلاء على مملكة جيه وظهره على ذلك البابا بونيفاس الثامن وبعض ملوك النصرانية ووعدهته جمهورية البندقية بقوة بحرية الا ان هذا المشروع أصيب أيضاً بالفشل وكانت معدّاته ضئيلة بالنسبة الى خطره . وأكثر من حرض عليه فيليب لوبيل ملك فرنسا الذي كثيراً ما فكر بفتح فلسطين . ثم ان البابا اكليمانوس الخامس تقدم الى رئيس نظام الفرسان الهيكليين بترتيب برنامج لمحاربة المسلمين وذلك سنة ١٣٠٧ وكان الرئيس المذكور يدعى «جاك دوموليه» Jacque de Molay فاشار هذا بجمع كلمة النصرانية على قتال المسلمين وانه لا يجب أن يقل الجيش عن خمسة وستين ألف مقاتل وأن يكون معززا بأسطول يرسو في مياه قبرص تحت قيادة الاميرال « روجر دولوزيا » الأرغوني . ثم جد مشروع رابع صاحبه «بيردوبوا» وهو رجل من مدينة «كوتنس» ولد بين سنة ١٢٥٠ و ١٢٦٠ واشتهر سنة ١٣٠٠ وقدم برنامجاً الى البابا اكليمانوس الخامس لاجل استرداد الاراضي المقدسة وقدم برنامجاً آخر الى فيليب لوبيل ملك فرنسا في الموضوع نفسه وحرّضه على أن يؤسس مملكة في الشرق يضع على رأسها ثانی أولاده . وكان من جملة وصاياه أن تتوحد كلمة الملوك الكاثوليكين وان يحملوا الروم الاورثوذكسيين في الشرق على الخضوع للكنيسة الرومانية وأن يكون الجميع يداً واحدة في وجه الاسلام وقال انه يجب تجهيز أربعة جيوش ثلاثة منها تذهب بجرأ الى فلسطين والرابع يزحف برأ وكان من رأيه أنه بعد استتباب الفتح يصير كارلوس دوفالوا ملكاً على جميع المملكة البيزنطية مضمومة اليها بلاد المجر والفلاخ والبودان وهكذا لو تم ما أراده لكانت مملكة رومانيا الحالية من جملة ملحقات فرنسا . وكان من جملة ما أشار به أن يكون البابا هو المصلح بين الامراء المسيحيين وان يجعل مجعاً عاماً وخزانه خاصة بالارض المقدسة يكون لها شعبة في كل كنيسة مسيحية . وقال المؤرخ الشهير «البيرسوريل» Albert Sorel انه كان في برنامج «بيردوبوا» هذا كثير من الخيال ولكن هذا الخيال كان في ذلك الوقت يحوم على خواطر الجميع . ونقل

تجوفارا في أثناء كلامه على مشروع دوبروا ان البابا غريغوريوس الحادى عشر أنذر امبراطور بيزنطيه بأنه لا يساعده على المسلمين ان لم يرجع الى الكنيسة الرومانية. ونقل أيضا ان البابا سيلفيوس كتب الى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٦٣ يدعو أن يتنصر ويقول له « بقليل من الماء على بدنك تتعمد وتصبح نصرانيا خادماً للإنجيل . فان فعلت هذا لا يكون على وجه الارض ملك يمكنه أن يفوقك في المجد والاقتدار »

ثم مشروع ريموند لول Raymond Lulle سنة ١٣٠٦ وهو فيلسوف مسيحي صاحب طريقة خاصة به ولد في پالما من جزيرة ميورقة وقتله العرب في تونس سنة ١٣١٥ وله مؤلفات كثيرة في اللاتينية وقد كان من الدعاة الى الحرب الصليبية وله في ذلك تأليف موجودة نسخته الاصلية بخط المؤلف في المكتبة الوطنية في باريز تحت نمرة ٣٣٢٣ وقد استحسن المجمع العام المنعقد في « ثيان » سنة ١٣١١ هذا الكتاب وأوجب العمل به وقرر القيام بصليبية جديدة واجتباء العشر من الحاصلات لاجل هذه الغزاة الصليبية وذلك على مدة ست سنوات ولم يقل ريموند لول شيئاً مما يتعلق بكيفية تقسيم بلاد الاسلام بين الفاتحين الكاثوليكين ولكنه ذهب الى وجوب تعلم اللغات الشرقية لاسيما اللغة العربية لتسهيل هذه الفتوحات ونشر الدين الكاثوليكى بالوعظ والارشاد . وقال سان مارك جيراردان Saint-Marc Girardin ان ريموند لول كان يرى الاولى هداية غير المؤمنين وهداية المسيحيين المنشقين الى الدين الكاثوليكى بدلا من قهرهم بالسيف وقال جيراردان أيضاً انه اعترض نجاح الصليبيات في المدة الاخيرة ثلاثة أسباب الاول خود جنوة الحماسة الصليبية القديمة والثانى تنازع الامراء اللاتينيين في الشرق مع مقاومة الروم لهم والثالث الشقاق بين الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية . هذا وكان ريموند لول يقترح تجريدتين صليبيتين احدهما تزحف الى مرا كش فتونس فطرابلس والثانية تزحف الى القسطنطينية ومنها الى سورية . وقد اختلفت برامج هؤلاء الخياليين في قضية الزحف على بلاد الاسلام فكان غليوم دادان الدومنيكاني يرى السير من طريق القسطنطينية وقد ألف بين سنة ١٣١٠ وسنة ١٣١٤ كتاباً سماه « كيفية استئصال المسلمين » وأشار فيه بايجاد أسطول مسيحي في خليج فارس وأما بروكارد فأشار بالزحف من ايطاليا الى بلاد الصرب ومنها الى الشرق وأما سانوتو فكان يرى وجوب الحمل على بلاد الاسلام من البحر ويدخل في

برنامج ريموند لول الزحف على بلاد الاندلس برأ وبحراً وبعد الاستيلاء عليها احتلال مدينة سبته في افريقية ثم مدينة تونس وذلك لاجل تسهيل الاستيلاء على مصر والبلاد المقدسة وبينما يكون جانب من القوة الصليبية محاصراً مصر يكون الجانب الآخر زاحفاً من القسطنطينية الى سورية ومنها الى جزيرة العرب

فهذه مشروعات خمسة لخصناها تلخيصاً من كتاب مئة مشروع لتقسيم تركيا . وأما المشروع السادس فهو مشروع مارينو سانوتو Marino Sanuto وهو رجل ينسب الى احدى الأسر النبيلة في البندقية ولد سنة ١٢٦٠ وطاف في بلاد الشرق مثل المورة وقبرص وأرمينية ورودوس وامكندرية وقد بدأ كتابه في الحث على محاربة المسلمين سنة ١٣٠٦ ولكنه لم يقدمه الى البابا يوحنا الثاني والعشرين الا سنة ١٣٢١ وقد ذهب في كتابه لأجل نجاح المشروع الى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية وفي ذلك يقول الفيلسوف ارنست رنه نان : « ان سانوتو كان يجهد درجة الخلاف بين الكنيستين ولا يعلم ان الروم لم يكن يصعب عليهم الخضوع للعامة كما يصعب عليهم الخضوع للتاج البابوي . ولم يكن سانوتو يشير باستيلاء اللاتين على القسطنطينية بل كان يرى بقاء يزانطية للروم . وكان من رأيه أن تكون سلطنة البقاع المقدسة لفرنسة وكان يحث كثيراً على حصر الديار المصرية ويعتقد انها اذا حوصرت مدة ثلاث سنوات فلا بد من الاستيلاء عليها وانه اذا استولى المسيحيون على مصر فلا بد من أن يستولوا على بيت المقدس . وكان أكثر مقصد سانوتو تأمين الطرق الاقتصادية امام بلدة البندقية وتمكينها من الاستيلاء الاقتصادي على الشرق » . قال دجوفارا : « ان انكلترا بعد سبعة قرون من زمان سانوتو قد حققت لنفسها الأمل الذي كان يحلم به سانوتو »

ثم المشروع السابع المنسوب الى هايتون Hayton او هيتوم Hétoum سنة ١٣٠٧ وكان هيتوم أميراً أرمينياً من « كرشى » وهي نهر بحري بازاء جزيرة قبرص وكان عمه ملكاً على أرمينية فاستولى المسلمون على بلاده ولجأ هيتوم الى البابا اكليمينضوس الخامس وأقام بمدينة پواتيه حيث مات سنة ١٣٠٨ وكتب كتاباً باللاتينية ثم ترجم هذا الكتاب سنة ١٣٥١ إلى الافرنسية وأشار في كتابه الى وجوب فتح بيت المقدس و بين الطرق التي بزعمه يتيسر بها هذا الفتح ولكن الوقت الذي كتب فيه كتابه هذا لم يكن الوقت الذي تقبل

فيه الناس رأياً كهذا الرأي فقد كانوا في قرنسة تحت تأثير فاجعة القديس لويس ملك فرنسة الذي كان قد أسر في دمياط ثم عاد فقتل في تونس وكان برنامج هيتوم تجريد جيش على شمالي افريقية وجيش آخر يزحف الى سورية من طريق القسطنطينية وجيش آخر يزحف بحراً وأكثراً ما كان بهم هيتوم هو فتح بلاده أرمينية وكان يرى ان المغول يمالئون الصليبيين على المسلمين وانه اذا زحفوا الى حلب يضطر سلطان مصر الى نجدة حلب فيخرج من بلاده ويخلو الجو للأفرنج فيمكنهم احتلال طرابلس الغرب . وكان يشير بعقد محالفة بين المسيحيين والمغول لكن على شرط أن لا يتلاقى الجيشان من الفريقين لئلا يحدث بينهما قتال بل يزحف المغول الى دمشق ويزحف الصليبيون من طريق الساحل الى القدس وبعد الاستيلاء على بيت المقدس يزحفون الى مصر ولم يكن نجاح مشروع هيتوم أعظم حظاً من مشروعات الآخرين .

ثم المشروع الثامن وهو المنسوب الى «غليوم دونوغارى» Guillaume De Nogaret وتاريخه سنة ١٣١٠ وكان نوغارى من رجال فيليب لوبل ملك فرنسة وكان هذا الملك شديد الاعتماد عليه ولذلك كان يشير بتولية فيليب لوبل قيادة الحملة الصليبية وان تجي الأمرين اللازمة لتلك الحرب وتوضع بين يديه ولذلك أساء بعضهم الظن في فيليب لوبل واعتقدوا أنه انما أراد هذه الصليبية جمع الأموال لاعلاء كلمة الصليب . وكان مما أشار به نوغارى محالفة سلاطين المغول ومحالفة امبراطور الروم في بيزانطية .

ثم المشروع التاسع المنسوب الى غليوم دادام Guillaume D'Adam وتاريخه سنة ١٣١١ وكان المذكور راهباً دومينيكيًا قضى معظم حياته يعظ بالانجيل في بلاد الشرق وذهب الى الحبشة والهند وكانت أراؤه في الموضوع غريبة فكان يشير بأن الصليبيين يأخذون القسطنطينية في طريقهم ويحولونها مملكة لاتينية وكان يشير أيضاً بعمارة أسطول في بحر فارس لمنع تجارة الهند مع مصر . وحمل حملة شديدة على المسيحيين الذين كانوا يتجرون مع المسلمين لاسيا الجنوبية الذين كانوا يبيعون الرقيق من أهل مصر فكان في ذلك القطر جيش من المماليك نحو أربعين ألفاً أكثرهم بلغار ويونان ومجر وغيرهم وقال انه يجب على البابا اصدار حرم بحق كل المسيحيين الذين لهم علاقة تجارية مع المسلمين وقال بوجود عقد محالفة مع الكرج ومع ملوك العجم وأن يعهد بالسيطرة في بحر اليونان

المسمى ببحر الأرخييل الى اولاد ذكريا الجنويين الذين كانوا يملكون جزيرة شيو. وأخـ
غليوم هذا كثيرا بفتح القسطنطينية قائلا: «إنها مفتاح كل المشرق» وقال ان الروم لم يكونوا
أقل عدااء لللاتين من المسامين فيجب خضد شوكتهم . وقد اهتم صاحب هذا المشروع
كثيراً بالمسألة الاقتصادية نظير سانوتو وقال انه يجب قطع تجارة مصر مع الشرق الأقصى
بوضع قوة صليبية في بحر الهند وفي عدن . وقد كان هذا الأمر في ذلك الوقت ضرباً من
المحال .

ثم المشروع العاشر وهو مشروع « هازرى الثانى دولوزيڤيان » De Lusignan
ملك قبرص وتاريخه سنة ١٣١١ وقد تقدم هذا المشروع الى مجمع « فيان » مع مشروع
نوڤارى المتقدم الذكر وكان هذا الملك يشير بتجهيز طليعة مسيحية قوامها ١٥ أوعشرون
سفينة حربية توصل غاراتها البحرية على مصر الى أن تتمكن من تخريبها وبعد ذلك
يقدم الجيش الكبير فيطأ أرض مصر ويستولى عليها واذا استولى الصليبيون على مصر
هان عليهم فتح سورية وقد أشار الملك المذكور بأن يبدأ الصليبيون باحتلال قبرص وان
يتجنبوا احتلال - أرمينية يريد بأرمينية بلاد كيليكية واسكندرونة وذلك بقوله ان مناخ
تلك البلاد شاق على الأوربيين وان الزحف منها الى سورية في غاية الصعوبة - وقد كان
لتقرير ملك قبرص هذا تأثير عظيم في مجمع « فيان » فأعلن هذا المجمع الحرب الصليبية في
١٩ ديسمبر سنة ١٣١٢ وبنهاهم يجهبزون الجيوش إذ مات فيليب لوبل ملك فرنسا والبا
اكلهافنوس فتوقف العمل ثم قام الأساقفة يحرضون شارل لوبل على اتمام المشروع
فعارض في ذلك دوق بورغونيه وبقى الأخذ والرد في هذه المسألة الى سنة ١٣٣٣ .

ثم المشروع الحادى عشر المنسوب الى بروكارد وتاريخه سنة ١٣٣٢ وكان بروكارد
هذا راهباً ألمانياً من الرهبان الدومينيكيين فقدم تقريراً الى ملك فرنسا يشير به بحرب
صليبية ويبين الطرق الموافقة لها ولم يكن يرى أن تكون الحملة بحرية ولا كان أيضا
يستحسن الزحف من جبل طارق وشمالى افريقية الى مصر وكان يرى هذه الطريق طويلة
شاقة وانما كان يجد الطريق الحسنى من خليج « اوپرانطو » الى كورفو الى البلقان
ويرى أحسن من ذلك الطريق التى اتبعها بطرس الناسك وهى طريق ألمانيا الى
بلاد المجر الى البلقان الى القسطنطينية . ولم يكن بروكارد يرضى بمهادنة ملك الصرب

وأمبراطور الروم في يزانطيه بل كان يقول انه لايجوز الثقة بهما لأن نصارى تلك البلاد منشقون على الكنيسة ويجب فتح بلادهم كما يجب فتح بلاد المسلمين . وكان يقول ان الترك يدور بينهم كلام من قبيل الجفر على انه لا بد أن يفتح بلادهم ملك افرنجي وان هذا مما يسهل نجاح هذه الغزاة . ولم يكن في مشروع بر وكارد شيء من الملاحظات الاقتصادية بل كانت جميع الأغراض التي بنى كلامه عليها حرية وسياسية ولذلك كان لتقريره وقع عظيم على المجلس الملوكي في فرنسة وبعد أن قتلوا المسألة بحثاً رجحوا طريق البحر على الطريق التي اختارها بر وكارد بحجة ان هذه طريق خطيرة . ثم عرضت جمهورية البندقية عقد عصبة ضد الاتراك ودخل في هذا التحالف امبراطور القسطنطينية وفرسان رودوس واتفقت الحلف بين فرنسة والبندقية بحضور البابا يوحنا الثاني والعشرين في آفينيون وأعلن البابا فيليب السادس المسمى دوفالوا « De Valois » قائداً للزحف الصليبية واكتب للذهاب ثلاثمائة ألف مقاتل . وكانت السفن التي في المراسي قد تهيأت لنقل ستين ألف مقاتل دفعة واحدة . وبينما هم على قدم الزحف اذ نشبت الحرب بين انكلترة وفرنسة فتوقف كل شيء ثم جاءت الأخبار بتهاقت سلطنة يزانطيه من كل جهة وتداعى اليها السقوط فخارت الغزائم وفي سنة ١٣٨٠ وسنة ١٣٩٠ عقدت البندقية وجنوة وغيرها من الجمهوريات البحرية معاهدات تجارية مع الترك وفي سنة ١٣٨٩ أحرز الترك ذلك النصر العظيم في قوصوه ثم في سنة ١٣٩٦ انتصر الترك انتصاراً باهراً في نيقوبوليس على الجيوش المجرية والافرنسية وأخذ كثير من أمراء الفرنسيس وفرسانهم أسرى ولم يبق في القرن الرابع عشر محل لحملات صليبية . واستمر امبراطور القسطنطينية يرسل بالصريح الى أوربة فأرسل الى كارلوس الرابع ملك فرنسة يستعديه على الاتراك وأعلن البابا غريغوريوس الثاني عشر الحرب الصليبية على المسلمين في ٩ نوفمبر سنة ١٤٠٧ الا أن الترك استولوا على القسطنطينية وقبرص وازدادت الآمال خيبة وآل الأمر الى أن توما باليولوج باع من ملك فرنسة كارلوس السابع لقب امبراطور المشرق ولكن لم ينفع هذا شيئاً ولما نشبت الحرب بين ملك فرنسة المذكور وبين البابا اسكندر السادس اضطر البابا الى عقد معاهدة مع السلطان بايزيد العثماني ضد ملك فرنسة الذي كان ينوى فتح الأراضى المقدسة .

ثم المشروع الثاني عشر وهو منسوب الى «برتراندون دولابروكيار» Bertrandon de la Broquière وتاريخه سنة ١٤٣٢

وكان هذا الرجل من أخصاء « فيليب لوبون » دوق بورغونيا أرسله الدوق الى الشرق رائداً لما كان في نفسه من القيام بحرب صليبية . فذهب الى القدس سنة ١٤٣٢ وعاد الى فرنسا من طريق البر فر بدمشق وانطاكية وبرسا وغاليبولي والقسطنطينية وأدرنه وفيلبه وصوفيا وبلغراد وفيينا ووصل الى بلاط سيده دوق بورغونيا في سنة ١٤٣٣ وهو باللباس الشرقي وعلى جواد كان اشتراه في دمشق . وقد كتب رحلته هذه بلسان ذلك الوقت وتقحها باللسان الافرنسي الحديث المسيو « لوغران دوسى » Legrand d'aussy ونشرت سنة ١٨٩٢ ونسختها الاصلية هي في المكتبة الوطنية بباريز ومن رأى «دولابروكيار» ان الملك المسيحي الذي سيحارب المسلمين لا ينبغي له أن يفكر بمجد ولا بحسن أحدوته وإنما ينبغي أن يكون عمله مجرداً لله وانه لا يوافق أن تكون أرزاق الجيش الصليبي من النهب والغصب وإنما يؤدون ثمن الاقوات كلها الى من يبيعهم اياهم الى أن يدخلوا بلاد الاتراك ومن رأيه أن البابا يقدر أن يقوم بنفقات الحملة الصليبية . وقد تكلم دولابروكيار عن الروم فطعن فيهم وطعن في المجر أكثر مما طعن في الاروام وقال انه يأمن الى تركي أكثر مما يأمن الى مجري . ولما وصل الى غلطة في القسطنطينية تلاقى مع «فورينو» معتمد دوق ميلانو في الشرق وذهبا معاً الى السلطان مراد الثاني في أدرنه لأجل تبليغه رسالة من قبل دوق ميلانو معناها أنه يأمل من السلطان أن يتخلى للإمبراطور سيجيسموند عن بلاد المجر والبغدان والبلغار وبوسنه وألبانيا . فأجابهما السلطان قائلاً : « سلما على أخي دوق ميلانو وقولا له ان طلبه هذا غير معقول لا سيما انه ما وجد الامبراطور أمامي في معركة الا انهزم أولاً بالفرار » .

ثم المشروع الثالث عشر وهو المنسوب الى « فيليب لوبون » دوق بورغونيا وتاريخه سنة ١٤٥٧

وهذا الدوق كان ينوي دائماً تجريد حملة صليبية على السلطنة العثمانية قبل فتحها للقسطنطينية وبعده . وكان الامبراطور يوحنا باليولوغ صاحب هذه البلدة استصرخه سنة ١٤٤٢ فجهز أسطولاً عاث ونهب وعمل أعمالاً قرصانية الا انه لم يقدر على شيء يذكر . ولما

سقطت القسطنطينية في أيدي الأتراك نذر الدوق أن يزحف بنفسه لحرب الترك وكان مراده أن يقصد القسطنطينية رأساً زاعماً انه يجب قطع جذع الشجرة قبل أغصانها . وكان يبني آماله على الأمم المسيحية التي في البلقان . وبعد أن رسموا له خطة السير وعين هو القواد وبدأ بالتجهيز ووعده لويس الحادي عشر ملك فرنسا بعشرة آلاف مقاتل لهذه الصليبية جدت عواتق منعه من اتمام عمله ومات البابا بيوس الثاني الذي كان ظهيراً له في هذه النية وفي هذه المدة كان الأتراك يسرون من فتح الى فتح في شبه جزيرة البلقان حتى استصفوها كلها وبقيت في أيديهم بعد ذلك أربع مائة وستين سنة

ولهذا لانجد في القرن الخامس عشر مشروعات صليبية الا قليلا . وما استؤنفت هذه المشروعات الا في أواخر القرن السادس عشر بعد واقعة ليبانت البحرية الشهيرة التي انكسرت فيها شوكة الأتراك . وكان من أواخر الدعاة الى الصليبية الراهب « كاسبستبرانو » Caspistrano الذي حضر حرب بلغراد سنة ١٤٥٦ وطاف في اسبانية وفرنسة والمانيّة وبولونية وبلاد المجر داعياً الى الحرب المقدسة ومعه صليب وراية أعطاه اياهما البابا مع صورة القديس برناردينو . ومات هذا الراهب الصليبي سنة ١٤٥٦ بعد واقعة بلغراد بثلاثة أشهر

ثم المشروع الرابع عشر المنسوب الى كارلس الثامن ملك فرنسا وتاريخه سنة ١٤٩٥ وقد كان هذا الملك يفكر في استخلاص بلاد اليونان من أيدي الترك ثم الزحف الى القسطنطينية ومنها الى الارض المقدسة . وكانت غارته على ايطالية انما هي على نية اتخاذ مدينة نابولي قاعدة بحرية يشحن منها الأساطيل الى الشرق . وأصل هذه الفكرة عند كارلس الثامن هو ان والده لويس الحادي عشر كان قد قال في سنة ١٤٧٨ لوفد ايطالى : « انى ابتهل الى مريم العذراء المجيدة أن تمنح ولدى العزيز شرفاً عظيماً ذلك بأن تمكنه من الذهاب بنفسه الى الشرق ومعه نبلاء فرنسا وفرسانها لقتال التركي المكروه وغيره من الجاحدين » ولما أرسل « لودفيك سنورزا » رسله من ميلانو الى كارلس الثامن سنة ١٤٧٨ يستحثه على القدوم الى ايطالية بعث يقول له : ان السلطان العثماني في القسطنطينية لا يخشى أحداً خشيتَه من الأمة الافرنسية . قال « دوفونسان » : De Foncemagne انه كان من السهل اقتناع كارلس الثامن بأن فتح نابولي انما هو مقدمة لفتح القسطنطينية وان لقبه « الملك المسيحي كثيراً » يستدعي ذلك

فرحف كلرلس الثامن الى ايطالية في شهر يوليو سنة ١٤٩٤ وفي شهر ديسمبر من تلك السنة كتب الى بعض أساقفة فرنسة قائلاً : ليست نيتنا منحصرة في فتح نابولي وإنما هي ترمي الى تأييد الكنيسة والاستيلاء على الارض المقدسة

ونشر كلرلس من فلورنسة منشوراً قائلاً فيه : « اتنا اقتداءً بآبائنا ملوك فرنسة المسيحيين كثيراً نريد أن نمنع بما أوتينا من قوة هذه الموبقات الكثيرة التي يرتكبها الأتراك بحق الديانة المسيحية وقد أخذنا على أنفسنا أن لانضن بنفسنا ولا بشيء من وسائلنا في دفع هؤلاء الطواغيت الأتراك والاستيلاء على الارض المقدسة وغيرها من الممالك التي انتزعوها من أيدي المسيحيين »

وذكر انه انما يريد بفتح مملكة نابولي العبور منها الى المشرق . ونظمه « غيلوش دو بوردو » أحد شعراء الوقت قصيدة يقول فيها « انه سيتوج ملكاً على الروم ويدخل الى اورشليم ويصعد الى جبل الزيتون »

وكان « اندرى باليولوغ » قد أمضى صكاً مؤرخاً في ٦ سبتمبر سنة ١٤٩٤ ينزل فيه عن حقوقه في تاج القسطنطينية لملك فرنسة . وكان دخول كلرلس الثامن الى رومة في ٣١ ديسمبر سنة ١٤٩٤ وكان استيلاؤه على نابولي ودخوله اليها بالتياب القيصرية في ٢٢ فبراير سنة ١٤٩٥ وطلب من البابا اسكندر السادس (بورجيا الشهير) أن يسلمه الأمير جم أختا السلطان بايزيد الذي كان ملتجئاً الى رومة ثم كتب الى رئيس فرسان رودس يكاشفه بما نواه من « نشر الديانة المقدسة الكاثوليكية وتحرير المسيحيين مما هم فيه من الخنوع للأمة الجاحدة واسترداد الأراضي المقدسة المغصوبة »

فأجابته رئيس نظام فرسان رودس متفائلاً متيميناً مؤملاً هذه المرة « استئصال شأفة الأمة للمعوية أمة محمد . . . » (١)

وكان الأروام منتظرين قدوم ملك فرنسة . ونقل « كلود دو سسل » Claude De Saissel ان الأتراك ارتاعوا لخبر زحفه كلرلس الثامن وكان منهم حامية في

(١) هنا ألفاظ أبتنا نقلها وهذه المكتوبات هي في صفحة ٤٩ من كتاب « مائة مفروع تقسيم لتركيا »

بلاد المورة فأخذوا يشترون قبعات من الأروام ليلبسوها ويتزيوا بزى الافرنج أملاً بتسكين
حدتهم (١)

ورفع كثير من الأرنأوط الراية الفرنسية . وبلغ السلطان خبر عزيمة ملك فرنسا
فجزم بمائة وعشرين سفينة حربية وحشد ٤٠ ألف مقاتل . وقيل ان كثيرين من رعايا
السلطان المسيحيين كانوا متحفيين للثورة . الا أنه حصل ما فت في عضد ملك فرنسا
فالأمر جم أخو بايزيد مات في ٢٥ فبراير سنة ١٤٩٦ قيل ان السلطان بايزيد رشا البابا
اسكندر بورجيا حتى سمّه . وانضم أعداء كارلس الثامن الى السلطان منهم الفونس الأراغوني
ومنهم البابا نفسه . وانعقد الحلف المسمى بعصبة البندقية وحاربت هذه العصبة ملك فرنسا
وظهر عليها الا أنه اضطر أن يرجع الى فرنسا

غير أن الهيجان على الأتراك في أوروبا بقي يشتد في أوائل القرن السادس عشر .
وكتب البابا يوليوس الثاني في ٢٧ مارس سنة ١٥٠٨ الى فلاديسلاس ملك المجر وبوهيميا
بأن الامبراطور مكسيميليان ولويس ملك فرنسا والبنادقة تألبوا يداً واحدة على الأتراك
ولم يتم شيء الى زمن البابا لاون العاشر فهو أشهر من اشتهر باغراء النصرانية بقتال
الأتراك . وعمله يسمى بالمشروع الخامس عشر وتاريخه من سنة ١٥١٥ الى سنة ١٥١٧
ومذ أعلن مجمع الكرادلة انتخاب البابا المذكور وأبلغه مالوك المسيحيين استجلب أنظارهم
نحو قضية الاتحاد لأجل محاربة الأتراك . ثم كتب البابا نفسه الى الامبراطور مكسيميليان
وملك انكلترا وملك بولونية والدوق بازيل المسكوبي . ثم انه كرر هذا الاستنفاذ سنة ١٥١٥
في الجلسة التاسعة من مجمع لاتران . ثم وعد فلاديسلاس ملك المجر بخمسين ألف دوكا (٢)
ثم أنفذ الكردينال « سادوله » Sadolet من قبله الى لويس الثاني عشر ملك فرنسا
ينتدبه ليقود حملة صليبية جديدة كما قاد « غودفروا دوبريون » الصليبية الاولى . ولما آل
ملك فرنسا الى فرانسوا الأول تلاقى معه في مدينة « بولونية » Bologne وحرصه على قتال

(١) يظهر أن فكرة لبس القبعة عند الترك والتزي بزى الافرنج أملاً باكتساب عطفهم لم تكن جديدة
فقد تولدت منذ سنة ١٤٩٥ ولكنها لم تتحقق بالفعل الا سنة ١٩٢٥ وما كذب ابن خلدون الذي قال
ان المغلوب مولم بالاقتداء بالغالب

(٢) سكة في ذلك العهد كانت قيمتها من ١٠ فرنكات الى ١٢ فرنكا فرنسياً

الأتراك . وكتب أيضاً الى ملك البرتغال يدعوه لهذه الحرب مع سائر ملوك المسيحيين ثم عاد الى مطالبة فرنسوا الأول بإنجاز وعده . ولما افتتح السلطان سليم الأول الشام ومصرأً وازدادت بسطة السلطنة العثمانية كتب البابا الى فرنسوا الأول يقول له : أما لهذا الليل من آخر؟ وبعد ذلك اجتهد البابا أن يؤلف بين الامبراطور وملك فرانسة وملك قشتالة ويوحد حركتهم لحرب الأتراك . وقد انتدب لجنة خاصة رسمت خطة حربية لقتال الدولة العثمانية كان من جملة ما فيها مداخلة بعض ملوك الاسلام من أعداء هذه الدولة واستعدادهم عليها . وسنة ١٥١٧ في ٥ مارس أعلن البابا هدنة خمس سنوات بين ملوك النصارى . وحينئذٍ لبي نفيه ملك فرانسة فرنسوا الأول وملك اسبانية كارلس وملك انكلترة هنرى الثامن وملك البرتغال عمانوئيل وملك المجر لويس وملك بولونيا سيجيسموند وملك الدانمرك كريستيان وملك ا كوسيا جاك وانعقد بينهم اتفاق بتصديق البابا . ثم في سنة ١٥١٨ انفذ البابا أربعة كرادلة يستحث هؤلاء الملوك في تجهيز الجيوش وأقام حفلة طواف في شوارع رومة سار هو فيها والكرادلة حفاة . الا أن جميع هذه الندابير قضى الله يومئذ باحباطها ومات الامبراطور مكسيميليان الأول سنة ١٥١٩ وتوقف مشروع هذه الصليبية . ثم ان الترك استولوا على بودابست واستصفوا كل بلاد المجر التي بقيت في يدهم مائة وسبعاً وأربعين سنة وحاصروا فينا فاضطر شرلكان امبراطور ألمانيا الى طلب محالفة ملك فرانسة خوفاً من الترك

الا أنه لم يلبث الترك أن عقدوا الصلح مع اوستريا سنة ١٥٣٣ فاضطر فرنسوا الأول من جهته أن يتودد اليهم وأرسل « لافوره » Laforest في السفارة الى تركيا وعقد معها معاهدة ولاء . ومن ذلك الوقت بقي فرنسوا الأول يستنصر السلطان سليمان في حروبه مع شرلكان وسنة ١٥٤١ سرح السلطان أسطوله تحت قيادة خير الدين بربروس الى بحر مرسيلية لانجاد الاسطول الافرنسي . ولما جلس هنرى الثاني على عرش فرنسة بقي محافظاً على الولاء لتركيا ولم تتصرم العهود بين الدولتين الا في أيام أولاد هنرى الثاني

وما تحالف فرنسوا الأول مع السلطان الا اضطراراً وخوفاً من خصمه شرلكان . قال روسو صاحب تاريخ « العلاقات السياسية بين فرنسة وتركيا » ان نتيجة تلك المحالفة بين تركيا وفرنسة قد كانت انقاذ فرنسا من مطامع شرلكان . ونقل عن أحد أمراء فرنسة

« ان فرنسة لا ينبغي لها أن تهمل أمرين مهما كان من الموانع دونهما : الاتفاق مع الشعب السويسرى والتحالف مع تركيا »

وهناك المشرع المنسوب للامبراطور ماكسيميليان وهو المشروع السابع عشر وتاريخه سنة ١٥١٨

وكان البابا لاون العاشر قد أفتح الامبراطور بلزوم محاربة الترك . وفى معاهدة الامبراطور مع لويس الثانى عشر سنة ١٥١٣ جرى ذكر هذه القضية وكذلك خاطب الامبراطور نواب الامة عند اجتماعهم فى « مالين » قائلاً لهم : « اتنا بالاتفاق مع سائر ملوك المسيحيين نفكر فى حملتنا المحمودة المقدسة على الترك » ولما سأله البابا عن الطريقة العملية التى يراها لأجل اشغال هذه الحرب على الأتراك اجابه بتقرير مفصل ذكر فيه لزوم الاتفاق بين ملوك المسيحيين ودخول ملك فرنسة فى هذه الحرب وأن تستمر الحملة مدة ثلاث سنوات متواليات وأشار بتحريك العجم من جهة وتحريك سلطنة مرا كش من جهة أخرى لمشاغبة آل عثمان . ثم ذكر ملوك النصرى الذين يجب أن يدخلوا فى هذه الحرب المقدسة فقال انهم الامبراطور وملك البرتغال وملك فرنسة وبولونيا والمجر وان ملك فرنسة يجب أن يسير من طريق ايطاليا فيعبر البحر الى دالماسيا وينضم اليه البولونيون والفلاخيون والبغدانىون ويهاجون جميعاً ادرنة هذا فى السنة الأولى ، وأما فى السنة التالية فيكون ملك البرتغال استولى على شمالى افريقية والاسكندرية ويأتى فيتلاقى مع ملك فرنسة وملك بولونيا فى بلاد اليونان ويحملون جميعاً على القسطنطينية وبعد فتحها يسهل فتح آسية الصغرى والأرض المقدسة . ثم يصير توزيع الممالك المفتوحة على ملوك المسيحيين بمعرفة البابا ومجمع الكرادلة

وقدمت عقد هذا الاتفاق وتقرر العمل به ووعد ملك اسبانية بتجهيز ٢٣ الف مقاتل لهذه الحرب وبيناهم فى التأهب اذ مات الامبراطور مكسيميليان فى ١١ يناير سنة ١٥١٩ فتوقف كل شئ الى ما بعد انتخاب قيصر جديد

ثم مشروع « ايرازم » Erasme وهو الثامن عشر وتاريخه سنة ١٥٣٠ وكان ايرازم هذا من مشاهير رجال الأدب ولد فى روتردام سنة ١٤٦٧ ومات فى بازل سنة ١٥٣٦ وقد كانت دعوته للحرب الترك من آثار دعوة البابا لاون العاشر ومن آثار فتح الترك لبلاد

المجر . وكان ينادى ان الترك لم يتقدموا في اوروبا الا بسبب انقسام المسيحيين وكان يغضب لقول بعضهم ان الدين يمنع الحرب ويقول : ان المسيحي لا يمكنه أن يعيش ان لم يصرع الترك . وكان يقول للاوربيين : لا تهولتكم عظمة السلطنة العثمانية فان السلطنة الرومانية والفتوحات الاسكندرانية كانت أيضاً بمنتهى العظمة وقد جاء وقت انقضت فيه . ولم ينظم ايرازم برنامجاً للعمل وانما كان يثير الأفكار ويحرك الهمم

ومثل مشروع ايرازم هذا مشروع « نانيوس » Nannius وهو التاسع عشر وتاريخه سنة ١٥٣٦ وكان نانيوس هذا راهباً هولاندياً عالماً ولد في « السكار » Alkmar سنة ١٥٠٠ ومات في « لوفان » Louvain سنة ١٥٥٧ وكانت دعوته بعد دعوة « ايرازم » بثلاث سنوات . وهي تتضمن الجواب على دعوى أن الديانة المسيحية انتشرت بدون سفك دماء فيقول نانيوس : ان المسيحيين الأولين كان عندهم صبر وجلد وكان استشهاده مؤمن واحد في سبيل الدين سبباً لاهتداء الف نفس . وأما فيما بعد فقد تغيرت الحال وهذه سبعة قرون مضت والأمة الجاحدة تهين المسيحيين ولا يهتدى بهذه الاهانات أحد الى المسيحية . وكلما انتصر الأتراك وتقدموا ازدادوا استمساكاً بعروة دياتهم . ثم ان الاسلام قد غزا آسية وافريقية واوروبا ولذلك أصبحت محاربة المسلمين ضرورة من الضرورات لا مناص منها . والتركي ان لم تحاربه انت كان هو الذي جاء يحاربك فلا بد اذاً من محاربتهم ولو اتفق المسيحيون لآبادوا الأتراك ولكن هؤلاء اتهموا فرص الاختلاف بين المسيحيين وقد أدخل الاروام الترك في بلادهم هم بأيديهم كما يتجرع الانسان السم بيده وما فتوحات الترك الا انتهاز فرص . ومتى قاومهم المسيحيون حق المقاومة هزمهم أفلم ينهزم سليمان عن فينا

ومن قبيل مشروع نانيوس هذا مشروع « كوسبينيانوس » Cuspinianus الطبيب الالماني من فرانكفونيا كانت ولادته سنة ١٤٧٣ ومات سنة ١٥٥٩ وكان من مستشاري الامبراطور مكسيميليان ومشروعه هو العشرون وتاريخه سنة ١٥٤١ وقد ذكر في أول كتابه أصل الأتراك وكيف دخلوا شبه جزيرة البلقان وكيف حاولوا فتح فينا . ثم أخذ يتكلم بسقوطهم ويورد العلامات التي تؤذن باسترداد المسيحيين للقسطنطينية قال : ان راهباً تكهن قبل فتح الترك للقسطنطينية بان المسيحيين سيعودون اليها بعد ثمانين

سنة . وقد مضى من المدة تسع وسبعون سنة ولم يبق الا سنة واحدة . واورد كلام متنبى*
آخر فلكى من نابولى اسمه « منياننيس » نظم نبوته شعراً وهى فى هذا المعنى . ثم اشار
الى ملحمة لاتينية قديمة مضى عليها مائة سنة موجودة فى ماغد بورغ ما لها ان رجلاً من
اعقاب شارلمان يكون اسمه كارلس هو الذى يعيد السلطنة الشرقية .

ثم ذكر كوسبينيانوس تاريخ آل عثمان الى السلطان سليم عاشر سلطان منهم . ثم
أشار الى الطرق التى يمكن المسيحيين أن يدخلوا منها الى شبه جزيرة البلقان ويطردوا
الترك من أوربة وقال انه يجب اتخاذ خطة الهجوم اقتداءً بانيبال وقبصر . وذكر مواقف
جان هونيد الشهيرة وقال لو اتفق الالمان والمجر بدلاً من أن يتقاتلوا لطردهم الى
آسية . ونهاية كلامه حث الامبراطور شرلكان على قتال الترك

ثم المشروع الواحد والعشرون لمحاربة الترك وهو المنسوب الى « جيور جفيتز »
Georgevits تاريخه سنة ١٥٤٢ وكان جيور جفيتز هذا رحالة مجرى نشأ عند الأتراك وقيل
بقي أسيراً عندهم مدة ثلاث عشرة سنة وانتهت حياته فى رومة سنة ١٥٦٠ وكتب تاريخ وقوعه
فى الأسر وما عاناه فى موطنه فى الترك وذكر فى كتابه ملاحم تشير الى انقراض السلطنة العثمانية .
وكان يرجو أن يهتدى الترك الى الدين المسيحى . وقد كان نداؤه لمحاربة الترك حرباً صليبية
موجها الى الارشيدوق ماكسيميليان النمساوى . وقال : ان السلام الآن بين ملوك المسيحيين
كاد يكون عاماً فلا يجوز التوقف عن حرب الترك فألمانيا تقدر ان تجتهد لقتالهم بدون عناء
٥٠ ألف راجل و ٢٠ ألف فارس ومثل ذلك ملوك ايطاليا ويرجى من فرنسة واسبانية ان
تجهزاً أكثر من هذا العدد ويمكن هولانده ان تجهز ١٠ آلاف فارس و ٢٠ ألف راجل وفى
استطاعة المجر ومورافيا وسيليزيا وبوهيميا وبلاد الدانوب تقديم ٦٠ ألف مقاتل . قال
المؤرخ دجفارا : انه لو كان احتشد وقتئذ ٢٢٠ ألف راجل و ٩٠ ألف فارس لكان جيشاً
عمرماً وكان يرجى منه العمل . ولكن جيور جفيتز يقع فى التناقض مع نفسه عندما يقول :
« إن الجندى المسيحى لا يفكر الا فى الأجرة التى يأخذها وان الجندى المسلم يترك كل رذيلة
اذا صار الى ميدان الحرب »

وفى سنة ١٥٤٢ ظهر فى مدينة « انفرس » (بلجيكا) نشرة فيها نداء للنصرانية

ان تتحد وتزحف نحو الأتراك وتقهر هذه الأمة الجاحدة . . .

وفي السنة نفسها ظهر مشروع حرب صليبية للبرنس يواكيم الثاني من أمراء براندبورغ

Y Joachim II de Brandebourg

ثم المشرع الثاني والعشرون وهو المنسوب الى « غيليوم دو غرانترى دوغرانشان »

Guillaume De Grantrye De Grandchamps وتاريخه سنة ١٥٦٦ الى ١٥٦٧

وكان هذا الرجل أقام ثلاث عشرة سنة في القسطنطينية وعاد منها الى فرنسا مع

السفير دارامون D'Aramon سنة ١٥٥١ ثم في سنة ١٥٦٦ عينته فرنسا سفيراً في

تركيا نظراً لخبرته بأحوال تركيا . ولكن « غرانشان » لم يوفق كثيراً في سفارته هذه

الى حدان الملك كارلس التاسع كتب الى الصدر الاعظم محمد الصوقولى يقول له : « ان

غرانشان الذى عهدنا اليه بجميع أشغالنا في الشرق هو منتظر أن نرسل شخصاً بدلاً عنه

لانه لا يعجبكم » وسنة ١٥٧٠ رجع الى فرنسا ويده كتاب من السلطان سليم الثاني الى

ملك فرنسا وقد عين هذا مكانه سفيراً « فرانسوا دونواى » Francois De Noailles

وكان غرانشان يحلم أن يتزوج بالاميرة « كيانه » الفلاخية الرومانية ابنة الليفود

بترو الثالث أمير رومانيا ثم يرث بعد ذلك اماره رومانيا ولكن حلمه هذا لم يصح فاقترح

على الباب العالي أن ينصبه أميراً على الفلاخ والبغدان وانه هو في مقابلة ذلك يسعى في

تقريب الفرنسيس البروتستانت من الأتراك بحجة ان بين عقيدتى الفريقين تشابهاً وان

ينقل البروتستانت الفرنسيس Huguanots الى بلاد الفلاخ والبغدان . وكان يقوى أمله

في ذلك « سيجيسموند زابوليا » Zapolya أمير ترانسيلفانيا الذى كان يرجو مساعدة

غرانشان له في الحصول على وعد ملك فرنسا بتزويجه من الأميرة مرغريت أخته . وقد

أرسل الصدر الأعظم ترجمانه محمود بك يلتمس من ملك فرنسا تزويج أخته من الأمير

سيجيسموند المذكور ليكون فيما بعد ملكاً على بولونيا

الا ان أمراء الممالك المسيحية تزاجوا على الأميرة مرغريت هذه فالامبراطور

مكسيميليان أرادها لابنه رودولف وملك البرتغال « سباستيان » الذى لم يكن تجاوز

السابعة عشرة من العمر أرادها لنفسه وأسعفه في ذلك البابا بيوس الخامس فنارت حاسة

هذا الملك الشاب بما حركه من العشق وكتب الى البابا يشكره كثيراً ويقول : « انى ما أريد

بمصاهرة جلالة ملك فرنسا إلا أن أيمن له مقدار تقديري لشرف الاصحار له وإن أثبت لأوربة ما عندي من الوجد لانقاذ الكنيسة من ظلم الأتراك»
 لكن كارلس التاسع ملك فرنسا أبى الاتزويج أخته من « هنرى دوبروبون »
 أمير نافار الذى صار فيما بعد هنرى الرابع ملك فرنسا .

وقد كانت ايزابلا والدة الأمير « زابوليا » الترنسلفانى أرسلت الى هنرى الثانى ملك فرنسا ترجوه أن يتفق مع السلطان سليمان لعل هذا يرد الى ترانسلفانيا بلاد المجر السفلى ثم إن الأمير زابوليا تزوج بآنبة أختى الإمبراطور شرلكان . وكان زابوليا قد كتب الى السلطان فى ٤ ابريل سنة ١٥٦٤ يستأذنه فى الزواج وظهر من تقرير مقدم الى الإمبراطور إن السلطان سليمان كان يعامل الأمير زابوليا كأحد أولاده ولذلك كان سليم الثانى يعدّه كأخ له وكان زابوليا لا يتزوج الا من يرتضيها له السلطان والا يبقى عزباً . وكان مراد الترك أن يجعلوا أمير ترانسلفانيا ملكاً على بولونيا ليقف فى وجه الإمبراطورية الألمانية وإن يزوجه بأخت ملك فرنسا لاجل هذا الغرض . وقيل انهم كانوا يطمعون أن يجلسوه على عرش الإمبراطورية نفسه وعلى فرض لم يصح حلم الإمبراطورية له فيجمعون من بولونيا وترانسلفانيا والفلاخ والبغدان قوة تقف فى وجه الإمبراطورية الجرمانية . وكانت تركيا تساعد حركة البروتستانت فى أوربة وكان من جملة ما فكرت به الملكة « ماري دومديسيس » ابعاد « الهوغنوت » هؤلاء من فرنسا لاعادة السلام الى البلاد فكانت تفكر تارة فى ايطانهم ترانسلفانيا وبلاد الفلاخ والبغدان وطوراً فى ايطانهم جزيرة قبرص وأحياناً فى الجزائر الخ وكان « غرانشان » يعرف مقاصد الملكة ويجتهد فى تحويل هجرة الهوغنوت الى رومانيا ويعد ملك فرنسا بأنه إن أزوج أخته بأمر ترانسلفانيا وكان هواى غرانشان تولى على الفلاخ والبغدان فانه ينزل عنهما لصهر ملك فرنسا . وروى المؤرخ هامر Hammar^(١) ان الأمير الرومانى بطرس الاعرج وأمه « كيانه » كشفا للباب العالى دسائس غرانشان وبذلا فى القسطنطينية ٢٠ ألف دوكا لأجل احباط مساعيه ولكنهما لم يقدر على استرجاع الامارة لأنفسهما وإنما عين السلطان سليم الثانى اسكندر أختا بطرس أميراً على الفلاخ وأرسل بطرس وأمه الى قونية وأجرى عليهما

(١) أشهر مؤرخ أوربي لتركيا

الارزاق اللازمة

ثم ان البابا بيوس الخامس هياً مشروع الصليبية الثالث والعشرين وتاريخه سنة ١٥٧٠ ويقول المسيو فلان Flament انه هو التدبير الوحيد الذي وقف تقدم الاسلام . وكانوا في زمان البابا يوليوس الثالث قد استنفروا الناس أيضاً لقتال الترك ولكن القول لم يقترن بالعمل الا في عهد بيوس الخامس

وكان الامبراطور ماكسيميليان قد جمع أمراء ألمانيا والنمسا في اوغسبورغ للتذاكر في قضية الاتراك وأرسل البابا بيوس الخامس لشهود هذا المجمع من قبله الكرديال « كوماندون » ومعه « كانيوزوس » اليسوعي . فأجمع الأمراء الكاثوليكيون على الوعد بالسير لقتال الترك واستنكف عن ذلك أمراء البروتستانت . وقدم البابا للامبراطور لأجل تجهيز الحملة على الترك ٥٠ ألف دوكا وتعاهد عمانوئيل دوق ساقواي و « الفونس رستي » دوق فراري و « كوم مديسيس » و « غليوم غوزاغا » دوق ماتسو وجمهورية « لوك » Lucques وجمهورية جنوة على قتال الترك اجابة لدعوة البابا . وشرع هذا يصلى ويقدم ويذرف الدموع وقيل ان السلطان سليمان قال : « إني لأخشى من صلوات هذا البابا مالا أخشاه من جميع جيوشهم »

وكان سليمان قد شن الغارة على بلاد المجر وحاصر زيفت Zighet ومات قبل فتحها بثلاثة أيام (٣٠ أغسطس ١٥٦٦) وأخفوا موته عن الجيش الى أن تم الفتح وجاء ابنه سليم الثاني من الأناضول فرأى الأحوال مما يقتضى جنوحه الى الصلح فعقد هدنة الى ثمان سنوات مع الامبراطور مكسيميليان

أما البابا فلم يفتقر ولم يعدل عن مشروعه في جمع كفة النصرانية على الترك وكان يقول انه يجب على الأئمة المسيحية أن تسير قاطبة لقتالهم . ومما كتبه « ان السلطنة التركية قد تبسّطت تبسّطاً هائلاً بسبب نذالتنا الى حد أننا أصبحنا لانقدر أن نقف في وجه اعتدائها الا اذا اجتمع ملوك المسيحيين بأسرهم لصد هذا العدو العام وناشبهه القتال برأ وجرأ ولما كنا نحن على ثقة بأنه لا يوجد في المسيحيين ملك يقدر أن يقاوم سلطان الترك منفرداً بقوته كان لامندوحة لنا من أن ندعوهم جميعاً لقتاله ولخضد شوكة الأتراك أعدائهم جميعاً » فأرسل ملك اسبانية خمسين سفينة بقيادة « اندري دوريا » (اميرال شهير)

« بطرس دومونت » رئيس فرسان مالطة ثلاث سفن ودوق سافواى أربعا وكان أسطول البندقية تحت قيادة « زان » Zanne وأسطول البابا تحت قيادة « كولونا » Colonna وجاء الأسطول العثماني فرسى أمام جزيرة قبرص في أوائل يوليو سنة ١٥٧٠ وفي ٨ سبتمبر جرى هجوم عام وفتح الترك نيقوسيا قاعدة الجزيرة وفر الأسطول الاسباني وانكفأ أسطول البنادقة وأسطول البابا الى كورفو

واذ بلغ هذا الفشل البابا أرسل الى ملك فرنسا يقول له : « إن قضية الحلف المقدس هي عندنا من الأهمية بحيث أنها لم تترك لنا راحة لاني الليل ولا في النهار ولا نرجو لنا راحة الا في دخول جلاتك في هذا الحلف »

ولما أجابه كارلس التاسع معتذراً بالمعاهدات التي بينه وبين تركيا كتب اليه البابا يقول « ان جلاتك لاتبرأ من اللوم اذا كنت لأجل فائدة شخصية أو أية فائدة كانت تستمر على علاقاتك الودادية مع الكفار »

ومراد البابا بذلك انه وان كان ملك فرنسا مرتبطاً بعهود مع الاتراك فهو في حل منها وليس عليه أن يرعى عهوداً للمسلمين

فتأمل في هذا وقابله مع شريعة الاسلام التي هي في هذا الموضع محددة بهذه الآية : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

ومعنى ذلك أن على المسلم نصر أخيه المسلم على غير المسلم الا اذا كان بين هذا وبينه ميثاق فلا يجوز نقض هذا الميثاق بوجه من الوجوه . وكم جاء في القرآن الحث على حفظ العهود بازاء أى كان مسلماً كان أو غير مسلم . قال الله تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) وقال تعالى : (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا) الآية وقال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) الى أن

يقول: (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) وقال تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

فأنت ترى أن الاسلام لا يقيد المؤمن بالعهد اذا كان تجاه المؤمن ويطلقه منه اذا كان بازاء غير المؤمن كما فعل البابا بيوس الخامس الذي يصرح في كتابه ملك فرنسا بأنه لا يجوز له لمصلحة شخصية أو لأي سبب آخر أن يرعى عهوده للاتراك الذين هم غير مسيحيين .
وقابل قول البابا هذا بوصية سيدنا علي بن أبي طالب رضى الله عنه للاشتر النخعي عند ما ولاه على مصر وذلك في كتابه الشهير للاشتر قال كرم الله وجهه :

« وان عقلت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فخط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فانه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين (١) لما استوبلوا من عواقب الغدر . فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تحتلن عدوك فانه لا يجترى على الله الا جاهل شقي . وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحته وحرماً يسكنون الى منعته ويستفيضون الى جواره فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه . ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق فان صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وان تحيط بك من الله فيه طلبه فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك » اهـ

الخلاصة ان الامام علياً رضى الله عنه استقصى جميع ما يخطر بالبال في باب حفظ العهود ورد عن كل معتبر في نقضها ولم يجعل العهد مسؤلاً بازاء المؤمن وغير مسؤول تجاه غير المؤمن .

ونعود الى الكلام على حلف ملوك النصارى لمقاتلة الاتراك ونقول ان كارلس التاسع ملك فرنسا أبدى بعض معاذير لكنه كان في الحقيقة مستعداً لنكث عهده مع تركيا اذا ارتضى المسيحيون بتملك أخيم على بولونيا . وكذلك الامبراطور مكسيميليان كان اعتر للبابا بمعاودة بينه وبين السلطان سليم الثاني فرد البابا عذره هذا وأجاز له الخيس بعهده بحيث لم تمض أيام ثلاثة حتى نقض الامبراطور الميثاق الذي بينه وبين السلطان كما

(١) أى حال كونهم دون المسلمين في الأخلاق والموائد

حرر ذلك « دجقارا » في الصفحة ١٠١ من كتابه

ولما رأى البابا ثقافلا من سجيسموند ملك بولونيا عن اجابة النفير لحرب الاتراك
خاطب ايفان ملك الروسية . ثم انه أرسل الى فيليب الثاني ملك اسبانية يشكو اليه قعود
الاسطول الاسباني عن مناجزة اسطول الترك القتال ويعرض عليه نفقات الحرب فتقبل
فيليب ذلك بقبول حسن ووضع اسطوله تحت اشارة البابا . ثم ان هذا اختار الدون جوان
النمساوي Don Juan D'Autriche ابن شرلكان من احدى حظاياها قائداً عاما للحملة .
وسيراً أمراء ايطالية بعوتمهم فقدم دوق اور بنيو ألفراجل ودوق فراري ألف راجل و ٣٠٠
فارس ودوق ماتو ألفراجل و ٢٠٠ فارس ودوق ساقواي ألفي راجل و ٢٠٠ فارس وقدمت
جنوة ولوك ألفي راجل و ٢٠٠ فارس والدوق كوسم دومديسيس أربعة آلاف راجل وألف
فارس .

ثم انعقد التحالف في ٢٥ مايو سنة ١٥٧١ ونشر في ٢٥ يوليو . وهو الحلف المسيحي
الثالث عشر في وجه الدولة العثمانية منذ تأسيسها الى ذلك العهد . وقد جاء في صك هذا
الحلف « ان البابا بيوس الخامس وفيليب ملك اسبانية وجمهورية البندقية يعلنون الحرب
المهجومية والدفاعية على الاتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيين
ومن جلتها تونس والجزائر وطرابلس ^(١)

وكان البابا نفسه قدم للحرب ١٢ سفينة حربية وثلاثة آلاف راجل و ٢٧٠ فارساً
وتقرر توزيع نفقات الحملة على الوجه الآتي : النصف على ملك اسبانية والثلث على جمهورية
البندقية والسدس على البابا . ولما احتشدت أساطيل الحلفاء بلغت ٢٢٥ سفينة حربية و ٧٠
مركب نقل وكان اقلعها من مرسى مستيني في ١٥ سبتمبر سنة ١٥٧١ وكان الاسطول
العثماني ٢٤٥ سفينة حربية و ٨٧ مركب نقل أي أرجح من اسطول الحلفاء

وتلاقى الفريقان في خليج ليبانت ونشبت الواقعة البحرية الشهيرة وقضى الله
بتمحيص المسلمين وفتدوا ثلاثين ألف مقاتل وأخذ المسيحيون منهم ١٣٠ سفينة و ١٠
آلاف أسير . وكانت هذه المعركة مبدأ تقهقر السلطنة العثمانية

وقيل ان السلطان سليما الثاني قال لسفير البندقية بعد المعركة : « نحن عندما نفتح

لكم مملكة نكسر لكم عضواً لا يمكنكم تعويضه وأما متى خسرنا اسطولا فلا يكون ذلك
الا كالشعر الذي يذهب بالخلقة ثم ينبت «

والحقيقة ان نجم آل عثمان بعد هذه المعركة بدأ بالأفول وان ركب الاسلام شرع
بالقفل وان واقعة ليبانت كان لها مابعدا

ولا تسل عن الأفراح التي عمت أوروبا بهذه النصره وعن القصائد التي نظمها الشعراء
والخطب التي شققها الفصحاء وبلغ الفرح من البابا مبلغاً لا يحيط به الوصف الا أنه لم يستم
الى الدعة بعد هذا الظفر بل بقي يعلن على النصرانية ان عدوها لا يبرح شديداً وانها لا تزال منه
بخطر . ولم يكتف بانارة ملوك النصرانية على الترك بل حاول اثاره ملوك المسلمين الذين بينهم
وبين الترك ضغائن . ونقل المسيو دجفارا صورة كتاب من البابا المذكور الى طاماسب
شاه العجم من جملة ماجاء فيه : « لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم
على العثمانيين اذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات »

وأرسل البابا بواسطة البرتغال يستعدى ملك الحبشة والشريف مطهراً امام اليمن
على الدولة العثمانية ولكنه لم يعيش طويلا بعد هذه الفرحة لأنه مات في ١ مايو سنة ١٥٧١
وانحلت بموته تلك الرابطة وتصلحت البندقية مع الباب العالي وغضب البابا غريغو ريوس
الثالث عشر على البنادقة وكان هذا البابا قد اجتهد أن يقفو أثر سلفه في حرب الترك وجمع
لذلك الاسبانيول والبنادقة الا ان اسطول الحلفاء تفهقر أمام الاسطول العثماني والتجأ الى
نافارين (١٥٧٢) وانعقد الصلح بين تركيا والبندقية في ٧ مارس سنة ١٥٧٢ وبقيت في
أيدي الترك قبرص والمدن التي كانوا افتتحوها من ألبانيا وقدمت البندقية ثلاثمائة ألف دوكا
للسلطان و ٥٠ ألف دوكا للصدر الأعظم وزادت ما كانت تؤديه من جزية جزيرة « زاتى »
في المورة

ثم جد مشروع ايطالى لمحاربة الترك هو الرابع والعشرون وتاريخه سنة ١٥٧١
قال المسيو دجفارا ان ظفر المسيحيين في ليبانت أثار الجاسة في رؤوس كثير من
الاوربيين وشرعوا في ترتيب برامج ورسم خطط لمحو الدولة العثمانية من جلتها برنامجان
محفوظان في خزانه كتب « امبروزياما » في ميلانو أشار اليهما « جورغا » Jorga في
تاريخ السلطنة العثمانية وأحد هذين البرنامجين مقدم الى البابا ييوس الخامس وأكثر موضوعه

يدور على ايجاد المال اللازم لغزو الترك . وهو يحسب الاديار ١٤٤٠٠٠ والرعويات ٢٨٨٠٠٠ ويفرض عليها مبالغ معينة ويفرض مبالغ أخرى على الأمراء وبين كيفية اجتباء المال مما لا حاجة بنا الى ذكره . وأما عدد الجيش اللازم فيقدره صاحب أحد البرنامجين بمائة ألف راجل وخسين ألف فارس وخسين ألف بحرى . وهو يدخل في تفاصيل من جهة نفقات الحرب لا حاجة أيضاً الى ذكرها ويشير بسير الامبراطور الجرمانى من جهة البر وبسير اسطول الملك فيليب من جهة البحر وباتارة نصارى الشرق وبتوزيع الأسلحة عليهم وبكتابة شاه العجم لمهاجة الترك من وراء . وصاحب هذا المشروع يرجو هكذا تدمير السلطنة العثمانية ومن بعد تدميرها الاستيلاء على الأراضى المقدسة ويدخل في مشروعه الخاق مصر وقسم من بلاد العرب بالحبشة . وأما شاه العجم فيعامل معاملة صاحب ولو كان مسلماً ويجوز أن تكون هذه المعاملة سبباً لاهتدائه الى السكلكة . . .

وأما المشروع الثانى المحفوظ فى مكتبة ميلانو المذكورة فهو الخامس والعشرون

وتاريخه سنة ١٥٧٢

وصاحبه يذكر استعداد الأتراك للدفاع خوفاً من عادية الأوربيين ويقول ان لديهم ٢٥ ألف فارس فى المورة ومثلها فى شمالى بلاد اليونان فهو يشير بمهاجة الدردنيل والزحف من هناك الى القسطنطينية وهكذا يضطر الترك الى اخلاء المورة ويحتلها الاوربيون وأما بلاد الجزائر فيخشى ان هوجت أن تقاوم مقاومة شديدة وتأتيها نجات من سلطان فارس وأما قبرص فهى بعيدة عن أوربة وأما بلاد المورة والأرخييل فأهلها لا يشورون الا بعد انهزام الترك فالرأى الأولى عنده هو الزحف على الاستانة رأساً . وصاحب هذا المشروع يشكو تحاذل المسيحيين ويقول أنهم لو اتحدوا لما أبقوا للأتراك باقية ولكن دوق موسكو وملك بولونيا لا يعتمد عليهما . والنمسا ضعيفة بنفسها ولولا نجدة الألمان لها لأضافها الترك الى ممالكهم . وفرنسة مشغولة بمنافساتها مع الامبراطورية الجرمانية . وانكلترة واكوسيا والدانمرك والسويد بعيدات المزار وهن لا يلتفتن الى نداء البابا

قال صاحب هذا البرنامج : ان الذى يمكنه أن يصارع الأتراك هو ملك اسبانية ومعه ملك البرتغال . وأهم عدو للترك فى الشرق هو الشاه الصفوى لكن يحتاج الى المال والمدافع والسكرج يمكنهم أن يدافعوا الترك لكنهم لا يقدرون أن يهاجمهم . ولو كان العرب متحدين

لأمكنهم أن ينتزعوا من أيدي الترك مصر والشام . وكذلك عرب ليبيا وأفريقية ليسوا متحدين . وملك فاس لا يجرؤ على عمل حذراً من جيرانه . والنجاشي يمكن الاعتماد عليه لكنه لا يملك أسلحة نارية ولا أسطولا . قال : ولو كان عند دوق موسكو سفن بحرية لما كان أحد أقدر منه على مهاجمة الإستانة . والخلاصة أن صاحب هذا المشروع لا يعول في حرب الترك الا على البابا واسبانية والبرتغال وهو يقترح جمع الأموال وجعلها تحت يد البابا ومن رأيه الخدمة العسكرية الاجبارية لمحاربة الترك وأن يتجنّد الرهبان والقسيسون لهذه الحرب المقدسة

ثم المشروع السادس والعشرون وهو مشروع الكايتان « لانو » La Noue وتاريخه

سنة ١٥٨٧

هذا الرجل كان من أعوان هنري الرابع ملك فرنسا جرح في إحدى الوقائع في يده فقطعوه هاله ووضعوا له ذراعاً من حديد لأجل أن يتمكن من مسك اللجم فسمى من ذلك العهد « ذراع من حديد » وقد عاش في عصر كثير فيه تأود الأوربيين على شقاء نصارى المشرق من أروام وصرب وبلغار ومكدونيين فكتب « لانو » رسالة أشار فيها باتحاد مسيحي على الأتراك وتقسيم سلطنة آل عثمان ، وقال ان الضرر انما وقع من محالقات بعض ملوك المسيحيين للملوك المسلمين أعداء اسم المسيح . وقال ان ملوك المسيحيين لو اتحدوا لطرّدوا الترك في أربع سنوات ا قال دجقارا : ان « لانو » أفرط في التفاؤل فقد لزم بدلاً من أربع سنوات أربعمائة سنة حتى أمكن التغلب على تركيا

وكان من رأى لانو أن يزحف الامبراطور الجرمانى ومعه خيالة المجر والبولونيين من طريق بوسنه الى تراقيا وان يجتمع الفرنسيس والسويسريون والطيان ويقطعوا الادرياتيک الى ألبانيا فتشور معهم بلاد الأروام وان تسير أساطيل اسبانية والبرتغال قاصدة غاليبولى وان يضم البابا مائة سفينة حربية الى اسطولها . وكان يشير باستنفار الفلاخيين والبغدانيين أيضاً على الترك الخ

وكان لبرنامج لانو وقع عظيم في اوربة وقد استؤنف البحث فيه تحت أسماء اخرى

ثم مشروع « رينه دولوزينج » Rene De Lusinge وهو السابع والعشرون

وتاريخه ١٥٨٨

هذا الرجل من اسرة نبيلة في ساقواي حصل العلم في جامعة تورينو والتحق بدوق «ميا نزا» الذي كان مع الامبراطور الجرمانى في حرب الترك ثم جعله دوق ساقواي سفيراً له في باريز وله مؤلفات كثيرة باللاتينية والفرنسية منها كتاب اسمه « تاريخ منشأ الترك وتقدمهم وتقهرهم » ودعا فرسان النصارى لقتال الأتراك بالفاظ مهيجة تناول فيها الاسلام وصوراً ما يجرى من فظائع القتل والنهب على اخوانهم نصارى الشرق

وقبح اعتذارات المسيحيين عن عدم اتحادهم وقال انهم وان لم يتحدوا بعضهم مع بعض فيجب عليهم الاتحاد على العدو العام وقال انه يجب أن يعقدوا هذا الحلف فيما بينهم في زمان السلم

وكان يرى رأى « سانوتو » وهو أن المهجوم على تركيا يجب أن يكون من البحر . وقال ان السلطنة العثمانية متداعية الى الاضمحلال بعوامل داخلية . قال دجقارا : ان لوزينج لم يخطئ في هذا الرأى ولقد كان بعيد النظر فيه لانه تحقق بعد أعصر من ذلك العهد ثم مشروع البابا اكليمنضوس الثامن وهو الثامن والعشرون وتاريخه ١٥٩٤ — ١٦٠٠ وقد كان هذا البابا جاداً مشيحاً فلم يجلس على عرش البابوية في ٥ يوليو سنة ١٥٩٢ حتى أرسل الى الامبراطور رودولف يستنفره لحرب غير المؤمنين . وامتاز هذا البابا على غيره بكونه أرسل الى الشرق عدداً كبيراً من القصاص والدعاة لتحريك المسيحيين على الثورة ومقاتلة الترك ومنهم « كوميليو » Cumulco الذى كانت مهمته أن يجمع على مشاغبة الترك العجم والقوزاق والترانسيلفانيين والقلاخ والبغدان والبلغار . وأشخص الى مصر « كاميليو كاتانى » Camillo Caetani أسقف سرفيا فارسل بطريك الاسكندرية الى البابا بمقابلة ذلك معتمدين من قبله . ثم أرسل الى براغ (بلاد التشيك) « سيزيانو » أسقف « كريمون » Crémone والكردينال مادروزو Madruzzo وأرسل الى بولونيا « مالاسينو » أسقف « سان سيفرو » Saint-Severo وأرسل الى جبل لبنان اليسوعيين « دانديني » Dandini و « برونو » Bruno وراسل الروس وهم أنفثوا اليه بعض مطار ينهم . ولم ينس العجم بل أنفذ الى فارس الاب كوستا والاب « دياغوميراندا » وسعى كثيراً باقناع سجيسموند أمير ترانسيلفانيا بترك الاتراك لأن هذا كان متمسكاً بهم وكان يهون أمر الاتراك على ملوك المسيحيين ويبعث اليهم بما يترامى من أخبار ديب

الفساد والانحلال في تركيا وكان يوجع البولونيين كثيراً على قعودهم عن حرب الترك وأرسل « كاميل بورغيز » Borghese الى اسبانية يستعدى هذه الدولة على الترك ثم شفعه بمندوب آخر هو « آلدوبرانديني » Aldobrandini الذي هو ابن أخت البابا وما زال يفرى هنرى الرابع ملك فرنسا بعداوة الترك حتى كتب هذا الى سفيره في الاستانة « بريث » Brèves قائلاً له : « ان الأب الاقدس يأبى الا ان أضم الى ملك اسبانية وسائر ملوك المسيحيين ونحارب الترك »

وكانت رسالته تترى الى جميع الجهات بالاستعداد على الترك سنة ١٦٠٠ أرسل « ريموند دلاتورى » الى فيينا يطلب من الامبراطور الدخول في حلف مسيحي ضد الترك . وكان يقول ان الواجب جمع كلمة المسيحيين وتفريق كلمة المسلمين^(١) وكان يشير بأن يكون الحلف المسيحي عاماً وبأن لا يستثنى منه أحد ولا البروتستانت وأن يكون لأجل مسمى خمس سنوات بالأقل وان ترسل هذه العصبة الكرج والعجم والحبشة والأروام والارناووط والراغوزيين والبولونيين والفلاخ والبغدان وغيرهم . وأرسل الى الامبراطور مع الارشيدوق « ماتياس » برنابجا ثمانية بنود منها بنود تتعلق بكيفية الزحف على تركيا وكان يهم البابا ا كليمينضوس أمر الزحف على تركيا الى الحد الأقصى بحيث انه في مجمع سنة ١٦٠٠ تذكرا انشقاق ملوك ايطالية وما يخشى من عدم انتظام كلتهم على حرب الترك فأجهش بالبكاء . وسنة ١٦٠١ انكسر الحجر ومن ذهب لنجدتهم ومن جلتهم دوق « مركور » De Mercour والجنرال « آلدوبرانديني » ابن أخت البابا وقتل هذان فزاد حزن البابا وشرع يلح على هنرى الرابع في محاربة الأتراك وأرسل يسمعه انه يمكن اخراج الامبراطورية من آل « اوتريش » أى عائلة النمسا المالكة وانتخاب هنرى الرابع امبراطوراً وكل هذا ليحفزه على حرب حلفائه الترك ثم أراد أن يوفق بين هنرى الرابع ملك فرنسا وفيليب الثالث ملك اسبانية على شرط أن يتحدا في محاربة الترك فيينا هو يسعى في هذا الغرض اذ اطلع ملك فرنسا على دسيسة بحقه كان يدسها ملك اسبانية لخبط بها الاتفاق

ولم يقتصر البابا ا كليمينضوس في مناصبة الترك العدا على العوامل الخارجية بل

(١) على لسق سياسة الاستعمار اليوم

مديده الى داخل سلطنة آل عثمان وذلك كما يأتي :

كان في السلطنة العثمانية رجل من أعظم أركانها يقال له سنان باشا اشتهر اسمه شرقاً وغرباً وكان هذا الوزير العظيم طليانياً مسيحياً اسمه « سيبيون سيكالا » Scipion Sicala وقع في أسر الأتراك فأسلم وحسن اسلامه لأنه كان مسامحاً عن عقيدة لا عن غرض دنيوي وأسعفته فيما بعد ذلك الاقدار الى ان صار من أعظم رجال السلطنة العثمانية وأصبح هنري الرابع ملك فرنسا يراجع في المهمات التي له في الشرق . فالبابا اكليمنطوس الثامن فكر في اعادة سنان باشا الى المسيحية وأرسل اليه الراهبين اليسوعيين « انطونيو وفنسنزو سيكالا » اللذين كانا من أسرته . وقد نشر « رينيري » Rinieri عن هذه القصة وثائق كانت مجهولة وعلم منها ان لوكريس « Lucrece والدة سنان باشا كانت شاهدت ابنها في مسيني وراودته على أن يعود الى النصرانية . وذلك سنة ١٥٩٨ ولما لم تظفر ببغيته راجعت البابا في الأمر فاجابها بكتاب هناها فيه على مساعيها وقال لها انه يرجو رجوع سنان لا الى أمه الدموية فقط بل الى أمه الروحانية الكنيسة الكاثوليكية . ثم أرسل البابا الاب انطونيو سيكالا الى ارشيدوق النمسا وملك اسبانية يشاورهما في مشروع اعادة سنان باشا الى النصرانية

وكان لسنان باشا أخ يقي مسيحياً اسمه « كارلو سيكالا » تولى بواسطة وجاهة سنان في الدولة امارة جزيرة ناكسوس من جزر الأرخييل الاغريقي وكان يطمح الى أن يتولى في يوم من الأيام امارة الفلاخ والبغدان . فكتب البابا الى كارلو سيكالا في ٨ مايو سنة ١٦٠٠ بمكانه من امارة تلك الجزيرة يرجو منه العمل لاعادة سنان الى المسيحية . وفي اثناء ذلك صدرت الارادة السلطانية الى كارلو سيكالا بامارة جزيرة ناكسوس وبجلب أمه لتكون بجانبه فلحظ الناس من ذلك أن سنان باشا هو الذي استخرج هذه الارادة أملاً بان تجيء أمه وتهتدي الى الاسلام وكان قد كتب الى أخيه يستنجزه وعده بجلب أمه . ثم اجتمع سنان باشا وأخوه في جزيرة ناكسوس وقدم اليهما ابن عمهما « فنسنزو سيكالا » اليسوعي واطلع سنان على اقتراحات البابا وفيليب الثالث ملك اسبانية . وبعد ذلك بسنة أنفذ البابا الأب انطونيو سيكالا الى مجريط يلتمس من ملك اسبانية المعاوضة على اسقاط السلطنة العثمانية التي سيقوم سنان باشا نائراً عليها بعد رجوعه الى النصرانية . وكان برنامج

البابا أن تتولى أسرة مسيحية عرش الاستانة وأن يُحمَل شعوب تركيا على المسيحية^(١) ووعد البابا سنان باشا بأنه إن ثار على تركيا يكون من ورائه ملك اسبانية وجميع ملوك المسيحيين وان جميع ماينتزع من سنان من أيدي الترك من الولايات يصير اقطاعاً له داخل في ذلك القسطنطينية وغير مستثنى سوى الأرض المقدسة ودوقية أثينا اللتين ستكونان ملك اسبانية و بلاد المجر و ترانسيلفانيا التي ستؤول للإمبراطور . وكتب البابا اكليمينضوس الى سنان باشا في ٥ ابريل سنة ١٦٠٣ كتابين في أحدهما يعده بأنه يكون ملكاً على البلاد التركية التي يفتحها على شرط أن يحول أهلها الى العقيدة الكاثوليكية ويؤكد له بأنه في هذا الوعد على وفاق مع الامبراطور رودلف ومع ملك اسبانية اللذين سينجدانه بجيوشها وهو يدعو أن يجحد الدين الاسلامي أمام شهود وهكذا يغسله من آثامه السالفة . وأما الكتاب الثاني ففيه تذكير سنان بوعد بالرجوع الى حضن الكنيسة ووعده بأنه ان ثار على السلطان يكون الامبراطور وملك اسبانية وجميع ملوك المسيحيين ظهراء له وينختم البابا كتابه بوضع سنان باشا وعائلته تحت حماية الرسولين بطرس وبولس^(٢)

والحق انه لو تم هذا المشروع لكان ضربة شديدة على تركيا لكنه لم يتم . وسنة ١٦٠٣ حدث شغب في الاستانة ومات محمد الثالث . ثم في السنة نفسها فتح الشاه عباس كرجستان فزحف سنان باشا في ١٥ يونيو سنة ١٦٠٤ على رأس جحفل جرار الى أرمينية فهزمه العجم هزيمة شنيعة في ٦ أغسطس سنة ١٦٠٥ فانتحاش سنان الى ديار بكر حيث كان ابنه محمود والياً ومات فيها عمماً في تلك السنة . وكان له عدة أولاد منهم واحد روى « هامر » انه كان قد تزوج بأخت السلطان محمد الثالث

وأما البابا اكليمينضوس الثامن فمات قبل سنان باشا بتسعة أشهر خائب الأمل فيما

حلم به

ثم مشروع الأب كوموليو Cumuleo وهو التاسع والعشرون وتاريخه سنة ١٥٩٤ وكان هذا القسيس مكذوب الأصل عينه البابا غريغوريوس الثالث عشر زائراً رسولياً للكنايس اللاتينية في تركيا الأوربية وكان بحسب قولهم محمود السجيا نقيب الفكر نزيه

(١) يريد حملهم على ذلك بالقوة كما حمل بمسلى الأندلس

(٢) كتاب مائة مشروع لتقسيم تركيا صفحة ١٢٧

النفس على الهمة لا يعرف التعب ولا الملل إلا أنه قضى حياته يتعقب فكرة الانتفاض على الترك ودرهم إلى آسية

ومشروع « كوموليو » مشتق من مشروع البابا اكليمينوس الثامن إلا أن فيه معلومات خاصة تستحق الذكر

فهذا القسيس أرسله البابا إلى موسكو ففر بالبانيا وترانسيلفانيا في طريقه ثم عاج ببلاد الفلاخ والبغدان وكان يئده مراسيم من البابا إلى ملوك النصارى فيها بيان خطر الترك وتوصية لهم برفض كل معاونة للترك وان لم يمكن الرفض البات فتأجيلها أو وضعها في شكل سطحي فقط . وكان كوموليو مأموراً أن يعرف هل في وسع الفلاخ والبغدان والقوزاق أن يثوروا على الترك أولاً ؟ وان طلب القوزاق مالا للثورة فكان كوموليو مأموراً بأن يعدهم باثني عشر الف فلورين لكن على شرط أن لا تؤدي اليهم إلا إذا دخلوا بلاد العدو^(١) وكان « كوميليو » مأموراً بأن يسعى ويبقى دائماً على حذر من المسيحيين الأرثوذكسين وبعد أن طاف في هذه البلدان أرسل إلى البابا بتقرير يقول فيه إن البانيا فيها ٤٠ الف مقاتل وانه يمكن أن يخرج من مكدونية وايروس مائة الف مقاتل ومن المهرسك وكرواسيا ١٠٠ الف مقاتل ومن بوسنه وضاف الطونه إلى بلغراد ٢٠٠ ألف مقاتل ومن بلغراد إلى البحر مائة ألف مقاتل الخ وبالجملة يمكن أن يثور على الترك أربعمائة ألف شاكي السلاح . وكان كوميليو يرى الوسطة لاثارة هذه الأمم هو أن تبدأ الروسية بالزحف لقتال تركيا فإذا زحف مائة ألف مقاتل من الروسية انضمت إليه هذه المقاتلة من أمم البلقان وبلغ عدد الجميع نصف مليون مقاتل . وأما القسطنطينية فإن فتحها مستطاع بخمسين سفينة حربية . قال دجوفارا : يظهر من هنا أن الأب كوميليو كان عظيم الإيمان سريع الثقة ويظهر من مطالعة تقارير كوميليو إلى الفاتيكان ان أمير البغدان رضى بالدخول في الحلف المسيحي ضد تركيا وأما أمير الفلاخ فامتنع . وكان هذا الأمير هو الأمير الكبير ميشل الملقب بالشجاع وقد صار فيما بعد أميراً على الفلاخ والبغدان وترانسيلفانيا معا . واجتهد كوميليو كل الاجتهاد في منع الصلح بين النمسا وتركيا . ولكنه أخفق في موسكو وفي بولونيا وعند القوزاق . وآب إلى رومة سنة ١٥٩٨ ومات في أوائل القرن السابع عشر

(١) ماطبق هذه الدسائس على وصايا الانجيل الذي يبشر به هذا القسيس!

ثم المشروع الثلاثون لتقسيم تركيا المنسوب الى «لوتسيو» Lutcio وتاريخه سنة ١٦٠٠ ويوجد نسخة خطية من كتاب لوتسيو في مكتبة نابولي وهو مقسوم الى قسمين الأول يبحث فيه بحثاً فلسفياً عن عظمة الممالك وسقوطها ويذكر الاشوريين والماديين والفرس والمكدونيين واليونانيين والرومانيين وغيرهم ويقول ان المسلمين سيصيبهم ما أصاب غيرهم وان سفينة الاسلام العظيمة المشحونة بالذخائر والنقائس لا بد أن تفرق مثل غيرها . وكما ذهبت دولة الرومان ستذهب دولة الاسلام . والثاني يبحث فيه عن آل عثمان ويذكر تاريخ سلطان سلطان منهم ويقول ان السلطان مراد دخل الى بلاد اليونان من آسية ومعه ٦٠ الف مقاتل وان جيش بايزيد كان ٣٠٠ الف وان جيش مراد الثاني كان ١٠٠ الف وجيش محمد الفاتح ٣٠٠ الف وان سليمان حاصر فينا بمخمسائة الف . ومن بعد فشله امام قينا لم تزل قوة آل عثمان في هبوط . قال وقد كان قيام السلطنة الرومانية بالفضيلة وبحسن الطالع الذي كان يرافق الفضيلة فاما السلطنة العثمانية فليس لها أساس الاحسن الطالع لا غير . ولولا الاختلاف بين الروم واللاتين ما أمكن الترك أن يدخلوا أوربة . ثم أخذ لوتسيو يشرح حالة الدولة العثمانية وما طرأ عليها من الفساد وقال ان السلطان لا يراه أحد وهو عاكف على لذاته وان الوزراء لا شغل لهم الا نهب الرعية وان الديوان ليس بمجلس جد بل كل من فيه لا يعرفون الا التملق للسلطان وكم من وزير قتله السلطان لانه تجرأ على ابداء رأى مخالف لرأيه . وهكذا ساد في الدولة الكذب والنفاق واستفاض النكث بالعهود . قال «دجوفارا» وكان «لوتسيو» يورد هذه الانتقادات بحق الدولة العثمانية ثم ينسى غرضه فيعود فيورد أمثلة لها عند سائر الدول . وذكر ان مناصب الدولة صارت تطرح بالمزاد وان الجنود كثيراً ما تبقى بدون ارزاق بينما السلطان ووزراؤه وقرناؤه منغمسون في الترف . وبعد أن وصف كثيراً من مساوي أحوال تركيا انتهى الى القول بانه محكوم عليها بالانقراض

ولكنه من جهة ثانية كان يئن من اختلاف المسيحيين بعضهم مع بعض ويقول ان سبب بقاء تركيا الى ذلك الوقت هو تنازعهم . وكان يدعوهم الى الاتحاد ويبين لهم سهولة التغلب على تركيا وقيم الأدلة على أن محاربة تركيا حق وعدل ويقول « أي شيء أفضع من وجود قبر المسيح في أيدي غير المؤمنين »

وقد أطمى لوتسيو الباباوات الذين دعوا الى الحرب الصليبية وعددهم منهم لاون التاسع وأوربانوس الثاني وغريغور يوس الثامن ونيقولا الثاني وجيلاسيوس الثاني واسكندر الثاني وكاليكستوس الثاني وهو موسيوس الثالث ونيقولا الرابع واكليمنضوس الثالث وسلسستينوس الثالث واينوشنسيوس الثالث ونيقولا الخامس وبيوس الثاني وسيكستوس الرابع ولاون العاشر وبيوس الخامس

وكان رأى لوتسيو على المسيحيين هو المهاجة لا المدافعة وقال انهم اذا كانوا بعيدين عن أوطانهم ازدادت حاستهم . ثم أشار لوتسيو بأن يتولى رودولف الامبراطور الجرمانى قيادة الحملة التى يجب أن تزحف الى تركيا وقال ان هذا الامبراطور يستطيع أن يجند ٢٠٠ ألف ماش و ٥٠ ألف فارس وانه يجب أن يدخل فى هذه الحرب ملك فرنسا وملك بولونيا والروس . وقال ان الروس يقدرون أن يسوقوا الى ميدان الحرب ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف فارس و ٦٠ ألف راجل وان بولونيا تقدر أن تسوق ١٠٠ ألف فارس وليتوانيا ٧٠ ألفاً

قال وأما ملك اسبانية فيمكنه أن يصلى الحرب فى افريقية ويطرده الترك منها وانه يجب على البابا أن يجهز الأساطيل لمحاربة الترك فى البحر . وقد أثبت الله فى أيام البابا بيوس الخامس ان التغلب على الترك انما يكون فى البحر (١)

وقال انه يجب على جمهورية البندقية أن تدخل فى هذه الصليبية ان لم يكن تحمسا فى الدين فاخذاً بالتأثر عن « كورفو » و « كتارو » و « سريجو » و « زاره » (٢) وغيرها مما انتزعه الترك من يدها ومما كان يهون به صاحب هذا المشروع من أمر الترك قوله انه ليس عندهم قواد مهرة وان الانكشارية والسباهية أصبحوا لا ينقادون لقوادهم وأن لا أمل لتركيا بنجدة أحد من جيرانها . وأما غنائم الحرب فقد ترك لوتسيو تقسيمها للامبراطور وجعل للملك اسبانية حقاً فى الاستيلاء على افريقية . قال دجوفارا : ان هذه الأفكار التى خطرت نصاب هذا المشروع كانت منتشرة جداً فى أوربة فى النصف الأول من القرن السابع عشر

ثم مشروع « شافيني » chavigny وهو الواحد والثلاثون وتاريخه سنة ١٦٠٦

(١) يشير الى وثيقة ليبانت

(٢) بلدة على بحر الادرياتيك يسميها السعودى زهره

وكان هذا الرجل منجما ولد في « بون » Beaune (فرنسة) وقد كتب كتابا يدعو فيه النصرانية كلها الى الاتحاد على الأتراك ويعدّ الممالك التي ينبغي أن تدخل في هذه العصبة وكان يتألم أشد الألم لرؤية برابرة كالأتراك مسيطرين على المسيحيين ويقول ان السبب في ذلك كله انما هو الاختلاف الذي بين ملوك النصرانية والذي جعل الجيش التركي يمشی الى الأمام في أوربة كما في آسية وافريقية

ومآ جاء في هذا الكتاب في مقام التفرغ للمسيحيين ان جنودهم لا تعرف الا اتباع الشهوات البدنية وان معسكراتهم فيها من النساء أكثر مما فيها من المقاتلة وجاء فيه أيضاً أنه يجب طرد التركي الى أقاصى آسية الصغرى ويجب حل الأتراك على الديانة الكاثوليكية

أما تقسيم بلدان الاسلام فهو كما يلي :

الخلافة الامبراطورية يكون لها امبراطوريتا الغرب والشرق وتدخل في ممالكها بلاد المجر وتراقيا . ويكون لملك فرنسة بلاد الأناضول والشام . ويكون للانكليز مصر . ويكون للاسبانيول افريقية . ويكون للطليان جميع مراسى البحر المتوسط وجزأره . ويكون للبولونيين والدانمركيين والنورفيجيين والاسوجيين الأقاليم الشمالية وأراضيها الحصبة وأن « شافيني » هذا نظر الى الآتى من قبل ما وقع بثلاثة قرون فان كثيراً من هذا التقسيم الذى تخيلّه قد تحقق بسياسة الاستعمار الاوربي الحالى

وأما ما جاء في كلامه من التحريض على قتال المسلمين فحدث عنه ولا حرج وقد نقل كلام « جاك سادوليه » Sadolet مطران « كار بنتراس » carpentras في استجاشة المسيحيين لقتال الترك . ونقل كلام « لويس فيث » Vives الأسبانيولى عن « آلام المسيحيين المعذبين تحت أظافر التركي » وذكر استصراخ البابا اوربانوس الثانى لاغاثتهم وذهب كل هذا الصراخ سدى قال : فالتركي لا يزال قوياً وأحد صدور الدولة العثمانية قال انه لا يخشى المسيحيين ماداموا منقسمين وهم لم يبرحوا منقسمين

قال : وينبغي أن يتولى البابا والامبراطور وملك اسبانية كبر هذه الصليبية وان يدعى ملك فرنسة لنقض عهوده مع الأتراك ... وقال ان الجيش البرى يجب أن لا يقل عن ١٢٠ الفاً يتكون من الالمان والهولانديين والانكليز والفرنسيس والبولونيين

والبوهيميين والمجر الخ وينقسم الى قسمين أحدهما يسير تحت لواء الامبراطور والآخر تحت لواء الملك المسيحي كثيراً (أى ملك فرنسة) وأما الجيش البحرى فينبغى أن يجهزه ملك اسبانية الذى هو أقوى ملوك النصرانية وان يعضده البابا والبنادقة وسائر ملوك ايطالية ولا يجوز أن يقل عدده عن ٣٠ ألفاً . وتجب متابعة القتال مدة أربع سنوات

ولما كان « شافنى » منجماً كانت أفكاره دائماً مشغولة بالكسوف والخسوف والنجوم ذوات الذنب وقال ان انكساف الشمس لا بد من أن تعقبه حرب كبرى ثم المشروع الثانى والثلاثون من تقسيم تركيا وهو مشروع « سولى »
due de Sully وتاريخه ١٦٠٧

وقد كانت ولادة هذا الرجل سنة ١٥٥٩ ووفاته سنة ١٦٤١ واشتهر الى الدرجة القصوى بمعارفه الاقتصادية ولهذا تولى أمور فرنسة المالية . ومشروعه منسوب الى هنرى الرابع ملك فرنسة الا ان تحريره كان من قريحة سولى نفسه . وقد اختلف الناس فى هذه القضية فذهب « درايبرون » Drapoyron الى أن هنرى الرابع هو الذى فكر فعلاً بافتتاح السلطنة العثمانية وتقسيمها وتنظيمها وان هذا رأى كان هو الرأى السائد فى وقته

وأما فولتير فقال ان تقسيم أوربة الى خمس عشرة مملكة خيال باطل لم يفكر به هنرى الرابع

وأما غيزو Guizot فذهب الى أن الناس نسبوا الى هنرى الرابع احلاماً يبعد عن العقل أن يكون تخيلها . وأما « آلبر سورل » Albert Sorel فيقول ان المشروع هو قبح فكرة « سولى » وكذلك المسيو « هاوزر » Hauser فى الانسيكلو بيديا الكبرى والمسيو هانوتو فى مباحثه التاريخية عن القرن السادس عشر والسابع عشر فى فرنسة يقولان ان سولى هو أبو عنرة هذا المشروع وانه لا يتعداه

وذهب المسيو « بوارسون » Poirson صاحب تاريخ هنرى الرابع أن هذا الملك كان فكر فى تأليف مجلس عام يفصل خصومات الممالك المسيحية بدلا من فصلها بالسلاح . وهذه الفكرة الأولى هى لهنرى بقاء سولى وفرع عنها ما أوصلته اليه مخيلته من الترتيبات والتشكيلات

وقد جاء في كتاب سولى الذى نحن بصدده الموسوم « بتدابير هنرى الكبير السلطانية الحكيمة » ان غرض هذا الملك المحارب السياسى الكبير كان تأسيس شئ أشبه بجمهورية تكون دائماً سلمية مع المسيحيين وحرية بازاء غير المؤمنين Infideles وكانت الجمهورية الخلفية الاوربية بحسب تخيل سولى عبارة عن خمس عشرة حكومة ١ السلطنة الجرمانية ٢ مملكة البابا ٣ فرنسا ٤ اسبانية ٥ انكاترة ٦ المجر ٧ بوهيميا ٨ بولونيا ٩ الدايمرك ١٠ اسوج ١١ لومبارديا ١٢ البندقية ١٣ الجمهورية الايطالية ١٤ هولاندا ١٥ سويسرة فأنت ترى أنه ليس للروسية ذكر في هذه المجموعة وذلك لأنهم كانوا يعدونها يومئذ مملكة آسيوية

وقد جعل الفلاح والبغدان تابعتين للمجر ولم يشر الى تقسيم الولايات التركية الأخرى وبالجملة فالترك نظير الروس لم يدخلهم سولى فى الجمهورية الأوربية المسيحية الا أنه من مبادئ هذه الجمهورية المخيِّلة أن تؤذن تركيا بحرب دائمة أو تخرج هذه من أوربة . وقد اقترح فى هذا المشروع الزام كل دولة من الدول المذكورة بتقديم جيش متناسب مع قوتها وثروتها لأجل اصلاء غير المؤمنين (أى المسلمين) حرباً دائمة وفى هذه الحرب تكون أرواح الأهالى الأتراك وأموالهم مصونة الا أنهم يعطون مهلة معينة فى خلالها ينتقلون بأشيائهم الى البلاد التى يختارون الجلاء إليها أو يدينون بديانة المملكة التى يكونون بقوا فيها (أى بالنصرانية)

تجد هذا الشرط فى تاريخ « بوارسون » Poirson كما روى ذلك دجوقارا وأما الروسية فيجب أن تنتظر الوقت الذى تليق فيه للدخول فى هذا المجتمع الأوربي ويكون جيش هذه الجمهورية بالغاً ٨٠٠ ٢٧٣ جندى و ١١٧ سفينة حربية وعلى كل من هذه الممالك الخمس عشرة المتحدة تأليف جيش متناسب مع قوتها لقتال غير المؤمنين Infidèles (أى المسلمين)

ولما كانت الممالك المجاورة لتركيا أشد تعرضاً للخطر فيشير سولى بتقوية بلاد المجر وتحصينها وتحصين فينا وكبرواسيا وسائر بلاد النمسا . ولما كان سولى يخشى أن ينفذ بعض المسيحيين من هذه العصبة أو ان لا يقوموا بما يجب عليهم أشار بوضع شروط عسكرية ورسم خطط لا يتسربها قتال غير المؤمنين فحسب بل قتال المسيحيين الذين

يخالفون شروط العصبة وذلك بتأليف جيش عرمرم مختلط خاص بالجمهورية المسيحية يتولى قيادته ملك فرنسة . وبهذا الاقتراح ظهر انه كان المقصد منه تحت ستار السلام العام اعطاء السيطرة للدولة الافرنسية
وأما هانوتو فيزعم انه كان المراد من ذلك إيجاد الوحدة الدينية واخراج الترك والروس من أوربة

وقد ذهب « سولى » الى انكثرة وقابل الملكة اليصابت ونال منها الموافقة على هذا المشروع وذلك سنة ١٦٠١ وكذلك تم الاتفاق عليه مع البابا وانعقدت به معاهدة وكان أربعة من الأمراء المنتخبين^(١) فى ألمانيا أمير « البلاتينا » و « براندبورغ » و « كولن » و « ميانس » وكذلك دوق سافواى وجمهورية البندقية قد اطلعوا على هذا البرنامج ووافقوا عليه . وعمن وافق عليه أيضاً ملك بولونيا وأمراء بوهيميا وترانسيلفانيا والمجر ولم يبق معارضاً الا النمسا . وكان هنرى الرابع لأجل أن يقطع حجة المعارضين قد أعلن انه ان دخلت الدول المسيحية فى هذه العصبة فانه يكتفى بحدود فرنسة الحاضرة ولا يتطلب الزيادة عليها بل يتعهد بأن لا يأخذ شيئاً من الفتوحات التى سيفتحها المسيحيون فى البلاد العثمانية

قال دجوفارا : « وقد كان هنرى الرابع هو أول ملك فكر فى اقامة تحكيم دولى بين الدول المسيحية وبقيت هذه الفكرة ثلاثة قرون بعد هنرى الرابع حتى تحققت بتأسيس محكمة لا هارى . »

قلنا وقد تبع محكمة لاهارى تأليف عصبة الأمم التى هى أكبر وأشمل محكمة دولية عرفها التاريخ وقد كانت بنت فكر ويلسون رئيس جمهورية أمريكا ولولا اطماع الدول التى خرجت غالبية من الحرب العامة لكانت أنت بفوائد لا تحصى للجمع البشرى ولقد انتهى مشروع سولى هذا المنسوب الى هنرى الرابع بالحبوط لأن هذا الملك تحقق فيما بعد استحالة تطبيقه بالفعل

ثم المشروع الثالث والثلاثون لتقسيم تركيا وهو مشروع طليانى وتاريخه سنة ١٦٠٩

(١) بكسر الحاء وهم أمراء المانيا الذين ينتخبون الامبراطور

وأصله ان فرديناند دوق توسكانا ساق اسطولا وأنزل جنوداً في جزيرة قبرص وكان مراده في ظاهر الحال الغارة على فلسطين للاستيلاء على الأراضي المقدسة ولكن الحقيقة انه كان ينوي احتكار تجارة سورية ومصر . ومن قبرص أخذ دوق توسكانا يرسل الامير نخر الدين المعني أمير لبنان وعلى باشا جنبلط الى حلب

نقل دجوقارا عن « غالوزي » Galuzzi صاحب تاريخ دوقية توسكانا ان الدوق فرديناند اتفق في هذا التدبير مع البابا وأرسل الوزير « ليونسيني » ومعتمداً آخر اسمه « ميشال انجلو كوراي » الى والي حلب ليطلعاهم على الأحوال هناك ويلقيا الفتنة بين المسلمين تعجيلاً لبوارهم وفي ٢٩ سبتمبر سنة ١٦٠٧ عقدا مع جانبلط معاهدة ذات ثلاثين بنداً منها بند يتعهد به جانبلط بتمكين الافرنج من الميناء الذي يختارونه لتنزيل جنودهم وكان أروام قبرص وعدوا أيضاً بالثورة على الترك وبينما الامور جارية على وفق المراد اذمات الدوق في ٧ فبراير سنة ١٦٠٩ ومات به المشروع وأما برنامج هذه الغزاة فقد حرره رجل طلياني في القاهرة في السنة نفسها وقد كشف هذا البرنامج المسيو « جورغا » Jorga. أحد أساتيد جامعة بخارست . وقد بدأ محرر هذا المشروع نظير غيره من عاجلوا الموضوع نفسه بالتحسر على عدم اتفاق المسيحيين وبالحث على انتهاز هذه الفرصة الموافقة وقال انه بعد موت الدوق التوسكاني لا يوجد غير ملك فرنسا للقيام بحملة كهذه وان أهم شيء انما هو ضرب الترك في مركز معيشتهم فيجب لذلك الاستيلاء على الاسكندرية فاذا أُخنت من يدهم هذه المدينة سقطوا . ومن هنا يعلم ان المشروع مبني على أساس تجارى مثل مشروع « سانودو »

وأما كيفية أخذ الاسكندرية فستكون بزعمه بسيطة : بدخل المقاتلون بازياء تجار حتى اذا صاروا داخل البلدة استولوا على الأبراج الأربعة التي تحمي الاسكندرية وذلك لكون الحامية التي فيها ضعيفة جداً . وبعد الاستيلاء على الاسكندرية يزحف المسيحيون الى رشيد ويسيرون الى قبرص حيث الاروام مستعدون أن يثورا على الأتراك . وكذلك يجب الاستيلاء على برقة . وفي هذه الحرب يمكن الاعتداد على الأمير نخر الدين صاحب صيدا وعلى الموارنة وعلى أهل جبل لبنان وهكذا ينتهي الأمر بفتح بيت المقدس ثم تسترجع

الدول المسيحية ما أخذه منها الترك وتسترد البندقية المورة والبانبا واليونان الخ
ثم المشروع الرابع والثلاثون وهو مشروع « اسبرينشارد » Esprinchard
وتاريخه ١٦٠٩

وهو تقرير متقدم الى ولي عهد فرنسا وما له كما لغيره من طلب اتحاد ملوك المسيحيين
وان أحسن طريقة لحطم قوة الترك هي الحمل عليهم من البحر وان يزحف اليهم مع ذلك
جيش برى وان تثار الأهالى الذين فى داخل السلطنة العثمانية وتوقد حرب أهلية بينهم وان
يعقد اتفاق مع العجم والتر والمسكوب وينهدوا اليهم جميعاً

وليس فى مشروع اسبرينشارد برنامج مفصل بل هو أشبه بامانى منه برنامج
ثم المشروع الخامس والثلاثون وهو مشروع « مينوتو » Minotto وتاريخه
سنة ١٦٠٩

وهو مشروع سولى وكشروع « بريف » Brèves من آثار أفكار هنرى الرابع
الذى طالما فكر فى اصلاء الترك حرباً صليبية .

وقد عثر عليه « زنكيسن » Zinkeisen فى أوراق نظارة الخارجية الافرنسية
ونشره كله فى الصفحة ٨٥٩ من الجزء الثالث من تاريخه للسلطنة العثمانية وكان أصل نصه
باللغة الطليانية

وكان مينوتو هذا روميا من جزيرة كريد . وقد استهل كتابه ببناء استغاثة من
نصارى الشرق الى نصارى الغرب لينقذوهم وأكد أن جميع الأروام حاضرون لمبايعة ملك
فرنسة ملكا عليهم وانه يجب أن يعرف هل ملك فرنسة يود فتح السلطنة الشرقية كلها أو
يكتفى ببعض مقاطعات منها . فان كان الشق الأول فيجب اعداد ٨٠ بارجة حربية فيها
١٥ ألف مقاتل وثلاثة آلاف فارس وسلاح كاف لخمس وعشرين ألف مقاتل يمكن تجنيدهم
من نفس البلاد

ويبدأ انزال الجنود فى المورة ثم فى جزيرة اغريبيوز فتثور الأهالى فيهما ثم تساق
حملة على الاستانة ويثور من فيها من النصارى ويفر السلطان الى اسكار وتبقى استانبول
فى يد الافرنج . وأما رودس فيمكن أخذها بثمانية آلاف ذهب

وان كان الشق الثانى فيكفى ٢٥ بارجة حربية و ١٠ سفن صغار وتختار المقاطعة .

التي يراد فتحها . فالمورة فيها معادن ذهب وسلانك وقبرص وشيو ومدالي واغريبوز كلها توافق لانزال الجنود والأهالي فيها حاضرة للشورة وليرة الحلة . وهو يطلب شحن ست سفن بالحدائد والحير لأجل تحصين القلاع التي يكون تم فتحها ومينوتو يؤكد نجاح المشروع ويقسم على ذلك ويفدى حياته وحياة أولاده إن لم يتم

قال « زينكيسن » إن هنري الرابع لم يكن ممن يتهافت على أي اقتراح ليتهافت على قبول برنامج مينوتو ولكن مما لامشاحة فيه انه في أواخر عهده نغم على الأتراك في نفسه ثم المشروع السادس والثلاثون وهو اقتراح « برتوشي » Bertucci وتاريخه ١٦١١ وهو تقرير محرر بالطلباني محفوظ في « اينسبروك » Insbruck ومحرره « فرانسكو انطونيو برتوشي » قدمه في ٦ ابريل سنة ١٦١١ الى ملك نابولي وبعث بنسخة منه الى الارشيدوق مكسيميليان النمساوي . وهو يشير بالاستيلاء على قلعتي اشقودرة وكروايا من البانيا لأنهما مفتاح مكدونية . ويقول انه بعد ذلك يمكن الاستيلاء على قلعة كليسا وقلعة كانيسا واثارة ٣٠ ألف ارنأوطي و ٣٠ ألفاً من أهل بوسنة واستجاشة المجر وعند ما تقوم هذه الثورات كلها يتحد أمراء ايطالية والبنادقة ويزحفون على دراج ودلسينو وانتيفاري وغيرها . ثم يزحف البولونيون والقوزاق من جهة ثانية على الأتراك فيضطر هؤلاء الى جمع قوتهم البحرية الى عاصمتهم ويخلو الجو للقوة المسيحية . ويقول برتوشي ان ملك فرنسة كان بالاتفاق مع دوق سافواي قد أرسل معتمدين من قبله يرودون البانيا ويروى ان قائد الجيش البولوني تعهد بتقديم أربعة آلاف فارس لهذا المشروع وهو يوصى كثيراً بكتان السرخسية ان يصل الى من لا يروقه امتمام هذا الخير العميم

ثم المشروع السابع والثلاثون وهو المنسوب الى الدوق « شارل دونفير »

Charles de Nevers وتاريخه سنة ١٦١٣ — ١٦١٨

وهذا الدوق هو ابن « لويس دوغونزاغ » من الاميرة « هنريه دوكلينس » دوقه نيفر . وكانت جدته من آل باليولوغ ملوك ييزنطية فهو ضارب بعرق ثابت الى مملكة القسطنطينية . وكان من جهة الأب أميراً طليانياً ومن جهة الأم ألمانياً ومن جهة الجدة يونانياً ييزنطياً ومن جهة المنصب افرنسياً وهكذا اجتمعت فيه عدة خصال تؤهله أن يتولى كبر هذه الحلة على مملكة آل عثمان . وكان ورد عليه دعوة لهذا الأمر من أهل الموره

ووعده بخمسة عشر ألف مقاتل وأرسل اليهم ثلاثة معتمدين عقدوا معهم اتفاقاً . وفي ١٨ سبتمبر سنة ١٦١٤ أرسل وفداً آخر جمع اناساً من زعماء الصرب والارناؤوط والبوسنيين والهرسكيين والبلغار والدمالتيين وتحالفوا على محاربة الترك وكانوا يرجون عضد أمير الفلاخ والبغدان وكان البابا وملك اسبانية عاضدين هذا المشروع . وكان الدوق دونيفير اتفق في هذا الأمر مع الكردينال ريشليو وزير فرنسة الشهير . ونقل « ناني » في تاريخ جمهورية البندقية ان الدوق نيفير كان ذهب الى رومة واستمد البابا بولس وهذا قد استنفر جمهورية البندقية باعتبار انها أقوى دولة بحرية في ايطاليا فالبنادقة أجبوا البابا أن العمل ليس سهل وانه لا ينبغي الدخول فيه الا بعد التحوط التام وبعد تماثل ملوك النصارى على الترك فعلاً لا قولاً . وقالوا ان العدو الذي يريدون مهاجمته عدو شديد المراس وهكذا لم يتم للدوق دونيفير ما أراد لأن جميع المساعدات التي حصل عليها لم تتجاوز القول والوعد والتمنى . وحبط المشروع بدون أن يكون له أدنى أثر سوى زيادة حذر الترك الذين كانت ترامت اليهم الاخبار عما ينوونه بحقهم

ثم المشروع الثامن والثلاثون لتقسيم تركيا وهو مشروع الأب يوسف مستشار الكردينال ريشليو ويده اليمنى وتاريخه سنة ١٦١٥ الى ١٦١٨

قال « زنكيسن » ان ريشليو كان قد سعى في التأليف بين فرنسة واسبانية لأجل القيام بحرب صليبية تنتهى بنصب أمير من بيت ملك النمسا من الفرع الاسبانيولى ملكا على القسطنطينية الا ان رجلا اسمه « جاك بيير » كان في خدمة الدوق ودونيفير ثم في خدمة دوق سافواى ثم اتصل بخدمة دوق توسكانا ثم خدم البندقية وكان يقال له « الكابتيانو » لأنه من قرصان البحر قد اطلع على هذا السر وافشاه بحجة انه هو افرنسى وانه لا يهون عليه أن يجلس أمير اسبانيولى على عرش القسطنطينية . ولما سمع البنادقة بخبر هذه المؤامرة قاوموها وعدوها مكيدة عليهم . وهكذا حبط مشروع الأب يوسف مستشار ريشليو . وقد تكلم فولتير عن الأب يوسف المذكور وطعن فيه وذكره هانوتو فقال انه كان خيالياً أفاقاً متمسكاً بالمشروعات المستحيلة . وقيل انه قضى عمره في املين : تنصير المسلمين واستخلاص الأراضي المقدسة . ولما لم يتم شئ من تدابيره أخذ ليشفى غليله يرسل المبشرين والدعاة الى الشرق ونظم قصيدة سماها « التركية » Turciade وكتب في سنة

١٦١٩ كتاباً في تهيئة الحرب ضد الأتراك وتبيين مصالح ملوك أوربة جميعاً في حربهم وكان قلم الاب يوسف لا يفتقر عن الكتابة. وكان يعنى دائماً حالة النصرانية في سكونها وعدم مهاجتها للمسلمين

وقال « غستاف فانبيه » Fagniez في كتابه « الاب يوسف ورشليو » ان حياة الاب يوسف كانت كلها مستغرقة في فكر واحد وشعور واحد وهما استخلاص الاراضى المقدسة من أيدي غير المؤمنين والألم من وجودها في أيديهم وكانت عنده أمنية أخرى يريد تحقيقها بواسطة جمع كلمة الامم المسيحية وهى ادخال غير المؤمنين (أى المسلمين) في الدين المسيحي

وكان الأب يوسف جاء الى رومة واستحث حية البابا بولس الخامس لكن هذا كان قاتر العزم وبقي الى سنة ١٦١٨ حتى أرسل دعاة من قبله الى « براغ » و « تريف » و « ميانس » و « كولن » و « تورينو » يستنفر الدول المسيحية الى قتال المسلمين . وفي ذلك الوقت كانت اسبانية تتردد في اصلاء هذه الحرب فذهب الاب يوسف الى مجريط ورجع وقد فاز بمبتغاه وهو عضد الدوق دونفير في الحملة على تركيا . الا ان الخلاف رجع فنشب بين أوستريا وفرنسة وذهبت المساعي لتحقيق هذه الصليبية بالفعل أدراج الرياح وسنة ١٦٢٥ قرر البابا اوربانوس الثامن والأب يوسف ارجاء المشروع الى أجل غير مسمى ثم المشروع التاسع والثلاثون وهو المنسوب الى « فاليريانو » Valeriano وتاريخه ١٦١٨

وهو مشروع لا يزال مخطوطاً غير مطبوع محفوظاً في خزانة « انسبورغ » المسماة Statthalteri Archiv وهو عبارة عن كتاب متقدم من الراهب الكبوشي فاليريانو الى الارشيدوق مكسيميليان النمساوى ومعه مذكرة وهو يقول ان الكونت « دالتان » D'haltan قد تحادث مع أمراء البلدان المجاورة للسلطنة العثمانية ورأى امكان القيام باعمال عظيمة لاقهر الأتراك لكن يجب تمكين الجيش المسيحي من المرور ببلاد الأمراء المجاورين للترك وقد عقد الامبراطور وملك بولونيا والبداقة معاهدات مع آل عثمان منها معاهدات موالاة دائمة ومنها معاهدات هدنة الى مدة عشرين سنة . ومن أجل هذا عند ما عرض الكونت دالتان على ملك بولونيا هذا المشروع أجابه بأنه لا يقدر أن يخفر ذمته ولكنه

يفسح له المجال أن يمر من خليج فنلاند ويأتي من هناك إلى البحر الأسود . وكذلك رضى ملك بولونيا بتعيين مكان من بروسيا يحتمد فيه فرسان المسيحيين الذين يقصدون حرب الترك

ثم أخذ « فالريانو » يعد الاماكن التي ينبغي أن تمر بها الحملة الصليبية وقال ان البابا سيكتوس الخامس كان أراد القيام بحملة على الترك يقودها « اتيان باتورى » فاشتراط هذا قبل كل شيء الاستيلاء على بلاد المسكوب وقال ان هذا قد يتهأ في سنة ثم يساق المسكوب والعجم على التتار ويساق الفلاخيون والبغدايون والترانسيلفانيون على الترك . وكان البابا وملك اسبانية يذخران الأموال لهذه الغارة على مدة سنوات الا انها لم تيسر بسبب وفاة البابا سيكتوس

ثم المشروع الأربعون المنسوب الى « سافارى دوبريف » Savary De brèves وتاريخه سنة ١٦٢٠

وكان « دوبريف » سفيرا هنرى الرابع ملك فرنسا فى الاستانة . وكانت سفارته حافلة بالقوائد لفرنسة وطالما كتب اليه هنرى الرابع يشكره على جلائل خدماته . وكان لدوبريف مكانة عالية لدى السلطان محمد الثالث . ولما قاد السلطان الجيش العثمانى بنفسه الى بلاد المجر كان دوبريف سفير فرنسا وريكارد سفير انكلترا فى معيته وحضرا معه معركة « آغريا »

وكان دوبريف من أوسع الافرنج اطلاعا على أحوال تركيا وكان يعلم فساد الأخلاق الذى كان قد تمكن من رجال السلطنة العثمانية وكان يعلم ماهناك من خلل الادارة البالغ الدرجة القصوى الى أن كتب دوبريف مرة الى هنرى الرابع يقول له : ان الرشوة قد وصلت فى هذه الدولة الى حد انه لا يرجح نجاح عمل مهما كان الا بالمال . وأما برنامج المحرر لتقسيم تركيا فقد كان تأليفاً عنوانه « خلاصة بحث فى أضمن الطرق لمحو سلطنة آل عثمان » وكان مع هذا التأليف وثيقة تاريخية هى معاهدة منعقدة بين هنرى الكبير ملك فرنسا والسلطان أحمد امبراطور الأتراك بواسطة المسير (١) « فرانسوا سافارى دوبريف » وكان هذا الكتاب ينتهى بثلاثة مکتوبات من البابا كليمنطوس الثامن وأما المقدمة

(١) أى الموسيو كما كانت تلفظ فى ذلك الوقت

فكانت موجهة الى لويس الثالث عشر وكان يقول له فيها :-

« في مدة الاثنتين والعشرين سنة التي قضيتها لدى الباب العالي لخدمة المرحوم هنري الكبير والدك اعتنيت بملاحظة ما تملكه الدولة العثمانية من القوة وما يملكه ملوك المسيحيين من الوسائل لتوهينها أو القضاء التام عليها وحررت ذلك في خلاصة أقدمها الآن لجلالتك بحيث ترى امكان هذا العمل وانى أكون سعيداً بتحقيق آرائى هذه بالفعل وهكذا أكون خدمت ديني وخدمت جلاتك »

وقد خن « دوبريف » قوى الدول المسيحية البحرية كما يلي :

الملك الكاثوليكي (١) يمكنه تجهيز ١٠٠ سفينة وجمهورية البندقية تقدر أن تجهز بكل سهولة ٢٠٠ سفينة وست بوارج كبار مما يسمى بجبال البحر . والبابا يستطيع تجهيزه ٨ الى ١٠ سفائن . وفرنسة تقدر أن تسيّر ٥٠ سفينة . وملكة ساقواي ٥ أو ٦ سفن . والتوسكانا ١٠ أو ١٢ وجنوة ٨ أو ١٠ ومالطة ٦ والجميع ٣٨٠ سفينة وست بوارج .

ولم يذكر « دوبريف » شيئاً عن كيفية توزيع اسلاب السلطنة العثمانية وانما أوجب اتخاذ قرار سريع بهذا الشأن وعدم انتظار الملحمة الكبرى لأجل اصداره

ولقد جرت لهذا المشروع معارضات من جهة الساسة الذين كانوا يرون ضرورة المحاففة مع تركيا للوقوف في وجه الامبراطورية الجرمانية . ومن هؤلاء المعارضين كان « لوغاي » LeGay الذي رد على « دوبريف » برسالة اوجب فيها الاتحاد بل الاتحاد التام بين فرنسة والباب العالي ويكفي أن أذكر من هذا الرد بعض عناوين التعريف بمقاصده . ففي الفصل الثاني يقول إنه يجوز التحالف مع غير المؤمنين بموجب الحق الالهى القديم . وفي الفصل الخامس يقول إنه يجوز التحالف مع غير المؤمنين بموجب الحق الالهى الجديد . وفي الفصل السابع يقول ان القياصرة وملوك اسبانية وسائر ملوك المسيحيين قد اتفقوا مع الأتراك لأسباب هي أقل بالأمن الأسباب التي اتفق معهم من أجلها ملوك فرنسة . وفي الفصل العاشر يذكر أن اتحاد فرنسة مع تركيا لا ينفع فرنسة وحدها فقط بل ينفع النصرانية بأسرها . وفي الفصل الحادى عشر يقول انه لا يجوز أبداً أن ترتفع ثقة التركي من المسيحي . وكذلك هذا الرجل يبين أنه اذا غيرت فرنسا سياستها تجاه تركيا جاءت أستراليا

وخلت محلها في صداقة تركيا وكذلك أسرعت اسبانيا لموادة تركيا. ثم انه يقول ان اتفاق فرنسا مع تركيا لم يكن ليضر فرنسا في شيء بل كان يفيدها وكان هذا التركي الذي يقال انه غير مؤمن وانه وثني يحارب أعداء فرنسا .

ومن هذا التاريخ ظهر أن المصالح الدولية أصبحت هي العامل الأول في الصلح والحرب مع الأتراك وصار الشعور الديني بالمحل الثاني . وقد جاء في رسالة أخرى لأحد نبلاء بولونيا يقول فيها : ان الناس يهتمون فرنسا بأنها ناصرت تركيا وانها استخدمت بولونيا في سبيل أغراضها ولكنهم نسوا أن فرنسة لم تكن قادرة أن تتخلص من شر اوستريا الا بالاتفاق مع الترك . وقال المسيو فاندال : انه لما وقع فرانسوا الأول أسيراً في معركة « بافيا » وانكسر سيفه وسقط فرسان فرنسة من حوله صرعى ولم يجد عند ذلك أية نصرة من أية دولة مسيحية أجمع على محالفة الترك وهو عزم بعنه اليأس لكنه صار فيما بعد سياسة متبعة

ثم مشروع فازيل لوبو Vasile Lupu وهو المشروع الواحد والأربعون وتاريخه ١٦٤٦ وكان هذا الرجل أميراً على بلاد البغدّان من سنة ١٦٣٤ الى ١٦٥٣ وكان أميراً مشهوراً بكثرة الحركات . وكان أزواج اثنتين من بناته الى بعض أمراء بولونيا والبنات الثلاثة ، وكانت بارعة الجمال ، الى تيموش ابن أمير القوزاق فكانت له علاقات من شأنها أن تجعل له مركزاً منيعاً بازاء الأتراك . وكان التتار سنة ١٦٤٦ شنوا الغارة على بولونيا وعلى بلاد البغدّان . وساقوا أربعين ألف أسير وفرّ الأمير المذكور وتوارى في الغابات . ثم أخذ يترقب الفرصة للأخذ بالثأر من التتار فاتفق مع ملك بولونيا على التحالف مع موسكو يداً واحدة على التتار والعثمانيين . وكان يرجو أن يستولى على بلاد القريم ومن هناك يغزو القسطنطينية وجاء يقابل ملك بولونيا في جاسي الا أن المجلس البولوني لم يوافق على تلك المؤامرات وأرسل البولونيون معتمداً الى الاسطانة يؤكد ولاءهم وبقاءهم على عهد الصداقة مع تركيا . وبعد هذا سقط في يد « فازيل لوبو » ورجع يسفّر بين الباب العالي والروس ويتوسط في اطلاق سراح معتمدى التتار الذين كان الرؤس قد اعتقلوهم وفي تفريق جوع القوزاق الخيمين بقرب أزوف وهكذا تلاشت صليبية الأمير « لوبو » هذا وكانت مدتها قصيرة

ثم المشروع الثاني والأربعون وهو مشروع افرنسي تاريخه ١٦٦٠ وقد ذكر هذا المشروع جورغا Jorga. في تاريخ السلطنة العثمانية فقال انه في سنة ١٦٦٠ تصالح الفرنسيين مع الأسبانيول بواسطة الكاردينال مازرين وكان هذا ينوي غزو تركيا وترك في وصيته مائتي ألف ريال لأجل هذا الغرض وانتشرت في فرنسا فكرة الحرب الصليبية وأخذ فرسان البيوتات الافرنسية ينساقون في هذا المضمار وكان فرسان مالطة والبابا ودوق توسكانا قد حشدوا أسطولاً مركباً من اثنتين وثلاثين سفينة وست بوارج واجتمع هذا الأسطول في « سيريفو » ومنها قصد جزيرة كريد التي كان الأتراك يحاولون فتحها وأبحر ثلاثة آلاف فارس افرنسي ونزلوا في ميناء سودا من بلاد اليونان واشتدت الحرب في كريد وقتل في خانيا القائد حسن باشا وكبير الانكشارية . وكان المسيحيون سائرين الى الأمام واذ جاءهم خبر بأن قوة عثمانية كبيرة قادمة اليهم من قنديا فلما سمعوا هذا الخبر وقع فيهم الرعب ونكصوا الى الوراء . ثم أقبل باشا « كاترش يوغلي » على رأس أربعة آلاف عثماني وناجز المسيحيين القتال بقرب قنديا الجديدة وقتل منهم ألفاً وخمسمائة مقاتل وخارت عزائم الباقين وأرسل الباب العالي ١٨ سفينة حربية الى كريد فأذعن الأهالي للعثمانيين وخنعوا واكتفى العثمانيون منهم بألف جارية ترسل الى الحرم السلطاني وبألف رأس غنم كل سنة

ثم المشروع الثالث والأربعون وهو المنسوب الى « تورين » Turinne وتاريخه ١٦٦٣ ومن المعلوم أن تورين كان من أشهر قواد فرنسة فهل نسبة هذا المشروع اليه صحيحة أم لا ؟ وهل الخطاب الذي يقال انه ألقاه في « مارستال » قد صدر منه أم لا ؟ هذا لا نقدر أن نجزم به لا سيما أننا في جميع الأوراق والوثائق التي خلفها المارشال تورين لم نجد أثراً لهذا الخطاب . وكذلك لم يذكر شيئاً عنه الكونت « غريموار » الذي كتب كثيراً عن تورين . وأما الخطاب كما نسب الى تورين فهو انه اقترح على لويس الرابع عشر أن يعلن تركيا الحرب وذَكَرَهُ بصليبية القديس لويس التاسع الذي ذهب الى مصر وافريقية . وقال ان الجيش الفرنساوي مع الألمان والمجر الذين يمكنهم أن يزحفوا لقتال الترك قد يكون ٣٦ ألف ماش و ١٢ ألف فارس وان جيشاً كهذا يمكنه أن ينزل المائة ألف عثماني . وهو يتكلم في مشروعه عن خصب بلاد الفلّاح والبغدان وترانسلفانيا ويقول انه يمكن فتحها وضمها الى فرنسة وقال ان الامبراطور الجرمانى تكون له بلاد المجر السفلى

واقترح أن يقدم السويسريون ألى مقاتل والأسبانيول خمسة آلاف وأمرءا ايطاليا ثلاثة آلاف فارس والمجر والكرواتيون أربعة آلاف ماش وأربعة آلاف فارس . وقال انه يجب على انجلترا وهولاندة أن تعاونا باساطيلهما لقمع قرصان الجزائر . وقال انه يجب اشراك البرتغال والبولنديين فى هذه الصليبية وانه لا بأس بادخال القوزاق والمسكوب والعجم فى هذه الحرب . وفى نهاية هذا التقرير يقول تورين بزعمهم ان الضربة القاضية على تركيا لا تكون الا من فرنسا

ثم المشروع الرابع والأربعون وهو مشروع « لينتيز » وتاريخه ١٦٧٢
فالفيلسوف الالماني الشهير لينتيز كان قد أعد برنامجاً أيضاً لمحو تركيا واستمر يُحرره أربع سنوات وقدمه باللغة اللاتينية الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا . وقد اعتنى لويس الرابع عشر باقتراح لينتيز هذا وتلقى لينتيز من نظارة الخارجية الافرنسية كتاباً يقول الناظر له فيه : انى قدّمت لجلالة الملك خلاصة كتبك والتقرير الذى معها الذى يتضمن رأياً عظيم الشأن يؤول الى مجد جلالة الملك ومصالحته

وكان لينتيز يرى قبل كل عمل فتح مصر ويقول : انه اذا انتزعت مصر من يد الأتراك آل أمرهم الى البوار . وكان يشير بتحريك المجر والبولونيين لمناسبة تركيا الحرب فاذا اشتغل الترك بهؤلاء جاءت الدول المسيحية الأخرى وشتت الغارات على بلادهم فلم يكن أمامهم الا السقوط . وخطب لينتيز لويس الرابع عشر قائلاً : انك انت فى حربك مع هولاندة لاتجد حليفاً الا الخليف الذى تشتريه بالمال أما اذا جارت تركيا فإأكثر انصارك فاسبانية وأمرءا ايطالية والبابا وور بما الامبراطور وملك بولونيا يكونون معك . واذا تمكنت من فتح مصر فتكون بيدك السيادة البحرية وتجارة الشرق وقيادة المسيحيين العامة وان لم يكن لك من فضيلة سوى تدمير السلطنة التركية لكان ذلك كافياً

وبرغم جميع هذه الأمانى العظام التى تمنهاها لينتيز لملك فرنسا لم يحسن الفرنسيين به الظن ويقول المؤرخ « سوريل » ان لينتيز لم يقصد بهذا الابعاد فرنسا عن الدين وتزيين فتح مصر للويس الرابع عشر حتى يلهو بذلك عن معاركة المانية . وأما « دجوفارا » فيقول ان هذه الأفكار كانت تحوم كثيراً فى ذلك الوقت فى خواطر الناس وكان الفرنسيين بدأوا يحتجون على سياسة فرانسوا الأول والحكومات الافرنسية التى تابعتها فى

موالاة الترك . فرأى لينتز كان الرأي العام حينئذ . وقد تعرض لينتز لقضية الحرب ولكنه أغفل قضية قسمة الأسلاب بعد سقوط تركيا ولم يذكر منها الا اعطاء مصر لفرنسة ولعله كان يضمّر أن يكون الباقي راجعاً لأوستريا والمجر وبولونيا

بقي أن نعلم ماذا أجاب لويس الرابع عشر الفيلسوف لينتز على اقتراحه هذا فنقول انه ثبت كونه أجابه بان الحروب المقدسة قد مضى وقتها من زمن لويس التاسع ومن الغريب أن لويس الرابع عشر نفسه بعد هذا التاريخ بثلاث عشرة سنة عاد ففكر في مشروع اقتسام تركيا وان تخرج مصر في نصيب فرنسة فكأنه رجع الى فكرة لينتز

ثم المشروع الخامس والاربعون وهو مشروع ميشل « فابفر » Michel Fébvre وتاريخه ١٦٨٢

وكان هذا الرجل راهباً كبوشياً اسمه الاب يوستينيانوس أصله من « نوفي » بقرب « تور » من فرنسة ارسله السبوشيون الى حلب حيث أقام ثمانى عشرة سنة وتعلم التركية والعربية والكردية والارمنية وكان يتكلم بها كلها جيداً . والف كتاباً اسمه « حالة تركيا الحاضرة » وضعه باللغة الايطالية ثم ترجمه الى الافرنسية ثم ترجم هذا الكتاب الى الالمانية والاسبانية . وقد قدم هذا الكتاب الى لويس الرابع عشر وصدّره بخطاب له يقول له فيه : ان أهالى البلاد العثمانية بما هو واقع عليهم من الجور والطغيان وما هم مبتلون به من سوء الادارة ينتظرون بذاهب الصبر استيلاءك على بلادهم

قال دجوقلرا : ان هذا الأب الكبوشى كان بدون شك مبالغاً في زعمه ان أهالى تركيا كانوا منتظرين محيى الفرنسيس الى بلادهم ليخلصوهم ولم يجد نداء « فبفر » هذا مجيباً . فنشر كتاباً آخر قدمه الى المونسنيور « لوفوا » الذى كان وقتئذ وزيراً وقال له فيه :

« إنك تعلم جيداً الأسباب التي جعلت الدولة العثمانية تعيش برغم كل ما هي ساجحة فيه من الفوضى واختلال الادارة . وانه ليجب الاستفادة من هذه الأسباب ومحو هذه الدولة واعادة الديانة المسيحية الى البلدان التي لها علاقة بنا . وان حيتك الدينية ياسيدى ومكاتتك من جلالة الملك تساعدان كثيراً على القيام بهذا الفتح المجيد لأن شعور جميع

الأمم هو انه لا يوجد دولة سوى فرنسا تقدر أن ترغم أنوف العثمانيين المتكبرين «
ويعود هذا الأب الى قضية حشد المؤمنين من كل فج لقتال غير المؤمنين^(١) ويشير
بآراء غريبة في سبيل تدويج الأمم الاسلامية ومما قال : انه ينبغي لاختضاع هذه الشعوب
واستجلابها الى عقيدتنا منعها بتاتا من حمل الأسلحة وان ينصب حاكم إفريقيا على رأس
كل ولاية

ويرى دجوفارا هذه الآراء شاذة والحقيقة انها سواء كانت شاذة أولم تكن فان
الدول الأوروبية العصرية لم تعمل شيئاً الا وفق ما كان أشار به الأب يوستيانوس هذا فقد
كانوا يتفقون على منع بيع الأسلحة من المسلمين للمسلمين الذين في المستعمرات الأوروبية
فقط بل المسلمين الذين لا يزالون حافظين لاستقلالهم . وقد صح عندهم هذا العزم أكثر من
كل وقت مؤخراً بعد الحرب العامة التي سقطت بها السلطنة العثمانية فخيّل لهم ان الغرة لأمة
لنيل كل ارب من الاسلام . ومنذ سبع أو ثمانى سنوات انعقد في جنيف مؤتمر دولي لنزع
السلاح فكان أكثر نزوع الدول الاستعمارية انما هو لمنع بيع السلاح من تركيا وفارس
وافغانستان ومصر وبلاد العرب . ولقد قرر المؤتمر المذكور مناطق ممنوعاً ادخال السلاح
اليها Zanes Prohibées من جلتهما مصر وجزيرة العرب برغم استقلال الحجاز ونجد
واليمن وحاول منع بيع السلاح من فارس . الا أنه فشل في ذلك لكون أكثرية المؤتمر لم
تقدر أن توافق على قرار يمنع تسليح دولة مستقلة بجميع معاني الاستقلال مثل دولة فارس
فعدت انكسرة وضربت العجم ضربة ثانية وأبت إلا انفاذها وهي منع تسريب السلاح
الى العجم من طريق البحر وان يكون لانكسرة الحق في تفتيش السفن الواردة الى مراسي
ايران . وقد وافق انكسرة على هذا القرار الأعوج فرنسة وايطالية واليونان وبعض
دول وأمستك ألمانية وأكثر الدول عن ابداء رأيهم فتقرر بسبب امسك هذه الدول عن
اعطاء الرأي تأييد مطلبته انكسرة من هذه الجهة .

أما جزيرة العرب فلم يخضع ملوكها لهذا القرار ولم تنتظم كلمة أوربة على منع بيعهم
السلاح ولما عقد ابن سعود ملك الحجاز ونجد معاهدة « بحره » مع انكسرة اعترفت فيها
هذه بما ينقض قرار ذلك المؤتمر ويجعله حُرّاً في شراء السلاح . وكذلك اعترفت بحق

(١) أي حشد المسيحيين لقتال المسلمين

شراء السلاح لامام اليمن دولة ايطاليا وغيرها من الدول ولم تعترف هذه الدول لمملك العرب بما ينقض قرار المؤتمر المذكور الا بسبب الشقاق الواقع بين الدول الغربية والمانيا وبينها وبين البلاشفة فرأت أنفسها عاجزة عن منع تهريب السلاح الى جزيرة العرب وعادت فوافقت على ما كانت جدت في منعه . وعلى كل حال نية هذه الدول كانت معلومة

ومقصودنا ان قضية نزع السلاح من أيدي المسلمين ومنع دخول الأسلحة الى بلدانهم هذه قضية طالما فكر بها الأوربيون قديماً وحديثاً . ولم تفتهم ولا ساعة . ولنعد الى كلام الأب يوستيانوس في معاملة المسيحيين للمسلمين فنقول :

انه في الفصل الثلاثين من كتابه يشير بحمل المسلمين على النصرانية وبأن يتوسل ملوك النصارى الى ذلك بوضع جميع الضرائب على المسلمين دون غيرهم^(١) وهكذا يضطرون بزعمه من شدة عنائهم ويأسهم أن ينتصروا . قال دجوفارا : الا ان الأب يوستيانوس يحذر من تحويل المسلمين عن الاسلام الى الكنيسة الارثوذكسية بل يشترط أن يكون دخولهم الى الكنيسة الكاثوليكية

قلنا ومسئلة الضرائب التي تصورها يوستيانوس وحصراً أداؤها في المسلمين ان لم تكن نفذت بخدافيرها في هذا العصر يحق المسلمين المغلوبين على أمرهم فقد نفذ ما يشبهها في جزائر الغرب مثلا لا يؤدي الفرنسي الضرائب التي يؤديها المسلمون بل قطعة الأرض نفسها يؤدي عنها الفرنسي شيئاً زهيداً فاذا صارت الى المسلم أدى أضعافه

ثم قال الأب : وأما مهاجمة الدولة العثمانية فيجب أن تكون من جهة مضيق الدردنيل وهذه أيضاً فكرة قد أجرتها أوربة بالفعل بعد الاب يوستيانوس بمائتين وثلاث وثلاثين سنة . إذا آراء هذا القسيس الكيوشى لم تكن سخيفة

أما اقتسام سلطنة آل عثمان بعد الظفر بها فقد شغل بال الأب المؤلف فرأى أخيراً ان أحسن حل لها هو أن يسير كل ملك من ملوك النصارى من جهته منفرداً بدون أن يختلط بملك آخر . وهكذا يخلصون من مشكل تقدم الواحد على الآخر . فالامبراطور يزحف على بلاد المجر وجوارها . وملك بولونيا على سواحل البحر الاسود . والبنادقة على الدالماسيا والمورة وكريد . وملك اسبانية على المغرب ومصر والقدس . وأما الملك المسيحي

(١) تأمل في عدالة هذا القسيس

كثيراً (أى ملك فرنسة) فينهد الى القسطنطينية رأساً ويحتلها ويستولى بعد ذلك على الأناضول . وعند ذلك يزحف ملك العجم فيفتح ديار بكر والموصل

ثم يقول « فبفر » انه على فرض حصول منازعات بين ملوك النصارى على تقسيم الاسلاب فان البابا يكون الحكم فيما بينهم عند التقسيم . ولكن احتمال وقوع هذا النزاع لا يجب أن يبحث فيه من الآن خشية أن يحصل تردد في مهاجة تركيا وان يضع الوقت ثم المشروع السادس والأربعون وهو مشروع لويس الرابع عشر ملك فرنسة بل

أعظم ملوكها وتاريخه ١٦٨٥ — ١٦٨٧

كان لويس الرابع عشر قد نسى عضد تركيا لفرنسا في زمان فرنسوا الأول وغلب عليه الشعور الدينى الصليبي فكان له يد في حروب المجر وكانت له نجاحات جزيرة كريد عند ما فتحها الترك وطارد بحرية الجزائر ورمى تونس والجزائر بالقنابر ولما أراد البابا اسكندر السابع تأليف عصبة مقدسة^(١) كان أول من أجاب نداءه لويس الرابع عشر وكانت حاسة الأور بين للحروب الصليبية قد بدأت تتراجع لعهد الملك المذكور . ونظم له الشعراء القصائد ودعوه الى محو الاسلام . وألّف المؤرخون والسياسيون كتباً في استنفار لويس الرابع عشر وملوك النصارى لمحاربة المسلمين ومن هؤلاء « دوفينيو » Du Vignau نشر سنة ١٦٨٧ كتاباً أوضح فيه ضعف الدولة العثمانية وسهولة هدم بنائها وبين كيفية عبور الوردنيل وتفاعل باقامة صلاة الشكر على ذلك في كنيسة القديس بطرس في رومة أو ايا صوفيا في الاستانة

أما برنامج لويس الرابع عشر فقد كان استيلاء فرنسة على المورة وتاليا وسلانيك وصرىيا وبلغاريا والروملى وجزر الارخبيل وأن يكون كل هذا تحت تاج أحد أبناء لويس الرابع عشر . ويكون لبولونيا الفلاح والبغدان . وللبندقية كرواسيا والبانيا والماسيا وبوسنه . وكان أرسل لويس الرابع عشر سفيراً الى الاستانة اسمه « جيراردين » Girardin ومعه « دورتيار » ضابط بحرى نظم خريطة فيها وصف القلاع التركية التى على سواحل البحر المتوسط وبيان العمل لكيفية أخذها . وقدم السفير المذكور للملك تقريراً وافياً عن دخل السلطنة العثمانية وخرجها وعن أصناف جيوشها وكيفية اعاشتهم

(١) أى في وجه الاسلام

وكان لويس الرابع عشر يحب بولونيا وكانوا في أيامه فكروا في تزويج إحدى أميرات البيت الملكي بفرنسة من ابن ملك بولونيا وتزويج هذا ملكا على الفلاخ والبغدان وفي ٥ مارس سنة ١٦٨٤ كان قد انعقد حلف بين بولونيا والنمسا والبندقية والروسية بدأ واحدة على تركيا ودعوا شاه العجم للدخول معهم في هذا الحلف . وكانت فرنسة تريد اعطاء الفلاخ والبغدان الى بولونيا بحجة انه لولا الجيش البولوني لكان الترك فتحوا قينا وان بولونيا مع ذلك لم يكافئها الامبراطور بشيء

ولقد جن « دورتيار » D'ortière كلفة هذه الصليبية لتقسيم تركيا بواحد وثلاثين مليون جنيه . ولم يكن هذا المبلغ اذ ذاك مما تعجز عنه فرنسة . ولكن مشروع لويس الرابع عشر هذا لم ينفذ منه شيء وكان لهذا الملك من حروبه مع اسبانية وهولاندة وانكلترة والامبراطورية الجرمانية شاغل عنه

ثم مشروع الأب « كوين » Coppin وهو السابع والاربعون وتاريخه

سنة ١٦٨٦

كان هذا الرجل في مبدأ أمره ضابطاً في الخيالة بفرنسة ثم تحول قسيساً وصار قنصلاً لفرنسة في دمياط . وبعد اياه الى وطنه أله كتابا سماه « ترس أوربة » Bouclier De L'Europe فيه الدعوة الى تقسيم السلطنة العثمانية وفي الفصل العشرين من هذا الكتاب يقول : « كيفية تقسيم الولايات المذكورة في الفصل السابق بين ملوك المسيحيين » . ثم : تقسيم الموره . تقسيم شمالي افريقية . تقسيم أملاك تركيا في أوربة . تقسيم الجزر وهلم جراً . والأب كوين يعطى البندقية في هذا التقسيم بوسنه والباينا وشمالي اليونان . ويعطى اوستريا المجر وصربيا وقسما من بلغاريا ومكدونية . ويعطى بولونيا الفلاخ والبغدان وقسما من بلغاريا وسواحل البحر الاسود الى أدرنه . ويعطى فرنسة القسطنطينية وأدرنه وبرسا وقورننته ومن آسية الصغرى البلاد الممتدة من برسا الى طرابزون ومن افريقية مصر وعنابة وتونس . ويعطى انكلترة طنجة ومن بلاد اليونان تساليا . ويعطى اسبانية الجزائر ووهران ثم اينا وتيبة من بلاد اليونان . ويعطى البرتغال طرابلس الغرب وساحل مكدونية الجنوبي وحب وقسما من سورية . ولا ينسى هولاندة فيخصها ببرقة ويقسم من المورة . وينعم على دوقية ساثواي بقبرص ويقسم من بلاد اليونان ويقسم البقية على

جنوة وفلورنسة ولوك . وأما البابا فيكون له بيت المقدس وقسم من ارقاديا في بلاد اليونان ويكون القسم الآخر من ارقاديا لدوقيات « مودين » Modène و « بارم » Parme وتكون رودس لفرسان مالطة

قال دجوفارا : ان تقسيمات هذا القيس العسكرى محتلطة متداخلة جداً كما ترى وكأنه تعمد أن لا يترك مملكة مسيحية بدون شقص من هذه الغنيمة . الا أنه نسي في القسمة دوق موسكو الذي كان مع ذلك كتب الى البابا يستنهضه لحرب صليبية . فالأب « كوبين » يقول : ان هذا المشروع يجوز اطلاع أمير موسكو عليه ليعلم ماذا يقترح من الحصاص

أما تخصيص « كوبين » القسطنطينية بفرنسة فيقول : لأنها دخلت فيما مضى في حوزة الفرنسيين ولأن هؤلاء أقدر على حفظها من غيرهم ولأن فرنسة هي ابنة الكنيسة البكر ولا تليق الامبراطورية الابه

ثم المشروع الثامن والأربعون من تقسيم تركيا وهو المنسوب الى بطرس الأكبر الروسي وتاريخه سنة ١٧١٠

كثر البحث هل هذا المشروع صحيح النسبة الى بطرس الأكبر قيصر الروس أم لا ؟ فال مؤرخ الروسي « فاليزيفسكي » Valiszevski يقول انها ا كذوبة . وكل من « جوير » Joubert و « مورنو » Mornaud يقول ان بطرس الأكبر لم يحمره بخطه لكن أفكاره كانت هي هذه . ولقد نشر هذا المشروع المسيو « لزور » Lesur سنة ١٨١٢ ولكن المؤرخين الشهيرين « لافيس » Lavisse و « رامبو » Rambaud يذهبان الى أن « لزور » لفق هذا المشروع تزلفاً لنا بليون الأول . وزعم « بركولز » Berkholz أن أبا عنزة هذا البرنامج هو نابليون نفسه . وقال « سوكولنيكي » Sokolnicki في كتابه « وصية بطرس الأكبر » ان محرر هذا المشروع هو الجنرال ميشل سوكولنيكي المتوفى سنة ١٨١٦ وكيف كانت الحال فالجميع متفقون على أن خطة الأمة الروسية هي هذه التي تضمنتها هذه الوصية المنسوبة الى بطرس الأكبر . والمؤرخ الروسي « فاليزيفسكي » يقول ان المواد الاحدى عشرة الأولى من هذه الوصية المنشورة سنة ١٨١١ قد كانت هي خطة الروسية المتبعة في سياستها في الشرق منذ سنة ١٧٢٥

ولقد كان بطرس هو الذى رقى الروسية الى صف الدول العظام ومن قبله وإلى أواسط أيام لويس الرابع عشر فى فرنسا لم تكن الروسية شيئاً مذكوراً .

وقد كان أول من أظهر الطمع من ملوك الروس فى القسطنطينية القيصر ايفان الثالث الذى حرر نفسه من حكم التتار (سنة ١٤٨٢) وتزوج بابنة شقيق الامبراطور ميشل باليولوغ فسار يدعى ملك بيزنطية بهذه المصاهرة ولكن الذى بدأ بمقاومة الأتراك فعلاً ونصب نفسه لحماية المسيحيين فى الشرق هو بطرس الأكبر . وكان من أول أعماله أنه أرسل الى الفلاح والبغدان دعاءً يحركونهم الى الثورة وكان هناك أسقف من القدس يشيع أنه وجد على قبر قسطنطين كتابة تشير الى أن الروس هم الذين سيطرودون الترك من أوربة

وأما وصية بطرس فهى ١٤ بنداً أهمها البند الخامس وهو أن يصير الاتفاق مع النمسا على طرد الترك من أوربة ويجهز لهذا الغرض جيش دائم فى البر وتبنى دور صنعة لبناء السفن فى سواحل البحر الاسود ويستمر التقدم نحو القسطنطينية .

والبند السابع الذى يوصى بالاتفاق مع انكلترا والعمل للسيادة فى بحر البaltic والبحر الاسود اذ بدون السيادة على هذين البحرين لا يتم للروسية مرادها والبندين الثامن الذى يذكر أن أعظم تجارة فى الدنيا هى تجارة الهند ومن احرزها ساد على أوربة فيجب انتهاز كل فرصة لاصلاء فارس الحروب التى تنهك قواها ومن ثمة يمكن الوصول الى الخليج الفارسى والاستيلاء على تجارة الشرق

والبندين الحادى عشر الذى يوصى الروس بجمع كلمة الاروثوكسين تحت حمايتهم سواء الذين فى تركيا أو المجر أو بولونيا وبواسطتهم تثار الفتن والحروب على هذه الممالك الثلاث الى أن تتلاشى

والبندين الثانى عشر الذى يوصى بايقاد نيران المنافسات بين فرنسا والنمسا وان تعهد الروسية لكل من هاتين الدولتين سراً وبدهاء عظيم أن تماثلها على قسمة العالم فتقع بينهما الحروب ومن ثمة تتحول حرباً عامة

والبندين الثالث عشر الذى يقول فيه إنه بعد أن تنشأ الحرب العامة فى كل مكان وتنهك قوى الجميع يصير للروسية الخيار فى ترجيح الجهة التى تريد ترجيحها على عدوتها . وحينئذ تجنح الروسية الى جانب النمسا ثم تزحف الجنود الروسية المنظمة نحو الرين ووراءها

تلك العصابات الآسيوية التي تنتشر في المانية ثم يخرج اسطولان أحدهما من البحر الاسود والآخر من بحر اركانجل وعليهما هذه العصابات الآسيوية فيقتفان بها على ايطالية واسبانية وفرنسة وتأخذ هذه العصابات بالعيث والتدمير وتأخذ قسماً من أهل فرنسة اسرى فيقذف بهم الى سيريا لاجل عمارة اراضيها الواسعة

هذا أهم ما في هذه الوصية . وفي نظارة الخارجية الافرنسية نسخة من مشروع السيادة الروسية العالمية المنسوب الى بطرس الأكبر يوصى به خلفاءه والأصل كان في خزانه أوراق قصر « بترهوف » Peterhof بقرب بطرسبرج

ثم المشروع التاسع والاربعون المنسوب الى الأب « سان بيير » St-Pierre وتاريخه ١٧١٣

هذا الرجل كان من أعضاء الاكاديمية الافرنسية الف كتابا أعاد فيه مشروع سوللي Sully وهنرى الرابع وقال ان تنفيذه غير مستحيل وان هنرى الرابع لو كان الله فسح في أجله لنفذه

إلا ان هذا الرجل امتاز عن سائر أصحاب المشروعات الصليبية بأنه لم يلتزم قضية محو السلطنة العثمانية من الوجود وإنما قال انه متى علم الترك بوجود عصبه دفاعية عامة بازاءهم لم يجرأوا على مناجزة الامبراطورية ولا بولونيا ولا الروسية ولا البندقية حرباً ما لأنهم يعلمون أن هذه العصبه حينئذ تطردهم من كل أوربة

ثم يفدر هذا الأب في اختلاف الأديان التي ستشتمل عليها هذا العصبه وما يخشى من تصادمها بعضها مع بعض لكنه يعود فيحل هذه المعضلة بقوله انه بواسطة الاختلاط والاحتكاك تكون الديانة الحقيقية هي السائدة على الجميع في آخر الأمر

ويقول في موضوع الصلح بين المسلمين والنصارى كلاماً حرياً بالنقل . فيذكر أن بعض الناس يعترضون قائلين ان الدين الاسلامى يمنع المسلمين من صلح دائم مع النصارى ولا يأذن لهم الابهدة مؤقتة. فالأب سان بيير يجيب على هذا الاعتراض قائلاً ان هذا يمنعه الدين الاسلامى فيما اذا كان المسلمون هم الحزب الأقوى أو المساوى بالأقل . فأما اذا كان أعداؤهم أكثر عدداً وأقوى مدداً فلا يمكن أن يكون الصلح ممتنعاً عندهم لأن استمرار الحرب يجعل الاسلام فى خطر شديد . ثم لنفرض أن الصلح الى أمد غير محدود ممنوع على

المسلمين أفليس لهم أن يعقدوا مهادنات الى ٢٠ سنة وأن يجددوها؟ الجواب لهم ذلك . فإذا هم يمكنهم أن يعقدوا مهادنات الى ١٠٠ سنة بدلاً من ٢٠ سنة وأن يجددوها . وهل الصلح الدائم غير هذا؟ قلت لا بأس أن نورد هنا أحكام المهادنة والصلح في الاسلام نظراً لورود هذا المبحث في هذا المحل فنقول:

جاء في « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » للإمام الفيلسوف الفقيه الأصولي القاضى أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الاندلسي في هذا الباب مايلي :

« فاما هل تجوز المهادنة ؟ فان قوماً اجازوها ابتداءً من غير سبب اذا رأى ذلك الامام مصلحة للمسلمين وقوم لم يبيحوها الا لمكان الضرورة الداعية لأهل الاسلام من فتنة أو غير ذلك اما بشئ^١ يأخذونه منهم لاعلى حكم الجزية . اذ كانت الجزية انما شرطها ان تؤخذ منهم وهم بحيث تنفذ عليهم أحكام المسلمين . واما بلا شئ^٢ يأخذونه منهم . وكان الأوزاعي يبيح ان يصلح الامام الكفار على شئ^٣ يدفعه المسلمون الى الكفار اذا دعت الى ذلك ضرورة فتنة أو غير ذلك من الضرورات . وقال الشافعي لا يعطى المسلمون الكفار شيئاً الا أن يخافوا ان يصطاموا لكثرة العدو وقتلهم أو لمحنة نزلت بهم . ومن قال باجازه الصلح اذا رأى الامام ذلك مصلحة مالك والشافعي وابو حنيفة . الا ان الشافعي لا يجوز عنده الصلح لأكثر من المدة التي صالح عليها رسول الله ﷺ الكفار عام الحديبية . وسبب اختلافهم في جواز الصلح من غير ضرورة معارضته ظاهر قوله تعالى (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) وقوله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) . فمن رأى أن آية الأمر بالقتال حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ناسخة لآية الصلح قال لايجوز الصلح الا من ضرورة . ومن رأى ان آية الصلح مخصصة لتلك قال الصلح جائز اذا رأى ذلك الامام وعضد تأويله بفعله ذلك صلى الله عليه وسلم وذلك ان صلحه ﷺ عام الحديبية لم يكن لموضع الضرورة . واما الشافعي فلما كان الأصل عنده الأمر بالقتال حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وكان هذا مخصوصاً عنده بفعله عليه السلام عام الحديبية لم ير أن يزداد على المدة التي صالح عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اختلف في هذه المدة فقيل كانت أربع سنين وقيل ثلاثا وقيل عشر سنين وبذلك قال الشافعي . واما من أجاز أن يسمح المسلمون المشركين بأن يعطى

لهم المسلمون شيئا اذا دعت لذلك ضرورة فتنة أو غيرها فخير الى ماروى انه كان عليه السلام قد هم أن يعطى بعض ثمر المدينة لبعض الكفار الذين كانوا فى جملة الاجزاب لتخيبهم فلم يوافقهم على القدر الذى كان سمح له به من ثمر المدينة حتى آفأ الله بنصره . واما من لم يجز ذلك الا ان يخاف المسلمون أن يسطلموا فقياسا على الاجماع على جواز فداء اسارى المسلمين لأن المسلمين اذا صاروا فى هذا الحد فهم بمنزلة الأسارى» هـ .

ثم ذكر الأب سانت بيير اعتراضا لبعضهم معناه انه لايجوز أن يدعى الترك الى الصلح قبل أن يعطى البولونيون بلاد التانار والقوزاق التى على سواحل البحر الأحمر وقبل أن يعطى البنادقة بلاد اليونان وجزر الأرخبيل وكريد وقبل أن يرد الى فرسان مالطة جزيرة رودوس فيجيب الأب سانت بيير على هذا الاعتراض بقوله اننا لانرى فتح هذه الفتوحات ضروريا لأجل تأمين حياة العصبة المسيحية التى نحن بصدها ثم انه لا يظن ان أكثر ملوك المسيحيين يفضون فتح هذه الفتوحات لبولونيا والنمسا والبندقية وفرسان مالطة على ادخال الترك معهم فى المجتمع الأوروبى قال دجوفارا انه غريب فى الحقيقة ان نجد قيسا مثل الأب سانت بيير معارضا لاستئصال غير المؤمنين أى المسلمين وعاملا بالعكس لأجل ادخالهم فى مجتمع الدول المسيحية .

قلت قد مضى علينا الى هنا تسعة وأربعون مشروعاً من مشروعات تقسيم تركيا ولم نجد فيها كلها مشروعاً واحداً سوى مشروع هذا الأب يتضمن فكرة استبقاء المسلمين . بل جميعها كانت تدابير مقصوداً بها محو تركيا والاسلام بأسره وان كان قد ورد فى بعضها اشراك دولة العجم فى حصة من تقسيمات تركيا فيكون هذا من باب السياسة الحربية حتى يدخل العجم فى العصابة ضد الترك ويزيدوهم ضعفاً ثم بعد ان تسقط تركيا فن البديهي انه لا بد من سقوط العجم . وليس لنا الا أن نترحم على الأب سانت بيير الذى كان الوحيد فى ذلك العصر فى طلب توقيف الترك عند حدهم لافى السعى لآبادتهم وابادة الاسلام جميعاً . وقد كان مشروع سوللى Sully السابق الذكر تأليف عصبة أوربية من خمس عشرة دولة قد تقدم بيانها فى محله . فأما سانت بيير فقد جعل تأليف العصبة من ثمانى عشرة دولة ثم اسقط منها واحدة وقال انه يجب ان يدعى الى الدخول فى العصبة الملوك الآتى ذكرهم الأول الأمبراطور الثانى ملك فرنسا الثالث ملك اسبانيا الرابع ملك البرتغال الخامس ملك

انكثرة السادس جمهورية هولاندة السابع ملك الدانيمرك الثامن ملك السويد التاسع ملك بولونيا العاشر قيصر الروسية الحادي عشر ملك بروسيا الثاني عشر امير بافاريا الثالث عشر أمير البالاتينا الرابع عشر سويسرة الخامس عشر دوق اللورين السادس عشر جمهورية البندقية السابع عشر ملك ساردانية . ولم يتم شئ من هذا المشروع وبقى أثرا تاريخيا في الآثار

ثم المشروع الخمسون وهو مشروع نمسوى وتاريخه سنة ١٧١٨ . وكانت تركيا في حرب مع النمسا من أجل بلاد المجر والفلاخ وكانت او ستريا أو النمسا احتلت قسما من الفلاخ وفي ١٩ اكتوبر سنة ١٧١٧ كتب الصدر الأعظم الى البرنس أوجين النمساوي يدعوه الى الهدنة فرضيت النمسا بالصلح على الشروط الآتية وهي . ان الباب العالي يرفع سيطرته عن بلاد المجر الثائرة ويمتنع عن بيع الاسرى ويراقب الولايات العثمانية في شمالي افريقية ويمنعها عن الاعتداء ويعطى الرهبان الفرنسيسكانيين الاماكن التي يطلبونها في القدس ويتخلى للنمسا عن قسم من الفلاخ . وفي ٨ فبراير سنة ١٧١٧ عقد الجنرال النمساوي « ستافيل » مع « جان مافر وفورداتو » أمير الفلاخ معاهدة يتعهد بها الجيش النمساوي بأن لايقطع نهر « ألوتا » ثم دخلت انكثرا وهولاندة في الوساطة بالصلح بين النمسا وتركيا فاذا بالنمسا تقترح ضم الفلاخ والبغدان الى الامبراطورية النمساوية فالترك رفضوا ذلك وجاء الخبر بأن ١٨٠٠٠ إسبانيولى نزلوا في ساحل ايطاليا الشمالية فقلقت من أجل ذلك النمسا وأسرعت بعقد الصلح .

ثم المشروع الواحد والخمسون وهو مشروع ديسلوفاي Disloway وتاريخه سنة ١٧٣٢ وكان ديسلوفاي هذا مجرّياً في الاصل من حاشية البرنس « راکوتزى » وكان يسمو الى امارة في الفلاخ والبغدان وكان يقول ان ثمة أرضا بين المجر وترانسيلفانيا تابعة للفلاخ والبغدان عظيمة الخصب تستطيع أن تيمر عددا كبيرا من السكان وانه اذا سمح له بها الباب العالي أمكنه أن يعمرها ويكون للباب العالي بذلك فائدة وهي وضع فاصل بين املاكه والامبراطورية الجرمانية وتكون هذه الامارة الحديدية تابعة في سياستها للباب العالي ، وتكون كاثوليكية المذهب . الا ان الباب العالي امتنع عن قبول هذا الاقتراح لانه كان اتفق مع النمسا بأن لا يروج غرضاً كهذا يستفيد منه البرنس راکوتزى وقومه المجر . وقيل ان ديسلوفاي انما كان يعمل ظاهرا لنفسه وباطنا لاميره البرنس المذكور وقد أجمع

الناس على ان هذا المشروع كان خياليا وهو على كل حال ليس فيه شئ مهم من تقسيم تركيا بل كان موجهاً في الحقيقة لصد النمسا والاستعانة بتركيا عليها .

ثم المشروع الثاني والخمسون المنسوب الى الكردينال « البروني » Alberoni . وتاريخه سنة ١٧٣٦ وكان البروني هذا طليانياً ولد في « فيرانزولا » سنة ١٦٦٤ ومات سنة ١٧٥٢ وكان من أعاجيب الدهر .

قال دجوفارنا ان فيكتور هوغو يذكر لنا رجلا اسمه روى بلاس Ruy blas كان في أوليته خادم منزل فصار في الآخر الوزير الأول في اسبانية وقد يظن أن هذه الحكاية هي خيالية من نتائج تصورات ذلك الشاعر العظيم ولكن قصة الكردينال البروني كانت حقيقة واقعية وقد تجاوزت قصة روى بلاس Ruy blas فان هذا الرجل كان من الطبقة الدنيا وكان أبوه حارس بستان وقد تربى في دير في مدينة « بلازانس » وتعلم مجاناً ثم صار معلما لابن أخى المطران « برنى » ثم صار ناموساً للمطران « رونكوثيه رى » ثم دخل في بلاط دوق پارم Parme وما زال ينال حظوة حتى أرسلوه معتمداً سياسياً في مجريط وهناك أبدى مزيد المهارة في السياسة وذلك ان ملك اسبانية فيليب الخامس كان له حظية قد استبدت بالأمر فما زال البروني به حتى اقنعه بالزواج بالأميرة « اليصابت فرنيزى » وارثة عرش پارم وبعد ذلك تمكن من نقي معشوقة الملك فلاجرم ان الذى يتصرف بقلب ملك اسبانية الى ذلك الحد يمكنه أن يحمله على السياسة التى يريد لها فلم يلبث أن تولى البروني رئاسة الوزراء في اسبانية ثم صار رئيس أساقفة اشبيلية .

وقد ازدادت في أيامه قوة اسبانية ففتحت جزيرتى سردانية وصيقيلية ولكن طرأ في زمانه أن الأسطول الانكليزى دمر الأسطول الاسبانى في « سيرا كوزا » ثم انعقدت معاهدة رابعة بين انكلترة وفرنسا وأوستريا وهولاندة فخطر في بال البرونى أن يقابل هذه العصبة بعصبة أخرى مؤلفة من اسبانية والروسية وتركيا والسويد . وفى تلك المدة أعلنت فرنسا الحرب على اسبانية أى سنة ١٧١٩ فخاف فيليب الخامس من هذه الخطوب المتوالية وطرده البرونى من اسبانية فخرج ذليلاً وهام على وجهه فى الأرض لا يملك شيئاً ثم قبض عليه فى جنوة بأمر البابا اينوشانسوس الثالث عشر وحكم عليه بالحبس مدة أربع سنوات فى دير ولكنه بدائه تمكن من نيل العفو وصار فيما بعد معتمداً للبابا .

وقد ألف البروني هذا كتاباً يحتوي أفكاره السياسية قال فيه ما خلاصته : انه يجب على دولتي فرنسا واسبانيا أن تعضدا دولة النمسا على الدولة العثمانية عدوة المسيحية وهكذا تتمكن النمسا بالاتفاق مع الروسية من طرد الأتراك من أوربا واسترجاع الأراضي المقدسة . وهو يقول انه لو اتفقت دول أوربا لم تطرد الترك من أوربا فقط بل أمكنها طردهم من آسية وافريقية وأشار بعهده مؤتمر في رهغنسبورغ Regensbourg تنعقد فيه معاهدة بين الدول المسيحية ويتأسس صندوق مركزي للمال في البندقية . وأما الجيوش فيجهز الامبراطور مائة الف مقاتل والروس مائة ألف وبولونيا ثلاثين ألفاً والدانيمرك عشرة آلاف والسويد عشرة آلاف وفرنسا ثلاثين ألفاً وكل من حدودات الصيقليتين والبرتغال وسردانية والبندقية وجنوة وسويسرة عشرة آلاف فجموع القوه يكون ٣٧٠ ألفاً . ثم انه يمكن تجهيز أسطول مسيحي لا يقل عن ١٠٠ سفينة حربية و ٤٠ بارجة . وقد اقترح « البروني » تجهيز أسطول آخر من سفن فرنسة واسبانية والبرتغال لأجل صد أساطيل طرابلس وتونس والجزائر وذهب « البروني » الى كون فشل الحروب الصليبية انما كان السبب فيه الخلف الذي وقع بين المسيحيين من أجل تقسيم الفتوحات فيجب أن يضع مؤتمر « رهغنسبورغ » قاعدة يسير عليها المسيحيون في المستقبل فلا يختلّفون

قال البروني : انه يجب أن يعين الدوق « هولستين غوتورب » Holstein-Gottorb امبراطوراً على القسطنطينية بجميع حقوق هذه الامبراطورية وان يكون ارثها في عقبه الذكور وان يضاف الى القسطنطينية أملاك تركيا في آسية وولاية الروملي في أوروبا ولما كان الحصن الحصين الأكبر الذي وقى أوروبا والنصرانية من عادية الاسلام هو الامبراطورية الرومانية (١) فيجب أن تضاف اليها بوسنة وصربيا واسكلافونيا ومكدونية والقلاخ وتكون من جملة أجزاء هذه الامبراطورية وأن يكون للامبراطور الروماني حق التقدم على امبراطور القسطنطينية وغيره من ملوك النصرانية ثم قال انه لما كان قد ثبت كون القيصرية حنة صاحبة الروسية ليس لها هم أعظم من نشر الديانة فانتا نرى من باب المكافأة لها على جهادها اعطاءها بلاد التتار وازوف وبمقابلة ذلك ترد هي بلاد فنلاندة الى مملكة السويد

(١) أي الجرمانية التي خلفت الامبراطورية الرومانية

وتجب مكافأة اسبانية باعطائها الجزائر ومكافأة البرتغال باعطائها طرابلس الغرب .
ويجب تسليم أزمير وجزيرة كريد الى انكلترة وتسليم حلب وجزيرة رودس الى هولاندة
وأما بولونيا فن حيث كانت مدة طويلة حصناً للنصرانية وقد أصيبت بمصائب كثيرة
فيجب أن تكافأ بتسليمها بلاد البغدان و بلاد التتر المسماة « بودزياك » ومانن أحد ينازع
في اعطاء دالماسيا الى البندقية ولا في اعادة المورة لها وقد انتزعت منها مذ عشرين سنة كما
انه يجب اعطاء جنوة قسماً من بلاد اليونان

فهذه خلاصة تقسيم الفتوحات بين الفاتحين وأنت ترى أن فرنسة وسويسرة
وفرسان مالطة ليس لهم ذكر في هذه التقاسيم وأغرب من هذا عدم اعطاء شىء للبابا .
وكل هذا فيه نظر

ثم ان البروني يقترح أن تكون ديانة الدولة في القسطنطينية وفقاً لصلح وستفاليا
(سنة ١٦٤٨) ولكن مع مراعاة الكنائس الارثوذكسية والارمنية والقبطية^(١) ويقترح
أن تكون المعاملات التجارية واحدة لا ترجيح فيها لاناكس على آخرين . ومن جملة
اقتراحاته طمس قلاع الردينيل

أما كيفية الهجوم على تركيا فتكون على الوجه الآتي :

يزحف الروس صوب شبه جزيرة القريم ويأخذون آزوف . وفي الوقت نفسه
تزحف جيوش بولونيا والدانمرك والسويد وتقطع نهر « دينستر » وتفتح بلاد البغدان
Moldavie وبلاد التتار وبلاد طرابزون

وتحتشد جيوش الألمان في بلغراد وتهاجم « ودين » و « نيش » وقلاع الطونه
وتهاجم جيوش الفرنسيين وسائر الدول الجنوبية بلاد اليونان . وتجتمع الأساطيل
وتهاجم جزيرة مدالي وجزيرة تيندوس ثم الردينيل ثم الاستانة و بعد انتهاء هذه الحرب
بنيل المنى ينعقد مؤتمر دائم في « رغنسبورغ » (مدينة في بافاريا) تمثل فيه جميع الدول
المسيحية وتفصل فيه خصوماتها ومن لا يخضع منها للحكم يجبر على الخضوع بالقوة

قال « دجوفارا » ان أربع دول بلقانية لم تنته من الحرب مع تركيا حتى اشتبكت في
حرب بعضها مع بعض لأجل قسمة الفتوحات وهذا برغم امبراطور الروسية الذي كان هو

(١) أى الاعتراف بكل ديانة الا الاسلام

الحكم فيما بينها . فكيف تريد أن تتفق دول أوربة بأجمعها على تقسيم البلاد العثمانية ؟ يريد أن يقول ان اتفاقات الدول على تقسيم الفتوحات هي أسهل في النظر منها في العمل

ثم المشروع الثالث والخمسون وهو مشروع نمسوي وتاريخه سنة ١٧٣٧

كان الروس اتحدوا مع النمسيين وهاجوا الترك سنة ١٧٣٧ الى سنة ١٧٣٨ وصد الباب العالي هاتين الدولتين معاً وأبدى قوة عظيمة الا أنه طلب توسط الدول الأوربية . وكانت فرنسا تعضده بواسطة سفيرها « فيلنوف » Villeneuve الذي كان يشدد البلب العالي ولا سيما في منع الروس من الاتصال بالبحر الاسود خوفاً من وصولهم الى البحر المتوسط . فانهقد مؤتمر الصلح في « نيمروف » من بولونيا وكان طلب الروس أن تكون لهم جميع سواحل البحر الاسود الممتدة من مصب الدانوب الى باطوم مع حرية الملاحة في هذا البحر . وان تنضم الفلاخ والبغدان مملكة واحدة مستقلة الا ان البناية الارثوذكسية فيهما تكون تحت حاية الروسية . وأما اوستريا فطلبت جميع بلاد الصرب ونيش وودين وبوسنه ونوفي بازار وكانت تسمو أيضاً الى أخذ الفلاخ Valachie فالباب العالي رفض هذه المطالب كلها واستؤنف القتال . فدخل الاوستريون بلاد الفلاخ ووصلوا الى بخارست الا ان الترك كسروهم في « مهاديه » Mehadia وأخذوا « ارزوفا » وفي ١٠ نوفمبر سنة

١٧٣٨ تصالحت فرنسا مع السويد وعرضت هذه المحالفة على تركيا

أما الروس فقطعوا نهر « البروت » وفي ١١ سبتمبر سنة ١٧٣٩ زحف المارشال مونيكا الى « جاسي » وكانت فرنسا توسطت في الصلح مع اوستريا وانهقدت معاهدة بلغراد في ١ سبتمبر سنة ١٧٣٩ و بقيت بلاد الصرب وبوسنه والفلاخ لتركيا . ولما رأت الروسية ان اوستريا تركت الحرب وصالحت تركيا ورأت السويد تهاجم من الوراأ أعادت الى الباب العالي البلاد التي كانت احتلتها من مملكه ورضيت بطمس قلعة ازوف واقتنعت بما كانت عليه قبل تلك الحرب من عدم الاتصال بالبحر الاسود

وكان صلح بلغراد هذا آخر صلح مجيد عقده الباب العالي مع أوربة وكوفتت فرنسا على عضدها لتركيا في هذه المصالحة بتجديد الامتيازات الافرنسية في تركيا وبزيادتها ثم المشروع الرابع والخمسون وهو المنسوب الى المريكيز « دارغنون » Ditrngson

وتاريخه سنة ١٧٣٨

وكان هذا الرجل ناظراً لخارجية فرنسا لعهد لويس الخامس عشر ويقال انه كان على جانب عظيم من استقامة المبادئ حتى قال عنه فولتير : انه أحرى بأن يكون وزيراً في جمهورية افلاطون من أن يكون وزيراً عند ملك فرنسا

وفي أواخر القرن الثامن عشر عادت في أوروبا حاسة النصرانية وتجددت العزائم لقتال الترك . وكان فولتير يدعو الى نصره الأروام و « شنيه » Shenier ينظم الاشعار الحماسية لمقاتلة الترك . ونشر الكونت « دومارسيغلي » De Marsigli كتاباً اسمه « حالة تركيا العسكرية وتقدمها وتقهرها » وكان هذا الرجل طليانيا اشتهر بالعلم وخدم دولة اوستريا وأسره الترك سنة ١٦٨٣ فقال في كتابه : « انه اذا اتفق الامبراطور والروس وبولونيا والبنادقة أمكنهم محو السلطنة العثمانية من الوجود » أما الوزير دارغنسون فمع أنه كان يشاطر أبناء عصره هذا الشعور بحق تركيا كان يخالف الجمهور في قضية تقسيم اسلاب هذه السلطنة فيقول : « انه لا يجوز أن نفتح بلدان تركيا ليستولى عليها الامبراطور بحجة انه هو حامى النصرانية وان تقويته لازمة . بل يجب أن يكون لكل واحد حصته من اسلاب تركيا وأن تؤسس على انقراض هذه السلطنة عدة ممالك مسيحية (١) وان لا يحصل خلل بالتوازن الأوربي وأن تعود بلاد اليونان الى مثل ماضى مجدها ويعود وادى النيل الجليل الى ما كان عليه وان تعاد النصرانية الى تلك البلدان وترتب ادارة للأراضي المقدسة الخ » وقد تكلم دارغنسون عن وجوب اتفاق الدول المسيحية فقال : انه اجدر بها أن تتحد في شبه جمهورية مسيحية من أن تستمر في قتال بعضها بعضاً وهكذا تفتح ممالك الاسلام في أوروبا وما صاقبها من سواحل افريقية الشمالية التي هي مجاورة لأوروبا كثيراً كملكة مراکش المجاورة لاسبانية ومن سواحل آسية الصغرى وسورية وفلسطين حيث الاراضي المقدسة الخ

ولقد تم هذا كله لكن من بعد زهاء مائتي سنة من العصر الذي كان فيه دارغنسون . وهو يعين العروش التي يرى ايجادها فيقول : يكون ملك لمكودنية وملك لليونان وامبراطور للقسطنطينية له بلاد الاناضول ويكون ملك لسورية وفلسطين وملك لمصر وملك للجزائر وتونس وملك لمراكش الخ

(١) أما السلون فلم يشكرهم دارغنسون في شيء بل وظيقتهم دائماً أن يكونوا تحت حكم المسيحيين

ثم المشروعان الخامس والخمسون والسادس والخمسون أحدهما لكاترينا الثانية امبراطورة الروسية والآخر ليوسف الثاني امبراطور اوستريا وتاريخه سنة ١٧٧٢ قال دوجوفارا : سنة ١٧٦٨ أعلنت تركيا الحرب على الروسية فانهزم الجيش العثماني ودخل الروس الى بلاد الفلاخ واستولوا على اسماعيل وبندر واكرمان وكذلك ساعد الانكليز الروس في البحر فظهروا على الاسطول العثماني في « چشمه » فتدخلت اوستريا في الخلاف فعرضت عليها تركيا لارضائها تقسيم بولونيا فرضيت بذلك وانعقدت معاهدة تقسيم بولونيا في ٥ أغسطس سنة ١٧٧٢ وانصرفت بها اوستريا عن البلقان واضطرت الروسية بسبب اتفاق تركيا مع اوستريا ان تخلى الفلاخ والبغدان وتعيدهما لتركيا الا أنه في المعاهدة الصلحية التي انعقدت في « كوجوك فايناردجي » سنة ١٧٧٤ في ٢١ يوليو رضيت تركيا بأن يكون للروسية حق الدفاع عن رومانيا أي مملكتي الفلاخ والبغدان وكانت اوستريا لا تزال طامحة الى الاستيلاء على رومانيا وكتب البارون « توى غوت » Thugut سفير اوستريا في الاستانة الى حكومته ما يلي : « عند سقوط السلطنة العثمانية القريب ينبغي أن تخرج ولاياتها الشمالية كبوسنة وصربيا والبغدان والفلاخ في نصيب أوستريا »

وفي أيام كاترينا الثانية قيصرة الروسية ويوسف الثاني امبراطور النمسا اشتد الخطر على السلطنة العثمانية أكثر من كل وقت نظراً لاتفاقهما على تقسيم هذه السلطنة . وكانت كاترينا هذه ألمانية الأصل الا أنها أفادت الروس ما لم يُفدّه أحد من ملوكها وأكملت عمل بطرس الأكبر وأشاد بذكرها كبار العلماء مثل فولتير و « ديدرو » و « دالمبر » وغيرهم وحولوا الرأي العام صوبها . وكان فولتير يوصي فريدريك ملك بروسية بعدم معارضة كاترينا في مشروعاتها المتعلقة بفتح القسطنطينية .

وأما يوسف الثاني امبراطور اوستريا ابن فرنسوا الأول وماري تيريز فكان شديد العاطفة واسع الخيال سريع الحركة وكان فريدريك ملك بروسية يقول عنه : انه يجب العلم لكن ليس له صبر عليه . وقد عرفت كاترينا بدعائها مكان ضعف يوسف الثاني فأخذت تتزلف اليه وتطريه بغير ما فيه . وهكذا استولت على أفكاره وصار له بها اعتقاد شديد . وكانت هي التي اقنعت بتقسيم بولونيا ووافقها على ذلك فريدريك ملك بروسية . وهذا

الملك كان يرى أن اوستريا لا يمكنها أن تترك الروسية تستولى على رومانيا فلذلك سعى في التعويض على الروسية من جهة بولونيا . ولكن كآثرينالم تكن لتنزل عن مطامعها من جهة تركيا وكانت تطالب ببلاد آزوف وتضيق على السلطان العثماني في رفع سيادته عن القريم وتحاول الدخول في الفلاخ والبغدان . وكانت اوستريا تعاكس جميع مشروعات الروسية هذه ولذلك انتهى الأمر بالسماح للروس بأخذ الجانب الأعظم من بولونيا ووجدت اوستريا هذا الأمر أهون عليها من تقدم الروسية صوب الاستانة . وكانت اوستريا لو رأت من الروسية اصراراً على فتح رومانيا مستعدة لمناجزتها الحرب . وأخيراً رضيت الروسية بان تترك تركيا لرومانيا استقلالها التام ويولى على رومانيا أمير من بروسية . وما تم ذلك الا فيما بعد إذ جاء أمير من بروسية وجلس على عرش رومانيا بعد ذلك التاريخ بقرن كامل فأما في ذلك الزمن فان النزاع بين الروسية واوستريا على رومانيا قضى ببقاء هذه تحت السيادة العثمانية . وكان فريدريك ملك بروسية يختار هذا الرأي خشية أن يجر هذا الخلاف الى حرب بين الروس والنموسيين . ولقد جرى تقسيم بولونيا كما تقدم الكلام فداءً للنزاع على رومانيا الا أن اوستريا بقيت تواقفة الى أخذ رومانيا وخائفة عليها من الروسية

وكان الروس لا يزالون يقترحون اتحاد الدول الثلاث الروسية واوستريا وبروسية لأجل اسقاط تركيا . وكان ناظر الخارحية الروسية يقول ان مسألة طرد الترك مما وراء نهر « دنيستر » لا تستحق اتحاد ثلاث دول عظام بل اتحاد دول ثلاث كهذه يجب أن يقضى على سلطانهم في كل أوربة وفي قسم كبير من آسية . الا أن اوستريا كانت تخشى سقوط الدولة العثمانية التام لما وراء ذلك من استفحال أمر السلاف . وقد قال الامبراطور يوسف الثاني للسيو « دوسوغور » Segur ان القسطنطينية ستبقى دائماً محل منافسة بين الدول وتمنع من اقسام تركيا . وقد كتبت الامبراطورة ماري تيريز الى الكونت « مرسى ارغنتاو » Mercy-Argenteau بتاريخ ٧ يوليو سنة ١٧٧٧ ما يلي :

« ان اقسام السلطنة العثمانية لأعظم المشروعات خطراً وأوجها عواقب . وما ذا نستفيد لعمرى لو فتحنا كل هذه البلدان حتى صرنا على أبواب الاستانة ؟ اننا لا نفتح هناك الا أقاليم وبيّة الهواء قليلة السكان متأخرة الثقافة أو مسكونة بأروام خبيثاء لئام يكون من شأنهم أن يستزفوا قوى مملكتنا بدلاً من أن يزيدوها . ثم اننا نخسر بهذا العمل ثقة

الناس بيهودنا وهذا هو الخسران المبين . ان تقاسم السلطنة العثمانية أشد ضرراً من تقسيم بولونيا الذي لم أرض به الا مرعمة حتى أجرى به جيراني . فأنا لا أميل أبداً الى تقسيم تركيا وأرجو ان احفادنا أنفسهم لا يرونهم خارجين من أوربة »

قلت : قد مضى على هذا الكلام مائة وخسون سنة ولا يزال الترك في الاستانة وفي ولاية تراقيا الشرقية من أوربة

ولما ماتت ماري تيريز سنة ١٧٨٠ خلا الجو لكاترينا الثانية وأخذت تعمل دسائسها لدى يوسف الثاني لاقناعه بتقسيم تركيا وأرسلت الى فرنسة أيضاً تقترح عليها المالاة على هذا التقسيم وأن يكون لها مصر من أصل الأسلاب

وفي ٣٠ مايو سنة ١٧٨٠ تلاقى كاترينا مع يوسف واتفقا على اسقاط تركيا واستلحاق بعض أجزائها واعادة الجمهوريات اليونانية القديمة . ثم في سنة ١٧٨٢ كتبت الى يوسف صورة معاهدة سرية واقترحت أن يكون التقسيم بحيث لا يقع بسببه تصادم بين الممالك الثلاث بل تؤسس مملكة من الفلاخ والبغدان مستقلة تماماً تمنع الاتصال بين الممالك الثلاث التي تخشى تجاوزها ويكون ملك هذه المملكة الجديدة على المذهب المسيحي الأكثر عدداً في الفلاخ والبغدان

أما الامبراطور يوسف فاستشار في مذكرة كاترينا وزيره البرنس « كوتيتز » Kaunitz الذي أجابه بان قبول اقتراح كاترينا على كل حال أقل ضرراً من رفضه وبانه يخشى أن كاترينا ان يئست من اوستريا تعود فتتفق مع روسية

فاجاب الامبراطور يوسف كاترينا بكتاب مؤرخ في ١٣ نوفمبر سنة ١٧٨٢ مؤداه انه لا بد لنجاح مشروع التقسيم من قبول فرنسة وانه من جهة تأسيس مملكة ارثوذ كسية في رومانيا وأخرى في القسطنطينية فان هذا كله يتوقف على نتائج الحركات الحربية . وأما من جهة ما تقترحه النمسا في هذا التقسيم لنفسها فهو استلحاق قسم من الفلاخ مع ضفتي الدانوب الى بلغراد ومن بلغراد يكون للنمسا على خط مستقيم الى بحر الادرياتيك مع دالماسيا وايتريا وان تكون حرية التجارة تامة في نهر الدانوب عند مصبه وفي مضيق الدردنيل

ولما بلغ فرنسة هذا المشروع قاومته أشد مقاومة وقالت ان هذا المشروع اشبه بان

يكون اتساع السلطنة الروسية من أن يكون تقسيم السلطنة العثمانية وقال المسيو « فرغن » Vergennes للكونت « مرسى ارغنتاو » ما يلي :

« لا يوجد في اوربة كلها دولة واحدة لا تبذل آخر جندي من جيشها وآخر درهم من مالها في سبيل منع انهيار السلطنة العثمانية »

أما الامبراطورة كاترينا فاجابت الامبراطور يوسف بانها لا تطلب للروسية من الحقوق في الدولتين الجديدتين اليونانية والرومانية أكثر مما ترضى به لاوستريا وان حرية الملاحة في البحرين الاسود والابيض تكون مضمونة . وغاية ما في الأمر انها تقترح عدم تصغير الدولة اليونانية ووجوب تسليمها الموره والارخبيل

وقد ظهر من هنا أن كاترينا بدأت تتعهد باسم الدولتين الجديدتين كأنهما من الممالك التابعة لها

قلت ان هذا المشروع قد تم فيما بعد فتأسست دولة يونانية بعد هذا التاريخ بنصف قرن ودولة رومانية بعده بنحو من قرن كامل . ولكن لم يكن للروسية أن تسيطر ولا على واحدة منهما . هي قد غرست ولكن الثمرة لم تكن لها

ثم ان كاترينا أعادت السعي الخفي لدى الامبراطور يوسف في اتمام مشروع تقسيم تركيا وكان الامبراطور لا يزال يتذبذب في الموضوع نظرا لشدة اعتراض فرنسا على هذا التقسيم . وجاء من فرنسا الى أوستريا مذكرة صريحة بان مشروع تقسيم كهذا شديد الخطر وبلغ الضرر لا سيما بمصلحة اوستريا .

فاجاب عليها الامبراطور يوسف بانه لم يمكن منع الحرب بين الروسية وتركيا ومن أجل ذلك لا يمكنه لاجل سلامة سلطنته في الوقت الحاضر وفي المستقبل أن يشاهد مجرى الحوادث من بعيد

فعند ذلك قدم « برتليمي » سفير فرنسا في فيينا مذكرة شديدة للنمسا ينتقد فيها خطتها ويقول : « انه بينا الاتراك يحافظون على عهودهم معها اذا هي تتنزه فرصة ضعفهم وتحاول أن تضربهم ضربة قاضية لتقسيم ميراثهم الخ » وفي آخر المذكرة شيء من التهديد بما ساء وقعه جداً على الحكومة النمساوية وواجب توتر العلاقات بينها وبين فرنسا

وفي ٨ يناير سنة ١٧٨٤ اضطر الباب العالي أن يعقد مع الروسية معاهدة يتخلى

بها لها عن شبه جزيرة القريم

ثم حدثت ثورات في بلاد المجر وترانسيلفانيا حالت دون استيلاء الامبراطور يوسف على قسم من الفلاخ . وأشق من هذا كان عليه خروج بلجيكا من يده . فمات من بعد هذه الحوادث غمماً وتوقف كل شيء

ثم المشروع السابع والخمسون المنسوب الى « لنگه » Linguet وتاريخه ١٧٧٤ الى ١٧٧٦ كان « لنگه » هذا محامياً صحفياً افرنسياً خدم الامبراطور يوسف عاهل النمسا وبعد أن أقام زمناً في أوستريا وقعت وحشة بينه وبين الامبراطور ففارقه وعاد الى باريز وهناك قتله رجال الثورة الفرنسية بحجة أنه كان مؤيداً للولوك الظالمين كمبراطور أوستريا وملك انكلترة . وقد حرر « لنگه » هذا المشروع أيام اقامته بروكسل سنة ١٧٧٥ أو ١٧٧٦ وقدمه الى الخارجية الفرنسية وقد بقيت منه نسخة غير مطبوعة في المكتبة الملكية بروكسل . وكان « لنگه » كاتباً شهيراً قال عنه فولتير « انه يحترق لكنه في أثناء حريقه يضيء » .

وقد سمي « لنگه » مشروعه « طرد الترك من أوربة وتأسيس توازن سياسي جديد » فقال فيه انه لا خطر على أوربة الا من غارة تركية أو روسية . وقال كلاماً آخر عميق الغور وهو أنه اذا اقتضت السلم العامة اقتطاع نصف تركيا صار الأتراك أشد خطراً من ذي قبل بشدة تمرسهم بالقتال

وقال ان حصن أوربة من جهة الشرق كان بولونيا وهاهي قد سقطت . ولقد بقيت ألمانيا هي الحصن الحصين لاوروبا من غارات الترك ولا شك أن ألمانيا قد أتقنت أوربة من عادية الترك مراراً الا أن الامبراطورية الجرمانية تشتمل على عناصر متعددة هي سبب كبير في ضعفها . فاذا تستفيد اوستريا من هولاندة مثلاً؟

ثم أخذ « لنگه » يذكر أمراض أوربة السياسية ويعدها . وأشار بتوسيع اوستريا من جهة تركيا . وقال ان الروسية لا تقدر أن تمنع تدخل أوربة في هذه المسألة . واجال كلامه هو أن بروسية هي معقل أوربة من جهة الروس وان أوستريا هي معقل أوربة من جهة الترك وانه يجب التعويض على فرنسة لأجل التوازن الدولي باضافة هولاندة اليها ثم المشروع الثامن والخمسون وهو مشروع «دوكارا» De carra وتاريخه سنة ١٧٧٧

كان «دوكرا» هذا ناموساً لأمير البغدان ثم للكرديال «دوروهان» De Rohan ثم صار قيماً لخزائن كتب الملك في باريز ولما ثارت الثورة الفرنسية دخل في زمرة الجاكوبيين Jacobins ثم انحاز الى الجير ونديين Jirondins ثم قتله رجال الثورة . وله تصنيف اسمه «بحث سياسي يتضمن اقتراح تقسيم تركيا» بدأ فيه بقوله «ان تركيا أصبحت بحالة يمكن فيها الفيلسوف نفسه ان يشير بفتحها» ثم ذكر اتفاق الروسية واورستيا على تركيا وتقدم اوستريا في رومانيا وتقدم الروسية في القريم وكرجستان وبلاد التتر والفين . وقال انه يجب تقوية بروسية لتكون حاجزاً منيعاً بين الروسية والنمسا وكذلك تنبئ الموازنة بين قوى النمسا والروسية وبروسية وفرنسة . ثم قال : ان الآتراك هم الاعداء الطبيعيون الابديون للمسيحيين كما أنهم هم أعداء العلوم والصناعات فيجب طردهم من أوربة أما كيفية التقسيم فان «كرا» يشير باعطاء اوستريا الفلاخ وبلاد البلغار والصرب وبوسنة وبعطاء بروسية بلاد البغدان وبارانيا الى البحر الأسود مع قسم من بولونيا والروسية وبعطاء فرنسة المورة واقريطش وقبرص وجزر الارخبيل وبعطاء القرم وازوف للروسية . واما القسطنطينية وسائر تركيا فيجب أن تكون لجمهورية البندقية الا انه يكون أربعة مجالس في القسطنطينية كل منها مؤلف من ١٢ عضواً لمجلس للاستريين وآخر للفرنسيين وآخر للروس وآخر للبروسيين وأما اسبانيا فلها ان تفتح مراكش والجزائر وتونس . ثم يذكر كرا كيفية هجوم الجيوش المتحالفة لفتح تركيا مما يشبه البرامج التي سبقت فلا لزوم لشرحه

ثم المشروع التاسع والخمسون ولم يعرف اسم صاحبه وتاريخه سنة ١٧٨٨ وهذا المشروع تضمنته رسالة اسمها «خيال سياسي لتقسيم جانب من السلطنة العثمانية»

وقد ذكر هذا الكاتب المجهول انه يجب اخراج الترك من أوربة والاناضول وسورية وفلسطين وجميع شواطئ البحر المتوسط وانه يجب تأسيس مملكة مؤلفة من تركيا أوربة الى حد بوسنة ومعها سواحل الاناضول الى مايقابل رودس وتكون هذه المملكة لفرنسه ثم تأسيس مملكة مؤلفة من الاناضول وارمينية وكرجستان تعطى للروسية

ثم تأسيس مملكة مؤلفة من بولونيا وكورلندة والبوجاق يدون عليها دوق توسكانا ويكون لفرنسة أيضا مصر وللامبراطور الفلاخ والبغدان وللروسية القريم والقوبان ثم تتأسس مملكة مؤلفة من سورية وفلسطين يكون صاحبها النون فيليب الاسباني . وتتأسس مملكة لاسبانية أيضاً في مراکش . وتنقسم ايلات الجزائر وتونس وطرابلس بين اسبانية وصردانية ومودينا (امارة في ايطالية)

وتكون حرية البحار مضمونة للجميع وكذلك حرية المرور بالبواغيز مثل البوسفور والدرديل وجبل طارق

وان اتفقت الروسية واوستريا لتمنعا فرنسا من الاستيلاء على الاستانة وتوابعها يجب أن تتحالف فرنسة مع بروسية والسويد والدانمرك وبمالك الشمال ويأخذن بيد بولونيا ويضفن اليها الفلاخ والبغدان وباسارايا

ثم المشروع الستون وهو مشروع « فولناى » Volney وتاريخه سنة ١٧٨٦ فالكتاب الافرنسي الشهير فولناى أعلن تأييده للسياسة الروسية السلافية في رسالة نشرها تحت عنوان « اعتبارات في الحرب الواقعة مع الاتراك » وكان الروس قد أعلنوا الحرب على الترك وحبس الباب العالي سفير الروسية في الاستانة ثم انضمت اوستريا الى الروسية وأعلنت الحرب أيضا على تركيا في ١٧ سبتمبر سنة ١٧٨٨

فبدأ فولناى بذكر الممالك التي افتتحها الترك في أقل من اربعمائة سنة وقال انهم أحسنوا فتح أجبل بلدان العالم وأعظمها . الا انه من نحو مائة سنة ظهرت دولة اسمها الروسية كانت قبل هذا التاريخ مجهولة فتقدمت بسرعة مدهشة وأصبح المستقبل لها . وسواء كان في العالم المادى أو في العالم الأدبى اذا بدأ الجسم يتحرك كان استمرار حركته بقدر جسامته ثم قال فولناى : ان تركيا يجب أن تنقرض ^(١) وانه كما أمكن الاتفاق على تقسيم بولونيا بين حكومتى فينا و بطر سبورغ يمكن اتفاقهما على تقسيم تركيا ^(٢) ولقد أشار

(١) مضى على كلام الفيلسوف فولناى هذا مائة وأربع وأربعون سنة ولم تنقرض تركيا ولم تزل هي صاحبة القسطنطينية والاناطول . وما أصدق تلك الجملة : « الانسان يدبر والقضاء يضحك »

(٢) وهنا أيضا ضحك القضاء من الفيلسوف فولناى فقد نشر الله بولونيا من قبرها بينا الروسية جمهورية شيوعية واوستريا سلطنة في الغابرين لم يبق منها الا الجزء الثامن مما كانت

قولناى على فرنسة وطنه بالاتفاق مع الروسية وجعلها الخليف الطيبى لها (١) وبعدم معارضتها فى نزع القسطنطينية من يد تركيا : اما تاج القسطنطينية فيشير قولناى باعطائه الى امبراطور يونانى وان يكون له الموره والارخبيل وان يكون المرور بالبوسفور حراً . واما اوستريا فتعطى البانيا وبوسنه وسواحل الادرياتيك كما انه يجب ان يؤول الى الروسية بلاد الفلاخ والبغدان والبلغار

وذكر قولناى أن الآراء مقسمة فى فرنسة فيما يجب أن تعترض به فرنسة على افتراض سقوط تركيا . فبعضهم أشار بأخذ المورة واقريطش وقبرص . وآخرون مالوا الى فتح مصر . وقولناى لا يرى فى المورة والجزر طائلا كما أنه يخشى اذا تعرضت فرنسة لمصر أن تقع فى حرب مع تركيا وانكاترة والمصريين (٢) وكان من رأيه أن تتجرد فرنسة وقتئذ لاصلاح أمورها الداخلية وتكتفى بذلك

وبما أصاب به قولناى قوله ان مهاجة هذه الدول لتركيا سيفيد تركيا والشرق ويبعث يقظة عند الشرقيين . وقال ان شعوب تركيا أعظم استعداداً فى كثير من الأمور من الشعوب الأوربية لا سيما أهل الشمال منها . قلنا وبما لا مشاحة فيه ان أهل الأقطار الشمالية من أوربة يغلب عليهم شئ من البلادة لكن هذا الجنس من البشر يمتاز بالثبات والجد فى العمل وهكذا أصبح فى هذا العصر أرقى الاجناس وأكملها مدنية برغم بلادته

ولقد رد على قولناى رجل يقال له « شارل دو بيسونل » Charles De Peyssonnel كان فنصلا لفرنسة فى ازيمر ونشر رسالة قاوم فيها السياسة الروسية مقاومة شديدة وسفه رأى قولناى وأظهر تناقض أقواله اذ بينما هو يظهر الخوف من تبسط دول مفرطة الاتساع يشير بزيادة تكبير الروسية فوق ماهى عليه . ثم قال هذا الرجل ان انكاترة ستقاوم توسع دول كبيرة الى هذا الحد لأن وجودها يوقع خلاا بالتوازن الدولى . وان فرنسة يصيبها من ذلك خسار كبير ان رضيت به

ومن أهم ما لاحظته « بيسونل » هو انه ان تقدمت الروسية صوب البلدان العثمانية

(١) اما هذا فقد حققته الايام من بعد مائة سنة من كلام قولناى

(٢) فى هذه صح كلام هذا الفيلسوف لأن كل هذا حصل فى زمن نابليون بعد كلام قولناى يضم

ودخلت هذه في حوزتها جاء وقت تأسف فيه المسيحيون الذين في هذه البلدان على الحرية التي يتمتعون بها في ظل الترك وذلك بما سيقاسونه من فظائع الاستعباد الروسي الذي يعرفه جميع الشعوب التي دخلت تحت حكم الروسية

وأخذ « بليونل » يذكر التوحش الذي كان لا يزال عليه الشعب الروسي وكيف ان أكثره ارقاءً للامراء وكيف ان بلادهم أكثرها غابات أشبه تسكنها الوحوش الضارية وخطب فولنای قائلاً : « أمن مثل هؤلاء تنتظر الخير » ؟

ثم أخذ بليونل يصف المساحات العظيمة الخارقة للعادة التي يتمتع بها المسيحيون في ظل سلاطين آل عثمان ويذكر الامتيازات المعطاة للأجانب بما لا يمكن أن تعطيه دولة أخرى وقال : « ان جميع ما في تركيا من الأوضاع يهيئها لتكون سلطنة عظيمة وانما هي محتاجة الى رجل عظيم ينفذ ذلك ». وختم بليونل كلامه بما ستعرض له فرنسة من الخطر اذا سمحت للروسية واوستريا بتقاسيم أملاك تركيا

ثم المشروع الواحد والستون وصاحبه « دوبريون دولاتور » De Brion De la Tour وتاريخه ١٧٨٨

وهذا الرجل قد رد أيضاً على فولنای واتهمه بالضلع مع الروسية . وحرر هو مشروعاً خاصاً به سماه « اقتسام جلد الدب » أو « رسالة الى صاحب حلم تقسيم السلطنة العثمانية »

وقد بدأ « دولاتور » هذه الرسالة باثبات ان الأتراك لم يكونوا معتدين وان سلطنة الروسية أصبحت واسعة جداً وانه ليس يكون اصلاحاً لحال المسيحيين الذين تحت حكم تركيا ادخالهم تحت حكم الروسية

وقال انه لا يمكن تقسيم سلطنة عظيمة كالسلطنة العثمانية بدون حروب ومنازعات لا سيما بين الروسية واوستريا

غير ان « دولاتور » أشار بمعالجة المرض باحداث أربع ممالك الأولى القسطنطينية مع تركية أوربة الى بوسنة ومصب الطونة ومعها سواحل الاناضول وقسم من الارخبيل وهذه يتبوأ عرشها أمير افرنسي . الثانية الأناضول والقوقاس ويكون عليها الامير قسطنطين ابن أخي كاترينا امبراطورة الروسية . والثالثة بولونيا وكورلاندة وبارايا ويكون عليها

دوق توسكانا ابن أختي الامبراطور يوسف الثاني . والرابعة سورية وفلسطين ويتولاها
دوق يارم

ثم يحدث ممالك في شمالي افريقية تكون منها مصر ومرا كش تحت سيطرة فرنسة
أما الفلاخ والبغدان أي رومانيا فتكون لاوستريا

وقد حدث يومئذ ان انكلترة أرادت التقرب من كاترينا امبراطورة الروسية
واقترحت عليها تقاسم النفوذ في شرقي أوربة والشرق الاقصى فامتنعت كاترينا من اجابة
اقتراحها . فعادت انكلترة واتفقت مع بروسية بموجب معاهدة ١٣ أغسطس سنة ١٧٨٨
وقررتا أن تكونا يداً واحدة في أمور الشرق . ثم أخذت انكلترة تدافع من ذلك الوقت
عن وجود تركيا توقيفاً لامتداد الروسية . وقد استفادت تركيا مدة طويلة من هذه السياسة
ثم المشروع الثاني والستون وهو مشروع « هرتزبرغ » Hertzberg وتاريخه
سنة ١٧٩٢

وكان هذا الرجل ألمانياً من « بومرانيا » وكان من العلماء والمؤلفين وتقلد نظارة
الخارجية البروسية لعهد فريديريك الكبير ثم لعهد فريديريك ويلهم الثاني وصار له الحول
والطول وفي أيامه صارت برلين مركز السياسة في أوربة
وكانت خلاصة اقتراح هرتزبرغ أن تأخذ الروسية سواحل البحر الاسود الى مصب
الطونه وأن تأخذ اوستريا الفلاخ والبغدان وترد في مقابلة ذلك غاليسيا للبولونيين وهؤلاء
يتخلون عن « تورن » و « دانترغ » لبروسية

وكان هرتزبرغ قد كتب الى سفير بروسية في الاستانة في ٣ ابريل سنة ١٧٨٨ قائلاً
له : « اذا كان الباب العالي سيضطر للزول عن احدى ولاياته فليعمل ذلك بواسطة بروسية
ليمكن هذه أن تنال عوضاً من جهة أخرى فان لم يفعل اضطرت بروسية الى التحالف مع
الامبراطوريتين والدخول في الحرب معه »

الا أن الأتراك كانوا في أول هذه الحرب غالبين فلم يرعهم هذا الانذار واشتروا
على هوتزبرغ لقبول اقتراحه أن يعلن الحرب على النمسا . وفي ٣٠ يناير سنة ١٧٩٠
انعدت معاهدة الصلح على أن تعود الى تركيا جميع الولايات التي كانت خسرتها ومن
جلتها القريم

نخاب أمل هرتزبرغ من جهة استلحاق بلدان كان يرجو الاستيلاء عليها بواسطة هذه الحرب . وكان الامبراطور يوسف الثاني أشد الناس معارضة لتبسط بروسية وكتب في ٧ يناير سنة ١٧٨٨ الى « مرسى ارغنتاو » يقول له : « لا أقرر أن أرى في ملك بروسية الا عدواً ليبتى ولا أرى في كل زيادة يزدادها الا نقصاً من قوتي »

أما فرنسا فقد كانت استحسنست عدم توسيع بروسية من أملاك بولونيا واتفقت في هذه المسئلة مع الروسية . ولم ينفذ شئ من مشروع هرتزبرغ هذا

ثم المشروع الثالث والستون وهو مشروع « تاليران » Talleyrand وتاريخه ١٨٠٥ كان تاليران أشهر من أن يعرف ولد في باريس في ١٣ فبراير سنة ١٧٥٤ ومات فيها في ١٧ مايو سنة ١٨٣٨ وكان ناظراً للخارجية الافرنسية مدة طويلة في أيام نابليون الاول ولويس الثامن عشر . وهو من نوابغ الدهر في السياسة يضرب به المثل . وقد كثر في زمان تاليران التحدث بتقسيم السلطنة العثمانية أكثر من ذى قبل لان عصر نابليون كان عصر حروب واطقلابات وثلّ عروش وهدم ممالك وتأسيس ممالك فلا عجب أن يكون تقسيم هذه السلطنة أصبح محور الكلام . قال « فندال » : « لم يكن في ذلك الدور رجل سياسة الا وعنده برنامج تقسيم للسلطنة العثمانية هو محتفظ به لوقت الحاجة »

أما تاليران فلم تكن سياسته ترمى الى غرض الاتحاد مع الروسية بل كان يرى تقوية العنصر السلافي خطراً ويجب أن يعزز اوستريا في وجه السلاف . ولتاليران تقرير حرره في ستراسبورغ في ١٧ اكتوبر سنة ١٨٠٥ وقدمه لنابليون وماآله الاتفاق مع اوستريا دون بروسية كما أنه يفصل مصالح اوستريا عن مصالح انكلترة ويحاول توجيه الجميع الى مقاومة الروسية . وقاعدة تاليران السياسية في الشرق كانت هي أن الترك صاروا الآن لا تخشى غائلتهم بل صاروا هم يخشون غوائل الآخرين وقد قام مقامهم الروس وصاروا خطراً على أوربة . وليس لاوربة الآن في وجه الروس حصن أمنع من النمسا فيجب تقويتها لتثبت امام الروسية .

وكان تاليران يريد اعطاء الفلاخ والبعدان وبساراييا وشمالى بلغاريا للنمسا منعا لامتداد الروسية الى الجهة الاوربية . وكان يقول ليونابرت : « بعد أن تهزم جيوش النمسا في معركة فاصلة يكون من باب الجزم أن تقول للنمسا : احتلّى الفلاخ والبعدان وبساراييا

وأنا أجل الباب العالي على تخليتها لك . وان عارض الروس في ذلك كنت معك عليهم . وهكذا تعقد مع النمسا أمثان صلح بعد أن تكون أحرزت عليها أبهر نصر »
 وكان تاليران قاطعاً الأمل من نهضة تركيا ذاهباً الى أن اقتطاع كثير من ولاياتها يزيدا قوة ولا يُضعفها كما يُظن وانه يمكن اعطاء هذه الولايات الدانوبية لامبراطورية أوستريا وعقد معاهدة بينها وبين الباب العالي تتعهد بها هذه الامبراطورية بالمحافظة على سلامة السلطنة العثمانية . ولكنه كان يريد ان يقتطع من أوستريا بعض مقاطعات من جهة ايطالية بمقابلة ما كان يقترحه من اضافة الفلاخ والبغدان وبساراييا الى أوستريا وقد كان رأى تاليران هذا من الصواب بمكان . ولكنه لم يكن ضروريا اعطاء رومانيا وبلغاريا لامبراطورية النمسا من أجل وضع هذه في وجه الروسية فان المناظرة بين هاتين الدولتين كانت واقعة لا محالة بهذا وعدمه

على أن الامبراطور نابليون رد اقتراح تاليران ومال الى التحالف مع الروسية

كما سترى

ثم المشروع الرابع والستون وهو مشروع نابليون الأول واسكندر الأول وتاريخه

سنة ١٨٠٨

قال نابليون في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة : « تذا كرت مراراً مع الروس في أمر قسمة السلطنة العثمانية وكان ذلك ممكناً لولا القسطنطينية التي كانت دائماً سبباً لمنع الاتفاق فقد كان الروس يريدونها وأنا لم أكن أرضى باستيلائهم عليها فان القسطنطينية وحدها مملكة ومن ملك القسطنطينية أمكنه أن يسود كل الدنيا »

وقال نابليون مرة أخرى « القسطنطينية مفتاح العالم »

الانه في قضية السلطنة العثمانية لم يكن على رأى ثابت فتارة كان يميل الى مجارة الروسية في فصم عراها وطوراً كان يأتي ذلك كل الالباء . وقد كتب الى سباستياني سنة ١٨٠٦ بخط يده : « اني لأريد أبدأ تقسيم السلطنة العثمانية ولو أخرجوني بثلاثة أرباعها اني لأرضى بذلك أصلاً . وكل ما أريده انما هو تقوية هذه السلطنة في وجه الروسية »

ولكن نابليون كان سنة ١٧٩٧ كتب الى الحكومة المركزية يقول : « اننا من

جزر اليونان ومالطة الخ يمكننا أن نراقب أحوال السلطنة العثمانية حتى اذا انهارت كان لنا

نصيب منها »

وقد كانت علاقات نابليون مع اسكندر الأول قيصر الروسية باديء ذي بدء غير متينة بل كانت أقرب الى التراخي . وكان جناعة اسكندر مثل الكونت « كوتشوبى » و « نوفوسيلتروف » و « كزارتوريسكى » و « ستروغونوف » أعضاء جمعية الخلاص أصدقاء سياسة الاتفاق مع فرنسا وأنصاراً لسياسة الاتفاق مع انكلترا . الا أن نابليون كان يتزلف الى اسكندر وقال لسفيره ماركوف سنة ١٨٠٢ « الا يوجد فى أمراء الأسرة المالكة فى الروسية من يرث عرش القسطنطينية »

ولما توج نابليون امبراطوراً على فرنسا حصل تحالف دولى عليها مؤلف من الروسية والسويد وانكلترا والنمسا وبروسية وتركيا وناپولى واقترح تاليران على نابليون عقد اتفاق مع النمسا الا أن نابليون بقى يؤثر سياسة التقرب الى الروسية وقال للبرنس « دولغوروكى » Dolgorouki : « لماذا يحاربنى الامبراطور اسكندر ؟ ماذا يريد منى ؟ ما عليه الا أن يوسع حدود مملكته من جهة ممالك جيرانه لاسيا الترك وحينئذ يرى أن ليس بيننا وبينه خلاف »

ولما انتصر نابليون فى وقعة « اوسترليتز » الشهيرة (٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥) عقد اتفاقاً مع بروسية تقرر فى سلامة أملاك السلطنة العثمانية .

وأغرى نابليون الترك بمحاربة الروس فآذونهم بحربهم فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٠٦ وهزمهم وبعد ذلك رضى الامبراطور اسكندر بتدخل فرنسا فى الصلح بين الروسية وتركيا

وكتب نابليون من فارشوقا الى مجلس السنات فى ٧ فبراير سنة ١٨٠٧ يقول لهم : « إذا سقطت مملكة القسطنطينية لم يمكن أحداً أن يعرف مايتبع ذلك من المصائب والحروب . . . وان ارتفع تاج هذه البلدة على رأس يملك من البلطيك الى البحر المتوسط لم يبعد أن نجد أقواماً من البرابرة هاجين على فرنسا من جهة البحر » يعنى بذلك الروس غير ان نابليون برغم هذه العبارات لو علم أنه يخرج بشقص رضيه من انقراض السلطنة العثمانية لما كان يأبى الموافقة على قسمتها

وكتب تاليران فى ٢٧ يناير سنة ١٨٠٧ الى سفير فرنسا فى فيينا يقول له ان عقدة

العقد كلها هي تركيا وانه من الواجب المحافظة على وجودها الى أن نرى امكان حفظها
 باجمها مستحيلا فيجب حينئذ الاتفاق بين النمسا وفرنسا على قضية تقسيم انقاضها
 ثم انه بعد معركة « فريدلاندر » وغلبة نابليون على الجميع تلاقى مع اسكندر في
 ٢٥ يونيو سنة ١٨٠٧ في نهر « نيمون » بقرب « تيلسيت » وحضر الاجتماع فريدريك
 ويلهلم ملك بروسيا ومعه وزير خارجيته البرنس « دوهاردينبرغ » فكانت بروسيا هي التي
 اقترحت تقسيم تركيا وذلك على ان الروسية تأخذ قسما من الفلاخ والبقدان وبلغاريا
 والروملى مع البواغيز واوستريا تأخذ دالماسيا وبوسنه وصربيا وفرنسة تأخذ بلاد اليونان
 والجزر وان بولونيا تصير تحت تاج ملك الساكس وملكه الساكس تؤول الى بروسيا
 وقضى نابليون وقتئذ بصيرورة رومانيا وبلغاريا الى الروسية الا انه أراد توسيع
 حصة فرنسة باضافة البانيا أو بوسنة الى بلاد اليونان التي ستكون لفرنسة . وفي ٧ يوليو
 سنة ١٨٠٧ انفصلت ثلاث معاهدات وتقرر خروج العساكر الروسية من رومانيا الا ان
 نابليون قال لاسكندر الأول انه لا ينبغي له أن يكثر هذه المسئلة واتفق معه على مقاسمة
 سرية هذا نصها :

« ان كان الباب العالى لم يقبل وساطة فرنسة أو قبلها ومضت ثلاثة أشهر على
 المفاوضات ولم تأت بنتيجة حسنة تتفق فرنسة مع الروسية وتخلصان من يد تركيا جميع
 ولاياتها الأوربية مستثنى من ذلك الاستانة وولاية الروملى (١)
 وفي أثناء ذلك مات السلطان سليم الثالث حليف نابليون فقال هذا لامبراطور
 الروسية : « هذا ايدان لى من الله بأنى صرت فى حيل من معاهدتى مع تركيا التي أصبحت
 لاتقدر على البقاء » وأرسل تهديداً بواسطة ناظر الخارجية الى الباب العالى فى ٧ سبتمبر
 سنة ١٨٠٧ ما لآه انه ان كانت تركيا صالحت انكسرة وانفصلت عن فرنسة فقد بحثت عن
 حتفها بظلفها ويعود الامبراطور (أى نابليون) ويقبل التقسيم الذى عرض عليه فى
 تيلسيت وتنتهى حياة تركيا

وأرسل اسكندر الاول الى الكونت « تولستوى » سفيره فى باريز يطلب بسارايا
 والفلاخ والبقدان وقلاع بنسر واكرمان وكيليا واسماعيل وهوتين وساحلا من الساحل

(١) هذا قريب مما هي الحالة اليوم

الشرقي من البحر الأسود وان تؤسس امارة لصرىيا ونقل « سافارى » سفير فرنسة في بطرسبرج عن اسكندر الأول انه قال له :

« ان الامبراطور قد بدأ يعرف ان بقاء الترك في أوربة مستحيل وانه ان كان لابد من سقوط سلطنتهم في أوربة فالروسية يجب أن ترث قسما منها . وهذا ما فهمته منه في أثناء كلامي معه فانا ما ذكره الا بوعده »

ثم ان سفير الخارجية الروسية « روميانزوف » قال لسافارى سفير فرنسة « ان السرعة في العمل أصبحت متحتمة ويجوز ان تسقط السلطنة العثمانية من نفسها بدون هزاهز فنوجد بازاء انقاضها شئنا أم أيننا »

وكان نابليون لايزال متردداً في الموضوع خائفاً من أنه اذا اسقطت السلطنة العثمانية تقوى الروسية كثيراً وتستفيد انكثرة من تلك الفرصة فتستولى على مصر

وكان يجتهد في اقناع الروسية بعدم التهافت على هذا المشروع وكتب مرة الى الجنرال « كولنكوره » Colaincourt الذي خلف « سافارى » في سفارة فرنسة في بطرسبورج يقول له : « ان مراده بقاء السلطنة العثمانية كما هي وان تكون عائشة في سلام مع الروسية وفرنسة ويكون للترك القلاع التي على الدانوب مثل اسماعيل . ولكن ان كانوا في بطرسبرج مستعجلين كثيراً في هذا المشروع فانه لايعاكسهم فيه غير أنه يؤثر ان تقع قسمة السلطنة العثمانية بين الروسية وفرنسة لاغير وذلك بموجب اتفاق من قبل »

ثم ان نابليون كان يبعث الى القيصر اسكندر بأنه هو لا يخلى البلاد التي يحتلها من بروسية الا اذا اخلت الروسية الفلاخ والبغدان

وكان نابليون يقترح على قيصر الروسية ثلاثة وجوه أحدها أن يخلى الروس الفلاخ والبغدان وبمقابلة ذلك يخلى الفرنسيين مااحتلوه من أراضي بروسية . الثاني أن يأخذ الروس هذه الولايات الرومانية وتأخذ فرنسة في مقابلتها ولاية سيليزيا من بروسية الثالث أن يجري تقاسم السلطنة العثمانية على وجه تعرف فيه فرنسة من قبل ماذا سيخرج في نصيبها ؟

اما اسكندر الأول فكان لايسمح لنابليون بتمزيق بروسية . وكان يبعث الى نابليون بأنه ان كان أخذ الروسية للفلاخ والبغدان يستلزم ان يكون العوض عنه من ملك بروسية فانه يقلع عنه ولا يرضى بمبادلة كهذه ولو كان البدل هو سلطنة آل عثمان كلها

وكان اسكندر الأول يعرض على نابليون بمقابلة سيليزيا ولايات عثمانية مثل الموره والباينا ولكن نابليون كان متمسكاً بسيليزيا . وكان معظم سبب خوف اسكندر من بقاء الفرنسيين في سيليزيا انه يتقى جوارهم للروسية وأرسل الى نابليون قائلاً له : « انت قلت لي ان تجاور الدول الكبرى غير مستحب لأنه يؤدي الى النزاع »

وكان نابليون يوصى سفرآءه في بطرسبوج بأن لا يقطعوا أمل الروس من تقسيم سلطنة آل عثمان لكن يجتهدوا ان يعلموا ماذا سيكون نصيب فرنسة من هذه القسمة وأخيراً أرسل الى الروس يقول لهم انه يؤثر تأخير هذا المشروع الى مابعد صلحه مع الانكليز أو الى مابعد نزعه من أيديهم السيادة على البحر المتوسط لأنه ان وقع هذا التقسيم وهم على ما هم عليه من سيادة هذا البحر كانوا هم المستأثرين بانفس اسلاب السلطنة العثمانية

وقد أشار نابليون الى هذا المعنى في كتاب شهير حرره الى القيصر اسكندر في ٢ فبراير سنة ١٨٠٨ يعرض عليه اقتسام سلطنة آل عثمان وهدم دولة الانكليز في الهند ويقول له انه يحسن إغزاء جيش مؤلف من ٥٠ ألف جندي افرنسي وروسى ونمسوى يزحف الى القسطنطينية فيأخذها ويتقدم صوب الفرات فهو لا يصل الى هناك حتى ترجف انكلترة خوفاً فترضى بالصلح . وطلب نابليون من اسكندر المواجهة لعقد هذا التدير

ولكن اسكندر كان يأبى الاجل نابليون على اخلاء سيليزيا . وكان يقول ان في يد فرنسة بلداناً مثل « هانوفر » و « البرتغال » و « اتروريا » (من ايطالية) هي كافية للتعويض من الفلاخ والبغدان اللتين يقدر اسكندر أن ينتزعهما من تركيا بدون رضى نابليون اذا شاء

وقيل ان نابليون رضى احدى المرار بأن يعطى استانبول للروسية زاعماً انه يبعدها الى آسية . ولكن هذا لا ينطبق على تصريحاته المتعددة بشأن أهمية الاستانة . وذهب المسيو « فندال » الى أنه ان كان ثبت ان نابليون رضى باستيلاء الروسية على القسطنطينية فيكون على شرط ان لا يكون لها الابلدة ومضيق البوسفور فقط وان يكون مضيق البالدنيل بيد فرنسة وفي سنة ١٨٠٨ كان هناك برنامجان أحدهما فرنسوى والآخر روسى . فالبرنامج الفرنسي كان يعطى فرنسة جميع سواحل الادرياتيك واليونان الى سلانيك مع هذه

البلدة . أما الروسي فكان يعطى الروسية الامارات الرومانية وقسما من صربيا الى نهر المريج الى البحر الرومي مع ساحل مرمره الأوربي مع القسطنطينية وبعض سواحلها الآسيوية . ويبقى للترك ساحل مرمره الآسيوي . واما اوستريا فيكون لها الأراضي الواقعة بين حصتي فرنسا والروسية بحيث هاتان الحصتان لاتتماثلان . ويكون لفرنسة الخيار في تحديد حدود حصتها مع اوستريا سواء كان في بوسنة او مكدونيه او كرواسية . ثم يؤول الى فرنسة عدا سلايك و بلاد اليونان والباينا جزائر الارخبيل ومصر وسورية والسواحل الغربية من الاناضول (برالقرمان

وبرغم هذا كله بقي نابليون يرض على الروسية ببلدة القسطنطينية والبرديسل الى أن رضى اسكندر الأول بجعل القسطنطينية مدينة حرة . وهي فكرة طالما اقترحها الصحفيون في القرن التاسع عشر

قال «دجوفارا» الروماني صاحب كتاب « مائة مشروع تقسيم لتركيا » : « تأمل في القسطنطينية مدينة حرة محاطة من كل جانب بمملكة عظيمة تعمل للسيادة على الشرق بأسره »

ثم قال : « ان الروسية لم تفتأ في كل فرصة تعمل للوصول الى القسطنطينية وقد جرى محاوره بين ناظر الخارجية الروسية رومانيتزوف وسفير فرنسا كالكور قال فيها الناظر ما يلي ملخصاً : —

« كانت فرنسا تتوق دائماً الى الاستيلاء على مصر وفي أيام كاترينا الثانية سمحت لنا بأخذ القسطنطينية على شريطة أن نسمح لها بأخذ مصر . وفي الملاقاة التي جرت بتيلسيت تقرر أن نأخذ نحن الفلاخ والبغدان وبلغاريا وتأخذ فرنسا البانيا واقريطش . وأما اوستريا فلم تعمل شيئاً لناخذ مكافأة . ولكننا نرى أن لا بأس بالاستعانة بها فلنأخذ كرواسيا أو فليجلس ارشيدوق نمسوى على كرسى اماره الصرب . اتنا نحن لانبنى الاستانة الابمقتضى جغرافية البحر الاسود الذي هو بحرنا »

وفي مجلس آخر وقع بين هذا الناظر وهذا السفير كلام فقال الناظر للسفير : « يمكن فرنسا أن تأخذ عدا البانيا والمورة والارخبيل ومصر وسورية . أما نحن فلانبنى الفلاخ والبغدان وبلغاريا و صربيا . وأما اوستريا فتأخذ كرواسيا و قسما من بوسنه »

فقال له السفير : «أرى حستكم ازدادت عما كانت في مجلسنا الأول فاذا كان هذا هو المنهج فاني أراكم آكلين كل شيء». فقال الناظر الروسي : «لنتكلم عن القسطنطينية انه ان كان لا مناص من تقسيم تام لتركيا فهذه المدينة مع مضيق البوسفور والدردينيل يجب أن تكون لنا . وتكون الصرب يومئذ لاوستريا مع الروملي وقسم من مكدونية لتفصل بيننا وبينكم . وأتمم الفرنسيس يبقى لكم قسم من مكدونية وقسم من الروملي ومعهما مصر وسورية». فقال السفير : «ان هذه القسمة لضيزى والقسطنطينية وحدها أحسن من كل ما تعرضونه في أوربة وأنا لا أرى سهلا فتح القسطنطينية لكن لنفرضه يمكننا فلا أرى موافقا أن يكون الدردينيل في يد الدولة التي تملك الاستانة». فقال الناظر : «لمن يكون الدردينيل اذا؟» فقال السفير : «يكون لفرنسة». فقال الناظر : «اذا كنتم تأبون الا الدردينيل فيجب أن تكون صربيا لنا». فقال السفير : «وماذا تبقون لاوستريا ؟ ان الجغرافية تأبى أن تجعل صربيا لكم»

وأما اسكندر الأول فلم يكن يرضى باعطاء الدردينيل الى فرنسة وقال لكولنكور : «أنا لا أريد أن أصير الى جوار أصعب على من مجاورة الترك . فالروسية تريد القسطنطينية مع الدردينيل»

وكتب كولنكور الى نابليون في ١٦ مارس سنة ١٨٠٨ يقول له : «لنفرض انك ضمنت ايطالية واسبانية الى فرنسة وقلبت الدول واشترطت معاونة الاسطول الروسي في البحر الاسود وقسم من الجيش البرى في فتح مصر ونلت جميع التأمينات اللازمة وعملت جميع مآثاء من المعاضات مع اوستريا فان الروسية اذا صارت الى يدها الاستانة والدردينيل عملت فيما بعد كل ما تريد»

وفى ذلك الوقت كتب السلطان كتاباً خاصاً الى نابليون يستمدّه فيه أن يحافظ على سلامة السلطنة العثمانية . فأخذ نابليون يشوق الامبراطور اسكندر في التبسط الى جهة الشمال وهذا استولت الروسية على فنلاند . وبقى الخلاف مشتداً بين الروسية وفرنسة على حيازة الدردينيل . وأخيراً تحررت اقتراحات بالكتابة فكانت اقتراحات الروسية مايلي :—

ان كان الاتفاق على محالفة بسيطة يكون للروسية بسارايا والفلاخ والبغدان وبلغاريا . وفرنسة البانيا وقسم من بوسنه والمورة واقريطش . ولاوستريا قسم من بوسنه

مع كرواسيا. وتصبح صربيا امارة مستقلة يليها ارشيدوق نمسوى متزوج بفراندوقة روسية»
«وان كان الاتفاق على تقسيم السلطنة العثمانية فالروسية تأخذ الفلاخ والبغدان
و بساراييا و بلغاريا وقسما من الروملى الى نهر المريج . وفرنسة تأخذ بوسنه والبانيا والموره
واقريطش وقبرص و رودس وجميع جزر الارخبيل وازمير وسواحل الشرق الأدنى وسورية
ومصر . واورتريا تأخذ الصرب ومكدونية الى البحر الاسلانيك وما تبعها مما يجب أن يبقى
لفرنسة . وكرواسيا تكون لاوستريا أو لفرنسة. والدول الثلاث يشتركن في حجة على الهند»
وكان كولنكور سفير فرنسة في بطرسبورج يبدي اعتراضات ويحتفظ في الأمور
الآتية ١ قضية استيلاء الروس على القسطنطينية ٢ ضرورة استيلاء فرنسة على الدردنيل
٣ تأسيس حكومة مستقلة في الاستانة ٤ وجوب اشتراك الروسية في الحجة التي ستساق على
مصر وسورية وتأخذ عوضاً عن ذلك بلاداً مما يلي طرابزون

وفي ١٠ مارس سنة ١٨٠٨ انعقدت الجلسة الخامسة بينهم فأعلن ناظر الخارجية
الروسية روميانتروف أن الروسية مصرة على أخذ الاستانة والدردنيل معاً . فالسفير
كولنكور لم يسعه الا أن يترك الشاطىء الأوربي من الدردنيل مع بقاء الشاطىء الآسيوى
لفرنسة . وقد رفض ناظر الخارجية الروسية اشتراك الروس في الحجة على مصر وسورية الا
اذا كانت نفقات الاسطول الروسى على فرنسة

ولما اشتدت صعوبات التقسيم رغب الامبراطور اسكندر في مقابلة نابليون . وبقى
كولنكور يعارض في استيلاء الروسية على القسطنطينية والدردنيل ويكتب الى نابليون
مخوفاً اياه من عواقب وجود الروسية في القسطنطينية ويبيدها تلك المضايق

وفي ٢٤ يونيو ١٨٠٨ جرى بين الامبراطور اسكندر الأول وسفير فرنسة المحاورة

التالية :

الامبراطور — القسطنطينية بعد خروج الترك منها لا تكون الا مدينة متطرفة
والجغرافية تقضى بوجودها بيدى لانها ان كانت بيد غيرى لا أكون حراً في منزلى بعكس
غيرى الذى لا تمهه . فالقسطنطينية مفتاح بيتى والامبراطور (يعنى نابليون) لا يقدر أن
ينكر ذلك .

السفير — الا أن هذا المفتاح هو مفتاح تولون وكورفو ومفتاح تجارة العالم .
الامبراطور — يمكننا الاتفاق على أن هذا الممر يبقى حراً للتجارة ولا يجوز سده

بوقت من الأوقات .

السفير — لو كان ملك جلالتك دائماً لما كان لنا شبهة في هذه التأمينات
ولسنا قد يأتي امبراطور للروسية لا يدون حليفاً لفرنسة ... فإذا كان لا بد من مجارة
الوزير روميانزوف لا يبقى قوة في الشرق الا للروسية ويختل التوازن الذي هو ضروري
لحفظ السلام . فالدرنيل أو الاستانة نفسها في يد فرنسة لا محذور منهما اذ هما بعيدتان
عن فرنسة وأما في يد الروسية فهما قوة هائلة . اهـ

هذا و بينما كانت الروسية وفرنسة تتنازعان على هذه القسمة وكل منهما تشد من
جهتها اذ جددت حوادث ذات بال في تركيا واسبانية وأستراليا وكثرت المشكلات على
نابليون قال الى التساهل وأرسل الى سفيره كالنكور بانه حاضر لاخلاء البلاد التي يحتلها
من بروسية بدون مطالبة الروسية باخلاء الفلاخ والبغدان

ثم تقرر أن الامبراطورين يلتقيان في ارفور Erfurt (من الساكس) وقد وصل اليها
نابليون في ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٠٨ ووصل اسكندر وأقاما بها ١٨ يوماً . وابتدأت المفاوضات
في ٢٩ سبتمبر وتقرر أن الامبراطور نابليون يرضى بأن الفلاخ والبغدان تصيران ملكاً
للروسية ويصير الدانوب هو الحد الفاصل . ولكن اشترط حفظ هذا السر مؤقتاً وعدم
القيام بحركات عسكرية الى ١ يناير سنة ١٨٠٩

ثم تقرر بين الامبراطورين انه ان وجدت صعوبات لم تتمهد بينهما يعودان فيلتقيان
مرة ثانية وأما من جهة سائر أملاك تركيا أي ما عدا الفلاخ والبغدان فتقرر بينهما عدم
البت في شيء بدون اتفاق سابق

ورجع الامبراطور اسكندر غير راضٍ باطناً من الامبراطور نابليون وصار يتر بص
به الدوائر . ولما انكسر جيش نابليون في « اسلينغ » Essling ^(١) كان أول شامت به
الامبراطور اسكندر وبلغ هذا نابليون فحقد عليه . ثم في سنة ١٨١٠ حاول نابليون أن
يتزوج بالفراندوقة الروسية حنة بافلوفا فامتنع الامبراطور اسكندر عن مصاهرته وتزوج
نابليون بابنة امبراطور النمسا ماري لويزة وكان بذلك انتهاء الصداقة بين نابليون واسكندر
ثم جاءت بعدها الحرب بينهما

ثم المشروع السادس والستون من تقسيم تركيا المنسوب الى « ميتريخ »

(١) في حرب مع أستراليا

Metternich وتاريخه ١٨٠٨

قال دجوفارا : ليس هنا محل ميترنيخ وزير أوستريا الشهير الذي قضى حياته يجتهد في تثبيت تركيا كما هو معلوم الا أنه اضطر في آخر الأمر أن يلقي دلوه في الدلاء من جهة هذه المسئلة

وكان ميترنيخ يقول : « ان وجود السلطنة العثمانية والمحافظة عليها وان كان فيهما كثير من المخالفة للمدنية المسيحية فهما خير لأوربة »

وكان ميترنيخ ممن ساعد انكثارة على منع استيلاء فرنسا على وادي النيل . وكان يشهد للباب العالي بحسن المحافظة على المعاهدات ويقول ان متاخة تركيا كمتاخة البحر لا تتغير بها الحدود بل تبقى على وتيرة واحدة . وكان اذ فكر في استحالة بقاء السلطنة العثمانية وانه لا بد من أن تحل في الاستانة دولة مسيحية يقول : « ان تلك الدولة ستكون حليفة للنمسا » يعني بذلك أن الدولة المسيحية التي ستولى القسطنطينية استثنافاً ستكون اليونان أو البلغار

وقال تاليران لميترنيخ في ١٨ يناير سنة ١٨٠٨ ما يأتي :

« ان الامبراطور (أي نابليون) يفكر في مشروعين أحدهما مؤسس على قواعد صحيحة والثاني هو من باب القمص والخيال . فالأول هو تقسيم تركيا . والثاني هو غزو الهند . وعلى كل حال ففرنسة والروسية ينويان اقسام تركيا » فأظهر ميترنيخ لتاليران عزم ارتياحه لمشروع تقسيم تركيا . وقال له : « اتنا نحن أصح حكماً في مسائل تركيا لأننا نحكم فيها بدون ضلع ولأننا بناء على ذلك نبغى بقاءها أما الروس فيرون تركيا بنظرات يونانية والنظارات في العادة لا تصلح للسياسة . واني لأؤكد لك أن فتح تركيا يكلف ثلاثمائة ألف جندي قتلاً وموتاً بالأمراض وانه تمضي بعد ذلك ثلاثون سنة على تلك البلدان ولا تكون لت شعنها ولا عرفت المدينة تحت أي حكم كان »

ثم سأل ميترنيخ تاليران عن كيفية تقسيم تركيا ؟ فقال له تاليران : « المورة والجزر ومصر توافقنا (أي الفرنسيين) وأتم يلزم لكم وادي الدانوب وبوسنه وبلغاريا . ولولا كون للروس في القريم لكانت القسطنطينية أولى بأن تكون لكم ولكنهم هم الآن أولى بها منكم » .

وكان تاليران سفيراً للنمسا في باريس فكتب الى حكومته قائلاً: « لا تقدر أن تنقذ تركيا فلنجهتهد أن نستأثر منها بالنصيب الأوفر »

ثم بعد هذا الحديث مع تاليران بثلاثة أيام تلاقى ميترنيخ مع نابليون . فقال له الامبراطور: « ما صرتم تحبون بقاء تركيا الا من بعد أن صارت الى حالة العدم التام » ثم صرح نابليون بأنه هو أيضاً يريد بقاء تركيا لولا عداوة الانكليز له فهو يريد مهاجمة الانكليز أينما كانوا

ثم بدر من نابليون كلام يظهر منه أنه مقتنع باستيلاء الروس على استانبول وقال لميترنيخ: « متى صار الروس في استانبول لم يكن لكم غنى عن فرسة لتساعدكم في وجه الروسية . والذي أراه هو ان نكون معكم متفقين في مسألة تقسيم تركيا . نعم لا ينبغي أن تكتب الى حكومتك أن التقسيم تقرر لكن ينبغي أن تكتب أنه متى تقرر تكون أوستريا معنا لندافع عن مصالحنا ومصالحها معاً فانتم لكم ادعاءات صحيحة وجغرافية على وادي الطونه . وهذه الادعاءات هي التي لها دائماً القيمة الحقيقية »

فاجابه ميترنيخ قائلاً: « اذا كانت فرسة ستترك صديقتها القديمة تركيا فنحن لا نقدر وحدنا أن نحميها »

ثم سأل ميترنيخ حكومته عن المشروع فجاءه الجواب بالسلب وأبلغه الى الحكومة الفرنسية وكان معناه: « أنه لن يجد الامبراطور عملاً أخسرواً ووجب للندم من الموافقة على هدم تركيا . وان تقسيم تركيا يمكن اذا كان انهيارها أمراً واقعاً ولكن الحالة ليست كذلك » .

وأما تاليران فقال لميترنيخ انه هو شخصياً ضد فكرة تقسيم تركيا ولكن الامبراطور مصمم عليه . فسأل ميترنيخ سفير الروسية في باريس عما يعلمه عن هذه القضية فأجابه الكونت تولستوى: « نعم ان الكلام قد دار بين نابليون واسكندر على هذا التقسيم وانه ان كان لا مفر من سقوط تركيا فينبغي الاتفاق على اقتسامها »

وفي سنة ١٨١٠ كان ميترنيخ يقول: ان مركزنا منيع جداً لأن الجهات كلها تطلب عضدنا . وبالأجمال كان ميترنيخ ضد فكرة تقسيم تركيا الا أنه كان يرى أنه ان حُمَّ أجل هذه الدولة ينبغي أن تقوم مقامها دولة مسيحية صديقة لاوستريا

ثم المشروع السابع والستون وهو المنسوب الى « دوتريف » D'hauterive وتاريخه

سنة ١٨٠٨

وكان « دوتريف » من أنصار سياسة تاليران ومن يرون الضرر كل الضرر في دخول نابليون في تقسيم السلطنة التركية وكتب للإمبراطور تقريراً ١٥ صفحة عن عواقب هذا التقسيم المشؤومة . الا أنه اذا كان هذا الأمر لا بد منه فهو يشير بقسمة شبه جزيرة البلقان الى نصفين من الشمال الى الجنوب فيكون النصف الشرقي مع القسطنطينية والدردييل نصيب الروسية . ويكون النصف الغربي مقسماً بين فرنسا وأستراليا . وتختص بفرنسة الجزر ومصر . ثم ان هذا المشروع يبلغ الى انكلترا لعلها تجنح للسلم وترج العالم وبعد هذا التقرير اقترح تاليران على دوتريف تقريراً ثانياً قبل ذهابه الى « ارفور » في أثناء تلاقى الإمبراطورين نابليون واسكندر . فكتب دوتريف تقريراً قال فيه ان تقسيم تركيا وغزوالهند آتيان لا محالة لكنه يجب تأخيرهما بقدر الاستطاعة غير أن الاتفاق بين الامبراطورين لم يتم وكان لتاليران اليد الطولى في ذلك لأنه كان يعمل دائماً لابعاد فرنسا عن الروسية

ثم المشروع الثامن والستون المنسوب « لبوزودي بورغو » Pozo di Porgo

وتاريخه سنة ١٨٠٩

وكان هذا الرجل من كورسيكا وقضى حياته عدواً لنابليون خدم الروسية وبروسية وانكلترا واوستريا في جميع سياساتها العائدة لاسقاط بوناپرت . وكان لهذا الرجل مشروع خاص به في تقسيم تركيا ما له ان الروسية يكون لها بساراييا والفلاخ والبغدان وبلغاريا . ويكون لفرنسة البانيا وتساليا والموره وكريد . ويكون للنمسا بوسنه وصربيا . ويبقى لتركيا القسطنطينية مع الروملي

وقد روى « دومنتون باك » De Menthon bake بناء على تأكيد السير « روبرت آدير » Robert Adair سفير انكلترا في فيينا ان الامبراطور اسكندر الأول قد وافق على هذا المشروع . وفي هذا القول نظر لمخالفته لكل ما سبق . ومما رواه « دومنتون باك » ان الامبراطور نقولا الأول قال : « اني لا أريد الاستانة وأنا من ملكي الواسع في غنى عنها . ولكنني على ثقة بأن هذه المدينة صائرة الى أو الى أولادى في أحد

الايام . وانه لاهون أن يمنع الناس انحدار شلال من جبل من منع الروس أن يصلوا الى البواغيز »

ومن غريب التكهنات ان « بوزو ودوبوزغو » هذا كتب سنة ١٨٠٦ « ان المشاة والمدفعية الفرنسيين سيقاتلون الروس جنبا الى جنب مع خيالة الأتراك ». ولقد وقع هذا في حرب القرم بعد هذا القول بنصف قرن

ثم المشروع التاسع والستون المنسوب الى « دوفو » Dufau وتاريخه سنة ١٨٢٢ وكان « دوفو » كاتباً افرنسياً أشار بوجود رئاسة فرنسة على عصبة أوربية تقف في وجه الروس . وقال انه يجب لذلك تعزيز السويد واعادة دولة بولونيا . أما تركيا فقال انها يجب أن تنقسم بين دول أوربة واليونان فتكون سلطنة يونانية تحت حاية الروس فاصلة بين هؤلاء والنمسيين . ويكون للنمسا صربيا والبانيا وتتأسس امارات يونانية في يانيا والموره الخ وتعطى كريد مع الجزر كورفو واخواتها الى انكلترة وتكون جمهورية جزر في الارخبيل

ثم المشروع السبعون وصاحبه « دوكابوديستراس » De Capodistrias وتاريخه سنة ١٨٢٨

وكان هذا الرجل يونانياً مولوداً في جزيرة كورفو خدم الروس عندما بسطوا حايتهم على تلك الجزر وبقي يتقلب في المناصب السياسية عندهم الى أن استقلت بلاد اليونان فانتخب رئيساً لحكومة اليونان سنة ١٨٢٧ ولم تطل المدة حتى نقم عليه الأهالي ونسبت حرب داخلية وأخيراً فنك بعضهم بكابوديستراس سنة ١٨٣١

ولما انعقد مؤتمر فيينا الدولي سنة ١٨١٥ قدمت الروسية الى ذلك المؤتمر احتجاجاً على أعمال الأتراك القاسية في صربيا لكن المؤتمر لم يطل النظر في هذه المسئلة وسنة ١٨٢١ توسطت الروسية لدى الباب العالي في أمر اليونان وطلبت رفع الجور عنهم ولما لم تقترن هذه الوساطة بنتيجة أعلنت الروسية الحرب على تركيا وظهرت عليها في تلك الحرب واجبرتها على عقد معاهدة أدرنه . وكانت الروسية هذه المرة لا تطالب بتر عقد السلطنة العثمانية كالعادة وكان ناظر خارجيتها يقول : « لاشئ أفنع لنا من مجاورة دولة ضعيفة كهذه » فكانت في هذه النوبة متفقة مع النمسا على عدم التقسيم

وكان « كابوديستيرياس » وقتئذٍ رئيساً لحكومة يونان فقدم الى الامبراطور نقولا تقريراً في ٣١ مارس سنة ١٨٢٨ يقترح فيه التشكيلات الآتية :

- (١) مملكة للفلاخ والبغدان مستقلة (٢) مملكة ثانية مؤلفة من صربيا وبلغاريا وبوسنه (٣) مملكة ثالثة مركبة من تراقيا ومقدونية والجزر التي أمامها في الأرخيبيل
- (٤) مملكة مشتملة على ايروس والباينا (٥) مملكة مركبة من بلاد اليونان والجزر
- (٦) القسطنطينية مدينة حرة ومركز لهذه الممالك الخمس المرتبطة

ولقد أعيد البحث في برنامج كهذا سنة ١٨٥٣ . وان كان « كابوديستيرياس » لم يطلب ضم مقدونية وتراقيا الى بلاد اليونان فقد اعتاض من ذلك باقتراح خمس ممالك ثلاث منها يونانية حفظ الأثرية في العاصمة لقومه . وقد أمر الامبراطور نقولا بتأليف لجنة للبحث في اقتراحات الرئيس اليوناني مؤلفة من البرنس « كوتشوبني » والمسيو « داشكوف » و « بوزودي بورغو » فقرروا بالاتفاق ان استبقاء السلطنة العثمانية أولى وأقل ضرراً من القضاء عليها وغاية ما في الأمر انه يجب عقد صلح شريف معها . فانهقد الصلح في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩

ثم المشروع الواحد والسبعون وصاحبه المطران « دو برادت » De Pradt وتاريخه

١٨٢٨

وكان هذا المطران سفيراً لفرنسة في بولونيا وقد كتب سنة ١٨٢٨ كتاباً استجلب فيه نظر دول أوربة الى الاكتراث للخطر السلافي . وقال ان لأوربة سيدين أحدهما بحري وهو انكلترة والآخري وهو الروسية . وتذكر كلمة نابليون وهي : « من الآن الى ٥٠ سنة تكون أوربة اما قوزاقاً أو جمهورية »

قال « دجوفارا » كل التسكهنات لاتصح ولوتكهنها عبقرى كبير مثل نابليون . قلت: قد مضى على هذا الكلام نحو من ١٢٠ سنة ولم تتحول أوربة قوزاقاً ولاصارت كلها جمهوريات بل صارت نفس الروسية جمهورية . واية جمهورية ! جمهورية شيوعية أما « دو برادت » فكان برنامج الاستعانة لصد خطر السلاف باليونان لابلترك وان هؤلاء تكون لهم السيادة التي للترك في البلقان . ونسى حضرة الاسقف الجليل رومانيا وبلغاريا وصربيا والباينا الخ كأن كل هذه لم تكن

ثم المشروع الثاني والسبعون وصاحبه افرنسي مجهول وتاريخه ١٨٢٨
ومحرر هذا البرنامج معتقد انه لامناص من زوال تركيا وانه يخشى من استثثار
الروسية بالقسطنطينية واستيلائها على المشرق . فلذلك هو يقترح اعطاء النمسا بلادالبغار
والصرب وبوسنه وكرواسيا والبانيا العليا على أن تعطى النمسا الى ايطالية الولايات التي
أهلها طليان من بلاد النمسا . ثم يقترح اعطاء عائلة سافواى بلاد لومبارديا والبندقية وپارم
ومودين . وبمقابلة ذلك تتخلى مملكة سافواى عن صردانية لفرنسة . ثم يقترح تأسيس
مملكة اسمها مملكة البوسفور مركبة من الاستانة والروملى ومقدونية وشواطىء البوسفور
وتكون هذه المملكة تحت تكافل جميع أوربة ويكون المرور بالبواغيز حراً وبدون
دفع رسوم . وملك الاستانة يكون دوق مودين . وأما الروسية فيكون لها الفلاخ والبغدان
فقط

ثم المشروع الثالث والسبعون وصاحبه « دو بولينياك » De Polignac وتاريخه

١٨٢٩

وكان هذا من نظار دولة فرنسة تولى نظارة الخارجية ورئاسة الوزراء وفي أيامه ساد
الاعتقاد بأن تركيا مُنْهَارَةٌ لاحتالة ولذلك حرر ميتريخ وزير النمسا برنامج تقسيم لتركيا
قدمه الى بطرسبرج وبرلين وخشية أن تنفق فرنسة مع الروسية أخرج فرنسة بلا حصة .
فأسرع امبراطور الروسية باطلاع فرنسة على اقتراح النمسا ورد هذا الاقتراح بتاتا .

وكان « نسيروود » وزير الخارجية الروسية أرسل سؤالا باسم الامبراطور الى جميع
الدول وذلك سنة ١٨٢١ يسأل كلا منها رأيا في كيفية تقسيم سلطنة آل عثمان . وكان
معنى ذلك اظهاره الرغبة في القضاء عليها . فأجابت فرنسة بطلب برنامج هذا التقسيم من
الروسية في ضمن معاهدة . فامتنع القيصر عن اعطاء ذلك . ثم مات القيصر اسكندر وخلفه
القيصر نقولا . وكان شاتوبريان الكاتب الشهير مديراً لزام الخارجية الافرنسية وكان
هواه مع الروسية فأرسل الى القيصر يقول له : « اذا شئت الذهاب الى الاستانة فادخل مع
الدول المسيحية في قسمة عادلة لتركية أوربا »

ولما كان بولينياك في وزارة فرنسة سنة ١٨٢٩ وبلغه اقتراح أوستريا تقسيم تركيا
بدون انصاف فرنسة عهد الى المسيو « بوالوكونت » Bois-le-Comte مدير الأمور السياسية

في الخارجية بتحرير لأمتة في هذا الموضوع . فخر هذا لأمتة مؤداها أنه ما من دولة ترضى باستيلاء الروس على الاستانة والبواغيز . ولذلك يجب تأسيس دولة مسيحية في القسطنطينية وان ترضى الروسية بالفلاخ والبغدان وبارمينية وطرابزون . وترضى بروسية بالساكس وهولاندة وان تكون المستعمرات الهولاندية لانكلتره وان يرسل ملك هولاندة ملكاً على القسطنطينية وان تخرج أوستريا من اسلاب تركيا ببوسنه وكرواسيا والماسيا والهرسك . وأما فرنسا فتأخذ بلجيكا ولوكسمبورغ والازراس واللورين وقسماً من هولاندة

و بعد أن تذاكر مجلس نظار فرنسا مدة ثمانية أيام في هذا المشروع صدقه وأرسل بولينياك الى الروسية يسألها رأيها فيه . ولكن كانت الروسية اذ ذاك قد قررت الصلح مع تركيا . فخط هذا المشروع واعتاضت فرنسا بفتح جزائر الغرب في أيام كارلس العاشر ولقد ثبت أن روسية اعترضت على برنامج بولينياك هذا وأبلغت اعتراضها عليه الى باريز و بطرسبرج . وقد كان لهذا المشروع أعظم نصيب من انتقاد المؤرخين حتى الفرنسيين منهم وقالوا : « لولم توجد وثائقه في أوراق نظارة الخارجية لما كان الانسان يصدق أن حكومة فرنسا تقترحه . وقالوا انه لو بوشر بشر به لأدبى الى حرب عامة »

وكتب الكولونل « روتيه » Rottiers سنة ١٨٢٩ في « رحلة من تفليس الى القسطنطينية » المجلة التالية :

« لقد بينت مراراً الضلالات الشنيعة التي يبني عليها بعضهم برامج استئصال جميع المساميين أو اجبارهم على الجلاء »

ثم المشروع الرابع والسبعون وصاحبه الجنرال « دور يشمون » De Richemont

وتاريخه سنة ١٨٢٩

وكان هذا من نواب البرلمان الافرنسي واقتراحه هو أن تأخذ الروسية الاستانة وان تاخذ اوستريا البانيا العليا و صربيا و بوسنة وتنزل عن سيليزيا لبروسية . وان تأخذ بروسية ماعدا سيليزيا مملكة الساكس ونصف هنوفر . وتأخذ هولاندة النصف الثاني من هنوفر . وتأخذ بافاريا بلاد سالزبورغ . وتأخذ انكلتره جزيرة كريد . ويكون نصيب فرنسا بلاد الرين ولوكسمبورغ و بلجيكا

ثم المشروع الخامس والسبعون وصاحبه « برونيكوفسكى » De Rronikoveski
وتاريخه سنة ١٨٣٣

وقد كان هذا الرجل كاتباً ألمانياً من درسدن وخدم في جيش بروسية ثم في جيش
فرنسة عند ما كان الفرنسيين في بولونيا وبرناجه يقرب من برنامج « دوفو » المتقدم
الذكر وهو مبنى على تقسيم تركية أوربة وتجديد قوة بولونيا ووضعها حاجزاً حصيناً في
وجه الروسية . ولا يشير هذا الرجل بهدم السلطنة العثمانية في آسية بل يقتصر على إيجاب
تسليم ولايات الدانوب لاوستريا بمقابلة اعادة اوستريا بلاد غاليسيا لبولونيا . ويقول انه يجب
أن تعاض تركيا من ذلك بأخذ بساراييا والقريم وبلاد القوقاس . فكأن مقصوده كله هو
توقيف تقدم الروسية

ثم المشروع السادس والسبعون وهو المنسوب الى الامبراطور الروسى نقولا الأول
وتاريخه سنة ١٨٥٣

كانت نظارة الخارجية الانكليزية نشرت وثائق في احدى جلسات البرلمان سنة
١٨٥٤ يظهر منها ان القيصر الروسى نقولا اقترح على انكلترة اقتسام سلطنة آل عثمان
لكن الوزراء كتموا هذا الاقتراح ولم يفشوه الا في جواب على كتابة ظهرت في « جورنال
دوصان بطرسبورغ »

في ليلة سمر عند الغراندوقه هيلانة الروسية ٩ يناير سنة ١٨٥٣ قال الامبراطور
نقولا للسير هاميلتون سيموز سفير انكلترة مايلي :

« تأمل . نحن بين أيدينا رجل مريض ومريض جداً ويكون بالفعل وبالا عظيماً
علينا ان نخرج أمره ومن أيدينا »

ثم استدعى الوزير « نسلرود » السفير المذكور الى حضرة القيصر في ١٤ يناير فقال
له أيضا : —

« انت لاتجهل المقاصد والمرامى التي لاتزال في الروسية من عهد كاترينا . وخلاصة
الأمر ان تركيا هي على مقربة منا وان فيها عدة ملايين من المسيحيين من وظيفتى السهر
على مصالحهم ويبدى معاهدات تعطينى هذا الحق . ونحن أمة تلقينا ديانتنا عن الشرق
وعليها واجبات لايمكن التغايب عنها . وحالة تركيا هي كما قلت لك من قبل وبرغم مايريد

من بقائها يجوز أن تموت بالرغم منا وتبقى عبثاً علينا وليس في استطاعتنا نشر الموتى (١) أفلا يكون الأفضل بحقنا تفادياً من حرب أوربية ان تتفق من قبل على أمرها حتى لا نؤخذ على غرّة؟ واني أقول لك بكل صراحة اننا ان استطعنا اننا وانكثرة ان تتفق في هذا الموضوع لم يهمننا الآخرون . وانا لا اکتتمك انه ان كان في نية انكثرة الاستيلاء على الاستانة فلن أتحمّل ذلك . لا أقول ان لكم هذه النية ولكني أقول ان صحت هذه النية فلن أكون راضياً . وأنا نفسي أتعهد أيضاً بأن لا أحتجها مالكا وأما بصورة موقفة على سبيل الاستيلاء فقد أَرْضَى . وأما اذا بقيت الأمور بدون قرار بشأنها فقد يجوز اني احتلها قولاً واحداً »

فالانكليز لم يأمنوا للفرق الذي بين « التملك » و « الاستيلاء » الموقت ورفضوا مطالب القيصر . وفي ٢٠ فبراير سنة ١٨٥٣ تلاقى السفير سيمور مع القيصر عند القيصر وقال له :

« ليسمح لي جلالتك بالفول بانه ليس عندنا أدنى سبب للظن بأن المريض هو على شرف الهلاك »

فاخذ القيصر شئاً من الحدة وأجابه : « اذا كان عند حكومتك أمل بأن تركيا لاتزال فيها عناصر حياة فتكون المعلومات التي لديها غير صحيحة . وانا اؤكد لك ان المريض هو في حالة الاختصار وانه لايجوز أن يموت ونحن غافلون بل يجب أن تتفق من قبل وأنا واثق بأننا نقدر أن تتفق ولست اكلفكم عقد معاهدة أو تحرير صك وانما أطلب كلمة اتفاق عامة وهذا كاف فيما بين الرجال الاكياس » وقد كتب السير سيمور لحكومته بعد سماعه خطاب القيصر للمرة الثانية بهذا الالحاح قائلاً : « لم يبق شك في أن الملك الذي يتكلم بهذا الاصرار كله على موت دولة تجاوره يكون مقصده لا انتظار موتها كما يزعم بل تعجيله . ومرمى القيصر هو جراً انكثرتا واوستريا الى اتفاق مع الروسية على تقسيم تركيا بدون أن تدخل في ذلك فرنسة » وقد صرح القيصر مرة أخرى بجميع أفكاره قائلاً « انه لا يوافق أبداً على احتلال فرنسة أو انكثرة للقسطنطينية ولا يوافق أيضاً أبداً على تجديد سلطنة يزنطية ولا على توسيع مملكة اليونان بحيث تصبح دولة منيعة الجانب ولا يوافق أيضاً على تقسيم تركيا

(١) مضى على هذا الكلام تسع وسبعون سنة ولا تزال تركيا في الحياة ويدها القسطنطينية

جمهوريات ينسلم أزمتهأ ثوار من أمثال « كوشوت » Kossuth (زعيم مجرى) و « مازيني » Mazzini (زعيم طلياني) وغيرهم . وانه يحارب الى أن لا يبقى عنده جندي واحد ولا بندقية واحدة ولا يرضى بحل مسألة تركيا على وجه من هذه الوجوه المذكورة ومعنى هذا ان القسطنطينية يجب أن تدخل في حوزة الروسية ثم انه يدخل القيصر في التفاصيل مخاطبا سفير انكلترة فيقول :

« تكون الفلاخ والبغدان مملكة مستقلة تحت حاجتي . وتكون صربيا حكومة مثلها أيضاً . وتكون بلغاريا أيضاً من هذا النمط اذلا مانع يمنع من استقلالها . وأما مصر فاني لأجهل أهميتها بالنسبة الى انكلترة ولا أرى مانعاً من أنه اذا سقطت السلطنة العثمانية ووقعت المقاسمة بيننا تخرج مصر في نصيب انكلترة . وكذلك جزيرة كريد التي توافقكم »
 فاما انكلترة فمن أول الأمر رفضت تقسيم تركيا . وأرسل اللورد « جون روسل » ناظر الخارجية جواباً في ٩ فبراير سنة ١٨٥٣ صريحاً في الرفض . فأجابه نسلرود وزير الروسية بمذكرة تاريخها ٧ مارس يحاول فيها تسكين خاطر الحكومة الانكليزية ويقول ان الأحاديث التي جرت بشأن تركيا « ان هي الا تبادل أفكار والامبراطور لا يرى من الضرورة الكلام في هذه المسئلة قبل حلول أوانها »

يبد أن الحكومة الانكليزية التزمت في هذه المسئلة الجلى تمام الصراحة خشية سوء التفاهم فيها بعد . فأرسلت الى الروسية مذكرة واضحة تاريخها ٢٥ مارس سنة ١٨٥٣ تقول فيها :

« ان حكومة الملكة علمت بمزيد السرور ان الامبراطور يكثر أكثر من انكلترة نفسها لمنع نازلة تنزل بتركيا لأن حكومة الملكة مقتنعة بأنه على سياسة جلالة الامبراطور يتوقف تعجيل أو تأجيل هذا الحادث الذي لجميع الدول الاوربية مصلحة في منع وقوعه . ثم ان انكلترة لا تريد تبسطاً في الارض ولا تقدر أن تدخل في اتفاق من هذا القبيل ولا أن تشارك في مفاوضات ومكاشفات يجب أن تبقى مكتومة عن بقية الدول . وكل ماتراه حكومة الملكة هو أن تركيا لا تحتاج الا الى شيء من التسامخ من جهة حلفائها وان هؤلاء لا يتخذون بازائها خطة تمس من كرامة السلطان أو استقلاله وانه يجب أن تعامل بالرفق الذي هو حق الضعفاء على الأقوياء سواء كان بين الدول أو بين الأشخاص » اه

وفي ٥ ابريل سنة ١٨٥٣ أرسل اللورد « كلارندون » باسم انكلترة الى الروسية مذكرة جديدة معناها « انه من العيب وضع هذه المسئلة موضع المذاكرة » فأجاب « نسلرود » وزير الروسية جواباً متغير اللفظة عن ذي قبل قائلاً فيه : « ان الامبراطور مستعد للسعي بالاتفاق مع انكلترة في اطالة حياة تركيا وترك كل سبب ارجاف من جهة انحلالها » وكانت جميع هذه المحاورات سرية ولم يكن متوقفاً أن تتعدى خارجتي لندن و بطرسبورغ لولا حادث طراً .

وهذا الحادث هو أن الحكومة الروسية قرأت خطبة للورد جون روسل ألفاها في مجلس العموم الانكليزي سنة ١٨٥٤ فأجابت عليها بمقالة ما لها الاشارة الى المفاوضات المار ذكرها والادعاء بأن القيصر كان دائماً صريح اللفظة صادقاً بحق انكلترة فعند ذلك اضطرت الحكومة الانكليزية الى نشر جميع المذكرات التي تبودلت بشأن تقسيم تركيا . وكان لذلك دوى عظيم في العالم . وقال المسيو « روسه » Rousset صاحب تاريخ حرب القريم : « انه لم يوجد أمام العالم وأمام التاريخ ملك حمل عمداً واختياراً من التبعة ماحله الامبراطور نقولا »

وقد عقب ذلك حرب القريم وتحالف فرنسة وانكلترة وتركيا على الروسية وانهاء الحرب بصلح باريز سنة ١٨٥٦ و بعد هذه الحرب نالت رومانيا استقلالها الداخلي ثم المشروع السابع والسبعون وصاحبه « داندولو » Dandolo وتاريخه سنة ١٨٥٣ وهذا المشروع يقرب من مشروع « كابوديسترياس » ومؤداه انه بعد طرد الترك من أوربة تؤسس الدول العظام خمس ممالك في الشرق ١ بلاد اليونان مع سلانيك وجبل آتوس والجزر المصاغبة ٢ ابيروس والروملي الى أدنة الى البحر الأسود ٣ الفلاخ والبغدان الى حدود الروسية من جهة واوستريا من جهة أخرى ٤ بوسنه وصربيا والجبل الأسود والهرسك ٥ جرائر اقریطش وقبرص وساموس وما يتبعها والقسطنطينية مدينة حرة لكن يونانية وكان « داندولو » من اليونانيين المتحمسين

ثم المشروع الثامن والسبعون وصاحبه « دالبونو » D'Al.Bonneau وتاريخه

سنة ١٨٦٠

وكان « دالبونو » كاتباً فرنسياً له تأليف عن المشرق

وكان يذهب الى وجوب سد طريق البوسفور على الروسية حتى لاتصل الى البحر المتوسط . ولكنه كان يريد ارجاع المملكة البيزنطية الرومية بحجة أن الروم هم كانوا السبب في مجيئ الترك وانه يوجد بين الروم والسلاف عداوة شديدة . وأما نصب أمير أجنبي على القسطنطينية كما كان يشير به لويس الرابع عشر فلا يورث عنده الا الفوضى . وكذلك تقسيم تركيا دونه مشكلات ومعضلات لا يمكن حلها . والخلاصة انه يوافق على جعل الاساتنة مدينة أوربية تحت ملاحظة مجموع الدول التي ترسل كل منها اليها مندوباً وتكون حرية المرور بالبواغيز مطلقة للجميع . وتؤسس دولة سلافية واحدة وتستولى الروسيه على ارمينية . وتضاف تساليا ومقدونية والباينا واقريطش الى مملكة اليونان . وتكون قبرص لبلجيكا و رودس للملكة البيامون

ثم المشروع التاسع والسبعون وصاحبه « بيتزيبيوس » Pitzipios وتاريخه أيضا

سنة ١٨٦٠

وهذا رجل يوناني كان أشد أصحاب هذه المشروعات التقسيمية تحيلاً كما ستري :-

- ١ القسطنطينية مدينة حرة ومركز للدولة الحلفية الشرقية وفيها مؤتمر دائم تتمثل فيه جميع دول أوربة وافريقية وآسية وأمريكا
- ٢ مملكة الفلاخ والبغدان
- ٣ مملكة السلاف : الصرب والبلفار والجبل الاسود وبوسنه والهرسك
- ٤ مملكة الأروام : تراقيا ومقدونية وايروس وتساليا وألبانيا والمورة
- ٥ مملكة جزائر الارخبيل : كريد . قبرص . رودس . مدللي . ساموس . كورفو
- ٦ مملكة مصر
- ٧ مملكة تونس وطرابلس
- ٨ مملكة يون من اليونان
- ٩ مملكة الأرمن
- ١٠ الممالك السورية أي المملكة السلوقية القديمة
- ١١ مملكة قرمان والأكراد أي ممالك الماديين والفريجيين والغلاطيين والكبادوقيين
- ١٢ مملكة العراق أي عرب آسية والاثوريين والكلدانيين

١٣ مملكة التركمان

١٤ المملكة العبرانية أى فلسطين

١٥ مملكة اللاز

قال دجوفارا : انه لم يكن كافياً وجود مقدونية التي لم تزل شغلاً شاغلاً لأوربة حتى جاء « بيتزيبوس » يخلق لها مقدونيات جديدة يزعم أنه يتحالف فيها السلوقيون والماديون والفريجيون والغلاطيون والكبودقيون والكلدانيون والأثوريون واليهود واللاز ويجلس معهم ممثلو افريقية وأمريكا ! فيالحقاقة

ثم المشروع الثانون وصاحبه « راتوس » Rattos وتاريخه أيضاً سنة ١٨٦٠ وهو يوناني حذا حذو « بيتزيبوس » في كثرة تقسيماته وانما امتاز عنه ببقية عقل وانصاف جلته أن يترك شيئاً للاتراك العثمانيين وبرناجه هو هذا :

١ . الاستانة مدينة حرة مع شواطئ البوسفور والدرديل

٢ المملكة التركية تصير مشتملة على جميع البلدان التي جنوبي جبل طورس مثل سورية وفلسطين وبلاد العرب ومصر وطرابلس وتونس . وقال ان العاصمة

يجب أن تكون دمشق أو القاهرة أو الاسكندرية

٣ الممالك التي تؤخذ من الترك في الأناضول ومعها أرمينية

٤ مملكة اليونان ومعها تساليا والبانيا ومكدونية

٥ مملكة الفلاخ والبغدان ويكون لها أمير

٦ مملكة الصرب ولها أمير

٧ بوسنه والهرسك ولها أمير أو أميران

٨ الجبل الاسود وله أمير

٩ بلغاريا والروملى ولها أمير أو أميران

١٠ أرمينية وعاصمتها ارضروم ولها ملك

١١ مملكتان يونانيتان في الأناضول لكل منهما ملك

١٢ مجلس عام لهذه الممالك يكون التمثيل فيه على نسبة عدد الأهالي

قال دجوفارا : ان راتوس جعل في برنامجه ملوكاً للاروام بل للارمن لكنه لم يسمح للفلاخ والبغدان والصرب والبلغار الا باصراء
قلت : هذا البرنامج والذي قبله لا يستحقان الذكر الا كأطروفة
ثم المشروع الواحد والثمانون وصاحبه « ستفانوفيتش » Stephanowitch وليس له تاريخ .

وهو على نمط المشروعات السابقين تقسيمات خيالية . وصاحبه يقترح حكومة حلقية يونانية سلافية ذات مجلس مركب من ثمانية أعضاء رئيسه نائب للقيصر الروسي
ثم هناك سلطنة يونانية مركبة من تراقيا وتساليا وبلاد اليونان وجزر الأرخييل وملكة مركبة من صربيا ونوفى بازار وملكة تتألف من دالماسيا والمهرسك والجبل الاسود يليها أمير الجبل وملكة ألبانيا وتولاها أمير روسي وملكة رومانيا وامارة بلغاريا ويليها أمير روسي وملكة فريجيا (في الأناضول) وملكة البونت (طرابزون) وملكة ارمينية والسلطان العثماني يذهب الى بغداد وسورية تعطى الى الأمير عبد القادر الجزائري ومصر تصير ولاية فرنسية وقبرص تكون مملكة وأزمير تكون مدينة حرة . والقسطنطينية مدينة حرة وفيها مركز المجلس العام لجميع هذه الممالك

ثم المشروع الثاني والثمانون وصاحبه الكومندور « نيفرا » Nigra وتاريخه

سنة ١٨٦٦

وكان نيفرا هذا طليانيا ومبدأ ظهوره في خدمة « كافور » وزير ايطاليا المشهور

ثم صار سفيراً لـ إيطاليا في باريز ثم في بطرسبورغ ثم في فيينا ومات في « رابالو » سنة ١٩٠٧
 وكانت الحكومة الروسية سنة ١٨٦٣ أجرت احصاء في بولونيا تبعه من العسف
 والظلم ما حمل البولونيين على العصيان وتدخلت الدول في الأمر . فأقترح نابليون الثالث
 عقد مؤتمر في باريز وأجابه اليه الانكليز والبابا وايطاليا واسبانيا والسويد . وأرسل نابليون
 الثالث الى اوستريا يعرض عليها أخذ سيليزيا والتخلي عن غاليسيا التي كان يريد اعادتها
 الى بولونيا واحياء مملكة بولونيا من جديد . وكذلك عرض على اوستريا امارتى الفلاخ
 والبغدان على شريطة أن تترك البندقية لايطاليا ويقال ان هذه الأفكار كانت أفكار
 نيغرا وكان هو الذي يروجها في باريز

ولكن انكلترة واوستريا كانتا معارضتين لهذه الفكرة . وكانت ايطاليا اتفقت مع
 روسية سنة ١٨٦٦ على اوستريا وفي الوقت نفسه استدعى أهل رومانيا الأمير كارول من
 آل هونصورن وجعلوه أميراً عليهم ثم صار فيما بعد ملك رومانيا . ولم يفلح نيغرا في
 تقديم رومانيا لاوستريا عوضاً عن البندقية

ثم المشروع الثالث والثمانون المنسوب لغاريبالدي Garibaldi وتاريخه ١٨٧٣
 يقال ان القائد الايطالى الشهير غاريبالدي ترك بين أوراقه برنامج تقسيم للسلطنة
 العثمانية وقد تكلم عن هذا البرنامج « انريكو كروس » في رسالة نشرها تحت عنوان
 « وصية سياسية للجنرال غاريبالدي »

مآل هذه الوصية اتحاد بين اللاتين والسلاف على الجرمانيين . ففرنسة يجب أن
 تصل الى الرين وايطالية يجب أن تأخذ تريستي وكاتارو وبولونيا يجب أن
 تعيش وتشيكوسلوفا كيا ينبغى أن تكون جمهورية عاصمتها براغ . ثم تكون جمهورية
 بلقانية سلافية عاصمتها الاستانة وتتوسع حدود رومانيا . وتكون اليونان دولة قوية وترفع
 عن البحر المتوسط السلطة التي لانكلترة وتعود الدانمرك فتحتل « شلسفيك هولشتين »
 وتحصر ألمانيا بين نهري الرين و « الاودر » Oder ويرجع الترك الى برسام ثم يذهبون مع
 طول الوقت تماما وتتقسم اوستريا أقساما على حسب الأجناس التي فيها

قلت قد صح كثير من هذا البروغرام مثل أخذ ايطاليا لتريستي واستئناف استقلال
 بولونيا واستقلال بلاد التشيك وتوسع مملكتي رومانيا واليونان واسترداد الدانمرك ولاية

« شلسفيك هولشتين » وتمزق اوستريا قطعا متعددة بحسب الأجناس التي فيها . كل هذا قد تم على أثر الحرب العامة الا ان اتصال فرنسة بالرين واخراج الترك من القسطنطينية وخضد شوكة انكلترة في البحر المتوسط فلم يتم منها شيء

ثم المشروع الرابع والثمانون وصاحبه الكونت « غريبي » وتاريخه ١٨٧٣ وكان غريبي Greppi هذا مستخدما في سفارة اوستريا في رومة وبعد ذلك صار سفيراً لاطالية

ونشر رسالة عن المسئلة الشرقية قال فيها : ان القسطنطينية يجب أن تكون للجميع مدينة حرة مستقلة ولا يتبعها الا البوسفور

ثم يجلس في الاستانة بمنوا الاتحاد اليوناني السلافي وتضاف مقدونية وتساليا وايروس الى اليونان ويكون لجزر الارخبيل استقلال داخلي لكن ضمن دائرة الاتحاد المذكور ولكن يكون لكل من الدول العظام قاعدة بحرية في إحدى الجزر لتتمكن من السهر على التوازن في الشرق ؟

ثم المشروع الخامس والثمانون وتاريخه ١٨٧٥ وصاحبه مجهول وقد ظهرت به نشرة أثناء الحرب الروسية التركية وما لها انه يحصل قريدا انقلابات في شرقى أوربة فبوسنه والمهرسك نصيران الى اوستريا أو الى الجبل الاسود والصرب . والفلاخ والبغدان والروملي وتراقيا نصير الى الروسية . والبانيا ومقدونية وتساليا تضاف الى مملكة اليونان . والصرب والجبل الاسود يستقلان تماما . ومصر نصير مملكة

ولكن صاحب النشرة يشير بجعل الاستانة مركزاً لاتحاد شرقي مركب من خمس ممالك اليونان ومعها البانيا ومقدونية وتراقيا والجزر . ثم الصرب وبوسنه . ثم المهرسك والجبل الاسود . ثم البلغار . ثم رومانيا

ثم المشروع السادس والثمانون وصاحبه أيضا مجهول وهو محرر بالألمانية وبدون تاريخ

وصاحبه يريد دحر الاتراك الى آسية وتخليص صربيا ورومانيا ومصر وتونس وطرابلس منهم . ويشير بجعل التردينيل والبوسفور وقناة السويس ونهر الدانوب ممر حرة للجميع وان تأخذ الروسية بلغاريا والدبروجه وارمينية وتأخذ اوستريا قسما من البانيا

مع بوسنه والهرسك وتأخذ اليونان تساليا ومقدونية وقسما من البانيا وتعاض فرنسا وإيطالية من جهة افريقية وتعاض انكلترة من جهة آسية الصغرى ولقد صح من هذا البروغرام أشياء مثل اعتياض فرنسا وإيطالية من افريقية فان فرنسا من بعد الجزائر استولت على تونس ثم على مرا كش وإيطالية استولت على طرابلس وانكلترة بدلا من آسية الصغرى احتلت مصر وفلسطين وتكبير بلاد اليونان قد حصل كما قال

ثم المشروع السابع والثمانون وصاحبه « رولين » Rollin وتاريخه ١٨٧٦

وهو منشور في رسالة عنوانها « الحل العملي لمسئلة الشرق » نشرها صاحبها عند ثورة الصرب والرومانيين على تركيا

وهو يقترح طرد الترك الى آسية وان تحتل أملاكهم في أوربة انكلترة وأوستريا وبروسية والروسية . وان تحتل هذه الدول أيضاً القسطنطينية وادرنه والروملى وكريد . وان يعطى الاستقلال لجميع أقسام تركية أوربة ويكون لها مجلس عام

ومن تأمل في هذا البروغرام الذى اتحل له صاحبه اسم « الحل العملى » وجده أبعد الأشياء عن « الحل العملى » لاسباب لا تحصى لا تخفى عن السيامى الخبير

ثم المشروع الثامن والثمانون وأصحابه آل تستا Testa وتاريخه ١٨٧٦

وهم يشيرون براء لم نجدها الا من باب التسكين الموقت وذلك كاعطاء بوسنه الى صربيا لكن مع بقاء سيادة الباب العالى عليهما . واعطاء الهرسك الى الجبسل الاسود . وان تجعل مجالس كبيرة للروملى والبانيا وبلغاريا ينتخب السلطان رؤساءها بشرط أن يكونوا من المسيحيين

وال تستا من الامان

ثم المشروع التاسع والثمانون وصاحبه « ماتياس بان » Mathias Ban وتاريخه

سنة ١٨٨٥

وولد « بان » هذا في راغوزا ومات في بلغراد سنة ١٩٠٣

ورأيه أن الاتفاق متعذر في شبه جزيرة البلقان الا أنه يمكن أن يصار الى التشكيلات الكنسية . ففي القديم لم يكن الا الكنيسة البيزنطية الرومانية ثم جعلوا كنيسة

صربية وكنيسة بلغارية ثم عند دخول الترك الى القسطنطينية الغوا بطريكتي البلغار والصرب . فيجب أن تعاد كما بدأنا وان تضاف الروملى الى بلغاريا تحت سيادة الباب العالى . وتعطى الى الصرب « ودين » و « ساموكوف » وبعض أماكن من بلاد البلغار . وتسلم الى اليونان والجبل الاسود البلاد التى تقررت لها بموجب معاهدة برلين ثم المشروع التسعون وهو خبر جرائد تاريخه سنة ١٨٩٦

نشرت جريدة الدالينوز الانكليزية والبرلينرنا غبلاط الالمانية خبراً معناه أن الروسية متحفزة لاحتلال ارمينية وحمل الدول على تقسيم تركيا . وذلك على أن تأخذ الروسية القسطنطينية والولايات التركية الشرقية الى أن تنفذ من اسكندرونه . وأن تأخذ فرنسة سورية وفلسطين . وتأخذ انكلترة مصر وسواحل الخليج الفارسى والكويت . وتستولى النمسا والمجر على بوسنه ومكدونية . وايطالية على طرابلس . واليونان على كريد والجزر

ثم المشروع الواحد والتسعون وصاحبه « فون سيكادوف » Von Sydakof وتاريخه سنة ١٨٩٨

وهو محرر بالالمانية وكان محرره من كتاب الصحف فى فينا . وبعد أن ذكر ثورات البلقان وكريد وغيرها والحرب التركية اليونانية قال ان الروسية ستعود الى تأريث نار الحرب الصليبية على الاسلام . كما أن الالبانيين من مسيحيين ومسلمين يطلبون استقلالاً داخلياً تحت سيادة الباب العالى . وكما أن المسيحيين فى مقدونية لا يزالون يطلبون باصلاحات لا يعمل منها الباب العالى شيئاً . فلا مناص من النظر الى هذه الحالة . فهو يرى قسمة البلقان الى شطرين شرقى وغربى (١) الفاصل بينهما « الستروما » و « الواردار » بحسب استعداد الأرض . فتكون حصتها اليونان والصرب فى الشطر الغربى . وتبقى البانيا وقسم من مقدونية فتديرهما أوستريا كما أدارت بوسنه والهرسك . وتتحد هذه الممالك البلقانية مع أوستريا - هنكارياتحاداً اقتصادياً

وأما فى الشطر البلقانى الشرقى فتتحد بلغاريا مع رومانيا تحت تاج الملك كارول ويكون لها مقدونية الشرقية وتكون لها القسطنطينية . وقال انه ان لم تكن البلقان أوربية صارت أوربة كلها روسية . فهذا هو الحل الوحيد للسئلة والطريقة الوحيدة لمنع الروسية

(١) قد تقدم مثل هذا رأى

من تكدير صفو السلام العالمي

و بعد ظهور هذه النشرة بسنة ظهرت نشرة بامضاء « غورلوف » فيها أنه يجب اعطاء الاستانة والبوسفور وغاليسيا للروسية . وترانسيلفانيا لرومانيا . وجنوبي البانيا لليونان . والجبل الاسود وبوسنه واهرسك للصرب . وتراقيا مع ادرنه الى تشاطلجه لبلغاريا . وأن تستقل كل من المجر وبوهيميا . وما يبقى من اوستريا مع فينا يضاف لألمانية

قلت : وقد صح من هذا بعد الحرب العامة اعطاء ترانسيلفانيا لرومانيا وجنوبي البانيا لليونان والجبل الاسود وبوسنه وهرسك للصرب واستقلال كل من المجر وبوهيميا (بلاد التشيك) ويرجح أن فينا وما بقى من اوستريا سينضم الى ألمانية في عهد غير بعيد

ثم المشروع الثاني والتسعون وهو روماني Roumain وتاريخه ١٩٠٤
وصاحبه وزير سياسي يخفى اسمه . وهو يشير باتحاد بلقاني تحت رئاسة ايطاليا وذلك لأن الدول البلقانية لا يرضى بعضها رئاسة بعض . والروسية عظيمة جداً ومخوفة . واوستريا قريبة . وانكلترة وفرنسة بعيدتان . فايطالية هذه الرئاسة أوفق من الجميع وتتألف هذه الحكومات المتحدة من الولايات التركية القديمة ومن تركية آسية نفسها وتنقسم ولايات تركيا الى ثلاث مناطق : الأولى ألبانيا ومركزها اشقودرة . الثانية مقدونية ومركزها سلانيك . والثالثة تركية أوربة مع القسطنطينية وادرنة . وينصب في البانيا ومقدونية حكام طليان ويتخذون طرز ادارة سويسرة وتكون شرطة مسيحية محل الجيش . وتكون الوظائف على نسبة أجناس الأهالي . ويكون مجلس عام مركزه سلانيك أورومة . ويكون ملك ايطالية هو حامي هذا الاتحاد .

قلت : لعل موسوليني فيما يحلم به من الفتوحات الرومانية يحلم بهذا أيضاً
ثم المشروع الثالث والتسعون وهو قسمة القسطنطينية وتاريخه ١٩١٢
لما كان أهم عقدة في قسمة أملاك تركيا هي الاستانة فقد فكر بعضهم في قسمة هذه المدينة نفسها . وسبق الى ذلك جريدة « الاندبندانس بلج » في ٧ يناير سنة ١٩١٢ عن رسالة من سلانيك يقول كاتبها ان الأتراك لا يقدرون أن يصلحوا هذه البلدة الطيبة كما يجب وانه يلزم لهم لذلك عشرة مليارات على مدة ١٥ سنة فلا تجدهم يقدرون على انفاق مبلغ كهذا

فاحسن طريقة هي جعلها دولية . فيكون للامان حيدر باشا وقسم من الارض الى جهة آسية . وللفرنسيس بك اوغلي وضواحيها . وللروسية أعلى البوسفور . ولاوستريا غلظه الى البحر ولاانكليز استانبول أما ايطالية فقد أغارت على طرابلس الغرب فلم يبق لها حق في حصة من عاصمة تركيا

وهذا الكاتب لم يفكر في كونه أدخل في الاستانة دولاً سبق أنها أخذت كثيراً من أملاك تركيا وأكثر مما أخذت ايطالية ولا حسب حساب تنازع الدول المذكورة على الحدود ولا تأمل في وجود البوسفور في يد الروسية وما فيه من المحذور وقد أتى لآل عثمان حق رئاسة المجلس الدولي وان تبقى لهم القصور التي لهم في الاستانة . فأما عاصمة تركيا الحقيقية فتصير برسا

ثم المشروع الرابع والتسعون وصاحبه المسيو « رالف دونريكت » Ralf De Neriek وهو يشير باعطاء القسطنطينية للبابا ويكون مركزه بها . قال وهذه كانت فكرة قسطنطين الكبير فتأمل

المشروعان الخامس والتسعون والسادس والتسعون هما معاهدتا باريس وبرلين الاولى

سنة ١٨٥٦ والثانية ١٨٧٨

قال دجوفارا : هذه كانت في مدة ستة قرون مساعي المسيحيين ومحاولاتهم لمحو السلطنة العثمانية التي كانت من أعظم الممالك التي عرفها تاريخ البشرية . وان لم يكن قد نفذ برنامج واحد من هذه البرامج الكثيرة بخذافيه فما زال تكرر هذه المساعي وتداول هذه الأفكار في كل أوربة خلفا عن سلف يعمل عمله تدريجاً وينقض من بناء السلطنة التركية الى أن انهارت جوانبها

وقال : بعدواقعة ليبانت (١٥٧١) بدأت الدولة العثمانية تتقهقر . وقد أخذت أملاكها في افريقية كمصر وطرابلس والجزائر وتونس تنفصل عنها ولم يبق لها عليها الا سيادة اسمية ثم ان الحروب الكثيرة التي أصلتها اياها كل من الروسية واوستريا نزع منها المجر (١٦٩٩) وبانات وطمشوار (١٧١٨) وقسماً من الصرب وقسماً من الفلاح والقريم (١٧٧٤) وبوكوفين (١٧٧٥) ثم خسر الباب العالي جزر كورفو وأخواتها (١٧٩٧) وكرجستان

(١٧٩٩) وبساراييا الى حد نهر البروت (١٨١٢) و بلاد اليونان (١٨٢٩) وارمينية الفوقاسية . ثم خسر جزائر الغرب (١٨٣١) وسنة ١٨٤١ استقلت مصر استقلالاً داخلياً وسنة ١٨٥١ استقل الجبل الأسود استقلالاً داخلياً أيضاً .

وبمعاهدة باريز ٣٠ مارس ١٨٥٦ نالت الاستقلال الداخلي رومانيا و صربيا وتقررت حرية الملاحة في البحر الأسود والمرور بالدانوب . ثم أخذ الانهيار يتتابع ولاسيما بعد حرب سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ مع الروسية اذ وصل الروس الى ادرنه وأجبروا الباب العالي على قبول شروطهم في ايا استفانو ولكن أوربة لم تصدق هذه المعاهدة وتبدلت بها معاهدة برلين (١٣ يوليو ١٨٧٨) فتقرر الاستقلال التام لرومانيا و صربيا والجبل الأسود وصارت بلغاريا امانة تؤدي الى الباب العالي الجزية وانفصلت ولاية اسمها الروملي الشرقية لكن تحت سيادة الباب العالي ثم استلحقها البلغار (١٨٨٥) واحتلت أوستريا بوسنه والمهرسك مدة مديدة ثم اعلنت (١٩٠٨) استلحقهما . ونزل الباب العالي في آسية للروسية عن باطوم وقارص واردهان . وتخلي عن قبرص لانكلترا

وسنة ١٨٨١ تخلى عن تساليا وقسم من ايروس لليونان وسنة ١٨٨٢ احتل الانكليز مصر وكانت قبل ذلك بستين احتلت فرنسا تونس . وسنة ١٨٩٦ نالت كريد استقلالها الداخلي

وبقيت برغم كل هذا بلاد البلقان غير ساكنة والنار تظرم تحت الرماد الى أن سقط السلطان عبد الحميد (٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨) وتولت عصبة تركيا الفتاة فاستلحقت أوستريا بوسنه وهرسك

ثم شنت ايطالية الغارة على طرابلس الغرب وهذه الغارة هي المشروع السابع والتسعون من تقسيم سلطنة آل عثمان

وكان قبل ذلك في سنة ١٨٩٤ تألفت في باريز عصبة بروغرامها الخاق كريد باليونان وتأسيس حكومة لمكدونية والبازيا وأخرى لارمينية والأناضول وأخرى للقسطنطينية وتراقيا وان تكون البلدة بلدة حرة ومركزاً للخدمات المتحدة

ثم ظهرت حركة أخرى اتفق فيها بعض البلغار والارناؤوط على أن تكون مكدونية وألبانيا حكومتين مستقلتين تحت سيادة السلطان لكن الباب العالي رفض هذا المشروع

وكانت الحوادث والثورات تتوالى فى البانيا والروملى والقلق يشتد فى شبه جزيرة البلقان فاهتبلت ايطالية هذه الغرة وشتت الغارة على طرابلس وبرقة بعد انذار ابلقتسه الباب العالى فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١١ فاستمرت تركيا فى الحرب مع ايطالية نحواً من سنة وانعقد بينهما صلح لوزان فى ١٨ اكتوبر سنة ١٩١٢ وخسرت تركيا بقية ما كان بقى لها فى افريقية

واهتبلت دويلات البلقان الغرة من حرب ايطاليا مع تركيا فتحالفن وهجمن على تركيا : الجبل الاسود فبلغاريا فاليونان فالصرب

قلت واعلن كل من ملك اليونان وملك البلغار منشورا على العالم يذكر كل فيه الأسباب التى دعت المسيحيين أن يحملوا السلاح لمقاتلة الترك ويشير الى مصارعة الصليب للمهلال وغير ذلك من العبارات التى كان ملوك المسيحيين يستعملونها فى الحروب الصليبية وتبعهم فى ذلك ملك الصرب وسرد تاريخ الجلاد بين الترك والصربيين وزعم أن تركيا كانت لا تعترف بديانة الصرب وتعارضهم فى حريتهم الدينية وتجبرهم على الاسلام ! وامثال ذلك من العبارات المهيجة

وبينا منشائر الملوك الثلاثة المذكورين ملامى بذكر العداوة بين النصرانية وتركيا والمصارعة بين الصليب والهلال وجميع الكلمات المثيرة للعواطف اذ صدر منشور السلطان محمد الخامس ليس فيه كلمة واحدة مهيجية ولا جارحة بل كله حث على حفظ دمار السلطنة وتوطيد نفوذ الحكومة مع الرفق بالنساء والأطفال والشيوخ من الأعداء والتحرج عن سفك الدماء بدون موجب والمحافظة على الأموال والأرواح وأما كنى العبادة

وقد نقل المسيو دجوفارا المنشائر الأربعة بنصوصها

ثم ذكر خلاصة الحوادث : —

فى ٨ اكتوبر ١٩١٢	اعلان ملك الجبل الاسود الحرب على تركيا
فى ١٨ « «	اعلان ملوك البلغار والصرب واليونان الحرب واحتلال
	البلغار جسر مصطفي باشا
فى ٢٠ اكتوبر «	استيلاء الصرب على بريشتينه
فى ٢٢ « «	الصربيون ينتصرون على الترك فى كومانوفو

الأتراك ينهزمون على قرق كليسه	في ٢٢ اكتوبر ١٩١٢
استيلاء الصرب على اسكوب	في ٢٦ » »
انتصار البلغار في لوله بورغاز	في ٢٨ » »
فوز اليونان في وقعة بنتيغاديا	في ٥ نوفمبر »
سقوط سلانيك	في ٨ » »
معركة مناستير	في ١٦-١٣ » »
معركة شتالجه	في ١٧ » »
جيش الجبل الاسود يحتل آلسيو	في ١٨ » »
عقد متاركة	في ٣ ديسمبر »
اجتماع مندوبي الصلح في لندن	في ١٦ » »
توقف مفاوضات الصلح	في ٦ يناير ١٩١٣
معركة تنيديوس البحرية	في ٢٠ » »
أنور ومن معه يسقطون كامل باشا	في ٢٣ » »
ويسقط ناظم باشا قتيلاً	
تأليف وزارة محمود شوكة	في ٢٤ » »
قطع المفاوضات في لندن	في ٢٦ » »
رفض تركيا التخلي عن أدرنه	في ٣٠ » »
رجوع المعارك	في ٣٠ فبراير »
قبول الترك وساطة الدول	في ١ مارس »
فتح اليونان ليانيا	في ٦ » »
اشتداد المعارك في شتالجه	في ١٨ » »
استسلام جاويد باشا للصرب في «سكومبي»	في ٢٥ » »
تسليم أدرنه	في ٢٦ » »
تركيا ترضى باقتراحات الدول	في ١ ابريل »

حصار الدول لساحل الجبل الاسود	ابريل ١٩١٣	في ١٠
احتلال الجبلين لشقودره	» »	في ٢٢
اجبار الدول ملك الجبل الاسود على اخلاء شقودره	» »	في ٢٥
عقد مواد الصلح الاساسية	» »	في ٣٠

وزبدة هذا الصلح ان السلطان يترك جميع الأرضين الواقعة شمالي خط يَضْرَب من أنوس الى ميديا ماعدا البانيا . ويترك لامبراطور ألمانيا وامبراطور اوستريا هنگاريا ورئيس الجمهورية الفرنسية وملك انكلترة وامبراطور الروسية وملك ايطاليا الاعتناء بتحديد حدود البانيا مع البلاد المجاورة لها

وكذلك يتخلى لمالك الدول المذكورة عن جميع حقوقه على جزيرة كريد ويترك لهم تسوية القرار اللازم بشأن الجزر العثمانية في الأرخبيل

ولكن هذه المعاهدة بقيت بدون امضاء لأن الدول البلقانية تحاربت بعضها مع بعض بسبب الاختلاف فيما بينها على تقاسم البلاد . وهي حرب لسنا الآن في صدها وقد استوفى حوادثها المسيو دجوقارا فعدت تركيا واستفادت من هذه الفرصة وسيرت جيشا استرجع ادرنه فبقيت لها في أوربة القسطنطينية وادرنه وما بينهما
أى تبقى لتركيا في أوربة زهاء مليون ونصف من السكان بعد أن كان لها أملاك يسكنها اليوم زهاء ٤ مليون نسمة في أوربة خلا آسية وافريقية

بقى علينا أن نترجم خلاصة هذا الكتاب تأليف المسيو دجوقارا الروماني مؤثرين منقولنا على مقولنا لأنها شهادة من رجل أجنبي عنا بل رجل سياسى مسيحي بلقاني كانت الأمة التي ينتمى اليها من جملة الأمم التي تحررت من حكم تركيا

الخلاصة

قال المسيو دجوقارا مايلي :

» مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية . وكان الوزراء ورجال الهيئته وأصحاب الاقلام يهينون برامج تقسيم هذه السلطنة كما تقدم وصف كل برنامج بعينه مما يناهز مائة

الا ان الحماة الدينية التي كانت تلتهب في القديم ففرت بمرور الأعصر فلم يبق عند هذه الشعوب تلك الحرارة التي كانت تجمعها على غير المسيحيين . وصارت المصالح الاقتصادية والمناظرات بين الملوك تفرق بين أولئك الذين كان الصليب يؤلف بينهم من قبل . فلما جاء الوقت الذي صاروا فيه يتكلمون عن « الرجل المريض » تنبتهت المنافسات وثارَت المنازعات وتحقق ان احتلالاً عسكرياً لتركيا سيجرّ بلا نزاع الى حرب عامة

ولا نغني بهذا ان كل فكر في تقسيم السلطنة العثمانية انقضى أو ان كل أمل في الاتفاق على اسلابها قد انقطع . فمذ فتح محمد الفاتح القسطنطينية لم تزل الناس تقول على سقوط سلطنة آل عثمان وفي سنة ١٧٨٤ كتب « ديز » Diez سفير بروسيه في الاستانة ان الروس لا يلبثون أن يأخذوا تركيا في مدة ١٠ سنوات . وكذلك تنبأ نابليون بمثل هذا ولم تصدق نبوته

وكانت الدول العظام لاتفكر ان هذه الأمم التي تتألف منها السلطنة العثمانية يمكنها أن تدير أنفسها بأنفسها . بل كان عندها ان هذه الشعوب لم توجد الا لتكون تحت حكم الأجنبي . وبقى هذا الفكر عند الدول الطامحة العظيمة الى أيامنا هذه فاذا قلت لبعض رجال السياسة : ان هذه شعوب يمكنها ان تتحرر وتستقل بأنفسها هزأوا بك . ولم أجد سوى رجل واحد نظر الى بعيد وهو الميوكونستان سفير فرنسة سابقاً في الاستانة فقد كان يقول : « ان المستقبل في الشرق إنما هو للشعوب الصغيرة »

على ان السلطنة العثمانية ان لم تكن سقطت كلها دفعة واحدة فقد تساقطت قطعة بعد قطعة في مدة هذه الأعصر الطوال التي كانت أوربة تناصبها فيها العداة
فماذا كان السبب في هذا السقوط ؟

الجواب ان الأسباب كثيرة منها السبب الذي نشأ عنه سقوط اكثر الممالك العظمى في العالم وهو سعة الممالك المفتوحة تلك الخارقة للعادة واختلاف الأمم الخاضعة واستحالة اذابتها في بوتقة واحدة وصعوبة اعطائها كلها فكرة قومية متحدة ثم فساد الادارة وارتحاء النظام وتردى القوة العسكرية .

واضف الى ذلك اختلاف الاديان بين سكان هذه السلطنة فالاسلام لا يأتلف مع النصرانية لاسيما انه لا يكتفي بأن يكون ديناً روحياً يعزى الأنفس بل هو مسيطر على

الادارة ويتدخل في أمور الحكومة (١)

وقد كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضة مستندة على شرع سهاوى : ولم يكن القرآن مانعاً لامن العلوم ولا من المعارف ولا من الصناعات . ولو كان ذلك لما كانت المدينة العربية الباهرة ممكنة

وكذلك لولا التسامح الدينى العظيم عند الاتراك لكان تساكن المسيحيين مع المسلمين متعذراً . ولكن الدولة العثمانية أعطت المسيحيين حرية دينية التامة وخواتمهم أيضاً الحرية المدرسية وما يجب أن نعترف به أن هذه الحرية الدينية التى منحتها الدولة العثمانية لرعاياها المسيحيين مع حرية التعليم هى التى كفلت نموهم وترقيهم وجعلتهم يسرون فى طريق الاستقلال المطلق ولا جدال فى ان النصرانية عروة دينية وثيقة كانت جامعة للأمم البلقانية فصارت هذه الأمم تتأهب للمقاومة وما كان من الأمور يقبل العنرفيه من فى مملكة مختلفة الأجناس مثل اوستريا - هنكازيا أو سويسرة كانوا لا يقبلون العنرفيه اذا صدر من مملكة غير مسيحية . على انه قد جرت حوادث كثيرة كان فيها النصرارى على النصرارى أغلظ من المسلمين على النصرارى . وذلك كما جرى من البنادقة على أهل أئينا . ولكن العيظ فى أواسط العائلات سريع الزوال فالعداوة الحقيقية كانت عداوة النصرارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين فى الدين والحرية الدينية التى كان يتمتع بها المسيحيون فى السلطنة العثمانية . وقد قال المؤرخان « لافيس » Lavissee و « رامبو » Rambaud (٢) : « ان مجدداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الترك والمغول بعيداً عن كل اضهاد دينى . وكانت حمومة الترك لا تعارض أحداً فى دينه وكان الاتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة الارثوذكسية » ثم نقل هذان المؤرخان من القرآن هاتين الآيتين الكريمتين : (وَقَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ثم : (لَا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ)

الآن العداوة الدينية للاسلام لم تكن لتُنسى . فكل ما كان يفعله المسيحيون بالمسيحيين من الجور والطغيان كان منسياً . وأى شىء وقع من الترك على النصرارى كان

(١) سيأتى فصل فى هذا الموضوع بين فيه وجهة الاسلام الحقيقية

(٢) هذان من أشهر مؤرخى فرنسا وكتبهما تدرس فى مدارس الحكومة

يقابل بالصيحة : باللاتقام

وهناك سبب آخر لعدم الائتلاف وهو اختلاف السلائل فالترك طورانيون في السلالة ومثلهم البلغار . اما الروم والصرب والرومانيون فأريون . ثم ان هناك اختلافاً في المشارب والأوضاع فالتركي جواد يكره ادخار المال والشح . والقرآن يمنع المسلم من الدين بالربا^(١) ولذلك كان من الصعب أن يثبت التركي في مجتمع مبني على المضاربات وتشمير رؤس الأموال . ولا جرم في ان هذه المبادئ شريفة في ذاتها ولكن الحكومة التي تأخذ بها لا تلبث ان تجد خزاتها فارغة وان كان لا يسع الانسان الا الأعجاب بمنزاع عالية نادرة كهذه

ثم ان احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة كانا من مزايا العثمانيين يدور عليهما التاريخ العثماني كله . فان كان الشعب التركي الآن قد غلب فانه قد فقد كل شيء الا الشرف

ثم ذكر دجوفارا ملخص تاريخ الحركات الوطنية البلقانية وخروج الروملي من أيدي الترك وانتهاء هذا الخلاف الذي استمر هذه القرون المتطاولة بين الترك المسلمين والبلقانيين المسيحيين وقال في الختام انه لا يزال في أيدي الترك القسطنطينية وادرنه والبواغيز وبهذا السبب لهم دور عظيم ويبعد كثيراً اتفاق الدول العظام على اخراج هذه الأماكن من أيديهم

قلت : قد تحقق قول هذا السياسي الروماني بعد الحرب العامة . فقد جد بعد الحرب العامة مشروعاً تقسيم لتركيا هما أهم كل ما ذكره من مشروعات التقسيم : أولها معاهدة سيفر Sévre التي أرادت دول الحلفاء أن تجبر تركيا على امضائها والتي نزعتم من يد تركيا جميع البلدان العربية وجعلت بلاد الأناضول التركية مناطق مقسمة بين دول الحلفاء وجعلت القسطنطينية نفسها - وان كان سيبقى فيها السلطان مقبياً - تحت حكم لجنة دولية . فهذه المعاهدة لو نفذت لكانت تركت تركيا أثراً بعد عين

ولكن الأتراك ثاروا عليها واعتصموا بالأناضول وجعلوا مركزهم أنقرة ورماهم الحلفاء بجيش اليونان فقاوموه واحتل اليونان قسماً من بلاد الأناضول الا أن الأتراك نهضوا

(١) ويذكر هنا دجوفارا الآيات القرآنية التي تنهى عن الربا وتحث على امهال المديون الى وقت المسيرة

ونشطوا واستماتوا في سبيل استقلالهم فما زالوا حتى دحروا اليونان وأخرجوهم ومزقوا شملهم
فاضطرت الدول أن تعود لمصلحة تركيا على غير قاعدة معاهدة سيفر المنبوذة وعقدت مع
تركيا معاهدة لوزان التي أبقت لتركيا الأناضول والقسطنطينية وادرنه وأخرجت من يدها
البلاد العربية كلها وكل ما كان لها في افريقية وجزائر بحر الارخبيل الا الجزر المصاغة
للدرديل تنيدوس وما جاورها

ولقد كان العامل الأعظم في بقاء تركيا وعدم اخراج الترك من الاستانة هذه المرة
أيضاً هو اختلاف الدول وخوفهن من أن تحتل انكلترا الاستانة ولا تخرج منها فآثروا
أن تبقى تركيا في الوجود وأن تبقى لها القسطنطينية على أن تكون لانكلترا وألقوا لجنة
للبواغيز دولية ومنعوا تحصينها . وهكذا ثبت أن هذا الموقع العظيم الذي هو استانبول
لا يزال بأهميته الجغرافية والسياسية والعسكرية هو السبب الأكبر في وجود تركيا

ولنعد الآن الى ذكر التسامح والتعصب وأى الفريقين أحق بان يقال انه متسامح
الاسلام أم أوربة ؟ مما كان هو أصل البحث الذي ساقنا الى تلخيص « مائة مشروع تقسيم
لتركيا » فنقول :

قد شهد هذا الرجل الضليع في علم السياسة المطلع على تاريخها بما يندر أن يطلع عليه
عالم آخر ان أشد التبعة في هذه العداوة المستمرة بين الاسلام والنصرانية انما هي واقعة على
المسيحيين . قال هذا في مقدمة كتابه هذا المصدر بمقدمة من قلم « لويس رنول »
Louis Renault من مشاهير أساتيد الحقوق والعلوم السياسية .

ثم ذكر في خلاصة كتابه أن من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية هو مشربها
في اعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للامم المسيحية التي كانت خاضعة لها لأن هذه
الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية وتهاكس وتنهض وتتألم وتسير
سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية وسواء كان هذا المؤلف قد أعلن هذه
الحقيقة أم لم يعلنها فانها الحقيقة التي لا شائبة فيها . ولذلك نجد ملاحظة انقرة يجعلون من
جلة حججهم في التفصي من الشريعة الاسلامية قولهم انه لولا مراعاة هذه الشريعة
لكانت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى ولم تطرأ عليها هذه المصائب التي لزمها
مدة ستة قرون بسبب وجود الثلث من سكانها وربما أكثر من الثلث مسيحيين وبأن

الشريعة كانت تمنع السلاطين من اجبارهم على الدخول في الاسلام أو الجلاء وقالوا ان السلطان سليما الأول أراد توحيد عناصر السلطنة واجبار المسيحيين على احدى خطتين الاسلام أو الرحيل فقام في وجهه زنبيللي على افندي شيخ الاسلام وقال له : « لا يحق لك هذا والمسيحيون واليهود متى خضعوا ودفعوا الجزية فقد عصموا منك دماءهم وأمواهم »

ولقد كانت في السلطنة العثمانية عشرات ملايين من المسيحيين يعيشون وافرير مترفين كاسيين متمتعين بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الاسلامي . فلما جاءت الجمهورية التركية الحاضرة وبطل العمل بالشرع وأخذ الترك باوضاع الافرنج وقلدوهم في كل شيء وعولوا على سياسة « التمغرب » (غرب بلاشمو) لم يبق في جميع الأناضول الا فئة قليلة جدا من المسيحيين عدة آلاف . وان كان يبق في الاستانة نحو من مائة وخسين الف نسمة فهؤلاء قد أبقاهم الدول بالاتفاق مع تركيا في مقابلة مسلمي تراقيا الغربية الذين أبوا أن يتركوا أوطانهم ويرحلوا الى تركيا عندما تفررت مبادلة السكان وأجلت الدول بمقتضى معاهدة لوزان المنعقدة سنة ١٩٢٣ المسامين الذين في الروملى الى الأناضول والمسيحيين الذين في الأناضول الى الروملى والمورة

وهذا برهان ساطع على سماحة الشرع الاسلامي وامكان تساكُن المسلم والمسيحي واليهودي في ظله بالأمان ولاطمئنان وعدم سماحة الطريقة الأوربية التي منذ أخذ بها الترك أصبحوا لا يقدرّون أن يساكنوا المسيحيين ورفضوا أن يدخلوا في مجلسهم النيابي نائباً واحداً مسيحياً أو يهودياً . وقد كنت أخصى عندما كنا في مجلس الأمة أيام الدولة العثمانية عدد نواب الأروام بخمسة عشر ونواب الأرمن بخمسة عشر وكان بيننا خمسة نواب من مسيحي العرب أربعة منهم عن سورية ولبنان وواحد عن الموصل . وكان أيضاً عدد من نواب اليهود . وقبل الحرب البلقانية التي ذهبت بست ولايات من الولايات العثمانية سلاينك ومناستر وقوصوه واسكوب واشقودرة ويانيا وبقسم من ولاية ادرنه كان نواب المسيحيين في المجلس ضعف ما كانوا يوم كان محرر هذه السطور نائباً عن حوران من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩١٨

وبالاجمال لما كان العمل في تركيا بمقتضى الشريعة الاسلامية كانت روح التسامح

والمساواة في الحقوق والوظائف هي السائدة في هذه المملكة. فلما اتخذ الأتراك خطة التفرنج أو « التمغرب » على رأيهم حصروا تركيا كلها بالترك وحدهم بدون نظر الى الأجناس الباقية عندهم . وكأنهم عاملوا بقية المسيحيين واليهود الذين في تركيا معاملة فرنسة لمسلمي الجزائر وإيطالية لمسلمي طرابلس مثلاً

ومن طالع تاريخ الاستعمار الأوربي وتاريخ الاستيلاء الأوربي سواء كان في القديم أو في الحديث علم أن الأوربي بمقتضى فطرته لا يطبق وجود غيره ولا يرى اذا ساد حقاً الا لنفسه . فهو لا يقف بمجرد الوجدان كما يقف المسلم عن استصفاء حقوق من يستولى على بلاده بل اذا وقف لا يقف الا بسبب قوة تصادمه أو بسبب موازنه يترجح بها عنده نفع الوقوف على ضرره . فأما اذا وجد نفسه قادراً أن يفعل ولا يلحق به ضرر فانه كما يتوقف عن هضم حقوق الذين تغلب عليهم الا نادراً . ولقد تراه من شدة اثره وطمعه واعتقاده ان له أن يمحصر كل شئ في نفسه ان سمح لرعاياه بان يمارسوا شعائر دينهم مثلاً عد ذلك منته كبرى وأقامها حجة على تسامحه الديني . فقد قرأنا كثيراً من الخطب والمقالات لرجال الفرنسيين يمتنون فيها على مسلمي المغرب بانهم لم يعارضوهم في دينهم وكأنهم يرون ذلك في الذروة العليا من العدل والنزاهة وكمال المدنية.

وقد نسوا أن الحرية الدينية حق طبيعي لكل انسان وانها من أقدس الحقوق المقررة في تاريخ البشر منذ وجد البشر وان لكل انسان بحسب علم الحقوق العامة أن يدافع عن اية حرية دينية جرى عليها حجر أو تضيق في اية بقعة من الأرض وانه لم يعد أن أمة مهما بلغ بها التوحش ان قامت وعارضت قوماً في دينهم . وان فعلت ذلك كما فعل الاسبانيول بمسلمي الاندلس مثلاً أصبح هذا الأمر حديث الاجيال وعدّه التاريخ وصمة أبدية لفاعليه على عمر الأيام والليالي

وياليت الفرنسيين وقد تبجحوا باعطاء مسلمي المغارب حريتهم الدينية قد فعلوا وقرنوا القول بالعمل . والحقيقة أنهم منذ نصف قرن سألروا في افريقية على خطة الكردينال لافيجرى والأب فوكو واضرابهم ممن زرعوا في عقولهم أنه مادام مسلمو المغرب مسلمين تبقى سيادة فرنسة على هذا القطر تحت خطر الزوال . وانه لأجل أن تأمن فرنسة على مستقبل أمرها في شمالي افريقية لا مندوحة لها عن تنصير المسلمين . ولقد

بدأوا بهذه السياسة في الجزائر ورأوا أن الأمة البربرية بكونها أبعد عن الاسلام من الأمة العربية تكون أكثر قبولاً للنصرانية فبثوا الدعاة والقسوس في كل مكان ولا سيما في جبل زواوة والبلاد التي يكثر فيها البربر وشادوا المستشفيات والملاجئ والمدارس الافرنسية الاكبريكية وكل ذلك على نية تنصير الأهالي وفرنستهم وتعمدوا رفع التعليم الديني الاسلامي بقدر الاستطاعة. وهذا قد أشرنا اليه في الجزء الثاني من هذا الكتاب في بحث جزائر المغرب وفي الرد على روجرلابون^(١). ولقد جدنا بعد ذلك حادث عظيم أبلغ الخلق في العالم الاسلامي منتهاه وهو أن السلطة الافرنسية أجبرت سلطان المغرب مولاي محمد الشاب لمضى أيام قلائل على توليه السلطنة أن يوقع على ظهر يلقى العمل بالشريعة الاسلامية بين البربر وباشرت ذلك بالفعل وألغت المحاكم الشرعية في قسم كبير من بلاد البربر بالمغرب وسنت لهم قانونا من العرف البربري يسرون عليه بحجة أن البرابر طلبوا ذلك.

وأصبح البربر أجنب عن الاسلام لا في الأحوال الشخصية ولا في المعاملات المدنية. وفي الوقت نفسه أصدر الفرنسيين أوامر بعدم دخول الفقهاء والقراء ومشايخ الطرق الى بلاد البربر لاجل عزل هؤلاء عن الاسلام بالمرّة وتسهيل عمل القسوس في تنصيرهم. وقد بلغ بالسلطة الافرنسية الهوس في هذا الموضوع ان أصبحوا لا يسمحون لأى مسلم من العرب أو من سكان المدن عامة تاجراً كان أو صانعاً أو زارعاً أو غير ذلك أن يدخل بلاد البربر الا برخصة خاصة ومن يقدم على الاختلاط بالبربر أو يذهب الى قراهم بدون رخصة من الحكومة يعاقب. وفي أثناء ذلك تركوا الرهبان الفرنسيين وغيرهم من الدعاة يجولون في بلاد البربر كما يشاءون ويبنون المدارس الدينية والملاجئ والمستشفيات ووقع أن مسلمي قسبة اسمها زمور كانوا مباشرين بناء مسجد لهم فمنعهم من بنائه الحاكم الافرنسي الذي يلى أمورهم وأعطى فسحة الأرض التي كانوا يريدون أن يبنوا فيها الجامع الى الرهبان لينوا فيها كنيسة. والحال أنه ليس في هذه البلدة مسيحي واحد الا الحاكم الافرنسي. ووقع أيضاً أن أناساً من البربر استدعوا اماماً يصلى بهم في رمضان فلما بلغ الضابط الافرنسي الذي في ذلك المكان هذا الأمر قبض على الامام وحبسه ثم طرده. ووقع أن بعض زعماء البربر جاءوا الى مدينة رباط الفتح لأجل طلب ابقاء قضاتهم الشرعيين فألقتهم السلطة في

السجن . وكان بعض زعماء البربر يرسلون أولادهم الى فاس ليتعلموا العقيدة الاسلامية واللسان العربى فنعوهم من ذلك وأنذروهم ان فعلوا بعزلهم عن القيادة . والحاصل أن السلطة الافرنسية باشرت عملاً كان يحلم به لافيحجرى وفوكو والآباء البيض وتستنكف الحكومة عن الموافقة عليه بصورة رسمية فهذه المرة لم تستنكف عن ذلك وحاولت تطبيق البروغرام الذى طالما حام فى خواطر الكاثوليكين الافرنسيين وأرادوا الحكومة الافرنسية عليه ولم يتمكنوا . وقد أصدرت فرنسة هذا الظهير الذى انطلق عليه اسم « الظهير البربرى » فى شهر مايو سنة ١٩٣٠ أى منذ سنتين وزيادة وكان بطل هذه المعركة المقيم الافرنسى العام فى المغرب الميسوسان الذى اشتهر بالتحامل على الاسلام وكان من قبل المقيم الافرنسى العام فى تونس وفى أيامه انعقد مؤتمر الانخار يستياً - أى استحالة الخبز والخمر بالتقديس الى جسد المسيح ودمه - فى قرطاجنة وأنكر المسلمون ذلك وعدوه مظاهرة مسيحية دينية فى بلاد اسلامية وكان للميسوسان هذا اليد الطولى فى جعل هذه المظاهرة الصليبية فى تونس ثم ان الفرنسيس رفعوا درجته وجعلوه المقيم العام فى المغرب فجمع حوله عدة من متعصبه الكاثوليك كالجندال « نوغيس » Navues والمسيو « سوردون » والمسيو « كورديه » واضرابهم واندرأوا يهيشون الطرق اللازمة لما أملوه من تنصير البربر وتحقيق حلم كان المتشددة من كاثوليك الفرنسيس يحلمون به من زمن طويل . وجرأهم على هذه الخطوة الغربية مارأوه من استنامة شيوخ المغرب والفتة المعمة الى كل ما يراد بهم وعدم معارضتهم فى قليل ولا كثير لارادة السلطة المحتلة ومن ممالاة أكثر رجال « المخزن » أى الحكومة المغربية مثل الوزير المقرئ وغيره ممن لا يفكرون الا فى ما ربههم الخاصة ويخشون على وظائفهم فيما اذا وقفوا فى وجه السلطة المحتلة . وزاد جرأتهم على العمل انهم وضعوا على كرسى السلطنة شاباً هو ثالث أولاد المرحوم مولاي يوسف لا الأول ولا الثانى وجعلوا له مرشداً جزائرياً اسمه « المعمرى » يسوق السلطان الشاب الى ترويج مرضى السلطة الافرنسية فى الدقيق والجليل بلا نزاع بل بلا تردد ويبين له انه ان أبدى أقل تلسكوا فى تنفيذ ارادة الدولة الحامية كان نصيبه الخلع والنفي وما أشبه ذلك . ولكن الفرنسيس فى هذه النوبة لم يصح حساباتهم ولا أصاب تقديرهم ورأوا من أهل المغرب فى الحركة البربرية هذه غير ما كانوا ينتظرون . وقد كان الفرنسيس أرادوا مولاي يوسف

على اصدار الظهير الذي اجبروا ابنه على توقيعه فأبى أشد الآباء فما كاد يوارى التراب حتى جاءوا يضغطون على ابنه مولاي محمد في امضاء هذا الظهير الغريب وبواسطة المعمرى والمقرى تمكنوا من مرادهم وحسب لوسيان سان هذا فوزاً مبيناً . ويؤكد العارفون انه كان بين الفاتيكان ولوسيان سان مراسلات خفية في قضية البربر وان الفاتيكان وعد سان اذا منع الاسلام من دخول بلاد البربر بدفع مبالغ طائلة نفقة بناء مدارس وكنائس ومستشفيات تبشيرية . وأخيراً صحت نيتهم على العمل وأرادوا أن يلبسوا هذه المسئلة ثوباً غير ثوبها الحقيقي وهو ان جل مرادهم بهذا الظهير هو ادخال اصلاحات عديدة واقامة البربر على اعرافهم كما يشتهون . الا ان هذا لم يقنع أحداً لأنه لو كانت المسئلة مسألة اصلاحات عديدة لكان ذلك ممكناً بدون الغاء المحاكم الشرعية التي كانت تفصل في قضايا الأحوال الشخصية ولما كانت السلطة الافرنسية تمنع اختلاط العرب وأهل الحواضر بالبربر ولا تتعرض لمنع التعليم الاسلامي واللسان العربي بين البربر وتصعد عن بناء المساجد الى غير ذلك فأهل المغرب ناروا بأجمعهم من أجل قضية البربر هذه . فقد وجدوا السلطة المحتلة لم تكف بالاستئثار باراضيهم ومرافقهم ومعادتهم وحقوقهم السياسية والاقتصادية بل مدت يدها الى دينهم الذي تعهدت فرنسة في معاهدة «الحماية» التي بسطتها على المغرب باحترامه قائلة «ان جميع الإصلاحات التي تقوم بها داخل المغرب لاتمس الدين الاسلامي في شيء ولا تجلب أي ضرر على الحالة الدينية ولا تلحق أدنى مساس بنفوذ السلطان» وعليه كانت ضوضاء شديدة لهذه القضية وأكثر ما احتاج لها الشبان والطلبة وخصبوا في جامع القرويين وجوامع اخر احتجاجاً على الظهير وطلبوا الغاءه وساروا جماعات في الشوارع صاخبين فلجأت السلطة الى القسوة وجلدت بالسياط نحو مائة شاب من الطلبة القرويين والقت في السجون مئات وقيل ألوفاً وغرقت عدة من رؤساء الحركة وكل هذا لم يفد قليلاً في تسكينها . وأوفدت فاس وفداً الى السلطان في الرباط مؤلفاً من أعيان البلدة وعلمائها وقدموا له عرض حال وبكوا على الدين وعلى مساس سلطة السلطان التي حلت محلها على البربر السلطة المحتلة . ولكن لم يكن في يد السلطان شيء . وبقى لوسيان سان متمسكاً بتنفيذ ظهيره . فوصل صريح المغاربة الى مصر والشام والعراق والهند والجاوى وغيرها وأيقن المسلمون انهم ان خنلوا مسلمي المغرب في هذه المسئلة لم يمض زمن حتى تعرضت جميع الدول المسيحية للدين

الإسلامي أما على سواء أو بخط منحني وحاولت تحويل المسلمين عنه . ولذلك نشر أعيان مضر احتجاجاً شديداً على عمل فرنسا في قضية البربر أمضاه منهم الأمير الكبير عماد الإسلام وثمال كل مستضام الأمير عمر طوسون وزهاء مائة من كبار مصر وعلماؤها وزعمائها وتوالت الاحتجاجات على فرنسا من كل فجج والى جمعية الأمم وقامت الصحف الإسلامية وقعدت لهذا الحادث . ولما انعقد المؤتمر الإسلامي في القدس الشريف في أواخر السنة الماضية أصدر قراراً بالاحتجاج على الظهير البربري وكل قانون تقصد به إحدى دول الاستعمار رأساً أو بالواسطة تحويل المسلمين عن الإسلام وأبلغه المؤتمر الى جمعية الأمم بواسطة الوفد السوري الفلسطيني في جنيف . وكان قد بسط القضية البربرية المذكورة في المؤتمر الشاب الأديب الفاضل السيد مكي الناصري الذي كان من ممثلي المغرب في المؤتمر . كما انه نشر بعد ذلك رسالة قيمة عنوانها « فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى » جمعت كل الوثائق والأدلة التي لا تقبل الرد ولا المباحكة على المراد الحقيقي من قضية هذا الظهير البربري وهو تحويل البرابر عن الإسلام الى النصرانية بطول الزمن وبقطع شأفة الشرع الإسلامي والتعليم العربي من بينهم . وكان شبان المغاربة في باريس نشروا رسالة بالفرنسية في هذا الحادث عنوانها « عاصفة فوق مراکش » Tempete sur Le Maroc فمن شاء الاطلاع الوافي على هذا البحث فليقرأ هذه الرسالة ورسالة السيد مكي الناصري المار ذكرها . وفي ٦ صفر سنة ١٣٥١ نشر كاتب هذه الأسطر رسالة في « الجامعة العربية » في القدس الشريف في هذا الموضوع آثرت أن أنقلها الى هذا الكتاب لنستغني بها عن إعادة الشيء نفسه وهي :

ان الحكومة الفرنسية عند ما تبرأ من دسيمة تنصير البربر وتزعم أنها بالغائها المحاكم الشرعية من بين البربر لم تقصد اخراجهم من الإسلام وإنما قصدت معاملتهم بمقتضى عرفهم الذي هم متمسكون به ! تدخل في مأزق ضيق لا مخرج لها منه الا بالرجوع عن هذه السياسة العقيمة السقيمة التي ثلعت اسم فرنسا في العالم وألحقت بها ضرراً كبيراً أولاً — ان مسلمي المغرب بالاجال متفقون على أن هذا الظهير لم يكن الا دسيمة لاخراج البربر من عقائدهم وأوضاعهم الإسلامية وانه ليستحيل تواطؤ أمة عدة ملايين على الكذب

ثانياً — انه من سنتين كاملتين لا تزال احتجاجات أهل المغرب متواصلة منها ما هو

بتلاوة الأدعية العامة في المساجد ومنها بالخطب ومنها بالكتابة في جرائد فرنسة ومنها بنشر كتب خاصة بالفرنسية وبالعربية ومنها بتوزيع منشور بين الأهالي ومنها بغير ذلك .

ثالثاً — قد ضرب من أجل القيام على هذا الظهير نحو من مائة شاب من طلبه القرويين بفاس وجلدوا بالسياط جلداً مبرحاً وحبس مئات في فاس والرباط والدار البيضاء ومكناس ونفي عدد كبير من الوجوه والطلبة والادباء ولا يزال بعضهم منفيين الى هذه الساعة ويستحيل أن يكون كل هذا من أجل محض توهم .

رابعاً — قد تألف وفد بعد صدور الظهير بشهرين وذلك من أعيان فاس وعلمائها وتجارها وقصدوا السلطان في الرباط وشكوا له من هذه الفادحة التي فيها ما فيها من الخطر على الدين الاسلامي في المغرب وعلى سلطنة السلطان نفسه وأبدوا له ما فيها من التناقض مع تعهد فرنسة في المعاهدة الافرنسية المراكشية باحترام الدين الاسلامي وأوضاعه وقدموا له عريضة وصلت اليها صورة فوتوغرافية منها فنشرناها في مجلتنا « لانايسون آراب » في العدد الثامن من اعداد سنة ١٩٣٠ وشاع يومئذ ان السلطان الشاب كان يبكي مما سمعه من وفد فاس ولكنه لم يقدر على شيء كما لا ينبغي

خامساً — لم يكن المسلمون وحدهم هم الذين شهدوا بأن قضية الظهير هي قضية مقصود بها اخراج البربر من الاسلام ، بل شهد بذلك عدد كبير من كتاب الفرنسيين أنفسهم من الأحرار ومن ذوى الوجدان لأن في هذه الأمة من الشرف والنزاهة وحرية الفكر ما لا ينكره أحد ، ولم يكن هؤلاء الذين كتبوا واحتجوا في الجرائد هم الاثرا كيين فقط بل احتج على قضية الظهير البربري رجال ليس بينهم وبين الاثرا كيين أدنى صلة مثل المسيو اوجين يونغ ومثل المسيو دريمغهم العالم الفاضل الذي هو محدود من كتاب المسيحيين . . . وقيل لى ان المستشرق الشهير المسيو ماسينيون وهو كأثوليكي النزعة أيضاً يريد خلاص فرنسة من قضية هذا الظهير الذي شان سمعته

وكل من يحب فرنسة ويحب كرامتها لا يرضى لها بهذه الدسيسة البربرية التي جررها اليها المسيو سان وبعض أشخاص من الفئة الاستعمارية الذين يقولون بقول الكردينال لا فيجري وأمثاله بأنه لا يمكن أن تأمن فرنسة على شمال افريقية الا بتحويل مسلمي المغرب الى الدين المسيحي . . . ان هذه المبادئ لو أعلنت في القرون الوسطى لأنكرها

الناس وأكبروها فكيف في هذا العصر وانه ليستحيل على المسلمين أن يرضوا بتعرض
فرنسة للدين الاسلامي في المغرب لأن المسلمين لو قدر وسلعوا كل شيء يملكونه على وجه
الأرض فان أمرين لا يتساهلون فيهما أبداً ما دام في الدنيا مسلم واحد وهما عرضهم ودينهم
سادساً — انه غير معقول وغير متطابق وغير منطقي أصلاً قول الحكومة الافرنسية
اننا نحن لم نقصد اخراج البربر من الاسلام وانما ألقينا المحاكم الشرعية من بينهم نظراً
لتمسكهم بعرفهم ! فان المسلم لا سيما في الأحوال الشخصية لا يكون مسلماً الا اذا اتبع
شريعة الاسلام وما دام البربر يقولون انهم مسلمون فلا بد من أن يكون لهم قضاة مسلمون
والا فيكونون معدودين قد خرجوا من الاسلام أو يكون المقصود تهينة خروجهم منه
ويكون بقاؤهم على الاسلام بالاسم موقفاً الى أن يكون انقراض منهم طبقة البالغين الحاضرين
سابعاً — لنفرض الحال وان الغاء المحاكم الشرعية لايعنى به الغاء الاسلام من أصله
فنجب أن نسأل الحكومة الافرنسية ماعنى منع فقهاء المسلمين وحفاظ القرآن الكريم
والأئمة والمؤذنين وكل خادم للدين الاسلامي من التجوال في بلاد البربر ؟ فان هذا المنع قد
وقع فعلاً وكان كل انسان يريد الذهاب الى قرية من قرى البربر لشغل خاص أو لتجارة
أو أى عمل من الأعمال لا يؤذن له في الذهاب الى هناك الا بتذكرة جواز يعلم عليها. وقد شددت
الحكومة الافرنسية في المغرب في هذا المنع تشديداً ارتفع به عويل الناس الى السماء لأن
البلاد مختلطة بعضها ببعض وعلاقات العرب والبربر وأهل المدن متشابكة وبرغم هذا كله
بقى المسيوسان مصراً على منع الاختلاط بين العرب والبربر ولم نسمع انه بدأ الناس يجولون
في القطر المغربي بدون تذاكر جواز وعاد مشايخ الدين وحملة القرآن يترددون الى قرى
البربر التي كانوا يترددون اليها الا منذ عهد قريب وذلك أيضاً تحت المراقبة

ثامناً — بمقابلة منع الفقهاء وحفاظ القرآن من التجول في بلاد البربر كان القسوس
والمبشرون قد ملأوا السهل والوعر وباشروا بناء الكنائس والمدارس وذلك في أما كن
ليس فيها مسيحي واحد وقد حصل ان أناساً من البربر كانوا يريدون بناء مساجد جمعوا لها
أموالاً فأوقفتم السلطة الافرنسية عن بنائها. وحصل أيضاً، وعندنا اسم المكان والحاكم
الذي فعل ذلك، ان أهالي قصبة كانوا مباشرين بناء مسجد في أرض خاصة بالوقف الاسلامي
فمنعهم الحاكم الافرنسي الذي بتلك القصبة من البناء وأعطى قطعة الأرض نفسها للرهبان

الفرنسيسكانيين وبنوا فيها كنيسة وهذا وليس في تلك القصة التي يقال لها زمور مسيحي واحد . ان الفرنسيين يحتاجون على عملهم هذا بكون الأتراك الانقريين أبطالوا العمل بالشريعة الاسلامية وانهم هم لا يجب عليهم أن يحافظوا على الشرع أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم ، والجواب على هذا ان الأتراك وان كانوا خالفوا الشريعة في بعض القوانين التي أدخلوها في حكومتهم فلا يزال أهالي تركيا مسلمين ولا يزال لهم رئاسات دينية في كل بلدة ولا يزال المفتون هم المنفذون للشريعة والحكومة تمنع اية دعاية دينية مسيحية بين المسلمين كما تمنع أية دعاية اسلامية بين المسيحيين أو اليهود فالمسلمون في المغرب لا يحاولون بث الدعاية الدينية الاسلامية بين المسيحيين ولكنهم يطالبون فرنسا بعدم ترويج الدعاية الدينية المسيحية بين المسلمين وعدم حمايتها بالقوة العسكرية والسياسية فان فرنسا تزعم انها دخلت المغرب لأجل أن تحمي السلطان وتحافظ على الدين الاسلامي وشعائره وهذا صريح في المعاهدة التي وقعت بينها وبين مولاي عبد الحفيظ والحال اننا نراها اليوم كأنها انما دخلت لترويج دعاية دينية كاثوليكية وتحميها بالقوة السياسية والعسكرية . وغريب جداً ان أمة تعد نفسها في مقدمة الأمم المتمتدة تنقاد الى سياسة كهذه ارضاء لخواطر بعض الاكبريكيين من الفئة الاستعمارية .

تاسعاً — ان المؤامرة في قضية الظهير البربري لم تقع على الدين الاسلامي وحده بل على الثقافة العربية بأجمعها فانهم منعوا التعليم العربي بين البربر بتاتاً وقد ثبت أن بعض زعماء قبائل البربر كان لهم أولاد يتعلمون العربية في فاس فأندروهم بسحب أولادهم من هناك أو يقطعوا لهم روايتهم وقد ثبت أيضاً انهم لا يريدون ان يتعلم البربري الا اللغة البربرية وبجانبها اللغة الفرنسية فقط وهذا كما ثبت ان بعض زعماء من البربر جاءوا الى الرباط يلتمسون ابقاء القضاء الشرعي في ديارهم فقبضوا عليهم والقوهم في السجون ارباباً لهم ولغيرهم وسدأ لهذا الباب .

عاشراً — ان كثيرين من الافرنسيس كانوا لا يصدقون باجراء هذه السياسة المقصود منها تحويل البربري عن الاسلام ويعتقدون ان المسئلة عبارة عن اصلاحات عدلية عماله عادة ان يجري في تركيا ومصر اللتين أدخلتا في بلادهما كثيرا من القوانين الاوربية . ولكن لما مضى على ذلك زمن واطلعوا على الحقيقة وعرفوا ان المسئلة ليست مسألة

اصلاحت عدلية وان كل المقصود هو انسلاخ الامة البربرية من الدين الاسلامي ، ولما كان التعرض للاديان من الامور التي يستقبلها الرأي العام بأسره والتي هي مخالفة للدستور الافرنسي فقد شرعوا يقبحون هذه السياسة في المغرب وقد اطلعنا منذ أشهر على مجلة راديكالية تطالب الحكومة بالرجوع عن هذه السياسة وتقول ان فرنسا لم تكن قط دولة دينية ، بل حرية الاديان فيها مقدسة . وأخيراً اجتمعت الشعبة الخامسة من جمعية حقوق الانسان في باريس وقررت ما يلي :

« ان الشعبة الخامسة من جمعية حقوق الانسان بعد أن اطلعت على ماجريات القضية البربرية وعرفت ما حصل في المغرب على أثر الاحتجاجات التي قام بها الاهالي على الظهير الصادر في ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ طلبت من اللجنة المركزية ان تسعى لدى الحكومة الافرنسية في المغرب بتخلية سراح المنفيين محمد اليزبدي وعبد اللطيف الصبيحي وعبد اللطيف العتابي ومحمد شماعو الذين أبعدها بسبب القضية البربرية وبالاحتجاج على خطة السلطة الافرنسية في المغرب بتكافلها مع الرهبان الفرنسيين في تعرضهم للاسلام مما أقام العالم الاسلامي كله على فرنسا . وان الشعبة المذكورة تطلب من جميع جمعيات حقوق الانسان الفرنسية أن تقوم عصبة واحدة وتذكر الحكومة الافرنسية بان حرمة العقائد والضمائر ينبغي أن تكون أساساً لعلاقات فرنسا مع جميع الامم من كل الاجناس والاديان وان تحتج على سياسة الادمج التي هي جارية في المغرب وذلك بناء على أنه من الحق الطبيعي لكل شعب أن يترقى ضمن دائرة ثقافته الخاصة »

فن هذه الأسباب كلها نقول ان سياسة فرنسا في القضية البربرية كانت سياسة تهور جلها عليها ماجد بعد الحرب العامة من الاعتقاد عند بعض الاوربيين ان سياج الاسلام قد انخرق بتمامه ولم يبق مانع من مد اليد الى دين المسلمين كما امتدت الى دنياهم . وهذا خطأ عظيم أساسه جهل الاوربي بحقائق أحوال العالم الاسلامي مهما زعم انه مطلع عليها . ومن حيث انه كما قلنا نجد كثيراً من الافرنسيين حتى من غير الاحزاب الاشتراكية يستنكرون هذه السياسة البربرية ويودون لو ترجع حكومتهم عنها ، فقد صرنا بعد فوز الفرق الشمالية في الانتخابات نرجو ان تتألف حكومة راديكالية تبتعد عن الصبغة الاكيريكية أكثر من الحكومات السابقة وتقضي على هذا الظهير البربري الذي ألحق

باسم فرنسا عيباً كبيراً وآسف كل محيبيها

ومن قبل ان تأتى هذه الحكومة الجديدة وصلت الينا معلومات جديرة بالتأمل وهى مطابقة لما كنا نعتقده من ان الحكومة الافرنسية لابد أن تعود الى التبصر ولن ترضى لنفسها بهذه الضوضاء القائمة حول الظهير البربرى وذلك ان نظارة الخارجية الافرنسية قد استفتت بعض العلماء المتخصصين فى الامور الاستعمارية وسألتهم عن رأيهم فيما يجب أن يكون العمل به فى العداية البربرية وعلمنا ان من جملة من استفتتهم فرنسا العلامة سنوك هوركرونىيه المستشرق الهولاندى الشهير المعدود الآن رأس المستشرقين فى أوروبا فقد سأئنه هكذا: «ماذا كان موقف الحكومة الهولاندية أمام القانون العرفى المعروف عند الاهالى بالعادات فى الجاوة وماقولكم فى جمع عوائد البربر بشكل قانون وتطبيقها عليهم مع العلم بانهم مسامون لاشك فى اسلامهم ؟ »

فاجاب الأستاذ هوركرونىيه بتقرير طويل قائلاً فيه : « ان هولاندا لم تحاول قط أن تجعل من العادات الأصلية القديمة قوانين رسمية تعاقب من يخالفها وجل ما عملته فى هذا الباب أنها جمعت فى بعض النواحي طائفة من العادات وأعطتها اسم قانون خاص Gode Privé ولم تجبر الاهالى على الخضوع له . أما فى القضية البربرية فان جمع عوائد البربر بشكل قانون ومحاولة تطبيقها يعد خطأ فاحشاً وذلك أن الفائدة هى فى تحويل العرف وتطبيقه على روح المجتمع الحاضر فاما اذا جمعت تلك العوائد وجعلت قانوناً فانها تصير عقبة فى وجه ترقى المجتمع لأن العرف البربرى هو عبارة عن عادات وأوضاع نشأت فى وسط متأخر بسيط فتطبيقها الآن بعد أن ارتقى المجتمع وكثرت المعاملات واشتبكت المصالح وصار البربر أهل عقار وتجارة هو مما يرجع بهذا القوم الى الوراثة وقد يضر الفرنسيين أيضاً . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان وسطاً متدينا كالوسط المغربى لا يفيد فيه القانون له صبغة مقدسة بحيث يعد خرقه جريمة لا أمام ضمير الانسان فقط بل أمام الله تعالى . وليس العرف البربرى بذى صبغة دينية بل هو ، مع تأخره وسذاجته وعدم موافقته لمجتمع راق ، فاقد الصفة المقدسة التى تجعل من خالفه يخاف من ربه » وقال العلامة هوركرونىيه : « ان من مصلحة فرنسا الحقيقية أن لا تحكم فى المغرب الا بالقانون الذى له أكبر حرمة فى نفوس أهل المغرب والذى هو مرتبط بعقيدتهم الدينية وان بذلك لو تأملت فرنسة زيادة فى تأمين

حقوق المستعمرين . »

فلمجلسة المصالح الإسلامية في الخارجية الفرنسية نصحت الميسوسان المقيم العام في المغرب بالرجوع عن خطئه واستشهدت له بما فعلته هولاندا في الجاوة . فكان جواب الميسوسان بالاصرار على تطبيق الظهير البربري زاعماً أن هولاندا طبقت العوائد القديمة على كثيرين من مسلمي الجاوة وتأتى لها ذلك . وحقيقة الحال أن هذه المحاولات ان كانت من فرنسا أو من هولاندا هي صادرة عن مبدأ واحد وهي محاربة الشريعة الإسلامية التي تزرع في قلوب المسلمين روح الاستقلال . ولكن لا فرنسا ولا هولاندا تجنى من هذه المحاولات سوى عداوة الاسلام ويجوز أن تكون هولاندا في بعض أماكن من الجاوة قد أرادت أن تجرب هذه التجربة من بعد ما بدأت بها فرنسا في المغرب لا من قبل ذلك ، نستدل على هذا من الاحتجاجات التي حصلت من مسلمي الجاوة في المؤتمر العظيم الذي عقده مؤخراً والذي احتجوا فيه أيضاً على عمل فرنسا في المغرب (١)

فالمسلمون غير مخطئين في خوفهم من التساهل مع فرنسا في القضية البربرية لأنها قضية متعلقة بالدين الإسلامي فإذا ساغ لفرنسا أن تقطع وتصل فيما يتعلق بالدين الإسلامي في شمالي أفريقيا لم تبق دولة أوربية لها رعايا مسلمون الا حنت حذوها وربما زادت عليها ومن المعلوم أن ثمانين في المائة من الثلاثمائة والخمسين مليون مسلم الذين على وجه الأرض هم رعايا لدول غير إسلامية . فإذا بدأ البشق الديني كما بدأ البشق الديني ولم يصدده المسلمون من الآن بكل شدة كان الخطر على الأمة الإسلامية باجمعها أكثر مما يتصور المتصورون وذابت ذوباناً في الأمم الأخرى بعد أن كان القرآن لها جامعاً مانعاً

حدانا الى هذه المقالة ما نأمله من الحكومة الفرنسية الآتية قريباً من المحافظة على شرف فرنسا والرجوع مع الاسلام الى السياسة التي تزول بها هذه الضوضاء القائمة من أجل قضية البربر وبهذه المناسبة نوصي القراء بمطالعة الرسالة الأخيرة التي ظهرت في هذه المسألة تحت عنوان « فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى » المتضمنة تقريراً مقدماً الى المؤتمر الإسلامي العام وجميع مسلمي العالم من اللجنة الشرقية للدفاع عن المغرب والمصدر بمقدمة لندوب الأمة المغربية في المؤتمر الإسلامي السيد محمد المنكي الناصري الذي شفا

(١) اقرأ جريدة حزموت عن جلسات هذا المؤتمر

الغليل من هذا الموضوع بحسن بيانه وقوة برهانه وبالوثائق التي لا تمكن المكابرة فيها وبأدلة لا يستطيع الخصم نفسه أن يمارى في شئ منها . فعسى أن الحكومة الافرنسية الجديدة تتوخى في هذه المسألة الخطة التي ترضى العالم الاسلامي وتحفظ المبدأ العام الذي انفقت عليه الأمم والاقوام من عدم المساس بالاديان وتلقى الظهير البربري الذي تدهورت فيه بدلالة أناس اكبريكيين كان من أقبح الآراء أن يمهّدوا اليهم بالادارة في بلاد اسلامية . « انتهت المقالة »

فمن كان يظن أن حكومة تقول انها لادينية وتدير أمة راقية من أرق الأمم كالأمة الفرنسية ترضى لنفسها ولأمتها بالسير على خطة دينية تبشيرية مخالفة للنزاهة وللحرية الدينية المقدسة ولعهود فرنسة نفسها . ومن كان يظن أن لوسيان سان وهذه الزمرة التي حوله يتغلبون على الحكومة الافرنسية الراقية ويسوقونها الى ما لا يليق بسمعتها فضلاً عما يضر بمصلحتها

وهذا كله انما هو راسخ من بقايا المبادئ الصليبية القديمة التي لم يتمكن العلم العصري من اقتلاع جذورها من رؤوس الاوربيين لا سيما الأمم اللاتينية منهم وتأمل في الأعمال التي أقدمت عليها ايطالية في طرابلس الغرب والموبات التي ارتكبتها جنودها منذ عشرين سنة في ذلك القطر البائس^(١) مما لم يسبق له مثيل الا في القرون الوسطى وقد يكون من باب النادر في القرون الوسطى نفسها

ومن جملة ذلك أنهم أخرجوا ثمانين ألف عربي من الجبل الأخضر من أوطانهم البديعة وأراضيهم المريعة وأسكنوهم في صحراء قاحلة من أرض « سرت » وأماتوا بذلك جانباً كبيراً منهم وجميع مواشيهم وارتكبوا في هؤلاء المساكين من الفظائع والشنائع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وأخيراً اغتصبوا من أيديهم أطفالهم من ذكور واناث ممن فوق سن الأربع الى سن ١٥ سنة وجلوهم الى ايطالية لأجل تنشئتهم في الدين المسيحي وهذا برغم آبائهم وأمهاتهم وبرغم الصراخ الذي ملاء القضاء في ذلك اليوم . وقد فصلوا الطفل عن أبيه وأخذوا الطفلة عن ذراع أمها ولم ترق قلوب الطليان لبكاء ولا لعويل ولا تأملوا في عار ولا شئ ولا في مخالفة هذا العمل لحقوق الأمم التي لا تجعل للحكومة سلطة

(١) راجع رسالة الفظائم السود الحمر أو التمدين بالحديد والنار التي انتشرت في هذه السنة

على القاصرين في وجود آبائهم وأمهاتهم ولا في مخالفته للعاهدة التي بين تركيا وإيطاليا على طرابلس والتي تعهدت فيها إيطاليا بحفظ حقوق المسلمين في عقائدهم وأعراضهم ودمائهم وأموالهم . وأغرب من هذا كله أنهم يعترفون بعملهم هذا ولا يرجعون عنه وتفتخر به حكومة الفاشيست في مجلس الامة الطليانية وتصدر به القرارات وتنتشر في الجرائد . وقد عم الصريح العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه بما جرى من الطليان على مسلمي طرابلس وملاّت الاحتجاجات رومة وجنيف وغيرهما ولم يزل الفاشيست على غيبيهم ولم يزل العرب المطرودون من الجبل الأخضر ساكنين في بادية سرت ورواية جرائد إيطاليا هي أن منهم خمسة آلاف نسمة أذنت لهم الحكومة في الرجوع الى بيوتهم . وما كان المقصد من اقصاء هؤلاء الثمانين ألفاً من العرب الا أخذ أراضيهم وتسليمها للمستعمرين الطليان يتمكنون منها ولا ينازعهم أحد

انا اذا تأملنا في هذه الاعمال وعلما أنها صادرة من أمم تزعم أنها تريد أن تلتقي دروس التهذيب على العالم وجدنا أن أعرق الامم الاسلامية في العبادة والبدادة لا تنزل الى مثلها . فلا وجه اذاً للمقايسة بين العالم الاسلامي والعالم المسيحي في التسامح وعدم التسامح . ان الاستبداد المطلق لا سيما في الدين هو منزع أوربي محض ولا يقاس المسلمون بالاوربيين في هذا الامر في قليل ولا كثير

ولم يستطع الفيلسوف الافرنسي ارنست رنان Renan انكار ذلك لكنه حاول نعليه بكونه تراناً مسيحياً أخذه النصراني عن اليهود . قال في الصفحة ٢٣٨ من « حياة يسوع » طبعة سنة ١٩٢٥ ما يلي

« نعم قد كانت المسيحية غير متسامحة في الدين ولكن عدم تسامحها هذا لم يكن مسيحياً في جوهره بل هو وضع يهودي فان اليهود هم أول من قرروا الحصر المطلق في الديانة وزعموا أن كل مبتدع ولو جاء بالمعجزات أدلة بين يديه تجب المسارعة الى رجه وبدون محاكمة . ولا انكار أن العالم الوثني كان أيضاً غير متسامح احيانا لكن لو كانت عنده هذه القاعدة لما كان ممكناً أن يتنصر . فاليهودية هي التي أعلنت عقيدة سرمدية مسلحة بالسيف . فلو كانت النصرانية لم تتابع اليهود في بغضائهم العمياء ولو كانت الغت ذلك النظام

الذي كان السبب في موت مؤسسها لكأن بدون شك أثبت مبدأ ولنفعت النوع الانساني
أكثر بكثير» اهـ

ونحن لا نوافق رنان على هذا التعليل من جهة حصر منشأ هذا التعصب الاعمى في
تراث المسيحيين عن اليهود . بل نقول ان أعظم السبب فيه هو الغريزة الاوربية المبنية
على الأثرة والطمع والجشع وحب التسلط في كل شئ مما يثبت بالحروب الكثيرة الاوربية
التي منشؤها الاطماع وناهيك بالحرب العامة شاهداً . فالنصرانية كانت دين سلام ورفق وحلم
وتوصية بالقرب و بقاء على الحزين وفيها هذا المبدأ الشريف : « أحبوا أعداءكم فان
كنتم تحبون أصدقاءكم فأنتم فضل لكم » فلما دانت بها الامم الاوربية تلونت بلون الآنية
التي انصببت بها واتقلبت الى ما نراه عليه الآن من الاستبداد والحصر وامتاز أتباعها من
الاوربيين لا سيما اللاتين بشدة العداوة والشنآن خلافا لما كان يأمر به السيد المسيح على
خط مستقيم

مباحث اجتماعية

تدخل في غرض هذا الكتاب

الشيخ

خلط الاوربيين في قضية الشرع الاسلامى ورميهم إياه بالوجود
لتعلقه بالمعاد والمعاش معاً

قرأنا وقرأ غيرنا وما زلنا نقرأ هذه الخرافة التي معناها أن سبب تفهقر المسامين هو
الشرعية الاسلامية بسبب كونها أحاطت بامور المعاد والمعاش معا وجاءت بأحكام سرمدية
لا تتغير ولا تبدل وقضت بتطبيقها في كل زمان ومكان بدون نظر الى اختلاف الأزمنة
والأمكنة الى غير ذلك من الأقاويل التي منهم من يلقفها من دون روية ولا انعام نظر ومنهم
من يعلم سر المسئلة لكنه يتجاهل ذلك عمداً كراهية منه للاسلام وعملاً لهدمه ، ومنهم
من يرويه كحكاية حال ويظن أن لهذا الأمر بعض التأثير في الحالة التي آل اليها المسلمون
وهؤلاء كصاحب كتاب « مائة مشروع لتقسيم تركيا »

وأغرب من هذا أن بعض المسلمين الجغرافيين وفي طليعتهم الأتراك الانقريون
شيعة مصطفي كمال قد وافقوا هذه الفئة من الأوربيين على مزاعمها هذه وذهبوا الى أن
تأخر الممالك الاسلامية وتأخر تركيا انما جاء عن اختلاط أمور الدين بالدنيا وعن عمل
المسلمين بشرع سماوى أرادوا أن ينفذوه مفرداً وأن يجعلوه سرمداً وأن يردوا اليه كل شيء
ولهذا كان لا مندوحة للامم الاسلامية بزعمهم اذا أرادت الرقي في معارج الفلاح من أن
تنبذ هذه الشريعة القديمة البالية التي أصبحت لا تصلح لعصر كعصرنا هذا ولا مفر لها من
الأخذ بشرائع وقوانين انما صلحت لهذا العصر لكونها وُضعت بهذا العصر . وطابت
للاترك الكمايين كلمة أخذوا يلوكونها بألسنتهم ويظنون أنهم أتوا فيها بالقول
الفصل ! وهى : « نحن لا نريد شرعاً فيه قال وقالوا ولكن شرعاً فيه قلنا ونقول » . وطاب

لمقلدة الاتراك الانقريين من أهل مصر وغيرهم وان كانوا نزرأ في عددهم أن يرددوا ما يردده الكالميون بدون تأمل في حقائق الامور ولا في حقائق تلك الالفاظ التي يلوكونها وحقيقة الحال أنه ليس في الدنيا شرع ولا قانون يخلو من « قال » و « قالوا » ولا يستقي في منابعه الى قواعد وأوضاع وأقوال سبقت منذ مئتين من السنين وربما من آلاف من السنين .

فكون الانقريين عملوا بمقتضى « قلنا » و « نقول » وأرادوا مساوقة العصر الحالى هو غير صحيح . وهم ما أرادوا الا « التفرنج » لا غير . ولم يكن عمل الاتراك بمجلة الاحكام العدلية هو الذى منع تركيبا من الرقى بل كان عملها بمجلة الأحكام العدلية فى المعاملات المدنية هو عين الحكمة والصواب لان القاعدة فى القوانين هى أنها لا تفيد الا اذا كانت مطابقة لأذواق الأقسام التى تطبق فى محاكمهم وموافقة لمشاربهم وعاداتهم وأخلاقهم .

فعمدنا أخذ الاتراك بقانون سويسرة المدنى وبقانون الجزاء الايطالى أخذوا بقوانين بعيدة عن عقليتهم وذوقهم ومنازعهم ومشاربهم بعد المشرق عن المغرب وما اخلم استفادوا منها شيئاً الا التحير فى القضاء والصعوبة فى التطبيق وقد بلغنى أنهم اضطروا فيما بعد لتعديلات كثيرة فى هذه القوانين بعد ان كانوا قباوها على علائها وحاولوا تطبيق قوانين جارية فى زوريخ وبرن على أهالى وان وبتلس ومعمورة العزيز

فأما خلو القوانين التركية الجديدة من « قال » و « قالوا » فقد كفانا اظهار ما فى ذلك من السفسطة « موريس برنو » Pernot الكاتب الافرنسى فى رحلته المسماة « فى أسية الاسلاميه » على كون هذا الكاتب المفكر هو من أشد الاوربيين ابتهاجاً بخلع أنقرة للتقاليد والقواعد الاسلاميه . لم يلم الاتراك الكالميين على العمل بقوانين أوربية وانما اتقد زعمهم أنهم انما أخذوا بقوانين لا تستند على أقوال ماضيه .

فى الصفحة ١٩٠ من كتابه هذا يذكر برنو جلسة فى مجلس النواب بانقرة ألقى فيها الغازى مصطفى كمال خطبة فى معنى التجدد قال فيها : « ان التشريع والقضاء فى أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لاحوال الزمان لا للبادئ ولا للتقاليد » قال برنو : « وبعد رئيس الجمهورية قام محمود أسعد بك ناظر العدلية ورقى المنبر

وقال : « ان الشعب التركي جدير بان يفكر بنفسه بدون أن يتقيد بما فكر غيره من قبله . وقد كانت كل مادة من مواد كتبنا القضائية مبدوءة بكلمة « قال » المقدسة . فاما الآن فلا يهمنا أصلاً ماذا قالوا في الماضي بل يهمنا أن نفكر نحن وان نقول نحن » وقد قوبلت هذه الجمل بعد كلام الغازي بابتهاج شديد وأشد من رأيته مبتهجا بها أحد أغايف القوقاسي ويونس نادى ومختار بك وذلك لأن هذه الافكار هي أفكارهم وفي تصفيقهم كانوا يصفقون لفوزها » قال موريس برنو :

« الا أن هذه القضية التي قررها الغازي ومحمود أسعد فيها نظر . فاذا نظرنا الى القانون المدني الذي استعارته تركيا من سويسرة فهل يجهل مصطفى كمال أن هذا القانون ناشئ عن منبعين أحدهما روماني والآخر مسيحي ؟ وهل يجهل الدور الذي تلعبه في هذه القوانين العادات القديمة والعرف الجاري الذي يريد هو الغاءه ؟ لعمرى أن كنا نريد أن نأخذ بمبدأ الغازي هذا لزم أن نقول أن على أهل كل عصر أن يلغوا الاحكام القضائية التي كان يعمل بها أهل العصر الذي سبقه وان لا يعملوا الا باحكام جديدة بحجة أنها أوفق للزمان الذي يعيشون فيه » . اهـ

ان موريس برنو هو من الفئة التي استحسنت كل ما فعلته أنقرة من الخروج على العقائد والقواعد الاسلامية ومع هذا فلم يقدر أن يهضم هذه السفسطة التي معناها أن القوانين العصرية لا يجوز أن يكون فيها مبادئ وأصول قديمة . وان هذا القانون المدني السويسري التي اتخذته تركيا لنفسها يتضمن أصولاً وقواعد ترجع ان التشريع الروماني القديم فهي أقدم عهداً من الفقه الاسلامي الذي يزعم مصطفى كمال أنه الغاه بسبب توغله في القِدَم (١)

وأما قانون العقوبات الايطالي الذي اتخذته تركيا لنفسها أيضاً فهو قانون روماني مسيحي وايطالي كاثوليكي وفيه من الاوضاع اللاتينية القديمة والاعراف المسيحية الموروثة ما لا ينكره الا المكابر فكيف يكون مصطفى كمال سير أمته على نهج عصرى محض لا مدخل فيه لقال ولقالوا ولا رأى عتيق ؟ ولقد نسى الغازي أن القوانين ينبغى أن تكون لا وفقا للزمان فقط بل للكان أيضاً وان بين المكانين تركيا وسويسرة واطاليتة

(١) فكيف يكون القديم مكروهاً منبوذاً والأقدم منه مقبولا معولا عليه في وقت واحد .

بونا شاسعا في المشرب والمذهب والعرف والعادة . وناهيك أن جميع سويسرة بلاد مرتبطة بعضها ببعض وسكانها لا يبلغون أربعة ملايين وهم لا يزالون غير متفقين على قانون واحد بل تجدد في المقاطعة الواحدة قانوناً غير قانون المقاطعة الثانية وذلك بحجة اختلاف الاعراف والعادات بين المقاطعتين . فاذا كان هذا هو تأثير الخلاف بين مقاطعة ومقاطعة في سويسرة فكيف تكون لعمرى درجة الاختلاف بين سويسرة وتركيا . واذا كان القانون الذى تمشى عليه جنيف لا يوافق أهل لوسرن مثلاً وكل المسافة التى بينهما بضع ساعات فكيف يوافق قانون سويسرة أهالى ديار بكر وسيواس وقره حصار مع أنك اذا عرفت هذه وعرفت تلك ظننت أن الارض غير الارض والسموات

ان الذى قصده مصطفى كمال ورهطه لم يكن سوى مجرد التفرنج وان تفهم أوربة انهم هم نبذوا التقاليد الاسلامية ورموا بالشريعة القرآنية عرض الحائط وأقاموا مقامها قوانين أوربية . وليس أدل على ذلك من كون المجلس الانقضى يوم قرر اتخاذ قانون سويسرة المدنى قرر قبوله بأصباره بدون مناقشة ولا تعديل وبقيت قضاة تركيا مدة طويلة لا تكاد نفهم من هذا القانون شيئاً . وما باسروا تعديل القانون السويسرى الذى اتخذه قانوناً مدنياً الا بعد اتخاذه بضع سنوات . أما قانون العقوبات الابطالى الذى اتخذه للأمور الجزائية فان ايطالية نفسها عادت فأدخلت فيه تعديلات توخت فيها زيادة المطابقة بينه وبين مبادئ الكنيسة

وسواء كان هذا أو ذاك فليس فى أوربة قانون غير متأثر بالتعليم المسيحى والتشريع الرومانى . وعليه يكون من الخطأ البين الاعتقاد بأن القوانين الأوربية هى كلها من باب التشريع الانسانى الصرف وأنه لا مدخل فيها للمبادئ الدينية ويكون تحكما القول بأن الشريعة الاسلامية وحدها هى التى جمعت بين أحكام الدنيا والآخرة ! ومن طالع الشرائع الانسانية عرف أنها بأجمعها سماوية بشرية أى أنها راجعة الى أصول دينية وإجتهادات بشرية معلقة عليها . وليس الشرع الاسلامى وحده ناصاً على أمور الدنيا والآخرة بل الشرع الموسوى أيضاً وديانة سيوا التى هى عقيدة أهل الهند وديانة بوذا التى هى عقيدة أهل الصين . وأما الانجيل فليس كتاب تشريع وانما هو كتاب مواعظ وآداب أراد بها السيد المسيح صلوات الله عليه تهذيب النفوس وتطهير الأخلاق واعادة الخلق الى روح

الشريعة الموسوية فلم يرد الاتيان بشرع جديد لكنه نبه على وجوب اتباع الشرع القديم فالعهد الجديد اكمال للعهد القديم لا نقض له كما صرح بذلك المسيح نفسه . فيكون الانجيل أيضا لم يخرج عن الشرع السماوي وتكون دعوى بعضهم من أن الانجيل لم يتعرض لأموال الدنيا غير صحيحة . وبعبارة أخرى اذا نظرنا الى الحقيقة نجد الشرائع كلها راجعة الى أصل سماوي ولكن قد فرغ الناس منها بقدر الاستطاعة وبحسب احتياجاتهم وبعد التجارب المتعددة ومع مراعاة الأزمنة والأمكنة وأخذ بعض الناس في هذا عن بعض فكل قبيل قديلا فيما هو موافق لحاله ونبذ ما هو غير موافق لحاله وجميع المشترعين انما يقصدون الرفق بالعباد وحيطة الحق ما أمكن ويرمون الى غرض واحد هو مصلحة الأمة . وهذا ما يسميه المسلمون بالاجتهاد وقد بلغوا فيه ما لم تبلغه أمة قبلهم ولا بعدهم وقد عظم على من تضيق صدورهم بالاسلام أن يكون فقهاء الاسلام بلغوا من الاحاطة بالنوازل البشرية وتبيين وجوه أحكامها ما بلغوه فزعموا أن أئمة الاسلام انما أخذوا مأثورا به عن الفقه الروماني . وهذا من أغرق المزاعم في الباطل ولقد تقدم لنا في هذا الكتاب البحث في هذه المسئلة ونقلنا فيها كلام العلامة صاوا باشا الرومي الذي فنّد هذا الزعم وأثبت كون أئمة الاسلام انما فرغوا على أصلين هما القرآن والحديث ولكنهم أضافوا اليهما الاجماع والقياس فتوسعوا في الفقه ما ندر أن يكون تيسر لغيرهم وكل من زعم ان الفقه الاسلامي مأخوذ من الفقه الروماني لا يكون اطلع على شيء من تاريخ الرسول ولا أصحابه ولا التابعين . فالشرع الاسلامي هو شرع سماوي باعتبار الأصل وتشريع انساني باعتبار الاجتهاد والتفريع . وكذلك القانون الروماني نفسه بعد ظهور النصرانية تلوّن بلونها . وصاوا باشا يقول طبق ما أسلفناه في أول هذا الفصل وهو : ان السيد المسيح قد اقتصر على الوعظ بأداب عالية كانت أعلى من كل ماعهده البشر من نوعها ولكنه لم يقصد تبديل الشرائع التي كانت موجودة في عصره وانما تأثر الفقه الموسوي والفقه الروماني باللعقيدة المسيحية التي كانت قد بدأت تنتشر في المجتمع وما كان لشرعية قوم من الأقوام الا أن تتأثر بديانتهم . فالآداب المسيحية قد كان لها تأثير عميق في الفقه « الروماني البريتوري » وأما الفقه اليوستنياني (١) فقد كان تشريعا مسيحيا بحتا الخ

(١) نسبة الى الامبراطور الروماني يوستنيانوس

وقد أُلّف فائز بك الخورى من أدياء المسيحية السوريين والحقوقيين البارعين تأليفاً في الفقه الروماني والفقه الاسلامي وأثبت عدم اشتقاق هذا من ذلك . وعلى أىّ الأحوال لم يكن الفقه الاسلامي وحده هو الذى يرجع الى وحى سماوى بل جميع الشرائع قد بنيت على أصول دينية أو تأثرت بها . وهذه الأصول الدينية قسماً عبادات ومعاملات فقسم العبادات متعلق بالبارى تعالى الأزلى الأبدى الذى لا يتغير فلم يكن من شأن عبادته أن تتغير ولا كان دين من الأديان ولا الدين المسيحى مما جرت العادة أن تتغير أصوله بحسب الزمان والمكان . وأما قسم المعاملات فهو وان كانت له أصول من القرآن والسنة فقد كان فيه مجال الاجتهاد واسعا وكانت مصلحة الأمة هي المحور الذى يدور عليه ذلك الاجتهاد . وأينما تكون المصلحة فتمّ دين الله .

ومن نظر الى الكليات الفقهية مثل قولهم : العرف قاضٍ والعادة محكمة ولا ينكر تبدل الأحكام بتبدل الأزمان والضرورات تبيح المحظورات وإذا ضاق الأمر اتسع وما رآه المسلمون حسناً فهو حسن وعلم ان المذاهب الأربعة الحنفى والشافعى والمالكي والحنبلية قد أجازت العمل بالمصلحة المرسلّة أدرك من مرونة الشرع الاسلامي ومن سعة مذاهبه ومن تنزله على كل الحوادث ومن مناسبته لجميع الأمكنة والأزمنة ما لا يدركه الجاهل ولا يريد أن يدركه المتعنت . ولا شك أن جود بعض فقهاء الشرع الاسلامي وشدة تعصبهم لكل شىء قد سبق العمل به وشدة نفورهم من كل أمر محدث ولو لم يكن فيه منافاة للشرع وعدم اجازتهم العمل الا بما علموه ولو كانت المصلحة المتعينة تقتضى خلافه وتهافتهم على الجزم بجرمة ما لم تثبت حرمة برغم ماورد من التشديد والتدمير على كل من يقول بالحلال والحرام بغير علم كل هذا قد اتخذته اعداء الاسلام حجة على الشريعة الاسلامية بأنها جامدة وبأنها لا تتلوى مع الوقت وبأنها لاتسع جميع الحوادث وبأنها قد تخالف المصلحة وقد يضطر المسلمون الى ترك المصلحة من أجلها وغير ذلك مما ترى به الشريعة ظلماً وعدواناً . والحق فيه ان الشريعة لا يمكن أن تخالف المصلحة لأن هذه انما جاءت لمصالح العباد والله لا يشرع لهم الا ما ييسر أمورهم ولا يجعل عليهم فى الدين من حرج . وكذلك المصلحة لا يمكن أن تكون مخالفة للشريعة وما يقال انه مخالف منها للشريعة فغير معترف بكونه مصلحة فان تعيين المصلحة ليس بالأمر السهل وقد يظن

بعضهم المصلحة في شيء يظن غيرهم انها في خلافه لاختلاف الذوق وقد يجمع أكثر الأمم على اصطلاحات وعادات هي في الواقع مخالفة للمصلحة مثل اجماعهم على الربا الذي مهما يكن من عمل العالم المتمدن به فليس هو من المصلحة الحقيقية فلا يجوز أن يقال ان تحريم الشرع اياه مخالف للمصلحة وأما المصلحة الحقيقية فلا يمكن أن يأتي الشرع بضدها وقد رأينا أموراً عدل فيها الفقهاء الى العرف وتركوا نصوص الكتب الشرعية وذلك بعد أن تبين لهم ان المصلحة هي في اتباع العرف الجاري في ذلك المكان المعين وقد رأينا أموراً ترك فيها المسلمون ظاهر الشرع لضرورة قضت عملاً بكون الضرورات تبيح المحظورات وبأن الأمر اذا ضاق اتسع . وليس بصحيح ان المسلمين لا يعملون الا بنص من الكتاب أو السنة بل هم يعملون بالنص ما وجدوه فان لم يجدوه عملوا بالقياس . وما منع علماء الاسلام العمل بالرأى لافي القديم ولا في الحديث . وغاية ما في الامر انهم اشتروا في الرأى بلوغ مرتبة من العلم يصح بها اعطاء الرأى . وهذا لا يقدر أحد أن يقول فيه شيئاً لأن الاجتهاد له شروط لا يصح بدونها . وليس لكل انسان أن يجتهد وان يستنبط أحكاماً شرعية . وهذه رتبة عالية جداً لا يرقاها الا من أحاطوا بالكتاب والسنة ووصلوا الى الأمد الأقصى من الرواية والدراية ثم عرفوا من أحوال المجتمع البشري ما تتجلى لهم به وجوه المصالح ويظهر مكان سد الذريعة . واما الرأى في نفسه لمن قدر عليه فلم يمنعه احد وكل رأى اتفقت عليه الامة اجازوه وقالوا ان الامة لاتتفق الا على صواب واستدلوا على جواز العمل برأى الامة بقوله تعالى : (وأمرهم شوي بينهم) وقال ابن قيم الجوزية في « اعلام الموقعين » كانت النازلة اذا نزلت بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليس فيها عنده نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم . وعن شريح القاضي قال قال لي عمر بن الخطاب : « افض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ فان لم تعلم كل أفضية رسول الله ﷺ فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين فان لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح . » وكتب عمر الى شريح : « اذا حضرك أمر لا بد منه فانظر ما في كتاب الله فاقض به فان لم يكن ففيما قضى به رسول الله فان لم يكن ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل فان لم يكن فانت بالخيار . فان شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك وان شئت أن تؤامرني ولا ارى مؤامرتك اياي الا خيراً لك . »

ومن كتاب لعمر الى ابي موسى الاشعري : « ثم الفهم الفهم فيما ادلى اليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة ثم قايس الامور واعرف الامثال ثم اعمد فيما ترى الى احبها الى الله واشبهها بالحق »

ولما بعث الرسول ﷺ معاذ بن جبل والياً على اليمن قال لمعاذ : كيف تصنع ان عرض لك قضاء ؟ قال افضى بما في كتاب الله : قال : فان لم يكن في كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله . قال : فان لم يكن بسنة رسول الله ؟ قال اجتهد رأيي لا آلو . ففرح رسول الله ﷺ بقوله هذا وقال : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله

وربما قيل : الا ان الرأي في الفقه الاسلامي لا يصح الا اذا كان ضمن دائرة الاسلام ولم يصادم الكتاب ولا السنة . وكأثمهم لا يرون القضاء موافقاً للذنية العصرية الا اذا كان غير مقيّد بالكتاب والسنة . وليس هذا الافلات بضروري أصلاً اذا كان الكتاب والسنة لا يأمران الا بما فيه المصلحة ولا يحملان الناس على ما فيه ضرر لهم ومادام خير الأمة اينما كان هو رائد الشريعة فن الظلم ان تتهم الشريعة بضيق العطن ونقول انها لاتسع النوازل وهي قد جعلت باب الاجتهاد مفتوحاً لكل من كان حقيقاً به وجعلت المصلحة والضرورة وسد الذريعة من الاصول الكلية التي يرجع اليها والحاصل ان جميع الشرائع تقريباً لها أصول دينية مرعية مقدسة عند اتباعها ولم تختص بذلك الشريعة المحمدية . وجميع الشرائع أيضاً قد توسعت وتكملت بالاجتهادات البشرية التي اختصت منها شريعة الاسلام بالقسط الأوفى . ولم تختص بذلك القوانين الأوربية وحكاية جود الشرع الاسلامي على وتيرة واحدة وأنه لا يتقدم ولا يتأخر ولا يراعى تغير زمان ولا مكان هذه من جلة الدعايات التي يبثها أعداء الاسلام ورواد الاستعمار الأوربي ويدخلون بها على ناشئة المسلمين بالشبه التي نكره اليهم هذا الشرع وتحبب اليهم المروق منه وهذا جل ما تبغيه أوربة من الدعاية في هذا العصر بين المسلمين لمعرفة انها ما دام الشرع المحمدي هو مدار العمل عند المسلمين كان هؤلاء يرون خضوعهم للأجانب ذنباً لا يغفره الله لهم الا بالاستقلال التام وعاراً لا يرضه الا طرد الأجني المتغلب من المستعمرات التي تغلب فيها عليهم . وأية مصيبة على أوربة أعظم من هذه !

قضية فصل الدين عن السياسة

ويدخل في هذا الباب قضية « فصل الدين عن السياسة » وزعم الفئة الدساسة من رواد الاستعمار وأعداء الاسلام ان أوربة قد فصلت الدين عن السياسة بتأناً وطلقت هذه من هذا ثلاثاً وانه لم يبق من يخلط الدين بالسياسة ويجعل للحكومة صبغة دينية الا المسلمون الذين لم ينظروا الى ما حوهم من المحدثات العصرية التي من جلستها جعل الدين في واد والسياسة في واد . وقد مشت هذه الأغلوطة على كثير من المسلمين وآمنوا وصدقوا ان الدول الأوروبية تفصمت من كل نزعة مسيحية وأنها لا تعرف شيئاً سوى الانسانية العامة وان الدين المسيحي لا تهتم به حكومة من حكومات أوربة أكثر مما تهتم بغيره من الأديان ! وانه ان كان المسلمون يريدون أن يفلحوا فلا مناص لهم من الاقتداء بالأوروبيين في هذا المشرب ولما كان الأوروبيون قد نزعوا من حكوماتهم كل صفة مسيحية كان على المسلمين المقتدين بهم في طلب الفلاح أن ينزعوا عن حكوماتهم كل صبغة اسلامية بحيث تنظر الى الدين نظر من لا ناقة له في الأمر ولا جل . ويسمون هذا المنزع « باللايقية » Laïcisme ومعناها ماليس « با كاي بيكي » ويجزمون بأن أوربة قد نزعت هذا المنزع وعضت عليه بالنواجذ وانه لم يبق من يقيم للدين وزناً الا الدول الاسلام ومن أجل هذا هي متأخرة متقهرة !

ولقد روج هذه الأغلوطة مصطفي كمال رئيس جمهورية أنقرة لغرض في نفسه من جهة سلخ الترك تدريجاً من العقيدة الاسلامية وصر فهم عن اللغة العربية فسار بتركيا سيرة من يجعل الدين الاسلامي أجنياً عن الحكومة التركية كما ان الدين المسيحي هو بزعمه أجني عن الحكومات الاوربية الراقية ! وتابعه في ذلك الحزب الذي يسمى في تركيا « خلق فرقه سي » والذي هو من اوله الى آخره أشبه بمجد لمصطفي كمال تحت قيادته لا يملكون معه قبضاً ولا بسطاً . فألغوا جميع ما تشتم منه رائحة الاسلام من أوضاع الحكومة التركية وأبطلوا المحاكم الشرعية بعد أن أبطلوا العمل بالشرعية وألغوا الوزارة التي كان اسمها « مشيخة الاسلام » وجعلوا مكانها دائرة صغيرة تابعة لنظارة الداخلية سموها « ديانت ايشي » أي أمور الديانة . وحذفوا من دستور تركيا المادة التي فيها « ان الاسلام هو دين الجمهورية التركية » وكانوا على مدة بضع سنوات أبطلوا اقامة مراسم العيدين النحر

والفطر وقالوا ان الحكومة التركية لا تعرفهما ولكنهم وجدوا فيها بعد أن المأمورين شاء رئيس الجمهورية أم أبي لا بد لهم من الاحتفال بهذين العيدين فعادوا في السنة الماضية يعطون دوائر الحكومة فيهما وعاد رئيس الجمهورية يقبل فيهما التهنئة

وأما الكتابة التركية بالحروف العربية برغم كل ما جرى لها من المعارضة فقد كان تعليها في ظاهر الحال تسهيل التعلم على النشء وتقصير المدة اللازمة للقراءة ولعن الغرض الحقيقي منها كان اقصاء الترك عن العرب وابطال قراءة القرآن تدريجاً وأهم من ذا وذا اقناع أوربة بأن تركيا قد تفرجت تماماً وانه صار من العدل أن تدخل في العائلة الاوربية ولهذا الغرض الأخير نفسه جعل مصطفي كمال الأتراك على لبس القبعة ليزدادوا اندماجاً في الاوربيين . ولقد كان ترك الحروف العربية ضربة عظيمة على تركيا في حياتها العلمية والأدبية والاقتصادية والتجارية وتعدت الكتابة على الجميع بالحروف اللاتينية فأنحصرت في فئة قليلة وقلت المكاتبات والمراسلات بين الناس وقل جداً عدد القراء للكتب والجرائد وأصبحت الجريدة التي كان عدد قرائها يحصى بالالوف لا يقرأها ولا خسارة شخص وصارت الحكومة مضطرة أن تقوم باودها .

وازدادت الكتابات الرسمية صعوبة فتأخرت أشغال الناس لدى الحكومة . ودرت ملايين من الكتب خربت بذلك بيوت لا تحصى . وأما من الجهة الفنية فالحروف اللاتينية برغم ما أدخلوا من العلامات على بعضها لايتاء اللفظ التركي حقه لا تؤدي اللفظ التركي الصحيح في كثير من المواضع فلذلك قد تغير بها اللفظ التركي عن أصله وصارت كأنها لغة جديدة . ثم ان الحروف اللاتينية المنفصلة وان كانت أسهل في القراءة والكتابة فانها تأخذ من الفسحة على القسطاس وتستغرق من الوقت للكتابة أكثر مما تستغرق الحروف العربية بكثير وان الكتابة العربية هي أشبه شئ بالاختزال Sténographie وانها أوقع على مبدأ الاقتصاد في الزمن والمكان وأقرب أن تكون كتابة العصر الحالي المبني كل وضع فيه على الاختصار والاقتصاد

ولا تزال هذه الأزمة الكتابية مشتدة في تركيا ولكن الغازي لا يزال مصمماً على

جعل تلك الأمة على الحروف اللاتينية حباً بالنفrench

والذين لا يعلمون حقائق الأحوال يظنون أن الأتراك راضون معتبطون بالنساء

الشريعة الإسلامية من المحاكم ورفع التعليم الديني من الكتاتيب والمدارس واجبار النساء على السفور وخلط الاناث والذكور في دور العلم وحمل الأوانس على الزفن مع الشبان ولبس القمعة والكتابة بالحروف اللاتينية الى غير ذلك مما أحدثته الحكومة الأتورية الكمالية ويقولون انه لولا رضى الترك بذلك لثاروا بحكومتهم ولأسقطوها ولردوها عن ثنديات الطرق ! ولكن الذى يتأمل فيما تحمله الشعب التركى من المصائب وما نوجز من الحروب المستمرة بدون انقطاع ويعلم أن جيران الأتراك كلهم واقفون لهم بالمرصاد ينتظرون أول غرة ليهتبلوها وينقضوا عليهم ويعيدوهم أثراً بعد عين والذى يفكر فى أن آمال الأتراك كانت بعد الحرب العامة قد انقطعت من الاستقلال وان كثيرين منهم ومن جلتهم عصمة باشا رئيس وزارتهم الحالية كانوا يذهبون الى طلب « انتداب » أميركا أى وصايتها على تركيا ومع هذا فقد أذن الله بأسباب متعددة يطول شرحها أن تتمكن تركيا من استرجاع استقلالها وأن تعود دولة كسائر الدول ولومن الدرجة الثانية نعم الذى يستعرض أمام نظرد جميع ما أننا على تركيا من المصائب والنواب التى تدك الجبال يفهم لماذا هى صابرة على مرارة هذه الاوضاع الاجتماعية التى هى مخالفة لمذهبها ومشربها وعاداتها وذوقها ولماذا هى تفضل الخضوع لها على الثورة والاتقاض والتطريق للاعداء أن يعودوا فيقضوا على تركيا كما كانوا قرروا على أثر الحرب العامة

أما العقيدة الإسلامية فلم تززعها حتى الآن فى تركيا هذه السياسة اللادينية ولا يزال الشعب التركى شديد الاعتصام بعروة الدين الوثقى تدل على ذلك مظاهره الدينية فى استانبول وغيرها مما لم يخف على الافرنج الذين أشاروا اليه فى جرائدهم . ولن يكون خطر على اسلام الشعب التركى الا ان استمر الحكم الحالى مدة طويلة ونشأت الافواج الجديدة على ما هى عليه من فقد التعليم الديني . والاتقريون يزعمون أن المدارس الاميرية فى فرنسة ليس فيها تعليم دينى وانهم هم انما يقتدون بفرنسة . ولكنهم يتجاهلون أن المدارس الخاصة والمدارس العائدة للربان وللأساقفة وللجمعيات الدينية من كاثوليك وبروتستانت هى فى فرنسة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ولذلك الترية الدينية لا يمكن أن يخشى عليها هناك . هذا من جهة فرنسة . ونعود فنقول من حيث ان تركيا اتخذت لنفسها قانون الجزء الايطالى ومن حيث انها على آتم الموالاتة لايطالية وبين الدولتين اتفاق سياسى كما لا

يخفى فلماذا لا تريد ان تقتدى بإيطالية في جعل التعليم الديني من أهم برامج المدارس الاميرية . وأيضاً فالأمة الالمانية التي هي في الذروة العليا من المدنية تفرض التعليم الديني في جميع مدارسها . وأيضاً فالأمة الانكليزية التي هي أعظم الدول قوة وسلطاناً في الارض تعتنى مزيد الاعتناء بالتعليم الديني في مدارسها الابتدائية والثالية والعالية . ولا نعلم من حكومات الارض كلها الاثلاثاً يحاربن الديانات وقد الغين التعليم الديني من مدارسهن وهن الروسية والمكسيك وتركيا

ثم ان فرنسا وان كانت حكومتها ذات صفة لادينية في القانون فانها تظهر في كل فرصة بمظهر ديني مسيحي لايقدر القائل ان يجد فيه مقالاً . ولما مات المسيو بريان استدعت الحكومة رئيس اساقفة باريز وصلى على جنازته في نفس نظارة الخارجية . ولما مات المارشال فوش والمارشال جوفر أقيمت لهما مراسم دينية في فرنسا وفي سفارات فرنسا في الخارج . ومن شهرين أقاموا حفلة دينية في كنيسة الاقناليد بباريز تمثلت فيها الحكومة الفرنسية وذلك شكراً لله على انتصار الجيش الفونسوي في المغرب وافتتاحه لواحة تافيلالت واستمطاراً للرحمة على أرواح الذين قتلوا منه في المعارك . الى غير ذلك من المظاهر الدينية التي تقوم بها الحكومة الفرنسية والتي شهدنا منها نحن في سورية أيضاً مالا مجال فيه للراء . ولولا النعرة المسيحية ما كانت الحكومة الفرنسية تعضد الآباء البيض والفرنسيسكانيين وسائر المبشرين الجائلين في الجزائر وتونس والصحراء والسودان الغربي وتمد بضعهم وتسهل امامهم عقبات تنصير الأمم الاسلامية وغيرها . وهذه القضية البربرية التي قام لها العالم الاسلامي وقعد ولا يزال الفرنسيين متمسكين بها ان هي الامظهر تحت حكم الجمهورية الثالثة من مظاهر فرنسا في أيام لويس التاسع . فكيف تكون فرنسا الرسمية قد خلعت عنها الرداء الكاثوليكي وكيف يسوغ في الازهان قول ينفيه ظاهر الحال

وهذه الدولة البلجيكية قد جعلت في بروغرام حكومتها الرسمي العمل لتنصير زواج مستعمرتها الكونغو . وهذه الدولة الايطالية - صديقة تركيا - جعت الوفا من أطفال عرب طرابلس أخذتهم من بين أيدي والديهم بالقوة وحلتهم الى ايطالية لأجل تربيتهم في الديانة الكاثوليكية ولم تبال مافي ذلك من خرق العهود والاعتداء على أقدس حرية بشرية وهي الحرية الدينية . وهذه الحكومة الالمانية الحاضرة قد ضبطت منذ أشهر نشرات شيوعية

بحجة انها تتضمن دعاية لهدم الدين المسيحي. وكان الدكتور شترزمان قد أعلن في الرايخستاغ قائلاً : «ان الثقافة الالمانية مبنية على النصرانية» . وقبل الحرب العامة كان امبراطور المانية وملك بروسيا هو الرئيس الرسمي للكنيسة اللوثرية كما ان ملك انكلترا الآن هو الرئيس الرسمي للكنيسة الانكليكانية

وماذا يقول الانسان في تدن الامة الانكليزية الشديد كبارا وصغاراً ومن جميع الطبقات حتى من طبقة الاشرافيين . وكل أحد يعلم المناقشات التي ثارت في مجلس اللوردة الانكليزي ومجلس البرلمان الانكليزي من أجل سر استحالة الخبز والخر بتقديس القسيس الى جسد المسيح ودمه فانه لم يعلم الناس مسئلة أخذت من الأهمية في انكلترا ما أخذته هذه المسئلة حتى ان المرضى من اللوردة حضروا جلسة هذه المسئلة مجولين بالأسرة . وتحرير الخبر ان في الكنيسة الانكليكانية التي عليها دين المملكة الرسمي خلافاً قديماً في قضية الخبز والخر . فالجنح الأيمن من رجال الكنيسة يقولون بما تقول به الكثلركة وهو انه بمجرد تقديس الكاهن على المذبح ينقلب الخبز الى جسد الرب والخر الى دمه بناء على كون المسيح في العشاء السري مع الحواريين ناوهم من الخبز وقال لهم : «هوذا جسدي ومن الخمر» وقال : «هوذا دمي»

فالكنيسة الكاثوليكية والمحافظةون من الكنيسة الانكليكانية المنشقة عنها يقولون انه كلما قدس الكاهن على الخبز والخر ولفظ هذه الجملة التي قالها السيد المسيح ينقلب الخبز الى نفس جسد المسيح الحقبقي والخر الى دمه . وأما الوسط والجنح الأيسر فيقولون ان هذه الاستحالة مستحيلة بذاتها مخالفة للعلم والفن وأن الخبز لا يمكن أن يتحول الى جسد المسيح ولا الخمر الى دمه بالمعنى الحقبقي وانه يقدس كل يوم ملايين من القسوس فكم مليون مرة كل يوم يقع هذا التحول لجسد واحد ؟ فلا يمكن أن يكون كلام المسيح هذا الارمزاً بحيث إذا حصل التقديس يتذكر الناس جسد الرب ودمه تحت صورة الخبز والخر . وقد طال هذا الجدل بين الفريقين ولم تكن فئة منهما توافق الثانية واستظهر حزب الوسط والشمال بكتاب الصلاة الذي فيه عقيدة الكنيسة الانكليكانية والذي بمقتضاه لا يكون هذا الكلام الارمزاً . فاعترض حزب اليمين على ذلك وطلبوا تعديل هذا البند من كتاب الصلاة . ولما كان كتاب الصلاة هو دستور كنيسة انكلترا وفيه نص بأنه لا يجوز أن يعدل منه لا كثير ولا قليل الاقرار مجلسي اللوردة والعموم جاءت هذه المسئلة الى هذين المجلسين.

وكانت الحكومة قد حولت هذه المسئلة الى مجلس مؤلف من كبار المطارين وذلك من سبع وعشرين سنة فجرت المذاكرة فى هذا المجلس الأسقفى ولم يحصل اتفاق بين المطارين أنفسهم على هذه النقطة وهى : « هل استحالة الخبز والتمر حقيقة أم رمز » ؟ ثم قرر المجلس الأسقفى بالأكثرية كون الاستحالة حقيقة وطلب تعديل كتاب الصلاة فيما يتعلق بها . وعند ذلك عرضتها الحكومة على مجلس اللوردة فبعد مناقشات شديدة قرر اللوردة بالأكثرية تنفيذ قرار المجلس الأسقفى الذى كان يرأسه رئيس أساقفة كنتبرى أكبر أساقفة انكلترة . ولما كان لابد لأجل تعديل كتاب الصلاة من قرار مجلس العموم أيضاً طرحت الحكومة هذه القضية فيه وانبرى ناظر الداخلية واعررض على اقتراح تعديل كتاب الصلاة وصرح بأنه لايرضى بالرجوع الى عقيدة الكنيسة الرومانية وان كتاب الصلاة هو دستور كنيسة انكلترة فلا يمكن تعديل شئ منه الا برضى الأكثرية الأمة ثم رد على مزاعم الفئة الثانية وقال إن هذه الاستحالة المسماة عند الكاثوليك بسر الانفارستيا مشروط فيها الابتهاال الى روح القدس وان هذا الابتهاال الى روح القدس لم يكن واقعاً فى الكنيسة الانكليزية فلا يمكن تمام هذه الاستحالة مع فقد هذا الشرط . وأبدى الناظر المذكور وأعاد فى هذا الموضوع بحيث عند الاقتراح كانت الأكثرية فى جانب عدم التعديل لكتاب الصلاة وفى جانب ان قضية الخبز والتمر لم تكن الا شيئاً مجازياً . وما اتفق مجلس العموم يومئذ الاعلى اضافة جل دعائية جديدة تتلى لأجل الملك والعائلة المالكة ويبتهل فيها الى البارى تعالى بنصرهم وتأيدهم الخ . فالبرلمان الانكليزى المؤلف من نواب ليست لهم صبغة دينية نقض قراراً دينياً محضاً متعلقاً بالعقيدة كان قد قرره مجلس أساقفة تحت رئاسة رئيس أساقفة كنتبرى فأنت ترى أن مسئلة دينية صرفه كهذه قد كانت مدار جميع هذه المناقشات فى مجلسى الشيوخ والنواب فى أعظم دولة أوربية وأعلاها كعباً فى المدينة . وترى أيضاً أن ملك هذه الدولة هو نفسه رئيس كنيستها وهو الذى يدعى له على منابر كنائسها بموجب دستور ايمانها كما يدعى للخليفة على منابر الاسلام . بل الدعاء للخلفاء والمالوك فى المساجد لم يتفق على وجوده جميع مجتهدى الاسلام . وأما الدعاء لملك الانكاييز فى الكنائس فقد اتفقت عليه شيوخ الأمة الانكليزية ونوابها . فهذا الذى يسمونه بفصل الدين عن السياسة ؟ ويزعمون أن أوربة اتخذته قاعدة أساسية لسياستها . لاجرم أن هذا تضليل للأذهان وبهتان

ما وراء بهتان

ان فصل الدين عن السياسة هو فصل ادارى كما هناك فواصل فى سائر فروع الادارة بعضها عن بعض وانه ليس من المعقول ان الدول الراقية لاتتكثر لامور الدين وهو الذى عليه يحيا ويموت السواد الاعظم من رعاياها . فالدولة التى لاتهتم بأمور رعاياها الدينية تكون جاهلة معنى السياسة بالمره . وأما ان تنفصل الامور الدينية عن الامور الدنيوية فذلك ضرورى لانزاع فيه الا أنه لايفيد ان الدولة بفسلها هذا عن ذلك قد أهملت تعزيز ديانة قومها . بل نحن أولاء نجد ملوك أوربة ورؤساء جمهورياتها ورؤساء جمهوريات امريكا لايدعون فرصة لتعزيز المبدأ المسيحى والتصريح على الملأ بالعمل فى سبيله الا انتهزوها . ولقد مررت فى خطبة لرئيس جمهورية الولايات المتحدة وخطبة أخرى لما زار يك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا كل منهما صريحة فى هذا المعنى

وهذه هى الامة اليابانية التى هى اليوم أرقى أمة شرقية ومن أرقى أمم البسيطة أمة شديدة التمسك بعري دينها وعاهلها هو رئيس الكهنة الاعظم وايام تنويجه اقامت له الحكومة مراسم احتفال استمرت شهراً وكانت كلها مراسم دينية . وما يعتقدون به ان العاهل هو من سلالة الآلهة ابنة الشمس وانه لا بد ان يؤاكلها فى احدى الحفلات الارز المقدس وهم يزرعون هذا الارز من قبل الاحتفال بأشهر وتزرعه الحكومة تحت إشراف الكهنة حتى لاتشوب قدسيته شائبة . ولقد كنت من بضع سنوات نشرت فى الصحف نقلاً عن « الجورنال » الباريزى بقلم المسيو « سان بريس » تفاصيل المراسم الدينية الملوكية التى أقيمت لعاهل اليابان عند تنويجه . وكذلك نشرت فى الصحف خلاصة مناقشات الحزب والجز فى مجلسى اللوردة والعموم فى انكثرة . وهذا ليفهم الشرقيون وبخاصة المسامون تضليل أولئك المضللين الذين يحاولون اقناعهم بهذه المغالطة وهى انه لما كانت الامور الدينية منفصلة بحكم الضرورة عن الامور الدنيوية كان يجب الاستنتاج من هذه التفرقة الادارية البراءة من الدين ونفض اليد منه !

وأما عضد الدول الأوربية للرسالات التبشيرية بالدين المسيحى فهذا موضوع ذوبال وطويل الأذبال قد نذكر له خلاصة فى مكان آخر الا اتنا نوصى فيه القراء بمطالعة كتاب « الغارة على العالم الاسلامى » تأليف المسيو « لُ شاتليه » رئيس تحرير مجلة « العالم

الاسلامى « الافرنسية المترجم بقلم السيدين مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب صاحب جريدة « الفتح » التى لها فى النضال عن الاسلام المواقف العظام والخدمات التى لا يحورها كرور الايام

وخلاصة القول ان فصل الدين عن السياسة لم يكن معناه فى أوربة والممالك المتمدنة اهمال الدين ولا تجريد الحكومات من صبغته اذ أن الحكومات انما هى ممثلة للشعوب فكما تكون الشعوب تكون الحكومات وما دامت شعوب أوربة وأمريكا مسيحية فحكومات هاتين القارتين مسيحية قولاً واحداً . وما دامت أمة اليابان طاوية فحكومتها طاوية وما دامت الصين بوذية فحكومتها بوذية وما دام أهل صيام يعبدون الفيل الابيض فحكومتهم تسجد للفيل الابيض

وليس فى الدنيا سوى ثلاث حكومات تناهض الدين باطنياً وظاهراً، وهى الجمهورية الجزائرية والروسية والجمهورية الكمالية الانقرية وحكومة المكسيك وذلك كما قال المسيو «شارل موراس» السكاتب الافرنسى المشهور

أما سبب محاربة البلاشفة للأديان فهو انهم لا يزيدون على ثلاثة ملايين فى مملكة عد أهلها ١٤٢ مليوناً كلهم متدينون وهم يعلمون انه ان عادت الكنيسة الارثوذكسية الى الظهور كان لابد من اعادة الحكم القيصرى أو تأسيس حكومة جمهورية مسيحية فلا تبقى منهم ولا تذر وستأثر من البلاشفة عن كل ما سفكوه من الدماء التى أسالوها أنهاراً . فالبلاشفة فى محاربة الدين يجاحشون عن خيوط رقابهم لا أكثر ولا أقل

وأما المكسيك فان أحبار الكتلكة كان لهم فيها الكلمة العليا وكانوا مستبدين بكل الأمور فوق الخصام بينهم وبين رجال الحكومة واشتد الى أن تحولت الحكومة نفسها الى عدو لدود للديانة . وهذا أمر لا يلبث أن يزول ويعود الدين هناك كما فى سائر البلاد الامريكية . وأما أنقرة فان الغازى يعلم أن المبدأ الدينى فى تركيا هو والسلطنة توأمان فهو يعمل لتوهينه اتقاء رجوع آل عثمان الى السلطنة والقضاء على الجمهورية التى هو الالف والياء فيها . فهو يعمل لتوهين مبدأ أن عزّ وتغلب كان فيه سقوطه وسقوط الحزب الذى رأسه فى شر مستطير ويوم عبوس ققطير

يكثر في الشرق الآن كلام الخلق في « فصل الدين عن السياسة » ويظن بعضهم ان الأوربيين فصلوا الدين عن السياسة فصلا تاما وان الحكومات في الغرب لا تعنى بشئ من أمر الدين وغير ذلك من الترهات التي هي أبعد الأمور عن الواقع

ومن أغرب الأمور ان حكومة انقرة هي التي أعلنت كونها حكومة لا دينية عملا بمبدأ فصل الدين عن السياسة وهي نفسها لا تزال كل يوم تصدر أوامر وتسن قوانين متعلقة بأمور دينية محضة من جلستها الصلاة باللغة التركية التي من أجلها نارت الافكار في تركيا في هذه الأيام ورفض الاكثرين امثال أوامر الحكومة بها وقالوا انه لا بأس بأى يلقى الخطيب خطبة الجمعة بالتركي فأما الصلاة نفسها بالتركي فهي مخالفة للسنة

وعلى كل حال حكومة تركيا الكالمية تناقض نفسها بنفسها عند ما تدعى الاقتداء بالحكومات الراقية في فصل الدين عن السياسة وهي تتدخل كل يوم في الأمور الدينية الصرفة على حين ان « فصل الدين عن السياسة » معناه ان الحكومة لا تتدخل أصلا في أمور الدين وتترك هذه الامور لرؤساء الدين وحدهم

وحكومة تركيا الكالمية لا تصدق رعيتهما القول أصلا عند ما تقول لهم ان دول أوربة قد نبذت الديانة المسيحية ظهرياً وان رقيها المادى لم يتهياً لها الا بنذ العقائد الدينية .

فأوربة وأمريكا وجميع الأمم المنسوبة اليها باقية على نصرانيتها تماما لم يتغير شئ من صبغتها المسيحية بل لم يتغير شئ من عقائدها الكنسية التي كانت عليها من قرون

نعم يوجد في أوربة أقوام يجاهرون بعدم الاعتقاد ويناصبون الاديان وبخاصة الديانة المسيحية . ولكن هذا الجنس من الاوربيين لا يزال قليلا بالنسبة الى السواد الأعظم والاوربيون يعلنون بأجمعهم ان ثقافتهم هي الثقافة المسيحية وأن مدينتهم هي المدينة المسيحية وان حكوماتهم — ما عدا الحكومة البلشفية الروسية — هي الحكومات التي يتألف منها ما يقال له « العالم المسيحي »

وان المكابرة في هذه الحقيقة هي مكابرة في المحسوس لا غير

ولقد استرعينا أنظار المسلمين مراراً في مقالات متتابعة في الجرائد وفي الفصول المتقدمة الى مظاهر الحكومات الاوربية المسيحية من قبيل المناقشات التي وقعت في قضية الخبز والخر وقول أصحاب الجناح الايمن من أبناء الكنيسة الانكليكانية الانكليزية — أى الكنيسة الرسمية — ان الخبز والخر يستحيلان بتفديس القسيس فعلا الى جسد المسيح ودمه . مما لا يحتاج لاعادة ذكره

فهل رأى القارئ المسلم الآن كم يخدمه المظلون بقولهم ان الحكومات الاوربية لا سيما الراقية منها لا تعنى بامور الديانة المسيحية وان الديانة عندها منحصرة في الكنائس لا غير ! فهل مجلس اللوردية ومجلس الامة الانكليزية من الكنائس ؟ وهل في أوربة حكومة أرقى من الحكومة البريطانية ؟

بما لا مشاحة فيه ان بين الديانة والسياسة فصلاً إدارياً بحيث كل منهما لها دوائر تختص بها . ولكن مرجع الجميع الى الحكومة . والحال في بلاد الاسلام لا تختلف عن ذلك . فشيخة الاسلام منفصلة عن سائر النظارات المدنية

إذا خرافة فصل الدين عن السياسة في أوربة التي لا يزال يتشدد بها بعض المظالمين في الشرق ليس لها أصل الا بالمعنى الادارى الذى هو جارٍ أيضاً في بلاد الاسلام .

والحكومات الكاثوليكية بأجمعها مرتبطة أشد الارتباط بالدين الكاثوليكي . ولا يشذ عن ذلك الا الحكومة الافرنسية التي اتفقت مع الفاتيكان اتفاقاً يحدد العلاقات بين الكنيسة والحكومة والتي لا توجب التعليم الدينى في المدارس الرسمية . ولا يجب أن يؤخذ من ذلك أن الحكومة الافرنسية تعارض التعليم الدينى في غير المدارس الرسمية بل التعليم الدينى مالىء فرنسة بواسطة المدارس الأهلية . والحكومة الافرنسية في مستعمراتها ومناطق نفوذها تحمى الدين المسيحى ولا سيما المذهب الكاثوليكي أكثر من كل حكومة مسيحية وهي تعلن نفسها حامية النصرانية في الشرق وتوجب على رجالها شهود الشعائر الدينية الكاثوليكية في جميع الأعياد والمواسم وتحافظ على الرسالات الدينية والرهبانيات بأجمعها كالسوعية والعازرية وغيرهما . وبما لا يحتاج الى التعريف أخذها بيد الكردينال لافيجرى والآباء البيض وأصناف المبشرين بالدين المسيحى في الجزائر وتونس والمغرب وبلاد النيجر وعدم مراعاتها شعور المسلمين الذين هم أهل هذه الأقطار بما تظهر به من هذه المظاهر

الكاثوليكية فيما بينهم الى حد أن بعض الجوامع الكبرى في مدينة الجزائر قد تحولت الى كنائس وان بعض البربر من سكان الجرجرة من الجزائر هم حسب روى المؤرخ الثقة السيد أحمد توفيق المدني في « كتاب الجزائر » هم على شفا التحول عن الاسلام بما نشبت فيهم من برائن الرسائل التبشيرية فأما قضية الغاء فرنسة الشريعة الاسلامية من بين البربر وحمايتها للرهبان الفرنسيين الذين يعملون لتنصير البربر ولغيرهم من الرهبان فهي مشروع قديم العهد بقى الفرنسيين يحدثون أنفسهم به مدة طويلة الى أن أنفذوه من ثلاث سنوات في أيام المسيو لوسيان سان الذي كان مقبلاً عاماً في تونس وفي أيامه وبمساعيه عقد الكاثوليك مؤتمراً دينياً اسمه مؤتمر الانخاريسيتيا في تونس فكانت لذلك ضجة شديدة بين المسلمين الا أنها لم تبلغ درجة ضجتها شرقاً وغرباً عندما أجبر المسيو سان حكومة سلطان المغرب بعد أن صار مقبلاً عاماً عندهذه الحكومة على اصدار ذلك الظهير البربري الذي يُخرج عدة ملايين من البربر من الاسلام وبعد أن منع تجوال فقهاء الاسلام وحفاظ القرآن ومشايخ الطرق من التجوال في قرى البربر وحظر على قواد البربر وزعمائهم أن يرسلوا أولادهم الى فاس أو غيرها من المدن لتعلم العقيدة الاسلامية واللغة العربية . كما تقدم وبالاختصار فان الدولة الافرنسية التي يزعم بعضهم أنها حكومة لادينية أو لايبكية كما يقال هي أشد الدول حامية للنصرانية عموماً وللكتلكة خصوصاً . وان الحزب الحر الذي يلتزم الحرية الدينية التامة ووقوف فرنسا موقف الحياد التام بازاء الأديان لا يزال في فرنسة ضعيفاً .

وأما ايطالية فبعد أن غلب عليها حكم الفاشيست أعادت الى المدارس الأميرية التعليم الديني الكاثوليكي ونصبت الصلبان في المدارس وفي المحاكم وعدلت قوانين العدلية تعديلاً موافقاً لمبادئ الكنيسة . وأعلنت بدون محاباة أنها دولة مسيحية كاثوليكية وبتت أيضاً في مستعمراتها القسوس والمبشرين وزادت على غيرها أنها أخذت صغار المسلمين من حجور أمهاتهم قسراً لأجل أن تربيههم في الكاثوليكية في نفس ايطاليا كما ذكرنا من قبل . وهذا لم تفعله فرنسة حتى الآن وغاية ما فعلت هو أنها تركت الكردينال لافيجرى ورهبانه البيض يسطادون بعض أحداث من المسلمين في أثناء المساعب التي هي كثيرة الوقوع في الجزائر ويربونهم في النصرانية . وقد ذكر السيد توفيق المدني في كتاب

الجزائر أن هؤلاء بلغ عددهم ألفاً وخمسة شخوص وان منهم من رجع الى الاسلام بعد أن بلغ رشده ومنهم من بقى مسيحياً حقيقياً

ولنعد الى سائر الدول الكاثوليكية ومواقفها بازاء الدين المسيحي فنقول انها باجمعها على أشد ما يكون من الاعتصام به . ومنذ أربع سنوات تشكلت في بلجيكا وزارة أعلنت من جلة بر وغرامها العمل لتنصير أهالى مستعمرة الكونغو . وكان في هذه الوزارة وزراء من السوسيا ليست ولم يعترضوا على دخول الحكومة في قضية التنصير . ففي هذا مجال للتأمل . ولم تكن بلجيكا الى الآن مهمة هذا العمل الدينى لأنه من التسعة الملايين الزوج الذين تتألف منهم مستعمرة الكونغو قد تنصّر حتى اليوم نحو من مليون منهم ثمانمائة كاثوليكى وماتتا الف بروتستانتى وكل ذلك بمساعى القسوس وعضد الحكومة . ولا يخفى ان في مستعمرة الكونغو عرباً ومستعمر بين يبلغ عددهم حسباً قرأنا في كتب البلجيكين الذين كتبوا عن الكونغو نحواً من مائتى الف نسمة . ولكن الحكومة تراقبهم أشد المراقبة . ومن البدهى انها تمنعهم من بث الدعاية الاسلامية . وهذا دليل آخر على كون الحكومات الأوربية الراقية غير مهمة العمل لنشر الدين المسيحي كما يزعم أولئك الذين لا يفتأون ينصحون الحكومات الاسلامية باتخاذ الصبغة اللايكية أو اللايقية كما يقول الترك . ويزعمون أن رقى رعاياها متوقف على هذا الشرط !

ان بلجيكا هي من أرقى ممالك أوربة بلا نزاع والحكومة البلجيكية هي هذه التى تنص في بر وغرامها على قضية تنصير أهالى الكونغو

وأما الدول البروتستانتية فكما تعلن أن ثقافتها مسيحية وان مدينتها انجيلية وانها لا تحيد عن هذا الطريق . وكثيراً ما تعلن هذه الدول ذلك في برامجها أمام المجالس النيابية . وناظر معارف هولاندة افتتح مؤتمر المستشرقين في ليدن سنة ١٩٣١ بخطاب قال فيه : ان هولاندة لم تذهب الى الشرق لأجل التجارة بل لنشر حسنات الدين المسيحي . ولقد كنا ممن سمعوا هذا الخطاب وصرح شترزمان ناظر الخارجية الالمانية في احدى خطبه امام الريخستاغ قائلاً : « ان ثقافة المانيا مبنية على الدين المسيحي »

ولم يمض الى غاية تحرير هذه السطور الا أيام قلائل (فبراير ١٩٣٣) على اعلان هيتلر رئيس الحزب القومى الاشتراكي الالمانى عند ما ولاه المارشال هيندنبورغ رئاسة

الوزارة برنامجاً وزارياً صدقه جميع الوزراء استهلاله : « ان أول واجب ستقوم به الحكومة القومية الالمانية هو العمل لأجل الوحدة الروحية واحياء العقيدة النصرانية في الأمة والتقاليد المجيدة الماضية » كما قدمنا

ومن قبل مجيء هيتلر الى رئاسة الوزارة كان فون بان رئيس الوزارة سابقا والذي هو الرئيس الثاني للوزارة لاحقاً قد خطب خطبة شهيرة أودعها الكلام نفسه وكان الشيوعيون الالمان قد بثوا منشورات حملوا فيها على الدين المسيحي فامرت الحكومة بجمعها ومنعها وأصدرت بلاغاً رسمياً قالت فيه : انها منعت توزيع هذه النشرات لما فيها من التحامل على الدين المسيحي

هذا وغير خاف ان امبراطور المانيا وملك بروسيا حكان الرئيس الأعلى للكنيسة اللوثرية ولا يزال حتى الآن برغم نزوله عن العرش لأن أتباع هذه الكنيسة لا يزالون يرجون اعادة الامبراطورية . كذلك غير خاف أيضاً ان الكاثوليكين في المانيا الذين هم ثلث المملكة لهم حزب في الرايستاغ يقال له « الوسط » أساس تأليفه هو المحافظة على الكتلكة

ولدى كتاب واف اسمته « الأديان في المانيا » ان سمح لي الوقت ونسأ الله في الأجل أريد أن أترجه الى العربية ليعلم أهل الشرق لاسيما المغرورون منهم أية قوة للدين المسيحي في المانيا وكيف ان التعليم الديني مقرون بالتعليم المدني في جميع المدارس الرسمية وغير الرسمية وانه لا يوجد مع ذلك أحد يقدر أن يزعم ان الأمة الالمانية أمة غير راقية أو أمة غير عصرية بل لأحد يقدر أن يقول انه يوجد أمة أرسخ منها قدماً في العلوم والصنائع وأعلى كعباً في المدنية

ان المصلح المسيحي الأشهر كالفين الذي كان هو ولوثير سبب وجود البروتستانتية في العالم كان يقول مايلي :

« ان الدولة المسيحية رأسها هو الله . فلاجل أن يكون الانسان تابعاً لهذه الدولة ينبغي له أن يقسم الايمان بعدم الحيد عن خطة الانجيل وبالمواظبة على اقامة الشعائر المسيحية وبتناول القربان أربع مرات في العام. وذلك لأن الاشتراك في المائدة الالهية هو عبادة لله

رأس الدولة المسيحية وليسوع المسيح رأس الكنيسة . فهاتان السلطانان الدنيوية والروحية باتحادهما من شأنهما تنفيذ ارادة البارئ تعالى . فالسلطة السياسية بيدها السيف ولها حق القصاص ان لزم . كما ان السلطة الروحية لها حق الوعظ وحق التحريم والتحليل وكلا نوعي الأحكام الزمنية والروحية يجب أن يبني على الكتاب المقدس

« والرئاسة الأولى هي للسلطة السياسية خلافاً لرأى البابا غريغور يوس السابع وذلك لأنه يجب أن تتحد السلطة المذكورة من الرق الاكثير يكي . ولكن لايعنى بذلك ان الدولة يجب أن تنفصل عن الكنيسة بل يجب أن تلازمها »

ويقول كلفين : « ان الملك الذى لاينشد مجد الله فليس بالذى يقيم مملكة وإنما هو يقيم لصووية . وعلى الحاكم أن يقبل مراقبة رعاة الدين ويوطد بالاتفاق معهم نظام الدولة لانظام المدني فقط بل النظام الدينى أيضاً والنظام الأدبى والاجتماعى وعليه أن يعاقب اللصوص والفساق والمومسات والقتلة والقاذفين بالدين واتباع البابا الذين يشهدون القداس وأن يحرق بالنار السحرة ويجزى بالصرامة من يشتغلون يوم الاحد ومن يهملون إقامة الشعائر الدينية الخ » (١)

فروح هذا البروغرام هو السارى الى هذه الساعة فى الحكومات البروتستانتية ولن تجد الحكومة الكهالية فى تركيا ولا مقلدوها فى البلاد العربية جواباً واحداً مقنعا على هذه القضايا التى قدمناها . وما بعد الحق الا الضلال

(١) (اقرأ بروغرام كلفى فى كتاب فيلريد موندو Wilfred Mondo المسمى La Nuée de Femains

المطبوع فى باريز سنة ١٩٢٩)

احصاء المسلمين

للأمير شكيب

سبق لنا تعليق^(١) على قول ستودارد ان المسلمين ٢٥٠ مليوناً وقلنا إن المؤلف تابع غيره من المؤلفين الأوربيين الذين يخطئون في احصاء المسلمين وان الحقيقة هي أن المسلمين يزيدون اليوم على ثلثمائة مليون

ولقد ظهر لنا بعد ذلك اننا نحن أيضاً أخطأنا في تقدير عدد المسلمين وانه أكثر من ٣٠٠ مليون بكثير وقد يناهز ٤٠٠ مليون

فسلمو الجاوى وسومطرة بلغوا في احصائهم الاخير ٥٠ مليوناً وليسوا ٣٥ مليوناً كما ذكرناه نقلاً عن احصاء قديم لا يزال جغرافيو أوربة يحرونه . ولقد نشر في العام الماضي رجل سويسرى كان في الجاوى مقالة في « جورنال دو جنيف » قال فيها ان مسلمي المستعمرات الهولندية بلغوا ٦٤ مليوناً

أما مسلمو الصين فلا تزال الأقوال متضاربة في عددهم فن الجغرافيين من يحزرهم بعشرين مليوناً ومنهم من يحزرهم بأكثر من ذلك بكثير . وفي هذه الايام لما وقعت الفتنة بين الصين واليابان من أجل منشوريا أبرقت الجمعية الاسلامية في الصين الى أوربة بتلغراف احتجاج على اليابان قالوا فيه انهم يتكلمون باسم خمسين مليوناً من مسلمي الصين ثم ورد تلغراف من توكيو يرد على مسلمي الصين زاعماً أنهم ١٥ مليوناً لا ٥٠ مليوناً . وفيه أن في منشوريا مليونين من المسلمين ينزعون الى تحرير منشوريا وما لا شك فيه أن التلغراف الياباني بخس مسلمي الصين عددهم بما رأى من شدتهم على اليابان .

ولقد حزرنا عدد المسلمين في العالم في مجلتنا « الأمة العربية » La nation arabe التي نصدرها أنا وسعادة أخى احسان بك الجابرى في جنيف نحن الوفد السورى الفلسطينى

في أوربة وذلك بنحو من ٣٣٣ مليوناً هذا على تقدير أن مسلمي الصين ٢٠ مليوناً فقط
أما إذا ثبت أنهم خمسون مليوناً فيكون المسلمون ٣٦٣ مليون نسمة

وتفصيلها هكذا : الجزيرة العربية ١٢ مليوناً . وسورية ٣ ملايين . وفلسطين
وشرقي الاردن مليون . والعراق ثلاثة ملايين ونصف . وتركيا أربعة عشر مليوناً .
ايران ١٠ ملايين وأفغانستان ٩ ملايين . والهند الانكليزية ٧٨ مليوناً . والصين ٢٠
مليوناً . وصيام نصف مليون . والروسية الآسيوية ٢٥ مليوناً
فهذه ٢٧٦ مليوناً في آسية

والروسية الأوربية قازان والقريم ٤ ملايين . وليتوانيا وبولونيا ٢٠ ألف نسمة .
ويوغوسلافيا مليون ومائتان وخمسون ألفاً . والمجار ثلاثة آلاف . ورومانيا ٢٥٠ ألفاً .
وبلغاريا نصف مليون . وبلاد اليونان ١٠٠ ألف . وألبانيا ٩٠٠ ألف
فهذه سبعة ملايين و٣٣ ألفاً

ومصر مع سودانها ١٨ مليوناً . وطرابلس ٧٠٠ ألف وتونس مليونان . والجزائر
خسة ملايين ومراكش ٨ ملايين . والصحراء الكبرى ٣ ملايين . والحبشة ٣ ملايين .
والغالا والصومال ٦ ملايين . وشرقي افريقية (زنجبار وسواحلها ودار السلام) ٦ ملايين .
والكونغو والأوغاندة مليون . والآداموا والكامرون مليونان . وغينية وفوتاجالون مليون
والسنغال مليون . وسلطنة سوكتو ١٥ مليوناً . وبورنو ٥ ملايين . وواداي ٥ ملايين .
وكام مائة ألف

فهذه ثلاثة وثمانون مليوناً في افريقية

والمستعمرات الهولندية (أندونيسيا) ٦٤ مليوناً . والفلبينيين مليونان

فهذه ستة وستون مليوناً في البحر المحيط بالاسيفيك

فيكون جملة المسلمين ٣٣٣ مليوناً و ٣٣٣ ألفاً . أما ان صح أن المسلمين في الصين
٥٠ مليوناً فيكون الجميع ٣٦٣ مليوناً هذا بالتقريب لأن بعض الممالك احصاؤها مضبوط
ككصر وتركيا وسورية والعراق وطرابلس والجزائر وتونس وايران والروسية والجاوى والهند
وبعضها نصف مضبوط كجزيرة العرب والحبشة ومراكش وسوكتو وواداي الخ وهذه
تؤخذ بالتقريب من الجغرافيات والرحلات على أن بعض الناس يرون احصاءنا لجزيرة

العرب ناقصاً ويرون فيها ١٥ مليوناً وأكثر. ثم اتنا، اماننا فيما بعد أن مسلمي يوغوسلافيا مليون وثمانمائة ألف نسمة وان مسلمي البلغار ثمانمائة ألف وان مسلمي رومانيا أربع مائة ألف أى أكثر مما ذكرنا بما يقرب من مليون في الممالك الثلاث المذكورة وقد فاتنا ذكر مسلمي قبرص وهم ٧٠ ألفاً ورودرس واستاتكوى وهم ٢٠ ألف نسمة

مسلمو الفيليبين

جاء في « مجلة العالم الاسلامي » الفرنسية تحت عنوان « السياسة الاسلامية » بقلم الكاتب المطلع على أحوال الشرق المسيو شاتليه Chatelier المجلة الآتية : —

« ان الحروب التي كان الكاثوليكيون الذين افتتحوا الفيليبين^(١) يصلونها مسلمي « سولو » لم تأت يثمرة من جهة منع أولئك القرصان عن اجتياح جزر ذلك الأرخيبيل ، الا في أواسط القرن التاسع عشر ، بعد وصول السفن الحربية على البخار . ولكن لما استولى الأميركيون على الفيليبين ، وكانوا ألطف ملكة من الاسبانيول ، تحولت حركة تلك المقاطعة الاسلامية من الاوقيانوس عن الدعارة الى التجارة .

« وبينما كان الماليزيون في بروني Brunei وسارافاك Saravak وبورنيو يترقون في درجات المدنية ، ويقتدون بالأوربيين مثل مسلمي ملقا ، وتجد منهم أعضاء الأندية والتجار والسامسة ، كان مسلمو الهند النيرلاندية يعرجون أيضا في مراق الحضارة الا في آتجه Atjeh حيث قوة التدين لا تبرح ظاهرة بمظاهر المقاومة الحربية ، أما فيما عدا هذا المكان من الجاوى وسومطرة والجزر القريبة ، فانك ترى الاسلام أبعد عن الفتن من الهيئات الاجتماعية التي ترجع الى نصاب هندي . ومضى زمن طويل على الماليزيين كانوا فيه تحت ضغط ادارى هولاندى من مبادئه القهر والاحتكار . فكانوا لا يتجاوزون أفق العمل لغيرهم كرها ، فأما في هذه الآونة الأخيرة فقد نالوا شيئاً من الحرية ، وبدأوا بالصعود المادى والمعنوى والاجتماعى ، فانتست أنظارهم الى ما يشمل عالم القارات الكبرى ولا ينحصر في عالم هاتيك الجزائر .

(١) راجع صفحات ٣٥٨ — ٣٦٣ من الجزء الأول

« وفيما يتجاوز الجزر التي تملكها هولاندة توجد جاليات من المسلمين مبعثرة في جزر الباسيفيك كما تباعدت من القاعدة المالايزية قل عددها ، ولكنها على كل الأحوال أكثر في هذه الأصقاع البعيدة من الجاليات الأوربية ، وهي تبث الاسلام هناك بالتجارة والأخذ والعطاء عوضا عن الفتح والغزو . وهكذا في نفس استراليا من جالة الافغان وتجار الهنود وصيارفة المالايزية ، جالية اسلامية لها جامع شهير في برث Perth ، كما أنك تجد مسلمين كثيرين من الهند في فانكوفر Vancouver من أميركا ، وتجد مسلمين ومسيحيين من أبناء اللغة العربية من سورية في الولايات المتحدة والارجنتين وزوجا مسلمين من افريقية في البرازيل » اهـ ثم قال : ان اسلام الشرق الأقصى نقطته النهائية في ماليزيا ويقدر بنحو ٤ مليوناً عدد المسلمين في مستعمرات هولاندة وبورنيو وسائر الجزر الى « بابوازيا » الى « الفيليين »

قفقاسيا

وبما وجدته في كمناشاتي التي أخذت ما فيها عن أوثق المصادر ما يلي : (١)
ان قافقاسيا ثلاثة أقسام كرجستان والطاغستان وبلاد الجركس
فكرجستان تحتوي أمة الكرج وهي أمة لها لسان خاص بها ومنهم مسلمون ومنهم نصارى ولكن النصارى أكثر . وعاصمة كرجستان تفليس ومن مدنها باطوم ومن أشهر أمراء الكرج المسلمين سنجاق بكى زاده ابراهيم بك وحسين بك ولابرهيم بك ولد اسمه أرسلان بك وولد اسمه حسن بك وولد اسمه محمد بك . وهذا قد نفته الروسية الى موسكو في أثناء هذه الحرب العامة وهذه الاسرة مناسبة مع أسرة جوروك صو على باشا زاده محمود باشا وأخوه أحمد باشا في تركيا . ومن مشاهير الرجال الذين خرجوا من الكرج المرحوم حسن فهمي باشا ناظر العدالة السابق في تركيا وكان من أعز أصدقائنا . وجميع الكرج ثلاثة ملايين المسلم منهم وغير المسلم . وفي كرجستان لاسيا في جوار تفليس مليون ونصف أرمني . وفي كرجستان قوم يقال لهم (اجاره) مسلمون أصابهم ضرر كبير أثناء هذه الحرب وأفنى الروس أكثرهم بحد السيف بحجة ميلهم الى الدولة العثمانية . أما الطاغستان فهي

قسمان طاغستان لزيكى والثانى طاغستان التركى فاللزيكون يتكلمون ويكتبون بالعربية ومحاكمهم لسانها العربى . وأما الطاغستان التركى فيتكلمون ويكتبون بالتركى أما الشيخ شامل فهو من اللزيكين من قرية « كمره » كان من مریدى القاضى ذى الجناحين محمد الكمراوى تلقى عنه العلم والفقه وهما من قبيلة (اوار) التى منها الامير حزة الخنزاخى وهذا كان من الامراء . وكلهم قد جاهدوا فى حرب الروس جهاداً شديداً . وأول من استشهد القاضى محمد فلما استشهد نصب الطاغستان مكانه الامير حزة فاستشهد بعد سنة من الحرب فانتخبوا مكانه الشيخ شامل . وعدد الطاغستان من ٧ الى ٨ ملايين وكلهم من أصل واحد ولكن بعضهم يتكلم بالتركى لسكون الاتراك تولوا البلاد قبلاً وبعضهم يتكلم العربى من زمان الفتح العربى اذ اختلطوا بالعرب وبلادهم باب الابواب مدفون فيها كثير من الصحابة وفى الطاغستان اليوم كثير من السادات . ومن عاداتهم ان الانسان لا يدخل مقبرة لهم بدون وضوء . وأما الجركس فهم من مليون الى مليونين وهم قبارتاي وازاخ وشابسخ واوبوخ . أما القوموق والشاشان والخذيك وتابسران وكراه وكوباه والجار وشكيشروان وباكو وكنجه وقره باك واغداش وطايش جيلان فكلها من الداغستان

ترجمة القرآن

ثم انه بعد تحرير هذا الفصل^(١) ظهرت كتابات فى موضوع ترجمة القرآن الكريم لجهبذين عظيمين من جهابذة الاسلام السيد رشيد رضا صاحب المنار ومصطفى صبرى افندى التركى شيخ الاسلام السابق فى السلطنة العثمانية رحما الله لايجوز لمن أراد أن يرتوى من هذا الموضوع أن يعرّد عنها

ولقد اشتمل كتاب مصطفى صبرى افندى على كلام شديد بحق الأستاذ فريد وجدى المصرى الذى سوّغ للاتراك الكمالين ترجمة القرآن والصلاة بها بدون قيد ولا شرط وآلم الناس أن يكون مثل فريد وجدى من يذهب هذا المذهب وهو صاحب المواقف المشهورة فى الذب عن الحقيقة الاسلامية ولا سيما فى مقالاته الأخيرة « الاسلام دين علم خالد » ولا جرم ان التساهل فى أمر الصلاة بترجمة القرآن بدون ثبوت العجز التام عن قراءة آية من آياته لا يلائم مع تأييد الدين الاسلامى الذى يقتضى تأييده قدسية نص الكتاب الالهى والمحافظة

(١) راجع صفحات ٢٠٥ - ٢١٣ من الجزء الاول

عليه كما نزل والاعتقاد بأن الصلاة بترجمته بدون عذر مقبول إنما هي فك من عراه الوثيق ومآل ذلك الى التصرف بالصلاة الى الحد الذي لا يعرف منتهاه ان زعم بعضهم ان الدين هو مجرد علاقة بين العبد وربه وانه مسألة قلبية يكفي فيها الخلوص وحسن النية الى ما أشبه ذلك من الأقاويل هو قول داحض اذا دقق المفكر فيه النظر ظهر له بطلانه فان الدين لأجل أن يسان في القلوب وان تعتمص به الشعوب يجب أن توفّر شعائره الظاهرة كما يجب أن تخلص فيه النية الباطنة وان يكون بعيداً عن التصرف والتغيير والتبديل الذي يؤول بالعقائد الى الفوضى ووربما انتهى بزواها بالمرّة . لقد سنت البشر كلها قوانين تجزى بالشدة كل من يخرق هيبة الملك أو يمس مقام الحكومة ملكية كانت أو جمهورية وما كان ذلك الا حرصاً على بقاء تلك الهبة في صدور الناس وتفادياً من ان تقتحمها العامة فيضعف بذلك الوازع الضروري بين البشر . وكما كانت هبة الملك واجبة ضرورية فهيبة الدين أيضاً ضرورية ومن أهم شروطها حرمة نصوصه وتقديس آياته كما نزلت

وأما ترجمة القرآن لأجل فهمه وتفسيره بكل اللغات فليس ذلك بجائز فحسب بل نراه واجبا على الأمة الاسلامية

مسألة الصلب وقول ابن حزم

وأما ابن حزم الأندلسي الفيلسوف الشهير البجاعة الكبير فرأيه في مسألة الصلب^(١)

هو مايلي :-

إن صلب المسيح عليه السلام لم يقله قط كافة ولا صح بالخبر قط لأن الكافة التي يلزم قبول نقلها هي إما الجماعة التي يوقن أنها لم تتواطأ لتنابد طرقهم وعدم التقائم وامتناع اتفاق خواطهم على الخبر الذي نقلوه عن مشاهدة أو رجوع الى مشاهدة ولو كانوا اثنين فصاعداً . واما أن يكون عدد كثير يمتنع منه الاتفاق في الطبيعة على التماذي على سنن ماتواطأوا عليه فأخبروا بخبر شاهدوهم يختلفوا فيه . فما نقله أحد أهل هاتين الصفتين عن مثل إحداهما وهكذا حتى يبلغ الى مشاهدة فهذه صفة الكافة التي يلزم قبول نقلها ويضطر

خبرها سامعها الى تصديقه وسواء كانوا عدولا أو فساقا أو كفاراً ولا يقطع على صحته إلا يرهان .

فلماصح ذلك نظرنا فيمن نقل خبر صلب المسيح عليه السلام فوجدنا كوافاً عظيمةً صادقة بلا شك في نقلها جيلا بعد جيل الى الذين ادعوا مشاهدة صلبه فان هنالك تبدلت الصفة ورجعت الى شُرط مأمورين مجتمعين مضمون منهم الكذب وقبول الرشوة على قول الباطل والنصارى مقرون بأنهم لم يقدموا على أخذه نهائياً خوفاً من العامة وإنما أخذوه ليلاً عند افتراق الناس عن الفصح وأنه لم يبق في الخشبة إلا ست ساعات من النهار وأنه أزل أثر ذلك وأنه لم يصب إلا في مكان نازح عن المدينة في بستان نزار مملك للفخار ليس موضعاً معروفاً بصلب من يُصلب ولا موقوفاً لذلك . وأنه بعد هذا كله رشي الشُرط على أن يقولوا ان أصحابه سرقوه ففعلوا ذلك وان مريم المجدلانية وهي امرأة من العامة لم تقدم على حضور موضع صلبه بل كانت واقفة على بعد تنظر هذا كله في نص الانجيل عندهم فبطل أن يكون صلبه منقولاً بكافة بل بخبر يشهد ظاهره على أنه مكتوم متواطئاً عليه وما كان الحواريون ليلتئذ بنص الانجيل إلا خائفين على أنفسهم غيباً عن ذلك المشهد هاربين بأرواحهم مستترين وان شمعون الصفا غرر ودخل دار قيقان الكاهن أيضاً بضوء النهار فقال له أنت من أصحابه فاتتني وجحد وخرج هاربا عن الدار . فبطل أن ينقل خبر صلبه أحد تطيب النفس عليه على أن نظن به الصدق فكيف أن ينقله كافةً و (هذا) معنى قوله تعالى (وَآسَكْنِ شُبَّهَ لَهُمْ) إنما عنى تعالى أن أولئك الفساق الذين دبروا هذا الباطل وتواطأوا عليه هم شبهوا على من قلدتهم فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه وهم كاذبون في ذلك عالمون أنهم كذبة ولو أمكن أن يشبه ذلك على ذي حاسة سليمة لبطلت النبوات كلها إذ لعلها شبهت على الحواس السليمة ولو أمكن ذلك لبطلت الحقائق كلها ولا يمكن أن يكون كل واحد منا يشبه عليه فيما يأكل ويلبس وفيمن يجالس وفي حيث هو فعله نائم أو مشبه على حواسه وفي هذا خروج الى السخف وقول السوفسطائية والحاقة وقد شاهدنا نحن مثل ذلك وذلك أننا اندرنا للجبل لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر فرأيت أنا وغيري نعشاً فيه شخص مكفن وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ومن عدول القضاة في بيت وخارج البيت أبي رجه الله وجاعة عظماء البلد ثم صلبنا في ألوف من الناس عليه ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيا وبويع بعد ذلك بالخلافة ودخلت أنا عليه وغيري وجلست بين يديه ورأيتُه وبقى ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام . انتهى

عود الى رأى المستشرق هورغرونيه

من بعد الطبعة الأولى من هذا الكتاب أتيت لنا أن تتلاقى مع الاستاذ المستشرق الشهير سنوك هورغرونيه^(١)

وذلك أنه في أواخر سنة ١٩٣١ انعقد مؤتمر المستشرقين في ليدن من هولاندة وجاء نحو من ألف مستشرق من جميع الأقطار وكانت رئاسته معقودة اللواء للاستاذ هورغرونيه . وكان محرر هذه السطور من أعضاء هذا المؤتمر وألقيت في منتدى القسم الاسلامى منه محاضرة في علاقة اللهجات العربية بالتاريخ نشرتها مجلة المقتطف . وعملاً أمريياً فيه أن هذا المؤتمر كان حافلاً بالفوائد وانه قد أقيمت فيه نفائس من المحاضرات في كل قسم من أقسامه نادرة في بابها

ولما حصلت المعرفة بيني وبين الاستاذ المشار اليه قال لى ان بيننا نقطة خلاف لا بد من ازالة الشبهة فيها ولكن بعد أن يتسع لنا الوقت . فقلت له : انى منتظر هذه الفرصة وانقض المؤتمر بعد عشرة أيام من انعقاده لكن لم يتيسر لنا الاجتماع من كثرة الاشتغال وشدة الازدحام . وغاية ما حصل أنى لما ودعت الرجل قال لى : انتى أنا لم أقل شيئاً ماساً بالاسلام . فقلت له : أنا انصفتك وذكرت مالك وما عليك . فقلت انك عارضت القائلين من الهولانديين بأن جميع المسلمين فى أندونيسيا ليسوا بمسلمين والقائلين بأن هولاندة أن تحملمهم على النصرانية . وهذه مأثرة لا تُنسى لك . وكذلك عارضت القائلين بمنع الحج وقلت انه لا يضر على هولاندة من الحج . ولكنك قلت ان سن القوانين من الشريعة الاسلامية هو غير موافق لأنه يبنى لنا أن نفهم المسلم أنه لا يقدر أن يعيش معيشة عصرية راقية وهو متمسك بشريعته وانه يجب أن يعلم أن شريعة الاسلام لا تتسع لقبول المدنية الحاضرة . وهذا غير صحيح لأن المدنية التى أمكنها أن تنطبق على النصرانية يمكنها أن تنطبق على الاسلام . فقال : لكن القانون يحتم العمل بوجه واحد والشريعة لا تحتم الأخذ بمذهب واحد من مذاهب الفقهاء . فقلت : للسلطان أن يرجح أحد المذاهب ويوجب العمل به وهكذا فعلت الدولة العثمانية . فسكت . ثم قال لى : ان الملاحدة من مسلمى الجاوى هم أشد تعصاً على هولاندة من المتدينين . قلت : نعم ومع ذلك فأتم وجميع الاوربيين لا تكروهون الاحاد والملاحدة كما تكروهون الاسلام والمسلمين بل العدو الاكبر

عندكم هو الاسلام والحال ان الاسلام كدين يتفق مع النصرانية في مبدأ مقاومة الالحاد والاباحة وفي معارضة الشيوعية . واني لانصحك أن تنصح قومك الهولانديين لانك مسموع الكلمة بينهم في الامور الاسلامية أن لا يروجوا في بلاد أندونيسا سياسة التنصير وأن يلزموا الحياء في الدين ولا يجعلوا الحكومة آلة لأجل دعاية دينية فلا تجنحى هولاندة من سياسة كهذه سوى الضرر لنفسها . فأوماً لى بأن هذا صحيح

ثم كتبت اليه وكتب لى عدة مرار . وأرسلت اليه برسالة « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » فقرأها وأجابني بأنه يوافقني على كثير من نظرياتي الا أنه يخالفني في بعضها وذلك مثل قولي ان اليابانيين تقدموا الى أقصى ما تقدم اليه الاوربيون من المدينة الحاضرة ولبشوا من أشد الامم اعتصاماً بعقيدتهم وتقاليدهم . فقال : ان اليابانيين ساكنون في جزائر ليس بينهم أمم أخرى تخالطهم الخ

فأجبتة : ان موضوع البحث هو هذا : هل يمكن المسلمين أن يترقوا ترقى الأمم الاوربية أو الامة اليابانية مع بقائهم مسلمين ومعتمدين بعقيدتهم وتقاليدهم أم لا ؟ فنحن نقول : نعم : يمكن ونضرب مثلاً على ذلك هو كون أوربة ترقى هذا الترقى المادى كله وبقيت متمسكة بديانته هي أقدم عهداً من الاسلام باكثر من ستمائة سنة . وكذلك اليابان رقت هذا الترقى نفسه وهي معتمدة أشد الاعتصام بعقائد وتقاليدهي هي أقدم عهداً من الديانة المسيحية نفسها بقرون . فياليت شعري لماذا المسلمون وحدهم هم الذين لا يمكنهم الرقى الا بخلع الدين الاسلامى ؟ كما يزعم بعض أعداء هذا الدين . ولماذا هذا الاستثناء للاسلام ؟ فلم يحر الاستاذ على هذا جواباً

وفاتنى أن أذكر أن ناظر معارف هولاندة عند ما افتتح مؤتمر المستشرقين في ليدن في خامس يوليو سنة ١٩٣١ قرأ على ذلك الحشد الكبير من العلماء من كل قطر خطبة ترحيب فيها قال :

« ان تبسُّط الأمة الهولاندية في المشرق لم يكن المقصد منه مجرد المكاسب المادية بل أكثر ما قصدته هولاندة بذلك هو نشر فضائل النصرانية »

فذكرت هذا في حديثي لسنوك هورغرونيه وقلت له : كيف تدعون المسلمين الى ترك الاهتمام بأمر دينهم ورجالكم الرسميون يعلنون مثل هذا الكلام في محفل كهذا المحفل . فوجم الأستاذ من سماع كلامى هذا ولحظت من وجهه انه كان متأثراً من هذا التظاهر الرسمى بالدعاية المسيحية . فان الحكمة عندهم هي في العمل بدون اعلان

ولقد سمع كل من كان فى المحفل هذه الجملة ومنهم الوفد التركى الانقرى الذى كان يمثل حكومة لا تفتأ تقول للمسلمين : ما دمتم متمسكين بالعقيدة الاسلامية فلا يرجى لكم نجاح أفلا ترون الأوربيين كيف نجحوا وأفلحوا بعد أن نبذوا النصرانية ؟
وأي نبد الأوربيين النصرانية ؟ لا نعلم أين ! ولا متى !
وكان فى هذا المحفل حاضراً هذا الخطاب أيضاً الوفد المصرى وبينهم الدكتور طه حسان

السيد احمد الشريف السنوسى

إنه من بعد ظهور الطبعة الأولى^(١) من هذا الكتاب قد جد من أخبار السيد أحمد الشريف السنوسى ما يلى :

إنه كان آخر إقامته بتركيا فى قرية خريستيان كوى بظاهر مرسين وكانت الحكومة التركية تجرى عليه الأرزاق التى تكفيه كضيف كريم كان حليفاً للدولة العثمانية ثم بعد سقوطها انحاز الى جهة الحكومة الوطنية فى أنقره واستعمل نفوذ كلمته فى الأناضول سواء كان فى قونية أو فى بلاد الأكراد لأجل تأييد الحكومة الكمالية التى كانت تمثل الاستقلال التركى . وبقى الأتراك الكماليون يكرمون الأستاذ السنوسى ويحسنون معاملته إلى أن فازوا على اليونانيين وتم الفوز بعقد معاهدة لوزان التى ضمنت استقلال تركيا . فمن بعد ذلك فترت تلك المودة التى كانوا يظهرونها للسنوسى وصاروا يتربصون فرصة لأجل التخلص منه والاشارة إليه بالخروج من تركيا التى وجوده فيها قد يغيظ إيطاليا . ورأوا بالاختصار أنه لم يبق عوز إليه كالمضى عندما كان مصطفي كمال يقول له إن تركيا كلها طوع وإرادته وإنهم هم إنما ينوبون عنه فى الحكم وانه لو شاء يباعدونه بالخلافة . وبيناهم يفكرون فى التخلص من السنوسى إذ سنحت لهم هذه الفرصة بهفوة صغيرة جسّموها عمداً وهى أنه قد جاءه فى أحد الايام شاب تركى من طلبة العلم كان تلقى الطريقة السنوسية وقال له إنه متوجه الى بيروت لزيارة الأمير سليم كبير أولاد السلطان عبد الحميد المقيم بتلك البلدة وإنه يلتمس منه كتابا الى الأمير سليم توصية به فاعتنر له السيد بأنه لم تسبق مراسلة بينه وبين الأمير فألح الشاب المذكور عليه وبكونه مريداً للطريقة لم يجد السيد

بدأ من إعطائه ذلك الكتاب الذي ختمه السيد بقوله (والله مع الصابرين) وهي آية كريمة توافق الحالة التي عليها الأمراء آل عثمان بعد سقوطهم هذا من أعلى الدرجات الى الهاوية التي أصبحوا فيها الآن . فذهب الشاب التركي بهذه الوصاة من مرسين قاصداً يروت ففي اجتيازه الحدود بين ولاية أظنه وحلب قبض عليه الخفراء الأتراك الذين على الحدود وقتلوا في جيوبه فوجدوا ذلك المكتوب فقدموه الى أنقرة فصدر الأمر من أنقرة بارسال الرجل إليها حيث استنطقوه بمزيد التدقيق والتشديد فاخبرهم بأنه هو الذي ألح على السيد باعطائه هذه التوصية واعترف بأنه كان قاصداً زيارة الإمبراطور سليم أفندي ابن السلطان عبد الحميد . فأحالوه الى محكمة الاستقلال التي كانت تحكم بدون استناد على مواد قانونية بل بمجرد الوجدان بزعمها وقتلت على هذه الصورة ألوفا من الأبرياء الذين لا ذنب لهم سوى كونهم في ذات صدورهم لا يحبون الحكومة الجمهورية ومن جلتهم هذا المسكين الذي أصروا برم حتى نال تلك الوصاة من السيد السنوسي بدون ارتياح منه . ولما فرغوا من قتل الرجل عادوا الى السيد فأمروا الى مرسين بأن يقول له ليخرج حالا من تركيا . فلما أبلغه الوالي الأمر وكان لم يوجد في يده ما يساعده على السفر استمهل الحكومة بعض أيام حتى يتمكن من بيع بعض أشياء يستعين بها على الرحيل فصدر الأمر ثانية بعدم إمهاله ولا ساعة واحدة : وكانت حكومة أنقرة وعدته بأنه إذا أراد مغادرة تركيا بانها تؤدي اليه التي جنيه يستعين بها على السفر فنسيت الحكومة الأتقرية هذا الوعد وعدت هذا الكتاب الذي كتبه السيد السنوسي الى الامير سليم أفندي خيانة فظيعة لها ولا سيما استشهاده بالآية الكريمة (وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) . ورأوا في ذلك إشارة الى كون السنوسي يتمنى رجوع آل عثمان الى الملك فأكبروا هذا الأمر إكباراً ونشروا صورة السيد في بعض جرائدهم ووضعوا تحتها هذه الجملة (بزى خيانت ايدن سنوسى) وبالجملة فقد حققوا ما ينسب اليهم من قلة الوفاء وقلبوا ظهر المجن لاجل هفوة غير مقصودة لرجل بقيت تركيا في طرابلس الغرب عدة سنوات تقاتل بسيفه وسيوف رجاله وتحافظ على شرفها بين الدول بواسطة اتباعه . ثم بعد ذلك أعملت لديه الوسائل حتى جلته على ترك مدينة بورصة والمجيء الى الأناضول منحازا الى الحكومة الأتقرية ثم لجأت إليه في تسكين ثورة قونية ثم في تسكين قبائل الأكراد عند مبدءوا بالعصيان على أنقرة وتمكن السيد ذلك اليوم

من ابقائهم فى دائرة الطاعة . هذا وخرج السيد مبادرا وقصد دمشق الشام ومنها جاء الى بيروت ثم زار القدس الشريف ثم عاد إلى الشام ومنها ذهب بالسيارات الى المدينة المنورة . وقد قام الأمير سعيد الجزائرى من إضافته واکرامه مقاماً يحمده . وبعد أن استقر السيد السنوسى فى المدينة المنورة مدة من الزمن جاء الى الحج وأقام عدة أشهر فى مكة ثم قصد بلاد عسير ضيفا على السيد حسن الادريسي أمير صبيا وجيزان . وبقي عنده زمناً لما بين هاتين الاسرتين من القرابة والعلاقة ثم عاد السيد الى مكة وأقام مدة بالطائف ومدة بالزواية السنوسية فى جعرانة بقرب مكة ولما حججنا سنة ١٣٤٨ تلاقينا معه فى مكة وكان أوأناثد على أوأناثد قاصد المدينة المنورة وهو فى هذه الايام أيضاً مقيم بها . قصدنا الحاق هذه الاخبار بترجته إذ لا تم الا بها . وهو خاتمة كبار السادة السنوسية وبقية السلف الصالح رحمة الله رحمة واسعة

تقرير

عن القضية الطرابلسية البرقاوية

نضم الى هذا المبحث (١) هذا التقرير الذى تقدم الى المؤتمر الاسلامى فى القدس

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ أن أخذ الاوربيون يشنون الغارة على البلاد الاسلامية بحجة الاستعمار لم تفجع بلاد اسلامية — بعد الأندلس — بمثل ما فجعت به طرابلس — برقة ، تلك البلاد التى منذ سطا عليها الايطاليون وسيوف تقمتمهم لم تبرح أعناق أهلها بدون رحمة ولا شفقة ، حتى آلت الى مجزرة بشرية ومرسح تمثل فيه أفظع الأدوار الهمجية .

لا يزيد أن نطيل البحث فى مناقشة الوسائل التى تدرعت بها الدولة الايطالية لاحتلال طرابلس — برقة التى لا تربطها بها أية علاقة ، ونكتفى هنا بنظرة عامة فى تطور القضية الطرابلسية منذ الاحتلال الايطالى الى يومنا هذا ، إذ أن المجال لا يسمح بسرد جميع الحوادث مفصلة :

لقد أغارت الدولة الايطالية على القطر الطرابلسى — البرقاوى فى ٥ تشرين الأول سنة ٩١١ على حين غفلة من أهله ، وكان مع خلوه من المعدات الحربية لم يكن به من الحامية العثمانية سوى ثلاثة آلاف جندى مبعثرين فى عدة مناطق . بيد أن سكان تلك

البلاد الذين كلهم كتلة عربية - اسلامية واحدة قد فطروا على عزة النفس والاباء . لذلك قاموا فى وجوه الغاصبين قومة رجل واحد يدافعون عن أوطانهم ويدودون عن حياضهم بقلوب ملؤها الايمان بالله والاعتماد عليه .

واستمرت الحرب سنة كاملة لم تتمكن فى خلالها الجنود الايطالية من التقدم شبراً عن مرمرى مدافع اسطولهم ، الى أن اضطرت الدولة العثمانية الى عقد صلح مع الايطاليين منحت فيه الطرابلسيين استقلالهم الادارى وسحبت جنودها وهى مرغمة

وعقب ذلك أخذ الايطاليون يدعون أهالى البلاد الى السكينة ويظهرون لهم حسن النية خير تلك البلاد فوضعت الحرب أوزارها وألقى أكثر أهالى طرابلس - برقة السلاح وعادت السيوف الى أعجمها . ولكن رجال الدولة الايطالية ما كادوا يظفرون بتجريد الأهالى من السلاح حتى قلبوا لهم ظهر المجن واخذوا يسومونهم سوء العذاب وينتقمون من كل من حرص الناس على قتالهم فيخلقون لهم تمها واهية ويزجون بعضهم فى أعماق السجون ويرمون بالبعض الى جزر ايطاليا .

فثارت نائرة القوم من تلك الأفعال المنافية للعهود والمناقضة للوعود فانقضوا على ايطاليا . وكانت أول وقعة دموية جرت وقعة تسمى بوقعة « القرضائية » وهو مكان قرب خليج سرت . جرت تلك الوقعة فى أوائل سنة ١٩١٤ أضع فيها الايطاليون ما ينيف على « ٨٠٠٠ » جندى . وعقب ذلك ازداد حقد الايطاليين على الأهلين فأنهالوا على العزل منهم بالقتل والتعذيب فقتلوا فى يوم واحد من الأعيان ورؤساء القبائل رمياً بالرصاص ٣٠٠ نسمة فى قضاء سرت وأخذوا يقتلون الأبرياء والشيوخ والأطفال من النساء والرجال

وعلى أثر ذلك اشتعلت فى البلاد نار حرب سرى لهيها فى كل ناحية من النواحي وظلت الفتن تتقد الى أن نشبت الحرب العالمية فارسلت الحكومة العثمانية بعض القواد العسكريين منهم نورى باشا شقيق أنور باشا الشهير . عندئذ اضطرت الجنود الايطالية أن تنسحب من كل المواقع التى أشغلتها أثناء السلم وتحصن فى مدينة طرابلس . زواره ، الخمس ، بنغازى ، درنه ، طبرق ، الى أن انتهت الحرب الكبرى فخرجت ايطاليا منها وعسكرها منهوك القوى لما لاقى من الهزيمة تلو الهزيمة فى ساحات الحرب الاوربية .

ورغم ذلك سافت عدة فيالق من جيوشها الى طرابلس — برقة وجهزت منهم مائة الف جندي زحفت بهم على خطوط المجاهدين في منطقة طرابلس . وما كادت تدور رحى الحرب بين الفريقين حتى انهزم ذلك الجيش العرمرم شرهزيمة وغنم المجاهدون منهم أسلحة ومعدات حربية كثيرة

ولما باءت الدولة الايطالية في تلك التجربة بالفشل وعلمت أنها غير قادرة على اخضاع الشعب بقوة الحديد والنار عمدت الى التضييل والتمويه فسنت قانوناً سمته « القانون الأساسي » وأعلنته في سنة ١٩١٩ ومع انه جاء غير ضامن لحقوق الأهلين قبلوا به بغية حقن الدماء وراحة الفريقين وانتظروا من رجال الحكومة الايطالية تنفيذه ثم ما لبث أن ظهر أنهم اتخذوه غشاوة على أعين الناس وأخذوا يشنون بذور الفساد من وراء الحجب ويوزعون على بعض سخفاء العقول المبالغ الطائفة من الأموال والسلاح والنخائر الحربية لايقاد نار الفتن بين الأهلين والتفريق بين الوطن وبنيه والاخ وأخيه . وكادوا يصلون الى رغائبهم ويوقعون البعض في تلك الحبائل التي نسجتها أيديهم الاثيمة ، لولا ان عقلاء البلاد أدركوا تلك الدسائس وتلافوا الأمر بعقد مؤتمر عام في مدينة غريان ضم نخبة من رجالات البلاد في سنة ١٩٢٠ فتبادلوا الآراء وفكروا فيما ينقذ البلاد من الفتن والفوضى . وكان الجيش الايطالي وقتئذ كما ذكرنا آنفاً منحصرأ في بعض المدن الساحلية .

وبعد المداولة في جلسات متوالية قرروا بالاجماع مايلي :

« ان الحالة التي آلت اليها البلاد لا يمكن تحسنها الا باقامة حكومة قادرة ومؤسسة على مايحتمه الشرع الاسلامي من الأصول تحت زعامة رجل مسلم منتخب من الأمة لايعزل الابحجة شرعية وقرار مجلس النواب ، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكلها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وان يشمل حكمه جميع البلاد بمحدودها المعروفة .

وقد تناقش المؤتمر في أن ذلك لا ينافي منافع دولة ايطاليا التي جاءت الى وطننا من أجلها مع اللزوم القطعي لراحتنا وسلامتنا وبين ثقة في أن الشعب الايطالي لا يرضى في هذا الزمن الذي تنال فيه كل الأمم أ كبر أمانيتها ، أن يقيم نفسه من أجل مطامع وأوهام فئة المستعمرين عقبه في سبيل النظام والامن والعدل في طرابلس الغرب ولذلك لا تزال للامة

ثقة فى أن تسعف بضرورياتها وان لا تصادم فى أمنية لا ترضى ولا يستقر لها حال بغيرها
وقد أنبنا للمطالبة بذلك وفدأ من حضرات نورى بك السعداوى ومحمد خالد بك
القرقى ومحمد فرحات بك ومحمد الصادق بك ابن الحاج ليراجع كل مصدر يرى ضرورة
مراجعتة لتحقيق الغاية المذكورة فى القرار المبين أعلاه داعين المولى جل شأنه أن يوفقهم
وأن يحقق أمانى أمتنا حرر فى ٦ ربيع الأول سنة ١٣٣٩

ثم اتخب المؤتمر هيئة حكومة عهد اليها ادارة شؤون البلاد الداخلية التى عمت فيها
القوضى بسبب الفتن التى خلقها رجال الحكومة الايطالية . وذهب الوفد المشار اليه فى ذلك
الحين الى رومية ليبلغ حكومتها ما أجمع عليه الشعب من المطالب وأخذ يراجع المقامات
الرسمية وغير الرسمية فلم يكن حظه من رجال الحكومة الايطالية سوى الاعراض
والاستخفاف بمهمته .

أما هيئة الحكومة الوطنية التى عهدت اليها ادارة شؤون البلاد فانها أخذت فى اقرار
دعائم الامن وتنظيم الشؤون الادارية كالدوائر المالية والقضائية وتنظيم الجيش لما سيحدث
من الطوارئ فساد الامن ورجعت الطمأنينة بعد الخوف الذى استولى على النفوس
وانصرف الاهلون الى معائشهم ومصالحهم

أما منطقة بنغازى فان نورى باشا الذى أوفدته الحكومة العثمانية اليها خلال الحرب
العالمية حمل الاهالى على التعرض على القطر المصرى وهى خطة رسمتها وزارة الحربية
العثمانية فجهز جيشاً مؤلفاً من « ٥٠٠٠ » مجاهد بالاتفاق مع السيد أحمد الشريف السنوسى
وتجاوزا به الحدود المصرية وترك السيد أحمد الشريف وكيلاً عنه فى برقة ابن عمه السيد
ادريس السنوسى .

ولمادخل المجاهدون الحدود المصرية اصطدموا بالجيوش الانكليزية وبعده حروب
بين الفريقين تراجع المجاهدون بصورة غير منظمة وخلال ذلك عمت الفاقة منطقة برقة
واشدت المجاعة

فراى السيد ادريس من الحكمة أن يعقد هدنة مع الايطاليين وأوقف رحى الحرب
وبعد انتهاء الحرب الكبرى بايعه الشعب البرقاوى بالامارة ووافقت على ذلك الحكومة
الايطالية بمقتضى معاهدة عقدت بين الفريقين .

بيد أن رجال الحكومة الإيطالية كعادتهم في كل عهد يعقد معهم أخذوا ينقضون العهود ، فاضطر الأمير السيد ادريس أن يوحد مساعيه مع حكومة طرابلس الوطنية وعقدت الاتفاقية بين الفريقين المعروفة باتفاقية « سرت » المتضمنة توحيد القطرين الشقيقتين والنضامن على المطالبة بحقوقهما معاً ؟ وتنص المادة الخامسة من هذا الاتفاق على توحيد الزعامة وتنصيب أمير واحد للقطرين .

وما كادت هذه الاتفاقية تم حتى هاجم الإيطاليون سواحل مصراته في منطقة طرابلس سنة ١٩٢٢ فأعلنت الحكومة الوطنية الحرب في كل المناطق واستمرت الحرب بشدة هائلة ثلاثة أسابيع عجز الإيطاليون خلالها عن التقدم ولو كيلو متراً وضحت البلاد بالوف من الخلق في سبيل الدفاع ، كما ان الإيطاليين خسروا اضعاف ذلك لأنهم كانوا المهاجين . ولما أيقنوا بالخيبة والفشل طلبوا توقيف القتال بغية التفاهم وابتدبوا للذاكرة السنيور « بيلا » والسنيور « رابكس » وخرجا في الموعد المضروب الذي قرره الحكومة الوطنية في مكان يسمى « فندق الشريف »

وقد كتبت الحكومة الوطنية للوالى الكتاب الآتى : « باندفاع أسلافكم مع تيار الفتنة والتفريق حدثت في البلاد حالة فوضوية وقفت الحكومة الإيطالية أمامها موقف المتفرج فاضطرت الأمة الى عقد مؤتمر في غريان بلغت مقرراته الصائبة الى الحكومة وأرسلت وفدها للمطالبة بما أجمع عليه المؤتمر فلم يكن حظه الا الاعراض والاستخفاف بمهمة ذلك الوفد مع استمرارها على خطة المراوغة والتفريق

ولما حال الحول على وفدنا وهو يستعطف المصادر الرسمية وغير الرسمية والحكومة مصرّة على تلك السياسة المنفورة . وتحقق أهل القطرين طرابلس — برقة ان حياتهما محفوفة بالخطر في الحال والاستقبال وان ما دهم أحد القطرين لا بد أن يحيق بالآخر لما بينهما من العلاقات المادية والمعنوية لا سيما ان ادارتهما الى عهد الاحتلال واحدة عندئذ تبادل عقلاء الفريقين المراسلات والآراء فيما يضمن الراحة ويفسح مجال الاخاء ويسهل سير الأمتين العربية والإيطالية في سبيل الحياة الاقتصادية مع المحافظة على حق ايطاليا السياسى .

فقرر الفريقان بالاجماع في سرت اتفاقية من جملة فصولها المطالبة بتوحيد ادارة

القطرين وهو الحل النهائى الذى لا يبقى معه ريب لهذه القضية المعضلة التى لا تزيدنا سياسة المراوغة والتفريق وطول الأمد الا تحكما فى عقد الخلاف فتصبح من الأمراض المزمنة ويعسر حلها فضلاً عما تصاب به الامتان من الخسار وما يفوتهما من المنافع كما لا يخفى

أما نحن أهل القطرين فان الادوار المحزنة والتجارب المؤلمة أرشدتنا الى صورة حل هذه المشكلة حلا لاحظنا فيه المنافع الايطالية سياسية كانت أو اقتصادية وهو أن تؤسس حكومة نيابية للقطرين يرأسها رجل مسلم تنتخبه الامة وتكون له السلطات الادارية جميعها مع السلطة الدينية ولا نظن أن الحكومة لا تستحسن هذا الحل المقيد ان تجردت عن ملاحظة الاشكال والاعتبارات ووجهت دقيق نظرها الى الحقائق والجوهريات . كنا قررنا مهادنة للتفاهم والمفاوضة وعلما خلاها ان سفرهم الى روما بقصد التفاهم مع حكومة جلالة الملك والحصول على إذن وصلاحيه واسعة تخول لكم المفاوضة معنا للوصول الى ما يرفع الخلاف الذى لا تتحمل البلاد دوامه ورعاية لاحكام اتفاقية سرت المذكورة فاننا فى انتظار مندوبى برقة الذين قرب وصولهم بالنظر لاشعار سمو الأمير السيد محمد ادريس ومتى وصلوا يتعين الزمان والمكان للمذاكرة التى لا نشك أنها ستبنى على أساس الاخلاص وحسن النية والأمل وطيد فى أن دولتكم ستضمون الى تاريخ حياتكم السياسية خيراً آخر فى حل المشكلات واقبلوا يادولة الوالى عاطر التحية وفاق الاحترام

وبعد استمرار المذاكرة ثلاثة أشهر والايطاليون يراوغون فى أحاديثهم مراوغة الثعالب تبين أن الغاية من توقيف القتال وتلك المذاكرة الاستفادة من الوقت لاعداد العدة للحرب وقد تجلت فكرتهم هذه فى تكليفهم الأخير وهو طلبهم تسليم السلاح الذى بيد الأهلين قبل كل حل والا الحرب ، عندئذ لم تر الحكومة الوطنية بدأ من رفض هذا الطلب وخوض غمار الحرب ، واستؤف القتال الذى لم يزل شرره يستطير من ذلك التاريخ الى يومنا هذا

ان الحكومة الايطالية بعد ان اتخنت كل ما فى وسعها من الوسائل لتفريق كلمة أبناء البلاد ولم تنجح ورأت ذلك الشعب متضامناً مستميتاً فى سبيل الشرف والمطالبة بحقوقه عمدت الى تنفيذ سياسة الشدة والارهاق خصوصاً بعد استلام الفاشيست زمام الحكم فانهم أضافوا الى تلك الشدة فكرة ابادة ذلك الشعب واعمانه لتخلو لهم الديار ويستخلفوا

فيها المستعمرين من أبناء جلدتهم الذين ضاقت بهم أرضهم وهكذا أخذ الفاشيست في تنفيذ سياستهم الغاشمة وما برحوا ينزلون بذلك الشعب العربي ضروب العذاب فلا يرحون طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً

فانهم يحكمون البلاد بأحكام عسكرية وأعمدة المشانق منذ الاحتلال حتى يومنا هذا لم تزل منصوبة في كل بلد من ذلك القطر فادارة البلاد تحت حاكم عسكري مطلق اليد لا يستل عما يفعل وله في كل لواء وقضاء وناحية حاكم ادارى وجميع الدوائر المالية والعدلية والبلدية يديرونها بمعرفتهم وليس للأهلين مشاركة في شؤون بلادهم ولا يستخدمون منهم حتى الخدم ولا الحجاب أيضاً الذين يقفون على الابواب وجميع المعاملة باللغة الايطالية والأغرب من هذا كله ان جباة الأموال من الفاشيست فيطرحون الضرائب ويجبونها من المكلف وهو لا يدري ما عليه ولا يعرف باية نسبة تجبي منه تلك الضريبة بل انه مرغم على ادائها عن يد وهو صاغر واذا سأل سائل عن أساس الضريبة يعد خائناً ويعاقب العقاب الأليم .

وبالجملة فان السياسة المرهقة التي تتمشى عليها الحكومة الفاشستية لم يسبق لها مثيل منذ ان عرف التاريخ ، فسفك الدماء وقتل النفوس البريئة والتجاوز على الاعراض والنفي والحكم بالسجن المؤبد وسلب الأموال وغصب الاملاك والأراضى من أيدي أصحابها وقذف البشر من الطائرات والقاء بعضهم مكبلين بالاغلال في لجج البحر وقتل الاسرى وهتك حرمت الدين ودوس القرآن الكريم تحت الاقدام امام جاهير من المسلمين وهدم اضرحة بعض الصحابة الكرام والاولياء واتخاذها اصطبلات للحيوانات والترم بالاناشيد في الطعن بالدين الاسلامى فحدث عن ذلك ولا حرج ، ولا يزيد أن نأتى في هذه العجالة على ذكر الفظائع التي كتب فيها تأليف خاص يغنيننا عن التفصيل فان فيه من الفظائع ماتتفطر منه الاكباد ويذيب الفؤاد

ومنه يعلم القارىء أن سياسة الفاشيست في ذلك القطر ترمى الى اباده أهله فقد كان عدد الشعب الطرابلسى — البرقاوى قبل الاحتلال الايطالى يربو على « ١٦٥٠٠٠٠٠ » نسمة وقد صرح الجنرال غرتسيانى قائد الحركات العسكرية انه بعد الاحصاء الدقيق تبين أن سكان طرابلس — برقة لم يتجاوز عددهم « ٧٠٠ » ألف ولا ريب في أنهم قد قفوا

على ذلك الشعب المسلم بين قتل وتهجير والبقية الباقية أيضاً محكومة بالفناء لأن الضغط الشديد وشد الخناق على الاعناق لا بد أن يؤدي الى تلك النتيجة وعدا ذلك فان مرافق الحياة في تلك البلاد قد استولوا عليها جميعاً فالمسلم لا يتمكن من الاشتغال بالزراعة ولا بالتجارة ولا بأية حرفة تؤمن معاشه فالتاجر لا يمكنه التوسع بالتجارة والتجول في البلاد لتوسيع نطاق عمله بل أنهم يحددون له المبالغ التي يمكنه أن يتاجر بها والايام التي يتغيبها في الاقطار المجاورة وصنف البضاعة واذا تغيب عن الاجل المضروب له أو تاجر بأصناف غير مسموح له بها تسحب من يده اجازة التجارة ويعاقب ؛ زد على ذلك انهم أطفأوا نور العلم وتركوا ذلك الشعب يتخبط في دياجير الجهل فلم تكن في تلك البلاد الا بضع مدارس ابتدائية أسست في عهد الترك يعلمون فيها الاطفال باللغة الايطالية للوصول الى اماتة اللغة العربية حتى لا تبقى ناحية من مقومات ذلك الشعب الا ويقضى عليها القضاء المبرم

ولما رأَت الجاليات الطرابلسية البرقاوية التي تقطن مختلف الاقطار الاسلامية مأحاط ببلادها من الاخطار فكرت في تأليف لجنة للدفاع عما حل ببلادها من الضيم الفظيع والظلم المرعب وانتخبت هذه اللجنة ووضعت أساساً لعملها «الميثاق الوطني» وهذه موادها :

١ — تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس - برقه يرأسها زعيم مسلم تختاره الامة

٢ — دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد

٣ — انتخاب الامة مجلساً حائزاً على الصلاحية التي يخوله اياها الدستور

٤ — اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية في دواوين الحكومة والتعليم .

٥ — المحافظة على شعائر الدين الاسلامي وتقاليد القطر في جميع ارجائه

٦ — العناية بالاقواف وادارتها من قبل لجنة اسلامية

٧ — العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه

٨ — تحسين العلاقات بين الامة الطرابلسية البرقاوية والدولة الايطالية بمعاودة

بعقدها الطرفان وصدقها المجلس النيابي

ومنذ تأسست هذه اللجنة أخذت على عاتقها معالجة القضية بشتى الوسائل الداخلية

في حيز امكانها فأذاعت على الملاء السياسة الهوجاء التي تتمشى عليها الدولة الايطالية في تلك

البلاد بواسطة الصحف والنشرات والرسائل وهي ترسل في كل موسم حج الى مكة المكرمة عشرات الآلاف من النشرات اتحيط المسلمين في جميع الأقطار علماً بما هو حادث في تلك الديار النائية ولم تكثف بذلك بل خاطبت طاغية الفاشيست و بينت له عقم سياسة الحديد والنار التي يتعقبها في طرابلس برقة ولكن نصحتها له لم يزد الاغروراً وعتواً كبيراً وقد اقتنعت بعدم الفائدة من مراجعة أولئك الطغاة الذين لا يرضيهم الا تمزيق اللحوم والولوغ في دم البشر

لذلك يتحتم على المسلمين الاهتمام باخوانهم في الدين والقومية في تلك البلاد النائية أولئك المساكين الذين تقطعت بهم الأسباب وأعوزتهم الوسائل وسدت في وجوههم السبل الا سبل الموت وفي الموت راحة البائسين ولظلمنا الفناء بأصواتنا ورفعنا شكوانا الى العالم الاسلامي ليصرخ في وجوه وحوش الفاشيست عساهم يرجعون عن غيهم ويؤوبون الى رشدهم رحمة بالانسانية وشفقة على البشرية ولكن انى للمسلمين الذين تفرقت كلمتهم وانحلت عرى جامعهم أن يتضامنوا على القيام بمثل هذا الواجب ، ولما كان المؤتمر الاسلامي الموقر من ضمن واجبه التفكير في مثل هذه الشؤون الهامة فيها اتنا نبسط بين يديه قضية من أهم القضايا التي يجب العناية بها فان ذلك الشعب المفجوع في وطنه ودينه اذا لم تشمله عناية المحلصين من اخوانه المسلمين الذين يهمهم أمر الدين سيصبح « لاسمح الله » أثراً بعد عين وفي ذلك ما فيه من المسؤولية الكبرى والبلاء العظيم

فيا أيها السادة الأكارم

إن الشعب الواقف في وجوه أعدائكم منذ احدى وعشرين سنة هو منكم ، والدين المهان في تلك الديار هو دينكم . وأولئك الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الله هم شهداؤكم ، هنالك في تلك الصحارى المحرقة والفيافي المقفرة اخوان لكم « صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بُدَيْلاً »
أجل . إن اخوانكم في تلك الديار النائية يستصرخونكم ويناشدونكم الله أن تعملوا على معالجة شؤونهم ونشلهم من براثن الأعداء قبل أن يقضى عليهم فيموتوا وبذلك تفقدون قطرا اسلاميا فتحه جدودكم الكرام ورفعوا فيه راية الاسلام منذ أربعة عشر قرناً .

وقد أصبحت اليوم تلك التربة التي خضبت بدم الشهداء تخيم عليها سحابة سوداء
تمطر ظلما وجورا على اخوانكم البؤساء ، هنالك تسمعون الصراخ والعيويل والبكاء
والنحيب ، هنالك الانسانية المعذبة ، هنالك تحار الأفكار وتزيغ الأبصار ، ولا منجد ، ولا
مغيث ، ولا منقذ ، ولا معين .

فان في تلك البلاد طائفة من المسلمين لم يزالوا شاكين السلاح يذودون عن أوطانهم
ويدافعون عن كيانهم وعدوهم الجائر يتربص بهم الدوائر ، فترجو أن تفكروا فيما يخفف
عنهم المصائب التي تحل بهم قبل أن تمزقهم القوى العاشمة ولا نخال أنها تعوزكم الوسائل
لمديد المساعدة لاوائك البؤساء وأتم رجال الاسلام الذين يمثلون « ٤٠٠ » مليون مسلم في
الكرة الأرضية والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه

رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات

٢٦ رجب سنة ١٣٥٠

الطرابلسية البرقاوية

٦ كانون اول سنة ١٩٣١

بشير السعداوى

رئيس الجامعة الاسلامية

بجمهورية ليبيريا

تكرم بزيارة هذه الجريدة^(١) سيدى أفريل رئيس الجامعة الاسلامية بجمهورية
ليبيريا . وقد كان سيادته وزير الحربية ثم رئيس الوزارة . وكان في وسعه أن يكون رئيسا
للجمهورية لولا أنه آثر رئاسة الجامعة الاسلامية وهي أكبر منصب ديني في البلاد عين
فيه سيدى أفريل هذا لمدى حياته كلها في حين أن رئيس الجمهورية تنتهى مدة رياسته
في مدى أربع سنوات ولا يستطيع تولى منصبه الا بموافقة سيدى أفريل بوصفه أكبر
رئيس ديني لمسلمي الجمهورية

وسيدى أفريل يمثل اللون الافريقى الأصيل ولكن ملامح وجهه وسيماهه وتناسقه
غير ما تراه في بعض الزنوج فهو أقرب الى ساحة الوجوه العربية وفيه جاذبية تستريح اليها
النفس وطيبة مرسمة في محياه لا يشك فيها أحد

(١) نقلا عن جريدة السياسة الفراء

وسيدى افاريل يزور الديار المصرية للمرة الثانية . فقد زارها في العام الماضى وظل فيها أياماً معدودة وكذلك تكون زيارته قصيرة هذا العام . ومهمته تجارية فهو بالرغم من صفته الدينية يحمل تفويضاً من حكومته في عقد الاتفاقات التجارية مع الحكومات الأخرى .

وسيدى أفاريل يرتدى ملابس عسكرية رشيقة على الطراز الحضرى وهو في مصر يلبس « الطربوش » ويزدان صدره بنياشين عدة يأخذك بريقها الجذاب ترى بينها نيشان اللوجيون دونير الفرنسى ونيشاناً فرنسياً آخر وثلاثة نياشين أمريكية ونيشاناً انجليزياً واثنين من ملك الحجاز وواحداً من الحكومة التونسية وهو يتكلم اللغتين الفرنسية والانجليزية ويعرف بعض العربية وقد تلا علينا المعوذتين وسورة الفتح من دون لحن ولا غموض

وسيدى أفاريل من سلالة الملوك الذين تعاقبوا على عروش السنغال وليبيا وسيراليون ستة قرون ونصف قرن وقد بلغ عددهم ستين ملكاً . ولقد كان آخرهم والد ضيفنا المحترم كان ملكاً على السنغال وحارب الفرنسيين ثلاثين عاماً . وما زال والده حياً وقد بلغ من العمر مائة عام وتسعة أعوام ولم تنفرط ثنية من ثنياه حتى اليوم . وكذلك والده سيدى افاريل . بلغت من العمر ثمانية وتسعين عاماً وهى كزوجها في عافية وصحة وانقد اضطرت الظروف القاهرة سيدى افاريل أن يحارب جنبا جنب مع الجنرال غورو في سوريا أثناء الحرب الكبرى سنة ١٩١٧

ومن مهامه في زيارته الحاضرة لمصر أن يخاطب ذوى الاختصاص في تعيين قناصل يمثلون مصالح ليبيا التجارية في القاهرة والاسكندرية وبورسعيد . وسيدى افاريل ينوى كذلك أن يعقد اتفاقاً مع بعض المدرسين المصريين الذين يحسنون اللغة العربية ليسافروا الى ليبيا ويتولوا التعليم في مدارسها .

ولما كان سيدى افاريل قد أصبح الرئيس الدينى الأكبر في البلاد فسترسل حكومة الجمهورية ولديه الى الازهر الشريف في العام القادم لكي يدرسا العلوم الاسلامية دراسة متقنة تمكن احدهما من أن يتولى منصب قاضى قضاة المسلمين هناك وتمكن الآخر من

تولى منصب ديني آخر حتى اذا وافي الأجل أباهما خلفه أحدهما في رئاسة الجامعة الاسلامية
بديار ليبريا

وحكومة ليبريا وأهلها قوم أشداء في الاحتفاظ باستقلالهم غاية في الغيرة على مرافقهم
وحقوقهم القومية لا يفرطون فيها ولا ينزلون عنها لأحد . ولقد بلغ من حرصهم على بلادهم
انهم لا يسمحون لاجنبي كائنا من كان ولا سيما الغربيين بأن يشتري شبراً من الارض في
ديارهم .

حدثنا رفيق كان يصحب سيدي افاريل في زيارته لجريدتنا قال : — توصل أحد
المستعمرين الانكليز الى أن يستحوذ على منجم لتعدين الذهب في ليبريا فلما توجه
خيفة على نفسه وعماله استنجد بمائتي جندي بريطاني فلم يكدهم هذا النبأ يصل الى مسامع
حكومة الجمهورية حتى أنذرت الرجل بأن ينسحب هو وجنوده من البلاد والا نزل بهم من
المكاره ما لا يحبون في أربع وعشرين ساعة . فانسحب الجند ووقف العمل ولم يسع القنصل
الانكليزي سوى ان ينصح للجنود بسرعة الخروج من البلاد والا لم يكن أحد مسئولاً
عن حياتهم سواهم

وقد أخبرنا سيدي افاريل أن عدد أهل ليبريا يبلغ خمسة ملايين وان كانت المراجع
الجغرافية تحدد العدد الأقصى بمليونين وربع مليون . لكننا قد نرجح صحة الرواية التي
رواها سيدي افاريل لعلمنا ان الاحصاء الدقيق في مثل تلك الأصقاع يكاد يتعذر .

ومما ذكره سيدي افاريل وأقرته عليه المراجع الجغرافية أن الأجانب لا يزيدون في
بلاد الجمهورية عن مائتي شخص كلهم في البلاد الكبرى وفي هذا دليل واضح على أن أهل
الجمهورية ينفرون من العناصر الأجنبية كل النفور .

ولا عجب فان أمريكا التي تعهدت هذا الشعب منذ حوالي مائة عام أسلمته قياد نفسه
في النهاية وعلمته الخذر الشديد من تدخل الأجانب في شئونه فأحسن الشعب الليبيري تلقن
هذا الدرس الثمين وجرى عليه حتى يومنا هذا .

وفي ليبريا زهاء ١٢٠٠٠ من الزوج الامريكان لعل الشفيح لهم في البقاء بين أبناء
الجهوية أنهم من طائفة الزوج فلهم باهل افريقيا قرابة الجنس وانهم ينتمون الى الأمة
الامريكية التي أحنت رعاية ليبريا يوم كانت قائمة بشئونهم القومية منذ مائة من السنين .

وسألنا سيدي افاريل كم عدد المسلمين بين أبناء الجمهورية فقال ان من الخمسة الملايين الذين يتألف منهم أهل ليبيريا ثلاثة ملايين لا يزالون في حالة البداوة الاولى لا تكاد تكون لهم حضارة أو دين . و بينهم زهاء مليون ونصف مليون من المسلمين وزهاء نصف مليون من المسيحيين الذين اعتنقوا المسيحية بجهود المبشرين الامريكان وغير الامريكان . وسألنا سيدي افاريل من ذا يقوم بنشر التعاليم الاسلامية في بلاد الجمهورية فاجاب . بأن بين مسلمي السنغال رجلا متفقهين في الاسلام الذي هو دينهم ففهم نستمد المعلمين الدينيين .

وفهمنا من سيدي افاريل أن في الجمهورية نهضة حديثة ترمي الى ترقية البلاد في نواحي مرافقها المختلفة من تجارة وتعليم ومواصلات . والخدمة العسكرية عندهم تتناول أبناء الجمهورية جميعا وقت الضرورة من سن السادسة عشرة الى سن الخمسين وخدمة الجمهورية تشتري آلات مدرعة حربية كبرى من أمريكا يبلغ ثمنها ١١ مليون دولار كما أخبرنا سيدي افاريل

وقد ظل سيادته في دار الجريدة زهاء خمس وأربعين دقيقة ثم نهض منصرفا فودع بمثل ما استقبل به من الاحرام . والشرقي على الشرقي عطوف . وقد طلب الينا سيادته أن نرسل اليه أعداد السياسة في مقره بليبيريا التي يصل اليها بعد شهر من الزمان يقضيه في رحلته من القاهرة الى بور سعيد الى جبل طارق الى اسبانيا ومن ثم يركب السفينة الى بلاده بسلام

أما من جهة عدد سكان جمهورية ليبيريا فقد سمعنا روايات تختلف عن رواية سيدي افاريل صاحب هذا الحديث وذلك اننا كنا اجتمعنا مع مندوب ليبيرنا في جمعية الأمم وهو معتمد هذه الجمهورية في باريز هولاندى الاصل وقد توفي منذ ثلاث سنوات ولما اجتمعنا به سأناه عن عدد أهالي ليبيريا والمسلمين منهم فقال لنا انهم مليون ونصف مليون . المسلمون منهم مليون ومائتا ألف نسمة والمسيحيون ٣٠٠ ألف وربما يكون أهمل الوثنيين لأننا لا نزال نعتقد أن رواية سيدي افاريل رئيس الجماعة الاسلامية في ليبيريا هي الصحيحة «وصاحب البيت أدري بما فيه»

الدفاع عن الحروف العربية

بيننا لقرائنا^(١) في رسالة سالفه تلك التيارات الحائمة حول قبول الحروف اللاتينية والاحتفاظ بالحروف الحالية بتعديل أو بغير تعديل . واليوم قد سنحت لنا الفرصة للدفاع عن الحروف العربية حيث قد اطلعنا على رسالة تركية حديثة الظهور ، يصح لنا أن نعتبرها حجة قوية لم يستطع أنصار الحروف اللاتينية أن يقابلوها بمثلاً بعد .

وهذه الرسالة عبارة عن محاضرة شائعة ألقاها الأستاذ اللغوي عالجان شرف بك في مؤتمر باكو الذي انعقد في أوائل العام الحالى من مندوبى جميع الشعوب التركية للنظر في تاريخ الأمم التركية ولغاتها وآدابها واصلاح حروفها . انما كانت أهم مسألة وضعت على بساط البحث هنالك مسألة الحروف ، وكان حضرة الاستاذ السالف الذكر أبلغ مدافع عن الحروف العربية . لقد ألم حضرته بالموضوع من جميع جهاته وخرج من بحثه مبرهنناً أن الحروف العربية أفضل من الحروف اللاتينية من وجهة الرسم والخط وسرعة القراءة والموافقة للصحة وسهولة الطباعة وجمال الشكل وهلم جرا

لهذا رأينا من الموافق أن نلخص هذه الرسالة للقراء نظراً لأهمية الموضوع من جهة ولاتصاله بجميع الامم التي تستعمل الحروف العربية من جهة أخرى

الشعوب التركية والحروف العربية

ان تسعين في المائة من أفراد الشعوب التركية يستعملون الحروف العربية أما البقية وهم جماعة على الديانة المسيحية فانهم يستعملون الحروف الروسية المعدلة . ومع ذلك فان فريقاً من هؤلاء الاتراك المسيحيين القاطنين في قازان قرروا ترك الحروف الروسية وعادوا الى استعمال الحروف العربية ، كما ان فريقاً آخر وهم قبيلة « الياقوت » تركوا الحروف الروسية وقبلوا الحرف اللاتينية

نتائج تبديل الحروف

فاذا ما اتجهت الأنظار اليوم الى تبديل الحروف العربية بغيرها فلا شك أن سيكون لهذا التبديل نتائج مدنية واقتصادية واجتماعية عظيمة . وأولى هذه النتائج ضرورة تعليم

(١) لمراسل السياسة في الاستانة بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٦

المتعاضدين أجمعين مرة أخرى ، ونشر المؤلفات بالحروف العربية والحروف اللاتينية سنين عديدة وبذل الجهود لتعليم الناس القراءة بنوعين من الحروف ، وتهذيب المعامين وتربيتهم من جديد واصلاح جميع الآلات الفنية والعملية وتعديلها . أضف الى ذلك ، تلك الزلزلة الروحية الاجتماعية التي تقع بين الشعوب التركية بتبديل الحروف العربية والتي تجعل مسألة الحروف أهم مسألة اجتماعية اقتصادية تهتم الشعوب التركية

مقارنة الحروف العربية بالحروف اللاتينية

اننا إذا قارنا الحروف العربية بالحروف اللاتينية وجب علينا أن نقرر أولاً ان الحروف العربية أوفق لافادة الكلمات التركية . كانت تتكون الحروف العربية من ثمانية وعشرين حرفاً . زاد عليها الأتراك ثمانية حروف فبلغت ستة وثلاثين حرفاً أربعة منها حروف متحركة وبقاياها حروف ساكنة ، أما الحروف اللاتينية فعبارة عن ستة وعشرين حرفاً في الأصل ستة منها متحركة وعشرون ساكنة . لذلك فإنه لما شرع الآذريون في قبول الحروف اللاتينية لم يجدوا فيها الا تسعة عشر حرفاً (أي ٥٦ في المائة) من أربعة وثلاثين حرفاً تلزمهم لتسكين حروفهم الهجائية .

وعليه فانهم زادوا عليها حروفاً روسية وحروفاً أرمنية لتفي بالمطلوب .

أما قبيلة الياقوت التركية فانهم لم يستطيعوا أن يجدوا في اللاتينية الا سبعة عشر حرفاً تنفعهم ، ثم زادوا عليها حروفاً أخرى لا كالأها وكذلك أتراك (قازان) و (باشقيرد) لم يستطيعوا أن يقتبسوا من الحروف اللاتينية إلا تسعة عشر حرفاً . وقد ثبت من ذلك أن الحروف اللاتينية لا تفي بحاجة اللغة التركية إلا بدرجة (٤٧) في المائة أو (٥٦) في المائة على أعظم تقدير . وهذا أسطع دليل على أن الحروف العربية أوفق للغة التركية .

سرعة القراءة

إذا تبين ذلك أمكننا أن ننتقل الى موضوع « سرعة القراءة » . اننا اذا قرأنا لانتظر الى الكلمة حرفاً حرفاً بل يقع بصرنا على الكلمة بأجمعها دفعة واحدة فتميزها كما نميز الأشياء والأشخاص .

ان الحروف اللاتينية ترسم في الغالب بخطوط مستقيمة ويمزج قسم منها برسم حرف O

فتتجلى كزوايا مستقيمة . فيكون السطر المطبوع مصفوفاً بين خطين متوازيين وترصف الكلمات كأحجار مرصوفة .

أما الحروف العربية فليس لها خطان متوازيان أو زوايا مستقيمة . بل ليس للسطور فيها الا خطأ أساسياً تمتد منه خطوط مستقيمة أو معوجة الى أعلاه وأسفله بحيث تكون مجهزة النقط أو الاشارات الصغيرة . وهذه الحالة الخاصة بالحروف العربية تسهل لنا تمييز الكلمات دفعة واحدة بخلاف الحروف اللاتينية التي ليست كذلك .

أى الحروف أوفق للصحة

يدعى بعضهم ومن بينهم الشيخ (جوزى مندلى) وهو عربى مسيحي تعلم في المدارس الدينية الروسية ثم كان رقيباً على الصحف التركية أيام القيصرية الروسية أن كثرة النقط والخطوط في الحروف العربية تجعلها ضارة بصحة البصر . وذلك خطأ . وقد دلت التجارب على انه خطأ . ويكفى أن يجيء الانسان بشئ مكتوب بالعربية وآخر مكتوب باللاتينية وأن يقرب كل منهما الى بصره ثم ينظر فيهما ليتبين له انه يستطيع قراءة الحروف العربية من مسافة أبعد من المسافة التي يستطيع بها قراءة الحروف اللاتينية . وقد تبارى طلاب مدرسة المعلمين التركية في قازان مع طلاب مدرسة المعلمين الروسية في موضوع سرعة القراءة والكتابة ففاز الأتراك بنسبة ٢٦ فى المائة فى القراءة ونسبة ٣٢ فى المائة فى الكتابة .

قراءة المخطوطات اليدوية

ثم إن المخطوطات اليدوية العربية تشبه الخطوط المطبعية كثيراً ولذلك تسهل قراءتها هذا بخلاف المخطوطات اليدوية اللاتينية والروسية فانها تصعب قراءتها . وتسهل قراءة المخطوطات العربية من جراء النقط ومن اتحاد الرسم المطبعي والرسم اليدوى .

سرعة الكتابة

ان الحروف العربية كالعلامات الستنوغرافية ولذلك فانها تكتب بكل سرعة . واذا ماجرتم الكتابة بالحروف العربية واللاتينية ألفتيم أن فرق السرعة بينهما بنسبة ٣٠ فى المائة .

الحروف والطباعة

يمكننا بعد ذلك أن نقارن الحروف العربية والحروف اللاتينية من وجهة الطباعة ان الحروف اللاتينية الكبيرة والصغيرة التي تستعمل في المطابع الآزرية اليوم يبلغ عددها. (١١٠) حروف مع الأرقام

أما الحروف التركية فرغما من أن لكل منها أربعة أشكال فانها لا تزيد على (١٥٠) حرفا وليس هذا بالفرق العظيم الذي يلجىء الى تبديل الحروف . وقد استطاع عبدالرحمن بورناش أفندي تقليل عدد الحروف التركية بحيث ساوى ما بينهما وبين الحروف اللاتينية. واذا ما منحج عبد الرحمن أفندي في وضع شكلين لكل حرف كما هي غايته فيسكون عدد الحروف العربية أنقص من عدد الحروف اللاتينية وهناك لا يبقى اعتراض من وجهة الطباعة أيضاً

تعليم الحروف

أما اذا نظرنا الى مسألة تعليم الحروف وجب علينا أن نعرف قبل كل شيء أن عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة بين الأتراك ليسوا كثيرين ، بل انهم تراوح نسبتهم بين خمسة في المائة وخمسة وعشرين في المائة . انما اذا تبذلت الحروف فقد هؤلاء كذلك . لكن المسألة مسألة سهولة التعليم

ان لكل حرف من الحروف اللاتينية أربعة أشكال : كبير وصغير للطباعة وكبير وصغير للكتابة . وأكثر هذه الحروف غير متشابهة في الرسم . أما الحروف العربية فلثلاثة عشر منها شكلان ولبقيتها أربعة أشكال انما تتشابه جميع الاشكال ولهذا فان تعلم الحروف العربية أسهل بكثير من تعلم الحروف اللاتينية

الشعوب المتأخية والحروف الهجائية

لا جرم ان لاستعمال الشعوب المتكلمة بلغة واحدة أو بلغة متقاربة حروفا مشتركة قيمة عظيمة . لا سيما اذا كانت هذه الشعوب مرتبطة بروابط جغرافية واقتصادية ، اذ هناك يسهل لهذه الشعوب تبادل كل شيء كما تقوى بينها العلاقات المدنية والاقتصادية

وحيث ان أحسن الحروف التى توافق اللغة التركية هي الحروف العربية وجب على جميع الشعوب التركية الاحتفاظ بهذه الحروف

أى الحروف أجمل ؟

ثم اننا اذا سئلنا بعد ذلك عن أى الحروف أجمل ، وجب علينا أن نعترف أن هذه المسألة مسألة شعور شخصى . بيد اننا رأينا ان الشيخ (جوزى) السالف الذكر يدعى أن الحروف العربية قبيحة المنظر ، فى حين ان الكثيرين من كتاب الأوربيين ينقضون قوله ويقولون ان الحروف العربية التى تتنوع أشكالها أجمل بكثير من الحروف اللاتينية التى ليست الا عبارة عن أشكال هندسية . وعليه فان الحروف العربية تمتاز على غيرها بانها :

مزايا الحروف العربية

- ١ — تقرأ الكلمات العربية بها بكل سهولة
- ٢ — تكتب الكلمات العربية بها بكل سرعة .
- ٣ — ومن الممكن اصلاح الحروف العربية بلاعبث يصيب شكلها وهناك تسهل الطباعة .
- ٤ — والحروف العربية أسهل للتعليم . كما ان
- ٥ — الحروف العربية هي الحروف التى تستعملها الشعوب التركية المتجاورة ، المتكلمة بلغة واحدة فينبغى الاحتفاظ بها .

الجهة السياسية

ان تسعين فى المائة من الشعوب التركية يشتغلون بالفلاحة . فلا شك أن الاقدام على تغيير الحروف يؤثر فى جميع هؤلاء الفلاحين أسوأ تأثير . وقد فطن (لنين) الى هذه النقطة فقال (لا غاملى الاذرى) الذى يستهدف لتغيير الحروف « كيف يرى الفلاح هذا العمل ؟ » وهذا سؤال لا يصح الاستخفاف به . نعم ان الفلاح التركى متأخر . لكن تأخره غير ناجم من الحروف الهجائية بل من حالته الاقتصادية

ومن الازهاق الذى يصيبه وليس للحروف الهجائية أى تأثير فى انحطاطه . ولهذا فلن يفيد تغيير الحروف فى رقيه المدنى والاقتصادى بل يضاعف فى تأخره . وهذا ما لا يصح اقتراه .

اظهار محاسن الاسلام

للعالم الايطالى لورا فكشيا فاليري

من الكتب المهمة التي ظهرت في الأيام الأخيرة في الدفاع عن الدين الاسلامي كتاب اسمه « إظهار محاسن الاسلام Oppalologie de L'Islamisme بقلم « لورا فكشيا فاليري من علماء ايطالية Laura Vecchia Valgieri وهو يقول في مقدمة كتابه هذا المترجم الى الافرنية إنه مما لاشك فيه أن وصف محمد بتلك الأكاذيب التي كانوا يشيعونها في القرون الوسطى عنه وعن ديالته قد خفت كثيراً في هذا العصر وصار الناس ينشدون الحقيقة التاريخية عن محمد وعن الاسلام الذي قلب وجه العالم . ولكن مما لامرأه فيه أن صوت المسلم الحر الذي يجب الله ورسوله ويرى في الاسلام الحسنات التي لا نهاية لها في الدنيا والآخرة لا يزال غير مسموع تماما والنادر من الأوربيين يعلم هذا الصوت

فمحاسن الاسلام لا يمكنها أن تظهر بتدقيقات المؤرخين من الأفرنج مهما كانوا منصفين لأنها تدقيقات جارية على أقلام أناس غير معتقدين بالاسلام وبحسب طرق ومفاهيم خاصة بالأور وبيين . ومع ذلك فإن مستشرقين مشاهير مثل موير Muir واسبرنجر Sprenger وغولد سيهر Gold-Ziher ونولدكه Noldeke وكاتاني Caetani وغيرهم قد وصلوا بعد التمحيص الى الاعتراف بصدق محمد في دعوته والى الحكم بأنه كان ملهما إلهاما اختلفوا في سره ولم يفسروه على وجه واحد بل عله كل واحد بشكل . وبعض هذه الأشكال لا يقبلها حتى غير المسلم . فمن هؤلاء من يقول ان العقائد التي بنى عليها الاسلام أكثرها نتيجة نمو هذا الدين بعد وفاة واضعه وأنه هو لم يضع إلا أسساً أو أياته فقط وأن المسلمين فيما بعد قد فرعوا عليها . ثم بعد أن جردوا صاحب الشريعة الاسلامية نفسه من وضع هذه العقائد وردوا إليه مبادئها فقط عادوا فمحصوا أقواله وأعماله التي لم يشكوا في نسبتها إليه وفضلوا هنا بين الوحي الذي كان يوحى إليه وبين المعلومات الشخصية التي اتصل بها بثمرة اجتهاده واطلاعه على الأديان الأخرى واحتسكاكه بالحوادث أي إنهم فصلوا بين الالهي والبشري في الدعاية المحمدية

قال كاتاني : إن محمدا لم يجمد على حالة واحدة بل مر بأطوار متعددة بحسب مقتضيات الزمان ووفقا للحوادث . وتغير هذه الأطوار ملحوظ جداً سواء في القرآن أو في السنة لمن عرف أن يفهمها حق الفهم . فالفرق عظيم بين محمد في أوائل بعثته وبينه بعد أن هاجر إلى المدينة واضطر أن يعلن المقاومة بالقوة لمن أشركوا بالله

فالمسلمون متفوقون مع هذه الطبقة من المستشرقين على أن في دياتهم نقاطا كثيرة متفقة مع النصرانية واليهودية ولكنهم يرون هذا زيادة في تأييد رسالة محمد وبرهانا على أنه خاتم الرسل . ولكن بين المسلمين وبين هؤلاء المستشرقين اختلافا في كيفية فهم القرآن . فعند المسلمين أنه كتاب قديم غير مخلوق وغير قابل للمعارضة . وقد نزل على رجل أمي لم يتعلم شيئا إلا ما أوحاه الله إليه وقد أوحى إليه هذا القرآن وألهمه أيضاً أعمالاً لا يجوز الجدل فيها على حين المستشرقين الذين نعنيهم يرون القرآن تمثيلاً لحالة محمد الروحية ويزعمون أن فيه تفاوتاً وأن محمداً أضاف من نفسه إلى ما هو من ربه بحسب مصلحته وأن هناك تناقضا بين بعض أقواله إلى غير ذلك من الآراء . فلاجل هذا الفرق العميق بين المسلمين وبين مؤرخي الاسلام من غير المسلمين اقتصر كثيراً في إيراد آراء المستشرقين المحدثين إلا ما أخذته من تدقيقات غولد سيهر وعولت على أقوال المسلمين أنفسهم تاركا أقوال الطبقة الماضية من علماءهم حتى أقوال مثل الامام الغزالي ولو كانت آراؤه توافق مبغى بما فيها من المعاني العالية . عولت على المسلمين المحدثين الذين احتكوا بالحياة الغربية وأحبوا الاسلام حباً جاً ورأوا فيه ديناً يأنلف مع العصر الحديثه ويقبل كل ثقافة فقد كتب هؤلاء كتباً تعجز جميع انتقاداتنا العصرية عن المكابرة فيها . فأخذت اذاً من الكتب الآتية :

الاسلام والرد على منتقديه للشيخ محمد عبده . والاسلام والنصرانية لمحمد عبده أيضاً . والعروة الوثقى لجمال الدين الافغانى ومحمد عبده . والرسالة الحميدة لحسين الجسر . والمدنية والاسلام لمحمد فريد وجدى . وإظهار الحق لرحمة الله بن خليل . ومقال للزهرأوى في ائتلاف الاسلام مع المدنية . وروح الاسلام لأمير على الهندي . وعبقريه الاسلام لعثمان بك قبرصلى زاده . وتقرير لنعمان كامل بك في مؤتمر المستشرقين العاشر . وتقرير آخر في المؤتمر المذكور لعمر لطفى

وقد استقيت من هذه المنابع كلها مختاراً منها ما أريدهُ بدون مراعاة الترتيب بل
 بمراعاة المعنى وإيراد الشواهد المتطابقة فيه من أى موضع من الكتب المذكورة
 ثم ذكر صاحب هذا الكتاب فصلاً فصلاً عن الاسلام فالأول سرعة انتشار الاسلام
 وإن ذلك بيد الهية والثاني بساطة العقيدة الاسلامية وانطباقها على العقل . والثالث حكمة
 كل شعيرة من الشعائر الاسلامية . والرابع معالى الفضائل والآداب الاسلامية وبعد تأثيرها
 فى الخلق . والخامس ائتلاف الشريعة الاسلامية مع المدينة والسادس قيمة التصوف فى
 الاسلام . والسابع الاسلام فى مناسباته مع العلم
 فنحن نرعى ناشئة المسلمين باقتناء هذا الكتاب وهو ١٢٥ صفحة مختصر مع
 الافادة معتدل مع الاجادة

طرابلس و برقة أيضا

ولتمام الفائدة نذكر هنا كتابا مطبوعا في مرسيلية سنة ١٨٦٣ بقلم «شارل ادواردغين» Charles — Edouard Guys فنصل فرنسة في الشرق ومن أعضاء جمعيات علمية متعددة وعنوان هذا الكتاب «معلومات عن جزائر بومبا و بلات وخليج بومبا ونواحيه^(١)» قد أخذها هذا الكاتب عن أبيه الذي كان فنصل فرنسة في طرابلس الغرب ومنه علمنا أمرا غريبا وهو أن الحكومة الروسية تدخلت لدى والي طرابلس سنة ١٧٧٢ حتى ينزل لها عن جزيرة بومبا بمقابلة شئ ء تؤديه له لكنه أبى اجابتها الى طلبها هذا خوفاً من تركيا وفرنسة (كذا) وكان طلب الروسية هذا في اثناء حروبها مع تركيا

ويقول المسيو غيزان الامريكيين أيضاً أرادوا أن يكون لهم مرسى في البحر المتوسط فاولوا الاستيلاء على جزيرتي بومبا لكنهم لم يأتوا اليهما بقوة كافية وانصرفوا وهو يصف ما في خليج بومبا من المراسى الامينة للسفن ويرى في هذا المكان مركز علائق بين الغرب والشرق ذا بال عظيم

ويقول ان جزيرة بومبا بنفسها صغيرة صخرية لكنها تشتمل على ميناء من أحسن ما يوجد وكان اللاسيديمونيون (من اليونان) قد عمروها قديماً وجعلوها مرسى لاصلاح سفنهم وصارت مدينة وهي تبعد عن الساحل أربعة فراسخ وموقعها شمالي غربي من الخليج وشرقيها جزيرة صغيرة اسمها «باردة» والبحر هناك كثير السمك ومحيط الجزيره الكبيرة ثلاثة فراسخ ونصف وفيها اراضٍ قابلة للزراعة وأشجار. ويقول ان العرب لاوائل مجيئهم الى برقة كانوا يقيظون في هاتين الجزيرتين نظراً للطف هوائهما وبرودة نسماتهما. ومن هنا سموا الصغرى منها باردة. وهو يمتدح عرب برقة بحسن الضيافة وجودة الاخلاق

ثم يقول ان جزيرتي بومبا تقابلان رأس التين أي مرسى درنه ويذكر انه مرّ بنفسه من هناك في سفينة فرنسوية استقلها في «لارنكا» (قبرص) قاصدة مرسيلية وذلك

(١) انظر صفحات ٦٤ من الجزء الثاني وما بعدها

في شهر يوليو سنة ١٨١٧ فساقتهم الريح نحو جزيرة اقريطش ثم بعد ذلك اضطروا ان يتقدموا نحو ساحل برقة ومنها ساروا امام السواحل حتى وصلوا الى مدينة طرابلس لعهد يوسف باشا القرمانلى

وهو يذكر ان الامريكيين كانوا نزلوا براس التين وقصدوا الاستقرار بدرنه لكن والى طرابلس كتب الى متصرف درنه فحشد العرب وطردهم . ثم انعقدت معاهدة بين

والى طرابلس وأمريكا بأن يكون لها قنصل صغير في درنه لملاحظة تجارتها

وهذا المؤلف يشير على أوروبة بأن ترسل الى جزيرة بومبا فرسان مار يوحنا أورشليم الذين أخرجهم الانكليز من مالطة وتراهم يرتادون لانفسهم محلاً ينجأون اليه ويقول انه لما كانت ترعة السويس ستفتتح (١) فيتسع مجال الحركة البحرية فان عمارة هذه الجزيرة بالاوربين أصبحت ضرورية (تأمل)

ومن أهم مآثره في هذا السفر الصغير هو ان سكان حضر برقة كان يقدر عددهم لذلك العهد بثلاثمائة ألف نسمة عدا العرب البوادي

والحال انه عند مجي الطليان كان عددهم ٣٠٠ ألف داخلاً في ذلك العرب البوادي . واما الآن فقد نزل عددهم عن هذا المقدار

ولقد شاهد محرر هذه السطور جزيرتى بومبا وخليج بومبا يوم ذهبت الى جهاد طرابلس وبتنا بساحل هذا الخليج ليلة وفي زاوية أم أرزم ليلة وفي زاوية مرطوبه ليلية وذلك قبل وصولنا الى معسكر أنور فوق درنه

(١) قد فتحت بمد طبع هذا الكتاب بأربم سنوات

حاضر العلماء الإسلاميين

تأليف لوثر ووب ستودارد الامريكى

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصولٌ وتعليقاتٌ وحواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الإمير شكيب أرسلان

المجلد الثانى

الجزء الرابع

دار الفكر

الطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَبِّ يَسْرٍ وَأَعِينِ

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

فهرست

المجلد الرابع

من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

- الفصل الثالث : سيطرة الغرب على الشرق من صفحة ١ — ٣٨
- الفصل الرابع : فى التطور السياسى من صفحة ٣٩ — ٦٥
- اللورد كرومر للامير شكيب من صفحة ٦٦ — ٦٨
- العرب ديموقراطيون للامير شكيب من صفحة ٦٩ — ٧٠
- الفصل الخامس : فى العصية الجنسية من صفحة ٧١ — ١٥٦
- المساواة فى الشريعة الاسلامية للامير شكيب من صفحة ١٥٧ — ١٦٠
- تاريخ نجد الحديث : آل سعود وآل الرشيد للامير شكيب من صفحة ١٦١ — ١٧٢
- الترك أيضاً للامير شكيب من صفحة ١٧٣ — ١٧٦
- الفصل السادس : فى العصية الجنسية فى الهند من صفحة ١٧٧ — ٢٠٢
- الفصل السابع : فى التطور الاقتصادى من صفحة ٢٠٣ — ٢٢٨
- الفصل الثامن : التطور الاجتماعى من صفحة ٢٢٩ — ٢٥٢
- الفصل التاسع : القلق الاجتماعى والبشفيه من صفحة ٢٥٣ — ٢٨١
- خاتمة فصول الكتاب صفحة ٢٨٢
- خداع الأور بين للعرب والمسلمين للامير شكيب وفيه ثلاث وثائق بامضاء جلالة ملك
بريطانيا العظمى باحترام استقلال العرب والدين الاسلامى من صفحة
- ٢٨٣ — ٢٨٦
- تاريخ الممالك الاسلامية الهندية للامير شكيب من صفحة ٢٨٧ — ٣٢٢
- فرقة المعتزلة للامير شكيب من صفحة ٣٢٣ — ٣٢٥

فرق الخوارج : المحكمة والازارقة والنجدات والبيهسية والعجاردة والميمونية
والأباضية والنعالبة والصفرية وفتوحات الأباضية في المغرب والهند وحروبها
الكثيرة ودولها وخلفاؤها قديماً وحديثاً للامير شكيب من صفحة ٣٢٦ - ٣٤٨
البكطاشية للامير شكيب من صفحة ٣٤٩ - ٣٥٠
الباية للامير شكيب من صفحة ٣٥١ - ٣٦١
المبادئ الاشتراكية في الاسلام للامير شكيب من صفحة ٣٦٢ - ٣٦٣
الشهيد أنور باشا ورفقاؤه وفيه بحث جامع عن سيرة أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا
وأعمالهم في السلطنة العثمانية وخارج السلطنة والثورة العربية وأسبابها بقلم الامير
شكيب من صفحة ٣٦٤ - ٣٩٥
سيدى احمد الشريف السنوسى رضى الله عنه بقلم الأمير شكيب من صفحة ٣٩٦ - ٤٠٨

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هي القوة الهائلة الشاغلة مكانا خطيراً في تطوّر الشرق في هذا العصر ، وبسبب هذه السيطرة ما برحت لواقح المؤثرات الغربية تنبث وتنتشر ، لا بل تتدفق على كل بلاد وتطمو على كل رقعة ، حتى غدا التغرب^(١) من أكبر عوامل التبدل والانقلاب في العالم الاسلامي ، حتى وفي الشعوب الاسيوية والافريقية غير المسماة . وسنبسط الكلام في موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الأوربية من التأثير الشديد في تطور مختلف الشعوب الهندية غير المسماة ، ولكن الاحتراز الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الأوربية هي السبب والعامل في جميع هذه الاستحالات والانقلابات الحديثة في العالم الاسلامي . فقد سبق لنا الكلام مبسوطاً ، مبيناً فيه كيف ان عناصر المزاج الاسلامي ما انفكت طيلة القرن الأخير ينفعل بعضها ببعض انفعالا شديداً ، فيدثر منها ما يدثر ، ويستجد فيها ما يستجد ، وتتلشى قوى وتتولد أخرى ، وذلك جميعه ، على ما نقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج ، انما هو بحد ذاته تجدد قائم في الباطن ، فعله بالغ كل البلوغ من طبائع ذلك المزاج وعناصره

(١) مرادنا « بالتغرب » Westernism التخلق باخلاق الفرنجة والتشبه بهم وأخذ أخذهم في طراز العيشة وأسايب الحياة . ويشمل ذلك المحسوس كاستعمال صنوف الأدوات والمستحدثات ، والمعنى كاقتراس الأفكار والآراء الاجتماعية والسياسية . والتغرب خير كلمة عربية رأيناها لتعريب اللفظة الانكليزية المذكورة . « العرب »

عما لا مندوحة لسنة النشوء والتجدد عنه . وعلى ذلك فإهو واقع مشهود في العالم الاسلامي اليوم من التبدل والتحول والتطور يجب ألا يعتبر مجرد محاكاة للغرب وتشبه به بحسب ، بل إنما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلاً مكوناً لشيء جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذاً مفرغاً في بوتقة شرقية وفي قالب اسلامي . ويجب فوق ذلك ألا يغيب عن الاذهان ان الشعوب الاسيوية التي يتألف منها سواد المسلمين ليست ، كما يقول بعضهم ، شعوباً متدلية منحطة كزنوج افريقية والجزائر الاسترالية ، بل انما لذات حضارة بدیعة حية منذ القرون الخوالي ، حضارة هي نتاج اسلامي صرف ، متكون من صنع المسلمين وثمرات جهودهم . ومتى ما أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الاسلامية من تشييد المعالي ، وفروع ذروات المجد فيما مضى ، أمنا الخطل بقولنا الآن اننا نستين خلال هذا الغليان الهائل في العالم الاسلامي تجدداً حقيقياً ، صحيحاً رائعاً ، ولا غرابة في ذلك ان عاد الاسلام يستعيد من عزه الغابر وعلاه السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبلاً من الحضارة والعمران .

ان سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها في التاريخ من حيث العظامة والخطورة ، والمدى والمجال . فما كان لليونان ورومية من قبل من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم ، لا يعدُّ بالاضافة الى سيطرة الغرب اليوم شيئاً مذكوراً . والغريب في حديث هذه السيطرة الغربية انها بنت خمسة عقود من السنين لا أكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل وسائلها وأسبابها تنتشر وتعم ، ذلك كالطرق ، والمسالك الحديدية ، والبرد ، والبرق ، والكتب والصحف والمجلات ، وكشيوخ جديد الآراء والافكار المتوالية الازدياد في كل مصر شرقي . وباتت السفن التجارية تمخر عباب بحور الشرق وترسو في كل ثغر من ثغوره ، وطفقت التجارة تمتد ناشرة وفر البضاعات والارزاق الغربية في كل بقعة من بقاع الشرق ، فتلا ذلك تغير الحال تغيراً سريعاً . فالامم والشعوب التي ظلت حتى منتصف القرن الخالي تحيا حياة الثلاثين قرناً التي كرت من قبل ، غدت اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار الكهربائي في مغداها ومراحها ، وانتسخت العادات والافكار والتقاليد الشرقية القديمة انتساختاً كاد يكون تاماً ، وتبدلت صور الحياة وأساليبها تبديلاً كبيراً . وسنفصل الكلام

في الفصول التالية على ما هية سيطرة الغرب على العالم الاسلامى من جميع وجوها : جاعلين الكلام في هذا الفصل تمهيداً لما سيحجى* فنقول : —

ان عوامل التغرّب هي أكثر تغلغلا وانبثاقاً في الأقطار الاسلامية الطويلة العهد في الحكم الأوربي، منها في سائر الأقطار. وهذا الأمر ظاهر مثاله فقد كان انتشار الحكم المعروف بحكم «الراجا» في المقاطعات الهندية السحيقة ضرباً من العجائب، وفسادة الحكم والادارة في الهند قاطبة انما كان على يد مسكوكات النقود، والبرد، والقطر الحديدية، ومحاكم القضاء، والمساعدة على نشر التعليم والتهديب، والاغاثة عند نشوب المجاعات وغير ذلك. ولم يكن انتشار عوامل التغرّب في الأقاليم حيث السلطة الاوروية اسمية بطيئاً، فلذلك لم يمض غير اليسير من الزمن حتى بدلت العادات القديمة تبديلاً، وشاعت أسباب الرفاهية الغربية ووسائل التبسط في شؤون الحياة كمصاييح الغاز والمطارز وما أشبه شيوعاً عاماً، ونشأت طبيعة الحال على أثر ذلك حاجات اقتصادية حديثة لم تكن تعرف من قبل، وتحسنت حالات المعيشة تحسناً مذكوراً، وعلى الجملة فقد كان التطور كبيراً شاملاً.

وكان الارتقاء العقلي والخالقي والتهديبى مشرباً روح التغرّب، وقد سبق لنا الكلام فأبنا مبلغ ما كان للآراء وروح الحضارة الأوروية من التأثير العميق في نفوس الأحرار من المصلحين المسلمين. غير أن الأمم الاسلامية في الشرق على العموم لم تقبل على اتحال الأفكار والآراء الغربية اتحالا شديداً ما أخذاً به الى حد امتزاجه بطبائعها وأخلاقها، مثل إقبالها على استعمال الادوات المادية للحضارة الغربية، ولا سيما ما كان شأنه من هذه الادوات لتوفير الرفاهية والرخاء، فشيوع التبغ مثلا انما كان سريعاً في كل أمة شرقية وفي مدة نصف قرن باتت مصاييح الغاز مستعملة في كل صقع اسويى، حتى في أواسط آسية والصين. وأما العادات الغربية كتلك التي في أزياء الملابس والتعليم وما أشبه فقد كان الاقبال عليها قليلاً، الا عند طبقة معروفة. وما اتخذ واقتبس من هذه العادات لم يتلق بحذافره على صورته الاصلية بل كانت مقتضيات البيئة تغير منه ما تغير حتى تذهب بصفاته وخواصه الغربية وتجعله على ايلاف للبيئة. وما زال الشرق الاسلامى يعترف بتفوق الغرب ومبلغ ما بلغه من ضر وب التفنن والاكتناه، لكن قابلية الامم الاسلامية

للاخذ عن الحضارة الغربية قدونت وضعفت ، وكاد الميل الى اقتباس مبتكرات الغرب من الآراء والافكار يضمحل ، فتلا ذلك روح عدائية شديدة للحضارة الاوروبية وأبنائها .

وأظهر ما يكون التغرب في الطبقتين العليا والوسطى ، ولا سيما في أولئك المهذبين على الطراز الغربي ، وهم الإقلاون في كل بلد من بلدان المسلمين ، وعددهم ومبلغ ما لهم من السلطة ونفاذ الكلمة فعلى تفاوت في موضع موضع : يقولون باقتباس الافكار والآراء الغربية ، ولكنهم يختلفون في القدر الذي يقتضى الحصول عليه . فمنهم من يقول باقتباس الفضائل الغربية الصحيحة مضافة الى ما في تراث آبائهم وأجدادهم من الفضائل العليا والفلسفة السامية بحيث يكون لهم من هذا وذاك مزيج جامع بعناصره ومواده لاحسن الحضارتين الشرقية والغربية ، ومنهم من يقول باهمال هذا التراث ولو كان شأنه حسناً مهما كان ، وبالاندفاع للتغرب والانكباب عليه بأوسع نطاق ومنهم من يتظاهر بالتغرب تظاهراً من ورائه المقت والشناة للحضارة الغربية .

يؤخذ من هذا التغرب ان غالبه هو في الطواهر . فالهندي مثلاً ، والتركي والمصرى الحائز اجازة جامعة غربية والذي يفصح التكلم بعدة ألسنة أوروبية والامير والباشا والمثري المقتنى عدداً من السيارات ومن عاداته أن يؤم حمامات أوروبية كل عام ، جميع هؤلاء انما يبدون للعين في أول الامر كأنهم غربيون ، فيرتدون الأثواب الغربية ، ويتناولون على موائدهم الاطعمة الغربية . ولكن وراء هذه المظاهر والاعراض تفاوتاً في أسلوب الحياة ، تفاوتاً تظهر عنده الخواص والميزات الخلقية ، فتبتدأ هذه المظاهر باهرة مغطاة بتعشيق التغرب ، ثم تأخذ بالتلاشي حتى تنتهي عند مقته وكرهه .

على أن هذه الصور المختلفة للتغرب لا ترى مستقلة متمايزة في طبقة معينة ومكان معلوم ، بل انها في كل طبقة من طبقات الأمة وفي كل بلد شرقي فلذلك ترى الشرق من أقصاه الى أقصاه سائراً في سبيل تحول عجيب ، عظيم الماهية ، سريع الحصول ، حتى حد الطفرة ، مما لم ير الغرب له مثيلاً في جميع ما مضى من الأدوار . ان حضارتنا الغربية قد نشأت ولها من ذاتها غالب عناصرها وخواصها وصفاتها . نشوءاً طبيعياً متدرجاً ، مجتازة الأدوار المختلفة على مقتضى سنة النشوء . أما الشرق فهو في كثير من مواضع الانقلاب

يظفر فى تحوله طفوراً ، اذ ان ما يأخذه عنا ويقتبسه منادفة واحدة قد تقضت على تكامله عندنا الأجيال والقرون ، فكانت النتيجة ان غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المترقى على تطور الشرق هذا التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى وغير ذلك .

فاختلقت الجواهر بالاعراض ، وتناقضت البواطن والظواهر ، وبدأت أمور وشؤون بعضها قبل أوانه وبعضها الآخر بعد أوانه : وفى مدة قليلة طفقت شقة التباين العقلى والخلقى تمتد وتتسع بين أبناء الجيل الواحد . فصارت الآباء لا تفهم أغراض أبنائها والابناء تتنكر لآبائها . وأنشأ التناحر يشد بين القديم والجديد ، . بين المولى الفانى والحديث الطريف ، وربما قام الفرد على نفسه فقالت سجيته وخلقه خلقه . وقد وصف السر قائلتين تشير ول هذا العراك الهائل فى الهند بقوله : « أمواج وغمارٌ تتلاطم وتتكسر بعضها على بعض ومتناقضات تتناحر ، وآراء وأفكار غريبة تندفق من الغرب الحديث على حضارة قديمة بنت أجيال طوال . فبعض يأخذ ولا يحسن الأخذ ، وبعض يعرض ويلعن ، وعقائد تتبدد ثم تعود فتحميا ونظم صناعية مضطربة ، ومناهج تعليم وتهذيب غير مستمكة ، ومبادئ غريبة فى أفق الادارة والتدبير والقضاء تنتشر فى مجتمع متنافر الوحدات ، وسنن الاقتصاد الحديث تندفع بتيارها الهائل على بلاد ما برحت صناعتها وتجارها على الحالة الأولى من السذاجة ، وتصادم عنيف مستمر لا بد منه بين أقوام السكان ، والحكام الغرباء ، وحروب مستديمة الانتقاد . وبعد جميع هذا يتلو نهوض شعب شرقى جبار فى الشرق الأقصى» .

ان هذه الكلمات وان كان قائلها قد عنى بها وصف الحالة فى الهند على الخصوص ، فهى تصح أن تتخذ تمثيلاً لصفة الحال فى كل بقعة من بقاع الشرفين الأدنى والاوسط . قال أحد كتاب الفرنسيس فى هذا الشأن : « الحق أن الشرق على العموم ، والعالم الاسلامى على الخصوص ، لنى دور من الانتقال عظيم . يجوز الشرق اليوم برزخاً فيه يعارك الماضى الحاضر ، وتتنازع العادات القديمة والجديدة الدخيلة ، فبدأت صور غريبة ومشاهد عجيبة . »

هذا هو السبب فى تنكر اخلاق الكثير من متغربة الشرقين « كالبابو » الهندى و « الأفندى » التركى . ولا جرم ، فكل انقلاب عظيم وتحول كبير لا بد من أن يرافقه قدر من المفسد والسوموم ، فتغرب الشرق اليوم هذا التغرب الذى سيفى بالضرورة عند

حد ، انما فيه حسنات وسيئات . والاصلاح والانقلاب في أمة ، ولو اقتضتهما الضرورة أشد اقتضاء ؛ ان هما في الواقع الا القضاء على القديم وادخال الجديد الذي لا يخلو من البذور الفاسدة التي لم تكن من قبل . وقد قال اللورد كرومر في هذا الصدد : « انه ليرتاب فيما اذا كانت هذه الشعوب الشرقية المتدلية تعترف بالثمن الذي ينبغي أن يؤدي لقاء ما هو منقول اليها من الحضارة الغربية . أما المنافع المادية التي أصابها أهل الشرق من الحضارة الغربية فهي عظيمة بلا جدال . وأما المنافع المعنوية فلا يستطيع حتى اليوم الوقوف على مبلغ تأثيرها في الفرد والمجموع »

وسيئات التعرب وحسناته ظاهرة ظهوراً بيناً في طبقة الاقلين الذين يعرف فيهم التهذيب الراقى . أما هؤلاء فبعضهم يرتاحون كل الارتياح الى الروح الغربية ، والبعض وهم أكثر عدداً ، قد أدركوا برزخ التنازع بين القديم والجديد فذهبوا فريسة القوتين المتناصرتين . قال اللورد كرومر يصف متغربة المصريين : « انهم مسامون وليس فيهم خواص اسلامية ، واوربيون وليس فيهم خواص اوروبية » . وقال كاتب انكليزى واصفاً ما هو منتشر في الهند من مظاهر التعرب : « قصور مغولية نعمة مزدانة بالمتاع والاثاث المجلوب من بريطانيا هذا جميع ما استطعنا عمله في الهند ، فاننا لم نحمل الهندي على أن يمت حضارته الشرقية وينبذها نبدأً فحسب ، بل حملناه فوق ذلك على اتخاذ الاعراض والغث من حضارتنا بديلاً منها ، فبات الهندي وحالته العقلية تمثل مزيجاً من مجموع عناصر حضارة ، بعضها اسيوى باقى وبعضها الآخر أوروبى ومجنوب . وليس ذلك بالمستغرب وقد أصبحت حضارة الهند خليطاً لامثيل له في العالم ماضياً وحاضراً ، بحيث انقلب الهندي اليوم متطوحاً واستمسك بأموار عدها فضائل وليست من الفضائل بشئ ، وغرته الخلد وأخذت بلبه الاعراض . . . نحن حاولنا أن نرقى بالعقل الشرقى الى مستوى الكمال الغربى والبيئة الغربية ، فخطنا دون ذلك شرحبوط ، اذ قد أفضينا به الى حالة عقلية أدبية الفساد يغشاها وعوامل الخلل والدخل ضاربة فيها » .

فهذه المفاسد الناشئة عن تيار التعرب انما هي من الأسباب الكبرى في انتشار روح البغضاء والكرد في أصقاع الشرق لكل شئ غربي ، وقد عمّت هذه الروح حتى شملت الكثير من أولئك الواقفين على طبائع حضارة الغرب وعمرانه حتى الوقوف ، فساعد ذلك

كله على ازدياد الروح الرجعية المقاومة لسيطرة الغرب السياسية .
 حقاً ان سيطرة الغرب السياسية على الشرق هي الأمر الشاغل من الخطورة والشأن
 أكبر مكان . وقد أتينا فيما أسلفنا من الكلام على بيان موجز في فتح اوروبه للشرقين
 الأدنى والأوسط خلال القرن الماضي ، وكيف كان العالم الاسلامي اذ ذاك متديلاً لاحول له
 ولا قوة حيال ذلك السيل من الفتح السياسي والاقتصادي . وفي الواقع ، فان ذلك الفتح
 الاقتصادي قد كان العامل الأكبر في سرعة تقدم اوروبه و بلوغها أوج الكمال وقتة العظمة
 أما أمر اخضاع البلدان الشرقية فقد كان بعضه يتم على يدي القوى العسكرية كحملة
 فرنسة على الجزائر ، وفتح روسية لأواسط آسية ، وغزوة ايطالية لطرابلس الغرب ، وبعضه
 الآخر على يد الوسائل الاقتصادية الصرفة وذلك ماهو معروف بـ « الفتح السلمي » أعني به
 القبض على خناق بلاد شرقية مستقلة استقلالاً مخترق السياج ، برؤوس الأموال الغربية
 تمدبها الدولة الفاتحة تلك البلاد على شكل القروض والامتيازات ، ومتى ماتم ذلك أخذت
 السيطرة السياسية تبدو شيئاً فشيئاً حتى تنتشر انتشاراً يطبق البلاد ، وعلى هذه الطريقة
 تم فتح مصر ومراكش و بلاد العجم ، بينما كانت الهند من قبل ذلك تستعمرها « شركة
 الهند الشرقية » بوسائل تجارية بحتة . على ان خطورة هذا الفتح السلمي لايعتبر قدرها
 على الغالب حق الاعتبار .

فلننظر في شيء من وسائل هذا الفتح وهو امتيازات القطر الحديدية ، فقد قال
 الدكتور ا . ج . ديولون الرجل الخبير بالسياسة الدولية في هذا الشأن : « القطر الحديدية
 اليوم باتت من أفضل الوسائل لانشار الاستعمار وامتداده ، إذ متى ماأنشئت هذه الشرايين
 في جسم بلاد منحطة وتغلغلت في أحشائها وأطرافها ، لاتلبث أن تنقلب أذرعاً حديدية
 خناقة حول عنق البلاد ، تمتصه من دماها وسالبة من قواها مااستطاعت » .

ليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نخوض في البحث هل كان الغرب على حق أو
 باطل في تسلطه على الشرق هذا التسلط الاقتصادي الهائل ، فقد بحث الباحثون في هذا
 الموضوع واستقصوه من جميع وجوهه ، والقارىء الكريم مطلع على مثل هذه المباحث
 مما نحن بغنى عن ذكره . غير ان هناك أمراً لايمحتمل الجدل ، وهو ان هذا التسلط انما
 كان مما لا بد منه ولا حيدة عنه . فقد طلع القرن التاسع عشر على العالم والشرق والغرب

شتان ماهما تقدماً وعمراً، وبأساً وقوةً، الغرب جبار عنيد، شديد البأس، مجبول الساعدين، يتدفق قوة ونشاطاً ونمواً، يتخطى حاملاً على منكبیه أكبر حضارة عرفها الانسان سائراً بها نحو معقل الغاية العليا، والشرق متناقل متحامل، قليل المنة، سلب العزم. فكان المتوقع انقراض الأول على الآخر وإنشابه في كل موضع من مواضعه وما يعيننا جداً العناية بهذا المقام الا اعتبار ماهية التأثير الذي كان للسيطرة الغربية السياسية في مجرى انقلاب الشرق على العموم، ومبلغ تأثر الشرق بتلك العوامل المتسلطة عليه. وبما لا شك فيه ان السبب الأكبر في مبلغ هذا التأثير انما هو التغرب على ماسبق وصفه. وقد كان من ديدن الحكام والمسلطين الغربيين انهم متى قبضوا على أعنة الحكم في بلاد شرقية يشرعون بمقتضى الضرورة في نشر المؤثرات والعوامل الغربية جاهدين في تقريب متناولها وفي ذلك أسباب. ففي المقام الأول كانت الدولة المتسلطة ترى من مصلحتها أن تحمل السكان على طائفة رؤوسهم لها وانقيادهم الى حكمها وأمرها، وأن تسعى في توفير أسباب العمران المادى، وصيانة السلم والأمن، لكيما يتسنى لها بذلك كله الانتفاع واستدراخ الخيرات وابتزازها، وذلك لا يتم لها الا بالقضاء على الحكومة الأهلية المستبدة، القليلة الحول والطول وأن تقيم مقامها حكومات استعمارية منيعة الجوانب، شاكية السلاح، شديدة الشكيمة، فتقوم هذه بتثبيت النظام وتمهيد سبل الصناعة، وانشاء أسباب العمران كقطر الحديد والبرد والمعاهد الصحية وغير ذلك. ولكن هذه الحكومات الغربية لم تقصر همها على الترقية المادية خُصب، بل سعت في سبيل ترقية الأمم الداخلة في حكمها الترقية الاجتماعية والعقلية والأدبية.

فبهذا الاعتبار قد عرفت في الدول الغربية التي شيدت ممالك الاستعمار خلال القرن التاسع عشر روح أرقى من تلك التي عرفت من قبل في الدول الاستعمارية السابقة من اسبانية والبرتغال وهولندا وشركة الهند الشرقية الانكليزية وهي روح الجشع والنهم والاستنزاف. ففي القرن التاسع عشر كانت جميع الدول المستعمرة أخذت تشعر شعوراً حقيقياً عميقاً بالغاية الفضلى المثلى وهي « واجب الانسان الأبيض »، وكان بناء الممالك الاستعمارية في القرن الماضي يشتملون في نفوسهم على عواطف حب المصلحة وابتغاء المعالي والمطامح في سبيل اعلاء شان الوطن، وفوق ذلك على شعور أنبل وأشرف الا وهو الشعور

بالواجب الكبير ، واجب ترقية الشعوب والأمم التي دانوها لهم وأدخلوها في حكمهم ، يحملهم على ذلك سبب كونهم حملة مصابيح العلم والعرفان ، فشرعوا ينشرون أسباب الحضارة الغربية ويعممون طرق فوائدها ، معتقدين الاعتقاد الراسخ كله ان امتداد السيطرة السياسية الغربية إنما هو الذريعة الفضلى ، وربما الوحيدة ، لانهاض الجانب المنحط المتدلى من العالم وللاخذ بنصرتة في سبيل التجدد والارتقاء .

وقد وصف العلامة « رمسى موير » وهو من كرماء أرباب مذهب التوسع الامبراطورى ، هذه الحقيقة بقوله : « من الحق الذى لا يمارى فيه ان توسع الأمم الاوروبية التوسع الاستعمارى ، كاد يكون الذريعة الوحيدة التي انتشرت على يدها الحضارة الغربية في جميع رقع العالم المعمور ، فبات على أثر ذلك وحدة اقتصادية كالحلقة المفرغة ، وأمست جميع شعوبه وأمه تسير على انظم سياسية أدناها صائر الى مماثلة أرقاها . وهذا مما يحملنا على الاعتقاد أن العالم بأسره هو مسوق الى الانضواء تحت نظام عالمى عام ، قائم على طراز شامل لم يحلم بمثله المتقدمون . فالولا الفتوح الاستعمارية الغربية لظلت الاميركتان واسترالية وجنوب أفريقية بلداناً مفقرة يضرب فى أرضها شتات الهمج ، ولبقيت الهند وغيرها من بلدان منابت الحضارات القديمة ومناتى العمران السائب ، عرضة لدواهي الاجتياح والتدويج ومستقرراً للبغى والاستبداد على نحو ما كانت الحال عليه فى الحقب المتطاولة فى القدم ، ولكن العدل والقسط والقانون والحرية السياسية شيئاً غير مذكور ، ولأمست الشعوب التي كانت متدلية تتخبط حتى اليوم فى معارثها ، مستغرقة فى حالة البربرية . فاذا غدونا نرى اليوم فى الشرق هذه العقائد السياسية الغربية ، عقائد الجنسيات والاستقلال والحكم الذاتى هائجة غاية المراحل - مما هو فى الواقع من خير نتاج الحضارة الغربية وثمراتها الطيبة فاذا ذلك لعمري الا نتيجة من نتائج فتح أوروبا الاستعمارى » :

وقد أصاب اللورد كرومر فى وصفه أدب الاستعمار الحديث بقوله : « يجب أن تكون السياسة الاستعمارية قائمة على قواعد التبصر والحكمة . ويجب أن تكون أصول أحكامنا التي هى الصلة بيننا وبين جميع الشعوب الداخلة فى حكمنا ، من حيث الاعتبار السياسى والاقتصادى والأدبى ، قواعدٌ صحيحةٌ سليمةٌ منزهةٌ عن الشائبة والنقص . هذا هو حجر الزاوية فى بناء الامبراطورية . ان المبرر الأكبر للاستعمار يجب أن يظهر جلياً فى حسن

التصرف بما في أيدي هذه الامبراطورية من القوى . فان استطعنا ذلك فكنا فيه من الحكماء ، ولينا وجوهنا شطر المستقبل رفيعي الجباه لانخشى أن يعرونا ماعرا الامبراطورية الرومانية من قبل من الفساد والدخل ، وان لم نستطع فكنا فيه من الجهلاء الأغبياء ، فقد استحكمت الامبراطورية البريطانية الانهيار من عل ، ولسرعان ماتت آثار حلقاتها وتبدد بعد الاجتماع .»

على هذه القواعد قامت مبررات الاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر . وسواء أ كان مقدراً لهذا الاستعمار البقاء طويلاً أم التلاشي فالاضمحلال ، فما لاريب فيه أن امتداد سيطرة الغرب السياسية وانتشارها في آفاق الأرض قد ساعدا على انتشار المؤثرات الغربية مساعدة كبيرة . على ان الأمر الذي يتساءل فيه هو هذا : هل كان الشرق يستطيع بنفسه ، فيما لو ترك حراً من هذا الخناق الشديد والسلطان الفاهر والسيطرة المكروهة ، أن ينهج مناهج الغرب ويأخذه إخذة في النهوض والارتقاء ؟ فعلى التسليم بهذا ، يجب ألا يغرب عن البال أن الشرق لو ترك وشأنه لكان حتى اليوم ما برح بطى التحدى والأخذ عن الغرب متناقل النهوض . زد على هذا أن الزمان ليأبى كل الاباء أن يوسع أمة في يومها على حساب غدها ، فعلى هذا من قال انه كان على الغرب الشديد الناحي ، الآخذ سلطانه في الامتداد والانتشار مشرقاً ومغرباً في القرن التاسع عشر ، ان يربأ بنفسه فيتنكب طريق التسلط على الشرق ، بل يتركه وشأنه ينفعل كيف شاء قدر ماشاء بالمؤثرات والعوامل الغربية فيقبل ويرفض ، يجذب ويدفع ، يحب ويكره ، يتقبل الأرزاق والبضاعات غير مؤد لأثمانها يستقرض القروض المالية ويبذرها تبذيراً ، يدعو الغربيين اليوم الى دياره وغداً يهب لطردهم أوحز غلاصمهم ، فن قال هذا ، فانما قوله لاتيجهز المنبآت الصادقات من حقائق التاريخ ، ولا تؤيده سنة العمران البشرى .

فالحق أن الضغط الغربي انما كان من أحكام الزمان القاضية بسيطرة القوى على الضعيف . وهذا الضغط العميم العنيف الذي طال عهده قد دك أسوار جود الشرق دكاً ، وحطم سلاسل رق الشعوب الشرقية تحطيماً ، وهز المشرق من أقصاه الى أقصاه فاهتز وتناثرت منه باليات أتوابه ، وأخرجه من الظلمات الى النور ، وساقه في طريق العمل ، وأراه من الحقائق في اليقظة غير ما كان يراه من أضغاث الأحلام في الهجعة . واننا سنفصل

الكلام فى الفصول التالية على ما كان لسيطرة الغرب على الشرق من التأثير فى نفوس الأمم الشرقية فأخذت تنفعل وتبدل وتتحول طيلة جميع القرن الخالى . ولكننا فى هذا المقام نسير فى مجمل المراد من القول قاصرين الكلام على السيطرة الغربية فى دورها الحديث الذى ولىه انقلاب الشرق بعامل رد التأثير مقاوماً معادياً للغرب .

ان الضلالة الكبرى والمزاعم الباطلة التى اشتملت عليها نقود النقدة فى شأن سيطرة الغرب على الأقطار الشرقية ، انما هى ناجية بجملتها عن عدم التمييز والفرق بين ماهية استعمار القرن التاسع عشر واستعمار القرن العشرين . أما استعمار الأول فقد كان ضرورة لا بد منها ولا منتدح عنها ، وقد أتى غالبه بنفع وخير كما قدمنا الكلام على هذا . وأما استعمار هذا القرن فلا يمكن أن يحمده سيره ولا مصيره . ما كادت تطلع سنة ١٩٠٠ حتى كانت الشعوب الشرقية كافة قد نفضت عنها خلقانها ، وبددت غيبه جهلها وتعصبها ، وحطمت عقال خوؤها ، وخرجت عن تلك الدائرة المغلقة التى لم تحو غير آثار حضارات مندرسة ومدنيات منقرضة ، وأنشأت تمهد لها مهيماً مفضياً الى التجدد الصحيح والارتقاء . وكان الشرق قد أكمل تلقى دروسه ، وأنهى أخذها عن الغرب ، فشرع من بعد ذلك فى تطبيق العلم على العمل لا يهاب ولا يوجل فكان يجب على الغرب ، من قبل العقل والمنطق ، أن يوقن ان هذه الشعوب الشرقية ذات التواريخ المجيدة الحافلة بصور المجد والمعالي ، والتى قد استيقظت الآن فهبت تواقه متعطشة لاستعادة ماضى شائنها وغرر سالف أيامها ، يجب الرفق بحالها ، واقامة الوزن لنهضاتها ، واتهاج المناهج الفضلى فى مراعاتها ، واعتبار الفرق بين بارحتها ويومها وكراها ويقظتها ، وان شئت فقل كان يجب على الغرب من حسن النظر والحكمة أن يبدل موقفه على مقتضى تبدل الأحوال ، فيزيد فى توسيع نطاق الحرية الصحيحة للأمم الشرق وشعوبه فيكون لهم فى سيرهن وجهادهن نصيراً ، لا حائلاً دون مبتغاهن وعدواً لآمالهن .

ان الشرق قد تبدلت شؤونه ، غير ان سياسة الغرب الجائرة لم تبدل . بل ان مبادئ الحرية التى سادت فى الغرب ، ونودى بها غالب القرن التاسع عشر ، هبت عليها ريح هوجاء من المطامع السياسية والاقتصادية فزقتها شرمزق وبددت صورها كل مبدد . اذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل فاشتعلت الحرب

الكونية العظمى . وكانت قد اشتدت نهمة أوروبا وجشعها للتوسع في الفتح والاستعمار ومناطق السيطرة ونيل الامتيازات واحتياز الأسواق الاقتصادية ، اشتداداً وحشياً غير مسبوق المثل . فنجم عن ذلك أن باتت سيطرة الغرب على الشرق في صدر القرن العشرين غاية ما بعدها غاية في الارهاق وشد الخناق ، من حيث يجب اللين والرهو ، وطفقت أوروبا تتجهم في وجه الشرق المستيقظ الناهض ، وتستبيح لنفسها مناهضته وتسميم عواطفه الثائرة وروح الهاتجة ، فأساءت اليه بذلك في سنوات معدودات اساءة تفوق جميع ماناله منها من الشر والهوان طيلة مئتي سنة خلت . وكانت السياسة التي جرى عليها ساسة أوروبا الخدثاء في مناجزة نهضات الأقطار الشرقية المجاهدة في سبيل الاصلاح والذود عن حياض استقلالها كتركية وبلاد فارس ، عاراً وشناراً على الساسة الأحرار السابقين الذين كانوا منذ جيل مضى ، وجناية كبيرة على الأحرار المعاصرين ، كما تشهد بهذا كلمات خالداة قالها الكاتب الانكليزي الشهير « سدنى لو » سنة ١٩١٢ وهى : —

« ما أشبه غالب الدول النصرانية في سلوكها هذا الذى ما برحت سالكته منذ عدة سنوات ازاء الامم الشرقية ، بعصاة من اللصوص يهبطون على الخلل الآمنة ، أهلها ضعفاء عزل ، فيشخنون فيهم ثم ينقلبون بالغنائم والاسلاب . مبال هذه الدول لا تنفك تدوس حقوق الأمم المجاهدة في سبيل النهضة ، وعلام هذا العسف الذى تضرب به الشعوب المستضعفة ، وهذا الجشع الكلبى لانتياش ما بين أيدها وما خلفها . ان هذه الدول الغربية النصرانية هى بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة أن القوى الشاكي السلاح يحق له الانتقاض على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الاخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها البتة حيال القوة المسلحة . أجل ، ان هذه الدول قد تجردت عن كل حسنة في معاملة الشعوب الشرقية تجرداً لم يسبق له مثيل حتى بين أشد الجيوش الشرقية همجية في الزمن القديم .

« ان أعجب ما رآه تاريخ العالم خلال الخمس والعشرين سنة الماضية هو يقظة آسية هذه اليقظة الكبرى ، بعد رقدة استغرقت فيها قروناً . قد استفاق الشرق مدعوراً فأخذ يجهد الغرب ويزجه في حلبة العمران ، وكانت اليابان أولى الأمم الشرقية المنبرية الى هذا الميدان ، فكان انبرؤها هذا - لحسن طالعها - في عهد ما بلغ فيه الجشع

الاستعماري مبلغه اليوم ، وكانت حقوق الأمم والمعاهدات ما برحت تحترم بعض الاحترام . فعلى ذلك لما هب ساسة اليابان الدهاة في القرن التاسع عشر يشيدون وبينون ، ويذودون ويزاحون^(١) لم تدعن أوروبا لهم ولم تبادر لسد السبل في وجوههم ، بل اتنا نحن الغرب رأينا الى النهضة اليابانية بعين الرضى والارتياح ، والاعجاب والاعظام ، فتركنا أبناء « نون » وشأنهم يغامرون الصعاب ويذلونها في سبيل الحياة . غير انه لمن اليقين الثابت لو استأخرت ثورة النهضة اليابانية ثلاثة عقود من السنين ، لكان نبأ اليابان لدينا اليوم غير نبأ ، ولكانت اليابان الحديثة وهي اذ ذلك في ابان محاضها ، قد أحاطت بها من كل جانب الدول الغربية العظمى المسلحة احاطة السوار بالمعصم ، ومدت كل منها يدها الى شئ من المتاع تعتصبه اغتصابا . حقا انه قد كتب لليابان السلامة والنجاة من مخالب الاستعمار الذى انتشب في العالم بعيدئذ اياما انتشاب ثم لما أخذت الاقطار الشرقية الاخرى تهب جاهدة لاقتفاء أثر اليابان واحذاء حذوها ، طفقت تلتقى جداً عاراً وحظاً منحوساً ، وفي خلال العشرين سنة الخالية ثارت نائرة الاستعمار في أوروبا ، وهبت عواصف الحضارة المادية الهوجاء فقوضت الآداب والحقوق الدولية تقويضاً ، وخلعت وزارات المستعمرات العذار تريد التهام العالم التهاماً ، فأحدث ذلك رد فعل أسوأ ما يكون في الامم الشرقية المجاهدة مشتعلة بنار اليأس لانشاء النظم الدستورية واقامة سلطان الشورى . وما كان ذنب هذه الامم التي انهالت عليها جلات أوروبا المنكرة سوى أنها أخذت تسعى في أن تقوم بالارشادات والتعليم التي ظل المستشارون والحكماء الغربيون النصارى يلقنونها الشرق تلقينا طيلة سلسلة من الاجيال .

« وان الفرد ليخال عند الوهلة الاولى أن متى ما أخذت هذه الشعوب والامم المحافظة لتعاليم أوروبا عن ظهر القلب ، تسير في سبيل الاصلاح والترقي مع الشدائد الصعاب تسارعت الحكومات الاوروبية للاخذ بنصرتها وشد أزرها والارتياح الى نهضتها ، أو على الاقل تركها وشأنها تغالب ما تغالب وتجاهد ما تجاهد في سبيل تشييد بنائها بأيديها ، غير أنه ما كان أبعد هذا عن الواقع ، إذ أنشأت الدول الغربية الواحدة تلو الاخرى تنقض عند ما

(١) اقرأ ماحررناه في الرد على مقالة « مجلة باريز » في عرض الاستشهاد من كلام ذلك الوزير الياباني

لعنان نظلمى باشا ما يؤول الى كون الغرب لا يعرف سوى القوة (ش)

تلوح لها سائحة الشقاق بين أمة وأمة شرقية فتتناش بلاداً ثم تجعلها حانية عنقها الى نير الاستعمار .

وقد أسلفنا كلاماً في موضعه بينا فيه كيف كانت تتوالى جولات الاستعمار على العالم الاسلامى أخذاً بعضها برقاب بعض ، وكيف محت دول الحلفاء الظافرة استقلال ما كان لم يزل باقيا من الممالك الاسلامية عند ختام الحرب العامة ، وكيف أشعلت أوروبا وبه بذلك نار غضب المسلمين فباتت قلوبهم مكتوأة تحتدم غيظاً وحنقا ويأساً من الغرب ومقتاله . وقد تقدم الكلام مسهباً في الفصل السابق على نشوء الجامعة الاسلامية وعملها وتأثيرها في نفوس المسلمين . وفي الفصول التالية سنبسط الكلام على نشوء العصبية الجنسية الشرقية . غير أنه يجب ألا يتبادر الى الذهن أن هذه الحركات السياسية الدينية إنما هي جميع الصورة التي تتجلى فيها روح عداة الشرق للغرب : إذ أن هناك غير ما ذكرنا تطورات اقتصادية واجتماعية ، ونشوء حركات قومية ذات تأثير عميق . ولبيان طبائع عداة الشرق للغرب هذا العداة المسوق اليه الأول بعامل رد التأثير نأتى للكلام على هذا موجزاً فنقول :

ظلت روح العداة للغرب طيلة القرن الماضى تشتد في مكان ومكان على تفاوت . ولما كانت عوامل التعصب ورد الفعل كائنة على الدوام فما برح الكره للغرب شائعا عمياً ، بيد أنه - على توالى الأيام - صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يتبدل ويتغير على مقتضى الزمان والمكان . وقد كان الأحرار المسلمون في بادئ الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول . وقد أسلفنا الكلام في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف اعتزم المسلمون الأحرار اتخاذ القواعد التي جرى عليها الغرب في تقدمه وارتقائه ، وجعلها أساساً للقيام بما أنشأوه من الاصلاح الاسلامى باعتبار جهتيه الدينية والمدنية فقد جهد ساسة تركية الاحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة في الربع الاخير من القرن الماضى جهداً كبيراً للقيام بالاصلاح في السلطنة العثمانية ، وجهد أحرار غيرهم مثل جهدهم في الاقطار الاسلامية الاخرى في سبيل الغاية عينها . وخير مثال لنا على هذا هو ما بذله القائد خير الدين باشا في سبيل اصلاح تونس ، والى القارئ الكريم لباب الخبر : ان هذا القائد المقدم ، الجركسى الأصل قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباي ، ويتمكن عنده تمكننا كبيراً ، فاستوزره وسلم اليه مقاليد الأمور . وفي سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا

بسيحة الى أوروبا فطاف في ممالكها وشاهد صور عمرانها وحضارتها، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وعجائبه، وإذ اقتنع بتفوق أوروبا وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل الى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب والآراء مستعيناً بها لانهاض البلاد واسعادها، واعتقد ان هذا العمل سهل القيام به قيما يتلوه تجدد تونس في عهد قريب. ولم يكن خير الدين بغياً للغرب، غير انه قد أيقن كل الايقان بالخطر المقبل النازل الذي سيحيق بالعالم الاسلامي، خطر السيطرة والاستعمار متدققين من الغرب اذا اتوانت الممالك الاسلامية في الاصلاح الصحيح، فراح خير الدين يتغنى شديد الابتغا، وملء صدره الوطنية الصادقة، وكله عزم أكيد، أن يسوق أهل بلاده وبني قومه في طريق التجدد والعلى والارتقاء ليلبغوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمي كيانها وتقوم بالذيادة عن حياض حريتها واستقلالها.

واقنع الباي كل الاقتناع بأراء خير الدين وخطط مشروعاته، ففوض اليه تنظيم شؤون البلاد وأطلق يده لاتعلوها يد في القيام بضروب الاصلاح فظل خير الدين حقبة من الزمن يجهد ما استطاع في هذا السبيل مذلاً جميع مآلقيه من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين، غير أن منيته عاجلته باكراً فانتقل الى جوار ربه تاركا مشروعاته الكبرى دون الانجاز، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسا فبسطت سيطرتها على تونس. وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة، منها انه ألف كتاباً قيماً موسوماً بـ «أقرب المسالك في معرفة أحوال الامم والممالك»^(١) استنهض فيه هم أبناء بلاده

(١) يوجد شيء من النقص في تاريخ المرحوم خير الدين باشا التونسي الذي كان من أوائل المصلحين الاسلاميين في القرن الماضي. وكتابه أقوم المسالك هو من خيرة ما ألف لكسر قيود الجمود الضار القائل وحطم سلاسل التقليد الاعمى المنهى عنه في الشرع وايقاظ المسلمين الى انهم ان لم يبادروا الى التسليح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجل فجاءت دعوة خير الدين متأخرة اذا كان تكالب أوروبا شديداً وضربها وحياً وسبات الاسلام لازال عميقاً فم جمع ما تكهن به خير الدين. ولما استولت فرنسا على تونس رحل خير الدين الى الاستانة وولاه السلطان عبد الحميد الصدر العظمى متدباً اياه لاصلاح المملكة الا انه لم يعمل برأيه فاتهى الأمر باقالته وبقي في الاستانة الى أن توفي وذلك في نحو سنة ١٨٩٠ وخلف طاهر بك وهو من الأدباء الافاضل وصالح باشا الدماذ الذي شتقه الاتحاديون بتهمة الكون بمؤامرة قتل المرحوم محمود شوكت باشا وتشفع به السلطان ساكن الجنان محمد الخامس لديهم لكونه زوج ابنة أخيه أى صهر الاسرة المالكة فلم تشر شفاعة ولخير الدين باشا أيضاً ولد سمه محمد بك وهو وأخوه طاهر الآن بتونس. (ش)

واستفزههم الى التجدد والترقي وحذرهم من سوء عقبي التواني . فكان لكتابه هذا أعظم تأثير في نفوس الأحرار ورجال الاحزاب الوطنية في الشرق الأدنى عامة وافريقية الشمالية خاصة حيث كاد الكتاب يقدس عند أهل تونس والجزائر اذ كان باعثاً قويا على استيقاظ العصبية الجنسية . ففيه استصرخ خير الدين بيني قومه لتحطيم الاغلال القديمة ، وبسط لهم ضرورة الافلاح عن الافتخار الفارغ بمجد الماضي افتخاراً بالفاً حد القعود بهم عن استئناف طلب العلي طريفاً ، ودعاهم للوقوف على مافي العالم الغربي من وسائل التقدم وذرائع العمران . ومما أكده في كتابه هذا أن ارتقاء أوربة وحضارتها في هذا العصر ليسا نازلين عليها عفواً بلا نصب ، ولاهما منحة جادت بها الطبيعة لأسباب دينية ، بل هما ثمرة التقدم في الفنون والعلوم واكتناه أسرارها اكتناهاً توفرت معه وسائل الثراء باستخراج كنوز الأرض واحياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجميع هذا انما هو نتيجة استقرار أمرين وسيادتهما في افاق الممالك الغربية لاثالث لهما : العدل والحرية . وقد كان العالم الاسلامي في الأجيال الماضية عالم التقدم والفلاح والعمران ، لأنه كان في مجبوحة من الحرية ، سالكا سبيل الترقى والنجاح ، ثم أفلت شموسه فأخذ يتخبط في الدجنات ، وما زال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التي كانت فيه من قبل — روح الحرية والعمل والارتقاء . اتنا قد آثرنا ايراد ذكر خير الدين باشا التونسي على ذكر غيره من أحرار الترك وسائر المسلمين مثالا لكلامنا لأن في هذا المثال تتجلى الصفة العامة التي كان عليها سائر أحرار المسلمين في منتصف القرن التاسع عشر للأخذ عن الغرب ، وقد كانوا حتى عهدئذ بعداء من البغض له . غير انه على توالي الأيام انقلب كثير من الأحرار اعداء أشد للغرب لأسباب عديدة أهمها توالي الاعتداء الاوربي السياسي ، فباتوا بسبب ذلك يكرهون ويمتقون روح الحضارة الغربية بأسرها .

وقد اشتدت روح العداء للغرب واشتعلت نارها أيما اشتعال منذ أول القرن الحالى . قال أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة (١) في هذا الصدد : « ان هذه الدواهي التي دهتنا والنوازل التي نزلت بالعالم الاسلامي خلال العشر السنوات الأخيرة . قد جددت في أعماق جميع المسلمين عواطف التآخي والتوافق الاسلامي ، من حيث أشعلت صدورنا مقتا وكرهاً وعداءً للبغاة المعتدين علينا »

وللدلالة على مبلغ الكشاحة والعداوة اللتين اتقدت نارهما في قلوب المسامين نورد كلمة قالها أحد كبار كتاب الترك بعيد ان وضعت الحرب البلقانية أوزارها : « أجل ! اننا قد بؤنا بالكسرة والحيف ، بعد ان هب العالم بأسره بجالدنا ويقاتلنا ، والسبب في ذلك انما هو لاننا قد صرنا الف التائي في آرائنا نبتغي تهذيب عقائدنا متقربين من الحق معرضين عن الباطل في سبيل الحضارة والانسانية . ان الجيش البلغاري قد علمنا درساً لانسناه ، وهو انه يجب على كل جندي في ساحة الحرب أن يقاقل مقاتلة البربرية والوحشية ، ويشرب الدماء كالماء ، ويذبح النساء والاطفال والشيوخ الشيب تديحاً ، ويسلب وينهب السكان الآمنين ويمتهن حرمتهم وشرفهم ويزهق أرواحهم ، وعلى ذلك فلنصبح هراقة الدماء والبغى ، ثم نصرخ من بعد ذلك : الوحشية الوحشية ! كما فعل جيش الملك فرديناند . لسرعان مايلتفت العالم المتمدن اليانا ^(١) ويرعى من كرامتنا ويعلى من مقامنا ويحبنا حباً جاً ^(٢) !! »

ولما نشبت الحرب العامة هلل كثير من المسلمين وكبروا فرحاً وابتهاجاً بأن الدول الغربية قد أدركت اليوم الذي فيه انبرت تفنى بعضها بعضاً ، وتلقى جزاء عجبها وغطرستها ، وتجبرها وبغيها ، وقد وصفت صحيفة من كبرى الصحف التركية الدول الاوربية فقالت : « ان الدول الأوربية لا يحلو لها أن تتفقد معايبها وشروها ومفاسدها فتصلحها . ولكنها غيور علينا حتى التناهي ، فلا قلب يطيب لها الا بمعالجة شؤنا ولا عين تقر لها الا بالقيام على طرق اصلاحنا ، فلذا نجدها على الدوام تتدخل في كل حال من أحوالنا وأمر من أمورها ، بل لائتى تأمرنا وتنهاننا ، وفي كل يوم تنشئ محالبها في حق من حقوقنا وشطر من مملكتنا وتغرس مباضعها في لحوم أجسامنا الحية وتقتطع منها ماشاءت كيف شاءت ،

(١) أرسلت احدى الجمعيات الاميريكية بعثة الى البلقان للفحص عماروى من الفظائع التي ارتكبها البلغار واليونانيون والصرب بالمسلمين سنة ١٩١٢ فثبت لديها كل ما قيل بل زيادة على ماشاع وحررت خلاصة الفحص وقررت ان الترك كانوا ارحم جداً وأرأف وأشرف في حربهم من الأمم البلقانية المسيحية . لكن الصحف الاوربية لم تنشر هذا التحقيق ولا اشارت اليه وكان اكثر الأوربيين ينظرون الى ما حل بمسلمي الروملي بنظر شئانة ونادر منهم من قبج تلك الفظائع أو احتج عليها . (ش)

(٢) احمد امين كتابه « ارتقاء تركية الجديدة مقيساً بارتقاء صحافتها » نيو يورك ١٩١٤

ونحن حيال ذلك نكظم غيظنا ونحبس على ما في نفوسنا من روح الثوران والحيثان ونثني بعض سواعدنا على بعض وندمدم والنار تكوى جوانحنا : عسى الله يسلط بعض هذه الدول على بعض شر التسليط ! فتتداح وتتناجز ! وها انظروا - هاهي الدول الغربية النصرانية تنهش بعضها بعضاً كما ابتغى التركي» (١).

وليس الساسة ورجال الصحف هم وحدهم المتضرمة صدورهم عداء للغرب ولسيطرته السياسية ، بل ان هذا العداء عميم في كل أمة اسلامية على اختلاف الطبقات من الأمراء حتى السوقة . وكل طبقة على أسباب في هذا ، أما الأمراء والحكام الوطنيون فانهم وان استبقوا على عروشهم ومناصبهم ، وأعلت مظاهر كرامتهم ومنزلتهم ، وحفظت مرتباتهم ومخصصاتهم فانهم مع ذلك كله لم ينفكوا يحنون الى سابق عهدهم وسالف حالهم ، ويندبون خسارة خسروها هي ذهاب ما كان في أيديهم من أزمة الرق والبعدية والاستبداد . قال أحد « راجوات » الهند أسفا منفعلاً بألم الذكرى : « أتعلم يا صاح ! اني لقد فقدت جميع ما كان في يدي من السلطة ، فبت اذا شئت اليوم ابتياع قلم لدوائى أو نصل لرحي وجب على ان أستاذن المندوب المقيم عندنا في هذا الأمر » . وحقاً ما أشبه هذه الكلمة بأخرى قالها ذات يوم الخديوى توفيق باشا الى أحد وزرائه في أوائل عهد الاحتلال ، وكان يشهد استعراض الجنود البريطانية : « أتحسبني أنى مرتاح الى هذا المشهد ؟ انى والله ما رأيت قط خفيراً بريطانياً فى سوق من أسواق هذه المدينة الا حدثتني نفسى بالوثوب من مركبتى خارجا والانقضاض عليه فلا أنفك عنه حتى أخنقه بكتايدى خنقا »

وأما أهل الطبقة العليا فهم على مذهب أمرائهم وسلوكهم ، ولا جرم فانهم يأسفون للعهد المنقضى وقد كانوا فيه أصحاب الكرامة والمناصب والخطط فى الحكومة والدولة . وأما المهذبون تهذيباً غربياً وهم أهل الطبقة الراقية فانما يشاركون غيرهم فى العداء للغرب ، لأنهم يعتقدون أنهم أنفسهم أرباب الحق الجدر بتولى مناصب الحكومة ، فلذلك يمتقنون شر المقت ان يروا المناصب الادارية الكبرى يشغلها الغربيون الأجانب ويتقاضون عنها

(١) مجلة « لبتارى ديجست The Literary Digest » ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٤ قلا عن جريدة (طين) التركية الصادرة فى القسطنطينية . والحق يقال ان هذه الحال التى تمثلت فيها جميع صور المقت والكره للغرب عند شوب الحرب العامة لم تكن مقصورة على المسلمين فحسب ، بل شملت العالم وجميع الشعوب غير البيضاء .

فأحس المرتبات . وهناك عدد من الأحرار العارفين الذين يعتبرون قيمة التدريب المكتسب من السيطرة الأوروبية حق الاعتبار ، ويتلفونها مع فقدان الاستقلال الى أجل ما ، على أمل انه متى مارسخت أصول الادارة والتدبير في الحكومة ، واستقامت مجاريها ، واتسق سننها اتساقاً يكفل معه رد الفعل والفوضى ، انتهت هذه السيطرة وانقضى عهداها فلت محلها الحكومة المنتظمة المقتردة وسدت جميع فراغها . غير أن هؤلاء الاحرار هم الأقلون فلا يستطيعون امتلاك الكلمة النافذة في المجموع ، وهم فوق جميع هذا مكروهون ومعيرون انهم عشاق الزلني من الأجانب يبيع الشمم والاباء ، دائرون مع الأيام كيف دارت دون استقرار على حال ، ولذلك باتوا على شقة خلاف متسعة بينهم وبين الكافة والسواد الأعظم .

وربما يتبادر الى الأذهان عند أول وهلة ان الكافة من المسلمين ليرتاحون ويطمثون الى السيطرة الغربية ، ولا سيما عند ما يقارنون بين عهد ماض وعهد حاضر ، بيد أن الواقع على خلاف هذا ، إذ أنه مع ما أنت به السيطرة من الفوائد الاقتصادية فنجأ أهل الطبقة العاملة في الأقاليم والمدن من استبداد الأمراء والطبقة العليا ، فأصبحوا من بعد ذلك في مجبوحة من الدعة والأمن ، والنظام والعدل ، بحيث عادوا لا يخشون أحداً ينازعهم مافي أيديهم وثمرات تعبهم ، فانهم مع كل هذا ينفرون من الغربيين وينظرون اليهم شزراً على أنه ليس من العدل أن يقال ان المسلمين أجمعين لا يقدرون قدر شيء من فوائد السيطرة فالواقع انهم يفعلون ذلك ولكنهم عند ما يراد اعتبار صلاتهم المعنوية بأرباب السيطرة فهم لا يعدون حد احترام الحكام الغربيين الذين بين ظهرانيم احتراماً قليلاً ، وهم عن حبهم حباً بعداء كل البعد ملاح صبح وذر شارق . زد على جميع هذا ، فان الأيام تذهب على التوالي بأهل الجيل الذين كانوا على نعم في العهد الماضي ، ثم يخلف من بعدهم خلف يتناولون خيرات العصر على غير مناصب ، ثم يشكون من نقائص النظام الحالي ، ويعيرون الوطنيين الهائجين آذناً صاغية ، ويتشاركون ويتوائفون جميعاً على طلب الاستقلال ، ويندبون عزاً غاب ومجداً فات .

وحقيقة الأمر ان الشرقي على العموم لم يزل يحن الى منهج حياته القديم ، وعلى كونه يعترف بحسنات العصر الحديث وفوائده مستحدثاته ، فانه ليتوجد للماضي ويحيى

ذكرياته ما استطاع . فالمثل المشهور عند المسلم من هذا القبيل هو : الحاكم المسلم ظالماً خيراً من الحاكم الأجنبي « الكافر » عادلاً . فعلى هذا لا بد لكل حكومة استعمارية ، ولو كانت منورة مهما كانت ، من أن تصطدم اصطداماً عنيفاً بمتى المسلمين للحكم النصراني . قال أحد الحكام الروسيين في أواسط آسية يذنبه الحكام الأوروبيين عامة الى أمر : ان المسلم الورع لا يطبق حكم الكافرين^(١)

زد على هذا ان الكثيرين من الشرقيين قد يعترفون بفائدة تذكر من الحكم الأوروبي ، واذا اعترفوا بذلك حسبوه أشبه بالغرم يفوق النعم أضعافاً . على ان الأشياء التي كثيراً ما تنفخر باعطائها للشرق - راحة ونظاماً وعدلاً وأمناً - لا يعتبر الشرق قيمتها حق الاعتبار ، وما ينزلها المنزلة العليا من الشأن كما نخال نحن . ذلك ليس لأنه لا يبالي جد المبالاة بهذه الأمور ، بل لأنه يؤثر نيل الأقل منها على يد الحكام الوطنيين من أبناء قومه الذين يشاطرونه سراءه وضراءه ، وبؤسه ونعيمه ، على الكثير منها بنيله على يد المتسلطين الأجانب . ولنتعبر شأن « العدل » وهو أساس الحكم : قال كاتب انكليزي بهذا الصدد : ان الاسيوي لا تطيب نفسه بالعدل من حيث ان العدل تطيب به النفوس ، فهو لا يعبأ بهذا كثيراً متى ما استطاع أن ينال عوض العدل عطف الحاكم عليه ، عطفاً مفهوماً عنده كالعدل غير المفهوم . . . هذا هو السبب الحقيقي في كون الاسيوي يؤثر كل الاثار حكم حاكمه الوطني وان شيئاً على حكم الأجنبي وان بالغا حد الكمال . فانه متى ما كان في حكم أبناء وطنه شعر بكونه محكوماً من قبل حكام يحسنون تفهم شؤونه وأحواله عن كسب ، ويعتبرون بعين العطف الأسباب والدواعي التي جلته على ارتكاب الذنب والجناح وان أنزلوا به أليم التفاصيل .

ولنتظر في شأن النظام أيضاً ، ان الشرقي على العموم لا يعتبر مافي حياتنا هذه من السير المنظم المنسق ، بل هو ينفر من ذلك نفوراً . والسبب في ذلك انما العهد الذي ظل طيلته فيما مضى الفاحية التواني والكسل والفتور ، تلك الحياة التي وان كان فيها الظلم

(١) لم يصادف الى الآن ان أمة غير مسلمة تولت أمور أمة مسلمة بالعدل والإحسان لتعلم كيف يكون شعور المسلمين بأزائها ونظن انه لو وقتت أمة غير مسلمة الى ذلك لهان الأمر جداً وساد الوهم وتحابت هاتان الأمتان تحاباً تاماً فان العدل يطلب كل الموانع ولكن أين هذا العدل ... (ش)

والجور فقد كان فيها العطف والشفقة . بسبب ذلك هو لم يبرح حتى اليوم يكره النظم المستحدثة كقوانين الصحة والأمن العام كرهاً غريزياً ، بل يريد أن يبقى على منهجه القديم العهد ، وان ناله من ورائه ماناله من الضرر ، ضرر يستطيع دفعه عنه بالرشوة والاستعفاف تارة والمكابرة والاستقصاء طوراً . قال أميركي مرة لأحد أهل الفيلبين في عرض حديث جرى بينهما في شأن الاستقلال :

- ماذا ترى تستطيع عمله مستقلاً ما لا تستطيع عمله الآن تابعاً محكوماً ؟

فأجاب :- لو أردت أن أبنى بيتي في وسط هذه الجادة لاستطعت ذلك مستهلاً .

- وان هب جارك لمعارضتك في مرادك واستطاع أن يحول بينك وبينه ؟

- لأوقعتُ به

- وان أوقع بك ؟

فأجاب بهز منكبیه .

فسواد الشرقيين ما برحوا ، بالرغم مما يتدفق على الشرق من الغرب منذ أول القرن الماضي من الأفكار والآراء والمناهج والاساليب والمؤثرات والعوامل المختلفة ، يرتاحون الى البقاء على القديم البالى ، وانهم يعتقدون فوق هذا أن من أكبر مبتغيات الحكم الغربى حلقهم على التغرب عادات ومجتمعات ، وعلى تبديل الموروث من منازعهم وأساليب معاشهم ، الأمر الذى يحملهم على مقاومة التيار الغربى ما استطاعوا الى المقاومة سبيلاً . وكلما أتت الحكومات المستعمرة اليهم بشىء جديد وأمر مستحدث قاموا فى وجهها يفسدون ذلك عليها بالعناد والمشاقة . من ذلك على سبيل المثال أمر التلقيح الاجبارى الذى ظل أهل الجزائر يقاومونه عدة سنوات ، وقد كانت الحكومة الفرنسية تبسط لهم منافع التلقيح وفوائده اتقاء من سريان وباء الجدري فيهم ، فكانوا يجيبونها انها انما تريد بتلك الحيلة المصطنعة تعقيمهم لالتقيحهم ، بحيث يتناقص عددهم على التوالى ويكثر سواد المستعمرين الفرنسيين . فأخذت الحكومة تبين لهم فساد وهمهم مستدلة بارتفاع مستوى المواليد الأهلية ارتفاعاً غير مسبوق المثيل ، ومستعينة بأرقام الاحصاء ، فهزوا مناكبهم مستهزئين ،

وظلوا على المقاومة مثابرين (١)

وقد وصف الكاتب الفرنسي « لويس برتران » (٢) ، العالم الخبير بشؤون الأقطار الإسلامية ، مثل هذه الحالة بقوله : -

« ان جميع هذه الشعوب ، ولها من شعائرها الموروثة وعاداتها وفواعل البيئة كثير من المنفردات التي تحملها على استنكار فضائلنا الاجتماعية ، فلا تطيق احتمال شئ من أعباء أنظمتنا وادارتنا ولا من أي نوع من أنواع الحكومة المنظمة ولو كانت عادلة وشريفة مهما كانت . وظاهر السبب في ذلك ان الشعوب هذه قد أنقذت نجاة من عهود المظالم والشقاء والفوضى فما برحت باعتبار صفاتها النفسانية على مستوى ليس أرفع من مستوى سوقة بلادنا ، وما زالت تنفر من النظام وتحاول ان تلوذ بالفرار من رجال الدرك والضابطة . فانه لضرب من العبث كلما حاولنا اقتناع عرب افريقية الشمالية أن الفضل في انجائهم من عمال الترك المستبدين القاهرين انما هو عائد للحماية الفرنسية اذ باتوا في ظلها من بعد ذلك لا يخشون منهبة ولا مذبحه ولانار نزاع توارث فيما بينهم ، أعرضوا عنا وأساءوا ظنهم فينا . والأمر الذي يحارون عند فهمه أكثر من سائر الأمور هو : دفع الضرائب في سبيل أمور وشؤون لا يعرفون لها من قيمة . وما كان أعظم السخط الذي اشتعلت ناره في المدن الجزائرية عند ما أصدرت دائرة الصحة قانونها الموجب لقاء الكناسات في مواقيت مضروبة . وقد لاحظت شيئاً من حال على هذه الصفة في القاهرة عند ساقفة الجير والعجلات المسوقين بقوانين الشرطة البريطانية .

« على أنه ليست أنظمتنا البلدية والادارية هي جميع مالا قبل لهذه الشعوب باحتماله ، بل ينطوي تحت ذلك جميع عاداتنا ، بل جميع النظام السائد في حياتنا المدنية . مثال هذا : يسير القطار بين يافا والقدس ويقف في مسيره عند محطة بالقرب منها قبر أحد الأولياء . والقطار لا يستطيع بحكم القانون ان يطيل موقفه عند هذه المحطة اكثر من دقيقة . فلما

(١) هذا شأن كل عامة جاهله ولا أظن الا أن عامة الافرنج لأول عهد حضارتهم قد قاوموا هذه التدابير النافعة كما قاومها الجزائريون في هذا العصر . (ش)

(٢) كتاب : « السراب الشرقي » (باريس ١٩١٠) "Le Mirage Oriental" Louis Bertrand.

وصلنا إليها دهشنا اذ رأينا جميع الركاب المسامين قد هبطوا من القطار فافتشوا البسط فأخذوا فى السجود والركوع فأخذ مدير المحطة يناديهم بصفارتة ، وتلاه مسير القطار يستصرخهم مشيراً اليهم انه سائر بدونهم ، فلم يبالوا بجميع ذلك أقل المبالاة ، فاضطر نفر من عملة القطار الى النزول مستشاطين غضباً وأرجعوا المصلين الورعين قسراً الى القطار . فدام الأمر ربع ساعة على عناء ومشقة (١) .

« هذا مثال شوهد اتفاقاً . فالغريب فى أمر هذه الشعوب انها لم تفقه معنى رقابة النظام ولا ألفت فى حياتها سيراً منظماً بعد » .

ان هذا الكلام انما لوصف السواد الجاهل ، ولكنه يدل على تلك الصورة العقلية النوعية التى ما برحت ترى فى سائر الطبقات من الشعوب الشرقية على تفاوت . لأن العادات التى عرفت قرونا عديدة لا يستطيع تبدها سهلاً . ويجب ألا يغرب عن البال ، ان الطبقات العليا كانت مستطبعة ، فى الادوار السابقة قبل ان أخذ الشرق ينقلب ويتحول ، ان تستمتع حق الاستمتاع بالحرية الذاتية « أو الحرية الشخصية » المملوءة تخيلات ووساوس . فلذلك وان كان أهل هذه الطبقات اليوم اكثر من غيرهم استعداداً لاعتبار قيمة ما يجب أخذه عن الغرب ، فهم من حيث اضافة حاضرهم الى ماضيهم ، يحسبون انهم خاسرون شيئاً كثيراً .

فالشرقيون كافة على اختلاف الطبقات ، ما برحوا اذا ماجرت على ألسنتهم ذكريات الماضى السعيد ، أسفوا لفواته وتوجدوا على انقضائه ، وقالوا نعمة فاتت وسعادة طويت . فكل من الامير والباشا والنديم بعد الحياة على نحو ما كان يستلذها فردوساً شرقياً . وفوق جميع هذا كان الامير على الدوام معرضاً ليحوق به بلاء سلطانه القاهر أو ملكه العاتى قتلاً أو ذبحاً ، وكان الباشا لا يعلم متى يصدر أمر مولاه بأن تنتزع روحه من بين جنبيه ، وكان النديم يلقى شر التعذيب عند ماتهب فى رأس سيده عاصفة الهوى . ومع كل هذا فقد كانت « الحياة الشرقية » حياة غبطة وحبيرة وكان كل فرد من هؤلاء متميز المرتبة عن سواه

(١) فى هذه الحكايات مبالغات واطلاقات لاصحة لها وانما يبتغون بها تبرير سياسة تسلطهم على الشرقيين . ولكن من الجهة الاخرى لها أصل كاف لأن ينفر منه ذوو الاسلام الصحيح الذى ينهى عن العبادة عند القبور لاسيما اذا كان القطار على وشك المسير . (ش)

باخلاقه وصفاته وبماله من الذكر في ابناء بلاده ، فكان من على هذه المرتبة التي لاشبيه لها في أوربة باستطاعته أن ينتهك حرمة القانون ، فيركب رأسه في كل ماشتهى وابتغى أخيراً أم شراً ، ودأبه الملق والمداجنة والمداهنة الاسيوية ، والخنوع المقرون بالطاعة العمياء لعاتٍ كبير لا يرى لنفسه من سعادة غير سعادة التحكم بالرقاب واستئلال النفوس . وكان حول كل متسلط قاهر لنيف من العشاء والجلساء يشاطرونه في نعمه وترفه ، ومستلذاته ومنغمساته . وكانت سلطة السيد على السود والحاكم على المحكوم سلطة معلقا بها حبل الموت العاجل أو الحياة المفعمة فلقاً وجزعاً . وكان اقتناء الخطايا من أشيع ضروب مشتبهات الحياة ، وكان تقبيل الذبول وحنو الاعناق ، والتذلل وبذل ماء الوجوه مما لاحدله ولا قياس .

ولرب سائل يسأل كيف كانت حال الطبقة الدنيا ، الفقيرة المسكينة ، بين أيدي هؤلاء المستبدين الجائرين ؟ كان الفقير الضعيف في غالب أحواله على لاشئ ولكن كان يستطيع أن ينال كل شئ ، اذ أن الحياة الماضية في الشرق كانت مانأتى به القرعة ويجود به البخت والطالع ، فكان كل فرد وان صعلوكا يستطيع ان ساقه الجد والحظ لاسترضاء سيد غطريف ، أن يصيب نعمة بعيدة الضفوة وشهرة جوابة . وهذا في الواقع مما يتقبله الشرقي تقبلاً ملائماً لطبائع مزاجه . ولا جرم فالخط وسرعة قلبه ودوران دولا به في الشرق انما هو أمر مألوف شائع مرغوب فيه ، وله من الشأن ماليس للثبات والاقدام الموقن فيه والطمأنينه في الغرب (١) .

وأحب السير في الشرق تلك التي تقص فيها أحاديث السعود والنحوس التي نجمت أو غابت على حين غرة ودارت دورتها في ليلة وضحاها ، كصعلوك استوزر أو وزير تصعلك . وما برحت الكثرة الغالبة في الشرقيين تعتبر أن الحياة انما هي تقلبات الأيام ، والزلقى من ذوى الجاه ، وسعود الحظوظ ونحوسها ، وليس المعول فيها على الاعتماد على النفس وحسن القيام بالأمر على أمانة وكفاية . هذه هي صور الحياة التي كان يغتبط بها الشرقيون من قبل ، غير أنه بعد انتشار النغرب بدأت الحياة الشرقية تنتقل من دور البخت والحظ الى دور العمل الذي لا يصح فيه الا الصحيح . قال أحد كتاب الانكليز عانيا

(١) مع الأسف تقول ان أكثر ما يصفه المؤلف هنا صحيح وهو السبب الأول في انحطاط الشرق عن الغرب واستيلاء الغرب على الشرق .
(ش)

شان مصر الحديثة: « قد يمكن أن يكون حكمنا وافيًا بيد أن الشرقيين يستنقلونه ويتبرمون منه . كان الحكم القديم أشبه بثوب خلق بال من أي موضع جذبته تنائر قطعاً ، ولكن الشرقيين كانوا يحسبون نفوسهم أنهم به محتالون ، وكان متقلباً كريشة في مهب العاصفة ولكن كانت فيه قوى سحرية تأخذ بالالباب ، مرة قال مصري لأحد حكام الانكليز: « نعم ! ولكن في الدور الماضي كان المتسول يقف على باب أحد العظماء فان رأته سيدة ذات شأن ومال فهو يته ، جعلته في اليوم التالي أميراً يجر مطارف النعم الكبرى والسعادة العظمى ، فالماضي — ماضي التملق والمداهنة — كانت تحمل فيه المراعاة محل العدل ، وكانت الحياة كثيرة النحوس والسعود في مصر ، بلاد يوسف وهرون الرشيد واسماعيل باشا » (١) .

واذ قد بات كثير من الشرقيين يخشون ضياع جميع ما في أيديهم من العزيز الغالي ، فليس من الغرابة في شيء أن نرى المحافظين وهم كثر يندبون الماضي ويكفون « عصرًا ذهبيا » ودوراً كان فيه من الخير أكثر من جميع ما أتاهم الغرب به ، وان تراهم وقد ارتبطت عروتهم بعروة فريق الأحرار ، فباتوا جميعاً ناقلين على التعرب أشد النقمة ، فهبوا الى قتاله ومقاومته ومناهضته بسلاح الرجعية وأسباب رد التأثير . فكانت النتيجة استقواء روح العداة لكل شيء غربي ، وظهور هذه الروح احياناً مظانراً الغلو والتشدد البالغ الحد . قال « لويس برتران » الآنف الذكر: « حضرت يوماً مجلساً من مجالس أهل القاهرة فسمعت فيه خطيباً يقول في الناس ان فرنسة هي مدينة للإسلام بثلاثة أمور ذات شأن: (١) بحضارتها وعلاومها ، (٢) بنصف مواد معجمها ، (٣) بجميع ما هم عليه الفرنسيون من الفضائل الخلقية والعقلية ، اذ يحتمل أن يكون جميع المصلحين الذين جاهدوا في سبيل الحرية منذ الأجيال الوسطى حتى عهد الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ — مثل الالبيجين والكافيين وسواهم — من نسل عرب الأندلس . وعلى ذلك فلم يبق سوى أن تلحق فرنسة براكش . وقد بات غلاة الوطنيين من أهل مصر مشغوفين بزيارة اسبانية للطواف في حدائق قصور اشبيلية وقصر الجراء في غرناطة والبكاء على عز الاسلام الدفين

(١) ه . سبندر : « انكلترة ومصر وتركيا » تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٦

ومجد العرب الفقيد في ربوع هاتيك البلاد .

أضف الى ذلك أن شأن الهندويين (الهندوس) في هذا الأمر كشأن المسلمين . فهم أيضاً يتفجعون حزناً على « عصرهم الذهبي » الفائت ، بل يفوقون جيرانهم مغلاة واغراقاً في هذا . اذ يعتقدون الاعتقاد الراسخ كله ان هندستان انما هي منشأ جميع الأديان الصحيحة ، وموطن ضروب الفلسفة والتهديب والحضارات والعلوم والاختراعات وغير ذلك ، ويحتمون القول بانه متى ما انقضى عصر الانكساف الحالى في الهند (هذا الانكساف الناشئ بطبيعة الأمر عن الحكم البريطاني) عادت الهند مشرقة الشمس وهاجة الضياء رافلة بحلج المجد الزاهر ، مجاهدة في سبيل تنجية العالم بأسره ، وانه مامن شئ جديد تحت الشمس . أما السبب في هذا الغلو فهو أنهم على ما زعموا قد عثروا في الكتب الفيدية المقدسة وغيرها من كتب الهندو الدينية على بينة لا تدحض ولا تنقض ما لها أن حكاء الهند الأقدمين قد سبق لهم فأنبشوا بمستحدثات هذه العصور الجديدة . ومن ذلك ما هو حديث الانشاء كالطيارات التي تلتقي القنابل المرفقة من عل ، وكعصبة الأمم المثلة لجميع شعوب الدنيا وأمها .

على ان جميع هذا التبجح بفخر زائل وعز منقوض ليس من شأنه أن يجدى أهل الشرق نفعاً وأن يعود عليهم بطائل . فالشرق مثل الغرب ، له فضائل وحسنات ، وشرور وسيئات ، غير أن هذه الأخيرة قد ظلت طيابة الالف السنة الأخيرة تمتد بأفقها فوق أفق الأولى حتى أمسى الشرق متعثراً متخبطاً في مهاوى الانحطاط . أما اليوم ، وقد تغلغلت فيه المؤثرات الغربية من كل صوب أبعد متغلغل فانتشى ربح الحياة ثانية . فأخذ يستيقظ وينهض . على أن نتيجة هذا لن تكون ان الشرق سيتغرب تغرباً تاماً مشتملاً على التحدى الكلى والانتقال المطلق العام . فليعلم العلم اليقين أن الشرق شرق ثم شرق ، متميز بما في أمزجة شعوبه من الطبائع والعناصر ما كرم الملوان وتعاقب الجديدان . غير انه لا بد لهذه الأمزجة من التطور تطوراً مؤلفاً لروح العصر والبيئة وذلك بالضرورة لما هو متسلط عليها من الطوارئ الغربية ذات الفواعل والعوامل والمؤثرات . فعلى ذلك اذا مابرح الرجعيون على حالم من الرد والمقاومة للأفكار الغربية ، كانوا بعملهم هذا كأنهم يطيلون

عهد انحطاط الشرق ووهنه ، ويجذبون بأطراف الأمم الشرقية الى الوراى فيوقفونها عن السير والتقدم .

ليس أمر هذه الروح الرجعية بالغريب . فان عوامل التغرب ، أعنى عوامل التجدد التى فى عالم الفعل لاعالم القوة لتتغلغل فى بينات فيها الدائر والبالى مرغوبين فيهما والخلق والمتلاشى مستمسكا بهما ، فالرجعية لابدمنها فى دور مثل هذا الدور ، حتى ولو كانت السيطرة الغربية خيراً كل الخير وكان الغربيون المتسلطون ملائكة من نور . غير ان التغرب له سيئات تصاحبه لأن ذلك من طبيعة الانقلاب . أضف الى هذا أن الفساد قد تسرب وانتشر فى تلك البواعث التى كانت تحمل حملة الألوية للحضارة الغربية على خدمة الانسانية والأخذ بنصرة المستضعف . وهذا الأمر مما قوى ساعد الرجعيين فزادوا فى ادلاء الحجة الأدبية قائلين هذه معاييكم مكشوفة تكذبكم فيما تدعون . وفوق جميع هذا فان الانتقال من دور الى دور لابد له من أن يحتاز مخاضاً شديداً ، ولاسيما متى ما كان التطور اقتصادياً واجتماعياً . وقد يطرأ عليه من الأسباب والقواعد الخارجية ما ليس فى الحساب فيزيده ذلك ألماً وشدة . ان مجرد وجود الغربى فى الشرق متسلطاً بغاشم قوته و باهر تقدمه وعجيب آلاته وأدواته ، لداعية دائمة تنغص على الشرق عيشه ، وتغضبه وتثير منه ماثير ، فينقلب يريد لنفسه العزة ، وكيف يناها وهو كيف مادار دارت معه أغلال الذل وقيود الاستعباد . هذا هو الواقع . ولكن لعل وجود الغربى هكذا هو من شروط الضرورة فى تجدد الشرق كما أن ذلك مما لامنتدح عنه بسبب انحطاط الشرق وقلة ما هو عليه من القوة والحول . على ان السيطرة بجملتها لم تبرح علة النعمة والهياج والاضطراب ولو كان فيها من نفع وفائدة وخير مهما كان . واليك السبب : ان الأور وبيين فى الشرق من شأنهم أن يشوبوا كل شئ ويغيروا صورته ، ويبدلوا العادات تبديلاً متدرجاً ، ويرقوا المعاش فيرتقى مستوى الحياة ، وينبوا المنازل والمساكن فى النواحي المعتزلة عن سائر المدائن والحواضر و يقيموا فيها متنعمين ولهم من قوانين الاستثناء والامتيازات والاعفاء ما يكسبهم الميزة العليا على أهل البلاد . ففى قلب القاهرة مدينة انكليزية ، وفى الجزائر المزخرقة بالنقوش المغربية الشرقية « باريس الصغرى » ، « ويرا » الأور وبية فى القسطنطينية تباهى القسم المعروف باسلامبول التركية . فلم لا يكون ذلك من أسباب التبهرم فالغضب فالاضطراب ؟

وأما الهند فرصعة ترصيعا بالضواحي البريطانية ، وما الحواضر الكبرى مثل كلكتة وبومباي ومدرس سوى مدائن أوربية مخططة في بلاد هندية فيها جميع الأبنية الفخمة الغربية الطراز والاسلوب ، دون بعض الأبنية الحديثة التي أخذ يظهر فيها الأسلوب العربي الهندي . وأما الشوارع والجوادة جميعها معروف باسماء انكليزية ، أسماء نواب الملك ومن سلف من الحكام والمتسلطين والقواد الذين شهدوا فتح البلاد^(١) ، والذين اشتركوا في اخاد الثورة - أبطال تقع العين على تمانيلهم المنصوبة في كل ساحة ومنعطف وثنية . والبيوت التجارية هي انكليزية وجميع من فيها من المدبرين من الانكليز - والاوراسيويين (مزيج الأوربيين والاسيويين) يتجرون بالبضائع الانكليزية والمركبات والسيارات الانكليزية تنساب رائحةً جاثيةً في أسواق المحل المعروف « بانكلترة القديمة » . وحيثما بحث المستقصى في سائر دوائر الحياة وجد مساعي الانكليز وافرة وجهودهم كبيرة لاحداث أسباب الانقلاب الاجتماعي على حسب ما يستلحون لشؤونهم ويريدون لحياتهم وأما الهنود فكلمهم الا القليل يقيمون في النواحي القديمة القذرة ، كتلك المعروفة في مدرس « بالمدينة السوداء » . أضف الى هذا ان ليس هناك من الوسائل والأسباب مايسهل الاختلاط الاجتماعي بين الانكليزي الغريب والهندي الوطني ، سوى القليل الذي لا كبير شأن له كالندية الرياضية البدنية حيثما يتلاقى هذان كلاهما على مستوى واحد من المنزلة الاجتماعية . أما غير هذه الأسباب النزره فيكاد يكون معدوما . وقليل من الغرباء من يلد له التجوال في الأسواق الوطنية اللهم سوى المبشرين ورجال جيش الانتقاذ والسياح الذين مرادهم رؤية كل غريب . وأما سواد الغربيين المقيمين في الهند فقد أمسوا لا يحفلون البتة برؤية تلك الأقوام الهندية السمراء .

وهذه الحال في الحواضر والمدن تشاهد على صفتها هذه في جميع الأقاليم وسائر المقاطعات بنطاق أضيق ولكن مع قيام الميزة واعتبار الفرق . فعلى ذلك ، الاوربي في أي قطر من أقطار الشرق إنما هو غريب أجنبي دخيل ، حياته مختلفة عن حياة أهل البلاد وفي الامر موضع للنكايه وهو أن هذا الاوربي المختلف بأسلوب حياته وطرز معيشته ،

(١) كما سموا شوارع بيروت باسم المارشال فلان والجنرال فلان ممن غاب على البلاد العربية وابتزها استقلالها ؟ وهذا منتهى الحفارة لاهل البلاد (ش)

المنفرد بمنزله ومجتمعه ، غريب دخيل وحاكم متسلط معاً ، وظاهر أبداً مظهر السيد المطاع والامر الناهي . ومن تدبر الأمر وجد ان ذلك ناشئ عن طبيعة الحال ولا مرد له . ومن المعلوم ان هناك كثيراً من الأوروبيين الذين يعدون من فسدة الأخلاق وأردباء الطباع والسجيا ، ولكن أمر هؤلاء لا يحمل على الرجوع عن تقرير السبب الحقيقي وهو : أن الأوروبي قد استطاع ، وان كانت الليالي حبالى يحملن من الأجنة ما يحملن ، أن ينشئ سيطرته وسلطانه في الشرق لبطوط هذا عن مستوى الغرب وقصوره عنه قصوراً كبيراً ، وما دامت هذه حال الشرق فالأوروبي في ربوعه لا يبرح الحاكم فيه المتسلط عليه . ولكن يجب على هذا المتسلط الغريب أن يحكم حكماً عادلاً ويقيم وزناً سياسياً حقا لارتفاع مستوى الشرق في التقدم وال عمران والارتقاء ، وأن يدأب في نفث القوة فيه وشد أزره حتى تكتمل قوة شعوبه وأممه ، الى حد تسمى عنده جديرةً باطلاق حبلها على غاربها والقيام على شؤون حكم نفسها بنفسها فالغربي ما دام في الشرق فهو فيه الحاكم السياسي المسيطر والافليس له سوى أحد الامرين اما الحكم حكماً صالحا هذه صفته واما زم الحقائق والرحيل . زد على هذا يجب على الغربي ما دام في الاقطار الشرقية أن يحكم بحسب حكمته الخالصة ومداركة الصحيحة ونيته الصالحة ، راعياً لشعوب أهل البلاد الشعور القومي المزدد ، معتبراً للعاطفة الجنسية ومنزلها المنزلة اللائقة . فكلمة اللورد كرومر التي قالها في هذا الصدد وتجاءت أصدائها في جميع آفاق الحكومات الاستعمارية لن تنسى وهي : « في حال حكم الشعوب الشرقية يجب في المقام الاول إتباع ما هو خير وصالح لهذه الشعوب ، ولكن ليس من الضرورة على الدوام اتباع ما تخاله هي لنفسها خيراً ومصلاً » .

أجل ، لم يكن بدّ مما كان وهذه الحقيقة لا تحتاج الى زيادة إيضاح . ومع هذا فان كثيراً من متهذبة الشرقيين لا يعدون السيطرة الغربية سوى دواء مر المذاق تعافه النفس وتنقبض منه شديداً ، بينما كثير سواهم لا يحسبون السيطرة سوى أداة الاذلال والهوان والاصغار ، والحكم القاهر الذي لا يطيقون النزول عليه . وليعتبر في هذا المقام ان بعض ما هو عليه الغربي من الفضائل انما هو من جلة الأسباب التي تحمل سواد الشرقيين على استئصال وطأته والنفور منه . قال مرديث تونسنند^(١) : « ان مثل الغربي في آسية مثل

رجل شأنه أبدأ أن يدعو جاره ليعمل على أثر تناول الطعام ، وليكون شديد اليقظة عند اشتداد الوسنة ، وليقوم على شؤون واجبة ميقات الطرب ونهب اللذات - هذا هو الغربي في آسية وهو مع ذلك الحالم المتسلط .

أضف الى ما تقدم من الاسباب التي من أجلها يلقي الغربي في الشرق كرها ومقتا ، سبباً آخر هو من الخطورة بمكان : ان هذا المسيطر الغريب الدخيل الحال بين ظهراى القوم هو المتسلط القاهر من حيث كونه غريباً عنهم جنساً ودماً وعرقاً . ان هذه القضية الجنسية شأنها كبيراً لا يستهان به ، وهى على خطورتها التي لا ريب فيها مستعجمة المذاهب الى حد بعيد . اذ أن غالب شعوب الشرق الادنى والاوسط التي نعنى بشأنها في هذا البحث هى على الجاية من الصنف المعروف « بالصف الاسمر » من أصناف البشر . ولكن هذا ليس بالصحيح كل الصحة عند من يريد التعمق والاستقصاء في علم الاجناس البشرية ، لانه لا يسعنا باعتبار حقائق هذا العلم أن نعد جميع العروق التي يتألف منها النوع الاسمر عروفاً سمراء من حيث الأرومة والاصل ، متميزة بفوارقها وخواصها ، ونطلق عليها اسم « الجبل الاسمر » ، كما يسعنا أن نفعل ذلك في قضية العروق التي يتألف منها « الجبل الأبيض » أو تلك التي يتألف منها « الجبل الأصفر أو المغولى » في الشرق الاقصى ، والسبب في ذلك أن أقطار الشرقين الأدنى والاوسط لم تبرح على كرور الازمنة المضطرب الكبير الذي أخذت تختلط فيه عروق الاجيال المختلفة اختلاطاً متواليماً شديداً ، لان كثرة الفتوح والهجرات كانت على الدوام سبباً في تدفق العناصر الجديدة الغربية على هذه الأقطار والامصار ، فكثرت تباينات الاصول واختلطت عروق الانساب ، وتعددت طبائع الامزجة المكتسب بعضها عن بعض ، فعلى ذلك غدت شعوب الشرقين الأدنى والاوسط اليوم متشابهة الالوان . فمنها ما غالب لونه اسود كالهنود الجنوبيين وعرب اليمن ، ومنها ما غالب لونه أصفر كشعوب بلاد جلايا وأواسط آسية الذين يجرى في عروقهم كثير من دم الشعوب الصفراء في الشرق الاقصى ، وقد كان من شأن هذا الاختلاط المتباين انه نفي نشوء مثال جامع لتنام الحقيقة والاوصاف التي ينبغى أن تشاهد في عروق « الجبل الاسمر » الضاربة في الشرقين الأدنى والاوسط ، كما يشاهد مثل ذلك في عروق الشعوب البيضاء والصفراء ، ولما كان المثال على هذه الصفة معدوماً في هذه العروق ، ومثله كائناً في الجبلين الآخرين ، فلم

ينشا بطبيعة الحال مثال من الحضارة ونموذج من التهذيب جامعين للعناصر والفوارق التى تتميز بها العروق السمراء عن سواها . على أن هناك نزعة عصبية قد قامت مقام ذلك المثال العنصرى المردوم ، نزعة دينية رابطة لجميع الشعوب السمراء بعضها مع بعض انما هى الاسلام وجامعته المتماسكة وعروته الوثقى . ولكن الاسلام فى الهند وهى أكبر مضطرب للشعوب السمراء لا يدين به هناك أكثر من نجس السكان . ولما كانت حدود العالم الاسلامى قد ما شت فى الغالب الحدود الانثولوجية لعالم الشعوب السمراء ، فقد أخذت من بعد ذلك أمواج بحر الاسلام تمتد الى جهات غير تلك فطما الاسلام على بعض الشعوب البيضاء الصرفة فى شرق أوروبا وكثير من الشعوب الصفراء البحتة فى الشرق الاقصى ، وأقوام لا عد لها من زنوج افريقية

يبد أن قوانا على الاصطلاح « الجليل الاسمر » أو « العالم الاسمر » لا يبرح دالا على حقائق ثابتة من حيث أصلية هذه الشعوب ومنحدرها ، حقائق يعترف بها العلم وتقر بها السياسة على ما هناك من تكاثر الامتزاج والاختلاط . إذ أنه لمن المقرر أن هناك صلة امتزاج متبادلة فيما بين هذه الشعوب السمراء ، صلة ترد الى أصلها الأول ومنشأها الأقدم ، وهى وان كانت مستعجمة الصفات لبعدهم تغلغلها ومستسرة الآثار لتنكر مسالكها ، فكائنة حية متى ما تهيأت لها الأسباب بدت بارزة عن ظل الاشكال وظهرت آذنة بالجلاء . وأوضح مظاهر هذه الصلة فى جميع شعوب الشرقين الأدنى والاوسط انما هو انسياق جميع الشعوب بفعل الطبع والغريزة الى الاعتقاد فى نفسها والتبادل فيما بينها انها مؤلفة من سلسلة من الشعوب الاسيوية متصلة الحلقات متوائمة الأجزاء . ولو كان هناك ما كان من التعادى بين قبيل منها وآخر . وما برح هذا الشعور الاسيوى الذى بات من العوامل المستقرة فى عناصر الامزجة يراقبه المؤرخون ويشيرون اليه منذ أكثر من عشرين مئة من السنين ، وهو ما انفك حتى اليوم كما كان فى الأمس صحيحاً ثابتاً ، حياً نامياً .

فهذه الاختلافات الكبرى فى عروق الأجيال البشرية انما هى الاختلافات التى هى أعرق قديما وأبعد أساسا ومنشأ ، وأبقى عهداً وتاريخاً ، وأشق استئصالاً اذا أريد استئصالها وأشد مقاومة لكل بطارىء عليها ، فى جميع هذا الوجود الانسانى والعمران

الاجتماعى . وليس أمرها مقصوراً على اختلاف ألوان البشرة فحسب ، فان السحنة وطول القامة وتكوين الشعر وغير ذلك انما هي اختلافات ظاهرة مرئية وليست عند الاعتبار حق الاعتبار الارموزياً الى الاختلافات العقلية والذهنية والنفسانية الباطنة ، الدالة على اختلاف فى الطبايع والأمزجة والمدارك والآراء ، ذلك الاختلاف الذى غدا بسببه كل جيل مكتسباً من الفوارق والخواص ما يميز به عن سواه تميزاً ترى معه شقة البون والفرق قصة بين هذا وذلك .

إذا فالفوارق التى تفرق بين الشرق والغرب انما هي فوارق عرقية جيلية عنصرية دموية . وعلى الجلة فان الشرقيين الأدنى والأوسط اللذين يتألف منهما « العالم الأسمر » هما يختلفان اختلافاً هذه صفته عن « العالم الأبيض » مامن سبيل البتة لازالته ومحوه . أما محاولة القضاء على هذا الاختلاف بوسائل الاختلاط الدموى والاتحام النسبى كما يتوهم بعضهم فهو ضرب من الجنون والمستحيل الذى لا يدرك . ان الشرق والغرب ليستطيعان تقارض المعاونة والأخذ بنصرة بعضهما بعضاً وأمر ذلك متيسر بالمفاهمة وحسن الوقوف على الآراء والمقاصد والغايات . الشرق والغرب كلاهما قد خدم بنى الانسان والحضارة فيما مضى من الدهر خدمة جلية باقية ، وكلاهما مستطيع بعد خدمة أوفى وأجل فى المستقبل . غير ان ذلك ليس بالمستطاع الا إذا روعيت الشريعة الكبرى وهى أن يظل الشرق شرقاً والغرب غرباً ، عنصراً ومزاجاً . فان الاختلاط الانثولوجى النسبى مفسدة لنفسانية كل منهما فيتلو ذلك فساد دموى هائل لا بد من أن يعقبه انحطاط فسقوط .

ان الشرق والغرب كلاهما يعلم هذا الأمر حق العلم بسائق الطبع والغريزة والدليل المؤيد لهذا هو هذا الاستهجان الذى يظهره كل منهما لما هو مشاهد بعض المشاهدة اليوم من اختلاط الجيلين الشرقي والغربي الاختلاط الدموى المعروف نسله بالنسل « الاوراسيوى » قال مرديت طونسند : « ان شقة الاختلاف بين الانسانين الأسمر والأبيض لتفوق القياس والحد ، وقد كانت طيلة جميع ما كرم من العصور فارقاً عظيماً وما برحت هكذا حتى اليوم . فالرحل الأبيض لا يتزوج المرأة السمراء والأسمر لا يتزوج البيضاء مالم يكره على ذلك اكرها لا قبل له بدفعه » .

وما تقدم من موجز الكلام على الاختلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية

والجلية بين الشرق والغرب كاف لتمثيل الفوارق المتباينة الناشئة عنها التباين في العلاقات بين العالمين ، والتي من شأنها أن تعمل عملها حائلة دون الاقتباس من الغرب ، الاقتباس الذى مانفك سائراً سيره . واننا سنبيين في الفصول التالية مجال هذا الاقتباس ومبلغ ماوصل اليه حتى اليوم . غير ان عوامل الاختلافات المذكورة تدل عند تدبر ماهيتها حق التدبر على امكان حصول الرجعية ورد الفعل شديدين بحيث يستطيع بهما الوقوف على مبلغ ما يؤخذ عن الغرب ويقتبس منه بعض الوقوف .

بقيت الحقيقة الثابتة يجب أن تقال : ان سيطرة الغرب السياسية على الشرق ، وان طال أمدها ما طال وتبدلت صورها وأشكالها ما تبدلت ، هي قائمة على أساس متداعى الأركان متضعع الجوانب سريع التقوض والتزلزل . وما دام المتسلطون الغربيون في الشرق فهم فيه أجنب غرباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئاً من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص ، ولكنهم لن يلقوا شيئاً من الود والمحبة والاخلاص ، ولاغرابه في الأمر ما ظلت منزلتهم أبداً منزلة الدخيل الغريب ، الممقوت المكروه . زد على هذا يجب بالضرورة أن يأخذ الحكم الغربى والسيطرة الغربية يتناقضان ويتقلصان ظلاً ويخفان وطأة ، بازدياد تقدم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها في الارتقاء . ولا يغربن عن البال ان الذى كان عند أهل جيل سالف داعية للرضى والارتياح ، قد غدا عند أهل الجيل التالى ، سبباً لتنجهم والنقمة والاضطراب فيبتغون تبديله والانتقال الى ما هو خير منه وأفضل . هذا هو من أسباب الانقلاب السريع في الشرق .

على أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقيين قد شرعت تهيم ، واخذت أوصالها تتفكك ، و بناؤها يتداعى ، وضعفها الكامن فيها يبدو مزداداً ، وفسادها يظهر ، جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية . فقد كان لتلك الحرب في نفوس المشاهدة قاطبة من التأثير المعنوى الشديد مالا يستطيع وصفه ولا يعلم حده . وقد ظل الشرق حتى ذلك اليوم لاحول له ولا قوة حيال أوروبا المعتدية عليه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لامناص ابني أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحة خضوعاً مشؤوماً . غير انه لما دمرت دولة أسيوية دولة أوروبا من الطراز الأول ، وخضدت شوكتها ودقت عنقها دقاً ، كان لذلك دوى هائل ووقع عظيم في كل جانب من جوانب

المشارك ورقعة من رقاعها ، فمادت آسية وأفريقية من أقصاهما طرفاً ، وجرت في عروقها نشوة الظفر وجيا النصر ، وعدوا الانتصار الياباني العجيبة العظمى والآية الكبرى (١) ، وصف مبشر اسكتلندي ما كان لهذا النصر المين من شديد التأثير في نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزت الهند الشمالية فرحاً وابتهاجاً ، وترنحت ترنح الثمل الجدلان ، وبات القرويون فضلاً عن أهل المدن والحواضر يرددون أحاديث النصر الياباني في حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم ويرتلونها ترتيلاً ، طوافين الليل كله حول المعابد والهاكل . وقد قال لي أحد شيوخهم في تلك الغضون : لم تلق الهند نبأ طابت له نفسها مثل هذا النبأ الياباني منذ الثورة الهندية . وأخبرني قنصل عثمانى أقام طويلاً في آسية الغربية ان الأهالي في داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم وجعلوا لاهتمون بأمر سوى ارتقاب الانباء اليابانية وتلقيها والتهيل واقامة محافل الأفراح لها . أجل ! مادت آسية من أقصاها الى أقصاها ، وانقلبت هجعة القرون استيقاظاً فاستيقظت الحياة ثانية في الشرق تواقفة لمغامرة الأحوال في سبيل بقائها ، وهبت آسية هبة أخرى لتسطر لها في التاريخ ذكراً جديداً ونبأً حديثاً . »

ومما لا يحتاج الى برهان ان الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالقة المبدعة لهذه الروح الجديدة في الشرق ، الروح الممتدة أصولها الى أبعد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم ، بل ان الحرب هذه انما كانت وسيلة عارضة لاعلة في تنبه آسية وافريقية تنبه الاعتزاز ، فراحتا منذ سنة ١٩٠٤ تجدان جد الواثق بنفسه ، الساعي في مطلب أمر لا يلوى على شيء دونه ، وبسبب هذه الحرب طفقت الافكار التي كانت تتمخض في أدمغة الملايين من أهل الشرق تمخضاً لم يشعر به من قبل تمام الشعور ، تخرج من عالم القوة الى عالم الفعل ، فذن جميع ذلك دلالة واضحة لا يسع مكابراً انكارها على

(١) للاطلاع على ما كان للحرب الروسية اليابانية من شديد التأثير العجيب في نفوس الشرقيين على العموم والمسلمين على الخصوص اقرأ : -

« اليابان والاسلام » تشرين الثاني ١٩٠٦ F . Farjanel , " Le Japon et L' Islam " (Revue du Monde Musulman)
 « اليابان والعالم الاسلامي » نيسان ١٩٠٥ A . Vambéry ,
 " Japan and the Mohammedan World " (Nineteenth Century and After)

اختيار الأسباب والعوامل ، وتهيؤ العلل لانبثاق قوى جديدة في الشرق - هي حركات التجدد الكبير والانتقال العظيم .

أضف الى ماتقدم ان هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيراً عميقاً في قضية الشرق وتطورها ازاء سلسلة حملات الاعتداء الاوروبي التي استؤنفت منذ ذلك الحين استثنافاً شديداً . ومن الغريب العجيب انه بعيد ان ظفر الشرق الأقصى في رد عادية الاعتداء الاوربي عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ماأخذت حملات الاعتداء الاوربي تتوالى على الشرقين الادنى والاوسط تمزقهما بمخالب الوحشية والبربرية شرمزق . وقد وصفنا في ماتقدم من الكلام تلك الزارة الهائلة التي زأرها العالم الاسلامي متماسك الوحدة المعنوية ، مترابط العروة الادبية الفريدة المثال ، عند ماأنشأت السياسة الاوروية الحديثة تنقلب غاية في الجشع والنهم . فلذلك جدير بنا الآن ان نعلم علماً صحيحاً مبلغ ما كان لظفر اليابان من عظيم التأثير في هذه الحالة الحديثة الظهور العجيبة في جميع الاقطار الشرقية . من المعلوم ان الشأن الخطير الذي مثله الساسة الغربيون الغلاة أصحاب مذهب الفتح والتوسع الاستعماري بن سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ ، انما كان في دور عصيب . قال ارمينيوس فامباري بعد غزوة ايطالية لطرابلس الغرب قولاً سديداً : « كلما اتسع نطاق قوة متسلطة الغرب في العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحدة وثاقه ، وعروة التضامن والمصالح المتبادلة احكاماً بين الامم والشعوب الاسيوية على اختلافها ، ورسخت روح التعصب على أوروبا والبغضاء لها ، وتوغلت عوامل ذلك في قرارات صدور المشاركة أيما توغل . أمن العدل والحصافة في شئ يأتري أن نرى نار العداة تزداد تأريثاً وايقاداً بسبب هذه الحملات العدوانية المحضة التي ماأنزل الله بهما من سلطان ، وان نستعجل العالمين الشرق والغربي للاشتباك في نضال هائل ومعمعان رائع ، وان ننفث سماً زعافاً في برعم الحضارة الاسيوية الجديدة ، هذا البرعم الذي أخذ يتفتح عن اكمامه في اقطار المشرق كافة ؟ »

وما لامشاحة فيه ان الحرب الكونية العظمى قد أفضت بالحالة الى المأزق الحرج والساعة العصبية ، اذا التفت الشرق سنة ١٩١٤ فرأى الامم الاوربية التي كانت مبارحت حافظة لشيء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جيلية ، قد اذرت تناحراً في سوق حرب لم يحو التاريخ بين دفتيه مثيلاً لها قسوة وفظاعة ، وتتناجز مدفعة بعضها بعضاً نحو

المجزرة الهائلة والنيران الجهنمية . ورأى وحدة الجيل الابيض قد عصفت فيها ريح المطامع السياسية والنقائص الادبية فزعزعتها وهدمتها تهديماً ، فوقفت كل أمة من الاخرى و بينهما غور سحق وهوة بعيدة . ولم يكن لدى الامم الشرقية من سبب للتأسى والصبر على بلوى الجائحة الكبرى سوى ذلك البيان الحر الذي نقش ساسة الحلفاء حروفه في أعلام دولهم ورايات جيوشهم . ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ونال الحلفاء الظفر المبتغى أخذت الاسرار تنفضح ، فذاع للأكافة انه في الحين الذي كان فيه اقطاب الحلفاء وساستهم وقوادهم يطيرون الى انحاء العالم قاطبة خطبهم الحرة المعربة عن الغاية التي في سبيلها آثرت دولهم الانغماس في الحرب الزبون ، غاية تحرير الشعوب المستعبدة واطلاق الامر للأمم المستضعفة في اختيار حكمها وتقرير مصيرها ، كان هؤلاء الاقطاب والساسة في الوقت عينه يتفاوضون ويعقدون ويبرمون فيما بينهم سلسلة من المعاهدات السرية لاقتسام الشرق الادنى ، مدفوعين الى ذلك بروح الجشع السكبي ، تلك الروح الاستعمارية التي لم يسبق لها من مثل في تاريخ الانسان (١) . ولما حان انعقاد مؤتمر الصالح الذي ولى الحرب ، أتى بطائفة تلك المعاهدات ، لا بالخطب الحرة التي أذاعها الاقطاب والساسة ، وجعلت أساساً بنيت عليه التسوية الشرقية ، وموادها (جبر على ورق) اخضاع الشرق الادنى والاوسط اخضاعاً تاماً ، واقتيادها بنحزائم الاستعمار والسيطرة السياسية مأفطعها .

فاشتعل الشرق حنقا وغلث مراجل غضبه غلياناً هائلاً ، وطفق يهتاج احتياجا جاوز فيه في وقت قليل حدود الشكوى الاسمية الكلامية التي كانت من شأنه قبل الحرب ، الى المقاومة العملية الفعلية ، وشق عصا الطاعة على المستعمرين ، وعمد الى الوقوف في وجههم موقفاً ما سمع بمنله من قبل . وما هي الا فترة حتى انقلب ثوران الشرق قتالا وجداله جلاداً قد أكرها الدول الأوربية على التقليل من غلاواتها ومطامعها الاشعبية ، وبما لا ريب فيه أنها ستكره من جراء هذا القتال أيضاً للاقلاع عن سائر مطامعها عما قريب . واننا سنفصل الكلام على هذا الثوران المتأجج النار اليوم في الشرق في ما يتلو من

(١) من جملة هذه المعاهدات اتفاق فرنسا وانكلترة سرا على اقتسام سورية وفلسطين بينا انكلترة

تعاهد صاحب الحجاز على استقلالهما من جملة البلاد العربية (ش)

الفصول ، مجتريين بصفوة القول فى هذا المقام أن الحرب الكونية العظمى قد مزقت السيطرة الأوروبية فى ربوع المشرق شرمزق ، وكشفت عن عيون الشرقيين فرأوا تضعع الغرب ووهن عظمه . حقاً قد اقتبس الشرق من الحرب العامة طائفة من بليغ الدر وس والعظا . نذكر على سبيل المثال أمراً واحداً وهو أن قد جندت الملايين من المشاركة والزواج من كل صقع من أصقاع آسية وأفريقية ، وسيقت مقاتلة وعملة الى ميادين الحرب التى أشعل نارها أبناء الجيل الأبيض . ومع أن غالب هذه الكتائب قد استخدم للقيام باعمال فى المستعمرات ، فقد أتى باكثر من مليون منها الى ساحات الحرب فى أوروبا ، حيثما اشتركوا فى تقتيل أبناء الجيل الأبيض ، وهتكوا حرمت النساء البيضاء ، وذاقوا لذة الشرف الوطنى الذى يتنعم به أبناء أوروبا ووقفوا على مواطن الوهن والضعف فيهم ثم قفلوا الى أوطانهم يخبرون أبناء قومهم عما شاهدوا وخبروا ، ويتلون عليهم النبأ العظيم من أوله الى آخره (١) وقد عرفت آسية وافريقية اليوم ما كانتا لا تعرفانه من قبل ، ومن الثابت الذى لا يرتاب فيه انهما استحسنان كل الاحسان الانتفاع من هذه المعرفة الثمينة . والأمر الأعظم شأننا وخطورة فى جميع القضية أن الشرق قد بات يوقن شديد الايقان أن سلم مؤتمر فرسايلى ، تلك السلم الموهومة التى من مزاعمها أنها بسطت الطمأنينة والراحة فوق أوروبا ، ليست بسلم البتة ، ولكنها الجشع وحب الذات والأنايه والطمع يتبرأ منها العدل وتنكرها السياسة الرشيدة ، جميع ذلك مما أتى الجروح القديمة على فسادها فلم ينلها برء ولا شفاء ، وفوق ذلك كله جرح الشرق جروحاً جديدة راحت أمم الشرق وشعوبه من بعدها نرى فى ترمى بعينها دماءها سيالة . فأوروبا اليوم وهى على حالها هذه

(١) من أراد التوسع فى الاطلاع على ما كانت للحرب العامة من التأثير فى شعوب آسية وافريقية فليطالع :-

« انحطاط أوروبا » (باريس ١٩٢٠) A - Demangere , "Le Déclin de L' Europe"
 « يقظة آسية » (نيويورك ١٩١٩) H . M . Hyndman , "The awa Kening of Asia"
 « الثورة الصامتة فى الهند » (نيويورك ١٩١٩) A.B. Aishes , "India' s Silent Revolution"
 كتاب المؤلف : " Rising Tide of colour against white world souprenaecy ..

مضطجعة على فراشها مسلوقة القوة ، متململة من شدة الآلام والبرحاء ، وآسية وأفريقية واقفتان حياهما موقفا كثرت فيه العوامل والأسباب التي تحملهما على تمزيق ما هو حائق بهما من الأطماع الأوروبية ، واقصاء البلاء النازل المنتشر والداهية الحالة الشاملة .

هذه هي الحالة اليوم : الشرق يهتاج ويتنازعه عاملا القديم والجديد مواجهها الغرب المتقطع المتقسم المتعثر في اذيال خزيه وعاره . وربما ما اجتازت علاقات العالمين الشرقي والغربي في يوم سالف مازقا حرجا كانت فيه معرضة مستهدفة لخطر عميم مثل هذا المأزق المجتاز اليوم وهو منذر بالنوازل اذا قدر لها النزول لا سمح الله كانت البلاء العام طباق الدنيا . والأمر الذي يجب ألا يغرب عن البال بعد جميع ما تقدم أن هذا الشرق الجديد العجيب القائم في وجهنا اليوم انما غالب السبب في قيامه هذا هو السيطرة الغربية المنتشرة فيه انتشاراً لم يسبق له مثيل منذ مئة سنة خلت . ولبيان العوامل الكبرى في انتشار هذه السيطرة وتأنجها ننتقل للكلام على ذلك في الفصل التالي

الفصل الرابع

في

التطور السياسى

سنن الشرق وتقاليد السياسة الفاسدة انما هي الآفة التي كانت وما برحت ناخرة في عظمه . فلم ينفك الاستبداد منذ العصور الاولى والحقب القديمى أغلب صفة ، وأبرز صورة في آفاق الحكومات المشرقية - أعنى به استبداد الحاكم الفرد ، والسلطان المطلق ، مسترقا للرعية ، متصرفا في شؤون الناس ومتاعهم وحطامهم وجميع ماملكت أيديهم ، ومتمهنا لشرف نفوسهم وكرامتهم ، وجاسوسا على حياتهم حركاتها وسكناتها في مغداهم ومراحهم ، كما شاء وبغى . ولم يكن هناك غير الدين زاجرا للاستبداد ومنهنا عن التماهى في بعض المواضع . وبعض النقطة من أهل العلم يضيفون العادة الى الدين ويعتبرونها عاملا مشتركا معه في كف المستبدين وردعهم ، غير ان ذلك ولولم يخص بالذكر فانه مما ينطوى تحت الدين ، لائن العادة في الشرق من شأنها دائما أن تتخذ لها من الدين كنفًا ومتقى ، ومن المعلوم أن المقصود برجال الدين هم جميع الوزعة والخدمة الدينيين على اختلاف درجاتهم ومراتبهم بحيث يتألف من مجموعهم طبقة من الناس لها امتيازات ، وحقوق مستثناة ، ولكن الاستبداد الشرقى ، مع كل ما كان للدين من قوة حائلة دون طغيانه ، لم يقف عند حد وما عرف له قياس ، اذ كان في استطاعة العاقى المستبد مادام خاضعا لمعتقد الدين ومحترما لرجاله ، ان يفعل ما شاء متى ما شاء من الافاعيل على غير حساب . هذا ، واننا نرى فرعون في فجر التاريخ يرهق المصريين أشد الارهاق كما تطيب نفسه وتقر عينه برؤية قبور الاهرام الضخمة العظيمة . وما برحت الحياة الشرقية في جميع أدوار التاريخ حياة النذل والاستعباد والرق السياسى .

على أن الاختبار البشرى قد أفاد الافادة الثامة ، الجامعة المانعة ، ان الاستبداد

لشر مطية تمتطيتها الحكومة المستبيحة لنفسها التطوح في البني والجور والعتو . ولكن بعضهم يقول هناك « المستبد العادل » النازل من الرعية منزلة الأب من الأمرة ، يحيط به المشيرون الحكماء والأعوان الحصفاء ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بكلمة تجرى على لسانه أو يجرى بها قامه انما جميع ذلك وهم وخيال لا ظل لها من الحقيقة اذ قليل ثم قليل هو « المستبد العادل » الذي صدق خبره خبره ، وأقل منه من يخلفه خلافة نعمت الخلافة . فالمستبد العادل له في الغالب ولد فاسد الخلف والتربية لا يروقه شيء في جميع ملك أبيه سوى الفخمية والعجب والزهو ، وحفيد أسوأ خلقاً وأشد فساداً ركبت فيه طباع الذم والمنكر ، فيأخذ كل منهما بدوره في ارهاق الرعية وسومها ضروب الذل والهوان حتى يوردها بالتالي موارد الدهورة والتهلكة . وكثيرا ما شوهدت الثلاثيات المشؤومة - داود فسليمان فرحبعام - تتكرر تاليا بعضها بعضا في جميع العصور التاريخية

زد على ذلك فان المستبد العادل ، ولو كان على حسن عمل واستقامة مسلك فلا يكون خالصاً من طائفة من العيوب والشوائب . والبليّة في جميع المستبدين ، الصالحين والظالمين ، ان أعز مراد يملكه كل منهم هو أن يحكم فرداً مطلقاً سيداً مطاعاً ، منه العفو اذا شاء ، وله الأمر والنهي في جميع الأمور . وربما افتتن بغانية أو حبيب معشوق في ليلة تهب في رأسه سورة الهوى ، أو أصابه سوء هضم أفسد عليه تصويره ، أو عرته سويداء ذهبت بصفوه وحبرته فراح را كبا رأسه في متطوح فاسد ، تاركا عرشه ومملكته عرضة للسقوط والانهيار

الحق أننا معشر الغربيين ، لم نذق شيئاً من مر الاستبداد للاستبداد بالشرق ، في عصر من عصورنا الحالية ، حتى ولا ذاق أجدادنا القدماء شيئاً من مثل ذلك في عهد الأمبراطورية الرومانية . فلذلك يصعب علينا أن نتصور الاستبداد بجميع طبائعه تصوراً تاماً وتمثل أهواله تمثلاً كاملاً . اننا في جاري العادة متى ما ذكرنا سير المستبدين العادلين ، جئنا على ذكر الحكام المطلقين المنورين الذين حملت أوربة عروشهم في القرن الثامن عشر مثل فردريك الكبير وأنداده . غير أن هؤلاء لم يكن طراز استبدادهم على نحو ذاك الذي كان عايبه مستبدة الشرق ، فان فردريك مثلاً كان ملكاً مطلقاً ولكنه لم يستبعد رعيته ويسترق شعبه ، اذ الشمم والاباء كانا ملء نفس كل ضابط وأمير ونائب من

الخاصة حتى وكل فرد من أفراد العامة ، فلم تكن طاعتهم العمياء لفردريك إنما لسبب كونه ملكاً عليهم خصب ، بل لأنه كان أبعد أهل بروسية همة وأشدهم عزماً وأنفسهم حزمًا وأبلغهم مناداة في سبيل الزيادة عن سياج الوطن والدولة . فلو اعوج يوماً من الأيام والتوى عن القصد بحيث انقلب ملكاً مستبدًا كسولا ، عاتياً باغياً ، هب البروسيون الأبادة الطائعون ، ومشوا إليه يقومون اعوجاجه بسيوفهم ويقيدون سلطته وسلطانه .

إنما الحالة في الشرق على خلاف هذا . ففيه قد كتبت شريعة موجزة في جبهة كل شرقي ، شريعة ليس لها مثل « في الوصايا الأوربية العشر » وهي : « عليك أيها الشرقي أن تجلّ الرجل الذي يقيمه الله عليك ملكاً ، وتقده وتعبده . فإذا أحبك أحبه ، وإذا استلب أموالك ومتاعك واضطهدك شر اضطهد فأحبه على ذلك أيضاً ، وإياك أن تحول عن هذا له لأنه سيديك وأنت عبده ، ومولاك المتصرف بك تصرف صاحب الاداة بأداته^(١) ان الملك الشرقي من شأنه أن ينقبح في زاوية من زوايا قصره على كثير من حرمه ، تاركاً شؤون الدولة واعبائها على كاهل وزير من وزرائه مطلق اليد والمشيتة ، فاعل ماشاء في مصالح الرعية وحياة أفرادها . وقد يحدث في ذات ليلة أن يتنغي الملك أو السلطان استرضاء راقصة من الراقصات الواقفات بين يديه في مقصورة من مقاصير حرمه ، فيبعث الى وزيره زنجياً خصياً شاكي السلاح ، واذا يصل هذا الى الوزير ويبلغه أمر مولاه لسرعان ما يهب الوزير فيخلع عنه رداء الوزراء ويمد بعنقه ليرشف كأس حمامه خنقاً أو غير ذلك من ضرب الموت . هذا هو الاستبداد الذي عرفه الشرق .

بل هذه هي سنن الشرق وتقاليد السياسية التي حالت دون انتظام حكوماته واستقرار دوله ، فأقصته عن كل سبيل من سبل الارتقاء وال عمران ، فتاريخه في الواقع إنما هو تاريخ السعود والنحوس ، والصعود والهبوط ، والظهور والاختفاء ، ما بين غمضة عين وانتباهتها . فالرجل المقدام هو الذي كان يقارع غيره في ساعة يشتد فيها الاضطراب والقلق ، لنيل

(١) الفريمة المحمدية لانعرف شيئاً من هذه الاوصاف للملوك ولا للخلفاء . ومثال الخلفاء الراشدين كاف لبيان أحكام هذه الفريمة . وان كون السلطان هو ذاتاً مقدساً غير مسؤول ليس هو من أوضاع الاسلام في شيء بل أخذه الترك عن الافرنج . وان الامة العربية خليصة هي من فطرتها : لا تهيم على الضيم ، ولا تعرف الذل للملوك والسلاطين ، ولا يبهر أعينها التاج والصولجان . وقد أوضح كل ذلك ستودارد فيما يلي . (ش)

منصب يستطيع به القبض على وسائل السلطة ، فان أحجم جباناً هيباً ، سبقه خصيمه الى نيل ما قصر هو عنه . ثم يأخذ هذا الفائز الظافر يقوم بشؤون الحكومة والدولة على أساليب مضطربة فاسدة ، مستحشاً من كان في أمره من العمال والموظفين على حسن العمل منذراً إياهم بشديد العقاب عند وقوع شيء من التفريط أو الخيانة ، عقاب كسرى فارس الذى أتى بأحد مرارته الظامة حياً فسلخ جلده ثم جعل الجلد شيئاً من فراش الأريكة التى دعا مرزباناً آخر عادلاً للجلوس عليها وأمره بأن يقضى فى مصالح الرعية .

وما دام الملك حياً فالأمور سائرة هذا المسير . ولكن بعدموته يخلفه ابن يتظاهر فى أول أمره بأنه مقتف لآثار أبيه اقتداراً وعدلاً ، وهمة وحسن سيرة ، ثم لا يلبث أن يبرح خفاؤه عن صريحه فيكون فاسد التربية والخلق . ولاغربة فى شأنه اذ قدر به وترعرع فى مقاصير الحرم ومن حوله حاشية من اذلاء العبيد وسيدات الغواني ، فألفت نفسه العجب والزهو ، وأطلق لهواه العنان ، فنشأ رضيع الاستبداد منغمساً فى المآثم والمفاسد ، فولد هذه خلاقه وطرارز تربيته وثقيفه أيستطيع خلافة والده واتهاج منهجه فى تدير الأمور وسياسة شؤون الدولة ؟ اذ بعيد ما يطبق الموت جفنى والده ثم يستولى هو على العرش الموروث لن يلبث أن يدهم الملك فساد يفضى به الى الوهن والتفكك . والأمر طبعى لا يمكن أن يكون بخلاف هذا ، لأن الملك الراحل لم ينشئ حكومة صحيحة منتظمة متماسكة القوى ، سائرة بذاتها بفعل نظامها ، نامية نمو الجسم السليم الأعضاء ، كما هو شأن الحكومات فى الغرب . فضباط الجيش مثلاً كانوا يؤدون خدمتهم عهد الملك السابق يحملهم على ذلك داعى الخيفة والرهبه ، أو الولد والاخلاص ، لسبب ماقد يكون بين سيد ومسوده ، ولكن ليس قياماً بواجب يحمل عليه الشعور القومى والروح الوطنية . ومتى جاء دور الحفيد بلغت الأمور منتهى الفساد ، فذهبت بقية السلطة من بين يديه الواهيتين ، وخرج عليه كثير من الأمراء المستبدين فى أنحاء مختلفة وتقدم أعظمهم وأشدهم بأساً للجلوس على كرسي الملك المتضعع المنززل ، وتقلد أزمة الأحكام ، مدعياً أن ذلك هو خير للملكة وأفضل من أن تتلاشى كل التلاشى فتغدو عرضة لجأحة غارة أجنبية ، وهكذا دواليك ، حلقات تكرر الواحدة تلو الأخرى ، وكل مؤلثة من داود فلسطين فرجعام .

هذا هو تاريخ الشرق السياسى على الإيجاز . غير أن الشؤون والأحوال أخذت

تبدل ونستقيم ، والاعوجاج يقل ويقوم . ذلك نتيجة فعل العوامل السياسية الناحية منحى الحرية ، وثمره الصدمات الضاربة في مقاتل الاستبداد . وهذه الصدمات المقاومة بعضها بعضاً ناشئة عن عوامل داخلية وبعضها ناشئ عن عوامل غريبة طارئة من خارج .

على أن الواقع أحرى بأن يعلم ، فالشرق لم يبن جيعه في يوم من ماضيه مستقراً للاستبداد ومنبتاً للظلم والجور . بل ان بعض شعوبه وأمه في بعض الأصقاع (وغالبهم بدو ومن أهل الجبال) قد عافت نفوسهم الضيم وأبت الخنوع لحكم الاستبداد . وقد كان العرب دائماً هم الأمة الشرقية الحرة التي احتفظت حرّيتها وصانتها بدماء مهجها على توالى العصور .

وقد سبق لنا في مواضع تقدمت فأبنا كيف ظهر العرب يشتعلون بنار الاسلام فأنشأوا خلافة منيعة الجوانب قائمة في عهدها الأول على أساس الشورية والشريعة الدينية وأوضحنا أيضاً كيف طرأ الاستبداد على الدول ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الاسلامى وكيف انقلبت الخلافة الشرعية الشورية ملكاً عضواً ، وسلطنة استبدادية مطلقة ، وكيف أخذ العرب - عشاق الحرية والاستقلال - يعودون أدرأجهم الى الصحراء غضاباً متجهمين ، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية وعفت آثارها ، غير أنه على كل هذا بقى معظم ذكريات خلافة الراشدين ، والمعزلة الحرة ، حية في زوايا الأدمغة وألواح الذاكرة ، مستعدة استعداداً طبيعياً غريباً للظهور ثانياً . بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرية يذود عنه كل عربي زياد قُرح الأبطال بالسلح والأرواح والدماء . وهناك في شبه الجزيرة لم يبرح العرب عرباً والاسلام اسلاماً . فمن تُرى يستطيع أن يتعاضى عن القول الذى قاله صاحب الرسالة : « انما المؤمنون إخوة » و « المسلمون أحرار » وعمما هو مدون في صحف التاريخ الاسلامى في غرر أبناء صدر الاسلام العجيب المعروف « بزمن السعادة » . أو لم يظل المسلمون الأحرار النازعون نزعة الاستقلال، حتى في أشد الليالى حلكا ، يرددون عالياً خطبة الخليفة الأول أبى بكر التي خطبها في العرب بعيد مبايعته بالخلافة :

« قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيرِكُمْ فاذا استَقَمْتُمْ فَأَعِينُونِي واذا زُغِتُمْ فَقَوْمُونِي »

فالاسلام في عهده الأول انما كان شمس الحرية مشرقة وهاجة ، وديناً تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة ، وليس ما طرأ على العالم الاسلامى فيما بعد من الوهن والتدلى

بحاجب عن المنصف جوهر الاسلام وحقيقة صفائه . فالشريعة الاسلامية كما قال العلامة ليسبار : « انما هي ديموقراطية شوروية جوهرأ واصلا ، وعدو شديد للاستبداد » . وقد أجل فامبارى هذه الحقيقة في شأن الاسلام بقوله . « ليس الاسلام ولا تعاليمه السبب المفضى باسية الغربية الى هذه الحالة المشهودة من التضعف واختلال الشؤون ، ولكن السبب كل السبب في ذلك انما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التواوا عن الصراط المستقيم والسبيل السوي ، وتكسبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين ، فأخذوا في انتحال التأويل القرآنية انتحالا منطبقاً على أغراضهم الاستبدادية ، وتشدوا في الدين تشدداً باطلا برؤ منه الاسلام ^(١) وناصبوا المذاهب الشورية والأصول الحرة العداة فقضوا على جميع ذلك قضاء ، فخالوا دون بزوغ فجر النهضة الاسلامية ^(٢) » .

(١) من أكبر المسؤولين عن انحطاط الاسلام أمام الله والناس هم هذه الطبقة التي يقال لها العلماء ، فانهم الالنادر منهم اتخذوا الدين مصيدة للدينا وجعلوا دينهم التراف الى الأسماء بتسويغ جميع موبقاتهم بالأدلة الشرعية والافتاء عليها من الدين ، وقلما أتى أحد الملوك أو الأمراء المستبدن عملاً منكرأ الا أتوا له من الآيات والأحاديث بما يثبتون له به مشروعية ذلك العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها وتعريف الكلم عن مواضعه ورواية الضعاف والموضوعات الى غير ذلك من الاستشهادات التي يتوخون بها الزلفى والجازة . وما زالوا يتجادون في غيهم هذا - والمسلمون غاضون النظر عن لعبهم هذا - حتى صاروا يتقربون بهذه الأشياء نفسها الى الحكومات غير المسامة في المسائل التي فيها خراب الاسلام وهلاكه ، فكلما سقطت مملكة اسلامية في يد دولة أجنبية أو نهضت أمة اسلامية لدفع دولة عادية عليها من الأجانب ، وجدت الدولة الأجنبية من هؤلاء العلماء أسرع الحادين لاغراضها المتقين من الكتاب والسنة بزعمهم على مقتضى اهوائها . وحسبك ان عدداً عديداً من علماء سورية افتوا أثناء الحرب العامة ببغي الشريف حسين أمير مكة تقر بأ الى جمال باشا قائد سورية يومئذ ، فلما فازت دول الحلفاء في الحرب واحتلوا سورية بايعت هذه الفئة نفسها الشريف حسيناً الذي كان عندها من قبل باغياً خارجاً على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيين الشام رفضت ايديها ثانية من صاحب الحجاز وجعلت تفتى بحسب هوى فرنسا ، وعدت الملك حسيناً أجنبياً . أكثر هؤلاء العلماء برز منهم هذا التلون وكما عانتهم الانسان على هذا التذبذب أجاوبه : انما هذه تقية نبتنى بها النجاة من الظلام . والصحيح ان عذرهم غير مقبول وان عملهم هذا مخالف للشرع مناف للكتاب والسنة ، وان دعواهم مداراة الظلام هي باطلة ، بل هم باعة ضامر ، ورواد سفاسف ، وطلاب وظائف . هذا يريد أن يكون قاضيا وذاك مفتياً وذاك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجره امضائه تقدأ دراهم معدودة ، ولا تعلم الى متى يصبر أهل سورية عن تأديب هؤلاء الجهلاء المعميين ، و ينظرون الى الغزائم لا الى العائتم . (ش)

وقد أبنأ في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقى ثم أخذ يتعاظم حتى بلغ منتهاه في القرن التاسع عشر، وبسطنا الكلام على أن اليقظة الاسلامية لم يكن أمرها مقصوراً على الاصلاح الدينى فحسب، بل تناولت الاصلاح السياسى أيضاً ورامت تخليص العالم الاسلامى بأسره من استبداد أمرائه وملوكه وسلاطينه العسفة الظالمة. ونقول الآن: انه بينما كان الاصلاح السياسى الحرسائراً مسيره على اتساع فى الحركة والانتشار فاذا بتيار سياسى جديد قد هب عليه من جو أوروبا فاعترض سبيله وقام فى وجهه. وكان أهل الفكر والرأى من الساميين، وقد أيقنوا بحال تضعع الشرق الاسلامى وتشتت أمره حيال تقدم أوروبا وشدة حولها وبأسها، طففوا يسعون وراء الاصلاح متنعين بأنجز الذرائع للوصول اليه، واذا راموا صدق المسعى وابتغوا التجدد الحقيقى فلم يغرب عن بالهم أن بلوى الشرق الاسلامى انما غالبها مستقرٌ فى حكوماته المنحطة التاعسة الواهنة العظم. وشارك الأمراء الحكام، أهل الفكر وطلاب الاصلاح فى هذا، وكلهم أجمعوا على وجوب انتهاج المناهج والأساليب السياسية الغربية واكتناء أساليبها والوقوف على جميع أسرارها، هذا اذا كان مرادهم حقا انتشال الممالك الاسلامية من وهدة انحطاطها وتنجيتها من شر الممالك، ثم سوقها فى سبيل التقدم والارتقاء. وقد كان السلطان العثمانى محمود الثانى فى تركية ومحمد على فى مصر خير مثالين ظهرا بالطرأز الجديد من سلاطين الشرق وأمرائه، وكلاهما كان حدمه فى أوائل القرن التاسع عشر.

غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرية الدستورية أو أن يربأ بنفسه عن امتطاء الحكم المطلق فيخرج عنه الى الحكم المقيد، بل عول كل منهما على أن يظل الحاكم المطلق بحيث يكون فيه وسطا بين حالة المستبدن العادلين الأوروبين والمستبدن الشرقين. وكان قصد هذين الحاكمين الكبيرين، طابى التقدم والنهوض، تنظيم الحكومة فى الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك تنظيماً صحيحاً خالياً من المفسدة والعيب، كما يتسنى للحكومة هذه أن تسير - بنفسها وفعل نظامها - سيراً مطرداً كسير الحكومات الغربية، لا أن تظل كناية عن طوائف من الموظفين والعمال لا يعرفون شيئاً من رقابة النظام، ولا يقومون بواجب الاخشية العقاب.

وثابر محمود الثانى ومحمد على ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتهاج منهج

هذه السياسة الرشيدة الحديثة، غير انه على الجملة كانت ثمرات هذا الاصلاح الذى بديء بعاليه وظاهره قبل أساسه وباطنه غير مرضية ولا داعية للارتياح ولا جرم، فانه قد كان فى استطاعة السلطان أو الأمير ابتناء القلاع وانشاء الدوائر والخطط الحكومية على الطراز الأوروبى، وحشدتها بالجند ورجال الوظائف والاحكام المتزيين بازياء غربية، غير انه لم يكن بالمستطاع الاتيان بنتيجة مثل تلك التى تاتى بها الحكومات الغربية، لان معظم هؤلاء الموظفين المتظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون فى الواقع لا يعلمون شيئاً من أسرار تقدم الغرب وارتقائه وأسباب حضارته وعمرانه، فلذلك كانوا عاجزة عن القيام بالاعمال على الطريقة الغربية الصحية، لانه ليس فيهم الكثير الكافى من روح الاقدام والمضى فى العمل، ولا هم يقبلون من أنفسهم غيراً على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفقهوها ولا ألفوها بل كانوا يحملون نفوسهم على مؤالفة الاعمال الاصلاحية عن فتور وتراخ، وخير ما كانوا يعرفونه ويقومون به هو الطاعة العمياء لامر مولاهم وسلطانهم. هكذا كانت الحالة فى بدء الامر: بيد أنه على توالى الايام أخذت القوى العسكرية تنتظم معنى ومادة على تدرج مستمر حتى غدت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجدارة الحديثين. وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الاصلاح الحديث قليلاً فظل أمرها مقصوراً على اكتساب المظاهر الغربية من خارج، لانها لم تنل كثيراً من أسرار المعاصرة والجدّة التى هى شرط لازم فى حال كون كل حكومة منظمة راقية.

أضف الى هذا أنه فى غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يختلفون مذهباً وطرزاً عن سبق ذكرهم يقومون أحزاباً مؤلفة، وغايتهم انما هى اقتباس جميع المبتكرات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النواب وغير ذلك مما باتت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال. وكان عدد هؤلاء يزداد ازدياداً متوالياً من التهذبة الأحرار المتشبعين أفكاراً وآراء غربية اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المتزايدة الانتشار، وبعضها الآخر تلقوه بأسباب التعليم والتهذيب فى المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربى. وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الأحزاب السياسية فى تركيا نشوءاً محسوساً. وفى سنة ١٨٧٦ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفعت صوتها عالياً وأكرهت السلطان الضعيف على منح الدستور.

بيد انه قد عقب هذا الفلاح الذي نيل على يد الأحزاب الاسلامية السياسية الحرة ، دور ظهر فيه رد الفعل ، اذ بات الحكام المسلمون الجالسون على أرائك عروشهم يخشون كل الخشية عقبي انتشار المنازع الحرة في رعاياهم ، فوطنوا نفوسهم على استبقاء سلطتهم المطلقة في أيديهم ، لا ينزلون عنها ، ولا يرغبون فيما دونها . فلهذا لما ارتقى السلطان عبدالمجيد العرش لم يلبث أن فض البرلمان العثماني وقوض بناءه تقويضاً ، ثم طفق يضطهد الأحرار ويتناولهم بكل ضرب من ضروب التعذيب ، حتى تسنى له استرداد معظم السلطة المطلقة فعرض عليها بالواجد . وظهرت في بلاد العجم حركة سياسية حرة فأضمر الشاه لها المناهضة نخفها وليدة في مهدها ناهجاً بذلك منهج عبدالمجيد . وفي مصر كان حكم الخديوي اسماعيل اسرافاً وتبذيراً ، فجاء خاتمة للحياة السياسية الوطنية في مصر ، فآل الأمر الى التدخل الأوروبي في شؤون البلاد ، ثم بسط الاحتلال الانكليزي ، وظلت حتى ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ ، أمارات المنازع السياسية الحرة تظهر ظهوراً يبنياً في هذه الأقطار الاسلامية التي كانت بعد محتفظة استقلالها ، وكانت الحركات الاصلاحية سائرة سيراً حسناً وراء ستار من الخفاء . وأخذ الشبان المسلمون المتمشية في عروقهم روح الوطنية يفرون الى ديار الغربة سعياً وراء غرضين : طلب العلم ، وانشاء الدعوات السياسية الحرة المنظمة . فلجأوا الى أكناف عديدة مثل سويسرة ، واتخذوا فيها ملاذاً لهم . ثم شرعوا ، وفيهم شبان « تركيا الفتاة » و « ايران الفتاة » يصرون مئات النشرات والكتب الأدبية الثورية ، ويبعثون بها خفية الى أبناء أوطانهم المسومين الذل والهوان ، فيتلوها هؤلاء باشتياق ملتهب .

وما انفكت أصوات طلب الحرية تتعالى على توالي الأيام ، وتشد قوة وبأساً ، وتجوب البلاد وتخرق الآفاق ، وتعم طبقات الناس . فقد قال أحد شعراء الترك ، شادياً باسم الحرية في ذلك العهد : « ان مانجل ونعظم من جميع مانراه من نتاج التهذيب الأوروبي والحضارة وثمرة العلوم والفنون انما هو الحرية . كل شئ يستمد نوره من كوكب الحرية المنير . الأمة المساوية الحرية فلا حول لها ولا أمل في ارتقاء معارج العمران . السعادة بلا الحرية مستحيل لا يدرك والوجود الانساني والحياة الصحيحة بلا سعادة تكفلها الحرية انما هي وهم باطل وخيال خادع . عش أبدأ يا كوكب الحرية ماالتهبت القلوب شوقاً اليك وتزاجت أنفوس عشاقك على فدائك » .

ومنذ ختام القرن التاسع عشر أخذ كبار أهل الرأي الصحيح والنظر السديد من الأور و بين يراقبون الحركات السياسية الحرة تضطرب كالبحر جاشت غوار به من جانب الى جانب ، تحت وجه الاضطهاد و سطح الاستبداد . ولما زار المستشرق الكبير ارمينوس فامبارى القسطنطينية ثانية سنة ١٨٩٦ دهش دهشاً عظيماً لما استبانه من التطور السياسي، الحر الذى حصل خلال الحقبة المنقضية بين زيارته الأولى منذ أربعين سنة من قبل ، وهذه . ومع ان القسطنطينية كانت مباءة الاستبداد الجيدى ، فقد كتب فامبارى فى شأنها ما يأتى : « قد انقضى المنزغ القديم الذى كانت عليه تركية من قبل للحكم المطلق . كانت تبلغ مسامعنا ونحن فى أوروبا أشياء عديدة عن حزب تركية الفتاة ، وعن حركة دستورية ونضال سياسى ونفى وابعاد ، ونشرات وكتب ثورية . ولكن الأمر الذى يفوق خبره خبره هو هذا الاضطراب الهائل والتطور العظيم المنتشر اليوم فى جميع الطبقات الاجتماعية المختلفة ، مما يحملنا على الايقان ان التركى قد شرع يسير سير التقدم والارتقاء ، بعد أن انقضى الدور الذى كان فيه كل فرد من أفراد الرعية طينة بين يدي الخراف العاقى المستبد وحزب « تركية الفتاة » وما أدراكه ؟ انما هو الشعب بأسره والملة قاطبة (١) » .

وجدير بنا فى هذا الصدد أن نلاحظ بعين الاعتبار شأن الاضطراب الذى كان فى هذه الآونة يشهد اشتداداً سريعاً فى الأقطار الشرقية الخاضعة للسيطرة السياسية الأور و بية . عند ختام القرن التاسع عشر كانت الممالك الاسلامية الكبرى - المستمتعة بشئى من الاستقلال بمنجاة من السيطرة الغربية - أرباعاً : تركية ، والعجم ، ومراكش ، وأفغانستان أما هاتان الأخيرتان فقد كانتا على جانب من الانحطاط والتدلى بحيث كادت لا تعدان فى مصاف البلاد المتمدنة . وأما الأوليان فكاتتا أرقى حالا ، ولذلك غدتا المضطرب الوحيد الذى يتوقع فيه نشوء الاضطراب وحركات الانقلاب السياسية الحرة المقاومة للاستبداد والجور . وأما البلدان الاسلامية الأخرى الخاضعة للحكم الأور و بى مثل الهند ، ومصر ، والجزائر ، فقد كانت بلغت من التهذيب والثقافة والارتقاء مستوى عالياً فيه من الكفاية ما يبعث على القيام بالحركات السياسية الحرة المنتظمة ، والسعى وراء تحقيق المطامح الوطنية والآمال القومية ، ولكن يرافق جميع ذلك كره الأجنبي الشديد الشائع فى جميع الطبقات على السواء .

وقد كان من أمر الحركات التي كانت قائمة يومئذ في تركيا والعجم مقاومة للاستبداد أنها هاجت المطامح الحرة وأشعلتها اشعالاً في نفوس المسلمين . بيدانه يجب الفرق التام بين أفقين كبيرين ظهرا في العالم الاسلامي ابانئذ ، فرقاً هو من حيث اعتبار ماهية الحركات الوطنية والاطوار التي اجتازتها والغايات التي اتخذتها أهدافاً لها . أما جوهر السبب ومرماه في الاضطراب السياسي الناشئ يومئذ في تركيا والعجم فقد كان حركات وطنية غايتها الاصلاح الحر . وأما جوهر السبب ومرماه في اضطراب الهند ومصر والجزائر فقد كان حركات وطنية غايتها الاستقلال . ولكن لم يكن هناك من خطة معينة مقررة تبين شكل هذا الاستقلال والصورة التي يراد أن يكون عليها بعد ما يتم الحصول عليه . وقد كانت هذه الحركات الأخيرة بحقيقة الواقع أقرب الى أن تكون قوميةً جنسيةً منها الى أن تكون مكتسبة لصفة الاصلاح الحر كما في الأولى ، فلذلك سنتكلم عليها مسهباً في فصل العصبية الجنسية التالي . فجميع ما يجدر بنا أن نعلمه ونعتبره في هذا المقام هو أن القائمين بهذه الحركات هم في الواقع أحزاب مؤتلفة متفقة على حطم النير الأجنبي ، والتحرر من رق الغرب . وكان رجال هذه الأحزاب على مذاهب سياسية عديدة متشعبة ، يشتملون على الاحرار ، ودعاة العصبية الجنسية ، والجامعة الاسلامية ، والرجعيين ، حتى وعلى زعماء من العامة صلاب العود ، يؤثرون الرجوع الى عهد الاستبداد على البقاء في حكم الأجنبي ومن المعلوم أن أتباع مذهب العصبية الجنسية ما فتئوا ينادون بالكلمة المألوفة « الحرية ! الحرية ! » المعنى بها عندهم التحرر من « ربة الأجنبي » أو ان شئت فقل « الاستقلال » . وفي هذا الموضع من البيان يجب ألا يغرب عن بالنا ان ليس هناك من صلة جوهرية تصل بين مذهب « الوطنية » ومذهب « الحرية » صلةً قريبة الجوار منهما . فأهل الطبقة العامة من الاسبان الذين صاحوا : الحرية الحرية ! لما هبوا يقاتلون جيوش نابليون ، عادوا فرحبوا بملكهم الطاغية المزدري ترحيباً ملؤه الحاسمة والغيرة المشتعلة ، واستقبلوه ، وهو يبجل الاستبداد ، بصراخ بلغ عنان السماء « لتحي السلاسل ! لتحي الأغلال ! »

واستمر دور رد الفعل الاستبدادي الذي أناخ بساحة تركيا والعجم منذ أول الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩٠٨ اذ انتهى سنتئذ آخر قسم من هذا الدور الذي اشتمل على ضروب الارهاق و صنوف البلايا . فانفجر في كلا البلدين بركان الثورة ،

نقلع الترك عبد الحميد المستبد ، وخلع أهل فارس محمد علي شاه الطاغية الذي « جمع كثيراً من مشائخ الفساد والجبن والحطه ، ولطخ عرش العجم بفاحش العار » . وحطمت الثورة في البلادين أغلال الجور وقيود الاستعباد ، فانطلقت قوة الأحرار التي كانت تمتد وتشتد على التوالي تحت سطح الاستبداد ، في الدور المنقضى ، وانتقلت كل من تركية والعجم الى دور جديد بزغت فيه شمس جديدة ، فأنشئ الدستور ومجلس النواب وسائر الأجهزة السياسية اللازمة لكل من الدولتين على الطراز الغربي الحديث .

أما التساؤل فيما يمكن أن يكون لهدين الانقلابين من تحقيق الأمر وصحيح العمل في تبديل الحال والانتقال بها من دور الى دور ، والقيام بتدبير شؤون الدولتين والنهج بهما على المناهج الحديثة التي يقدر لها أن تكون في جارى الحال خالية من مفاصد الاضطراب الضار وطوارئ الحدثنان . فهو ضرب من الجدال الفارغ لايفضى بصاحبه الى ادراك حقيقة يصح الاطمئنان اليها ، والسبب في ذلك انه منذ شوب نار الثورتين التركية والفارسية ، وقلب النظام الاستبدادي واعلان الدستور فيهما ، أخذ جو السياسة العامة يعتكر ويربد بالسحب السوداء ، وتراكم فيه مننرات السوء ، وما زال هذا كالح الجبين حتى قصفت الرعود فأخذت نيران الصواعق تنساقط من سماء الحرب الكونية العظمى مطبقة العالم بأسره فلم يكن لتركية ولا للعجم بعد انقلابهما السياسي متسع تستطيعان فيه مراس التطور السياسي مراسا حقا ، وموآلفة الحياة الجديدة . وفوق ذلك فقد وقف لها الدهاة الغربيون بالمرصاد يتحينون عثارهما الذي لاجرم اذا عثرناه ، والدور دور جديد يقتضى كثرة المراس عليه . فكان غرض هؤلاء الدهاة المتسكرين بأثواب الساسة أن يرقبوا زلة الدولة بعض الشيء ، حتى اذا كان ذلك انقضوا عليها بنفوس شرهة ، وأفسدوا عليها عملها ما استطاعوا . فلما فتقت الحرب العامة كان فتوقها في الواقع انما هو تنمة للاعتداء والجور الغربيين اللذين كان قد بدى فيهما منذ عدة سنوات .

فلذلك اذا اعتبرنا عدم استقرار الحال ، وأقمنا الوزن لتوالي الطوارئ العداية على غير انقطاع ، أصبح البحث بدون قيمة جوهرية له تكشف عن حقيقة المسألة الكبرى التي أمعن البحث فيها وقلبوا وجوهها ، وهي : أجديرة شعوب الشرق الأدنى والأوسطياترى أوليست بجديرة بنيل الحكم الذاتى ، أعنى بأن نشئ النظم الدستورية وتحيا الحياة

السياسية الحرة ؟ وقد اختلفت آراء البحوث في هذا اختلافاً كبيراً . أما نحن فلم نذهب الى أن نسط رأياً خاصاً ، بل آثرنا ايراد طائفة من الآراء والأقوال النافية والمثبتة ، دون أن نجح الى تقرير خلاصة ما . بيد اننا قبل الشروع في ايراد ما نورد من الآراء المختلفة علينا أن نستعى شديد الانتباه الى اعتبار ما هناك من الفرق والاختلاف بين حال الشعوب الاسلامية والشعوب الهندوية غير الاسلامية في الهند . فان المسلمين قاطبة ، في كل قطر من أقطارهم ، مثالم في الديموقراطية والشورى السياسية مثال أهل بلاد العرب ، اذ لهم دينهم الاسلامى الدينى ، باعتباره على الأقل فيما يختص منه بأبنائه ، دين منير يشتمل على المنازع الحرة العديدة . أما الهندويون فلاشئ من هذا في دينهم ، فان تقاليدهم السياسية لم تبرح الى اليوم منغمسة في حاة الاستبداد الشرقى ، وخير ماسطره التاريخ بين دفتيه لهم هو قيام بعض الدول فيهم في الأزمنة الحالية ، وهى دول استطاعت أن تحكم نفسها بنفسها حقبة قصيرة على نطاق ضيق محدود السلطان والسيطرة ، ثم مالبت هذه الدول الهندوية أن ذهبت ريجها ، وأدال الله غيرها منها ، فأدركها التلاشى والاضمحلال . وأما البرهمية ، أعنى دين الهندويين فالراجح انها أضر معتقد نشأ فى الارض ، بعيداً من الحرية الصحيحة التى يجب أن يكون عليها الانسان منفرداً ومجتمعاً ، وقصياً عن المساواة الاجتماعية ، فكان بلية حلت بينى الانسان ، قاسماً المجتمع الى سلسلة لانهاية لها من الطوائف والطبقات المتقاطعة بفوارق لا تحصى ، المحرم على جميعها الاختلاط والامتزاج بعضها مع بعض فباتت كل طائفة تعد من دونها من الطوائف الأخرى غاية فى الدنس والرجس تكاد لا تفرق بينها وبين الأنعام السائمة . فالمعتقد الهندوى اذاً هو عائق كبير من شأنه أن يجعل أمر الحكومة الذاتية أصعب انشاء ومثالا فى الشعوب الهندوية منه فى الشعوب الاسلامية . فعلى القارىء الكريم أن يستوعب هذه الحقيقة ذاكرها فى سياق ما يأتى من الكلام .

نعتبر الآن فى المقام الأول مقالات الذين يعتقدون أن شعوب الشرقين الادنى والاوسط ليست بجديرة اليوم ولا فى المستقبل القريب بنيل الاستقلال والحكم الذاتى على صحيح ما لهم من المعنى عند أهل الغرب . واللورد كرومر فى طليعة الفريق الذاهب فى الاعتقاد هذا المذهب ، لأنه يرى أن التقاليد الاستبدادية القديمة متأصلة فى الشرق ، صعب أمر استئصال شأفتها ، ولا سيما اذا ابتغى ذلك تاماً وريم حصوله فى مدة قريبة من الزمن ،

فقال : « ما برحت السياسات الشرقية منذ فجر التاريخ تعورها الآفاث القاتلة وينخر فيها سوس الفساد ، فلذلك لا يسعنا القول بإمكان تلاشي الاستبداد واضمحلال طبائعه وأصوله في مدة قليلة ، لشدة تمكن ذلك في تربة الشرق قرونا وعصوراً . فبعيد هو اليوم الذي تصبح فيه عقائد الحرية المنظمة ، الواسعة النطاق ، حالة حلولا راسخاً في شعوب الشرق وأمه : لأن التطور والانقلاب لا يمكن أن تجني ثمارهما الناضجة في عدة عقود من السنين بل في قرون فالواجب علينا اذا في المقام الأول أن نجتنب الاتيان بالأنظمة والقوانين الحرة ، الرحبة المجال ، الواسعة المدى ، لشعوب لا تستأهل جميع ذلك ، فتمتكن بسببه الفئة القليلة في كل شعب من الاستئثار بالحكم الجائر الفاسد ، فتعود الحالة شراً من قبل ، بل يجب علينا أن ننشئ نظاماً فيه من الخير والكفاية ما تستطيع كل طبقة أن تنال منه قسطها ، نظاماً قائماً على قواعد شريعة الاداب النصرانية . فلو افترضنا أنه من الممكن انشاء مجلس نواب مصرى ، أعضاؤه منتخبون انتخاباً حراً ، لكان من الغالب أن هذا المجلس لا يتناول فيما يتناول من الاعمال اشترع القوانين وسنّ الأنظمة لمنع الاسترقاق على جميع ضروبه . ولو افترضنا أيضاً انشاء مجلس « الراجوت » في الهند ، فهذا المجلس لا يكون من شأنه الاهتمام بالقضاء على العادة الكريهة ، عادة اقدام الأرامل على الموت في نار ذات هب ، قياماً بعهد الوفاء لازواجهن . يؤخذ من هذا أنه يجب على الحكومة الصالحة أن تتمهد الطريق وتقوّم السبيل أمام الشعوب الشرقية للوصول الى غايات وأغراض ممكن الحصول عليها على توالى الايام . فعلى الشرقيين أن يجتازوا كثيراً من التطور الصحيح المتدرج في أدوار الحياة السياسية ، قبلما يقتربون من أفق الحكم الذاتى التام ، مدركين غاياته وفضائله ومثله العليا حق الادراك . وقال اللورد كرومر متشامماً : « يصلح الشرق للحكم الذاتى متى صلحت خيوط العنكبوت لتتخذ نسيجاً يلبس » .

و بعد الثورتين التركية والفارسية ، كتب الكاتب الانكليزى الشهير الدكتور « ديلون ^(١) » يبين من الآراء ما يشبه كل الشبه تلك التى بينها اللورد كرومر في هذا الشأن ، فأعرب عن قليل أمله في أن تينك الثورتين آتيتان بثمار طيبة ، وسخر بالمتفائلين قائلاً : « كأن الروح القدسية ستهبط على الحكومتين الدستوريين الجديدتين من الملاء

الأعلى» ثم قال « ترى أنتستطيع دساتير الحرية ولو سنتها أعظم قوة بشرية في بلاد لا أثر للصناعة فيها ، أن تزحزح شيئاً من جبال تلك البلاد وتغير من غرأثرهم وأخلاقهم وتقاليدهم الموروثة منذ الحقب المتطاولة تغييراً ذاهباً بالقديم الفاسد وآتياً بالجديد الصحيح؟ اللهم لا . فجميع ما في الأمر أن هذا الانقلاب في تركية وفارس لم يشتمل بحقيقة واقعة على شئ سوى تبادل طليّ الأقوال وبهرج الكلام وأنيق الخطب ، الأمر الذي ليس به تنقلب الحال الراسخة منذ القديم انقلاباً لامراء في حصوله بالحقيقة والفعل . وتدل الدلائل الظاهرة على أن فارس ليست على شئ من الخلفة والمجدرة لنيل الحكم الذاتي » ثم قال في موضع آخر : « وصفوة القول أن غاية ما حصل إنما كان مقصوراً على اتخاذ طائفة من الأسماء الجديدة بديلاً من غيرها لبعض الاشخاص والمسمايات بحيث يترأى للناظر أن هناك شيئاً جديداً وما هناك في الواقع سوى القديم المعهود . أما الفوضى فما برحت ضاربة أطنابها الى ما شاء الله وأما قضية القيام باعانة الحكومتين الجديتين الاعانة المالية فليس بالمستطاع ، لأن التمويلين الأجانب لا يرون من الحكمة في شئ أن يقرضوا أموالهم لبيئتها العابثون الذين هم في بلاد غير مستقرة الحال كتركية وفارس أشبه بفقايع الماء تطفو لحظة ثم لا تلبث أن تختفي وتلاشي . »

وكتب موظف استعماري من الفرنسيين ^(١) يصف أهل الجزائر وغيرهم من المسلمين في مستعمرات افريقية الشمالية الخاضعة للحكم الفرنسي يقول : « ينبغي لهذه الشعوب التي في مستعمراتنا أن يحكمها غيرها ، لأنها صبية دون اليقاع فلا تستطيع ادارة شؤون نفسها بنفسها . فيجب علينا أن نقودها السبيل قيادة ثابتة شديدة ، وألا تتخلى عنها تاركينها وشأنها لثلاث عثر عثرة كبيرة ، وألا تتواني لحظة في سحق من فيها من المفسدين وأهل الكيد والسجس ^(٢) ، من حيث يجب علينا أيضاً أن نحميها ونذود عنها ونقوم على تدريبها قيام الوالد على شؤون أولاده فنتناولها بالسطوة والسيطرة بيد ، وبالترقية والتعليم بالأخرى ، ونكون لها مثلاً حسناً في التفوق الأدبي الصحيح . وفوق كل هذا يجب علينا الاقلاع عن التمويه الباطل والمزاعم الفارغة الخلافة . فليكن رائدنا

(١) أ . مرسيه . كتابه « القضية لوطنية » باريس ١٩٠١ "La Question Indigène" - E. Morcier

(الناشر)

(٢) الفساد والكدر

الاخلاص في سبيل مصلحة فرنسا ومصلحة أهل البلاد كذلك . »

وقد استاء كثير من أهل الرأي ، وجلهم من الموظفين الأجانب في الحكومات المستعمرة مما شاهدوه من النهج المحتل الذي ينهجه الشرفيون في الطور الأول من الحكم الذاتي ، طور المران والمراس على يد التجربة ، وذلك كالمجالس الاستشارية التي تميز الحكومات الأوربية لأهل البلاد انشاءها ، فيتخذونها ميادين سياسية يتنرعون بها لانتياش السلطة من أيدي المسيطرين انبشاشاً مجاوزين في ذلك حدود نطاق ما أعطى لهم قال اللوركتشر في تقريره الموضوع سنة ١٩١٣ في شأن مصر : « ليس في المستطاع تنشئة الهيئات النيابية وترقيتها خير ما يكون ، مالم تؤكد صفة الحال الراهنة ان هذه الهيئات هي من الاقتدار الصحيح بحيث تستطيع القيام بوظائفها التي بين يديها حق القيام وان هناك كبير رجا في أنها كلما اتسع نطاق الاعباء الحكومية أمامها وانفسح لها مجال لمراس الشؤون الخطيرة الحيوية ، ازدادت حنكة وخبرة واقتداراً ، فلذلك ان وجدت الحكومات النيابية وهي على أبسط أشكالها وفي أول أطوارها غير مقتدرة على العمل والاجراء ، وغير متنكبة المداحض والمعاثر ، قل الأمل اذ ذاك في أن تكون من الجدارة بحيث تحسن القيام بمهمتها الكبرى ، متى ما غدا مجال شئونها أوسع ونطاق المهمات أبعد مدى . فعلى هذا الاعتبار ليس من حكومة وفيها مسكة من العقل تعزم توسيع نطاق المجالس الاستشارية وتحويلها سلطة أقصى أمدأ وأبعد نفاذاً من بعد ما بدا من قصور هذه المجالس عن احسان القيام بما قلده من الوظائف والأعمال احساناً داعياً للرضى والارتياح » .

أما الذين يقومون باشغال الاضطرابات الوطنية في بدء الأمر فأهل الطبقات العالية من أهل البلاد والمتهذبون على الطراز الغربي ، ثم يأخذ الجمعان معاً يهيجون سواد الشعب الجاهل ويلهبون صدره إلهاباً ، في حين انه كثيراً ما يكون على حال من الهدوء والسكينة راضياً عن شأنه مكتفياً بما يتناوله من المرافق والمنافع في ظل الحكم الأوروبي (١) . منذ

(١) لا والله قلما يكون هذا الشعب راضياً عن الحال التي هو فيها تحت الحكم الاوربي ولكن العامة لا تقدر أن تقوم بشيء من نفسها مالم يتقدمها النباه والطبقة الراقية . فمن عادة الأوربيين المستعمرين ان يزعموا في مثل هذه الحالة ان الشعب كان راضياً ساكناً ساكناً مقتبظاً لا يطلب سوى استمرار الادارة التي هو تحتها ، فبجاء نقر من الأعيان أفسدوا قلوب العوام والفلاحين وحلومهم على الثورة أو الفرقة ، فان

سنوات معدودات قال أحد كبار المبشرين الاميركان (١) في الهند بعد اختبار طال معظم حياته في تلك البلاد : « يغلب أن يكون الشعب الهندي اليوم أكثر ارتضاء بحكومته منه في أي يوم خال . أما العلة الحقيقية في استنارة روح السخط والغضب إنما مصدرها الطوائف والطبقات العليا . فلوترك المستثيرون عامة الشعب وشأنهم ، وكفوا عن هياجهم وتحريرهم ، وحملهم واستصراخهم ، لبات أهل الهند أشد شعوب الأرض إخلاصا ووفاء . غير أن أهل الطبقات الراقية المتهدبة المشتعلة صدورهم بنار المطامح السياسية الحديثة ، الذين لن يناموا بعد على ما ناموا عليه من قبل ، ولن يكون لهم قبل باحتمال الضعة والاكتفاء بالمراتب الدينية الحقيمة التبعة ، وبالوظائف القليلة الشأن والمنفعة فهم يكادون لا يعتبرون شيئاً من قدر الحكومة التي تسلم اليهم مقاليدها ويولون مناصبها وكراسيها على التوالي . بعد جميع ذلك فليس من مرادهم الوقوف عند حد الاكتفاء بنيل الأنظمة الدستورية النيابية التي توسع نطاق اشتراكهم في حكومة بلادهم ، بل انهم اذ ذاك لمطالب الاستقلال بشؤون حكومتهم بأسرها استقلالاً تاماً لا يعتريه نقص ولا يشوبه شائبة . فالبرهمي (والبراهمة حسنة في المئة من مجموع السكان) كان يعتقد انه هو ذو المقام الأعلى وابن الطائفة التي اختيرت من لدن الاله لتحكم البلاد ، فيحمله ذلك على أن يمسك عن الآخرين حريتهم وما لهم من الحقوق على اختلافها . و « السودرا » (أهل الطبقة الرابعة الدينية) كانوا لا يرضون بأن ينتخبوا أحداً من أهل طبقة « الباريا » (سفالة أهل الهند) . وما زالت الحال هكذا حتى جاءت الحكومة البريطانية ففقت بالتساوي في الحقوق والواجبات وجعلت أهل الهند عامة وخاصة دون اعتبار الطوائف والطبقات على مستوى اجتماعي متماثل ، هذه هي الحالة حتى اليوم » . عند هذا تبدو المحاذير جمة باعثة على

كان هؤلاء الأعيان من شيوخ الدين أو الطبقة المسلمة المتدينة ، كان هذا من أثر التعصب الاسلامي ، والحرب المقدسة وتعليم القرآن أو دعوة الشيخ السنوسي أو التيجاني أو الشاذلي الخ ، وان كانوا من طبقة المتعلمين بأوروبا والناشئة الجديدة الذين لا يمكن اتهامهم بالدعوة الدينية كانوا من أولئك الطامحين المتطالبين الى الوظائف ذوى الاغراض الشخصية ، أو من الوطنيين الذين قد « قرأوا أشياء أساءوا هضمها » تلك الجله المخصصة - في لغة الاستعمار - لكل فئة شرقية متعلمة على النسق الأوربي لكنها متمسكة باستقلال

الاختشاء . ذلك أن يعود الاستبداد الاوليافارقي (١) فينشر في الهند متى ما حررت من الحكم البريطاني تحريراً تلاه قيام البراهمة وقبضهم على أزمة الأحكام . ولم ينفرد أرباب الرأي الغربيون في تصديق هذه المحاذير ، بل شاركهم في ذلك عدد كبير من أبناء الطبقات الهندوية الدينية المعروف مجموعها « بالطبقات المضطهدة » فأخذوا يقاومون الحركة الوطنية الهندية خشية أن يضيعوا ما هم متمتعون به اليوم من الحماية والرعاية في ظل حكم «الراجا» البريطاني ، وهم على اعتقاد ان الهند لم تبرح قاصرة عن نيل الاستقلال الصحيح ، فيجب عليها أن تدأب أجيالاً في سبيل العلم والتهديب والارتقاء والاصلاح الاجتماعى دأباً متوالياً حتى تغدو من بعده جديرة بنيل الحكم الوطنى « هوم رول » (٢) وقد أنشأوا لهم جمعية كبيرة سموها « الناما سدرا » غايتها موالاة التاج البريطانى ومقاومة الحركة الوطنية .

قال الدكتور « ناير » (٣) زعيم هذه الجمعية مينا غايتها وغرضها : «الديموقراطية باعتبارها كلمة سائرة وعبارة مألوقة ، قد ذاعت في الهند قاطبة وجرت على لسان كل انسان ، غير أن مدلول الكلمة ، أعنى روح الديموقراطية الصحيحة ، لم يزل مجهولاً في هذه البلاد جهلاً شديداً . فلذلك ليس من المتوقع أن نرى في مدة قليلة الديموقراطية بحق معناها قد نشأت في الهند نشوءها في الغرب ، لأن تعصب الطوائف ذلك التعصب القاتل هو حائل دونها الى ما شاء الله . . . ليس من مرادى ان اتهم طائفة مخصوصة دون أخرى بمضايقة الطوائف الوضيعة والازدراء بها ، بل جميع الطوائف والطبقات العليا انما هي في هذا الأمر المستنكر سواء . فالبرهمى لن ينفك يضايق كل من ليس ببرهمى ، وكذلك شأن كل فرد من أهل الطبقات العليا غير البراهمة الذين لم يعدلوا عن مقت جميع من دونهم طائفة وطبقة ... نحن نبتغى ديموقراطية صحيحة لا حكم طبقة ممتازة مستبدة ، اذ عن هذه الأخيرة نحن معرضون ، ولها مقاومون ، ولورفت مارفلت بحلل من مزخرفات الأقوال والعبارات فان قيض لها أن تعود فتنشأ ثانياً فهي باقية من بعد ذلك الى الأبد . . . اتنا وايم الحق لنؤثر الديموقراطية الآجلة البعيدة على نيل هذه الاوليافارقية العاجلة . ونحن أ كثر ثقة

(١) حكم تستأثر به فئة مخصوصة من الأمة (٢) Home Rule

(٣) تشرين الأول ١٩١٨ Dr. Madavan Nair

بالحلم البريطانى منا بالاوليفارقية المستبدة التى شأنها معروف فى أهل الطبقات العليا الذين كانوا على الدوام قائمين على مضايقتنا والنيل منا ، وهاهم اليوم يسعون فى سبيل الرجوع الى ماضيهم لولا الحكومة البريطانية فوقفنا هذا اليوم هو موقف دفاع عن كياننا، وزياد عن بقائنا ، لا نخدعنا عنه أمل كاذب ولا مرتجى خير بعيد المنال »

وهناك كثير من المسلمين والهنديين الذين يعامون أن الهند لم تغد للآن نضيجه للحكم الذاتى ، وانه اذا ما أخذ ظل السلطة البريطانية يتقلص ، سواء فى المستقبل البعيد أم فى المستقبل القريب ، لأصاب الهند من جراء ذلك شر بلوى . فلذلك لا يتردد المسلمون الموالون للتاج البريطانى فى الدعاء على القائمين بالحركات الوطنية بالويل والثبور ، لأسباب جلاها أحد زعمائهم السيد « خوجه بوخش »^(١) بقوله : « سواء كنت أحسنت صنعاً أم أسأت ، فانى لم أبرح معتزلاً مزاوله الشؤون السياسية لهذه المدة الأخيرة . غير انى لم أحل عن اعتقادى قيد شعرة انه يجب علينا أن نجهد فى سبيل ترقية مستوانا الاجتماعى والعقلى والأدبى أضعاف مانجهد فى سبيل تحقيق مانبغيه من الغايات والمطامح السياسية . إنى لشديد الاعتقاد ان فى انصرافنا عن السياسة الى ترقية سائر أحوالنا وشؤوننا الضرورية لنا بطبيعة هذا العصر ، خدمة جلية فى سبيل مصلحة بلادنا ليست جميع قضيتنا مقصورة على أن يكون فى الهند فته قليلة هى وحدها مسلحة بسلاح العلوم والتهديب الغربى ، بل قضيتنا بجملتها تقتضى أن يكون سواد الشعب على مختلف المراتب والدرجات من العلم بماهية مصالح البلاد والشعور بخطورة أمرها بحيث يكون له من ذلك حامل صحيح على خدمتها والمفاداة فى سبيل صيانتها وترقيتها . فان الفئة المتهدبة الراقية ، وهى أقل من القليل ، لا يتألف منها ذلك السواد الذى يجب علينا أن نقوم بترقيته وتهذيبه ، وتدريبه وتثقيفه ، ورفعنا الى المستوى الذى تصبح عنده عقائد التضحية الوطنية راسخة فى النفوس إننا ، وأمرنا ظاهر ، لم نبلغ هذا المستوى بعد ، ومادنا دونه وغير والجرين أبوابه لجميع ما فى صدورنا من الآمال ، وما نجهدنا فى المواضع الأخرى ، هو طلب باطل وسعى على غير ماجدوى . زد على هذا أن الفئة القليلة المتهدبة فينا لم تبرح وليدة فى المهدي من حيث ماهى عليه من المران السياسى الحديث . أجل ، يجب علينا أن تعلم قدسية المبادئ الوطنية

وتسديد الخطى في نهج المناهج الصادقة . وليس لنا من مرتجى في ترقية مستوى آدابنا الخاصة والعامة ، مادمننا لانزبأ بنفوسنا عن افناء المصلحة العامة ، وتضحيتها في سبيل المصلحة الخاصة » .

فخرى بمثل هذه الأقوال والتصريحات التي يوافق عليها كثير من أهل البلاد أن تسترعى سمع عدد كبير من رجال الرأي ، حتى من عظماء الأحرار الانكليز المزاولين للشؤون السياسية الهندية ، وأر باب الاعتقاد الراسخ أن الهند تزداد استعداداً متوالياً للحكم الوطنى ، حتى يأتى يوم تغدو فيه جديرة بنيل الاستقلال التام . قال أحد هؤلاء الأحرار ، « ادوين بيشان^(١) » : « متى ما قام أر باب الحركة الوطنية من أهل الهند يطالبون بالحرية فما يعنون بهذا الا الحكم الذاتى الذى يتبعون على يده التحرر من ربة الأجنبي . فينبغى أن نجيبهم كما أجبناهم^(٢) : نعم حكماً ذاتياً ستعطون و به ستمتعون ، إنما ذلك على شريطة واحدة ، هى أن تكون الديموقراطية مصاحبة للحكم الذاتى . اتنا لتتخلى لكم عن الحكم عند ما نرى فيكم شعباً هندياً يستطيع أن ينزل أمراءه وحكامه الوطنيين على أمره و كلمته . ولكنا لن نتخلى لكم عن الحكم هذا مادمننا نعلم ان من ورائه نشوب الاوليغارقية وانتشارها . هذه علة الخلاف بين من يقولون بوجوب منح الهند الحكم الذاتى عاجلاً ، ومن يقولون بأن الهند غير نضيجة له حتى اليوم ولكنها آخذة بالاستعداد المتزايد لتصبح يوماً جديرة كل الجدارة بنيل الحكم الذاتى والاستقلال التام . أما الفريق الأول فيعنى بالحكم الذاتى أن يحكم الشعب الشعب وهو يرمى من الواجب أن تمنح الهند حكماً ذاتياً فى المستقبل القريب . ويقول الفريق الآخر : اذا ارتفع الحكم الأجنبي وزال للحال ، نشأت عدة حكومات على أثر ذلك على جانب من العيوب والنقص ، فتعود الفوضى والاضطراب منتشرين فى الهند ، وفوق ذلك لن تكون هذه الحكومات ديموقراطية بل استبدادية يحور فيها القوى على الضعيف »

هذه صفوة آراء النقدة الغربيين والشرقيين الذين لايقولون باستئصال شعوب الشرقين الأدنى والأوسط اليوم ، ولا فى المستقبل القريب ، للحكم الذاتى . ثم نأتى الآن على

(١) E. Bevan من مقال له « الاصلاح فى الهند » ١٩١٠

(٢) أى توسيم نطاق الحكومة الذاتية الممنوح للهند على مقضى تقرير « موتاغو - شلنز فورد » .

ايراد آراء الفريق الآخر وأرأبه من أهل الانصاف والتفاضل ، الذين يقولون ، مؤيدين قولهم بالحجة والبرهان : ان المنازع الحرة في الاسلام انما هي خير أساس يصح أن تبنى عليه الأنظمة السياسية الحديثة تامة الأجهزة وافية بمقتضيات الحضارة والعصر . قال الحجة الثقة أرمينيوس فامباري : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية - الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء . فان كان العالم قدشهد حقاً ، منذ أول عهد العمران البشرى الى اليوم ، حكومة شوروية دستورية فهي لعمرى حكومة الخلفاء الراشدين » وقال محقق انكليزي كبير^(١) خير في شؤون الشرق الأتني :

« ان بلاد العرب التي يضرب فيها البدو الرحل هي البلاد الفذة في العالم المشتعلة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبداً سادة حريتهم يذودون عن سياجها بشفار سيوفهم ومهيج أ كبادهم ، وشبه الجزيرة هو منبت الحرية فلا تعيش فيها نبتة الاستبداد » وقال العلامة ليبيار^(٢) في شأن ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ : « قال بعضهم ان تركية لم تكن على استعداد لتحي الحياة الدستورية النيابة بعد الثورة . انما ذلك وهمٌ شديد . فقد كان لتركية مران سابق على الحياة الدستورية وكانت تواقه الى انشاء الحكومة النيابية وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك . أجل ثم أجل ، ان النظم الشرعية والمدنية التي كانت عليها تركية انما هي أفضل اس يشيد عليه الحكم النيابي . كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين وذادة الشرع الشريف على هذا النهج وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون ويستريء بعضهم بعضاً في شؤون مصالح المسلمين . فالشريعة الاسلامية هي ديموقراطية وشورية بطبائعها ووجوهها ، وعدو شديد للاستبداد . وابعثارها شريعة أساسية ، فن شأنها اذاً أن تمكن الشعوب الاسلامية ، كافة ، حتى أبعدها اغراقاً في التبدل من ادراك معنى الشورى والدستورى والنظام النيابي » . ثم بين العلامة ليبيار في موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء

(١) G. W. Bury كتابه « الجامعة الاسلامية » (لندن ١٩١٩) .

(٢) A. H Lybyer من مقال له سنة ١٩١٠

وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى ، يجتمعون فيه على مقتضى نظام في مواقيت معلومه لمناقشة السلطان في شؤون الدولة ، وامداده بالمشورة الحكيمة . وقد ظلت الحال هكذا أمداً طويلاً حتى أنشئ في العهد الاخير مجلسان الاول يعرف بمجلس الدولة والآخر بمجلس الوزراء (١) ، زد على هذا فقد أنشئ مجلس نواب مرتين الاولى في سنة ١٨٧٧ والآخرى في ١٨٧٨ . ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طويلاً اذ قضى عليهما الاستبداد الجيديد ، فقد كانا على كل حال من سوابق المران القانوني والمراس الشرعي على نظام الدستور والحكم النيابي . « وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب الاعتراف اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ أمراً مستحدثاً مما لم يسبق له مثيل في بلاد اسلامية بل يجب اعتباره من النظام الاسلامي المألوف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج به الآن الى نطاق واسع ومجال أرحب »

استدعت الحكومة الفارسية الثورية مورغان شطر الأميركي ليقوم بتنظيم الشؤون المالية في بلادها فلم يطل مقامه في فارس الى حد السنة لأن السيطرة الروسية البريطانية المرهقة لم يكن لها قبل باحتماله فأكرهته على براح البلاد . قال هذا الاداري الكبير مبيناً استعداد الأمة الفارسية الاستعداد السياسي لانشاء النظام الدستوري وهو متفائل في ذلك كل التفاؤل :

« اني أعتقد أن تاريخ العالم كله لم يحو بين دفتيه ذكراً طيباً لأمة مثل ما يحوى من ذلك للأمة الفارسية التي انتقلت فجأة من دور الملكية المطلقة الى دور الحكم الدستوري النيابي ، فما أسرع ما كانت تنتظم انتظاماً يدل على أن أمة ذات مقام عال في الحكمة السياسية وفي معرفة أصول الاشتراع الى حد يكاد لا يصدق (٢) أما أعضاء المجلس

(١) كنا مرة نطوف في قصر طوب قبو (مقر السلاطين في الاستانة قبل بناء طوله بنجيه وبلدز) فاطلعونا على ايوان كان يجلس فيه قديماً السلطان ومعه وزراءه كل يوم للنظر في أمور الرعية ، وكان أصحاب القضايا المهمة يدخلون عليهم في هذا المجلس المعقود والسلطان جالس فيه كأحدهم . فدخل مرة زعيم قادم من الاناضول فلم يعرف من هو السلطان منهم فقال : « سزدن خنكار مزكيدر ؟ » . من منكم سلطاننا ؟ فبعد هذه القصة عملوا للسلطان ذكراً مرتفعة عن الوزراء فصار يجلس فيها والدكة لاتزال الى الآن (ش)

(٢) ومن في الدنيا ينكر مزايأ الأمة الفارسية واستعدادها للرق ، وهي الأمة المتمدنة منذ آلاف من السنين التي اوتيت في العلم والصناعة مواهب قلما وهبها الله أمة من الأمم (ش)

النيابي الأول فقد شرعوا منذ يوم أنشئ المجلس يجاهدون جهاداً كبيراً في تثبيت دعائم ورفع بنيانه وجعله في حرز حرز من طواري الاستبداد . . . فلم يكن لهم متسع كبير فوق ذلك ليقوموا بالوظائف الاشتراعية الكبرى وربما ليس جميع مايسنونه من القوانين والأنظمة يوضع موضع الاجراء .

« وأما المجلس الثاني وهو الأخير الذي اعرف اعضاءه معرفة شخصية صحيحة ، فما كان على كل حال ليعد في رتبة البرلمان البريطاني أو مجلس النواب الاميركي . ولكننا متى ما أقبلنا نعتبر ما استطاعته حكومة فارس القليلة المران من قبل ، في بلاد استطلت رقتها اجيالاً ، من القيام بتنظيم شؤونها وتدير أمورها على نمط تضاهي به الحكومات التي انقضت على حياتها الدستورية أعصر بل قرون ، أخذنا العجب من ذلك حقاً . لا ينكر أن هذه الحكومة الحديثة تحتاج الى كثير من المعارف الاكنتهاية في كل دائرة من دوائر حياتها الجديدة ، بيد ان الأمر الذي يقف عنده الحكم المنصف معتبراً هو أن هذا المجلس النيابي الفارسي يمثل حقاً رأى الامة الفارسية ، وبه نوبة جميع أمانها ومبتغياتها التي تصبو اليها . أما أعضاؤه من حيث ما هم عليه من العلوم فعلى مستوى أرفع من المتوسط ، وجلهم من ذوى العقل الثاقب والخلق الكريم والرأى السديد والشجاعة الحقة . يحنون أضلاعهم على قلوب تنضرم اخلاصاً ووطنية ، يبحثون بجد وعزم في كل مقترح وطني وضع على بساط البحث ، ولكنهم على نقص في الخبرة الكافية لتسيير الشؤون المالية واذا أدركوا خطورة هذا الأمر وعظم شأنه أرادوا الاستعانة بطائفة من المستشارين الأجانب الخالص ، يحضونهم الود ويجعلونهم موضع ثقمتهم ومحققى آمالهم ويفوضون اليهم أمور التنظيم ، هذا اذا كان هؤلاء المستشارون يستطيعون حقاً مقاومة المكاييد السياسية والرشوة ومبادلة الامة الفارسية الود والاخلاص ، والصدق في الاقوال والأعمال

« وليس من العدل ولا الانصاف في شيء أن يقال ان المجلس النيابي الفارسي قاصر عن المجارة الحقة في ميدان الحياة الدستورية ، وهو المجلس المشدود الازر وامته من ورائه بحولها وقوتها ، قوام على واجبه ، مجلس عارف لحد سلطته فلا يتغنى جواز نطاقها بغير حق ، واعضاؤه أبداً على استعداد للقيام بكل تضحية كبيرة في سبيل صيانة كرامة الدولة واعزاز مقامها واعلاء شأنها .

« اما الامة الفارسية فليست على مستوى تتناوله صفة عامة . فالسواد الاعظم فيها من أهل الفلاحة والقبائل البدوية الجاهلة . وأما المتعلمون الذين طلبوا العلم خارج بلادهم وقاموا بسيارات كبيرة في الممالك الراقية فيعدون بالثبات . وقد أظهر جميع هؤلاء استعداداً لاقتباس الآراء الغربية والاخذ عن الحضارة الأوروبية . وهم هم الذين قاموا بدك صرح الاستبداد دكا ورفع علم الدستور والديموقراطية خفياً ، بعد ان ذلوا الصعب وركبوا الهول . وعلى أيدي الحكومة التي انشأوها انتشر العدل بين الناس ، وقضى على المحاباة ، وغدت أبواب المناصب مفتوحة لكل مقتدر كفي من أهل البلاد . وبرهن الفرس من حيث اعتبارهم أمة لها خواص وغرائر على استعداد منقطع النظير لارتشاف العلوم والترقي خلال السنوات الخمس الاخيرة . فشيدت مئات من المدارس ودور العلم وانشئت الصحف الحرة فانبرى حذق الكتاب شارعين اقلامهم يهدون الامة خير هداية ، ويكافحون الاستبداد والظلم من خارج ومن داخل ، فظهر في الامة الفارسية ميل شديد لرقابة النظام والتمشى على مستحدث الشرائع والقوانين السياسية والاجتماعية والادبية وفوق جميع هذا فقد اشتعلت الامة باسمها بتلك الروح الاسيوية التي ألهبت الهند وأخرجت ثورة تركية الفتاة الى عالم الوجود ، وظهرت حديثاً ظهوراً رائعاً في انشاء الجمهورية الصينية »

ثم انهى المستر شصطر كلامه قائلاً : « قد صاح الكاتب الأشهر (رديارد كبلنغ) ناصحاً مراراً ان الشرق لن يطبق بعد المناخس معاملة في جنوبه ، فينقلب للحال بسبب ذلك مقاوماً مقاومة رجعية عظيمة . ولكن باستطاعة رجال الغرب ، اذا تذرعوا بالفضائل الغربية وغايات الحضارة الأوروية الصحيحة أن يستسرعوا الشرق في سبيل التقدم والارتقاء على شريطة أن يوقن الشرقيون ان ذلك هو خيرهم ومصالحهم . على ان الحق الذي لا يمارى فيه ان روح التضامن الأدبي والعزة القومية والعصبية الجنسية جميع ذلك قد غدا شديداً في الشرق شدته في الغرب ، فبات الشرقيون بسبب ذلك صعبا المقادة أقوياء الشكيمة وهم هكذا مادامت أوروبا سائرة لهم في سبيل واحد غايته ابتزازهم ملء بطنها وتسخيرهم لرى كبدها (١) »

حقاً ، يعتقد كثير من الأحرار الغربيين ان التسلط الأوروبي ليس من شأنه أن

يعد الشعوب الشرقية للحكم الذاتي والاستقلال الصحيح ، ولو كان ظاهر ذلك التسلط خيراً وكافياً مهما كان (١) بل تعتقد طائفة هؤلاء الأحرار ان الطريقة الوحيدة المثلى التي أهل الشرق أخرى بتعليمها والتدريب عليها ، هي أن تترك تلك الشعوب وشأنها تمارس الاستقلال بنفسها ، وتخرج ذاتها بذاتها عليه ، وقد أجاد « ليونل كرتس (٢) » الكاتب الانكليزي الذائع الصيت ايما اجادة في جلاء هذا القول وتصريحه في كلام له في شأن الهند بين فيه ان التعليم والتهديب ، والتمرات والخيرات ، التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها « لاعداد أهل الهند اعداداً صحيحاً للقيام بأعباء الحكومة النيابية . بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهديب ينقلبان خطراً كبيراً وبلية إيجابية ، مالم يقرتنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعثها شيئاً فشيئاً . ان الشعب مهما كان مهذباً راقياً ، لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية الا في حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة ، والمباشرة الفعلية ، لافي حيز النظر والتصور والخيال .

« قد يقول بعضهم اني لجوج في طلبى الذى بينت فيه انه يجب علينا الشروع في نقل السلطة شيئاً فشيئاً ، نقلاً صحيحاً لاغش فيه ، من عاتق الحكومة البريطانية الى عاتق حكومة الشعب ، وانه يجب على موظفي الحكومة البريطانية في تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التي تطلب منهم هذا بحق . نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة الى هذه الحكومة الفتية وأن يعطفوا عليها عطف الأم الخنون على وليدها وفلذة كبدها ، لاعطف الظئر المأجورة التي سواء عندها أعاش الرضيع أم مات . واذا ماأريد حقا تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتي وجب أن تكون حرة من كل جانب لامطلقة من ناحية ومصفدة بالاعلال من ناحية أخرى . فان لم

(١) جميع المسيطر بين الاور و بين في الشرق قاوموا التعليم الصحيح وحاولوا قصر جهدهم على الاستعمار المادى والاستثمار الدينوى وان يجتثوا من التعليم بتدر يس لغاتهم فقط دون الفنون التي فيها . وان ماجاهدته مصر في أمر توسيع الميزانية لوزارة المعارف وتكثيف المدارس بعلمه الخاص والعام ، ومع هذا فكان المحتلون يقيمون في وجه التعليم جميع العقبات الممكنة ولا يزالون يقيمونها الى هذه الساعة . اما في الجزائر فابقاء الاهلين في الجهل وحرمان أطفالهم من الكتابيب الابتدائية هو من جملة برنامج الادارة هناك

(٢) كتابه : « رسائل الى أهل الهند في شأن الحكومة النيابية » (لندن ١٩١٨)

Lionel Curtis, "Letters to the People of India on Responsible Government.,

يكن هذا ، فليس من سبيل اذاً لهذه الحكومة الفتية لأن تشعر حق الشعور بانها مسؤولة لدى الشعب الذى هو من ورائها حتى ولا الشعب بمسطيع على هذه الحال ان يعلم ويوقن انه هو المالك لنفسه من ضر ونفع ، هذا ليجلبه وذاك ليدرأ عنه نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذى يبتغى بملء ارادته حكماً ذاتياً لايتسنى له الوصول الى غرضه السامى وغايته الكبيرة الا فى الجهاد قائماً أبداً واجتياز طريق الصعاب التى تشق عندها الأ نفس وتركب الأهوال وربما الى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكلما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه .

«انى لاأخر نغراً كبيراً بما جلبته بريطانيا العظمى الى الهند من الخير والنفع ، من انشاء النظام ونهيتها ، وحل أهل البلاد على العلم بان الحكومة المنتظمة مأعظم شأنها وأخطر مكاتها فى عمران البلاد . غير أنى على كل هذا لأعتقد ان النظام الذى أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحاً بعد ، دون أن ينقلب الى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع فى تأدية هذه الأمانة الكبرى الى أهل الهند أصحاب البلاد ، من بعد ما حملناه على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص .

«يجب أن يكثر سواد الهنود فى دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوى ساعدهم وزيد حولهم ونعلى من منزلتهم . وذلك لا يتم الا اذا مكناهم من التمرن على الواجبات التى تنقل الى نطاقهم نقلاً مزداداً . لأن مران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جالوساً على المقاعد .

«لاوصول الى الغاية التى بينها حديثاً وزير الهند^(١) الا بركوب المشقة ومعاناة الصعب فى سبيل وعرة ، الأمر الذى يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استطعنا الوصول الى هذا الدور الحالى من مهمتنا فى الهند ، بعد العناء الكبير ، والانتهاى الى هذه الحال انتهاء ملتئماً كل الانتائم مع ماهو معروف لنا من التقاليد . وان ما بقى أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولو كان فى ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا » .

(١) اشارة الى الغاية المبينة فى تقرير مونتاجو - شلمز فوررد من منح الحكم الذاتي

ان كلسات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ماهو واقع اليوم في الهند كما في سائر الأقطار الشرقية . ان الحرب العامة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظي شديداً ، من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال فغدا مقبض أوروبا على الشرق مسترخياً استرخاء متوالياً يدل على قرب الزوال . وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيراً أم شراً ، فتقلص الظل أمر واقع لا مرد له ولا مدفع ، مما يدل على انه لن ينقضي منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يغدو غالب الدول الاسلامية في الشرقين الأدنى والأوسط متمتعاً بالحكم الذاتي وربما بالاستقلال التام لا عيب فيه . اما التساؤل أتسى هذه الشعوب التي ستصبح حرة ، اغتنام الفرصة ، فتعود تتعثر معائر الاستبداد والفضوى ، أو تفلح حقاً عالية الجبين في انشاء الحكومات الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه في طريق التقدم والارتقاء ذلك أمر سيكشفه المستقبل . واذ قد يينا لحد الآن العوامل المختلفة العاملة في أفق التطور السياسي ، سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقه في مجراها الطبيعي بهذه العوامل ، مراقبين قلبها المستمر في هذا الدور دور التحول . وننتقل للكلام على العصبية الجنسية .

اللورد كرومر

السير

ان هذا الرجل المسمى باللورد كرومر^(١) يصح أن يكون مثالا للورثى المستعمر المتسلط الذى تنحصر سياسته فى تذييل جميع العقبات القائمة فى وجه استيلاء أمتة على قطر من الأقطار الشرقية ، ولما كان ميدان عمله مصر وكان لا يمكن أن يجرى فيها من ضروب الاستبداد الاستعمارى بقوة السلاح ما يجرى فى السودان أو الصومال مثلا ، لجأ فى الاستئثار بأمر مصر الى الجدل واقامة الأدلة على كون مصر وكل بلاد شرقية أو اسلامية لانصلح للحكم الذاتى ، ولا يجوز أن تخلو فى يوم من الأيام من السيطرة الأوربية . ولأجل أن يعلل وجوب هذه الديمومة الاستعمارية التى لانهاية لها ، حال كون كثير من المستعمرة الأوربيين يجعلون الأمد بينهم وبين حرية البلاد التى استولوا عليها وصول هذه الى درجة الكفاية والأهلية للحكم الذاتى كان يزعم هو أنه لا يمكن وصول شعب مسلم الى درجة كهذه أبداً لموانع قائمة فى طبيعة الاسلام نفسه ، وكان مقام اللورد كرومر فى انكلترا بسبب كونه هو الآخذ بزمام مصر يجعل له كلمة نافذة وقولا مسموعا ، فكان كل سنة يصدر تقريراً ينظف سما على مصر وعلى الشرق وعلى روح الاسلام ، ويتلقى الناس ذلك منه أنه نتيجة خبرة طويلة ومعاركة دهر فى بلاد الشرق ، ويحفلون بكلامه ويتخذونه دستوراً . والحق انه لم يكن الا عبارة عن رجل مستعمر مستبد عدو للشرق عموماً وللإسلام خصوصاً يتأجج بغض الاسلام فى قلبه نظير ما كان عليه غلام سطون ، وأخيراً ظهر عدوانه هذا بكل جلاء فى حادثة « دنشواى » التى تغلب فيها هواه على مهارته ، فكانت سبب سقوطه وصرفه عن مصر ، فاتتم لنفسه بتأليف كتاب خاطرات جل فيه على الاسلام حملة شديدة . وان جميع ما يدعيه هذا الرجل وأمثاله من عدم قابلية الشعوب الشرقية للرقى ، ان هو الا من الاستدلالات الاستعمارية التى مرماهم فيها معروف ، وهو أن يجعلوا حكمهم لهذه الشعوب سرمداً ،

(١) انظر صفحات ٥٢ و ٥١ وما بعدها من هذا الجزء

لانه صار يصعب عليهم ترك هذا الحكم برضاهم بعد أن ذاقوا لذته وجنوا ثماره . جاءني مرة وأنا منذ سنتين في برلين اثنان من سفارتين من سفارات الانكايك الكبرى في أوروبا يريدان أن يباحثاني في المسائل الشرقية ، فكان من جملة ما قال لي أحدهما : قل لنا بشرفك هل تعتقد كون هذه الشعوب الشرقية القائمة كلها يطلب الاستقلال هي أهلا له . فأجبتة : قل لي بشرفك هل بلاد اليونان منذ قرن والبلغار منذ ٤٠ سنة والجبل الاسود والصرب كانت أرقى مما هي مصر وسورية وتونس الآن ؟ فلماذا يطلب لتلك الاستقلال مع مساعدة جميع أوروبا وأثناء تصفيقها وابتهاجها وينكر على هذه بحجة أنها لم تصل الى درجة الكفاءة

قال الانكليزي : أفلا تعترف بكوننا أقدر على ادارة مصر من أهلها وان وجودنا فيها أضمن لمراقفها المادية . قلت له : أفلا تعترف بأن النمسا أقدر على ادارة يوغوسلافيا من الصرب وانها أرقى بدرجات من الصرب ؟ أفلا تعترف بأن النمسا هي التي هذبت ورقت مستوى جميع تلك الامم التي انسلخت عنها بمساعدتكم ؟ أفلا تسلم بكون الرومان الذين كانوا في المجر هم أرقى من رومان نفس رومانيا وان حكومة بودابست هي أعلى مراراً من حكومة بخارست ؟ أفلا تقر بكون الالمان هم أقدر من البولونيين على ادارة سيليزيا العليا ؟ وان مرافق سيليزيا العليا تكون تحت ادارة المانية مضمونة أكثر مما تكون تحت ادارة بولونية ؟ فلماذا اذا سلختم يوغوسلافيا عن اوستريا وترانسيلفانيا عن المجر وقسمنا من سيليزيا عن المانية ؟ ربما تقولون لملاحظات أخرى وطنية واعتبارات قومية لا بد منها اذكل أمة لها حق في أن تدير نفسها بنفسها فلماذا هذه الاعتبارات القومية والوطنية تبقى مرعية مادامت في أوروبا فاذا كانت المسئلة في الشرق لم يبق هناك من سبب يجب اعتباره سوى حسن الادارة ؟ قلت له : أنا لا أشك في انه لو استولت المانية على استونيه أو ليتوانيه أو لتونيه لادارتها أحسن مما يديرها أهلها اليوم ، ولو استولتيم أتم على البرتغال لكانت حال البرتغال المالية والادارية أحسن منها في أيدي البرتغاليين وهلم جرا ، أفسمح أوروبا للمانية بحجة علوية الادارة أن تستولى على بلاد الباطيك أولكم بأن تستولوا على البرتغال ؟ لأظن ذلك . فلماذا بحجة أفضلية الادارة تتمسكون بالبقاء بمصر ولا تنظرون الى ماهنالك من العوامل القومية والوطنية ؟ ولماذا جمهورية اريغان الارمنية تستحق الاستقلال

وكرجستان هي أهل للحرية، ومصر وسورية لانتحقان الاستقلال ولا الحرية؟ أتري اريفان هذه بل كرجستان أرقى من مصر أو سورية أو العراق أو تونس، كلا. فلماذا تحللونه عاما وتحرمونه عاما. وأغرب من هذا أن أذربيجان التي هي أرقى جداً من اريفان لم نجد دولة من دول أوروبا طلبت لها الاستقلال وهن باجمعهن يطلبنه لاريفان. مع أن اذربيجان أربعة ملايين و اريفان أربع مائة ألف وأذربيجان متمدنة و اريفان بجانبها تعد متوحشة. وكذلك جميع الدول مهتمة بدفع البولشفيك عن اريفان وكرجستان وليس من واحدة تطلب دفعهم عن اذربيجان والطاغستان هل في ذلك سبب الاكون الأوليين مسيحيين والاخرين مسلمين؟ افبمثل هذا العدل وهذه المساواة تطمع أوروبا أن يكون بينها وبين الاسلام سلام؟ فلما لم يجد على كلامي جواباً يليق برجل عاقل دخل في واد آخر وقال: طالما قيل لنا عن ذكائك وقوة حجتك الخ (وأخذ بالتمريظ والاطراء) فالآن صدق الخبر الخبر. وبالجملة فلا يظن ظان أن كلام اللورد كرومر وأمثاله هو كلام ناقد خبير محرب في ادارة الشرق يتكلم بخلوص نية ونفي للغرض بل هو كلام ناقد خبير بادارة الشرق على الاسلوب الذي يضمن بقاء السلطة الاوربية ويزيد دخل الاستعمار المالى ويقتل العواطف الوطنية، ويقوى حس الافتنان بالتمرنج و يصرف الشرقيين عن المطالب القومية. والذي يقال دائماً هو أن اللورد كرومر خدم أمته أجل خدمة وأنا أقول انه مهما جلت خدمته بالاخلاص لقومه فخدمته للشرقيين بما ظهر من تعصبه وسوء نيته كانت أجل وأعظم

العرب ديمقراطيون

الله شريكى

ليس من عادة العرب قديما ولا حديثا التخاضع لملوكهم وأمرائهم كما تتخاضع لامراءها وسلوكها سائر الأمم ، بل تراهم لا يخاطبونهم بالالقب الضخمة ، ولا بالنعوت التي يخاطب غير العرب بهاملوكلهم ، بل لم يكونوا ينادونهم الا بمجرد اسمائهم . وانما كانوا في أيام الخلفاء بدأوا يقولون لهؤلاء : أمير المؤمنين . لاغير . فكل ما دخل في العربية والعرب من ألقاب التعظيم والتفخيم انما هو مأخوذ من الفرس وغيرهم . ولا يزال أهل البادية - الى يومنا هذا - ينادون شيوخهم وأمرائهم بمجرد اسمائهم ، فاذا أرادوا أن يكرموا واحداً منهم نادوه بالكناية قائلين : ياأبا فلان . هكذا يخاطبون الملك ابن سعود والأمير ابن الرشيد وكل أمير فيهم . وكانوا يدخلون على الملك فيصل بن الحسين مؤخراً وهو بدمشق فيخاطبونه دائماً : ياأبا غازى . كما يعرف ذلك كل أهل الشام . فهذه هي الديموقراطية الصحيحة . وكانوا في العصر القديم يقولون لعمر بن الخطاب وهو يخطب : «لورأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيفونا» . وكان الاحنف يقول لمعاوية : «والله يامعاوية ان السيوف التي قاتلناك بها هلى في اغمادها» . وخطب أبو جعفر المنصور ولم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين فقال : «أيها الناس اتقوا الله» . فقام اليه رجل من عرض الناس فقال له : «اذكرك الذى ذكرتنا به» . فاجابه الخليفة : « سمعا سمعا لمن ذكر بالله »

نعم ان كان في الدنيا شرقها مع غربها قوم ديمقراطيون فعلا فهم العرب . لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر ان الروم والفرس والهند الخ لها ملوك تجتمع على طاعتها ، وان العرب لا يزالون فرقا وحزقا ليس لهم أمر جميع ولا ملك ضخم ، اجابه النعمان : ان الاعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها وأما العرب فانها أعز نفوسا وأحى أنوفاً من أن تطيع ملكا ، بل تجد العرب كلهم ملوكا . وكما كان ذلك دليلا على شمم العرب وعزة نفوسها فلا ينكر انه كان العلة الاصلية في تحاسد هذه الامة وتنافسها وحدة مناظرة بعضها لبعض

مما آل الى فقدها الملك العظيم الذى كان لها ، وتقلص ظلها عن الآفاق بقيام ملوك الطوائف وبمناظرات القيسية مع اليانية التى كانت آفة على سلطان العرب فى كل مكان ، والسبب فى وقوف فتوحاتهم يوم غزوا الاندلس وغربى أوربا .

ان العرب لم تجتمع كلمتها الا بدعوة دينية هى دعوة الاسلام وهذه الدعوة قد زادت فيها روح الديمقراطية بما فى الاسلام من سنن المساواة والاخاء والحرية . قال عمر بن الخطاب : لسنا فى كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر . تأمل اخوان فارس وأبناء الأصفى قد جعلهم الله جزرا لسيوفنا ، ودرية لرماحنا ، ومرمى لظعاننا ، وتبعنا لسلطاننا ؛ بل نحن فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمره حكمة ، واثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة الخ وأما المشاورة فالى اليوم لا يعمل أمير من أمراء العرب ولا شيخ من مشايخ القبائل العربية عملا الا برأى شيوخ القبيلة . وهو أمر مشروع لابل فرض اوجبه الله فى كتابه قال تعالى : « وشاورهم فى الأمر » . وقال : « وأمرهم شورى بينهم » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون يعملون كل شئ عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى احدى خطبه : « ولكن الابرام بعد التشاور ، والصفقة بعد التناظر » . لذلك جميع الحكومات الاسلامية هى شورية ديمقراطية فطرة وخلقة والاستبداد فيها عارض ومن جعلتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة .

الفصل الخامس

في

العصبية الجنسية

العصبية الجنسية أعظم مظهر من مظاهر المجتمع البشري في هذا العصر ولا مرء في ذلك . نشأت في أوروبا أول منشأها خلال القرن التاسع عشر ، ولما اشتد ديب فعلها في العروق ، وبلغت أعظم مبلغ من التأثير في الامزجة ، لم تلبث أن غدت عامل التغيير والتبديل والانقلاب في القارة الاوروبية ، حتى بات القرن الخالي يعرف على الغالب بعصر القوميات أو العصبيات الجنسية . غير أن العصبية الجنسية ليست بالظاهرة الاجتماعية التي نشأت في الأفق الاوروبي ولزمت حدود هذا الأفق لا تجوزها ولا تتعدها ، بل انها التيار العجيب الذي بدأ في أوروبا ثم أخذ ينتشر في الارض حتى بلغ أقصى الرقاع المعمورة في الشرق والغرب ، وما زال على جدّ في مسراه ومتغلغله في الشعوب والأمم ، يفتح طريق الانقلابات الكبرى ويمتهد سبيل التطورات العظمى في هذا المجتمع الانساني .

وإذا غدت العصبية الجنسية على ما هي عليه من بعد الخطورة وعظم الشأن ، وأصبح عاملها أكبر عامل في تطور الأمم ومسيرها ومصيرها ، كان لا بدّ للباحث أن يسأل ، ما هي العصبية الجنسية ؟ سؤال لم يبرح مبحثاً واسع المجال لأهل العلم والاستقصاء ، فتعددت في ذلك آراؤهم ، وتنوعت أقوالهم ، واختلفت مذاهبهم . فحددت طائفة منهم العصبية باللغة ، وطائفة أخرى بالتهذيب متناولاً الطباع والسجايا ، وغيرها بالجنس والعرق ، وغيرها بالوحدة السياسية ، وغيرها بالاقليم الجغرافي ، وغيرها بالوحدة الاقتصادية ، وغيرها بالدين . فجميع هذه التحديدات على اختلافها ، وربما ينطوي تحتها غير ذلك ، يمكن اعتبارها على الجلة عوامل ممهدة ، وأسباباً وتحليلاً تُعدّ بفعالها وتأثيرها ما تعد ، مفضية الى خروج العصبية من عالم القوة الى عالم الفعل ، ولكن من رام اكتناه سر هذه العصبية رآها تبدو في أفق أعلى وأسمى ، أفق تتجلى فيه صورتها مزاجاً معنوياً جامعاً لمفعول جميع العناصر التي

تتكون منها تلك العصبية . فالعصية الجنسية ليس في شأنها غامض لا يستبان أو سر لا يدرك ، وذلك على مختلف المذاهب التي ذهبها أهل العلم في تحديدها وتبيين ماهيتها ، فهي بحقيقة معناها حالة وجدانية عقلية ؛ إنما هي معتقد مشترك عند عدد كبير من الناس يعتقدون عليه قلوبهم وضأثرهم . انهم يؤلفون « جنسية » متبايزة عن سواها ؛ إنما هي شعور بكيانهم أمة متضامنة متأسكة ^(١) وهذه الأمة ، باعتبار ما هو قائم من معناها بفسر أبنائها ، ومتصور من شخصها بعين العقل والذهن لديهم ، هي شعب أفراده مشتركون مجتمعاً ومنظمون حالا في ظل حكومة واحدة ، ويسكنون معا بلاداً معينة . ومتى ما أدركنا ماهية العصبية ومرماها وغايتها ، وتقرر ذلك جلياً ، حصل ما هو معروف عند أهل العلم « بالجسم السياسي » أعنى به الدولة . غير أنه لا يندن عن البال بته أن هذه « الدولة » ان هي الا المظهر المادى الذى تجسمت فيه غاية سامية ومنزع شريف ليسا بحديثي النشأة بل هما على الغالب ذلك انطمح القومى الذى ما انفكت نفوس القوم تشره اليه حقبا وعصورا متطاولة ، وهو اذذاك فى عالم القوة مجرداً عن شرطه المحسوس وصفة المادة كالعرش والسلطان والحدود الجغرافية . وأيضاً لا يندن عن البال أمر آخر ، وهو أن الدولة ليس من شرطها أن تكون أمة . وشاهدنا على ذلك امباطورية « أوسترية هنجارية » الهبسبرغية . التى كانت مجموعاً من الجنسيات المتنافرة الاجزاء المتضاربة المنازع ، فلما فتقت ريح الحرب العامة مزقت من هذه الجنسيات مجموعها شرمزق ، وفككت جلة أوصالها ، وقوضت بنيانها ، وتثرت حلقاتها .

على أن الحرب العامة كانت درساً بليغاً كشف عن كثير من الحقائق فى ماهية ظواهر العصبية الجنسية فى هذا العصر ، ولا سيما العصبية الاوروية ، الأمر الذى نقض كثيراً من فاسد المذهب وباطل القول مما شاع من قبل فى تحديد طبائع العصبية . ولنا مثال على هذا سويسرة البلاد التى يدحض اعتبار شأنها تلك المذاهب والأقوال المختلفة ، فى

(١) الفيلسوف رنان يقول ان الأمم لا تتجمع باللغة لأنه طالما اتحدت أمم باللغة ولم تشأ أنت تتجمع فى الحكومة . ولا بالدين لأن أمماً كثيرة متحدة فى الدين هى مختلفة فى السياسة . ولا بالجغرافية لأنه قد توجد مواقع البلاد وحدة أقوام تراهم متفرقين دولا متعددة . ولا بالمرافق لأنها ليست جامعة فى كثير من الأحيان . ولا بالجنس لأنه كم من أمة مركبة من عدة أصول تجدها متحدة وأخرى أصلها واحد من جهة الدم تجدها متجزئة . إنما الرابطة الوحيدة بين الناس هى ارادتهم أن يتحدوا . (ش)

جعل نصاب العصبية الدين أو التهذيب أو لاقليم الجغرافى وغير ذلك ، اذ قد هاجت روح العصبية الجنسية فى سويسرة هياجاً شديداً رأئعا بسبب الحرب العامة ومحنها وأهوالها .

هذه حقائق جلية شائعة ، تعلمها الخاصة ولا تجهلها العامة ، مما لسننا بحاجة الى تقريره واقامة الأدلة عليه . غير ان هناك أمراً جوهرياً حرياً بالتقرير والتبيين ألا وهو : الفرق بين العصبية وبين الجنس أو العرق . اذ من أسباب الأشكال وعلل الالتباس ان قد استعملت هاتان الكلمتان فى غير مواضعهما بلا تدبر ولا احكام ، بل ربما استعملت الاولى فى موضع الأخرى مع اعتبار العكس ، ففدما معناهما على جانب من الاشتباه والاستبهام عند ما يراد التعبير عنهما فى جارى العادة ومطلق البيان . وفى الحقيقة والواقع ان كل كلمة منهما لتدل على معنى بعينه لا تدل عليه الأخرى . فالعصبية انما هى مزاج معنوى ، وشعور وجدانى نفسانى « پسيكولوجى » ، والجنس انما هو شىء جسمانى كأئن محسوس « فسيولوجى » يحدده العلم تحديداً محكماً ، ويعرفه تعريفاً صحيحاً ، ويفرق بين أنواعه وأجناسه وصفاته ، كما هو الأمر فى شكل الجمجمة وتركيبها ، وتكون الشعر ، ولون العينين والبشرة وغير ذلك . ذلك بعبارة أخرى ، فالجنس انما هو الشعب أو الأمة المقرر الاصل والحقيقة تقريراً علمياً انثروپولوجياً ، والعصبية هى ما يعتقد ذلك الشعب أو الأمة فى شأن حقيقة أصله ومتسلسل تحبره اعتقاداً سياسياً .

وفى هذا الموضع من الاعتبار يبدو لنا تناقض بالغ منتهى الغرابة بلا ريب . فما لا يحتمل الجدل انه عند اعتبار شأن الجنس والعصبية ، فالاول هو ما ينبغى عدّه الاساس المعول عليه والذى يصح الركون اليه ، لانه الأبعد عرقاً واصلاً ، والا شد شأننا وخطورة على كل حال وطور . اذ ليس بمستور بعدد ان ما يكون فى الانسان من الاستعداد النفسانى الفطرى انما هو ما يتحدر اليه بالوراثة من آباءه وأجداده ، وينتقل اليه من متواصل الارحام وتسلسل الانساب ، ولا مذكور أمر للبيئة مهما كانت فواعلها شديدة ، فالانسان هو ابن الوراثة ، ذلك الواقع لامراء فيه ، لا ابن البيئة ولا ابن الوسط الذى ينشأ فيه . غير أن الناس قلما يعتبرون شأن الجنس حق الاعتبار وقلما يقيمون له من الوزن الصحيح بل تراهم على الضد من هذا يقومون ويقعدون للعصبية الجنسية الهائجة منها نفوسهم حتى

أعمقها . والسبب الأكبر في هذا - على ما هو ظاهر - هو ظهور علم الاجناس البشرية حديثاً ، بعد استساراه عهداً طويلاً حتى نحو منتصف القرن التاسع عشر ، العهد الذي منذ تاريخه شرع اقطاب العلم يوقنون بماهية حقيقة الجنس وخطورة شأنه وأصله ومبلغ ماله في الواقع من بالغ التأثير في حال المزاج . زد على هذا أن الحقائق التي يكشف عنها العلم ، ويثبت دعائمها ، يقتضى لها مدة من الزمن ليست بالقليلة لتندرج في مستقر موسوعات علم الكافة ، وتلابس أفق الجمهور والعوام من الناس . وما من سبيل لارتسام هذه الحقائق في اجرياء الافراد وطبائعهم ، مؤثرة في مناهج سلوكهم وتعاملهم ، الا بعد أن ينقضى على تقريرها العلمى ربح طويل من الدهر . واعتبر فوق هذا أن عقيدة العصبية وهى أقدم عهداً وأبعد منشأً وأصلاً ، قد تغلغت في آفاق الانفس من الناس كافة ، وانتششت في أذهانهم ، ودارجت طباعهم ، ولايست حالات أمزجتهم ، حتى غدت مرئية الآثار المحسوسة في جميع ما يأتونه من الاعمال والحركات . فلذلك ما برحت حياتنا السياسية على الجلة اليوم خاضعة خائفة لعوامل العصبية الجنسية لا لحقيقة الدم والجنس ، وأيضاً ما انفكت السياسة العملية الواقعة مسيرة تسييرها المشهود هذا بعوامل العصبية ، أعنى ليس بعامل العلم بحقيقة الأصل . بل بعامل ما يعتقدوه القوم من حقيقة أصلهم اعتقاداً سياسياً لا أكثر .

انما لنا عبرة في الحرب العامة ، الحرب التي عرفت على الغالب « بحرب الأجناس » الأمر الذى كان يزيد حقاً في انبعاث الاقران لقتال الاقران ، وهول المجزرة وانتثار الاشلاء في الممعان الاكبر . ومع هذا كله فان الحرب لم تكن في الحقيقة والواقع مقصورة على شىء من معنى حرب الاجناس فحسب ، بل على شىء أكثر من ذلك . فقد أجمع أئمة البحث ، في علم أصول الاجناس البشرية على أن أوروبة انما يسكنها اليوم ، ما خلا بعض الاقوام المختلفة من العصر الحجري القديم وبعض بقايا المجتاحين الاسيويين في زمن التاريخ ثلاثة عروق : (١) العرق الشمالى الاصهب اللون المستطيل الرأس . (٢) العرق الجنوبي المدور الرأس . (٣) العرق المتوسط المفلطح الرأس أسمر اللون أو حنطيه . غير أنه قد انتشرت هذه العروق وتفرقت ، واختلط بعضها ببعض اختلاطاً رحيماً ، فتوشجت متحدرات الأئسال جيلاً بعد جيل ، بحيث غدت كل أمة من هذه الأمم الأوروبية اليوم مؤلفة

على الأقل من عرقين من هذه العروق الثلاثة ، فضلاً عن أن كثيراً من هذه الامم أيضاً مؤلف من العروق الثلاثة معا ، جامع لها في جيل واحد . فبهذا الاعتبار لم تكن الحرب العامة في أوروبا ، عند احكام القول وتحريه ، حرب أجناس كما قال القائلون بحسب ، بل حرباً أهلية بين عيال وأسر ذات قرى واشجة وصلات رحيمة مشتبكة .

وقد عرف كثير من الاوروبيين أهل العلم الصحيح هذه الحقيقة حق المعرفة وأيقنوا بها واتحلوا عقيدتها قبل سنة ١٩١٤ بعد طويل . بيد أن ذلك لم يكن له شيء من التأثير في تدارك الجائحة الكبرى ودرئها ، أو على الأقل في التخفيف من هولها بعد وقوعها . والسبب في ذلك أن الكثرة الساحقة والسواد الأعظم من أهل أوروبا ما برحوا يعتقدون انهم انما متسللو العروق من أجناس مختلفة وأصول صحيحة الأرومة ، سليمة من الاختلاط . فهذا الجنس يقول بأنه متحدر من أصل « توتوني » ، وذلك من أصل « لاتيني » ، وآخر من أصل « سلافي » ، وآخر من أصل « انغلو سكوني » . والحقيقة أن هذه الأصول المعروفة بهذه الأسماء ليست بكائنة كيانا صحيحا كما يزعم الزعماء الأوروبيون ، لاختلاط أنسابها اختلاطاً ذهب بسلامة العرق وصحة أصله ، وما هذه الفوارق الظاهرة سوى اختلافات تاريخية ناشئة عن اختلاف اللغات والتهديب فقط . ولكن من لنا بمؤمن بهذه الحقيقة إيماناً صحيحاً . فالأوروبي يمكنه أن يدرك هذه الحقيقة المقررة إدراكاً عقلياً نظرياً ، ولكنه ما دام لا يتعدى بذلك حدود هذا الخيز الوهمي التصوري ، الى الخيز الفعلي العملي ، فليس إذناً لادراكه هذه الحقيقة شيء من عامل التأثير المحسوس في نفسه . وهو لذلك ما برح يعتقد من صميم قلبه انه يتحدر من أصل « لاتيني » أو « توتوني » أو « انغلو سكوني » أو « سلافي » ، بحيث انك اذا استفزته بداعي دمه الجنسي ، الدم الجاري في عروقه والمتحدر اليه من اصلاب أجداده الأولين ، وأسلافه الأقدمين ، لم يبد لك سوى الزرية والمهزأة ، وليس هو كذلك اذا استفزته بداعي عقيدة عصبية فانه ليقترح الموت اقتحاماً مستعذباً ورد الردى . وأيضاً فانك اذا استفزته بداعي نصرته بنى أصله الشماليين ذوى الرؤوس المستطيلة ، أو الجنوبيين ذى الرؤوس المفلطحة ، فلا تهيجه من ذلك هيعة ولا ينفر له سيد . ولكن الأمر يكون على الضد من هذا اذا استنصرته للنياد عن حى « التوتونية » أو « السلافية » فانه يهتاج ويشور ويشتمل ويهرق دم

مهجته مستتبلاً . وصفوة القول ، إن الشعوب والأمم اليوم هي عصية لعوامل حقيقة أصلها وما هيته . من حيث هي طبيعة لعوامل ما تعقد من حقيقة ذلك الأصل وماهيته اعتقاداً .

قد يستغرب القارئ، بدهة أن أوروبا اليوم تسودها عقيدة الجنس النظرية ، وتقتادها اقتياد الراعي للسائمة ، من حيث أن لاشأن مقيداً ما كان لعقيدة الأصل وحقيقته المقررة بالعلم الصحيح وللأرومة الجنسية الثابتة بالدم المتحدر من أصلاب الأسلاف الأولين إنما في ذلك أسباب جمة وجبهة فان عقيدة الجنس النظرية لم يقصر أمرها على كونها بحد ذاتها أكبر عامل في تطور أوروبا الحديث فحسب ، بل قد طغى سيلها وطبق تيارها الأعمى حتى جرف في سبيله تلك العقيدة الوليدة التي كشف عنها العلم حديثاً أعنى حقيقة أصول الاجناس، وباد يخنقها خنقاً قاضياً . واعتبر أيضاً أن عقيدة الجنس النظرية قد ظلت حتى عهد قريب عقيدة مستقلة واسعة المضطرب رحبة الحيز ، تدل غالباً على متقارب الوحدة في التهذيب والثقافة واللغة والماضى التاريخي . وقد كان ذلك بجملته نتيجة منطقية ناشئة عن ضيق وقصر في مرمى المدارك الاور وبية وأفهام أهل النظر . ولا بدع فان منشأ هذه العقيدة الجنسية النظرية يمتد الى حقب بعيدة العهد ، حقب الاجيال الوسطى ، حيث كانت الحدود الجغرافية والاقطاعية والاختلافات في اللهجات اللغوية تعتبر من أسباب التمييز بين أمة وأمة ودواعى الفرق بين شعب وشعب . وما برحت هذه العقيدة الجنسية حية نامية حتى منتصف القرن التاسع عشر ، فاذاك تطورت حالها ، واتسع مضطربها ، وامتد أفقها ، حتى طما على القارة الاور وبية لا بل العالم بأسره . فباتت وقد انتقلت من دور الى دور ، أبعد مرمى وأوسع مدى ومجالاً ، يقصد بها تماسك الاقوام التي يجمع بعضها مع بعض أو اصر القربى اللغوية ، وصلات التهذيب والتقاليد التاريخية ، ولو كانت هذه الأقوام على شقة بعيدة ما بين الطرفين ما كانت . فافتضى الامر عندئذ أن يختار تعبير يؤدي المعنى ويدل دلالة كافية على متأب العروق المتحدرة من أصل واحد ، التماسكة بعصية جنسية شاملة ، ف قيل « الجامعة الجرمانية » و « الجامعة السلافية » ، و « الجامعة الانكليزية » و « الجامعة اللاتينية » وغير ذلك من الجامعات الجنسية المتعددة . على أنه من المعلوم المقرر ، كما قدمنا ذلك ، أن هذه الجامعات ليست بجامعات جنسية صحيحة باعتبار أنها ترجع الى أصل صحيح الارومة ، خالص

من الاختلاطات، وبرىء من شوائب الالتحامات النسبية، إذ ما هي في الواقع سوى عصبية قومية عنصرية، متطورة ظاهرة مظهراً عصبياً. ولكن مادامت أمم أوروبا وشعوبها مشتعلة بنار هذه العصبية فاني لها أن تعرف كون هذه الجامعات ليست هي الجامعات الجنسية الخالصة التي لا ريب فيها. فلذلك ترى السياسة العملية قد أصبحت في هذا الدور الجديد للعصبية، مغطاة الظاهر بأغشية جامعات يخالها أربابها أنها مشتملة على عروق سليمة التحدر من الارومة على حين أن هذا ليس الصحيح، ولن تزال هذه السياسة جارية هذا المجرى ما قيص للعصبية البقاء.

وهذا الدور الجديد للعصبية الجنسية (دور تألب عروق الجنس) كان أفقه في بدء التطور شاملاً للبلاد الأوربية المودودة انها المواطن القديمة للحضارة، ثم مالبت أن أخذ أفق هذا المضطرب يمتد ويتسع بانتشار الأفكار والآراء والروح الغربية، حتى غدا بالغاً أقصى الأقطار الأرضية مشرقاً ومغرباً. فلما وصل الى البلقان مثلاً تولدت في هذه الأقطار للحال الدعوات النزاعة العرق الى الاصل، الراقية الى التألب العنصرى والاستمسائك بعصبية الجنس، فنشأت الجامعة الاغريقية أو اليونانية، والجامعة السربية وغيرها. فعدت البلاد البلقانية قاطبة من بعد ذلك مربدة الجواء بقاء السحب لا يسمع فيها سوى قاصفات الرعود ولشد ما انقلبت بعد ذلك معمعاناً رائعاً ومثاراً هائلاً.

ونحو منتهى القرن التاسع عشر جازت العصبية الجنسية حدود أوروبا وبلغت الاقطار الاسيوية، وانتشرت فيها انتشاراً سريعاً، فنشأت حركة «تركية الفتاة» و«مصر الفتاة» وحركات وطنية أخرى في أقطار متباعدة الأقاليم الجغرافية كالجزائر ويران والهند وجميع هذه النهضات الوطنية العنيفة انما كانت أدلة صادقة بينة على أن آسية قد اختمرت شديد الاختيار بعوامل التنبه القومى والعصبية الجنسية. وما كاد يطلع القرن العشرون حتى أيدت صادقات الأدلة وواقعات الحال أن العصبية الجنسية في آسية كما في البلقان من قبل ذلك، قد اجتازت مخاضها ودخلت في دورها الثانى أعنى دور عصبية التثام العروق وتألبها الجنسى، فنشأت جامعات جنسية عديدة «كالجامعة الطورانية» و«الجامعة العربية» وأخرى غاية في الخطورة هي «جامعة العصبية الجنسية الاسلامية» التي ترى الى وحدة المعمور الاسلامى من أقصاه الى أقصاه، وانضوائه تحت لواء اسلامى عام.

— ١ —

ونشرع الآن في الكلام على كيفية نشوء العصبية الجنسية وقيام النهضات القومية في الشرقين الأذني والأوسط ، متبعين ماقد اجتازته هذه العصبية من مختلف الحالات والأدوار ، وجاعلين البيان في هذا الفصل الذي أماننا متناولاً شأن كل عصبية في رفاق العالم الاسلامي رقعة رقعة ، ماعدا الهند ، إذ أننا قد أفردنا للعصبية الهندية فصلاً مستقلاً بذاته . والسبب في هذا الافراد هو أن رجال العصبية في الهند غالبهم من غير المسلمين ، أضف الى هذا أن النهضة الوطنية في تلك البلاد لمشملة على عناصر وفواعل وصفات لم تشتمل على مثلها عصبية في قطر آخر من الأقطار الاسلامية .

كان العالم الاسلامي - قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصراني الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر - هاجعاً هجعتة التي قد تقدم الكلام عليها ، بعيداً من التنبؤ القومي وثورة العصبية الجنسية وكان غالبه منقسماً الى امارات متناثرة ولكن قوية المراس شديدة الشكيمة . وان ما كان في نفوس قطينه وساكنه من العاطفة الوطنية انما كان متجهاً نحو السلالات الحاكمة على نحو الحالة التي كان عليها سلاطين الترك العثمانيين . غير انه كانت مظاهر العزة القومية ، ومبادئ الشم والاباء جلية في غالب العناصر كالأمة العربية ، «أمة الرسالة» اذ في العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان في الظهور وقوة في الانفعال والنمو ، ولكنها كانت متفرقة وغير منتظمة تنظيماً كافلاً لانتلاف المزاج الذي تغدو به العصبية عاملة فعالة . أما الشعب الاسلامي الفذ الذي كان حقاً يتمشى في عروقه ماينبغي لنا تسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة فهو الشعب الفارسي حبيب بلاده وعاشق موطنه القديم . وأماسائر الشعوب الاسلامية فقد كانت على شيء من مبادئ الشعور الوطني واليقظة الجنسية ، والروح النزاعة الى الوحدة والتضامن ، وكانت هذه الروح مستعدة بأسبابها للارتقاء والاتساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة .

على ان في الأمر اعتباراً آخر . ان الاسلام قد نهى في مواضع عديدة عن العصبية فلما انتهت الشعوب الاسلامية الى هذا العصر عصر العصبية الجنسية ، بات الفرض الذي يفرضه الاسلام على المؤمنين أن يكونوا إخوة متضامنين متساوين لافرق بين عربيهم وعجميهم ، وأضحت الغاية السياسية المقصودة في الاسلام من وحدة « الامامة » الكبرى ،

أو الشورى الشرعية العامة ، أمراً مقاوماً بطبيعة الدور والزمن بسبب انشاء القوميات المستقلة والعصبيات المتمايزة في الملة الاسلامية ، كما كانت الحال في مبدأ عصر النهضة في أوروبا إذ كانت النهضات القومية في مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداماً عنيفاً بالعقائد الدينية الشائعة ، والآراء الدائرة حول وحدة البابوية و « المملكة الرومانية المقدسة » .

لهذا ليس من الغرابة في شيء أن نرى المنازعات القومية والمطامح الوطنية في الشعوب الاسلامية تنشأ في أول عهدها نشوءاً يعرّوه الابهام والالتباس خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . فلم تنجل عقيدة العصبية الجنسية الا في خلال النصف الآخر من القرن اذ ظهرت المنازعات الجنسية الرامية الى التضامن القائم على الاعتبارات العنصرية في تعاليم جمال الدين الافغانى^(١) وظهرت أيضاً روح العصبية الجنسية في المصلحين الترك في منتصف القرن الماضي لتشرّبهم المبادئ الغربية واقتباسهم الآراء والافكار الأوروبية في الجنسية ، مما كان السبب في ظهور العصبية الجنسية فيهم قبل ظهورها في سواهم من الشعوب الاسلامية وقد استطاع أولئك المصلحون من رجالات الترك ، بمعاناتهم الصعاب وتقانيهم في سبيل خدمة سلالتهم وعنصرهم ، وبظهورهم مظهر المدلين المعجبين بصفة اعتبارهم العنصر الذي في يده زمام الحكم والسلطة على غيره من العناصر الخاضعة له من نصارى ومسلمين ، أن يلقوا نجاحاً كبيراً في نشر دعوتهم وفلاحاً عظيماً في القيام بنهضتهم .

وقد بدأت النهضة التركية كما بدأ غيرها من نوعها في أوروبا ، وذلك على الجبهة باحياء الذكريات القومية التاريخية ، والكشف عن اسفار العز والمجد ، وبتجديد اللغة على مقتضى حاجة العصر . فقد ظل الترك العثمانيون حتى نصف القرن الذي خلا يكادون لا يعرفون شيئاً من ماضيهم وتاريخهم ، وأصلهم ومنسبهم بل كانوا اذا تذكروا المجد العسكري الذي شيده أجدادهم ، وتلوا صحف تاريخ ملكهم الضخم الذي قد زال معظمه ، فعلموا ذلك على غير مانثوة تصيب مزاج أرواحهم ، وتهيج منهم نفوسهم ، وكانوا بمعزل عن تصفح تاريخ بلادهم و صحف آبائهم وأجدادهم ، اذ كانت تلاوة الكتب الدينية والسيرة النبوية والأحاديث عن مجمل ماضي الاسلام ، أمراً يلذهم أكثر من تلاوة أبناء انتشار الفتوح العثمانية في القارات الثلاث . فلما انبرى رواد الإصلاح من أرباب النهضة يوقظون

(١) وهو من حيث اعتبار فلسفته صلة الوصل بين الجامعة الاسلامية والعصبية الجنسية الاسلامية

أبناء قومهم ، ويرددون على مسامعهم أبناء مجدهم التاريخي وذكريات عزهم الخالي ، استيقظت الأمة التركية بأسرها وأخذت تنتشي رائحة العزة القومية ، وتنظر الى أفق المستقبل بعين طماحة .

وقد كان شأن اللغة التركية منحطاً كشأن الأمة . فلما قام رجال الهمة يتغون النهضة ابتغاءً صحيحاً ، وجدوا اللغة على شطرين : الأول التركية الرسمية وهي خليط مضطرب جامع بين خشن الألفاظ التركية الأصلية ، وبين مأنوس التعبيرات المأخوذة من اللغتين العربية والفارسية ، فكانت هذه اللغة الرسمية المبرقعة رطيني غير مفهومة عند العامة من الأمة . والآخر هو التركية القديمة المحدودة المادة ، المنقسمة الى عدة لهجات تستهجنها الطبقة المتهدبة الراقية وتتجافها لحوشية ألفاظها وخشونة تعابيرها . فلما شرع رجال النهضة في العمل ، بدلوا هذا تبديلاً ، واذ آثروا السهولة وتوخوا قرب التأدية في اللسان التركي أخذ العلماء الترك الغير من رجال النهضة الذين حصلوا علم اللغات في أوروبا ، يضعون لساناً تركياً جديداً ، مهذباً مأنوساً ، نهجوا في وضعه نهجاً غربياً . فلم ينقض على شروعاتهم في هذا العمل ما يقرب من ثلاثة عقود من السنين حتى استطاعوا أن أخرجوا للناس لغة تركية ، مشتملة على السلاسة وسهولة المتناول ، فأقبل أرباب الأقلام من الكتاب والشعراء على ارتياد نجعتها وورود شرعتها ، فشاعت في حقبة قليلة شيوعاً كبيراً عاماً في المجتمع التركي على اختلاف طبقاته ، وغدت أداةً يتنافس في اقتنائها ، وحلية طرف يتجمل بها^(١) من المعلوم المقرر أن معظم السبب في النهضة التركية المفضية الى ظهور العصبية الجنسية القائمة على التثام العروق العنصرية ، انما كان جور أوروبا على تركيا جوراً سياسياً شديداً . لذا كان الترك كلما ازدادت الحملات الأوروبية على الأقطار العثمانية تقطع منها ما استطاعت ، ازداد الترك حبا لوطنهم وتفاانياً في سبيله ، وزياداً عنه وحرصاً على مستقبله ، كما بما ذلك الاعتداء كان للترك مستحسناً يسوقهم في سبيل الاستماتة لصيانة استقلالهم المهدد . وقد كان من غاية الترك في عصبيتهم الجنسية تريك جميع العناصر التي

(١) من أراد زيادة الوقوف على تطور النهضة الوطنية التركية يجد مراده في كتاب « تركيا منذ أربعين سنة حتى اليوم » وكتاب « التهذيب الغربي في الأقطار الشرقية » لمستشرق الكبير ارمينوس فباري : " La Turaquie D'aujourd'hui et D'avant Quarant ans.,. " Western Culture in Eastern Lands.,

تتألف منها الرعية العثمانية على اختلاف النحلة والدين والعرق ، بحيث يكون من ذلك كله مجموع ممتزج بعضه ببعض هو الأمة التركية صبغة ولسانا وتفانيا في الوطنية التركية فاصطدمت اذ ذاك غاية العصبية التركية اصطداما كبيراً بالعصبيات الجنسية النصرانية المنافسة لها (وهذه أسبق ظهوراً) في المملكة ، وبالعصبية الجنسية العربية التي كانت قد شرعت تظهر ظهوراً بينا لامراء فيه في هذا العهد. أضف الى ذلك أن السلطان عبدالجيد كان مقاوماً شديداً للعصبية الجنسية التركية ، بل ماقتا بطبيعته وغريرته مقتنا كبيراً لكل عصبية جنسية اية كانت ماهيتها ، لانه كان يخشى من وراء ذلك خسرانا لسلطانه المستبد المطلق ، أو على الاقل قسراً له ليكون فيه مقيداً ، وكان يرى أن من شأن هذه العصبيات أن تحول بينه وبين الوصول الى غايته الكبرى وهي الجامعة الاسلامية التي ولى وجهه شطرها ، واتخذها له قبلة ولسياسته أساسا يقوم عليه ذلك البناء الذي جهد في تشييده . جميع ذلك حمله على أن يكون مرتابا شديداً في رجال النهضة التركية ، على معالنتهم اياه بالاخلاص وصدق الولاء فنفى واضطهد جميع الذين نادوا بالمنازع الحرة وطلبوا الشورى والديموقراطية .

على أن ثورة سنة ١٩٠٨ قد دكت اركان الاستبداد الجيدى دكاً ، فانطلقت العصبية الجنسية التركية من عقاها وانشأت تشنيداً وتستقوى ، وبات جميع رجال « تركية الفتاة » ، على اختلافهم في شؤون أخرى ، يدعون الى هذه العصبية وهم في سبيلها مغامرون مستبسلون . غير أن تلك الاستماتة الكبرى التي قام بها الترك لتأييد عصبيتهم كانت السبب الأكبر في حلول ما حل بساحتهم من البلايا التالية وحاق بهم من الفواجع اللاحقة . فقد اندفع رجال « تركية الفتاة » اندفاعاً كانوا فيه بعداء من التروى والحكمة يسوقهم سائق التعصب الجنسي الأعمى ، ومحاولين تترك المملكة قاطبة في فترة من الزمن يسيرة . فهاج هذا الأمر الهائل ابناء العصبيات الأخرى هياجاً كبيراً جعلهم على التنكر لثورة سنة ١٩٠٨ ، وبه سنحت للدول البلقانية النصرانية الفرصة فاهتبلتها فاخذت تكرر على تركية المتضعفة كرات عنيفة ما برحت تتوالى حتى سنة ١٩١٢

وحقيقة الواقع أن العصبية الجنسية التركية انما كانت تنتشر في أفق غير أفقها ، وتبني أن تمور في مضطرب غير مضطربها ، فكان بينها وبين سائر العصبيات مصطدم

هائل ، فاشتعلت نار العدا بين العنصر التركي من جانب والعناصر النصرانية والاسلامية غير التركية من جانب آخر . وفي هذا العهد كانت العصبية التركية قد بلغت من التطور دورها الثاني ، دور العصبية الرامية الى تألب العروق المنشعبة من أرومة واحدة ، فبعد أن كان مضطربها لا يتجاوز حدوده نطاق المملكة ، وغايتها تترك سائر العناصر غير التركية في المملكة خسب ، باتت ترمى الى غاية أرحب مجالاً وغرض أبعد مدى ، وتنزع الى فروع الجنس وعروق الارومة ، فنشأت على أثر ذلك « الجامعة التركية » ثم وليتها « الجامعة الطورانية » وستكلم على شأن هاتين الجامعتين في غير موضع من هذا الفصل ، أما الآن فاننا نسوق الكلام على مناشئ العصبيات الجنسية في الاقطار الأخرى من العالم الاسلامي ، ونتتبع معتبرين كيفية اجتياز هذه العصبيات للدور الأول .

بعيد أن أنشأت تبشير اليقظة القومية والعصبية الجنسية تنبدي في الترك ، أنشأت أيضا تبشير مثل تلك تنبدي في العرب ، فيقظوا يقظة كان شأنها شأن كل يقظة مثلها يتبعها شعب محكوم ، أعنى كان غالبها بطبيعة الحال انتقاصاً على الترك وقياماً في وجههم . وقد عرفنا فيما تقدم من الكلام أن تلك البلاد العربية الصحراوية (نجد) لم تبرح محتفظة استقلالها وحررتها ، وان سائر الأقطار العربية من سورية والعراق والحجاز كانت على خضوعها للحكم التركي ، متجهمة في وجه الترك ، نافرة غضبي ، موغرة الصدر عليهم ، لأن أهلها العرب وهم من « أمة الرسالة » ، قد بات من شق الأنفس عندهم ان يظلوا خاضعين لنير التركي الغريب ، وهو في عينهم مثال الفظاظة . وقد انقضى ألف سنة منذ أخذ الترك يدخلون في العرب ويمدون عليهم سلطانهم ، وعلى هذا كله فقد ظل العنصران على عدا ونفور لتضاد المزاجين تضاداً بعيداً لا يستطيع معه تألف الطباع ولا التقارب ومحض الود . وقد وصف الكاتب الفرنسي « فيكتور برار (١) » مبلغ ما هما عليه العربي والتركي من اختلاف المزاج والسجية بقوله : « هكذا ترى شقة البون بعيدة بين اللغتين كما بين العنصرين ، كالبون بين ابن رومية وابن الجزائر المغربية . فالتركي من أدرته أو اطنة يظل بعيداً أقصى البعد شمالاً ويظل العربي في سائر الاقطار وعلى مختلف الحالات بعيداً أقصى البعد جنوباً ، فهما ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يأتلفان . فابن العربي الدمث الخلق

الدين العريكة ، الرجب المدارك ، المتفنن في شأنه ، النزاع الى الديموقراطية ، المعرق في احتفاظ حرته الفردية الى حد الفوضى ؛ من التركي البطي* المشاغل ، الميل الى رقابة النظام ، عاشق الروح العسكرية . لذلك ظل التركي الحاكم المتسلط يحتقر على الدوام العربي ويزدرية لما هو عليه هذا من حب الفن والابتكار والرشاقة ويكره فيه اباؤه لرقابة النظام ، من حيث ظل العربي يرى التركي هجماً جلفاً ، ويحسب هدوءه واطمئنانه بلاذة وجهلاً وخولا ، واحترامه القانون ذلاً ، وانغماسه في الرضاء للمادى فجوراً ، ووحشية . وما انفك العربي يزرى على التركي وينعى عليه فقدانه الميل للفن والابتداع ، ولا سيما بعد أن أخذ ما أخذ عن الصينيين والفرس والعرب واليونان فظل على كل هذا كما كان أحق جاهلاً غيباً» (١)

أضف الى هذا ان العرب باتوا يحسبون الترك متنكبين عن النهج السوي في ملة الاسلام ، ولذلك لاجرم ان كان شأن العرب على الدوام شأن المتأهب للانتفاض ، المتحفز للخروج على الحاكم الغريب . وقد أسلفنا الكلام في غير موضع كيف نشأت الحركة الوهابية وما كانت تقصده وتبتغيه من تقويض الحكم التركي وتحرير الأماكن المقدسة . ومع ان الوهابيين قد سقطوا دون أمنيتهم فقد ظلت صدور العرب موعرة يريدون الانتفاض والثورة . نحو سنة ١٨٢٠ كتب السائح بر كهرت الالماني في شأن بلاد العرب كلمة ماثورة . « متى أخذ الحكم التركي يولى وينحل ويتضعف في الحجاز يهب العرب آخذين بالنار (٢) » . وبعد ذلك الحين بما يقرب من عشرين سنة قال شريف مكة لسائح فرنسي : « ما أشقها علينا من حال ان نسكره اكرهاها ، ونحن فروع الشجرة النبوية المباركة ، على حناية رؤوسنا لهؤلاء « الباشوات » الأذنياء الذين قد كان غالبهم من قبل عبداناً نصارى ، فما استطاعوا بلوغ كراسي الحكم وتقلد أزمّة الأعمال الا بأطح الذرائع وأشين الوسائل (٣) » . وكانت تركية طيلة القرن التاسع عشر كلما خاضت حرباً في أوربة وخرجت

(١) في كلام فيكتور يرار هذا مبالغة شديدة زيناها له حب الانقسام بين هاتين الأمتين ، ومن أحب شيئاً تجسم له في خياله ، فلا العرب ينظرون الى الترك ولا الترك ينظرون الى العرب بكل هذا المقت وكل هذا الاحتقار ، وان كان هناك تباين بين الفريقين في خلائق كثيرة (ش)
 (٢) يرار - كتابه المذكور . (٣) يرار - كتابه المذكور .

منها مقهورة مفتوتاً في عضدها ، عقب ذلك ثورة ينفجر بركانها ، أو انتفاض تشب ناره في قطر من الأقطار العربية .

ودامت الحال هكذا حتى منتصف القرن التاسع عشر ، من توالى الثورات غير المنتظمة التي لم تعد نطاق الانتفاضات والاختلافات في موضع موضع ، حلت عليها النعرة الدينية أو عوامل الوراثة والأقليم ، أو شعور نائر ولكن سببه غير عام ، اذ لم يكن هناك من خطة جلية مقرررة عقد عليها الرأي ، ووضعت لتنظيم العمل في سبيل غاية قومية ومطمح جنسى . الا انه في خلال العقود الستة بعد منتصف القرن الخالى طفتت الروح الجنسية والشعور القومي يظهران ويشتدان في العرب . وقد كانت سورية منشأ هذه الروح وذلك الشعور . فلم يكن هذا الأمر غريباً بل متوقفاً ، لأن سورية هي القطر العربي الخاضع لتركية عهدئذ ، والأكثر من سائر الأقطار العربية تعرضاً لتأني الروح الغربية والمؤثرات الأوربية . بيد ان هذه الحركة الأولى التي قام بها العرب في سبيل جنسيتهم وعصيتهم لم تأت بالثمرة الطيبة ولا أدركت بها الغاية لأن الذين قاموا بها انما كانوا عصابة قليلة العدد ، والعزم والحزم ، فاستطاعت الحكومة التركية إيجاد الحركة والقضاء عليها دون كبير مشقة . فلما نشبت الحرب الروسية التركية عاد العرب ينفخون في الضرم . فظلت الأقطار العربية تقوم وتقعده ويستطار منها الشرر عدة سنوات . فأنبرى رجال النهضة وأهل العصبية يرفعون عقيرتهم وينادون بتحطيم النير التركي وانشاء مملكة عربية متحدة الأقطار اتحاداً قائماً على استقلال كل قطر في داخله (كونفدراسيون) تشمل جميع الأقطار العربية وعلى رأسها زعيم ديني كبير غلب أن يكون شريف مكة . وأمر هذه الحركة كان ظاهراً ، اذ كان من شأنها أن تسلك مسلكاً بين العصبية الجنسية بمعناها الغربي وبين المنزع التقليدي الذي لم يبرح العرب ينزعون اليه منذ القديم غاية الرجوع الى الشورى الشرعية التي كانت عليها حكومة الخلفاء الراشدين ، وظهرت ثانية في الحكومة الوهابية في نجد .

وقد كانت هذه الحركة العربية الثانية في سبيل النهضة والعصبية مثل سابقتها نشوءاً ونمواً ، اذ كان السلطان المستوى على العرش العثماني عهدئذ هو داهي الدهاة عبد الحميد الذي اقتضت سياسته في سبيل الجامعة الاسلامية أن يستميل العرب ويوطئ لهم أكنافه ويحسن اليهم صنفاً ، وقد أفلح بذلك حقاً ، فعدت رجالات العرب تفد على القسطنطينية

لاقية من دار الخلافة كل رحب وسعة ، ومنزلة منزل الاجلال والاكرام ، وطفق عبد الحميد يغدق كثيراً من نعمه وآلائه على أمراء العرب وأشرفهم ، وزعمائهم وسراتهم ، ويجهد كل المستطاع لزيادة إرضاء الأمة العربية وطمئنة بالها وتطبيب نفسها ، وفي الوقت هذا كانت المسالك الحديدية التي تقي بأغراض عسكرية عند الحاجة تنشأ في سورية والحجاز ، فسهل ذلك على الحكومة التركية أن ترسخ قدمها وتعز موقفها وشأنها في الأقطار العربية اعزازاً ما عرفت مثله قط من قبل من حيث كان للعرب في أمر إنشاء المسالك الحديدية خير وبركة (١) ، فزادت أسباب التواصل بين الأقطار العربية بعضها مع بعض ، فتوفرت وسائل الثورة وكثرت عدتها . زد على هذا ان عبد الحميد عند قيامه بالدعوة في سبيل الجامعة الاسلامية وضع نصب عينيه إيقاظ الشعور الاسلامي لانشاء وحدة اسلامية بين العرب والترك كما يستطيع بذلك مقاومة الغرب النصراني . وحقاً جاء جهد عبد الحميد هذا الجهد الكبير بثمرة طيبة فكانت كل حملة من حملات الاعتداء الغربي على الشرق الأدنى عبرة كبيرة وعظة بالغة للترك والعرب تحملانهم على أن ينسوا أو على الأقل يتناسوا الأمر الذي يتنازعون فيه ، وينصرفون عنه للوقوف جنباً الى جنب ، وجعاً الى جمع ، ازاء العدو الخارجي المشترك

على انه قد ظل جانب كبير من العرب أهل غضب ونفور ، على ما استطاعه عبد الحميد من التوفيق والاستمالة والارضاء . فعند أواخر القرن التاسع عشر عادت الحركة العربية فظهرت مظهراً جديداً دل على شدة سخط العرب وشنائهم للترك ، فسارعت الحكومة التركية للحال في اضطهاد رجال الحركة الوطنية وأهل العصبية من العرب شر اضطهاد ، وأكثرهم من السوريين فنفتهم وأبعدتهم لتأمن من شرهم ، فاستقر حال بعضهم في مصر (وهي في الحكم البريطاني) وبعضهم الآخر في غربي أوروبا ثم شرعوا جميعهم ينظمون القيام بدعوة ثورية . فأنشأوا « الجمعية الوطنية العربية » في باريس سنة ١٨٩٥ وكان ذلك مبدأ رسمياً لعملهم الذي اعتمروا على إنجازه . فانقضى عقد من السنين ودعوتهم تنتشر انتشاراً غامضاً ملتبساً ولكن مؤثراً تأثيراً ظاهراً ، ففي سنة ١٩٠٥ شبت نار الفتنة المسلحة في

(١) كانت السكة الحديدية الحجازية من خير ما أنشئ لفائدة العرب لاسيما أهل سورية ، وكانوا يقدرون ماتستفيده دمشق وحدها من هذه السكة بمائة وخمسين ألف جنيه سنوياً (ش)

القطرين العربيين الحجاز واليمن ، الفتنة التي لم يحمد أجيحها كل الخلود مع جميع ماقد تكبدته الحكومة التركية من بالغ العناء والمشقة لتسكين نائرها وقمعها ، بل ظلت الثورة مضطربة النار اضطراراً متقطعاً سنة بعد أخرى ، فقدمت تركية خسارات المال والنفوس مما كان له كبير شأن وتأثير في ضعف تركية المالى واستنزاف قوتها عند ما نزلت بها نازلة طرابلس الغرب والبلقان سنة ١٩١١ - ١٩١٢ .

ورن صدى الثورة العربية المشبوبة النار سنة ١٩٠٥ رنيناً هائلاً في الأندية السياسية الخارجية . فانتبه العالم إذ ذاك لشأن « القضية العربية » وعند ذلك افترض رجال العرب المنفيون القائمون بالحركة الوطنية الفرصة فأخذوا يجهدون ما استطاعوا في تقوية دعوتهم ببشها ونشرها في جميع الممالك العربية . ومنذ ذلك الحين بدأت القضية العربية تكتسب شيئاً خطيراً في عالم السياسة ، إذ وقفت دول أوروبا وبه حق الوقوف على يقظة « الأمة العربية الفتاة » وأدركت جلياً آمال العرب والمظالم اللاحقة بهم . وكان من خير الوسائل لاسماع الدول العربية صوت العرب وابقافهم على حقيقة أمرهم وصفة حالهم ، كتاب قيم موسوم « بيقظة الأمة العربية » أخرجه للناس أحد قادة الحركة الوطنية (١) ، فكان له كبير وقع وتأثير في المقامات السياسية العربية . ونشرت « الجمعية الوطنية العربية » في باريس سنة ١٩٠٦ منشوراً موجهاً الى الدول العظمى بينت فيه الجمعية تبيناً غايات العرب وأغراضهم التي يبتغونها ، وقد جاء فيه : -

« ان انقلاباً سامياً هائلاً حدث عما قريب في تركية . والعرب الذين لم ينفك الترك آخذين في إرهابهم وتفريق حزمتهم تفريقاً دينياً ليتسنى لهؤلاء حكمهم ، قد استيقظوا وجعلوا يشعرون باتتلاف بعض عناصرهم مع بعض ائتلافاً وطنياً وقومياً وتاريخياً ، وهم يرغبون الآن في الانسلاخ عن الأرومة العثمانية النخرة لينشئوا لهم دولةً مستقلةً ، وهذه هي الأمبراطورية العربية التي تكون تامة بمحدودها الطبيعية من وادي دجلة والفرات الى قناة السويس ، ومن بحر الروم حتى بحر عمان ، ويرأسها سلطان عربي ذو حكومة دستورية حرة . واما ولاية الحجاز الحالية ، وفيها المدينة المنورة فيتألف منها مملكة

(١) وضعه بالفرنسية نجيب غازوري وطبع في باريس ١٩٠٥

مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكاً وخليفة جميع المسلمين ، وبهذا تحل العقدة الكبرى في الاسلام وهي التفريق بين السلطين المدنية والدينية » .

وفي المنشور كلام موجه الى العرب هذا بعضه : « بنى وطننا الأعزاء : كل منا يرى بأمر عينيه عظم ما صار يلقاه العربي الشريف الكريم من المذلة والزرارية اليوم حتى غدا اسمه موضوع المهزأة عند الأجانب ولا سيما الترك . وكل منا شاهد لما قد وصلنا اليه من البؤس والجهل ، في عهد ظلم هؤلاء البرابرة الذين طموا على بلادنا من آسية الوسطى . فبلادنا ، وهي جنة الله في أرضه ، قد أصبحت اليوم خاوية على عروشها . فلما كنا أمة حرة فتحنا العالم بأقل من عشرة عقود من السنين ونشرنا في أمم الأرض مختلف العلوم والفنون والآداب ، وظللنا عدة قرون حجة الحضارة ومهدى سبل العمران . ولكن منذ أنشبت مخالب اطرغل فينا واغتصبت الخلافة منا غدونا نقيم على القهر والذل ، فخرت بلادنا واقفرت أرضنا وتضعفت حالنا تضعفياً مارأى مثله شعب آخر في الأرض » (١)

غير ان البلاد العربية لم تنل إذ ذاك استقلالها ، فظلت الثورة لاتعدو نطاقاً معلوماً ، وظلت تركية قابضة على أزمه الحكم في غالب الأقطار العربية . ولكن وقوع الاضطراب والاختلال كان يتوالى على غير ما انتقطاع . وفي أواخر عهد عبد الجيد كانت الأقطار العربية قد أصبحت على حال من القلق شديدة يتنازع قواها عاملان : عامل الفتنة والثورة في سبيل النهضة القومية والجنسية العربية ، وعامل الجامعة الاسلامية المقتضية جمع كلمة المسلمين لمقاومة الاعتداء الأوروبي .

فما كانت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تغيرت الحال تغيراً كسب القضية صورة جديدة ، فتهللت الأقطار العربية كسائر أقطار المملكة العثمانية فرحاً وحبوراً بانهياب صرح الاستبداد وتقوضه حتى الاساس . ونظر العرب الى المستقبل بعين الرجاء الكبير ابتغاء تحقيق الأمانى وصدق الآمال . وكان نواب العرب وممثلوهم في « البرلمان » العثماني ليسوا بالقوم القليل العدد ، فطلبوا أن يمنحوا قسماً معلوماً من الاستقلال الداخلي « اللامركزي » ، فرفض رجال تركية الفتاة مطلب نواب العرب رفضاً باتاً دون أن يجيبوهم الى شيء منه ،

(١) يمكن الاطلاع على كامل هذا المنشور في كتاب : E. Jung

“ Les Puissances devant la Revolte Arabe :

La Crise mondiale de Demain ,, (Paris 1906)

ذلك لشدة ما كانوا مواطنين أنفسهم عليه من القيام بتريك العناصر في جميع المملكة . فكانت نتيجة الأمر ان أدرك العرب وأيقنوا بحق آمالهم واستحالة نيل مبتغاهم ، فاشتد السخط اشتداداً بالغاً في الأقطار العربية ، وعاد الاضطراب يقع ويشند ، رامياً الى الانفصال على ان هناك أمراً حرياً بالاعتبار التام وهو ان جميع الحركات والمساعي التي طفق العرب يجهدون في القيام بها في سبيل الاستقلال بعد سنة ١٩٠٨ غدت متمشيةً على خطة أوسع مجالاً ونطاقاً ، وأبعد أفقاً ومرمىً ، وأصبح الآن رجال النهضة القومية والعصبة العربية في أقطارهم الخاضعة لتركية على صلة وثيقة تصل بينهم وبين أمثالهم من رجال النهضة القومية في مصر وأفريقية الشمالية الخاضعة لفرنسة ، تلك الأقطار العربية التي أقل ما يقال فيها ان بعض ساكنيها هم عرب دماً وعرقاً وأصلاً. لذلك بعد ان كان ذكر العصبة العربية همسة تفرغ في الأذن أو سراً يتناجى ، صار صوتاً عالياً وصرخة جوابة الآفاق رناته الأصداء ، كيف لا وقد اشتملت خطة العرب على مطعم كبير وهو امبراطورية « الجامعة العربية » مؤلفة من جميع أقطار العالم العربي شاملة شمال أفريقية وجنوب آسية ، وممتدةً من الاوقيانوس الاثنتيكي حتى الاوقيانوس الهندي . وهنا شرعت العصبة الجنسية العربية كالعصبة الجنسية التركية ، تحتاز دورها الثاني دور العصبة النزاعة الى تألب العروق الجنسية المتحدة الأرومة .

وقبل أن تتوسع في الكلام على الجامعة العربية توسعا عاما يجدر بنا أن نبسط كلمة نبين فيها الجرى الذي جرت به العصبة الجنسية في المملكة العثمانية وذلك أنه في الحين الذي أثار فيه الأعتداء الغربي سنة ١٩١٠ - ١٩١٢ العاطفة الدينية ، للجامعة الاسلامية ، كان الشعور القومي العربي يهتاج احتياجاً شديداً متوالياً دون انقطاع بسبب ما أنشأت تركية الفتاة تقوم به من مختلف الذرائع والوسائل لتترك العناصر ، فنار نائر الاستقلال في العرب ولكن كان رائعا هائلا ، تمثلت فيه عصبيتهم الجنسية أكبر تمثيل . ففي سنة ١٩١٣ عقد مؤتمر عربي في باريس وضع أعضاؤه خطة وشرعوا في القيام على مقتضاها بدعوة ثورية واسعة النطاق . فلما نشبت الحرب العامة في السنة التي تلت كانت الأقطار العربية الخاضعة للحكم التركي تقوم وتقعده مضطربة أشد الاضطراب ، فأربد الجوبقاتهم

السحب المنذرة بزلزال الثورة^(١). نخشيت الحكومة العثمانية شبوب النار فاحتاطت للامر احتياطاً تاماً وأعدت له عدته الكاملة ، فسجنت من سجنت وشنقت من شنقت من زعماء العرب وكبرائهم وأحرارهم القائمين بالنهضة القومية العربية ، الذين استطاعت القبض عليهم . فعلت ذلك بينما كانت تنفخ في نفير الجهاد مستنفرة المسلمين للذب عن بيضة الاسلام ، ذلك الاستنفار الذي حل جانباً من الرأي العام العربي على الجنوح الى الترك ، ولا سيما لما كان فتح مصر يحسب متناولاً قريباً وممكناً من الممكنات . بيد أنه لما طبقت الحرب وأخذت في الاستمرار كالحلة الجبين مكشرةً عن الأنياب ، عادت عوامل العصبية الجنسية تنور قاذفة حم السخط والغضب . ففي سنة ١٩١٦ قدح شريف مكة زناد الثورة العربية ، فكانت ثورةً منذرةً بانهيار الحكم التركي فقوضة له تقويضاً ، وقد كانت بريطانية العظمى ظهيرة للثورة العربية هذه تمدها امداداً كبيراً عن سعة وسخاء ، فسارعت الاقوام العربية العديدة في نصرة الثورة وتأريث نازها قوة وعملاً . ولما كانت العرب قد هاجتهم وعود الحلفاء ايما هياج : وعود تقرير المصير ، والاستقلال الداخلي ، والاستقلال التام ، وهي غاية في الاغراء والتغريير ما بعدها غاية ، انبعثوا يقاتلون الترك قتال الاستماتة والاستبسال فكانوا العامل الأكبر في تبديد الجيش العثماني وتلاشيهِ في خريف سنة ١٩١٨ (٢)

(١) بيان واف في مساعي العرب وجهودهم لنيل الاستقلال متضمن في مقال تمتع نشره الكاتب الثقة في الشؤون الاسلامية « X » موسوماً « بالسياسة الجارية في العالم العربي » في « مجلة العالم الاسلامي » الفرنسية . كانون الاول سنة ١٩١٣

Les Courants politiques dans les monde Arabe, "Revue du Monde musulman" ,

واقراً كتاب . ج . و . بوري

Arabia Infelix, or the Turks in Yemen .

لندن ١٩١٥

(٢) للاطلاع الوافي على أعمال العرب خلال الحرب العامة اقرأ : —

« الاستقلال العربي والثورة الواقعة » للكاتب جنغ في « المجلة » الفرنسية آب ١٩١٦

" la Revue " , " L ' Indere rendance Arabe et la Revolte actuelle " , E . Jung ,

« العرب ضد الترك » للكاتب ليفين « مجلة المجلات الأميركية » . كانون الأول ١٩١٦

I . D . Levine , " Arabes versus Turks " American Reviw of Reviews , ,

كتاب أ . موزيل ١٩١٨ (ليزيك)

A , Musil , " Zur Zeitgeschichte von Arabien

وقبل أن نشرع في تتبع الحوادث المهمة التي حدثت في الأقطار العربية المنفصلة عن تركية منذ سنة ١٩١٨ ، نؤثر أن نسوق الكلام على النهضات القومية والحركات الوطنية في أقطار العالم العربي الغربي ، أقطار شمالي افريقية ، بادئين في الكلام على القطر الأخطر شأننا الا وهو مصر .

ان السواد الأعظم في الشعب المصري لهذا العهد كما في عهد الفراعنة ، متحدرو السلالة من المصريين القدماء ، من الارومة النيلية (نسبة الى النيل) القديم . واذ كان هذا السواد من «فلاحة» المصريين على خلق البطء والقناعة ، فقد خضعوا لعديد الفاتحين الغرباء الذين ملكوا مصر على التوالي في أدوار مختلفة . وكاد يكون خضوع المصريين هذا الخضوع أشبه بسلسلة متصلة الحلقات ، الا ما كان يتخلل ذلك في بعض الفترات من ثورة ينفجر بركانها أوفتنة تشب نارها ، ولكن عجلان ما تعود العاصفة فتهدأ والنار فتخمد ، ثم بتبدئ حلقة من الخضوع جديدة . وهناك فوق سواد المصريين المتحدرين من الأرومة « النيلية » طبقة قليلة العدد أرفع منزلة وشأناً ، أكثرها متحدر من ذراري أواخر الفاتحين الآسيويين ، العرب والكرد والجركس والألبانيين والترك . زد على هذا أن هناك بجانب هذه الطبقة العلية التي ظلت حتى الاحتلال البريطاني صاحبة الحكم والسلطان ، والأمر والنهي ، ومحتجزة جميع السلطة السياسية ، عددا « من المستعمرات » الأجنبية المتمتعة « بحقوق الاستثناء » ، وأيضاً عنصراً نصرانياً قديماً الارومة هم الاقباط الذين لم يدينوا بالاسلام عند طمو الفتح العربي ، وعددهم اليوم يبلغ العشر من مجموع قطين مصر .

فبلاد مثل مصر ، مختلط لمختلف الاجناس والاصول والعقائد و صنوف الثقافة

كتاب « الجامعة الاسلامية » لبوري لندن ١٩١٩ ، ، Pan - Islam ،

« الحالة السياسية والدينية في بلاد العرب » ميلر يا مجلة « العالم الاسلامي » الانكليزية تموز (يوليو) ١٩١٩

S . Mylrea ، “ The Politico — Religious situation in Arabia ، ، “ The Moslem World ، ،

« لورانس : روح الثورة العربية » ل . ثوماس مجلة « آسيا » نيسان وايار وحزيران ١٩٢٠

L. Thomas ، “ Lawrance : The Soul of the Arabian Revolution ، ، “asia”

والتهديب ، كررت عليها أزمان متطاولة وهي حانية عنقها للغريب حتى لا بستها تقاليد الخضوع ورمت الانقياد ، قد تبدو باديء الرأي كأنها ليست بالبلاد الصالحة البيئة والمضطرب لنشوء العصبية الجنسية . على أننا اذا اعتبرنا شأن مصر ومن وجه آخر ، رأيناها البلاد التي ما برحت أكثر أقطار الشرق الأدنى تعرضاً لتيار المؤثرات الغربية ولواقح الحضارة الأوروبية . وقد كان للفتح النابليوني عند ختام القرن الثامن عشر تأثير شديد في وادي النيل . ولما نهض محمد علي ، البطل الالباني المقدم ، وسود نفسه على مصر بعد زوال الحكم الفرنسي ، أيقن من ذاته بأن أوروبا فائقة غيرها في عالم العمران بمحقق المنهج وحسن الأسلوب ، فشرع يأخذ عنها ويقتبس منها ، وينتهج طرقها انتهاجا وان كان عرضيا فقد كانت نتيجة انبثاق الأفكار الغربية وذيوع الآراء والمؤثرات الأوروبية ، وقد سار خلفاء محمد علي على أثره وسننه من بعده في هذه السياسة ، غير أن الخديوي اسماعيل المبذر المنفاق الذي كان اشتطاطه في عقد القروض المالية مع الدول الأوروبية السبب الأكبر في التدخل الأوروبي ، كان نخوراً كبيراً ومختالاً عظيماً متظاهراً بالروح الأوروبية التي لا تجاوز العرض والقشور ، ومغالياً في ذلك كل المغالاة ، فأكثر من حوله من الأوروبيين حتى بات عددهم كثيراً .

وظهرت الحركة الأولى التي تبنت فيها باديات العصبية الجنسية المصرية ، ظهوراً صورته احتاج ونقمة على اغراق الخديوي اسماعيل في تشرب « الأوروبية » اغراقاً مشؤوماً يضر البلاد ويرهقها ويفقرها ، وأيضاً على كثاره من البطانة المضياعة للمال . فبات عقلاء المصريين وحكامؤهم في هذه الحال على اختشاء مزداد لنهج اسماعيل ذلك النهج الوخيم العاقبة ، القائم على رهن استقلال مصر الذي بات معرضاً للمحق والزوال ، بسبب ما عقده الخديوي من القروض المالية الأوروبية الكبرى المستنزفة لدم البلاد بالضرائب الفادحة الباهظة الاعباء . واذ كان أولئك القوم الصادقون قد تشربوا على وعي أم غير وعي منهم العقائد الأوروبية « كالجنسية » و « الوطنية » ، فقد أزمعوا أن يقفوا اسماعيل عند حد في نهجه الجاراً لمصر كبير البلاء ، وأن يجعلوا مستقبل مصر في مأمن من طوارق الحدثان ، وفوق ذلك فانهم لم يقصروا سعيهم وجهدهم على مقاومة أولئك الارهاط من الأوروبيين أهل الابتزاز والاتضاع على طرق فيها حنق ودهاء ، أولئك الذين كان دأبهم استغواء

الخديوى والتزيين له فى تبديد المال واستدراجه من مغرق مالى الى آخر، بل أراد القوم أيضا مقاومة « الباشوات » المتملقين من ترك وجر كس ، والمرابين من الارمن والسوريين الذين كانوا جميعا آلة اسما عيل ومواليه ومصطنعيه . هذا هو مبدأ الحركة الوطنية والنهضة القومية فى مصر ، احتجاج « وطنى » عنيف وصرخة شعبية شديدة على جميع الذين كانوا يجرّون بالبلاد الى شر المهالك ، سواء أ كانوا من الاجانب أم من أبناء البلاد ، وفى مطلع هذه الحركة ظهر شعار مصر ينادى به القوم الحاضون الوطنيون ، الشعار الذى لم يسمع فى مصر من قبل ، الا وهو : « مصر للمصريين ! » .

وفى ابان مثار هذه الحركة الوطنية الوليدة ، التى طفقت فواعلها تقوى وتشدت ، ظهر جال الدين بسلطانه النفسانى الهائل وروحه الاجتماعية الكبرى يوقظ مصر ويستثيرها بتعاليمه ، حتى غدت نفوس القوم مترعة بنشوة الانفعال : على أن جال الدين ، هذا الرجل القطب الفرد ، لم يتجل من سلطانه ويبد من بالغ تأثيره وعظم منزلته ما تجلّى وبدا منه فى مصر . وليس من المغالاة أن نقول انه هو حقا أبو جميع ما فى مصر اليوم من نهضة وطنية ويقظة جنسية . فهو قد استطاع حق الاستطاعة أن يحكم بسلطانه ويستولى بشدة عارضته ليس على كبراء المحرضين الوطنيين مثل عرابى باشا فحسب ، بل أيضا على المصلحين المحافظين مثل الشيخ محمد عبده المصلح الكبير الذى أدرك وهن مصر وضعف أمرها فانشأ يعمل ويجد ثبت الجنان رابط الجأش فى سبيل الاصلاح ، متوخيا وسائل الترقية وذرائع التنشئة على سنن التدرج للوصول الى الغاية المطلوبة وادراك الغرض المنشود .

وفى هذه الآونة ظهر رسل الدعوة الثورية يؤدون واجبه الذى أخذوا نفوسهم به فى سنة ١٨٨٢ انفجر بركان الثورة يرأس القائمين بها عرابى باشا ، وهو ضابط من ضباط الجيش ومن عامة الشعب ، فكان هو أول رجل متحدر من أهل مصر القدماء ، من الأرومة « النيلية »^(١) نهض ليسود مقدرات مصر فى هذه العصور الحديثة ، وما أسرع ما لى نداءه أهل الثورة الهائجون ، وهم يصرخون « مصر للمصريين » يحاولون طرد « الاجانب » من أوروبيين وأسيويين ، من مصر بلاد الفراعنة . لكن حبطوا فى مسعاهم وسقطوا قبل الوصول الى الغاية المتبتغة ، وحدثت مذبححة الأوروبيين فى ثغر

(١) سمعت عن عرابى أنه عربى صميم وانه ينسب الى النبعة الفاطمية (ش)

الاسكندرية فكانت للحال داعياً للتدخل الأوروبي . ففرل جيش بريطاني الى البلاد وقاتل النوار فبدد قوتهم في واقعة « التل الكبير » ، و بعد هذه الواقعة التي جرت بين أهل مصر وجيش الاحتلال ، خصعت مصر المشتتة الاحوال الفارغة الخزانة من المال للحكم البريطاني الحكم الذي تمثل كل التمثل بأعمالين بارنغ أعنى اللورد كرومر . وأقيمت السلالة الخديوية على أريكة العرش ، من حيث روعي شكل الحكومة الوطنية ، لكن جميع السلطة النافذة الحقيقية قد استقر نصابها في « المستشار المالي » البريطاني ، الناطق بلسان الامبراطورية للبريطانية في مصر والقائم بالغاية الاستعمارية .

وحكم اللورد كرومر مصر خمساً وعشرين سنة . وتاريخ هذا الحاكم المقتر الحازم يكسبه ابدأ مقاماً رفيعاً في مستوى أعظم رجال الادارة والتدير وولاية الأحكام في العالم فانه قد استطاع حقاً أن ينفذ مصر بساكنة القويتين من مازق الافلاس ويرقي شأنها الى ذروة النجح والفلاح . غير ان الرضاء الحادي ، ولو بلغ في مصر مهماً بلغ ، ما كان ليطن فيها بخنوة القومية واعتلاج روح العصبية الجنسية . فإذ كانت بدور النهضة قد بدرت في بلاد الفراغت تجبيل الاحتلال البريطاني ، فقد أخذت هذه البنور تنمو نمواً بطيئاً ولكن نمواً ماضياً مفضياً مستمراً في تربة وادي النيل المرعة الخصبة ، وطقق الشعور القومي في المصريين ، وقد كان عهد واقعة « التل الكبير » وليدأ ، يزداد نمواً ويستدقوة واستقراراً وإغلافي النفوس على توالي الأيام ، حتى بات عند نهاية العقد الأخير من القرن التاسع عشر أترأ محسوساً بيناً جلياً ، يوقن به أهمل النظر وأرباب الادراك من المستطلعين الأورويين ولما عاج المستكشف الافريقي « شويتفرت »^(١) على مصر سنة ١٨٤٥ ، براعه حقاً ماشاهده من مبلغ للتطور النفساني الذي حدث في وادي النيل خلال المدة المنقضية منذ زيارته الأولى فحما قال : « ان التنبه القومي واليقظة الجنسية يتجوان في مصر نمواً بطيئاً ولكن مستمراً . ان المصريين وان كانوا مابرحوا على بعد من العصبية الجنسية الصحيحة فان طلائع ذلك قد بدت ولا تلبث أن تتكامل » .

وفي مطلع القرن العشرين أخذت الواقعات تحقق ماكان قد سبق لأهل النظر الصادق وأولى الألباب الناقبة فانبأوا به ، فتطورت الحال تطوراً جثياً كبيراً وانقلبت

مصر بؤرة تغلى فيها مراحل العصبية الجنسية ، وقد كان في القامئين بهذه الحركة القومية التي بعثت بعثاً جديداً ، حزب معتدل مؤلف من المحافظين مثل الشيخ محمد عبده مصلح جامعة الأزهر والصدیق الصفي للورد كرومر^(١) ، المصلح الذي جاهد حق الجهاد في سبيل تعليم أبناء بلاده وأمه ان أقرب الوسائل وأوفى الذرائع لبلوغ غاية الحرية الصحيحة التي تشدها الأمة المصرية انما أمرها لا يتم الا بتنوير الأذهان وتنقيف الأبواب ، وتربية النفوس التربية الصحيحة ، والترقية العلمية . أما الحركة المصرية الجديدة فقد كانت على الجملة احتجاجاً شديداً عنيفاً على استمرار الحكم البريطاني في مصر وطلباً لجوجاً لا منصرف عنه لنيل الاستقلال العاجل . ولعل الأمر الأخرى بالاعتبار والأجدر بالتدبر في جميع القضية ، ان المصريين قاطبة كانوا ، وقد تغلغت في نفوسهم نشوة العصبية ، على اختلاف أحزابهم من محافظين وغلاة ، متفقين اتفاقاً تاماً على أن لا يعتبروا مصر قطراً تابعا للإمبراطورية تبعاً دائماً ، وقد كان لرجال النهضة والحركة أساس قانوني ، مشروع صحيح ، يبنون عليه حججهم وبراهينهم في وقوفهم في وجه بريطانيا ، وذلك في الواقع أن الحكم البريطاني انما قام على أسس سياسية واهية متعضضة غير ثابتة باعتبار أن بريطانيا قد انبرت تتدخل في شؤون مصر من تلقاء نفسها ، جاعلة ذاتها كأنها « منتدبة » لرعاية المصالح المالية الأوروبية . فكان عملها هذا موضوع خلاف بعيد الشقة ، وسبب تشادٍ شديد في أوروبا ولا سيما بين بريطانيا وفرنسة . فلما أيقنت الأولى باشتداد الأمر وتفاقم الخطب عمدت الى تسكين ثائر الحال فأعلنت مراراً وتكراراً أن احتلالها مصر انما كان على صفة موقته لا صبغة دائمة له . والواقع ان سخط المصريين السخط البالغ الحد ، قد كانت فرنسة من الهاججين لثورته والموقدين لناره وذلك على عمد منها . وما انفك هذا شأنها حتى عقدت عروة الود والمصافاة بينها وبين بريطانيا سنة ١٩٠٤ ، مع هذا كان العطف الذي تعطفه فرنسة على الآمال المصرية عاملاً كبيراً في ترقى النهضة الوطنية في مصر ، فعظمت مكانة فرنسة في وادي النيل ، من الجهة الأدبية التهذيبية ، حتى بات نسيج التعليم الفرنسي في أعين المصريين أجمعين أصلاً ، وجميع ماعداه من أنساق التعليم الأوروبي نسخاً عنه

(١) الذي ظهر فيما بعد من خاطرات كرومر أن المرحوم الأستاذ كان يصانع للورد مصانعة لينال منه بعض المساعدات لوطنه . والذي يعرفه هذا العاجز من نفس الأستاذ أن قلبه كان يلهب تحرقاً على حالة

ومحاكاة له . فجعلت الناشئة المصرية تأخذ العلوم عن أساتيد فرنسيين ، سواء أفي مصر أم في فرنسا ، ولما كان هؤلاء الاساتيد على الغالب من أهل المقت لبريطانية ، كانوا لا يفترون عن اهتبال كل سائحة لبنر بذور الشنأة للانكليز في نفوس الطلبة المصريين وحلمهم على أن يقوموا بالمناعة والمناهضة للمحتلين .

وقد كان رجال النهضة وأهل العصبية من الغلاة يرأسهم فتي من فتيان وادي النيل هو مصطفى كامل . كان هذا الفتى الفرد مقيم مصر ومقعدها ، زعيم المحرضين والهاججين دون منازع ، لودعيا حديد الفؤاد ، شديد العارضة ، متوقد الجنان وطنية ، خطيباً مصقعا ساحر البيان ناري الكلام ، يقتاد سامعيه وقرءاه متى شاء وأنى شاء والى ماشاء . وفوق ذلك كان ناشراً مقدماً من الطراز الأول لدعوة العصبية الجنسية ، لا يني له عزم ولا يقل له حزم ، وكان يقوم بتحرير طائفة من الصحف والمجلات معاً حتى اذا ما عطلت له السلطة البريطانية واحدة منها اعتاض عنها في الحال بسواها بحيث لا يقف سعيه ولا ينقطع جهاده وعلى الجلة فانه كان لا نظير له في العصبية الجنسية المصرية ، ويمكن الاطلاع على شيء من روحه في ذلك بالوقوف على بعض ما كتبه ، فما دجه يراعه أوائل سنة ١٨٩٦ ، متخذاً شعاره « المصريون لمصر ومصر للمصريين » ما يلي :-

« ان الحضارة المصرية لن يستوى لها ساق في المستقبل ولن يشيد لها بناء الا اذا قامت على سواعد أهل مصر واشترك فيها كل مصري وعلم الفلاح والتاجر والأستاذ والطالب ان الانسان ذو حقوق معنوية مقدسة ، وانه ما خلق ليكون آلة مسخرة في يد غيره بل ليحيا حياة عقلية انسانية راقية ، وان حب الوطن لأسمى عاطفة تشرف بها النفس وتعز وتفتخر ، وان أمة غير مستقلة هي والعدم سيات ! انما بالوطنية ارتقت الأمم من بركات الانحطاط الى ذروة العلى وسارت سريعة الخطى في سبيل الحضارة والمجد والقوة والسلطان . انما بالوطنية يتكون الدم الجارى في عروق كل أمة حية . انما بالوطنية يحيا كل مخلوق عاقل » وما كان احتقار الانكليز في مثل هذه المقالات قليلاً . والى القارىء كلمة من إحدى فوائج « اللواء » : « نحن المعتصب حقهم والانكليز هم المعتصبون . نحن نطلب حقاً مقدساً والانكليز هم أعداء هذا الحق . لهذا اتنا على ثقة بالفوز عاجلاً أم آجلاً ، ومتى كان امرؤ ذا حق فلا بد أن يناله ، وليس بينه وبين ادراكه الا شطر من الزمن » .

على ان مصطفى كامل كان في رحابة صدره وبعد مطمحه وآماله ، طلاعاً الى الجواهر لاتخاذ بلبه الاعراض ، دراكاً للحقائق لايسع نظره الأوهام ، فأيقن وهو الرجل الحكيم بان ليس من المستطاع ولا سبياً في ذلك الحين إكراه الانكليز على الجلوة عن وادي النيل ، لهذا هولم يحاول معالنتهم بالعداء أو مصارحتهم بالمناهضة الأمر الذي علم من ورائه جر البلوى الى نفسه وأبناء أمته . وانتقل الى جوار ربه في أوائل سنة ١٩٠٨ غصاً رطيباً في الرابعة والثلاثين من عمره ، فوقع رداؤه من بعده على مریده الزعيم محمد فريد بك . أما هذا الرجل فلم يكن نداءً مصطفى طرازاً ، فحاول أن يغني عما كان يعوزه من بلاغة الخطابة وسحر الكلام ، بشدة التنديد ومرارة الطعن ^(١) ، ويمكن ادراك الفرق والتفاوت بين نسيج الزعيمين بالتنظير بين الفواتح التي حبرها كل منهما في صحيفة « اللواء » فقد جاء في مقال بقلم محمد فريد بك نشر في ايلول سنة ١٩٠٩ مايلي :-

« بماذا نذكرك أيها اليوم ، وفيك تدنست هذه الأرض بأقدام الانكليز ، وتلوت بحجرائهم ، وتلطخت بفضائهم ، ففضوا على دستورنا ، وكوا أفواهنا ، وعقدوا ألسنتنا ، وحرقوا الأحياء منا ، وشتتوا الأبرياء من أهلنا ، وجاءوا شيئاً ادماً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدماً » ^(٢)

ففي هذا الدور الذي بات فيه العنف أشد وأعظم ، ازدادت الأسباب المشجعة لرجال النهضة الوطنية وتضاعفت جرائمهم واشتد اقدمهم ، وذلك لعدة أسباب : منها ان اللورد كرومر زايل كرسيه سنة ١٩٠٧ خلفه من بعده السر « ألدون غورست » . وإذ كان هذا الحاكم الجديد من حزب الأحرار الانكليز الذين كانوا عهدئذ أصحاب الحول والطول والسلطة القائمة في الدولة البريطانية ، أخذ في التمشي على قواعد مذهبه الانكليزي الحر متوخياً دائماً تسكين هائج مصر وتهدة نأثرها بالرفق والاستمالة والتوفيق ، لايتمثل ما كان يتمشى

(١) كان المرحوم محمد فريد من يشار اليهم بالبنان بين زعماء النهضة القومية ، وكانت فيه مناقب عديدة تستحق له حرمة كل من عرفه . (ش)

(٢) هذا مقتبس من مقال نشر في « اللواء » الصادر في ١١ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٩ تحت عنوان (ذكرى اليوم العصيب . الحداد أيتها الأمة !) بتوقيع « امين الراضى المحامى » ، وخلاصة المقال دعوة الأمة المصرية للحداد احتجاجاً على الاحتلال الانكليزي الذي كان مضى عليه سبعة وعشرون عاماً . (المغرب)

عليه اللور كرومر من الانوقراطية غير المتحيزة ، ومنها ان ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ قد كسبت المصريين صولة هائلة وحددة شديدة ، فازداد صراخهم وبلغت أصواتهم عنان السماء ، يريدون حكومة دستورية شوروية نياية . ومنها ان اعزاز ميثاق الود والولاء بين فرنسا وبريطانية كان قد محق أمل المصريين محققاً ، ذلك الأمل الذي كثيراً ما عللوا أنفسهم بتحقيقه وهو ان تكره بريطانيا إكراهاً بقوة السلاح على الجلوة عن وادي النيل قياماً بتحقيق عهدها السياسية . وفي هذا الموضوع أدرك المصريون حقيقة الحال والواقع فازدادوا اعتماداً على نفوسهم ، وانقلبوا يضاعفون جهودهم واثقين أن لاناصر لهم سوى أنفسهم ولا حاك لجلدهم غير ظفرهم .

ولما بلغت الحال هذا المبلغ من اشتداد روح القومية والعصية الجنسية بات من المتوقع حيوط سياسة التوفيق ، والاختفاق في نهج الاستمالة ، لأن السر ألدون غورست ، وان كان ذا اقتدار على التأليف والاستمالة في فرعي الأمور وجزئي الشؤون ، فلم يكن يستطيع أمراً واحداً هو غاية الغايات عند رجال النهضة ومرادهم فوق كل مراد ومبتغاهم فوق كل مبتغى ، وذلك أن يقطع للمصريين وعداً باعطائهم الاستقلال ومنحهم الحكومة النياية الدستورية . قد رفضت بريطانيا هذا الأمر برمته بل أبت طرحه على بساط البحث والمناقشة ، وغدا الانكليز قاطبة مقتنعين اقتناعاً راسخاً ان مصر مع قناة السويس انما هما الصلة الحيوية بين قسمي الأبراطورية البريطانية في الشرق والغرب ، وان بقاء الحكم البريطاني من حيث هذا الاعتبار قد غدا ضرباً من ضروب الضرورة الكلية التي لامنتدح عنها في أي وجه من الوجوه ، فنشأ عن ذلك عقبة سياسية تورطت عندها الأمور ، بين سياسة حب التوسع الأبراطوري البريطاني وبين مطلب المصريين الشديد ، لهذا أخفقت سياسة أحرار الانكليز التي قد يرجى نيل الائتلاف على يدها ، بل عدت عقماً مابعده من عقم ، وقد اعترف السر ألدون غورست نفسه بهذا في بياناته الرسمية ان الادعان في القضية المصرية من جانب بريطانيا انما بات دليل العجز وبرهان الضعف .

ثم باتت الحكومة البريطانية من بعدهم تتوقع نزول النازلة وسوء العقبي على أثر ما استحال عليها من حوص الشق ، ورأب الصدع ، فاقننت أن لاذريعة لها لدفع الخطر الداهم ودرء الخطب للقبل الا بانخاذ وسائل الاحتياط الشديد لقمع كل حركة تبدو في وادي

النيل، فاستبدلت سنة ١٩١١ بالسر ألدون غورست اللورد كتنشر - اللورد الذي جاء نذيراً صارخاً في ملأ رجال النهضة الوطنية في مصر ان الفتنة ان غلى مرجلها قمعها تلك اليد الحديدية واستأصلت شاتها ، اليد التي سحقت الخليفة وجوعه من الدراويش عند « أم درمان » سحقا . ووصل كتنشر الى مصر معلناً مينااً انه انما جاء لاقرار الأمن والظام في نصابهما حتى يستتب الأمر وتصفو الحال ، وحقاً فان اللورد كتنشر قد أنجز القيام بهذا بدقة واحكام وبلغ المصريين تبليغاً صريحاً ان بريطانية لاتنوى الجلوة عن وادي النيل ولا تعد أهل مصر أهلاً للحكومة الشورية والنيابية حاضراً ولا في مستقبل معلوم الميقات . وأنذر المصريين إنذاراً ان الأجدد بهم أن ينصرفوا عن مزاوله السياسة التي ما كانوا فيها على مزعم الانكليز أبناء بجدتها ، الى الزراعة وهي الفن الذي يجيدونه على مهارة . وأما الدعوة الى الفتنة والثورة فقد استطاع اللورد كتنشر بما خولته القوانين الجديدة التي سنت في تلك الغضون أن يتناولها بالقضاء عليها متناولاً قريباً . زد على ذلك ان الحكومة البريطانية عطلت جميع الصحف الوطنية المجاهدة في سبيل النهضة والاستقلال وشتت شمل زعماء النهضة وقادة الحركة بزج فريق منهم في غيابات السجون ، واعتقال بعضهم ، ونفى البعض الآخر . وفي الواقع فان الحكومة البريطانية قد جهت جهداً كبيراً لتصرف الانتباه في الخارج عن أمر مصر ، وأخذت في تمويه شؤون وادي النيل على العالم ، وقد انبرت الصحف البريطانية تظاهر الحكومة في هذا الأمر بمظاهرة الاخلاص وتمائلها على تلك المزاعم بمالأة النصير المعين ، فامتد رواق السكينة في مصر واستتب الحال استتباباً ما كان مثله منذ عقود من السنين .

على أن ذلك كان أشبه بسكون العاصفة لاتلبث أن تتناوح أرياحها في الجو المربد ، فعدت مراحل الاضطراب في مصر تغلى مادون أغطيتها غلياناً شديداً ، حمل أرباب التدبر والاستطلاع على الاختشاء البالغ والتشاؤم الشديد . قال سدن لو الكاتب الانكليزي الذائع الصيت سنة ١٩١٣ بعد استقصائه حال مصر مدقق الاستقصاء ما يأتي : « ليس لنا لعمري شيء من مقام الاكرام والاعتبار عند الأمة المصرية ، التي بعضها يخشوننا خشية وبعض يحترمونا احتراماً ، وبعض وهم أقل من القليل يحبوتنا حباً ^(١) »

وأكثر من هذا صراحة وبيانا مقال موسوم بـ «الظلام الخيم فوق مصر» نشر قبيل انفجار بركان الحرب العامة، في إحدى مجلات العلوم الكبرى^(١) التي يدبج فصولها ومقالاتها العلماء الاختصاصيون النحارير في شؤون الشرق، فكان لهذا المقال كبير وقع وبعيد دوى، وما جاء فيه قول الكاتب الضليع صاحب المقال: «ان هذا الامساك الطويل، والانقطاع المديد في عالم الصحف البريطانية عن كل بحث في جميع مايتعلق بالشؤون الداخلية في مصر، ليس دليلا على حسن الحال وصحتها بل على سقمها واعتلالها، بل هذا السكون الظاهر البادى ماهو الا السخط مضغوطاً عليه أشد الضغط لئلا ينفجر، انما هو عدم الثقة بالحكومة البريطانية المحتلة، ووغر الصدور عليها. وقد كان من شأن الوقائع الحديثة انها شددت الاعتقاد والايقان في نفوس المصريين ان الحكومة البريطانية انما تعد العدة كلها لاستلحاق مصر بالامبراطورية استلحاقاً تاماً باقياً. وليس من شأننا في هذا المقام ان نتساءل في مبلغ ماهى عليه هذه الأمور المنسوبة الى الحكومة البريطانية من الصحة والوقوع. انما الحقيقة الجوهرية المشهورة ان حكومة الاحتلال لما تفاح في اكتساب الرضى والقبول من لدن المصريين، بل ما برحت على الضد من ذلك ولم تفك هي مظنة السوء وشاهد العداء بينها وبين أبناء النيل» ويحمل هذا المقال القيم البين على الارتباب الشديد فيما اذا كانت التدبيرات الجائرة التي اتخذها اللورد كيتشنر قد أتت بنتيجة ماسوى ان قد سببت استفحال السخط وغيلان مراحله غلياناً هائلاً تحت اسداد لاتبث أن تتخرق. ويوضح هذا المقال أيضاً «ماقد بلغت الروح الوطنية والعصبية من الشدة الكبرى في مصر اليوم، وذلك على ما هو متخذ من ضروب المحاولة والتذرع للقضاء على جميع الحرية السياسية قضاء تاماً. وكان من شأن كم أفواه الصحف الوطنية هذا الكم الخائق ما قد توقعه ارباب النظر الصادق وهو انه قد حمل سواد المسامين على الانقلاب الى حال هياج داخلي واضطراب هائل، بل أوصل الاقباط المخلصين للدولة البريطانية الى المجافة فالمغاضبة ووغر الصدور. قد يمكن أن تكون الحكومة البريطانية عاجزة عن أن تتذرع بذرائع هي أفضل وأجد مما تذرعت به لاكتساب ثقة الأمة المصرية وحسن نيتها، فلهذا هي في مثل هذه الحال ترى أن القضاء العاجل على كل حركة تبدو دليلاً على السخط والمغاضبة

من أفضل الوسائل وأوفاهها للزيادة عن حوض الاحتلال ، ولكن اذا كان هذا هو الواقع بعينه فأما هو اعتراف صريح بمنتهى ما وصلت اليه الحكومة من التلاشي والوهن ، بل بتضعف الحكم البريطاني بين أيدينا وتداعي أركانه تداعياً مآله الانهيار » وختام المقال انذار أن القضية المصرية مزداة تورطاً واعضالا ، ذلك : « أن قضية مصر وان كانت تختلف عن غيرها اختلافاً بعيداً في رأى البريطانى ، فان مسلمى الهند مرتقبون مجاريها ارتقاباً شديداً دائماً اذ هم يقومون لها ويقعدون ، وكذلك شأن جميع رعايانا من المسلمين في المغربين الأفريقيين الأقصى والأوسط ، وهؤلاء هم من أشد مسلمى الدنيا عاطفة دينية وبعضاً للاعتداء الأوروبي وملء صدورهم ونفوسهم الارتياح من جراء الأعمال السياسية التي تقوم بها الدول النصرانية الجادة في سبيل الفتح والاستعمار . »

الى هذه الحال كانت قد انتهت النهضة المصرية سنة ١٩١٤ فلما فتقت الحرب العامة كان ذلك سببا في تعاضم الاضطراب واشتداد الهياج ، فغدا موقف بريطانية في مصر وائم الحق صعبا ، ومع أن بريطانية قد تقلدت في الواقع ازمة الحكم تقلداً تاما ، وتشددت في ولاية سلطانها تشدداً بالغا ، فان مصر كانت ما برحت باعتبارها — من حيث الصفة القانونية — تابعة للمملكة العثمانية ، وكانت بريطانية انما تعتبر فيها دولة محتملة احتلالاً مؤقتاً . وقد بدا من الحال بعد نشوب الحرب أن تركية ماثلة الى مخالفة أعداء بريطانية لتخوض والدول التوتونية المعمران الهائل جنباً الى جنب ، ووضح أيضا اذ ذلك أن المصريين الاشداء العطف على تركية ، حتى ان الخديوى عباس حلمي ما كان قط ليبطن شيئا من ميوله ونزعه الى الترك . وخلال عدة الشهور الأولى من الحرب العامة ، بينما كانت تركية لم تبرح محايدة في الظاهر ، غدت الصحف المصرية ، على شدة الرقابة البريطانية ، تنفث سم الفتنة نقشا في تضاعيف سطورها ، وبات موقف الشعب المصرى ذلك الموقف المترزع المضطرب ، وأضحى انتشار السجس الشديد والقلق في كتائب الجنود المصرية ، دليلا صريحا على قرب هبوب العاصفة وانفجار البركان ، نخشيت بريطانية أمر مصر الخشية الكبرى ، فأما دخلت تركية في المعمران في شهر تشرين الثانى سنة ١٩١٤ ، لم يكن أعجل من بريطانية في خطوتها الأخيرة في مصر فخلعت عباس حلمي ونادت بعمه حسين كامل سلطاناً وأعلنت أن مصر باتت بلاداً محمية تابعة للأمبراطورية البريطانية .

فكان ذلك كالسهم أصاب بعض المقتل ، فاشتعل غضب رجال النهضة إما اشتعال . أما الفتنة المنظمة فكانت غير مستطاعة لأن البلاد كان قد غمرها طوفان الجيوش البريطانية والاستعمارية التي تدفقت على وادى النيل من كل جانب ، وعلى جميع هذا فقد اشتد الهرج والمرج ونشبت اضطرابات عديدة غير منتظمة لم يستطع قمعها الا باعلان الحكم العسكرى (العرفى) الجائر الشديد وقد وصف مستقص فرنسى هذه الايام العصبية فى مصر وصفا محكما فقال . « ان الجهاد ليهيج روح التعصب على النصارى هياجاً كبيراً ، ذلك التعصب النائر فى نفس كل مسلم اليوم ، وقد بات المستطلع منذ شهر تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٩١٤ يستطيع أن يقرأ تلك السيم التي أخذت تنبئى فى وجوه الطبقة العامة من أهل البلاد المسلمين ، سيم الأمل فى ذبح النصارى ، اذ غدا أهل هذه الطبقة ينظرون شزراً الى الأوروبى العابر فى أسواق القاهرة ، وبعضهم قد هللوا تهليلاً وفرحوا فرحاً عظيماً عندما بلغهم أن سلطان تركية قد أعلن الجهاد واستنفر المسلمين للقتال فى سبيله منضوين تحت راية الخليفة . ومع أن السلطة البريطانية كانت تشدد عقاب الجلد الموجه بكل من جئ به الى مقر من مقار الشرط مشكواً انه قد أذاع أنباء فى شأن الجهاد ، فقد ظلت الحال على أشد ما يكون من الاضطراب . ولم يقصر أمر الهياج بسبب الجهاد على العامة فحسب بل تعداهم الى الأزهر . وقد أخبرت أن الأوروبى الزائر لهذه الجامعة الاسلامية الكبرى بات عند ووجه أبوابها لا يسمع سوى اطياب المدائح وغرر النشائد الفخرية فى شأن العرب والمسلمين والجهاد (١) »

وانبرى رجال النهضة الوطنية الذين فى الخارج ينشرون ما لا يستطيع أخوانهم نشره فى مصر ، ويجهرون بما لا سبيل الى الجهر بمثله فى وادى النيل فأصدر محمد فريد بك زعيم الحزب الوطنى وكان فى جنيف احتجاجاً رسمياً على « التغييرات السياسية غير القانونية ولا الشرعية التي أعلنتها بريطانيا فى شأن مصر فى ١٨ كانون الأول سنة ١٩١٤ » جاء فيه : « انه يجب على بريطانيا الزاعمة انها انما تحارب المانية دفاعاً عن بلجيكا الاتدوس حقوق مصر بدميها والا تعدصكوك المعاهدات فى شأن مصر قصاصات من الورق لاشأن لها (٢) »

(١) « مصر فى أوائل الحماية » — مجلة العلوم السياسية « ١٥ حزيران ١٩١٥

(٢) محمد فريد بك — مقاله « مصر والحرب » « المجلة السياسية الدولية ايار ١٩١٥

وأخذ هؤلاء القادة الذين خارج مصر يعقدون الصلات الوثقى بينهم وبين ألمانىة كما يستبان ذلك من مقال نشره عبد الملك حزة أمين الحزب الوطنى فى مجلة ألمانىة ذات شأن جاء فىه ما يلى : « لىس من مصرى الا وىتوسل الى الله عز وجل أن ىدل ألمانىة من أعدائها وىكسر برىطانىة شر كسرة وىقوض أركان امبراطورىتها تقوىضاً . انى لما كنت لم أزل فى مصر فى أوائل الحرب قد وقفت على هذا الشعور الذى لىكنه المصرىون فى صدورهم وقوفاً تاماً وشاهدت الحال عن كشب مشاهدة صحىحة . فان أهل البلاد طراً سواء أنى المدن أم فى القرى ، من أرفع الخاصة حتى أدنى العامة لىثقون الثقة كلها بصدقة القىصر وولائه للإسلام ولىلفة المسلمىن ، وىتضرعون الى المولى الكرىم أن ىمد ألمانىة من لدنه بظفر شامل ونصر مبین (١) »

نعود الآن للكلام على النهضات القومية والعصبية الجنسية فى سائر الأقطار الافرىقية الشمالية التى لا نرى قطراً منها قد ظهرت فىه روح العصبية ظهوراً بىناً وبرزت فىه المنازاع القومية بروزاً متميزاً كما هى الحال فى مصر . على أن البغضاء والشناة للاوربىين لشىداتان كل الشدة حدث عنها ولا حرج ، من حىث ان الحركات الوطنىة المشهودة الیوم فى المغربىن الأقصى والأدنى انما هى على الغالب ضروب من الشعور العام المنتشر انتشاراً كبرىاً بوجوب التضامن القومى الشامل واللىتام الجنسى العام المعروفىن « بالجامعة العربىة » و « الجامعة الاسلامىة » اللتىن نسوق الكلام علیهما الآن .

على أن حقیقة السبب فى كون الشعور القومى فى الأقطار الافرىقية الشمالية أقل منه فى غیرها هو أن لىس هناك من بلاد ما عدا مصر كان شعبها فىما مضى أمة تامة الوحدة . وفوق ذلك فلىس هناك الیوم من الظواهر الجلىة ما ىدل على أن أحد هذه الشعوب العدیدة سائر فى سبىل ىصیر بها « أمة صحىحة » ، إذ أن معظم سواد الشعوب القاطنة سلسلة البلدان بىن البحر المتوسط وصحراء افرىقىة انما هم من البربر القدماء الأصل والأرومة فهم باعتبار الجنس الى الأوروبىین أقرب منهم الى الاسیویین أو الزنوج ، وىعدون أنساباً للشعوب « اللاتىنىة » عبر البحر المتوسط (٢) وأمر هؤلاء البربر شبیه

« Die agyptische Frage,, Aaien

(١) تشرىن الثانى (نوفبر) ١٩١٦

(٢) يكاد يكون محققاً أن البربر من أهل مراکش والجزائر وأهل الزاب فى المغرب الاوسط وقسا

كل الشبه بأمر الألبانيين في شبه جزيرة البلقان ، بسبب كونهم منقسمين انقسامات عديدة متأصلة فيهم متمكنة منهم فعدوا قبائل متفرقة كان من شأنها في بعض الفترات أن ألفت شيئا من الاتحاد ولكن لم يكن من شأنها ترقية عوامل العصبية القومية الصحيحة (١)

ويخالط البربر في الأقطار الافريقية كلها العزب الذين جاءوها من آسية مخالطة على أقدار مختلفة . فالعرب قد استطاعوا حقا أن يستعمروا افريقية الشمالية كلها عند الفتح الاسلامى أى منذ أكثر من اثني عشر قرنا ، وأن يجعلوا البربر يدينون بالرسالة الاسلامية ويستعربون تهديبا وأخلاقا ، ولكنهم لم يستطيعوا تصيير شمالي افريقية قسما من العالم العربى ومن رسوخ العروبية وبمكان سورية والعراق ومصر وان تكن هذه الأخيرة دون القطرين الأولين قليلا في ذلك ، فالجنسان العرب والبربر لم يمتزجا في شمالي افريقية بعضهم ببعض امتزاجا حقيقيا تاما ، ولذلك ظل البربر على كرور ألف سنة بل أكثر خاضعين للسيادة العربية ، ولكن مختلفين متميزين عن العرب عادات وأخلاقاً ، وهم يحتفظون بلغتهم احتفاظاً شديداً . ولم تقع صلات الزواج بين العنصرين الا قليلا ، وظل العرب الصرحاء قبائل كبيرة البطون والأنفاذ حتى اليوم ، ولكن غرباء في بعض الأحوال والاعتبارات (٢)

لذلك غدت الحياة السياسية في أقطار شمالي افريقية المختلفة العناصر والأصول حياة اضطراب تعورها الانشقاقات والانقسامات . وكانت مراكش وما برحت أكثر الأقطار

من أهل تونس وطرابلس وأهل جالو من برقة ثم الطوارق في الصحراء وأهالي الجزر الخالدات (كنارى) المصابة للمغرب الأقصى كلهم من أصل واحد وبعض المؤرخين يضم اليهم بربر النوبة والدر الذين بأعلى أسوان ولم يثبت أصلا ان هؤلاء الاقوام هم من أصل أوربى بل تاريخ أصلهم لا يزال مجهولا . «ش» (١) ويزجرير — تاريخه «بيض افريقية» يشتمل على بيان واف موجز في شأن البربر (باريس ١٩١٠)

H . Weisgerber. " Lcs Blauce d' Afrique

(٢) للاطلاع على ماهية الفروق بين العرب والبربر اقرأ كتاب «العرب والقبائل» لمؤلفه كاي دى سانت آمور (باريس ١٩١٩)

Caix de Saint Aymour, " Arabes et Kabyles ,, " Coup d' aeil sur l'Islam en Berberie ,, Paris 1917 .
وكتاب بل

الافريقية الشمالية وحدة والتاماً وثباتاً في مجموعها السياسي ، مع أن سلطة السلطان النافذة حق النفاذ لم تمتد قط يوماً الى الجبال التي تقطنها القبائل المختلفة . وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية (الجزائر وتونس وطرابلس) فقد كانت أكبر قليلاً من الثغور البحرية ممتدة على طول السواحل وأما البلاد الوراثة فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوي التام . على هذه البلاد المتبليدة طفق الفتح الفرنسي يتدفق فبدأ غامراً الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم^(١) . ان فرنسا قد أرخت على البلاد سكينه وكسبتها نظاماً ونجحاً مادياً^(٢) غير ان

(١) اقرأ « الفتح الاوروي الثاني في شمال افريقية » (تموز ١٩١٢)

A . C . Coolidge, "The European Reconquest of North Africa., "American Historical Review ,,

(٢) بينما أنا أحرر هذه السطور قرأت في الجرائد الفرنسية نبأ عودة بعض النواب الفرنسيين من الجزائر ، حيث كانوا ذهبوا للاطلاع على حقيقة أحوالها ، فكان من جملة خلاصة تحقيقاتهم ان من الأربعة الملايين ونصف الملايين الذين هم مسلمو الجزائر ، أربعة ملايين نسمة لا يملكون شيئاً من الدنيا ، بل هم جميعاً مزارعون وأجراء وعملة عند طبقة المستعمرين (الكولون) والتملكين من المسلمين . وان هذه الملايين الأربعة يتكفون باجرتهم اليومية وتراهم على اسوأ حال من المعيشة ، ويموت من أطفالهم ٨٠ في المائة من سوء الغذاء .

ومعلوم أنه منذ سنوات لم تنقطع المجاعة من بلاد الجزائر ، وكان جميع فتكها بالمسلمين ، وفي كل سنة تقول الحكومة الفرنسية انها اتخذت التدابير اللازمة لمنع وبل هذه المجاعة ولم ير العالم من ذلك شيئاً ، ولا يزال مسلمو الجزائر من سنة ١٩٢٠ الى اليوم يموت منهم الالوف من الجوع ، كأنما ذلك من قبيل مكافأة فرنسائهم على الاثنتين والستين ألف قتيل التي سقط منهم في الحرب العامة . . . وأغرب من ترك المسغبة تعمل عملها فيهم ان الجزائر في حال من اليسر وفيض الموارد التجارية لا يقدر الانسان أن يفهم معها كيف أهلها يموتون جوعاً . فقد صرح المسيو ستيغ Steeg والى الجزائر العام في لجنة المكوس ان تجارة الجزائر تزداد بسرعة فائقة ، حتى انها ارتفعت من ٦٠٠ مليون فرنك الى مليار وستائة مليون فرنك سنة ١٩٢١ ، فصارت واردات جمارك الجزائر تفوق واردات المستعمرات الفرنسية كلها مجتمعة . وصرح الحاكم المشار اليه أيضاً ان مستعمري الجزائر الفرنسيين (الكولون) اكتبوا في قرضي سنة ١٩١٥ وستة ١٩٢٠ بمبلغ قدره مليار و٧٦٦ مليون فرنك . فبعد هذا لاعجب أن يموت الوطنيون جوعاً اذ عند ما يكون ثلاثمائة أو أربعمائة ألف فرنساوي قادرين ان يكتبوا في بعض القروض الفرنسية بنحو ثمانين مليون جنيه ، أي يمثل ايراد الدولة المصرية السنوي مرتين ، فإذا يكون لعمري مجموع ثروة هؤلاء المستعمرين ! ولا غرو بعد هذه البراهين الحسائية التي لا تقبل أدنى جدال ، أن يبقى أربعة ملايين ونصف مليون نسمة مسلة هناك لا يملكون شروى تغير ويعيشون باجرة معلمهم اليومي أو بالأحرى لا يعيشون . . .

هذه المنافع والفوائد التي أتت بها السيادة الأوروبية في هذه الأقطار الأفريقية كما في غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعاً حديثاً من الوحدة والتضامن والتماسك بين أهل البلاد حتى غدوا جميعاً على مستوى متماثل في الاجماع على شنأة الفاتح الأوروبي ، وعلى نيل المطمح العام الذي يطمحون اليه ، وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتي بمعزل عن السيادة الأجنبية بته . لذلك قد شهد العالم خلال الجيل الماضي نشوء «الجزائر الفتاة» و«تونس» وفيهما الاحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشبع بعقائد الحكم الذاتي والحرية (١)

أما المتجه الذي تتجهه هذه الأقوام في نهضتها فهو بغايته أميل الى انشاء الوحدة الافريقية الشمالية الكبرى ثم الى الجامعة الاسلامية العامة كما تقدم الكلام على هذا ، منه ان الاحصاء المتقدم الذي كنا ذكرناه في الطبعة الأولى لمسلمي الجزائر هو احصاء قديم وناقص جداً عن

الحقيقة . وقد علمنا فيما بعد أن مسلمي الجزائر يناهزون ستة ملايين نسمة وبينما نحن نتحرى لعرف الحقيقة اذ ظهر كتاب «الجزائر» بقلم الوطني الفاضل المحقق السيد أحمد توفيق المدني المقيم اليوم بمدينة الجزائر - بأمر الحكومه الافرنسية التي أبعدته من تونس - وهذا الكتاب قد جمع كل ماتلزم معرفته من شؤون الجزائر بحيث لا يضح أن يخلو منه أحد ممن يريدون حق الاطلاع على أحوال المغرب الأوسط ومن جملة هذه المعلومات التي كفلها هذا الكتاب النفيس احصاء الاهالي فتجد جدول احصاء مدققاً لكل عمالة من عمالات الجزائر ولكل بلد من كل عمالة شاملاً جميع أصناف الاهالي مأخوذة كلها من دفاتر الاحصاء الرسمي سنة ١٩٣١

و بحسب هذا الاحصاء العام يكون عدد مسلمي عمالة قسنطينة مليونين ومائتين وواحداً وسبعين ألف نسمة . وعدد مسلمي عمالة الجزائر مليوناً وستمائة وأربعة وتسعين ألفاً . وعدد مسلمي عمالة وهران مليوناً وستين ألفاً وثمانمائة وستين نسمة . وعدد مسلمي الجزائر الجنوبية خمسمائة وستة وستين ألفاً . فمجموع مسلمي القطر الجزائري خمسة ملايين وستمائة واثنان وعشرون ألفاً وأربعمائة وثلاث وأربعون نسمة وأما الاوربيون في القطر الجزائري ففي قسنطينة ١٨٩ و١٨٩ نسمة وفي الجزائر ٣٥٠٥٤٥ وفي وهران ٣٥٥ ٩٠٢ وفي الجزائر الجنوبية ٨٥٨٩ وجملة الاوربين تسعمائة وثلاثة عشر ألفاً وأربعمائة وتسع وسبعون نسمة

(١) لزيادة الاطلاع على النهضة الوطنية في الاقطار المغربية الحاضعة لفرنسة اقرأ : « العصبية الجنسية الاسلامية » (قسنطينة والجزائر ١٩١٣) ، A. Servier ، «LeNationalisme musulman» ، الحضارة التونسية (باريس ١٨٩٨) ، P . Lapie ، « Les Civilisations tunisiennes » ، «الجزائر الفتاة» (تشرين الثاني ١٩١٣) ، P . Millet ، « Les Jeunes — Algeriens » ، « Revue de Paris » ،

الى انشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الاسلامية . ولا يغربن عن البال ان جميع هذه الشعوب والأمم انما هي على صلات شديدة وروابط متواتقة توائفا كبيراً مع السنوسي ، تلك الصلات والروابط التي قد أسلفنا الكلام عليها في قسم الجامعة الاسلامية .

وإذا ستوفينا الكلام على النهضات الوطنية والحركات القومية للدور الأول في مختلف الأقطار العربية والمتعربة ، بقي علينا أن نبسط الكلام على مركز خطير آخر من مراكز العصية الجنسية في العالم الاسلامي ألا وهو بلاد ايران أو فارس أو العجم . ايران انما هي البلاد التي يتوقع فيها نشوء النهضة القومية الصحيحة توقعاً عظيماً لأن الإيرانيين مابرحوا منذ أجيال متطاولة يعرفون بشدة حب الوطن ، فائقين في ذلك كل شعب سواهم من شعوب الشرق الأدنى .

وقد انحطت ايران خلال القرن التاسع عشر انحطاطاً كبيراً وتدلّت تديلاً عظيماً حتى غدا تشتت حالها الظاهر وتبدد حولها وقوتها ، واستغراقها في الوهن والضعف ، هائجاً فعالاً حاج من روسية القيصرية في المقام الأول ومن بريطانيا في المقام الثاني جشعهما الاستعماري الهائل ونهمتهما الكليية في حب التوسع والفتح . غير أن قادة الفكر من الإيرانيين قد انتبهوا انتبهاً صحيحاً لما سيحلّ بالبلاد من ضروب البلاء ويحوق بها من الدواهي الدهماء من جراء استفحال الخطب واشتداد الوهن والانحطاط في الدولة ودنو المخاطر الآتية من خارج ، فشرعوا يجاهدون في سبيل الإصلاح داعين موقظين ، ومخدرين مندرين ، فحدثت الفتن الإصلاحية آخذاً بعضها برقاب بعض ، وأولها الحركة البائية (البهائية) في أوائل القرن التاسع عشر ، وما انفكت البلاد تتمخض في الفتن والاضطرابات حتى سبت ثورة سنة ١٩٠٨^(١)

(١) لزيادة الاطلاع على الحركات الإصلاحية الثورية في العجم اقرأ : « الحال السياسية في ايران للمستشرق العلامة الكبير X » حزيران ١٩١٤

« La Situation Politique de la Perse ..

« Revue du Monde Musulman ..

« التهذيب الغربي في الأقطار الشرقية » للمستشرق العلامة الكبير أرمنيوس شمباري

« Western culture in Eastern lands ..

وقد كان السبب الأكبر في شيوع نار هذه الثورة واندلاع الستها هو المعاهدة « الروسية البريطانية » المعقودة سنة ١٩٠٧ التي اتفقت بموجبها الدولتان المتعاقدتان على قسمة ايران بينهما الى منطقتي سيطرة ، الأولى لروسية في الشمال والأخرى لبريطانية في الجنوب ، يتوسط بينهما منطقة حياد . لذلك كانت الثورة في غالبها ثورة القنوط والاستماتة قام بها رجال الوطنية الايرانية الأشداء الأبطال ، كما يصلحوا شأن بلادهم وينظموا أمر حكومتهم ودولتهم ، ويدفعوا عنهم ، ولكن بعد استئثار كبير ، شبح السيطرة الأوروبية الهائل الذي أخذ يدب وينتشر في البلاد انتشاراً وجفت منه القلوب فرقاً ورعباً . ولم تقصر غاية الثورة على الوقوف في وجه الاعتداء الأوروبي ودرء المطامع الأجنبية الكاشرة عن الأنياب ، بل انها امتدت الى أبعد من ذلك وهو نزع الملك من السلالة القاجارية الغربية الأصل وهي الحاكمة في البلاد حكماً سيئاً فاسداً منذ حقبة مديدة ، والتي ليست بايرانية الاصل بل تركانية ، فانها معما طال من جلوسها على عرش المملكة ، لم تتمزج قط بالايرانيين وهم أهل البلاد ، نسباً ورجاً ، كما تدل على هذا حقيقة الأمر من كون لغة البلاط هي تركانية فارسية . وعلى الجلة فان مقام السلالة القاجارية في ايران كان مماثلاً لكل المائة للسلالة المانشوية التي كانت على عرش الصين قبل الثورة . فالثورة الفارسية كانت بماهيتها وجوهرها شيوع نار الوطنية الايرانية شوباً مقاوماً لجميع القوات الغربية القاضية على الوطن سواء أكانت شرقية دخيلة أم غربية طارئة .

وقد علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نزل التدخل المقوت في شؤون ايران ، التدخل الناشئ عن نهمة أوروبية في التوسع الاستعماري الوحشي ، نزول الصاعقة القاضية على النهضة الوطنية الايرانية فسحقها سحقاً . وفي سنة ١٩١٢ كانت روسية وبريطانية قد غدنا قابضتين على أزمة السيطرة الحقيقية النافذة تتصرفان فيها كيفما شاءتا تحقيقاً لمطامعهما الشائنة ، فاضطهد رجال النهضة اضطهاداً ، وعذبوا تعذيباً ، وأبعدوا من البلاد ، وظلت ايران تصعد زفراتها مصطربة على اعتلاج النار بين جوانحها ، مكرهة مكعومة ، ساكنة

« الحركة الاصلاحية في العجم » للجنرال السر غوردون في كتاب « اعمال جمعية آسية الوسطى » ١٣

آثار ١٩٠٧

General Sir T. E- Gordon. "The Reform Movement in Persia" , " Proceedings of the central asia Society ,,

لاستطيع شيئاً . وقد قال كاتب انكليزي في هذا الشأن قولاً بليغاً هذا بعضه : « ان روسية وبريطانية العظمى هما المتحاملتان كل التحمل لجميع التبعة في تمزيق الآمال الإيرانية ، مناهضة للروح الوطنية وقضاء على النهضة القومية ، وأيضاً تبعة هذه الفوضى المنتشرة في كل ناحية وجانب في المملكة ، إذ لا بد من أن يأتى يوم تقف فيه هاتان الدولتان الطامعتان لتناقشا الحساب في جميع مناجسته أيديهما ولتتالا جزاء وفاقاً على ما فعلتا . ان الأمل في تحسين الحال وإيم الحق لضرب من المهزأة والباطل ، مادامت الحكومة في ايران مؤلفة من وزارة لا تملك ضراً ولا نفعاً ، وليست بنائلة شيئاً من ثقة الشعب بل ان الحكومة في ايران إن هي الا وزارة قد قذفت روسية كل روع شديد في قلبها وكل عرق من عروقها ، وأرتها الموت أشكالا والعداب ضرراً ، وفوق جميع هذا تريد الدولتان روسية وبريطانية ان تقضيا عليها القضاء الأخير ذلك بجرها إياها الى أزمة مالية ، وهامى الحكومة الإيرانية تستصرخ الملاء فلا تناوها الدولتان المسيطرتان سوى بعض اللقيات المالية التي لا تدفع غرماً والجريعات التي لا تنفع غلاماً ولا تبرّد صدى ، وذلك على شرائط هي غاية في الربا الفاحش المهلك ، وتمنعانها عن استخدام الترهة الكفاة من الخبراء الأجانب مثل المستر شصطر . فكيف يربحى الإصلاح في بلاد متى ما كان ملكها صيباً ووكيله متخلفاً أبداً عن القيام بواجباته ، وكان مجلسها النبأى معطلاً دائماً ، ورجال الوطنية الأكرمون الأشجعون الأشرفون ، يقتلون تقتيلاً أو ينفون نفياً بينما الذئلب المفترسة من المالين وأرباب الامتيازات التجارية والزراعية ينهشون الفريسة نهشاً ، ويغفلون في أحشائها الأنياب . حقاً اذا ما قبض ليران الخلاص الحقيقى وكتب لها النجاة فان ذلك لن يكون الا بأعجوبة ساوية ومعجزة عظيمة (١)

هنا ينتهى كلامنا العام الشامل لوصف أكبر النهضات القومية الوطنية ويقظات العصبية الجنسية في العالم الاسلامى . على أنه يجب ألا تنسى ان النهضة القومية الجنسية في الهند متمشية وسائر النهضات الاسلامية جنباً الى جنب ، ولكنها مضطربة في أفق مختلف عما سواه من آفاق النهضات في سائر العالم الاسلامى . ويجب أن نعلم أيضاً ان هناك نهضات أصغر نطاقاً وأضيق مضطرباً ، قائمة في الشعوب والأمم الاسلامية غير التي أتينا على ذكرها

(١) و . مورغان شصطر كتابه : « خلق العجم »

كالتتري روسية ومسلمي الصين ومسلمي جاوة في الجزائر الهولندية . وعلينا ان نضع في البال فوق جميع ما تقدم ان هذه النهضات القومية الجنسية جميعها متصل قليلا أو كثيراً بعجري الحركة العامة الرامية الى الجامعة الاسلامية وبالبنور الثاني للعصبيات الجنسية ، وهي العصبيات النزاعة الى التثام العروق الجنسية المتفرعة من أرومة واحدة ، وها نحن شارعون الآن في الكلام على هذا .

- ٢ -

قد بينا في مقدم هذا الفصل ان في مطلع القرن العشرين شهد العالم اجتياز العصبيات الجنسية لدورها الأول وبلوغها المور الثاني في الشعوب الآسيوية ولا سيما في الأمتين التركية والعربية ، ونحن نرى الآن العصبية الجنسية في الترك قد اتسع نطاقها الاتساع الأكبر وامتد أقطبها الامتداد الأعظم حتى أدركت أرقى أطوارها وأسمى حالاتها ، متخذة شكلين يتبين جليين يعرفان « بالجامعة التركية » و « الجامعة الطورانية » . وقد أتينا فيما تقدم من الكلام على بيان اجتياز العصبية التركية لدورها الأول وهي إذ ذلك لم تجاوز نطاقها العثماني المحدود كما علمنا ذلك في موضعه ، وظلت كذلك حتى ختام الحرب البلقانية سنة ١٩١٣ - ١٩١٤ . ونحن ذلك الحين بدأت العصبية الجنسية التركية تدخل في دورها الثاني ، دور العصبية النزاعة الى عروق الأرومة ، وطفقت تشغل مكانها الخطير الهائل في العالم .

في هذا الحين أي في أوائل الدور الثاني للعصبية أخذ الترك العثمانيون يوقنون انهم ليسوا بالأمة الفذة المنفردة المنقطعة عن كل نسب وقريب في العالم ، بل انهم في الصحيح الواقع ، العرق الغربي الأقصى المتفرع من أرومة عظيمة تمتد سائر فروعها وعروقها العديدة مائة شرقي أوروبا وآسية ، من البلطيك حتى الباسفيك ، ومن البحر المتوسط حتى القطب الشمالي . وقد أطلق الانثولوجيون ، علماء البحث في أصول الأجناس البشرية على هذا الشعوب اسم (الاورالو - ألتايك) ولكن الاسم الأغلب والأشهر لهذه الشعوب المذكورة شاع تعبيره « بالجنس الطوراني » وهو يشتمل على شعوب عديدة متفرقة - الترك العثمانيون في القسطنطينية والاناطول ، والتركان في ايران وآسية الوسطى ، والتتر في جنوب روسية وعبر القوقاس ، والمجر في هنغاريا ، والفنلنديين في فنلندا وولايات البلطيك وقبائل السكان الأصليين في سيبيريا ، حتى والمغول والمنشوس في شرقي آسية . فهذه الشعوب

على ما بين بعضها والبعض الآخر من الاختلاف في التهذيب والتقاليد حتى وفي السحن الخلقية هي مشتركة اشتراكاً عاماً في طبائع وسجايا معلومة متشابهة في كل منها تشابهاً بينا ولغات هذه الشعوب متشابهة أيضاً ، من حيث ان التركيب الطبيعي والمزاج العقلي في كل شعب منها يدلان دلالة بينة على النسابة الأصلية العامة الجامعة بين جميع هذه الشعوب الطورانية المشهورة برشاقة البنية وشدة الأعصاب ، وهي وان كانت على بعض من النقص في سعة المدارك وبعدها وعلو التصور ، وامتلاك حاسة الشعور الفنى ، الشعور الذاهب الى الإبداع والابتكار ، فهي موهوبة بجليل مواهب الصبر والجلد وشدة البأس الى حد الغلظة ، وفوق جميع هذا قد اشتهرت هذه الشعوب اشتهاراً منقطع النظير بالصبر على القتال والجلاد وخوض عمرات الحروب ، وبالاقتدار الفائق على سيادة من يخضع لها من الشعوب . ومما لامرأه في صحته ان الطورانيين هم أعظم من شهد الورى وعرف التاريخ من المدوخين والقاتحين فأثلا والهنز ، وار باد والمجريون ، واسبريتش والبلغاريون ، والب ارسلان والسلاجوقيون . وارطغرل والعثمانيون ، وجنكسرخان وتيمورلنك ، وجيوش المغول التي « لاتغلب » وبار في الهند حتى وقبلاى خان ونورهاشو في كاشاى ، انما جميعهم من نسيج واحد . وصور الآثار لسنايك خيول الفرسان الطورانيين مابرح منقوشة في رقوق التاريخ القديم الى ماشاء الله .

على انه سواء كان تاريخ الطورانيين مجيداً أم محزناً ، فهو على كل حال هائل عظيم والقارى قد يتساءل ، أحقاً شئت هذه الشعوب الطورانية المتفرقة المبعثرة متحدرة من أصل واحد بين ، وجنس ثبت لأهل العلم معرفة منشأ الأول ومتفرعه الأقدم ، وأرومة صحيحة معلومة ؟ اننا قد علمنا علم اليقين في مقدم هذا الفصل ان هذا الأمر قد بات مما ليس كبير شأن له عند الشعوب الثملة بخمرة العصية الجنسية مادامت السياسة العالمية مسيرة تسييراً على الصفة التي أسلفنا الكلام عليها في موضعه . فلذلك ان ما بين هذه الشعوب الطورانية بعضها مع بعض من النسابة اللغوية والخلقية الغريزية ، وما هي عليه من التقاليد التاريخية الجمة الحية ، الهائجة منها نفوسها ايما هياج ، كاف أن يحملها على الاعتقاد انها متحدرة من أصل واحد ، فيدفعها ذلك الى التعاطف فالتشاكي فالتنبه الجنسي فانشاء بناء العصية الجنسية البعيدة الآفاق ، الشديدة الصولة والمنعة .

من قبل ثلاثة عقود الى أربعة عقود من السنين ، لم يكن هناك شيء من طوابع هذه الحركة ، ولا مما يدل على ظهورها ، إذ كانت جميع هذه الشعوب الطورانية المتباعدة المتفرقة ، تجهل وحدة ارومتها الطورانية العامة ، جهلاً تاماً ، ولم يكن هذا الجهل مقصوراً أمره على العروق التي شتان ماينها من الصلة والقرابة مثل الفنلنديين في فنلندا ولايات البلطيك والمثوسيين في آسية الشرقية ، بل ان العروق المتقاربة الأقاليم ، الظاهرة النسابة بعضها مع بعض كالترك العثمانيين في القسطنطينية والاناؤل وتركان أواسط آسية ، كان كل عرق منها على جهل من نسابته للآخر ، لا بل يعده غريباً عنه جنساً ، وأدنى وأحط منه شأناً . في ذلك الحين كان الترك العثمانيون لم يزالوا بعداء من روح العصبية الجنسية كبعدهم عن روح القومية والشعور العنصري . وقد أخبرنا ارمينيوس فمباري انه لما زار القسطنطينية لأول مرة سنة ١٨٥٦ « كانت كلمة « تركك » (ترك) تفهم وتعد من مترادفات الفظاظلة والشكاسة والهمجية . « ولما كنت أقدم على تنبيه الناس الى الخطورة العظمى التي يجب اعتبارها في شأن متحدر الجنس التركي (المنتشر من أدرنة حتى الباسفيك) كانوا يجيبونني : ولكن بالله عليك لا تجعلنا في مصاف الكيرغيز وجفافة التتر وكدت لا أرى الا أقل من الفليل من الترك في القسطنطينية من يذهب مذهب الجد والاهتمام في شأن الجنسية التركية أو اللغة التركية »

وظلت الحقائق وراء الحجاب حتى انبرى الاثنولوجيون الغربيون يستقصون ويحققون وفي طليعتهم مثل أرمينيوس فمباري الهنغاري وليون كوهين الفرنسي ، اللذين يرجع اليهما كبير الفضل في كشف الحقائق المؤيدة لوحدة الارومة الطورانية . فظهر العالم الطوراني من أقصاه الى أقصاه هائلا بعيد الآفاق . وكان لأعمال هذين العالمين القطبين فمباري وكوهين أ كبردوى في أنحاء العالم . فطفقت كتب فمباري وزملائه تنتشر في كل بقعة من بقاع العالم الطوراني الجديد انتشاراً سريعاً كبيراً ، فأقبلت عليها العقول الطورانية المستعدة الاستعداد العجيب للاخذ عنها والاقْتباس منها ، العقول الهائجة المتأهبة للتجدد والارتقاء ، ثم سرعان ما أنشأت طوابع الحركة الطورانية تظهر وتتكاثر في أقطار مختلفة ، وكان ظهورها بادئ الأمر في مركزين منفصل كل منهما عن الآخر وهما القسطنطينية التركية على ضفاف البوسفور ، وبلاد التتر الروسية على ضفاف الفولكا

غير أن الباكورة السابقة قد كانت في هذا المركز الأخير قبلاً بدت على ضفاف البوسفور. ان هذه النهضة التترية، وان كانت أقل شهرة من غيرها، هلى احدى الخوارق في تاريخ العصبية الجنسية. فالتتر الذين كانوا فيما مضى سادة روسية وحكامها، وقد طال ما طال من العهد على تلاشى حكمهم وانهار دولتهم وسلطانهم، قد استطاعوا البقاء والكينونة، فلم يتعلمهم مبتلعات الأوقيانوس السلافي، ومع أن بعضهم قد أمسوا خاضعين للحكم الروسي منذ أربعة قرون فما انفكوا مع ذلك محتفظين بوحدتهم في الدين والجنس والتهديب، وقد استطاعوا أن يظلوا، وغالب مزدحم قطينهم في ولايات الفولكا ولا سيبا في قطرى « قازان واستراخان »، وفي أيديهم غالب بلاد القريم، ويؤلفون أقلية عظيمة في عبر القوقاس، مستمسكين بمستقل وحدتهم ومجموعهم بمنجاة من أن يتلعوا في يم الامبراطورية السلافية وانهم على تفرقهم في هذه الاقطار العديدة، لم يبرحوا الاشداء النشطاء في المناطق التي هم حالون بها، ولا عيب فيهم سوى أنهم شم الانوف أباة الضيم فلا ينال منهم ولا تغمز قناتهم.

كان تبدى تباشير اليقظة القومية واستفاقة العصبية الجنسية في تتر روسية سنة ١٨٩٥ ومنذ ذلك الحين أخذت النهضة الجنسية تنمو نمواً هائلاً عجيباً. وكان من شأن الثورة الروسية سنة ١٩٠٤ انها حطمت الاغلال الاستبدادية، فكانت من بعد ذلك حقبة زاهرة أشرقت فيها شمس الآداب أيما اشراق. فكثرت نشر الكتب والنشرات وانشاء الصحف والمجلات العديدة بمساعدة النهضة التترية على النمو المطرد، فاعتزت اعزازاً كبيراً. ولما كان التتر في روسية على جانب كبير من الأثراء فقد كان من السهل اعداد جميع ما يقتضى من الوسائل والذرائع المادية في سبيل النهضة. وحقاً قد قام المتمولون التتر ذوو الملايين في باكوبسقط وافر عظيم من العمل لتنمية العصبية فكان لهم بذلك شأن خطير ومنزلة عليية، اذ ما عرفوا التردد قط في بذل المقادير العظمى من الأموال عن جود وسخاء في سبيل الغاية المباركة. وقد أبدى التتر الروسيون حنكة ومهارة فائقتين في عالم السياسة. فعدوا للحال موضع ثقة أبناء أعمامهم التركمان في أواسط آسية الروسية الذين كانوا قد دب فيهم أيضاً نشوة العصبية الجنسية، واشتمل مجلس « الدوما » الأول في روسية على عدد كبير من المسلمين الذين كانوا في جهادهم السياسى عصبية متحدة متعاضة يشد بعضها بعضاً، لاينى لها جهد ولا همة لاعزاز النهضة التترية، فغالبا الصعاب مغالبة غاية

في بذل النفس والدهاء والحسكة ، حتى غدا الرأي العام الروسي على خشية منهم فأخذ يحمل الحكومة الروسية على أن تقل من عدد النواب المسلمين التركيما يقل بذلك نفاذهم في دور الحياة الدستورية الجديد (١)

وقد كان المسلمون في روسية حكماء في السعي وراء مبتغاهم فصارحوا الدولة الروسية باخلاصهم لها ومحضهم اياها صادق الطاعة ، غير أن بعضهم كانوا أشداء الغيرة شدة كشفت معها المطامح التتريية الخفية وصرحت عن الآمال التي كان التتري يدأبون جاهدين في سبيل تحقيقها ، ذلك أنهم أخذوا في السعي وراء الغاية سعياً حراً في جو أنقى هواء وبيئة أخصب مرعى وأرحب منزلاً أعنى في القسطنطينية حيث قد قيض حقاً لتتروسية أن يكون لهم شأن عظيم في أفق الجامعة التركية والجامعة الطورانية داخل الامبراطورية العثمانية . وفي الواقع أن أول منشىء لجمعية الجامعة الطورانية الأولى من نوعها في القسطنطينية هو يوسف بك اقشورة أوغلي ، المسلم التتري من أهالي الفولكا . وكتابه القيم المشهور المرسوم بـ « الأنظمة السياسية الثلاثة » غدا أساساً عند معشر الكتاب المسلمين يعولون عليه ، ومناراً يهتدون به في جميع ما كتبوا الى اليوم في شأن الجامعة الطورانية (٢)

وظلت الجامعة الطورانية تكثفها بعض الغمات في القسطنطينية حتى ثورة تركية

(١) لزيادة الاطلاع على النهضة التتريية اقرأ : —

« المسلمون في روسية » (كاتون الأول ١٩١١)

S. Brobovnikov, " Moslems in Russia,, The Moslem World.,

« تترالقريم » (اب ١٩٠٧)

Févret , " Les Tatars de crimée ,, " Revue du Mond Musulman.,

كتاب « التهذيب الغربي في الأقطار المرقية » ذكر قبلا

« الجامعة الاسلامية والجامعة التركية » (آذار ١٩١٣)

« X », " I.e Pan - Islamisme et le Pan - Turquisme.,

' Revne du Monde Musulman "

« المسلمون الروسيون » (شباط ١٩١٤)

H. Williams , " The Russian Mohammedans "

" Russian Review

(٢) لزيادة الاطلاع على الجهود الطورانية اقرأ مقالة (X) المذكورة آنفاً

وكتاب أحمد أمين بالانكليزية (نيو يورك ١٩١٤) :

'The Developmen of Modern Turkey - as Measured by its Press

الفتاة سنة ١٩٠٨ اذ أن السلطان عبد الحميد كان ، كما علمنا في غير موضع من هذا الكتاب مجاهداً كبيراً في سبيل الجامعة الاسلامية ، ومقاوماً شديداً لجميع الحركات الرامية الى العصيات الجنسية ، فلذلك لم يكن رجال الجامعة الطورانية ، قبل نزول الاضطهاد بهم ، ليلقوا شيئاً من الحظوة عند السلطان عبد الحميد . فلما ظهرت العصية الجنسية التركية ظهورها الجلي من القوة الى الفعل بعد انقضاء الدور الحميدي ، تبدلت الحال غير الحال ، فعدا رجال الحكومة الجديدة وهم عشاق عقيدة تريك العناصر في المملكة ، يصيحون كل الأصاخذ لدعوة الجامعة الطورانية ويجدون في سبيل نشرها والتبشير بها انجيلاً جديداً ، حتى خرج منهم بالتالي أبطال وقادة يدعون الى هذه العصية . وجدير بنا في هذا المقام أن لا ننسى أن تتروسية قد استمروا على جهادهم الأكبر في سبيل العصية ، فكان زعيم الدعوة للجامعة الطورانية الكاتب القدير المشهور أحمد بك آغايف ، مسلم من تر الفولكا ، وله جريدته الذائعة الصيت (تورك يوردي) - « الوطن التركي » التي انتشرت في كل بقعة من بقاع العالم الطوراني ، وحازت أكبر شأن حتى غدت مستولية على نفوس قرائها نازلة منهم منزلة المقيم المقعد .

على أن قادة الدعوة الطورانية مثل أحمد بك آغايف واضرابه الذين امتدت أطعاهم ووضعوا خطتهم لتوحيد العالم الطوراني طراً من فنلندا الى منشورية توحيداً تاماً ، وأخذوا يجهدون الجهد الكبير في سبيل نشر الدعوة للجامعة الطورانية ، انما كانت جهودهم العملية مقصورة في مبادئ الأمر على توثيق العرى بين الترك والتتر اللصقاء ، أعنى بين الترك العثمانيين والتتر الروسيين والتركان في أواسط آسية وايران . ولما كانت هذه الشعوب جميعها اسلامية فلم يكن من الغريب أن الدعوة الطورانية كان لها ما عدا صفتها الجنسية صفة دينية أيضاً تجعلها متجهة نحو الجامعة الاسلامية في اعتبارات عديدة . ولكننا على وسع لنقول ، مع عدم اعتبار هذا العامل الديني ، ان الحركة التي كانت حاصلة بالفعل عهدئذ بالقياس الى نظرية الجامعة الطورانية لم يعد امتدادها نطاق الجامعة التركية الا قليلاً .

وجاءت الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ - ١٣ فكانت هاجماً كبيراً هاج الجامعة الطورانية ودفعها الى الامام دفعة شديدة ، ولم تكن نتيجة هذه الحروب البلقانية أن أخرج الترك

من البلقان فتقلص ظلهم عن تلك الديار فأخذوا بسبب ذلك يتلفتون فقط نحو آسية ، بل كانت النتيجة الكبرى هياج هائج الغضب الشديد في صدور الهنغارين والبلغاريين (١) على الصربيين النصاري ، فطفق الأولون يجاهرون بتحدرهم من الارومة الطورانية ويزودون عن وحدة الجامعة الطورانية ، ازاء التهديد الذي بدا من ناحية الجامعة السلافية الصربية الروسية (٢)

وظفق رجال الفكر العاملون في سبيل الجامعة الطورانية يجدون عن ثقة وايقان في نشر التعاليم والعقائد البعيدة في الاغراق والمغلاة ، سعيأ وراء تحقيق مطامعهم الكبرى وآماهم العظمى ، وباتوا يعظمون كل الاعظام شدة البأس والروع والبسالة المتجلية في جميع الشعوب الطورانية الى حد غدوا عنده يوقنون ايقاناً تاماً أن الجنس الطوراني انما هو الجنس الذي سيسود غداً العالم قاطبة سيادة كاملة دون منازع ، وهب الاقطاب الغير فيهم الراسخون علما في الفلسفة الغربية وفي النشوء والارتقاء والبحث في أصول الشعوب يبسطون آراءهم ونظرياتهم المخصوصة بهم في كيفية ارتقاء الشعوب واعتزازها ، وأسباب انحطاطها وتدليها ، وعلى حسب التعاليم التي يجاهر بها علماء الجامعة الطورانية بان الشعوب والأمم التاريخية في جنوبي آسية - العرب والفرس والهند - انما هي شعوب على جانب كبير من الانحطاط ، وان الشعوب والأمم الاوروبية قد أخذت تتحدر عن الاوج الذي بلغته منهوكة القوى خائرة العزم مأ كولة الحشى بنار الصناعة الحديثة . لذلك على رأى هؤلاء العلماء يجب على الطورانيين الاشداء الاقوياء الذين لم ينغمسوا في الحضارة الغربية ولا دبّت فيهم مفسادها ولا رمؤا ما سمها ، ان يكونوا هم قادة الأمم والشعوب في

(١) كون البلغاريين أو قسم منهم يتسبون الى أصل طوراني هذا لا ريب فيه . أما كونهم يتسكون بالجامعة الطورانية ففيه نظر ، فان كانت بدرت من هذا القبيل بعض كلمات اثناء الحروب التي وقعت بين البلغاريين والصربيين حنقاً على الروس الذين كانوا يفضلون الصرب على البلغار دائماً فلم يكن ذلك بالدرجة التي تجعل البلغار عضواً عاملاً في الجمعية الطورانية وقلمنا سمعنا الاثراك يعتمدون في هذه الجامعة على البلغار كما يعتمدون على المجر الذين منهم من يجاهر بالاستمسك بمجبل الطورانية . (ش)

(٢) للوقوف على المنازع الهنغارية والبلغارية للجامعة الطورانية اقرأ مقال « الجامعة الطورانية . » (شباط ١٩١٧) " American Political Science Review " ، " Pan - Turanism "

المستقبل . وبعض رجال الفكر من الطورانيين يستغرقون الغاية بمصارحتهم أن من أقدس واجبات الجنس الطوراني إعادة احياء هذا العالم الهرم المتضعع ، وذلك انما يتم بتلقيحه بالملقحات الطورانية الدموية ، المصلحة المجددة ، التي تبث فيه صحة وبراءاً^(١) . وقد أيقن رجال الجامعة الطورانية انه اذا كان مقدرا لهم التأليف في شيء من مطامعهم التي ذهبوا بها الى ما فوق الاغراق والمغالة ، فلن يكون ذلك مستطاعاً الا بانهاير الامبراطورية الروسية وتزلزها ، لهذا بات رجال الحركة الطورانية يرون روسية بقاطنها من التتر والتركان والكيرغيز والفنلنديين والقبائل العديدة الجامعة صلات الانساب بعضها مع بعض ، ان هي الا بلاد طورانية بحثة يغشى تربتها طبقة من الراسب السلافي متفاوت الرقة والكثافة ، ولذلك نانت الغاية التي رامها الطورانيون ، وهي جعل روسية موطناً طورانياً ، غاية هائلة حقاً . ومع هذا فان دعاة الجامعة الطورانية قد حسبوا انهم يلقون عوناً على بلوغ غرضهم وتحقيق أمنيتههم من بعض الدول الغربية العظمى فايقنوا أن ألمانية وأوسترية - هنغارية انما كانتا تقتربان - أكثر فأكثر من ولوج حرب مع روسية ، وانه متى ما اشتدت جأشحة هذه الحرب وكشرت عن أنيابها ، سنحت اذذاك الفرص الكبرى لادراك الغاية ونيل المبتغى .

وبما لا ريب فيه ان قد كان لهذه المطامح الدائرة حول محور الجامعة الطورانية شأن كبير في انجذاب تركية الى جانب الدول المركزية وخوضها معهن معمعان الحروب ، ومن المؤكد أن أنور باشا قد كان منذ عهد بعيد يجهد في سبيل الجامعة الطورانية ويذود عن حوضها ما استطاع^(٢) ومن المقرر المعلوم أيضاً أن الحكومة التركية كان لقوسها وتران

١ افراً المقالة المذكورة قبلاً للمشرق «X» . واخرى عنوانها « السياسة الجارية في تركية المعاصرة

كانون الاول ١٩١٢

Les courants Politiques dans La Turquie contemporaine Revue du Monde Musulman

(٢) كان أشد رجال تركيا الفتاة تمسكاً بالقضية الطورانية أيام الحرب العامة جمال باشا ، ويلييه طلعت باشا ، والدكتور ناظم وضياء كوك آلب ، وشكري بك ناظر المعارف ، وغيرهم . وكان أقل الناس اهتماماً بها هو أنور باشا ، وكان جهاده في الاتحاد مع الأتراك الذين بالروسية والحرب التي أصلاها في اذربيجان سنة ١٩١٨ وجلى بها الانكلاز عن باكو ، وكسر بها شوكة الأرمن ، وأسس للأذريين دولة مستقلة استمرت مستقلة عدة سنوات ؛ وأرسل ضباطاً قادوا مقاومة الطاغستان الثأرين في وجه الروس

أرادت أن ترمي عنهما سهاما لنيل غرضين معا . وذلك انها حاولت أن تسوق الجامعة الطورانية والجامعة الاسلامية معا في طريق واحد ، عامدة الى استنفار جميع المسلمين الغير الحس في كل قطر من أقطار العالم الاسلامي للجهاد المقدس ، من حيث هي لاجثة في الوقت عينه الى مضاعفة نشر دعوتها للجامعة الطورانية في الشعوب التركية التترية . وقد بين « تكين الب » الكاتب المشهور هذه المطامح الكبرى التي امتدت اليها أنظار دعاة الجامعة الطورانية في أوائل كتاب له موسوم بـ « التركي وغاية الجامعة التركية » نشره ١٩١٥ ، وبما قال فيه : « متى ما سحقت بسل الجيوش الألمانية والأوسترية والتركية الاستبداد الروسى الغاثم سحقا ، واستطاع ٣٠٠٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠٠٠٠ من الطورانيين نيل الاستقلال والحرية . ثم يضاف الى هذا العدد ١٠٠٠٠٠٠٠ من الترك العثمانيين ، بحيث يتألف من المجموع أمة يبلغ عددها ٥٠٠٠٠٠٠٠ تتقدم نحو حضارة عظيمة ربما تستوى مع الحضارة الألمانية فتفدو هذه الأمة اذذاك شديدة القوة والبأس ، مستهولة كل صعب لتوالى الصعود بمعراج الارتقاء ، وستفوق هذه الحضارة الحديثة في بعض صفاتها الحضارتين الفرنسية والانكليزية المنحطتين »

ولما انهارت الدولة الروسية بعد الثورة البولشفية ختام سنة ١٩١٧ ثارت المطامح الطورانية وامتدت في كل جهة جائزة كل حد . وبات رجال الدعوة الطورانية موقنين أشد الايقان باستطاعتهم نيل مبتغاهم حتى غدوا من شدة ذلك يصعرون خدودهم على حلفائهم الألمان وسائر الأوروبيين ، كاشفين بهذا عن حفاظ صدورهم تلك الحفاظ التي يكتونها أبدا للغربيين . وقد ذكر ضابط المالى من أركان الحرب ^(١) ، حديثاً جرى على

الى حربه الأخيرة سنة ١٩٢٢ مع الروس في بخارى وهى الحرب التي سقط فيها رحمه الله شهيدا في بولجوان شرق بخارى بعد ان كان أشعل الثورة العامة من سواحل بحر الخزر الى حدود كاشغر واضطر الروس البولشفيين الى تسير مئات ألوف من العساكر لاختاد هذه الثورة الكبرى كل ذلك كان منه حركة اسلامية محضة من قبيل جهاده في طرابلس الغرب سنة ١٩١١ ثم ارساله اليها أخاه نورى أثناء الحرب العامة مع أن أهالى طرابلس الغرب ليسوا أتراكا ولا طورانيين وإنما يربطه بهم الاسلام لا غير . وكان يقول لى مرارا ان أنفس الترك والتتر الذين يمنون الينا في تركستان ويعقدون آمالهم بنا إنما يمنون الينا لكوننا مسلمين لا لكوننا أتراكا . فلو كنا من الترك الباقين على الوثنية في سيبيريا ما عرفونا ولا سألوا عنا . (ش)

(١) كان رئيس أركان الحرب في الجيش العثماني « ارنتس پاراكوين » من مقال له نشر في « برلينر تاغبلات »

المائدة بينه وبين خليل باشا قائد الجيش التركي في جهة الحرب العراقية ، وهو عم لأنور باشا ، والى القارئ بعض ذلك الحديث : « يجب في المقام الأول أن يغدو كل عرق يتكلم إحدى اللغات التركية أمة ذات وحدة مستقلة ، ويجب أن تكون قاعدة العنصرية والعصبة الجنسية مقدسة ، فلذلك يبيت فتح تركستان ضرباً من الضرورة التي لا منتدح عنها ، وهي فوق ذلك مهد القوة التركية ومنبت المجد ، فإذا ماتم هذا كان أساساً منيعاً يبنى عليه صرح نخم ، ثم تنشأ العلاقات الوثقى بين تركستان وقبائل « الياقوت » في سييرية ، الذين انما يعدون بسبب نسابتهم اللغوية أبعد العروق التركية الضاربة شرقاً ، ويجب على قبائل التتر الغربية اللصيقة المجاورة في القوقاس أن تندمج في الأمة التركستانية اندماجاً تاماً . وذلك يتم بطبيعة الحال . ويجب على الأرمن والكرج الذين منهم تتألف الأقلية في كل قطر من قطريهم أن يندغموا أيضاً في هذه الأمة ، سواء كان ذلك منهم عن طوع أم كره . فان امبراطوية تركية . ضخمة منيعة ، مترامية الأطراف مثل هذه ، ولها سيادة على جميع العالم الاسلامى يكون في استطاعتها حينئذ أن تسيطر بنفوذها وتأثيرها على أفغانستان ويران . . . وفي كانون الأول سنة ١٩١٧ لما اشتدت رجي الحرب في الجهة العراقية وضويق الجيش التركي مضايقة شديدة حتى بات على وشك التسليم ، قال لى خليل باشا مازحاً جاداً : وافرض مزحاً اننا نحن الترك قد غادرنا هذه الصحراء المهلكة وتخلينا عنها لئلا نجاء اليها الانكليز ، وذهبنا نحن الى تركستان حيث منشأنا القديم وحيث نستطيع أن ننشئ امبراطورية جديدة ، لابنى هذا الأصغر ، وكان قد سمي ابنه باسم الفاتح المخرب - جنكيزخان (١) »

(١) لزيادة الاطلاع على الجهود التي بذلها الترك خلال الحرب العامة في سبيل عصبيتهم الجنسية اقرأ : - « رسالة في الطورانيين والجامعة الطورانية » جمعها الفرع الجغرافى في قسم الاستخبارات البحرية لأركان الحرب في امارة البحر العامة (لندن ١٩١٩)

A " Manual on the Turanians and Pan-Turanianism ,, " Compiled By the Geographical Section of the Naval Intelligence Division, Naval Staff. Admiralty ,,

وكتاب « الهلال والصليب الحديدى » (لندن ١٩١٨)

E. F. Benson , " Crescent and Iron Cross ,,

وكتاب « ترك آسية الوسطى : أو بحث في الجامعة الطورانية » (ا كسفورد ١٩١٨)

M. A. czaplicka, " The Turks of Central asia : An Inquiry into the Pan - Turanian Problem ,,

وفي صيف ١٩١٨ اجتاحت العساكر التركية^(١) عبر القوقاس وشمالى ايران متخذة اسية الوسطى وجهتها. ثم بعيد ذلك نزلت النازلة الكبرى بالمانية فتضعفت وتزلزلت ، واتتهت الحرب العامة انتهاء جلب على تركية الخراب والتلاشى ، فصرع رجال الجامعة الطورانية صرعة كبيرة ، وحلت بساحتهم الحيرة ، غير انه قد قيض لآمالهم الاتعاش من بعد ذلك بمدة قريبة كما ترى كيفية ذلك في موضع قريب من هذا الفصل

يجدر بنا قبل أن نأتى على البيان والوصف لمجارى الحوادث فى الشرق الأدنى منذ سنة ١٩١٨ ، الحوادث التى يجب أن تعتبر سلسلة متصلة الحلقات ، أن نسوق الكلام على الدور الثانى لتريقات العصبية الجنسية والنهضات القومية فى سائر العالم الاسلامى . وقد سبق لنا العلم بأنه لما كانت العصبية الجنسية التركية تنمو مجتازة دورها الثانى كانت العصبية العربية تنمو معها جنباً الى جنب مجتازة دورها الثانى كذلك ، رامية الى انشاء امبراطورية الجامعة العربية المشتملة ليس على البلدان العربية المعودة الوطن الاثنولوجى للعرب من شبه الجزيرة وسورية والعراق فغصب بل أيضاً على الاقطار المتعربة من مصر وطرابلس وسائر بلدان افريقية الشمالى الخاضعة لفرنسا وعلى السودان .

على أن الجامعة العربية لم ترق الترقية الأديية كما رقيت الجامعة الطورانية ، مع أن متجهها العام شبيه بمتجه تلك شبيها يفئنا عن تفصيل مبادئها وتعاليمها . انما هناك فرق كبير بين مجرى العصبيتين ، وهو ان الجامعة العربية قد ظهر فى صفاتها وحالاتها من صبغة الدين والجامعة الاسلامية أكثر مما ظهر فى تلك . لان العرب يفخرون بأن مبعث النبي كان فيهم ، ويعدون أنفسهم « أمة الرسالة » التى قدر لها من قبل السيادة على جميع العالم الاسلامى . وينقص الجامعة العربية التنظيم ووحدة السير والمتجه ، تلك الوحدة التى عرفت

وكتاب « قصة السفير مورغنتو » (نيويورك ١٩١٨)

H. Morgenthau, "ambassador Morgenthau's Story",

ومقال « الروح التركية » نيسان ١٩٢٠

a Mandelstam, "The Turkish Spirit", "New Europe",

(١) صادفت خليل باشا مرة بالاستانة عند تحمين بك والى الشام السابق فسمعتة ينادى ابنه الصغير باسم جنكيز . فقلت له : ألم تجد له اسماً غير هذا . فقال لى : سميتاه محمدجنكيز ، فجمعتا بين الأمرين . يريد أن يقول بين الاسلام والطورانية . فهزرت رأسى لهذا الجواب . (ش)

في الجامعة الطورانية . ولم تبرح سورية ومصر المركزين المعروفين اللذين تنبعت منهما قوة الحركة للجامعة العربية (١) . وفي الواقع الصحيح ان التدابير والخطط الكبرى للجامعة العربية قد نظمت تنظيمياً وأنضجت في مصر . وأما البرنامج المصري للجامعة فهو يرمى الى توحيد جميع الأقطار العربية وعلى رأسها الخديوى - وربما صارت هذه الأقطار العربية المتحدة خاضعة للمصايف البريطانية أول العهد ثم بالتالى تنفض عنها هذه المصايف وتمزقها بمقاومة عامة تقوم بها جميع أقطار الجامعة العربية . ويعزى الى الخديوى عباس حلمى الذى خلعه الانكليز سنة ١٩١٤ تشجيعه لهذه الحركة (٢)

وبما لا ريب فيه ان الحرب العامة قد هاجت الجامعة العربية هياجاً شديداً ، وبعثت فيها قوة كبيرة ، ولا سيما بما قضت به الحرب من انشاء مملكة عربية مستقلة في الحجاز ، مدلية بحقوقها في سورية والعراق ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الهياج والاطراب ، والهرج والمرج هنا وهناك ، واثارت تطلب الاستقلال ، متطلعة نحو اسقاط السيادة الاجنبية ومحوها محو تاماً ، وهى السيادة البريطانية والفرنسية والايطالية المنتشرة في مصر وسورية والعراق وطرابلس الغرب وسائر الأقطار العربية . وقد استغرق الهياج هذه البلدان جميعها استغراقاً جعل تلك الغاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية ،

(١) المركز الوحيد الذى يمكن ان تؤسس به الآن دولة كبرى تجمع بين جانب كبير من أفرقية وجانب آخر عظيم من آسيا ويستأنف به مجد الرب والشرق أجمع وتحفظ به الموازنة الضرورية لتمكين السلام بين الشرق والغرب هو مصر القاهرة . اذ بمصر جميع ما يلزم من مواد بناء الدول الضخمة من وفرة الاهالى ، وخصب الاراضى ، وثروة البلاد ، وتوسط الاقليم وآثار المدينتين الفرعية والغربية ، وكثرة المباني الاميرية والمعاهد العلمية والخيرية ، الى غير ذلك من اشراط قيام الدول العظام . وبمصر كانت دول يفخر بوجودها التاريخ قبل الاسلام وبعده ، ولمصر من الوسائل لتحقيق أمل العرب لميلس لغيرها ولا ينقص مصراً سوى الاستقلال الحقيقى وحسن نية المستعمرين (ش)

(٢) لزيادة الاطلاع على سير الجامعة العربية وترقيتها اقرأ : —

A.Musil, " Zur Zeitgeschichte von Arabien , (Leipzig 1918) M Pickthell

« تركية وانكثارة والازمة اليوم » اكتوبر ١٩١٤

« Turkey, England and The present Crisis, (Asiatic Review)

الشيخ عبد العزيز جاويز — مقاله

« Das Machtgebiet der Arabischen Sprache Preussische Jahrbücher

وان كانت لم تبرح عاملاً شديداً ، غير ظاهرة كما كانت من قبل ، في صدر البرامج التي في أيدي رجال العرب القائمين بالنهضات القومية الوطنية الذائدين عن حوض العصبية الجنسية العربية .

زد على ذلك ان الجامعة العربية مشتبكة النسيج ، كما قلنا قبلاً ، بمبدئين عامين شاملين ، لا يختصان بعنصرية أو جنسية دون أخرى ، وهما مبدأ الجامعة الاسلامية وجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، ولعل هذا المبدأ الأخير يبدو لنا نحن الغربيين موضوع التناقض الغريب ، من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين . ان الشرق وان استمسك جهده بمبادئنا وأفكارنا في الجنسية والوطنية ، واتحل ما اتحل من عقائدنا فيهما ، فهذه المبادئ والأفكار والعقائد اذا انتقلت الى الشرق تشربتها العقول الشرقية الملائى بصنف آخر من المبادئ والعقائد الرامية الى الوحدة الاسلامية وتآخى جميع المؤمنين على اختلاف الأقسام والفرق ، بحيث نشأ عن ذلك التلبس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التلون المختلف الى حد غدا عنده المسلمون متى ما استعملوا الكلمات التي نستعملها نحن مثل « الجنسية » و « الجنس » ، ذهبوا في فهم معنييهما مذهباً مخالفاً لمذاهبنا ، وقس على هذه الاختلافات والفروق التي بيننا وبين الشرقيين ، ما هو شائع في أفق جميع المبادئ والعقائد السياسية . خذ لك مثلاً كلمة « الدولة » ، فان الدولة الاسلامية التي يصح اتخاذها مثالا للمقارنة ، ليست كالدولة الغربية المشتمل تحديدها على وحدة معينة من الناس ، وأرض يسكنونها مقررة الحدود ، وسلطان ممارس نافذ تمام النفاذ في كل مكان داخل حدود الدولة . بل ان الدولة في الشرق الاسلامي انما هي كناية عن كتلة ، قلت أم كثرت ، غير مستقرة الشكل ولا النصاب ، ولا منتظمة التركيب ، لها نواة مركزية هي مصدر السلطة المنبعثة منها ، انبعثاً مشتملاً على معنى الاستقلال المبهم التحديد ، تعتوره آفات الفوضى ويشوبه الاختلال . ومن المعلوم ان غالب الدول الاسلامية ما برحت منذ نصف قرن تجدد في تنظيم حكوماتها ، واصلاح شؤونها وسائر أحوالها ، ناسجة في ذلك على منوال الدول الغربية . غير ان المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثال كما في أفغانستان حيث القبائل التي عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهي قبائل أفغانية متملكة استقلالاً عملياً صحيحاً ، كانت تقوم من تلقاء نفسها في المدة بعد الأخرى بشن غارات عنيفة على الانكليز ،

غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يتصل من تبعتنا اتصالاً انقطع عنده دهاء الانكليز .

والأمر كذلك في الجنسية عند المسلمين . ليست الولادة في البلاد ولا التجنس على الأصول الرسمية شرطاً لمن يريد أن يكون فرداً من أفراد أمة اسلامية في قطر من الأقطار ، متمتعاً حق التمتع بحقوق الجنسية الاسلامية . فوطن المسلم هو العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، لذلك يستطيع الهابط أية بلاد اسلامية أن ينال للحال أى وقت شاء حقوق الوطنى المكرّم ، ذى المقام والمنزلة بين ظهرانى القوم . فالعبارة : « مصر للمصريين » مثلاً لاتعنى ذلك المعنى بعينه الذى تصوره نحن فى الجارى المعتاد . فاذا ما أقام مسلم جزائرى أو دمشقى فى القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره « مصرياً وطنياً حراً » بصحيح معنى العبارة . والسبب فى ذلك ان من منازع الاسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الاقليمية ، جميع الأقطار والممالك والبلدان الاسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الاسلام » (وضدها دار الحرب) وهى المواطن التى قاطنها مسلمون ، يجب عليهم باعتبارهم أمةً واحدةً متحدةً ، الذب عن سياجها والذيادة عن حياضها وهذا هو السبب فى اننا نرى انه كلما أصاب اعتداء أجنبى طرفاً من العالم الاسلامى ، هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد ، على غير أن يكون هناك اشتراك فى المصلحة المادية يحمله على ذلك ، كأنما المعمور الاسلامى جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء .

ترانا بعد جميع ماتقدم نستطيع أن نعلم كم هناك من المفكرين المسلمين الجامعين لمبدأ الجنسية الغربية وسنة « دار الاسلام » التقليدية ، الذين قد ألفوا بين هذا وتلك تأليفاً مشتركاً نجم عنه مزيج فكرى جديد ومعتقد عام عرفا بمجموعة العصبية الجنسية الاسلامية ، وقد بين مسلم هندى متجه هذا المعتقد بقوله : « ان جميع علوم الغرب فى فن الحكومات قائم على قاعدة ان الفروق الجوهرية فى بنى الانسان مقررة على اعتبارات جنسية وجغرافية . على أن هذه القاعدة ليست بمعروفة هكذا عند الشرقيين ، فعندهم أن الفروق الانسانية هى قائمة على اختلاف فى المعتقدات الدينية ، فليست الوحدة لعمرى فى الأمة ولا فى البولة بل فى الملة . ويرى الأوروييون فى مثل هذه الحال فى الشرق اليوم مثلاً

لتلك الحال التي اجتازتها أوروبا في القرون الوسطى ، اذ أن العالم الاسلامى ليجتاز دوراً لامندوحة له عن اجتيازه وهو دور التجدد السليم والانتقال الصحيح . وعلى هذا فما أسوأ فهم الغربيين لتلك الصورة الجامعة المتجلية للمسلم في دينه !! ان الغربيين لينسون ان الاسلام ليس مقصوراً على كونه ديناً فحسب ، بل انما هو نظام اجتماعى ، ونهج تهندي ، تضاف اليهما الجنسية . ان قاعدة التآخى الاسلامى ، وان شئت فقل الجامعة الاسلامية ، هي مقارنة « للوطنية » ومماثلة لها ولكن بينهما فروقا : وهي ان هذه الجامعة الاسلامية وان أدت الحال الى التحاكي في الشرائع والقوانين والعادات ، فانها ليست (كالجنسية الغربية) قائمة على الوحدة في الجنس والاقليم والتاريخ ، بل انها قد تلقيت من الله تلقينا توأ على حسب معتقدنا ^(١) .

ان جامعة العصبية الجنسية الاسلامية ، لظاهرة حديثة النشأة ، لم تقرر تعاليمها بعد ، غير انها بادية جلية في العالم الاسلامى قاطبة ، وهي أبدأ تزداد اعتزازاً ومنعة ولاسيما في أقطار شمالي افريقية والهند حيث لم تكن هناك الوطنية الاقليمية الشديدة لسبب ما مترقية ترقى غيرها في سائر الأقطار . قال كاتب فرنسى في هذا الصدد : « ان العصبية الجنسية الاسلامية ليست هياجاً موضعياً في قطر معدوماً في آخر ، أو اضطراباً موضعياً غير منظم ، بل انما هي تيار جارف بعيد الأفق ، وطوفان طام العالم الاسلامى طراً من آسية والهند وافريقية فالعصبية الجنسية انما هي شكل حديث للاسلام له منعة في ذاته لا يقوى على زعزتها الاضطدام بالحضارة الغربية . وهذه العصبية سائرة سيرها مستعينة بكل عامل شديد من الغيرة الدينية ، ومستعدة للامتداد والانتشار ورد الناس الى دين الرسالة ، ونزاعة الى تحقيق وحدتها باشغال تعصب العامة من المسلمين وبالسيطرة على المرامي السياسية التي تدير دفتها الخاصة ، وينذر بذور الهياج الهائل في كل صقع وقطر ^(٢) » جامعة العصبية الجنسية

(١) محمد على رئيس « وفد الخلافة » الوفد الذى أوفده مسلو الهند الى بريطانيا سنة ١٩١٩ ليحتج على تقسيم الامبراطورية العثمانية بمقتضى معاهدات الصلح - من مقال لهذا الرئيس « الحركة الاسلامية في الهند » (كاتون الثانى ١٩١٤)

«Le Mouvement Musulman dans L'Inde », (Revue Politique Internationale)

(٢) كتاب « العصبية الجنسية الاسلامية » المذكور قبلا لسرفيه .

الاسلامية ستكون في المستقبل عاملاً كبيراً وركناً أعظم ، يقام له ويقعد في العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه^(١).

— ٣ —

هنا ينتهي وصفنا للعصيات الجنسية في العالم الاسلامي . ولعمري الحق ليس من الغرابة في شيء أن نرى الشرق ، وقد ارتوت نفوس شعوبه وأمه بضر وب من المطامح القومية والآمال الاستقلالية التي هاجتها الحرب التكونية أعظم هياج فصيرتها ناراً ذات هب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب التي نزلت عليه ويلاً عمياً وبلاء شاملاً ، مرجلاً شديد الغليان غوراً ، ويركناً تأثراً . من المعلوم البين انه قد كان من المستطاع عقد مصالحت سليمة من النقائص والمشايخ . وذلك بالجري على السياسة الصحيحة الشريفة النسيج ، السوية النهج . لكن مؤتمراً فرحات السلم كان ويا للأسف الشديد متجرداً عن كل سياسة رشيدة ، وتسوية حكيمه ، وحصافة في الرأي ، ونظر بالعواقب فنجم عن ذلك أن تلك « التسويات » الفاسدة التي وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شر محبوط ، ليس في ضمان السلم لأوروبا فحسب بل كان من شأنه ااماطة اللثام وريح الخجاب عن موقف الغرب الحقيقي ازاء الشرق ، ذلك الموقف الراجح الذي عادت ظهرت فيه تلك الروح التي عرفنا ما قبل الحرب ، روح التوسع الإمبراطوري والجنح الاستعماري ، روح استتلاب الشعوب بوارهاقتها ، واتهاب ما بين أيديها وما خلفها ، واستنزاف دمايتها ، وشد الاختنقة على ما حولها برفقاتها . زد على هذا أن الحلفاء الظافرين طمعت بصانهم نعمة أشد العمة ، غير معتبرين شيئاً التطورات النفسانية الطامة التي حدثت في الأمم الشرقية من جراء الحرب ، فلم يلجأوا الى تبديل موقفهم بأفضل منه على ما تقتضيه الحال المستجدة ، والى انتهاج نهج سياسي خير

(١) لزيادة الاطلاع على جامعة العصيات الجنسية الاسلامية اقرأ بعد سرفيه ومحمد علي :- « الاسلام في

القرن التاسع عشر » (باريس ١٨٨٨)

a. Le chatelier, L'islam au dix - Neuvième Siècle

« انكلترا والاسلام » (حزيران ١٩١٩)

Sir T. Morison " England and Islam' - " Nineteenth century and after, ,

G.Démorgny, " La Question Persanne ,, (باريس ١٩١٦)

« عبر الفوقاس ماضياً وحاضراً » (اكتوبر ١٩٢٠)

W. E. D. allen, " Transcaucasia. Past and Present ,, " Quarterly Review

من ذلك الذى اتجهوه قبلاً ، بل ظلوا على المضى فى معاملة الشرق بالخفة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب العظمى التى أن من فدح عبئها الثقلان ، ومادت من شدة وطأتها وكابوسها هذه السيارة الأرضية ، ما كانت سوى مساجلة ومناوشة ، وأن آسية ما برحت ذلك الجبار المستغرق فى هجمته كما كان منذ قرن خلا .

أجل ، شرع الحلفاء يستهزئون بما كانوا قد نشروه خلال الحرب من أنواع التصريحات التى قرعوا بها أسماع الشعوب مئات من المرات ، وضمنوا بها قواعد الحرية وأساس العدل ، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التى قطعوها لشعوب الشرق الأدنى ، فى تقرير المصير ، خلال المعمان الأكبر ، وطفقوا ينشرون على الملأ سلسلة من المعاهدات السرية (المعقودة بين بعض وبعض منها فى الحين الذى كانوا فيه يصرحون بالزيادة عن الحرية وتقرير المصير) وأرادوا بمقتضاها تقسيم الإمبراطورية العثمانية ، إشباعاً لشههم الكلبى ونهمتهم الوحشية ، متمنين شرمتها إرادة أهالى البلاد ورغبتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة . وكان مؤتمر فرساي كشافاً عن واقع المقاصد السيئة والأغراض الخبيثة التى انطوى عليها الحلفاء ، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخداعة التى التزم جانبها المؤتمر فى رفضه قبول وفد ايران الذى أوفدته حكومته لبسط القضية الايرانية (وايران كانت ما برحت مستقلة استقلالاً اسمياً ظاهراً) . فكان من الأمر أن حمل المؤتمر الوفد على البقاء فى باريس مدة جعل يعمله خلالها بالسراب الذى يراه المسافر فيحسبه ماء ، بينما كانت الحكومة البريطانية تشد الخناق على عنق حكومة الشاه فى طهران الى أن أكرهتها اكرهاً على إبرام « اتفاق » باتت ايران كلها بمقتضاه بلاداً محمية فى كنف الامبراطورية البريطانية . وأما المصريون - الذين كان دأبهم وديندهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التى أعلنتها بريطانيا منفردة ، من تلقاء نفسها ، فى مصر سنة ١٩١٤ - فقد أوفدوا الى باريس وفداً ليسط قضيتهم فرفض مؤتمر فرساي الأضاخة لأقوال الوفد ، بل أفهم رجاله أن المؤتمر انما يعتبر الحماية البريطانية فى مصر أمراً قضي وحكما أبرم . فنجم عن جميع ذلك ماعدت نتيجة من نتائج الحرب ، وهو أن السيطرة الأوروبية على الشرقين الأدنى والأوسط قد شدت أطنابها ، وتوطدت عمدتها واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله .

على ان الأمر الأغرّب والأعجب في جميع القضية لم نبسطه بعد . قد يخال بعضهم أن قادة الحلفاء ما كانوا الا ليدركوا أنهم كانوا في نهجهم هذا النهج يركبون مركباً خشناً ، ويعانون صعباً في سبيل أمر لا يستطيعون بلوغ الغاية منه الا بصف الجانب الى الجانب ، وتعاقد الأيدي على التعاون ، وتعارض شد الأزر ، وسرعة الامضاء . غير ان الواقع كان الضد كل الضد من هذا . إذ انهم لم يكادوا يمدون أيديهم بعضهم لبعض حتى ذعر الشرق ايما ذعر ، واجفل ايما اجفال ، متقدماً حقناً وغضباً وبأساً . فما كانوا ليقيموا لهذا شيئاً من الوزن والاعتبار ، بل ركبوا رؤوسهم في طريق السوء وشرعوا يتخاصمون ويتقاتلون على اقتسام الغنيمة ، بحيث صار كل منهم يتهجم للآخر ، ويريد أن يفوز على سائر شركائه بالسهم الأريح والنصيب الأوفر . فانقضت سنتان دون أن تستطيع بريطانيا وفرنسا واطالية الوصول الى إبرام اتفاق بينهما ولو ظاهراً ، يرتضين بمقتضاه خطة في تقسيم الامبراطورية العثمانية ، بل ظللن طول هذه المدة ينهش بعضهم أفقية بعض ، وتكيد الواحدة المكاييد وتلقى الأحايل والاشراك في سبيل الأخرى . وكذلك كان شأنهن في جميع الشرق الأدنى . قل الحق ولا تخش لوماً . انما ذلك كان خفة وطيشاً وجنوناً ، فباتت الشعوب التي قضى عليها بأن تكون ضحايا بريئة ، تمزقها محالب الاستعمار ، تدرك جيداً من وراء ذلك التطاحن الذي شرع يتطاحنه الحلفاء على مشهد منها في سبيل امتصاص دمائها ، أن السيطرة الاوروية قائمة ليس فقط على « الافلاس » في الآداب الصحيحة والأخلاق الكريمة بل في السياسة أيضاً ، واضحت النتيجة جلية ، وهي أن سيطرة متهدجة مثل هذه السيطرة القائمة على أساس المفاسد والعيوب ، لعجلان ماتزلزل شرزلة ، وتقوض تقويضاً يصيرها أنراً بعد عين .

هذه هي الحالة العامة التي يفقها الشرقيون اليوم ، على أن شعورهم بحولهم وقوتهم وبتضعف الغرب وتقاطعه وتفكك أوصاله ، لم يكن الهاجس الفذ الذي هاج منهم هذه النفوس الثائرة ، بل ظهر لهم هناك حليف جديد وقف من ورائهم وما فتئ يجد في تشجيعهم على القيام في وجه الغرب ، يؤرث نار العداء بينهم وبينه - ألا وهو الروسية البلشفية ، التي قد قلبت لاوروبة ظهر المجن وانبرت تبتغي نزال الحضارة الغربية . فلما اشتد الخطب واستحكمت حلقاته ، وخرج المأذق بين الشعوب الشرقية والدول الغربية ، وجد القادة

البشفيون الفرص الكثيرة قد لاحت في الشرق آخذاً بعضها برقاب بعض ممهدة لهم سبل الوصول الى غايتهم ، فهللوا لها فرحاً وسروراً ، وشرعوا يبتون دعوتهم المعروفة ، وسنفضل الكلام على المساعي البشفية والأعمال التي قام بها قادتها في الشرق في فصل « القلق الاجتماعي » من هذا الكتاب . غير ان ما يعيننا علمه الآن هو ان الدعوة البشفية انما هي عامل كبير في هذا الغليان الشديد البعيد الغور ، والثوران الشامل المنتشر في الشرقين الأدنى والأوسط ، الذي جر فادح البلايا الى بعض الأقطار وجلب عليها الخراب والدمار ، وما زال منذراً بالتزايد والتفاقم في المستقبل القريب .

اننا لو شئنا التفصيل في شأن هذا الاضطراب المشهود اليوم في الشرق لاستغرق ذلك أسفاراً ضخماً . لذلك نقصر الكلام في هذا المقام على المراكز الكبرى التي هي مناشئ هذا الاضطراب ومبعثه ومصدره ، عالمين ان هذا الغليان عام الطوفان ، مطبق الطمو في جميع العالم الاسلامي ، من الأقطار الافريقية الشمالية الفرنسية الى أواسط آسية والجزائر الهولندية . وأما المراكز التي نبسط الكلام عليها الآن فهي مصر وايران وتركيا والأقطار العربية المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية . وهناك غير هذه المراكز مركز خامس كبير هو الهند . غير اننا سنسبسط الكلام على هذا المركز الأخير في الفصل الذي يتلو .

ان العاصفة الأولى قد عصفت في مصر . ظلت مصر مدة الحرب وهي مغمورة بطوفان الجيوش البريطانية ، ومصفدة شر تصفيد بالأغلال العسكرية (العرفية) ساكنة هادئة ، ولكن تحت ضغط الجور الهائل وازهاق الحد والقسوة العسكرية ، لاعن طاعة مختارة ولا عن طيب نفس ، وقد علمنا فيما سلف من الكلام في غير موضع كيف أضحي جمهور متهذبة المصريين عند مطلع القرن العشرين ، متشر بين قليلا أو كثيراً لمبادئ القومية والعصية الجنسية ، من حيث كان جانب كبير منهم يعتقدون نهج مناهج الارتقاء المتدرج ، لانهج العنف والثورة . وكان المعتدلون من المصريين أقوياء الأمل بحسن العقبى والسبب في ذلك كون الحكم البريطاني ذا صفة مؤقتة لادائمة . كما أن بريطانيا قد أعلنت من ذاتها مراراً انها محتلة مصر « احتلالاً مؤقتاً » ، مما جعل المصريين يعتقدون ان جميع ما يرجون نيله لمستطاع . غير ان اعلان الحماية سنة ١٩١٤ اعلاناً جعلت مصر بمقتضاه قسماً من الامبراطورية البريطانية ، كان من شأنه انه بدل بصورة القضية تبديلاً تاماً ، ونقض

شكها نقضاً كلياً ، فأيقن جميع أهل مصر حتى أكثر الوطنيين اعتدالا ان قد قضى على مستقبل مصر بالويل قضاء مبرماً ، وسبق السيف العذل ، وان الأبواب قد أغلقت دون النجح شر إغلاق ، وأوصدت دون بلوغ آمالهم ونيل مطامحهم ، وحيل بينهم وبين ما يبتغون فنجم عن ذلك ان انحاز المعتدلون الى جانب الغلاة وباتوا جميعاً من بعد ما كانوا شتى ، على استعداد للقيام بأعمال الشدة والعنف والمقاومة والمشاكسة عند سنوح الفرصة ولوح النهزة .

وكان غلاة الوطنيين ماقتوا منذ بدء الأمر يوالون احتجاجاتهم على اعلان الحماية ، فعند ختام الحرب العامة أوفدت مصر وفداً مؤلفاً من المعتدلين والغلاة الى باريس ليقوم ببسط القضية المصرية لدى مؤتمر فرساي ، نخب المؤتمر الوفد كما ذكرنا ذلك في موضع قريب ، وأبى الاصاخة لأقواله واستماع شكواه ، معترفاً بالحماية البريطانية في مصر جزءاً مندجماً في التسويات التي بنى عليها عقد الصلح . فرفع الوفد المصري احتجاجاً رسمياً منذراً فيه الحلفاء بنشوء الاضطراب في مصر ، جاء فيه : -

« لقد قرعنا الباب اثر الباب لكن على غير طائل . وانه بالرغم من العهود المؤكدة والوعود الموثقة ، التي قطعها رجال السياسة الذين كانوا على رأس الأمم التي جنت ثمار الظفر ، بأن فوز الحلفاء انما هو نتيجة لنصر الحق على القوة ، ولتأييد مبدأ « تقرير المصير » بحيث تترك الامم الصغيرة وشأنها تختار لنفسها من أنواع الحكم ما تراه موافقاً لمصلحتها ، - بالرغم من جميع ذلك - فان الحماية الانكليزية على مصر قد أدخلت في نص معاهدتي « فرساي » و « سان جرمن » ، دون الوقوف على رأى الشعب المصرى في أمر موقفه السياسى .

« فنحن ازاء هذه الجريمة الواقعة على أمتنا ، والتي هي في الواقع خيس بالعهود من قبل الدول التي أعلنت للامم كافة انها واضعتى تلك المعاهدة نفسها بناء «عصبة الأمم» ، لابد لنا من التحذير الشديد الى أن الشعب المصرى ليعتبر هذا الحكم الصادر عليه في باريز باطلاً لا وزن له البتة واذا لم يسمع تحذيرنا هذا فانما ذلك لأن الدماء التي أهرقت من قبل في سبيل حرية الأمم لاتزال غير كافية لقلب النظام العالمى القديم ، واحلال نظام عالمى جديد محله . »

فكاد جبر هذا الاحتجاج يجف حتى أخذ الاضطراب ينشأ وينتشر في مصر . وفي الحين الذي فيه وصل الوفد الى باريس ليعتد القضية ، رفع الوطنيون في مصر مطالبهم الى السلطة البريطانية ، واشتمل برنامج الوطنيون على مطلب الحكومة الذاتية الناجزة لمصر مبقياً لبريطانية حق المشاركة على الديون العامة وقناة السويس . وظهرت قوة الوطنيون مظهراً شديداً مؤيداً ، وذلك ان مطالب البرنامج بجملة هي مما وافقت عليه الوزارة المصرية التي عينها الخديوي قبيل ذلك تعييناً نائلاً لرضي الحكومة البريطانية . فطلب رئيس الوزارة المصرية رشدي باشا أن يؤذن له ولبعض زملائه في الشخوص الى لندن للمفاوضة مع حكومتها ، فأتمت السلطة البريطانية عند هذا الطلب في موقف حرج ، لكنها اختارت أن تعتم التصلب في موقفها ، وعلى ذلك أجابت أن الحكومة البريطانية ليس في وسعها أن تتخلى عن التبعة الملقاة على عاتقها وهي التبعة المنقضية استمرار الأمن والنظام والحكومة الصالحة في مصر ، وهي البلاد التي أصبحت تحت حماية بريطانية وصارت جزءاً متمماً للإمبراطورية لا ينفصل عنها ، وان ليس هناك عائد خير يستفاد من السماح للزعماء المصريين بالذهاب الى لندن حيث يبسطون مطالب غير معتدلة لا يستطيع الاصفاء اليها ولا مما يحتمل وضعه على بساط البحث والاعتبار .

ان موقف الانكليز في مصر كان شديداً صلباً ولكن ما كان موقف الأمة المصرية بأقل منه شدة وصلابة . فاستقالت الوزارة للحال ولم يدن من المستطاع تأليف وزارة تخلفها ، الامر الذي اكراه المندوب السامي البريطاني الجنرال النبي على الاخذ بأزمة الحال بيد شديدة على غير هيبة ولا وجل . وفي هذه الغضون جاهر رجال النهضة انما يريدون استفتاء الامة المصرية استفتاء تعرب فيه عن مقرر موقفها في ذلك البرزخ . فأبّت السلطة البريطانية على الوطنيون ذلك وشرعت تحول دون نيل مرادهم ، ولكن على جميع هذا قد استطاع الاستفتاء وان كان غير قانوني ، فكانت نتيجته على ما أراد رجال النهضة ، وهي تأييد الشعب تأييداً عاماً للطالب الوطنية . فحمل ذلك الموقف - الذي وقفته الامة متضامنة يشد بعضها بعضاً - الحكومة البريطانية على ارهاق الحد والاستعانة بوسائل القسوة والعنف ، فقبضت السلطة البريطانية في مصر على أكثر القادة الوطنيون وأبعدتهم الى مالطة في ربيع ١٩١٩ وزعقت في آذان الامة المصرية زعقة ما كان أشدها .

على أن مصر أجات المرعب المهتد بالانفجار الهائل فالتهب نار الثورة في البلاد من أولها الى آخرها وما كان شوب النار في موضع أقل منه في آخر نغرب المسالك الحديدية تخريباً ، وقطعت الاسلاك البرقية تقطيعاً ، وهوجت القطر واستلبت استلاباً ، وقتل الضباط والجنود البريطانيون حيث كانوا يثقفون على انفراد تفتيلاً ، وفي القاهرة وحدها نهب الغوغاء ألوفاً من البيوتات والمنازل ، وزاد الخوف واشتد البلاء بتدفق عرب البادية مغيرين للغنيمة والسلب ، فظلت مصر في هرج ومرج تتهدج على شفا جرف الفوضى ، واعترفت الحكومة البريطانية أن مصر انما كانت في فتنة صماء .

فاستقبلت السلطة البريطانية المأزق الحرج برباطة جأش وشدة مضاء وكان عدد الجنود البريطانية في مصر كثيراً ، واستقدمت الكتائب السوداء الامينة من السودان . وقام الشرط الوطنيون المصريون ، المدربون تدريباً حسناً ، بطاعة الامر في الساعة العصية . وكانت بضعة أسابيع اشتد فيها الاضطراب واستحرق القتال ، وعظمت الخسارة في النفوس والثمرات ، ثم سكنت مصر واقتيدت تحت جناح الحكم .

وأعيد النظام ، غير ان البلاد ظلت ظاهرة مظهراً غاية في التشاءوم مملوءاً بنذر السوء وشر العقبي ، وما كان حفظ النظام مستطاعاً البتة لولا العدد الكبير من العساكر البريطانية والسودانية ، وما كان التشدد الهائل بتطبيق الاحكام العسكرية (العرفية) الجائرة بحائل لأهل مصر دون القيام بالتظاهرات الوطنية بعضها يتلو بعضاً ، مما كان ينتهي أحياناً بالهرج والمرج ، والاختلال والقتال ، وازهاق الارواح العديدة . غير أن الامر الأهم في جميع هذه الحالة هو أن أهل الطبقات العليا في الامة لم يكونوا وحدهم المشتعلين بنار الوطنية والمتعاقدين بعضهم مع بعض على الزياد عن حوض العصية المصرية ، بل كانت من ورائهم الملايين العديدة من الفلاحين الذين كانوا من قبل معروفين بصدق طاعتهم والاخلاد الى السكينة ، لكن الحرب العامة كانت ألفت بجرانها عليهم وعانوا من جرائمها الويل الأكبر ، اذ حملت الضرورات العسكرية الدولة البريطانية على تجنيد مليون واف من المصريين الذين ساقتهم للقيام بالأعمال الاجبارية في الشرق الادنى حتى وفي أوروبا ، وجعت بريطانيا من مصر المقادير العظيمة من أنواع الحبوب والاعلاف والميرة اللازمة للجيش ، الامر الذي هاج نقمة الفلاحين ايما هياج ، وأضرم فيهم في الباطن الشنأة الكبرى

للحكيم البريطاني مما أخذ يظهر بالفعل والحس والعمل فبات ثقات خبر الانكليز المتضلعين من شؤون مصر يتشاءمون من الحال شديد التشاؤم . قال السروليم ويلكوكس المهندس المشهور ، بعيد الفتنة ، في بيان عام له : « ان الفلاحين في مصر كانوا حجر الزاوية التي قام عليها الاحتلال البريطاني ، وأما الشيوخ ورجال العمد وأهل الاحكام ورجال الدين فقد كان شأنهم من حيث زعزعة الاحتلال لا يؤبه له ، لانه سواء ناصبنا هؤلاء العداة أم لا فقد كان وراءنا ملايين من الفلاحين سنداً للاحتلال كبيراً . بيد أنه مما لاريب فيه البتة اليوم أن الحكومة البريطانية قد اضعفت ولاء هذه الملايين لها وفقدت ثقتهم بها » . وقال السرفالنتين تشيرول في مقال له نشره في « التيمس » اللندنية : « ان هناك حقيقة جارحة أمسينا اليوم نراها مصرحة عن محضها ، الا وهي قيام سواد الفلاحين المصريين للمرة الاولى منذ أول عهد الاحتلال ، وهم مدينون لنا بنعمتهم وحسن حالهم أكثر من سائر طبقات الشعب ، ينتفضون علينا وينقلبون لهبة من النار مندلعة يريدون التهامنا . اني أعتقد أن الواقفين حق الوقوف من أبناء قومي حتى من أهل الحل والعقد من أرباب المقامات الرسمية على حقيقة حرج الموقف واشتداد المأزق في مصر لقليلون جدا . فقد طفق الكيل ونحن عن ذلك غافلون »

وقد راع الشعور الوطني الشديد أرباب النظر والاستقصاء روعا كبيرا ، وهالتهم ثورة العصبية الجنسية المصرية هولا عظيما ، تلك الثورة التي كان من شأنها أن وحدت جميع طبقات الأمة وألقت بين الاسلام والنصرانية . قال كاتب ايطالي في شأن التظاهرات الكبرى الهائلة التي أقيمت في مصر خلال سنة ١٩١٩ معظما مكبرا : « إن هذه المرة هي الأولى في التاريخ رأينا فيها الرايات خفاقة والاعلام خطارة في مصر وقد نسجت خيوطها أهلة وصلبانا ظهرت في وادي النيل ، فقد ظل العنصران الاسلامي والنصراني في مصر حتى العهد القريب متقاطعين متدابرين ، بنفر كلاهما من الآخر كما ينفر من اليهود ، أما اليوم فقد حدث في مصر كما حدث في الهنديين المسلمين والهنديين ، من احماء آثار التعصب وزوال الانشقاقات الدينية . المختلفة . ان المصريين قاطبة قد غدوا يتظلمون علماً وطنياً واحداً ، وبات كل منهم متقدماً بروح الناصح والتصافي ، شديد الثقة بأنه متحداً مع أخيه وبنى قومه لا بد له

من ادراك الفوز واحراز الفلاح (١) » وقالت سيدة فرنسية قضت في مصر غالب حياتها « اتنا وايم الله قد أصبحنا نشهد العجائب والغرائب في هذه البلاد التي كانت فيما مضى موطن الانشقاقات المذهبية ومبأة المشاحنات الدينية : فما هذا لعمر الحق !! قسيسون أقباط يعظون في المساجد الاسلامية وعلماء شيوخ مسلمون يعظون في الكنائس النصرانية طلبه من السوريين والموارنة والمسلمين ، وسيدات مصريات وتركيات ، جميعاً على ونام وثيق واتحاد مكين في سبيل القضية الوطنية . كل فرد من الأمة يتشوق متلها غيرةً وطنية الى رؤية بلاده حرة ينبالج عليها الاستقلال انبلج الصبح المبين ، مفيضا عليها الخيرات والبركات . ان مثلي ممن عرف مصر في عهد توفيق ليهوله كل الهول ما يشهد اليوم بعينه من تطور شأن المرأة المصرية هذه السنوات الأخيرة ، هذا التطور الاعجب في جميع ما حدث من ضروب الانقلاب والترقي في وادي النيل . ان من كان يعرف صفات حياة المرأة في مصر ، حياة الاهمال والانقباع في اكسار البيوت والمنازل بمعزل عن أى شأن تشتم منه رائحة سياسية ، ليدهش دهشاً كبيراً حيال ما قد حدث من التطور في هذه الأشهر الأخيرة . خذلك مثلاً . قامت السيدات في مصر الصيف الماضي بتظاهر كبير . فاحتشدن وسرن في القاهرة مواكب جليلة ، فهرعت فرق الجنود البريطانية للحال ، واصطفت نطاقاً من حول الموكب مصوبة نحو النساء البنادق وفي رؤوسها الحراب المدددة اللامعة ، واذهد جندى سيدة لسرعان مادارت اليه زائرة زائرة اللبوءة تحمي أشبالها وكشفت عن صدرها وصاحت به : اغرس يا جندى حربة بندقيتك في صدري فيعرف العالم أن هناك غير واحدة من النساء أمثال الآنسة كافيل (٢)

خمل اشتداد هذه الثورة الوطنية التي لم يسبق لها مثيل في مصر ، رجال الانكليز

G. Civimini, in the " corriere della Sera

(١) ٣٠ ديسمبر ١٩١٩

(٢) مدام جهان دى فراى من مقال لها : « في مصر » ١٥ سبتمبر ١٩٢٠

Madame Jehan d'Ivray, " En Egypte", "Revue de Paris ,,

ووصفت هذه السيدة طائفة من الحوادث الرائعة على هذا الطراز . ولزيادة الاطلاع اقرأ « الملحقات للكتاب المصرى الأبيض » المشتملة على شواهد عديدة معززة بالصور ولرسوم مما يدل على المظالم والفواحش والكبائر التي اقترفتها الجنود الانكليزية .

على الانقسام فريقين مختلفين : فريق مثل السروليم ولسوكس والسر فالتين تشيرول واندادهما ، ينادون بوجوب الاذعان العاجل ، للمطالب الوطنية التي ينادى بها أهل مصر . وفريق آخر من أرباب الاستقصاء يؤكدون أن الاذعان للمطالب المصرية انما هو دليل الضعف ومجلبة البلاء . قال السرم . مكثيلرايث . « اذا انتقل الحكم من أيدينا الى أيدي الحكومة الوطنية فلا يمضى على ذلك أكثر من خمس سنوات حتى ينتشر الاختلال ويعم الاضطراب اتنا اذا شئنا ألا ندع مصر تنقلب مستغرقة في حجة الافلاس وبؤرة الفوضى اللتين نجيناها منهما سنة ١٨٨٢ وهي الآن محاطة بأهوال البلشفية كما تؤيد هذا الأدلة المشؤومة الآخذة في الازدياد ، وجب على بريطانيا ألا تترك أعنة الحكم في مصر ولو على وجه الارضاء » (١) ثم اشتدت حالة مصر اشتداداً عظيماً فلفت من أجله بريطانيا قلقاً كبيراً ، ففي صيف سنة ١٩١٩ أعلنت الحكومة البريطانية انها قد عينت لجنة تحقيق يرأسها اللورد ملنر لتشخص الى مصر وتتولى القيام بالتحقيق التام في الشؤون المصرية . فكان أمر تعيين اللجنة التحقيقية الحكيمة عينها . أما اللورد ملنر فهو من أعظم الرجال الانكليزي في عالم السياسة البريطانية ، كثير الاختبار والخنكة في معالجة معضلات الامبراطورية ومن جلتهها معضلة مصر . وهو ذو مزاج خلقي يبعده من آراء الأحرار الخيالية القليلة التحقيق ، ويقصيه عن التشدد تشدد المحافظين بقواعد مذهبهم ، بحيث يجعله وسطاً بين المذهبين على مذهب أهل الحقيقة ، الذين يقولون بأنه لا يصح الا الصحيح هذه هي صفة الرجل كما دل عمله على ذلك بعيد حين . فلما وصل وزملاؤه الى مصر في أوائل سنة ١٩٢٠ رأوا أنهم ازاء حالة من أكثر الحالات حرجاً ، ومأزق من أشد المآزق عناء ، اذ قبل وصولهم كانت الازاعات قد انتشرت في وادي النيل تدعو الأمة لايجاب مقاطعة اللجنة . وأجمع الساسة الوطنيون وفيهم رجال الدين على رأسهم مفتي الديار المصرية على رفض الدخول في المفاوضات والمناقشة في أي شأن من الشؤون ما لم توافق اللجنة مقدماً على استقلال مصر . فظهر ذلك بجملته عقبه كأداء ، ومعضلة شديدة ، غير أن اللورد ملنر قد استطاع على كل هذا بوافر الخنكة وشديد الصبر أن يفاوض سعد باشا وغيره

(١) العصبية الجنسية المصرية « يوليو ١٩١٩

Sir M. Mc Ilwraith, "Egyptian Nationalism" "Edingberg Review,,

مستقبل مصر « ٦ نوفمبر ١٩١٩

Hon. W. Ormsby-Gore, "The Future in Egypt,, " New Europe ,,

من القادة الوطنيين أهل الحل والعقد ، مفاوضة حرة ، وباحثهم مباحثة صريحة طلاقة .
 وبما لا ريب فيه أن بعض تطورات الحال التي حدثت في مصر في تلك الغضون
 قد كان من شأنها انها كانت للورد ملنر معوانا في مجاهيده . اذ في مصر كما في سائر الأقطار
 الشرقية كانت الأعراض والظواهر أخذت تبدوجلية دالة ليس على الاضطراب السياسي
 فحسب ، بل على الاجتماعي أيضاً ، فانبرى كثير من الهاججين وأهل السجس ، أهل الطراز
 الجديد في مصر ، ينظرون في عامة الشعب الآراء والمبادئ الثورية على منتهى الغلو ،
 فافلق هؤلاء الفتيان الهاججون بال القادة الوطنيين المتشبين على الخطط المعينة ، والناهجين
 المناهج المنظمة ، حتى باتوا مهـدين من ناحيتين : الأولى من حيث هم زعماء أحزاب
 سياسية ، والأخرى من حيث هم من أرباب الشأن والمكانة الاجتماعية وعلية القوم .
 فنجم في خريف سنة ١٩٢٠ ان اللورد وزغالول باشا توصلوا الى الاتفاق على قواعد
 أساسية دلت على التراضى المتبادل الصحيح . وكانت خلاصة هذا الاتفاق الممهد لما يتلو ،
 على حسب ما بلغته الصحف وأيدته صفة البيان الرسمي الذي وضعه اللورد ملنر ما يأتي .
 أن ترفع بريطانيا الحماية عن مصر وتعلن أن مصر هي مستقلة ، أن يكون الاستقلال
 الذي تملكه مصر مساوياً بكفائته لاستقلال « كوبا » ازاء الولايات المتحدة الامريكية ،
 أن تمنح مصر حكومة ذاتية ناجزة ، أن تسحب بريطانيا الحماية البريطانية والموظفين
 الملكيين ، أن تعقد مصر على كل حال معاهدة محالفة مع بريطانيا العظمى ، أن تتعهد
 مصر ألا تعقد هي معاهدات مع الدول الأخرى الا برضى بريطانيا وموافقتها ، وأخيراً أن
 تمنح مصر بريطانيا موقعاً عسكرياً وبحرياً بحيث تستطيع هذه الأخيرة حاية قناة
 السويس ومصر في حالة هجوم مفاجئ يقوم به عدو أجني على حين غرة . أما قضية
 السودان المشكلة فقد تركت معلقة موقتاً غير مبتوت في شأنها .

فهذه المقترحات كانت تحمل الأدلة البينة على الوفاق المرجوله الخير ولكنها لسوء
 الطالع لم تقترن بنفاذ للحال ^(١) . فنشأت الاعتراضات الشديدة عليها وكثرت المقاومة لها

(١) للاطلاع على ما نجم عن هذا التأخر من سوء العقبى اقرأ مقالة السرفالنتين تشيرول « السياسات

المتضاربة في الشرق » اول يوليو ١٩٢٠

في كلا بريطانيا ومصر . أما في بريطانيا فقد ضبط المقاومون السياسيون من أهل السلطة الرسمية تقرير اللجنة حتى شباط (فبراير) سنة ١٩٢١ ، وأما في مصر فهبّ الوطنيون الغلاة وقالوا : سعد باشا خائن ، من حيث كان المعتدلون يبدون ارتياحاً تاماً الى الذي اتفق عليه . ولما نشر تقرير اللجنة المللرية بالتالى جاء فيه على التبيين والتصريح ان منح مصر حكومة ذاتية لما لا يستطيع ارجاؤه ارجاءً تكفل معه سلامة العقبي ، وان الروح الوطنية والعصبية القومية لمن المستحيل محوها والقضاء عليها ، وان محاولة حكم مصر حكماً ممزوجاً بالعداء المرطو هو « أمرٌ صعب شائن » ، وان التقاعس عن انتهاز الفرصة لاجراء التسوية المرضية هو من الشؤم ونكد الطالع . غير أن الحكومة البريطانية لم توافق على التقرير بجميع مشتملاته ومضامينه ، الأمر الذي حمل اللورد ملر على الاستقالة للحال . أما زغلول باشا فابرح على مقامه من زعامة الأمة ، وان تكن سلطته قد تزعزت . هذه هي صفة الحال في مصر ونحن نكتب هذه السطور ، حال والحق يقال ليس فيها من الفأل ما كان فيها السنة الخالية .

على انه في تلك الاثناء امتد تيار العاصفة التي هبت هبوبها الاول في مصر ، الى كل رقعة من رقاع الشرق الأدنى فطبقها . ففي أوائل سنة ١٩٢٠ انتقل مركز العاصفة الى الامبراطورية العثمانية حيث الحلفاء هم أنفسهم المومون وأهل الجناية في هذا الخطب الكبير . أجل لا ينكر أن التوصل الى وضع تسوية ايجابية في شؤون هذه الاقطار الهائجة المضطربة لم يكن من السهل الهين ، غير أنه مع جميع ذلك لم يكن وضع هذه التسوية من المستحيل الذي لا يدرك لو كانت سياسة الحلفاء ملتزمة جانب الصحة والحكمة والعدل . فعند ختام الحرب الكبرى أمست الشعوب المختلفة في الامبراطورية العثمانية راجية رجاءً كبيراً في ان الغايات والمقاصد الحرة التي صرح بها علناً ساسة الحلفاء ستحقق تحقيقاً لا ريب فيه . أما العرب خاصة فقد كانوا أشد الجميع رجاء والسبب في ذلك ان الحلفاء كانوا قد أشبعوهم من براق الوعود وخلاب العهود ما أشبعوهم ، ومنوهم بأن يمنحوهم جميع نعمة الاستقلال جميع ذلك انما قد شجب فيما بعد شجباً شائناً كما سترى في موضعه القريب من حيث أن الترك في ذلك الحين لم يكن رجاؤهم في خير المستقبل قد انقطع انقطاعاً تاماً ، اذ كان لديهم ، الى جانب التصريحات العامة الضامنة لحرية الأمم

والشعوب المصوغة في برنامج « الاربع عشرة مادة » للرئيس ولسون والتي وافق عليها الحلفاء موافقة تامة ، تصريحات أخرى أضمن للغاية وأكفل للقصد ، من ذلك ما قد صرّحه رئيس الوزارة البريطانية المستر لويد جورج في ٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٨ اذ قال « ... ولسنا بخائضين نغمرات هذه الحروب لنتزع من تركية عاصمتها وأقطارها الغنية المشهورة في آسية الصغرى وتراقية ، تلك الاقطار التي غالبها من العنصر التركي » وذلك بعبارة أخرى أن الترك قد فهموا تفهماً يئناً باتاً انه في الحين الذي لا بد لحكمهم من التقلص والزوال عن الاقطار غير التركية كالبلاد العربية، فان البلاد التركية في الامبراطورية لن يراد اخضاعها لسيادة أجنبية ، بل يتألف منها دولة تركية وطنية . ولكن الترك لم يطلعوا على سلسلة من المعاهدات السرية التي عقدها الحلفاء فيما بينهم منذ سنة ١٩١٥ واتفقوا بمقتضاها على تقسيم جميع آسية الصغرى بين الدول المتحالفة . واذ لم تنشر سلسلة هذه المعاهدات الا بعد زمن ، فقد ظل الترك هذه المدة راجين خيراً ومرتبين عدلاً ورفراً .

أما العرب فقد كان المجال لمطالبتهم القومية أرحب ، ولثوران عصبيتهم الجنسية أدمى من حيث كان الحلفاء في سياستهم معهم أشد مخاتلة وخداعاً ، وأفطع مكرأ ورياء . وقد قدمنا الكلام على الثورة العربية التي شبت نارها سنة ١٩١٦ في الحجاز بأمره شريف مكة ، ثم أخذت ألسنتها تندلع وتنتشر في جميع الأقطار العربية في الامبراطورية العثمانية ، فكانت في الواقع من أكبر العوامل في هزيمة الجيوش التركية وتمزيقها . ولم تكن الثورة العربية طفرة على غير هدى ، ولا وثبة غير معدة لها الأسباب والوسائل ، بل قامت على خطط محكمة ، ومناهج موثقة ، مستندة في غالبها الى مظاهرة الحلفاء وناقي عضدهم ، ومعتمدة على وعودهم وعهودهم . فنذ أول نشوب الحرب العامة بات رجال العرب الساخطين في سبيل قوميتهم ، الغاضبين لعصبيتهم ، على صلة مع السلطة البريطانية في مصر ، التي تلقتهم بالترحيب والكرامة ، وأقبلت عليهم تشجعهم على المضي في امضاء التداير وتمهيد الطرق للانشقاق والقيام بالفتنة ، إذ أن بريطانيا أيقنت إذ ذاك ايقاتاً ان ثورة العرب اذا شبت نارها كانت بلا ريب سندا وعوناً لها في الزياد عن مصر وقناة السويس ، دع عنك ماتنيل تلك الثورة الجيوش البريطانية من ذرائع القوة . ونكسبها من وسائل

القدرة على الزحف والفتح في البلاد العثمانية .

فالعرب اذا لم يطلبوا المساعدة المادية فقط ، بل طلبو قطع العهود والوعود الباتة التي لاريب فيها بان ثورتهم هذه التي يشبون نارها سيكافأون عليها بانشاء دولة عربية ، يرفع لواؤها على جميع الأقطار العربية في المملكة العثمانية . غير انه لمن نكد الطالع ، على ماشرهت اليه نفوسهم من نيل المطامح الجنسية وتحقيق الآمال القومية ، كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية تنويان في شأن مستقبل الأقطار العربية الخاضعة لتركية ، أمراً آخر غير ذلك الذي استماتوا هم في سبيله ، إذ كانت كلتا الحكومتين منذ عهد من الزمن حائرة « منطقة سيطرة أو نفوذ »^(١) في هذه الأقطار ، فكانت المنطقة البريطانية مشتملة على جنوب العراق عند رأس خليج العجم ، وكانت المنطقة الفرنسية مشتملة على لبنان وهو كور جبلية في شمال سورية تمتد على ساحل البحر المتوسط ، حيث غالب الأهلين من الكاثوليك المعروفين بالموارنة الذين شملتهم فرنسة حقبة مديدة بالحماية السياسية . ومن المعلوم ان هاتين المنطقتين كانتا من بلاد الدولة العثمانية بالاعتبار القانوني ، مساحة كل منهما قليلة ، بيد ان « مناطق النفوذ » من شأنها أن تكون متمغطة متمططة ، قابلة للامتداد والاتساع فجأة الى مالا حد له ولا نهاية عند الحالات المناسبة . لذلك قد كانت الحرب العامة خير فرصة وأفضل نهزة ، فبادرت وزارتا الخارجية ، البريطانية والفرنسية في عقد الموائقات والمصافقات على السلع ، فوقعت الحكومتان في ٥ آذار (مارس) ١٩١٥ معاهدة سرية ، حولت فرنسا بمقتضى شرائطها وبنودها حق التمتع بالتقدم على سواها في سورية ، وخولت بريطانيا مثل ذلك في العراق . ولم تقرر الحكومتان إذ ذاك حدوداً معينة ، بل اكتفتا بالتراضى على مطامعهما التي عولتا على تحقيقها باقتسام الأقطار العربية الخاضعة لتركية .

على ان عقد هذه المعاهدة السرية قد أوقع رجال السلطة البريطانية الذين كانوا في مصر يفاوضون العرب لايقاد نار الثورة ، في الحيرة والارتباك . وقد أيقن هؤلاء المفاوضون البريطانيون ان الثورة العربية هي نهزة ثمينة ، ترجو بريطانيا من ورائها عوناً كبيراً

(١) منذ أكثر من عشرين سنة نشرت في بعض المجلات جملا وخواطر منها « لا يوجد شيء أشه

ورفقاً عظيماً ، فيكون من الخرق ان لم تهتلها ، بل ان أضعفها فقد أضعفت سنداً قويا وخسرت خسارة لاتقدر ، فاستطاعت السلطة البريطانية في مصر بالتالي وضع خطة مصوغة صوغاً كافلاً لارضاء قادة العرب وزعمائهم . وفي ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٥ سلم حاكم مصر العام السر هنرى مكماهون ممثل شريف مكة في القاهرة صك عهد تعهدت بموجبه بريطانيا العظمى ، على شريطة قيام العرب بالثورة ، الاعتراف باستقلال العرب في الامبراطورية العثمانية ، فيما عدا جنوب العراق حيث المصالح البريطانية تقتضى اتخاذ تدابير مخصوصة في شأن السلطة الادارية ، وأيضاً فيما عدا المناطق التي ليست بريطانية العظمى « حرة في التصرف بشؤونها تصرفاً منافياً لمصالح فرنسا » . فكانت هذه العبارة الأخيرة على كل حال ضرباً من المزاح والرقاعة لكنها قد وفت بالعرض الذي قصد منها ، وإذ كان العرب غير واقفين البتة على المعاهدة السرية ، خالوا ان هذه العبارة الاستثنائية في صك عهد السر هنرى مكماهون انما يعنى بها منطقة لبنان الضيقة ، فتهللوا فرحاً وانتشوا سروراً^(١) ، ثم انتشروا ويتبعون اعداد العدد ، واستكجال الذرائع والوسائل لقدح زناد الثورة التي شبت نارها السنة التي تلت .

أجل ، نشبت الثورة العربية في تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٦ ، بيد أنه لو كان العرب قد علموا من قبل ماقد تم من عقد المعاهدة السرية في شهر ايار (مايو) من السنة الخالية بين بريطانيا وفرنسة ، لما قدحوا لثورتهم زناداً ، ولا أضرموها لها ناراً . وفي ذلك الشهر الذى شبت فيه الثورة العربية ، عقدت الدولتان المذكورتان معاهدة سرية أخرى ، هي معاهدة سايكس - بيكو المشهورة ، اتفقتا بمقتضاها اتفاقاً باتاً على تقسيم الأقطار العربية في الامبراطورية العثمانية ، تقسيماً مبرماً قائماً على الأساس المبين في المعاهدة السرية التمهيدية المعقودة بينهما في السنة التي قبل ، فبات العراق على مقتضى معاهدة سايكس - بيكو هذه ، عراقاً بريطانياً لاشك في أمره ، وباتت سورية من صور حتى اسكندرونة سورية فرنسية لاريب في شأنها تتبعها الأقاليم الأرمنية وأقاليم شمالية أخرى من آسية

(١) هؤلاء الذين آمنوا وصدقوا وانتشوا وفرحوا ليسوا كل العرب . . . بل ان قسماً من العرب كانوا يعرفون ما وراء الائمة وطالما نهوا وحذروا قومهم من الوقوع في الشرك فلم يجد تحذيرهم قليلاً . وما لنا وما للتذكير بماكل أحديعرفه ، فا يوم حليلة بسر
(شر)

الصغرى . أما فلسطين فقد اعتبرت دولية واعتبرت حيفا مع مينائها البحرى لبريطانية ، بحيث ان هذه المطوحة كانت نهايتها صبرورة فلسطين تابعة للمنطقة البريطانية . وأما البلاد الداخلية الواقعة بين العراق وسواحل سورية فقد اعتبرت « بلاداً عربية مستقلة تقسم الى منطقتى سيطرة » بريطانية وفرنسية ، فالمنطقة الفرنسية تشتمل على سائر سورية من حلب حتى دمشق ، والمنطقة البريطانية تشتمل على سائر العراق حتى اقليم الموصل . وبعبارة أخرى ان الاستقلال الذى وعد العرب به السرهنرى مكماهون انما غدا بين سمع الأرض وبصرها .

من المعلوم أن هذه الخدعة الكبرى التى قامت بها بريطانيا وفرنسة على مسرح المكر من وراء الستار ، لم يكن للعرب علم بها ولا وقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم ، من حيث ان بريطانيا جهدت كبير الجهد ، وبذلت غاية المستطاع لهماج الآمال الاستقلالية فى صدور العرب واثارة العصبية والمطامح القومية فى نفوسهم . فكان ذلك خير وسيلة وانجع ذريعة لاستئارة نخوتهم فى الثورة فجعلوا يتسارعون الى مجال الحرب وينبعثون الى مقاتلة الترك وخضد شوكتهم . وأنفذت الحكومة البريطانية الى العرب عدداً من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأمير آلای لورانس الفتى اللوذعى النابه الشأن ، الذى ماأسرع مانال من نفاذ الكلمة والسلطة على أمراء العرب وزعمائهم^(١) ، مما لاحد له ولاغاية ، حتى دعى « روح الثورة العربية »^(٢) لكن هؤلاء الضباط الأكفيا العارفين شؤون العرب والمعروفين بميلهم اليهم وعطفهم عليهم ، انما قد اختيروا ليقوموا بما اتدبوا اليه ، من حيث لم يكونوا هم أنفسهم قد وقفوا ولاطلعوا على المعاهدات السرية التى عقدت خفية عن العرب . وكان القصد من ذلك فى الواقع أن لايعروهم هؤلاء المستثيرين فتور ، ولا انكسار ، ولا ينتلم فاقوهم للعرب بينهاهم يستثير ونهم همتهم ويستوقدونهم نار القتال ، وكان القواد البريطانيون لاينفكون عن تزجية الوعود للعرب مودعة فى المنشورات والتصريحات التى كانوا

(ش)

(١) سماه لويد جورج ملك العرب غير المتوج .

(٢) زيادة الاطلاع على الأعمال التى قام بها لورانس اقرأ سلسلة مقالات « لورانس : روح الثورة العربية » نشرت تباعاً فى مجلة « آسية » نيسان (ابريل) ايار (مايو) حزيران (يونيو) تموز (يوليو)

سنة ١٩٢٠

L. Thomas, " Lawrence : The Soul of the Arab revolution,, Asia

يذيعونها آخذاً بعضها برقاب بعض^(١) ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية الحرب فاصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية مشتركيتين معاً منشوراً أذاعته في جميع الاقطار العربية جاء فيه : « ان الغاية التي من أجلها خاضت فرنسا وبريطانية في معمعان الحرب في الشرق الحرب التي أثارتهما على العالم المطامع الالمانية ، هي أن تضمنا لجميع الشعوب التي طال عليها عهد الجور من الترك ، تحريرهم من الاستعباد تحريراً تاماً باقياً ، وان تنشأ حكومات وادارات وطنية تستمد سلطانها من رغبات الشعب وارادته المطلقة دون منازع »

فلم يلبث أن برح الخفاء وانجلي المستور وبان الصبح لذي عينين ، فتبدلت الحال غير الحال . عند ما وضعت الحرب أوزارها ورجعت السيوف الى أغمادها ومزق العدو شر ممزق ، واتتهت الرواية وأرخی الستار - الستار الذي تبدت حقائق نيات الحلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه نقشاً جلياً ، فقرأها العرب وعلموا الأسرار ووقفوا على بواطن الأمور بعد أن أخذوا بظواهرها ، وظهرت الجنود الفرنسية تحتل شاطئاً سورية ، وعلم العرب حق العلم كيف خدعوا وختلوا وغشوا ، فدعروا وأجفلوا ، وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا ، واشتعل غضبهم ، وهاجت هائجت الثورة في نفوسهم . ولولا أهل الحصافة والروية من زعمائهم ولاسيما الأمير فيصل نجل شريف مكة المكرمة ، الأمير الذي برهن حق البرهان على فائق كفايته لقيادة الرجال والقتال في الحروب ، والذي استطاع الآن أن ينزل من بني قومه منزلة لاينازع فيها من النفاذ وعزة السلطان ، لربما انفجر بركان العرب وتطاير من جمه ما لهب البلاد جميعها . لكن فيصلا كان يعرف مبلغ قوة الحلفاء العسكرية ، فأيقن أن ركوب الحرب معهم انما هو مركب خشن وغاية في الاستهداف والمخاطرة ولاسيما في آوثة مثل تلك الآوثة ، واذ أدرك حق الادراك قوة العرب المعنوية والادبية في ذلك الموقف الذي كانوا فيه ، طلب من أبناء قومه وبلاده أن يقوم ببسط القضية العربية والدفاع عنها لدى مؤتمر السلم الذي كان على وشك الانعقاد . فقام بهذا الامر راجيا تنجية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الاقطار العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب والنار تحت الرماد

(١) من ذلك على سبيل المثال منشور اذاعه الجنرال مود General Maud في عرب العراق في آذار

بسط الامير فيصل لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معني ، وفصيح منطق ، يحف بموقفه الوقار ، لكنه لقي خيبة في المسعى . اذ اشتمل عهد عصبة الامم على بيان دال على « الرفق والعطف » ، وذلك : « ان الاقوام المعلومة التي كانت من قبل في الحكم التركي وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطاع عنده الاعتراف بكيانها أما مستقلة استقلالاً معلقاً ، عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتى يأتي يوم تصبح فيه هذه الاقوام قادرة على السير بنفسها فيطلق حبها اذ ذاك على غارها^(١) »

ثم فقه العرب معنى « الاتداب » واكتنهموا ماهيته وسره . وقد كان من شأن لويد جورج أن يجود ببعض العبارات المنمقة والجل الرائقة مثل قوله: « ان العرب قد وفوا حقاً بعهودهم وبروا بوعودهم لبريطانية العظمى فيجب علينا اذاً أن نقابل الاحسان بمثله فنفي بعهودنا ونبر بوعودنا لهم^(٢) » . غير أن العرب كانوا قد قرأوا المعاهدات السرية واطلعوا عليها فبان من العبث والأفن بعد ، محاولة اصطيادهم بالأشراك والأحابيل مرة أخرى ، اذعاد الختل من النزاع الباطلة ، وأمسى الخدع من الوسائل الكاذبة ، وبالتالي علم العرب علماً مكيناً ، انه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة سواعدهم ، ومساعدتهم ومجاهدتهم وذلك اما في مجال السياسة واما في مجال الحرب .

أما فيصل فظل يؤثر المساعي السلمية على التهور في الحرب . ولعل الباعث له على هذا ليس مارأى من الاستهداف وركوب المخاطر في المقاومة فحسب ، بل ان الحلفاء كانوا حينئذ على حال من التنازع الشديد والمشادة الكبيرة في كل قطر من أقطار الشرق الادنى ، مما جعل فيصلاً على أن يرجو نيل النجاح على يد السياسة . وكان التنازع الأمرّ الأشدّ في جميع ذلك ، هو الذي نشأ بين بريطانيا وفرنسة عند ما جاءتا تقفان غنيمة الاقطار العربية . والسبب في هذا الخلاف العظيم منشأوه السخط الذي سخطه الفرنسيون من أجل المعاهدات السرية . اذ لم يكذب يكشف الغطاء عن معاهدة سايكس - بيكو فانتشرت وذاعت ، حتى هب جانب كبير ذو بأس من الرأي العام الفرنسي يصرخ أشد الصراخ ان فرنسة إنما غبت في الصفقة غيباً فاحشاً فلذلك ليست هي بالراضية بهذه القسمة الضيزى .

(١) المادة الثانية والعشرون من عهد عصبة الأمم

(٢) من خطاب الفاه في ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩

فقد ظل أنصار التوسع الاستعماري من الفرنسيين - قروناً طويلة - يحدجون سورية بانظارهم ويهونون اليها بقلوبهم^(١). فلما نشبت الحرب العامة طفت الصحف الاستعمارية الفرنسية تقوم بنشر دعوة شديدة تحريضاً على استلحاق بعض أقطار الشرق الأدنى بفرنسة، وكانت «سورية كلها» موضوع الصراخ وغاية الدعوة، ولم يكن معنى «كلها» مقصوراً عند المستعمرين الفرنسيين على شاطئ سورية الذي أصاب فرنسة على مقتضى معاهدة سايكس - بيكو، بل أرادوا ان يشمل معنى هذه الكلمة فلسطين والبلاد الداخلية من حلب الى دمشق، ممتدة حتى أقاليم الموصل الغنية بالزيت. وشرع أهل التوسع الاستعماري ينادون ويصرخون ان لفرنسة «حقوقاً تاريخية ثابتة يرجع منشؤها الى عهد الحروب الصليبية، بل الى عهد شرلمان» تتعلق بهذا القطر الكامل الذي بات يعرف في المحافل والأندية الاستعمارية «بفرنسة المشرقية» فعدت سورية «الزاساً ثانية» في هذا الاعتبار، ومستنداً شديداً لا ينفصل بوجه من الوجوه عن سياسة فرنسة الخارجية، وقد ظهرت دوائر الحكومة الفرنسية هذه المطامح الاستعمارية مظهرة عظيمة وعضدتها عضداً كبيراً. مثال ذلك ما صرحه المسيوليج في مجلس النواب سنة ١٩١٥ اذ قال: «ان محور السياسة الفرنسية هو في البحر المتوسط، قطبه الواحد في المغرب المشتمل على الجزائر وتونس

(١) للاطلاع على ما قام به أنصار التوسع الاستعماري قبل الحرب من نشر الدعاية في هذا السبيل اقرأ

مقالة ج يونان «المصالح الفرنسية في سورية» آذار (مارس) ١ - ١٦، ١٩١٣

G s Poignant, " Les Intérêts Français en Syrie ,,

" Question diplomatiques et Coloniales ,,

ومما جاء على ذكره صاحب هذا المقال تصريح لرئيس الوزارة الفرنسية المسيو بوانكاره فاه به في مجلس النواب في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ منه: «ولست أراني بحاجة الى بيان مالنا في لبنان وسورية خاصة من المصالح التقليدية، وما يجب علينا القيام به لاعزاز هذه المصالح واعلاء شأنها»

واقراً مقالة ج عطاء الله: «التسويات الثلاث للقضية السورية» تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٣

" Les Trois Solutions de la Question syrienne ,, " Questions Diplomatiques et Coloniales ,,

واقراً كتاب ل. لي. فير «حماية فرنسة للكاثوليك في الشرق» (باريس ١٩١٤)

L. Le Fur, " Le Protectorat de la France sur les Catholiques d' Orient

مراكش وقطبه الآخر في المشرق المشتمل على سورية ولبنان وفلسطين^(١) بعد الوقوف على هذه المطامع الكبرى التي قضى على جانب منها بالخبيثة والفشل يمكننا أن تصور مبلغ التأثير السيء الشديد الذي أثرته معاهدة سايكس - بيكو في نفوس رجال التوسع الاستعماري من الفرنسيين ، فارتدوا بغضبهم المشتعل ، وذلك بطبيعة الحال على البريطانيين ، فأخذوا في النيل منهم والقذح بهم وذمهم على جميع الأمور الجارية اذ ذاك في الشرق ، قائلين ان هياج المطامع العربية وثورة آمالهم وعصبيتهم الجنسية انما ذلك جميعه ناشيء عن السياسة البريطانية ، بل ضرب من ضروب الدعاية الانكليزية . قال كاتب فرنسي في هذا الصدد : « يحتاج بعض أطباء الأمراض الدماغية الى كتابة الفصول الصويhle في شأن هؤلاء الموظفين البريطانيين الاستعماريين المنطوية جوانحهم على الأحقاد والضغائن ، المتبجحين المتعظمين ، الذين لا ينفكون بياض نهارهم وسواد ليلهم يجذون في سبيل خدمة بلادهم ، راكبين رؤوسهم دون ان يبالوا باستشارة حكومة لندن ، والذين دأبهم دوماً القضاء على التفوق الفرنسي في سورية كما قضاوا من قبل على مثاله في مصر^(٢) . فأجاب الكتاب الانكليزي على هذا السخط والقذف مستهجنين استهجاناً « جشع فرنسة ونهمتها الوحشية وخبيلها » ونهجها نهجاً من شأنه تعريض مكانة بريطانية للخطر

(١) ذكر هذا فلاندين العضو في مجلس الشيوخ الفرنسي في مقال له « حقوقنا في سورية وفلسطين »

٥ حزيران (يونيو) ١٩١٥

Senator E. Flandrin. " Nos droits en Syrie et en Palestine

" Revue Hebdomadaire ,,

ولزيادة الاطلاع على الدعاية الاستعمارية الفرنسية اقرأ غير ما ذكر :-

« سورية أو ميدان الحرب السياسية » (شباط « فبراير » ١ - ١٥ ، ١٩٢٠)

H, Baudouin. "La syrie : Champ de Bataille Politique" (La Revue Mondiale)

« قضية لبنان » (باريس ١٩١٥) C. G, Bassim, " La Question du Liban"

« سورية الفرنسية » (باريس ١٩١٦) comte cressaty. " La syrie Française "

« فرنسة المشرقية » (اذار « مارس » ١٩١٩)

F. Landet. " La France du Levant ,, " Revue Hebdomadaire ,,

(٢) لزيادة الاطلاع اقرأ مقالة « سورية . أو ميدان الحرب السياسية » المذكورة قبلا

والانهيار ، والانداز بالهاب الشرق اجع الهاباً لا يبق ولا يذر ^(١) . وعلى الايجازان الدولتين بريطانية وفرنسة اللتين قد كانتا من قبل بسنة محالفتين (محالفة مقدسة) باقية ، انقلبنا الى المطاحنة والمشاحنة وكيد المكاييد وايقاع النكاية . فكان للعرب من وراء ذلك كله دروس قيمة وعظات بليغة ، فاستقوت آمالهم واشتدت مطامحهم ، وصلبت قناتهم ، ومثل هذا حدث أيضاً لسائر الشعوب والأمم الشرقية .

فكان هذا التشاحن الشديد السبب الأكبر في ابطاء الحلفاء طول سنة ١٩١٩ عن القيام بالعمل على الخطة التي كانوا قد وضعوها من قبل بالاتفاق على اقتسام الشرق الأدنى ولكن قد توصلوا في ربيع سنة ١٩٢٠ الى تدير محدود ، اذ عقد رؤساء وزارات الحلفاء مؤتمراً في سان ريمو وضعوا فيه شروط معاهدة الصلح التي راموا حل تركية على توقيعها ، وبموجبها اتفقوا على اقتسام آسية الصغرى مناطق سيطرة واستثمار ، وعلى اقتسام الأقطار العربية بمقتضى معاهدة سايكس - بيكو تلك المعاهدة التي غدت مزخرفة العبارات تذكر هاتين الدولتين فيهما انهما بطبيعة الحال « منتدبتان » من قبل عصبة الأمم ^(٢) ثم شرعت كل من بريطانيا وفرنسة واليونان الشريكة اللاحقة ، في التأهب والاستعداد للعمل ، فسأقت بريطانيا القوات العسكرية الى العراق وفلسطين وسأقت فرنسة القوات العسكرية أيضاً الى سورية ، وأعدت حملة مشتركة مؤلفة من قوات « بريطانيا وفرنسية ويونانية » لاحتلال القسطنطينية ، ووعد فنز يولس رئيس الوزارة اليونانية باعداد جيش يوناني لغزو آسية الصغرى عند مآدعو الحال . ولم تلق ايطالية دلوها بين الدلاء لأنها رأّت خلل الرمد وميض

(١) لزيادة الاطلاع على الحملات الانتقادية الشديدة التي حملها الانكليز على فرنسة في سورية اقرأ .-

« مجازفتنا الهائلة في سورية » (ايلول) سبتمبر (١٩٢٠)

Beckles Wilson, "Our Amazing syrian Adventure,, (Nation Review)

« القضية العربية » (ايلول « سبتمبر » ١٩٢٠)

W. Urinowski, " The Arab cause ,, Balkan Review

كاتباً هذين المقالين كانا ضابطين في الجيش البريطاني في الأقطار العربية .

واقراً أيضاً مقالات أخرى في غاية الشدة نشرت في آب (أوغسطس) وايلول (سبتمبر) ١٩٢٠

في مجلة « The balkan Review » بتوقيع « Taira »

(٢) ولم تسكن عصبة الأمم قررت يومئذ أدنى شيء بشأن الانتداب فانتابوا على عصبة الأمم قبل أن

نار ، فاعتزمت على ألا تشارك في الأمر مباشرة . قال « نيتى » رئيس الوزارة الايطالية لصحافى برىطانى عقب مؤتمر سان ريمو : « انكم ستنغمسون فى حرب فى آسية الصغرى ، فايطالية لن ترسل جندياً واحداً ولن تدفع « ايرا » واحدة . انكم قد انتزعت من الترك أدرنة مدينتهم المقدسة ، وجعلتم سلامة عاصمتهم معلقة على رجة السلطة الأجنبية وأخذتم منهم جميع موانئهم البحرية والجانب الأكبر من بلادهم ، وأولئك المندوبون الخسة الذين ستختارونهم سيوقعون معاهدة لن ترضى بها الأمة التركية ولا البرلمان العثمانى » .

كان نيتى رئيس الوزارة الايطالية فى الواقع متكهننا صادقاً . ففضى رجال الوطنية من الترك عدة أشهر ، وقد علموا بما خبأه الحلفاء لأمتهم وبلادهم ، يؤهبون الأهب ويعدون العدد وينشئون الأسباب فى داخل آسية الصغرى للقيام بالمقاومة . ومن المعلوم أن القادة الوطنيين الأول مثل أنور باشا وزملائه كانوا قد لاذوا بالفرار الى بلاد سحيقه ، كعبر القوقاس وروسية البلشفية . غير أن قادة وطنيين جدداً قد ظهروا فى الأمة ، أشهرهم القائد المقدم المجرى والعسكرى المحنك مصطفى كمال باشا ، البطل المتوقد العزم ، الذى قد استطاع حقاً أن ينظم جيشاً ويثقفه ويدربه ، حتى قويت شوكته ، ثم اتخذ أنقرة الواقعة فى قلب آسية الصغرى مقره ، وشرع يناوئ الحلفاء ويناصبهم العداة فأخذت حركته تشتد وتقوى وتشتهر بهجومه على العساكر الفرنسية فى كيليكية (وهى منطقة ساحلية فى آسية الصغرى للشمال من سورىة) مبلياً بلاء حسناً ويزلاً بالعدو خسائر فادحة .

وكان العرب أيضاً يتأهبون للقيام بالمناوأة والمقاومة ، فعقدوا فى شهر آذار (مارس) « مؤتمراً سورياً عاماً » وأعلنوا فيه بالاتفاق استقلال سورىة وملكوا عليهم فيصلاً ، فتكهربت للحال جميع الأقطار العربية من جراء اعلان هذا الاستقلال ، فنشبت الاضطرابات الشديدة عداة للفرنسيين فى المنطقة الساحلية التى يحتلها الفرنسيين ، وشبت الفتن فى فلسطين يقوم بها العرب المسلمون والنصارى عداة لليهود الصهيونيين ، وأخذت قبائل العراق توقد نار الثورة غير المنظمة .

فبات موقف الدولتين « المتدبتين » حرجاً مشؤوماً منذراً بعظيم الشر ، فلجأنا الى الضرب بسيف القوة العسكرية وتسكين الحال بالحديد والنار ، ولا سيما فرنسة فاهما فاقت سواها باتخاذ ذرائع العنف والقسوة . وفى ذلك الحين كان لديها نحو من ١٠٠٠٠٠٠ جندى

في سورية وكيليكية بقيادة الجنرال غورو القائد المحرب في كثير من ميادين الحروب الاستعمارية ، وصاحب الاعتقاد بوسائل « السلاح والحديد والنار »
 ففي ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ بعث غورو ببلاغ أخير الى فيصل طالبا منه تسليما تاما ، فاجابه فيصل الى ذلك في الواقع بعد فراغ جهده السياسي ، معربا عن قبوله بالبلاغ ، غير أن غورو قد أنكر هذا جفاء انكاره خدعة حربية ، ومشى نحو دمشق بجيش عدده ٦٠،٠٠٠ مقاتل ، فلم يحاول فيصل مقاومة حقيقية ، بل قاتل قتالا طفيفا بعد أوانه ، ثم تسحب الى الصحراء . وفي ٢٥ تموز (يوليو) دخل الفرنسيون دمشق عاصمة ملك العرب ، وخلعوا فيصلا وأسسوا حكما فرنسيا تاما وجازوا العرب على المقاومة التي قاموا بها مجازاة أهول ما كانت من الشدة والعنف ، وغرموا دمشق ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ فرنك غرامة حربية ، ناسجين في عملهم هذا في سورية على منوال الألمان في بلجيكا ، وزجوا في غيابات السجون وقتلوا كثيرا من القادة الوطنيين ، وأعلن غورو أن موت « فرنسي واحد أو نصراني واحد » يعقبه « أخذ النار الأهول والانتقام الأفضى » ، بالطائرات الحربية ذات القنابل (١)

قامت سورية من جراء هذه الصاعقة « النابليونية » مهیضة الجناح تضطرب من أثر الرعب . أما الانكليز في العراق فما كانوا على كل حال ليلقوا إلا حظاً مشؤوماً وجرأاً عاثراً ، اذ ظلت الفترة دائرة الرحي عدة شهور . وفي شهر آذار (مارس) صرح القائد البريطاني مينا « شدة دهشته من استعداد البلاد للانفجار البركاني » . وفي شهر تموز (يوليو) نهبت العراق من أولها الى آخرها بنار الثورة الآكاة ، ومع أن عدد الجيوش البريطانية كان ينيف على ١٠٠،٠٠٠ مقاتل ، فقد ذاقت بريطانية الأمرين في تسكين الحال واجداد نار الثورة .

وفي غضون ذلك احتل الحفاء القسطنطينية يتغنون اكره تركية على قبول الصيغة التي كانوا قد وضعوها لمعاهدة الصلح . فكان الاحتلال بطبيعة الحال سهلا دون مقاومة ، ولا غرابة في ذلك فان القسطنطينية انما كانت تحت رحمة أساطيل الحلفاء . غير أن السكون الذي ساد أهل العاصمة الذين كانوا بالألوف المؤلفه متجمهرين بغية شهود الجنود المحتلة

(١) للاطلاع عن مظالم الفرنسيين وقسوتهم اقرأ المقالات المذكورة أخيراً .

نازلة الى البر، كان أبلغ وأفصح من ألسنة المفاويه من الخطباء . وقد راقب بعض أرباب الاستقصاء من الحلفاء هذه الحالة ، فأوجسوا خيفة وقلقوا بالا منها . قال صحافى فرنسى فى هذا الصدد : « ان سكوت الجماهير من الخلق كان وايم الحق أشد تأثيراً من صخب الاحتجاجات البالغة أصواتها عنان السماء . كان الناس صامتين كأن على رؤوسهم الطير ، غير أن عيونهم كانت تقدح شرر العداة والبغضاء . وكان بعض القوم من الذين أخذ اليأس من نفوسهم كل مأخذ ورأوا الذل محيماً فوق مدينتهم ، منبئين فى أفواج الناس ، يرسلون الرسل ويبعثون الدعاة الى جميع الأمم الاسلامية فى أقطار العالم الاسلامى لينقلوا اليهم نباء النازلة الكبرى والدائمة الدهماء فى بضع ساعات تصل الأبناء الى الأناضول ، و بعد ذلك ييومين تنتشر فى قونية وأنقرة وسيواس ، و بعد مدة وجيزة تجوب أبناء هذه الفجيرة جميع الأقطار التى تشملها السيطرة البلشفية حتى القوقاس وعبر القوقاس ، و بعد عدة أسابيع تسمى جميع هذه الأقطار الوسطية ملتبهة استعداداً لأخذ الثار ، فان آسية وافريقية ستعودان فتوثقان عرى الاسلام توثيقاً لم يعرف مثله من قبل ، وسيقوم هؤلاء الرسل النجباء البلغاء بنقش أبناء هذه الغزوة التى قنابها ، فى نفوس العامة والكافة من المسلمين الذين لا يقرأون ولا يكتبون . فهؤلاء الرسل هم دعاة الثورة وهاجرة التعصب الدينى ، متجددون للقيام بهذه الدعاية ، متألفون من كل جنس وطبقة من طبقات المجتمع ، منهم المتعالمون المهذبون يتسكرون فيرتدون خلقان الآثواب ويتظاهرون سؤالا ومشردين ومطرودين ومنفيين ، كما يتسنى لهم بذلك نشر الأبناء فى جميع الآفاق واستئثاره الهمم والغيرة ابتغاء ايقاد الثورة زياداً عن بيضة الاسلام » (١)

جرت الأمور فى ترقية مجارها التى سبق لنيبى رئيس الوزارة الايطالية فتنبأ عنها . فاكره رجال الحلفاء وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة (مصافية) ، ففعل السلطان ذلك فشجبت هذه الوزارة حركة مصطفى كمال و (رجاله العصاة) وأوفدت وفداً اختير أعضاؤه اختياراً الى مؤتمر سان ريمو فى فرنسا حيث وقعوا بالرضى والتسليم المعاهدة التى أعدها الحلفاء الذين استطاعوا بذلك (تأييد مراهم) على قصاصات الورق لا غير ، وما كان ذلك بالأمر الغريب لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع

هذه الصفقة التي رام الحلفاء عقدها إنما هي ضرب من الخبل والجنون ، وان كل فرد من أفراد الحكومة (المصافية) ، من السلطان حتى أحقر الكتبة ما هو الا مصطفى كمال يتلهب غيرة وطنية ، وان العاصمة التركية الحقيقية إنما باتت انقرة لا القسطنطينية وان قوة الحلفاء لا تجاوز في الواقع غاية مراعى مدافعهم ، أما مصطفى كمال فقد قال في شأن معاهدة سيفر : « أمعاهدة صلح تلك ؟ أنى مستعد لقتال العالم بأسره مشرقاً ومغرباً » .

فبات الحلفاء في مأزق حرج لا ريب فيه ، ولا سيما من بعد ما أصبحت كلمة الحلفاء تدل على بريطانية وفرنسة لا غير . أما ايطالية فلم تشارك في القاء دلوها في الدلاء بل فعلت كما قال نيتي ، ولم « ترسل جندياً واحداً ولم تدفع ليرا واحدة » . لذلك لم تستطع فرنسا ولا بريطانيا حشد الجيوش الكافية لسحق مصطفى كمال ، في الحين الذي تتكبدان فيه نفقة ٢٠٠,٠٠٠ جندي لتسكين الحال في الاقطار العربية الهاشمية وغيرها ، وما كان سحق القوى السكالية بالأمر السهل ، اذ قدر اركان الحرب الفرنسيون الجبش المقتضى لذلك : ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل تام العدة . على انه قد بقي في ايدي الحلفاء سلاح آخر - هو اليونان . فتقدم فنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خضد شوكة الترك ودق عنقهم ، وذلك على شريطة أن تنال اليونان في مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة في مناطق آسية الصغرى ، فقبل ذلك منه وبعد حين نزل جيش يوناني الى بر ازبير عدده ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، غير ان هذا الجيش قد لقي الخيبة والفشل اذ ان المئة ألف مقاتل على كثرتها كانت أشبه بالغناء واجتنب مصطفى كمال الاشتباك مع اليونان في معركة فاصلة ، ولكنه نابر على مضايقتهم وإيقاع الحيف بهم بالحرب غير النظامية ، كما كان شأنه أيضاً مع الفرنسيين في كيليكية في الطرف الآخر من الميدان . فتوغل اليونان في البلاد توغلاً فاحشاً وتورطوا تورطاً شديداً كاد يقضى عليهم على بكرة أبيهم ، فازدادت القضية التركية إعضالا وإشكالاتاً ، وعلى ما ظهر أن فنزيلوس ظل يبتنى نزال الترك والمضى معهم في الحرب وذلك بصفة كونه « المنتدب » الثاني من قبل الحلفاء ، لكن الشعب اليوناني أبى عليه ذلك ، لان اليونان ما برحوا منذ سنة ١٩١٢ يخوضون غمار الحرب من ميدان الى آخر ، حتى نهكت قواهم أشد النهك ، فراموا الاستراحة ولوقليلا . فلما كانت انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) اسقطوا فنزيلوس بنحو ٩٩٠,٠٠٠ صوت ازاء ١٠,٠٠٠ صوت ثم دعوا ملكهم

قسطنطين الذي كان الحلفاء قد خلعوه منذ ثلاث سنوات ليعود فيتبوء العرش . فكانت النتيجة الصافية ان اليونان باتت كإيطالية خارجة عن ارباب الصفقة . أما الملك قسطنطين فقد استأنف القتال مع الترك من تلقاء نفسه (١) ، فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضاً لذلك الموقف الذي وقفوه في عهد فتريلوس . وعلى الجملة فان الحلفاء باءوا بالخسران فرد كيدهم في نحورهم ، وسقطوا دون أمنيتهم التي حسوها من الهنات الهينات .

في ذلك الحين كان مصطفى كمال يجهد ليس لتوحيد قوته وسلطته في آسية الصغرى فقط ، بل لاكتساب أحلاف له في الخارج . ففي المقام الأول كان ينشئ علاقات وثيقة مع العرب ، الأمر الذي قد يبدو لأول وهلة من الغرابة بمكان ، إذ يرى ان العرب والترك وهما العدوان بعضهم لبعض ينقلبون من العداوة المرة الى الصداقة الحلوة ، ولكن ذلك ليس في الواقع بالغريب البتة لأن السياسة الفرنسية البريطانية هي التي قد خلقت هذه الأعجوبة وأنت بهذه الخارقة . والسبب الذي من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلاه لورانس المعروف « بروح الثورة العربية » حق الجلاء ، فقد قال بعد فراغه من الخدمة العسكرية في بيان له نشر في الصحف البريطانية : « ان العرب قد ثاروا في وجه الترك خلال الحرب العامة ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فساداً شديداً (٢) ، بل لانهم ابتغوا نيل الحرية وراموا ادراك الاستقلال فلم يخوضوا المعركة لكي يستبدلوا سادة بسادة ، كأن يخضعوا لبريطانية أو فرنسة ، كلا ، بل لكي ينشئوا لهم دولة عربية » على ان هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب ، وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية (٣) ، في قالب أئين عن القصد وأفصح عن الغرض ، وذلك في مقال نشره في صحيفة

(١) قسطنطين لم يكن ليريد الحرب مع الاتراك ، بل كان صرح اولاً بان سياسته هي المصالحة معهم . ولكن اشتطت عليه إحدى دول الحلفاء متابعة هذه الحرب ان كان يريد ان تساعد في تبوء العرش ، فاضطر الى ذلك مكرها لا بطلا . (ش)

(٢) ليس من محل احتله الاوربيون بعد الحرب العامة في الشرق الأدنى وأتوا فيه بإدارة تفوق الإدارة العثمانية التي كانت قبل الحرب ، بل أتوا فيه بإدارة تترقى الى درجة محاكاة الإدارة العثمانية ، التي وان لم تكن المثل الأعلى فقد ثبت عند الجميع انها كانت أعدل وأحكم وأغف وأضبط من إدارة الحلفاء في البلدان التي جاءوا لتنظيم أمورها بزعمهم . . . نخدموا الاتراك بإدارتهم هذه أجل خدمة من حيث لا يشعرون (ش)

(٣) هذه المقالة هي إحدى المقالات التي كنت نشرتها في جريدة (البوبلار) الاشتراكية الفرنسية

فرنسية راديكالية مقاومة للطوحة السورية جاء فيه : « ينبغي لفرنسة وبريطانية أن تعلمتا علم اليقين ان العرب انما هم للترك اخوان في الدين ، توحدوا واياهم توحداً سياسياً قروناً عديدة ، بحيث هم لا يرغبون البتة في الانشقاق عن اخوانهم المؤمنين وشركائهم المسلمين وأترابهم المجاهدين الذين واياهم كانوا في الحروب الخالية يقاتلون العدو جنباً الى جنب وصفاً الى صف ، انشاقاً ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم لنيرو دولة أوروبية ، مهما كان شكل سلطان الحكم الذي تتقلده هذه الدولة فلذلك أى جدوى يأتى من القول الذى يقوله المسيو مياران : « لم يدر فى خلدنا قط أن نعتدى بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية » فليس أحد من العرب اليوم يمكن اضلاله بمثل هذا النمويه وأخذة بمثل هذا الخداع . ان الهدنة قد وقعت على حسب الشروط والمبادئ التى أعلنها الرئيس ولسون ، ولكن لما تضعفت المانية وتضعع احنافها معها ، ديست شروط الهدنة وعهودها ، كما ديست الأربع عشرة مادة ، بالأقدام . على ان النكث الذى أصاب العهود المقطوعة للعرب قطعاً جازماً لازماً فى منحهم الاستقلال التام ، تلك العهود المكررة المؤكدة عشرات من المرات ، قد حل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الاخوان ، فعاد حبل الولاى بينهم بعد التصرم موصولاً ، بحيث لم تمض الا أشهر معدودات حتى تم ذلك بين الأمتين قد تستطيع فرنسة بحفظها جيشاً مؤلفاً من ١٥٠,٠٠٠ جندى فى سورية ، وبتكبيدها انفالاً البلايين من الفرنكات ، أن تخضع عرب سورية الى ميقات ، بيد ان ذلك ليس جميع ما فى الأمر ولا الضامن لسلامة العقبي ، فحدود سورية مترامية الى مايلها من البلاد التى قطينها عرب وكرد وترك ، وتمتد الى الصحراء الكبيرة . فاذا ما شرعت فرنسة فى قتال الأربعة الملايين من عرب سورية ، لم يبق ذلك مقصوراً على قتال هؤلاء فحسب بل يتناول قتال عدو عدده أكثر من ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ عربى ، منششرين فى جميع الأقطار المشرقية ، غالبهم من القبائل المسلحة ، الشديدة الشكيمة الجية الأنف الصلبة الفناة ، هذا ما عدا الأمم الاسلامية الأخرى ، المتدانية لهم ، الداخلة فى الوحدة المتراسة الاسلامية ، والحامل على جميع ذلك انما هو ارهاق الحلفاء وتوالى ضرباتهم الساحقة على غير رحمة ولا شفقة . فان قال قائل ان فى هذا غلواً ، فما عليه الا أن يواقع الحقائق الواقعة ويراهها عن كشب مستبصراً مستقصياً ، ولكن لعمري أى نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد أن تجرى المماء

في الأقطار العربية انهرأ وغدراناً^(١) .

وفي الواقع باتت الأدلة على الوفاق التركي العربي مشهودة جلية في مواضع عديدة . غير ان هذا الوفاق القاضى بمعاونة هؤلاء هؤلاء لم يعترف به علناً من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذى أزل عن عرشه وجاء من بعد خروجه من دمشق الى ايطالية حيث طفق يوالى القيام بمناقشات سياسية ، مع هذا فقد اصطف العرب مع الترك جنباً الى جنب في كيليكية وقاتلوا الفرنسيين العدو المشترك ، واشترك الترك والكرد مع العرب السوريين في ايقاد الفتن السورية التى ظلت تشب في موضع موضع . واما ما كان لمصطفى كمال من اليد في اشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهوراً يغنى عن البيان . وان هذا الوفاق العربي التركي لم يكن جيع مارمت اليه السياسة الخارجية التى اتبعها مصطفى كمال ، فهو في ذاك الحين عينه كان يبعد بمرجى سياسته الى الشمال الشرقى ، ليتناول التتر في عبر القوقاس والتركان في اذربيجان الفارسية وكانت القوقاس في هذا الوقت ميداناً لنزاع شديد وخصام عنيف بين فريق التتر والتركان المسلمين ، وبين فريق الأرمن والكرج النصارى ، وبين طائفة من الأحزاب الروسية البلاشفة ، مما كاد يحول ذلك القطر الى بؤر شديد السعير . وقد لقي مصطفى كمال في التتر والتركان ، المحتمرين جدّ الاختيار بالدعوة الطورانية ، أعواناً حساً وأنصاراً غيراً ، ثم لقي نصيراً ثالثاً مد اليه يد العون وهو روسية البلشفية . فالسياسة البلشفية التى قد سبق لنا بيان غرضها وغايتها ، والتى كانت تجهد لاشعال الفتن والثورات في وجه الدول الغربية في جيع أقطار الشرق ، قد ارتاحت كل الانياح لثورة مصطفى كمال وأعظمتها وأكبرتها . أما في بدء الأمر فلم يكن باستطاعة البلاشفة القيام بعون كبير لرجال الثورة الوطنية التركية ، لأنهم لم يكونوا على صلة مباشرة مع القائمين بها . غير أن الدائرة التامة التى دارت على جيش « رانجل » الأبيض في شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٠ ، واجتياح الجيوش الحراء على أثر ذلك لروسية الجنوبية بحذافيرها ، قد مهد طريق الصلات المباشرة بين موسكو وأقرة على طريق القوقاس ، ومن ذلك الحين بات مصطفى كمال مشدود الأزر من قبل البلاشفة بالسلاح والمال وقليل من الرجال .

(١) نشر هذا المقال في Le Populaire في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٢٠

زد على ذلك أن كلاً والبلاشفة كانوا جميعاً يوقدون نار الفتنة في إيران تلك البلاد التي كانت وايم الحق في حالة يرثى لها . فقد ظلت هذه البلاد خلال الحرب العامة ، على كونها محايدة تمام الحياد ، ميدان نزاع بين البريطانيين والروسين من جانب ، والترك والالمان من جانب آخر . فلما إهارت الروسية انهيارها الأء كبر سنة ١٩١٧ حملها ذلك على أن تجلو جلاء عسكرياً عن إيران ، فاهتبت بريطانية الفرصة إذ ذاك ، فأعزت سيطرتها وأعلت شأن نفوذها وأيدت كلماتها وكسبت موقفاً صفة قانونية بذلك « الاتفاق » المشهور الذي دبرته مع حكومة الشاه في شهر آب (أغسطس) سنة ١٩١٩ (١) ولكن هذا الاتفاق مع كونه مبرماً وموقفاً على الوجه المرضي قد استنكرته الأمة الإيرانية استنكاراً وحسبت من جرائه ألف حساب . فانقلبت الحال بذلك فرصة ثمينة لعود الدعوة البلشفية الى العمل والانتشار . فأعلنت الحكومة البلشفية نزولها عن جميع الحقوق التي كانت الحكومة الروسية القيصرية قد اكتسبتها في إيران ، وجا هرت بولائها ومصافاتها للأمة الإيرانية ووقفت في جانبها لمقاومة التوسع الاستعماري الغربي . فأفلح المسعى حقاً بطبيعة الحال ، فباتت إيران مضطرباً يكثرفيه نشوب الفتن العسكرية . وفي أوائل صيف سنة ١٩٢٠ عبرت قوة بلشفية بحر قزوين ونزلت الى الساحل الإيراني . غير أن هذه القوة لم توغل ابغالا بعيداً في البلاد إذ لم تكن بحاجة الى هذا لأن البلاد بدأت تمور في بحر من الارغاء والازباد ، مما جعل الموقف البريطاني متزلزلاً شديداً . فانقضت عدة شهور والاضطراب سائد في طول إيران وعرضها وما برحت هكذا حتى الحين الذي نكتب فيه هذه السطور . على أنه ليس هناك من ريب أن موقف بريطانية في إيران صار بجملته وشيك الانهيار ، وأن بريطانية ستكره لذلك عما قريب حتى تجلو عن البلاد كلها ماعدا القسم الجنوبي الأقصى الذي يمكنها فيه احتفاظ موقفاً .

نعود الآن الى خريف سنة ١٩٢٠ حيث موقف بريطانية وفرنسة في الشرق الأدنى بات ينقلب على التوالي من سئ الى أسوأ . فالدولتان غدا موقفهما منندراً بالويل والثبور ، ولا سيما من بعد ماتخت عنهما ايطالية واليونان ، وزجهما الترك زجة شديدة ، وثار في

(١) لزيادة الاطلاع على مجارى هذه الوقعات اقرأ مقالة المؤلف نشرت (كانون الثاني - ديسمبر ١٩٢٠)

وجههما العرب، وانتقض عليهما المصريون والفرس، وانتشرت الدعوات البلشفية ضدّهما في سائر الأقطار، فبهظ العبء وثقل الجمل، ونهكت القوى وشقت الأنفس. ففي العراق وحدها بلغت النفقة التي تكبدها بريطانيا ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ ليرة انكليزية. والحالة لم تبرح متجهمة الجوّ لتدل على كثير من الانفراج.

لذلك ليس من الغرابة في شيء في مثل هذا الأوان العصيب ان غدت السياستان المتبعتان في الشرق الأدنى هدفاً لسهام الانتقاد المرّ والقذف الشديد، ولانصباب جام الغضب عليهما من كل قوم وناد في كل من بلاد بريطانيا وفرنسة. أما في بريطانيا على الخصوص فقد بات الانتقاد طوفاناً أعمى يجرف في سبيله كل شيء حتى عدت المحاولة التي تحاوها بريطانيا في العراق جناية وخطراً ما أنزل الله بهما من سلطان. مثال من ذلك الانتقاد ما قاله الأمير آلاي لورانس: «لقد غدونا على مقربة من الداهية الدهيئة وصارت حكومتنا أسوأ وشرأ من الحكومة التركية البائدة، فان الترك قد استطاعوا أن يحكموا في البلاد ويوطدوا الأحكام بنحو ١٤،٠٠٠ جندي من أهل البلاد، وبقتل عدد من العرب لا يزيد على المتين كل سنة أما نحن فانا نحفظ جيشاً عدده ٩٠،٠٠٠ مقاتل، تام العدة مجهز بالطائرات الحربية والدبابات المسلحة والسفن الحربية والقطر المصفحة، وقد قتلنا نحواً من ١٠،٠٠٠ عربي في ثورة هذا الصيف^(١)» غملت هذه الانتقادات المرة المؤثرة، والصفة العامة لمجاري الأمور، الحكومة البريطانية على تقويم موقفها، فانفذت الى العراق السرّ برسي كوكس للمفاوضة مع العرب، وهو ندم الماز ومن طرازه، لا يقيم وزناً الا للحقائق، كثير الخبرة والحسكة في معالجة الشؤون الشرقية. ولما كان قد فُوض اليه القيام بالمناقشة والمفاوضة في شأن اتفاقات كبيرة فقد اجتمع بالقادة الوطنيين على انبساط وحرية، فكان له في نفوسهم تأثير كبير. وعند كتابة هذه السطور كانت الحال لم تزل قلقه، غير أنها تدل على أن بريطانيا عاملة على اختطاط خطة جديدة يكون لها بموجبها الحكم المباشر على الطرف الجنوبي الأقصى من العراق حيث رأس الخليج الفارسي، أعني على منطقة سيطرتها القديمة المعروفة قبل سنة ١٩١٤.

وفي تلك الغضون استطاعت فرنسة أن تحفظ شيئاً من النظام في سورية لكن بطرق

(١) من بيان له نشر في الصحف آب (اغسطس) ١٩٢٠.

السلاح والنار ، ومع هذا لم يزل الموقف متزعزعا ، فقد نفت السلطة الفرنسية كثيراً من أبناء البلاد على اختلاف الطبقات فغدا جميع أهالي البلاد ، حتى الموارنة الكاثوليك الذين كانوا يميلون الى فرنسا ميلاً تقليدياً ، يهيجون وبصخبون ، فسكن الجنرال غورو بسرعة هذه الحركة بنفيه القادة والزعماء الى كورسكا . وعلى الجملة فالحقيقة الراهنة التي يجب ان يقال وتعلم هي أن أصدقاء فرنسا الاوفياء في سورية قد غدوا على فرنسا ساخطين ولها مبغضين . وكل هذا لم يكن ليحمل فرنسا على تقويم سياستها حتى اليوم . قال الميوليغ رئيس الوزارة الفرنسية منذ عهد قريب في شأن سورية : « ان فرنسا ستحتل سورية بأجمعها احتلالاً دائماً » وصرح الجنرال غورو منذ عهد أقرب : « يجب على فرنسا ان تبقى في سورية لأسباب سياسية واقتصادية ، فلو تخيلنا عن البلاد لجرت علينا النتائج السياسية التي تنجم عن ذلك الرزيئة الفاجعة ، ولتضى القضاء الاخير على مكانتنا وسيطرتنا في الشرق والبحر المتوسط . زد على ذلك ان المطامح الفرنسية الاقتصادية تدعونا للبقاء في تلك البلاد ، ومتى ما وفر العمران وعم التقدم والفلاح في سورية وكيلسيكية كان لهدين القطرين شأن اقتصادى يضاهاى الذى لمصر » .

بيدانه ، مع تصلب الحكومة الفرنسية الشديد لا تزال جمالات الانتقاد على « المطوحة السورية » ، من رأى العام الفرنسى في ازدياد . وليس الذين يقومون بهذه الجمالات هم الغلاة المقاومين لتوسع الاستعمارى بحسب ، بل أيضاً منهم المحافظون الابرياء من كل تهمة وغرض . قالت الصحف السياسية الفرنسية في هذا الصدد : « ان العرب ، وهم يغارون أشد الغيرة على الاستقلال والحكم الذاتى ، قد تحرروا من النير التركى ، لكن لا يبتغون حكماً أجنبياً جديداً . فالقول اذاً ان سورية تطلب حاجتنا لها ، انما هو كذب واختلاق . ان سورية تريد الاستقلال التام وتطلبه » . ومن عهد ليس ببعيد وقف فكتور برار خطيباً في مجلس الأعيان وهو من أعضائه ويعد من ثقات فرنسا المشهود لهم بالاضطلاع والخبرة في الشؤون الشرقية فانتقد سياسة حكومته في سورية انتقاداً شديداً مرأً وكشف الغطاء عن معايها ومشايها وصرح تصريحاً ان « سورية الحرة » قد أمست قضيتها « قضية مصلحة وشرف معاً » .

وبالرغم من هذا كله فالحكومة الفرنسية باقية لم يلب جانبها للعرب ، من حيث

انها قد فعلت ذلك ازاء الترك ، فبدلت موقفها عندهم تبديلاً تاماً ، فضربت بمعاهدة سيفر عرض الحائط ، وأبرمت منذ عهد قريب شروط صالح موقت مع الترك ، موافقة كل الموافقة فى الواقع على اخلاء كيليكية . وقد باتت بريطانيا وفرنسة تعلمان جيداً أن معاهدة سيفر صارت عقيمة لا يستطيع العمل بمقتضاها ، وان امتلاك الترك لآسية الصغرى من أقصاها الى أقصاها أمر لا بد منه ولا منتدح لهم عن الاعتراف به .

ان فرنسة باتفاقها مع مصطفى كمال لترجو بلا ريب رجاء كبيراً ، ألا وهو حفز مصطفى كمال أن يكر على العرب يوماً ، بيد أن ذلك بعيد ، فان مراعى جميع الحوادث والواقعات تشير اشارة بينة الى صيرورة الوحدة متراسة الجوانب موثقة العرى بين شعوب الشرق الأدنى لمقاومة التسلط الغربى السياسى . وأقوى الأدلة وأعظمها على سير الوحدة هذا السير واتجاهها متجهها تندانى به الشعوب فى جميع أقطار الشرق الأدنى بعضها من بعض ، هو المؤتمر الاسلامى العام الذى عقد فى سيواس فى أوائل سنة ١٩٢١ . وكان الغرض من عقده وضع خطة راهنة بآته يستطيع بها توثيق عرى التآخى الاسلامى فى العالم الاسلامى مشارق ومغارب . وقد حضره الأمراء ، والقادة السياسيون السنيون من المسلمين ، وأمراء من سائر الملة الاسلامية مثل أمير كر بلاء الشيعى ، والامام يحيى^(١) ، أمير الزيدية فى اليمن - الزعماء الذين لم يكن التعاضد والتقارب مستطاعا بينهم وبين السنيين من قبل ، وأعظم ما فى الأمر هو ما أذاعته الصحف من أن الأمير السنوسى الكبير هو الذى قد ترأس هذا المؤتمر . ولا جرم فاننا قد عرفنا بما تقدم من الكلام ان السنوسى لم يبرح دائماً جاداً فى سبيل اعزاز الجامعة الاسلامية والوحدة المحمدية الكبرى فى المعمور الاسلامى ، لمقاومة التسلط الغربى . هذه هى صفة الحال اليوم فى الشرق الأدنى - حالة عصبية كلما اضطراب ، ومحفوفة بنذر السوء . الا أن هناك أمراً فيه علامات حسنة ، الا وهو انتباه الحكومة البريطانية لخرج الساعة واشتداد المأزق ، انتبهاها يحملها بالتالى على تقويم موقفها . فلذلك ان جهداً يبذل مثل اللورد ملز والسربرى كوكس ، ولو اعترض سبيله كثير من المصاعب والشاق ، يستبعد أن لا يكون مشمراً ولو بعض الثمار . ان هذين الرجلين لظاهر فيهما التحدر السياسى من نشا تام ودرهام ، الداهيتين اللذين رفعا عماد

(١) الامام يحيى لم يحضر مؤتمراً كهذا ولعل اناساً من جهته حضروا .

تلك التقاليد السياسية الكبرى التي وسعت جميع شؤون الامبراطورية البريطانية حزماً وتديراً في ما زرق مستحكمة الحلقات وأزمات مرهبة الجواء .

أما من الجهة الأخرى فلا تزال الحالة مؤذنة الخطر في الشرق الأدنى حيث فرنسا لم تبرح على عنادها السياسي رابكة فيه رأسها منقاداً لها ، وما دامت فرنسا مستغرقة في بحر تقاليد القديمة ، فهي على هذه الحالة معرضة بسياستها عن مواجهة الحقائق التي لا بد لها أن ترغم على الوقوف عندها بعد حين معتبرة مستبصرة . فلذلك اذا ما انفجر البركان وملأت جمه الجو ، وهو الذي لا مناص من انفجاره ، ما لم تقدم فرنسا في الواقع على تقويم سياستها ، واذا جاء ذلك اليوم الاسود الذي تلتهم فيه سموم العرب الهابة من الصحراء ثلاثين الى أربعين كتيبة من الكتائب الفرنسية ، يقضى حينئذ الكثيرون من المظلمين بالشؤون الشرقية قضاء عدلاً ، بأن : « السياسة الفرنسية قد نالت جزاءً وفاقاً » .

ندع قضية الشرق الأدنى في هذه الحزّة الى أن تبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ، وندخل في الكلام على المعضلة السياسية الكبرى في الشرق المتوسط - الا وهي العصية الجنسية والنهضة القومية في الهند .

المساواة في الشريعة الاسلامية

الشيخ الكبير

ان الشريعة الاسلامية تعرف للعرب أمة الرسول ﷺ خصوصيات وفضائل ولكن هذا لا يخرجها قيد شعرة عن قاعدة التسوية النامة بين جميع الأمم^(١)، العربي منهم والعجمي، والاجر والاسود. وترى صورة الاسلام كلها في هذه الآية « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » يقول تعالى انه خلق البشر كلهم من أب وأم وما جعلهم شعوباً وقبائل لتمييز بعضهم على بعض كلاب ليعرف كل من أي قبيل هو، أما المزية فهي للتقوى فقط. وبهذه الآية انتشر الاسلام، وفتح العرب تحت ظل رأيتهم الديموقراطية الحقيقية نصف المعمور، ودخلت الأمم في الاسلام، ولا تزال تدخل فيه الى يومنا هذا. وقد جاءت الأحاديث النبوية مؤيدة للآية الكريمة فيها « ليس منا من دعا الى عصبية » ومنها « ليس لعربي فضل على عجمي ولا لعجمي فضل على عربي الا بالتقوى ». ومنها قوله ﷺ « سلمان منا آل البيت » وذلك انه عد سلمان الفارسي نظراً لتقواه من آل البيت النبوي أكرم البيوت ومنها قوله ﷺ لفاطمة ابنته : « اعلمي يا فاطمة فلن أغنى عنك شيئاً يوم القيامة ». أو كما قال. وهذا في معنى قوله تعالى « لا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وهناك حديث شريف أطلعنا على أسانيد حاضرة الامام الكبير بقية السلف الصالح الشيخ بدر الدين الحسني المغربي نزيل دمشق وهو قوله ﷺ : « ألا ان بعض أهل بيتي يرون أنفسهم أولى الناس بي وليس الأمر كذلك انما أوليائي المتقون من كانوا وحيث كانوا. ألا اني لأحل لأهل بيتي أن يفسدوا ما أصلحت » أو كما قال. وليس في هذه الآيات والآثار ما يتصادم مع شيء من الأحاديث الصحاح الواردة في فضل العرب، ووجوب حب العرب، وكون كلام الله القديم جاء باللسان العربي المبين. كما انه وردت أحاديث أخرى في فضل غير العرب مثل « لوعلق

(١) انظر صفحة ٧٨ من هذا الجزء

العلم بالثريا لثالته رجال من فارس »

ولا يكون الدين إلهياً سماوياً مرشحاً لأن تأخذ به الأمم المختلفة ، أحرها وأسودها وأدائها وأبعدها ، الا اذا كان مؤسساً على مثل هذه القاعدة المقدسة ، قاعدة المساواة . وليس التضامن الاسلامي الذي حار في أمر قوته نفس الأطباء الاجتماعيين ، ودعش من استحكام عراه جهاذة المؤرخين الأوربيين ، الا نتيجة قوله تعالى «انما المؤمنون اخوة» وقد ظهرت في هذه الأيام الأخيرة فرق من الأمم الثلاث العربية والتركية والفارسية ، لا يريدون أن يعرفوا هذا الأصل العظيم ولا أن يقيموا له وزناً ، بل زعموا انه هو الذي كان منشأ ضرر هذه الأمم . فالذين هم من العرب يعلنون انه لولا اخوة العرب مع الترك بالاسلام لما فقد العرب ملكهم وسلموا به للترك ، والذين هم من الترك يقولون لولا هذه الاخوة الاسلامية التي فرضها الدين لما بذلت الدولة العثمانية قوتها في الذب عن القضية الاسلامية ، بل كانت حصرتها في الذب عن القضية التركية فحسب ، والذين هم من الفرس يقولون مالنا وللعرب والترك ، كل من الأمتين عدوة لنا فلولا الاسلام لم يكن لنا بهما أدنى رابطة ، فيجب أن نعود فرساً كما كنا . والجواب على الفئة الأولى ، أنه لولا تلك الاخوة الشرعية ما أمكن العرب أن يقوموا بتلك الفتوحات الباهرة في صدر الاسلام ، ولا دانت بدينهم الأمم ، ولا اتخذت كتابهم دستورها ، ولا نبههم نبيا . فان كانوا فقدوا الملك فيما بعد ، فلم يفقدوه الا بتنازعه وتنافسهم والفتن المستمرة بينهم مما مثاله أمام عيننا الآن ، فلا يلوموا بذلك الا أنفسهم ، ولعل الاخوة الشرعية التي يشكون ضررها قد لطف الضرر الذي أصابهم من أثر السقوط ، بحيث ان الأمة الحاكمة فيما بعد كانت ترعاهم نوعاً وتبقي عليهم بسبب جامعة الاسلام . فلما أدبيل منها بدول غير اسلامية ذاقوا طعم الفرق بين تلك الدولة الاسلامية والدول الأجنبية التي خلفتها في الحكم على العرب . والجواب على الفئة الثانية ان الأواصر الاسلامية لم تضر الترك في شيء بل أعطتهم ملكاً طويلاً عريضاً ، وجاهاً كبيراً لبشوا يستطيعون به على الأمم مدة قرون وأحقاب ، من أيام الاتابك والطولونيين الى السلاجقة الى العثمانيين الذين لم يقتصروا على الملك فقط بل استولوا على الخلافة الاسلامية أي على الرئاسة العليا على ثلثمائة مليون مسلم بين مطلع الشمس ومغربها وكانت الدولة العثمانية قد طوت جناحيها على جميع البلدان الواقعة بين تلمسان غرباً ، ويران شرقاً ،

والصومال جنوباً ، والتبريد شمالاً ، فانضوى تحت هلالها نحو ١٢٠ مليون نسمة من عرب ، وبربر ، ونوبة ، وحش ، وكرد ، وطاغستانيين ، ولاز ، وأرناؤوط ، هذا عدا الأمم المسيحية كالروم ، والأرمن ، والبلغار ، والصرب ، والمجار ، والفلاخ ، والبغدان ، والخرات ، فأنت ترى ان الترك أصبحوا بعد هذا بالنسبة الى المجموع جزءاً يسيراً في المملكة فلم يكن ليتسنى له التسلط على بقية الأجزاء لولا الوحدة الاسلامية التي جعلت بينه وبين العرب والأكراد والجراكسة والأرناؤوط والبربر وكونت من كل هؤلاء عصبية واحدة ، ولولا كونه قائماً بحياطة الدين الاسلامي تلك الحياطة التي هي عنوان الدولة العثمانية . وليس بصحيح ما يذهب اليه بعض الطورانيين من كون الترك لم يحتاجوا لعصبية الاسلام في فتوحاتهم هذه بل كانوا قادرين أن يقوموا بها سواء كانوا مسلمين أم لم يكونوا . وكذلك ليس بصحيح ان فتوحات السلطان سليم انما اتسقت بحد السيف وحده ، وان الدولة العثمانية لبثت هي الدولة الحاكمة في بلاد العرب بأسية وأفريقية بحد السيف أيضاً . بل لم تنسق تلك الفتوحات للسلاجوقيين ولا للعثمانيين الا بقوة الرابطة الاسلامية ، واتخاذهم الدفاع عن حوض هذه الملة شعاراً لهم . اما استشهادهم بفتوحات جنكيز وهولاكو وكونها طبقت الآفاق بدون دعوة اسلامية ، فهذه كانت أشبه بسيل طمى مدة قصيرة ثم قر وما أسرع ما ذهب ، وقد علموا هم انه لما شعر أعقاب جنكيز بقلق مركزهم واضطراب جبلهم التجأوا الى الاسلام ودخلوا فيه ، وجعلوا أنفسهم حانه وكفوا به أنفسهم كرامة المسلمين عليهم ولولا ذلك لم تثبت في بلاد الاسلام دولة مغولية . ونحن نعلم ان بعض غلاة الطورانيين شارعون في تعليم الناشئة التركية تاريخ الشرق على وجه لم يؤرخه عربي ولا تركي ولا فارسي ولا أوربي ، ولكن على الوجه المطابق لسياستهم الجديدة ، مع ان التاريخ علم كسائر العلوم ليس له شغل بالسياسة ، بل لابد فيه من تمحيص الحقائق فقط . وجوابنا على الفئة الثالثة ان الاسلام لم يضر فارس بشيء في دين ولا في دنيا ، اما من جهة الدين فانه نقلها عن عبادة النار الى عبادة الواحد الأحد . واما من جهة الدنيا فقد ازدهرت فارس بعد الاسلام ازدهاراً لم تعرفه من قبل الا قليلاً ، لا بل استولت فارس على الدولة العباسية العريضة وصارت هي روح تلك الدولة برابطة الاسلام وحده ، لا بقوة فارس نفسها ، ولو جاءت تضع يدها على دولة نبي العباس بقوة فارس المجوسية لأصحابها ما أصاب الأفشين الذي عصى الخليفة العباسي فقتل

وأحرقت جثته وقال فيه أبو تمام مشيراً الى نار المجوس :

« صلى لها حيا ومات بحرها وكذلك يدخلها مع الفجار »

هذا ما نراه في الجواب على هذه الفرق الثلاث وفيه خطاب لثثة من المصريين أيضا يذهبون الى انه « ليس فيهم شيء غير مصرى » وان المسئلة المصرية ينبغي أن تبقى منفصلة عن كل مسئلة شرقية اسلامية أو غيرها . ولكننا نضيف اليه أن الوقت زعيم باظهار صحة هذا المنحى في السياسة وعدمها ، فان هذه الفئات انما هي قادمة على تجارب وليس للانسان أن يحكم على الشيء الجديد الا بعد التجربة . فلننتظر نتيجة تجاربهم بسياسة الانفراد ومن رأينا أنه اذا كان مثل هؤلاء لا يرون الاستمسك بجامعة اسلامية تشم منها رائحة الدين ، وتستوحش منها نزعاتهم العصرية ، فليعدلوا على الأقل الى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أية أمة كانوا اذ كان من سنن البقاء أن يتحد الضعفاء في وجه القوى ، فليست الجامعة الاسلامية هي العروة الوحيدة التي يقدر ان يعتصموا بها ، بل الجامعة الشرقية اذا انسقت على الوجه المطلوب في آسية كانت أوسع نطاقاً ولكن هذه الجامعة أيضا توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب . ومما لامشاحة فيه انه لأمل باستقلال الشرق مادام مفكك الاجزاء

تاريخ نجد الحديث

آل سعود وآل الرشيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جرى من قبل ذكر الوهابيين^(١) وهانحن الآن نسرد زبده تاريخ هذه الفرقة واخبار
 أمراء نجد الذين قاموا بنشر دعوتها ملخصة من مصادر عديدة : ولد محمد بن عبد الوهاب
 في العونية من نجد في العام المائة والسادسة عشرة بعد الألف الموافق ١٧٠٤ للمسيح ويقال
 ان جده سليمان وكان منسوباً الى آل البيت وناشئاً في بني تميم ، قد رأى فيما يرى النائم
 ناراً خرجت من سرته فأضاءت البوادي كلها ، فعبّر بعضهم هذه الرؤيا بأنه يخرج من
 صلبه رجل يهدى الأقيام ويؤسس ملكاً كبيراً ، فكان ذلك الرجل هو حفيده محمد بن
 عبد الوهاب بن سليمان

طلب محمد بن عبد الوهاب العلم في دمشق ، وتشرب مبادئ الامام الحافظ حجة
 الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، وابن عروة الخنبلي وغيرهم من خول أئمة
 الحنابلة . ثم رحل الى بغداد والبصرة ، وهناك أيضاً ازداد رياً من موارد المذهب الخنبلي ،
 وأخذ يفكر في اعادة الاسلام الى نقاوته الأولى ، عقيدة الصحابة والتابعين . فلذلك
 الوهابية يسمون مذهبهم عقيدة السلف . ومن هناك أنكر الاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور
 والاستغاثة بغير الله وغير ذلك مما جعله من باب الشرك واستشهد على صحة آرائه بالآيات
 القرآنية والأحاديث المصطفوية ولا أظنه أورد ثمة شيئاً غير ما أورده ابن تيمية . وكان في
 ذلك الوقت رجل يقال له محمد بن سعود قد أعصوبت حوله قبائل « العتوب » و « عنزه »
 وهى القبيلة التى ينتسب هو الى أحد أئخاذها ولد على وتولى زعامتها ولقب بالأمر . فتلقى
 دعوة ابن عبد الوهاب بالقبول وجعلها شعار امارته واتخذ عاصمة امارته قصبه الدرعية ويقال
 ان ولده سعود كان شيخاً عليها فكتب كتاب سلاحها بالخراب وبنادق القليل ، وجعل

(١) راجع صفحة ٨٢ وما بعدها من هذا الجزء

معها طائفة مراديف أى ركاب الدلّل ، مثنى مثنى كل خلف الآخر ، وأخذ بعد ذلك يغزو البلاد المجاورة وييث الدعوة لعقيدة السلف. ففي سنة ١١٥٩ استولى على العويّنة وحرّملة ، ولكن عصت دعوته الرياض التي كان فيها دهام بن دواس فقاتل ابن سعود وقصد المنفوحة من بلاده ، وبقى الفريقان يتصاولان عدة سنين حتى غلب ابن سعود على الرياض . وكان محمد بن سعود قد أصيب بمرض فسلم مقاليد الأمور الى ولده عبد العزيز ، فجد هذا في عزو جواره وبث الدعوة فكانت الحرب معه سجّالا ، وحدث أنه وقعت في يده أسرى من اليمن فأساء معاملتهم فزحف اليه أحد أمراء اليمن حسن بن هيبه الله ، وانضمت اليه عدة زعماء من الاطراف ومن جلتهم ابن دواس الذي انتقض على ابن سعود في الرياض ، فخصروا هذا في الدرعية ، ولكن ابن هبة الله اضطر الى المعاد الى وطنه فلم يقدر ابن دواس على «الدرعية» ، وانتهت الحرب بعقد الصلح . على ان ابن دواس بعد ذلك عانى كثيراً من مقاومة ابن سعود ، حتى اختار الرحيل الى الاحساء ، وتبعه أكثر سكان الرياض فدخلها عبد العزيز بن سعود سنة ١٧٧٢ فوجدها خاوية على عروشها وكانت الغارات مستمرة بين آل سعود وبنى خالد أصحاب الاحساء وبنى المكرمي أصحاب نجران اليمن وسنة ١٧٦٥ توفى محمد بن سعود تاركا الامارة لولده عبد العزيز الذي كان لا يقصر عن أبيه حزما وعزما وبسالة واقداما ، فأخذ يجي من أبناء الدعوة الوهابية العشر للانفاق على الكتائب والسرايا ، واستولى على بلاد وارجاء واسعة من جلتها مدينة الدلم ، ووقعت الوقائع بينه وبين حاكم الاحساء سعدون ، فامتنعت مدينة بريده من القصيم على سعدون وبقيت في يد الوهابي .

وتوفى الشيخ محمد بن عبد الوهاب في ٢٩ شوال سنة ١٢٠٦ الموافقة ١٧٩٢ في الخامسة والتسعين من العمر ، وقد كاد يكف بصره ، وكان قد نسل ١٨ ولداً اذ كان تزوج بعدة نساء ولزم الدرعية عاصمة الدعوة الوهابية ستاً وأربعين سنة .

وسنة ١٧٩٢ تمكن عبد العزيز بن محمد بن سعود من الاستيلاء على الاحساء وخلص من همها وقيل كان ذلك سنة ١٧٩٥ فوجه قوته لقتال الشريف غالب أمير مكة . ولما بلغ الباب العالي استفحال أمر الوهابيين أمر سليمان باشا والى بغداد بتجهيز حملة عليهم ، فسير جيشاً الى الاحساء فلم يفز منهم بطائل بل زحف الوهابيون نحو العراق ، وفي ٢٠ نيسان عام ١٨٠١ دهم منهم ١٥ ألف مقاتل مدينة كربلاء فذبحوا قسماً من أهلها ، ونهبوا مشهد

الحسين بن علي رضي الله عنه، وحازوا كل ما كان مجموعا فيه من النفائس التي تأتي من زوار العجم . ولم يثقل ذلك على ضائرتهم لأنهم ينظرون الى كل من يعظم القبور نظرتهم الى الكافر . وقيل كان ذلك سنة ١٨٠٢ وبالحساب العربي في ١٨ ذى الحجة سنة ١٢١٦ وان سبب هذه النسبة هو تعدى قبيلة الخزاعل الشيعية على قافلة وهابية . فطبق خبر هذه الفاجعة جميع العالم الاسلامي لاسيا فارس وازمع فتح على شاه تجهيز جحفل عدته مائة ألف مقاتل يغزو به الوهابيين في عقر دراهم وكذلك سليمان باشا والى بغداد أخذ في اعداد جيش جرار يتولى قيادته بنفسه ، ولكن فاجأت العجم حرب مع الروس ، وفاجأت سليمان باشا فتنة في بلاد الاكراد ، فانصرفت الهمم عن قتال الوهابي . وفي ذلك الوقت وقعت فتنة بين الشريف غالب وأخيه عبد المعين على امانة مكة فتغلب غالب على أخيه واستعان عبد المعين بابن سعود ، فزحف هذا الى الحجاز وهزم الشريف غالبا واجتاح الطائف وتقدم الى مكة وكانت اذ ذاك قافلة الحج الشامي تحت امره عبد الله باشا والى الشام قد قاربت البلد الأمين فأرسل عبد الله باشا الى ابن سعود يسأله ماذا يريد أن يفعل فأجابه الأمير عبد العزيز ان موكب الحج الشامي له أن يدخل ويقضى مناسك الحج وبعد ثلاثة أيام يمكنه أن يبرح وكان الأمر كذلك . فاستنصر الشريف غالب عبد الله باشا على ابن سعود فلم يقدر أن ينصره لقلته مامعه من القوة ، وما فارق عبد الله باشا البلد الحرام حتى دخل ابن سعود فغلب الأمير عبد المعين مكان أخيه ، وهدم أضرحة الأولياء ، ورفع التحف والنفائس التي كانت مودعة في الحرم الشريف ، وطرد الباعة من محضه . ووقع ذلك في ٨ المحرم سنة ١٢١٨ وفق ٣٠ نيسان سنة ١٨٠٣ أما الشريف غالب فانهمزم الى جدة عند القائد شريف باشا فصمد ابن سعود اليهما ، فلم يقدر على فتح جدة ، وظهر الطاعون في تلك الجهات فكف عن الحصار وانكفا قاصداً المدينة المنورة فلم يوفق الى أخذها ، فعاد ادراجه الى نجد ولم يبق بمكة غير ٢٠٠ رجل من جماعته فنار بهم أهل مكة وذبحوهم .

وكان رجل شيعي فارسي وقيل من العمادية قتل اولاده في واقعة كربلاء وعزم على الاخذ بثأرهم فذهب الى ديار ابن سعود وتظاهر بالوهابية وبقى على ذلك سنة وهو يترصد عبد العزيز ابن سعود ليفتك به . وفي ١٨ رجب سنة ١٢١٨ (٣ تشرين الثاني ١٨٠٣) بينما كان الامير عبد العزيز يصلى العصر طعنه الشيعي بخنجر ارداه قتيلا وكان عمره ٨٢

سنة فقبضوا على القاتل واحتزوا رأسه وقيل أحرقوه . فقام بالامارة بعده ولده سعود ، فافتنى أثر أبيه في الغزو والفتوح ، فاستولى على البحرين وبلاد الجوازم (١٨٠٤) وغزا بلاد عمان . فراع ذلك الباب العالي ، فصدرت الاوامر الى علي باشا والى بغداد بتجهيز حلة على الوهابيين من عرب و كرد ، وشد أزره بعبد الله باشا والى الشام وشريف باشا قائد جدة . وجاء امام مسقط الى البصرة بخمس عشرة سفينة حربية منضما الى الدولة لمقاتلة الوهابيين الا ان التجهيزات الحربية ابطأت ابطاء سُم منه امام مسقط فأب الى بلاده وفي الطريق صادمه قرصان الجوازم فقتلوه . وخيم العسكر الذى جهزه على باشا مدة اشهر فى الحلة لم يقم الا بمناوشات خفيفة ، ثم استدعى الى كردستان لاجاد نار ثورة شبت فيها . فاهتبل الوهابيون هذه الغرة وعادوا الى الحجاز ودخلوا الحرمين وهدموا قبور الاولياء ، ونهبوا ما فى الحرم الشريف النبوى بالمدينة من الجواهر والتحف وابعوها بالزاد العلنى ، واذابوا قناديل الفضة والشمعانات والآنية الفضية كلها ، ووزعوا اثمانها على حامية البلدة الطيبة ووقع ذلك سنة ١٢٢٠ وفق ١٨٠٥ ، ثم توجهوا صوب مشهد على رضى الله عنه فى العراق وكبسوه بيانا فاحس بهم الخفراء فايقتظوا أهل البلد فناروا بهم ودفعوهم عنه وامتد الصريح الى الاعراب الذين حول النجف فجذوا فى أثر الوهابيين فكسروهم فانقلبوا صوب السماوة ، فلم يكن حظهم فيها اسعد وانصرفوا الى ديارهم ووقع ذلك سنة ١٨٠٧ .

الا انه فى السنة التالية اجتاح الوهابيون عانة على الفرات ، ثم زحفوا الى دمشق وعليها يوسف باشا الملقب بالكنجي (الشاب) ، فأخذوه على غرة فاضطر الى مصانعتهم ووعدهم بان يقبل الدعوة الوهابية هو وأهل الحاضرة ، وأدى اليهم مبلغا من المال على شرط أن لا يعارضوا قافلة الحج فى مسيرها ، فقبضوا المال وساروا بخفارة القافلة مسافة ثم لم يلبثوا ان تخاصموا مع الحجاج ، فنهبوا امتعة هؤلاء وعادت القافلة ادرابها وعاد الوهابيون يحاصرون دمشق فكان الوالى فى أثناء ذلك اعد عدة الدفاع فلم يقدروا عليها فنهبوا قرى الغوطة وارتحلوا .

وكان الامير سعود بن عبد العزيز رجلاً ماهراً فى السياسة ، فرأى انه مادام مقاوماً للسلطنة العثمانية فلا بد له من ان يصابى اعداءها فتودد الى شركة الهند الانكليزية والى العجم وامر جماعته بالمحافظة على قافلة الحج الفارسي تزلفا الى فتح على شاه ثم كر

الوهايون على العراق فوجدوا من واليها الجديد سليمان باشا غير ما وجدوه من على باشا من الخزم والقوة وانقلبوا على اعقابهم ، وهزمتهم قبيلة المنتفق في سوق الشيوخ ، وكذلك غزوا سورية ففشلوا عند حلب و بين حماه وحمص . وكان قرصان الجوازم ملأوا جليج فارس عيناً فسرحت اليهم الانكليز من الهند اسطولاً انضم اليه اسطول مسقط ، فدمروهم وازالوا معرثهم ودمروا رأس الخيمة مرسى مراكبهم

ولما ضاق ذرع الدولة العثمانية بالوهايين رمتهم بمحمد علي باشا أمير مصر ، فجهز هذا جيشاً عقد لواءه لابنه طوسون باشا ، فسار براً الى ينبع ميناء المدينة ومعه الخيالة وواقته الرجالة بالسفن من طريق البحر . وتقدم الجيش نحو المدينة فوصل الى بدر ثم لقي العدو بالجديدة ، فحمل في البداية حملة صادقة لكنه لم يلبث ان وجد من صعوبة الاماكن وكفاح العدو ما أسأمه فخارت قوته وانهمز تاركاً في يد العدو سبعة مدافع . فارسل محمد علي الى ولده مدداً واستمال طوسون من جهته قبائل البدو ولحق به رجل من قواد الوهاييين اسمه ابن شديد كان سفر الجويينه و بين ابن سعود ، فزحف طوسون الى المدينة النبوية ودخلها (١٨١٢) بعد حصار ٧٥ يوماً . وبعد ان استقرت العساكر المصرية بالمدينة صمدت الى قتال الوهابي بمكة ، فانهمز عبدالله بن الأمير سعود منها الى بلاده ودخلها الجيش المصري أيضاً وفر أيضاً عثمان المضايقي قائد الوهاييين بالطائف من تلك البلدة ثم أسر . ثم تقدم مصطفى بك قائد الجيش المصري الى طرابه (التي وقعت فيها الواقعة منذ ثلاث أو أربع سنوات بين الامير ابن سعود والامير عبد الله بن ملك الحجاز وأمير شرقي الاردن اليوم وكانت مشؤومة على عبد الله) فاقى فيصل بن الامير سعود بجيشه فالتحم الجمعان وخرج الوهاييون وامامهم امرأة شيخ قبيلة صبيح وصدقوا الحملة فهزموا المصريين واستولوا على مدافعهم وعدتهم .

فلما رأى محمد علي وعورة التجريد ركب بنفسه البحر الى جدة فزها في ١٨ أغسطس عام ١٩١٣ وعزل الشريف غالباً من امارة مكة ، ووضع مكانه الشريف يحيى ابن الشريف سرور بحجة ان غالب اساء السياسة فأرسلت الدولة غالب الى سلانيك حيث توفي سنة ١٢٣١ (١٨١٦) .

ونشبت الحرب بين المصريين والوهايين في طرابه ولكن لم يتمكن المصريون من

خضد شوكة هؤلاء بالرغم من تحريض محمد علي وانهيال اعطيائه وجوائز له لاستبسلين من قواده واجناده وكان الوهابيون قد احتلوا قنفذة بساحل البحر الأحمر فطردهم منها الجيش المصرى لكنهم عادوا فاسترجعوها . وفي ٨ جمادى الأولى عام ١٢٢٩ (٢٨ ابريل ١٨١٤) توفى الأمير سعود فى الدرعية عن ٦٨ سنة ، ويقال انه كان شهماً مقداماً عادلاً فى الحكومة فقام مقامه عبد الله كبير ولده .

وتقدم عابدين بك بقوة مصرية الى زهران (باليمن) فانهمزم . وتقدم الوهابيون ثانية وصاروا على وشك أخذ الطائف وتخرج موقف الأمير طوسون بن محمد على فتقدم محمد على بنفسه ورد فيصل بن سعود الى الورا ، واسترجعت عساكر مصر قنفذة ، وسار طوسون من المدينة المنورة بألفين وخمسمائة فارس فاستولى على جانب من القصيم ، فالتمس عبد الله بن سعود الصلح فأجيب اليه على شرط أن يعترف بسيادة السلطان ، وتم الصلح على ذلك الشرط وعاد محمد على وولده طوسون الى مصر . الا ان محمد على طلب من عبد الله بن سعود الذهاب الى الاستانة لعرض طاعته للسلطان فنلكأ ابن سعود عن الذهاب ، فأبى محمد على الا ان يشخصه فعرف ابن سعود أن لا بد من استئناف الحرب وأخذ يحصن الدرعية بالمدافع ، وشرع محمد على من الجهة الثانية يتأهب لحملة ثانية يقودها ولده ابراهيم باشا . وفى ٢٨ ايلول سنة ١٨١٦ وصل ابراهيم الى ينبع بجزاً وصعد الى المدينة المنورة ، ومن هناك صار بجيشه قاصداً ديار ابن سعود ، فحاصر الرس وفتحها بعد حصار شديد قاتل فيه الوهابيون قتالاً أبطالاً ، ثم زحف الى بريدة وعنيزة من القصيم واستولى عليهما ثم على شقرا وبعد أن دوخ جميع هذه الأطراف قصد الدرعية فوافاهها فى ٦ نيسان ١٨١٦ وبدأ بحصارها فكانت وقائع وأهوال تشيب الأطفال ، ولكن ابن سعود بعد دفاع طويل طلب الصلح وقدم نفسه على ابراهيم فأكرمه وأرسله الى أبيه بمصر فأرسله محمد على الى الاستانة وقيل انه أوصى الدولة أن لا تقتله ولكن جرى القضاء بخلاف الوصية فقتل فى ساحة ايا صوفيا فى ١٧ كانون الأول سنة ١٨١٨ وقتل معه كاتب سره وأمينة خزائنه . ولما عاد ابراهيم باشا من نجد وثب مشارى أخو عبد الله ابن سعود على الدرعية واستولى عليها فأرسل محمد على قائداً اسمه حسين بك فظفر بمشارى وقبض عليه وأرسله الى مصر فمات فى الطريق . وهدم المصريون أسوار الدرعية ووضعوا فيها حامية وقائداً اسمه اسماعيل باشا ثم صرفوه وأرسلوا

محلّه خالد باشا، وكان هذا عاتياً جباراً أخش في ظلم النجديين، فثاروا واعصوبوا حول تركي بن عبد الله الذي كان محبباً في البصرة، فبرز من محبّيه وتولى القيادة، وذبج جميع العساكر المصرية التي كانت في الدرعية وجوارها، ففر خالد باشا إلى القصيم، وأقام تركي ابن عبد الله بن سعود بالرياض وجعلها كرسى إمارته، وبنى بها قصرًا وجامعًا كبيرًا وحكم أسوارها وكان الخبر وصل إلى مصر عن ثورة نجد الجديدة فسيرت مصر جيشًا بقيادة حسين باشا، فانسحب الوهابيون إلى الورااء ودخلوا صحارى الهامة، فتعقبهم حسين باشا إلى تلك الفيافي فخافه الإدلاء فهلك أكثر عسكره من العطش، ورجع هو بشرذمة من حاشيته. فلما رأى محمد على ماحل بالعسكر سئم قتال الوهابيين وترك تركي وشأنه فبقى هذا في الرياض أميراً. ونحو سنة ١٨٣٠ أرسل ابنه فيصل لفتح الأحساء، فبينما هو سائر إليها ورده الخبر أن أحد أقاربهم مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن مشاري بن سعود طعن والده تركي وهو يصلى فقتله فعاد فيصل أدراجه فوجد مشاري متحصناً بالقصر فقاتله وشدّد الحملة إلى أن هجم على مشاري عبد الله الرشيد (جد أمراء حائل) فقتله. ولما بلغ الحكومة المصرية ما حدث بالرياض وجدت الغرة لأتحة، فأرسلت خورشيد باشا بقوة أغارت على وادى حنيفه وتقدمت نحو الرياض، ففر فيصل مسرعاً وأقام المصريون مكانه خالدًا أحد أحفاد أخ لعبد العزيز ابن سعود فلما فارق المصريون البلاد طرده عبد الله بن ثنيان فجاء إلى جده. أما فيصل فبعد هذه الهزيمة حج البيت الحرام وجاء إلى الشام يناث عاماء الخنابلة وظهر منه أنه أفلح عن الإمارة وزهد في الحكم إلا أن النجديين عادوا فانتدبوه للأمر فعاد إلى الرياض وأراد أن يستقر بها وإذا بنخورشيد باشا دهم الرياض فقبض عليه (٢٥ رمضان ١٢٥٤) وأرسله إلى مصر، فوضعه في قلعة بقرب السويس، وأقام خورشيد باشا مكان فيصل عبد الله بن ثنيان بن إبراهيم ثنيان بن سعود.

وبعد أن بقي فيصل نحو خمس سنين في الاعتقال كسنى له الانسلال من القلعة ليلاً لأوائل إمارة عباس باشا الأول، فجاء إلى نجد وثار مع الأهلالي، وكان خورشيد أصبح لا يقدر أن يعتمد على الحكومة الجديدة بمصر فجلا عن القصيم وعاد كل شيء إلى فيصل وردت البضاعة إلى أهلها وقبض على ابن ثنيان فثات في الحبس واستولى فيصل على الأحساء والقطيف، وغزا بلاد عمان وكان يقود جيشه ولده عبد الله إلا أن المنافسة وقعت بين هذا

وبين أخيه سعود على الامارة فضعف بسبب انقسامهما أمر الدولة الوهاية واتتهز هذه الفرصة آل الرشيد من شمر وأسسوا امارتهم بجائل ، وجاذبوا آل سعود الحبل وصاروا لهم أقراناً ، ثم غلبوا على آل سعود وانتزعوا منهم ملكهم وكادوا يعفون آثارهم ، ثم عاد آل سعود في هذه السنين الأخيرة فاستأنفوا امارتهم واستردوا جانباً من بلادهم ، فصارت الحرب بين آل سعود وآل رشيد سجالات الى أن أدال الله للسعوديين من الرشيديين أخيراً وعاد الأمر كما بدا .

فتاريخ الدولة السعودية الوهاية ينقسم الى ثلاثة أدوار : أولها منذ نشأة حكومة الدرعية الى أن احتلها المصريون سنة ١٨١٦ . الثاني منذ تجديد دولة آل سعود على يدي تركي وولده فيصل الى أيام ابن الرشيد الشمري سنة ١٨٩١ . الثالث منذ استرداد ابن سعود للرياض من يد ابن الرشيد سنة ١٩٠٢ .

ولتم الكلام على فيصل بن تركي فانه في امارته الثانية أحسن التدبير وأحسن العلاقات مع الدولة ومع مصر . وفي زمانه كانت سياحة بالغراف الى نجد سنة ١٨٦٢ . وكان مع بالغراف في تلك السياحة رجل من زحلة بلبنان صار فيما بعد كاهناً ثم مطراناً ثم بطريركا على الروم الكاثوليك هو البطريرك بطرس الجريجيري . وقد روى يومئذ انهم دعوا ابن سعود لتأسيس علاقة مع بعض دول أوروبا . . . على ان هذه تساعد على الدولة العثمانية ، فأجابهم اني وان كنت عدواً لسلطان استانبول فلا أرضى أن أستعير عليه بالأجنبي . . . روى ذلك من سمعه من فم البطريرك الجريجيري . وكانت وفاة فيصل بن تركي في ١٣ رجب سنة ١٢٨٢ (٢ كانون الأول ١٨٦٥) .

خلفه ولده عبد الله للمرة الأولى فثار عليه اخوته وطرده فاستنصر الاتراك فاحتلوا الاحساء والقطيف ، واجتهد اخوته أن يسترجعوهما فلم يفلحوا وبقى سعود أخو عبد الله أميراً على الرياض منذ سنة ١٢٨٧ الى سنة ١٢٩١ (١٨٧١ الى ١٨٧٤) إذ مات وتمكن عبد الله من استرداد ملكه فاستؤنفت العداوة بينه وبين أولاد أخيه سعود ومنذ ١٨٨٣ صار الخطر الأعظم عليه من الأمير محمد بن رشيد أمير حائل . وسنة ١٨٨٤ وثب على عبد الله أولاد أخيه وخلعوه وتأمّر محمد بن سعود بن فيصل فلم يطل أمره وخلع ، وقام بالامارة عمه عبد الرحمن ابن فيصل فبقى الى عام ١٨٨٦ فطرده الأمير محمد بن رشيد وأعاد الأمير

عبد الله بن فيصل للمرة الثالثة ، فبقي في الامارة الى ١٨٨٨ إذ توفي وضم ابن رشيد الرياض الى امارته . فأخذ عبد الرحمن بن فيصل يقاتل لاسترجاعها فلم يفلح وسنة ١٨٩١ نصب الأمير محمد بن رشيد أميراً على الرياض مجدداً ثالث أولاد فيصل بن تركي فلبث فيها الى أن مات ، فأقام عليها ابن رشيد عاملاً من قبله ثم ثار عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل سنة ١٩٠٢ وعاونه الشيخ مبارك الصباح صاحب الكويت ، وانزع الرياض من يد آل الرشيد ، ونشبت بين الفريقين الحرب فاستعان آل الرشيد بالأتراك ولكن لم ترض الدولة أن تكسر ابن سعود مع محافظتها على ابن رشيد ورغبت في حفظ الموازنة .

فبقيت امارتا الرياض وحائل متناظرتين لاتكاد الحرب بينهما تخمد وكان أكثر النزاع على بلاد القصيم التي منها مدينتا بريدة وعنيزة . وما لاشك فيه أنه بعد وفاة محمد ابن رشيد ، أكبر أمير خرج من هذا البيت ، استجد ابن سعود قوته الماضية وصارت امارا حائل تحت خطر ابتلاعه اياها لولا صريح شمر لابن رشيد والقضاء الدولة العثمانية نظرها عليه . وما زال الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل يتقوى وينشط حتى وقعت الحرب البلقانية مع الدولة العثمانية فاهتبل هذه الغرة واستولى على الاحساء والقطيف ونواحيهما . وكانت هذه من قبل متصرفية تابعة ولاية البصرة . فانتظرت الدولة ريثما انعقدت السلم ، وشرعت تفكر في أمر استرداد هذه البلاد ، ولو أدى الأمر الى استلال الحسام . وقبل الحرب العامة ببضعة أشهر تولى نظارة الحربية المرحوم أنور باشا ، وكان برنامج سياسته اتحاد المسلمين كما يعلم كل أحد ، فكان يكره سفك الدماء فيما بينهم لا سيما مع الأخطار المحدقة بجمعهم . ولم يكن عنده روح النفاسة لغتوة العرب كما كان عند غيره ، فكان يرسل بالاسلحة والعدد الحربية الى ابن رشيد والى الامام يحيى . وقد عنله بعض الأتراك على عمله هذا فقال له : اتسلح رجالاً قد يجيئ يوم يستعملون فيه هذا السلاح في قتالنا . قال له أنور : أترى لو هاجت اليمن أو نجداً دولة أجنبية تقدر أن ندفعها نحن من هنا . قال : لا . قال أنور : اذا كنا لا تقدر أن نحافظ عليهم أفلا نمكنهم على الأقل من المحافظة على أنفسهم . فاخرسه أنور بهذا الجواب . ثم استشارني مرة في أمر ابن سعود فأبديت له رأبي وهو أن تصافي الدولة ابن سعود وتجعله من أعضاها بدلا من أن يكون من أعدائها فوجدته متشعبا بهذا الرأي عازما على مصالحة ابن سعود والادريسي ، وكان يريد انفاذ

الأستاذ المرحوم الشيخ صالح الشريف التونسي لمخاطبة الادريسي في الصلح على أن تبقى بيده المقاطعة التي كان فيها من بلاد عسير، ثم أخرج سفره الى عسير نشوب الحرب العامة . وقبل نشوب الحرب العامة بقليل اتفقت الدولة بسياسة أنور رجه الله مع الامير عبد العزيز السعودى على اقطاعه الاحساء والقطيف وسائر لواء نجد ، والاعتراف بامارته على ما كان في يده من قبل وما دخل فيها من بعد ، على شرط أن يعترف هو بسيادة الحضرة السلطانية وأحسن السلطان اليه برتبة المشيرية السامية . ورجب الى على منيف بك مستشار الداخلية يومئذ في تحرير كتاب بالعربية الى الأمير عبد العزيز المشار اليه ، توضح فيه الدولة خطة سياستها في نجد و بلاد العرب ، فخرته له فكل ما أوصوه به هو اقامة العدل ، وتأمين المسالك ، ورفع المنازعات من بين المسلمين بدون تمييز بعض على بعض ، وان الدولة تمدد بكل ما يلتمسه منها لأجل تحقيق هذه المقاصد . ولما اشتعلت الحرب العامة راسلت الدولة الامير ابن سعود في خوض غمراتها الى جانبها ، فلم يجب طلبها لاكلها بل خوفا على بلاده من الانكلاز لا سيما بعد أن رأى تقدمهم في العراق . على أنه من الجهة الثانية لم يأت عملا تقدر أن تعاتبه الدولة عليه بالرغم من مساعي الانكلاز لديه في ذلك ، فكانت خطته في هذه الحرب التزام الحياد التام ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها جرت وقائع بينه وبين ملك الحجاز لا نرى حاجة لذكرها نظراً لحدثة عهدنا ، وكنا نود أن تكون كلمة أمراء العرب مجموعة لتمكين هبة هذه الأمة من قلوب أعدائها ، وانقاذها من الورطة التي وقعت فيها بعد الحرب العامة . . . هذا وان ابن سعود استولى على حائل وأزال اماره الرشيد وتلقب الأمير عبد العزيز بسلطان نجد ، وهو في الواقع ممن تنعقد بهم آمال الأمة العربية ، فعسى أنه لا يخيبها وأن يوفق الى تحقيقها قبل أن تمتد الأيدي الغربية الى نفس الجزيرة ويتسع الخرق على الراقع .

وحيث اننا سردنا هنا تاريخ آل سعود فلا بأس بأن نردفه بملخص أخبار آل رشيد حتى يكون تاريخ نجد الحديث كاملاً فنقول :

عبد الله بن علي الرشيد من بني جعفر من قبيلة شمر الكبرى استولى سنة ١٨٣٥ على مدينة حائل ، وقتل شيخها صالحا من بني علي الذي كان عاملا على جبل شمر من قبل آل سعود ، ولما كانت سبقت لعبد الله المذكور خدمة عظيمة لفصيل بن تركي من

آل سعود بقتله مشارى ابن عمهم الذى قتل تركى غيلة ونزا على ملكهم ، كافاه فيصل باقراره على اماره حائل ، فشرع عبد الله وأخوه عبيد يوطدان دعائم امارتهما حتى أطاعتهما جميع شمر . ولما احتل خورشيد باشا المصرى القصيم طرد عبد الله الرشيد من حائل فبقى مطروداً الى سنة ١٨٤١ إذ برح المصريون تلك الأرض فرجع عبد الله الى امارته بحائل ، ثم توفى عبد الله خلفه ولده طلال ، فاستولى هذا على الجوف ، وتيها ، وخيبر ، وجانب من القصيم ، وأحسن الادارة وأمن الطرق وكف غارات الاعراب ، وفى أيامه تراخت علائق الطاعة منه ومن قومه شمر لابن سعود . وتوفى طلال فى صفر عام ١٢٨٣ وقيل فى ١٧ ذى القعدة عام ١٢٨٤ (١١ آذار ١٨٦٨) قيل منتحراً .

وخلف طلالاً أخوه متعب فنزا على هذا ولداً أخيه بندر وبدر فقتلاه فى ٢ ربيع الثانى سنة ١٢٨٥ (٢٣ تموز ١٨٦٨) وقيل بل فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٨٥ (٤ كانون الثانى ١٨٦٩) .

وفى ٢٠ رمضان عام ١٢٨٦ ثار محمد بن عبد الله الرشيد على بندر ابن أخيه فقتله وألحق به اخوته وأبناء اخوته كافة ، وانفرد بالامارة وهو واسطة عقد آل رشيد ، وامتد حكمه الى أطراف العراق والى مشارف الشام ، والى نواحي المدينة ، والى اليمامة وما يلى اليمن وغلب على نجد كلها ، وأدخل ابن سعود فى طاعته بعد ان كان الرشيد تبعاً لآل سعود . وكل هذا التبسط الذى تبسطه فى الملك كان بحزمه وعزمه وسداد رأيه وبعد همته وحسن سياسته ، وكان صارماً فى الحكومة لكنه كان عادلاً ، فأمنت المسالك فى أيامه بما لم يسبق له مثيل وكانت الأعراب تخشى مجرد ذكر اسمه فأصبح هو سلطان البرية . ومن جملة تديره انه تقرب جداً من رضى السلطان عبد الجيد ، وكان من أشد الناس تعلقاً بطاعته ، وكل سنة كان يقدم الى السلطان عدداً كبيراً من الجياد العرب لخطى عند السلطان حظوة لم تكن لأحد من أمراء العرب ، وعضدته الدولة العلية عضداً تاماً اتسع به ملكه وقويت شوكته . وفى أيام محمد الرشيد زار جبل شمر ونجداً عدة من سياح الافرنجة مثل البارون نولده Nolde و بلونت Blunt وهو بر Huber واوتنغ Euting وغيرهم . ومات محمد فى كانون الأول عام ١٨٩٧ ولم يعقب ولداً .

خلفه ابن أخيه عبد العزيز بن متعب وكان سفاكاً للدماء ساء الادارة فووقت الفتنة

بينه وبين جيرانه ، وتآلب عليه ابن صباح صاحب الكويت ، وابن سعود ، وأمير المنتفق ، وقتلوه قتلاً شديداً . سنة ١٩٠٢ تمكن عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود من استرجاع الرياض وما زال عبد العزيز الرشيد في قتال مع أعدائه حتى قتل في ١٤ صفر عام ١٣٢٤ (١٣ نيسان ١٩٠٦) .

نخلفه ولده متعب ولم يطل أمره أكثر من سنة . وذلك ان سلطان بن جود بن عبيد بن علي الرشيد كان متطلا الى الامارة فذهب الى الاستانة يتقرب الى الدولة ، فأرسل الأمير متعب يخبر الدولة بمقاصد سلطان هذا ، فأعرضت عن سماع كلامه فقفل الى الشام ، وبينما هو بدمشق التمس الأمير متعب من الدولة اعتقال سلطان ، فصدر الأمر لناظم باشا واليها يومئذ بالقبض عليه ، فوجد من أنذر سلطاناً في الحال ففر مغدماً السير الى جبل الدروز . وأول قرية وصل اليها الصورة الكبرى قرية ابن ظهر الدين من مشايخ الدروز وهي من وادي اللوى على مسافة ٧ ساعات من دمشق . فأمرع ناظم باشا برسالة خيل في أثر سلطان فلم تدركه الا في الصورة في منزل ابن ظهر الدين ، فلما عرف هذا انه هو ابن رشيد طرد خيالة الدولة ، واجتمع الدروز حول سلطان ، وساروا به الى قرية شهباء ، فنزل عند شيخها أبي طلال العامري ومن هناك ذهبوا الى المقرن القبلي عند صاحبنا مصطفى باشا الأطرش شيخ ذلك المقرن ، فأقام يضيافة مصطفى باشا نحو شهر ، ثم رغب في أن يعود الى نجد فزوده بما يلزمه وأرسل معه رفاقاً يرأسهم الشيخ العيسى رتعان بن ماضي حتى وصلوا به الى نجد . وبعد وصوله بمدة تنزى على متعب فقتله في ذي القعدة سنة ١٣٢٤ وقيل في شعبان من تلك السنة وصار أميراً محله لكنه لم يطل أمره ، وبعد أشهر قلائل طرد من الامارة وقام مقامه أخوه سعود بن جود . ثم نار على هذا جود بن سبهان وجلس مكانه ، وبعد ذلك جاء بنو سبهان بسعود بن عبد العزيز الذي كان قاصراً محبباً في المدينة المنورة ، فلما بلغ الرشيد أجلسوه على كرسي الامارة سنة ١٣٢٦ ، وبقى أميراً الى الحرب العامة فجعلت الدولة عنده البكباشي عزيز بك الكردي معتمداً ، ثم أرسلت المرحوم الشيخ صالح التونسي بمأمورية ، ثم جعلت عبد الحميد بك بن ابراهيم باشا سعيد المصري ، فبقي أكثر سني الحرب في حائل ، يجتهد في منع الدسائس الأجنبية من التأثير في ابن رشيد ، لاسيما ان السبهان كانوا باطناً بمائتين للانكليز ، فبقى سعود بالرغم من مساعي اخواله السبهان معتصماً بحبل الدولة وقاتل برجاله جماعة ملك الحجاز الحسين بن علي حليف دول الحلفاء . وما زال كذلك حتى دارت الدائرة على الدولة ففقد النصير وتنزى عليه اخواله السبهان وقتلوه منذ أكثر من عشر سنوات وضم ابن سعود حائل وتوابعها الى ملكه واعتقل كل من بقي من آل رشيد . وطوى بساطهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

الترك أيضا

الترك

الترك (١) من أكبر وأشهر الأمم الآسيوية معدودون من الشعوب التورانية . وهم متشابهون في الخلقة مع الصين والتبت واليابان . ولاعبرة بما تجده من سحناء أترك الاستانة والأناضول فان هؤلاء قد تولدوا وتناسلوا في غربي آسية من قرون متطاولة واختلطوا بالأمم الاخرى كالقوقازيين والمكدونيين والارناؤوط والروم والبلغار والاكراد والعرب وبقايا أهالي الاناضول القدماء وتولدت منهم أمة لاتشبه المغول ولا الصين . ولكن الترك الاناضوليين الذين لم يختلطوا بهذه الامم الغريبة يشبهون كثيراً أترك بخارى وخبوه وكاشغروهم ذوو ملامح ظاهرة الشبه مع أهل الصين والتبت والمغول

كان الترك من على عنق الدهر في جبل الذهب بين سيديريا والصين . ثم أخذوا ينتشرون في الاقطار فهاجروا الى شمالي سيجون وجيجون والى الشرق الشمالي من بحر خوارزم والى الشمال الغربي من الصين والخطا . فكان منهم قسم في الغرب وهم المجار والفينيون - أهل فنلاندا على البلطيك - والبلغار وهؤلاء هم الذين يقال لهم الاوراليون . وكان منهم قسم في الشرق وهم الذين يقال لهم المانشو والتونغوز . وقسم في الجنوب الشرقي وهم المغول

وكان لهم مناسبات ومحاربات مع الامة الفارسية وقيل ان هيرودتس أبا المؤرخين أشار اليهم تحت اسم تاركيتاوس

وباني أول دولةٍ منهم أوغوز خان بن قره خان . وكان له ستة أولاد وهم كون خان وآي خان وبلديز خان وكول خان وطاق خان ودكرخان . فن هؤلاء ثلاثة سكنوا الشرق وثلاثة سكنوا الغرب . وكان لكل منهم أربعة أولاد فصار لاوغوز خان ٢٤ حفيداً هم رؤساء القبائل التركية هكذا قال نسابوهم . ومن البداية انقسم الترك الى قسمين . الساكنين في شرقي تركستان وهم الاويغور والساكنين في الغرب منها وهم الترك أو التركمان . وكان الاويغور باديء ذي بدء أرق وأرق وأكثر مدنية . وكان لسانهم لسان

(١) انظر صفحة ١١١ من هذا الجزء

الترك الادبي . وكان لهم خط ومؤلفات . ثم جاء رهبان من النساطرة ونصروا بعضهم وعلموهم خطأ مأخوذاً من السريانية . وموجود بهذا الخط كتب تركية الى اليوم

وفي سنة ٨٥ للهجرة غزا قتيبة الباهلي بالمسلمين العرب بلاد الترك وافتتح بخارى ومرو وخوارزم وسمرقند وغيرها واجتمع عليه ملك السغد وملك الشاش وغيرهما فهزمهم وأتخن في الترك فصالحوه على أموال يؤدونها اليه وكان في صلحه بيوت الأصنام واليران فأخرجت الأصنام فسلبت حليتها وكانوا يقولون ان هناك أصناماً من استخف بها هلك فلما حرقها قتيبة بيده أسلم من الترك خلق وهذا أول اسلامهم

وفي خلافة هشام بن عبد الملك تولى خالد بن عبدالله القسرى العراق وأخوه أسد بن عبدالله خراسان وغزا أسد بلاد الترك ومنها جبال نمرود فصالحه نمرود وأسلم ثم استعمل هشام على خراسان أشرس بن عبدالله السامى فدعا أهل ما وراء النهر الى الاسلام وطرح الجزية عن الذين أسلموا فسارعوا الى الاسلام . ثم لما صارت الخلافة الى بنى العباس وتولى المأمون خراسان وذلك قبل خلافته أخذ يغزو السغد واشروسنة وفرغانة ويقول البلاذرى في « فتوح البلدان » انه كان مع تسريته الخيول اليهم يكتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما .

ولما تولى المأمون الخلافة سنة ١٩٨ دخل في الاسلام كاوس ملك اشروسنة بعد حروب ومقاتلات تغلب فيها العرب على أهالى تلك البلدان . وكان المأمون رحمه الله بينا هو يغزو الترك من جهة يدعوهم الى الاسلام من جهة أخرى . قال البلاذرى : « كان يوجه رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والفرغانة والاشروسنة وأهل الشاش وغيرهم وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك » اهـ

ولا يخفى ان البلاذرى كان قريب العهد من هذه الحوادث لأن الخليفة المعتصم مات

سنة ٢٢٧ والمؤرخ أحمد بن يحيى البلاذرى مات سنة ٢٧٩

وسنة ٣٥٠ أسلم سالور خان سلطان التركان سلاطة طاغ خان وتسمى قره خان وأسلم

معهم قومه وجاء ابنه فبنى جوامع وفتح عمه بغراخان كاسغور وأخذ بخارى من السامانية وجاء بعده أحمد خان بن أبي نصر فأكمل اسلام من لم يهتد من الأتراك وازداد تردد الترك الى بغداد وامتلاّت منهم العراق وارضروم واذر بيجان ووصلوا الى الشام وصار منهم أمراء جيش الخلافة واستبدوا بأموورها وصاروا يكتبون بالعربي وبعضهم اتخذ اللسان الفارسي ولم يهتم أحد منهم بلسان الاويغور التركي القديم . ولم يجعلوا التركي لساناً رسمياً الا في زمان بنى سلجوق في الأناضول . ثم ترقى هذا اللسان في زمان الأتراك آل عثمان الذين خلفوا آل سلجوق لاسيما في أيام محمد الفاتح وسليم وسليمان . وفكر سليم في جعل العربي لسان الدولة الرسمي فلم يطيعوه لكنه بقي لسان الدين والعام . وأما لسان الاويغور فقد كان في زمن جنكيز خان ترقى كثيراً لكنه عراه بعد ذلك التوقف . وهو الذي يعرف بجغطاي . ثم بتوالي الزمن تباعد التركي الغربي العثماني عن التركي الجغطائي كثيراً . ثم هناك تركي تتر القريم وهو متوسط بين الفريقين

وعلماء اللسان يجعلون التركي خمسة أقسام : الأول الاويغوري أو الجغطاي . الثاني التتاري . الثالث القيرقيز . الرابع الياقوتي . الخامس العثماني . وليس للقيرقيز والياقوت أدبيات في ألسنتهم . والقرقيز مسلمون لكن الياقوت لا يزالون وثنيين . وقيل ان الياقوتي هو أصل التركي والباقي فروع عنه . ويقول المدققون : ان التركي يشبه في الدرجة الأولى لسان التونغوز والمانشو من الألسنة التورانية وفي الدرجة الثانية لسان المغول وفي الدرجة الثالثة لسان المجار والفنلانديين

هذا والفرقة الانقرية من الأتراك المستبدة بأمر تركيا اليوم تعلم في مكاتب تركيا مذهباً جديداً في التاريخ وهو ان أصل الترك الذين في الاناضول وغربي آسية هم من الحثيين ؟ وان هذه البلدان هي لهم من اربعة آلاف سنة . وهم في هذا الاكتشاف الجديد يستندون الى تخمينات بعض مؤرخين محدثين من أصحاب النظريات الجديدة في اوروبا ولكن شيئاً من هذا لم يثبت . وأكثر مؤرخي الاوربيين يقولون ان أصل الحثيين من جهة الدم لم يتحقق بعد . وغاية ما تقرر تاريخاً انهم أخذوا مدينتهم عن السومريين والاكاديين أهل بابل وقلدوهم في الكتابة والديانة والشعائر الدينية ومزجوها كلها بمدنيتهم وديانتهم . وتقرر أيضاً عند بعض المؤرخين ان الحثيين هم كانوا الواسطة بين المدينة

السامية والمدنية الاغريقية . ولا يزال تاريخ الحثيين في اول عهده ولا تزال العلماء لم تحل
الكتابات الباقية عنهم ولا يعلمون هل لغة الحثيين هي هندية اوربية ام قوقاسية ؟ وغاية
ما لاحظوا ان فيها دخيلاً من لغات أخرى . أما الآ كاديون من أهل بابل فانهم ساميون
بلا نزاع ولغتهم سامية والارجح انهم جاءوا من جزيرة العرب مهد الساميين . وأما
السومريون فلا يعرف أصلهم وقصارى ما ترجح من أمرهم انهم غير ساميين وانه وجدت
مدينة معاصرة لمدينتهم في جهات بحر الخزر

ولا يعلم أحد ما فائدة اترك انقرة من تعليم آراء تاريخية جديدة واهية لا تستند على
قواعد متينة . وهل اذا كان ترك الاناضول آتين من فرغانة وسمرقند وكاشغر من الف
سنة فقط يسقط حقهم بالاناضول ولا بد من ان يثبتوا ان هذه البلاد بلادهم منذ آلاف من
السنين حتى يستحقوها ؟ كل هذا من جملة الغرائب التي ولدت مع الانقلاب الانقري

الفصل السادس

في

العصبية الجنسية في الهند

الهند بلاد الغرائب والمتناقضات ، تشتمل على وحدةٍ جغرافية طبيعية ، من حيث انها لم يتألف فيها شئٌ من الوحدة السياسية في عصرٍ من خاليات عصورها ، اللهم الا ما حصل لها من صبغة الوحدة حديثا على يد حكم «الراجوات» في العهد البريطاني . ولما كانت البلاد زاخرة بمختلف من الأقوام المتحدرة من الأروم المتنازعة والعروق المتقاطعة في كل عصور التاريخ ، كان ذلك مذهباً لحولها وقوتها ، فعجزت عن صد الفاتحين ، ولم تقوَ على الوقوف في وجه أهل الغلب والاجتياح الذين توالوا عليها دوراً بعد دور . وليس هذا بالأمر الغريب ، وأهل البلاد المتباينون عرفاً وأرومة لم يختلطوا بعضاً ببعض ، بل ظلوا منقسمين انقسامات لا تحصى ، يتعادون ويتنازعون ، وهم على ما لا نهاية له من الفوارق دماً ولغة وتهذيباً ودينياً . فالهند ، وهى تستوى بمساحتها وساكنها مع أوروبة أو الصين ، لم يتألف فيها كما في هذه الأخيرة من وحدةٍ جنسية عنصرية عامة ذات مستقر ونصاب ، ولا كما في الأولى من وحدات وطنية نامة الصورة ، مستقلة متمايزة ، بل قد غبر عليها ماغبر من الدهر وهى مبعثرة الحال مشتتة الشأن لاتعرف اطمئنانا ولا سكوناً ، وجل ما استطاعت ان تملك هو شئٌ من المنزع نحو الوحدة التى لم تدركها قط .

يشتمل تاريخ الهند على ثلاثة فتوح كبيرة : الفتح الآرى وأوله حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م . ، والفتح الاسلامى من سنة ١٠٠٠ ب . م . الى سنة ١٧٠٠ ب . م . ، والفتح البريطانى أوائله سنة ١٧٠٥ ب . م . ثم ما انفك يمتد ويتسع ، وينتشر ويرسخ مدة قرن نال حتى طبق الهند بأسرها ولم يزل قائماً الى اليوم .

أما الآريون فشعب صبح البشرية ، من اليقين انهم على الجلمة يتحدرون من الأصل الذى تتحدر منه نحن . نزحوا من أواسط آسية مجتازين المعابر الشمالية الغربية ، وهى

المعابر الوحيدة المغضية الى الهند من تلك الجهة وليس هناك من سواها ، لأن جبال جلايا الشاخة العالية الذرى ، هى فاصل للبلاد عما يليها . ولما بلغ الآريون الهند على طريق تلك المعابر فاتحين محتاجين ، أخذوا يتغلبون على أهل البلاد الأصليين الدراثيدين السمر البشرية ، ويخضعونهم ، ويقيمون هم فى البلاد سادة حكاما . غير أن هذا الفتح كان فاشيا رقيق الظل من حيث كان غير مطبق للبلاد . فاستقر غالب الآريين فى الشمال الغربى ، وأما سائرهم وهم أكثر اقداما وأركب للاهوال فقد انتشروا فى سائر شبه الجزيرة بعض الانتشار . واعلم فوق هذا أن قد بقى حتى فى الشمال كور جبلية كبيرة وأجام عظيمة فى أيدى أهل البلاد الأصليين ، بينما الذين توغلوا من الآريين فى جنوب البلاد كانوا انزراً . وعلى الجملة فقد كان الآريون فى غالب الهند الطبقة القليلة ولكن كانوا أصحاب الغلب والحكم على سائر شعوب البلاد وان كانت هذه أكثر عدداً . واذ خشي هؤلاء الآريون لقتلهم أن يبتاعهم الدراثيديون لكثرتهم ، فقد ابتغوا احتفاظ تفوقهم السياسى وصروحة تحدرهم الجنسى باشاء نظام الطوائف أو الطبقات ، النظام الذى لم يرح منذ ذلك العهد حتى اليوم قاعدة الحياة الاجتماعية فى الهند . فانقسم المجتمع الى ثلاث طوائف : البراهمة أو السكهنة ، والمخارين ، والسفلة أو العملة المعروفين «بالسدراز» واحتاز الآريون الطبقتين الأولىين . وأما الطبقة الثالثة ، السدراز فقد قصرت على الدراثيدين الخاضعين الحكوميين وظلت هذه الطوائف والطبقات بعيدة بعضها من بعض بفوارق عديدة شديدة ، ثم هذه الفوارق ازدادت تأيداً وتمكناً بسلسلة من النواهي والمحرمات الدينية . فغدا التزاوج والاشتراك فى المآكل والمشارب حتى فى الجوار ، وصار اقتراب شخص من آخرين أهل الطوائف المختلفة والطبقات المتباينة يعد نجاسة لا تزول عن صاحبها فى بعض الأحيان ولو كثر عنها أشد التكفير . وكانت المعصية فى خرق هذه النواهي والمحرمات تقتضى انزال العقاب الهائل بالمرتكب فينبذ نبذاً من مرتبته الطائفية ويدنى ليس الى مرتبة أدنى منها من المراتب المتسلسلة النظام ، بل الى طبقة أدنى من السدراز ، فيعرف اذ ذاك بالعاصى المنبوذ المجرد من المرتبة الطائفية ، ثم بكره على القيام بأحط أعمال الخدمة وليس له من الحقوق حتى ولا مائلك التى عليها السدراز . فنجم عن ذلك ، ان الشريعة الدينية ذات الطقوس ، لا الشريعة المدنية ، هى التى سادت المجتمع الهندى سيادة تامة ، فبات الدين

الهندي الوليد (أعنى البرهمية) صبغته اجتماعية لا أدبية أخلاقية .

فنتجت عن جميع هذه الأمور النتائج الكبرى . أما في أفق النسل فان نظام الطوائف لم يكن له كبير شأن يحمل على احتفاظ الدم واللون والسلالة ، إذ أن البرهمنين أنفسهم أخذوا على التوالي يخلطون اختلاطاً دموياً ، قليلاً أو كثيراً ، بالدرافيديين^(١) وذلك على شدة النواهي والمحرمات . وأما في أفق المجتمع فقد ظل نظام الطوائف يعمل عمله ويسير سيراً غربياً ، فدرجت الطوائف الثلاث الأولى تنقسم ثم تنقسم حتى أصبحت الطبقات الثانوية والتي ما دونها على التتابع مئات وألوفاً ، ففقدت أو كادت تفقد ما كانت عليه في أول العهد من العزة القومية . ثم ان جميع هذه الطوائف الثانوية أخذت تحتفظ بمراتبها وحقوق مراتبها تشبهاً بالطوائف الثلاث الكبرى ومحاكاة لها ، فنتج عن ذلك أن المجتمع الهندي قد تناثر تناثراً ، وتمزقت وحداته تمزقاً بات معه التعاون بل التفاهم بين أهل البلاد ضرباً من المستحيل . فعدت على التاريخ الهندي من جراء ذلك عادية لاتزال حتى اليوم . قال مؤرخ ثقة من البريطانيين : - « كان عاقبة التنابد والتقاطع الدائمين والاعتزال الاجتماعي المستمر ، أن غدا الشعب بأجمعه مؤلفاً من عناصر متناكرة كل التناكر ، ولم يقف الأمر عند حد غنى وفقير ، وأمير وصعابك ، ومدينة ورستاق ، وخادم ومخدوم ، وسيد ومسود ، بل بلغ أكثر من هذا ، إذ بات سكان كل مقاطعة من المقاطعات أو مدينة من المدن مجموعاً من مختلف الجنسيات - وغالبا من مختلف الأنواع الانسانية - لا يتزاوجون ولا يشترك بعضهم مع بعض في مأكل ولا في مشرب وفي الخطير من شؤونهم الحيوية تحكّم فيهم لجان من قومهم تدبر لهم أمورهم وتقيم أحكامهم . وليس من المغالاة في شيء أن نقول ان أهل الهند قد غدوا بسبب نظام الطوائف منقسمين الى ما فوق الألفي طائفة ليس بين بعضها مع بعض من الألفة أكثر مما بين ضروب البهائم المتآلفة في حدائق الحيوانات . »

(١) يقول بعض المؤرخين ان هذا الاختلاط في الدم والانساب لم يعتم أن ظهر بعيد الفتح الآري ، والرأى المبني عليه هذا القول هو أن الآريين الفاتحين لم يكن فيهم ما يقيهم من النساء من بنات جنسهم وهم لم يزالوا خارج البلاد الشمالية الغربية ، لذا طفقوا يتخذون من النساء الدرافيديات أزواجا وحظايا ، ثم يبتون حقهم في تبنيهم أبناءهم غير الشرعيين ، بحيث جعلت ذريتهم تنشأ طائفة واحدة مؤلفة من الاقحاح والاختلاط على التحام في العرق وامتزاج في الدم . ثم منعت زيادة الاختلاط ولكن من بعد أن ذهبت بحوتة الأصول والانساب الآرية

لذلك لاجب اذا غدت الهند ، وقد تمزق مجتمعا هذا المتمزق وتناثرت وحدتها السياسية الى امارات عديدة ، لاستطيع الوقوف في وجه أول فاتح عظيم يكر عليها فسقط بين يديه متضععة متلاشية ، وكيف لا يكون ذلك وقد كان هذا الفاتح هو الاسلام . ان المسلمين أخذوا يكرون على الهند من بعد ماتم لهم فتح فارس ، كرات لم يكن لها من الشأن والخطورة في أول الأمر أكثر من الذي يكون للغارات التي تُشن على العدو عند الحدود دون أن يكون لها أثر باق . على أن الفتح الاسلامي الخطير قد قام به محمود الغزنوي الامير الافغاني (١) سنة ١٠٠١ ب . م . ، فسار محمود في الطريق التي سار فيها من قبله الآريون منذ أجيال وحقب متطاولة ، ودوخ بلاد الهند الشمالية الغربية المعروفة بالبنجاب حيث رسخت قدم الاسلام رسوخاً ثم طفق القواد المسلمون يوالون توسيع الفتح أكثر فأكثر من جهة الشرق حتى غدا غالب الهند الشمالية في قبضة أيدي المسلمين . وقد كان لهؤلاء الفاتحين المسلمين عاملان قويان ساعداهم على هذا الفتح الذي قاموا به ، أولاً أنهم كانوا متحدين اتحاداً مشوباً بالتعصب الديني لقتال عبدة الأوثان ، ثانياً أنهم استطاعوا أن يحملوا الكثير من أهالي البلاد على الديانة بالاسلام . فان الاسلام المعطل للبرهمية الجاعل جميع المؤمنين اخوة قد فاز حقاً في هداية الناس اليه فدخلوا فيه أفواجاً من أهل الطبقات الحفيرة والمنبوذة ، الذين كانوا بعد ذلك يرتقون الى مستوى الفاتحين . وهذا هو السبب الكبير في أن المسلمين الذين في الهند اليوم ليربون على السبعين مليوناً . بحيث ينيفون على خمس مجموع السكان . وهم يتحدرون ليس من الفاتحين الافغان والتركي والعرب والفرس فحسب بل أيضاً من ملايين الهنود الذين دانوا بالاسلام بعد الفتح . وقد انقضت أجيال عديدة وحكم المسلمين في الهند مقصور على الشمالي من البلاد .

ففي أوائل القرن السادس عشر زحف القائد بابر التركي المغولي الى الهند وأنشأ المملكة المغولية ، ثم دوخ بابر ثم خلفاؤه من بعده جنوبي البلاد ووحدها الهند توحيداً سياسياً غير مسبوق المثل . ولكن هذا التدويج كان فاشياً كالفتح الآري من قبل ، ثم إذ شعر البراهمة بانهم مهددون بالخراب والاندثار ، شرعوا يبشرون بدعوة لليقظة الهندية فآل الأمر الى تضعع سلطان السلالة المغولية ، وفي أوائل القرن الثامن عشر انقرضت المملكة المغولية .

(١) اقرأ تعليقا كبيراً في تاريخ الممالك الاسلامية الهندية في آخر هذا الجزء - المغرب

عند هذه الفوضى الشاملة ظهرت بريطانيا الى عالم السلطان صاحبة الحول والطول . ولم تكن في بدء الأمر هي وحدها في حلبة الميدان بل كانت في عداد الدول الأوروبية - من البورتوغال وهولندا وفرنسة - صاحبات الطائرات الصغيرة المنتشرة على السواحل الهندية وهذه الدول الأوروبية لم تكن لتنوي القيام بفتح الهند إذ ذاك مادامت الدولة المغولية في عالم الكيان . لهذا السبب ما كانت علاقة بريطانيا بالهند في أول العهد سوى مجازفة تجارية عُرفت « بشركة الهند الشرقية » . ولكن لما استفحلت الفوضى في البلاد اضطرت الأوروبيون للحال ، الى ان تكون في أيديهم سلطة محلية يستطيعون بها حماية مصالحهم ومصانهم ، ثم من بعد ذلك جعلوا يوسعون مطامعهم ويجتريئون على وضع المشروعات التي هي أبعدهم وأكبر غرضاً ، وانما كان وهن الحكام الوطنيين هو الباعث لهم على هذا الأمر ، وتضعف سلطان هؤلاء وفقدانهم الحول والقوة هيئاً لهم الأسباب فأخذت بريطانيا على التوالي تقهر مزاجاتها الأوروبية بيات عنوة حتى استوسق لها الأمر وتم لها الغلب السياسي ، فوطدت قدمها وأعزت سيطرتها ، وكان لابد لها ، كلما نشب اختلال وغلى مرجل اضطراب ، من أن تبسط سيطرتها وتوسع سلطانها ، وقد كانت تقوم بهذا في أول الأمر على الهوني والتؤدة إذ ظلت شركة الهند الشرقية عهداً طويلاً ساعية السعي الأكبر وراء غاية تجارية . مدارها جنى الأرباح واكتساب الأموال فكانت في هذا السبيل أبذل جهداً منها في سبيل احراز السيطرة والسلطة . بيد انها شرعت تتحول من بعد ذلك الى حكومة تامة الشرط ذات سياسة طماحة ترمي الى الفتح والاستلحاق ، فكان من شأن هذا التحول والانتقال ان أيقظ الكثير من أهل الهند وأجى أنوفهم اجماً كان السبب في انفجار بركان الثورة سنة ١٨٥٧ . ثم أخذت بريطانيا هذه الثورة وألغت شركة الهند الشرقية وجعلت الهند تابعة مباشرة للتاج البريطاني ، ونودي بعد ذلك بالملكة فيكتوريا أميرة الهند . فلم ينجم عن جميع هذه التطورات تقوية السلطة السياسية البريطانية فقط ، بل زيادة تغلغل النفوذ الغربي على كل نوع وصفة ، فأنشئت الطرق والمسالك الحديدية والأقنية ، وربطت أجزاء الهند بعضها ببعض فتدانت أطراف البلاد ، وقربت الأبعاد ، وسهل افتتاح ترعة السويس التواصل مع أوروبا ، من حيث بات التعليم والتهديب على الأصول الحديثة وسيلة لانتشار الآراء والمبادئ الغربية .

ثم بعد هذا الانقلاب الهندي السريع والتطور الخيبي جاء حكم «الراجا» البريطاني فطبق البلاد قاطبة، وهو ضربٌ من الأنظمة الحكومية فريد النوع في جميع العالم، إذ هو حكومة يقوم بأعبائها بضع مئات من الخبراء المدبرين أهل الدربة والحنكة، يعضدهم جيش صغير مدرب في حكم تلك المئات من الملايين المختلفة، على أن حكومة «الراجوات» هذه هي إرثية مطلقة، تنهج في سلطانها النهج الذي تستلحه وتراه ملائماً لها وموافقاً، غير متخذة من التبعية إزاء الشعب أكثر من تلك التي كان يتخذها الحكام الوطنيون المستبدون من قبل. فهذه الحكومة المنشأة على هذا الطراز المحدث قد حكمت حكماً حسناً صحيحاً، وربما كانت حكومة الهند هذه من حيث اعتبار الأمانة والكفاية والشعور بواجب الوظيفة خير مثال من أمثلة الحكومات «المستبدة العادلة» التي عرفها العالم، فقد نشرت هذه الحكومة في ربوع الهند الراحة والأمن مكينين، وترفعت عن المحاباة والغرض وأقامت قسطاً العدل بين جميع الأقوام والطوائف والطبقات المتباينة في الاعتقاد المختلفة في المزاج، وفوق جميع هذا جعلت للهند كينونة سياسية حقيقية لم تعرفها الهند في جميع ماضي أوارها. فتوحدت ممالك الهند توحداً وثيقاً للمرة الأولى في جميع تاريخها في ظل حكم واحد - هو حكم «السلام البريطاني»

على أن حسنات الحكم البريطاني هي التي بذرت بذور الاضطراب التي قد نمت نمواً هائلاً، فوفّر الساكن وعمر النسل ونشأت طوائف الناس من أهل البلاد تعيش متسائلة متحابية، متعارفة بعد التقاطع والتدابير تعارفاً لم تذوق طعمه فيما غير من الدهر، ناسية ما كان بين بعضها والبعض الآخر من الاحن والشحناء، قوامه على شؤونها، غير غافلة عن النقائص الأوروبية. وفوق جميع هذا صارت الهند إلغاً شديداً للأراء الغربية كالحكومة الذاتية والحرية الجنسية. وفي الهند، شأن سائر أقطار الشرق، كان لا بد حتماً من نشوء حركة المقاومة للحكم الغربي والسخط عليه سخطاً متفاوت الدرجات، من المطالب المعتدلة للحكم الذاتي، إلى مطالب الغلو الناحية منحى الاستقلال التام.

دامت الحال هكذا حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والمقاومة السياسية المنظمة لحكم «الراجوات» البريطاني غير معروفة بته سوى ما كان يقوم به بعض الأفراد القلائل والجماعات النزرة، من رفع بعض الاحتجاجات المنخفضة الصوت دون أن تلقى صدى

مرجعاً من الشعب . إذ ان معظم سواد الهنود ، الدائنين أبداً فى طلب الرزق ابتغاء الأوقات مما لا يزيد على الكفاف والمؤونة ، قد ارتاحوا الى هذه الحكومة غير الجائرة ولا المستبدة ، والتي هى أعظم كفاية وأقوم على شؤون الرعية من سابقتها البائدة . وعلى الجملة ان ظهور العصبية الجنسية الهندية لم يكن له من أثر قط . حتى ولا بما يدل عليه ، حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

على ان أول أمانة من أمارات المقاومة المنظمة ظهرت فى تأليف « المؤتمر الهندى الوطنى » سنة ١٨٨٥^(١) ومجرد اسم هذا المؤتمر يدل على أن « الراجا » البريطانى المطبق حكمه الهند انما كان هو نفسه الداعى لاستيقاظ العناصر الهندية المختلفة وتندبها ، ثم تطلعها نحو غايات معينة ومطامح وطنية معروفة . ولكن هذا المؤتمر ما كان ليمثل الرأى العام الهندى نميلاً صحيحاً بالمعنى المعروف ، اذ لم يشتمل الاً على جانب قليل من الشعب كأرباب الصناعات العالية والصحافيين والساسة ، ممن تمّ لهم الوقوف الكامل على الآراء الغربية والمناهج الأوروبية ، لأن أساليب التهذيب الغربية التى أتى بها البريطانيون الى البلاد قد أثمرت أطيب الثمار ، فنشأت فى الهند طبقة متهذبة راقية شديدة التضلع من لغة الانكليزية ، بالغة الارتواء من الروح الغربية .

ولما كان أهل هذه الطبقة الراقية الجديدة على اعتقاد حسن فى الأعمال والغايات الغربية ، وكانوا يقدرون ما لذلك من الشأن والقيمة حق قدره لم يكن لهم مندوحة بطبيعة الحال عن السخط والتغضب على الكثير من صور الحياة الهندية وشؤونها . فلذلك لم يكن الجهد الذى بذاه أهل هذه الطبقة أول عهد اليقظة موجهاً نحو غاية سياسية بمقدار ما كان موجهاً نحو غاية الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، كتنضية منع الزواج الباكر ، وتزوج الأراامل ، ونشر التعليم والتهذيب . غير انه على توالى الأيام طفقت قضايا الاصلاح السياسى تتكاثر وتشغل مكاناً خطيراً . ولما كان أرباب الفكر من الهنود هم من ذوى الاطلاع الواسع على التاريخ الانكليزى والفلسفة السياسية ، أخذ شعورهم يزداد بما ينقص بلادهم من الحكومة الذاتية ، وشرعوا يطمحون الى منح الهند بركات الحرية التى يعظمها حكام

(١) بلغنا مؤخراً من أحد أعضاء هذا المؤتمر الوطنى من البراهمة ان عدد أعضاء هذا المؤتمر ستة آلاف شخص يمثلون جميع الهند وان من هؤلاء ألفين هم من المسلمين (ش)

البلاد الانكليز ويعلمون قدرها وينزلونها المنزلة الفريدة . فنشأت في الهند للحال الصحف الوطنية الصادقة العزم والغيرة تنهج منهاج الارتقاء والتقدم ، مبشرة بانجيل الوطنية الجديد ، حاملة جميع أرباب الفكر على الاتحاد عصبه واحدة ، عصبه الايقاظ والتنبيه ، ومكونة في البلاد رأياً عاماً متماسك الاطراف مشدود الأركان . وقبيل اختتام القرن التاسع عشر أصبحت الطبقة الهندية الراقية تملأ الفضاء صياحاً وتجهراً علانية في سبيل نيل النظم السياسية الحديثة كالمجالس النيابية ، والاستزادة من السلطة التنفيذية ، والاشتراك في وضع قوانين الضرائب ، وتوسيع المجال لأهل البلاد كما يتسنى لهم القيام بالخدمة المدنية وغير ذلك . وعند اختتام القرن كان الجاهدون في سبيل هذه المطالب والمطامح ، كما قلنا قبلاً ، هم رجال الطبقة المنورة المتشبعين بالآراء والمبادئ الغربية ، الذين مع انتحالم اسم الوطنيين كانوا لم يدركوا بعد المستوى الذين يستحقون به ان يطلق عليهم اسم القائمين بالعصبة الجنسية بالمعنى الصحيح . ولم تكن غايتهم ، اللهم الا في بعض المواضع ، الاستقلال ، ولا محو السيطرة البريطانية الفعالة ، بل بالأكثر القيام بالاصلاح في أفق الحياة الهندية على المناهج الغربية . وينطوي تحت ذلك توسيع المجال للحكومة الذاتية الخاضعة لمشاركة السلطة البريطانية .

على أنه عند نهاية القرن التاسع عشر تطورت الحال تطوراً كبيراً . فطفقت الهند شأن سائر الشرق تضطرب اضطراباً شديداً وتمهيج فيها عوامل الانقلاب والانتقال وتمخض عن حركات عنيفة ، واستيقظت روح جديدة تدل على التنبه السياسي واليقظة الجنسية والنهضة القومية . وظهرت أدلة وأماثر تؤيد منشأ هذا تأييداً لا ريب فيه . فاندب العلماء والباحثون الهنديون على خزائن الأسفار من توار يختمهم البالية وكتبهم المقدسة ينقبون في بطونها تنقيباً ، ويحيون من بين دفتاتها انباءً عن عز الهند التليد ومجدها الغابر وماضيها المجيد ، وقامت بعض الطوائف المصلحة مثل « الآرياسوماج » توجب القيام بالاصلاح ايجاباً دينياً ، ثم انضم الى جماعات أهل الفكر والروية المتشربين الروح الغربية ، عناصر أخرى ، فاتحد الجميع معاً وانبروا يدبرون الذرائع والوسائل ليس لبلوغ الاصلاح المتدرج على المناهج الغربية ، بل لحياء الهند كلها ، الهند الجديدة ، احياء حديثاً من شأنه أن يجدد قواها النفسانية الحيوية تجديداً ، ويحررها من اغلالها وقيودها تحريراً ، فتسير

اذ ذلك فى سبيلها وراء مقاديرها تسوق نفسها بنفسها . ومنذ ذلك الحين ارتفعت الأصوات من جوانب طبقات الوطنيين وهى تردد ترديداً بالغا عنان السماء « باند يمتارام » - ليحى الوطن !!

يبد أن هناك أمراً أخرى بالاعتبار وهو ان هذه النهضة الجنسية الهندية انما كانت لأول عهدا حركة قام بها أبناء الهندو بين أما المسلمون فقد حذروا منها ونظروا اليها بعين الريب أو العدا . وانهم فى الواقع كانوا على حق فى هذا ، لان غاية أولئك الوطنيين الجدد كانت « الهند الآرية » « هند العصور الذهبية » ، وبات شعارهم : « رجوعاً فى الفيديا ! رجوعاً الى الفيديا ! » وهذا بطبيعته يقتضى احياء ذكريات الايام الخالية احياء تدرج تحته يقظة البرهمية العاشمة . فتطورت حال أهل الطبقة الراقية تطوراً هائلاً اذ ان الرجال الذين كانوا منذ بضع سنوات ينادون بتفوق الآراء الغربية وسمو المبادئ الأوروبية ، ويسخرون من أباطيل عبادة الاوثان وسواها ، باتوا اليوم يشنأون كل شىء غربى ، ثم انقلبوا يقربون القرابين ويقدمون الذبائح للالهة الهندية ، وأمست « تربة الهند المقدسة » فى نظرهم يجب أن تطهر تطهيراً من الاجانب (١) . والاجانب الذين قد عناهم الوطنيون لم يكونوا الانكليز فقط بل أيضاً المسلمين ، الامر الذى هاجت بسببه الذكريات العتيقة واثرت لأجله روح الانتقام فقد ظل الخلاف الهندوى الاسلامى اجيالاً طويلاً شقاً لا يستطاع حوصه وصدعاً لا يمكن رأبه ، وما كانت تلك الجروح لتلتئم ، لكن تغشت بغشاء لطيف هو سيادة « الراجا » البريطانية لجميع أهل البلاد الهندية سيادة غير محابية ولا متحيزة : اما الآن فقد تمزق هذا الغشاء فاذا بالمسلمين يرون أنفسهم مهددين بعداء الهندويين عدا متجدداً وهو العدا الذى كان سبباً فى اضمحلال الدولة الغولية بعد موت الامبراطور « اور نغزيب » منذ مئى سنة خلت ، ولم يحمل هذا العدا المسلمين على الحذر والحشية فقط ، بل أشعلهم غضباً وحقناً ، فطفقوا يتذكرون مجد المملكة الغولية ، كدأب الهندو يتذكرون مجد الهند الآرية ، وشرعوا يحسبون أنفسهم سادة البلاد بحق ، ويأبون الخنوع بته لحكم « عبدة الاوثان » المزدرى بهم . وما كانوا اذ ذلك ليحبوا البريطانيين ، بيد انهم اضطروا الى محبتهم بسبب عود العدا بينهم وبين الهندويين ،

(١) سبق لنا الكلام على « العصور الذهبية » الهندية ومنازعتها فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

فوجدوا في الراجا البريطاني حرزاً حريزاً يتقون به شر تلك العداوة المزمنة السكامة في الرماد ، وفوق هذا فالهندويون يفوقونهم عدداً كخمسة الى واحد . لهذا السبب أخذ المسلمون يقاومون النهضة الجنسية الهندية ، ويقبلون على موالة الراجوات مولاةً شديدةً . وكانوا في هذا الدور قدراً أصبحوا على حان من التأثر بروح الاضطراب والقلق المنتشرين في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه ، فدبت فيهم روح العصبية الشديدة التي بسبب كونهم الاقليات عدداً لم تتخذ لها شكل الوطنية الاقليمية ، بل نزعته الى تلك العواطف الاسلامية المتلاطمة الرامية الى الجامعة الاسلامية وجامعة العصبية الجنسية الاسلامية اللتين قدمنا الكلام عليهما .

فالعصبية الجنسية الهندية في أول عهدها لم تكن ذات صفة هندوية فقط بل أيضاً برهمية يلابسها النزوع الى العرق ، فجعل البراهمة يزدادون حولاً وقوةً في تسيير الحركة وسوقها في مجراها يتبعون من وراء ذلك تشييد عزهم ورفع لواء تفوقهم ، في هند الغد ، حتى يستطيعوا بذلك ان يعيدوا سيرتهم الأولى ، فأثار ذلك خوفَ جانب كبير من المجتمع الهندوي ، فشرعت طوائف كثيرة من الطوائف السفلى والبارياه تخشى ان الهند اذا ما استقلت أو نالت حكومة ذاتيةً يعود الحكم البرهمي الاوليغارقي الطاغى الى الوجود ، ويكون ذلك سبباً في ان تفقد تلك الطوائف المنافع والفوائد التي هي حاصلة عليها الآن في ظل الحكم البريطاني^(١) . وفوق ذلك فقد هب كثير من الأمراء الهندويين يقاومون فكرة الرجوع الى الحكم التيقراطي بعامل الرجل من انهم سيسلبون باستقلال الهند جميع ما في أيديهم من السلطة . لذلك باتت الحركة الوطنية الهندية أشبه بتوائق بين البراهمة والطبقة الراقية المتشعبة تهذيباً غريباً ، وهؤلاء جميعاً وضعوا خطةً وجعلوها تشتمل على مطامعهم الرامية الى غاية حكم الهند حكماً مشتركاً .

واذ غدت الحركة الوطنية تهيجه هذه المطامح وتشعلها الغيرة الدينية فقد كان من شأنها في هذه الحال ان اكتسبت طبائع التعصب واتصفت بشدة المقت والشناة للغربيين وكل شيء غربي . وقد كانت الحرب الروسية اليابانية العامل الأكبر في نفخ هذه الروح ففي السنة التي تلت تلك الحرب (١٩٠٥) ظهرت الأدلة منكرةً بقرب هبوب العاصفة ،

(١) ان شأن الطبقات المضطهدة في الهند قد بيناه في الفصل الثالث ، وانا نريد في يانه في هذا الفصل .

وكان ذلك على أثر قرار وضعته الحكومة في تقسيم البنغال ذلك التقسيم الذي كانت الغاية منه ادارية صرفة مجردة عن كل صبغة سياسية ، فرجال الحركة الوطنية حسبوه أمراً مقيماً مقعداً ، فطفقوا يشعلون نار دعوة كبيرة الهبت الهند كلها ، فعم الاضطراب وساد القلق . وكان زعيم هذه الدعوة الباعثة على الهياج والفتنة « بال غاندر هار تيلاك » الذي دعى بأبي الاضطراب الهندي . فان تيلاك هذا وهو برهمي كان روح الحركة وعرقها النابض ولسانها الناطق ، نال حظاً وافراً من التهذيب والعلوم الغربية ، وكان عدواً شديداً للحكم البريطاني والحضارة الاوروبية ، وداعياً عظيماً يتسلط على القلوب فتتقاد اليه ، وخطيباً بليغاً واري الزند تثير خطبه سواكن النفوس . وكانت صحيفته « ياغنثار » في كلكتا تقذف حم المقت والشنأة للغربيين قذفاً وتحمل الشعب على الهياج والاعتيال والثورة . فأنتجت طائفة تلك العوامل التي أنارها تيلاك النتائج المحسوسة الأثر للحال ، فاشتد الهرج والمرج وكثرت الفتن وحوادث قتل الانكيز واغتيالهم ، وما كانت « ياغنثار » الا واحدة من عديد الصحف الوطنية التي نهجت هذا المنهج وكان بعضها يكتب بلغة أهل البلاد والبعض الآخر بالانكليزية وجميعها متبار في حلبة الهياج والاثارة .

والى القارىء مثال مما كانت تنشره الصحف الوطنية تبين منه شدة النقمة وهول الشنأة . قالت « ياغنثار » : « ان الثورة انما هي الذريعة الوحيدة التي تستطيع بها الأمم المستعبدة المقودة بأغلال النذل والقهر الدفاع عن كيانها والزياد عن ذمارها . ان كنت لا تستطيع يا ابن الهند أن تكون رجلاً كل الرجل في الحياة فاستطع أن تكونه بالموت في سبيل الوطن . ان الأجانب الدخلاء ، يا ابن الهند ، قد هبطوا بلادنا وجاسوا خلال ديارنا ، وحتموا عليك كيف يجب أن تعيش ذليلاً وشددوا في ذلك ما استطاعوا ، اما كيف يجب أن تموت فذلك أمره في يدك فاختر الموت موت الأبطال فداء لهذا الوطن ، هيا بنا أبناء الهند ! أعدوا عددكم وامشوا لاضرام نيران الثورة العامة التي لا تبق ولا تذر ، تاهب الهند من جانب الى جانب ! ان هذه الشراذم من الشرط والجنود لهي أعجز عن الوقوف في وجه الثوار يتمورون وتمور البحر الزاخر المتلاطم اللجج ، ويملاؤن الهند السهل منها والجبل . قد يزج الثوار في المحابس والسجون ، ويحتسون كؤوس الحمام ضروباً وألواناً غير ان ذلك كله ليس بالموهن من عزمنا وحزمنا ولا بالمضعف من شدتنا وبأسنا . يقتل ألف فتنبرى

من بعدهم الآلاف المؤلفة للقيام بواجب الوطن . ايه أبناء هندستان ! عضوا على النواجذ ولا ترهبوا ! ان تربة هندستان مربعة المربع أبداً بدماء الأبطال . لا تياسوا ولا تقنطوا ، هذه أبطالنا وهذه أموالنا فالجهد المجد اقتطفوا ثماره يانعة طيبة . اعلموا ان طائفة من القذائف رميت بها العدو قد شقت كبده شقاً . هو الهول والظلم مما ملأ الجواء وغطى السماء فسبروا قدماً وخوضوا بصادق الغشمشمة عباب بحر من الدماء القانية ! » وقد كثرت حوادث الاغتيال كثيرة هائلة فقال « س . كريشنا فارما » في صحيفة « انديان صوسولوجيست » Indian Sociologist : « ان الاغتيال السياسى لا يعد قتلًا البتة . إذ ان الاستعمال الحق لمثل هذه القوة انما هو دفاع تجاه قوة معتدية » وقالت « ياغنثار » في موضع آخر : « انما بدل الاشتراك الواجب على جميع قراء هذه الجريدة هو أن يأتي الينا كل منهم برأس أوروبى » وما كانت النساء والأولاد من الانكليز مستثنيات من الرجال إذ قالت « ياغنثار » فرحة مبتهجة في تعليق لها على مقتل سيدة انكليزية وابنتها : « يجب أن تقتل على توالى الأيام عفاريت عديدة من هؤلاء النساء ذوات الأرواح الشريرة الخبيثة ، وتجتث شأفتهن كما تجتث شأفة جنس « الاسوراز » من على وجه الأرض » . واليك كلمة تدل على مبلغ تعصب الرجال الذين طفقوا يدأبون على القتل والاغتيال (وغالبهم من الشبان) قالها شاب هندى قتل موظفاً انكليزياً كبيراً هو السركرزن ديلى ، وهو على دكة المشنقة : « انى أيها الملاء لأعتقد أن أمة يتحكم فيها الأجانب الغرباء بالحرب اللوامع انما هي على حرب مشبوبة النار أبداً . ولما كانت الحرب المنظمة التى تعبا فيها الصفوف ليست بالأمر المستطاع عند أمة عزلاء من السلاح ، فانى لم أجد بدأً من الهجوم على حين غرة . ولما لم يكن لدى مدافع أصلى بها العدو صواعق نارية فقد لجأت الى مسدسى وأطلقت منه بعض العيارات انى بصفة كونى هندياً لأشعر أن الاساءة الى بلادى هي الاساءة الى الآلهة ، وان مصلحة الوطن هي مصلحة « شيرام » ، وخدمة الهند هي خدمة « شرى كريشنا » . على ان من كان مثلى صفر اليدين خالى الوطاب ليس عنده كثير مال ولا غزير علم ، فليس بوسعه أن يوجد لأمة بشئ سوى دمه الهندى الجارى فى عروقه ، فلذلك انى أسفك دمي هذا قرباناً على مذبحها المقدس . وليعلم سائر بنى أُمى أن العظة التى يجب تلقينها فى الهند اليوم انما هي معرفة كيف يجب على الهندى أن يموت ، والوسيلة الوحيدة الفضلى لتلقن هذه العظة هو

أن أشرب أنا وأمثالي كما س الردى ، فرحياً بهذا الموت الذي ألقاه الآن شهيداً . وهذه الحرب القائمة في ديارنا اليوم ستظل مشتعلة في ربوع الهند مادام الجنس الهندي والانكليزي على هذا العداء وما لم تتبدل هذه الحالة بأفضل منها »

على ان جواب الحكومة على شيوب هذه الفتنة الهائلة المملوءة بحوادث القتل والاعتقال ، قد كان المبادرة في الأخذ بأسباب الاتحاد بيد من حديد و نار . فعطلت الحكومة الصحف الوطنية ، وسجنت رجال الفتنة وقتلتهم تفتيلاً ، وجعلت ترهف الحد بسن قوانين جزائية شديدة ، وكانت بسبب الفتنة قد هاجت الجماعات الاوروبية أيما هياج وقامت وقعدت لما يقوم به الوطنيون من إزهاق الأرواح وسلب النفوس ، فعمل الأمر كثيراً من الانكليز على أن يطلبوا شديداً استرداد الامتيازات السياسية ، وجعل التعليم الجارى على الطراز الغربى لا يعدو حدوداً معلومة ، ولا يتخطى حكماً مطلقاً شديد الاستبداد فلما رأى الوطنيون هذا انباعوا الى الفتنة فعادوا يشعلونها في كل موضع ، فلقوا الجزاء الأهول والعقاب الأشد . وفي الواقع ، ان الغلاة من الفريقين ، فريق الوطنيون وفريق الانكليز ، كانوا بغلوهم يزيدون النار وقوداً ، فعمت البلوى وشملت المحنة ، وظلت الهند بضع سنوات تضطرم في جوانبها الفتن ، وما كانت السجون ولا أعواد المشاقق ولا النقي ولا الابعاد بالذريعة الكافية لتسكين الحال ومنع الفوران

ثم هدأت العاصفة هدوءاً غير طويل الأمد فتحسنت الحال وجرت مجرى حسناً ، إذ قل عدد الغلاة ، من حيث أخذ أرباب الحصافة والروية من البريطانيين والهنود يبتغون مخرجاً من ذلك المأزق الحرج . وقام القادة المحافظون من الهنود مثل المستر غوكهال وأنداده يشجبون الهول والرعب ، ويدعون أبناء وطنهم للسعى وراء تحقيق أمانهم الوطنية على المناهج السامية . ثم ان أحرار الانكليز وهم لم يزالوا إذ ذاك يأبون الأوبة بالفشل والخسران شرعوا يبتغون الوصول الى خطة يتم بها الاتفاق والوثام ، فندب السياسي الحر الكبير جون مورلى وفوض اليه مهمة القيام بتسوية شؤون الهند فأخذ يجهد حتى وصل بالتالى الى وضع « لأئحة المجالس الهندية لسنة ١٩٠٩ » وكان مشتمل هذه اللائحة الاقلاع التام عن الحكم البريطانى في الهند ذلك الحكم الشبيه بالمطلق الشديد وتوسيع المجال بالتدرج لأهل الاعتراض من الهنود بحيث يستطيعون بذلك ابداء الرأى والمشورة

والاقدام على النقد والمناقشة . وكان من محتوى اللائحة وضع نظام ذى قيود وحدود لانتخاب الهيئات الاشتراكية التى تنشأ على مقتضى هذه اللائحة . فكانت النتيجة ان الوطنيين المعتدلين ، على كونهم غير مرضين الارضاء كله ، قبلوا باللائحة وحسبوا باكورة تناولها المنح الاستقلالية ، وبرهاناً على حسن نية بريطانيا ، من حيث ان أعمال الغلاة القائمة على الرعب والهول والكيد أصابتها صدمة كبيرة ولكنها لم تنقطع انقطاعاً كلياً . وكانت زيارة الملك جورج لهند سنة ١٩١١ سبباً فى مد حبل الولاء والاخلاص ، فارتاحت شبه جزيرة الهند الى هذه الزيارة واتخذتها فألاً تيمنت به .

ولكن كانت سنة ١٩١١ منتهى الفترة التى ساد فيها السكون بعد العواصف التى توالى هبوبها من سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٩ . ثم عاذ الاضطراب يتجدد شيئاً فشيئاً بعد سنة ١٩١١ لأن التأثير الذى كان قد حصل فى بدء الأمر بسبب لائحة المجلس ، قد ذهب الآن وعفا . فعدا الشعور بالخيبة حاملا على التوسع فى المطامح والتطوح فى الآمال . والحقيقة ان العصية الجنسية كانت هذه السنوات مطردة الاشتداد ومتوالية الاتساع ، فبعد أفقها ورحب مضطربها ، فرسخ مستقرها واعتز ناصبها ، فعدت الحركة الوطنية غير مقصورة الشأن على الفئة القليلة المؤلفة من الغلاة ، بل انضوى تحت لوائها القادة المعتدلون مثل المستر غوكهال وأمثاله الذين اعتزموا العمل فى سبيل ادراك الغاية الوطنية على طرق متدرجة ومناهج على مقتضى الحال ، ولكن على كل حال كان من أمر هؤلاء المعتدلين الاخلاص على الحكومة بمساعدات جديدة يتسع بها المجال للوطنيين فى تقاد الأحكام وولاية الأمور . وكانت العلامة الكبرى من علامات تعالى النهضة الهندية هو جنوح جانب من الرأى الاسلامى العام الى الأخذ بنصرة الحركة الوطنية . اذ أن المسلمين كانوا من قبل ذلك الحين أنشأوا « الميثاق الاسلامى الهندى العام » الذى كان يختلف بطبيعته عن منهج الحركة الوطنية ، لان الغرض من انشائه فى المقام الاول هو الدفاع عن مصالح المسلمين ازاء ما كان يقدر عهدئذ من تفوق الهندويين واستفحال سلطانهم . ولكن على توالى الايام طفق بعض المسلمين يرتجعون عن موقف المقاومة للهندويين . ويقاعون عن المشادة معهم خلافاً لمقتضى الميثاق الاسلامى ، وانقلبوا ينضمون الى معتدلة الوطنيين لكن دون الاشتراك فى ايقاد الفتن والعبث بالأمن ، وكان ذلك الانضمام منهم من بعد ما قطع لهم معتدلة الهندويين

الوعود والعهود وأكدوا لهم وقوفهم الى جانبهم موقف الصديق الصفي . وفي ذلك الحين كان رجال النهضة الوطنية قد انقسموا قسمين : المعتدلين والغلاة . أما الغلاة ، وقد نقم عليهم نظرائهم ، فقد استمروا على الهياج والاثارة والقيام بحملات العنف والشدة ، وكان أكبر المديرين لوسائل هذه الحركات والأعمال هم القادة الغلاة المنفيين الذين كانوا لا يفتأون ، وهم في البلاد الأجنبية ، يبعثون دعاة الشعب والفتنة الى الهند فيقوم هؤلاء بتحريض أبناء بلادهم واستنارتهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

هكذا كانت الحالة في الهند عند نشوب الحرب العامة ، وهي والحق يقال حالة ليس قليلا ما فيها من الشؤم والخطر ، ولكنها على كل هذا كانت اذ ذاك خيراً منها منذ عدة سنوات خلت . ومن المعلوم أن الحرب قد كانت سبباً في زيادة القلاقل والأهوال ولكن على مقدار معلوم ، فظلت الهند على الجملة مدة الحرب العامة تجود برجالها وأموالها على غير انقطاع في سبيل نصر الامبراطورية البريطانية ، فلات الجيوش الهندية ميادين أوروبا وآسية وافريقية .

على أنه وان كانت الحرب العامة قد انقضت والهند لم تنشب فيها الفتن والثورات المصطامة العامة ، فلا يؤخذ من هذا ان الحركة الوطنية كانت خادمة ساكنة تماماً أو انه قل السعي وراء توسيع نطاق الحكومة الذاتية ، كلاً ثم كلا ، فان الحرب الكبرى ما كانت الا لتكسب الحركة الوطنية صولةً وبأساً ، وشدة وعنفاً ، فطفق الصراخ يتعالى واللجاج يتزايد طلباً لانشاء حكومة ليس يجب أن تكون صالحة فقط بل أن تكون بماهيتها وصفقتها عند رضى رجال الحركة الوطنية وتنتهى اليهم . ولما كانت الهند قد برهنت في الواقع على حسن ولائها للامبراطورية البريطانية ببذلها في سبيلها النفوس والثمرات عن جود وسخاء فقد كان ذلك باعثاً على عود البحث في منح الهند قسطاً أكبر وقدرأ أوفر في الحكومة الذاتية ، فطفق الرأي العام الهندوى على اختلاف أقسامه وطبقاته يرفع البرامج العديدة الى الحكومة البريطانية في هذا الشأن ، فكانت جميع هذه البرامج المتنوعة أشبه بمنعكس ظهرت فيه صور العصبية الجنسية الهندية أجلى ظهور ، وكانت غاية الغايات التي رمى اليها الجميع واحدة : هي التحرر من الوصاية البريطانية تحرراً تاماً ، غير ان الاختلاف قد شجر بين أهل البلاد في كيف ومتى يدرك هذا التحرر . أما أشد المحافظين فقد قصر وا

أمرهم على طلب حكومة ذاتية خاضعة للإرشاد البريطاني ، بينما غيرهم من الذين هم أوسع مطامح وأمالاً طلبوا نظام الحكم التام المعطى للإملاك المستقلة في الامبراطورية البريطانية مثل أستراليا وكندا . وأما أصحاب العنصر الثوري فقد ظلوا بعداء مصرين على أن العنف والشدة هما الوسيلة خير الوسيلة لادراك الغاية الوطنية أعنى بها الاستقلال التام .

ومن مقتضى مطالب المعتدلين القيام بتغييرات كبيرة في نظام الحكومة الحالي ، والتقليل من السلطة البريطانية الى حد معلوم في المواضيع التي لم تعد عندها الحكومة الهندية الوطنية ناضجة كل النضج . وقد قبلت الحكومة البريطانية هذه المطالب بروح العطف الدال على ابتغاء الاجابة والتوفيق ، والمنبيء باهداء المنح الاستقلالية في المستقبل القريب . في هذا الصدد قال نائب الملك في الهند اللورد هاردنغ سنة ١٩١٦ : « اني لأود الاخذ بنصرة هذا المطالب الذي تطلبونه من حكومة ذاتية في الهند ، لأن هذا هو غاية وطنية شريفة . ان الحكومة الذاتية هي مطلب حق صريح يعطف عليه ويشترك فيه جميع المعتدلين ، غير أن الحالة اليوم في الهند تقتضى بطبيعتها النهج على سياسة عملية بعيدة من الغاية القصية . لذلك ينبغي لنا ان نستمسك جهدنا بما هو واقع محسوس ، ونعرض عن متطوح الآمال التي ليس من نتيجة التشجيع عليها سوى الابطاء والتأخير عوضاً عن سرعة التوفيق والفلاح في ميدان السياسة . ومعلوم عندي ان هذا هو رأى العقلاء وارباب الحصافة والروية من رجال الهند . وليس هناك من هو أرغب مني في رؤية آمال الهند الحقة الصريحة محققة عما قريب ، من حيث اني أحاذر كل خطر ينجم عنه رد الفعل بإنشاء النظم الجديدة التي يدل الاختبار على كونها سابقة لأوانها » .

وفي أواخر سنة ١٩١٧ قدم الهند من بريطانيا المستر موتاغوزير الهند مبتغيا الوقوف التام على الرأي العام في الهند بشأن قضية الاصلاح الدستوري ، فصرف عدة أشهر يباحث ويناقش ويكتنه ويستبطن ، ويعقد المؤتمرات الممثلة لجميع الاجناس والطبقات والأديان ، وبالتالي وضع تقريراً أودعه نتائج هذا الاستطلاع المدقق ، وقعه هو ونائب الملك في الهند اللورد « شامز فوردي » ، ونشر في تموز (يوليو) سنة ١٩١٨

واشتمل هذا التقرير على بيان ميثاق يوضح جدارة أهل الهند لنيل المنح الاستقلالية مما يفوق جميع ما قد منحه بريطانيا الهند من قبل ، ويبين صريحاً أن تمنح

الهند الحكم المعروف « بالحكم الوطنى » (Home Rule هو مرول) فى المستقبل القريب ، وان هذه المنحة ليست تعد النتيجة الناشئة عن الاضطرابات الهندية ، بل عملاً بمقتضى « الاعتقاد والوجدان المستقرين فىنا » . ثم يتلو ذلك كلمات حق أن تكتب بماء الذهب ، ألا وهى : « اننا نعتقد اعتقاداً راسخاً ان قد حان الوقت الذى أصبحت فيه اطالة جايقتنا للهند لا يستطيع القيام بها دون ان نصيب حياة الهند ، الحياة القومية الوطنية بضرر وخطر ، وان لدينا الآن منحة لأهل الهند هى أثن من جميع المنح المتقدمة منا لهم ، فان حياة أهل الهند باعتبارهم أمة صحيحة البنيان ، فى كنف الامبراطورية ، ليشتمل فيها شئ هو أنفس حقاً من سائر ما قد اكتسبته الهند فى الماضى ، وان السكون البادى على السواد الأعظم اليوم ليس بالترية الصالحة التى تنمو فيها حياة الهند الجديدة ، فاستحاثنا القوم من تلقاء أنفسنا ليتأهبوا للقاء عصر جديد انما هو الخير كل الخير للهند » .

وصفوة التقرير بيان فى أن طراز « الحكومة المشتركة » يصلح اتخاذه قاعدة ومبدأ لتسوية القضية الهندية ، وهذا الطراز انما هو ضرب من الحكومة تقسم بمقتضاه النبعة الحكومية بين مستشارين تعينهم السلطة التنفيذية البريطانية وبين وزراء تنتخبهم الهيئات الانتخابية الاشتراعية ، وعلى هذا الشكل والنظام تتكون الحكومة المركزية وحكومات الأقاليم . أما السلطة الاشتراعية فينتخب أعضاؤها انتخاباً على نطاق تغدو فيه حقوق الانتخابات رحبة وافية الى حد لم يعرف من قبل ، وتحويل المجالس الاشتراعية سلطة كبيرة واسعة ، اذ فى الماضى لم تكن سلطة هذه المجالس لتزيد الا القليل على سلطة المجالس الاستشارية ، أما الآن فانها معتبرة بمقتضى التقرير اشتراعية تامة الصفة بالمعنى الغربى الصحيح ، على كون سلطتها لم تزل محدودة فى مواضع أخصها المالية التى ظلت القوة التنفيذية تحتفظها احتفاظاً يكسبها الكلمة العليا والقول الفصل فى بعض الشؤون ، وبهذا لا يكون هناك شئ من توازن السلطات ، بل تكون كفة الراجا البريطانى هى الراجحة أبداً على ماسواها . ثم يبين التقرير أن هذا المنهاج الحكومى لن يكون أبدياً ، بل انما هو بدليل شكله وظاهره وسيلة يتم بها انتقال السلطة من الحكومة الراجوية الى الحكومة الوطنية ، أو هو أشبه بمدرسة يتخرج فيها الشعب الهندى المدة المقتضاة ، حتى اذا ما نال

فسطه من الخبرة والمران ، واستوفى ما ينبغي أن يكون عليه من الحسنة والمراس ، واقتبس ما فيه الكفاية من هذه الدروس الأولية في الحكومة الذاتية ، منح حكومة نيابية تامة الجهاز كاملة الشرط بوسعها وطاقاتها ليس الاقتدار على المباشرة والانشاء والاشترع فحسب ، بل أيضاً الفبض التام على أزيمة السلطة التنفيذية وتسيير دفتها .

ثم بات التقرير موضوع البحث والمناقشة المدققة في الهند وبريطانية . وبالوقوف على مدار حول شأنه من مختلف المباحثات وضروب الأقوال ، تتجلى لنا ماهية القضية الهندية مع ما هي عليه من التناقض والنبين . أما رجال النهضة الوطنية فقد ذهبوا حينئذ مذهبين مختلفين الأول مذهب المعتدلة الذين ارتاحوا الى التقرير ارتياحاً ووافقوا على محتواه ومقترحاته ، وأبدوا ما تضمنه من المنهاج الحكومي وشرعوا يعضدونه عضد المعاونة والولاء ، والآخر مذهب الغلاة الذين مالشوا أن فندوا التقرير تفصيلاً شديداً وقالوا ان مقترحاته ليست الا احبولة وشركا . وصرح المعتدلة صفة حالهم ببيان أصدره موقعا من زعمائهم وقادتهم ، وفي طليعتهم الاقتصادي الهندي المشهور « السردانثوواشا » ، وبما جاء في هذا البيان : « ان المنهاج المقترح في التقرير هو أشبه بصورة مركبة الأجزاء بعضها قابل للتحسين والترقية ولا سيما القسم الأعلى منها ، والمنهاج مع ذلك يحسب مشروعاً ظاهراً فيه التقدم والتحسين ، ومن شأن الاصلاحات المقترحة فيه أن تمهد السبل للاقاليم الهندية للوصول يوماً الى غاية الحكومة النيابية النامة . وعلى الجملة ففي هذه المقترحات من صدق النظر وروح العطف على الآمال الهندية ما يستحق به صاحباً التقرير الكفيان الاشهران ، شكر أهل الهند وامتنانهم » . وكان تنفيذ الغلاة للتقرير شديداً جداً ، وقد جهد بهذا زعمائهم وقادتهم ، فقال المستر تيلاك : « الاعتصام الاعتصام بالغاية التي وضعها نصب عينيه المؤتمر الهندي الوطني » . وقال المستر بين شنذر پال : « لن أحول عن رأيي الصريح وهو أن ما قبل بهذا المشروع المقترح ونفذ فان الحكومة ستصبح يومذاك أشد عنفاً واستبداداً منها اليوم » .

وبما هو احرى بالاطلاع عليه هو اعتراضات الاحزاب المقاومة للحركة الوطنية ، ولا سيما الاحزاب الاسلامية والطوائف الهندوية الدنيا ، اذ أن من الأمور الدالة على شدة تعقد القضية الهندية ومناقضة بعض وجوهها لبعض هو خشية الملايين العديدة من الهنود

للحركة الوطنية أشد خشية، واتخاذهم حكم الراجا البريطانى مجنأ يتقون به اضطهاد رجال الوطنية وعنفهم وتسلطهم . أما المسلمون الهنود فكانوا لم يبرحوا على خلاف شديد فيما بينهم فى شأن قضية الحكومة الذاتية . وكانت الفئة الكبيرة فيهم تمتت الحركة الوطنية وتحذرها لما اكتسبته بالتالى من الصبغة الهندوية الحاملة على التعصب ، غير ان جانباً منهم أى من المسلمين أخذوا شيئاً فشيئاً ينجحون الى مناصرة الحركة والجهد فى سبيلها ، كما سبق لنا بيان هذا ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازدياداً فاحشاً طول الحرب العامة ، فجعلت العرى بين العنصرين تتوثق ، ولكن ما كان السبب فى هذا التآخى الاسلامى الهندوى مقصوراً على رغبة المسلمين فى نيل الحكومة الذاتية بل لأنهم فوق ذلك قد ابتغوا مقاومة دول الخلفاء فى سياستها التى وضعتها وطمغقت تمشى عليها لاقتسام الامبراطورية العثمانية واشعال الشرقيين الادنى والادنى والادنى^(١) ، لذلك أمسى الوطنيون الهنوديون على استعداد شديد لمقاومة المسلمين شعورهم فى الشؤون الاسلامية الخارجية فنجح عن جميع هذا ان استحكمت عرى الولاء بين الهنوديين والمسلمين استحكاماً ، وتأكدت روابط الاتحاد بين العنصرين تأكداً ما عرف له من شبه من قبل .

وتدل الحال التى بلغ عندها اعتزاز الطوائف البرهمية بالحركة الوطنية اعظم مبلغ ، على أن المقاومة التى قامت بها الطوائف الهندوية الدنيا للحكم الهندى الوطنى (هو ممول) هى فى الواقع عظيمة . فاشتد وجل هذه الطوائف حتى حسب أهلها انهم كادوا ينحسرون الحاية التى هم حاصلون عليها اليوم فى ظل الراجا البريطانى ، فتقضى بهم الحال اذ ذاك الى معاناة الندل والاقامة على الضيم والقهر ، وذلك مما لا ريب فيه متى ما عايد الاستبداد البرهمنى الى الكيان وهو كما لا يخفى استبداد الطوائف العليا . فدعاهم ذلك كله الى اتخاذ وسائل الذيد عن جامهم ، فالتفوا جمعية دعوها « الناماسودرا » وسلموا زعامتها والتيام على شأنها الى رجل كبير مشهور من آحاد رجالهم هو الدكتور ناير^(٢) ، فاخذت هذه الجمعية تبين وتوضح ما سيقع من البنى والاستبداد البرهمنى اذا ماتسنى لأهل الطوائف البرهمية العليا القبض على أزمة الأحكام فى البلاد ، مستتلة بما هو واقع فى الحال على ما هو

(١) كما سبق لنا بيان هذا فى الفصل الخامس .

(٢) ذكر فى الفصل الرابع .

متوقع حدوثه في المستقبل ، مثال ذلك قولها : « ان البرهمنين قد أخشوا في رعب المنتخبين (بكسر الخاء) من الطوائف الدنيا في عدة مواسم اتخاوية وهددوهم شر تهديد بأن يبنذوهم من مراتبهم الطائفية نبذاً ان تقاعسوا عن انتخاب المرشحين البرهمنين من الطوائف العليا ، فاذا كانت هذه صفة الحال اليوم فكيف تكون غداً اذا ماتم البراهمة الاستبداد في مجال أوسع ونطاق أرحب ، فيفقد « البارياه » المنبوذون اذ ذاك كل حق في المجتمع الهندي » .

فهذه الاعتراضات التي قام بها اقسام كبيرة من أهالي الهند مقاومة للحكم الوطني « هو ممول » المقترح في التقرير ، كان من شأنها انها استرعت انتباه عدد كبير من الانكليز أهل الاضطلاع في القضية الهندية الذين كانوا قد كشفوا عن قناعتهم واعتقادهم في استعداد الهند للحكم الوطني ، من حيث انها قوت حجج طائفة عظيمة من الانكليز ، ولا سيما أولئك المتنهدين [انجلو انديان] الفائلين بان الهند ليست الى الآن ناضجةً فضجاً كافياً لنيل الحكومة الذاتية . قال أحد أصحاب هذا الرأي في مجلة (Round Table) « المائدة المستديرة » : « ان الخشوة من أهل الهند لا يحفلون البتة بشؤون السياسة ولا يفقهون شيئاً من الحكم الوطني . بل انهم يؤثرون البقاء في ظل قضاة الصلح الانكليز على كل شيء سواه وهذا الأمر هو مبتغاهم أبداً ، وهم واثقون كل الثقة بالانكليزي لأنه كان دوماً « حامى الضعفاء » لايحابي هندوياً ولا مساماً وقد عرف بالنزاهة والأمانة » . وقال اللورد سيدنهام في نقد مسهب فند فيه مقترحات تقرير مونتاغوشامز فوردي : « ان هناك نقائص عديدة في منهاج حكومتنا في الهند يحمل على الاصلاح الواجب أن يقدم على قاعدة المصلحة لجميع سكان الهند بدون تمييز . ولكن اذا ما نفذت سياسة « استحثاث القوم من تلقاء أنفسنا لكي يتأهبوا للقاء عصر جديد » ، كما يقول نائب الملك في الهند ووزيرها في بريطانيا ، واذا ما انتشر النبأ في الزوايا المتهامة في الشرق ان تلك السلطة الوحيدة الكافية لسير القانون والنظام والآخذة للامة الهندية بيد المعونة في سبيل الارتقاء المتدرج ، قد وهنت وتضعفت ، قضى بذلك على المصالح العامة القضاء المبرم ، فعادت الاحن والأحقاد تشتعل جديداً ، ثم يكون على الأثر رد فعل عظيم تقوى به البراهمة - وتذهب به جميع الترقيات والأعمال الشريفة التي قام بها الانكليز في الهند » .

على أن هناك كثيراً من ثقات الانكليز المظلمين في الشؤون الهندية ، ذهبوا يؤيدون مقترحات التقرير ويدينون ماهى عليه من الحكمة الصادقة ويلحون على الحكومة طالبين أن يشترع البرلمان قانوناً لها ويضع نظاماً لتنفيذها هذا اذا رامت بريطانية حقاً اتقاء الاخطار العظمى والبلايا الكبرى . وكان زعماء هذا الرأى والمذهب هم مثل ليونل كرتس والسر فالتين تشيرول (١) فقال هذا الأخير : « انه لمن عزم الأمور ألا يؤخر العمل على مقتضى مقترحات التقرير ، فلنتعظ ولنعتبر بما قد جرى حتى اليوم فذلك لعمري كاف أن يحملنا على الانتباه لمخاطر التسوية والارزاء . أيا ترى يغيب عنا بعد جميع الذى جرى ان الزمان اليوم فى الهند كما فى سائر المشرق أصبح أكبر معين وأعظم عامل على انفجار براكين الفتن ؟ . . . ليس بوسعنا البتة ان نأمل التوصل الى توفيق مرض بيننا وبين الغلاة ، فجل مانستطيع الامل فيه هو ان نطلق لأهل الهند قواهم الحيوية من اغلالها ، تلك القوى المرتقبة يوماً فيوماً افلات من أسرها ، فننتقل فى سبيلها وحبلها على غاربها ، فتأخذ بالجد والانكماش فى العمل ولها من نفسها مسيطر عليها » .

وبالتالى قبل البرلمان البريطانى بتقرير مونتاغوشلمزفورد قاعدة للبحث والمناقشة وفى أواخر سنة ١٩١٩ اشترع البرلمان مقترحاته قانوناً رسمياً ، بيد انه خلال المدة المنقضية منذ نشر التقرير الى اشتراع مقرحاته ، وهى ثمانية عشر شهراً ، قد تبدت الحال فى الهند لتكسر الطامع تبدلا هائلا وانقلبت انقلاباً عظيماً فاردب الجوى وعادب الفتن والثورات تنفجر ونيران الكوراث تندلع فى طول البلاد وعرضها ، ففاقت جميع ماعرف من هذا القبيل منذ سنة ١٩٠٩ .

والاسباب فى ذلك جمة . ففي المقام الاول شرعت جميع العناصر الوطنية الشديدة السخط على التقرير تستثير أصحاب المنازع الثورية وتحرضهم على استئفاف أعمال الهول والرعب ، ولعل الغرض من هذا كان حل البرلمان البريطانى على التوسع فى المنح الاستقلالية ونطاق الحكم الذاتى فوق ما اشتمل عليه التقرير من المقترحات والمرامى . وهناك من الاسباب ما هو أعم صفة . ذلك ان سنة ١٩١٨ انما كانت سنة بلايا ورزايا طبقت الهند من أقصاها الى أقصاها ، فاجتاح وباء الحمى الصدرية الهند اجتياحاً ، وفتك بأهلها فتكا

القهرى وبعثنا على ازدياد الفتنة . ولما جرى باللائحة للبحث فيها فى المجلس الاشتراعى الهندى ، أى المجلس الاشتراعى الامبراطورى ، هب جميع الأعضاء الوطنيين يعارضون اجازة اللائحة أشد المعارضة ، ولكن الحكومة تمكنت بالتالى من اجازتها بعد احتدام الخلاف مستعينة بأصوات الأكثرية الانكليزية المعينين تعييناً . وحسبت الحكومة اجازة هذه اللائحة ضربة لازب لامناص لها منها ، لىكى يتسنى لها بها حفظ النظام والأمن . وفى ربيع سنة ١٩١٩ اشترعت اللائحة وصيغت قانوناً رسمياً .

فازدادت الحال شدة . ودعا الوطنيون هذا القانون « بقانون الأفاعى السوداء » ، واشتعل السخط من كل جانب . وطفق الغلاة يقومون بحملات الاحتجاج المستطير من هب النعمة والعداء . وارتخ أهل الهند اليوم الذى اشترعت فيه هذه اللائحة قانوناً ، وهو السادس من نيسان (ابريل) سنة ١٩١٩ ، بأنه « يوم الذل الوطنى » . وفيه اجتمعت الخلائق أوفياً مؤانعة لا يحصيها عد اجناعات كبيرة ، وقام فى الجوع المتراسة الخطباء الوطنيون يستثرون الناس بالخطب الهائجة المفزعة ويشعلون صدورهم بنار حساسية مستعرة . فكان « يوم الذل » فى الواقع شريوم عرف باستفحال الفتن الشديدة منذ ثورة العصيان سنة ١٨٥٧ . فعاد الرعب والهول يطبقان الهند ولاسيما فى الأقاليم الشمالية ، فانغيتل الموظفون ورجال الخدمة المدنية من الانكليز ، وانتشر التخريب والتدمير ، كأن ليس لمرجل الهند الغالى من سكون .

ومضت الحكومة تستقبل الخطوب تترى والفتن المتوالية رابطة الجأش . تخمد وتسكن بيد من حديد ونار . فانطلقت بنادق الحكومة البريطانية ومدافعها الرشاشة تحصد الخلائق حصداً ، وطفقت أسراب الطيارات تملأ الفضاء سباحة جيئة وذهاباً تاطر الجاهير سحب القذائف ومزن المفرقات . ومن أشهر هذه الحوادث الهائلة « مذبحه أمرتار » حيث هجمت الجنود الانكليزية بالمدافع الرشاشة على جمهور كان محتشداً احتشاد القأمين بالفتنة فخصدت منه النيران ٥٠٠ نفس وجرحت ١٥٠٠ نفس فى لمحة بصر . ولم تستطع الحكومة تهدئة الحال الا بشق الانفس ، فعاد النظام الى مجراه وزجت الحكومة قادة الفتنة فى السجون ، فباتت الفتنة ساكنة ولكن سكون النار تحت الرماد . وكان اشتراع البرلمان البريطانى لتقرير موتاغوشامز فوردي الاصلاحى أواخر السنة عاملاً فى استرخاء حلقات

الضيق والشدة ومسكناً من نيران الغضب والسخط ، ومع ذلك فقد ظلت الحال عصبية اذ لم تود جميع المياه الى مجاريها ، لأن الحوادث المشؤومة التي حدثت أوائل سنة ١٩١٩ كان من شأنها أن هاجت الاحن والشحناء والأحقاد هياجاً شديداً لانطفاء له ، فباتت العناصر الثورية من تحت الغطاء أشد عنفاً ومراساً ، وظل المعارضون المقاومون للحكم الوطني مستمسكين باعتقادهم ان الهند ليست بالجديرة لذلك الحكم اذ متى ما تقلص ظل الحكومة الراجوية المطلقة عادت الفوضى الى الانتشار .

لهذا انقلبت الحال غيرصالحة للقيام بتنفيذ الاصلاح المقترح في تقرير موتتاغو شامز فورد . فهب الغلاة يقاومون تنفيذ مقترحات التقرير قائلين ان الاصلاح انما هو شرك يجب اتقاؤه ولو عانت الهند في سبيل ذلك ما عانت . ثم أخذوا يبتغون ادراك الغرض ، ولما كانوا يعلمون أن الثورة المسلحة غير مستطاعة لديهم ولا سيما في حال مثل تلك الحال ، عمدوا الى الذريعة الجديدة المعروفة «باللاتعاون» ، وهي في حقيقة معناها مقاطعة شاملة بانه «هائلة» لكل شئ بريطاني أو عليه سمة بريطانية . ولم تقف المقاطعة عند هذا الحد ، اذ تجند لها المنتخبون فقطعوا الانتخاب للجالس الجديدة ، والمحامون وأرباب القضايا فقطعوا المحاكم والمكفون فامتنعوا عن تأدية الضرائب ، والعمال فاضربوا عن العمل ، والتجار فرفضوا تعاطى البيع والشراء بالبضاعات الانكليزية ، والطلاب فانقطعوا عن المداومة على المدارس والكليات . وكان الغرض من هذه المقاطعة مضايقة الانكليز على هذه الطريقة حتى تتدلى منزلتهم في الهند فيصبحوا ضرباً من «البارياه» المنبوذين ، فيضيق الأمر بالحكومة البريطانية والجماعات البريطانية من شدة الاعتزال ، ويغدو الراجوات ضعاف القوة والسلطة قليلين بأنفسهم ، فيضطرون الى اجابة الغلاة الى مطالبهم وينزلون على حكمهم في شأن الحكومة الذاتية التامة .

هذه غاية الالاتعاون . ثم سرعان ما نبرى للسعي وراءها والجهد في سبيل نشرها زعيم كبير مقتدر هو (موهان داس كارامشودغاندى) الذائع الصيت والذكر المشهور بشدة ورعه وتقواه . فقد استطاع هذا الزعيم العظيم ان الهب الطوائف الهندوية بأمرها ناراً دينية ، مما اعتاد اضرام مثله نساك الهنود ومتشفتهم الذين على هذا الطراز . ويمكن القارىء أن يقف على ماهية الدعوة التي قام بها غاندى بالاطلاع على هذا المقتبس التالى وهو من احدي

خطبه التى خطبها فى الناس : « انه لمن العجب العجاب بقدر ما هو داع للذل والصغارة ، أن يستطيع أقل من ١٠٠٠٠٠٠ من الرجال البيض أن يتحكموا فى ٣١٥٠٠٠٠٠٠٠ من الهنود . أجل ان البريطانيين يستطيعون هذا بالقوة الغاشمة العمياء ، ولكن على الاغلب بما ينالونه منا من التعاون الذى يستفيدونه بالوف الذرائع والوسائل ، وباستنفاد حولنا وقوتنا كما نصبح عالة عليهم فى كل أمر من أمورنا وشأن من شؤوننا على مضى الأيام وكر السنين . اياكم ثم اياكم الوقوع فى أشراك هذا الاصلاح فتحسبونه سبنا وهو ورم ماء وهو سراب . اياكم ثم اياكم الوثوق بهذه المجالس الاشتراعية والمحاكم القضائية وكراسى الأحكام فتبيعون بذلك سلطتكم الحقيقية التى هى نصاب حريتكم واستقلالكم . ان جميع هذه الذرائع التى يتوسل بها الانكليز معنا إن هى الامتدراجات لاحتلاب قوتكم وأيدكم ، واستنزاف دمائكم وامتسكك عظمكم . ان البريطانيين لا عجز عن ان يحكمونا بعد بالقوة ، فلذلك تر ونهم يلجأون من وسياسة الى أختها سواء كانت شريفة أم سائنة ، لى يتسنى لهم البقاء فى الهند . اعلموا أن الانكليز ينتعون نيل القناطير المقنطرة من مال بلادنا والتلذذ بثمراتنا والانتفاع بقوة رجالنا واولادنا كل ذلك فى سبيل جشعهم الامبراطورى ونهمتهم الاستعمارية . فاذا كنا ما يجب علينا أن نكون من العصبة المستمسك بعضها ببعض ، وأيننا ثم أيننا امدادهم بما يريدون منا من المال والرجال ، استطعنا ادراك غايتنا الكبرى الا وهى : السوراج^(١) والمساواة القائمة على صدق المروءة

على ان الغايات التى قد ابتغها الغلاة من حركة اللا تعاون لم تتحقق كلها فشرع فى تنفيذ الاصلاح المقترح فى تقرير مونتاغور شامز فورد ، وأجريت الانتخابات الاولى على مقتضى التقرير أوائل سنة ١٩٢١ . غير ان الظواهر بعيدة بعداً كبيراً من الدلالة على استقرار نصاب الحال ، اذ لم يكد يشرع فى الانتخابات حتى ظفقت مؤثرات الحركة اللاتعاونية تظهر عاملة عملها بالآلاف من مختلف الوسائل ، تبتدىء باضراب العمال فى المعامل وتنتهى باضراب الطلاب عن المدارس والمعاهد العلمية . فالهند اليوم انما هى فى مخاض شديد ليس فيها الا الفتنة والاضطراب . والامر الاخرى بالاعتبار ان ليس هذا الغليان الهائل مقصوراً على الافق السياسى فقط ، بل يتناول الأفق الاجتماعى كذلك . فان التطورات

(١) معناها الحكومة الذاتية فى مراد الغلاة ثم شاع استعمالها فى الهند بمعنى الاستقلال .

الاقتصادية الكبرى التي لم تنفك تزداد وتنتشر في الهند منذ نصف قرن الى اليوم ، قد تقضت هيكل المجتمع الهندي نقضا عاماً فتبدلت الأرض غير الارض . وستكلم على هذه التطورات فيما يلي من الفصول ، والأمر الذي ينبغي لنا استيعابه في هذا المقام هو ان القادة الغلاة لعلى جد في اضرار الثورة الاجتماعية وبلاريب على صلة بروسية البلشفية ، زد على ذلك ان عوامل الانشقاق القديمة الأصل لم تضمحل بعد ولا تلاشت ، فان المذبحة الاخيرة التي ذبح فيها المتعصبة من طائفة السيخ أهل الجماعة حجاج السيخ المنشقين عن الجماعة ، والفتنة المثلثة التي نشبت في تلك الآونة بين الهندويين والمسلمين والنصارى الوطنيين في الهند الجنوبية ، جميع ذلك يدل على ان نار العصب الديني والجنسي لم تبرح كامنة . وصفوة الكلام ان الهد اليوم هي أشبه بميدان تتصارع فيه قوى التطورات والانقلابات : النسوية المتدرجة ، والثورية الهائلة . القديم يموت ويفنى ، والجديد يظهر الى الوجود ولكن لم يتكامل بعد : هذه صفة الحال العامة في الهند اليوم ، جو مر بد وانقلاب عظيم ، فول وجهك شطر المستقبل فسبحان علام الغيوب .

الفصل السابع

فى

التطور الاقتصادى

من أعظم الواقعات وأدعاها للعجب فى تاريخ العالم الحديث ، هو فتح الغرب للشرق فتحاً مزدوجاً . فكلمة «فتح» قد شاع استعمالها بالمعنى السياسى بحيث يتصور من ذلك زحف واستيلاء ، وجيوش معبأة وعساكر منظمة تدوخ بلاداً أجنبية وتخضعها لسلطان غريب . وظاهر لا يحتاج الى بيان ان مثل هذه الفتوح السياسية قد تكررت فى الشرق وتعددت ، وقد رأينا فيما تقدم من الكلام كيف كانت الممالك المنحطة فى الشرقين الأدنى والأوسط تتساقط خلال القرن الماضى الواحدة تلو الأخرى أمام الدول الغربية ذات الحول والطول والقوى القاهرة المسلحة .

على ان الأمر الذى يجب النظر فيه هو ان هذا الفتح السياسى قد كان يماشيه جنباً الى جنب فتح اقتصادى أممٌ عدة من ذلك وأوسع مضطرباً وحدوداً ، وقد قدر له أن يكون سبباً فى تطورات جمة أشد فعلاً وأرسخ حالاً وصبغة .

وأما السبب الأسمى فى هذا الفتح الاقتصادى فهو بلامرء الثورة الصناعية فى أوروبا فى القرن الماضى . فانه مشاهداً كسبت الاسفار البحرية التى قام بها كولوموس ودى غاما أوروبا السيادة على الاقيانوس ثم تلت ذلك السيادة السياسية على العالم طراً ، فهكذا قد كان شأن الاختراعات الفنية التى كانت ما بعد القرن الثامن عشر عملة الثورة الصناعية ، فاما قد أ كسبت أوروبا السيادة الاقتصادية على العالم بأسره . وقد كانت هذه الاختراعات فى الواقع بشيراً بعصر جديد من عصور الرياد والاستكشاف ، ولكن ليس فى مجاهل الأرضين وأبكار الاقطار ، بل فى آفاق العلوم وبمالك الفنون . فكانت النتائج فى هذا العصر عصر الاختراعات أعظم وأجل من تلك التى حصلت فى عصر الاستكشافات الجغرافية منذ ثلاثة قرون خلت ، لانها جعلت بنى عرفنا وقومنا ذوى سيادة

فوق قوى الطبيعة بحيث كان من شأن الانقلابات الكبرى التي حدثت في الحياة الاقتصادية على الاثر ان بدلت وجه العمران تديلاً تاماً. وغيّرت صورته من حال الى حال .

ان هذه الانقلابات العظمى هي بلاريب مما لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم . فان ارتقاء الانسان المادى كان لم يبرح حتى ذلك العهد سائراً سيراً متدرجاً بطيئاً ، واذا استثنينا البارود الذى كان معروفاً من قبل نرى الانسان كان لم يزل على حال تكاد لم تتغير منذ عصور متطاولة وأحقاب مديدة ، اذ لم يكن هو قد شد الى نذليل القوى الطبيعية رحاله بعد ، ولا استطاع ان يفوق أجداده الاقدمين فى التسلط على قوى المادة ، فالركبات والعجلات التي كانت شائعة فى عصر أجدادنا لم تكن لتختلف عن تلك التي كانت فى عصور المصريين الاولين ، وأيضاً السفن الشراعية كانت كالسفن التي كانت معروفة فى العالم القديم من قبل الحرب التروادية ، فالصناعة الأوروبية قبل القرن الماضى كانت قائمة على قوة عضل الانسان والحيوان ، وعلى الريح وقوة انحدار الماء ، واذا بالخال تطورت فجأة تطوراً تاماً هائلاً، فظهر البخار والكهربائية والبتروال واللاسلكى ، فبدأ الانسان يكون جباراً يسخر القوى الطبيعية المنجوبة ، ويقرب الابعاد ، ويضع يده على مناكب الكرة الارضية ، ويحرق جبالها ويتغلغل فى احشائها ، ويذلها ويروضها فى سبيل مصالحه ومنافعه ، ولم يزل يصارع قوى الطبيعة حتى ظهر على الكثير منها ، ثم رأى نفسه فاذا هو بعالم مادى جديد ما كان ليعرفه من قبل ، مختلف عن ذاك السابق اختلافاً لم ينحصر فى الحيز والحد بل جاوز ذلك الى النوع والصفة .

نقول الانسان انما بات فى عالم مادى جديد ، ونعنى به انسان القرن التاسع عشر ، أو الرجل الابيض ابن أوروبا هو وجالياته التي انتشرت فى الارض وجعلت تنشئ لها طوارىء ما وراء البحار ، اذ ان المبتدع لاسباب هذا الانقلاب والنطور والاختراع هو ثم هودماغ الانسان الاوروبى الابيض الذى كان المجلى فى حلبة هذا الميدان والجاني للطيبات والخيرات قبل غيره من سائر الانسان ، على انه قد كان لهذا العصر الجديد ميزتان هائلتان : هما نشوء الصناعة الآلية التي طفقت بها المنتجات الصناعية تندفق تدفقاً جاوز الغاية واستغرق الحد ، وترقى وسائل النقل وشيوعها ورخص أجورها . فهذان العاملان قد زادا زيادة فاحشة فى القوة الاقتصادية واستفحال الثروة فى أوروبا التي غدت منذ

ذلك العهد مصنع العالم غير منازع . وفي الواقع انما كانت أوروبا خلال القرن التاسع عشر تنتقل من عهد كانت فيه القارة شبه زراعية الى آخر أصبحت فيه معملاً صناعياً هائلاً ملؤه الارزاق ورؤوس المال والعمال ، منه أخذت تصدر البضاعات والسابع والامتعة على اختلافها مقادير عظيمة الى كل حذب وجهه في الارض ، واليه تجلب ارزاق جديدة من المواد الخام لتحوّل وتصنع وتبادل .

هكذا كانت حالة الغرب النائر ثورته الصناعية لما وقف ازاء الشرق المتقهقر المتضعف الساكن الحركة في حياته الاقتصادية فضلاً عن السياسية وفنون الحرب . ولا عجب فالشرق كان إذ ذاك فاقداً للصناعة والتجارة بمعنييهما المعروفين عندنا اليوم ، وما كان له من حياة اقتصادية على الجملة فانما كان قائماً على الزراعة . وبهذا الاعتبار كانت الوحدة الاقتصادية هي القرية أو البلدة القائمة على عول نفسها بنفسها حتى كادت تكون في عزلة عن غالب جوارها . وأما الصناعات والمهن والحرف في الشرق فقد كانت يدوية ، يقوم بها قليل من أبناء الفن أو الصنعة يشتغلون في الأكثر كل بمفرده في نطاق ضيق الحدود . وكان الجانب الأكبر من منتجاتهم النفيسة النوع في الغالب ، حاجات كإليّة تستنفد في سبيل التمتع والترف ، تصنع على طرق بطيئة وأساليب قديمة بحيث ان السكّم المنتج كان على مقدار معروف ، وأسعاره في السوق غالية بالاضافة اليه . لهذا السبب ما كانت المنتجات الاسيوية ، على نزاره الاجور وقلة النفقة ، لتستطيع مباراة البضاعات الأوروبية والأميركية المصنوعة بوسائل الآلات والزاخرة في أسواق العالم المختلفة ، بل كانت فوق جميع هذا محسرة وكاسدة في الأسواق الشرقية الوطنية .

على أن عدم استطاعة الشرق مباراة الغرب مباراة صناعية لم يكن كل السبب فيه قلة كفاية في طرق الانتاج وجود في أساليب الصناعة ، بل ان ذلك ليشتمل على أسباب أخرى ، وعوامل ليس شأنها بقليل ، كحالة العمال العقلية وقلة رؤوس المال ، إذ أن الحياة الاقتصادية في جميع الشرقيين الأدنى والأوسط كانت قائمة على قاعدة الارتضاء بهذا الحال وابقاء القديم على قدمه . أما القواعد الاقتصادية الغربية في العقود الكبرى وفي المنافسة والمزاحة لم تكن في الواقع معروفة ، فالزراع وذو الحرفة والمتفّن والصانع جميعاً كانوا لا يجيدون مصنوعانهم زيادة على القدر الذي أخذوه عن معلمهم بحيث وهم هذا شأنهم

لا يحدون قيد فتر عن طريق النفو لآثار أسلافهم ومتقدميهم ، مرددين القول انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثامهم مقتدون . لذلك لم يكن هناك من عامل المزاجية ولا من داعى التفوق ما يحمل على الاجادة والتحسين وزيادة التعشق والابداع . وقد كادت الاجور تكون دوما لازمة مضطربا لا تعدوه ، فلم يكن من رغبة في ترقية أساليب الحياة ولا في طلب المزيد من الرضاء والرفاهية ، وكانت الصناعات جميعها نمطية مماثلة النهج لا تخرج عن حد المشابهة والمحاكاة ، بحيث كان جميع هم الصانع المتخرج أن ينسج عن منوال مخرجه دون أن يشغذ فكره في تحسين آلة أو اختراع أخرى أو ترقية أسلوب أو استنباط جديد حتى ينسئ له بذلك تسهيل عمله وتوفير اتاجه ، بل كان عوضا عن أن يجد ليحجى المراج والمكاسب مما يمهده له طريق التقدم والترقى ، منكباً على انصاع السبيل الذى اتبعه آباؤه وأجداده من قبل ، وفوق جميع هذا كان فى غالب أمره على نزوع الى تقديس هذه السبيل الموروثة تقديسا يكاد يكون دينيا اقتداء بأسلافه الذين هكذا كانت حالهم أعصرأ وقرونا ، غير مريد الحيدة عن أخذ اخذتهم ، ولا متحولا عن قفو سبيلهم لازيادة ولا نقصان ، راعيا وكاتما لأساليب صنعته أو فنه حاسبا ذلك كأنه من مقدسات الأسرار ومحرمات الاستار .

أما الفئة القليلة التى اشتملت على الأشداء الأجرئاء المقادم الذين كانوا من الهممة والنشاط بحيث لا يبالون بنسخ العادات العتيقة والأوضاع القديمة البالية ، ويتغنون الخروج مما تقيدوا به حقا وأجيالا ، فكانت قلة رؤوس المال تحول بينهم وبين مبتغاهم ، وتثنيهم عن ولوج الباب الذى يرومونه لأن رؤوس المال الفياضة، السهلة الانتقال من موضع الى آخر، المرصدة للأعمال المدرارة خيرا ، والمشروعات الوافرة ريعا ، لم تكن فى الشرق . لأن الشرق على اختلاف طبقاته ، أميرا كان أم صعلوكا ، كان لا يحسب المال وسيلة للجنى والكسب ، أو ذريعة لتقارض المنافع والتعاوض بالأرزاق ، بل كان يحسبه كنزاً يذنبى لصاحبه أن يحرص على خزنه ليوم عصيب يضطر هو فيه فيكون « هذا الدرهم الأبيض لذلك اليوم الاسود » . لهذه العلة الحرية بالاعتبار لم يبرح الشرق مستودعا للمعادن الثمينة والجواهر الكريمة منذ قدى العصور حتى اليوم . ففى الهند وحدها مقادير عظيمة من الذهب والفضة والجواهر ، بعضها مكنوز فى الصناديق الدفينة فى جوف الأرض وبعضها لآخر مما تتشرف به النساء الهنديات أقراطا ويتحلين به عقوداً ، مما تبلغ قيمته على اليقين

ملايين من الدنانير . في هذا الشأن قال كاتب حديث : « قيص لى سائحة فأخذت لى أشاهد السرايب التي فيها الخزائن والدفائن من الجواهر لأحد المهارجات ، فأرسلت ذراعي حتى المنكب في وعاء ذهبي مملوء بالاماس والالآء والزمرد واليواقيت ، ورأيت الجدران مرصعة بالكلايب الذهبية ، وعلى كل كلابين حزمة من قضبان الذهب طول كل واحد من ثلاثة الى أربعة أقدام وقطره قيراطان وبعض القيراط . ثم رأيت وعاء آخر مملوءاً ألاماسا فاحتفت منه بكلتا كفي حفنة وطفقت أنثرها من بين فرج أصابعي فكانت قطع الاماس تتناثر مؤتلفة ائتلاق فطرات السحاب وقد انعكس عليها نور الشمس . ففي الهند نحو من سبع مئة اماراة وطنية على رأس كل منها أمير ، كل أمير له سرايب على طراز هذه السرايب وكنوز على صفة هذه الكنوز زد على هذا أن كل دهقان (زمندار) وهندي وطني اذا مارام توفير شيء فلا يرومه الامعدنا كريما ، من حيث ان الهندي لا يثق بقيمة الاوراق النقدية ولا يجب التعامل بها . أما النقود المعدنية فتارة يسببها خلاخيل لزوجه وطوراً يكتزها تحت لبنة متزعزعة في الحائط أو حجر مبسوط من أحجار التنور الارضية ، أو في حفرة في موضع معين » :

على أن هذا الوصف انما هو لثراء الهند المعاصرة ، من بعد ما انقضى عليها أ كثر من قرن وهي في الحكم البريطاني ، وبعد أن انتشرت فيها الآراء والمبادئ الغربية التي كما سنرى قد سببت كثيراً من التطور في البلاد . وينبغي أن لا نغفل أن شنشنة كنز المال لم تكن مخصوصة بأهل الهند دون غيرهم بل هي شاملة لجميع الشعوب الشرقية . فيسهل علينا بعد الوقوف على هذه الحقيقة أن ندرك السبب في ذلك الافتقار الشديد الذي كان عليه المشارقة الى رؤوس المال الكافية للقيام باستثمار المشروعات الحيوية مما كان الى حد مئة سنة خلت . وزداد علما بالسبب متى ما عرفنا أيضاً أن الاضطرابات السياسية والنواهي الدينية الخائلة دون ادانة المال بالناثدة ، قد وقفت حجر عثرة في سبيل الافراد الطماحين من ذوى الهمة والنشاط الذين يتغنون استدرار القناطير المنقطرة من أموالهم بوسائل المشروعات الكبرى ذات الربح الجزيل . فلم يبق هناك من وسيلة مستطاعة لاستدرار الاموال غير المراهبة التي عمت بها البلوى فأصبحت جميع رؤوس المال الشرقية النزرة تستدر على هذه الطريقة ولكن البلية هي أن رؤوس مال كهذه ، لم تدن للقيام بالاعمال المنتحة

الرابحة والمشروعات القيمة بل للانغماس في الترف والاسترسال الى الملاذ البدنية ولسد الحاجة ، لكن مع الاسراف والتبذير فكانت مضرة قاتلة ، لا محييةً منجحة ، وزادت رؤوس المال على اختلافها اجحافاً .

هكذا كانت حياة الشرق الاقتصادية منذ قرن ومن المحقق أن هذه الحياة المتضعة ذات النظام المعتدل قد أفضت بالشرق على التوالي الى العجز وفقد القوة والحوال امام تيار المزاجية الهائل الذي اندفع به الغرب الثائر ثورته الصناعية ، فغدا طوفان البضاعات الغربية ، الآلية الصنع ، الرخيصة الاسعار ، يطمو على كل قطر من أقطار المشرق ، جازفاً ما كان أمامه من البضاعات والمصنوعات الوطنية جرفاً . وما كانت الطريقة التي لاشت بها المزاجية الغربية العظيمة ، الصناعات اليدوية الشرقية القديمة ملاشاة تامة ، كما لاشى قطن « لنكشير » صناعة النسيج اليدوية الا مثلاً يقاس عليه انهيار كل ركن من أركان الحياة الاقتصادية في الشرق . على أنه قد قام بعض الكتاب الشرقيين وقالوا ان هذه الغلبة التي قد نالتها المصنوعات الغربية في الاسواق الشرقية كانت الأسباب فيها سياسية أكثر منها اقتصادية ، ويستشهد رجال النهضة الوطنية في الهند على صدق كلامهم في هذا الشأن بالمساعي التي تبذلها حكومة الهند في سبيل توفير الوسائل وتعبيد الطرق لنفوق أقطان « لنكشير » المذكورة ، ويؤكدون القول ان هذا وليس سوى هذا من سبب لاضمحلال صناعة النسيج في بلادهم . على ان هذا القول ليس بصحيح . فان المساعي التي قامت بها السلطة البريطانية قد تكون عجزت في حصول ما قد حصل من تفوق المصنوعات البريطانية على تلك الوطنية في الهند ، ولكن هذا التفوق كان بطبيعة الحال والزمن مما لا بد منه بوجه من الوجوه . وخير دليل على انه لم يكن بد لتيار المصنوعات الغربية من التغلب انما هو الطريقة التي تلاشت بها صناعات النسيج في بعض الممالك الشرقية المستقلة مثل تركية ايران ، تلاشياً شبيهاً بذلك الذي حصل في الهند امام تيار المزاجية الغربية الجارف .

وزيد برهاناً آخر على هذا ، وهو تلك الحقيقة الراهنة بأن الشعوب الشرقية اجيالاً كان من عجيب أمرها انها طفقت تقبل كل الاقبال على شراء المنتجات والمصنوعات الغربية ، مؤثرةً اياها على تلك الوطنية المصنوعة صنعاً يدوياً متقناً . وقد حل هذا الأمر الذي لامراء فيه كثيراً من أهل الغرب على الدهش والاستغراب ، اذ كادوا لا

يفقهون كيف ان الشرقيين يقبلون على شراء الرخيص الرديء من البضاعات الغربية المصنوعة صنعاً على طراز مخصوص بالاسواق الشرقية ، يرونها أفضل من بضاعتهم الوطنية من حيث ان هذه بالحق أجود وأجل . فالجواب على هذا ان الشرقى بالجملة ليس بالخير الفنى الماهر ، وإنما هو رجل رقيق الحالة ادركته الخصاصة ، فبات يجددّ جداً ليتوفر على عيالة أهله اذ لو تواني بعض التواني فى السعى وطلب الرزق كادت تنشب به مخالب المسغبة . فهو بهذا السبب لس يقصد الاسترخاى فقط بل لا مفرّ له من ذلك سواء شاء أم أبى ، لأن رخص الأسعار هو العامل القاهر الذى يسوقه الى ذلك . ولا شك ان جودة البضاعة هى أيضاً سبب من الأسباب التى تحمل الشرقى على ايشا تلك البضاعة الجديدة . اصف الى هذا ان البضاعة الغربية من حيث الكمّ والمقدار لم تقف عند حد الحاجات والادوات الشرقية التى كان قد اعتاد الشرقى استعمالها حقباً واجيالاً بل أخذت تزداد ضروراً وأنواعاً مما لم يعرفه الشرقى من قبل . ثم ان ما هى عليه هذه الضروب والانواع الحديثة من التفتن المقترن بسهولة الاستعمال كان مما يدعو الشرقى لشرائها والارتفاق بها واستنفادها ، فصارت بطبيعة الحال تندمج فى مجموع حاجاته الاقتصادية اندماجاً لا غنى له عنه . وقد ذكرنا فى موضع تقدم كيف قد شاعت المطارز ومصاييح غاز الاستصباح فى الشرق بلداً بلداً ، فقس على ذلك سائر الحاجات التى اخضعها السنن الاقتصادية فشاعت مثل ذلك الشيوع . ان انتشار البضاعات والمصنوعات الغربية كان بلاريب علة فى تطورات جة فى كل صورة من صور الحياة الاقتصادية الشرقية فنشأت بطبيعة هذه التطورات حاجات اقتصادية حديثة لم تكن لتُعرف من قبل بته ، وتحسن مستوى الحياة تحسناً ينياً ، وترقى مقياس النيقة والنوق ترقياً كبيراً . قال عالم اميركى اقام فى الشرق غالب حياته . « ان الاطلاع على المخترعات العصرية ، وانواع الاغذية والآنية الحديثة مما لم يكن له وجود من قبل ، قد دعا الى نشوء حاجات جديدة ما لبثت ان ساوقت المنازاع النفسانية حتى رسخت واستقرت فى أفق الحياة ، فالفلاح الصينى بات لا يرتضى بعد ان يسهر ليله على مصباح زيته المستخرج من اللوبياء والفول ، بل يبنى غاز الاستصباح بديلاً . والاسيوى على الجملة لا ينفك يتطلب المصاييح الحديثة الطراز تطلباً شديداً ورغبته لا تقل فى ذلك عن رغبته فى تطلب الساعات الحديثة أيضاً . وكذلك مثلاً ، السورى الطموح الذى بات يستنكف السكنى بيت سكنه آباؤه

واجداده من قبله مسقوفاً بالروافد والطين وأصبح لا يرضيه بعد اليوم الا بسقف من الآجر الصقيل الوارد من فرنسا . وفي كل مكان ترى القوم يتطلبون الأدوات والمصنوعات الاجنبية فالاطلاع يخلق الحاجة والشرقى لم يزل يزداد اطلاعاً ومعرفة ، لذلك بات يتطلب اليوم مئات الحاجات التى ما كان اسلافه يعرفونها أو يسمعون بها »

وحيثما تقلبت فى أقطار المشرق رأيت هذا التطور والانقلاب على هذه الصفة . قال كاتب اقتصادى همدى ، وهو عدو شديد للحضارة الصناعية الغربية يندب كون ذوى الفنون والمهن باتت أعمالهم لا تجدى نفعاً فطفقوا ينقلون الى القيام على الزراعة ، وان غاز الاستصباح الوارد من باكو أو نيويورك أمسى يهدد حياة باعة الزيت الوطنى (المستخرج من طائفة من أنواع الخضروات الوطنية) ، وان المصنوعات الحديدية الرخيصة الأثمان ، الصقيلة المزخرفة من الخارج ، الواردة من أوروبه ، قد أخذت تلتشى التجارة الوطنية فى الأوانى والأوعية النحاسية التى ظلت معروفة فى البلاد منذ الحقب القدى زد على ذلك ان هناك تطوراً كبيراً فى أذواق المستهلكين على ترق متعال مستمر . فان أهل البلاد قد أفلعوا عن استعمال « الغير » (ضرب من الحلواء) الى السكر الأوروبى ، وعن الأقمشة المصنوعة من النسيج الوطنى الخشن الصفيق الى تلك الغربية الناعمة ، وان جميع الصناعات الأهلية أصبحت على شفا جرف البوار حتى قضى على كثير من أربابها ، وان القرى التى ظلت قروناً عديدة على مطرد عاداتها ومنساق عرفها انبرت تقلع عن ذلك إقلاعاً سريعاً ، وكثير تعاملها مع كل سوق من أسواق العالم ، وان السفن والقطر الحديدية التى ربطت أنحاء البلاد بعضها ببعض قد أمست فى البلاد شبه شبكة أو عروق واشجة فتدانت القرى وصارت كل قرية على صلة من الأخرى . وصفوة القول ان المزاجه الغربية التى ظهرت وانتشرت هذا الانتشار الهائل فى عهد مآقله من عهد ، انما كانت علة تطورات عظيمة تغيرت بها صورة الحياة .

ولم يكن السبب فى هذه التطورات العظيمة هو تدفق الصناعات الغربية فحسب ، بل أيضاً تدفق رؤوس المال الغربية . ذلك لأن الفرص الطيبة لاستدرار الأموال كانت عديدة فأخذت رؤوس المال الغربية تفيض فيضاناً مطبقاً كل قطر من أقطار الشرق . ولما لم يكن للشرق من وليجة عن الاستعانة برؤوس الأموال الاوروبية لمباشرة جميع الأعمال

الاقتصادية والمشروعات النافعة بالمعنى المعروف اليوم ، فقد كثرت القطر الحديدية واستخرجت المعادن ، وأحييت الزراعة على الأساليب الحديثة ، وأنشئت مشروعات أخرى تنمى الثروة . ولا مرء ان أعظم ما أنشئ هو تأسيس معامل صناعية عديدة منتشرة من أفريقية الشمالية حتى الصين ، فازداد عمران « المدن الصناعية » ازدياداً حتى بات دوى أصوات الآلات ودخان المعامل الصاعد فى الفضاء يبشران بان الشرق قد شرع يحذو حذو الغرب فى الحياة الصناعية .

أما النتائج الاجتماعية العظيمة التى حصلت من ديب روح الصناعة فى الشرق ديباً منتشراً فى كل عرق من عروقه فستتكم عليها فى الفصول التالية . لذلك نقصر - فى هذا الفصل - كلامنا على شأن التطور الاقتصادى ونتأمله . زد على ذلك ان هذا الكتاب انما جعلنا موضوعاته مقصورة على شؤون الشرقين الأدنى والأوسط بحيث لا نستطيع التوسع فيه حتى نتناول الكلام على الصين واليابان ، فينبغى للقارئ الكريم أن لا ينسى كون تطورات الشرق الأقصى وانقلاباته غالبها سبل ودهاليزلما نحن آتون على ذكره فى هذا المقام .

ان المستحدثات والمنشآت الصناعية جميعها كانت فى بادىء الأمر أشبه بمغروسات غربية صرفة فى تربة شرقية ، قائمة على رؤوس المال الغربية ، تدبر أمورها وتدير شؤونها أدمغة أوروبية ، ذلك الواقع الذى لاريب فيه . وما كان الغربى ذو رأس المال ليغرر بنفسه ولا ليجازف بماله ويضعه فى أيدي ابن الشرق الفاقد معرفة أسرار الصناعة وخفاياها الدائب على الاسراف والتبذير ، الجانح أبداً الى المراعاة والمحابة ، اللجوج فى مراد جنى الثمار قبل أوانها ، القليل الحنكة فى سبيل الاجادة والخبرة فى طرق المنافسة . بيد أنه على ممر الزمن أصبح للمشروعات الغربية التى ضربت من النجاح والفلاح بسهم تأثير شديد فى نفوس الشرقين مما حل الطماحين منهم وذوى النظر البعيد فيهم على إبراز رؤوس مالهم والمنافسة بها فى عالم الصناعة ، وقادهم الأمر الى الاطلاع على وسائل النجاح واكتناه أسرار الفلاح وقد وصفنا فى أواخر الفصل الأول من هذا الكتاب ترقى الأعمال التجارية على الطراز الحديث فى العالم الاسلامي وفى الهند عند المسلمين وغير المسلمين . فى الهند عناصر عديدة مثل الجوس والمرابين الهندويين الذين غدوا اليوم جميعاً غائضين فى لجنة الأعمال المالية

والصناعية بالمعنى الحديث . والسبب في ذلك أن هذه العناصر الوطنية انما كانت من قبل قائمة على تعاطى الربا وضروب الفائدة . فاكتسبت بذلك على توالى الأيام خبرةً في طبائع الأعمال أهلتها لولوج هذه الأبواب الحديثة . ومن غاب هذه الطوائف ظهرت الجماعات القائمة اليوم بمشروعات الأعمال الوطنية في الهند وأكبر هذه الأعمال وأعظمها معامل نسج الأقمشة في كالكتا وبومبي ، ومعامل صنع الأواني والأدوات الحديدية في بنغال . وهذه الاعمال جميعها قائمة على رؤوس مالٍ وطنية يديرها وطنيون خبراء . على أنه لا ينكر ان هذه المشروعات كانت تلقى في ابتداء سبيلها كثيراً من المشقة والعناء . ولكن مما لا ريب فيه ألبتة ان مغروسات الصناعة الغربية في تربة الشرق أخذت تتلاشى تلاًشياً سيستمر حتى يختفي ظلها الأجنبي من على وجه المشرق من حيث ان الصناعات الوطنية أخذت تتأصل وتغرق في كل تربة صالحة .

ثم نتج عن جميع المشروعات والأعمال الغربية والشرقية . ان نشأت مراكز صناعية خطيرة في مختلف الأقطار الشرقية . قال كاتب فرنسي في شأن مصر (سنة ١٩١٠) « باتت ضفتا النيل مرصعتين بخطوط مؤلفة من معامل السكر والقطن الباسقة المداخن فوق أخصاص الفلاحين وأكواخهم » . وقال السرثيودور موريسون في شأن الهند : « في مدينة بومبي قد بلغت الثورة الصناعية حد النجاز والاكتمال . بومبي مدينة صناعية حديثة ، ترى فيها حسنات الحضارة الصناعية الحديثة وسياتها ، فيها الأسواق والأزقة المزدهجة غير الجيدة الهواء كما هو الحال في كل مدينة وحاضرة أوروبية . وفيها طبقات من أهل الثراء ذوى الملايين قد زينوا شوارع المدينة بما أنشأوه وشيدوه من بيوت البر والاحسان فالزائر القادم من الأقاليم ليدهش حقاً من جميع ما يراه في بومبي من مظاهر الأبهة المنطوية على الاسراف والافراط ، ويفتتن افتتاناً بترقي المقاييس الذوقية . اما القرى التي نشأ فيها وترعرع ، والحقول الرحبة الواسعة الأرجاء التي تظلل سماءها وشرب ماءها ، فانها في نظره اليوم هي الهند الآخذة في التطور والانقلاب . بومبي بشير المستقبل الزاهر والغد الباهر » على أن قرب تناول الثروة الطبيعية وكثرة العمال ووزارة أجورهم جميع ذلك قد جعل أرباب النظر من الشرقيين على التوسع في المطامح الكبرى والآمال البعيدة ، حتى قامت طائفة منهم تأمل أن تضم رؤوس المال الغربية الى الأيدي الشرقية العاملة ، كما

أوضح هذا أحد أكبر الاقتصاديين الهنود بقوله : « الأموال الانكليزية والأيدى العاملة الهندية هما أرخص مافى العالم ». وقامت طائفة أخرى أشد مطمحاً وأبعد غرضاً وغاية تفكر فى تحويل المشرق من أقصاه الى أقصاه ، الى معمل صناعى ، فتبذد المصنوعات الغربية نبذاً ويحرم الغرب حرماناً من هذه النعم التى يجتنيها فى الأقطار الشرقية . وقد بين هذا المطمح كاتب هندوى فى مقال نشره فى احدى المجلات الهندية قال فيه : « ان الشرق ليهتد الغرب وينالونه مناوئة مرة غير هيب ولا وجل . لأن الشرقيين قد انبروا الى الميدان الصناعى ينزلون ويكافحون ، وقد قدر لآسية الجبارة منذ الآن أن تقوم بحرب تجارية عوان ، لها مشار وليس لها ختام ، تطبق أقطار المشرق قطراً قطراً . فهذه الحالة الشاقة لن تدوم مادام الغربى يركب من الهول ما يركب لكىما يظل قابضاً على أزيمة التجارة فى الأسواق الشرقية ، اذ أن الشرقى غدا لا قبل له باحتمال ذلك فانبرى لنزال الغربى وصدامه ، وهو لا ينفك يصارعه حتى يجند له فى معركة كان الشرقى من قبل يسقط فيها للأجنبي غنيمة باردة . . . زد على ذلك أن الشرق فى زحامه التجارة الغربية اليوم قد يقن كل الايقان أن الوسائل التى كانت فى يده فيما مضى كانت عقيمة لا تجدى أقل نفع ، فأقلع عن استعمال تلك الآلات والأساليب القديمة وأقام مقامها الآلات الغربية الحديثة الطراز حتى يتسنى له بذلك قهر عدوه وطعن منازله فى كبده ، لذلك اشتدت والحق يقال عزيمته وعاد لا يرتضى اليوم لنفسه ما كان يرتضيه بالأمس ، وطفق يدرس العلوم والفنون التى هى للغرب ذريعة فلاحه المادى ونجح الكبير ، وما انفك يقرن العلم بالعمل ويتمشى على نتائج استقصائه واكتناهاه تمشياً صحيحاً مطرداً ، ويفرغ الأساليب الغربية فى قالب شرقى على ما يلائم مطلبه ويوافق شأنه ، ويتفان فى ترقية هذه الأساليب ترقية حسنة . »

ثم هب كثير من أهل الاستقصاء الغربيين يؤكدون هذه اليقظة الصناعية الكبيرة فى الشرق . وفى الحين الذى كان فيه الكاتب الآنف الذكر يدبج مقاله هذا كان كاتب اقتصادى أميركى مشهور يقوم برحلة استقصاء فى ربوع الشرق ومما كتبه فى الحالة الاقتصادية قوله : « ان السبب الجوهري فى فاقة آسية وخصاصتها انما هو ناشئ عن أمرين لاثالث لهما : عجز الحكومات الشرقية عن تعليم شعوبها ، وعجز هذه الشعوب نفسها عن توسيع طاقتها لزيادة الانتاج باستعمال الآلات والأدوات الحديثة . فالجهل اذن وقلة

الآلات هما وحدهما علة افتقار آسية وانحطاطها ، كما أن العلم والآلات الحديثة هما وحدهما علة فلاح أمريكا وارتقائها أوج السعادة والعمران . ثم يسوق الكاتب كلامه مبيناً انه يجب علينا أن نرتقب نهضة آسية ارتقاباً شديداً ، فان آسية مذ باتت ترى هذه الحقائق الواقعة بعينها انطلقت تجددٌ جدياً هائلاً لثرقية شؤونها وأحوالها ، لذلك « من الواجب علينا أن نستعد أكثر فأكثر لمباراة هذه الشعوب المستيقظة ، الشديدة البأس والأيد بسبب انها تغالب الخصاصة وانها معتادة تذليل الصعاب ، وهي التي قد شمرت عن السواعد للتنزع بجميع ذرائعنا ، وأعدت العدة للاطلاع على جميع أسرار قوتنا وفلاحنا ، متاهبة للاستفادة من العراك الذي سيكون في سبيل التفوق الصناعي والاصلاح الجنسي . » وقال مستقصٍ أميركي آخر في كلامه على الشؤون الاقتصادية في آسية (سنة ١٩١٤) : « ان جميع آسية من شرقها الى غربها قد امتدت فيها عروق الصناعة الحديثة وأسباب الفلاح الصناعي الحديث . » وقال السرنيدور موريسون في شأن مستقبل الهند الاقتصادي : « ان الانقلاب الصناعي الهائل في الهند قد أمسى على قاب قوسين أو أدنى ، فقد اضمحلت العقبات التي كانت الى اليوم حائلاً دون نهج المناهج الحديثة في الصناعة العصرية ، وانتشرت وسائل النقل انتشاراً عاماً في طول البلاد وعرضها ، وبات استقراض رؤوس المال لشراء الآلات وتشييد المعامل والمصانع أمراً ميسوراً ، اذ يمكن أرباب المشروعات أن يجلبوا الأدوات والمواعين ، واستئجار المهندسين ورجال الادارة والتدبير من أهل الغرب ليقوموا بتصريح رابنة بحر الصناعة لهند المستقبل . وبات اللغة الانكليزية وسيلة سهلة للتعامل التجاري في الأقاليم الهندية بعضها مع بعض ، وبين الهند وغالب العالم الغربي . ومادامت الهند آمنة من أن تفاجأ بفتح أجنبي أو ثورة داخلية فلها من الزمن نصير على القيام بالمشروعات الكبرى على اختلافها . فجميع الأحوال المحيطة ملائمة كل الملائمة لثورة صناعية عظيمة اذا قيض لها الاكتمال وبلوغ الحدزادت في ثروة الهند كل سنة زيادة فاحشة لم يحلم بمثلها من قبل . »

على أن العامل الكبير الذي ينبغي الاستفادة منه حق الاستفادة لا كمال عدة الشرق في المواضع التي لم تزل تنقصها الخبرة والحذاقة في عالم الصناعة ، انما هو كثرة العمال ونزارة اجورهم ، الأمر الذي يبدو لأهل الاستقصاء من الغربيين بالغاً منتهى الغرابة . فلنعتبر

هذا في شأن مصر والهند على سبيل المثال الذي يصح أن تقاس عليه في سائر أقطار الشرقين الأدنى والوسط. كتب الاقتصادي الانكليزي ه. ن برايسفورد سنة ١٩٠٨ في أمر مصر يقول: « ولم يكن اذ ذاك قانون للمعامل والعمال في مصر، من حيث ان في البلاد معامل خليج القطن تستخدم العملة مياومة ليقوموا باعداد القطن للشحن والاصدار، ويستغرق هذا العمل أربعة الى خمسة أشهر كل سنة. وكانت أجور هؤلاء العمال نزره تراوح بين ٧٢ و ١٠٠ بنسات للبالغ و ٦٠ بنسات للحدث، وكان البالغون والأحداث يشتغلون في بعض الاحايين اثنتي عشرة ساعة وفي الغالب خمس عشرة ساعة، وعند اختلاف المعتاد ست عشرة الى ثمان عشرة ساعة في اليوم. وفي بعض فصول السنة كان العمال حتى الاحداث يشتغلون اثنتي عشرة ساعة في المساء فضلاً عن النهار». والحالة في الهند شبيهة بهذه الحالة في مصر. فان أول تحقيق في شؤون المعامل الصناعية في الهند قد قامت به لجنة من لجان العمال الصناعية سنة ١٩٠٧ واليك بعض الحقائق التي اشتمل عليها تقرير هذه اللجنة: ان ساعات العمل في معامل القطن في بومبي هي من ثلاث عشرة ساعة الى أربع عشرة ساعة على اطراد وانتظام. وفي معامل القنب في كلكتا يشتغل بعض العمال غالباً خمس عشرة ساعة وفي معامل القطن يجب على العمال أن يشتغلوا سبع عشرة ساعة الى ثمان عشرة ساعة في اليوم. وفي معامل الارز والمطاحن يشتغل العمال عشرين الى اثنتين وعشرين ساعة، وفي المطابع يشتغل العمال عند اختلاف المعتاد اثنتين وعشرين ساعة سبعة أيام متوالية. أما الاجور فكانت للمعامل البالغ الذي يشتغل ثلاث عشرة ساعة الى خمس عشرة ساعة في اليوم ١٥ - ٢٠ روبية في الشهر. وكان العمال الأحداث كثيرى العدد لم تجاوز اسنانهم السادسة والسابعة ويشتغلون في أحيان عديدة ثمان ساعات في اليوم. وكانت نتيجة هذا التقرير ان حكومة الهند سنت قانوناً حسنت به حالة العمال بعض التحسين ولا سيما حالة النساء والأحداث. بيد انه في سنة ١٩١٤ كتب الاقتصادي الفرنسي «البرت ماتان» بعد استقصاء مدقق قام به يقول: ان حالة عمال المعامل لم تتحسن تحسناً مذكوراً اذ فقد القانون الذي وضعته الحكومة مفعوله وما روعي مراعاة صحيحة، فعاد عدد ساعات العمل فزاد والاجور فنزرت، وبات بالعمال الرجال في بومبي لا يتناولون أكثر من ١٠ الى ٢٠ سنتاً في اليوم ولم يجاوز الحد

الاعلى لاجورهم ٣٠ سنتاً والحد الاعلى لاجور النساء والاحداث لم يجاوز ١٠ سنتات في اليوم .

وقد ينجيل الى المفكر المتدبر لأول وهلة هذا الحد الذي تبلغه نزاره الاجور ، والمتأمل هذا العدد الكبير لساعات العمل ، أن الشرق لو يسرله رؤوس المال الكافية والآلات والأدوات الحديثة لاستطاع ليس منافسة المصنوعات والمنتجات الغربية في الاسواق الشرقية منافسة الاغراق لحسب ، بل ربما استطاع غزو الاسواق الغربية في مواطنها . وقد حل هذا الأمر كثيراً من كتاب الغرب على الخشبية والحذر ، اذ منذ ثلاثة ارباع القرن (سنة ١٨٥٨) تنبأ غو بينو بان آسية ستفتح أوروبا بفتحاً اقتصادياً هائلاً . ثم قام من بعده كثير من الاقتصاديين مثل برايسفورد وغيره يندرون العالم الغربي بسوء العقبى من جراء تسرب رؤوس المال الغربية الى الاقطار الشرقية حيث جو الاستثمار والعمل جذاب مستهو للنفوس ، على ان هذا الأمر من حيث علاقته بالشرق الأدنى والوسط لم يتحقق عملياً بعد ولا يوجد ما يدل على ان خبره على قدر خبره . فالصين قد يكون مكتوباً لها في اللوح المسطور ان تقوم بمفاجأة الغرب بمفاجأة كريهة يقام لها حقاً ويقعد . وأما العالم الاسلامي والهند فلم تبلغ الصناعة الحديثة فيهما من الترقى مبلغاً رفيع المستوى ظهر فيه الخندق الصحيح والحزامة والمثابرة الى حد استطاع به اشلال صناعة أوروبا وأمريكا . ففي الهند مثلاً ، البلاد الزاخرة بالسكان المحاويج ، لم تبرح المعامل ينقصها العمال الخبراء الخدق ممن يتعشقون الصنعة و يبحثون عن اسرار الآلة . قال البرت ماتان : « قد يظن بعض القوم متى ما رأوا ساعات العمل عديدة طويلة والاجور نزره ان الصناعة الهندية ستقلب عما قريب منافسة شديدة ومنازعة قاهرة للصناعة الغربية ، فالامر في الواقع بخلاف ما يظنون ، والسبب الحائل دون صدق وهمهم هذا انما هو رداء النوع . فان العمال الذين يتناولون نزر الاجور ويعيشون العيش الشظف ويأكلون الطعام القشف يغدون بسبب ذلك ضعاف المنة قلال الهمة ، فثلاثة منهم يكادون يعجزون عن القيام بعمل يقوم به أوروبي واحد . زد على هذا ان العمال الهنود لا تنقصهم قوة العزم والحزم لحسب بل يعوزهم الخندق ، وشدة الاعتناء ، وحسن القيام والتوفر على العمل ، وتعشق الصنعة . . . وان الهندي ليؤثر القيام بأي عمل آخر على ان يكون عاملاً داخل جدران المعمل . فلهذا ترى الذين يؤمونه

المعامل هم من حثالة الطبقة العاملة ، ولا يدخلون في حظيرة المعمل الا بعد ان تسد في وجوههم سُبُل الرزق وتغلق عليهم أبوابه ولا تبقى الا تلك السبيل فيضطرون اذ ذلك الى اللجوء الى المعمل ، ومتى ما فتح له باب الرزق في مطلب أقرب متناولاً وأدرّ خيراً ونفعاً ، برح المعمل الى حيث ابتغى . لذلك لا يتيسر للمعامل الاعتماد على قدر من العمال منتظم ترقى به الحال وتتوفى . وقد أخذ بعض الكتاب يتساءلون أزيادة الأجور يستطيع ياترى تحسين الحال ؟ فيجيب كثير من المستخدمين . كلا . فان العمال متى ما رأوا حالهم قد تحسنت قليلا اسرعوا الى مزاياة المعامل اما الى أجل قصير حتى ينفد موفر دراهمهم وتنضب جيوبهم فيعودون الى المعمل ويكررون شأنهم الأول ، واما الى أجل لا رجوع بعده اذا وفقوا الى عمل أفضل وأفيد . وقد كتب اقتصادى هندى يؤيد هذه الحقيقة فقال : « ان من أكبر الآفات والنقائص التى تعتور انشاء المعامل الصناعية الكبرى فى الهند هو وفاة الايدى العاملة وكفائتها للقيام بالعمل فالعمل لفاء نزر الاجور اذا كان خالياً من آثار الثبات والحذق والتفنن والمهارة هو مخسر لا مريح بدون ريب . فالعامل الهدى على الغالب جاهل لم يتناوله النهذيب ولا الثقافة ، فليس هو مكنتها لأسرار العمل ولا على صلة قريبة بمستخدمه . وعمال المدن دأبهم التنقل من عمل الى آخر ، وهم على ميلهم الى تعاطى المهن والحرف والفنون قليلو الثبات والمثابرة على العمل » (من مقال ليوسف على سنة ١٩٠٧)

فلهذا السبب ترى الصناعية فى الهند على نموها هذا النمو الفائق لم تكن عند جميع الآمال التى أملها أرباب النظر لها . فقد ورد فى «الكتاب السنوى» الرسمى عبارة صريحة: « ان الهند بالاختصار انما هى بلاد غنية بالمواد الخام كثيره الاستعداد للحياة الصناعية ولكن تنقصها المثابرة وحسن القيام على العمل . » ويرى بعض أهل الاستقصاء أن مستقبل الهند الصناعى لن يكون ذلك المستقبل الباهر الزاهر . فقد كتب فى المدة الأخيرة عالم انكليزى خبير فى شؤون الهند يقول (سنة ١٩٢٠) : « قد كان ممكناً منذ عدة سنوات أن الهند تستطيع بتشرىها العلوم الغربية واقتباسها وسائل المهارة الفنية فى أجل قريب أن تمارس أساليب الصناعة الحديثة على ما يلائم شؤونها وأحوالها فترتقى ذروة عالية من التقدم الاقتصادى . ولم يبرح بعضهم الى الآن ينذر العالم الغربى بالرؤيا الشرقية وهى نهضة الهند والصين نهضة جليلة قائمة على

أفضل التنظيم وأجود الندير ، مستعينة بالموارد الكبرى للثروة الطبيعية و باجور العمال
الزرة ، بحيث اذا ماتم هذا استطاعت آسية منازعة الغرب و خلعت عليه أسهل الفقر بعد
أن جر مطارف الأثراء الفاحش . ان كاتب هذه السطور لا يحسب هذه الرؤيا سوى حديث
خرافة . فالخطر الأسيوي انما يراه من نوع آخر ليست هذه صفته ، فهو يرى اتساعاً
مزداداً في شقة البون من حيث لا يرى ارتقاء مفضياً الى التساوى في أفق واحد ، و يعتقد
أنه كلما خطت الهند خطوة في سبيل الترقى والكفاية في عالم الآلة ، خطا الغرب خطوتين
ومتى ما شرعت الهند تستعمل الدراجات والسيارات (دون أن تصنعهما) يكون الغرب
قد أنجز اصطناع الطائرة والمنطاد وأبلغ فن الطيران حد الكمال وقس على هذا . ان
الحرب العامة قد عجلت تعجيلاً كبيراً في ازدياد الاختراعات الجهازية ، كما نعلم هذا حق
العلم ، فاجتاز الغرب بذلك مرحلة طويلة ، بينما الهند لم تبرح مكانها منذ الحرب دون أن
تعرج في سلم هذا الارتقاء حتى كأنها اليوم ، بالقياس الى أوروبا و في الأجيال الوسطى ،
بلاد لم تنشب صناعاتها وفنونها يدوية محضة . زد على هذا أن الهند لم تستعمل بعد أبسط
القوات الآلية وأحقرها في أعمالها الزراعية . نعم ان عصر العزلة قد انقضى على كل حال ،
ولكن شقة المستوى بين الشرق والغرب لم تزل بعيدة ، فما هو مصير أهل الهند الذين يبلغ
عددهم أكثر من ثلاثمائة مليون ياترى ؟ اننا في الشرق بازاء خطر خطير الا وهو استفحال
الآفات الصناعية التجارية مما يقف عنده الباحث مدهوشاً ، ان أهل الهند باتوا حقاً على
طريق التهلكة بسبب هذا الخطر الكبير ، والشرق بالجملة يصير في هذا العصر
مزدحماً مختلطاً يستغرق فيه الصحيح والفاسد (كتاب « الهند في سنة ١٩١٧ و ١٩١٨ »)
وسواء أأصاب هذا الكاتب المتشائم أم أخطأ ، فما لا ريب فيه أن ليس الهند وحدها
بل الشرق كله هو في دور التطور الهائل والانقلاب العظيم وان هذا الدور حقاً لعصيب ضنك
وقد استوفينا الكلام الى الآن على شؤون العمال الصناعيين من الطبقات المدفوعة في المدن
والحواضر ، غير أن الطبقات الاجتماعية الأخرى قد تأثرت بعامل هذا التطور عينه ،
وكان فيها من الانقلاب والتبدل مثلما كان في غيرها ، ذلك بسنة المجتمع التي لا مدفع
لانتشار عوامها . فالنجار وأهل الحرف القديمة والمهن العتيقة الطراز راحوا لاحول لهم ولا
هوة عند ظهور الأساليب المحدثه في التجارة والصناعة ، ولكن غدا سواد الفلاحين أحسن

حالا وأفضل شأنًا . ثم لم يكن هذا التطور قاصراً على اكتناه اسرار العمل والوقوف على طرقه الحديثة المؤدية الى الاتقان والتجويد ، بل هو فى الواقع أكثر من ذلك : هو انقلاب محض من الأصل فى وجهة النظر واعتبار صور الحياة وفهم ماهيتها وإدراك حقيقة شئونها وأسرارها فى كل أفق من أفاقها . كان من عادة التاجر فيما مضى أن يجلس محتبياً فى حانوته بين طائفة قليلة من البضاعة المبعثرة حواليه ، متكاسلاً خاملاً ، يفنى الوقت فى مساومة عميله مساومة فارغة ، سيان عنده راجت السوق أم بارت . وكان المتفنن الصنّاع اليد يشتغل منفرداً عدداً من الساعات على قدر مآتمه طاقته المتوانية ثم يترك عمله ويذهب الى حيث شاء . وكان الفلاح ينهض مع الفجر لمباشرة عمله فاذا ماجأت الظهيرة استناب هو وحيواناته الى قيلولاة طويلة الى أن يهب نسيم العصر فيستيقظ ويتمطى ثم يستأنف شغله متراخيا بطيئاً .

لذلك ليس من الغريب فى شىء أن يبدوا لأهل الشرق فى بادىء الأمر جميع ما هو معروف فى حياتنا الاقتصادية من النظام والسرعة والرقابة والانكماش فى العمل أموراً مستكرهه ممقوته ، لا قبل لهم باحتمالها كلها معاً والمثابرة عليها ، لأن أمر اكتساب هذه الصفات الجوهرية فى النفس ورعايتها والتمشى عليها فى مجال العمل لا يتم الا على بطاء وتؤدة ، يرافق ذلك سائق الضرورة والقهر الناجم عن طبيعة الانقلاب . زد على ذلك ان المشاركة ليتألمون حقاً شديد التألم من مزاحمة الأجانب لهم ، وهؤلاء لم يبرحوا منتشرين بين ظهرانيهم بعدة أفضل وذخيرة أوفر وحسكة أشد فى الميدان الاقتصادى الهائل . وقد وصف السروليم رمزى وصفاً أجاد فيه كل الاجادة ، كيف طفق الترك فى آسية الصغرى على اختلاف طبقاتهم من السادة والكبراء حتى الفلاحين ومن دونهم ، يتدلون وينحطون طيلة الحسين سنة الأخيرة إزاء الزحام الاقتصادى الذى أخذوا يعانونه ليس من الاوروبيين خاصة ، بل من قبل العناصر الوطنية النصرانية كالأرمن واليونان الذين قد تشربوا قدراً من حديث الأصول والطرق والأساليب فى فن التجارة الغربية . فى الأيام القديمة ، قال السروليم رمزى ، لم يكن فى آسية الصغرى « شىء من التقدم الاقتصادى والترقى التجارى بل كانت شؤون الأعمال على اختلاف ضروبها منحطة جارية اطراداً مجراها القديم المعروف منذ الحقب المتطاولة . على انه لمن المعلوم أن حياة اقتصادية على هذه الصفة لم

تكن لتقف في وجه النظام التجاري الغربي البالغ من الترقى مبلغاً عظيماً ، أو تعارض معارضة فعلية تيار الحضارة الغربية الحديثة ، ولكن تلك الحياة وهي على نمطها القديم ما كانت بشاقّة على أهل البلاد ولا بالثقيلة كما انه لم يكن أمر الأثراء وادخار المال مستطاعاً في عهد مثل ذلك العهد ، ولا كانت الفرص الطيبة سانحة لمثل هذا وكان من المستحيل على الفرد أن يستميل اليه عدداً كبيراً من الناس ويستخدمهم في عمله ثم يأخذ بالمثابرة على هذا العمل فيوسع نطاقه على التوالى حتى يزداد هو بذلك نجاحاً وفلاحاً ، فيجنى من وراء ذلك ثماراً شهية . وإنما كان هناك عدد من أرباب الأعمال الفردية يشتغلون في حيز ضيق لا يجدى صاحبه كبير نفع « (١٩١٨) . ثم يسوق السر وليم رمزى كلامه واصفاً كيف قد تمزق ذلك النظام الاقتصادي القديم المحتل كل ممزق . فتبدلت الحال غير الحال وتغير الشأن غير الشأن ، وأخذت تظهر الأساليب التجارية الحديثة المنظمة على الطرز الحديثة ، فشرع العنصر التركي يرقى مستواه ويتقدم في مضمار التزاحم متفوقاً على من سواه تفوقاً ينياً .

ولأجل الوقوف التام على كيفية ما عاتته الطبقات المشتغلة بالزراعة ، من فلاحين ومزارعين وملاكين وأصحاب أرضين من مر الشدائد من جراء هذا التطور الاقتصادي ، عليك بالاطلاع على تاريخ الهند للعهد الحديث المشتمل على أحسن بيان في هذا الباب . قال الكاتب الفرنسي شلى ، وهو من العلماء الثقات في الشؤون الهندية : « لم تبرح أقسام كبيرة من أهل الطبقات المشتغلة بالزراعة طوال الخمسة العقود الأخيرة تسلب منها أراضيها أو تضطر هي قهراً الى أن تزارع في أرض غيرها على خصاصة وضيق ذات يد ثم بانحطاط الطبقات الزراعية هذا الانحطاط نشأت طبقات جديدة أخذت تستولى على الأرضين . . . ان الفلاحين المزارعين والملاك لسواء حقاً في المصيبة والشقاء ، لأنهم قصرُوا عن مجاراة التقدم الزراعى على ممر الزمن بل قعدوا عن ذلك وانقلبوا مكاسيل مضايح للمال ، هذا من حيث ان الفلاح المزارع ، الغريق في بحر من التقاليد الحية منذ أقدم الأجيال ، هو جاهل لا يحسن التدبير ، ولا يعرف الثبات ولا ينظر في العواقب . واعتبر من وجهة أخرى ان الحال الاقتصادية في الهند البريطانية كانت في الواقع علة في نشوء طبقة من الممولين الذين طفقوا يبتغون مستثمراً لأموالهم ، فذشأ العراك يشتد بينهم وبين أصحاب الأرضين القدماء ، وكان

هذا متوقفاً ونتيجته لا بد منها . فجعلت الثروة تسرب أكثر فأكثر الى أهل الطبقة الذين هم أذكي وأنبه ، والأرضين تستولى عليها أيدي سادة جدد ، فكان ذلك على الجلمة أشبه بسهم أصاب أهل الطبقات الزراعية في أشرف مقاتلهم ، فعدا جانب كبير منهم حرثين وعمالاً مأجورين ، من بعد ما كانوا سادة الأرضين وأساطين المزارعين (١٩١٠) .

وقد وصف الاقتصادى الهندى « موكرجى » كيف تشتت حال القرية الهندية وتفرق ساكنها في البلاد فقال : « آراء وأفكار اقتصادية جديدة شرعت تستولى على عقول القرويين وتبلغ من نفوسهم مبلغا كبيرا ، فطفقوا يتركون صناعاتهم وأعمالهم ويضربون في البلاد ، اما بسبب المزاجية الأجنبية القائلة ، واما بغير هذا السبب فيضربون أشغالهم من تلقاء أنفسهم ويطوفون الجهات . فالبراهمة يهبطون المدن ليطلبوا أسباب معاشهم من وراء الأعمال في الحكومة أو الاحتراف الحرّ ، وأهل الطبقات الوسطى يرحون قراهم ويتشتون في طول البلاد وعرضها لتحصيل القوت وطروق باب الرزق على ما يكفي سد الخلة ، والفلاحون يزابلون أراضيهم التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم فتتألف منهم ، وهم عطل عن العمل ، طبقة من العمال الزراعيين الذين لأرض لهم . فأصبحت القرى وقد امتصت دماؤها وجفت عروقها خربةً منحطةً الى العدم . على ان هذه الهجرة من القرى الى المدن ليست أهميتها مقصورة على كونها هي السبب في حصول ثورة اجتماعية في العادات والأفكار ، بل ان نتائج هذه الهجرة الاقتصادية لاخطر وأجل مما يتصور المتصور لأول وهلة ، فقد جرّت أهل الطبقات الوسطى من أهل بلادنا الى انتحال الخدمة حتى صاروا لها عبداناً أقناناً ، وقتلت استقلال الفلاح المزارع قتلا ذريعاً حتى سلبته جميع حوله وقوته ، وفوق جميع هذا فانها قد عرقلت الأسباب والوسائل التي على يدها تجتني أوقاتنا وهددتها تهديداً عظيماً . وعلى الجلمة فالهجرة هي مشحونة بأشد المخاطر القاضية على مهنا وحرثنا ولا سيما الزراعة - وهي صناعتنا الوطنية » .

على ان هناك بعض الدلائل الحسنة ، في عالم الزراعة الهندية على الأقل ، تدل على ان دور الانتقال والتطور أخذت حاله تستقر ، ومفعوله يصطبغ بالصبغة الوطنية ، وان الحالة على الجلمة متحسنة عن قريب ومتجهة الى الخير والصلاح . فقد تعاضدت الحكومة البريطانية والأمرء الوطنيون على نشر الأساليب والطرق الفنية الحديثة للزراعة ، ومنذ

شرعوا بذلك أخذ يظهر ان المزارع الهندي هو أكثر استعداداً من سواء من أهل الحرف والفنون والصناعات ، للأخذ والاقْتباس . ثم بدأت طبقة جديدة من المزارعين تنشأ على هذا الطراز الحديث وتنمو ، وهي أكثر حذقاً وأشد قدرة على ماشاة الزمن والاستفادة الصحيحة من المستحدثات الفنية . وخير مثال على هذا قيام الجمعيات الزراعية التعاونية التي شرعت الحكومة البريطانية في انشائها وترقيتها منذ سنة ١٩٠٤ ، وقد أفلحت هذه الجمعيات كبيراً وبلغ عددها في الهند سنة ١٩١٥ نحو ١٧٦٠٠٠ جمعية مجموع أعداد أعضائها ٨٢٥٦٠٠٠ عضو وبلغ مالديها من مجموع رؤوس المال ٣٠٦٠٠٠٠٠٠ ريال . ومن دأب هذه الجمعيات أن تقرض أرباب الأعمال الزراعية قروضاً مالية يستعينون بها على شراء الحيوانات والاعلاف والحبوب والأسمدة وحفر الآبار وابتعاغ المواعين والأدوات الزراعية العربية ، وأن تمدد المحتاجين وأهل العوز للقيام بأسباب معاشهم عند الأزمة . ومن أعمال هذه الجمعيات التي في المقاطعات والرساتيق مكافئتها وباء الرباح المكافئة ، فهبط من جراء ذلك معدل الفائدة الذي كان ٢٠ — ٧٥ بالمائة الى ٩ — ١٨ بالمائة . وانه وان كان لم يزل في البلاد مقدار من الضيق فالدلائل الظاهرة تدل على مستقبل حسن وافر النعمة والخير .

بيد أن هذا المستقبل الزراعي الباهر لم يزل بعيداً وأبعد منه المستقبل الصناعي ، بينما الشرق لهذا العهد يتطور تطوراً ملؤه الألم والشدة ، والأمر الغريب في كل هذا ان كثيرين من الشرقيين يقولون ان السبب في شقائهم وبلائهم ليس منشؤه التطور الاقتصادي الحادث بل الحكم السياسي الآتي من قبل الحكومات الأوروبية مقترناً بالاستثمار الاقتصادي القائم على رؤوس المال الغربية . أما النتيجة التي نتج عن جميع هذا فاضطراب وفاق وهيجان ، وقيام وقعود ، وارغاء وازباد جميع ذلك للتحرر من ربة الحكم الغربي اقتصادياً وسياسياً . وقد سبق لنا فيينا في أواخر الفصل الثاني من هذا الكتاب شأن الحركة المتمشية اليوم في الأمم والشعوب الاسلامية ، ونعني بها حركة الجامعة الاسلامية الاقتصادية . إذ قد نشأت حركة شبيهة بهذه في الهندويين في الهند وعرفت بالحركة « السوادشية »^(١) ويقول اتباع هذه الحركة والقائمون بها ان العلل

(١) « سوادشي » كلمة بنغالية معناها الاصلى المنتجات الوطنية ومدلولها الشائع اليوم مقاطعة البضاعات الأجنبية . وأول ما ظهرت حركة المقاطعة في أقاليم البنغال . « المغرب »

الاقتصادية في الهند سببها استنزاف بريطانية العظمى وغيرها من الحكومات الغربية لثروة الهند استنزافاً لا يبق ولا يذر . وغايتهم التحريض على مقاطعة البضائع البريطانية مقاطعة ترغم بريطانية بالتالى على أن تمنح الهند حكومة ذاتية ، ومتى ماتم ذلك وضعت هذه الحكومة الهندية الوطنية الضرائب الحامية للاقتصادات الهندية ، ولاشت رؤوس المال البريطانية ، وتبدلت بالموظفين البريطانيين الذين يتناولون فاحش المرتبات موظفين وطنيين ، فاستطاعت حينئذ حفظ ثروة الهند للهند

ولو تدبرنا الحجاج والبراهين التي يدلى بها أرباب الحركة السوادشية لرأيناها ليست بالصحيحة كل الصحة بل الأولى أن تبنى عليها أسباب علل الهند وأمراضها الاقتصادية ، مما هو في الواقع ناشئ عن طبائع السير الاقتصادي العام الخاضع لعوامل الدور وسنة الانقلاب أكثر مما هو ناشئ عن النقائص والاضرار التي أتى بها الحكم البريطاني . أجل ، ان الحكم البريطاني ورأس المال البريطاني ليكلفان نفقة باهظة ، غير أن ماها عليه من الجدارة في حفظ الأمن والنظام وفي الترقية يعد موازياً لتلك النفقة التي يقتضيها الحكم الوطني لا جدال في هذا . قال السرتيودور موريسون : « ان ما تناهه الهند من المنافع والفوائد على يد الأسطول البريطاني ورأس المال البريطاني يعدل ما يتناوله الموظفون البريطانيون من مرتبات العجز والمكافئات المالية . . . ان الهند تتناول فوائد مادية من علاقتها وارتباطها بالامبراطورية البريطانية . وما هي تلك الفوائد الاقتصادية التي تناها الهند موازية لما تتكبده من النفقة المالية التي تؤذيها الى الأجانب مرتبات ومكافئات ؟ فالجواب على هذا هو أن الهند تناول عدداً وأجهزة للصناعة الحديثة ، وادارة منعطفة على الترقية الاقتصادية بضمن ونفقة أقل مما لو كانت الهند هي المباشرة لذلك بنفسها لنفسها » . زد على هذا أن المقارنة بين شأن الهند واليابان في نفقة الحماية والدفاع ومعدل فوائد رؤوس المال العامة والخاصة كافل لنا جلاء الحقيقة في حال الهند جلاء مانعاً للشك .

وهناك من الهنود من يعترفون بفساد الحجاج والبراهين السوادشية . فقد قال أحد المفندين (سنة ١٩٠٨) : « ان ما يدعونه استنزافاً اقتصادياً قول فارغ من المعنى ، لأن منشأ أكثر الشقاء في هذه السنوات الأخيرة هو غلاء المعيشة واستحكام حلقات الضيق وذلك لعمري طامة مطبقة العالم من المشرق الى المغرب » . ثم يأتي الكاتب على وصف

الحالة الاقتصادية في اليابان للبرهنة على هذه الحقيقة . وقال « رمزي مكدونلد » صديق الهنود الجيم ، وزعيم العمال في بريطانيا (سنة ١٩٢٠) : « هناك أمر جلي لامراء فيه ، وهو أن تعرفه الضرائب لن يكون من شأنها إيجاد الوسيلة لتجديد الصناعات اليدوية القديمة الأصل في الهند ، ولا المساعدة على احياء الصناعات القروية ، إذ أن المعامل والادوات الصناعية الحديثة بوسعها أن تتغلب على جميع الصناعات القديمة ، بحيث يحدث في الهند مثمما حدث في لنكشير وبرمنهم من قبل » .

وأبين مما تقدم هو الانتقاد الذي نشره الكاتب الهندوى « براماناث بوز » إذ قال ان الاستنزاف يسوق الهند الى درك الخراب سوقاً ، ولكن هل يجدى الهند مع هذا برنامج «الحكم الوطنى» (هومرول) الذى يتتبعه سواد السوادشين جداء كبيراً ويرثها من علها وأسقامها الاقتصادية ؟ ليعلم من يريد العلم انه متى ماتم أمر الحكم الوطنى واستتب حاله فعل هؤلاء القوم ما يلى : (١) يتبدلون الهنود البريطانيين فى الحكومة . (٢) ويضعون الضرائب الحامية للنتجات الهندية . (٣) ويحملون الحكومة على أن تقوم بتنشيط الصناعات الهندية والاخذ بنصرتها وشد أزرها . (٤) وأن تشرع فى نشر التعليم الفنى فى البلاد . وعلى تسليم ان كان جميع هذا فماذا عساه أن يحسن فى الحالة العامة شيئاً يذكر . أما التبدل بالموظفين البريطانيين واقامة موظفين من البلاد فلن يكون السبب فى تناقص الاستنزاف وتقلصه على مقدار ما يتصور القوم أشياع الحكم الوطنى وأنصاره ، إذ أن الموظفين الهنود أرباب المناصب العالية والخطط السنوية قد اعتادوا أساليب المعيشة ومرافقها الحديثة على المستوى الاوروبى والطراز الغربى ، فاذا حلوا محل البريطانيين لزم لهم من الذفقة ما لا يقل عن النفقة التى تؤدى الى البريطانيين اليوم ، ثم يأخذ إخذهم غيرهم ويقلدهم سواهم ، فيزداد تطلب المواد والبضاعات الغربية على نسبة ما يفسو وينتشر فى أفق المجتمع من العادات الجديدة بطبيعة الحال . وعلى هذا الاعتبار فالاستثمار التجارى الذى يقوم به الاجانب لا يبقى على قدره الحالى بل يزداد ويستفحل . وأما الضرائب الحامية فسيكون من شأنها اجتذاب رؤوس المال الاوروية الى الهند ، فيتسنى للاجانب بهذه الذريعة الاستيلاء على المشروعات والاعمال ويلتهمون الارباح دون أن يكون للهند نصيب فيها . واعتبر من وجهة أخرى أن الهند لم تظهر الى اليوم من الجدارة لترقية

الصناعات الوطنية الاقلية . نعم لا ينكر أن جانباً من أهل البلاد ليستطيعون ، حتى في مثل هذا العهد المعروف بوزارة الاجور ، أن يستثمروا الموارد ويؤثروا الثروات ولكنهم بالاضافة الى سائر قطين البلاد هم أقل من عشر معشار الملايين الناشئة بهم مخالب المجاعة اليوم . وفوق جميع هذا فان الانغماس في بحر الصناعة سيجر على البلاد بلايا وشروراً اجتماعية قتالة . وأما قيام الحكومة بتنشيط الصناعات الوطنية فسيكون أكثر اجتذاباً لرؤوس المال الاجنبية من الضرائب الحامية مما يفضي الى النتائج التي ذكرناها . وأما نشر التعليم الفنى فم شروع وايم الحق ذو شأن خطير ، ولكن جاء متأخراً بعد فوات الميقات ، فان الغربيين واليابانيين قد سبقونا أشواطاً ومراحل شاسعة في عالم الصناعة بحيث اتناو رمنا الآن اللحاق بهم فادراكهم فزاحتهم بالناكب شق عايننا ذلك أولاً ثم ازداد الامر صعوبة على التوالي بسبب شقة البون بيننا وبينهم .

ثم يسوق المستر بوز الكلام منتقداً جميع نظام التعليم الغربي الذي اتبع في الهند ، ومبيناً ان ليس التعليم العالي ولا الابتدائي هو الدواء الناجح في سقم البلاد . أما العالي فقد أفضى الى النجح المادى ولكن على نطاق ضيق لم يتناول أكثر من جانب من جمهور الامة فيهم عدة آلاف من المحامين والاطباء وأصحاب الوظائف في الحكومة . ولكن لما كانت أعمال هؤلاء القوم وصناعاتهم وفنونهم عالية بطبيعة التعاون العمراني على ما سواها ، وليست على جلتها مما يحسب من موارد الانتاج الكبيرة في ترقى البلاد ، فقد ظلت قاصرة عن أن تكون عاملاً حيويًا كبيراً في عداد العوامل التي يقوم عليها ترقى الهند بصفة عامة لذلك جاءت النتيجة على ضد المراد ، لأنه لما كان هؤلاء القوم يتشبهون بالغربيين ذوقاً ورغبة في اقتناء البضاعات الأجنبية والمرافق الغربية التي يكثر النزوع اليها وتعم بها البلوى على مقدار ازدياد التبسط في رفاهية العيش وانتشار الرخاء ، فقد كان ذلك كله سبباً في ازدياد الاستنزاف لافي تناقصه وفي افتقار البلاد لافي ارتياشها . وأما التعليم الأولى فلم يكن منه تثقيف العقول لسواد الناس ولا تحسين مرفق من مرافق الحياة الزراعية ، بل أفقد أهل الفلح والحراثة ما كان فيهم من حزم وكفاية وجدّ ، كما أنه أشبع نفوس أهل الطبقات العاملة المتدلية الذين يتألف منهم جانب كبير من الأمة ، صفات تبعثهم على التهمة والتذمر ومقت ما هم عليه من راث آباءهم وأجدادهم المشتمل على طراز المعيشة والصنعة والحرفة ،

ويجعلهم ينزعون الى تطلب المزيد من كل جديد ، ويشتدون سعياً وراء الزخارف والاعراض ، وينصرفون الى الحرف والمهن التى هى بطبيعتها عالة على سواها من الصناعات والأعمال البشرية . فانحطت بسبب هؤلاء الصناعات الوطنية مباشرة وغير مباشرة ، وكانوا هم بلا ريب علة استفحال الضيق الاقتصادى الذى عمهم وسائر الأمة معهم . ومن البلية أن ما كان يبتغيه هؤلاء فى أول الأمر هو زيادة الأوقات والأغذية - ولكن الهند الجديدة وحكومتها قد أجابتهم الى مبتغاهم بتجهيزهم بهذا الضرب من غذاء «التعليم» الذى لم يكن له تأثير ولا شأن فى توفير الوسائل التى يستطيع بها التماس العيش وطلب أسباب الرزق ، بل غرس فى نفوسهم صفات وعاداتٍ فسد بها مزاجهم وكانت السبب فى انقلابهم شعباً كسولاً ، تستنزفه رؤوس المال الاجنبية وتمتص دماء عروقه الممتصات الغربية عرقاً فعرقاً . وبهذا الاعتبار لم تكن الأسباب السياسية والاقتصادية هى وحدها الفاعلة فى ملاشاة الصناعات الوطنية لولم يقترن بها التطور فى العادات والأذواق ، ذلك التطور الذى نشأ عن البيئة الغربية التى كان من أهم عواملها ومؤثراتها «التعليم الاوربى على هذه الصفة التى أرادها الانكليز» .

وصفوة أقوال المستر بوز وآرائه أن ليس فى برنامج الحكم الوطنى من سبيل من سبل الإصلاح المنشود والترقية المبتغاة ما يكفل حقاً شفاء الهند من عللها وبراءها من أوجاعها ، « بل ان الهدد ستزداد تورطاً فى أشراك المدنية الغربية وأحاييلها الخداعة ، دون أن تاتى من النفع والفائدة ما يعادل معاناتها المشقة والنصب ، وسيشتد خناق الغرب على عنق الهند اشتداداً يضيق أنفاسها تضيقاً » ، فالذريعة الوحيدة للهند ، على ما يذهب اليه المستر بوز ، هى أن تدابر كل شئٍ غربىٍّ ، وتولى وجهها شطر ماضيها فتقلب ساجحةً فى لجج من تقاليدها وسننها التاريخية ، وتوضح معالم حضارتها المطوية فى سجل الدهر ، وتستثير دقاتها ثم تخلمع عليها ثوب البهاء والرونق . وفى هذا الصدد قال المستر بوز : « ان نجاة الهند ليست مرتجاةً فى أفق السياسة ولا فى مطمحنا الى أن نصير أمة من أمم الارض العظمى ذات الحول والطول ، والقوة والايدي ، بل فى رجوع الهند الى ما كانت عليه قبلاً من منزلة الاتضاع - تلك المنزلة الحافلة بجلال العزلة مع العظمت والهيبة . لسنا بالمدركين غايتنا بنحونا نحو الحضارة الغربية ، بل بالاعراض عنها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً ، ولسنا

بالبالغين غرضنا بزيادة الاشتباك بأشراك تلك الحضارة المزركشة ذات الخيوط اللماعة من الدمقس والابريسم ، بل في الادبار عنها واجتنابها في كل طريق تراءت لنا فيه .»

هذه خلاصة ما أوضحه المستر بوز ، وله من المناصرين في آرائه عدة رهط من المفكرين الخياليين مثل رابندرانات طاغور ومن نسج على منواله . غير أن الامر الذي لامرأ فيه هو أن هذه الآراء على ما شتمت عليه من ملذوذ الخيال وبديع الصور ، هي ضرب من العبث والباطل ، إذ أن شعباً بآجمه يعد بمئات الملايين ليس يستطيع بعد اليوم الانقطاع عنوةً عن سائر العالم ، ويتجلبب جلباب العزلة على نحو ما كان هكذا في غابر الدهر ، منكرأ ما هناك من الصلات والزوابط بينه وبين المجتمع الانساني ، ومنفرداً انفراد النساك في الصوامع والغيران . ان زمن « عزلة الشعوب » قد انقضى وطويت صفحته ، فلن يعود الى الوجود ولا سيما في بلاد مترامية الأطراف كالهند وهي ملتحق طرق الشرق يحيط بها البحر من أكثر جهاتها . وزد في الاعتبار أن هذه البلاد قد تغلغت فيها الآراء الغربية تغلغلاً بعيداً وانتشرت في أهلها الأفكار الاوروية انتشاراً كبيراً

وكان لتلك الاقوال المضروبة على أوتار التقشف ، الأوتار الحساسة الكامنة أبداً في مزاج الهندي وطبائه ، أكبر تأثير في نفوس العدد العديد من أهل الهند حرك من نفوسهم الساكنات ، فباتوا وقد أدركوا امتناع تحقيق آمالهم كلها ، يحاولون أمرين أولهما اتخاذ سبيل وسط يستطيعون به احتفاظ كل شيء ورثوه من النظام القديم مما لا يستهم على كرور الايام صبغته ومازجتهم بفعل العادة طبيعته . والآخر اقتباس الاحسن واختيار الصالح الملائم من الحضارة الغربية ، ثم افراغ ذلك في القالب الذي يوافق شأنهم ويجارى مستوى حالهم ، موسوماً بميسم هندي ومعلقاً عليه شارة الوطنية الهندية . وعلى هذا الرأي وضع ارباب هذا المذهب برامج لانشاء نظام جديد قائم على مزيج من التصوف الهندي ، ونظام الطوائف ، والصناعة الغربية ، والاشتراكية .

ولكن هذه البرامج على ما فيها من فائق البراعة وثقوب الرأي ليست بالجامعة المانعة ، اذ لو استبصر واضعوها لعاموا المثل الغربي انه « لا يستطيع أكل الحلاوة واحتفاظها معاً » . ومتى ما فقهنا شأن الطبائع المتضادة ، والصفات المتخالفة بين الشرق القديم والغرب الحديث في نظامهما الاقتصادي ، تبدي لنا ان كل محاولة يتبغى بها التوفيق بين وجوه

النظامين توفيقاً مقصوراً على المواضع التي كثر التشابه في صفاتها والتجانس في طبائعها ومزاياها ، مع عدم النظر في مواقع النقص وفي الكثير من الاختلافات والمتناقضات ، هي محاولة للتأليف بين الممتنع تأليفه أو الملائمة بين لونين متخالفين ، لا يجدى ذلك نفعاً أكثر مما تجدى محاولة المرید تربيع الدائرة أو تدوير المربع . وقد قال لويس دكنسن في هذا الشأن قولاً حكيماً (سنة ١٩١٤) : « ان الحضارة انما هي جهاز تام كامل ، وكل ما فيها من فن وأسلوب ودين جميعه معلق على صفة النوع الذي يكون به ترقيا في الاقتصاد وأصول الصناعات . انى لا أكاد أصدق ان أمة من أمم الأرض تستطيع الترقى بأن تأخذ من هذا عند ما تريد وتعرض عن ذلك عند ما تأبى ، كما هو شأن الشرق الذي قد يقول ، انى لاأخذ من الغرب سفنه الحربية ، وجواريه المنشآت ، ومعامله الصناعية ، وعلومه الطبية ، ولن آخذ عنه اختلاط مجتمعه وانكماشه وهرعه ونصبه ، وشناعته وقبحه ، وافراطه وطمعه كلا انى لا أكاد أصدق هذا ، بل أرجو ان الشرق يقتنى سبلنا ويتبع مناهجنا ، اشاء أم أبى ، وهو سيجتاز ما قد اجتزناه نحن من مشقة وعناء ، وسيسير القديمة لا يلوى على شئٍ ، ولا يعرج بين السبيلين حتى يدرك مستوى من الحضارة رفيعاً » .

هذا هو القول الصحيح . فان الشرق باعتبار ما لا يحصى من الشواهد والأدلة الظاهرة على شأنه اليوم ، سيقتنى آثار الغرب في سبيل هذا التطور الذي سيقف عند حد ، وقد يعرض عن بعض نقائصنا وعيوبنا الظاهرة ، ولكن في غالب الأمر سيمشى على صراط شبيه بصراطنا . وهذا التطور كما قلنا في شأنه في مواضع تقدمت انما هو مكيف لكل أفق من آفاق الحياة الشرقية ، وقد بينا مجارى هذا التطور العظيم من وجهاته الدينية والسياسية والاقتصادية ، وبقى الكلام على الوجهة الاجتماعية التي انتهينا اليها في الفصل التالي .

الفصل الثامن

التطور الاجتماعى

كنى دليلاً على ما لهذا التطور الذى نشهده اليوم فى الشرق من الشأن والعظمة ، ماهو متجلىّ فى أفق الحياة الشرقية من ضروب الانقلاب ، وتجدد المنازع والانتقال من هيئة الى هيئة ، إذ ان المؤثرات الغربية الفاعلة فعلها العظيم فى تحول اشكال الحكومات ، والأوضاع السياسية ، والمعتقدات الدينية ، والتطورات الاقتصادية ، هى فاعلة أيضاً فى أطوار النظام الاجتماعى ، وليس شأنها فى هذا المقام بأقل منه فى سائر مواضع الانقلاب الشرقى . وقد أتينا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب على بيان موجز عما للمؤثرات الغربية من الشأن فى الأطوار والتارات التى تقدم الكلام عليها . وغايتنا فى هذا الفصل أن نسط الكلام على التطور الاجتماعى الحادث اليوم فى العالم الاسلامى .

لامراء فى أن هذا التبدل خطير عظيم ، على كونه لاينخلو من غموض يظهر فى بعض المواضع ، خلافاً لسائر آفاق الانقلاب الآذنة بكل جلاء ووضوح . والسبب فى هذا الاستبهام هو ان للعادات المتأصلة والتقاليد المتمكنة فى حياة الفرد والأسرة والجماعة فى المشرق سلطاناً قوياً وشوكة نافذة ، يحملان غير التعمقين من أهل الاستقصاء فى شؤون المشرق على أن ينجحوا الى القول المؤكد بأن هذه العادات والتقاليد لم تبرح على حالها القديمة من الرسوخ وشدة التأثير ، بحيث على زعمهم ، لم يتناول التطور الحقيقى داخلها مثلما تناول خارجها ، ولا تغلغت روح الانقلاب فى باطنها كما أحاطت بظاها ، ولو بلغ الانقلاب المادى وتحول ظاهر الحياة مابلغا . على ان هذا الرأى الذى يقول به هؤلاء القوم الذين لايعولون على التحقيق فى المسائل ، هو مما لايجيزه أهل العلم والبحث ذوو النظر الناقد فى أسرار الانقلابات ، وان الشرقيين أنفسهم ليستهزئون بهذا القول وأمثاله ، ويفندونه بالحجة

والبرهان ، و يؤيدون حدوث التطور الاجتماعى وتتأججه بسنة التحول التى لن يجد لها الناس نبليلاً .

وأهل الشرق لعمرى على حق فيما يقولون ويدينون ، فان قيل ان الشرق صاعد بمعراج الترقى مادياً ، من حيث هو لم يزل على حاله من السكون والجود والغرارة من الجهة الاجتماعية فإمما ذلك تجاهل وتعام عن الواقع ، ومكابرة فى الحقيقة التى بات لا يختلف فى ثبوتها من أهل الاستقصاء الصحيح اثنان ، إذ أن الأنظمة الاجتماعية تتبدل أبداً بالمؤثرات المادية الحسية ، تبدلاً لا يقل عن ذلك الذى يتم بقوة المؤثرات الأدبية المعنوية ، والآراء والمجردات .

أستطيع من ينظر فى مادون العرض العائى ، نظر المتأمل المستبصر ، ان ينكر مالمقطر الحديدية والبرد والأسلاك البرقية من قوة العمل والتأثير فى سير الترقى الاجتماعى والأدبى والحضارى ؟ أما من شأن ، اجتماعى ومادى يأتى ، لما يقتبسه الشرق من الغرب ويأخذ عنه من مئات المحدثات والمخترعات ، بين ثمين وتافه ، وخطير وخقير ، وضار ونافع ؟ أيتخلو من معنى كون قبر صاحب الرسالة الاسلامية فى المدينة المنورة غدا كالصكوك تتلأأ فيه المصابيح والأضواء الكهربائية ، وان الرفاع البريدية المصورة صارت تباع على أبواب الكعبة المقدسة فى مكة المكرمة ؟ أجل ، قد يستغرب المدقق أول الأمر من أن المؤذن أضحي يذهب الى المسجد راكباً قطاراً كهربائياً ، وان التاجر المسلم أخذ يخرج من مخدع حرمة فيتناول صحف الصباح فيقف على أنبائها وأخبارها ، ثم يمتطى سيارة الى بيت تجارته ومعه سجادة الصلاة . ثم اذا مافرغ من إقامة الصلاة انقلب تارة الى تلفونه وطوراً الى آلة الاملاء يفرغ فيها نصوص الرسائل والكتب التجارية ؛ فلماذا نحن نسلم بأن للمسجد ومخدع الحرم وسجادة الصلاة شأناً مؤثراً فى حياة المسلم وتكليف معيشتة على الجملة ، حينما تنكر ما لجميع المحدثات والمخترعات التى أخذها الشرق عن الغرب من التأثير فى تكليف حياة المسلم الاجتماعية ؟ أضف الى هذه الأسباب الحسية المادية الأسباب الأدبية المعنوية مثل العلوم الطبيعية ، والرسائل الغربية الحديثة ، التى جعلت للتلهى والراحة ، وتحرر المرأة نوعاً ما ، فتبدو لك للحال أهمية التطور الاجتماعى الحادث اليوم ، واتساع أفقه .

على أن هذا التطور الاجتماعى قد اتسع نطاقه فى الأقطار الشرقية التى هى أكثر تعرضاً من سواها لنيار المؤثرات الغربية وكان مبدأ ذلك منذ نحو من نصف قرن . لما عاد

المستشرق الهنغارى فمبارى الى القسطنطينية سنة ١٨٩٦ بعد غيبة من الزمن طالت أربعين سنة دهش حقاً بما شاهده من عظيم التحول والانقلاب ، والاستانة عهدئذ راسفة بالأغلال الجديدة ، فقال : « عند ذلك طفقت أسائل نفسى أهؤلاء يأتى هم الترك الذين رأيتهم سنة ١٨٥٦ ، وكيف قد تمت جميع هذه التطورات الكبرى ؟ ولشد ما كان عجبى لما أخذت أقلب نظرى فى مظاهر المدينة وصورها فرأيت المباني الحجرية الجديدة ، قد قامت مقام الخشبية القديمة ، والاسواق ، والشوارع ، دبت فيها عوامل الحياة ديباً ، فجرت فيها المركبات المزينة تجرها الجياد المطهمة ، والقطر الكهربائية تنساب فى جميع الأنحاء ، كل ذلك مما لم أره فى مثل هذه الأسواق والشوارع وهى إذذاك محتلط تزدهم فيه الدواب والعجلات القديمة الطراز . وسمعت جلجلة الآلات المتحركة تخالطها أصوات المؤذنين الذين يلجأون الى الله من على رؤوس المآذن . فظهر لى من جميع مشاهدت وسمعت ، وعرفت وخبرت ؟ ما هو مناقض للقول المأثور ان « لابدعة فى الاسلام » . وقد كان دهشى أشد وعجبى أبلغ لما دخات المنازل والبيوت فلم يكن بوسعى سوى الاعظام والاكبار ، ليس لما شاهده من كيفيات التحول الظاهرة فقط ، بل أيضاً لما هو أجل قدراً من التطور المعنوى الكبير . فبدأ لى ان طبقة الافندية (أى المتهدبة) فى الاستانة قد تبدلت من حال الى حال ، وانتقلت من دور الى دور ، فى مجتمعها وطرزها الخارجى وطرق اتصالها بالغربيين »

ويعظم فمبارى شأن الارتقاء الداخلى كما يعظم شأن الارتقاء الخارجى . فى الطبقات التركىة التى تناوها التهذيب والتعليم ، فقال فى هذا المعنى : « قد غدا التركى اليوم يرتاح الى العادات والآداب الغربية ارتياحاً كبيراً مشهوداً ليس فى المظاهر والصور الخارجية فقط ، بل فى أسلوب المعيشة المنزلية أيضاً ، وذلك من صفة الأثناث والمتاع . وآداب المائدة ، واحترام المرأة ، وغير ذلك . ان هذا الطور الجديد لجليل الشأن ، لأنه معلوم ان الشعب الذى يقبل على تشرب العوامل وقبول المؤثرات الغربية السائقة الى الترقى العقلى ، عند ما يصفو اعتقاده بأن هذه المؤثرات انما هى صالحة له ، لا يستطيع الاقلاع عن مألوف عاداته الثابتة الصبغة ، المتأصله فى مزاجه وطبيعته ، الا بشق الأنفس . والترك قد لقوا الشدائد فى هذه السبيل ، فذلوا العقبات ، وتغلبوا على المكاره ، حتى ضربوا من التجدد بسهم وافر . ورأيت ان الشعور الشديد بضرورة ملابس الحضارة الغربية والتحقق بها ، قد عم

المجتمع التركى بأسره حتى رجال الدين . ولدن جماعة أهل الرأى على اختلاف فى كيفية التطبع وأسلوبه ، فبعضهم ينتغون اعطاء ما يودون أخذه عن الحضارة الغربية صفة وطنية وصبغة قومية ، والبعض الآخر على الضد من هؤلاء ، إذ ينتغون اتتحال تهذيبنا العقلى على علاقته ، ويأبون كل تكييف له ولو قليلا .

والأمر الأهم هو ماشاهده فمبارى من شان النساء المخدرات القابعات فى أ كسار بيوتهن ، وقد تغيرت الآن حالهن وتحولت صور حياتهن الى حد يقضى بالعجب . قال فمبارى : « وأزيد القول تأكيداً ان المرأة التركية قد تبدلت أساليب حياتها تبديلاً شاملاً عفا معه كل أصل قديم خلال الأربعين سنة الأخيرة . ثم ان هذا التطور قد تم أمره بسببين : الأول اعتقاد الترك بان التجدد ضرورى لهم فى هذا العصر ، والثانى الضغط الشديد الطارىء من الخارج » . واذ لاحظ فمبارى انتشار تعليم البنات وزيادة نصيب المرأة فى القيام بتدبير الحركات الإصلاحية وتنظيم الدعوات وبشها فى هذه السبيل ، قال : « ان هذا الأمر حيوىٌّ للأمة لأنه متى ما شرعت المرأة تقوم بواجباتها فى الحياة المنزلية بصفة كونها عاملاً من عوامل الارتقاء الحديث ، فان الإصلاح الحقيقى لا بد له من أن يثمر ثمرة فى المجتمع والدولة والحكومة » .

ويبين «خوجة بوخش» ، المسلم الهندى الحر ، وهو من أهل الاطلاع الصحيح على شؤون بلاده ، ان الحياة الاجتماعية فى الهند غدت فى تطور كبير وذلك بسبب ماتشرته من المؤثرات والعوامل الغربية ، كما هى الحال فى تركيا ، ويوضح خطورة هذه الأدوار الشديدة التى لا بد من اجتيازها ، أدوار الانتقال من حال الى حال ، والخروج من القديم والولوج فى الجديد . وهو متشائم من هذا ، لأنه يعترف بأن « دور التطور انما هو بحكم الضرورة الى حد معلوم ، دور فساد فى الآداب ، وانحطاط فى الاخلاق ، وعبث بالدين ، مما قد يحسبونه عرضاً ويزول ، ومرضاً ويبرأ ، ولكن لا مبرئ لهذا سوى كرور الأيام » ولكن هذا الخبير لكبير ، مع علمه بجميع ما ذكر فانه لا يقلل من خطورة الدور الحالى الذى أقل ما يقال فيه انه هادم لاركان النظام الاجتماعى القديم هدماً فقد قال : « ان أوضح نتيجة لهذا التطور هى تزلزل نظامنا القديم القائمة عليه حياتنا المنزلية ، وعاداتنا الاجتماعية ، وسبب هذا التزلزل انما هو تيار الحضارة الغربية ، وهذا الامر الواقع أظهر ما يكون فى موضعين :

معتقداتنا الدينية ، وحياتنا الاجتماعية . ان النظام القديم ، على جميع عيوبه كان مشتملاً على فضائل جمة وافية . أما اليوم فقد انهار هذا النظام القائم على ضيق المدارك لابل على التظاهر بخوف الله وطاعته ، وحل محله « استقلال فكرى عملى غريب . فعفت صفة احترام الماضى ، واكرام الكبار والشيوخ ، واعتبار قال فلان وروى فلان . كان الأب فى ظل النظام القديم رب العترة ووليها الحميم ، وكانت كلمته فيها شريعة مطاعة وأمراً مقضياً ، وكان حارس مقامها وراعى حرمتها ، وحافظ شأنها . أما الآن فقد أصبح مجرداً من جميع المنزلة التى كان عليها من قبل ، وراح أصغر فرد من أفراد الاسرة يتبغى الاستواء معه فى كل شأن من الشؤون ، وينازعه السيادة فى كل أمر من الامور » .

وياسف المستر بوخش أسفا لما هو منتشر من تيار الاسراف والتبذير والانغماس فى الترف ، وذلك ولاشك ناشئ عن اقتباس عادات الأورو وبين وتقليدهم فى جميع أساليب المعيشة تقليداً أعمى جامعاً للضار والفاقد والغلث والسامين . ثم يسائل المستر بوخش نفسه : « ماذا لعمري ثم فى الهند ؟ اننا قد اتخذنا أزياء أورو وبية فى لباسنا ، وأساليب أورو وبية فى معيشتنا ، ولم نكتف بذلك بل جاوزناه الى عادات شرب الحجر والمقاهرة والميسر ، ولكننا لم نتخذ شيئاً من الفضائل الغربية ، فيجب مداواة العلة قبل استفحائها وتطبيب السقم قبل الاعضال . يجب علينا أن نتعلم من أوروبة ولكن دون أن نهدر فى سبيل ذلك كينونتنا الأدبية ووجودنا المعنوى . اننا لم نتبه الى الخطر الذى حاق بنا فسرنا فى التقليد سير ضلال ، وجل ماحصلناه أننا خضنا خوضة قليلة فى التاريخ الانكليزى والأوروبى ، ثم طفقنا نزدري ديننا وآدابنا وتاريخنا وتقاليدها . ولم ندرس ماضينا ولا اطلعنا على انباء حضارتنا ولا بنينا ركناً جديداً ، ولاشيدنا لمجتمعنا قواماً قوياً حديثاً يثبت به غير مترعزع على صروف الدهر وتقلبات الأزمان . وعلى الجلالة فاننا قد أفسدنا حياتنا افساداً من حيث لم نباشر لذلك اصلاحاً » .

ويؤكد المستر بوخش القول مثل فمبارى ، ان المرأة الهندية سائرة فى سبيل التحرر ، اذ انقضى العصر الذى كانت هى فيه سلعة تباع وتشتري « فصارت المرأة المسلمة اليوم فى الهند تعلم وتهذب على ازدياد . وغدت تعرف حقوقها وتحسن الدفاع عنها . نعم ان نظام « البردة^(١) » لم يزل شائعاً ولكنه ليس من الشدة وايجاب العزلة كما كان منذ

(١) البردة بلغة أهل الهند معناها الستريمد للمخدرة فى ناحية من المنزل .

خسین سنة خلت ، بل انه أوشك يسقط ويندر ، وشرعت النساء يتدرجن في نيل حقوقهن الى أن يبلغن اليوم الذى يدرکن فيه السوى الكامل لتحرر المرأة الشرقية . كانت نساء بلادنا منذ أربعين سنة موضوع الاحتقار بل خشونة المعاملة من أزواجهن . أما اليوم فقد تبدلت حالهن كثيراً ، وبتنّ يعملن لنيل جميع حقوقهن ، واعزاز مقامهن .

بهذين البيانين - الموصوف بهما التطور الاجتماعى فى الشرقين الأدنى والأوسط - ندرك ماهية الانقلاب الحادث اليوم فى الشرق . ثم ينبغى لنا أن نذكر أن هذين الكاتبين قد وصفا حال الطبقات الراقية المتهذبة فى المدن والحواضر الكبرى ، والحقيقة أن الاختيار سار سريانا عظيما ومنبت انبثانا شاملاً ، فى جميع آفاق المجتمع ، متناولاً طبقات الأمة الواحدة بعد الأخرى ، وتراه دائماً على اتساع وامتداد .

ان انتشار التعليم الغربى فى الأقطار الشرقية خلال بضعة العقود الأخيرة ليدعو للاعتبار لأنه قد نقض ماهو معهود فى الشرق منذ القديم من نظم التهذيب والتعليم . فقد كانت أصول فن التعليم الجارية على سنن التقليد فى جميع الشرق ، من مراکش حتى الصين ، لاتخرج عن حد تحفيظ الكتب الدينية والأسفار المقدسة تحفيظاً مقروناً بتعليم فروض الدين وممارسة شعائره . وكان الطالب المسلم أو الهندوى يقضى سنين عديدة يتلو على معلمه أو مدرسه فصولاً من الكتب الموضوعه بالعربية الفصحى أو السنسكريتية ، الكتب التى لايستطاع ادراك معانى عباراتها وتراكيبها ، ولافهم أغراضها ومدلولاتها ، فكان نظام التعليم على هذا النمط حائلاً شديداً دون اتساع المدارك العقلية، فتتبدل القوى الدماغية جميعها ماعدا قوة الذاكرة ، وتذهب قوة الابتكار العقلية .

ولم يبرح هذا النظام الفاسد متبعا حتى اليوم فى بعض الشرق ، وما انفكت الملايين من النشء الشرقى تفتنى الأوقات الثمينة فى معاناة التعليم على هذا المنوال الحائل دون نمو القوى العقلية والادراكية . على أن نظاما جديداً شرع يماشى ذاك القديم منازعاً له وملاشياً اياه وهو يشيع وينتشر فى جميع المحيط التعليمى ، من كتائب الأطفال حتى الجامعات والكليات الكبرى ، فصار الناشئ الشرقى يرتضع أفوايق العالم على مناهج غربية صحيحة وهذه المنشآت العلمية الحديثة الطراز هى على ضروب مختلفة . فهناك الى جانب المدارس والكليات والجامعات - التى تعلم تعليماً حراً وتعد الطلاب للقيام بالخدمة الحكومية أو المهنة

الحرّة - عدد كبير من المدارس الصناعية والزراعية تخرج للشرق حذاق الفنيين والزراعيين والمهندسين ، ومدارس دور المعلمين تعد المعلمين اعداداً حسناً يتأهلون به لتعليم النشء المقبل وتثقيف عقولهم على الأصول الصحيحة والأساليب السليمة . والمدارس الأميرية والخاصة لانتى فى توسيع التعليم على الطراز الغربى وفى زيادة نشره فى الشرق وقد كان من شأن جميع الحكومات الأوروية الأخذ بنصرة التعليم الغربى فى الأقطار الداخلة فى سيطرتها وحكمها ، ولاسيما الحكومة البريطانية فى الهند ومصر ، بينما هناك البعثات التبشيرية النصرانية المختلفة قد انتشرت وانبتت فى آفاق المشرق ، وأنشأت عدداً كبيراً من المدارس والكلية ، و بينما كثير من الحكومات الشرقية مثل تركيا والحكومات الوطنية فى الهند باذلة غاية المستطاع لنشر التعليم الغربى فى شعوبها ورعاياها نشرأ متواليا مباركا .

على أن النتائج الحاصلة الى اليوم ليست غاية فى الكمال المطلوب . ولا غرابة فى ذلك لأن الدور دور تطور وانقلاب ، وتغير وتبدل ، ولأن التقاليد الفاسدة المتسلسلة من ماضى الأجيال ما انفكت تعترض جهد الأقسام الساعية بجد فى سبيل تحرير التعليم من جميع النقائص التى لم تزل عالقة به لهذا السبب الجدير بالاعتبار نرى سواد الطلاب الشرقيين الى اليوم ، أميل الى الاعتماد على ذا كرتهم وحافظتهم ، منهم الى الاعتماد على عقولهم وقوى مداركهم ، يؤثرون اجتياز عهد الطلب سرعانا حتى يدركوا ماشره اليه نفوسهم من تقلد الوظائف والأعمال الحكومية ، على التضاع من العاوم والتمكن فى المعارف مما يكسبهم الجدارة للاختصاص بمختلف الفنون والصناعات التى لا بد أن تكون بمقتضى سنة الترقى الصحيح . ولما كانوا على هذه الصفة المتقدمة كانت النتيجة ان أخذ كثير منهم يحبطون دون الوصول الى الغاية فيحل بهم الابتئاس ، ويخفقون سعيا وراء أمانيتهم فتشقى عليهم الحال ، هذا وقد اجتزأوا ببعض العلم اجتزاء لا يكسبهم القدرة على ضروب الأعمال النافعة والمهن المنتجة . فتراهم يسرون فى الحياة على غير هدى لا يسعون الى غاية مقصودة ولا ينشدون غرضا بعينه . كل ذلك يحملهم على الانقلاب أعداء مبغضين للروح الغربية ، ثم يسوقهم هذا الى بث أسباب الثورة وبذر بذور القلق الفوضى . فى هذا الصدد أجاد « السر ألفرد ليل » فى وصفه سيئات التعليم الغربى فى ربوع الشرق فقال فى شأن الهند :

« لامراء أن الجهل انما هو علة شرور كثيرة و بلايا عديدة فى دائرة المجتمع ، وقد قام كثير

من الفلاسفة وجملة العلم في القرن الماضي ينادون أن التعليم الكافل لتثقيف العقول وتنوير الازدهان هو أجمع دواء وأفضل ذريعة لشفاء العالم ونجاته مما هو غارق فيه من بحر الضلال والجهل ، وقام ساسة خبراء مثل « ما كولي » يبنون للملاء أن التعليم على هذه الصفة هو السبيل الفضلى لخلاص العالم بأسره من المعضلات السياسية ، ومن الحال التي قد استفحل فيها امتهان حرمة القوانين والانظمة والاحكام . فلذلك بات ضربة لازب على الحكومة البريطانية أن تجرب القيام بتحرير الهند تحريراً عقلياً ، حاسبة هذا العمل خير مبرر لحكمها تلك البلاد . « على اننا قد عرفنا بالابتلاء وتقرر لدينا بالاختبار منذ شرعنا نقوم بذلك أن التعليم ، مع كونه الدواء الشافي لامراض عديدة وكونه ضرورياً لا بد منه لاتمام الارتقاء الاجتماعي الصحيح ، فانه إذالم تحسن ادارته كل الاحسان وتوفى وسائل تديره القسط الأكبر من الاجادة والاحكام ، انقلب بقوة فعله وعمله سماً قاتلاً تتولد منه جرائم الفساد والاضطراب ، بعد أن كان خير دواء يرجى به الشفاء . ولاغربة في ذلك لأن التعليم على هذه الحال أخذ مفعوله يسرى وفواعله تشتد اختاراً في مجتمع متزلزل الأركان متداعي الجوانب . ثم من شأن هذا التعليم أن ينقض ما ينقض ويجرف ما يجرف ، ويهيج ضعاف الادمغة ، ويستثير مساريع الاطعام وبعيدى الآمال مما لايستطاع تحقيقه في الحال ، فيحمل الاخفاق أهل البلاد على السخط والغضب فتضطرم نار ذلك اضطراماً .

غير أن بعضاً من الغربيين أهل العناية بشؤون الشرق ، نخص بالذكر منهم رجال الاستعمار ، أخذوا يقومون ويقعدون للمخاطر السياسية والاجتماعية المنبعثة من جانب هذه الطبقات المشتعلة على الذين أتينا على ذكرهم من ذى العلم الناقص^(١) وأنشأ المستعمرون

(١) كثير من مؤلفي الأوربيين ورجال سياستهم يحذرون حكوماتهم من اتقان التعليم في المستعمرات ، بحجة أن الغالب على الناس التعلم هو النزوع الى الثورة ، إذ كانوا يقرأون اموراً « تسيء عقولهم هضمها » ويقسسون اقيسة فاسدة فيتعبون ويتعبون . ومن جملة شواهد ذلك تلك المقالة التي عربناها عن « مجلة باريز » (راجع صفحة ٣٠٤ من الجزء الثاني) والتي صاحبها يشير بامانة اللغة العربية من المغرب واقامة الفرنسية مقامها بشرط أن يكون التعليم مقصوراً على ما يلزم لامانة هذه واحياء تلك لاغير . والحاصل انهم يريدون قلع العلوم الشرعية من بين المسلمين ، ولكن يظنون أن يجعلوا مكانها العلوم العصرية ، اثلا تحيا بها نفوس هذه الأمم ، اذ يظنون انه لا يجمع العلم والذل في محيط واحد سواء كان علماً شرعياً اسلامياً أو علماً أوربياً عصرياً أو علماً جامعاً للامرين . (ش)

يعزون السبب في انتشار روح المقاومة للغرب الى التعليم الذي جاءوا بمناهجه وأساليبه . فالورد كرومر على سبيل المثال ، يرتاب شديد الارتياب في شان المصريين الذين تلقوا العلوم الغربية . وقال موظف بريطاني هندي شهير ان علة الاضطراب في الهندى ناشئة عن « نظام التعليم الذى نشرته بريطانيا في البلاد » .

وهؤلاء المرتابون المتشائمون المستعمرون ، الذين يقولون ما يقولون من أن التعليم هو سبب نشوء الاضطراب في الشرق ، يغفلون عن انه لا بد لادوار التطور والانقلاب من أن يصحبها شرور وآفات ، وعوارض فاسدة ، بطبيعة الحال دون مرد . ولكن هذه الحقيقة الكبرى لم تخف عن الحكماء من أهل الاستقصاء ، فكان شأنهم في درس تطور الشرق خلاف شأن أولئك المرتابين ، اذ قالوا ان التبدل والتغير في أنظمة هذا المجتمع الانساني لا يكون خاليا من نقائص تعتوره وعيوب تصاحبه ، ومن هؤلاء الحكماء فمباري الثقة الكبير الذى أحاط بالشرق وشؤونه عامماً ، وأدرك أن في الشرق اليوم مستوىً عالياً تتجلى فيه جدارة الموظفين الوطنيين ، وبه يظهر صدق أماتهم ، وهم الموظفون القائمون بأعمال الخدمة المدنية في حكومة الهند البريطانية وحكومة افريقية الشمالية الفرنسية (وجل هؤلاء الموظفين من الذين تلقوا العلوم الغربية) ، ففي هذا المعنى قال فمباري : « ان الشرقيين المحافظين المتشددين والأوربيين المتعصبين ، ليخالون أن الاتيان بتهدينا الغربى الى الشرق قد ذهب بفضائل الاسيويين ، تلك الفضائل الساذجة الفطرية ، حتى غدا الشرق غير المهذب أكثر أمانة وأعز شرفاً وأشد اباة ، وأجدر بالثقة من الاسيوى المهذب على الأساليب الغربية . ان هذا الخيال لأفن وخبال فلعل هذه الأوهام تصدق على أولئك النائلين قسطاً قليلاً من التعليم والتهديب ، ولكن لا تصدق على الاسيوى التام التهديب الذى وفر في نفسه ان الارتقاء العقلى قائم بجملمته على الأساس المكين ، وهو التعليم الوافى الصحيح ، والتهديب المنظم الطريقة والتشقيف السليم والأسلوب والمنهج » .

ثم مهما كان شأن النقص الذى صاحب أساليب التعليم الغربى في الشرق ، فالتعليم هو المنهاج الذى لا يستطيع الانهجه ، والباب الذى لا حيدة عن ولوجه . وعلى كل فان ما قد بلغته الروح الغربية في الشرق من سعة الانتشار وشدة التأثير ، هما من الاهمية بحيث لو أردنا الكلام عليه تفصيلاً استغرق ذلك المجلدات الضخام . ولو سلمنا جدلاً أن

الحكومات الاستعمارية قد كان في وسعها أن تحول دون التعليم الغربى الصحيح ، أفلم يكن الشرقى على كل حال قادراً أن يتعلم ما يتعلمه على طرق أخرى ومناهج شتى . اذن خير للشرقى وأفضل ان يتلقى العلوم والمعارف في كتب مفيدة صحيحة الاسلوب برعاية الكفياة من المدرسين والمعالمين ، من ان يترك وشأه يتتبع الأساليب الفاسدة والطرق المتلوية ويحبط خبط عشواء .

وتتضح لنا خطورة التعليم الغربى في الشرق أحسن اتضح بما هو ظاهر ومشهود من النتائج الاجتماعية الكبرى ، الا وهى ترقية شأن المرأة واعلاء مقامها ورفعها من تلك الحالة التى كانت عليها . ومعلوم أن تلك الحالة التاعسة التى كانت تنزل بمقامها في جميع البلدان الشرقية تحتاج الى الاصلاح الحقيقى الذى هو قوام المجتمع الناجح . ان هذه الحالة السيئة في الاقطار الاسلامية هى اسوأ منها عند الهندويين القوم المنتشر فيهم الزواج الباكر واستعباد الارامل والأيمى (اللواتى كان من العادة أن يحرقن أحياء وظلت هذه العادة شائعة حتى قضى عليها الانكليز بسيف القانون) وتحجب المرأة تحجباً أشد من تحجب المسلمات واثقل وطأة . قال كاتب انكليزى : « نحن في الغرب نقول السيدات أولاً والرجال ثانياً ، وفي الشرق يقولون الرجال أولاً والسيدات ثانياً . ولعل هذا كاف لتبيين مبلغ الاختلاف في صفات البيئة المنزلية بين الحضارتين الشرقية والغربية » .

وقد يبدو للمتأمل لأول وهلة أن حالة المرأة على هذه الصفة لم تزل تحت تأثير بحيث لم تفسح فيها لحد الآن المؤثرات الغربية التى تبعث في مجتمع النساء روح اصلاح حقيقى . كلا ، فان الأمر على خلاف ما يتبادر الى الذهن ، اذ ان المؤثرات الغربية قد انبثت وذاعت ، وكان لها ما كان من بالغ التأثير في افق نساء الطبقات العليا ، فانتشر تعليم الاناث انتشاراً كبيراً ، ولكن على نطاق أضيق من نطاق تعليم الذكور . وقد ظهر في الأقطار الشرقية التى هى أسبق من غيرها ترقياً وعمراً اجتماعياً مثل القسطنطينية والقاهرة ومدن الهند ، طراز جديد من النساء العصريات ، المتهذبات الرقيقات ، ولا سيما من معلمات المدارس اللواتى نزلن منزلة رفيعة في المجتمع الذى أخذن يعملن فيه .

وقد جاء تطور المرأة المسامة في الشرق بنتائج حسنة لم يكن نفعها مقصوراً على النساء فحسب ، بل تناول المجتمع بأسره . وكيف لا يكون هذا التطور خطيراً والمرأة

الشرقية ، كما قال ثُمباري ، مستغرقة في الجهل والغباوة ، واذا كانت هكذا . فأسوأ التربية التي تنشئ بها أولادها الذين على صدرها وبين ذراعيها . وهل من بلية أعظم من هذه البلية التي تحول دون ارتقاء الفتى الشرقي والفتاة الشرقية ارتقاءً عقلياً ، وهما يشبان في مخادع الحرم على جهل شديد يتضاءل به الاستعداد الفطري ، وتضيق المدارك ، فهذا الأمر أخذ يحمل الآباء الشرقيين أولى الرأي والمعرفة ، على ارسال ابنائهم الى المدارس أ بكر ما يكونون سنناً للطلب والتحصيل ، انتشالاً لهم من تلك الحياة التي اذا طالت عليهم وهم في مخادع الحرم ، أفضت عليهم بالجمول وفتور كل قوة حيوية فيهم . ولكن هذه الوسيلة على الجملة لم يكن من شأنها سوى تخفيف الوطأة الواقرة ، لأن ما ينطبع في نفس الابن ويرتسم في لوح ذهنه وهو يرتضع ثدي أمه في السن التي يكون هو فيها أكثر طواعية ولينة منه في سائر العمر لا تبقى أثرأ من جميع ما يتلقاه الابن فيما بعد عن المعلم . فبهذا الاعتبار ، مادام نصف الشرق لم تعمل فيه عوامل الارتقاء على الدوام ، فهضة الشرق الاسلامي على الجملة تظل ناقصة بترأ ، ولا سبيل الى كمالها ما لم يشمل التهذيب الصحيح المرأة والرجل معاً في هذا الدور وكل دور مقبل .

ولكن ازدياد عدد النساء الشرقيات المهذبات ازدياداً متوالياً في كل قطر من الأقطار الاسلامية ، هو الدواء الناجع المبرئ من هذه العلة الكبرى والمتمم للنهضة الشرقية . قال كاتب غربي في هذا الصدد : « علموا الامهات وهذبوهن تتبدل حالة المشرق تبديلاً تاماً من أقصاه الى أقصاه ، فان الفتيات متى ما تلقين معارف وعالوماً صحيحة مع ما يحفظنه من السور والآي القرآنية استطعن أن يقمن بتدبير المنزل قياماً حسناً ، سواء كن بنات أم اخوات أم أمهات . ولا شك في أن النساء اللواتي تعلمن القبالة وأصول الطبخ والخطاطة وقواعد عامة في علم الصحة في مدارس الاقتصاد المنزلي ، كانت حياه المنزل الذي يكن فيه حياة طيبة هنيئة ، في جو تذاق فيه لذة السعادة البيئية . ان الحياة القديمة التي كانت تقضيها المرأة فيما مضى جالسة على الديون لاهية ، لا تعرف شيئاً أكثر من تناول ضروب الجلاء آونة بعد أخرى ، وماجئة مع الخوادم اللواتي حوالها تارة ، وطوراً مع صواحبها الجاهلات مثلها ، قد انقضت وجاءت من بعدها حياة جديدة ، ترى فيها المرأة المهذبة رفيقاً لزوجها وشريكاً اميناً ، لا عبدة له ولا سلعة بين يديه . وشأن الزوج آخذ في التبدل من

كونه تجارة خسيصة لتعاضد النساء كما تتعاضد الأمتعة والعروض في الاسواق ، الى اتحاد زوجي وثيق العروة قائم على احترام المرأة من قبل زوجها وابنائها ، وهي سائرة في ظل هذه الحياة الجديدة الى أن تكون ربة مقام رفيع وشأن اجتماعي كبير .

وفي هذا العصر الجديد ترى الرجل والمرأة يتبدل أفكارهما وآراؤهما تبديلاً ظاهراً الاثر في انقلاب مستوى المعيشة ، المستوى الآخذ في الارتقاء تبعاً لتطور الآراء والأفكار بطبيعة الحال . وهذا جميعه وان كان أظهر ما يكون في أهل الطبقات المثريّة في المدن والحوضر ، فهو جار مجراه من الشيوع في جميع طبقات الشعب . فالشريفون كافة ، من غني وفقير ، وقروي ومدني ، آخذون في تبديل نمط معاشهم تحديداً بالغريبيين ومحاكاة لهم . وهذا التبديل يصحبه تطور اجتماعي بعيد الافق واسع الميدان . والسبب في ذلك ان بعض وجوه التباين والاختلاف بين الحالتين المقامع عنها والمنقلبت اليها ، لأشد تأميراً ومفعولاً من جاري الحالات المعتادة في طريق الحياة ، ذلك حق لا ريب فيه سواء كان في العالم الشرق الحافل بالتقاليد الموروثة ، أم في العالم الغربي الحديث . وهذا التباين والاختلاف ليسا ناشئين كل النشوء عن أمر الغنى وبسطة الحال (لان الشرق مثل الغرب من حيث الغنى الفاحش والفقير المدقع) بل بالاكثرعن وسائل الرغادة والرفاهية بمعنييهما عند أهل الغرب فالشرق المثري في سالف العهد لم يكن غالب دأبه الا في تبذير ماله في سبيل الترف الشرق المشتمل على الاثواب الفاخرة والالبسة الثمينة والجواهر الكريمة والنساء الغواني ، والخيول المهطمة ، والخدم والحاشية وغير ذلك ، وما كان ليعرف شيئاً من أسباب الرغادة الغربية الحديثة ، لهذا يصح القول في هذا المعنى ان الشرق المثري فيما مضى كانت عيشته المنزلية على مستوى أقل مما يرضى به سواد الغربيين أهل الحرف والصناعات .

غير ان الشرق اليوم طفق يعتاد أسباب الرغادة الغربية ، ويقبل على هذه الاسباب ما استطاع الى الاقبال سبيلاً . فالاشياء العديدة التي جريتنا نحن على استعمالها ترفيهاً لخالنا وتوفيراً لراحتنا وهنائنا ، وهي شائعة في حياتنا شيوعاً لاغنية لنا عنه ، كالمصايح ، والانوار الكهربائية ، والمطارز ، والساعات ، والجمعة ، والمظلات ، وأدوات الصحة ، وكثير سواها ، باتت جميعها عند الشرق اليوم من ضرورياته الجديدة التي لا يطيب له عيش بعدد الابها ، وهو لا ينفك يبتغي التمتع بضرورها واشكالها ويطلب المزيد منها . لكن اقباله عليها الى

هذا الحد قد أفضى به بالتالى الى الوقوع فى ضنك شديد ، وان رمت الوقوف على العلة فاعلم أن الشرق ليس الاقتصاد من شئته ، ولا التوفير من طبعه ، فلما أخذت حاله تتبدل منتقلا الى دور طافح بالحاجات الجديدة المستطابة والاسباب المستلذة ، كان لابد بالضرورة من ارتفاع سوى معيشته ارتفاعا كبيرا ، فكيف يستطيع والحالة هذه أن يتوفر له المال الذى يكفيه نفقته الجديدة ؟ فاذا كان فقيراً تعين عليه أن يقتر على نفسه تقثيراً ، لكي يتسنى له بذلك الحصول على قدر ما يستطيع من حاجاته الجديدة ، واذا كان غنياً شق عليه الافلاج عن الترف الذى اعتاده ، وصعبت عليه مزايمة ذلك الطراز الذى ورثه من آبائه وأجداده ، فنجم عن جميع ذلك زيادة فى السرف وغلوفى الترف . وفى هذا المقام ينبغى لنا ألا تغفل الحقيقة الراهنة وهى أن شعوب الشرق الادنى والاوسط على الجملة لم تكن يوماً بعارفة للاقتصاد من غاية ولا للتوفير من معنى . فالعامة من المشاركة ولو كانوا فقراء الى حد هم مكرهون به على رعاية الاقتصاد فى النفقة ، هم والحق يقال مبسرون مسرفون متى ما تيسر لهم شئ من السعة والوفر . والطريقة التى يبنر بها الفلاح التركى أو الهندوى دراهمه الموفرة لاقامة الاعياد والمهرجانات والاعراس والمآتم وما أشبه ذلك ، تبذيراً يجره الى الزوح تحت اعباء الديون ، مما يدهش له الغربى أيما دهش . أضف الى هذه الحقيقة ان نفقة الضروريات التى لا يستغنى عنها أهل الشرق ولا الغرب ، كالطعام واللباس والدفء والكن ، قد ارتفع مقدارها خلال العقدين الماضيين ارتفاعاً كبيراً ، نستطيع أن نتصور به مبلغ ما انتهت اليه الحال من الضيق والازمة ، بما يقتضيه ارتفاع نسبة المعيشة فى هذا الدور .

يتضح لنا من جميع ما تقدم أن التنازع فى سبيل البقاء يتضاعف شدة ، والتناحر تزداد حلقاته استحكاماً ، بحيث ان الفلاح فى حقله والعامل فى عمله ، باقى فى هذه الحال التى قد ارتفعت فيها أثمان الضروريات المعدودة قوام الحياة ارتفاعاً لا قبل لها باحتماله ، وأمسيا بعد ما اعتادا صنوفاً من الحاجات العديدة المستحدثة التى ما كانا يعرفانها منذ عدة عقود خلت اعتياداً جعلها من الضروريات ، يقاسيان أعظم ما يكون من القلة وضيق ذات اليد ، مما شاة للحال وجرياً مع الدور . قال أحد الكتاب فى هذا الشأن : « إن الأحوال الاقتصادية قد تطورت فى الشرق تطورا كبيرا لم يستطع معه المشاركة حتى اليوم

القيام باعباء جميع الحاجات المستجدة عندهم بسبب هذا التحول ، فازداد غلاء المعيشة ازدياداً أسرع سيراً من نمو الثروة فأتسع البون وطالت الشقة .

ومن الأسباب الكبيرة في هذا البحران الاقتصادي السياسي الذي يجتازه الشرق اليوم ، تعاظم عدد القطين (وان كان هذا السبب غير متفق عليه لدى الجميع) فان الشعوب الشرقية مضروب المثل بميلها وبكور قابليتها للتناسل والتوالد . وهذا ليس ناشئاً عن شدة العاطفة الجنسية فحسب ، بل له أسباب اقتصادية كالارتفاع من شغل النساء والأولاد شغلا قاسياً اداً ، وأسباب ناجمة عن التعاليم الدينية الحاملة على الزواج الباكر وكثرة النسل . هذه العلة كانت الشعوب الشرقية دائماً في همٍ ناصبٍ من الدأب وراء مواد المعيشة ولولم تنل منها سوى الكفاف . وقد كانت في الزمن الماضي طائفة من العلال الفاعلة من ذاتها في تقليل عدد القطين ، كالحرب وجور الحكومات ، والابوثة ، والمجاعات ، جميع ذلك مما كان يجتاح البلاد اجتياحاً فيجرف في سبيله الخلق الكثير ، بحيث ان عدد الساكن كان على الجملة ، مع ارتفاع عدد المواليد ارتفاعاً كبيراً ، على نسبة كادت تكون سوية . ولكن لما كان للوثرات الغربية عمل عظيم في هذا الافق من الحياة الشرقية فقد تغيرت الحال من أساسها . فان امتداد التسلط الأوروبي السياسي فوق الأقطار الشرقية قد كان سببا في وضع حد للنازعات الاهلية ، وتقليل ظلم الحاكم ، وكفاح الابوثة والامراض ، وتدارك وسائل درء المجاعات (١) . وبعبارة أخرى ان العوامل التي كادت تكون من قبل سببا

(١) على أن المجاعات المتعددة التي اجتاحت الهند منذ دخلها الانكليز بل في أيامنا نحن فضلا عن المائة سنة التي خلت من زمان استيلائهم ، هي فوق كل تصور بشري . وقد نشرت احدى المحلات الايطالية منذ سنوات احصاء عن مجاعات الهند بهذا العصر ، وما جرفته من عشرات الملايين من الاناسي ، وتناقلته عنها الجرائد ؛ فكان شياً تورث قراءته الفشعريرة والتياب النفس . وأكثر السبب في ذلك هو سياسة الاستعمار المبنية على استئثار المستعمرين بالأرباح والمكاسب واستنزافهم منابع الثروة الوطنية يضاعفهم وأدواتهم ، وتركهم السواد الأعظم من الهنود عالة عليهم بحيث اذا احتبس المطر قليلا ، أو هبت على الزروع لافحة سموم قفل المحصول ؛ وارتفعت أسعار الغذاء ، لم يبق أمام هؤلاء الاهالي سوى الموت جوعاً أو بالأمراض التي سببها سوء الغذاء ، لان الذي يأخذونه بدل عملهم لأ يعود كفايا لشراء قوتهم الضروري . ولو فحصنا في تاريخ مجاعات الهند ، أو مجاعات الجزائر التي منها المجاعة الحاضرة المستمرة منذ ثلاث سنوات ، لا نجد انكليزياً في الهند ولا فرنسواً في الجزائر مسه الجوع أو مات سغباً ، فهو دليل كاف على أن الاستعمار هو من أعظم الدوامل في مسابغ المستعمرات . (ش)

في استواء عدد القطبين مستوى معلوما ، قد تخففت أو تلاشت ، فكانت نتيجة جهد الحكومات الغربية في درء العوادي الطامة ووقاية الأَنْفُس من الهلاك ، ان قد هبط مستوى عدد الوفيات الذي كان هائلا فيما مضى وحائلا دون نمو عدد الساكن نمواً مطرداً الى حد قريب من مستوى عدد الوفيات ، بحيث صار المستويان متقاربين كما في أحوال الامم الغربية . على أن الطريقة الى اهباط عدد المواليد الذي ينمو ذلك النمو الفاحش لاعلاقه له بمسئلة الوفيات ، لذا ما برح مستوى المواليد يتصاعد ويتعاطم حتى ضاقت الارض بقطبينها على رحبها في غالب أقطار المشرق الممتد فوقها التسلط الغربي السياسي . ثم ان سائر الاقطار الشرقية التي احتفظت باستقلالها ، وأخذت من الوسائل الغربية بنصيب لوقاية النفس وصيانة الحياة ، قد زاد عدد ساكنها زيادة كبيرة في قليل من الزمن كما هو الامر في غيرها من الاقطار (١) .

والبلاد التي زخر فيها عدد القطبين أكثر من غيرها هي الهند . فهذه البلاد لم يبرح غالبها خاضعاً للتسلط البريطاني مدة تقرب من قرن . وكانت كلها من قبل ذلك العهد كثيفة الساكن ، ثم ازدادوا خلال القرن الأخير ضعفين أو ثلاثة (٢) . ومن المعلوم البين ان هناك عوامل كالزراعة الحديثة والرى والقطر الحديدية والآلات الصناعية الحديثة ، كان من شأنها توفير استعداد الهند لكيلا تضيق بزيادة أهلها هذه الزيادة الفاحشة ، وهذا هو السبب الذي جعلها أرحب لقبول الزيادة بعد الفتح البريطاني منها قبله ، ولكن النتيجة واقعة

(١) طالما زعم المستعمرون ان البرهان الساطع على عدم الظلم ، وعلى انتظام الادارة وتوفير الاحتياطات الصحية في مستعمراتهم ، هو ازدياد عدد الاهالي ، فهذه هي الهند قد ازداد سكانها كثيرا على ما كانوا قبل الحكم البريطاني ، وها هي جزائر العرب كان أهلها مليوناً ونصف مليون يوم فتح فرنسا لها ، فصار فيها اليوم خمسة ملايين وهم جرا . والحقيقة في هذه الزيادة انها نتيجة الشرائع والطبائع وأساليب العيشة التي عليها الاهالي ، بدليل ان هذه الزيادة جري مثلها وأعظم منها في تركيا ومصر وبلاد العرب والافغان وغيرها من الممالك التي لم تتمتع « بنعمة الاستعمار » ولا علا فوقها بساط تلك الرحمة . . فكل أحد يعلم ان مصر لأول حكم محمد علي لم يكن فيها أكثر مما كان في الجزائر من السكان وها أهلها اليوم ١٤ مليوناً . فدعاوى المستعمرين من هذه الجهة ساقطه من ذاتها ، وهي من جملة تمويتها العديدة لتغفل الناس عن حقيقة انارتهم العاشمة هناك ومما لاجدال فيه ان أهالي الجزائر لولا الاستعمار كان عددهم ضعف

(ش)

ماهو اليوم ، ولك أن تقول مثل ذلك عن سائر المستعمرات

(٢) في أوائل القرن التاسع عشر كان مقدر قطبين الهند ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فبلغ ٣١٥,٠٠٠,٠٠٠

على ما أفاد احصاء سنة ١٩١١

على كل حال وهي هذا التعاضد الهائل . وكاد جميع العلماء من أهل الخبرة والثقة يتفقون على هذه الحقيقة التي لا ريب فيها . قال «دوق ارغيل» منذ أربعين سنة : « ليست كثرة النسل والولد في البلاد التي أهلها على قلة بصر بادخار المؤن والأقوات وليس فيها غنى ولا ثروة ، ويعيش أهلها على الكفاف من فصل الى آخر ، دليلاً على الدعة ورخاء العيش» . وعند آخر القرن الماضي تكلم السروليم هنظر على قضية تزايد الساكن في الهند فاطلق عليها اسم «القضية الأساسية الكبرى» وفي هذا الصدد قال : « من نتائج الحكم المدني في الهند تعاضد عدد الساكن الى حد لم يعرف له مثيل من قبل ، حتى بات من الحقيقة التي يؤيدها الاحصاء الهندي كل التأييد ان ازالة النوائب المجتاحة والنوازل الفادحة التي كانت تنتاب الشعوب الاسيوية على التوالي هو كل البركة والخير» . وقال اللورد كرومر في كلام له على فاقة الهند : « وليس الأمر كله مقصوراً على أن الفاقة لا تستطيع ملاساتها بسلاح حب الانسانية فحسب ، اذ من الثابت ان حب الانسانية على الاطلاق هو سبب في تعاضد الشر واستفحال البلوى (ولو بدا هذا القول غليظاً متناقضاً مابداً) . ففي عهد « أكبر » و « شاه جهان » كانت الأوبئة من الهواء الأصفر والمجاعات سبباً في تناقص القطبين تناقضاً جعل الحياة عهدئذ حياة تنازع في سبيل بقاء الأنسب . أما الآن فقد قضى على هذا التنازع والتناحر ، ثم جاء سلاح حب الانسانية ونزل منزلةً من عمران البلاد امتنع معها ذهاب ضحايا الأنفس وهراقة الدماء ، فازداد عدد الساكن زيادةً فائقةً ، حتى بات جانب كبير من أهل البلاد يعيشون على الكفاف بجهد وعناء^(١) . الحقيقة أولى ان تعلم ، وهي أن الصعوبة في حكم الشعوب الشرقية الكثيرة التوالد والتناسل ناشئة عن الحكومة الصالحة المشتملة على عاطفة حب الانسانية ولا ريب في هذا الأمر الذي تجاهلناه من قبل غير مرة» .

وقد أجاد «وليم البشر» في تبيان القضية في جوابه على المسألة : ماهي العلة في أن ترقى الأحوال الظاهرة لم يفض بالهند الى محبة النجاح والفلاح ؟ اذ قال : العلة في رأيي انما هي بسيطة لا تدعو الى كثير استقصاء . فان المنافع الحاصلة والفوائد المجتناة من الحكومة

(١) فتش في معيشة الكفاف هذه - في بلاد غنية في طبيعتها كبلاد الهند - عن آفة الاستعمار ، وسحب ثروة البلاد الى الخارج ، لا عن وفرة حب الانسانية الذي امتاز به المستعمرون والذي لو قدرنا وجوده من جهة لم يسد شيئاً من الخرق الذي تخرقه سياسة الاستعمار في الثروة الوطنية .

الصالحة هي أشياء لاقيمة لها البتة في بعض المواضع ، اذ شأن الشعب الذى تكون فيه تلك الحكومة ، ان يستعين بها لا لترقية مستوى معيشته وتحسين أسلوب حياته ، بل للاكثار من النسل والذرية حتى يغدو ذو العائلة مستغرقاً في العيلة والفقر ، لا يصيب من الرزق سوى مايسدّ الرمق . نعم ، أبان هنرى جورج ان كل فم واحد يخلق في هذا العالم يخلق معه يدان اثنتان . ولكن مع أن هذه الحقيقة الفسيولوجية لاتنكر ، فان الاستنتاج الذى يستنتجه الاقتصادى من هذا القول ، وهو ان مقدار انتاج اليدين يقتضى أن يفوق مقدار ما يستهلكه الفم ، لا يصدق من الوجهة الاقتصادية الا في المواضع التى تنطلق فيها اليدان عاملتين عملاً مثمرأ نافعاً ولكن ان زادت الافواه الآكلة على الأيدي العاملة فالصير هو لاجمالة الى فقر مدقع ومسغبة شديدة .

على انه من نكد الطالع ان المفكرين الذين يوقنون بأن زيادة القطين هذه الزيادة الفاحشة هي السبب الأشد في فاقة الشرق والضيقة النازل به ، هم عدد قليل بل جميع أرباب النظر ، يردون السبب المذكور الى العوامل السياسية وبالأخص الى السيطرة الغربية السياسية ولم نعرف الى اليوم سوى مفكر شرقي واحد أزاح النقاب عن محيا هذه الحقيقة فجلاها لبنى قومه بدون محابة ، وخاض في هذا الحديث مقترحاً بالحاح أن ينشأ نظام يتعين به مستوى المواليد ، وهذا الكاتب الحكيم هو ب . ك . وطال الهندي ، أحد الموظفين الوطنيين في ديوان المالية في حكومة الهند ، وضع كتاباً ، هو باكورة المؤلفات الشرقية من هذا النوع ، ووسمه « بقضية القطين في الهند ^(١) » ونهج فيه منهجاً دل على اقتداره وطول باعه وبعد بصره بالأمر . نجاء الكتاب دليلاً على ان المشاركة شرعوا ينتهبون الى قضية هي من حلالة الشأن بمكان ، بل هي من أعظم قضاياهم الحيوية .

استهل المستر وطال كتابه ببناء بنى قومه أن يعيروا الأمر اهتماما ويقدموا على علاجه علاجاً صحيحاً لا تحيف فيه ولا اضرار ، ومما قاله : « اريد أن يعلم كل قارئ ان الغرض المتوخى في هذا الكتاب ليس الطعن في حضارتنا الروحية الشرقية ، ولا إعلاء شأن الحضارة المادية الغربية ، سواء أكان مباشرة أم ضمناً ، بل ان الغاية المقصودة هي أنه يجب

(١) المستر وطال هو من موظفي ديوان المالية في الهند يشغل منصب معاون المحاسن العام . نشر كتابه سنة ١٩١٦ وطبع في بومبي .

علينا أن ننتبه حد الانتباه الى مسألة أساسية فنستبطنها وننحرها علماً ، ونكتنه باطنها ونجول غامضها ، ألا وهي قضية المعيشة ، وكيف بنتغى أسباب الرزق في هذه الدنيا . لا ينكر اننا شعب فقير ، ولفقرنا هذا الذي نعانيه أسباب عديدة أريد إيضاحها إيضاحاً شافياً كما يطلع عليها كل مواطن من بني بلادي ، سواءً أ كان ممن لم تصبهم النائبات يوماً ولا ذاقوا من العذاب في سبيل المعيشة ، أم ممن قد نالهم الضنك بهذا السبب وعضهم الفقر بنابه ، ولكن ذلك لحسن الطالع ما كان بالعقبة الكأداء الخائلة دون إدراك النجاح والفلاح لأسباب دبرتها العناية . ان هذه القضية لقائمة بذاتها ، وهي حقيقة مشهودة وواقع محسوس ، ولا علاقة لها البتة في شأن من شؤون السياسة أو الدين . يا قوم ! إذا كنا قد عانينا الأمرين من جراء نتائج تلك الخطيئة ، أليس من الواجب علينا بعد ذلك كله أن نبادر للتخفيف من وخامة العقاب وتدارك الشر قبل استفحاله وقاية لنا ولأولادنا من بعدنا ؟ ان أكبر بلية في الأرض لهي الفقر والفقر أبو البلايا ^(١) . أقول هذا صريحاً ، على إجلال وتعظيم لحضارتنا الروحية ، وغير مرهبة تنقص الحياة الزوجية على الاطلاق ، بل انما غاية غاياتي في هذا الكتاب أن أنادي بني قومي أن يحفلوا بهذه القضية الخطيرة الحيوية ، وقد جلتي على ذلك وقوفي التام على ماهو منتشر في البلاد من ضروب الشقاء والعذاب الناشئين على كثرة النسل والولد ، وشعوري العميق بما يقاسيه جانب كبير من بني وطني ذوى الشأن والمكانة من النصب والمضض في ابتغاء أسباب الرزق ، لهذا كان من الواجب عليّ أن أبين الكلام بدون محاباة ولا تردد وأوضح أسباب شقاء الناشئ الهندي وما ينتابه من الضيق الخائق والعسر المستحکم ، وهو على هذه الحال لايسعى في النجاة من ذلك سعياً يرجي به الخير القريب ودرء البلاء .

ثم يشرع المستر وطال بعد هذا النداء ، بالبحث فيقول ان السبب الكبير في تعاضم عدد القطين في الهند هو الزواج الباكر . ففي البلاد الأوروية لا يبلغ هذا التعاضم مثله في الهند لأن الزواج الباكر ليس معروفاً في تلك البلاد ، ولأن لنسبة المواليد متراوحاً معلوماً « أما الزواج عند الهندويين فواجب ديني مقدس لا مفر منه ، سواءً أ كان الزوجان أهلاً له وللقيام بتبعته ، أم كانا غير ذلك دون أن يدركا للحياة الزوجية من معنى ، فالابن الهندوي

(١) من الأحاديث النبوية الشريفة . « الفقر الموت الأكبر . » و « كاد الفقر أن يكون كفراً » . (شر)

يجب عليه أن يتزوج وينسل الأولاد العديدة لكي يقوموا بالشعائر الدينية عن نفسه عند موته ، فإذا لم يكن ذلك ، راحت نفسه بائسة شقية تهيم في الفقر . فان مجرد اسم الابن وهو « پوترا » معناه المحاص لنفس أبيه من جهنم التي اسمها « پونا » والبنت الهندوية العذراء اذا أدركت سن البلوغ فلم تتزوج بعد ، كانت عاراً وشناراً اجتماعياً على أهلها ولعنةً أبديةً حلت باجدادها وأسلافها . وهذه الحالة في أمر الزواج تكاد تكون عند المسلمين الذين وان كانوا لا يعرفون شيئاً من مثل هذه التبعيدات والاعتقادات فانهم يقتدون بالهندويين . وهناك سبب آخر ناشئ منذ زمن بعيد عما كانت قد اقتضته الحالة الاجتماعية أيام الفتوحات الاسلامية إذ كانت الزوجة عهدئذ ضرورة من الضرورات لتقوم بالخدمة البيتية ولتساعد زوجها في حرث الحقول والأشغال اليدوية « وشر البلية ان الزواج الباكر أعنى زواج الأولاد دون سن الرشد ، لم يزل شائعاً ومتزايداً حتى اليوم ، على جميع ما تبدل من الجهد الكبير في الاصلاح الاجتماعي . فقد أفادت أرقام الاحصاء لسنة ١٩١١ ان خلال العقد الأول من القرن العشرين زاد عدد الزوجات الاناث ذوات الأسنان . — ٥ من ١٣ الى ١٤ بالآلف ، وذوات الأسنان ١٠ - ١٥ من ٤٢٣ الى ٤٣٠ بالآلف وذوات الأسنان ١٥ - ٢٠ من ٧٧٠ الى ٨٠٠ بالآلف . وبعبارة أخرى ان في سنة ١٩١١ كان أكثر من العشر من كل ألف من بنات الهنود متزوجات دون سن العاشرة ، ونحو النصف متزوجات دون الخامسة عشرة وأربعة أخماس متزوجات دون العشرين » .

لهذا السبب ارتفع مستوى المواليد ارتفاعاً هائلاً . قال وطال : « غير أن هذا الارتفاع ما كان للبلاد أمراً نغبط عليه ولا تسر له . اننا قد عرفنا أسباب ارتفاع مستوى الوفيات فجعلنا تتداركه بوسائل التخفيف ، ولكن هل يعقل أننا نستطيع احتمال هذه الحال طويلاً ما دامت جارية هذا المجرى بحيث ان مستوى المواليد يبلغ ٣٠ بالالف ومستوى الوفيات هابط الى حد يقرب من ذلك الذي في انجلترا وسكوتلندة ؟ أترحب بلاد الهند بزيادة الساكن ٢٠ بالالف كل سنة ؟ اننا بلاريب نلتقي جزاء مرأ على جلبنا الى هذا العالم نسلاً أكثر مما نستطيع حقا بعوده وتريبته . فان رمنا ارتفاع مستوى الوفيات في البلاد وجب علينا إهباط مستوى المواليد الى الحد الذي يتساوى عنده مع السويات النازلة في البلدان الاخرى . من هذا يعلم أن ارتفاع مستوى المواليد في الهند هو علة بلاننا وأصل

شقائنا ، وسبب هذا الخطر الاجتماعى الهائل الحائق بنا . فارتفاع مستوى الوفيات وان كان من دواعى الاسف فهو ناشئٌ بطبيعة الحال على ارتفاع مستوى المواليد .
 ثم يصف المستر وطال مستوى الوفيات الهائل ، ولا سيما وفيات الاناث مما غالبه ناشئٌ عن الولادة الباكرة . ويصف أيضاً وفيات الاطفال التى تقشعر منها الابدان اذ نحو ٥٠ بالمئة منها سببه الاسقاط والاجهاض . هذا جزء الزواج الباكر ، الجزء الوفاق ولا بد منه .

« اذ يجب على كل شخص فى الهند ذكراً كان أم ائى أن يتزوج سواء كان صالحاً لذلك أم لم يكن . لهذا ترى الصبيان والبنات يصبحون آباء وامهات ابكر ما يكون . » على أنه من المعلوم أن الزواج الباكر هو غاية ما بعدها غاية فى الضرر ، ومفسدة لصلاح الجنس وصحة الجرثومة وقاض على سلامة المزاج . وهذا الزواج الباكر هو أشيع ما يكون فى العناصر الدنيا من أهل البلاد الاصيلين « كالبارياه » والمنبوذين . وقد بات من الواقع أن حيوية أهل الهند على الجملة أخذت تنحط وتندلى . وتفيد أرقام الاحصاء أن عدد المسنين والشيخوخ فى تناقص وهبوط . وتؤيد ظواهر الحال هذه الحقيقة ، اذ غدا من يعمرن ويهرمون أقل من القليل فى بلاد يبلغ عدد ساكنها مئات الملايين ، قال وطال : « ان الجيل المقبل تعوره آفات شديدة وهو فى طلائع الحياة ، فالاعمار تقصر ، وحبال الحياة تتصرم ، وشيوخنا اليوم أقل منهم بكثير منذ ثلاثين أو أربعين سنة . فهل تأملنا فى جسامه الخطر الحائق بحياة الامة جمعاء ، وتبصرنا فى اعداد الوسائل التى نستطيع بها درء ذلك ، ان الوطنيين الشيوخ الذى هم وحدهم يستطيعون بطول خبرتهم وواسع حكمتهم وسديد رأيهم ، تولى مناصب الأمر والنهى ، والقيام بالشؤون العامة الكبرى فى البلاد ، بات الموت يحتظفهم الواحد تلو الآخر . فعدت مصالح التدبير والقيادة والزعامة والارشاد فى بلادنا ، المصالح التى لا يقوم بها فى بلاد الغرب غالباً الا اخوانه النهى الراجحة واصحاب الحنكة العظيمة ، يتولاها عندنا فتية لم تصقلهم التجربة والخبرة ولا كسبتهم الايام حنكة صادقة ولا بصيرة نافذة . »

وبعد أن أئذر المستر وطال ابناء بلاده بأن ترقية الطرق الزراعية ، ونمو الصناعة والهجرة من مقاطعة الى أخرى ، كل ذلك ليس من شأنه انقاذ البلاد من شر هذه الزيادة

في عدد القطين ، الزيادة التي بات بسببها غالب أهل البلاد لا ينالون من الرزق أكثر مما يسد خلتهم وينتشلهم من أنياب المسغبة ، أشار الى ظهور بعض التبشير الحسنة الدالة ، مع شدة رسوخ الدين والعادات ، على أن أهل البلاد شرعوا يدركون خطر الحالة ، وعلى أن هناك أمارات في بعض البلاد تنبئ بأن مستوى المواليد أخذ يكون عند حد . ومثال لذلك فقد اقتطف المستر وطال من البيان الرسمي لاحصاء سنة ١٩٠١ هذه العبارة المشيرة الى شئ من الهبوط في مستوى المواليد في بنغال : « ليس تأخير الزواج هو كل السبب في تناقص المواليد ، بل من جملة الأسباب الرغبة في تقليل النسل رغبة ناشئة عن تبصر وروية . . . وما هو جدير بالملاحظة ان بعض الطوائف في « أسام » قد شاعت فيهم عادة استعمال الوسائل لاسقاط الحمل .» وجاء في تقرير اللجنة الصحية في « أسام » سنة ١٩١٣ : « يظهر أن السبب الخطير في هبوط مستوى المواليد ناشئ عن اختيار ورغبة في تقليل النسل .» على أن هذه التبشير واللوائح الدالة على صيرورة مستوى المواليد متراوفاً في حدود محتملة انما هي موضعية ، فليست بالوسيلة الكافية لانقاذ الهند من خطر جاوز الحد . فالحالة تدعو الى مزيد التبصر بالعاقبة وتقتضى السرعة في اتخاذ الذرائع الناجعة . قال المستر وطال : « ان النتيجة لواقعة دون مرد ، فلا نستطيع بعد التغاضي عن هذه الآفات الاجتماعية التي تقرض جسم الأمة . فلنعلم أن الآلة المحركة قد حلت محل عجلة الثيران في بلادنا بحيث بتنا بسبب هذا التغير نتنازع البقاء مع الشعوب الأوروبية وهي أشد منا حولاً وأرقى سويلاً ، فلا نستطيع بعد أن نقول لهذه الشعوب ما قال ديوجينوس للاسكندر « حد من شمسى .» ومن الراجح أن سيعود أهل العلم بعد أن تضع هذه الحرب العالمية أوزارها فيبحثون في مسألة زيادة السكان ، وربما ذهبوا في آرائهم الى الرغبة في تحييد الزواج الباكر وتكثير النسل تعويضاً عما اجتاحتته الحرب من الأنفس ، ولكن ذلك أولاً ليس من طبيعته تسوية قضية الساكن في بلادنا ، وثانياً سيكون رد الفعل الذي يدعو اليه أهل العلم قريب الأجل .»

والكتاب حافل بمثل هذه الحقائق الجلية . وعدا ذلك فلا نغفل عن أن الهند وان كانت أكثر البلدان عناء من زيادة عدد الساكن فالحالة في سائر الأقطار الشرقية مثلها في الهند ، إذ أن التبصر في تحديد مستوى للمواليد مفقود من الشرق كله . وهناك الى جانب

هذا الازدياد فى عدد الأهلىن ، تلك الشرور الاجتماعىة والاقتصادىة التى تقدم الكلام عليها . لهذا نرى فقراً شديداً ، وضعفاً بيناً مرافقين هذا الدور دور التطور والانقلاب فى جىع أقطار المشرق .

على أن المشاركة جىعاً ، سواء كانوا من سكان المدن أم من أهل الرساتىق والقرى يكادون لىجاوزون فى ابتغاء الرزق حد الكفاف . قال الاقتصادى الانكليزى براىلسفورڍ يصف حالة الفلاح المصرى : « ان مناظر الفاقة التى رأيتها فى القرى لم أشاهد مثلها قط فى جبال مكدونىة ولا فى بقاع دونىغال . . . فهذه القرى فى مصر انما هى ركام من الاكواخ المبنىة من الطىن ، لاىتحللها أشجار ولاأزهار ولاغىاض ولاجنان ، والأكواخ من الداخلى ليست مستوىة الأرض ولىس لها نوافذ فهى أشبه بالسرادىب الصغىرة مؤلفة فى الغالب من غرفتىن صغىرتىن غير مشىدتىن بالحص ولا مفروشتىن بالبسط والطنافس . أما الأكواخ التى دخلت إليها فلم يكن فىها من الأثاث والماعون سوى بعض أدوات الطبخ وحصىر يقوم مقام الفراش وجرىة مملوءة من طعام الذرة » . وقال موظف برىطانى من موظفى مصلحة الصحة فى الهند يصف حالة الفلاح الهندى . « لابد للرأى أن يرى كل عائلة تسكن مخدمأ صغىراً جدرانها وأرضها من الطىن ، مشتملاً على ساحة صغىرة أمامها ، فىها الأقدار كومأ هنا وهناك ، وزرىبة المشاشىة ، وبئر تملأها الأمطار والمياه الجارىة إليها من على وجه الساحة الوضرة . وهذه الأكواخ لصىق بعضها ببعض بحيث تتألف منها قرى ومدن كبرىة على هذه الصفة » .

والحالة فى المدن شر منها فى الأقالىم ، لأن مزدجات الساكن فى مدن الشرق تفوق تلك التى فى مدن الغرب . وقد وصف الكاتب الفرنسى لويس برتران هذه المزدجات فى بعض مدن الشرق مثل القاهرة والقسطنطينىة وبيت المقدس وصفاً وافىا يضىق المقام عن اىراده كله فنجتزى بذكر بعضه . قال الكاتب فى شأن مزدحم الساكن فى القاهرة : « لعل للخصاصة والفاقة فى بيوت الطبقة الفقىرة فى القاهرة وسائر بلاد مصر أشد منها فى سائر الأقطار الشرقىة ، فمثل هذه البيوت مؤلف فى الغالب من غرفتىن أو ثلاث لانوافذها لدخول نور الشمس والهواء النقى ، متصلة باىوان لاىقل ظلمة عنها ، وترى الدمام يتساقط من السقوف ومن ألواح الجدران الخشبية النخرة على أرض المسكن الوسخة . والهوام

والحشرات مستقرة على الحصر والفرش .

وهكذا الحالة في الهند . قال فيشر: « كانت قد نشأت قضية ازدحام السكان وقد اشتد التشاح على السكنى في مدن الهند قبلما أخذت الصناعة في النشوء والنمو المطرد . فلما انتشرت المعامل الصناعية بانت ألوف من العمال والعمالات ، يشتغلون ليل نهار ، بحيث لا يستطيعون بعد الفراغ من عملهم الابتعاد كثيراً من العمل للمبيت بسبب نهافة قواهم وشدة اعيائهم ، فلذلك تراهم يعيشون في البيوت والمساكن القريبة المطبقة بعضها فوق بعض وهم يزدحمون فيها ازدحاماً شديداً ، وإذ لامتنع لسكنى الجميع فمن منهم لا يتيسر لهم المبيت في هذه البيوت القريبة ، ينتشرون في الأسواق ويتخذونها بيوتاً ومساكن . وقد بلغ ثمن الفدان الواحد من الأرض حيث الأماكن الغاصة في كلكتا منذ عشرين سنة (أى منذ سنة ١٩٠٠) ٢٠٠,٠٠٠ ريال » وقال كاتب غربى يصف كلكتا بأنها منقطعة النظير في سوء الحال في الشرق « العمال على اختلافهم يعيشون في المزدحجات الفاسدة الهواء عيشة أشبه بعيشة الخنازير . فالبيوت انما هي منتشرة الأبخرة الضارة ، والبلايع والأقنية ملائى بسوائل الأوضار والفضلات . والطرق متدمنة بما ارتص فوقها من الأقدار . والابقار تشرب من الآبار المستقرة فيها تلك الأوساخ وليست الأفران والتناوير بأقل سوءاً من سائر مرافق المساكن » . والحالة في سائر المدن والمراكز الصناعية في الهند على غرار واحد . فقد ذكر موظف وطنى من موظفى مصلحة الصحة في تقرير له بشأن مزدحجات الساكن في بومبى سنة ١٩٠٤ ما يأتى : « فى هذه البيوت والمساكن التى هى منشأ الجرائم المختلفة ، ومرتكب الجرائم ، ومستقر الأمراض والأوبئة والفاقة والرذيلة ، يعيش أناس فيهم المارض والفاجر ومدمن الخمر والجاهل والغبي ، قطعاناً أشبه بقطعان الحيوانات فى زرائبها ، يزحم بعضهم بعضاً » .

زد على ذلك ان الحالة فى المدن تزداد سوءاً لانحسناً كما هو ظاهر . يتضح من جميع هذا أن قضية ازدحام الساكن تعظم شأنها أكثر من أية قضية سواها فى الشرق . ففى مفتتح هذا القرن كان الازدحام فى المدن التى هى اليوم مراكز صناعية فى الهند مثل كلكتا وبومبى ولكنا ، على نسبة تفوق نسبة ازدحام لندن ثلاثة أضعاف . ثم جاءت الحرب الكونية العامة فأقامت وأفعدت . وزادت ضائقة السكنى شدة . وقد كان من شأن هذه

الحرب العامة في الشرق كما في الغرب أن سببت استحكام حلقات الضيق حتى تلاشت به أسباب الكسب وضقت أبواب الرزق ، فتغيرت الحال . فبات الألو ف المؤلف من الخلق تؤم المدن والحواضر ابتغاء وسائل المعيشة فاكتظت هذه بمن لجأ إليها ، ووقفت أعمال تشييد المنازل والبيوت والمساكن بسبب غلاء الأجر والاثمان والنفقة غلاء فاحشاً غير مسبوق المثل ، فنجم عن جميع ذلك ارتفاع أجرة السكنى الى حد غير محتمل مما وافق هوى أصحاب العقار ، فانطلقوا يستنزفون أموال الناس بهذه الوسيلة وأماها . قال فيشر : « قد ارتفعت أجرة المساكن ٣٠٠ بالمائة ، ولم تر الحكومة من ذريعة للقضاء على ذلك فاضطرت الى مماشاته بما سنته من القوانين ووضعته من الأنظمة . فاجتمعت ألو ف الناس في بومبيء يحتاجون على هذه الحال ، الأمر الذي حل الحكومة على اتخاذ التدابير المانعة لزيادة استفحال الأجر ، فعينت الحد الأعلى لها فيما يتعلق بمساكن العمال وأهل الحرف والمهن . ولكن هذا العمل إن هو الا من قبيل تخفيف الوطأة وليس من شأنه أن يزيد عدد المساكن والمنازل . »

ولا يندون عن البال ان غلاء أجرة السكنى هذا الغلاء الفاحش انما هو جزء من جملة الضيق الذي عمت بلواه الحياة بأسرها وهو ما انفك يتصاعد في الأقطار الشرقية منذ عشرات من السنين ثم شرع يستفحل منذ سنة ١٩١٤ . كتب برتران في وصف الحال في الشرق الأدنى منذ بضع عشرة سنة فقال : « أينما كنت أسير في الشرق الأدنى ، في القسطنطينية أو أزمير أو دمشق أو بيروت كنت أسمع التذمر من شدة غلاء المعيشة من جميع الجمهور وطنيين وأجانب » . أما الحالة اليوم فأدهى وأمر . قال السرفالنتين تشيرول في وصفه الحالة في مصر منذ الحرب : « ان ارتفاع أجرة العمال هذا الارتفاع الهائل لم يكن على مقدار متناسب مع غلاء الأسعار ، بحيث ان العامل غدا لا يستطيع ممشاة السوق وأصبح عاجزاً عن تحصيل ضروريات المعيشة ، وهذه الحال هي أشد ما يكون في المدن والمراكز الصناعية ، حيث أهل الطبقات الدنيا من عمالة وساقه وحوذيين وباعة وغيرهم لاطاقة لهم البتة على احتماها » . فنشأت عن هذه الحالة العامة البلوى ، الشادة للخناق ، المستحكمة عرى الضيق ، مظاهر فساد الأخلاق كشرب الخمر وانتشار الفجور وارتكاب الاجرام والجنايات . وقامت دلائل عديدة على نشوء الفلق الاجتماعي والاضطرابات الثورية والهياج الفكري ، مما نبسط الكلام عليه في الفصل الآتي .

الفصل التاسع

القلق الاجتماعي والبلشفية

ان القلق والاضطراب ، هما المصاحبان الطبيعيان للتطورات والانقلابات لاسيما الفجائية منها . فكل انتقال من حالة قديمة الى أخرى جديدة ، وان كان ذلك من القسم المعتاد وبما لا بد منه ولا مندوحة عنه ، من شأنه أن يتكيف بالضرورة على مقتضى تلك الحالة الجديدة التي من خصائصها الشعور بالاختلال والاضطراب الى أجلٍ ما ، الى أن يجري التكيف الى مستقر له وتستحكم صبغته ويثبت لونه . فلذلك ليس في القلق المرافق للتطور شيء من الغرابة ، ولا ذلك التطور بجملمته خارج عن السنة الطبيعية ، بل القلق مستقر في طبائع كل مجتمع من المجتمعات البشرية التي لم تنته الى الدرك الأسفل من الانحطاط والتدلي بعد . ثم ان هذا القلق اذا كان على مقدار قليل اعتبر دليلاً على الارتقاء الاجتماعي الصحيح وبرهاناً على النمو العمراني السليم ، ولا يصح أخذه أمانةً من أمارات الاعتلال ولا علة من علل السقم . واعتبر فوق جميع هذا انه اذا كان هذا القلق ضيق الدائرة بحيث لم يجاوز الحد الأدنى ، فلا يعرف في الغالب هذه المعرفة التي ذكرناها ، ولا يفهم على هذه الصفة ، بل يعتبر عارضاً من جملة العوارض المسببة عن النشوء الطبيعي والارتقاء المعتاد . وفي مثل هذه الحالات يعمل الجهاز الحى في الجسم الاجتماعي عمله ويقوم بوظيفته ، على حد ما يعمل الجهاز الحى في جسم الفرد الانساني ، وهي أبدأ دون انقطاع في دنور وتجدد واضمحلال وظهور ، ايلاًفاً لتطورات الحياة ، وملائمة لبيئتها على ما يقتضيه عامل التكيف . ولهذا التحولات على الجملة شأن خطير . وهي من التدرج والسير شيئاً فشيئاً بحيث انها تحدث وتم على صورة يكاد لا يشعر بها ، ووجه لا يدركه الا المستبطن الحكيم والعارف اللبيب . فالعضوية الحية السليمة ، الصحيحة العنصر من حيث هي ، الملائمة لمقتضى البيئة ، انما هي على

الدوام قابلة للتكيف والتبدل ، ومستعدة استعداداً طبيعياً لاتخاذ شكل جديد واكتساب صورة غير صورتها المعهودة ، وهي بسائق السنة والهداية تسير في سبيلها متلمسة بمشاعرها التطورات التي تقضى بها عليها البيئة ، وتستوى معها باللائمة وتجانسها بالايلاف ، حتى تكون سالمة من شائبة الاختلال ، ناجية من الفوضى وعواقبها الضارة وتناجها المفسدة .

ولكن ليست كذلك صفة القلق الناشئ عن التبدل العنيف والتغير المفاجئ . فان التبدل والتغير اللذين من هذا النوع يدلان على تطور سريع ، يحدث ويجري مجراه ساحباً جرافاً ماهو أمامه ، وانقلاب بديه من القديم الفاني الى الجديد الواقع ، فيعتل التكيف ويختل التلاؤم ، اللذان تقتضيهما عوامل البيئة الجديدة ، لقصر ما بين الاضحلال والفناء ، والظهور والكيان . ذلك بعبارة أخرى ، ان القلق العنيف ، الشديدة الحركة ، دليل لامشاحة في صحته على الاعتلال الاجتماعي ، المنذر بامكان وقوع البحران ، والذي يظهر في المجتمع على حين غفلة ، ذلك البحران المعروف « بالثورة » .

ان تاريخ الشرق الاسلامي ليصح أن يتمثل فيه معنى المفاجأة الذي تقدم فقد كان عصر تكون الحضارة العربية ونشؤها متصفا بسرعة التطور والانقلاب الفكري العظيم وتلك فرقة المعتزلة قد اشتملت تعاليمها (١) على ضروب عديدة من منازع الأفكار والآراء حتى ذهب الغلاة من هذه الفرقة في تعاليمهم الدينية والسياسية والاجتماعية منهدباً تجلت فيه خصائص الانتقال الفجائي ، والاستحالة الثورية العنيفة . غير أن ذلك العصر ، عصر الانقلاب والتغير ، والتطور الى حد بعيد ، قد كان قصير الأمد . قلما نستطع الحيوية العربية والروح الاسلامية بما فيهما من العوامل ، أن تخمرا ما كان في الشرق القديم عهدئذ من القوى النامية المكتنفة بطبائع وأمزجة مختلفة تخميراً باقى الأثر طويلاً . لهذا لم تلبث السنن التقليدية أن عادت فانتشرت وتمكنت ، وعليها غشاء من أثر التطور العرضي ، والعناصر الاصلية لتلك السنن ظلت على صفتها دون أن يتناولها مؤثر يغير من جوهرها . ثم أخذت الحضارة العربية ، وقد عراها جود وكهامة ، وفشا فيها الانحلال ، تنقص وتنقبض ، فتلاشت بواعث التطور وسكنت عوامل التغير وضعفت روح التجدد

واضحلت العلامات الدالة على سير الانقلاب ، ولم يبق بعد طموس معالم تلك الحضارة الا تقاليد الغلاة ، تلك السنن التي احتفظ بها في بعض المواضع العربية ، وكانت تتحدر تحدرآ خفيا في بعض الاقوام كفرق الخوارج^(١) الناهضة من قلب شبه الجزيرة ، ودرأو يش البكطاشية^(٢) غير أن هذا جميعه لم يزد على كونه من العوارض المستترة ، دون أن يكون لها أهمية كلية .

فاما تبدلت تباشير اليقظة الاسلامية في مفتح القرن التاسع عشر ، طفقت الدلائل تكثر على تجدد الحركة الاجتماعية ، وظهور ما في الهيئة الاسلامية من القوى بعد هجعتها الطويلة . فنشأت الوهابية ولم يكن غرضها الاصلاح الديني فحسب ، بل الاجتماعي أيضا ، فشرعت تنعى على المجتمع الاسلامي المعاصر انحطاطه وتدليه ، وتزعم منزعا شديداً الى القيام باصلاحين معاً . وفي كثير من حالاتها اتخذت الوهابية الفتنة أو الثورة الاهلية شكلا لخروجها على الحكومات الحاضرة . ومثل هذا كان غرض الحركة البائية^(٣) في ايران الحركة المشابهة للوهابية في الغاية ، وبين منشأ الحركتين عهد قريب .

ومن المعلوم أن هذا الفلق المتجدد في العالم الاسلامي كان الباعث له والسبب فيه هو تدفق المؤثرات الغربية من آراء وأفكار وأساليب في كل أفق من آفاق الحياة ، وهذه المؤثرات لم تنفأ طيلة القرن التاسع عشر تنتشر في الشرق وتنبث في جميع أقطاره بدون انقطاع . ومن أراد البرهان فليعلم أن ليس هناك من باعث على الاضطراب أشد وأقوى ، وهائج للقلق أمضى وأفعل ، مما هو حاصل اليوم من التطور والانقلاب في الشرق - التطور والانقلاب اللذين هما من السرعة والأهمية ، واقتضاء التكيف ، بحيث أن ماهيتهما تدل دلالة صريحة على اهمهما أطبق على صفة الانقلاب الثوري المفاجئ ، مماهما على شكل النشوء والترقي . وقد بسطنا الكلام وافية على مجارى هذه التطورات العميقة من جميع وجوهها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى ما يصاحبها بطبيعة الحال من الهياج والحركة في الخواطر ، ومن الأزمة والبحران في كل طبقة من طبقات المجتمع الاسلامي ، في هذا الدور العصيب .

(١) اقرأ التعليق الوارد على الخوارج في آخر هذا الكتاب . (المغرب)

(٢) اقرأ التعليق الوارد على البكطاشية في آخر هذا الكتاب . (المغرب)

(٣) اقرأ التعليق الوارد على البائية في آخر هذا الكتاب . (المغرب)

وقد وصف اقتصادى بريطانى كيفية الانقلاب الثورى الحادث فى الهند وصفاً شافيا وأوضح سعة الشقة بين سوى المدن والحواضر، والسوى القروى فقال : « ان أقاليم الهند لم تبرح على حال من بساطة العمران والتأخر المدنى كالتى عرفت فى القرون الوسطى فالمدن والحواضر قد انتشرت فيها أساليب هذا العصر وفنونه حتى باتت أشبه بمدن الغرب وحواضره ». وفى هذه المدن والحواضر الهندية تجدد الحياة على الطراز الغربى « مستوفية كل نسقٍ جديد ، مع جميع المرافق المستحدثة ، وذلك ظاهر فى حياة أرباب المصارف والمعامل حتى باعة الخولى والماعون . فعظم الاختلاف وطالت شقة التباين بين الحياتين ، حياة المدينة وحياة الاقليم . ومن المؤكد الذى لامرأ فيه ان هذا البون لم يكن له مثيل قط فى جميع التاريخ الاقتصادى المعروف الى اليوم ، اذ لاتجد بلاداً سوى الهند قد جمعت بين هاتين الحالتين المختلفتين ، حالة المدن والحواضر ، وحالة القرى والاقاليم ، فى أى عصر من عصور التاريخ الاقتصادى فى العالم » . تصور لك دوراً مثل هذا فى أوروبا فيما لو قدر اجتماع أوربى حديث مع آخر قديم من القرون الوسطى ، وكلاهما نقيض الآخر رأياً وفكراً فما أوسع المغايرة بينهما وما أعظم الاختلاف . لكن هذا لا يقع فى أوروبا اذ كان تقدمها الاقتصادى ناشئاً بالتدريج يرتقى ارتقاء طبيعياً . وقد دامت هذه الحال قروناً . وليس كذلك التدرج الاقتصادى فى الهند ، فانه ثورى فجائى .

ومن يستقص طبائع هذا الانقلاب فى الهند اليوم يعلم حق العلم مبلغه من الموائبة والسرعة ويدرك أنه حركة ثورية .

« ان أقاليم الهند وان كانت لم تنزل على حال السداجة ، فقد انتشر فيها كثير من الآراء والأفكار والمبادئ الناقضة لتلك الصبغة الباقية منذ القديم . فلما نشأت الصناعة فى البلاد صارت أجور المنافسة تبارى الاجور المحدودة فى البلاد منذ أزمان طويلة ، وأضحت الأثمان تارة يحددها العرف والعادة ، وتارة تحددها العوامل والأسباب الاقتصادية الحرة . وأخذ العمال الذين لم يكن من شأنهم ولا شأن آبائهم وأجدادهم من قبل ، الانتقال والهجرة ابتغاء أسباب المعيشة ، ينزحون من اقليم الى اقليم سعياً وراء الأجور الحسنة . ثم انتشرت أسباب وعوامل اقتصادية فجأة فى موضع موضع ، وشرعت تعمل عملها فى مجتمع لم تبرحه صبغة السداجة منذ قرون . هذه هى الحالة فى الاقاليم . اما الحالة فى المدن والحواضر فتكاد

لا تختلف عنها من حيث انتشار العوامل الاقتصادية ، ولكن هناك اختلافاً في بعض الوجوه . . . ان هذا الانتشار في المدن والحوضر لم يكن من شأنه الامتزاج بتلك الهيئة القديمة امتزاجاً تاماً . فبات النظامان القديم والجديد يتناحran أشدّ التناحر .

« فالهند ، وهذه حالها اليوم ، تجتاز ثورة اقتصادية هائلة ، وهذه الثورة متناولة كل طبقة من طبقات المجتمع المتعدد الأوصاف . واعلم فوق هذا ان الدور الوحيد الماضى ، الذى تشبه فيه أوروبا الهند الجديدة بعض الشبه انما هو دور ثورتنا الصناعية التى لم يهدأ نائرها في الغرب حتى اليوم ، ولا استقرت حالها استقراراً مكيناً . ولما لم يكن حدوث الحركة الفكرية العقلية التى ظهرت في الثورة الفرنسية معاصراً لحدوث الثورة الصناعية ، فقد حصل لأوروبا من ذلك لطف عظيم ، اذ لو حدثت الثورتان معاً لكان من المحتمل ان المجتمع الاوروبى قد انهار ودُكت أركانه دكاً حتى الأساس . ولكن بعد أن أضحت الثورة الفرنسية خاتمة القوى مسالوبة المنة ، بسبب كثرة الحروب النابليونية ، نشبت الثورة الصناعية فألهبت المجتمع نار سخط مستطيرة . انه لمن المعلوم الذى لاريب فيه ، أنه متى قضى التطور الاقتصادى على شعب كامل ، بأن يبدل على اختلاف طبقاته معيشته تبديلاً رامياً الى التحسين والترقية ، كان لابد لجانب من هذا الشعب من أن يعانى الالم والضنك فيشتعل غضبه اشتعالاً . ثم تظهر على أثر ذلك الحركات السياسية العنيفة ، وتنشر عوامل الخراب والبوار في المجتمع . فما نشأ عن الثورة الصناعية ليس ثورة سنة ٤٨ ، حسب ، بل نشأ الحزب الاشتراكى أيضاً .

« على ان تلك الثورة في أوروبا ، ما كانت جارفةً مثل الثورة القائمة اليوم في الهند . فان استكشاف البخار واختراع الآلات المحركة في أوروبا ، كان يتدرج الى الكمال شيئاً فشيئاً طيلة قرون . وخلال هذه المدة كانت التجارة والصناعة على امتداد وانتشار دون انقطاع ، وكانت رؤوس المال تنمو وتتراكم ، وكانت القواعد والأصول الاقتصادية تزداد ثباتاً ورسوخاً . . . أما الثورة الاقتصادية في الهند فهى أعظم شأناً ، وكان مشارها أوسع مضطرباً من ثورتنا الصناعية . فالمسالك الحديدية قد أنشئت في طول البلاد وعرضها حتى وصلت بين الأقاليم التى كانت الأسفار فيها من قبل غير مستطاعة والطرق غير معروفة . وشيدت المعامل وملئت بعمال لم يسبق لهم مران على القيام بالأعمال

الصناعية . وطفقت رؤوس المال تتدقق على الهند ، البلاد التي لم تكن على استعداد لأن تستحث هذا الاستحثاث الهائل في سبيل التقدم والترقي . فإذا كانت تتأجج جميع هذا ترى ؟ تفككت أوصال النظام الاجتماعي في الهند تفككاً تاماً وتقوض بنيانه تقوضاً . وانقضى الزمن الذي كان فيه البراهمة كهنة وسادة ، وفلاحو الهندويين عبيد الأرض وارقاءها ، والمرابون الهندويون أرباب رؤوس المال المحتججة بين أيديهم . وبات الآلات المستحدثة تهدد الحاكمة اليديويين بالقضاء على صناعتهم ، وصار النحاسون لا يستطيعون جني المكاسب من وراء مهنتهم ، فما اعظم هذا الانحلال الذي سببه التطور الفجائي ، وما أكثر الذين حال التطور بينهم وبين الانكماش والجد في حرفهم الموروثة ، ثم قارن ذلك بما حصل من نوعه في أوربة ، والثورة الصناعية في أوربة كانت أضيق نطاقاً ، تعلم للحال حق العلم ماهية العوامل الكبرى والبواعث العظمى في هذا الاضطراب السياسي . وليس هذا بداعي العجب بل داعي العجب كون الاضطراب لم يكن أشد وأقوى . انه لو لم تكن الهند لعمرى بلاداً شرقية اسيوية لكانت ثورتها هذه قد اشتعلت نارها من قبل هذا العهد بزمن طويل .

ان هذه السطور قد دبحها كاتبها الاقتصادي في مفتح القرن العشرين قبلما اربدت جو العالم بسحب الكارثة العظمى ، وزلزلات الارض زلزالها بهذه الحرب الجارفة ، ونشبت الثورات الاجتماعية الآكلة في روسية الآسيوية . على أن بعض علماء الشرق الأعلام كانوا قبل الحرب يندرون العالم بنشوب ثورات اجتماعية لا تبقى ولا تذر في اقطار المشرق . قال الزعيم الهندوي الوطني الكبير بين شندراپال : « ان هذا الاضطراب ليس في الحقيقة سياسياً ، ولكنه بحقيقة جوهره نهضة فكرية عقلية روحانية . تُعدُّ بشير ثورة اجتماعية عظيمة ، يتلوها نظام جديد وفلسفة جديدة في الحياة » . وقال الكاتب الفرنسي شلي في شأن الهند أيضاً : « ستحدث سلسلة من الثورات الاقتصادية آخذاً بعضها برقاب بعض ، وسيصحبها بالضرورة شدة هائلة وألم عظيم يعانیهما الشعب » .

وكأنما الضيق المزدد في احوال المعيشة قبل الحرب ، مع الاقبال الكثير على اتحال الأساليب الغربية في الرغادة والنزوع الى ضروب المرافق الجديدة على حسب ما يقتضيه المستوى الجديد ، كل ذلك كان باعثاً على اشتداد المزاجية بين طبقات كل شعب من

الشعوب الشرقية . فقد كتب خير صحى بریطانى سنة ١٩١١ يقول : « الفاقة والشقاء هما علة العلل فى الاضطراب السياسى فى الهند » . وبعد أن وصف الكاتب ما تعانيه عامة الهند من البؤس الشديد قال ورب قائل يتندر القول ان هذه الحالة ليست بحدیثة فى الهند بل هذه صفتها منذ الازمان الطويلة ، فلذا ليس من شأنها ان تكون اليوم أبعث على القلق والاضطراب منها فيما مضى . غير ان الحقيقة على ما أرى هى بخلاف ذلك . اذ ان القلق والاضطراب كانا نأثرین على الدوام ثوراناً مستتراً يستينيه كل من تدبر سير الانقلاب قليلاً . زد على ذلك ان عامة الطبقات الدينية كانت فيما مضى ، من رقة الحال وشدة الفاقة ، بحيث كادت تكون النسبة بينها وبين غيرها من الطبقات السعيدة ، مفقودة . اما اليوم فتستطيع هذه الطبقات ان تفخر بشأها وتقارن بين حال مزدحمت ساكنها ومحلاتها الوطنية التى تقيم فيها وبين محلات سكنى البريطانيين وأكثر منازلهم ترتيباً ، بل وبين منازل الموسرين والوجهاء من سائر ابناء البلاد . فتلك الفاقة كانت أبدأ سبب الاسباب فى نشوء الفلج العام . . . وما الاجتماعات التى يظهر فيها الهرج والمرج والثرثرة السياسية وتصعد منها نفثات الصدور ، الامظاهر ابتدائية يتلوها اضطراب عميق الغور بعيد المرمى وقلق راسى الجذور رحب الافق .»

لاريب ان من الاسباب الكبيرة فى حصول هذا النزاح والتكالب الاجتماعيين الآخذين فى الازدياد والتعاظم ، هو ما ينقص المشاركة على العموم من حب التعاون الاجتماعى ، وقلة اكرامهم بمقاسمة بعضهم بعضاً الضراء ، وبعدهم من التساهم فى تحمل البلاء ، واعراض كل جانب منهم عن مديد النصر الى الجانب الآخر ، وشأنهم هذا معروف لاسيما حيث لا تجتمع أواصر القربى وصلات الارحام بين فريق وفريق ، ولا تربط بينهما مرتبة أو طائفة أو عرف أو عادة . فالنعاون الاجتماعى بمعناه الغربى يكاد يكون مفقوداً فى جميع البلدان الشرقية . على ان بعض العلماء الشرقيين ما كانوا ليغيب عنهم العلم بهذا النقص الذى فى مجتمعهم ، فقد قال كاتب هندى فى كلام له على حياة الهندى فى المدن والحواضر : « ان النعاون الاجتماعى ليس معروفاً عندنا على مقدار يصح القياس عليه . . . ان الاصلاح الاجتماعى فى الهند لم يبرح حتى اليوم مقصوراً على نطاق حياة الفرد أو الأسرة ، أما الاصلاح الذى يجب أن يتناول سواد الجمهور بصفة كونه مجتمعاً انسانياً ، وان يتناول أهل المدن

على الخصوص وهم أقل أهل البلاد مروءة صحيحة ، فلم يدشر بانجيله بعد « (من كلام ليوسف على في كتابه « الحياة والعمل في الهند » لندن سنة ١٩٠٧) وقال عالم أميركي من علماء العمران الاجتماعي يشير الى تزايد الشرور الناشئة عن حال زدجات المساكن في جميع الاقطار الشرقية التي انتشرت فيها الثورة الصناعية : « ان الخطر الاكبر ناشئ بلاريب عن عدم شعور الشرقيين شعوراً مثل شعور الغربيين بما لحياة الفرد مجتمعاً مع غيره من الشأن وما عليه من الواجب . فجتمع الشرقيين على الجملة فاقد لتلك الصفات التي يشتمل عليها جمهورنا الراقى الذي ايقظه وهذبه استمرار التنازع الصناعي في الغرب طيلة قرن . وما دام الشرقيون يجهلون هذا النقص ولا يتلافونه بالدواء الناجع فان الشرور لمستفحلة استفحالاً ما عرف مثله في الغرب .

ان جميع هذا القلق الاجتماعي المنتشر في الشرق مستقر في موضعين حديثي الظهور : الأول الطبقة الراقية المهذبة على الاساليب الغربية ، والآخر الطبقات الدنيا التي منها عمال المعامل الصناعية في المدن . وقد أسلفنا الكلام على المنازع الثورية التي عرفت بها الطبقات الراقية ولا سيما منها الجانب الناقص العلم ، وهو الجانب ذو الشأن الكبير في ايقاد نار الثورات والاضطرابات في الشرق الجديد من شمال افريقية حتى الصين . أما طبقات عمال الصناعة فقد يرى فريق من الكتاب ان ليس هناك كبير أمل في صيرورتها عاملاً ثوريا مهماً لما هي عليه من الاستمساك بسنن التقاليد والجهل والبلادة ، ولأنه ليس هناك صلات حقيقية تصل بينها وبين أهل الطبقات الراقية ، المنبعث منهم القلق الاجتماعي على قدر جسيم . ومن يذهبون هذا المذهب في الرأي ، « البرت ماتان » الاقتصادي الفرنسي ، فانه قد أبان هذا ابانةً حسنةً في شأن الهند فقال : « انما قوام النهضة الوطنية هو الطبقات الوسطى ، وهذه الطبقات لا تقوم بشيء يذكر من المقاومة لاصحاب رؤوس المال وأهل المشروعات وأرباب الاملاك ، الذين جميعاً لا ينالهم ضرر من الوجهة الاقتصادية » وأما طبقات العمال الصناعيين : « فلا يأملون ترقية حالهم وتحسين شأنهم بل هم مثل عمال الزراعة ، لا تلمح فيهم أمارة من أمارات الثورة . فالى من يلجأون ترى ؟ أما المراتب الاجتماعية القائمة على سنن التقاليد فغلغلة في وجوههم ولا مطمح لهم في الارتقاء اليها . فتراهم اذلا أمل لهم بمنصب قومي ، يحتقرون من فوقهم من أرباب الحرف والمهن الذين

يعتزون بمراتبهم الطائفية ، ولكن قد قضت الصناعة الآلية على صناعتهم اليدوية . أما الهندوى فيرى ان من اكبر العار عليه ان ينزل الى مهنة العامل الصناعى ، وعمال العامل لم يبلغوا بعد من عددهم حداً يستطيعون عنده التوافق فيما بينهم على صيانة مصالحهم واعزاز شأنهم ازاء المجتمع القديم . ولا عبرة لما يقومون به من الاعتصاب والاضراب فانهم لم يزالوا بعداء من ان ينهجوا منهج الجمعيات الصناعية المنظمة ، بُعدهم من الطوائف العليا التى يستحيل عليهم الارتقاء اليها . وهم بعد كل هذا لا يستطيعون القبض على أزمة مجموعهم وربط بعض حلقاتهم ببعض بحيث يتألف منهم قوة أدبية معنوية لها شأن ومكانة ، لأن النهضة الوطنية ليست قائمة على الطبقات الوضيعة ، وهى ابدأً تستفيد قوة من أرباب رؤوس المال .

« يعلم من هذا أن الصناعة الهندية لم تزل وليدة فى المهدي . فالارتقاء المادى الذى تظهر آثاره بتشييد المعامل والمصانع ، والارتقاء الاجتماعى الذى تميز به طبقات العمال ، لم يبرح فى أول دور من أدوار الظهور ، بحيث ان الارتقاء العقلى الذى من شأنه أن يبعث على وضع الخطط المنظمة لنيل المطالب الاجتماعية لم يظهر بعد . »

على أن كثيراً من أهل العلم فى الشؤون الصناعية الهندية لا يتفقون مع أوبرت مانان فيما ذهب اليه . فقد قال زعيم العمال البريطانى ج . رمزى مكدونلد : « أما التصور الذى يتصوره بعضهم من أن العمال الهنود المنحطين سائر و ن اليوم فى سبيل الارتقاء الى مصاف الطبقات العليا فهو ضرب من الوهم ، غير انى لأصدق بته أن الحال هذه تدوم طويلاً ، والسبب فى ذلك : أن تقدم صناعة المعامل فى الهند قد نشأت بسببه طبقات من العمال الذين لأرض لهم يملكونها ولا موطن يستقرون فيه ، فاذا تدبرت شأنهم وجدتهم لامثيل لهم بهذا الاعتبار فى أى بلد اقتصادى قامت فيه رؤوس المال . وأما التصور بأن عمال المعامل الصناعية فى الهند سيظلون هكذا بعداء عن أن يكون لهم شأن مذكور ووزن مقام فى السياسة الهندية ، فليس الى احتمال ذلك من سبيل . فالعمال قد أخذوا ينجحون الى انتهاج مناهج الجمعيات الصناعية المنظمة ، وانشاء جمعيات من هذا النوع ، فاعتادوا القيام بالاعتصاب والاضراب ، ومن مراعى بعض حركات الاصلاح الاجتماعى التى يقوم بها أهل الفكر من الهنود ، انشاء نقابات صناعية وتجارية متوائمة ، ونشر الآراء والأفكار الشبيهة

بآراء دعوة التضامن الصناعى عندنا . فلو قام أرباب رؤوس المال بسياسة مالية لمناهضة العمال ، لم يكن ذلك مستحسناً شديداً لجمعيات التضامن الصناعى فقط ، كما جرى مثل ذلك فى اليابان من قبل ، بل لعجزت سياسة مثل هذه السياسة فى الهدد عن القضاء على نقابات العملة ، ولن تفلح كما أفلحت فى اليابان على يد القوانين السنوية . فالعمال فى الهدد حالتهم آخذة بالتبدل والارتقاء ، ولن يمضى ربح من الزمن طويلاً حتى ينظموا شؤونهم تنظيماً صحيحاً ينهجون فيه مناهج العمال فى البلاد الاقتصادية الراقية . ومتى مايقظ العمال يقظتهم السياسية كان ذلك بدء السبيل الذى لن يكون لهم وليجة عن سلوكه ، فيدبرون أحوالهم تدبيراً حسناً ويشرعون فى اعزاز شانهم اعزازاً كبيراً .

ونعود الآن الى الشرق الأدنى . فبدأ أكثر من عقد قال كاتب اشترى كى فرنسى مشيراً الى شدة الوطأة التى يعانها سواد المصريين فى أحوال المعيشة ، ومنها الى ظواهر القلق الاجتماعى ، ومنذراً باضطراب هائل ، ما يأتى : « قد نشأت طبقات من العمال بنشوء الصناعة واتساع نطاقها اتساعاً سريعاً صحبه النجاح العاجل ، أما غلاء المعيشة فقد بلغ مبلغاً ما عرفت مصر مثله من قبل . بينما الأجور لم ترتفع الا قليلاً ، فاشتدت الفاقة وعمت بلوى الحاجة . فاذا ظلت الحال سائرة هذا السير فسيأتى يوم ثور فيه سوا كن هذا الشعب من جراء هذه الشدة المستولية عليه ثوراناً أعمى ، حتى تغدو دلتنا النيل الظاهرة عليها آثار الرخاء والنجاح فى حال غير حال . من الممكن أن تدفق الأجانب على البلاد وتدفع أموالهم معهم يبعد قليلاً تلك الساعة من الدنو ، وهى الساعة التى يدرك فيها العامل المصرى ، فى كل مدينة وريف الحال التى سبق إليها ، وهو لعله اليوم لا يدرك فى العامل المصرى ، فى كل مدينة وريف استيقاظه وانتباهه سيكونان فى عهد أقرب مما يخاله بعضهم . اذ ليس ذلك الجانب من المصريين أرباب النجاح والفلاح ، هم وحدهم ذوى العقول الزكية والمدارك العالية ، بل ان العمال المصريين أيضاً ، الآخذة أجورهم بالتناقص المتوالى ، لا يقاؤون ذكاء وفطنة عن سائر أبناء بلادهم ، ولذا قد بات من المتوقع الذى لا ريب فيه مجئ الساعة لانبثاق الاشتراكية الاسلامية فى بلاد المسلمين لأول مرة (١) . » وقال رحالة بلجيكي قبيل الحرب العامة يشير الى تبشير الصباح ليقظة طبقات العمال فى الجزائر ، وسرعة انتشار الآراء

(١) اقرأ التعليق الوارد على المبادئ الاشتراكية فى الاسلام ، فى آخر هذا الكتاب - العرب

والافكار الغربية : « ان الاسلام يرى متمزقا تترق الثوب البالي على أرصفة نجر الجزائر :
 فعمال المرفأء ، ونقلة الفحم ، وساقفة الآلات البخارية ، على اختلاف جنسيتهم ، عادوا لا
 يبالون بالاسلام ، بل ترى فيهم صبغة آداب العمال الأور و يبين راسخة ، وهم يشتركون
 مع زملائهم العمال الغربيين في السعى وراء الغرض ونبيل الغاية ، اشتراكاً قائماً على أساس
 واحد هو وجوب مقاومة أرباب رؤوس المال ونزاعهم نزاعاً اقتصادياً مرأاً . فلو كان في
 الجزائر معامل مثل تلك التي في أوروبا ، لاختفى الاسلام السني من تلك الديار المغربية
 اختفاء الكاثوليكية القديمة من ديارنا أمام تيار الصناعة وثورتها الكبرى^(١) .

على أن هناك أمراً لامرأء فيه ، على اختلاف ماهية المطامح التي ترمى اليها حركات
 العمال المنظمة ، الحديثة الظهور ، السريعة النشوء في الشرق ، هو ان القلق الذي قد
 انتشر في غالب أقطار الشرق في السنوات التي قبل الحرب العامة ، كان اجتماعياً لاسياسياً
 فقط . قالت صحيفة بريطانية هندية من كبريات صحف الهند أواخر سنة ١٩١٣ متشائمة :
 « قد هبطنا مهبطاً سافلاً أفضى بنا الى الانهيار والحراب . فقد غدت بعض الأقاليم التي
 كانت من قبل أكثر أقاليم البلاد الهندية قطينا ، يهجرها الاغنياء اليوم لقلعة الأمن على
 متاعهم وحطامهم . وقد اشتد مقت الناس للقانون اشتداداً هائلاً لأنه أصبح ذريعة يستعين
 بها أهل السجس للاعتداء على الابرياء . وباتت القبائل الافغانية عند الحدود تقترف أهول
 الفظائع . وكثرت اجتماعات الجماهير ، وانتشر الهرج والمرج بداعي التدخل في شؤون
 ليس من شأن الشعب المخلد الى السكينة التدخل فيها . فليس هناك من قضية تدخل في

(١) من قبل الحرب العامة بكثير كان الاشتراكيون الفرنسيين لاسيا الغلاة منهم ينتصرون لأهل الجزائر
 وتونس وسكان المستعمرات ، وكان للزعيم الاشتراكي جوريس منزلة عالية في قلوب أهالي تلك الأقطار .
 ولكن اشتدت هذه الرابطة بعد الحرب العامة كثيراً عن ذي قبل لاسيا بين الشيوعيين الفرنسيين
 والعملة والفلاحين من المغاربة لأن العملة والاكرة في المغرب الأوسط هم في مستوى واحد من الشقاء
 بسبب تسلط المستعمرين . وقد تأسست نقابات لهؤلاء العملة تجمع الذين منهم فرنسيس الى الذين منهم
 مغاربة وكذلك ظهرت لهم جرأء في تونس والجزائر كثيراً ماتعظها الحكومة الفرنسية وتحذر كبار
 المغاربة من سوء مغبة الشيوعه ولكنها تتغافل عن ان اليأس الذي يدفع فقراء الجزائر وتونس الى الانضمام
 الى الفرقة الشيوعية إنما هو أثر ظلم الادارة الفرنسية ونتيجة تحكم المستعمرين في الأهالي وانه لا يمكن
 الجمع بين هذه الادارة العاشمة الاستعمارية وبين منع المبادئ الثورية . (ش)

نطاق السياسة الأجنبية فضلاً عن الوطنية الا ويهيب الناس أفواجاً للحال ، يريدون أن يكون لهم فيها يد مشتركة ، على حين ذلك بجملته لايعنيهم . وصار أحقر شأن يؤخذ سببا للاشتكاء والسخط . وغدا الموظفون في الأقاليم يعانون الشدائد المرة بسبب كثرة الاختلال الناشئ عن اباء الأهالي لطاعة القانون . وقد تألفت جمعيات التضامن المختلفة لصيانة المصالح الأهلية . ويشكو ضباط الجيش والشرط من أن صنف المجندين الجدد أقل طاعه من الصنف الذى كان قبلهم وأعند عند التدريب وأكثر تعنتا وسخطاً .

ثم جاءت الحرب العامة فزادت في هياج الشرق زيادةً عظيمةً . فجمعت الحال في جميع الاقطار ولاسيما غالب الشرق الأدنى ، بين استحكام حلقات الشدة والضيقة ، والمطامح الوطنية الكبيرة ، والسخط المشتعل ، فظهر المجتمع الشرق كأنه على شفا جرف هار . وبينما الشرق هذه مراهجه عالية تفور ، اذا بالبلشفية الروسية تدب وتنتشر في الشرق ، وتمتد الى أقطاره المربدّة الجواء بالسحب السوداء ، وطفقت تهيمن وتسيطر على هذه الحالة ، وتنظم حركات القلق والاضطراب ، وتدبر أسباب الشغب والهياج ، بطرق متسعة وأساليب منظمة ، ابتغاء الوصول الى غرض هو نصب عينها وادراك غاية تتوخاها . ولا غرو فالبلشفية قد اذبرت الى الميدان على رؤوس الاشهاد تريد ايقاد ثورة عالمية ، ودك أركان الحضارة الغربية دكاً يبقيا أثراً بعد عين . ولتحقيق هذا الغرض لم يكتف قادة البلشفية بانارة الحملات الشعواء على الغرب مباشرةً فحسب ، بل قاموا بأكثر من ذلك ، اذ دبروا أمر القيام بحركات التفاف في آسية وافريقية ، لأنهم اعتقدوا ان الشرق اذا استطيع الهابه بنار الثورات الآكلة ، كانت نتيجة ذلك ليس زيادة اعزاز البلشفية ورسوخ قدمها واشتداد بأسها فقط ، بل أيضاً القضاء على حياة الغرب الاقتصادية المترعزة الجوانب المنهوكة القوى بسبب الحرب العامة ، وذلك قضاءً أخيراً يعقبه تلاشى صناعة الغرب واضمحلالها ، ثم تتقد نار الثورة العمياء في أوروبا مندلعة الألسنة الى كل جانب من جوانب القارة .

وانتشرت مساعى الدعوة البلشفية في العالم كله ، فعم نطاقها وانبثت تعاليمها في كل رقعة من رقاع الكرة الأرضية ، فلم تخلُ زاوية من زوايا الأرض من مكاييد دعاة البلشفية ودسائسهم ، وهؤلاء لم يغادروا وسيلةً الا استعانوا بها بلبوغ المأرب الذى اتخنوه قبلةً يركبون في سبيلها كل مركب . وما كانت تعاليم « الجر » الرامية الى انهاض طبقات العمال

الدنيا الى مستوى السيادة والحكم فى كل بلاد ، سوى ذريعة من ذرائعهم التى لا تحصى ونوع من أنواع أسلحتهم التى لاتعدت . ولما كان مرادهم فى المقام الأول قلب نظام العالم الحالى ، فقد بات كل عمل ، ولو كان بعيداً من التعاليم البلشفية بمقدار ، ولكن من مقتضاه مقاومة ذلك النظام ، أداة من أدوات البلاشفة يلجأون اليها ويستعينون بها . ثم راح دعاة البلشفية ينبشون فى كل صقع من أصقاع الكرة الأرضية فى آسية وأفريقية واسترالية والاماركتين فضلاً عن أوروبا ، بهمسون فى آذان الشعوب المغلوبة على أمرها الناقصة الساخطة ، انجيل البلشفية الجديد وآياته الحديثة ، جلاً لهذه الشعوب على الهياج والشغب ، ثم الانتفاض والثورة . فكل حركة وطنية ، ومطمح قومى ، وسخط سياسى ، ومظالمه اجتماعية وتحكم جنس فى جنس ، جميع ذلك من الوسائل التى يتخذها البلاشفة وقيدا نار الهياج ، فالانتفاض ، فالحرب .

وقد كانت تربة أقطار الشرق الأدنى والأوسط أخصب الأقطار لزراعة البلشفية ، وأكثرها استعداداً لها ، فنمت البلشفية فى هذه الأقطار نمواً كبيراً ، وليسان ذلك نقول : لما كانت هذه الأقطار الشبيهة بالمرجل الغالى . والتى تنقد فيها نيران الفتن والثورات على اختلافها ، مراعى للاطماع الاستعمارية التى ابتغتها روسية القيصرية منذ عهد طويل ، فقد سبق للدعاة الروسين من قبل فدرسوا شؤونها درساً وافياً مشتملاً على سر الفتح السامى فلما انهارت أركان روسية القيصرية وقامت البلشفية على أنقاضها ، لقيت البلشفية أمامها مهيعاً معبداً ، وطريقاً ممهداً ، لبلوغ أغراضها . فلما قام تروتسكى ولنين يضرمان نار الهياج والثورة فى تركية وايران وأفغانستان والهند ، تقوياً لمكانة بريطانيا على الأخص لم يحتاجا الى خطط التوطئة وطرق التمهد ، لأن روسية القيصرية كانت قد سعت فى هذا السبيل عقوداً من السنين طويلة ، فكان من نتائج هذا السعى جمع المعلومات الوافية فى هذا الموضوع وايداعها سجلات الحكومة السابقة فى بتروغراد ، وكان عدد كبير من رجال الحكومة القيصرية الذين انقلبوا للحال يستأنفون أعمالهم السابقة بعد ذهاب روسية القيصرية وانشاء البلشفية ، لم يزالوا يعلمون كثيراً من أمور البلدان المذكورة التى كانت تحوم حولها وفوقها المظالم القيصرية .

على انه يجب علينا عند اعتبار الدعوة البلشفية المنتشرة فى الشرق قاصيه ودانيه

أن نفرق بين الغرضين الأكبرين اللذين يجدر دعاء البلشفية في سبيلهما اليوم غاية المستطاع : الغرض العاجل وهو محو التفوق الغربي سياسياً واقتصادياً محواً تاماً . والغرض الآجل وهو بلشفة الشعوب الشرقية ، وما يتلو ذلك من القضاء الأخير على الطبقات العليا والوسطى من أهل كل بلاد ، على نحو ما قد تم في روسية وما هو مدبر للممالك الغربية . أما في الدور الأول فالبلشفية مستعدة تمام الاستعداد لاحترام الأديان والعادات والتقاليد الشرقية ، والأخذ بنصرة الحركات الوطنية في الشرق . وأما في الدور الآخر فالأديان ، مثل الاسلام ، فستقوض تقويضاً . وأما قادة النهضات الوطنية ، مثل مصطفى كمال ، فسيرمون من حلق الى رتبة العمال ويوسمون بمسهمهم . وهانحن نبين للقارئ الكريم كيف تقوم السياسة البلشفية بمساعيها المتنوعة في سبيل الغاية التي ترمى اليها .

لما قامت الحكومة البلشفية في روسية وقبضت على أزمة الأحكام وأواخر سنة ١٩١٧ ، سرعان ما بادرت الى وضع الخطط والبرامج لسياستها التي اعترمت اتباعها في الشرق . ثم انقضت سنة ١٩١٨ وكانت سنة اعداد وتجهيز . فنظم البلاشفة مشروع الدعوة تنظيمياً تاماً وافياً ، قوامه الخبراء على صنوف مختلفة . وأتى بعدد من رجال الحكومة القيصريّة البائدة من دعاء وساسة راسخين علماء بالشؤون الشرقية ، وحملوا على أن ينظموا في سلك الدعوة وقد أمدهم المسلمون الروس ، مثل التتر في روسية الجنوبية والتركان في آسية الوسطى الحكومة البلشفية بكثير من الخبراء العارفين . وكان أنفع الجميع وأخدمهم للغاية ، أولئك الذين فروا الى روسية من تركية ويران والهند عند ختام الحرب العامة ، وفيهم قادة الحكومة التركية الحليفة للدول المركزية ، مثل أنور وجمال وطلعت وكثير غيرهم (١) ، فانهم لجأوا الى روسية هرباً من أن يقعوا في أيدي دول الحلفاء الظافرة . وكذلك فقد فر الى حكومة لينين عظماء القادة الهنود الذين كانوا مشايخين لألمانية خلال الحرب ويتلقون منها الأموال للقيام بالدعوة . وعند أواخر سنة ١٩١٨ كان ديوان الدعوة الشرقية في الحكومة البلشفية قد نظم أحسن تنظيم ، فقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية : الأول للأقطار الاسلامية ، والثاني للهند ، والثالث للشرق الأقصى . أما مساعي البلاشفة وأعمالهم وكيفية نشر دعوتهم في الشرق الأقصى فليس من غرضنا البحث في ذلك في هذا الكتاب ، ولكن على القارئ

(١) اقرأ التعليق الخطير الشأن الوارد في آخر هذا الكتاب على الشهيد أنور ورفقائه — العرب

أن يعلم خطورة الأعمال التي قام بها البلاشفة في تلك الأقطار ، وعظم الدور الذي لعبه الصينيون في تاريخ روسية في المدة الحديثة . أما القسم الأولان من أقسام ديوان الدعوة المختصان بالأقطار الاسلامية والهند ، فقد طفق أربابهما يجهدون في سبيل الغاية جهداً كبيراً فترجوا مئات الكتب البلشفية الى مختلف اللغات الشرقية ، ودرجوا عدداً كبيراً من الرواد السريين والدعاة والرسول للقيام بالأمر العظيم ، وانطلقوا يتوسلون بما استطاعوا لاستثارة العناصر الثورية في تلك الأقطار .

وفي أوائل سنة ١٩١٩ باتت مساعي البلاشفة وأعمالهم منتشرة في جميع الشرق الأدنى والأوسط انتشاراً كبيراً لاخفاء فيه . ولعلم الحكيم المصنف أن انكار الحلفاء على شعوب الشرق الأدنى حقها في مصالحها القومية ^(١) ، ووقوفهم في وجه نهضاتها الوطنية موقف الصادق المقاوم ، قد كان وسيلة من خير الوسائل التي اعتضدت بها الدعوة البلشفية . وقد أسلفنا الكلام في موضع تقدم كيف أخذت حكومة موسكو تمد يد النصر والعون الى مصطنق كمال وسائر القادة الوطنيين في تركيا ويران ومصر وغيرها . على أن نجح البلاشفة في الشرق الأدنى لم يكن أقل منه في الشرق الأوسط . ولا غرو فقد كانت يد حكومة موسكو ظاهرة أجلى ظهور في فوران ذلك التيار من الفن والاتقاضات ، مما طبق شمالي الهند في ربيع سنة ١٩١٩ ^(٢) وليس ذلك جميع ما قامت به الدعوة البلشفية بل قد امتدت الى أكثر من ذلك ، فأزلت الضربة العظمى لبريطانية ، تلك الضربة التي قصمت ظهر الانكليز في أفغانستان . فان هذه البلاد التي من شنشنة قطينها الجبلين الشعب والهياج ، والتي هي بجملتها أشبه بالصاعقة المتوقع زولها أبداً على الحدود الشمالية الغربية ، قد ظلت خلال الحرب هادئة ساكنة . وغالب السبب في هذا الكون وقوف حاكمها الأمير حبيب الله خان موقف الموالاة لبريطانية . بيد أن هذا الأمير اغتيل في سنة ١٩١٩ اغتيالاً لم يعرف حتى اليوم هل كان للبلشفيين يد فيه أم لا ولكن على كل فقد طفق هؤلاء البلاشفة ينتهزون الفرصة التي سنحت لهم بعد ذلك ، إذ خلف حبيب الله خان أحد أتجاله وهو الأمير أمان الله خان المشهور بشدة عداوته وشنائمه لبريطانية ، والذي كانت له صلات بدعاة الترك والألمان خلال الحرب

(١) راجع الفصل الخامس .

(٢) راجع الفصل السادس .

العامة. فلما تسلم أزمة الحكم، واستقام له الأمر، جعل يباشر إنشاء الصلات بينه وبين موسكو^(١) فلم ينقض سوى اليسير من الزمن حتى اهتبل السانحة عند ما طبق الاضطراب وعمت الفتنة في بلاد البنجاب الهندية ، فأعلن الحرب على بريطانيا ، ثم أخذت جيوشه المؤلفه من رجال القبائل الشديدة الشكيمة الحية الأنف ، تندفق على الحدود الشمالية الغربية فأهبت جميع تلك البلاد نار حرب ضروس . وبعد أن دارت رحى القتال شديداً مدة من الزمن ، استطاعت بريطانيا أن تصد تيار الاجتياح الأفغانى ، فردت جيوش القبائل على أعقابها . فاضطر من بعد ذلك أمان الله خان الى الكف عن القتال ، ثم لم يكن له من وليجة عن عقد الصلح . ولكن ما كانت بريطانيا لتجسر قط على التشنج مع الأمير ، بل وافقت على أن له الحق بمقتضى شروط الصلح أن يكون فى حل من القيد الذى كان مقيداً به من قبل ، وهو أن لا ينشئ صلوات سياسية مع أمة أجنبية مآ سوى الهند البريطانية . أما الآن فشرع الأمير يعزز بالاستقلال ويتباهى به ذائداً عنه بقوة تلك الصلات التى عقد عروتها بينه وبين

(١) سنة ١٩٢٠ كان جمال باشا ذهب الى موسكو ومعه بدرى بك وذلك أثناء ما كانت أسرى الروس تعاد من المانيا الى الروسية ، فاندسا بين أولئك الأسرى متكرين خوفاً من أن يعرف أمرهما فيقبض عليهما الانكليز الذين كانت لهم سفائن تفتش عن الركاب الذين يرون من بحر اللطيك الى جهة الروسية . ولما وصل الى موسكو اجتمع فيها مع أنور باشا واتفق الجميع على مفاوضة البلاشفة فى عقد محالفة بين هؤلاء من جهة والاسلام من جهة أخرى ، وأن يكون مرمي تلك المحالفة مقاومة دول الحلفاء لاسيا انكلترة فى آسية . وكان سبق للبلاشفة مداخلات مع أمير الافغان لعقد اتفاق معه ولكن لم يكن تم شئ منه . فإرسات حكومة السوفيت جمال باشا الى افغانستان مهدداً لسياسة الاتفاق مع الاسلام وانجاز المعاهدة التى كان سبق السعى فيها بين الروسية وافغانستان . فذهب أولاً الى طاشقند فى التركستان ومنها قصد كابول عن طريق هرات ، ولما وصل الى كابول حظى لدى الامير وبعد وصوله بمدة وجيزة وفق الى تسجيل البت فى أمر المعاهدة مع الروس على شروط ، من جعلتها امداد البلاشفة للافغان بمقدار من الأسلحة ، وان تعاد مقاطعة كوشك الافغانية التى كان الروس اغتصبوها من يد الافغان منذ ٤٤ سنة اذا رضى أهلها بالرجوع الى دوانتهم الأصلية ، وان تخول الروسية حق تعيين معتمد فى كابول كما يكون معتمد للافغان بموسكو ، وكذلك تبين الروسية أربعة قناصل فى أربع مدن من افغانستان ، وتعين افغانستان قناصل فى طاشقند وغيرها من المدن التى فى حوزة الروسية ، وان تعترف الروسية باستقلال امارتى بخارى وخيوه داخلا وخارجاً وغير ذلك من الشروط المهمة . وقد كان لهذه المعاهدة بين الروس والافغان وقع عظيم فى انكلترة ، فحسب لها الانكليز الف حساب وأفادت أمير الافغان كثيراً بحيث أسرع الانكليز الى مصالحته وقبول أكثر مطالبه ، كما انها أفادت البولشفيك فى مفاوضاتهم السياسية والتجارية مع انكلترة اذ قد رضيت انكلترة بعقد معاهدة تجارية معهم ، اشترطت فيها أن يمنع الروس عن تسريب السلاح الى الافغان أو غيرها من العالم الاسلامي ، وعن بث الدعوة الشيوعية فى آسية . (ش)

موسكو . وقد كان البلاشفة في ذلك الوقت قد أنشأوا لهم مركزاً آخر خطيراً في تركستان الروسية لنشر دعوتهم ، وهو لا يبعد كثيراً من الحدود الأفغانية ، وكان مرمرى هذا المركز الجديد وغاية أعماله ؟ ليس بلشفة أفغانستان فحسب بل أيضاً بلاد الهند المترامية الأطراف .

وخلال سنة ١٩٢٠ غدت أعمال البلاشفة ومجاهديهم الكبرى أكثر انتشاراً ، وأظهر للعيان ، وأعز شأناً في جميع الشرقيين الأدنى والأوسط . وقد اطلعنا في موضع تقدم على كيف أخذت روسية البلشفية تقوم بعض الحركات الوطنية والنهضات القومية في تركيا وإيران عضداً شديداً . وفي الواقع ان سياسة الحلفاء القائمة على الطيش والخفة وقصر النظر قد كان من شأنها أن جعلت العدد الكبير من القادة الوطنيين على الجنوح والانحياز الى لينين ، في حين أن هؤلاء القادة أنفسهم ما كانوا ليروا غايات حكومة موسكو ومنازعتها ومراميتها البعيدة فيما يتعلق بمستقبل الأمم والشعوب رائقة لهم . مثال ذلك أن رئيس البعثة الأفغانية التي شخصت الى موسكو ، قد صرح حقيقة الأسباب التي جعلت حكومته على التعاهد مع روسية السوفياتية على الصداقة والولاء تصریحاً يئناً ، في مقابلة رسمية ، كما نشرت هذا جريدة « ازفستيا » لسان حال الحكومة السوفياتية ، فقال رئيس البعثة : « اني لست على مذهب الشيوعية ولا الاشتراكية ، انما خطتي السياسية هي طرد الانكليز من آسية ، وانى لعدو عنيد لرؤوس المال الأوروبية الاستعمارية في آسية ، التي أعظمها وأشدها استنزافاً هي البريطانية . فمن هذا القبيل أوافق الشيوعيين على مبادئهم وأصرح لهم اننا محالفوهم في هذا السبيل . . . ان أفغانستان ، وشأنها شان الهند ، ليست بدولة في حوزتها رؤوس المال الاستعمارية ، ومن البعيد أن تستقر الأنظمة النيابية فيها في عهد قريب . ومن الصعب الشديد التكهن بكيفية تقلب الشؤون واختلاف مجاريها في المستقبل انما أعلم حق العلم أن النداء المشهور الذي وجهته الحكومة السوفياتية الى جميع الأمم والشعوب مستصرخة اياها لمقاومة رؤوس المال الاستعمارية ودك صروحها دكا (ومعنى كلمة رأس المال عندنا بات مرادفاً لمعنى كلمة الأجنبي أو بالأحرى الانكليزي) قد كان له عندنا وقع عظيم وشان كبير . غير أن هناك قضية أحلناها محل الارتفاع ألا وهي الغاء روسية السوفياتية لجميع المعاهدات السرية التي عقدتها حكومات التوسع الاستعماري ،

واعلانها الحق واعترافها به لجميع الأمم والشعوب ، دون اعتبار القلة مهما كانت ، في اختيار حكمها وتقرير مصيرها . هذا هو السبب الذي حمل جميع الشعوب المستعمرة المستنزفة في آسية ، حتى الشعوب البعيدة من مذهب الاشتراكية ، على الالتفاف من حول روسية السوفياتية » . (١) ولكننا لما كنا نعلم مبلغ ما هم عليه دعاة البلشفية من المهارة والتفنن في النشر والبت ، فلا يسعنا التسليم بأن السياسي الافغانى قد صرح حقاً مثل هذا التصريح كما نشرته صحيفة « ازفستيا » البلشفية . ولكن على فرض ان في هذه المقابلة كذباً واختلاقاً ، فان هذا البيان المعزوم على صورته هذه الى رئيس البعثة ، انما يفصح عن شعور العدد الكبير من الشرفيين ، ويجلو السبب الأكبر في نجاح الدعوة البلشفية النجاح العظيم في الأقطار الشرقية .

ولا غرو البتة ان لقيت الدعوة البلشفية هذا النجاح الكبير حتى غدا الزعماء البلاشفة يجدون في سبيل غايتهم وادراك مبتغاهم ، وينادون البدار البدار جهراً وعلانية . فان موسكو في بادئ الأمر قدوقفت موقف المعين الناصر للشعوب الشرقية لمقاومة التوسع الاستعماري الغربي ، وكانت توجه صرخاتها الواحدة تلو الأخرى الى أمم تعدها على مستوى لانفاوت فيه ، وتولى وجه صيحاتها شطر أقوام هي عند البلاشفة لاختلاف منازل وطبقات فيها ، وقد اعترفت مراراً بحق كل أمة لتقرير مصيرها ، ووعدت باحترام الآراء والمنازع والأنظمة والقوانين الوطنية . مثال ذلك فقد جاء في منشور بلشفي بعث به الى الترك أواخر سنة ١٩١٩ موقعاً من لنين مايلي : « يامسلى العالم !! الذاهيين ضحايا الاستعمار استيقظوا استيقظوا !! ان روسية قد أقلعت عن سياسة الحكومة القيصرية ، تلك السياسة الضارة الخبيثة التي كانت تتمشى عليها الحكومة السابقة . ان روسية اليوم تمد يدها اليكم لتعينكم وتصرمكم على تحطيم أغلال الاستبداد البريطاني . ان روسية تطلق لكم الحرية الدينية وحق الحكم الاستقلالى ، وتعترف بحدود بلادكم المعروفة قبل الحرب ، ولن توافق على اعطاء قطعة من البلاد التركية الى الارمن ، وتبقى مضائق الدردنيل في أيديكم ، وتظل القسطنطينية عاصمة العالم الاسلامى . ويمنح المسلمون في روسية الحكم الذاتى التام . انما

(١) أقرأ التعليق الوارد في آخر هذا الكتاب على الأمم الاسلامية ازاء البلاشفة والدعوة البلشفية .

جميع ما نطلبه منكم لقاء هذا هو قيامكم لمقاتلة المستعمرين العاشمين الذين دأبهم ومبتغاهم أبدأ استنزاف بلادكم وجعلها مستعمرة لبونا يحتلبون ضروعها احتلاباً» .

هكذا كان شأن روسية في توجيهها النداء بعد النداء الى الشعوب الاسيوية ، حتى الى شعبها الذي في بلادها ، فقد كانت تسمعه هذه النغمات عينها على مسمع من أهل الشرق ، فقد جاء في أمر أصدر الى الجنود الروسية المرابطة في « پامير » مايلي : « يا جنود فرقة پامير ! اعلموا انكم قد اتدبتم للقيام بعمل جليل وأمر خطير . فان الجمهورية السوفياتية قد أرسلتكم حراسا الى پامير التي عند حدود البلادين المواليين وهما افغانستان والهند . ان پامير وسهولها المرتفعة وصعدانها الرحبة هي البلاد الفاصلة بين روسية الثورية والهند تلك البلاد التي فيها أكثر من ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من القطين تستعمرهم فئة قليلة من رجال الانكليز وتذلهم بجميع وسائل القهر . فعلى تلك الانجاد يجب على رواد الثورة منكم أن يرفعوا الراية الحراء ، راية الجيش المحرر من رق العبودية . سيعلم أهل الهند الذين يقاتلون الانكليز المعتدين المعتصين ، أنكم أهل النجدة والغوث على مقربة منهم طيبوا أنفساً وقروا عيوناً بحبكم لقبائل الهند الشمالية عاشقة الحرية والاستقلال . . . قوتوا روحها بأقوالكم وانصروا حركتها بأعمالكم حتى تنطلق في سبيل الثورة . وأعرضوا عن الأراجيف التي يشيعها عنا والمزات التي يلمزنا بها رواد التحكم واللوردية والصارفة البريطانيين . ليحيي التحالف الوثيق العرى ، تحالف الشعوب الثورية في أوروبا وآسية !! »

على هذا المتوال كانت تنسج الدعوة الباشفية في دورها الاول . ثم شرعت تختلف صفة ولونا ، داخله دوراً جديداً وقد كان من شأنها في دورها الجديد هذا اثاره الحملات على الاستعمار والاستنزاف الغربي كما في الدور الأول . ولكن هناك صرخات مفرغة في قالب حديث أخذت تسمع ، من حيث كانت هناك صرخات شبيهة بها توجه الى سواد الأمم الأوروبية ، مشتملة على تحريض الحكومة السوفياتية لاهل الشرق حتى يهبوا لمقاومة أرباب رؤوس المال والطبقات العليا والوسطى ، سواء كانوا من الوطنيين أم من الاجانب ، وعلى وعد البلاشفة المكرر للطبقات العاملة الدنيا بتحسين حالهم ورفع شأنهم واعزاز مقامهم . والى الفارئ بعض ماجاء في منشور بلشفي وجه الى سواد الترك وعامتهم في صيف

١٩٢٠ وهو كما يظهر مختلف عن ذلك الذى وجه اليهم السنة التى قبل اختلافاً كبيراً : « ان العمال على اختلاف طبقاتهم وهم أهل النصب والعناء ، ليقاتلون اليوم الاغنياء والمتمولين قتالاً شديداً فى كل قطر وبلاد . فان أرباب رؤوس المال والى جانبهم الأشراف والأعيان يحاولون الآن جهدهم لتصفيد العامل التركى الناصب اللاغب باغلاهم الثقيلة وقيودهم المرهقة . ان الاغنياء والسراة الاورو بين هم هم الذين قد جروا الويل والبوار على تركية ، فىا أيها الزملاء الرفقاء ! هلموا بنا نوحدهم الغاية والغرض ، ونسعى وراءهما سعياً متحداً فى جميع أقطار العالم . فان لم نفعل ذلك اليوم قضى علينا بالخيبة الدائمة والسقوط الى البرك الأسفل . أى أبطال الثورة التركية ! البشفية تمد اليكم يد الاتحاد فدوا يدكم اليها فتجتمع الكلمة ويقوى البنيان . ليحيى المؤتمر الشعبى الثالث ، وان الله على كل شىء قدير !! » .

ولما بلغ شأن موسكوهذا المبلغ ، عادت هى لاتكتفى بالاقوال ، بل شرعت فى انفاذ خطتها الى حيز العمل . وقد كان أهل تركستان الروسية أول أمة شرقية تبلشفت ولبست الحلة السوفيانية . وخبر ذلك ان البلاشفة لما تسلموا أزمة الحكم أواخر سنة ١٩١٧ منحوا تركستان الحق التام فى تقرير المصير ، فولى أهل البلاد الامراء الوطنيين حكما عليهم ، وجددوا انشاء وحدات دولتهم السابقة تجديداً فيه شىء من الصلة الاتحادية الواهية التى تربطهم بروسية . وفى سنة ١٩٢٠ وجدت الحكومة السوفيانية أن تركستان قد غدت ناضجة تمام النضوج لاهابها نار الثورة الاجتماعية ، خلعت الامراء الوطنيين ونصبت مكانهم حكما من متبلشفة أهل البلاد ونقلت اليهم جميع السلطة السياسية بعد أن جعلت عليهم مراقبين ومشرفين من الروس ، وسلبت الملكية من أيدي الطبقتين العليا والوسطى وخضت شوكة المفاوضين الذين كانوا يقاومون بصورة غير منظمة وذلك بأن قتلت بعضاً وعذبت بعضاً ، بحيث قد تجلّى فى ذلك كل ضرب من ضروب المحن المشتملة على أهول الفطائع البشفية . ثم انقادت نار الثورة الاجتماعية فى القوقاس كما فى تركستان عند ما شرعت حكومة موسكوتبلشف اذربيجان . فان جمهورية اذربيجان الترية هذه كانت من قبل جزءاً من بلاد عبر القوقاس الروسية التى أعلنت استقلالها عند ثلاثى الامبراطورية القيصرية سنة ١٩١٧ . ولما كانت اذربيجان واقعة موقعاً جغرافياً فى

شرقي عبر القوقاس بالقرب من بحر قزوين ، فقد كانت عاصمتها مدينة باكو المشهورة
 يباع زيت البترول ، فتقدمت صناعة هذه المدينة تقدماً كبيراً حتى صارت مركزاً
 صناعياً على الطراز الغربي . فكثيراً ما كنفها وعمالها وهم من أصول اسبوية وروسية
 مختلطة ، واذ وجد البلاشفة متسعاً لانفاذ خططهم هناك حيث نشأت طبقات من المتمولين
 والعمال ، قلبوا الحكومة الوطنية في ربيع سنة ١٩٢٠ وأتوا بقوة روسية بلشفية إستعانوا
 بها على بلشفة اذربيجان وتحويلها جمهورية سوفياتية ، ثم جرى ما يصاحب الثورة
 الاجتماعية بطبيعة الحال : من سلب ونهب وتقتيل لأهل الطبقتين الوسطى والعلية ، ومن
 نشر الرعب والهلول وضبط الاملاك ومصادرة الارزاق والتصرف بها في سبيل منفعة العمال
 الصناعيين والزراعيين . على هذا المنوال شرعت البلشفية أوائل سنة ١٩٢٠ تدخل دور
 العمل في أقطار الشرقين الادنى والوسط .

ولما رسخت قدم البلشفية في الشرق ، وجد السوفيياتيون ان قد حان الوقت لحسر
 اللثام ، والانبراء الى الميدان بدون خوف ولا وجل . ففي خريف سنة ١٩٢٠ عقدت
 الحكومة السوفياتية الروسية مؤتمراً في باكو دعت «مؤتمر الشعوب الشرقية» كان الغرض
 منه ليس تحرير الشرق من رق الغرب فحسب بل بلشفته أيضاً دون مرد . ولم يكن السعي
 وراء هذه الغاية الكبرى على شيء من الاستتار بل كانت الوسائل المتوسل بها لبلوغ
 الغرض من الغرابة بمكان ، فيجدر بنا الوقوف على بعض منها .

ففي المقام الأول أصدر «المؤتمر الثالث في موسكو» منشوراً عاماً دعا فيه الشعوب
 الشرقية الى حضور هذا المؤتمر ، مؤتمر الشعوب الشرقية ، وكان توجيه المنشور هذا الى
 الفلاحين والعمال في الأقطار الشرقية ، وهذه صورته : -

« أيتها الفلاحون والعمال في ايران ! ان رجال الحكومة القاجارية في طهران ،
 وحكامها وأمراءها «الخانات» ، ما برحوا جميعاً يستلبون أموالكم وامتعتكم واغديتكم
 طيلة قرون عديدة . فان الارضين التي هي ملككم بحق صريح على مقتضى الشريعة
 الاسلامية قد امتلكها لصوص حنومة طهران ، وهم الآن يتصرفون بها ويتجرون على
 مايهوون ويشاءون ويرهقونكم بالضرائب الباهظة والمكوس الواقرة . ولما بلغوا من
 افساد التدبير والادارة والحكم بحيث عادوا لا يستطيعون احتلاب البلاد وامتكاك عظمها ،

باعوا ايران السنة الماضية من ارباب رؤوس المال البريطانيين بمبلغ ٢٠٠٠٠٠٠٠ ليرة ييعا من مقتضاه أن تقوم بريطانية بتنظيم جيش في البلاد لزيادة استئلاككم واستعبادكم واستنزاف قواكم واستلاب أموالكم بحجة الضرائب اللازمة لحكومة طهران و«خاناتها». وقد باعوا ينابيع الزيت في جنوبي ايران حتى ينزلوا بالبلاد الضربة القاضية لاقيام لكم من بعدها.

«أيها الفلاحون في العراق !! قد أعلن البريطانيون ان بلادكم مستقلة ، ولكن هناك ٨٠٠٠٠٠ جندي انكليزي يحتلون بلادكم ، وينهبون ويسلبون ، ويقتلون ويجوسون خلال دياركم ، ويهتكون حرمت نساءكم .

«أيها الفلاحون في الاناضول !! ان الحكومات البريطانية والفرنسية والايطالية قد احتلت القسطنطينية وجعلتها تحت افواه المدافع ، وطفقت تتمهن كرامة السلطان وتعامله معاملة أسير رقيق ، وتكرهه اكرهاه شديداً على النزول على ارادتها ورغبتها في تجزئة البلاد التركية البحتة ، وفي تسليم مالية البلاد الى أيدي ارباب رؤوس المال الأجانب ، الذين يسهل عليهم اذ ذاك استنزاف دم الأمة التركية المنهوكة القوى من جراء خطوب الحرب التي خضمت غمارهاست سنوات ، وقد وضعت هذه الحكومات أيديها على مناجم هرقلية ، واحتلت موانئكم ، وهي الآن تسوق الجيوش الى بلادكم للاجتياح والتدويح .

«أيها الفلاحون والعمال في أرمينية ! كم من الضحايا البشرية التي ذهبت منكم خلال هذه العقود الأخيرة من السنين بسبب مكاييد التمويل الأجانب ودسائسهم ، الذين كانوا يداهنونكم بأقوال واحتجاجات يظهرون بها استهجانهم لقيام الكرد بتعديبكم وتقتيلكم ، من حيث كانوا يحرضونكم على الانتفاض على السلطان لكيما يتسنى لهم بهراقة دمائكم الحصول على الامتيازات الجديدة والمنافع الاقتصادية الدائمة من السلطان . وقد وعدوكم خلال الحرب العامة بمنحكم الحكم الذاتي ثم جعلوا يحرضون تجاركم وأساتيدكم وقسيسكم لتطلبوا ضم جانب من بلاد الفلاح التركي الى بلادكم ، والغرض من ذلك انما هو ادامة النزاع بين العنصرين الترك والأرمن ، فيستطيعون بذلك أبداً جنى الثمار والاستفادة من هذا العدا ، الذي مادامت ناره مشتعلة بينكم وبين الترك ، استطاع ارباب رؤوس المال البريطانيين والفرنسيين والامير يكيون عرقلة النهضة التركية ، بتهديدهم الحكومة التركية

بانتقاضكم عليها ، كما انهم يتخذونكم مطية لهم في سبيل مطامعهم الاستعمارية ، تهديدكم بقيام الكرد عليكم .

« أيها الفلاحون في سورية وبلاد العرب ! ان بريطانيا وفرنسة قد وعدتاكم بالاستقلال التام وهذه جيوشهما اليوم تحتل بلادكم ، والانكليز والفرنسيس يحكمونكم ويسنون لكم الانظمة والقوانين كما يشاءون ، وأتم الذين تحررتهم من السلطان التركي وحكومة القسطنطينية ، قد غدوتم عبيداً ارقاء لحكومتى باريس ولندن اللتين انما تختلفان عن حكومة السلطان بكونهما أشد حولاً وأعظم هولاً وأقدر على استعمار بلادكم واستعبادكم .

« انكم جميعاً أيها الملاء لتعرفون هذا حق المعرفة . فالعمال والفلاحون في ايران قد انتقضوا على حكومة طهران الغاشمة الخائنة ودكوها دكا ، والفلاحون في العراق يشعلون نار الثورة على غير انقطاع ، ويقاتلون الجنود البريطانية أشد قتال ، وانكم يافلاحي الانضول الذين قد انضوى بعضكم الى بعض تحت راية كمال باشا لتقاتلوا المجتاح الأجنبي أصدق القتال ، قد سمعنا انكم تبنلون وسعكم لانشاء حزب لكم هو حزب العامة والفلاحين ، يكون على استعداد لمقاتلة كل رأسالى مستنزف حتى « الباشوات » أنفسهم اذا ما أقدموا على عقد صلح مع المستنزفين الأجانب . ان سورية قائمة قاعدة لا أمن فيها ولا سلم .

« وأتم يافلاحي الأرمن ، الذين نكت الحلفاء بالوعود التي قطعوها لكم فتركوكم وشأنكم نذهبون فريسة للمجاعات والمساغب الفتاكة بكم فتكا ذريعاً حتى ينيلوكم حكماً أصحح ! ! اعلموا وثقوا بأن خلاصكم الذي ترجونه على يد أرباب رؤوس المال الأجانب انما هو ضرب من المستحيل الذي لا يدرك . واعلموا زيادة على جميع ذلك أن حكومتكم الطاشناقية ، التي هي صنعة الحلفاء لتستغيث بحكومة العمال والفلاحين في روسية وتستمد منها الردف والسلام .

« أيها الفلاحون والعمال في الشرق الأدنى ! انكم اذا نظمتهم شؤونكم وأنشأتم حكوماتكم ، حكومة العمال والفلاحين ، وذدتم عن حياضكم بسلاحكم ، واتحدتم بالجيش الروسي الأحرر ، جيش العمال والفلاحين ، استطعتم أن تقضوا على المستنزفين البريطانيين والفرنسيس والامبركان القضاء الأخير ، وان تناقشوا من بعد ذلك المستنزفين الوطنيين

الحساب ، ووجدتم متسعاً رحباً واتم اذذاك أحرار أن تتحدوا مع جمهوريات العمال فى العالم ، لصيانة مصالحكم وترقيتها ، هذا اذا عرفتم كيفية استثمار بلادكم بأيديكم فى سبيل منافعكم ومنافع الطبقات العاملة فى العالم بأسره تلك الطبقات التى تبادلكم حاصلات بلادكم ومنتجاتها بمبادلة النظير مع نظيره والندّ مع ندّه .

« وبعد ، فاننا نود التباحث والتناقش معكم فى جميع هذه القضايا والشؤون ، فى مؤتمر باكو ، فابدلوا غاية مستطاعكم وجهدكم للحضور الى باكو عدداً كبيراً بحيث تكونون فيه فى اليوم الاول من أيلول (سبتمبر) فاستحوا مطاياكم واستخفوا بمصاعب السفر ومشقة الانتقال ، وجوبوا الصحارى والفيانى ، والاغوار والانجاد ، وأموأ هذا المكان المقدس الذى فيه تستطيعون العمل فى سبيل احياء ماضيكم واحترام شرائع أديانكم . فاسلكوا السباسب والقفار ، وتسلقوا الجبال ، واعبروا الانهار ، واقدموا علينا فاننا نرتقب مقدمكم لنعمل معاً يدأ واحدة فى سبيل نجاتكم وخلصكم من رق العبودية المرة ، ان كنتم تريدون أن تحيوا حياة الحرية والعدل والمساواة . »

من هذا الخطاب يفهم المتدبر صفة مؤتمر باكو وماهيته . المؤتمر الذى انما كان فى الواقع مؤتمراً لايقاد نار الثورة الاجتماعية أكثر منه لتحقيق الغايات القومية والآمال الوطنية . وقد بلغ عدد أعضاء الوفود التى أمت باكو لحضور هذا المؤتمر ١٩٠٠ عضو ، فيهم ما يقرب من ١٣٠٠ من الشيوعيين . وأكبر الوفود هى التى قدمت من تركية وفارس وأرمينية والاقطار القوقاسية ، ولم تكن وفود بلاد العرب والهند ، حتى وبلاد الشرق الاقصى بالقليلة . وعلى كل فقد كانت الحكومة الروسية السوفياتية هى سيدة المؤتمر تنظم الجلسات وتضبط الواجهات . وقد تضمن الخطاب الذى ألقاه الزعيم البلشفي الكبير زينوفيف ، رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الشعبى الثالث فى موسكو ، خلاصة موضوع المؤتمر ، فقد وقف فى الوفود خطيباً ، وقال : -

« اننا نعتقد أن هذا المؤتمر هو حقاً من الواجهات الكبرى التى يدونها التاريخ لانه ليس برهانا فقط على أن دعوة الايقاظ متمشية الآن فى عالم العمال والفلاحين فى أوروبا واميركا ، بل على ان الاستيقاظ الذى شرع يستيقظه هؤلاء لعظيم ، ونحن نرى ذلك لعهدنا هذا بلا ريب ، وليس عدد هؤلاء الناهضين من أهل طبقات العمال بالقليل ، بل هم

يعدون بمئات الالوف والملايين في جميع الامم والشعوب الشرقية ، منهم تتألف الكثرة الساحقة باعتبار مجموع سكان العالم ، وهم من القوة والبأس بحيث يستطيعون ان يشعلوا بينهم وبين التمويلين حرباً ضروساً يكون بها القضاء الاخير على رأس المال

« ان المؤتمر الدولي الشيوعي قد صرح للإمام منذ أول انشائه : أن قطين أسية يفوقون بعددهم قطين أوروبا أربعة أضعاف وان قد وضعنا نصب أعيننا تحرير جميع الشعوب وجميع العمال اننا نعلم أن أهل الطبقات العاملة في الشرق على انحطاط بمقدار ، لكنهم ليسوا بالمولمين في ذلك ، فهم لا يقرأون ولا يكتبون ، يعتقدون بالاساطير والخرافات والارواح الشريرة ، لا يقفون على الصحف ولا يعلمون ماجريات العالم ، ولا يفقهون شيئاً من أصول حفظ الصحة . أيها الرفاق ! قد بحث مؤتمرنا الذي عقد في موسكو في امكان القيام بثورة اجتماعية في جميع اقطار المشرق قبلما تدخل هذه الافطار في دور سلطان المال ، وتعدو فريسة تمرقها محالب التمويلين . ومن معلومكم ان هناك اعتقاداً طويلاً في الناس ماهيته ان لا بد لكل بلاد من ان تتجاز دور سلطان المال في حياتها قبلما تولد الاشتراكية وتحيا حق الحياة . اننا على يقين ان هذا الاعتقاد أمسى فاسداً باطلاً . والبرهان على يقيننا في ذلك انما هو روسية التي امتهدت للعالم السبيل ليقفو أثرها ، ومنذ انشأنا نظامنا الحديث أخذنا نتحقق ان الصين والهند وتركية وفارس وأرمينية جميعها قادرة على النسخ على منوال النظام السوفياتي من حيث ان ذلك واجب عليها ولو تكبدت في سبيله ما تكبدت . فعلى هذه البلاد ان تتأهب وتستعد لتكون جمهوريات سوفياتية .

« واني أقول اننا آخذون بنصرة كل جماعة من الناس وان لم يعتقدوا آراءنا ، بل لو كانوا من مخالفينا في بعض الأمور والقضايا . وفي مثل هذه الحال قامت الحكومة السوفياتية بعهد كمال في تركية ، مع اننا لم نكن بالجهاين ان هذه الحركة التي على رأسها مصطفى كمال ليست شيوعية . هذا نعرفه حق المعرفة . ولدى طائفة من صور المقررات التي وُضعت في الجلسة الأولى من جلسات المجلس الوطني في انقره ، وقد قال كمال نفسه « شخص الخليفة مقدس معصوم » ، والقصد الذي ترمي اليه الحركة الكمالية هو تنجية

« الخليفة المقدس » من ايدي العدو . هذه غاية الوطنيين الترك في الاناضول ولكن هل تلتئم مع المبدأ السوفياتي ؟ كلا . اتنا نحترم للجمهور والعامة معتقداتهم الدينية ونعلم الطرق التي يجدر بنا اتباعها في انتشالهم من متخبط الجهل والغباوة ولكن ذلك لا يتم الا على توالى الأيام وكر السنين

« اتنا نحذر أشد الحذر ونبلغ من العناية الغاية ، متى ما أمسينا على مقربة من المعتقدات الدينية المستقرة في طبقة العمال في الشرق كما في غيره . ولكن نرانا في هذا المؤتمر لامفر لنا من القول انه يجب عليكم ألا تفعلوا ما تفعله الحكومة الكالية في تركة . يجب عليكم ألا تأخذوا بنصرة السلطان حتى ولو دعتكم الى ذلك داعيات دينية . يجب عليكم أن تقووا ساعدكم ولا تكونوا من الانقياد الى عدوكم بحيث يجعلكم تسيرون القهقري رغم أنوفكم . اتنا على يقين أن ساعة السلطان قد دنت^(١) . فيجب عليكم أن تقاوموا كل سلطة أوتوقراطية في بلادكم . وأن تقلعوا عن كل ثقة لكم بالسلطان . وأن تجاهدوا حق الجهاد حتى تنالوا نظام الحكم على الطراز السوفياتي . ان الروسيين كانوا مثلكم فيما مضى أشداء الايمان بالقيصر ، ولكن لما فتقت ريح الفتنة وهب الشعب بسلاحه تبدد ذلك الايمان أيما تبدد واضمحل حتى لم يبق منه ذرة . ومثلما حدث في روسية سيحدث في تركية وفي سائر المشرق متى ما شرعت ثورة الفلاحين تقذف حملاً فتنشق الأرض ويقول الانسان ما لها . عند ذلك يفنى ايمان الشعب بالسلطان وفسادته القابضين منه على الرقاب . ثم نؤكد لكم القول ان السياسة التي تتمشى عليها حكومة الشعب في تركية اليوم ليست متفقة مع سياسة المؤتمر الشيوعي الدولي التي هي سياستنا وقد اتخذناها قبلة لنا . وعلى هذا كله فانتا نصرح أننا على استعدادٍ لعضد كل حركة ثورية يقام بها مقاومة للحكومة البريطانية .

« أجل ! اتنا ننظم جنودنا ونعبيء صفوفنا لصراع متمولة الانكليز حتى نأخذ

(١) من أجل هذا قد قيل ان فصل الخلافة عن السلطنة والغاء مقام السلطنة في تركية هو منزع بلشفي ، وقد رأيت البلاشفة مفتطين بهذا الأمر . لكنني لأعتقد أصلاً أن حكومة أهرة اقتلت السلطنة من بني عثمان لجرد الاقتداء بحكومة موسكو ، بدليل أن حكومة أهرة لاتزال تعارض المبادئ البلشفية ، وتتمنع نصرها في تركية . فسئلة الغاء السلطنة هي مشكلة قائمة بذاتها ، ليس لها أدنى تعلق بالدعوة الشيوعية . (ش)

برقابهم تحت مواطىء الأقدام . ان الضربة الكبرى يجب أن تنزل بهؤلاء المتمولة قضاء مبرما يجعلهم أثراً بعد عين . ثنوا بهذا وأيقنوا ولكن يجب علينا في الحين نفسه أن نورد طبقة العمال في الشرق موارد العلم والتهذيب حتى يهبوا جميعاً لمقاتلة أهل الثروة على اختلافهم لافرق بين طبقاتهم وجنسياتهم . ولعلم مرید العلم أن الغاية في هذه الثورة القائمة سوقها اليوم في الشرق ليست هي طرد متمولة الانكليز بحيث تحل محلهم متمولة الترك ، كلا ، ان غايتنا هي تطهير البلاد من كل متمول مستنزف حتى يتلاشى المترفون فينا وأهل الظلم والطغيان ، فيتحرر الشعب ويسود العمال أنفسهم »

وقد كان مؤتمر باكو السهم الأول الذى أطلقه البلاشفة منذراً بشروعهم في بلشفة الشرق توصلاً للغاية التى جعلوا يشدون اليها الرحال في كل سبيل وقد تلا ذلك كثير من المساعى السوفياتية المشتملة على ضروب الوسائل ومختلف الذرائع . وأكثر ذلك كان في بلاد القوقاس حيث تمت بلشفة بلاد الكرج وأرمينيا في ربيع سنة ١٩٢٠ .

على أن هذا النجاح الذى لقيه البلاشفة في هذه الأقطار ، قد كان من شأنه حمل تلك الأقوام الوطنية الداخلة في حاية روسية السوفياتية على زيادة السخط والغضب . فان جميع الأحزاب الوطنية الشرقية التى كانت قد تلقت نصرة موسكو لها بعظيم الحماسة والغيرة نكابة بالدول المتحالفة ، شرعت بتحقيق الآن أن البلشفية الروسية لايبعد أن تكون ويلاً عليها بل أشد من ويل الاستعمار الغربى ، وكلاهما قاضٍ على المطامح الوطنية والمنازع القومية شرقاً . ومن المعلوم أن القادة الوطنيين لم يبرحوا منذ أول الأمر يدركون الغاية الكبرى التى ترمى اليها حكومة موسكو اذ كانوا من القوة والجزامة بحيث جعلوا يتناولون نصرة روسية بلائمن يؤدونه لموسكو . ولكن تبدلت الحال الآن غير الحال ان تنبه العمال في الشرق قد يكون على مقدار وقد تكون الفلسفة الشيوعية مما لانفقها عقول العمال الشرقيين ولائعى كنهه مهما كان بسيطاً . على أن وجود روسية السوفياتية لخطر يقام له ويقعد ولاعجب ، مادامت الاقلية الشيوعية التى لايزيد عددها حسب اقرارها على ٦٠٠٠٠٠٠ تتحكم فى ١٧٠٠٠٠٠٠٠٠ من الناس تحكم القهر والاستبداد . أما البلاد الأوروية الغربية فانها تعول في مقاومة البلشفية على مبلغ التهذيب الذى عليه شعوبها وعلى شدة استمسكهم بتقاليدهم النامية في ظل الحرية المنظمة وليس للشرق سلاح مثل

هذا السلاح ، وهو أشبه بروسية من حيث استعداده لقبول البلشفية وتحميم الجهل فوق ربوعه وفقده الطبقات الوسطى القوية الشكيمة ، وإيلافه تقاليد الاستبداد ، وانقياده لحكم الأقلية المرهقة وخنوعه لها خنوعاً أعمى . وقد كان لنا ببلشفة تركستان واذر بيجان مصداق لذلك . وبالتالي أيقن القادة الوطنيون وزعماء النهضة في الشرق أن مصيدة البلاشفة جرارة غرارة يجب الحذر منها كل الحذر .

وترى الحال على هذه الصفة في سائر المشرق . ففي آسية الصغرى قبضت حكومة مصطفى كمال على رسل الدعوة البلشفية (١) بينما الجنود التركية أخذت تتناوش مع الجنود الروسية عند حدود القوقاس المختلف فيها . وقد مر معنا في الكلام على مصر كيف كان وجل القادة الوطنيين من ثورة اجتماعية يوحد نارها المحرضون وأهل السجس في طبقة الفلاحين سببا في تسهيل التفاهم بين اللورد ملز والزعماء الوطنيين ، تفاهماً قائماً على حب الوفاق . وكتب السرفالنتين تشيرول في ربيع سنة ١٩١٨ بين مبلغ العبرة التي اعتبرها الرأي العام الهندي في انهيار روسية القيصرية وظهور البلشفية ظهورها الرائع ، وبما قاله : « ان عقلاء الهنود ليعجبون كيف عجزت الطبقة الراقية في روسية (وهي تفوق الطبقة الراقية في الهند عدداً واستعداداً) عن تدير شؤون الطبقة الجاهلة وحكمها حق الحكم بعد تمزق الحكومة شرمزق » . وفي افغانستان أخذ الامير يبدل محبته لخليفه السوفياتي بنفرة متزايدة . فان تدفق سيل المهاجرين من تركستان السوفياتية على افغانستان هرباً من ويل البلاشفة وجورهم ، وعلى رأس هؤلاء المهاجرين أمير بخارى ، وهو نسيب لأمان الله خان ، جعل أمان الله يفكر في سوء العقبي ، وزاد الامر خطراً عصيان الجنود الافغانية عصياناً شديداً على الحدود الروسية طالبين أن يمنحوا الحق بإنشاء مجالس عسكرية على الطراز الروسي . قد يبذل البلاشفة جهودهم في اغراء الامير والتسويل له بأن يقوم بغزو الهند غزوة كبيرة ، ولكنه يكون من الحكمة والبصر بالعواقب أن يعلم ان غزوة الهند اذا قام بها لا تجديه نفعاً مادام هو نفسه معرضاً لغزورعته العاصية التي ستفتك حينئذ به . ويتضح من جميع ما تقدم ان القادة والزعماء الوطنيين الشرقيين ، وفيهم

(١) تقدم لنا ذكر قصة مصطفى صبحي البلشفيكي التركي ورفاقه ، ومؤخراً قبضت الحكومة التركية في استانبول على بعض أترك بتهمة البلشفة وزججهم في السجن . (ش)

المحافظون وسواهم ، أخذوا على توالى الايام بالتعاقد معا والاصطفاف جنبا الى جنب للوقوف في وجه البلشفية والحذر الشديد منها . ولو لم تكن الاقطار الشرقية معرضة لخطر الاستعمار الغربى اى لو كانت بمأمن من غوائل الخلفاء ، لكانت صدت تقدم الجيوش الجراء صداً ولغنت رسل الدعوة البلشفية درساً ملؤه العبر الكبرى

ولكن من سوء الطالع أن القادة الشرقيين يرون أنفسهم في برزخ مربرد الجو طرفه الأول متصل بهول البلاشفة والآخريهول الاستعمار الغربى المنقطع النظير ، فكانت النتيجة انهم جعلوا يقاتلون كل فريق بالآخر ، تارة يولون وجوههم شطر موسكو واذ استفحل جور المستعمرين ، وطوراً ينظرون الى الدول الغربية اذ قلب لهم لينين ظهر المجن . هذه حقيقة لا ريب فيها . فعلى ساسة الغرب أن يتحققوها ويعاموا العلم اليقين ان ليس زعيم رسل الدعوة البلشفية هو زينوفيف وهو يخطب في جواهر الوفود في مؤتمر باكو ، ولدنه هو الجنرال غورو قائد الكتائب السنغالية الذى يحكم في سورية والبلاد العربية الداخلية حكماً قائماً على طرق « القوة والحديد والنار » .

ومن المعلوم ان انتشار البلشفية في الشرق انتشاراً واسع النطاق بعيد الأفق ، سيكون بلا ريب جائحةً رائعةً يتزلزل الشرق بها وسائر العالم معا . فاذا كان اتصـار البلشفية في الغرب معناه اتصـار البربرية ، فهو في الشرق الهمجية المطبقة لا تبقى ولا تذر . وان تحرر الطبقات العامة في الشرق ممن لم يبرحوا في الجهل والعباوة طفرةً بدون تدريج ، من ربق التقاليد الدينية والعادات القديمة وسائر القيود الفاعنة بهم عن النهوض الصحيح ، واغتمار الطبقتين العليا والوسطى في الثورة الاجتماعية الآكلة الحاطمة من كل جانب ، ذلك من شأنه نفس الحضارة الشرقية والتهديب الشرقى نسفا ينزل بالشرق أفدح النوازل فيستغرق في الفوضى استغراقا لا يستقر به على حال أعصرأ وقر وناً .

خاتمة

هنا ينتهى وصفنا العام للتطور الحادث اليوم فى الشرقين الأدنى والأوسط. فهل هناك شئ أحرى بالتدبر وأجدر بالاعتبار مما جاء فى هذا الوصف الذى أنبنا عليه من جميع وجوهه؟ لا جرم انه تبدل وتغير، واستحالة وانقلاب. فقد تحرك « الشرق الجامد » أخيراً حتى القرارة القصى من أعماقه، وهو اليوم فى أشد ما يكون من الانفعال والهياج والفوران، وجميع ذلك قائم فيه وبالغ منه أكثر مما يخال الخائل ويتصور المتصور. فالعالم الاسلامى الذى ظلت قواه العقلية والروحانية هاجعة ما يقرب من ألف سنة، قد استيقظ مرة أخرى وطفقت قواه تعمل عملها العجيب - وغدا المسلمون يعظمون شأناً من جديد ويعلون منزلة فى الأرض

أما ماذا سيكون؟ والى أين المصير؟ ذلك لا يعلمه الاعلام الغيوب. فليس منا من يستطيع التنبؤ ماذا عسى يكون نتاج هذا التطور الشديد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينيا وغير ذلك من أطوار الحياة. بل كل ما نستطيع الجهر به هو أن نعلم علماً صحيحاً ونصف وصفا سليماً مطابقاً، ونحلل مختلف العناصر التى يتألف منها هذا الانقلاب العظيم تحليلاً لا نعرف فيه غير الصدق ولا نبغى منه سوى الحق

وهذا حقاً ليس بالقليل فإن النظر بعين التدبر والعقل فى هذا التحول الحادث الذى لا مثيل له، وربط مظاهره وصفحاته المتنوعة بعضها ببعض وجعلها تحت صورة عامة تظهر بها الأسباب والنتائج سلسلة آخذاً بعضها برقات بعض، وتتبع الطرق العديدة التى يسير فيها هذا الانقلاب تتبعا نقف به على أصول كل حالة من حالاته، ووجه من وجوهه، انما الغرض منه هو العلم الصحيح بالواقع، والادراك التام لاهمية ماينجم عن هذا التبدل فى المستقبل.

فالمعرفة تأملٌ وأملٌ، فاذا عرفت فتأملٌ وأملٌ - أملٌ ان هذا المخاض الشديد الذى لا يفهم كنهه الا من أوتى علماً كبيراً، ورزق عقلاً صافياً، وقلباً واعياً، ان هو الا مولد لشرق جديد فى عالم جديد، ولله الأمر من قبل ومن بعد

خداع الاوربيين للعرب والمسلمين

للشيخ

طلما نصح عقلاء الشرق الدول المستعمرة بان يقلعوا عن سياسة الفتح والغزو في الشرق بعد الحرب العامة ، فلم يعرر رجال هذه الدول كلامهم آذانا واعية ، حرصا على الفتوحات وطمعا وشرهاً وجرياً على السياسة القديمة الاستعمارية ، ومن تعود شيئا صعب عليه الاقلاع عنه . ولولا كون الشرقيين لم يزالوا يأملون اخلاص من الاستعمار رأسا بدون واسطة لمد جميعهم أيديهم الى مصافحة السوفييت المسكوفيين ، واقتدوا في ذلك بالترك والعجم والافغان ، الذين اعتضدوا بالروس بدون اقتباس نار البلشفة . ولكن الشرقيين ولا سيما العرب فضلوا المطالبة والمراجعة والتوسل بالتدابير القانونية والطرق السياسية ، على المبادرة الى التدابير القصوى . على أن المثل السائر « آخر الدواء الكي » هو عربي

في هذا المقام يحسن أن ننشر البلاغات التي نشرها الانكليز في أيام الحرب متزلفين بها الى العرب ليفصلوهم عن الترك ويأمنوا ثورة المسلمين . وعندما نقرأ هذه البلاغات ونقابلها بما بدا من الانكليز وحلفائهم بعد الحرب بحق هؤلاء العرب الذين ادعوا صداقتهم يخطر ببالنا ذلك البيت :

صلى وصام لأمرٍ كان يطلبه حتى قضاها فلا صلى ولا صاما

ولكن نسي الانكليز والحلفاء أن من أصح الأحاديث النبوية عند المسلمين :

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

البلاغ الأول من الانكليز الى العرب ١٣ شباط سنة ١٣٣٤

الى أصدقائنا سكان بلاد العرب

قد علمتم تماما أننا معشر الانكليز لم نخض غمار هذه الحرب الطاحنة ضد ألمانيا الا

لأنها اعتدت على الممالك الصغيرة المناخة لها وهاجتها لغير ما ذنب مع ان المانية نفسها قد كفلت ضمان استقلال تلك الممالك بالعهود والمواثيق الأ كيدة ولا يغيب عنكم ان ألمانيا لما اكتشفتها الاخطار وأحاطت بها الازمات احتالت بدهائها على الحكومة التركية لتأخذ بناصرها وتشد أزرها وقد استطاعت أن تصل الى ما ربهها بفضل المبالغ الطائلة من المال والأمانى الا كاذبة وكانت ترمى بذلك الى الحصول على أمر بالجهاد من سلطان تركيا ضدنا وضد حلفائنا لان رايتنا تظل الملايين العديدة من المسلمين الذين انضم الى جيوشنا الآلاف المؤلفة منهم وأصبحوا يحاربون معاضد الالمان جنبا الى جنب وهي ترجو من وراء ذلك أن ينقلب المسلمون ويكونوا علينا لانا ولا شك فى أن كل مسلم صميم ملأت العقيدة الاسلامية قلبه يربأ بنفسه من أن يستخف بعقيدته ويكون العوبة فى يد دولة أجنبية تجعله قرباناً على مذابح مطاعمها الاشعبية وليس جميع المسلمين من رعايا بريطانيا العظمى وفرنسا والروسية وحليفاتها وحدهم قد أظهروا آيات الاخلاص والولاء بارسال زهرة شبانهم لمساعدتنا فى ميدان القتال ضد تركيا وغيرها بل ان الطبقة الرشيدة من الأتراك سخطت على سوء سلوك تركيا الى هذا الحد ولعل بينكم من يتسأل عن نوايانا بعد أن نطفأ جذوة هذه الحرب فلدفع الالتباس نصرح بما يأتى :

ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند قررت ان عند انتهاء الحرب ستجعل من بين شرائط الصلح ومواده الرئيسية أن تكون شبه جزيرة بلاد العرب ترفل فى ثياب الحرية وتستعيد رقيها القديم ونضرتها الأولى . بر بكم أفلم يكفكم ذلك ؟ لقد صرح لنا بعض مشايخ العرب ان برغبتهم فى التخلص من يد الأتراك وبعضهم يشد اليوم أزر جيوشنا بحمد سيوفه أما الذين يرغبون فىنا منكم ويخافون المجاهرة بما فى نفوسهم فاليهم نسوق حديثنا هذا

لا يداخلكم ريب من جانبنا وترقبوا سnoch الفرصة المناسبة فهى آتية لارب فيها وعندها تخلمون عنكم رداء الظلم وتنفضون عن كاهلكم غبار الاستبداد وانا لا نألو جهداً فى مديد المساعدة اليكم كما انا نعدكم وعداً صادقاً بأنكم ستصيرون بحول الله وقوته أمة متمتعة بكل معانى الاستقلال . اتم على شوق الى معرفة نوايانا من جهة دينكم الكريم الافاعلموا ان الديانة الاسلامية قد احترمها الانكليز أجل الاحترام وأكبرتها كل

الأكبر والتاريخ أكبر شاهد على صدق ما نقول وما فتننا لهذا السبب نمد يد المساعدة لسلطان تركيا وزيد أسرة الالفة والود بيننا وبينه تمكيناً . وأما الآن فقد حله بعض وزرائه على نكران كل جيل صانعاه به وعلى مناوأتنا بعد طول الصداقة بيننا وبينه فليس عليه إلا أن يرضخ لمشيئتهم ويقبل عاقبة ما كان . ولكن سياستنا سياسة الاحترام والصداقة للإسلام والمسلمين لا يطرأ عليها أدنى تغير وإن أقرب برهان على ما ذكرنا هو رغبتنا في مساعدة سكان الأراضي الحجازية بمقادير من الحبوب ولكن ضباط الألمان والأتراك صادروا هذه المقادير حال وصولها إلى جدة والجاؤنا إلى عدم متابعة إرسال الحبوب لأعدائنا ليسدوا ما بهم من ألم المسغبة في حين أن الفقراء خاص البطون يتضورون من الجوع . وبالرغم من كل هذه الصعوبات فالحكومة الانكليزية بعد ما سمعت ما يتكبده الحجاج وسكان بلاد العرب الأبرياء من آلام الجوع لندرة الماء كولات قد حركتها عوامل الشفقة والصداقة السرمدية نحو العرب أجمع فقرر التسريح بجلب الماء كولات إلى جدة عن طريق البحر فليتنا كد العرب أنفسهم أن هذه المؤن الغذائية هي قوت لهم ولعائلاتهم وليجتهدوا في منع مصادرتها من هؤلاء الذين يعملون على نقيض القواعد المتبعة إبان الحروب ويحفظون لقمة الجائع من فمه

ملك بريطانيا وامبراطور الهند

جورج الخامس

البلاغ الثاني ٤ ذى القعدة ١٣٣٥

ان الحكومة البريطانية تعلن للبلاد انه ليس في نية الدولة البريطانية العظمى أن تقوم بأعمال حربية لا برأ ولا بحراً ضد بلاد العرب أو موانئها الا اذا كانت الأعمال الحربية لازمة لأجل حماية مصالح العرب من اعتداء الأتراك أو غيرهم أو لأجل تأييد العرب الذين يودون أن يتحرروا من نير الأتراك . ثم ان الحكومة البريطانية تعلن للبلاد أيضاً انها تعترض حرية التجارة في البحر الأحمر لانها من أهم وسائل معاش العرب وانه لم يحصل أقل تغيير في علائق بريطانيا العظمى الودية مع العرب بوجه عام .

ملك بريطانيا

وامبراطور الهند

جورج الخامس

البلاغ الثالث ٧ ذى الحجة ١٣٣٥

ان الحرمين الشريفين والمعاهد المقدسة السالفة الذكر ومن ضمنها ثغر جدة سبق
أثناء هذه الحرب التي لادخل للدين فيها في أمان من أى هجوم أو اضرار من جهة القوى
العسكرية البرية أو البحرية حتى لايلحق الحجاج الهنود الذين قصدوا زيارة الحرمين
المذكورين مايجب أذيتهم وبناء على طلب الحكومة البريطانية تعهدت الحكومتان
الفرنسية والروسية بمثل ماتعهدت به حكومة جلالة ملك بريطانيا .

ملك بريطانيا

وامبراطور الهند

جورج الخامس

اطلب كتاب

محاسن المساعي

في مناقب الامام أبي عمرو الأوزاعي

ينشر هذا الكتاب بعد تنقيحه بقلمه وتعليق حواشيه
وتصديره بمقدمة عن الامام الأوزاعي وبتراجم العلماء له

الأمير شكيب أرسلان

أحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

تاريخ الممالك الاسلامية الهندية

التركيب

يعين الدولة وأمين الملة محمود الغزني الذي يقول له مؤرخونا محمود بن سبكتكين ، لم يكن أفغانياً بل تركياً ، وبين الجنسين فرق لا يخفى ، لأن الترك تورانيون والأفغان إيرانيون ، وإنما يمكن أن يعد أفغانياً باعتبار مملكته لأنه أسس ملكه في غزنة من بلاد الأفغان ، وأصل هذه القضية أن جد محمود ، وهو المسمى آلب تكين ، وهو بطل تركي ، كان شأنه الغزو والقتال وكان في خدمة الملوك السامانيين الفرس الذين تولوا خراسان وما وراء النهر ، فخلت وحشة أوجبت انفصاله عنهم ، فقدم الى مدينة غزنة وهي من أحسن مدن العالم موقعاً ، عدا ما لها من الأسوار ، وفيها من الحصون ، وحوها من الخنادق ، وتبوأها نحو سنة ٩٦٢ وتبعه شردمة من أحلاس الخيل ومغاوير الحروب ، بمن جاءوا معه مما وراء النهر ، فكانوا نواة جيشه ثم انضم اليهم جند وافر من الأفغان الذين يشبهون الترك كثيراً في الغرام بالقتال ، فانبسط بهم مملكة البكتين ، ثم مملكة ولده سبكتكين الذي خلفه (٩٧٦) وفتح كابول التي هي مفتاح معابر جبال الهندكوش وقندهار قلعة الاسكندر ، وأتم فتح البلاد الأفغانية واستظهر على مغازيه بهذا الشعب الأفغاني الباسل الذي لم يخضع لشعب في العالم . وساعد على اتحاد الأتراك والأفغان كون الفريقين على عقيدة السنة والجماعة ، حال كون الفرس شيعة متعصبين . ثم انه في سنة ٩٩٧ أقطع السامانيون سبكتكين بلاد ما وراء النهر ، مكافأة له على نجده إياهم في ثورة ثارت عليهم في بلادهم ، فقام سلطان سبكتكين وطمع في غزو الهند مطمح نظره ، وشن الغارات على البنجاب مقدمة الهند ، وما زال يتحرش بالهند حتى احتشدت راجوات لاهور ، ودلهي ، واجير ، وقنوج ، وكالنجار ، ومشت صوب الأفغان بجميع أفيالها و ١٠٠ ألف من فرسائها ، فنصر الله سبكتكين ومزق الهنود شرمزق ، ولم يكن للهنود أن يملكوا نظام الترك في الحروب

والترك هم الذين ألف على مزاياهم العسكرية الامام الجاحظ شيخ كتاب العرب كتابه المسمى « فضائل الاترك » في أيام المأمون ولا أن يقاوموا الافغان وهم هم الذين لم يوجد قوم مثلهم للحرب والضرب، ثم خلف سبكتكين ولده محمود الممدود من أشهر أبطال الاسلام وهو الفاتح الأعظم للهند .

وبدأ غزواته بفتح الملتان سنة ١٠٠٥ مسيحية ، وأراد أن يوغل في الهند فشد راجا لاهور عليه جميع عساكر الهند ، متحداً مع راجوات دلهي واجير وقنوج وكفاليور وكاليجار وواجابين ، فقام العالم البرهمي من أوله الى آخره ، وانتظرهم محمود في سهل « باتنداه » ودارت رحى الحرب ففضى الله بكسر الهنود بالرغم من تفوقهم في العدد ، وفرت أفيالهم لا تلوى على شئ ، وغنم محمود بعد هذه المعركة مالا يحصى ولا يستقصى من كنوز الهند ، ونهب هيكل « ناغاركوت » (١٠٠٩) سنة ١٠١٤ فتح بلاد دواب سنة ١٠١٩ فتح قنوج وطرده أميرها ووضع مكانه أميراً تابعاً له . سنة ١٠٢١ فتح كشمير ، ومازال يوالى مغازبه ويلقى الرعب في قلوب الهنود الى أن تألب عليه ملوك البراهمة مرة أخرى سنة ١٠٢٤ فاستأنف فيهم صولته المعهودة ، ودخل لاهور وخلع سلطانها سقبال بن دانتقبال ، وضم جميع البنجاب الى سلطنته فكانت المحطة الأولى من طريق الاسلام الى الهند . ثم هاجم كاليجارا وكفاليور فالتزم ملوكها أن يؤدوا له الجزية . وقال في صبح الأعشى : انه فتح بهاضية سنة ٣٩٦ وسار الى بيده ملك الهند ، فهرب منه الى مدينته المعروفة بكاليجار فحاصره فيها حتى صالحه على مال فأخذ المال وألبسه خلعتة ، واستعفى من شد وسطه بالمنطقة فلم يعفه من ذلك فشدتها على كره . سنة ١٠٢٥ مسيحية غزا ساحل الكوجرات وهدم صنم سومنات الشهير . وبهذه الفتوحات كلها التي فتحت للاسلام أبواب الهند أطلق عليه الخليفة العباسي القادر بالله لقب سلطان وسماه يمين الدولة ويمين الملة . قال بعض مؤرخي الافرنجة ان محموداً كان اسكندر الاسلام ، فانه فتح الهند كما فتحها اسكندر ، الا ان فتوحات اسكندر ذهبت بذهابه أما فتوحات ابن سبكتكين فمقيت الى اليوم . وكان همه من فتح الهند نشر كلمة التوحيد فيه ، وقلع عبادة الأصنام منه ، الا انه مع هذا الفوز المعنوي فاز بغنائم من الذهب والفضة والحجارة الكريمة لم تدخل في حوزة أحد من قبله .

ويعترف مؤرخو الافرنجة بأن محمود الغزني لم يكن فاتحاً غازياً على المكنة من الجهة العسكرية فقط ، بل انه كان سلطاناً عاقلاً أديباً كيساً ، ناضجاً بين حاشيتي المادة والمعنى ، جامعاً بين دولتي السيف والقلم ، ويعالون ذلك بأن بفتح العراق العجمي واستيلائه على اصبهان والري التي انتزعها من بني بويه ، وعلى نيسابور وطوس وهراة ، فضلاً عما كان بيده من ملك خراسان وأفغانستان ، قد قام بتمثيل دور مدني يليق بملوك العجم ، وأنه أعطى أبهة الملك حقها ، وفي زمانه حصلت نهضة فارس العقلية وصارت غزته هذه التي كانت عبارة عن قلعة حربية ، مركزاً للعلم والعرفان ومشرفاً لأشعة الحكمة والآداب ، وامتلأت مدارس وجوامع ومكاتب ، واليها شدت رحالها الحكماء والعلماء والشعراء ، ان لم يكن منهم الا الفيلسوف الأعظم أبو نصر الفارابي ، والشاعر الأكبر هوميروس العجم الفردوسي لكفي . وقد كان السلطان محمود هو المقترح على الفردوسي نظم الشاهنامه ووعده بأن يكافئه على كل دو بيت (بيتين) بقطعة من الذهب ، الا أن ذلك أثار حسد الحساد ، فوشوا به الى السلطان فبدل له الفضة بالذهب ، فغضب الفردوسي وفر خفية بعد أن فرق الفضة على عبيده وهجا السلطان هجواً مرأ . وذهب الى بغداد ثم الى شيراز ، وكان محمود قد أرسل في أثره من يستعطفه ويبين له ندم السلطان على ما فرط منه فكان الفردوسي قدمات . ولزم باب الغزني من شعراء الفرس أيضاً العنصرى والفروخلى والاسجودى ، وكان هناك العلامة الكبير أبو الريحان البيروني صاحب الجغرافية ، وفي أيامه نبغ الكاتبان الأعظمان فرقدأ سماء البلاغة أبو الفضل بديع الزمان الهمداني ، وأبو بكر الخوارزمي ، وكان الهمداني عامل السلطان على هراة . ومن الذين اشتهروا في ذلك الدور ، وكان اليد اليمنى لابن سبكتكين في المآثر والمبار والمفاخر الكبار ، وزيره المايماندى . وقد ألف الكاتب العتي تاريخاً خاصاً بمحمود بن سبكتكين ، كما انه مترجم في تأليف كثيرة من أشهرها وفيات الأعيان لابن خلكان

وخلف محموداً الغزني بعد وفاته ابنه مسعود (١٠٣٠ الى ١٠٤٠) وفتح من الهند بلاد الأوض ودخل بنارس. وورد في صبح الأعشى ان ابراهيم بن مسعود فتح أيضاً حصوناً كثيرة في سنة احدى وخسين وأربعائة .

وسنة وفاة محمود على ماني صبح الأعشى بالتاريخ الهجرى هي ٤١١ قال : وملك بعده ابنه محمد بن محمود بعهد من أبيه ، ثم قدم أهل المملكة عليه أخاه مسعود بن محمود

وملكوه عليهم وبقى حتى قتل في سنة ٤٣٢ ثم ملك بعده أخوه محمد المقدم ذكره وقتل في عامه ، وملك بعده ابن أخيه مودود بن مسعود وتوفي سنة ٤٤١ وملك بعده عمه عبدالرشيد ابن محمود وقتل سنة ٤٤٤ وملك بعده فرخداد بن مسعود بن محمود وتوفي سنة ٤٥١ وملك بعده أخوه الملك المؤيد ابراهيم بن مسعود (السابق ذكره في الفتوحات) وتوفي سنة ٤٨١ وملك بعده ابنه مسعود بن ابراهيم وتوفي سنة ٥٠٨ وملك بعده ارسلان شاه بن مسعود ثم ملك بعده بهرام شاه بن مسعود ، وملك بعده ابنه خسرو شاه بن بهرام وتوفي سنة ٥٥٥ وملك بعده ابنه ملكشاه بن خسرو شاه بن بهرام بن مسعود بن محمد بن سبكتكين . ثم انتقل الملك الى الغورية . انتهى

وبعد وفاة محمود بن سبكتكين ظهرت الاترك السلجوقية على خراسان واتفقوا ملك أبناء سبكتكين ، فانتقلوا من غزنة الى لاهور في الهند وما زالت أمورهم في انحطاط الى أن غاب على ملكهم الغوريون الافغان ، والله وارث الارض ومن عليها .
وهؤلاء الغوريون هم أمراء فيروزكوه أو يروزكوه وهي قاعدة بلاد الغور على مافي كتاب « تقويم البلدان » والغور (بضم المعجمة) - على مافي (اللباب) - هي بلاد في الجبال بقرب هراة . وقال في « المشترك » : ان يروزكوه هي دار مملكة جبال الغور وهي قلعة حصينة وبها كان مستقراً بنو سام خان ملوك الغور . « وقال في معجم البلدان » : « بناها بنو سام ملوك الغورية . وقال في صبح الأعشى : وبلاد الغور وغزنة وما والاها وان عدها في « مسالك الأمصار » من مملكة التورانيين فانها ليست من أصل مملكة توران وانما تغلب عليها ملوكها من مملكة ايران فلذلك أثبتها في مملكة ايران » . انتهى
وقال في « المشترك » ، ومعنى يروزكوه الجبل الأزرق .

وأول من ملك من الغوريين علاء الدين الحسين بن الحسين ، ملك عند انقراض الدولة الغزنوية واستضاف غزته وما جاورها الى الغور سنة ٥٥٥ ولقب بالملك العظيم . وملك بعده غياث الدين أبو المظفر محمد بن سام بن الحسين ، ثم ملك أخوه شهاب الدين وفي أيام هذا ، أي في عهد الستمائة للهجرة ، كان الامام حجة الاسلام نجر الدين الرازي ، وكان يذهب الى هذا السلطان ويعظه . وملك بعده علاء الدين محمد بن سام بن محمد بن مسعود بن الحسين أما الفاتح الأعظم من هؤلاء والذي مكانه في التاريخ العام عين مكان ابن سبكتكين

فهو السلطان محمد أبو المظفر بن الحسين الغورى .

وقال « رينه غروسه » صاحب تاريخ آسية المستخلص من مئات من التواريخ :
 « ان الغوريين استولوا على جميع ما كان يملكه الغزنويون ، ومن ثمة كان بدهياً أن يجروا
 على أثرهم في غزو الهند . فبعد أن أزال محمد الغورى ملك آل سبكتكين ، زحف نحو
 الهند فجمع له ملوك البراهمة ثلاثمائة ألف فارس ، وثلاثة آلاف فيل ، فزق شملها ودخل الهند
 وكانت معركة فاصلة وفتحاً قلّ أن انسق مثله للاسلام (١١٩٣ مسيحية) ضمن للاسلام
 بعدها سلطنة الهند مدة خمسة قرون متوالية ، وأدال الله لمحمد ﷺ من براهما . فدخل
 محمد دلهى وميرات وآغرا واستضافها الى ملكه رأساً . وفى السنة التالية فتح فنوج
 (١١٩٤) وملوكه ايبك فتح بنارس وبلاد أوض ، وسنة ١١٩٦ ضرب الجزية على مملكة
 كفالبور ، وسنة ١١٩٧ استلحق بلاد كوجرات ، وسنة ١٢٠٢ خلع راجا كاليجار
 واستضاف الى المملكة الغورية بلاد بوندكهاوند . وان أحد رفاق ايبك بختيار قلجى
 الافغانى انتزع من يد دولة « ماغدها » البوذية بلاد بهار والبنغاله سنة ١٢٠٢ » انتهى
 قول غروسه ملخصاً .

وقال فى صبح الأعشى : فتح أبو المظفر محمد بن الحسين الغورى مدينة لهاور (أى
 لاهور) سنة ٥٤٧ هـ (وابن الاثير يقول ٥٧٩ هـ وهو أصح لأن ذلك فى زمان ابن الاثير)
 واتبعها بفتح الكثير من بلادهم ، وبلغ من النكاية فى ملوكهم ما لم يبلغه أحد من ملوك
 الاسلام قبله ، وتمكن من بلاد الهند وأقطع مملوكه قطب الدين ايبك مدينة دلهى (يقال
 دلهى ودلهى ودلى) التى هى قاعدة الهند . وبعث ايبك عساكره فملكته من الهند أماكن
 مادخلها مسلم قبله حتى قاربت جهة الصين . ثم قال : ثم فتح سنة ٥٩٧ هـ نهر واله . وتوالت
 ملوك الاسلام وفتوحاتهم فى الهند الى أن كان محمد بن طغلقشاه فى زمن الملك الناصر محمد بن
 قلاوون صاحب الديار المصرية ، فقوى سلطانه بالهند وكثرت عساكره وأخذ فى الفتوح
 حتى فتح معظم الهند . انتهى

قال غروسه ان محمود الغورى أسس ملكاً عظيماً ثابتاً وطيداً ، تعاقبت عليه الدول
 الاسلامية التى جاءت بعده من ترك وافغان وطاغلاقيين وسادات ولودييين وتيموريين ،
 وكان دستور هذا الملك وحدة الدولة وحق الاسلام فى السلطنة العامة على الهند مما بقى الى

زمان استيلاء البريطانيين . وهو الذي نقل كرسى السلطنة من لاهور الى دلهي لأن لاهور لا تضمن الاملك البنجاب ، حال ككون دلهي تدعو الى ملك جميع سهول القنچ وأقاليم الدكان ، ولما كان الغزنيون في لاهور لم يكونوا الا نظير راجاوات في أحد أقاليم الهند أما الغوريون في دلهي ومن ورثهم من آل طاغلاق وآل السيد وسلالة تيمور فكانوا بالفعل سلاطين الهند بأسرها .

ثم قال ما محصله : ان امبراطورية الغوريين كانت لم تزل قائمة بالسيف ، وكان الهنود الوطنيون غير طائعين الا بسبب توالي الزخوف من الشمال ، وكان بين أولئك الغزاة الذين يقصدون الهند للجهاد كثير من الممالك . وكان شأن هؤلاء الممالك في الهند شأنهم بمصر حذو القذة بالقذة . أصلهم أرقاء من أجناس مختلفة اندمجوا في الجيش فامتازوا باليسالة والاقدام وحسن التدبير ، فكان بعضهم يرقى من درجة الى درجة الى أن ينال الامارة وأحياناً السلطنة كما كان يقع بمصر ، ولم يكونوا ممن يقتنع بالملك دون ابقاء المآثر والطمع في تخليد الذكر ، فكما ان سلاطين الممالك بمصر ملأوا مصر والشام مساجد وعمارات شريفة ، كذلك سلاطين الممالك بالهند كانوا على هذه الطريقة ، فالسلطان المملوك في الاصل ايبك الذي خلف محمد الغوري ، بنى في دلهي الجامع المسمى « جامع مسجد » والمنارة المسماة « قطب منار » وبنى في اجير الجامع المنسوب اليه . وكما هو الشأن في دول الممالك قلما كان يتولى الابن مكان أبيه بل كان يغلب على الملك مملوك آخر يكون أوفر حزماً ، وأشد عزمًا من الولد الذي كان يجب أن يرث أباه ، لهذا لما مات ايبك تغلب على سلطنة الهند مملوك تركي اسمه آلتامش (١٢١١ - ١٢٣٦) فكان من عظام السلاطين المدبرين ، وطد أركان السلطنة وأكمل فتح الهند الشمالية بأخذ بلاد المالفا . وأعلى من هذا كله انه حفظ الهند من جائحة المغول ، لانه في زمان التامش هذا زحف الجنكيزيون على ايران وأزالوا سلطنة خوارزم العظيمة ، وفر الامير جلال الدين مانكبردى الخوارزمي شريداً ملتجئاً الى التامش ، فكان من حسن تدبير هذا انه رد غارة المغول على البنجاب ولكنه لم يتهور في اصراخ جلال الدين الى محاولة اعادة ملكه له وشن الغارة على المغول ، مما لم تكن تؤمن عاقبته . الا أن المغول كروا أيضاً على البنجاب بعد موت التامش فردهم مملوك تركي آخر كان التامش رقاہ تدريجاً الى امارة الجيش اسمه « بالبان » حفظ بالبان الهند من غارة

المغول فكافأته الامة بأن رفته الى السلطنة (١٢٦٦ - ١٢٨٧) .

وسنة ١٢٩٠ مسيحية انتقلت سلطنة الهند من أيدي الممالك الى آل قيلجى الافغانيين ، فامتاز من هؤلاء السلطان علاء الدين الذى كسب المسلمين فتوحات جديدة فاخضع بهوبال واجتاح بلاد المهرات (فى بلاد بمباى الحاضرة) وضرب على راجا المهرات الجزية ، وفتح مدناً وقفل بغنائم كثيرة . وعام ١٢٩٧ زحف ١٠٠ الف مغولى مما وراء النهر يقودهم امير من ذرية جنكيز قاصدين البنجاب فالتقاهم علاء الدين وهزمهم شر هزيمة بقرب لاهور فعادوا سنة ١٣٠٥ وتقدموا نحو دلهى فكسروهم علاء الدين كسرة اشنع من الأولى ، واسر منهم جانباً رماهم تحت ارجل الفيلة فداستهم . ثم عاد علاء الدين الى اتمام فتح الهند الوسطى ، فاستولى على مملكة كوجرات ، ثم غزا مملكة تشيتور ، وبعد حرب ضروس التجأ ملكها الى جبال آرافالى ، فلم يرجع علاء الدين عنه الا بعد أن أقر له بالطاعة . وسنة ١٣٠٨ سير علاء الدين أحد قواده الملك كافور لغزو مملكة دكان ، وامتنع راجا مملكة المهرات عن دفع الجزية ، فغزا بلاده وغزا مملكة تليينغانا وفتح عنوة عاصمتها فارانغال ، واستولى على خزان ملكها . وسنة ١٣١٠ غزا مملكة مايسور واجتاح مدينة هاليبيد العظيمة . ثم فى اثناء ايابه الى دلهى قتل راجا المهرات الذى عاود العصيان ، وضم المهرات الى سلطنة دلهى . اما فتح الدكان فلم يتيسر لالاسكندر ولا لمحمود الغزنى ولا لمحمد الغورى وكل من هؤلاء الفاتحين العظام لم يصل الى بلاد الدكان فى غزواته .

الا انه فى عام ١٣٢١ تنزى على سلطنة دلهى بنو طغلق الاترك ، وازالوا الدولة الافغانية من هناك ، وظهر من بنى طغلق هؤلاء سلطان اسمه محمد اشتهر بالعنف والعسف ، فغاظ بسياسته الهنود والمسلمين معاً ، فانبتد كل امير فى مملكة واعلن انفصاله عن سلطنة دلهى . فملك فى الدكان ، وملك فى مالفا ، وملك فى البنغال وملك فى كوجرات ، وملك فى أوض . وكلهم اصبحوا مستقلين بانفسهم ولم يبق بيد حكومة دلهى سوى دواب والبنجاب ، وهذه أيضاً تعرضت لفادحة كبرى وهى غارة المغول . انتهى .

قال فى صبح الاعشى . ثم بعد محمد شاه ولى هذه المملكة سلطان من اقاربه اسمه فيروزشاه وتقى فى الملك نحو اربعين سنة ثم تنقات المملكة فى بيتهم الى ان كان من تمرلك ما كان من فتح دلهى ونهبها . انتهى .

فان المغول كانوا قصدوا الهند مراراً وصدتهم الهند وانكفأوا عنها خاسرين، الا انهم لما دخلوا في الاسلام، وتوطد ملكهم في فارس والعراق وافغانستان، وبعد ان كانوا اعداء الاسلام صاروا حياه - ولولا ذلك مارسخت قدمهم في هذه البلدان خلافا لما يظن بعضهم - جددوا العزم على غزو الهند اقتفاء لأثر غيرهم بم ملكوا أفغانستان كالغزنيين والغوريين وفي سنة ١٣٩٨ مسيحية زحف تمرلنك بعساكر جرارة على الهند، فدخل البنجاب، وصمد الى دهلي فالتقاء سلطانها محمود الثالث في بانيبات، فدارت الدائرة على محمود، ودخل تمرلنك دهلي ظافراً فاتحاً، وأعلن نفسه سلطاناً على الهند كلها في الجامع الأعظم، ولكنه استبق سلاطين دهلي الأصليين بصفة تبع له، فسقطت مكاتهم وصاروا كسائر ملوك الهند. فصارت ممالك الهند الاسلامية هي سلطنة دهلي ومملكة الدكان ومملكة البنغالة ومملكة جاونبور ومملكة مالفا ومملكة كوجرات. أما مملكة البنغالة فأسسها بختيار قيلجي الافغاني على انقاض دولة «ماغادها» البوذية وبقي كيانها محفوظاً مع تعاقب الدول الافغانية والتركية والمغولية على الهند الى أواسط القرن السادس عشر للمسيح. وأما مملكة جاونبور فقد انشأها احد وزراء محمود الثالث سلطان دهلي في أثناء غزوة تمرلنك، وكان لها بلاد أوض وولاية بنارس، وقد تركت مآثر باهرة مثل جامع « اتالا » المبني سنة ١٤٠٨ والمسجد الاعظم المبني سنة ١٤٥٠ ولكن لم يطل عمر هذه الدولة، اذ كان تأسيسها سنة ١٣٩٤ وانقراضها سنة ١٤٧٧ بحرب وقعت مع سلطنة دهلي التي استلحقتها رأساً. وأما مملكة مالفا التي قاعدتها مدينة ماندو، فقد وضع أساسها رجل افغاني كان والياً هناك سنة ١٤٠١ في خلال غارة المغول، فعاشت الى سنة ١٥٣٤ اذ استولى عليها ملك كوجرات. وأما مملكة كوجرات وعاصمتها أحد آباد فقد أسسها أيضاً واليها في تضاعيف زحفة تمرلنك. وفي الربع الأول من القرن السادس عشر كان قد وصل البرتغاليون الى الهند بعد أن اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح، وحاولوا النزول بكونكان فاستصرخ ملوك كوجرات الاتراك العثمانيين سنة ١٥٠٨ فأرسلوا اسطولهم لينضم الى اسطول كوجرات في حرب البرتغال، فكانت الغلبة للاميرال البرتغالي « فرانسز كودالمايده » ونزل البرتغاليون بساحل ديو سنة ١٥١٣. وأعظم مملكة انشقت عن امبراطورية دهلي هي الدكان، أسسها الباهمانيون وهم افغان، وكانت قاعدتها « كولبارغه » بقرب حيدر آباد، وتشتمل على

ملك نظام حيدر آباد الحالى مضافاً اليه برار وبلاد المهرات . وكان بجانبها مملكتان هديتان قويتان احدهما «فارانغال» والثانية «فيجاياناغار» الى الطرف الجنوبي من الدكان . فكانت سلطنة الدكان عبارة عن جهاد دائم مع هاتين المملكتين . وسنة ١٤٢٤ افتتح أحد الأول الباهماني صاحب الدكان فارانغال ودمرها تدميراً . وكان معظم شوكة الباهمانيين في زمان محمد الثاني (١٤٦٣ - ١٤٨٢) بهمة وزيره محمود قاوان الذي افتتح بلد «غوا» من مملكة فيجاياناغار وسواحل سيركار من ملك راجا أوريسا . وفي أيامه امتدت سلطة الدكان من خليج البنغالة الى بحر عمان . ولكن بعد موت محمد الثاني الباهماني تقسمت هذه السلطنة أيدى سبا ، فتشعبت منها خمس دول مستقلة كل عن الأخرى : الأولى دولة باريدشاد في بيدار (١٤٩٠ - ١٦٥٧) وأصل ملوكها كرج . الثانية دولة عماد شاه في يرار (١٤٨٤ - ١٥٧٢) أصلهم هنود وأسلموا . الثالثة دولة نظام شاه في أجد ناغار (١٤٩٦ - ١٦٠٠) وهذه أيضاً أصل مؤسسها من الهنود المهتدين . الرابعة دولة قطب شاه في غولكوند (١٥١٢ - ١٦٨٧) وهذه أصلها فارسي . الخامسة دولة عادل شاه في بيجابور (١٤٨٩ - ١٦٨٦) ويقال ان مؤسسها يوسف عادل كان من أولاد السلطان مراد الثاني العثماني ، ساقته الأقدار بعد اقامة طويلة بفارس الى بلاد الهند حيث استقل بامارة بيجابور وكان متعصباً للفرس وللشيعة بخلاف أهله آل عثمان . فنشر الأدب الفارسي في مملكته وجعل التشيع دين الدولة الرسمي وخلفه ولده اسماعيل فاحتذى على مثاله .

وبما لا يخفى على الناقد البصير ان خمس دول كهذه ، متشعبة من مملكة واحدة أشبه بملوك الطوائف بالاندلس ، أو ملوك مصر والشام بعد صلاح الدين ، أو ملوك ايطالية قبل وحدتها الأخيرة الخ كان بعضها مع بعض في نزاع مستمر ، والحروب بينهم لاتكاد تنقطع . فكانت الفأدة من ذلك لجيرانهم الهندوس ، وتقوى بخلافهم راجا «فيجاياناغار» واشتدت جراته مرة الى أن اجتاحت مملكة أجد ناغار بحجة الصريح لمملكة بيجابور . فغلبت على الملكين المتنازعين حية الاسلام وتصالحا وانضم اليهما ملكا بيدار ، وغولكوند ، وزحف الأربعة على فيجاياناغار ، ونعشوا هذه المملكة العظيمة ، وقتلوا الراجا في واقعة تاليكوت ، وأتوا على عاصمته من القواعد (١٥٦٥) . قال المؤرخ رينيه غروسه صاحب تاريخ أسية المستخلص من مئات من منابع التاريخ وعليه اعتمدنا في أكثر هذا النقل : ان الجهاد

الاسلامى الذى بدأه محمود الغزنى فى نحو سنة ألف للمسيح فى الهند ، انتهى فى أواخر القرن السادس عشر على حدود مايسور ، ولمع الهلال من ثلوج جلايا الى ساحل كرنات .

ونعود الى سلطنة المغول فى دلهى ، فنقول ان أحد احفاد تمرلنك الشهير واسمه بابر ولقبه ظهير الدين محمد ، قد انتهز فرصة بعض الحوادث التى وقعت بدلهى ، فزحف من كابول ، حيث كان أميراً الى عاصمة الهند . وكان بابر هذا ابن المسمى عمر الشيخ ملك فرغانه ، وبذلك ابن حفيد ميرانشاه ثالث أولاد تيمورلنك وكانت أمه الأميرة قوتلق نيغار آخر من بقى من سلالة جغتاي الجنكيزية ، كما أنه ينتسب الى جنكيز فاتح الدنيا من جهة الأب أيضاً . ومعلوم ان الانتساب الى جنكيز هو فى العالم الطوراني أقصى ما تخيله الامانى لملك أو سلطان أو أمير أو خان من الخانات ، كما هو الشأن عند العرب فى الانتساب الى آل البيت . بل كل منسوب فى المغول أو الترك الى جنكيز أو تيمور يرى لنفسه حقاً شرعياً فى الملك . فكان بابر من ورثة ذلك الحق الشرعى والمجد الأتميل . وبعد وفاة والده سنة ١٤٩٤ (٥ رمضان ٨٩٩) آل اليه ملك فرغانه وكان عمره ١٢ سنة ، وسنة ١٤٩٧ ضم اليه مملكة ماوراء النهر ، ولكن غلب عليه محمد الشيبانى خان الاوزبك مؤسس الدولة الشيبانية فى بخارى ، فانهمز الى افغانستان يحاول ملكاً أو يموت فيعندر . فوفق الى اماره كابول سنة ١٥٠٤ واستولى على قندهار سنة ١٥٠٧ وكان نظير محمود بن سبكتكين قد تبعه جماعة من الأتراك من مساعير الحروب ، واعصوب حوله فثام من الافغان الذين أحلى شئ عندهم القتال والنزال ، فاول شئ كان يخطر ببال مثل هؤلاء وهم فى كابول وقندهار ، هبوط الهند كما هبطها من قبلهم محمود الغزنى ومحمد الغورى . وبينما هم يحفزون بابر على هذه الغزاة التى وراءها الصيت البعيد وخزائن الهند ، اذلاحت لذلك الغرة فان السلطان ابراهيم الثانى صاحب دلهى وهو من السلاطين اللوديين من سلالة افغانية كان اختلف مع عمه اعلم فالتجأ هذا الى كابول ، وبهذا تسنى لبابر أن يشن الغارة على البنجاب (١٥٢٥) بجيش لايتجاوز ١٣ ألف مقاتل لكنهم جميعاً من المنجذين فى الحروب ذوى البصائر فى القتال ، وقد جر بابر معه المدافع التى لم تكن معروفة يومئذ فى الهند ، فنهد اليه السلطان ابراهيم بمائة ألف مقاتل وألف فيل ، ودارت رحى الحرب فى سهل بانيبات فى ٢١ ابريل (نيسان) عام ١٥٢٦ أو نهار الجمعة ٨ رجب سنة ٩٣٢ فاقام بابر فى وجه الفيلة

حواجز من العجلات المسلسلة بينها المدافع ، بحيث أبطل عمل الأفيال ومن الجهة الأخرى كان عنده رماة بالمدافع يتقنون الرمي على نمط العثمانيين في القرن السادس عشر . فالقت قذائفهم الرغب في قلوب الهنود فهلك ابراهيم في الواقعة وهلك معه ٢٥ ألفاً من جنوده وتشتت الباقي . ودخل بابر دلهي ظافراً ونودي به ملك ملوك الهند في جامع دلهي الأعظم ، وسار ولده همايون فاحتل آغرا العاصمة الثانية وغيرها من الحواضر . فقامت قيامة الهند لهذه الواقعة ، وأخذ راجوات الهندوس يتأهبون للقتال بدعوة رانا (لقب أكبر من راجا) سانغا ملك تشيتور فحشد معه راجا مارفار ، وراجا آمبر ، وراجا أجير ، وراجا كفالپور ، وراجا تشنديرى ، وانضم اليهم محمود اللودى أخو السلطان المقتول فبلغت جيوش الحلفاء مائة ألف مقاتل من أفرس خيالة الشرق والتقى الجمعان في سهل كانفاها على مقربة من آغرا ، فانتهت المعركة بدبرة الهنود ، وكانت الكلمة للمدفع كما فى المعركة السابقة فات رانا تشيتور غمماً . وزحف بابر يستصفي الممالك فحصر قلعة تشنديرى ، وضيق عليها ، فلما أيقن أهلها بقرب سقوطها كان منهم أن ذبحوا نساءهم وأولادهم أولاً ، ثم قتل بعضهم بعضاً ، بحيث عند مادخلها بابر (سنة ١٥٢٨) لم يجد الاجنثا وأشلاء . أما السلطان محمود اللودى فكان لا يزال فى مملكة أوض فقصدته بابر فانهزم الى البنغالة ، فانتصر له ملك البنغالة وهو أفغانى مثله فتغلب عليه بابر وأجبره على الدخول فى طاعته . وهكذا بقى بابر خمسة أعوام يجالذ ويجهاد حتى دوخ الهند وأسس فيها السلطنة المغولية التى استمرت قرنين فى الهند وكان لها تاريخ طويل عريض .

ومات بابر (سنة ١٥٣٠) بعد أن أبقى ذكراً خالداً ولم يكن بابر سلطاناً فاتحاً فقط ، بل كان على طراز كثير من سلاطين آل عثمان محمد الفاتح أو سليم وأحمد يجمع بين السيف والقلم ولا يكتفى بالحكم دون الحكم . فكان فيه صلابة أجداده الحكيميزيين ، وغرام الترك بالفتوح ، ودماثة أخلاق الفرس وشغفهم بالآداب ، وبالجملة فقد جمع بين شدة البأس ورقة الأدب ، وحرر خاطراته بقلمه فكان لها شهرة عظيمة وترجت الى اللغات الأوروبية فقالوا فيها رنان الفيلسوف الفرنسى مايباتى :

« ان هذا التاريخ تظهر عليه مسحة الصدق فى الرواية ، وعند ما يفكر الانسان أن محرر تلك الوقائع بذلك البيان السلبى هو مؤسس دولة من أعظم دول العالم ، لا يعود قادراً

على ترك الكتاب من يده ، لأنه يحس بذلك تلك الحالة النفسية التي كانت تجيش بتلك السلائل النثرية المألوفة التي ملأت آسيا وقائعها منذ القرون الوسطى الى أيامنا هذه . فتجد في تلك الأسطر كلاماً معقولاً مع اصالة الرأي ، ورقة الطبع ، وشدة الجلد بدون تعصب ديني ، ومع عدم اهتمام زائد بالاسلام (مما لا يصح أن ينسأه القارئ أن من الصفات التي ترتاح اليها نفس أكثر الأوربيين هو أن يروا الملك المسلم غير شديد التمسك بدينه هذا هو مقياس الحب عندهم) الا في أحيان يظهر عليه فيها أثر التدين . وبالاجال يتجلى من كلامه حرية الفكر ، والدهاء ، والعدل ، وعدم الانقياد للأوهام ، مما لا تجده في فاتح آخر من الفاتحين المسلمين ، فكان أول أولئك السلاطين الحكماء الذين لمع ملكهم كثيراً في الهند بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر « انتهى كلام رنان .

وكان من حفاظ شعر عمر الخيام ، والحافظ الشيرازي ، وكان هو بنفسه شاعراً فن قوله :

« ما لطف دخول النيروز وما أطلت كأس الطلاء ولكن أحلى منهما نعمة الحب » .

وفي دائرة المعارف الإسلامية : أن شجاعة بابر واقدمه كانا فوق وصف الواصفين ، وانه لما فتح سمرقند ثاني مرة تسلق السور بمائتين وأربعين رجلاً لا غير وقطع الهندكوش في وسط الشتاء وهو أمر خارق العادة . وكان شاعراً له ديوان بالتركي ، وكتب خاطرات حياته « بابرنامه » وقد طبعت هذه في قازان سنة ١٨٥٧ وترجمها الى الفارسي عبدالرحيم ميرزا خان ومن النسخة الفارسية نقلت الى اللغات الأوروبية .

ولما استقر همايون بن بابر على كرسي السلطنة صمد الى محمود اللودي الأفغاني صاحب اوض فقهره في معركة لوكسو (١٥٣١) ولكنه عجز عن قهر أمير أفغاني آخر كان في قلعة تشونار حاكماً على ولاية بنارس ، فترك حصار هذه القلعة وانقلب على عقبيه قاصداً قتال بهادر شاه ملك كوجرات ومالفا . فبينما هو في هذه العزيمة اذ بلغه أن صاحب قلعة تشونار هذا ، وكان اسمه شيرخان ، قد استولى على البنغالة وعلى بهار وأوض وصار ذا دولة وصولة ، يقدر فيها أن يجاذب الدولة التيمورية بحبل . فأغذ السير إلى البنغالة ، وهزم شير خان وتراجع الى مكانه ، لكن شيرخان عاد فاسترد جميع المدن التي كان أخلاها ، فعاد همايون اليه واتصب الميزان بينهما في بوكسار على القنج شرق بنارس ، فانكسر همايون

(١٥٣٥) ثم جدد الحملة على شير خان سنة ١٥٤٠ فالتقى في قنوج فانهمزم ثانية ، وخسر مدافعه ورجاله وكنوزه وفر من الهند شريداً قاصداً جبال افغانستان التي انحدر منها أبوه قبل هذه الواقعة بثلاث عشرة سنة فحاول هناك أن يملك كما كان أولاً ، فاذا باخوته يأبون النزول له عن شيء ، فوقعت بينه وبينهم وقائع اضطر أن يلتجئ بسببها الى شاه العجم فسير الشاه معه جيشاً أعانه على فتح قندهار (١٥٤٥) وفتح كابول (١٥٥٠) .

أما شير خان الأفغانى فدخل دلهى وآغرا ، واستصفي ملك بابر وأعاد الدولة الأفغانية الهندية ، واستوسق له الأمر الى أن مات (١٥٤٥) فوقع النزاع بين أولاده وأخذ كل يجذب الحبل من جهة ، فرأى همايون صيده سائحاً وحشد ١٥ ألف فارس وهبط بها البنجاب . وكان خليفة شيرخان فى دلهى هو اسكندر شاه ، فصمد اليه بثانين ألف مقاتل و بضع مئات من الفيلة ، فكان اللقاء فى سهل سير هند ، بين دلهى ولاهور ، وقضى الله بالنصر لهمايون (١٥٥٥) ودخل دلهى مسترجعاً ملكه الذى كان فقده قبل ذلك العهد بثلاث عشرة سنة ثم بعد ظفره هذا لم يلبث أن مات ، فدفن بالغبه التى كان بناها لنفسه فى دلهى ، والتى تعد من أعاجيب الدنيا ، وخلف همايون ولده أ كبر أبو الفتح جلال الدين محمد وهو لما يتجاوز الرابعة عشرة من العمر ، ولكنه كان قد نبغ قبل بلوغ أشده وكان مواده فى السند فى ١٥ أكتوبر سنة ١٥٤٢ وتويجه فى البنجاب سنة ١٦٥٦ ووقفه الله بوزير محرب اسمه يرم وكان الأفغان لم يفقدوا فى الهند جميع ملكهم بل كان باقياً بأيديهم نصيب صالح مثل أوض وبهار والبنغالة وكان لدى ملكهم محمد عادل قائد فائق الأقران اسمه هيمو . فى سنة ١٥٥٦ تمكن هيمو هذا من استرداد دلهى ، ومطاردة أ كبر الى البنجاب . وكان مع هيمو مائة ألف فارس وخمسة مائة فيل ، على حين لم يكن بقى مع اكبر ووزيره يرم الا ٢٠ ألف مقاتل فالتقى الجمعان فى سهل « بانيبات » الذى اشتهر بعدة معارك فاصلة . فكان من مساعدة القدر لا كبر أن وقع هيمو صريعاً ، فوقع الرعب فى قلوب رجاله التى كانت تتقوى بشخصه ولوا الأدبار على حين كان المظنون ان الدائرة ستدور على اكبر . فعاد هذا الى بلاد « دواب » ودخل دلهى ثم والى الهزائم على الأفغان ، فانزع من أيديهم أوض وبهار ، وجعل الملك الأفغانى صاحب البغالة على طاعته . ولكن بقى عليه تدويح راجاوات الهندوس الاباة للضمير المعروفين بالشمم العظيم . وكان الفاتحون المسلمون طالما هزموا ملوك الهند ، وضربوا عليهم

الجزى ، ولكن لم يقدر وا في وقت من الأوقات على ملاشانهم ، ولا على كسب قلوبهم . ففكر اكبر في اتقاء خطر هؤلاء القوم باستصلاح قلوبهم ونيل مودتهم ، وحمل من يعاند منهم على السيف . فحرت بينه وبينهم وقائع استولى بعدها على جفالپور (١٥٥٨) وعلى اجير (١٥٦٠) وهاجم سنة ١٥٦٧ رانا ميفار واسطة عقد الراجاوات ، فانهزم الرانا الى جبال « آرافالى » تاركاً الدفاع عن عاصمته تشيتور لقائد بطل من قواده اسمه « جاى مال » وجاء اكبر بنفسه يضيق الخناق بالمدينة فسده الله الى سهم رماه هو بيده من جعبته فأصاب من نفس جاى مال مقتلاً ، واختلط بعده أمر المحصورين فذبجوا نساءهم وأولادهم بأيديهم ، وجعلوا منهم ركماً أشعلوا فيه النار ، ثم اصطفوا حول تلك النار وفتحوا أبواب المدينة ينتظرون دخول العدو حتى يبلوا فيه الى آخر نفس من أنفاسهم ، فتذهب أرواحهم غالية وكان اكبر بحكمته أدرك مرادهم فبدلاً من أن يرميهم برجاله ، ويعرض من هؤلاء للقتل ألوفاً ساق عليهم أفياله فجعلتهم أشلاء وأجزاء وفتح المدينة (١٥٦٨) . وسنة ١٥٦٩ فتح رانتابور ثم كالتجار . وسنة ١٥٧٠ قدم له الطاعة راجا مارفار ثم راجا بيكانير . وبعد ذلك ببضع سنين انتقض راجا مارفار ، فرحفت اليه جيوش دلهى وفتحت قلعة بلاده سيفانا (١٥٧٦) فانضم كثير من الراجاوات الى رانا تشيتور ، وناشبو اسطان دلهى الحرب ولم تبرح نارها متقدة الى سنة ١٦١٤ إذ قدم « أمرا سينغ » بن « برتاب سينغ » رانا تشيتور الطاعة لسلطان الاسلام فأعيد اليه ملكه . وأعقابه مالكون هناك الى اليوم .

ويقول مؤرخو الهند من الافرنجة ان سلطان دلهى عرف كيف يستولى على راجاوات الهند ويستأسر قلوبهم لأنه كان شهماً وفيها على الجنب ، تام المروءة ، حفيظاً لليهود ، ملاً كاللائقذة بشرف خصاله ونبل فعالة . وكانت هذه البيوتات المملكة فى أمير ومارفار وبيكانير ، الأمثلة العليا فى النبالة والاصالة وحب المجد ووفاء الذمة ، فلما شاهدوا من السلطان اكبر ماشاهدوه من المكارم والمعالى ، محضوه خالص الود ، وبايعوه من صميم القلب ، وبدلوا من دونه أرواحهم ، ووقفوا على مناصحته غدوهم ورواحهم ، فاستخلصهم هو لنفسه ، وعول عليهم فى مهماته ، وانتدب منهم للمناصب العلية ، وعمر بهم وبأبنائهم الأبواب السلطانية ورجحهم على رهطه المغول ، وجعلهم رداء له فى المواقف لاسيما راجا أمير المسمى « بهارى مال » وولده « باخفان داس » وحفيده « مان سينغ » الذى كان أخواً

لا كبر في الرضاع . وكان راجا آخر اسمه « تودار مال » لا كبر اليد اليمنى في أعماله ، فقلده نظارة المالية ، ثم ولاية البنغالة . ولما مات بكاه بكاء الأخ لأخيه . ولأجل زيادة التأليف بين الهنود والمغول أشار اكبر بزواج بعضهم من بعض . وبدأ في ذلك بنفسه ، فعقد لنفسه نكاح أخت الراجا باخفان داس ، ولولده جهانكير على حفيده راجا مارفار . وأزوج كثيرين من أمراء المغول أميرات من الأسر المالكة في بيكانير واجير . ووشج علائق النسب بين الدولة التيمورية والدول البرهمية . فتوطدت دولته وأمن شر العواقب وبسبب راحة فكره من جهة الهنود ، أمكنه أن يستصفي ما كان بقي في الهند من ممالك الاسلام فأسر شاه كوجرات (١٥٧٣) وضم ملكه الى سلطنة دلهي . واستلحق أيضاً البنغالة (١٥٨٠) وكشمير (١٥٨٦) والسند (١٥٩٢) وكانت الدكان لاتزال مقسمة الى خمس ممالك كما سبق الذكر ، الا أن ملك أحد ناغار فتح مملكة بيدار سنة ١٥٧٢ وضمها الى ملكه ، فنزل عدد تلك الممالك الى أربع ، وصارت مملكة أحد ناغار قوة خطيرة . فاعتزم اكبر فتحها سنة ١٥٩٥ وكان على رأس هذه المملكة ملكة من خوارق الدهر في العزم والحزم والاقدام ، وهي السلطانة « شانده » الملقبة « ببيضاء الدكان » وهي بالفعل بيضة الزمان ، فردته عن مملكتها مكفوحاً وأذهبت جميع جلالته سدى ولم يقدر اكبر على أحد ناغار الا بعد موت هذه السلطانة الفهرمانة فاستلحق مملكة أحد ناغار (١٦٠٠) واضطرب سائر مملوك الدكان خوفاً فأهرعوا الى دلهي مقدمين الطاعة .

وكانت نهاية اكبر سنة ١٦٠٥ بعد أن ملأ الهند ماثر ومفاخر ، وادار السلطنة ادارة قل من سدد لمثلها في الاوائل والاواخر ، لأنه الى زمانه هو كانت سلطنة الهند غير متركنة على قواعد ثابتة ، ولا سائرة بانظمة مقررة ، بل كان السيف وحده حكماً ، وكانت الثورات متصلة ، واهواء الاشخاص هي الغالبة . فسير اكبر دولته هذه على اصول ادارة جديدة ، فارسية مغولية ، غاية في الضبط والدقة ، ورفع استبداد الامراء ، وازال الفوضى من البلاد ، وجذب الى الابواب السلطانية أولئك الامراء والمالوك الذين كانوا يستبدون بالرعايا فارضاهم وراح الرعايا من ضررهم ، صنيع لويس الرابع عشر في فرنسا . وشكل الدولة على النسق الحالى المتبع بهذا الوقت في العالم فهناك الوكيل أى رئيس النظار (والاتراك الى اليوم يسمون الناظر وكيلا والصدر الاعظم رئيس الوكلاء) ثم الوزير وهو ناظر المالية

وخان قاتان أى ناظر الحرية . وكان عنده ناظر البلاط السلطاني (نظير مشير الماين الهمايونى عند آل عثمان) وناظر العدلية وكان اسمه الصدر ، وغير ذلك من المناصب . واما البلاد فكانت ١٨ ولاية كبرى كل منها تنقسم الى ما يشبه اليوم الالوية وهلم جرأً . وكانت الادارة الملكية فى ايدى الفرس كما ان الجيش كان بايدى المغول والهنود . وكان عدد الجيش الدائم ١٤٠ الفاً وهذا شئ غير معهود فى ذلك الوقت واما دخل الخزانة السلطانية فكان نحو مليارين أى ١٠٠ مليون جنيه ، وهذا أيضاً شئ هائل بالنسبة الى ذلك الزمن . وعامل اكبر الهنود برفق عظيم ، ورفع عنهم ضروب الاهانات . ويقول مؤرخو الافرنجة ان اكبر لم يبال بما يفرضه الاسلام من اهانة الكافر واذلاله وامتهانه ، وانه نسخ تلك العادات ولم يعامل الهنود معاملة الغالب للغلوب . ومن جملة من غمزوا الاسلام من هذه الجهة رينيه غروسه صاحب تاريخ آسية . ونحن نقول ان اكبر احسن صنعاً ، لأنه ما يخدم ملك من ملوك الاسلام ملته بمثل العدل والله تعالى يقول « ولا يجرمناكم شنان قوم على أن لا تعدلوا » ويقول « واذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وظاهرانه ينهى عن ظلم العدو لكونه عدواً ولا يخصص العدل بالحكم بين المسلمين وحدهم ، بل جعل الحكم بالعدل بين الناس . وكلمة الناس تشمل المسلم وغير المسلم كما لا يخفى . فان كان من أمراء المسلمين من لم يعمل بهذه المبادئ فهو اما عن جهل بروح الاسلام ، أو عن هوى واستخفاف باوامر الله ونواهيه ، كما يوجد فى كل الملل وانما نحن نود لو كان رينيه غروسه وأمثاله ينصحون حكوماتهم الأوربية ومن جلتها فرنسا ، بأن لا يعاملوا أهالى المستعمرات معاملة الغالب للغلوب ، ولا يرهقوا الجزائريين ، والتونسيين ، والسودانيين الخ بضروب الاهانة ، ويحرموهم المساواة فى الحقوق مع الاوربيين ، كما لا يقدر أحد أن ينكره . فان فاتحى الهند من ملوك الاسلام وقواده كان عذرهم ممهداً نوعاً فى الازدراء بالهنود بعد مارأوا من عبادتهم للأصنام ، واحراق النساء أنفسهن لموت بعولتهن ، وغير ذلك مما تقشعر له أبدان الذين أشربوا توحيد الحى القيوم ، ولم تتسع لهضمه عقولهم اتساع عقل السلطان اكبر . ولكن ياليت شعرى ماهو عذر الأمم الاوربية فى تحقير أهالى المستعمرات كالعرب والبربر الذين هم من أكرم الأمم ، ومن أشرف الاعراق الى الحد الذى نراه ، وسن قوانين خاصة بهم كأنهم طبقات دنيا لا يلقى أن تسوى مع الاوروبيين فى أمر من الأمور حتى قد

قتل أوربي أوربياً آخر في الجزائر، فعند المحاكمة سئل عن سبب قتله، فقال كان يرود حول بيتي مساء فظننته لصاً واشتبته بكونه عربياً. فعند القضاة الفرنسيين ذلك من الأسباب المخففة للجرم. فياليت الحكومات الأوربية المتمدنة العصرية السابقة في حلبة المدنية والهدب والأدب في القرن العشرين، تقتدى باكب الذي كان سلطان الهند في القرن السابع عشر، وهو ذلك السلطان الآسيوي المغولي، فتعامل مغلوبها كما كان ذلك العاهل يعامل مغلوبه. وياليت منتقدي الاسلام من مؤرخي الافرنجة يتأملون قليلا في رد الفيلسوف الفرنسي لوغستاف لوبون على المسيولورا وبوليو Leroy - Beaulieu أحد أساتذة كلية «كوليج دوفرانس» الذي يشير بحمل عرب الجزائر على التفرنس بجميع الوسائل القاهرة. قال لوغستاف لوبون: وهذه هي الافكار السائدة في فرنسا فيما يتعلق بالجزائر. ثم قال: وان الطريقة السياسية المتبعة الى هذا اليوم لأجل تفرنس المسلمين أو اكتسابهم من الوجهة الأدبية هي من البربرية بمكان لا يقل عن طريقة الاميركيين الأولين مع قبائل الجلود الجراء التي كانوا ينتزعون منها أراضيها، ويتركونها الحرة أن تموت جوعاً. وقد وصف المسيوفينيون Vignion طريقة دحر العرب التي اتخذتها الحكومة الفرنسية طريقها الادارية في الجزائر فقال: ان ولاية الفرنسيين كانوا عند كل ثورة في الجزائر يستولون على أراضي الاهالي ويسلمونها للمستعمرين (الكولون) ويطردون الاهالي دحراً نحو الصحراء. فكان يتكاثر عدد الاوربيين في تلك النواحي، ويضطر الاهالي أن يهجروا تلك الأراضي التي هي مساقط رؤوسهم، ومواطن أجدادهم، ويتفرقوا. فكانت نتيجة هذه السياسة التي استمرت ثلاثين سنة ان العرب الذين لم يعودوا آمنين على أراضيهم وأملأهم تركوا الحرث والزرع وهاموا في البراري. وكيف يمكنهم أن يزرعوا وقد طردوا من الأراضي الجيدة التي تسيل فيها العيون والغدران، ودحروا الى الأماكن التي لا يأمنون فيها أن يزرعوا أن يسترجعوا الحب الذي بذوره غرموا بالسكنى في تلك البراري الزرع والزرع، وازدادت بذلك البغضاء والاحنة بين العرب والكولون، وصارت بين الفريقين هوة يتعذر سدها. وكانوا يسمون هذه الطريقة بطريقة المطاردة أولاً، ثم أطلقوا عليها بالتالي اسماً آخر وهو «التملك لاجل المنفعة العمومية» وهذا الاسلوب يمتاز بعلامتين: الاولى انه لا يملك الكولون أرضاً الا من أملاك العرب، والثانية انه يوجد دوائر يجب ان

تستخلص جميعها للاور بين حتى من يبقى من الاهالى مالكا يقصى عن تلك الجهات ، بحيث كل ذلك يعود بفقر الاهلين الخ . ثم يعود الاستاذ غستاف لوبون فيقول : وان من أغرب استبدادات الحكومة فى الجزائر مايسمونه بالاستعمار الرسمى ، وذلك انهم ينتزعون الاراضى من أيدي العرب ويوزعونها مجاناً على سفلة سقاط من جميع الاجناس ، بدعوى انهم سيحيونها بالزراعة ، وهم أقرب أن يدرسوا لغة السنسكريت من أن يحسنوا حرثاً أو زرعاً . فلم تمض مدة على ذلك حتى رأيت تلك المسماة بالقرى الرسمية خاوية على عروشها ، بعد أن كلفت الأموال الطائلة . ولم يكف ذلك رجال ادارتنا درساً حتى قام بعضهم منذ سنوات يقترح التفويض باعطاء ٥ مليوناً لنزع أملاك العرب ، وتأسيس قرى أخرى غير التي أخفق مشروعها . فلحسن الحظ رد المجلس (البارلمان) هذا الاقتراح الذى كان لو نفذ يحفز المسلمين على الثورة ، عدا مايجشم الحكومة من انفاق الملايين الخ . ثم قال : منذ فتحنا للجزائر لم نبرح سياستنا فيها سائرة بعاملين أحدهما نزع أملاك العرب واقصاؤهم الى الصحراء ، والثانى حملهم على الفرنس باجبارهم على قبول شرائعنا . فلم نفلح لافى ذا ولا فى ذا . أولاً لان العرب لم يمكنهم الرحيل الى الصحراء حيث لا يوجد شى يقتاتون به فيها ، ولاشك فى ان عدة ملايين لا يرضون أن يموتوا جوعاً بدون مقاومة . ثانياً لانهم لا يقبلون أن يتفرنسوا اذ لم يعدد أن أمة نبذت قواعد العقلية الاساسية واتخذت قواعد أمة غريبة عنها الخ . لا أقدر أن أستوفى تعريب جميع مقاله بهذا المقام غستاف لوبون المؤلف الفيلسوف الشهير فى كتابه المسمى علم النفس فى السياسة *Psychologie Politque* وما أوردت الذى أوردته هنا الا من قبيل التمثيل ، مذكراً أولئك الذين يطرون السلطان أكبر من مؤلفى الانكليز والفرنسيس على تسويته بين المسلمين والهنود فى كل الحقوق ، واقامته العدل فى رعيته كلها، لماذا لا ينصحون هم حكوماتهم باتباع ذلك السنن ؟ وهل مايعمله الانكليز فى الهند اليوم وما عملوه من قبل ، مطابق لما كان يعمله أكبر ؟ وهل اتم سياسة أكبر ذلك القائد الانكليزى الذى رمى منذ ثلاث أو أربع سنوات جماعة من المتظاهرين فى الشوارع بيران القنابر فقتل منهم مئات أو ألوفاً ثم أجبر الآخرين على الديق على أيديهم بين يديه كما تدب الحيوانات ؟ فهل هذه هى سياسة الامم التى يطذب مؤرخوها بكيفية احتقار المسلمين للهنود ؟ عليك بما عدده من هذا القبيل مؤخراً الاستاذ العلامة الكاتب الشهير

المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز في رده على جريدة المورن بوست الانكليزية التي انتقدت الشرع الاسلامي بعدم انطباقه على العدالة الاوربية .

عود الى تاريخ اكبر خان * وصدرت الاوامر الى جباة الخراج بأن يصبروا على الفلاحين في استثناء الاموال الاميرية ، بل يقوّموهم من بيت المال في سنى القحط . كذلك توصل اكبر بوسائل ناجعة في قتال الجماعات التي تكثر في الهند في الاعوام التي يحتبس فيها الغيث . وكان يعاقب الأمراء الذين يظلمون الاكثية الذين هم قائمون بخدمة اراضيهم . ومع شدة ميله الى البراهمة ، ومراعاته لهم ، عارضهم في قضية احراق النساء اللاتي مات بعولتهن ، وعادة ابقاء النسوة اللاتي تموت ازواجهن وهن في سن العاشرة ارامل طول الحياة لا يحق لهن ان يتزوجن . ثم منع التبكير في الزواج فكان لا يسمح بزواج الشاب قبل سن ١٦ ولا بزواج الفتاة قبل سن ١٣ .

وكانت اللغات المعروفة في الهند ، عدا لغات الهنود الاصليين ، ثلاثاً : العربية لغة الدين الاسلامي ، والتركية لغة الأسرة التيمورية ، والفارسية لغة البلاط والدولة . فوضع اكبر لغة « الاوردو » التي تشتمل على كثير من العربي والفارسي والتركي مع الهندي ؛ فسهل التفاهم بين الامم الهندية واتسعت هذه اللغة تدريجاً حتى انه ليتكلم بها اليوم مائة مليون نسمة . وقالوا ان اكبر فيلسوفاً كان اعظم منه سلطاناً ، مع أن اكبر كان من أكبر سلاطين العالم وأحقهم بمكانة عليا في التاريخ . وأطرى مؤرخو الافرنجة تحوله عن مذهب السنة الى مذهب الشيعة وشدة وطأته على علماء السنة ، والغناء اللسان العربي من البلاط ، واقامة الفارسي مقامه ؛ وعدوا ذلك من معالي افكار اكبر ومنزعه الى الحرية . وقالوا انه كان ميالاً الى التصوف ، وان التصوف هو أرقى طريقة اسلامية . وذكروا انه قرب اليه فتح الله الشيرازي من اكبر علماء الشيعة ، جاء من فارس وأوطن في بيجابور ، فاستدعاه اكبر اليه وصار مستشاره الشرعي . وكذلك حظى عنده العالم الشيعي المسمى مبارك ووالده ابو الفائز ، وكان شاعراً متصوفاً ، وابو الفضل وكان فيلسوفاً على طريقة الصوفية عظيماً ، من جملة ما يروى عنه أنه هتف قائلاً : « يارب من رأى حكاء المغول ، ونسائك جبل لبنان ، ولا ماوات التبت ، وقسوس البرتغال ، وكهنة المجوس ، وعلماء الزندافستا (معناه الكلمة الحية وهي كتب ديانة الفرس والعرب يقولون الايستا كتاب زرادشت) رأى

الناس في جميع الهياكل تطلبك ، وبجميع اللسنة تستعين بك . التوحيد هو انت . الاسلام هو انت . وكل ديانة في الدنيا تقول : انت وحدك لا شريك لك . ان كان جامع كانت هناك جماعة تناجيك بالصلاة : أو كنيسة كانت أجراس تقرر لشرفك . ازور احياناً الجامع وآوتة الكنيسة وفي كل معبد لا انشد الاك . واصفياؤك ليس لهم علاقة بالسنة ولا بالبدعة لانه ولا واحدة منهما ملكت قدسية الحق . فأنا أترك الديانة لاهل الجماعة ، والبدعة لاهل الفرقة ، ونظير تاجر الطيب ، ترتاح نفسى الى شم جميع الورد »

ويظهر أن اكبر كان على هذه الطريقة . وكانت له عقائد أخرى منها عدم خلود الانفس بالنار ، اذ كان يرى ذلك مخالفاً للعدل الالهى . ومنها تناسخ الارواح الذى أخذته عن البراهمة . وقيل انه كان يبيع الخمر واكل الخنزير (فلا عجب اذا رضى الاوربيون عنه كل هذا الرضى) وأنه أنكر قدم القرآن ومعجزات الرسول ﷺ وأبطل كون الاسلام هو الدين الرسمى للدولة . ثم انه فى سنة ١٥٩٣ أصدر امراً بأن كل من أجبر من الهنود على الاسلام فى مدة أسلافه يمكنه الرجوع الى دينه . وذكر رينيه غروسيه الفرنساوى فى هذا الباب جملة فيها شئ من الانصاف فقال « لا يمكن مقايسة هذا الأمر بالأمر المعروف بأمر نانت » يشير الى الأمر الذى أصدره لويس الرابع عشر مانعاً أى دين كان فى فرنسا غير دين الكشلكة . الا أن رينيه غروسه لا يعلم أن اكبر خان بهذا الأمر لم يخرج عن الاسلام لأن الشرع يمنع دخول الناس فى الاسلام قسراً (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من النجى) وأن الاسلام ليس فيه ديوان تفتيش كما كان باسبانية . . . هذا وقد قال الكونت نوير مؤلف تاريخ اكبر « ان اكبر لم يخلق اكبر منه فى الشعور الحقيقى بالانسانية » .

وأمر اكبر بترجمة كتب البراهمة الفيذا ، والراميانه ، والمهابارته ، الى الفارسية وسائر أصول الفلسفة الهندية . وكان يقضى ساعات طوالاً من الليل يستفسر البراهمة العظيم « دابى » أحد اعلام الحكمة الهندية عن عقائد « تريمورتى » وكان ميله الى عقيدة الاشراق الصوفية يحبب اليه فلسفة البراهمة . كذلك تبجر كثيراً فى مذهب بودا وكان يجله ويعظمه والمظنون أن ما كان عليه اكبر من عقيدة المساواة بين جميع الناس وبره بالخلوقات كلها وتحرجه من أكل لحوم الحيوانات نظير أبى العلاء المعرى انما كان مما رشح الى دماغه من

التعاليم البوذية . ولم يغفل أ كبر عن النصرانية ففي سنة ١٥٨٠ أرسل الى رهبان البرتغال الذين كانوا في « غوا » يستقدم منهم من يفقه في عقيدتهم فلبوا دعوته ، وأرسلوا اليه بانجيل أمر بنقله الى الفارسية ليفهمه . وبعد ذلك عهد الى الرهبان اليسوعيين بتثقيف ابنه مراد . ثم أذن للجزويت بفتح مدارس في آغرا ولاهور وكامباي . وكان يذهب الى كنائسهم ويقول مؤرخوهم انه كان يجتو فيها على ركه . وكذلك وفق الجزويت الى تنصير أناس كثيرين في كامباي في أيامه . ويقال ان تهافت أ كبر على كل دين وأخذ بكل عقيدة ونزوعه الى كل فلسفة كانت فيه حالة نفسية فطرية ناشئة عن شغف صفحة طبيعته وسرعة انفعاله وكون روحه الى النفس الأخير نظير روح « غوته » شاعر الألمان بقيت تتطلب زيادة الانوار وتلمس اكتشافه الأسرار . وانه كان يعتقد باسراق الالهية على كامل الوجود وبأن كل دين من الأديان هو عبارة عن بارقة من هذا الحق المنبث في الكون . ولم يبعد عن عقله امكان التأليف بين المذاهب قاطبة ، وتصور عقد مجمع ديني لهذه الغاية ، وأمل أن يوحد بين جميع العقائد الدينية في نقطة عامة ، وهذه النقطة العامة كانت عنده على ما يقال مجوسية فارس . هكذا روى رينيه غروسه في الفصل الثالث من تاريخ آسية الذي لخصه من ستة وثلاثين تاريخاً على الهند أ كثرها بالانكليزية ، وبعضها بالفرنساوية ، ومن هذا البعض كتاب « مدنية الهند » لغستاف لوبون و « آثار الهند » للعلامة المشار اليه . وجاء في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية بشأن عقيدة أ كبر ما يأتي :

« يمكن أن تكون محبة أ كبر للبحث عن الحق أ كثر من عبقرية السياسية قد جعلت له كل هذه الشهرة . فانه مما لا مشاحة فيه كونه ترك الاسلام ووضع عقيدة سماها « التوحيد الألهي » وهي اعتقاد مجرد بالاله مما اتفقت عليه كل المذاهب . ولكن لما كان الناس يريدون رمزا . وأ كبر تحقق بنفسه أنهم يريدون رمزاً فهو يوصيهم بأن يجعلوا الشمس رمزاً للاله . وعلى الأرض النار التي هي من طبيعة الشمس . فأما مبلغ نجاح هذه الدعوة خارجا عن البلاط السلطاني فلا نعرفه . وانما نعرف من بطانة أ كبر ثمانية عشر شخصاً قيدوا أسماءهم في سجل المؤمنين أ كثرهم أدباء وشعراء ومنهم أمير اسمه عزيز كوكا ، كان سبب خروجه من الاسلام مارآه وهو في موسم الحج من الأحوال المؤسفة كتبليس الحاج من أموالهم . وذهب بعضهم الى أن مبارك الناقوري وأولاده ممن كانوا

على فلسفة الصوفية هم الذين أبعدها أكبر من مذهب السنة والجماعة . وقيل ان مارآه من شدة تعنت أهل السنة نفره منهم . وقيل ان حرية مذهب التصوف أثرت فيه كثيراً وفي بطائه التي كان فيها كثير من الفرس فكان لهم ميل خاص الى عقيدة الشمس الفارسية . ثم قال في دائرة المعارف الاسلامية : الا أنه لم توجد ديانة شرقية جذبه بمثل ماجذبه النصرانية الكاثوليكية . على أن الشيخ نور الحق الذي لم يكن أسيراً للتقليد نظير أبي الفضل العلامي وعبد القادر الباداعوني يقول في أكبر : ان السلطان أراد أن يمحص الطيب من جميع الآراء المختلفة ، وانه ما كان هدفه في ذلك الا الوصول الى الحق . والذي انتهى اليه أخيراً هو قبول مصاص الأديان كلها ، وعقيدة الانسان الأصلية مضافة اليها طريقة سلوك بسيطة » انتهى . تشير دائرة المعارف بهذا النقل الى الشيخ نور الحق صاحب « زبدة التواريخ » والى عبد القادر الباداعوني صاحب « منتخب التواريخ » والى أبي الفضل العلامي صاحب « اكبرنامه » . ومن أخذت عنهم دائرة المعارف ترجمة هذا السلطان محسن فاني صاحب « دابستان المذاهب » وشمس العاماء مولوى محمد حسين صاحب كتاب « دربارى أكبر » وغيرهم . ومن غرائب ما روت عن هذا السلطان الذي كانت كل حياته غرائب أنه كان يجهل القراءة والكتابة . وقالت ان ذلك عجيب في بيت مثل بيتهم موروثه فيه الكتاب وآداب اللغات خلفا عن سلف . وأعجب منه أنه كان عسيراً للأميرتين من أشهر أديبات زمانهما ، احدهما زوجته سليمة سلطان ، والثانية عمته كل بادان ، ويظهر أنه لما كان أبوه معروفاً بضعف العزيمة ، ثم مات وهو يافع ، لم يحسنوا تعليمه الكتابة . وأنه لما بلغ سن الرشد ثم شب واكتهل ، أهمل عمداً تعلم الكتابة ، اذ ليس يمكن تعليل ذلك بصورة أخرى ولعل أكبر اثر التعلم بالمشافهة والكلمة الحية . انتهى

ولقد ترك هذا العاجز الى القراءة الحكم على حقيقة هذا السلطان الذي أخذ الى ذلك الأمد بمجامع قلوب الأوربيين ، ولست ممن ينكر أنه مع تحبب الوسواس اياه من الجهة الدينية ، وانطباع قلبه بكل مؤثر يطرأ عليه من الخارج ، يجوز أن يكون من أعظم السلاطين في حزمه وسداد ارادته ، ووفور محبته للرعية . ولكن عند ما يقرأ الانسان أنه كان لا يجد بدأ من الرمز لوجود الالهية ، وأن ذلك الرمز يلزم أن يكون الشمس أو النار ، وعند ما يروى غروسه أنه استقدم اليه من كوجرات الموبدان أردجير ليعلمه كتاب آفستا ،

وأنه اتخذ التقويم الجوسى وصار يحتفل بأعيادهم ، وأنه حجى إليه فى قصره بالنار المقدسة المحفوظة بلهبها من عصر الى عصر منذ أيام رعاة الايرانيين الأقدمين ، فاستقبلها بالعظيم الفائق فى بلاط الملك الى غير ذلك مما رواه ، يعرف أن الرجل قد تمجس وانتهى النزاع وقضى الأمر ، ولكن تجده من جهة أخرى معجبا بالبراهمية ، وبالبودية ، ثم بالنصرانية ، ثم بالتصوف ، ثم بالتشيع ، وهذا التشيع كما لا يخفى يقتضى الاسلام لأن الشيعة لم يخرجوا عن كونهم مسلمين . فتعلم أن الرجل وان كان ساعيا بزعمه وراء الحقيقة ، فهو مختلط العقل فى المسئلة الالهية ، والجنون كما قيل فنون . وأما تقييد ١٨ شخصا من حاشيته أنفسهم فى سجل المؤمنين بدعوته ، فقد ذكرنا بذلك الذى روى عنه الشهرستانى فى « الملل والنحل » أنه انفرد بمذهب وتبعه سبعة أشخاص لا غير فيهما كان يجادل ويناضل مرة عن مذهبه قال له مناظره : أترى البارئ تعالى خلق جنه عرضها السموات والأرض لك وهؤلاء السبعة الذين تبعوك . ثم من يدري هل ثمانية عشر أ كبر تبعوه اقتناعاً أم تزلفاً ؟ فان أ كثر بطانة السلاطين معارضة أطوارهم . . . وأما الاعتذار عن أ كبر بأنه كان يرى فى الشمس والنار رمز الألوهية ، فياليت شعرى لماذا تخصيص هذا الرمز بالشمس والنار ، أفليست كل مخلوقات الله تعالى رمزاً وآية ، أو لا يكون تخصيص هذا الرمز بالشمس والنار مفضيا الى اعتبار ذلك الرمز هو المعبود والعباد بالله ؟

أما ابنه سليم الملقب بجهانكير الذى خلفه سنة ١٦٠٥ واستمر على كرسى الملك الى سنة ١٦٢٧ فقد نبذ كل ما كان عليه أبوه من التخبط ، واعتصم بمذهب السنة والجماعة ، ولكنه استبقى الفارسى لساناً رسمياً للدولة . وكانت لجهانكير امرأة بارعة الحسن مفرطة الذكاء اسمها « نور محل » فاستولت على قلبه ، وتصرفت بالسلطنة كما شاءت فسادت الأحوال ، وجارت العمال ، وانتقض ملك اسمه ملك عمير فى الدكان ، ولم يقدروا عليه . ثم خرج على جهانكير ابنه خرّم ومعه قائد اسمه مهابت خان ، وقبضا على السلطان وحجرا عليه ، فأنفذته السلطنة الحسناء بدهائها وبهاثها ، واصطلحت مع ولده خرم .

وفى تلك الأثناء مات جهانكير فصعد خرم على كرسى السلطنة وتلقب بشاهجهان . وبدأ بتدوين الثأرين فى الدكان ، فسير عليهم جيشاً عقد لواءه لولده الثالث اورنغزيب . فقهر هذا العصاة ومهد الدكان ، وكان داهية دهما فأراد محو السلطنات الثلاث التى كانت

باقية هناك ، وهي غولكوند ، وبيدار ، وبيجابور ، فقصدها الواحدة بعد الاخرى ، ولكن كان كلما قرب فتح كل منها جاءه الأمر من والده بأن يمسك ولا يدخل . وكان الحامل للسلطان على تلك الأوامر هو والده الأكبر دارا . فوقعت الفتنة بين الاخوة واستمال أورنغزيب أخويه شجاع ومراد فاتحدوا كلهم على دارا الذي كان الأقرب الى قلب أبيه ، وبرزوا للحرب فالتقاهم دارا فانكسر وزحف الاخوة الى آغرا يحاصرونها ، وكان أورنغزيب بدهائه أرسل الى أبيه يؤكد له بأنه اذا مكثهم من دخول البلدة لا يتغير عليه شئ ، فآمن شاه جهان بكلامه ، فلما دخل أورنغزيب قبض على والده وجعله في إحدى غرف القصر تحت الحجر . ثم فعل ما هو أخش من ذلك بأن انقلب على أخيه مراد ، إذ اتهمه بخيانة كذباً وميناً ، وأمر بمحاكمته والحكم عليه بالقتل ، وأجرى الحكم وأكمل مكيدته بأن أخذ يبكي على أخيه هذا الذي كان عضداً له . كذلك بعد أن وقع أخوه دارا في قبضته دق عنقه وأرسل برأسه الى والده المسكين المحبوس في قصره (١٦٥٩) ثم طرد أخاه شجاع من ولايته في البنغالة ، ولم يطل الأمر أن مات هذا فبقى ذلك الجبار مستبداً بالسلطنة وحده ، وطال سلطانه من سنة ١٦٥٩ الى ١٧٠٧ وكان كما قال مؤرخو الانكليز يقصد غاية قصوى ، وغرضاً بعيد المرمى ، وذلك بجعل حدود السلطنة حدود الهند الطبيعية وكانت بقيت في الدكان سلطنتان اسلاميتان هما غولكوند ، وبيجابور ، وسلطنة ثالثة هندية براهمية هي سلطنة المهرات ، وكانت هذه الأخيرة تكاشح الاسلام بالعداوة حتى بلغ من جرأة أحد ملوكها « سيفاجي بونسلا » أن نهب قافلة الحججاج وهي على وشك الاقلاع من سورات الى مكة . فساق أورنغزيب عليه جيشاً فخضع أولاً ، ثم خرج ثانية واعتصم بجبال « بونا » حيث بقى عاصياً يقاتل الى أن مات . ففي سنة ١٦٨٥ زحف أورنغزيب بجيش جرار الى الدكان فاستولى على مملكتي غولكوند وبيجابور وأخذ « سباجي ابن سيفاجي » ملك المهرات أسيراً وضرب عنقه . وسنة ١٦٦٠ كان استولى على آصام وسنة ١٦٦٦ على آراكان وهما ممالك بين الهند والهند الصينية .

(آصام هذه بلاد واقعة في شرقي البنغالة استضافها الانكليز الى الهند منذ عهد غير بعيد أي سنة ١٩٠٥ وجعلوها ولاية باسم شرقي البنغال وآصام . وكان عدد سكانها منذ نحو عشرين سنة ستة ملايين و١٢٦ ألف نسمة من أصلهم مليون وخمسمائة و٨١ ألفاً مسلمون أكثرهم

في مقاطعة « سيلهت » وفي سيلهت هذا قبر شاه جلال الذي يعظمونه جداً بكونه هو الفاتح المسلم الأول لتلك البلاد وأن أصله من اليمن . أما آراكان فهي مقاطعة في أقصى الشرق من ولاية بيرمانيا من الهند الصينية كان عدد أهلها سنة ١٩٠١ سبعمائة و٧٢ ألف نسمة من أصلهم ١٦٢ ألف مسلم).

ولم تبلغ السلطنة الاسلامية المغولية من العز والبسطة ، مابلغته في أيام أورنغزيب ، فكانت حدودها من كابول الى آراكان ، ومن الجلايا الى الكارنات (أقصى جنوبي الهند) وزاد ارتفاع الخراج العقارى من ٥٠٠ مليون الى مليار ضعف ما كان في زمان اكبر . وزادت سائر الجبايات والضرائب على مليار . الا أن روايات مؤرخى الافرنجة هي كون أورنغزيب بدأ يخطط الأهالى بعصا عسفه ويفحش في الجبايات والمكوس ، وأنه آسف البراهمة بحملهم على الاسلام . وتحويل كثير من هياكلهم جوامع لاسيا هياكلهم المعظمة مثل هيكل بنارس . ففي بنارس الآن المسجد الأعظم ذو القباب البيضاء والمنائر الشاخنة البيضاء التي ترى على ضفة النهر ، قد بنى في مكان هيكل كان معدوداً أقدس معبد عند الهنود . وكان أورنغزيب أطلق على بنارس اسم محمد آباد . قالوا وانه حبس أرملة راجا جوهور وأولادها مع أن ذلك الراجا كان من أصدق الأمناء لدولة المغول فانتقضت بلاد جوهور واوديبور وزحف اليها أورنغزيب فأحرق ودمر وقتل وسبي ، واتهى الأمر بان أولئك الملوك خضعوا له ، ولكنه كان جرحاً التأم على دغل . قال المؤرخون الأوروبيون وكان مع قسوته هذه وسفكه للدماء بعيداً عن الضعف البشرى ، فاطماً للشهوات يصوم ويتقشف ويعيش معيشة الزهاد ويراقب آخرته . وكان أورنغزيب آخر العظام من سلاطين المغول في الهند ، إذ بعد موته استقلت عن امبراطورية دلهي ممالك كثيرة ، فقامت دولة حيدر آباد الدكان (١٧٢٤) ودولة بنغاله (١٧٠٧) ودولة أوض (١٧٢٤) ، ولم يبق للمغول الا دلهي وآغرا وبلاد دواب . وهذه من الدول الاسلامية . كما أنها استقلت من أمم الهند أمة السيك ومملكة المهرات .

أما السيك فهم فرقة من البراهمة يعدهم هؤلاء مبتدعين ، لان رجلا اسمه ناناك (١٤٦٩) كان قد تخرج على المصلح الهندى كايبير ، فشرع من بعده في تطهير البراهمية من عبادة الأصنام وتعدد الآلهة ، وقضية الطبقات في الهيئة الاجتماعية ، وبتقريبها من

الإسلام في عقيدة التوحيد . وقد ثار السيك على سلاطين المغول لانهم من أشد أمم الأرض بأساً . وجرت بين الفريقين محاربات طويلة بطش فيها المغول بالسيك ولكنهم لم يطيعوا طاعة تامة الى أن ضعف شأن دهلبي فاستولى السيك على لاهور والبنجاب (١٧٦٤) .

وأما ثورة المهرات التي استمرت مدة طويلة ، فقد انتهت باعتراف سلطنة دهلبي باستقلال هذه الأمة . وبعد موت السلطان أورنغزيب توج « ساهوجي بن سامبوجي بن سيفاجي بونسلا » ملكاً على المهرات في « ساتارا » ولكن انتقل ملك المهرات من أيدي هؤلاء الى أيدي آخرين ، يقال لهم « البشفا » كانوا في الأصل وزراء عندهم ، فلك البشفا هؤلاء من سنة ١٧١٢ الى سنة ١٧٩٥ وفي أيام أحدهم « باجي راو » انتزعوا من أيدي المسلمين ثلاث ممالك : بيار ومالفا وكوجرات . فتقاسمها أربعة بيوتات من المهرات وهم « الهولكار » و « السنديا » و « البونسلا » و « الكويكوفار » وتأسست هناك أربع حكومات كلها تعترف بسيادة البشفا الذي كرسه في مدينة « بونا » وكان بعضها يقاتل بعضاً الا أن الجميع كانوا يصيرون لبدأ على المسلمين بمجرد ما يلمع لهؤلاء نجم ، ففي سنة ١٧٦٠ عند مازحف أحد الدراني أمير الأفغان على الهند وفتح دهلبي ، حسب البراهمة حساب دولة اسلامية جديدة تستأنف فيهم عمل الغزنيين والغوريين والتيموريين فتألبوا من كل جهة ولا سيما المرات ودارت رحى الحرب في بانبات ، فهذه المرة أيضاً كان الفوز للإسلام ودارت الدائرة على الهنود في ٧ يناير (كانون الثاني) سنة ١٧٦١ .

الا أن الدراني قفل الى أفغانستان ولم يكمل فتوحاته ، وأبقى نواباً من قبله في دهلبي . وكان في ذلك الوقت قد ظهر من الأسرة المالكة في كفالپور وواجايين من بلاد المهرات ملك في غاية الخزم والدهاء اسمه « مادهافاراو » انتبه قبل جميع ملوك الهند الى تنظيم جيشه على النسق الاوربي ، واتخاذ المدافع ، واستجد لذلك ضباطا من الفرنسيين والانكليز ، فعظمت شوكرته ، واشتدت صولته ، وزحف الى دهلبي فطرده منها نواب ملك الافغان ، ومن حسن سياسته أنه لم يحاول حيازة هذه السلطنة ، بل أعاد اليها السلطان أعلم الثاني المغولي حفيد أورنغزيب وصار هو القابض على زمام الأمور فولاه اعلم أمارة الجيوش كلها وأصبحت أمبراطورية المغول بكفالهته .

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن غزوة نادرشاه الى الهند سنة ١٧٣٩ قد قصمت

ظهر الدولة المغولية فلم تقم لها من بعدها قائمة . وقد اقتنى أثره أجد الدراني صاحب أفغانستان وفتح البنجاب ودلهي وكسر المهرات في معركة بانبيت الثالثة سنة ١٧٦١ ولكن السلطنة المغولية كان قد حم أجلها . ولما أراد أعلم شاه فيما بعد أن يسترجع البنغالة ، وقعت الحرب بينه وبين الانكليز ، فاضطر بعد وقائع وأهوال أن يترك لهؤلاء ادارة « الديواني » أى جباية الأموال في البنغالة وبيهار وأوريسا ، وأن يأخذ عنها مقطوعا مليونين و ٦٠٠ الف روبية . وسنة ١٧٨٨ حصل له حادث زاده خبالا ، وهو أن أحد ضباط جيشه قلع عينيه فأصبح كأنه ألعوبة . وأخيراً عين له الانكليز ٩٠ الف روبية شهرياً ، وتركوا له من السلطنة الاسم فقط . ومات سنة ١٨٠٦ وقام بعده محمد أكبر ابنه (١٨٠٦ الى ١٨٣٧) وخلف هذا بهادر شاه (١٨٣٧ الى ١٨٥٧) وكل منهما لم يكن له من السلطنة الا الاسم مع جراية تؤديها له شركة الهند الانكليزية . الا أن بهادر شاه باشتراكه في ثورة سنة ١٨٥٧ قبض عليه الانكليز واعتقلوه في رانغون حيث مات سنة ١٨٦٢ وهو آخر سلاطين دلهي . أما أكثر أمراء المسلمين في الهند فاما بعضاً بالهنود واما حياً بالمنافع المادية ، واما اعتقاداً بأن الانكليز لابد أن تكون لهم الغلبة أخيراً فقد عضدوا الانكليز عضداً ميبناً ، ونصروهم نصراً عزيزاً ، ويعترف الانكليز بأنه لولاهم كان تخرج مركز الانكليز تخرجاً لا يعلم أحد عاقبته . فلما انتقل الحكم من الشركة الى المملكة رأساً كوفي كثير من هؤلاء الملوك باقطاعات جديدة ، وكان أكثر من نصروا الانكليز منهم نظام حيدر آباد وصاحب بهوبال وصاحب رامبور .

انه من سنة ١٢٠٦ مسيحية الى سنة ١٥٢٦ تولى سلطنة دلهي ٣٤ سلطاناً ينتسبون الى خمس دول فدولة المماليك من سنة ١٢٠٦ الى سنة ١٢٩٠ ودولة آل قالجى من سنة ١٢٩٠ الى سنة ١٣٢٠ وآل طغلق من سنة ١٣٢٠ الى سنة ١٤١٣ والسادات من سنة ١٤١٣ الى سنة ١٤٥١ واللوديون من سنة ١٤٥١ الى سنة ١٥٢٦ ثم جاءت دولة المغول فاستمرت من سنة ١٥٢٦ الى سنة ١٨٥٧ وسلاطينها كما مارأيانهم بابر ، ثم همايون ، ثم أكبر ، ثم جهانكير ، ثم شاه جهان ، ثم أورنغزيب ، ثم محمد شاه ، ثم شاه أعلم ، ثم محمد أكبر ، ثم بهادر شاه .

أما عظمة تلك السلطنة وما بلغت من البسطة والثروة والشوكة فقد تقدم شئ منه في

الكلام على أكبر وارنغزيب ومن قبلهما . وقرأ مثالا منه مما جاء في كتب العرب قال في « مسالك الأبحار » قال الشيخ مبارك النبائي - عند ذكر محمد بن طغلقشاه - وأول ما فتح منه مملكة تلنك (تلنغا) وهي واسعة البلاد كثيرة القرى عدة قراها تسعمائة الف قرية وتسمعاة قرية . ثم فتح بلاد جاجنكز وبها سبعون مدينة جليلة على البحر . ثم فتح بلاد لكتوتى وهي كرسى تسعة ملوك . ثم فتح بلاد دوا كير ولها أربع وثمانون قلعة جليات . ونقل الشيخ برهان الدين أبو بكر بن الخلال البرزى أن بها الف قرية ومائى الف قرية . ثم فتح بلاد المعبر وهو اقليم جليل له تسعون مدينة بنادر على البحر . وذكر انه حصل له من الأموال بسبب الفتوح التي فتحها مالا يكاد السامع يصدقه ، فحكى عن الشيخ برهان الدين المقدم ذكره أنه حاصر ملكا على حد بلاد الدوا كير ، فسأله أن يكف عنه على أن يرسل اليه من الدواب ما يختار ليحمله مالا ، فسأله عن مقدار ما عنده من المال فقال انه كان قبلى سبعة ملوك جمع كل واحد منهم سبعين الف صهرنج متسعة من المال . فأجاب الى ذلك وختم على تلك الصهارنج باسمه .

وجاء فى صبح الاعشى نقلا عن الشيخ تاج الدين بن أبى المجاهد السمرقندى أنه غضب على بعض خاناته لشربه الحجر فأمسكه وأخذ ماله ، فكان جملة ما وجد له من الذهب الف الف مثقال وسبعة وثلاثين الف مثقال . وقال نقلا عن ابن الحكيم الطيارى أن شخصاً قدم لهذا السلطان كتباً فحشى له حشية من جوهر كان بين يديه قيمتها عشرون الف مثقال من الذهب . الى غير ذلك .

قلنا هذه روايات أشبه بحكايات قصاصى الأسفار أو أقاصيص الف ليلية و ليلة منها بالتواريخ . ومثل هذا الذى على روايات مؤلفى العرب والشرقيين عموماً شبه المؤرخين الأوربيين الذين محصوا التاريخ وجعلوا النقد معياره . حتى انه لوجاء المؤلف الشرقى بالرواية الصحيحة لاشتبهوا فيها ، من شدة ما اعتادوا مبالغات مؤلفينا الأولين الا من رحم ربك . وقد أطال ابن خلدون امام فلسفة التاريخ فى نقد طريقة التقليد الأعمى هذه ، وتلقف أى خبر مهما كان بعيداً عن العقل ، منقوضاً بالأدلة المحسوسة . ولو قرأ رحمه الله الروايات المتقدمة لأقطعها من نقده ما لا يقل عما شرحه فى نقد الروايات التي استشهد بها فى مقدمته . فانه ورد هنا مرتين ذكر مليون قرية (الف الف) أو ما يقرب منه . وذلك عن بعض

أقسام من بلاد الهند . والحال أنه لو قدر أن كل قرية لا تحتوى على أكثر من ١٠٠ نسمة كان من ذلك مائتا مليون ، فإذا كان هذا عدد سكان بعض ممالك من الهند فإذا يكون عدد أهل الهند بأسرها يومئذ ؟ مع أنه لا يعقل أن يكون عدد أهل الهند يومئذ أحصى مما هو اليوم . وأما عبارة الصهاريج التي هي سبعون ألفاً كلها ملامى بالاموال فهذه لا تليق بان تؤثر في كتب جلية مثل صبح الأعشى فأما ما ورد في مسالك الابصار من كون الجيوش التي كانت عند السلطان محمد بن طغلقشاه عدتها ٩٠٠ ألف فارس ، منهم من هو بمحضته ومنهم من هو في سائر البلاد يجري عليهم كلهم ديوانه ، وان عسكره مجتمع من الترك والخطا والفرس والهنود وغيرهم من الاجناس ، فهذا ليس ببعيد عن العقل بل ليس بكثير على سلطنة دلهي في أيام تلك العنجهية وباشتهاها على جميع الهند . قلنا على أن المبالغة وما تبعها من الغلو والاغراق لا تتعلق إلا بما له اصل متجاوز الحد ، ولولا الكثرة الهائلة والعظمة البالغة ما لهجت اللسان بالاعداء التي لا يقبلها العقل والمقادير التي لا تثبت على معيار النقد . فالسلطنة الاسلامية في الهند قد بلغت من تزخر الجيوش ، وامتلاء الخزائن ، وسعة الفتوحات ، ما يندر أن يعرف مثله التاريخ العام . وان ما قاله قاضى القضاة سراج الدين الهندي من أن السلطان محمد طغلقشاه مع كثرة العطاء ، وسعة البذل ، وما ينفقه في جيوشه لا ينفق نصف دخل بلاده ، لا يعد من جملة المبالغات . وكذلك ما يقال من أنه كان في خدمته ثمانون خاناً فأكثر ، وان لكل واحد منهم من الاتباع ما يناسبه ، للخان عشرة آلاف فارس ، وللك ألف فارس ، وللأمير مائة فارس ، وللصفهسلارية دون ذلك ، وان للسلطان عشرة آلاف مملوك أتراك ، وعشرة آلاف خادم خصى وأن له مائتي ألف عبد ركابية تلبس السلاح ، وتمشى في ركابه وتقاتل رجالة بين يديه ، وان له ألفاً ومائتي طيب ، والف بازدار تحمل الطيور الجوارح للصيد رابكة الخيل ، وثلاثة آلاف سواق لتحصيل الصيد ، وخسمائة نديم ، والف مملوك لتعليم الغناء ، والف شاعر بالعربية والفارسية والهندية من ذوى الذوق اللطيف ، يجري على جميع ذلك ديوانه مع طهارة الذيل والعفة في الظاهر والباطن . هكذا في صبح الاعشى بالحرف فليس في هذا شيء مستحيل عرفاً ولا يستبعد ذلك الا من لم يتصور عظمة الهند ولا سعة أقاليمها ولا وفور كنوزها وخيراتها ، ولقد عرفنا أن بعض الأمراء في بلادنا كان عندهم عدد عديد من جملة البهزان وكانوا اذا ذهبوا الى الصيد مشى معهم عدة مئات

لتحصيل الصيد . وهم لو قيسوا بسلطان الهند لكانوا له من بعض الاتباع والخور فما ظنك بسلطان عدد رعيته مئتان أو ثلاثمائة مليون نسمة . فليس بكثير أن يكون عنده الف بازدار ولا ثلاثة آلاف رجل ينشون الصيد واذا وقع في محالب البازي يحصلونه .

بعد ايرادنا هذه الأمثلة على عظمة سلطنة الاسلام في الهند ، لنعد الى موضوع الحكومات الاسلامية الحاضرة وقد تقدم لنا في حواشي كتاب ستودارد هذا لمحة فيها من ذلك شدو . ثم آثرنا أن نوضحه هنا قليلا نقلاً عن بعض المؤلفات الخاصة بالهند فنقول : انه يعدل اليوم مقدار الممالك الهندية التي تديرها أمراؤها ، وليست بتابعة للإدارة البريطانية رأساً ، بنحو خمسي الهند ، حال كون الذي تديره انكلترة رأساً هو ثلاثة أخماس الهند . هذا هو قول الانكليز الذين قد يعدون أقل إدارة وطنية امارة ذات حكم ذاتي مهما كان من استشارهم بجميع أمورها . لذلك اختلفت روايتهم عن رواية بعض أدباء الهند من البراهمة الذين أكدوا لنا أن الممالك التي يصح أن تعد من ذوات الحكم الذاتي لازيد على ربع الامبراطورية الهندية . وقد أحصى المؤلفون الانكليز عدد امارات الهند التي يتولاها الملوك والأمراء الوطنيون تحت حماية بريطانيا العظمى ٦٩٣ حكومة من أصلها عدد من الحكومات الاسلامية وهي كما يأتي :

حيدر آباد الدكان وعدد سكانها ١٣ مليوناً و ٣٧٤ ألف نسمة ، ودخلها السنوي مليون و ٧٦٠ ألف ليرة انكليزية ، وعلاقتها هي مع حكومة الهند البريطانية رأساً . وليس لغيرها امتياز كهذا بل جميع الممالك والامارات الأخرى فيها نواب من قبل الانكليز يكونون هم الوسطة بين تلك الحكومات الوطنية وبين حكومة الهند الانكليزية . ثم كلات من بلوچستان عددها ٣٥٩ ألفاً ودخلها السنوي ٥١ ألف ليرة . ثم لاس بيلا وعددها ٦١ ألفاً ودخلها ١٥ ألف ليرة . ثم خيربور وعددها ٢٢٣ ألفاً ودخلها ١٠٨٠٠ ليرة . ثم جوناغار وعددها ٤٣٤ ألفاً ودخلها ١٧٥ ألف ليرة . ثم بالانبور وعددها ٢٢٦ ألفاً ودخلها ٤٨ ألف ليرة . ثم كامباي وعددها ٧٢ ألفاً ودخلها ٣٧ ألف ليرة . ثم جانديرا وعددها ٨٨ ألفاً ودخلها ٤ ألف ليرة . ثم رادنهاور وعددها ٦٥ ألفاً ودخلها ٢٦ ألف ليرة . ثم بالاسينور وعددها ٤ ألفاً ودخلها ٨ آلاف ليرة . ثم ساجين وعددها ١٩ ألفاً ودخلها ٢٠ ألف ليرة . ثم ساقانور وعددها ١٨ ألفاً ودخلها ٦ آلاف ليرة . ثم ثلاث حكومات صغيرة تؤدي مالا

سنويا لمهراج كايكفار وهي « دابها » ودخلها السنوي ٢٦٦ ليرة و « بونادرا » ودخلها ألف ليرة . و « راماس » ودخلها ٢٠٠ ليرة . وأمرء هذه الحكومات الثلاث هم من سلالة راجا اسمه هارزنجي كان في خدمة محمود بيغارا سلطان كوجرات وأسلم سنة ١٤٨٣ .

وفي الهند الوسطى بهوبال فيها ٧٣٠ ألفا ودخلها ٢٠٠ ألف ليرة . ثم جاورا وعددها ٧٥ ألفا والوارد لها ٦٠ ألف ليرة . ثم باوني وفيها ٢٠ ألفا ودخلها ٦ آلاف ليرة . وفي الهند الوسطى ١٥٣ حكومة ذاتية بعضها تحت ولاية أمرء مسلمين مثل كورفاي التي سكانها ١٨ ألفا ودخلها ٢٥٠٠ ليرة . وبازودا التي تتبع مهراج كفالپور لكنها في الواقع لا تدفع له شيئا وكل سكانها ٤٦٣٠ نسمة ودخلها السنوي ١٢٦٦ ليرة ^(١) . ثم محمد كار وأهلها ٢٨٦٣ نسمة ودخلها ٢٦٦ ليرة . ثم باتاري وأهلها ٣٨٦٦ نسمة ودخلها ٦٠٠ ليرة . ويوجد امارات أصغر من هذه على مافي دائرة المعارف الاسلامية وباليت شعري ماذا تكون تلك الامارات التي هي أصغر من هذه ؟ وهل يوجد أصغر من هذه الا الميكروبات ؟ فان ماصر من هذه الحكومات التي يقول الانكليز انها متمتعة بالحكم الذاتي هو عبارة عن مديريات نواح أو مشيخات قري . ولهذا كثر عدد الحكومات الوطنية بحسب احصاء الانكليز وما دامت هذه أقدارها فلا عجب أن تعد بالآلاف . ومن الغريب أن أكثر أهالي هذه الامارات التي يليها أمرء مسلمون هم من البراهمة ، والمسلمون بينهم قلائل أحيانا تراهم نحو الثلث وأحيانا الربع وآونة السدس الى العشر . وأكثر مسلمي الهند بالنسبة الى سائر السكان هم في الحدود الشمالية الغربية ، حيث المسلمون بالنسبة الى مجموع السكان ٩٣ في المائة . كذلك يكثر المسلمون في الجهة المقابلة ، أي بلاد البنغالة ، فهناك مجموع السكان ٤٥ مليون ونصف المليون ومن أصلهم ٢٤ مليون مسلمون ثم كشمير أهلها ٣ ملايين ومائة وخمسون ألفا منهم مليونان و ٤٠٠ ألف مسلمون ، وأما في البنجاب فالمسلمون أكثر من نصف السكان . وتجدر بعكس ذلك في المقاطعات الموحدة التي كانت مركز السلطنة المغولية الأصلي فهناك نيف وسبعة وأربعون مليون نسمة المسلمون بينهم ستة ملايين وستمائة وخمسون ألفا فقط . وأغرب منه مملكة مايسور التي كان فيها حيدر علي وتنبو سلطان من أعظم المجاهدين في نشر الاسلام فلا يوجد بين الخمسة الملايين والثمانمئة ألف التي تسكن تلك المملكة سوى

(١) فماذا تقدر أن تدفع لتلك المهراج

٣٠٠ الف و ١٥٠ الف مسلم . وانما استوى على تلك المملكة حيدر على بفرط بسالته واقدمه وهو رجل ممن يذكر في تاريخ الهند كان مولده سنة ١٧٢٢ وكان أبوه يدعى فتح محمد خان ولما شب حيدر دخل في جيش ميسور ، وظهرت شجاعته في حصار مدينة « دفاهالي » التي أخذها راجا ميسور عام ١٧٤٩ فجعله الراجا قائداً لخمسین فارساً ومائتي راجل ، هكذا كان مبدأ ترقيه ثم صار فوجداراً في « دنديغول » ثم جا كردارا في بنغالور . ثم كسب صيتاً بعيداً في ظفرتة بالمهرات عام ١٧٥٩ وتلقب بعد ذلك بفتح حيدر بهادر ، واستقطع راجا ميسور بلاداً طويلة عريضة من مملكته ، وصار هو السيد المطلق في ميسور ، ولما وقع النزاع بين الانكليز والفرنسيين في الهند انحاز حيدر الى الفرنسيين وجرده جيشه للقتال في صفهم فاتهز تلك الفرصة « خاندرافا » وزير الراجا للتخاص من حيدر وتغلب عليه أولاً ، ولكن حيدر بداهته واقدمه استرجع مكاتته ثم قبض على الوزير وصار هو الألف والياء في ميسور وأبقى على الراجا في الصورة فقط وبعد موت الراجا جعل ابنه في قبضته لا يملك معه شيئاً . وضرب حيدر السكة باسم نفسه ، وفتح بلاداً ضمها الى ميسور وأسس دار صنعة لبناء السفن ، وجرت بينه وبين المهرات وقائع كثيرة وكذلك بينه وبين الانكليز اذ كان أكثر الوقت ينتصر للفرنسيين عليهم . ومات في معسكره بأركات في ٧ ديسمبر سنة ١٧٨٢ وخلفه ابنه تيبو صاحب . وكان هذا لا يقل عن أبيه في شيء حزمًا وعزماً وغشمشية ومضاء ، كان مولده سنة ١٧٤٩ ومات سنة ١٧٩٩ وثقف في الفنون العسكرية على أيدي ضباط فرنسويين ، وأتقن الرياضة البدنية وامتاز في الحروب التي وقعت بين ميسور والمهرات من سنة ١٧٧٥ الى سنة ١٧٧٩ كذلك في الحروب مع الانكليز من سنة ١٧٨٢ الى سنة ١٧٨٤ اذ ظفرتهم في عدة معارك فأحبه أبوه وقومه حبا جفا ، وعند ما خلف أباه عام ١٧٨٢ فتح « بدنور » وبالرغم من ترك الفرنسيين حلفائه قتال الانكليز لم يزل يكافح وينافح حتى انعقد الصلح بينه وبين الانكليز سنة ١٧٨٤ بمعاهدة « مانغالور » وقد رتب أمور بلاده ترتيباً حسناً ، ولأجل أن تدرى جلال قدر هذا الرجل يكفي أن تعلم أنه كان أوصل عدد جيشه الى ١٥٠ الف جندي مع ألفي مدفع وسبعائة فيل ، وادخر مقداراً طائلاً جداً من المؤن والعدد والذخائر الحربية ، وكان يخمن بيت ماله بمليارين من الفرنكات . وروى موريس قال صاحب قاموس الاعلام الفرنسي أن تيبو صاحب حاول حمل

المسيحيين والبراهمة على الاسلام وأظهر في ذلك غلظة زائدة ، ولكن أقصى آماله كان طرد الانكليز من الهند ، وكان اللورد كورنفاليس حرك عليه نظام حيدر آباد من جهة والمهرات من أخرى ، فهاجم تيبو مملكة « ترافانكو » سنة ١٧٩٠ فهاجم الانكليز والمهرات وجيش النظام من أربع جهات فقاتل قتالا نادر المشال في البطش والمهارة وكسر الكولونل الانكليزي فلويد واجتاح المنطقة الانكليزية وبقى موغلا في سيره الى جوار مدراس ، حتى اضطر الانكليز أن يسوقوا عليه جحفاً جرّاراً تحت قيادة اللورد كورنفاليس نفسه فردوا تيبو صاحب الورا و دخلوا بانغالور وغيرها من المراكز الحصينة ، فالتمس تيبو صاحب الصلح فأجيب اليه على شرط أن يتخلى عن قسم من بلاده ، ويؤدى غرامة قدرها ٧٥ مليون فرنك ، وتم ذلك سنة ١٧٩٢ الا أن تيبو صاحب بقي حاقداً على الانكليز متحزباً للاخذ بالنار ، ولبت يرسل الفرنسيين . ولما قدم بونابرت الى مصر بعث اليه رساله فوجه الانكليز معظم قوتهم لقتاله ، وشهر الوالى الجديد الانكليزي ولسلى عليه الحرب سنة ١٧٩٩ وتقدم الجنرالان هاريس وستوارت فحاصرا مدينة « سرينغابانام » فمات تيبو صاحب أثناء الحرب من شدة غمه ، واستولى الانكليز بعده على مايسور وعينوا لأولاده جارياً جزيلاً فأقاموا بمدينة « فللور » وكان تيبو صاحب وأبوه حيدر على من أعظم الرجال الذين أنجبهم الاسلام .

ان المدنية الاسلامية في الهند كانت خلاصة مدنيت عديدة ، اذ اجتمعت فيها عناصر الحضارات العربية ، والفارسية ، والتركية ، والمغولية ، والصينية ، والهندية ، والبوذية وغيرها . ولكن الحضارة الفارسية كانت فيها ذات الشقص الأوفر حتى صارت الهند بواسطة الاسلام كأنها قطعة من ايران . واشتهر من شعراء الفارسية في الهند الأمير خسرو الدهلوى (١٢٥٣ الى ١٣٢٥) الذى كان يتحدى السعدى والنظامى والشاعر حسن الدهلوى المتوفى عام ١٣٢٦ ، وكان يحذو حذو عمر الخيام والحافظ الشيرازى . ولم يمكن الأدب الهندى أن يجارى الأدب الفارسى في ميدان ، لا سيما أن ملوك الاسلام لبثوا مترفعين عن الهنود في هيتهم الاجتماعية ، منفردين بأنديتهم ومجالسهم الخاصة ، ولم يكن لسان كلسان الفرس يطيب للمجالس الملوكية وأحاديث الخواص ، فاذا استنيت اللغة العربية لا تجد

في العالم الاسلامي لغة وثقافة تضارعان اللغة الفارسية وثقافتها . وان المغول أنفسهم مع كونهم يختلفون عن الفرس أصلاً كانوا بعد أن ولوا بلاد العجم قد تحولوا في لسانهم وآدابهم فرسا . فلما فتحوا الهند نشروا فيها الهذب الفارسي والأدب الايراني ، ونبع في أيامهم أدباء ومؤلفون وشعراء كالباداعوني وأبي الفضل وأبي فيضي والشاعر عرفى الشيرازي . وخوجه حسين وحسن الأصفهاني وقاسم ايكاهي . وكانوا جميعاً ينظمون وينثرون بالفارسي ويتحدون الجامي والحافظ والنظامي . ثم ان شعراء لغة الاوردوبهذه اللغة الجديدة كانوا ينسجون أيضاً على منوالهم . وهم مثل فالى ، وساودا ، ومير ، وحاتم وحسن وغيرهم . اما من جهة الطراز المعارى ، فكان لمسلمي الهند دوران الدور الأول هو الغزني والغوري ، والدور الثاني هو الدور التيمورى . فأما في الدور الأول فكان ملوك الاسلام قد اكتفوا بالطراز الهندى المسمى « جاينا » وأضافوا اليه القسي الحادة العربية . فكان يوجد في نسق البناء شبه كبير بين جوامع السلاطين ايبك والتامش وعلاء الدين فى اجير ودهلى ، وبين معابد الهنود الا أن المسلمين لم يلبثوا أن نزعوا الى طرازهم المعارى الأصلى وهو العربى الفارسى ، فان الباب المسمى باب علاء الدين فى دهلى هو بناء فارسى تقريباً . أما فى زمان بنى طغلق فكان الطراز الهندى هو الغالب على الأبنية مع مزج ظاهر الى البساطة . ولكن من بعد فتح بابر التيمورى تولد أسلوب خليط من الطراز الهندى والطراز الايراني صار قائماً بذاته . وهناك فروق ناشتة من طبيعة البلاد فى الهند لم يمكن ايجاد صنعة القاشانى الغالبة فى الأبنية الفارسية ، فجعلوا مكان القاشانى المرمر والحجر الصلد . فكانت المباني المغولية أنخم وأمتن وأثبت على الدهر ، فبينما جوامع اصبهان تتداعى الى الخراب تجدد « تاج محل » فى الهند يغالب بمتانته الزمان ويقاوم الحدثان . وجميع مباني بابر وهمايون كانت على الأسلوب الايراني وذلك مثل مدفن همايون فى دهلى . أما اكبر فبانيه كانت بين الأسلوب بين العجمى والهندي ترى ذلك فى الجامع الأعظم فى فتحبور . ونظيره جامع آغرا وقصر السلطنة التركية . وأما مدفن اكبر فى سيكوندرد فاذا تأملت سطوحه المرصوفة بالحجر الأحمر ، والمرمر الأبيض ، وأطنافه وأفاريزه والأشكال الهرمية التى فيه تظن أنك بازاء أسلوب بوذى مطبق على رسم اسلامى . وفى أيام جهانكير بنى مدفن اعتماد الدولة فى آغرا ، وجامع لاهور ، وهذا فيه

فاشاني كثير كأنه من مساجد أصفهان ، أما مدفن اعتماد الدولة فهو طراز نسيج وحده .
 وفي أيام شاه جهان بنى القصر السلطاني في دلهي ذو البهو الأعظم المسمى « بديوان خاص »
 الذي قال أرباب الفن من الأوربيين انه آية تبهر الناظرين . وكذلك أنشئ جامع الوزير في
 لاهور والمسجد الكبير في آغرا والجامع المسمى « جامع مسجد » في دلهي ، وجامع اللؤلؤة
 في آغرا . وهذا الأخير من أعجب عجائب الهند على كثرة عجائبها ، تدخل اليه من
 مربع فيه حياض الوضوء ، ثم تفيض منه الى دهليز معقود بالقناطر ، تمتد من ثلاث جهات
 وفي الجهة الرابعة قبالة الباب الأكبر يتجلى لك الجامع بعظمة فائقة الوصف ، قائماً على غاب
 أشب من المرمر المنقوش الباهر في صنعته ، تعلو من فوقه تلك القبة المنقطعة النظير الضاربة
 الى العلاء ، تناطح القبة الزرقاء . قال جاكوت : ان هذا العالم الصغير من المرمر الناصع
 يظهر لك كأنه واحة سلام وسكون في وسط معركة الحياة ، إذ لا ترى من العالم الخارجي
 سوى رأس شجرة فينائة جعلها التصادف في وجه الباب يلعب الهواء بأغصانها تحت أشعة
 الشمس . فهذا المسجد هو مشهد سكيينة تامة وصفاء لطيف ليس في محاسن سائر الآثار
 العظام التي في آغرا ما يضاهاها ، نعم ان جميع هاتيك المباني لما يبهر النواظر ولكن لؤلؤة
 المساجد تلك شيء آخر .

مع هذا « تاج محل » في آغرا أشهر من مسجد اللؤلؤة . وكان السلطان جهان شاده
 سنة ١٦٣٠ مدفناً لحظيته التي كان قد ملك هواها قلبه « الأميرة ممتاز محل » وكانت قد
 ماتت وهي نفساء في مقتبل العمر فناشدت السلطان الله أن يخلد اسمها في بناء عظيم الشأن
 فبنى لها ذلك المدفن النادر المسمى بالتاج وكاه من الخارج من مرمر ناصع البياض ، ومن
 الداخل منحوت منقوش محرم مرصع بالصنعة التي تحار لها العقول وتذهب بهما الأبواب ،
 مع ماهناك من الفسيفساء وأصناف الرخام والمرمر الأزرق الصافي ، والعقيق اليماني ، وغير
 ذلك من الحجارة النفيسة النادرة . وفوقه قبة لطيفة حواها منائر ضاربة في السماء ، وعلى
 الدائر مشبكات من الحجر تصرف بها أيدي الصانع بالتخريم تصرف النجارين بالخشب .
 وهذا بأجمعه وسط جنة فيحاء غناء ، فيها من الحياض والنوافر المتصاعدة مياهها بين مخارف
 السرو ، وتحت ظلال أشجار البرتقال ما يتعذر احصاؤه . وما يذكر من عجائب ما أثر الهند
 « م ٢١ - رابع »

الجامع الأعظم في بيجابور في الدكان بدأ بعمارته على الأول سنة ١٥٥٧ وقبة السلطان ابراهيم التي انتهى بناؤها سنة ١٦٢٠ وقصر الطباق السبع الذي بناه السلطان محمد ومدفنه وطراز هذه الأبنية كله فارسي . وهذه نبذة ضئيلة عما خلفه ملوك الاسلام من المباني المدهشة في الهند فن شاء التوسع فعليه بكتاب « الهندسة العربية » Architecture des Arabes تأليف غستاف لوبون إذ أتى فيه على جميع المآثر الإسلامية في البناء . وعلى كتاب دراسة الفن المعماري الإسلامي للسيو سلادين Saladin وعلى تصانيف كثيرة لكتاب الانكليز على الهند . وبالأجمال فن شاهد تلك الآثار ، وقرأ هاتيك الأخبار ، يعلم أن الاسلام تحقق بمحضارة باهرة ، وعاش أعصرأ زاهرة ، واحتوى على مآثر صورية ومعنوية ، وفضائل باطنة وظاهرة ، يحق للمسلمين أن يباهوا بهاسائر الأمم ، على شرط أن يقتدوا بأوائلهم . هذا ماآثرنا تلخيصه عن دول الاسلام في الهند .

فرقة المعتزلة

للمشركين

المعتزلة فرقة^(١) من مفكرى الاسلام ، يرى فيهم علماء أوربا دائماً طبقة تمثل الفكر الحر المطلق ، وتريد أن تتخلص من قيود التقليد المشهور فى الاسلام بالشدّة ، والباعث بشدته ووقوفه ، غير متقدم ولا متأخر ، الى هذا الجود الذى رسا عليه المجتمع الاسلامى . ويقال ان سبب تسميتهم بالمعتزلة ، أن أحد أئمتهم واصل بن عطاء كان يقرأ أولاً على الحسن البصرى ثم اعتزله لمسئلة خالفه فيها . وهم يسمون أنفسهم « أهل التوحيد والعدل » أما التوحيد فلائمهم نفوا عن الله تعالى الصفات القديمة كالحياة ، والعلم ، والارادة والقدرة ، وقالوا انه حى بذاته ، عالم بذاته ، مرید بذاته ، قادر بذاته ، ولم يقولوا كالأشاعرة وغيرهم حى بحياة ، عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مرید بارادة ، بحيث ان الصفة هى غير الموصوف وأما العدل فلكونهم يقولون ان العبد انما يثاب ويعاقب على طاعته ومعصيته ، لانه هو الخالق لأفعال نفسه ، دون الله تعالى الذى ينزّه عن أن يضاف اليه خلق الشر . واذا كان العبد بحسب قولهم هو الخالق لأفعال نفسه ، فليس يلزم أن يكون هناك قدر سابق ، بل الأمر أنف ، يعنى مستأنف . ولهذا سماهم الناس « القدرية » . ولما سمعوا الحديث المروى عن النبي ﷺ وهو « القدرية مجوس هذه الائمة » أولوا الحديث بأن معناه القائلون بسبق القدر . وكان مرة أئمة المعتزلة ، يباحث أحد أئمة أهل السنة ، فقال المعتزلى « الحمد لله الذى تنزهه عن الفحشاء » . فقال السنى : « الحمد لله الذى لايقع فى ملكه الا مايشاء » . فقال المعتزلى : « أريد ربك أن يعصى ؟ » فقال السنى : « أيعصى ربك جبراً ؟ » من هذه السكته نفهم الفرق بين مذهب السنة ومذهب الاعتزال . هذا وان كان جمهور أهل السنة فرقوا بين السكسب وبين خلق الأفعال ، وجعلوا للانسان جزءاً اختيارياً هو مناط الثواب والعقاب ، وشبهوا العبد الذى يعصى بعامل أمره السلطان بأن يكون عاملاً على بلد كذا وأوصاه بالعدل والتقوى . فذهب الى عمله وظلم الرعية وارنك المعاصى ،

(١) راجم صفحة ٢٥٤ من هذا الجزء

فالسُلطان من جهة لم يأمره بالظلم ولا أباح له تلك الأعمال الموبقة ، ومن جهة أخرى هو السبب في وصول أذى ذلك العامل الى الرعية لانه لولا تولية السلطان إياه ما تمكن من ظلمهم وهذا هو مثل من الأمثال ، وان كان البحث دقيقاً جداً ، وكان جمهور المتكلمين من المسلمين ، واللاهوتيين من المسيحيين يتفقون على أن الله هو مالك الملك ، خالق الخلق ، يفعل بخلقه ما يشاء ، وأنه حر في أفعاله لا يستل عما يفعل .

وقد اشتهر من أئمة المعتزلة واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، وإبراهيم النظام ، وبشر بن المعتز ، ومعمار بن عباد ، وأبو عثمان الجاحظ ، وأبو علي الجبائي ، وابنه أبو هاشم والزحشرى صاحب الكشف في تفسير القرآن . ومن كان يقول بأقوالهم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، أخذ ذلك عن الجعد بن درهم من المعتزلة ، فقبل له مروان الجعدى . ويقال ان صاحب بن عباد كان يميل الى مذهبه . ثم ان كثيراً من متكلمي الشيعة تعول على كثير من آراء المعتزلة . ومن جملة أقوال المعتزلة ، اذا كان الأمر مفروغاً منه فلماذا يسعى الانسان وفيه يجتهد ؟ وهم يؤولون قوله تعالى « وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » والحديث الشريف « اعملوا فكل امرئ ميسر لما خلق له » .

أما أبو علي الجبائي ، فقد كان حاملاً لواء الاعتزال في عصره أخذ عن أبي يعقوب يوسف شيخ معتزلة البصرة ، ثم انتهت اليه رئاستهم الى أن مات (سنة ٣٠٣ أو ٩١٥) ، وصنف كتاباً في الأصول ، وكانت له مناظرات مع الراوندى ، والنظام وغيرهما ، وهو الذى قرأ عليه أبو الحسن الأشعري ، ثم بعد ذلك ناظره الأشعري وألف كتاباً في الرد على أستاذه الجبائي ، واعتزل الاعتزال ، وصار ناصرًا للسنة ، حتى صار نصف المسلمين تقريباً أو أكثر أشعرية في علم الكلام . واشتهر أبو هاشم الجبائي اشتهار والده بالاعتزال لكنه حاول في مسألة الصفات الالهية التوفيق بين المعتزلة وأهل السنة ، بأن يجعل هذه الصفات أحوالاً ، ومعنى ذلك أنها صفات أشد اتصالاً بالجواهر من العوارض غير الملازمة ، بحيث يكون لها سبق في القضاء والقدر . وقد أراد أبو هاشم بهذا أن يؤلف بين التوحيد الالهى والصفات ، زاعماً أن الكيفيات ليست جواهر بل أنواع من المظاهر . وقد ردوا عليه في رأيه هذا ورأوه متناقضاً . ومات أبو هاشم عام ٣٢١ .

وأما الأشعري — وهو على بن اسماعيل ، بن اسحق ، بن سالم ، بن اسماعيل ، بن

عبدالله ، بن موسى ، بن بلال ، بن أبي بردة الأشعري ، المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ المتوفى ببغداد سنة ٣٢٤ - فقد بقي الى الأربعين من عمره ملازماً للجبائي ، أخذاً برأيه ، الا أنه لحظ في آخر الأمر أن كثيراً من أقوال المعتزلة لانتلمت مع روح الشرع ، ففارقهم وأخذ يرد عليهم ، وكتب كتباً كثيرة قيل بلغت ٣٠٠ مصنف ، وعد منها ابن عساكر ٩٠ تأليفاً ، وذكر كثيراً منها بروكلمان Brokelmann الألماني في كتابه « تاريخ الآداب العربية » . وسنة ١٣٢١ هجرية طبع في حيدر آباد من مؤلفات الأشعري « الابانة عن أصول الديانة » سنة ١٣٢٣ طبع منها رسالة في استحسان الخوض في الكلام .

ورد في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، أنه يعود للأشعري الفضل باستعمال المنطق والجدل في العقيدة ، خلافاً لعلماء الاسلام الأولين ، وأنه بذلك تمكن من مناظرة المعتزلة ، وسائر البدع ، فهو بالفعل واضع الفلسفة العقلية الاسلامية أى علم الكلام . قالت : « ولما كان الأشعري شافعيًا لم ينتشر مذهبه عند قوم انتشاره عند الشافعية » قلنا : يقول عبد الوهاب السبكي في طبقات الشافعية ان المالكية بأجمعهم وأكثر الشافعية هم أشاعرة . أما الحنفية فيرجحون مذهب الماتريدي ، وهو يتفق في الأساس مع الأشعري ، ويباينه في نقاط ثانوية . وأما الحنابلة ، فيردون كلام الأشعري ويأخذون العقيدة بمثل ما أخذها السلف أى بدون فلسفة وقد يفرط بعضهم برفض التأويل فيرميهم الأشاعرة بالتجسيم . ومن رد على الأشاعرة ابن حزم الظاهري . ومما لامشاحة فيه أن أعظم متكلمي الاسلام وسيوف السنة ؛ هم من الأشاعرة وذلك مثل الباقلاني ، والقشيري ، والاسفرائيني وامام الحرمين أبي المعالي الجويني ، ولو لم يكن منهم الاحجة الاسلام الغزالي لكفى .

فرق الخوارج

المشركين

عند ما طال النزاع بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، واشتدت الحرب واتسع الخرق ، مل كثير من المسلمين القتال ، وتذاكروا فيما بينهم في طريقة ترفع الخلاف بدون استمرار على سفك الدماء . فسكانت هذه الطريقة هي التحكيم الذي كثير من عقلاء الأوربيين يجاهدون اليوم في جعله هو الوسطة لفض المنازعات الدولية ، وان كانوا الى هذه الساعة لم يوفقوا الى جعله المرجع الأول فيما شجر بين الدول ، بل كان لا يزال أمره ضئيلاً وأكثر ما يرجعون اليه في المشكلات الخفيفة .

فهذه الفئة التي سئمت الحرب ، حلت علياً رضي الله عنه على قبول التحكيم بينه وبين معاوية ، وأشارت باقامة أبي موسى الأشعري حكماً عنه في خبر طويل ليس هنا تفصيله ، مع أن عمر بن العاص داهية زمانه أقيم حكماً عن معاوية ، فذبح عمرو وأباموسى بأن اتفق معه على أن يخلعا علياً ومعاوية جميعاً ، ويرىحا المسلمين من هذه الحرب الطاحنة وأنهم بعد ذلك يقيمون لهم خليفة يختارونه . ولما كان أبو موسى أكبر سناً من عمرو ، كان التقدم له في الكلام ، فقام وأشهد أنه خالعهما . وجاء الدور الى عمرو ، فقام وأشهد على أنه خلع علياً دون معاوية . وكانت لهذه الخدعة رنة في الاسلام لانزال الناس تنذاكرها الى اليوم . وبطل ذلك التحكيم ، واستمر القتال بين الفريقين ، فخرجت تلك الفئة من طاعة علي ومعاوية معاً ، وانفردت برأى غير رأى الجماعة ، وهو أنه لاحكم الا لله ورسوله رأساً بدون خلافة ، فساهم الناس من أجل ذلك خوارج^(١) . ثم ذهبوا الى النهروان وعسكروا هناك ، وكانوا على ما يروى أربعة آلاف مقاتل ، فصمد اليهم علي وما زال يقائلهم ويستأصلهم اتقاء الفتنة وانتشار نظام الأمة ، الى أن أفناهم على بكرة أبيهم ، ولم يفلت منهم سوى تسعة نفر ، قيل ذهب منهم اثنان الى عمان ، واثنان الى كرمان ، واثنان الى سجستان ، واثنان الى الجزيرة ، وواحد الى اليمن . هذا أصل الخوارج ،

(١) راجع صفحة ٢٥٥ من هذا الجزء

ويقال لهم أيضا الشراة لقولهم اننا شرينا أنفسنا في طاعة الله أى بعناها بالجنة حين خرجنا على الأئمة الجائرة .

وعمود مذهبهم انكار الخلافة وأن الحكم يستمد من القرآن رأسا فلا حاجة الى الخليفة . وأنهم يمنعون التأويل فيه . وبعضهم ينكر كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون هي قصة من القصص . وبعضهم يكفر بالكبائر ، ومنهم من يكفر بالاصرار على الصغار ، ومنهم من يصبو فعلة عبدالرحمن بن ملجم ذلك الشقي الذى قتل عليا ، وفعل قظام فى اشتراطها على ابن ملجم حين خطبها ثلاثة ، عبداً ، وقينة ، وقتل على . ومنهم من يجوز نصب الامام ولكن لا يشترطون فيه النسب القرشى (وقد ذهب الى مثل ذلك غيرهم ومنهم من كبار علماء السنة مثل أبى بكر الباقلانى) . وهم فرق متعددة منها : المحكمة ، وهم الذين يمنعون التحكيم .

ثم الازارقة ، وهم انباع نافع بن الازرق ، وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان ايام ابن الزبير ، وقتلهم المهلب بن أبى صفرة ، وهم يكفرون عليا مع جمع من الصحابة ، ويصوبون فعل ابن ملجم ، ويكفرون القاعدين عن القتال مع الامام ولو قاتل أهل دينه ، ويبيحون قتل أطفال المخالفين ونسائهم ، ويسقطون الرجم عن الزانى المحصن وحده القذف عن قاذف المحصن دون المحصنة ، ويكفرون بالكبائر ويقولون ان التقية غير جائزة .

ثم النجدات ، وهم أصحاب نجدة بن عامر ، يكفرون بالاصرار على الصغار دون فعل الكبائر ، من غير اصرار ، ويستحلون دماء أهل العهد والذمة وأموالهم .
ثم البيهسية ، وهم أصحاب أبى يهس الهيصم بن جابر يرون أنه لاحرام الا ما وقع عليه النص بقوله تعالى « قل لا أجد فيما أوحى الى محرماً » الآية ، ويكفرون الرعية بكفر الامام .

ثم العجاردة ، وهم الذين ينفون كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون انما هي قصة من القصص .

ثم اليمونية ، وهم الذين يقولون ان الله يريد الخير دون الشر . ويقال انهم يجوزون نكاح بنات البنات ، وبنات أولاد الاخوة والاخوات . ورد ذلك فى بعض

الكتب ومن جلتها «صبح الاعشى». ولكن عهدنا «صبح الاعشى» ينقل روايات عن كتب زعم أصحابها استباحة ذوات المحارم عند بعض فرق مخالفة لأهل السنة ، وليس في تلك الروايات شئ من الصحة ، بحيث قد ضعفت الثقة فيما ترويه تلك الكتب عن فرق أخرى . والذي يظهر أن اختلاف العقيدة يورث من التباعد والتنافر ما ينتهى بوضع أخبار كثيرة لا صحة لها وتروى بينها بين الناس حتى تكاد تصير قضية مسلمة . ولهذا شواهد ، كثيرة ليس هنا موضع ذكرها .

ثم الاباضية ، يرون أن مرتكب الكبيرة كافر للنعمة ، لا كافر بالله ، ويرون أن دار مخالفيهم من الاسلام دار توحيد ، ولكن دار السلطان منهم دار بغي . وهم يحتجون على كل من يتهمهم بمخالفة السنة ، ويقولون انهم هم وحدهم الذين لم يحدوا عن السنة ، ويقال انهم يزعمون كونهم هم وحدهم الفرقة الناجية من أصل الثلاث والسبعين فرقة . وهم لا يذكرون بعد الرسول ﷺ من الخلفاء الا أبا بكر وعمر ، وأما عثمان وعلى فلا يعجبانهم اذ قد خالفا نهج الرسول والصاحبين بزعمهم . ويقولون بوجود نصب الامام بين المسلمين اذا توفرت القوة والعلم لنصبه ، وان القرشية ليست بشرط في الخلافة ؛ بل يكفي أن يكون الخليفة متصفاً بالفضيلة والتقوى ، سائراً بموجب الكتاب والسنة لتصح خلافته . فان انحرف عنهما وجب خلعهم . ويقولون ان القرآن هو كلام الله خلقه الله تعالى وهو كقول المأمون العباسي . وانه تعالى لا يرى بالابصار في الجنة ، وان الثواب والعقاب أبدان ولا فناء للنعيم ولا للجحيم . وان الله يغفر الصغائر ولكنه لا يغفر الكبائر الا بالتوبة . وهم يرجعون الى الكتاب والسنة فقط ولا يعملون بالاجاع والقياس ، بل عندهم محلهاما الرأى . وهم يقولون : ان كل مسلم مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وان على كل مسلم واجبات مفروضة نحو أخيه المسلم ، فمن لم يقم بما فرض عليه من هذا التضامن الديني خسر حقه في حنو اخوانه المسلمين عليه ، ووجبت معاملته نظير عدو الى أن يتوب وينيب . هذا ولما كان أكثر فرق الخوارج انتشاراً هم هؤلاء الاباضية ، وكانت لهم بلدان ودول وحكومات كسائر فرق الاسلام الكبرى ، فسنعود في آخر هذا الفصل الى تاريخهم السياسى .

ثم الثعالبية ، وهم يرون الولاية على الصغير إلى أن يظهر عليه انكار الحق فيتبرأون منه .

ثم الصفرية ، ومن رأيهم أن التكفير يقع فيما ليس فيه حد ، كترك الصلاة ، أمّا ما كان من الكبراء فيه حد كالزنا ، فيكفي فيه الحد ولا يجب فيه التكفير .

هذه أشهر فرق الخوارج ، ومن شاء التوسع في هذا الموضوع فعليه « بالملل والنحل » للشهرستاني ، وكتاب « الفهرست » وكتاب « كشف الغمة في أخبار الامّة » ، وكتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادي ، وكتاب « الملل والنحل » لابن حزم وغيرها .

ونعود الى الاباضية فنقول : هؤلاء ينتسبون الى عبد الله بن اباض ، بكسر الهمزة وقد تلفظ بالفتح ، وكان أول خروج الاباضية في زمان مروان الثاني الأموي ، وكان يقودهم حينئذ عبد الله بن يحيى وأبو حزة (١٢٩ هجرية) وزحف عبد الله من حضرموت الى صنعاء فاستولى عليها ، وسير أبا حزة بجيش الى مكة ثم المدينة فاستولى عليهما ، فأرسل مروان جيشا عقد لواءه لعبد الملك بن عطية ، فقاتل أبا حزة وهزمه في وادي القرى ، فالتجأ الى مكة ، فجدّ في أثره وما زال يقاومه حتى قبض عليه وقتله . وكذلك انتهى أمر عبد الله ابن يحيى بصنعاء اليمن . سنة ١٣٤ للهجرة ، نار الاباضية في عمان ، فسار اليهم خازم بن خزيمه من قبل بني العباس ، فنسكل بهم ، ولكن المذهب الاباضيّ وجد في بلاد عمان بانفرادها ، وشحط مزارها ، وحيولة الفلوات من جهة ، والبحار من أخرى ، بينها وبين سائر الأقطار أندوحة اتسع بها ، وبسط جناحيه بدون زعج في قاصبتها ، وما زال ينتشر هناك حتى صار هو المذهب الغالب في بلاد عمان ومنها امتد الى زنجبار . أما في شمالي افريقية فان مذهب الاباضية ظهر في أواسط القرن الثاني للهجرة ، هو ومذهب الصفرية ، كلاهما من الخوارج ، وقد انتشرا كثيراً بين البربر الذين خرجوا مراراً على الدول العربية . وكان أول دعواتهم في شمالي افريقية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري الباني ، خرج في جبل نفوسة ، وهو أول امام للاباضية في تلك الأقطار . ويقولون انه أحد الدعاة الخمسة الذين يسميهم الاباضية « جملة العلم » ، وكانت مبايعة الاباضية له في جبل نفوسة ونواحي طرابلس سنة ١٤٠ هجرية . وزحفوا بعدها الى مدينة طرابلس ،

واضطروا العامل الذي كان فيها من قبل بنى العباس على الفرار بنفسه . ثم سار منهم ستة آلاف تحت قيادة أنى الخطاب هذا ، وافتتحوا قابس ، ثم ساروا الى القيروان فحاصروها وفي صفر سنة ١٤١ فتحوها وذبحوا أهلها . وعاد أبو الخطاب الى طرابلس بعد أن أبقى على القيروان من قبله عبد الرحمن بن رستم . وفي ذى الحجة من سنة ١٤١ ولى الخليفة أبو جعفر المنصور العباسى محمداً بن الأشعث الخزاعي على مصر ، فأرسل هذا جيشاً تحت قيادة العوام بن عبد العزيز البجلي الى افريقية ليدويج الخوارج ، فزحف أبو الخطاب بنفسه للقاء جيش الخليفة ، وأرسل من قبله جريدة تسبقه مع مالك بن سهران الخوارى فانكسر جيش الخليفة أول مرة فى سرت ، فأرسل ابن الأشعث جيشاً آخر بقيادة أنى الأحوز عمر بن الأحوز العجلي ، فانكسر أيضاً ، فزحف ابن الأشعث بنفسه بأمر من الخليفة ، فالنقاه أبو الخطاب بجيش البربر فى « تاورغا » فى صفر سنة ١٤٤ ودارت معركة تشيب لها الأطفال وانتهت بهلاك أنى الخطاب و ١٢ الفا ويقال ١٤ الفا من أشياعه ، وفى جادى دخلت عساكر الخليفة القيروان .

ولكن لم تلبث فتنة الخوارج فى تلك الأقطار أن تجددت ، اذ فى نحو عام ١٥٦ ظهر أبو حاتم يعقوب بن حبيب المزوزى ، وقيل ان أباه كان اسمه لبس بن مدين من قبيلة هواراة العظيمة ، فجمع أبو حاتم هذا جوعاً من الأباضية والصفيرية وأصناف البرابر ، وجاء يحاصر عامل افريقية عمر بن هزار مرد فى بلدة تبنة ، فبعد وقائع شديدة تمكن عمر من الخروج من تبنة واللحاق بالنيروان عاصمة افريقية فى ذلك العصر ، ورد جميع مهاجات البربر ، وصبر على الجوع ونفاد الأوقات ، وبينما هو يدافع عن البلدة اذ بلغه كون الخليفة سرح جيشاً تحت قيادة يزيد بن حاتم ، الذى ولاه على افريقية محل عمر ، فباغ من عمر اليأس مبلغه وخرج فقاتل حتى قتل فى ذى الحجة سنة ١٥٤ ، فاستولى البربر على البلدة وجعوا جيوشهم للالقاء حيش الخليفة . وكان فى هذا عساكر من خراسان ، والبصرة ، والكوفة ، والشام ، ومن بقايا الأجناد التى كانت بافريقية ، ومن الهواراة أنفسهم . فالتقى الجمعان فى جندوبة ، وانتهت المعركة بانتصار جيش الخلافة ، وهلك أبو حاتم ومعه ٣٠ الف مقاتل من أتباعه ، وذلك فى ٢٧ ربيع الأول سنة ١٥٥ (٧ مارس سنة ٧٧٢) ويقال ان هذه الواقعة الكبرى كانت خاتمة ٣٧٥ واقعة نشبت بين الخوارج وجند الخلافة .

ولقد تأسست دولة أباضية في تاهرت استمرت ١٣٠ سنة ، الى أن أزالها الدولة الفاطمية على يد أبي عبد الله الشيعي (٢٩٦ للهجرة) ومنذ ذلك الوقت لم تقم لهم دولة في الغرب ، وانما منهم أعداد وافرة في وارغلة ، وميزاب ، وجبل نفوسة ، وزوارة ، وجزيرة جربة . وهم مرتبطون بعضهم ببعض ارتباطاً شديداً ، ولهم علاقات مع أباضية عمان ، وزنجبار وتجدهم يتدارسون تاريخهم وفقهم وأدبهم بكل اعتناء . ومن أعيان الأباضيين في زماننا هذا الشيخ سليمان الباروني الذي جاهد في حرب طرابلس الغرب جهاداً عظيماً على رأس أباضية الجبل الغربي ، وكان مبعوثاً في مجلس الأمة بالاستانة ، ثم جعلته الدولة العثمانية عضواً في مجلس الاعيان مكافأة له على جهاده .

ثم نعود الى أباضية عمان فنقول : ان الخروج على الدولة شنشنة قديمة لذلك القطر ، فقد عصى أهالي عمان لعهد بني أمية ، فسير عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي جيشاً فهزموه ، وكان عليهم يومئذ سليمان وسعيد من أولاد الجلندي الذي كان يلي عمان عند ظهور الاسلام . فأرسل عليهم الحجاج جيشاً آخر فهزمهم ونكل بهم ، وفر الأخوان سليمان وسعيد الى بلاد الزنج (زنجبار) ، فكانت الى هذا اليوم منتدخاً لأهل عمان ولكن تنحى بلاد عمان عن الأمصار الكبرى كما تقدم الكلام عليه ، هيأ فيها سهولة الانتقال ، فان العمانيين لم يلبثوا أن ناروا وبايعوا بالامامة الجلندي بن مسعود . فأرسل أبو العباس السفاح جيشاً نقتال الجلندي هذا ، فانهزم العمانيون وهلك امامهم ، ولكن لم تعد عساكر الخليفة الى أوطانها حتى صارت أمور عمان فوضى ، واضطر الأهالي الى عقد اجتماع وانتخاب امام على حسب أصول المذهب الخارجي المنتسب الى عبد الله بن أباض التميمي . فوقع الانتخاب على رجل يقال له محمد بن عفان ، فباشر الامامة نحو سنتين ، فلم يحسن العمل فخلعوه ، وأقاموا مكانه الوارث بن كعب . وفي زمان هذا أرسل هارون الرشيد تجريدة على عمان فلم تصنع شيئاً . ومات الوارث بن كعب في حادثة غريبة ، وهي أنه كان في إحدى الوقائع ثقف عدداً من الأسرى ، وصادف أن جرى سيل في المكان الذي كان الاسرى فيه موثقين ، فذهب بنفسه يجتهد في تخليصهم فأخذه السيل وذهب شهيداً مرءته ووجدت جثته ثانی يوم بعد أن انكشفت الأرض متعلقة بشجرة . وخلفه غسان بن عبد الله ، وقد طهر تلك البلاد من معرفة لصوص البحر ، وتأنرهم على طول الساحل من بلاد العرب

الى بلاد العجم الى الهند ومات سنة ٢٠٧ .

فوقع الاختيار على عبد الملك بن حميد ، فلما بلغ من الكبر عتيا أهرت وأصبح لا يعقل من الكبر ، فلم يريدوا خلعه ولكنهم وضعوا له مديراً اسمه الشيخ موسى . ولما مات عبد الملك سنة ٢٦٢ أقاموا مكانه المهنا بن جعفر ، وبمدة هذا استضافت عمان بلاد المهرة ، وكانت من قبل تؤدي اتاوة سنوية . ومات المهنا هذا في سنة ٢٣٧ وخلفه الصلت ابن مالك ، ومات سنة ٢٧٣ خلفه رشيد بن النصر ، فاختلفت الأمور وانتثر النظام في أيام هذين حتى اضطر الأهالي لمراجعة الخليفة المعتضد العباسي ، وكان رجل اسمه عزان الخاروسي حاول أن يحكم بالفهر والعسف فلم يتسق له الأمر وصارت الناس فوضى . فذهب اثنان من الأهالي الى البحرين يتسكمان مع محمد بن نور عامل الخليفة على البحرين في الاستيلاء على عمان وازالة الفوضى التي فيها ، وقد قصد أحدهما بغداد لمخاطبة الديوان في هذا الأمر ، فتقرر الزحف الى عمان ، وسار محمد بن نور بجموع وافرة من نزار وطى ، ففتح نزوة عاصمة عمان ، وقتل عزان ، وفر كثير من الأهالي الى البصرة والى شيراز والى مدينة هرمز ثم نار بمحمد بن نور بعض القبائل وتكاثروا عليه ، فترك مقره ولحق بالساحل ، الى أن أدركته نجدة عظيمة من مرتدفة مضر ، فتمكن من قمع الثورة وأرهب الحد في الأهالي ، وقطع الأيدي وسلم الآذان ، وعطل قنى المياه التي يشرب منها الخلق ، وأحرق الكتب ، وعمل بالأهالي العملين ، ولكن ذلك كله لم يفده شيئاً ، اذ ما كاد يرجع الى البحرين محل عمالته ، حتى نار الأهالي ثانياً وقتلوا العامل الذي استخلفه على عمان ، وذهب دم هذا هدرا ، لأن الخلافة عدلت عن ولاية عمان وناهت عن ايدابها . فعاد الأهالي الى انتخاب أئمتهم ، وتوالت عدة أئمة ، مثل محمد بن الحسن الخاروسي ، وعزان بن الحزر ، وعبد الله ابن محمد الهداني ، والصلت بن قاسم ، وحسن بن سعيد الحواري بن مطرف . ولم تطل مدة هؤلاء ، بل استمرت الفتن في البلاد الى أن ظهر القرامطة ، فافتتحوا عمان مدة من الزمن ثم أخرجوهم منها ، واختير للإمامة محمد بن يزيد الكندي . وفي مدته سرحت الخلافة جيشا لاسترداد عمان ففر الكندي من وجهه ، فانتخب العمانيون سعيد بن عبد الله ، فات سنة ٣٢٨ فانتدبوا رشيداً بن الوليد وأطاعه الجميع . الا أنه في آخر الأمر اضطرب حبله ، ومال جماعة الى حكم الخليفة ، فانهزم الامام وفارقه أصحابه ، وبقيت عمان تحت

حكم الخلافة الى سنة . . ٤ ، اذ ضعفت الدولة في بغداد عن ادارة هاتيك البلاد . فتوالت الأئمة نوبة ثانية كالحليل بن شدهان ، ورشيد بن سعيد الذي كانت وفاته سنة ٤٤٥هـ وابنه حفص ثم رشيد بن علي ، ثم أبي جابر موسى المتوفى سنة ٥٤٩هـ ثم استولى على القطر بنو نبهان ، وتلقبوا بالملوك واستمر ملكهم مائتين وستين سنة . وفي أيامهم حاول الايرانيون أن يستولوا على عمان ، وجاء نخر الدين أحد بن الداية بجيش من شيراز ، فأجتاح سواحل عمان ، ثم ان أمير هورمز محمود بن أحمد الكوسى ، وكان عربى المتمد قد اجتاح بلاد عمان أيضا بمساعدة المغول الذين كان انضم اليهم ، ووصل بجيشه الى ظفار ، الا أنه نشب مع عساكره في رمال تلك الصحراء فهاجه العرب ، وقتلوا من كان باقيا من عساكره ، ولا تزال قبورهم ظاهرة الى هذا اليوم يقال لها قبور الترك ، مما يدل على أنه كان في جيشه مرتزقة من الأتراك . وفي أيام بنى نبهان ، دخل في عمان غراس شجرة « المانغا » يقال ان الذي أدخلها هو الفلاح بن محسن الذي كانت عاصمته مدينة مقنيات التي خربها الوهابيون سنة ١٨٠٠

ثم أخذ بنو نبهان يظلمون ويعسفون ، فلم يطق الأهالى حكمهم ، وانتخبوا إماماً من قبيلة الازد ، وانتهى ملك بنى نبهان في نحو ٨٣٩ للهجرة . وكان بنو نبهان قد ضبطوا أملاكاً كثيرة فاستردها عمر بن الخطاب من سلالة شدهان بن الصلت ، وما لم يوجد له أصحاب كأن يكون هؤلاء انقرضوا أو غابوا غيبة منقطعة رده الى بيت المال .

ولم يتأثر الملك وترسخ قواعده الا في أيام ناصر بن مرشد بن سلطان سنة ١٠٣٤ هجرية وفق (١٦٢٤ م) وهو من نبعة عربية صريحة ومن أقدم الارومات الاباضية .

ولما تسلم ناصر الزمام كانت بعض المدن المحصنة في الداخل بأيدي زعماء يلقبون أنفسهم ملوكاً ، وكانت مدن أخرى يحكم فيها مجالس شيوخ من أهلها . ولم يكن بقي من الثغور البحرية بأيدي الأهالى سوى فرضة « لاوة » والباقي كان دخل في حكم أمير هرمز (يقول ياقوت الجوى ان هرمز بضم الهاء وسكون الراء وضم الميم وبعدها زاي مدينة في أقصى مكران قريبة من ساحل بحر الهند . ولكن المعروف أن هرمز هي جزيرة صغيرة عند مدخل خليج فارس ، ورد في قاموس موريس قال ان دورها لا يتجاوز عشرين كيلو متراً ، وهي صخرة جرداء . قال : وكان فيها أمراء مسلمون قد حصنوها في سنة ١٥١١ هاجها

البرتغاليون بقيادة البوقرق Albuguerke واستولوا عليها ، وصارت من محاطهم المشهورة الى سنة ١٦٢٢ إذ استرجعها الشاه عباس وهدمها ولم يبق فيها الا قرية حقيرة) .

وكان في ذلك الوقت قد استأسد البرتغال ، وظهروا على بلادالشرق وصارت لأساطيلهم الكلمة العليا ، كما هي كلمة الانكليز اليوم . واشتهر منهم قائد اسمه الفونس البوقرق ، ولد في الهندرة بقرب اشبونة ، وتربى في بلاط الملك الفونس الخامس ، وسنة ١٥٠٣ كانت أولى غزواته الى الهند بثلاث بوارج حربية ، وما زال يغزو ويفتح حتى لقب بحاكم الهند واستولى على « غوا » واجتاح ساحل المليبار ، واحتل مدينة « ملقا » مفتاح الهند الصينية وهو الذى منع الترك العثمانيين من الدخول فى الهند ، ودمر عدن مرتين بالمدافع ، واستولى على جزيرة هرمز ، وبنى فى جزيرة سقطرى حصناً ليحافظ على أهلها الذين كانوا نصارى نساطرة ، وعقد محالفة مع ملك الحبشة ، وحدثته نفسه بالاتفاق معه بتحويل مجرى النيل من السودان الى البحر الأحمر ليتمكن من تدمير القطر المصرى . وبالجملة فكان فى وقته الآفة العظمى على الاسلام ، ومن جملة مغازيه سواحل عمان ، التى كان البرتغاليون فتحوا قسماً من مراسيها ، وتركوا القسم الآخر بأيدى الأهالى مكتفين منهم باتاوة يؤدونها اليهم سنوياً أما المدن البحرية التى كان فيها حاميات برتغالية عظيمة ، فكانت مسقط ، وصحار ، والمطرح ، وقريات . فسار ناشد بن مرشد أولاً الى لاوة ، فاستعان أهلها بالبرتغال ، فأمدوهم بالمال والسلاح ، ولكن ناصرأ تغلب عليهم وفتح البلدة ، ثم هاجم أنفـس البرتغال فى المدن التى كانوا فيها ، فانتزعها من أيديهم ، وبقيت حامياتهم ممتنعة بقلاعها ، ليس لها أيد تمتد الى السلاط ، ثم طرد البرتغاليين من رأس الخيمة . وكان البرتغاليون قد اضطروا أخيراً لأجل الاستقرار فى قلعة مسقط ، أن يؤدوا للامام ناصر جزية ، فبعد أن أدوها مدة امتنعوا من أداءها ، فزحف اليهم ودارت رحى الحرب ، فاتتهت بصاح ثقيل الشروط على البرتغاليين ، إذ انتزع من أيديهم عدة حصون ، فى المطرح والقلاع الخارجية فى مسقط ، وأجبرهم على عدم التعرض لحرية التجارة وعلى أداء الجزية . ثم افتتح ناصر مدينتى صور وقريات ، وطرده الأجانب منها . وبالاختصار فانه منذ بداية ملكه وضع نصب عينه تطهير بلاده من المعرة الأجنبية ، وفهم فى ذلك الوقت ما لم يفهمه كثيرون من ملوك الشرق وأمراء الاسلام ، من كون الأجنبى الأوروبى اذا أنشب برائته فى محل لم ينته منه الا باستخلاص

جميع البلاد ، واستعباد من فيها من العباد ، وأن الأولى بالعاقل توقي هذا المرض قبل أن يفتش ، والمبادرة الى اقتلعه بكل الوسائل قبل أن يستفحل .

وجرت ثورات في زمان ناصر ، فاطفاً نائرتها بحزمه وحكمته ، ومات سنة ١٠٥٩ وفق ١٦٤٩ وقد أكل عملاً عظيماً . وبنى مملكة عمان على بوانيه ، وحررها من السلطة الأجنبية ، الا بقايا بقلعتي مسقط والمطرح وحصن صحار . واستمر ملكه ٢٦ سنة وكان حازماً جاداً ، شاعراً في الأمور ، فاضلاً تقياً ، أحبه الأهالي لمناقبه هذه ، وان كانوا قد عابوا شحه وكزازة يده .

وخلفه ابن عمه سلطان بن سيف ، فنسج على طرازه في الاشتغال بإجلاء البقية الباقية من حامية البرتغال في سواحل عمان . وكانت له عيون على هؤلاء ، يفضون اليه بعوراتهم فأرسل اليه سراً رجل هندي كان وكيلاً لأمورهم ، وموضع ثقتهم ، أنهم في غفلة لاهون اذا طرقتهم العدو أخذهم من حيث لا يشعرون . فكبسهم وهم على تلك الحالة واستخلص منهم الحصنين الخارجين ، فبرز أحد البرتغاليين المدعو « كابر يتا » ومعه شردمة من أصحابه وحاول استرداد المدينة فاستؤصلوا جميعاً . وكانت بارجتان للبرتغال في البحر تمدان الحامية فقصدهما العرب بالقوارب وذبحوا من فيهما . ولم يكتف سلطان بالفتك بالبرتغال في بلاده حتى قصدهم الى بلاد الهند فأرسل بوارج حربية تغزوهم في ساحل كوجرات في الهند ، فاجتاحت عساكره « ديو » و « دامان » ، وقفلت بغنائم وافرة ، وآنية كثيرة ، مما كان في الكنائس . ووجه سلطان بن سيف معظم همته الى ترويج التجارة ، وعمارة أسواق الأخذ والعتاء ، واستجلاب الأسلحة والخيول لتقوية جيشه ، وأنفق في هذا السبيل أموالاً طائلة وجدد قلعة نزوة ، وترك آثاراً صالحة ، وتوفي في سنة ١٠٧٩ هجرية الموافقة سنة ١٦٦٨ وكان من أفراد الملوك في حسن سيرته في الرعية ، وسداد آرائه ، وصواب أحكامه ، وتواف الناس بداراً الى مرضيه ، وتسارعت الى امتثال أوامره واجتتاب نواهي ، وكل ذلك بسائق المحبة والأمانة ، وجاذب الاخلاص والمناحمة ، إذ كان يخرج كسائر الناس ، ويفشى الجماع ، ويختلط بالعامية ، وهو بدون خفي ولا قرين ، بل خفارته من ثقته بمحبة قومه وصحابته من معرفتهم لفضله واجلالهم لقدره . وخلفه ابنه « بلعرب » وكان هذا محباً للعلم والعلماء . بنى مدرسة في بيرين ، وجعل اقامته بها . وثار على بلعرب أخوه سيف ، وعضد هؤلاء الفقهاء ،

فانقسمت الرعية الى قسمين متساويين أولاً ، ثم جعل حزب سيف يتقوى على حزب بلعرب وكان هذا سخياً جواداً مواسياً للفقراء ، فلقبوه « أبا العرب » لكرمه فلما طالت الفتنة بينه وبين أخيه واضطرب حبله صاروا يلقبونه « بلا العرب » .

والناس من يلق خيراً قائلون له مايشتهى ولائم المخطئ الهبل

وأخيراً استصفي سيف أكثر البلاد ، ولم يبق لبلعرب الا بيرين . وبينما أخوه يحاصره إذ قبض ، فاستراح واستراح بموته أخوه ، وصفا الوقت لسيف ، وتوفرت همته كاسلافه على مكافحة البرتغاليين ، فأجلاهم عن مومبازة Mombasa (نغر من نغور شرقي افريقية واقع في جزيرة من سواحل زنجبار تملكها البرتغال ، ثم سلطان مسقط ، ثم سلطان زنجبار ، ثم سنة ١٨٩٠ استولى عليها الانكليز الذين هدموا بنيان هذه المملكة وورثوا أنقاضها وصارت مومبازة عاصمة لمستعمرة شرقي افريقية الانكليزية وفيها ٣٠ ألفاً من السكان) وعن جزيرة بمبا (هذه أيضاً جزيرة من سواحل زنجبار سكانها ٤٠ ألفاً صارت أيضاً تحت الحماية الانكليزية مثل زنجبار) وغيرهما من الجزر والسواحل التي كان العمانيون قد أحرزوها في شرقي افريقية ، فجاء البرتغاليون وأخذوها من أيديهم في نحو سنة ١٥٠٣ فكان استردادها على يد سيف بن سلطان في سنة ١٦٩٤ .

واجتاح أسطول سيف جزيرة سلزيت ، بقرب بمباى الهند ، وكذلك مدينتي بارسالور ، وماغالور ، ولم يقدر راجا كارناتيك أن يذب عنهما .

وكان سيف حكماً ، مدبراً ، محباً للعمران ، بصيراً بالاصلاح ، فانتظم بإدارته جمهور المرافق والمصالح ، والتأم بنفاذه شمل المعاون والمناجح ، وهو الذي شرع في بلاده بحفر قني المياه تحت الأرض لأجل الري (نظير القني التي بغوطة الشام منها في قصبه دومة ومنها ما بين الاشرقية وصحنايا ، ويوجد قناة من هذا القبيل طولها أكثر من ساعتين تفيض على جيروود في القلعون الأدنى وغير ذلك) ويسمون ذلك في بلاد عمان فلجاً . (الفلج بضم الفاء واللام في اللغة الساقية التي تجرى الى البستان ، والفلج بفتحيتين النهر الصغير) ففاضت الخيرات بهذه القني ، وترقت الزراعة ترقياً بالغاً ، واعتنى سيف أشد الاعتناء بغراس النخيل ، واستجلب أصنافه ، وبلغ في ذلك غاية الاعترام وأمد الالتزام ، وصار ذا ثروة طائلة ، ونعمة لا تحصى ، قيل انه كان يملك ثلث نخيل عمان ، وكانت حاضرة سيف مدينة

رستاق ، وتوفى بها في ٣ رمضان سنة ١١٢٣ (١٧١١) وخلفه ابنه سلطان بن سيف وهو المعروف بسلطان الثاني .

فنقل هذا كرسى المملكة الى مدينة الحزم ، وانتزع البحرين من أيدي العجم الذين كانوا استولوا عليها سنة ١٦٢٢ منذ طرد الشاه عباس البرتغاليين من هرمز . ومات سلطان تاركا ولدين : أحدهما اسمه سيف ، وكان يافعا ، والآخر مهنا وكان بالغاً رشيداً . فانقسم الناس في أمر الخلف ، اذ بعضهم أرادوا انتخاب سيف اماماً ، والآخرون اعترضوا من جهة حدائثه سنة وأرادوا مهناً ، وكان هوى العامة مع سيف ، وهوى الخاصة والعلماء مع مهنا . وكان لذلك العهد رجل عظيم الوجاهة ، نافذ القول ، اسمه الشيخ عدى بن سليمان ، تدخل في الأمر اتقاء الفتنة ، فنادى بسيف اماماً ، ولكنه كان يلفظ ذلك بفتح الهمزة فيقول « امام » بدلا من « إمام » وسكن بذلك العامة ريثما انقضت تلك الهيعة ، فأدخلوا مهنا الى القلعة سراً ، وجعلوه إماما (١١٣١ - ١٧١٨) وكان مهنا على جانب عظيم من الخندق والمهارة ، وطول الباع في الادارة ، فانه بدأ بجعل مسقط مرفأ حراً ، بأن أسقط فيها المكوس وسائر ما يؤخذ على البضائع ، بما زاد حركة الأخذ والعطاء ، وبشر بمستقبل عظيم الا أنه افلتت بأمر لم يكن يظن له ، وهو أن أهالي رستاق ونفس عشيرته قاموا يطلبون الامامة ليعروب بن بلعرب ، ورفعوا لواء العصيان ، وزحفوا إلى مسقط ودخلوها ، وقعد الآخرون عن نصرة مهنا ، فاعتصم بقلعة رستاق ، ثم داخلوه في الأمان ، فأمن للشأرين وسلمهم القلعة ، فلما حصل في أيديهم باقوه وقتلوه (١١٣٣) وتولى الأمر يعروب في البداية باسم سيف الصغير ، ثم جعل نفسه اماما أصيلاً ، وأخذ حكماً شرعياً من قاضي ذلك الوقت ، بآنه أحرز الامامة بحق ، وانه ليس بعاص ولا خارج ولا غاصب حتى ان الأموال التي اغتصبها هي حل له بحجة أن التوبة تكفر عن الذنب .

ولكن كان لسيف أشياع وأنصار لم يخضعوا لهذه الثورة ، فقام بلعرب بن ناصر باهر سيف الصغير وزحف الى رستاق ، ففر يعروب الى تروة ، وقتل القاضي عدى بن سليمان وطيف بجثته في الأسواق . وتفاقت الفتنة ، فتوسط أناس في الأمر ، فتحول يعروب الى بيرين وأقام بقلعتها . وأقيم سيف بن سلطان إماما بكفالة عمه بلعرب ، وقيل انه لما جاءت وفود القبائل تهنيء الامام الجديد بالملك ، أساء بلعرب هذا مقابلة محمد بن ناصر زعيم بني غافر

وقيل انه توعدده ، فانصرف محمد هذا مغاضبا ، وداخل يعروب في الاتفاق على سيف وعمه بلعرب . ثم انتقض محمد بن ناصر على الامام ظاهراً ، واستولى على رستاق ، ثم أسر الامام واستبقاه رهنا في قبضته . وما زال أمره يقوى حتى دخلت جيع عمان في حوزته ، ما عدا مسقط وقلعة برقة . ومات في أثناء ذلك يعروب الذي كان محمد بن ناصر يقاتل باسمه ، فلم يبق رئيس في وجه محمد بن ناصر سوى خلف بن مبارك المسمى « بالقصير » بالثديد . فوَقعت الحرب بينهما والتجأ القصير الى حصن برقة ، فحاصره ابن ناصر فلم يقدر على أخذه ولست بقين من محرم سنة ١١٣٧ أو ٢ اكتوبر سنة ١٧٢٤ نودي بمحمد بن ناصر إماما في نزوة . ولكن خلفا بن مبارك بقي يجاذبه الجبل . وزحف الى رستاق ، والنخل ، وصحار ، واستولى عليها ، فصمد اليه محمد بن ناصر برجاله ، واشتعلت الحرب ، فوقع خلف قتيلا في حصار صحار . وبينما محمد بن ناصر قد ظن أن الأمر قد اتسق له ، وانه تخلص من عدوه ، اذ أصابته رصاصة من جهة القلعة أودت بحياته . فرجع الناس الى سيف بن سلطان وابعوه في أول رمضان سنة ١١٤٠ أو ٢ ابريل سنة ١٧٢٨ وكان سيف بلغ سن الرشد وحكم القاضى بصحة إمامته شرعا .

وما مضى على ذلك مدة حتى قام اهالى الزاهرة وابعوا ابن عمه بلعرب بن جبر ، فاشتعلت الحرب بينهما فلم يقدر سيف ان ينال من ابن عمه وطرا ، فالتجأ الى نادرشاه صاحب فارس . وكان سيف بن سلطان محتاجا الى مشير يعتمد على رأيه فآشار الناس عليه برجل من التجار كان معروفا بالاستقامة اسمه احمد بن سعيد من عترة يقال لها البوسعيد . فتولى هذا مدينة صحار واحسن ادارتها وجد الناس طريقته ، ففسده سيف على المنزلة التي نالها في قلوب الاهالى ، و اراد ان يقبض عليه الا ان الناس أصلحوا بينهما . ولكن سيفا بقي يخشى ابن عمه بلعرب بن جبر ، فاستمد العجم كما تقدم فانجدوه بجيش تقدم الى الزاهرة ومعهم سيف بجماعته فتغلبوا على بلعرب واخشوا في القتل والنكابة ، حتى رجع سيف الى نفسه ، ورأى عداوة ابن عمه اهون من صداقة العجم ، فانحاش الى مسقط . ولبت العجم يجتاحون البلاد ويوقعون بالاهالى ، حتى قام بنو غافر على بلعرب واجبروه على التخلي عن دعواه في الامارة ، ومبايعة سيف بدون منازعة . فلما اتفقت كلمة العمانيين ثقلت الحملة على الاعاجم ، فجلوا عن البلاد ، الا الجيش الذى كان امام صحار ،

فانه بقي يحاصرها . وفي هاتيك الاثناء قام رجل في مدينة النخل اسمه سلطان ابن مرشد من بني يعروبة ، فادعى الامامة (١١٥٠ - ١٧٣٨) وانزع ا كثر البلاد من يد سيف بن سلطان ومن جلتها مسقط . فاستغاث سيف بالعجم ثاني مرة ووعدهم بالتخلي لهم عن صحار ان ضمنوا له الاستقلال بالامامة ، فصرح العجم جيشا الى مسقط استولى على البلد والحصون ، ولكنهم لم يسلموها الى سيف فذهب هذا الى بلدة الحزم ، ومات بعد ذلك بقليل . اما سلطان بن مرشد فات على اثر جراحة اصابته في قتال العجم على صحار فلم يبق من الزعماء الا أحمد بن سعيد الذي كان له الفضل الاكبر في امتناع صحار ، واجلاء الايرانيين عنها . ثم ان احمد هذا لم يكتف بتخلص صحار حتى استولى على برقة وحاصر مسقط ، فارسل الايرانيون ماجد بن سلطان من أبناء عم سيف الى الشاه ياتمسون منه الامر بتسليم حصون مسقط الى ماجد ، فاصدر الشاه الامر اللازم الى الحامية الفارسية بتسليم الحصون اليه ، فوقع الأمر باتفاق غريب في يد احمد بن سعيد فابلقه الى الحامية وخرج هؤلاء على أنهم سلموا الحصون الى احمد بن سعيد باسم ماجد ، والحقيقة ان احمد تسامها بالخديعة . وبعد ذلك صنع وليمة عظيمة للايرانيين في برقة ، كانت نهايتها أن الاهالي هجموا عليهم وذبحوهم ، ونجا فلهم بالسفن قاصدين ساحل فارس ، ولما كان ملاحه السفن هم من العرب ، احرقوا السفن لاهلاك الايرانيين الذين كانوا منهزمين بها الى بلادهم ، وقذفواهم أنفسهم في اليم ، ونجوا سباحة الى الشاطئ ومهارة العمانيين في السباحة واقتحام البحر معلومة . وهكذا انتهت غزاة الفرس ببلاد عمان .

ولما تم استخلاص بلاد عمان على يد أحمد بن سعيد ، اجتمع الرؤساء والاعيان ببلدة رستاق ونصبوه اماماً (١١٥٤ - ١٧٤١) فاحسن التدبير ، وسن للملكة قوانين مالية ، وتجارية واستدق لنفسه امارة الجيش البري ، وعهد الى رجل من خواصه بنظر الاسطول ، ونظم جيشاً دائماً . وبينما هو دائب في تدبير الامور اذ برز بلعرب بن حير ودعا لنفسه ، واعصوب حوله كثير من الناس ، فاراد أحمد بن سعيد ان يمتحن قومه ويعلم هل يثبتون معه الى الآخر ام لا ، فتخبأ في كسر بيت عند احدى للعجائر ، وشاع خبر موته فاشتد عزم بلعرب ، وذهب بعشرين الف مقاتل يحاصر نزوة ، فبرز أحمد بن سعيد من مخبأه فوجد قومه على ولائهم له ، فزحف الى بلعرب بجيش كثيف وتغلب عليه وسقط بلعرب قتيلاً في

المعركة . وسنة ١١٧٠ وفق ١٧٥٦ استولى العجم على البصرة ، فذهب أحد بعشر سفان حربية تجر عددا كبيرا من القوارب حمل عليها ١٠ آلاف مقاتل ، وهزم الإيرانيين ، ونصر الدولة العثمانية نصر مؤزرا ، فسرت الدولة منه واجرت عليه راتباً سنوياً كان لا يزال جارياً على أئمة مسقط الى أواخر القرن التاسع عشر .

وكان من جملة اسطوله طراد اسمه « الرحاني » هو الذي كسر سلسلة الحديد التي وضعها الإيرانيون في شط العرب ، لمنع اسطول عمان من الدخول الى البصرة ، فارسله أحد ابن سعيد الى مانغالور في جنوبي الهند سائلا عن السبب في حجز مؤونة الارز التي كانت ترد عمان كل سنة ، فاستقبل تيبو صاحب عامل السلطان اعلم في مملكة غرناتيك ، مندوب امام عمان بكل حفاوة ، واخبره ان السبب في ذلك هو من متلصصة البحر الذين بساحل المالابار ، فقصدهم الطراد الى ديارهم وقتل زعيمهم .

وكانت بلاد الزاهرة بمكانها من داخلية البلاد لم تخضع تماماً لأحد بن سعيد . وكان علو الكلمة فيها لبني غافر ، فنار فيها أحدهم ناصر بن محمد واشتعلت الحرب بينه وبين أحد ، فساق عليه هذا عساكره من العمانيين ومن المرتزقة من البلوجيين والمكرانيين . فانكسروا وأخيراً تصالح الفريقان على أن تبقى بلاد الزاهرة في يد بني غافر ، ويعترفوا بسيادة اسمية للامام أحد بن سعيد . وكانت قلعتا النخل والحزم لاتزالان في أيدي بني يعروبة ، فحاول انتزاعهما من أيديهم بدون جدوى . ولم يكف كون بني غافر مستقلين بالزاهرة وبني يعروبة مالسين بعض الحصون حتى ثار على أحد ولده سيف وسلطان ، واعتصما بقلعة برقة ، ثم تماديا في الجرأة حتى أخذوا الحصون التي بظاهر مسقط ، ولكن أحد أخذ هذه المسئلة بالتؤدة وانتهت بينه وبين بنيه بسلام . ومات هو في ذي القعدة سنة ١١٨٨ أو يناير سنة ١٧٧٥ وقد ملك مدة ٣٤ سنة كريتا . وكان خلاص عمان من غارة العجم على يده . وكانت الامامة في عمان من صدر الاسلام تقع دائماً بالانتخاب على حسب مذهب الحوارج . والحقيقة ان الانتخاب هو مذهب السنة والجماعة أيضاً ، ولكن تحول الأمر بعد أن صار ملكاً عضواً الى مبايعة الوارث الذي يكون عينه المورث من قبل . وقد تحول ذلك في عمان أيضاً ، فبعد أحد بن سعيد تولى ابنه سعيد . وكان بعض الأهالي فضلوا ابنه هلالاً لفضل ذكائه وحذقه ، الا انه كان كفيفاً ، فأقرت أكثر البلاد بامامة سعيد ، ثم

غاض الأهل من سعيد كثرة مآقار من الاحتكارات ، وأحدث من البدع ، فأرادوا خلعه ونصب أخيه قيس الذي كان في صحار ، فلم يتسق لهم ذلك . الا ان حامداً بن سعيد استولى على مسقط وعجز أبوه عنه ، وبقى إماماً بالاسم فقط فجعل حامد مسقط هي العاصمة بدلاً عن رستاق ، وعظمت مسقط في أيامه ، وتولى الأمر عشر سنوات ومات في ١٨ رجب سنة ١٢٠٦ وكان وقع خلاف بينه وبين عمه سيف ، وفصل سيف هذا الى مستعمرات عمان في شرقي افريقية ، فتبعه حامد الى هناك ثم مات سيف وعقب ذلك موت حامد وكان سعيد الامام الاصلى لا يزال حياً ، فاسترجع الأمر الى يده بوفاة ابنه المتغلب عليه . ولكن لم يطل الزمن حتى وقعت الفتنة بين اخوته وأولاده ، وصار بعضهم يقاتل بعضاً . وانتزع سلطان أخوه مدينة برقة من يد علي بن هلال . ثم أخذ مسقط واستبد بالأمور . وسنة ١٧٩٨ في ١٢ أغسطس انعقدت معاهدة بين شركة الهند الانكليزية وبين سلطان علي بعض مسائل تجارية ، وتبعها معاهدة أخرى بينه وبين الانكليز أمضاها جون مالكولم سنة ١٨٠٠ بموجبها يحق لانكليزة اقامة معتمد بمسقط .

وأخذ سلطان يمد سلطته في البلاد ، فانتزع من يد أخيه سعيد نغرى السويق والمصنع وافتتح جزائر قشم ، وهورمز ، والبحرين في الخليج الفارسي ، وجعل ابنه سالماً أميراً عليها . الا ان قبيلة العتوب التي كانت تلي أمور تلك الجزر عادت فاسترجعتها وطردت ابنه منها ، وفي هاتيك الايام غزا الوهابيون عمان ، واجتبوا الزكاة من الزاهرة ومن الجهات الشمالية ، ووقع الخوف من تقدمهم الى الجنوب ، وكان سلطان قد حج تلك السنة فلما عاد من الحج وجد البلاد في المقيم المقعد ، فعقد مجمعاً قرر فيه النفير العام لصد الوهابيين ، فلما بلغ ذلك قائد الحملة الوهابية عجل بالانصراف ، وظهر ان الأمر استوسق لسلطان . الا انه بقضاء الله وقدره هلك بعد ذلك بقليل في قصة عجيبة ، وهي انه زار البصرة وبينما هو قافل منها ، نزل من سفينته في مرسى لنجة وركب قارباً فأصداً بندر عباس ، وكان الوقت ليلاً ، فالتقاء ثلاثة قوارب عليها رجال من بني الشويحي سكان رأس موسى نديم ، فأرادوا أن يقبضوا عليه ، فتقاتلوا ثم أرجأوا البراز الى الصباح ، فبينما كان سلطان بشدة بأسه وابسال نفسه على وشك الظفر بهم ، إذ فاته أحدهم بضرته كانت القاضية ، وذلك في ١٣ شعبان سنة ١٢١٩ الموافق ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٤ .

وكان سعيد لا يزال في رستاق على امامته الاسمية ، وكانت البلاد أشبه بالفوضى ، والامراء كانوا متعددين ، عدا كون الوهابيين لهم جند في « البريمي » . وكان سالم وسعيد ولدا سلطان يجتهدان في لم الشعث ، وجع الكلمة ، فأجعا أخيراً على استصراخ فتح على شاه صاحب فارس ، وتعهدا له بتقديم المؤونة اللازمة للتجريدة التي يريدانها ، فأدھما بثلاثة آلاف فارس ، ركبت البحر من بندر عباس الى برقة ، وهناك وقع القتال بينها وبين الوهابيين فلم يفز أحد بالآخر .

وكان قرصان رأس الخيمة الذين يقال لهم القواسم ، قد تبادوا في العيث ، وطالما اكتسحوا سواحل الهند ، فأرسلت شركة الهند الانجليزية أسطولاً دمر وكرهم في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٠٩ وسافت رئيسهم حسناً بن رجة أسيراً . وبعد ذلك استعان السيد سعيد بالانكليز على أخذ قلعة شيناس التي كانت تصدر منها الغارات على بلاد صحار ، فتمكن سعيد من القلعة في ١ يناير ١٨١١ وقفل الانكليز الى الهند بعد أن نصحوا سعيداً بالقبول الى بلاده ، فلم يتقبل النصيحة فوافاه مطلق المطيري قائد الوهابيين ، فهزمه وألزمه دفع الزكاة السنوية لابن سعود .

ولما خضد ابراهيم باشا ابن محمد علي صاحب مصر شوكة الوهابية ، وأخذ الدرعية سنة ١٨١٨ تخلص سيد عمان من حكم هؤلاء ، وغزا جزيرة البحرين فصدته العتوب أصحابها عنها وقتلوا أخاه وجعاً من أصحابه . وكان قرصان رأس الخيمة عادوا الى عيهم ، فغزاهم الجنرال كير Keir الانكليزي من بمباي بقوة ، وظاهره عليهم السيد سعيد ، فأنتهى الأمر بعقد معاهدة بين الانكليز وحليفهم سيد عمان من جهة وبين زعماء رأس الخيمة وجوارها من جهة أخرى . وسار السيد وحلفاؤه الانكليز لقتال عرب جعلان الذين كانوا نبذوا مذهب الاباضية وتوهبوا ، وكان مع السيد ثمانية مدافع والفا بدوى ، فكسرهم الجعلانيون وجرح السيد سعيد في يده (٩ نوفمبر ١٨٢٠) .

وفي ذلك الوقت توفي الامام سعيد بن أحمد بن سعيد الذي هو آخر من لقب من رؤساء عمان بالامام ، وهو عم سعيد الذي اصطلحوا على تلقيبه بالسيد وأخيه السيد سلطان الذي كان عضداً لأخيه السيد سعيد . ولم يحدث موت الامام سعيد فراغاً كبيراً لأن أمر عمان كان بيد سعيد منذ مدة طويلة . وتوفرت همته على توسيع مستعمرات عمان في

سواحل افريقية الشرقية فذهب الى جزيرة زنزيبار ، وغزا جزيرة مومباسه بقوة عظيمة ، وما زال يشدد عليها القتال حتى افتتحها ، وعالج فتوح بلاد أخرى فاغتم فرصة غيابه الطويل بعض أعدائه مثل القواسم ، فرفعوا رؤوسهم واستولوا على بعض المراسي ، وأخذ جود بن عزان صحار وهلال بن محمد بلدة السويق . واضطر السيد سعيد الى استمداد حلفائه الانكليز فأرسلوا أسطولاً الى سواحل عمان لتمكين نفوذ حليفهم ، ووقع القتال بين السيد سعيد وابن عزان على صحار ، واستعان سعيد على هذا بالوهابيين ، وبعد وقائع يطول شرحها دخل الانكليز بينهما ، وأخذوا من ابن عزان عهداً بأنه لا يأتي بحركة . ولكن لم تمض مدة حتى أراد هذا أن يوسع اطماعه فنصح الانكليز بالسكون . وكان ابن عزان قد اعتزل الامر وترك صحار في يد ابنه سيف ، فامتنع هذا من ايتائه جانباً من الخراج لمعيشته واشتد الجفاء بينهما الى أن ائتمر ابن عزان وبعض خواصه بابنه سيف وقتلوه ، فأرسل السيد سعيد الى ابنه تويني بان يقبض على جود بن عزان ويطلق به في السجن ، فقبض عليه واعتقله في قلعة حيث مات . وخلف جود على صحار أخوه قيس ، وأراد أن يرفع رأسه فزحفت اليه جوع سعيد ، واضطرته الى الطاعة ، وانما عوضه السيد سعيد من صحار بولاية رستاق على أن ينصح في الخدمة ويقلع عن الجبر والخزواته وكان ذلك سنة ١٨٥٢ .

وعام ١٨٥٤ احتل العجم بندر عباس ومواقع أخر من ساحل كرمان ، واجلوا العمانيين عنها بعد أن شغلها هؤلاء نحو مائة سنة بحجة انهم مستأجرون أرضها ، واحيانا بقولهم انهم ينوبون فيها عن شاه العجم . فشق ذلك على السيد سعيد وأرسل قوة تحت قيادة ابنه تويني استردت بندر عباس وغيرها ، فأرسل ناصر الدين شاه قوة كثيفة من الداخل ومنع الانكليز السيد سعيداً من امرار جنود في البحر من ساحل العرب الى ساحل العجم بحجة انهم لا يسمحون بحركات حربية في ذلك البحر . فسقط في يد السيد سعيد واضطر الى مصالحة العجم في شعبان سنة ١٢٧٢ أو ابريل سنة ١٨٥٦ وترك لهم جزيرتي هورمز وقشم وغيرهما . ومات سعيد بعد ذلك على ظهر بارجة كانت ذاهبة به الى زنزيبار (١٩ اكتوبر ١٨٥٦) وقد خلف ١٥ ولداً ، فدعا ماجد الرابع من أولاده لنفسه ، وكان تويني بكر أولاده والى عمان في حياة أبيه ، فوقع الخلاف بينهما وانتهى أول مرة بان يبقى

ماجد سلطاناً على زنجبار ويؤدى اتاوة سنوية الى أخيه توينى فى مسقط. ثم قطع ماجد دفع الاتاوة فجهز توينى اسطولاً عظيماً لغزو زنجبار، وبلغ الخبر الحكومة الانجليزية فتوسطت فى الأمر وحكمت اللورد كانينغ Canning والى الهند الاعظم فيما شجر بين الاخوين، فتقرر انه لما كان الانتخاب هو أساس السلطة عند الاباضية فان أهالى زنجبار قد اختاروا ماجداً اماماً لهم، كما ان أهالى عمان قد اختاروا توينى، فيكون كل منهما سلطاناً فى محله. ويؤدى ماجد اتاوة سنوية الى أخيه بدلاً من حقوق عمان على زنجبار وافريقية الشرقية (سنة ١٨٦٢) وهكذا انحسرت هذه الفتنة. ولكن جدت فتنة ثانية، وثالثة، وصار توينى على حد قول القائل: كلما داويت جرحاً سال جرح. فان تركى ولد سعيد الثالث كان والياً فى صحار، فثار باخيه توينى وألجىء هذا الى استصراخ الوهابيين لقمع ثورته. وسنة ١٨٦٤ تنزى عزان بن قيس على توينى واعلن الطاعة لابن سعود، ولما كان الانكايذ يعلمون ان الوهابية دعوة وان الدعوات الدينية لا سيما الى مبادئ السلف من الاسلام يخشى منها، اهتموا بصددهم عن بلاد عمان، وامتدوا توينى بالمدافع والاعتاد، وأشاروا الى رؤساء البلاد بان ينضوا تحت لواء السيد توينى، على شريطة ان لا يسيروا برجالهم بحراً - قد سبق لانكلازة هذا المنع فى النزاع الذى وقع بين ناصر الدين شاه والسيد سعيد، فكان انكلازة لا تطيق ان ترى على ثبج ذلك البحر مقاتلاً واحداً ان لم يكن تحت رايتهما -

ثم ان توينى بن سعيد وجد مقتولاً، قيل اغتاله بعضهم وهو نائم يؤامرة ابنه سالم وجلس سالم مكان أبيه وتودد الى الانكايذ، واعترف هؤلاء به أميراً بحجة انه لم تثبت عليه تهمة قتل أبيه، وبأن أهالى البلاد قد بايعوه، فليس للغريب أن يدخل فيما لايعنيه. أما تركى أخو توينى فانه أخذ بمنأوة ابن أخيه، واستولى على صحار والمطرح، وكاد يدخل مسقط لولا كون الانكايذ أرسلوا بارجة حربية وقفته عند حده، ثم أخذوه الى الهند حيث أجرى عليه ابن أخيه رزقاً يقوم بأوده. ثم ثار السيد حامد بن سالم من أبناء عمومته، وبعد وقائع بينه وبين سالم جرى الصلح بينهما. ثم انتقض عزان بن قيس ودخل مسقط، ففرسالم منها والتمس من المعتمد البريطانى فى خليج العجم امداده ليعود الى كرسى حكمه، فأبى المعتمد المشار اليه اجابة طلبه، فحاول استرداد مركزه بقوته الخاصة، فلم يفلح وظهر

أن الانكليز قد خنلوه ورجحوا عليه تركي أختويني ، الذي كان مقبياً بالهند كما سبق ،
 فجاء من بمباى الى مسقط وتسلم زمام الامارة ، وطرده عزان بن قيس ، وكان الوهايون ردا
 له في حركته هذه واستوسقت له الأمور منذ سنة ١٨٧٤ وحصلت وقائع بينه وبين أهالى
 بلاده فتغلب على الثائرين بعضد انكثارة التي صارت هي ذات الحول والطول في القطر
 العماني . وسنة ١٨٨٨ خلفه ولده السيد فيصل بن تركي ، وذلك بموافقة انكثارة التي أصبح
 أمير مسقط لا يصدر الا عن رأيها ، وهي منذ سنة ١٨٧٣ أخذت على نفسها دفع الاتاوة
 السنوية المفروضة على زنجبار لمسقط ، وصارت بمثابة الولي على هذه البلاد .

ولما كانت انكثارة منذ وضعت يدها على مصر طمعت في الاستيلاء على جزيرة
 العرب بأسرها ، وعملت لذلك برنامجاً خفياً منذ مدة مديدة ، تحقق منه قسم والقسم
 الثاني هي شارعة في تمهيد عقباته ، وكانت ترى أن أعظم عامل في استيلائها على مصر
 وعجز أهالى هذا القطر عن دفعها عنه بوجه من الوجوه ، هو فقدانهم للسلاح المادى الذي
 هو واسطة الدفاع الوحيدة ، فقد باشرت مشروع تقليم أظفار العرب ، وحظرت على تجارها
 بيع الأسلحة من أهالى اليمن ، مع كونهم يومئذ تابعين للدولة العثمانية ، وبديهي أن ذلك
 ليس لأجل تسهيل ادارة اليمن على الدولة العثمانية ، بل لأجل تسهيل استيلاء انكثارة على
 اليمن في أول فرصة تقع ، وحرمان قبائل اليمن من أسباب الدفاع عن حوضهم ، عند
 ما تريد العساكر الانكليزية أن توغل من عدن ولحج الى داخل اليمن . وقد أرادت أن
 تجرد من السلاح أيضا قبائل العراق التي كانت اطعمها تحوم حوله من قبل الحرب العامة
 بزمن طويل ، فكانت ترسل من قبلها من يبتاع البنادق من عرب العراق ، ويؤدى الى
 البدوى عن البندقية الواحدة ضعف ثمنها ، والبدو لا يعامون ما وراء الاكمة ، ولا يشعرون
 بما هو محبأ لهم وراء هذه المكاييد الخفية من الاثمار بكيانهم ، والعمل لنزع كل وسيلة لحفظ
 استقلالهم . وقد نبهنا الأمة العربية مراراً في مقالاتنا العديدة منذ بضع عشرة سنة الى
 السر الحقيقي في منع بيع السلاح من أهل اليمن ، وفي انتزاع البنادق الحديثة الطراز من
 أيدي عرب العراق بصورة الشراء . وكان يحول دون سماع النصيحة الجهل الفاشى ، والغفلة
 المطبقة من جهة ، وسعى اجراء الأجانب في البلاد العربية ، والضار بين على أوتار الانكليز
 ممن يدعون أنهم من مفكرى العرب في ترويج السياسة الأجنبية الاستعمارية من جهة

أخرى . ولقد كشفت نتيجة الحرب العامة حقائق تلك الدعاوى والحمد لله ، وفضحت أسرار تلك السياسة الخفية ، وعرف كل من عنده حصة من عقل مرمرى الدول المستعمرة من تجريد العرب من السلاح ، وكونها إنما تريد منذ زمن طويل أن تطبق في جزيرة العرب سياستها في مصر ، وان لم يتسق لها أن تؤسس لخفر السواحل العربية ادارة كادارة خفر السواحل المصرية ، وتفحش في مجازاة من توجد عنده بندقية ممنوعة ، وتجزل مكافأة كل من يخبر بوجود بندقية ممنوعة عند جاره ، فانها كانت ولا تزال تنوى الوصول الى هذه الغاية من سبيل أخرى ، الى أن يتيسر لها فيما بعد تطويق جزيرة العرب كلها بادارة خفر فعليه ، تمنع وصول أى سلاح الى العرب ولو من طريق الجو . ولقد كان من جملة مواد معاهدات الحلفاء فيما بينهم بعد الحرب العامة ، منع تسريب السلاح ، وحظر بيع السلاح الى كل مملكة من ممالك الأعداء بتاتاً ، ولما رأوا أنه قد يعترض عليهم بأن مملكة الحجاز مثلاً من جملة ممالك الحلفاء ، وان مملكة العجم ، ومملكة عمان ، ومملكة أفغانستان مثلاً ، وان لم تكن من ممالك الحلفاء فليست من ممالك الأعداء ، والحال أن الدول الاستعمارية تعد جميع البلاد الاسلامية بدون استثناء ممالك أعداء ثم انه يجوز أن هذه الممالك تسعى في شراء أسلحة من أوروبا فيصعب فيما بعد ابتلاعها أو كسرها ، فقد احتاط الحلفاء لذلك بوضع مادة في تلك المعاهدة قيل فيها « ويمنع بيع الأسلحة أيضاً من الممالك التي مدنيته من الدرجة الثانية » فدخلت في حكم هذا المنع جميع الممالك الاسلامية الباقية على الاستقلال تماماً أو نوعاً . والمقصود من ذلك غير خاف ولا على الطفل الصغير وهو ان البلاد الاسلامية صديقة للحلفاء أو عدوة لهم محكوم عليها عندهم بالسقوط تحت نير الاستعمار فلا يجوز لها أن تسليح . وأما مملكة عمان فقبل الحرب العامة بستين حاولت انكلترا تجريد أهلها من سلاحهم حتى تريح بالها من جهتهم ، وتأمن كل انتفاض فيما لوزادت بسط سلطتها عليهم ، فأوعزت الى تيمور أمير مسقط بجمع الأسلحة من أيدي الأهالي ، وأصرت عليه بذلك . فلما حاول هذا الأمر انتفض عليه الأهالي ، وبيعوا غيره وامتدت الثورة وعظم الخطب ، وزحف الثوار الى مسقط وحصروا الأمير ، وكادوا يوقعون به لولا أن وردته نجدة انكليزية حفظت له حياته ، وصدت الأهالي عن مسقط ، ولم تنته هذه الفتنة التي استمرت نحو سنتين الا باقلاع الأمير عن فكرة جمع السلاح ، واقتناع انكلترا بان

سهمها في هذه القضية طائش عن المرمى ، وانها لاتقدر الا على منع دخول السلاح من طريق البحر ، فأما أخذ الأسلحة من أيدي العرب في أرضهم فليس من الأمانى الانكليزية التي يمكن تحقيقها .

هذه مملكة عمان التي كانت أقوى دولة بحرية في آسية ، لافي بلاد العرب وحدها والتي قرأت في بعض المؤلفات الأوربية انها منذ نحو مائة سنة كانت تملك ١٠٠ بارجة بحرية ، قد آل أمرها بتلاعب انكلترة بأموارها الى أن سقطت عن عجزها وعاد بدرها عرجوناً . وصارت امارة صغيرة لاتملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً ، ولا يقدر أميرها أن يأتي بأمرهما كان نافهاً الا اذا أشار به المعتمد البريطاني . فزف هذه الحقيقة الى أولئك البله الذين من أبناء جلدتنا لا يزالون يحلمون بأن انكلترة لا بد أن تؤسس لهم دولة عربية

وأما زنجبار والمستعمرات التي كانت لعمان في شرقي أفريقية ، فقد تقاسمتها انكلترة مع ألمانيا وايطالية ، ولم تبق لسلطان زنجبار على جزيرة زنزيبار سوى اسم السلطنة فقط . وهذه الجزيرة مساحتها ١٦٢٠ كيلو متراً مربعاً معدودة من أخصب البقاع ، وأكثرها حاصلات ، وفيها معامل السكر ، ومعاصر الزيت ، وأهلها ٢٠٠ ألف نسمة منهم عرب ومنهم من القوم الذين يقال لهم سواحلية ، ومن الواحاديمو أى أهل الجزيرة الأصليين ، ومن البانين أى الهنود الشماليين . وكانت زنزيبار مع جزائر Pemba ومافيه Mafia ولامو Lamou والسواحل الافريقية المقابلة لها مملكة عربية ، أسسها ملوك عمان سنة ١٨٥٦ منفصلة عن مسقط ، بعد أن كانت مستعمرات لعمان منذ قرون ، فوضعت أيديها الدول المستعمرة على هذه الجزر والسواحل ، ومن سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٨٩٣ تم التقسيم على أن يكون لانكلترة سلطنة زنزيبار التي هي عبارة عن جزيرتي زنزيبار ومبا وما يقابلهما من الساحل من « اوانغا » Auanga الى كيسمايو Kismayou .

وأن يكون لألمانية جزيرة « مافيه » والساحل الذي بين اومبه Oumba ورافومه Ravouma وأن يكون لايطالية بعض ثغور في السواحل .

وأهم هذه النقاط هي زنزيبار ، وفي الجزيرة مدينة باسم زنزيبار أيضاً أهلها . ألف نسمة وهي مدينة تجارية مهمة تقدر حركة صادراتها وواردها بنحو ٦٠ مليون فرنك وقد كان سلاطين عمان أسسوا فيها عمراناً وأثلوا مدينة وشادوا مدارس . وقرأت بعض

أسفار عربية مطبوعة بالمطبعة السلطانية في زنجبار .

وخاصة سلاطين زنجبار اسماً وفعلاً ، كان السيد برغش بن سعيد بن سلطان ، تولى الأمر في ٧ أكتوبر سنة ١٨٧٠ بعد وفاة أخيه ماجد ، وبقى في الملك الى أن توفي في ٧ مارس سنة ١٨٨٨ ، وكان برغش قد نازع أخاه ماجداً الملك وأخذه الانكليز الى بمباي حيث أقام سنتين ثم تصالح مع أخيه وعاد الى زنجبار . ولما مات ماجد خلفه على كرسي الامارة على شرط الاعتراف بحقوق بريطانيا العظمى أي ما ربهها الاستعمارية . وفي ٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٧٥ أجبرته انكلترة على امضاء معاهدة الغاء الرقيق في بلاده ، فأّمضها ثم دعاه الانكليز الى زيارة انكلترة فزارها ، وزار فرنسا والبرتغال . وفي سنة ١٨٨٥ ألفت ألمانيا دلوها في الدلاء وأرادت تأسيس مستعمرات لها ، فوجهت نظرها على تلك السواحل التي كانت تخص السلطان برغش بن سعيد ، ووضعت يدها على جانب عظيم منها ، واستدعى برغش لنفسه السلطنة الاسمية . وقبل وفاته بقليل اختلف مع البرتغال على الحدود بين أراضيهم ومستعمرتهم الموزامبيق ، واستمر الخلاف الى ما بعد وفاته حتى جرى التحديد بين الامان من جهة والبرتغال من جهة أخرى . وفي آخر حياته ذهب الى وطنه الأصلي عمان لتبديل الهواء ثم عاد الى زنجبار ومات وخلفه أخوه خليفة .

وكان برغش متوقد الذهن ، عالي الهممة ، صعب المقادة ، أبقى النفس ، وكان من أشد الناس عداوة للاوربيين الذين كانت لاتخفى عليه مقاصدهم ، وكان واسع العلم بأطوارهم وأحوالهم . ومن بعده لم يبق للعرب من سلطنة في تلك الجزائر الخصبية ، والسواحل الطويلة العريضة الا بالاسم ، لأن الاورويين لاسيما الانكليز التزموا هدم أركان القوة العربية في تلك الديار ، حتى لايبقى لهم معارض ولا منازع في استعمارها ، وكما انهم أوهنوا الأصل الذي هو عمان ، فقد أسقطوا الفرع الذي هو زنجبار ، لأن كل دولة عربية عزيزة على جوانب الاوقيانوس الهندي هي قذى في أعينهم ، وخطر على الهند في نظرهم ، ويجدون انهم لايقدر ون أن يعلوا في تلك الديار الا بسقوط العرب على حد قول القائل :-

وكم قائل مالى رأيتك راجلاً فقلت له من أجل أنك فارس

وسياتي ذكر سواحل زنجبار ومستعمرة الشرق الافريقية التي كانت لالمانية ثم انتقلت الى يد انكلترة وجزائر القومور مما كان الحكم فيه كله للعرب فابتزته منهم الدول المستعمرة الأوربية .

البكطاشية

بكتاشية

البكطاشية أو البكطاشية^(١)، طريقة من الطرق الاسلامية ، تنسب الى أحد الأولياء المسمى « الحاج بكتاش ولى » ، الذى يقولون انه ولد « بنيسابور » وجاء الى الاناضول ، وهدى الانكشارية الى الاسلام ، فى زمان السلطان « أرخان » ، وكانت له كرامات وخوارق عظيمة ، وهو الذى أسس الطريقة المعروفة به . ولكن كثيراً من المحققين يرتابون بوجود الحاج بكتاش هذا ، ويقولون ان المؤسس الحقيقى لهذه الطريقة ، هو « باليم بابا » المتوفى سنة ٩٢٢ هجرية ، والذى يلقبه الدراويش البكطاشية بالقطب الثانى . ولقد ثبت وجود هذه الطريقة منذ أوائل القرن السادس عشر للمسيح فى الاناضول ، ثم انتشرت فى الروملى وأكثر من مال اليها أمة الأرنأوط ، حتى يقال ان أكثر هذه الأمة بكتاشيون . وان الفرقة المعروفة بالاناضول ، وبلاد الأكراد بقزل باش أو على الهى ، هى على عقائد تشابه مذهب البكطاشية وان كان هؤلاء جميعاً يدعون كونهم من أهل السنة والجماعة ، فالحقيقة ليست كذلك ، وهى انهم من غلاة الشيعة ، يعتقدون بامامة الاثنى عشر من آل البيت ، ويعظمون كثيراً جعفر الصادق ، ويقولون بالأربعة عشر ولداً معصوماً ، الذين أكثرهم ماتوا شهداء من أولاد على . ويزورون قبور الأولياء ، ويصلون ويدعون عندها . ويزعم مؤرخو الافرنج انه لا بد أن يكون البكطاشيون فى الأصل نصارى ، بحجة ان عندهم التثليث ، وذلك بقولهم : « الله : محمد . على : » وان عندهم نوعاً من الاعتراف بالذنوب يذهبون الى مشايخهم ويسردون لديهم ذنوبهم ، والشيوخ يحل من الذنوب نظير القسيس عند النصارى . وهم يبيحون الخمر ، والنساء لايسدالن النقاب ، وكثير من البكطاشية يتبتلون ويعيشون مجردين من الأزواج ، مما جيعه يدل على كون أصل هذه الطريقة غير اسلامي وأكثرت المتبتلين منهم كانوا ينقطعون فى تكية « قيزل دلى سلطان » بقرب « ديموطوقه »

(١) راجع صفحة ٢٥٥ من هذا الجزء

من ولاية أدرنه . ويعتقد البكطاشية بالعدد لاسيما عدد أربعة ، ويقرأون كتاب فضل الحروفى المسمى « بالجويدان » ويقولون بالتناسخ ، والشائع عنهم انهم لا يقومون بفرائض الدين الاسلامى ، فلا صلاة . ولا زكاة ، ولا صوم ، ولا حج ، وانهم وقد رفعوا هذه التكاليف ، بحجة انها تجب على المبتدئ لا المنتهى ، وانه بعد الوصول يصبح الانسان فى حل منها .

والشيخ الأكبر للطريقة يقيم بتكية « يراوى » أى بيت القطب ، فى المحل الذى يقال له « حاجى بكطاش » بين « قير شهر » و « قيصرية » . وليست هذه الرئاسة اريثة فى الأصل ، وانما هى منذ ١٥٠ سنة فى بيت واحد تنتقل من الأب الى الابن ، وللبكطاشية المتبتلين شيخ كبير أيضا ، مركزه التكية المسماة « مجرد بابا سى » أى « أبو المتبتلين » . ويسمى شيخ كل تكية « بابا » ، والدرويش المقيم بالتكية « مريدا » والعامى الذى له تعلق بالطريقة « منتسباً » .

وكان للبكطاشية شأن كبير ، وكانوا على رباعهم فى أيام « وجاق الانكشارية » الذين كان البكطاشية لهم شيوخاً ومرشدين ، حتى أصبح اسم « بكطاشية » يطلق على الانكشارية كلهم . وكان فى ثكنة الأورطة الرابعة والتسعين ، وكيل مقيم للطريقة معروف رسماً ، لذلك كان كلما نار الانكشارية يشترك مريدو الطريقة البكطاشية معهم فى الثورة الى سنة ١٨٢٦ ، إذ استأصل السلطان محمود شأفة الانكشارية ، فانقضت صواعق نقمته على جماعة الحاج بكطاش ، فتهدم قسم كبير من تكاياهم ، لاسيما ماجاور منها الاستانة وقتل بعض رؤسائهم ومريديهم ومنهم شيخ تكية « مردفان كوى » .

ثم استأنفت الطريقة البكطاشية بعض ما كان لها من الشأن والحوال ، ولها من التكايا فى الاناضول غير مركز القطب الأكبر ، وغير تكية المتبتلين تكية « عثمانجق » فى الشمال . وتكية بقرب ضريح الشيخ بطال ، من جوار اسكيشهر ، ويقال ان لها تكية بجبل المقطم بمصر .

البابية

بَابُ الْبَابِيَّةِ

البابية ، نسبة الى «الباب»^(١) ، طرية شهيرة ، ظهرت في بلاد العجم ، بل هي من أشهر الفرق الاسلامية التي ظهرت في العصر الأخير ، وتميزت بكون أتباعها لم ينحصروا في الشرق والعالم الاسلامى ، بل وجد منهم في أوروبا وأميركا أيضا . ولفظة الباب متداولة كثيراً عند الصوفية ، وعند بعض الفرق الباطنية ، يطلقونها على بعض أركان دعوتهم ، بمعنى أنهم هم واسطة الدخول ، وسبب الوصول ، من قبيل قوله ﷺ : « أنا مدينة العلم وعلى بابها . » والباب هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة ما يوجد في داخل البناء من البدائع والنفائس وحزرات الأنفس ، مما كان يبقى مجهولا عند الناظر الى خارج البيت لولا الباب فالباب عند المتصوفة وعند هذه النحل ، هو رمز الدخول ، والابتداء ، والواسطة والمحل ، والمعرفة ، وجميع أنواع المقاصد العالية ، وقد شاع استعمال لفظة الباب في هذه المقامات كلها عند جميع الأقسام الذين يعتمدون على اللغة العربية ، وامتد الى غيرهم . « فالباب العالى » هو مكان الوزارة ، لأنها هي الواسطة بين الراعى والرعية . والكتاب المؤلف يقسمونه الى أبواب ، فيقولون الباب الأول ، والباب الثانى ، والباب العاشر ، والباب العشرون ، اذ بهذه الابواب يطلع القارئ على ما يتضمنه الكتاب . ويقولون أبواب الرزق ، بمعنى وسائله ، وأبواب الخير بمعنى الطرق المؤدية اليه ، وقولهم : « يامفتح الابواب » يعنون به ياميسر الاسباب . والفقراء يقفون عند أبواب الكبار وأبواب الملوك ، والسائل الذى يستجدى ويتسكى يقال انه « على باب الله » وقد أخذ الطليان هذه الجملة من العربية ففي لغتهم « Ala Baballa » بمعنى السائل . والحاصل ان الباب من أكثر الالفاظ العربية تداولاً ، وقد كنى بها الكثيرون عن الوسيلة والواسطة ، ولكن لم يشهرها أحد بمثل ما شهرها به السيد على محمد الشيرازى ، الذى سمي نفسه « الباب » ، بمعنى الوسيلة الموصلة الى معرفة الحقيقة الالهية ، وتبعه اناس تلقبوا من أجله بالبابية .

ولد السيد المشار اليه في غرة محرم الحرام سنة ١٢٣٦ أو ٢٦ مارس سنة ١٨٢١ وتوفى والده وهو صغير، فكفله خاله ورباه الى أن بلغ الرشد، فشرع يشتغل بتجارة والده، ولكنه منذ نعومة أظفاره كان مغرماً بالبحث في الامور الاعتقادية، نازعاً الى النسك، حتى قيل انه جل نفسه على التقشف والتعبد الشاق، بحيث كان يقعد الساعات الطوال في عين الشمس حاسراً عن رأسه. ثم زار كربلاء، ولقي هناك بعض رجال الطريقة الشيخية، فتلقى عنهم، وسمعت انه أخذ عن رجل يقال له الشيخ البحريني. ولما عاد الى شيراز شرع يقرأ في المساجد، ويحمل في الجدال على رجال الدين، فغال كثير من الى مذهبه، وخطبوا في حبله، ثم ذهب الى الحج من طريق أبو شير، فسقط، فالتجأ الى البحر الاحمر. وأثناء رحلته الى الحج الف بعض رسائل يقال ان اتباعه يعتقدون ما فيها حياً أو الهاماً. ومن جلة ما نسب اليه انه قال ان علياً هو قبل نبيل. ونبيل هو عندهم اسم محمد ﷺ وقد أطلعني بعض أدباء العجم على مؤلف بالعربية لا أعلم درجة مطابقته لتعاليم البابية، لاننا نتعودنا من أهل الفرق الكبرى شرقاً أو غرباً وفي الاسلام أوفى النصرانية، انه كلما خرج عليهم خارج رموه بكل عضيهة. يقول في ذلك المؤلف ان الانبياء أولى العزم كلما انقضت شريعة واحد منهم قامت قيامته، وانتهى دوره، وجاء دور الآخر وهكذا جاء آدم، وبعده نوح، وبعده نوح ابراهيم، وبعده ابراهيم موسى، وبعده موسى عيسى، وبعده عيسى محمد (صلوات الله عليه وعليهم جميعاً) وبعده محمد الباب مؤسس هذه النحلة المسماة بالبابية. فما انتشرت تعاليم الباب حتى ثار الناس وكثرت القالة، وكثر الامر الحكومة الفارسية، فأرسلت رجلاً يقال له يحيى الدارابي للتحقيق عن هذه العقيدة الجديدة، فذكروا أنه هو نفسه اعتقد بها وتحول بابياً، ثم ظهر وباء الريح الاصفر في شيراز فبرح أكثر الاهالي المدينة، وتحول الباب الى اصفهان، وكان حاكمها رجلاً يقال له «معتمد الدولة» فألقى الله في قلبه الرحمة على الباب فدفن عنه الاذى بقدر استطاعته، الا أنه توفي بعد ذلك بقليل، فصدر الامر خلفه بالقبض على الباب واعتقاله، فأرسلوه الى قلعة «ماكو» باذر بيجان.

وكان رجل يسمى حسين البشروي، قد تبع مذهب الباب، وأخذ يثبت له الدعوة، فكان ممن قبلوا هذه الدعوة في طهران الاخوان «ميرزا يحيى نوري» الملقب بعد ذلك

« بصبح أزل » و « ميرزا حسين على نوري » الملقب فيما بعد بهاء الله ، وهما فرعان من دوحه كريمة وكذلك خاتون اسمها « زرین تاج » ولقبها « قره العين » كريمة الملا صالح الباراكاني من قزوین كانت بارعة في الجمال متناهية في الذكاء ، اتبعت المذهب البابي على أثر مراسلات سبقت لها مع الباب . وأخذ يستفحل شأن الباب شيئاً فشيئاً حتى أجمع اتباعه على عقد اجتماع للتشاور في بدخت من خراسان ، وعقب هذا الاجتماع أجمعت الحكومة الفارسية على استئصال شأفتهم ، فاجتمعوا وقرروا المدافعة عن أنفسهم بالسلاح ، واعتصم الملا حسين البشروي في مقام الشيخ الطبرزي فحاصره جند الحكومة ، وهلك في اثناء الحصار واشتد الضيق بالبايية المحصورين ، وعرضهم الجوع بنابه ، فطلبوا الامان ، ولكن لم يكادوا ينتهون من الاتفاق على التسليم ، حتى غدر بهم الجند فدبحوهم على بكرة أبيهم (١٢٦٥ هجرية) . وثاروا في بلدة يقال لها زنجان ، واستولوا على قلعة على مردن خان ، وجعلوا لانفسهم متاريس ، ولكنهم اخيراً استسلموا الى جند الدولة . وذهب يحيى الدارابي الى ناريز ، وكان ، اهلهما ناقلين على الدولة أموراً فانضموا اليه واعتصموا بالقلعة . ووصل بعض البايين الى شاه العجم قاصدا قتله ، وكان الله اراد موته على يد واحد منهم لكن في اجل آخر اما في المرة الاولى فانه أصيب بجرح ، وجاءه اجله من الموت ، وعند ذلك صحت عزيمته على النقمة ، واشتغل الامر ، وكان ذلك في ٢٨ شوال سنة ١٢٦٨ الموافق ١٦ أغسطس ١٨٥٢ ، فتعقبوا البايين في كل سهل وجبل وجدوا في أثرهم الى كل وبر ومدبر ، واخرجوا صبح ازل واخاه بهاء الله الى بغداد ، ثم ارسلا الى ادرنة بالاتفاق بين الدولتين العثمانية والفارسية ثم وقع الخلف بين الاخوين ، فارسلت الدولة بهاء الله الى قلعة عكا ، وصبح ازل الى جزيرة قبرص . وقيل بل قبض على بهاء الله ثم أطلق سبيله فاستأذن في الذهاب الى كربلاء واقام اولاً ببغداد . وقبضت الحكومة الفارسية على الملا كاظم بتهمة انه من البايية وقتل في اصفهان ، وقتل ايضاً ميرزا أشرف الآبادي ، وذلك في عهد متأخر (سنة ١٨٨٨) وقتل عدد كبير سوى هؤلاء ، وانهمز كثيرون من البايين الى عشق آباد في الاراضي الروسية ، وبنوا هناك جامعاً خاصاً بهم واما قره العين فانهم اخرجوها لعهد الباب نفسه الى بغداد ، وانزلوها في بيت الآلوسي مفتي بغداد ، فاقامت مدة طويلة عنده ، وكان من يطعنون في البايية يشنعونها ، ويقولون فيها ، الاقويل ، كما هي العادة في حق من فارق الجماعة ، الا أن الآلوسي قال فيما بلغني :

«مأهبت عليها من سوء» وكانت تناظره وتباحثه وتدافع عن مذهبها ، حتى قال الى المرحوم عباس افندي الملقب بعبد البهاء ، ابن بهاء الله امام البابية ، وابن امامها ، ان قررة العين بما أوتيت من الذكاء والفضل ، وسرعة الخاطر ، كانت تعجز المفتي الأوسى على غزارة علمه ، وزخور بحر فضله . وانشدني الامير فرمان فرما عبد الحسين ابن عم شاه مظفر الدين وصهره والذي تولى الصدارة في فارس ، ايباناً بديعة من نظم قررة العين على اسلوب غريب ومأخذ طريف ، البيت منها ما سدها فارسى ولجته عربية ، وهي ابيات في مناجاة الحضرة الالهية مطلعها عربي كله ثم تشفعه بابيات محبوكة من اللغتين ، اما المطلع فهو : -

لمحات وجهك اشرفت وجمال طلعتك اعلى

وكان الامير فرمان فرما يحفظ شعر قررة العين ولده الامير فيروز خان ، (الذي صار ناظراً للخارجية بعد الحرب العامة) ويستنشده اياه وهو بعد في عهد الطلب عند ما قدم فرمان فرما الى سورية واصطاف بجبل لبنان منذ نحو خمس وعشرين سنة ، واتيح لنا يومئذ حظ معرفته وصحبته .

أما الباب فانه لما تعاضمت فتنة البابية وسالت فيها الدماء جىء به من قلعة ماكو الى تبريز وقررت الحكومة قتله مع صاحبه محمد على اليزدى ، فرفعوه واوثقوا بجبل ثم رموه بالرصاص ، فاصابت الرصاصة نفس الجبل فانقطع ، وسقط الباب حياً ، فعد ذلك اتباعه من كراماته ، ثم علق ثانية ونفذ فيه أمر الله ، وطرحت تجاليد في حفرة ، فجاء اتباعه واخذوا جسده الى طهران ، حيث أبقى مخبأ على ما يقال تسعاً وعشرين سنة ، وبعد ذلك دفن بفارس ، ، وقيل ان بهاء الله بعث فأتوه بالجثة الى عكا ، حيث دفنها هناك وكان قتل الباب في ٢٧ شعبان سنة ١٢٦٦ وفق ٨ تموز سنة ١٨٥٠

أما من جهة تعاليم البابية فقد اختلفت الأقوال كثيراً ، وطعن فيها اناس كثيرون ، من جلتهم السيد جمال الدين الافغانى . ولعل وجه الطعن فيها هو بروزها بشكل شريعة جديدة ، حال كون الشرائع كلها قد ختمت بالرسالة المحمدية . فاما اذا تلقاها الانسان على شكل وصايا وعزائم ، كما هو الشأن في الطرق الصوفية المتعددة ، فانه يجد فيها كثيراً من الآداب السامية ، والمبادئ المعقولة . وعلى كل حال فانا لا نتعرض لهذا الموضوع بجرح ولا تعديل ، اذ كان ما قرأناه في باب البابية نقلاً عما حرره في هذا الباب بعض المؤرخين نأثره

كما وجدناه ، تاركين عهده على رواته . قال المسيو هوارت Huart المستشرق الفرنسي المشهور ، في فصل له على البايية ، في الانسيكلو بديية الاسلامية الفرنسية ما يأتي : « ان الباب تحت اسم اصلاح في الاسلام وضع ديانة جديدة ذات عقائد ومبادئ ، ورشحها لهيئة اجتماعية جديدة . فالله واحد ، وعلى محمد الباب هو المرآة التي ينعكس بها النور الالهي ، ويمكن كلاً ان يشاهده بها . قال الباب : « يذني ان تجعلوا من انفسكم ومن اعمالكم مرأى حتى لا تروا في هذه المرأى سوى الشمس التي تحبونها » . هكذا ورد في كتابه « البيان العربي » . ثم ان الله خلق العالم بسبع صفات تسمى « احرف الحق » وهي القدر والقضاء ، والارادة ، والمشية ، والاذن ، والاجل ، والكتاب . وحساب الجمل دور عظيم ، وعدد ١٩ هو عدد مقدس ، اذ تجده حاصلًا من كلمة « واحد » وكلمة « وجود » . وبحسب ما ورد في بيان الباب تنقسم السنة الى ١٩ شهراً كل شهر منها ١٩ يوماً . ويجب أن تكون ادارة امور الفرقة بيد جمعية مؤلفة من ١٩ شخصاً ، والى هذه الجمعية تدفع سنوياً ضريبة مقدارها خمس الاموال ، هذا اذا لم يطرأ على رأس المال نقص تلك السنة . وواجب على المؤمن ان يؤدي هذه الضريبة ، الا انه لا يحق للسلطة الدينية ولا للسلطة الدنيوية ان تجبره على دفعها بالقوة . وجميع اصناف العقوبات ممنوعة الا الغرامة والحيولة بين الرجل والمرأة فترة من الزمن . والتجارة حرة ، والعقود في التجارة مرعية ، ودفع فائدة على البضائع التي تباع الى اجل معين مباح . ثم ان الزواج من بعد سن الحادية عشرة أمر مفروض (كان يمكن الظن أن الناقل ذكر سن الحادية عشر سهواً لأنه باكر جداً ولكنه ذكر ذلك بالحروف لا بالارقام و اشار الى وروده في الصفحة ١٨٧ من بيان « الباب » والله أعلم) والطلاق مكروه (وهذا من السنة : ما من حلال أشد كرهاً عند الله من الطلاق) ويعطى للزوجين مهلة سنة حتى يتصالحا . والزوجان اللذان تفارقا يمكنهما أن يستأنفا زوجيتهما بعد شهر من الطلاق وذلك الى حد ١٩ مرة . والارامل من الرجال والنساء عليهم ان يتزوجوا بعد الترميل بمدة مضروبة للرجال ٩٠ يوماً وللنساء ٩٥ يوماً والا فالغرامة . ولا يجوز ضرب الصبي في الكتاب قبل سن الخامسة ، واما من بعد هذه السن فيجوز ضربه على شرط أن لا يتجاوز ذلك خمس ضربات ، وان يوضع عطاء على محل الضرب . والادب من الوصايا الملزمة عند البايية . ويسوغ لبس الخلى والجواهر ولو تجاوز

ذلك ما حدده الشرع . ويجب كل سنة صيام شهر واحد ١٩ يوماً من مشرق الشمس الى مغربها . والتكليف يقع من سن ١١ الى سن ٤٢ سنة . والوضوء مستحب وليس بفرض . ولا بد من وجود جام للاغتسال في كل حارة . ويجوز رؤية جميع النساء بدون نقاب ، والكلام معهن بدون حرج ، الا انه لا بد من الحشمة والاقتصاد في الكلام معهن ، ويستحب أن لا يزيد كلام الرجل مع المرأة الغريبة على ٢٨ كلمة . ويجب أن يزار البيت الذي ولد فيه الباب ويبني هناك مسجد ، وكذلك البيت الذي اعتقل فيه وبيوت الكبار من اصحابه . ولا يستحب السفر الا في تجارة ، ولا ركوب البحر الا في حج أو اتجار ، ولا تلزم صلاة الجماعة الا على الجنائز ، ولكن الوعظ في الجوامع مندوب . ولا يوجد رجس بعد الايمان بل كل من اتبع هذا المذهب فقد تطهر بمجرد اتباعه اياه ، وكل ما تحوزه يده صار طاهراً واما الماء فهو طاهر ومطهر . ثم يجب على البابي ان يقرأ كل يوم ١٩ آية من بيان « الباب » ، ويذكر اسم الله ٣٦١ مرة . ويدفن الاموات في قبور من البلور أو من حجارة منحوتة ومصقولة . ويوضع في يد الميت اليمنى خاتم منقوش عليه « لكيلا يستوحش الموتى في قبورهم » ولا يجوز لاحد ان يعتدى على احد ولا ان يكسر خاطر احد . واذا خاطبك احد أو كاتبك فلا بد لك من أن تجاوبه . واذا استودعك احد كتاباً لترسله أو توصله فعليك بتأدية هذه الامانة . وان الاشربة المتخمرة والمسكرات غير جائزة . وكما مضت ١٩ يوماً فلا بد للمؤمن من دعوة ١٩ رجلاً الى طعام أو شراب ، ولو لم يكن سوى الماء القراح . ولا يجوز الاستعطاء ولا اعطاء السائل ، بل التصدق على السائل اتم . اما تقسيم تركة الميت فيؤخذ منها من رأس العرمة نفقات الجنائز ، ثم يأخذ الاولاد تسعة انصبة والمرأة ثمانية والاب ٧ والام ٦ والاخ ٥ والاخت ٤ والمعلم ٣ ولا يرث وارث غير هؤلاء .

ولعل محمد الباب عدة كتب منها « البيان » هذا بالعربي والفارسي ، وكتاب « بين الحرمين » و « تفسير سورة يوسف » انتهى .

هذا تعريب لكلام المسيو هوارت الذي يقول انه اخذه من بيان الباب مشيراً في كل وصية من هذه الوصايا الى الصفحة التي قرأها فيها .

ثم ترجم المسيو هوارت نفسه بهاء الله ميرزا حسين على نوري في حرف ب ه من

دائرة المعارف المذكورة فقال : -

« انه ولد في نور من بلاد المازندران في ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٧ ، ولما بلغ الثلاثين من العمر اتبع طريقة الباب ، وكان أخوه لأمه ميرزا يحيى الملقب بصبح ازل قد أخذ بهذه العقيدة من قبل . ولم يشاهد بهاء الله الباب بذاته لكنه أحبه بالغيب وصار أعظم مردييه بل سبق الجميع في هذه العقيدة ، وشحط الاولين والآخرين في هذه الطريقة الجديدة ، حتى صار عند جمهور البائية هو خليفة الباب ، والمصلى بعد الامام في المحراب . وفي سنة ١٨٥٢ أبعدهت الحكومة الفارسية الى بغداد على أثر محاولة أحد البايين قتل الشاه وتعاظم الفتنة ، فأقام بنواحي السليمانية معتزلاً معتكفاً مشيراً الى أنه هو الرجل الذي بشر بمجيئه الباب في قوله « من يظهره الله » ووضع هناك قواعد الدعوة التي قصد جعلها ديانة عامة . ثم نقل الى أدرنة سنة ١٨٦٤ ، ثم الى قلعة عكا في شهر أغسطس سنة ١٨٦٨ حيث أدركته المنية في ٢٩ مايو (ايار) سنة ١٨٩٢ ، تاركا خلافته الروحية الى ولده الاكبر عباس افندي الملقب عبد البهاء .

«وأما عقيدته فقاومة بأن لا يؤذى الانسان أحداً ، وأن يحب الخلق بعضهم بعضاً ، ويتحملاوا الظلم بدون مقابلته بالمثل ، ولا يشتغلوا الا بالخير ، وأن يوطئوا ا كنفهم ويعنوا بأمر المرضى . هذه هي مبادئ البهاء وهي كما ترى صدى النصرانية . والغاية من هذه الحياة هي السلام العام بواسطة هذا المذهب المجرد من الرهبانية والشعائر (التي يقال لها عند النصارى الطقوس) بل كل مدينة يلزم أن تؤسس لها معهداً للاجتماع تجلس فيه لجنة مديرة مؤلفة من تسعة أعضاء يقال لها « بيت العدل » ويكون دخل هذا البيت من التراكات التي لا يوجد لها وارث ، ومن متحصل الغرامات ، ورسم ١٩ في المائة على رأس المال ، يؤدي مرة واحدة لا غير . وممنوع في مذهبه التقشف والتبتل ، لان الله خلق الانسان وأحل له الطيبات من الرزق . وللبهاء تآليف أهمها « الكتاب الاقدس » (طبع في بمباي و بطرسبرغ) وكتاب « الايقان » (ترجمه دريفوس وحيب الله الشيرازي في باريز سنة ١٩٠٤) ، وطرزات كلمات فردوسية واشراقات وتجليات (ترجمت في كتاب قواعد البهائية سنة ١٩٠٦) « وكلمات مكنون » (مطبوع بباريز سنة ١٩٠٥) و « دروس عكا » التي جمعها مادام كليفور د بارناي Mm.Cliford Barney و « النور الابهي » (مطبوع

بلندرة سنة ١٩٠٨) ترجمه عن الاصل الفارسى المسيو دريفوس
وأما كلمات البهاء الأخيرة فقد نشرها تومانسكى فى بطرسبرج سنة ١٨٩٢ . ولدريفيوس
المذكور كتاب على البهائية وتاريخها وأثرها الاجتماعى وقد ذكرها براون Eda.G.Brawne
فى كتابه : « سنة بين العجم » . انتهى

هذا ما نقله المستشرق هوارت عن البايية والبهائية أثرناه كما هو وعربناه بدون
زيادة ولا نقصان ، والعهدة فى كل ذلك عليه وعلى من نقل عنهم .
وبما لا جدال فيه أن البهاء وأولاده بمقامهم هذه المدة الطويلة بعكا أصبحوا
بأشخاصهم معروفين لدى أهالى بلادنا المعرفة التامة . بحيث صفا جوهرهم عن أن
تعتوره الجهالة ، وامتنعت حقيقتهم عن أن تتلاعب بها حصائد اللسنة . فاما البهاء فقد
أجمع أهل عكا على أنه كان يقضى وقته معتزلا معتكفا ، وانه ما اطلع له أحد على سوء ،
ولا مظنة نقد ، ولا مدعاة شبهة فى أحواله الشخصية كلها . وقيل انه عرضت خصومة بين
ولده عباس أفندى وبعض التمولين على حدود أرض فوصلت الى المرافعة فكتب البهاء
الى ولده : « يا عباس أنتنازعون وترافعون على حفنة تراب ؟ » فترك عباس الدعوى
من فوره .

وأما أولاده فكانوا أربعة السادة عباس ، ومحمد على ، وضياء ، وبديع الله ، وقد
اعتبط منهم ضياء شابا وفى عام ١٩٢٢ انتقل الى الدار الآخرة عبد البهاء عباس ،
وقد ذرف على الثمانين . وكان آية من آيات الله بما جمع الله فيه معانى النبالة ، ومنازع
الاصالة والمناقب العديدة ، التى قل أن ينال منها أحد مناله ، أو يبلغ فيها كماله ، من كرم
عريض وخلق سجيح ، وشغف بالخير ، ولوع باسداء المعروف ، واغاثة الملهوف ، وتعاهد
المساكين بالرغد بدون ملل ، وقضاء حاجات القاصدين بدون برم ، هذا مع علو النفس ،
وشغوف الطبع ، ومضاء الهمة ، ونفاذ العزيمة ، وسرعة الخاطر وسداد المنطق ، وسعة العلم
ووفور الحكمة ، وبلاغة العبارة ، حتى كأن فصاحته صوب الصواب ، وأقواله فصل
الخطاب ، وكتابات البهائية الديباج المحبر ، وفصوله الوشى المنمنم ، يفيض بيانه جوامع كلم ، وتسيل
عارضته سيل عارض منسجم ، ويود اللبيب لو أقام العمر بمجلسه يجنى من زهر أدبه البارع
ويرد من منهل حكيمته الطيبة المشارع استولى من العقول على الامد الاقصى ، وأصبح فى

الاهليات المثل الأعلى ، وبلغ من قوة الحججة ، واصالة الرأي ، وبعد النظر ، الغاية التي تفتى دونها المنى حتى لو قال الانسان انه كان أعجوبة عصره ، ونادرة دهره ، لما كان مبالغا ولو حكم بأنه من الافئذ الذين فلما يدهم الدهر الا في الحقب الطوال ، لكان قوله سائغا ولقد كان يمكن أن يكون محيط فضله أوسع ، وأفق علمه أنأى ، لو عاش في احدى العواصم الكبر التي يتسع فيها المجال لمثله ، ويكون فيها المحيط على نسبة نباهة قدره ، وسراوة نبهه ولكن ضاق الميدان على الفارس ، وصغر الكرسي عن الجالس ، واعتاض من سعة المحيط وعظمة المقر ، بحسن أخلاق أهالي عكا وكرم طبائعهم وكونهم قدره وأهله قدرهم ، وعرفوا نبههم وأحلوهم المحل اللائق بهم ، فرفه بذلك عيشهم ، ووفرت حرمتهم وذهبت حرشة غربتهم ، ولانت خشونة نبوتهم ، ورافقهم الى مفاهم هذا نحو مائة وخسين شخصا من اتباع طريقته من الايرانيين ، ليس فيهم الا صاحب صنعة أو عمل ، وهم جميعاً قائمون على خدمة هذا البيت الكريم ، قد هجروا أوطانهم حبا بجواره . وكان عباس افندي يكنفهم بظله ويتعاهد جميعهم بفضله ، وكان أحسن الله منقلبه مستوفيا شروط الرئاسة ، ذا وقار في رسوخ الجبال ومهابة يقف عندها الرئبال ، وحشمة لا ترى الا في الملوك أوفى صناديد الرجال ، ومع هذا كله فكانت مجالس حكمته مطرزة باللطائف ، ومحاضر جده مهلهلة بالرفائق ، وكانت رسائله على كثرتها تتلى وتؤثر ، وتحفظ حفظ النفاس في الخزائن وتدخر ، وانتي لا حفظه كلمات من كتاب مداعبة بعث به الى أحد أصحابه من شعراء بيروت وهي « من سيدك في صيدا ، وحيفك في حيفا ، ونفحك في الصور ، ونفرك في الناقور » تعلم من هذه الكلمات المعدودة ملكته الأدبية ، وقدرته على التصرف بزمام العربية ، مع انها ليست لغته الأصلية . ولو وسع المكان لاوردنا له كثيراً من بدائع الترسل الدالة على تمام ملكته ، وسمو طبقته . وكانت له مع هذا العاجز مراسلات متصلة باتصال حبل المودة ، وعمران جانب الصداقة ، ومراراً قصدت عكا ولا غرض لي فيها سوى الاستمتاع بأدبه الغض والاعتراف من علمه الجهم ، وداورته مرة على الكلام في موضوع العقيدة البابية بدون أن أسأله عن ذلك رأساً ، بل كنت أجيء اليه من باب المعارض استطرافاً ، وأحاول أن أجهله على هذا البيان استطراداً ، فسألته عما اذا كان من الممكن تمثيل الصفات الهية في أحد البشر اشارة بدون تصريح ، الى ما يقال من كون الباب أو

البهاء هو مجلي الصفات الربانية على الأرض ، فأجانبى بأن الصفات معان ، والمعاني لاتتجسم ولا تتشخص ، وان المجردات لا تتجسد ، وأفاض في هذا الموضوع بالنفي وتبيين وجوه الاستحالة ، فأجبتة : « فلماذا يقال إذا ان بعض البشر يملكون الصفات الالهية على الأرض أو انهم مظهر الالهية في الخلق ؟ » فقال لى : « ليس الأمر كذلك ولكن الحديث يستفيض من القديم بقدر استعداده . » وكررها : « بقدر استعداده ، بقدر استعداده » ففهمت من هذا أن مقصودهم هو كون بعض النفوس هي مستعدة للكمال أكثر من سواها ، فهي تقتبس من النور القدسي بقدر صفاتها . وان هذا مبلغ عقيدتهم في الباب أو البهاء ، أو مبلغ عقيدة عباس افندى نفسه ، الذى كان فيلسوفاً متكلماً فلا يمكن أن تكون عقيدته عقيدة العوام من الباييين . واننى أتذكر أنه كان يشرح مرةً عقيدة القضاء والقدر فقلت له . « الا أن هناك من يقول في التعريف ما هو كذا وكذا » فقال « هؤلاء هم العوام » . قلت له : « كلا بل من العلماء من يقول هذا » . فقال : و « العلماء فيهم عوام أيضاً » .

ولسنا نعرف بالتدقيق عدد الفرقة البابية ، فمنهم من يقول انهم زهاء مائة ألف نسمة في العجم ، ومنهم من يقول بل ١٥٠ ألفاً . ويقال ان منهم باهند ، وبمصر ، بين الايرانيين المقيمين بهذه الحاضرة . ومنذ نحو ٢٠ سنة أخذنا نسمع أن هذا المذهب انتشر بأمريكا وأنما قد ترجت عقيدته الى الانكليزية ، وأخذ بها أناس كثيرون . وان من جملة دعاة هذا المذهب رجلاً مسيحياً من أدباء لبنان من قرية بجمدون . وقيل ان هؤلاء الذين اتبعوا الطريقة البابية بأمريكا كانوا يرسلون دائماً عبد البهاء عباس افندى ، ويستفتونه في المسائل ، ويستوضحون رأيه في المشكلات الدينية ، ومنهم من جاء من أميركا حاجاً اليه ليفوز برؤيته . ومما نعلمه أن عباس افندى بعد إعلان الدستور العثماني وانطلاق حرية أن يذهب أين شاء ، سافر الى أميركا ، وتعاهد المردين الذين له هناك . وبعد أن أقام بها مدة يخطب ويعظ ويث الدعوة ، جاء الى أوروبا وطاف على المردين الذين فيها ، ثم فقل الى عكا ، وبقى فيها الى أن لبي دعوة باريه في حيفا سنة ١٩٢٢ .

ولسنا نعلم عدد الباييين الذين بأميركا ، فيقال انهم صاروا بضعة عشر ألف نسمة . أما في أوروبا فانتى كنت سنة ١٩١٩ بمدينة برن كرسى حكومة سويسرة ، وأثناء ذلك انعقدت في هذه المدينة مؤتمرات اشتراكية وشعوبية ، على أثر الحرب ، ومن جللتها مجمع اسمه المؤتمر السلمى الشعوبى ، كنت ممن شهدته وخطب فيه مرتين ، وقد حضره أناس من

أمم مختلفة ، ومن جلتهم رجل الماني اسمه البروفسور يك ، كان يتردد كثيرا الى الاستانة أيام الحرب ، وكان يلزق بأمبراطور المانية ، وهو الذي أسس في الاستانة نادياً سموه « نادى الولاء التركي الالماني » ، فالاستاذ « يك » هذا قدم لى رجلاً ليست بطاقتة اسمه بين يدى هذه الساعة ، وانما أتذكر أنه فنصل حكومة نور ويح في شتوتغارت عاصمة ورتبرغ كما أن « يك » هو نفسه من هذه المدينة ، فعرفت من القنصل المذكور أنه رئيس الجماعة البائية في شتوتغارت ، وكلفنى فيما لو كتبت الى عبد البهاء أن أكتب اليه سلامه ، واستعلمت منه عن عدد الفرقة في بلادهم ، فزعم أنهم يناهزون أربعة آلاف نسمة ، وأن محل اجتماعهم هو في بيته وأن ميعاد اجتماعهم نهار الأحد كل أسبوع . وسألته عما اذا كان يوجد منهم في غير شتوتغارت من ألمانية ، فقال لى ربما وجد في غيرها شذاذ ، ولكن معظم الفرقة هو في شتوتغارت ، وعلمت منه أن عبد البهاء عباساً زارهم على أثر رجوعه من أميركا .

بقي ثمة شيء لو أهملناه لكان خلا بواجب المؤرخ ، وجديراً بأن ينسب الى الضلع ، وهو أنه بعد انتقال بهاء الله الى الدار الباقية ، وقع الخلاف بين أولاده عبد البهاء من جهة ، ومحمد على افندى ، وضياء افندى ، وبديع الله افندى ، من جهة ثانية . وهؤلاء الثلاثة هم أشقاء ، فاشتدت الشحناء وعجز الأحباء عن اصلاح ذات البين ، واتخذها من لا يتخلو منهم مكان من عقارب الشر ، ليحطبوا فيما بينهم بالفساد ، وكانت دعوى عبد البهاء أن اخوته نفسوا عليه الرئاسة وهو أحق بها وأولى ، ودعوى اخوته أنه خالف وصايا والدهم في كثير من الأمور . ولم يكن يتخلو عباس افندى لعظم أنفته ، وشفوف حسه ، من حفيفة طبع ، وسرعة انفعال ، تدهبان به الى حد الحدة ، وتنبوان به عن درجة الحلم ، كما أنما جاء ذلك عوذةً لمحاسنه ، وتميمة لتمام نبله ، فأبى في آخر الأمر قبول اخوته ، وتمكنت النفرة من قلبه ، لما كان صدر منهم بحقه ، وأصر على الجفاء ، حتى بعد أن سلموا له ، وما زال على الصرم والهجران الى أن توفاه باربه في السنة الماضية ولم يعقب ولداً ذكراً ، فيقال انه لم يستخلف أحداً من أخويه الباقين ، وانه أشف عليهما حفيدة من أولاد بنته فوقع الخلاف أيضاً بعد موته ، وانقسمت الفرقة البهائية الى قسمين : منهم من يتمسك بوصية عبا البهاء ، ومنهم من لا يرى له حقاً في ذلك ، ويوجب انتقال الزعامة الى أخيه السيد محمد على افندى ، الذي هو من الرشد . والعقل . والعلم . والفضل . وسعة الصدر . وطهارة الأخلاق . وجميع أدوات الرئاسة . بالمقام الذي يقربه كل من عرفه . والذي لا يدانيه فيه أحد من البهائية فيما نعلم .

المبادئ الاشتراكية في الاسلام

للشيخ

في الشريعة الاسلامية مبادئ اشتراكية ، عظيمة^(١) ، متينة ، تفرق عن المبادئ الاشتراكية المعروفة في أوروبا . بكون المبادئ الاشتراكية الاسلامية أوثق ، وأمن ، وأجدر بأن يلتزم العمل بها المسلمون ، لانها في أوروبا أوضاع بشرية متفق عليها فيما بينهم . حال كونها في الاسلام أوامر إلهية لا محيد للسلم عن انفاذها اذا أراد أن يبقى مسلماً . فان الزكاة الشرعية هي من أركان الاسلام . وهي أخت الصلاة . وقد ورد ذكر الزكاة مقروناً بذكر الصلاة مراراً عديدة في القرآن الكريم كما لا يخفى . فلو قام المسلمون بإتاء الزكاة على الوجه الشرعي . وأدوا واحداً من عشرة من غلات أراضيهم . واثنين ونصفاً في المائة من نقودهم وواحداً من أربعين من حيواناتهم . أو كما هو مبسوط في كتب الفقه . لم يبق على وجه الأرض مسلم واحد يصح أن يسمى فقيراً . وكان الأولى بمن يدعون المسلمين الى الاشتراكية ويشنون هذه الروح فيما بينهم لتكون سبباً للبغض والشحناء واثارة حرب الطبقات . النائر عجاجها في أوروبا واميركا . أن يدعوهم الى إقامة هذا الركن العظيم من أركان دينهم الذي هو الزكاة . بشرط أن ينظموا جمعها وكيفية انفاقها . وتجعل لها الحكومات الاسلامية نظارة خاصة بها . وتحمل الأمة كافة عليها . فكان ينتفي بذلك كل فقر وكل خصاصة بين المسلمين . ويقل تفاوت الطبقات في درجات الرفاهية . وتتوفر وسائل التمرير . والمؤاساة والتعليم . وتشمل نعمهاؤها الجميع بدون منة غنى على فقير . ولا اعتداد كبير على صغير . لأنه كما لا يجوز لمسلم أن يمن ويعتد بكونه يصلح . لا يقدر أن يمن ويستطيع بكونه يزكي . ولكن تقول مع الأسف الشديد . ان المسلمين . الا النادر . أهملوا الزكاة . وتهاونوا بفرائض الدين ولذلك هم مهددون اليوم بخطر الاشتراكية . والشيعوية التي لا بد من أن تنفذ مبادئها

(١) راجع صفحة ٢٦٢ من هذا الجزء

اليهم مهما حاولوا وحاولت دول الاستعمار من مقاومة سريلانكا الى الشرق . واننا لانرى مجناً
تتقى به هيئة الاسلام الاجتماعية هذه الفتنة القادمة عليها لاريب فيها سوى القيام بفرض
الزكاة على الوجه الشرعى . على شريطة أن يكون لها وزارة أو ادارة فى كل حكومة
اسلامية . تنظم أمر استيفائها . وطريقة انفاقها . تنظيمًا بحيث اذا دخلت الاشتراكية على
بلاد الاسلام . دخلت بدون ضوضاء ولا شقاق . بل كانت سبباً لحياء فرض من أقدم فروض
الدين الا وهو الزكاة . ومما لا ينبغي أن ننساه ان الاشتراكية تتفق مع الاسلام فى نفي
الجنسية والقومية . إذ كما ان المسلم لا بد أن يعترف باخاء المسلم أياً كان أصله وفصله .
فلاشتركي لا بد أن يتضامن مع الاشتراكي فى أى وطن كان . ومن أى أمة كان . وان فضل
الوطنية على الاشتراكية . كان شأنه شأن المسلم الذى يفضل القومية على الاسلام .

الشهيد أنور باشا ورفقاؤه

للشركيين

انه لما أخلى الجيش البلغاري جبهة الحرب أوأخر صيف عام ١٩١٨ ، طلب البلغار الصلح من الحلفاء ، وتقدمت جيوش هؤلاء نحو البلقان بالغة خمسمائة ألف مقاتل ، سقط في يد دولة اوستريا - هنكاريأ فأسرعت أيضاً بطلب الصلح ، وبلغ ذلك تركيا ، خافت أن يتحول جانب من تلك الجيوش على الاستانة . فأخذ أنور باشا^(١) ناظر الحربية يحشد من بقي من العساكر للدفاع عن العاصمة ، واسترجع اليها أ كثر العسكر الذي كان أرسله الى القوقاس ، وفتح به باكو وبلاد اذربيجان وكان من رأيه المقاومة والبقاء بجانب المانية الى أن يتيسر صلح خفيف الوطأة على الأقل . ولكن انهيار الجبهة البلغارية ، ثم النمسية ، واستيلاء الوهل على القلوب واعتقاد معظم الاتراك بل معظم الناس يومئذ ان الصلح سينعقد على موجب برنامج ويلسون ، فتبقي كل أمة مالكة للبلاد التي أ كثر سكانها هم منها ، كل ذلك أحبط مساعي أنور باشا في الاستمرار على المقاومة ، ومال الرأي العام حتى من الاتحاديين أنفسهم الى طلب الهدنة . فاستعفت وزارة طلعت باشا ، وحلت محلها وزارة المشير احمد عزت باشا الارناؤطي ومعه رؤوف بك ناظراً للبحرية ، وفتحى بك ناظراً للداخلية ، والتمس الباب العالي الهدنة ، وكان السلطان وحيد الدين محمد السادس من قبل كارهاً للحرب راغباً في عقد الصلح ، فحمل حكومته على اتمام ذلك بأسرع ما يمكن . فأفندت الوزارة الجديدة وفداً فيه رؤوف بك الى جزيرة مودوروس أمام الدردنيل ، لعقد المتاركة مع الانكليز وانعقدت حينئذ على شرائط ظهرت ثقيلة جداً في أول الأمر ، لكنها صارت خفيفة جداً فيما بعد . عند مادخل الحلفاء الاستانة واحتلوا البلاد ، وصارت تركية تعد نفسها سعيدة فيما لو أقامت الحلفاء على شروط مودوروس بعينها . وظهر لها ان الحلفاء نسوا كل ما كانوا وعدوا به في أثناء الحرب وما تعهدوا به في نص المتاركة ، وان برنامج ويلسون صار نسياً منسياً وكان من جهة مآقرره الاتحاديون في أثناء الهدنة برأى رئيسهم طلعت باشا ، الغاء

(١) راجع صفحة ٢٦٦ من هذا الجزء

فرقة الاتحاد والترقي وتأليف حزب جديد اسمه « تجدد » ، وكان ذلك من جلة فنون طلعت لأجل حفظ كيان الاتحاديين السياسى ، بدون ابقاء الاسم الذى كان من شأنه تنفير الدول الغالبة ، وتجفل رأى العام فى ذلك الوقت . وكان مرادهم اعتزال الحكومة مؤقتاً ، الى ان تكون انتهت تلك الأزمة ، وانعقد الصلح على وجه من الوجوه . ولكن لما قارب أجل دخول الحلفاء الى البوسفور واستيلاؤهم على الطرق براً وبحراً ، جاء من أنبأهم بأن السلطان وحيد الدين الذى كان من الأصل ناقماً عليهم يتربص بهم الدوائر قد يتفق مع الانكليز ، فيلقى القبض عليهم ، وقد يحاكمون ، ويصلبون ، بحجة قتل الأرمن وما أشبه ذلك . فعدوا اجتماعاً فى بيت أنور حضره أركان جمعية الاتحاد والترقي ، والذين كان بأيديهم الزمام عند نهاية الحرب ، وبعد المذاكرات الطويلة ، عزم منهم ثمانية نفر على الهجرة وهم الذين كان عليهم أكثر سخط الحلفاء : طلعت . وأنور . وجمال . وعزى والى يروت الأسبق ، وبدرى مدير البوليس الأسبق ، والدكتور ناظم ، وبهاء الدين شاكر ، ومدحت شكرى ناموس جمعية الاتحاد والترقي ، وكان هذا صديقاً جليماً لطلعت ألصق الناس به ، فلحظ طلعت منه انه فى نفسه لايميل الى السفر وانما أراد أن يرافقه حبا ووفاء فقال له : « ان كنت لانرغب فى الباطن فى هذه الهجرة فلا تفعل ذلك من أجلى » . فبقى مدحت شكرى بك فى الاستانة ، وسافر السبعة الآخرون على نسافة المانية ، جاعلين وجهتهم القريم . ووقع ذلك فى أوائل نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩١٨ ، وبلغنى من أحدهم انهم فى الطريق تذاكروا فيما يجب أن يعملوه بعد هذه الطامة الكبرى التى حاقت بهم ، وبالامة العثمانية بسببهم ، إذ كانوا لايشكون فى الأهوال التى ستبتش بالاتراك وسائر المسلمين على أثر هذه الدائرة العظمى التى دارت على ألمانية وحلفائها . فذهب أنور الى أنه يجب أن ينضموا الى البلاشفة ، ويشيروا تركستان . والقوقاس . ولا يفتأوا يقاتلون حتى يأتى الله بالفرج أو يموتوا . فخالفه طلعت فى هذا رأى وقال : « نحن قوم قد انتهت حياتنا السياسية واستحققتنا غضب الأمة ، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق . فأقصد الطرق أمامنا هو أن نذهب الى أوربا . ونفجع فى زوايا العزلة . ولا نأتى بأذى حركة ولا نطمع فى شئ . بل ننظر الى ما يأتى به الدهر . فان لاحت لنا فرصة بعد مرور الأيام وكر العشى . اهتبلناها . ولكننا فى الوقت الحاضر لا يلىق بنا الا الانزواء والاعتزال . وترك النضال والزال . فقد

أردنا أن نتخذ أمتنا ونزقى وطننا . فلم يسعفنا القدر . فلنترك هذا الأمر لغيرنا . ويظهر ان الباقين أجمعوا على رأى طلعت وما زالوا يدوكون في ذلك طول الطريق حتى نزلوا ببر القريم . وكانت الجنود الالمانية محتلة تلك البلاد فهبأوا لهم قطاراً ساروا به قاصدين المانية فوصلوا الى محطة كان لابد لهم أن يبيتوا فيها . فلما أصبحوا لم يجدوا أنور بينهم . وعلموا أنه استقل قطاراً يأخذه الى الشرق . مصمماً على ما كان اعترمه من الاستمرار على المقاومة وكانت وجهة أنور القوقاس . حيث كان أخوه نورى ومعه طائفة صالحة من الجند . وكان يؤمل اثاره المسلمين الذين في اذربيجان وفي الطاغستان . وقد قال لى عزى بك والى بيروت : « لو كاشفى أنور بما فى نفسه من الانفصال عنا ذاهباً الى القوقاس لرافقته . ولكننا أصبحنا فوجدناه قد مضى » فأما الستة الباقون لجاءوا الى المانية كما سياتى خبر ذلك فى محله .

وأما أنور فبعد أن سار مسافة فى البر ، وصل الى مرسى من مراسى القريم ، ولما لم تكن هناك بواخر ولا سفن شراعية كبيرة ، استقل قارباً بقلع صغير ، وسار به قاصداً القوقاس ومعه خدمه :— ففى أثناء الطريق ، ثار البحر وكاد يقلد عليهم ، بحيث اضطروا لصغر الفلك أن يقذفوا فى اليم جميع الحقائب التى كانت معهم ، ورجعوا أدرجهم الى ساحل القريم . فنزل أنور ملثام المزاج مما أصابه من الريح والبرد والمطر ، وبقى متخبثاً فى تلك البلاد الى أن أبل من ذات الرثة التى حصلت له ، فجاء أولاً الى المانية لم يعلم به أحد الا اثنان أو ثلاثة ، بل عمس خبره حتى عن رفاقة طلعت وجمال وعزى الخ . وكان أنور كئامة لا يوجد أقدر منه على اخفاء مافى نفسه ، وكنتم حركته ، وذلك بخلاف طلعت ، الذى وان كان أدهى من أنور ، وأعلى كعباً منه فى السياسة ، فقد كان فاووهة يبيع بكل مافى نفسه . وبقى أنور متخبثاً تارةً ببرلين ، وطوراً باحدى المزارع فى أرباضها ، طلع سنته ، والناس لا يعلمون من أمره شيئاً وثيقاً ، والجرائد الانكليزية تكتب أنه ظهر فى القوقاس ، وأحياناً أنه فى التركستان ، وآونة أنه فى كردستان ، وغير ذلك وهو فى الحقيقة فى المانية لم يرحها بعد ، الى أن جاء «رادك» الزعيم البولشفيكى المشهور الى برلين ، فعرف به أنور وطلعت وتلاقيا معه ، وأجعا على الحركة مع البولشفيكى . ولما كانت الطرق يومئذ بين المانية والروسية مسدودة ، استصحب أنور الدكتور بهاء الدين شاكراً ، واستقلا طيارة قاصدين

الروسية ، فقبل أن وصل بهما ربان الطائرة الى الروسية ضل الحدود ونزل بهما الى الأرض ، ظناً بأنه نازل بأرض روسية ، فاذا بهم نزلوا بأرض « لتونيا » وكان الحلفاء وقتئذ مسيطرين على كل تلك الديار ، فقبضت الحكومة المحلية عليهم ، ووقفتهم ، فادعى بهاء الدين شاكر أنه طبيب ذاهب الى الروسية من قبل الهلال الأحمر العثماني لمعالجة أسرى الأتراك ، وقال أنور انه ممرض من مستخدمي الهلال الأحمر ، فعرف ألو الأمر في لتونيا عنهما المؤتمر الذي كان منعقداً بباريز ، فورد الجواب من المسيو كلنمصور رئيس المؤتمر . بأن يأخذوا صورتيهما بالفوتوغراف ويرسلوا ذلك الى باريز ، فأخذوا الصور والأجوبة التي جاؤ بها واعتقلوهما منتظرين ورود الجواب من كلينمصور . وفي أثناء ذلك كان أنور بعث الى الألمان يخبرهم بما وقع معه ، وكان قسم من العساكر الألمانية لايزال محتلاً ببلاد البلطيك فأجابوه بأنهم يرسلون اليه طائرة يمكنه أن يفر بها مع رفيقه ، وعينوا لهما المكان والزمان وكان أنور وبهاء شاكر يخرجان كل يوم للنزهة بعد الظهر بخفارة شرطى مسلح . فلما كان اليوم المعين خرجا على عاداتها للنزهة ، وتوجها الى المكان الذي ستأق الى الطائرة بحسب تعريف الألمان لهما سراً ، فأبطأت الطائرة في الوصول حتى كادا يقطعان الأمل من مجيئها ذلك النهار ويرجعان . واذا بها قد ظهرت في الجو ثم اسفت ولمست الأرض فأقبلا عليهما هما والشرطى الذي معهما كأنهما ينظران ماخطبها ، ولما قربا منها وجدوا فيها جندياً معه بندقية ، ثم أخذاً يتأملان في أدواتها ويتخللان داخلها والشرطى لايشك في كونهما محبين للاستطلاع ، الى أن استقلا مقعدها وبدأت تنطاد ، فعرف الشرطى أنهما قد فرا وأن الأمر مدبر ، ففي الحال صوب نحوه أنور البندقية منذراً لايه بالرعى ان أتى بحركة ، فأبلس الشرطى أولاً ، ثم أطلق عليهم فيما بعد بندقيته ، ولكن الطائرة كانت قد علت في الهواء أمدأ بعيداً . وبهذه الكيفية نجح أنور تلك النوبة ، وعادت به وبزميله الطائرة الى المانية ، ولما وصل خبر فرارهما الى المؤتمر بباريز ، وكانوا قد عرفوا من صورهما انهما أنور والبهاء شاكر ، كتموا الخبر جيداً عن الجرائد حتى لايتهم الحلفاء بالتفريط ويهزأ بهم ، مع أن الجرائد كلها كانت قد نشرت الخبر قبل أن تحقق من هما . ثم ركب أنور طائرة ثانية قاصداً موسكو ولم يكن معه هذه المرة سوى الطيار ، فحصل للطيارة عرض في الجو ، وكادا يهلكان فأسفا الى الأرض . ثم استقل طائرة ثالثة وذهب بها الى موسكو حيث وصل سالماً . وأنزله

البولشفيك في قصر قبالة « الكرمليين » لا أظن يوجد مثله في أوربا نغامة وأبهة . واتفق معهم على العمل يدأ واحدة لمقاومة الحلفاء ، لاسيما انكلترة ، ثم جاء الى موسكو جلال وبردري فدخلا فيما اتفق عليه أنور مع البولشفيك من الأب (التدبير على العدو من حيث لا يعلم) على انكلترة . وفي هاتيك الأيام جاءت عائلة أنور الى برلين من الاستانة ، فجاء هومن موسكو الى برلين وشاهد حليلته التي هي ابنة أخي السلطان ، ولم يلبث أن عاد الى موسكو ، ولكنه هذه المرة ذهب في البر من طريق Réval عاصمة استونيه . وكان معه رجل روسي شيوعي فقبض عليهما في ريفال وطلس بهما في السجن ، تحت شبهة أنهما من دعاة البولشفيك . وادعى أنور أنه من مأموري الهلال الأحمر التركي فلم يشقوا في قوله وأخذوا رفيقه المسكوبي يضربونه ضربا ألما حتى يقر من هو هذا التركي الذي معه فتجلد على كل ذلك الجلد والضرب ولم يقر بشيء ، ولكن كانت نظارة الشرطة ترى من سيما انور وشماله وحسن صورته ، شيئا ينبئها انه ليس بمأمور بسيط الحال كما يقول . ولذلك كانت تلح عليه في الابانة عن حقيقة امره ، وكان هو مصرعا على الكتمان ، الى ان خطر لهم أن يضربوه يوما كما ضربوا الروسي رفيقة وينا هم يهمون بضربه اعترضهم رجل من البعثة الانكليزية التي كانت هناك تفرس فيه النجابة والكرامة فقال لهم « مثل هذا لا يجوز ضربه » فخلوا بعد ذلك سبيله . وكانت مدة اقامته بسجن ريفال نحو شهرين ، وجعلوه مع السجناء الآخرين من الجناة والمجرمين ، ولم يكونوا يطعمونهم سوى الخبز اليابس . وجاء الى موسكو فاقام بها مدة ثم عاد الى برلين لصلة الرحم . وتلاقيت به هذه المرة بعد مكاتبة سبقت بيني وبينه حينما كنت في سويسرة . ثم ذهب ايضا الى موسكو ومعه بضعة نفر من الاتراك ، وكانت سفرته هذه في أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢٠ ثم عاد الى برلين اول مرة ثم ذهب وعاد ثاني مرة وذلك في اواخر يونيو (حزيران) سنة ١٩٢١ وهذا آخر عهده رحمه الله بأسرته . وولد له مولود ذكر بعد سفره بنحو ثلاثة اشهر ، وذهب من هذه الدنيا ولم يشاهده . وذلك انه اختلف في آخر الامر مع البولشفيك واثار التركستان عليهم ، واستشهد في هذه الحرب في اوائل اغسطس سنة ١٩٢٢ .

وتحرير الخبر انه كان بين انور ومصطفى كمال وحشة من قبل ، فلما اسس مصطفى كمال حكومة انقرة ، كان انور بدأ بتشكيل جمعيته بمعاونة الروس وحاول ان يجعل لها فروعا في الاناضول ، فعارض مصطفى كمال في انتشار هذه الفروع بحجة انها قد تؤدي الى الخلاف والشقاق

حال كون الدفاع الوطني يقضى بتوحيد الكلمة . فنقم انور عليه هذه المعارضة وعدها استبداداً ونفاسة ، وازداد الجو بينها سفوراً بحيث انه لما جاء عمه خليل باشا قائد جيش العراق سابقاً الى طرابزون ، بادر مصطفى كمال باخراجه منها ، وكذلك عند ماورد عزيمى بك والى بيروت الاسبق مدينة ارضروم ، ارسل اليه بأن يبرحها حالا ، ثم يقال ان مصطفى كمال اقصى من الجيش القواد المعروفين بالاخلاص لانور ، فكان انور يحتقد عليه هذه الامور كلها وكنا ننصح ان لا يوسع هذا الخلاف ولا يدع للقالة سبيلاً واحدى المرار كنا عنده مجتمعين بمنزله في غرونفالذ بظاهر برلين فيينت له وجوب الوثام مع مصطفى كمال مادامت هذه الحرب بين الاتراك والحلفاء قائمة وكون خبر هذه المنافسة يسوء وقعه في العالم الاسلامى جيعاً ، وأيد كلامى هذا الدكتور ناظم ، فلم يجاب انور لاسلباً ولا ايجاباً ، وكان من اقدر خلق الله على كتمان ذات صدره كما سبق ، ولم يكن انور ممن يستطيره الغضب ، ولا ممن ينطلق لسانه بطعن ولا لعن ، ولا قذيفة ، لم يهد احد ان رآه غضبان ولا ان سمعه شاماً ، وكان عجبياً في هذا الامر لا يباريه احد فيه ، واذا اراد أن يتشكى لاذ بالمعاريض وعمد الى الاشارات ، بدون سلاطة لسان ، فكان قصارى قوله في مصطفى كمال ان الادارة في الاناضول غير سائرة على مبدأ العدل ولا المساواة وان الامة تتحمل استبداد السلطان عبدالجيد وهو ابن عثمان حتى تتحمل استبداد غيره . وكان بعض اخصائه يكتبون اليه من هذا القبيل مايشير حفيظته ، فكنت ابين له دائماً مايلحق مخاصمته لمصطفى كمال من سوء الاحدوثة ، ولو كان على حق في بعض مايشكو منه . ولما فارقت في موسكو في أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ لم انس وانا على ثنية الوداع الاخير ، ان احذره من التهور في الخلاف مع مصطفى كمال باشا ، وايقاد فتنة في ذلك الوقت الذى يتحتم فيه الاتحاد التام بين الاتراك ، ويظهر ان مصطفى كمال نفسه ارسل الى حكومة موسكو يشكو من حركات انور ، ويلتمس منها ان لاتمد انور بشئ مما كانت وعدته به من مال وسلاح . فامسك السوفيت بعد ذلك عن اجابة طلبه من هذه الجهة ، وجعلوا ذلك عنراً لهم بعدم الامداد ، وانا ما صدقت اصلاً منذ البداية ان البولشفيك كانوا يريدون الجذب بضيع أنور فعلاً وتمكينه من القتال والنضال ، وانما كانوا يأخذونه بالرويقة ويمنونه الامانى ليقى في يدهم ، وليهددوا به انكلاتره ، وينالوا منها وطهرهم على ظهر اسمه مع التيقظ التام لحركته وحركة اعوانه ، والحذر من سريانها الى مسامى الروسية الكثيرى

العدد . لا سيما ان أنور اعلن الحكومة الجراء مراراً انه هو ومن معه ليسوا شيوعيين ، وان النقطة الجامعة بينه وبين البولشفيك هي مقاومة الخلفاء لا غير . والحال ان البولشفيكيين لا يركنون الا الى من كان شيوعياً مثلهم قولاً وفعلاً . وكنيت نيهته مراراً الى خطر اقامته بموسكو قائلاً . « ان الجر لا يجهلون انك اكبر دعاة الجامعة الاسلامية اليوم وهم يناهضون هذه الجامعة مثل مناهضة الانكايز لها أو اكثر ، لأن في الروسية لا أقل من ٣٠ مليون مسلم جميعهم متصلة بلادهم بعضها ببعض وبسائر بلاد الاسلام ، وهم يذكرون ماضى ملكهم وسابق عزهم ، فلا شك ان الروس يحسبون الف حساب للحركة الاسلامية بين هؤلاء ، ويخندرون منها ومنك بنوع اخص . وهم اذا كانوا يعلنون للعالم الاسيوى استعدادهم لمناصرته ، وتحفزهم لمعاوضته ، في موقف تحريه هذا ، فلا يعملون ذلك الا على شرط البلشفة ، ولا ينصرون الاسلام وهو على قواعد الحاضرة ، اذ يرون فيها من الخطر على التركستان الروسى ما يرى الانكليز على الهند ، فكان أنور يجاوبنى اننى انا تعهدت لهم بأن لا آتى بحركة اسلامية فى ارضهم واقنعتهم بأن عندنا شغلا آخر مع غيرهم ، وحسبنا ان نخلص انفسنا من سيطرة الانكليز ولقد علموا أنه لما ثار بهم أخى نورى فى القوقاس وقتلهم وقتلوه نيهته عن قتالهم ، واعلنت عدم رضائى عن عمله ، حتى اجهضته عن تلك الثورة . فكنت اقول له « الا أن ذلك لا يمنع حذرهم منك ووقوفهم لك بالمرصاد ، ومن باب الرأى عندى ان تبرح موسكو الى بلاد أخرى قبل أن يقع الخلاف بينك وبينهم ، فاما أن تقيم هذه المدة بالمانية ، وأما أن تذهب الى بلد مثل افغانستان حيث يستقبلك أميرها برأاً وترحيباً » . وكان الامير امان الله خان قد أرسل الى أنور باعلى رتبة فى مملكته ، مع نفحة مالية ، وكتاب اطلعنى هو عليه قد أوسع به لطفاً ونشريفاً . فلم أقدر على اقناعه بترك موسكو ووقع الذى جذرناه . اذ لما يئس أنور من جل الروس على امداده بالمال والسلاح ، ورأى ان كل ما وعدوه به من هذا الضرب كان برقا خلباً ، وكانت غايتهم منه ان يهددوا به الانكايز ويجعلوه رقيباً لمصطفى كمال حتى اذا خرج هذا من يدهم رمود بأنور ، بدأ أنور يضمر العداوة للحمر ، وفتح اذنه لاقوال المسلمين التتر الذين كانوا يطالعونه بما فى انفسهم من السخط من جراء نهب البولشفيك لاملاكهم واموالهم وسعيهم فى بلشفة المسلمين واهداهم دماء الألوف ، وعشرات الألوف منهم ، فى اذربيجان ، وقازان ،

وتركستان وطاغسان ، ثم من كونهم بعد جميع تلك المواعيد التي بذلوا باعطاء هذه البلاد الإسلامية استقلالها ، عادوا فاسترجعوا كل ما كانوا سمحوا به ، واستأنفوا سياسة الروسية القومية ، وبطشوا بمن قاومهم من المسلمين بطشة جبارين ، الى غير ذلك مما وقر في نفس أنور ، وحده على تغيير سياسته ، والرجوع الى سياسة أخيه نوري ، الذي كان يعنله على بمالته للبولشفيك . فصار أنور يتربق فرصة للتملص من موسكو ، وينظر ذلك القصر المنقطع النظير الذي أنزلوه به حبسا . الى أن زحف اليونانيون نحو أنقرة وصار الأتراك يتقهقرون الى الورا ، وخيف من دخول اليونان أنقرة ، فاستأذن أنور البولشفيك بالسفر الى القوقاس قائلا : « اذا دام تقهقر الأتراك على هذا الشكل ، أو سقطت انقرة ، فلا يسعني الاتجنيد من يمكنني تجنيدهم واستنفارهم من جهات القوقاس ، والزحف بهم لمصادمة اليونانيين » . فساعدته البولشفيك بالسفر واتخذوا بكلامه ، فهبط مدينة باطوم ، وأقام بها مترقبا الاخبار عن الأناضول ، فلما ورده خبر ظفر الترك في معركة سقاريا ، وارتداد اليونان الى الورا علم أن لم يبق محل لدخوله الأناضول ، فولى وجهه شطر تركستان ، وذهب الى هناك وهو يعلم انه سينهض بيزلاء ، ويعالج مرتقى عقبة كأداء . اذ لما فصل من باطوم كتب الى جمال عزمى بك والى طرابزون الاسبق^(١) يوصيه بتعهد أمور عائلته بيرلين ويقول له انه لا يعلم هل يتيح له القدر الاياب الى أهله أم لا وهذا دليل على انه كان موطنا نفسه على الموت . وكان ذهابه من باطوم في أواخر أغسطس سنة ١٩٢١ متنكراً ومعه رفيق واحد يدرعان الظامء ويتلحفان السماء . وأما البولشفيك فلم يحسوا بذهابه الا بعد أيام ، وكان هو أجمع في نفسه على الانفصال عنهم ، وبرئت قائمة من قوب . ولست أعلم ماذا جرى معه في تركستان تفصيلا ، ولا أى طريق سلك الى هناك وقصارى ما علمت من خبره بعد بلوغه تلك الديار ، انه دخل بخارى وعضد فيها الحزب الاميرى ، وبطش بدعاة البلشفة وأولئك الذين يقال لهم « محددى » أى الحزب الجديد الذين يمشون بين أيدي الجر ، وانها استجمعت له هناك جميع الأمور وأخذ الأمر كله بيده ، وانضم اليه السواد الأعظم من الأمة ، وأرسل في تلك الاثناء صورته بالزى البخارى الى أهله وشاهدتها عندهم بيرلين ، وكان في نيته أن يستقدم السلطنة امرأته عن طريق الهند وافغانستان .

(١) هو الذى اغتاله الارمن مع بهاء الدين شاكر شفاء سنة ١٩٢٢ فى برلين

ولكن لم يكن زال الخوف من كرة البولشفيك ، بل بعد ان استوسقت له أمور مملكة بخارى ، وأزال البولشفيك وأشياعهم منها ، مد الصارخة الى خيوه والى فرغانة التى كانت فتنها لم تحمد من أول انحلال القيصرية ، فعمت الثورة أ كثر التركستان ، وهاجم أنور عساكر البلاشفة فى مواطن عديدة ، وظفر بهم ، وغنم منهم مدافع واعتاداً حربية ، ونشرت الجرائد الأوربية أخبار مغازيه وفتوحاته ، وفرح بها أولياؤه وأحبابه ، لا بل المسلمون جميعا ، وظن كثيرون ان قد استتب له الفتح ، ولكننى كنت متوجسا عليه خيفة هذه المطوحة ، معتقداً صعوبة موقعة وقلق وضينه . وفى هاتيك الايام شاع أن البولشفيك دعوه الى الصلح ، فقيل انه أبى ، وقيل بل اختلف معهم على الشروط . وعلى كل حال كنت أرى الصلح أولى لعلمى بما ينقصه من السلاح والعتاد ، ولذلك عند ما كنا فى جنوى لمراجعة مؤتمرها المنعقد سنة ١٩٢٢ الماضية ، قابلت تشيتشرين الذى كان رئيس الوفد الروسى فى المؤتمر وكنت عرفته بموسكو وتحادثت معه مراراً ، وبعد أن أبدينا وأعدنا فى القضية العربية ، سألته عن خطب أنور ، ولم أكنتم عنه انه لم يكن من الحكمة أن يفلتوا مثل أنور من أيديهم ، وانه كان من الممكن ارضائه بشئ من الأشياء . فأخذ يشرح لى عما فعله أنور من مقاومة مصطفى كمال ، والكيد على حكومة أنقرة ، وما أقامه وأقعدته من أحوال تركستان ، وكيف التى الفتنة بين المسلمين والروس ، وكان سببا فى هذه المصائب التى سالت فيها الدماء الخ فتكلمت معه فيما لو كان ممكنا تأليف ذات البين ، فأجابنى انهم هم أحب شئ إليهم الصلح . فقلت له : « ولكن مثل أنور لا يرضى بصلح يكون شرطكم فيه عليه ترك البلاد ومجرد الانصراف » . قال : « وماذا يريد انور » . قلت : « والله لا أعلم ماذا يريد ، وليس بينى وبينه مراسلة ، ولا أعلم شيئاً من أحواله الراهنة اليوم ، وانما أقرأ أخباره فى الجرائد . فكلامى هو رأى من عندى أقدمه لكم حياً بحقن الدماء ، واستبقاء المودة بينكم وبينه لا غير ، وهو : انكم قد اعترفتم لبخارى بالاستقلال داخلا وخارجا ، فتركون أنور يصلح أمور بخارى ، لأنه رجل عظيم من جهة الادارة والترتيب . ويتم الاتفاق بينكم وبينه على أن لا يتعرض للتركستان الروسى ، وتؤخذ عليه بذلك المواثيق . قال تشيتشرين « وماذا يكون منصبه فى بخارى أميراً أم وزيراً ؟ » قلت له : « هذا عائد لرأى أهالى بخارى ، فان لم يكن أميراً ، يكون رئيساً للوزارة وقائداً

عاما . أو يصطلح أهل بخارى على جمهورية ويكون هو رئيس الجمهورية . قال : « لالا هذا خطر عظيم » . ولم يزد على ذلك . فلم أراجعه من بعدها في هذه القضية . ولكنني سمعت من أحد أصحابي الذين كان لهم معرفة ببعض رجال البولشفيك انهم كانوا يسعون في دعوة أنور الى الصلح . ويقال ان بعض الذين توسطوا في هذا الامر كانوا يقولون للحرر في موسكو : « مهما بذلتم في مرضاة أنور فلا يكون كثيراً لأنه هو روح هذه الحركة ان شاء سكنها ، وان شاء هيجها ، وهي قائمة به وحده » . وكلام كهذا كان من باب الخرق والحقاقة ؛ لأنه جعل البولشفيك يعتقدون أن الاهالي كانوا راضين بحالتهم مهما كانت عليه من السوء وان حركتهم انما جاءت من قبل شخصية أنور ، فلذلك وجهوا معظم قوتهم للقبض على ذلك الشخص الذي تسبب لهم بمجرد ارادته ، بكل هاتيك الخسائر وأخرج أكثر تلك الأقاليم من طاعتهم . ولست على ثقة من خبر القوة التي ساقوها على أنور ، ولكن الناس الذين جاءوا من هنالك بعد الوقائع يبالغون في الكلام على الجحافل الجرارة التي بثها الروس في التركستان لاجناد نار الثورة ، ولخضد شوكة أنور . وما مضت مدة حتى روت الجرائد أن أنور تقهقر الى الورااء أمام القوة الجسيمة التي لم يكن له قبل بها . ولما علم أمير الافغان بوفرة الجيوش الروسية الناهدة الى أنور أسرع بدعوته اليه وبعث يقول له : « أنا محتاج الى مثلك لأجل رئاسة جيشي . فأقدم على فلن تجد عندي أعز ولا أغلى منك » . ولكن أنور كان مغرماً بالحرب ، وكما قال على فؤاد بك رئيس أركان الحرب في سورية ، في أثناء الحرب العامة ، وذلك في كتاب له على حجة ترعة السويس عر به الكاتب الأديب نجيب افندي الارمنازي : « ان حال السلم عند أنور عدد منفي وقصارى حياة المرء عند أنور أن يقوم في ميدان الحرب بحملات باهرة برؤوس الحراب . ويموت فيها شريفاً » ولقد أصاب على فؤاد في قوله هذا كما أصاب في أكثر ما أورده بكتابه . فان أنور كان حلس قتال لا يعمل ، ولكنه كان من أقدر الناس على الادارة والتنظيم ، وكل من شهد ترتيبه في الجبل الاخضر بطرابلس حيث كان مطلق اليد في العمل ، يعلم أنه يندر من يبلغ شأوه ، أو يدرك تبوعه ، في التدبير ، والترتيب وأساليب العمارة ، فكان في هذه الساحة فذاً . الا أنه لم يكن سياسياً كبيراً مع فرط ذكائه وأندكر أنه رغب الى أن أذهب الى ألمانيا لمعرفة حقيقة الحالة سنة ١٩١٧ فلما ودعته قال

لى : « لا يكفينى أن تجربنى بما هو كأثر هناك بل أعطنى على ماتنا هذه رأيتك الخاص » . فكان هو نفسه لا يركن الى نفسه فى السياسة . وهذا دليل على ذكائه وعقله ، فانه لا يوجد آفة على العقل مثل الدعوى والغرور .

وفى أوائل أغسطس من عام ١٩٢٢ ، كان أنور ، كما سبق القول ، فى بلدة يقال لها بالجوان شرقى بخارى ، وكان أكثر جنده تفرقوا عنه بسبب العيسد الكبير ، وبقى فى شردمة من أعوانه ، فهاجته خيالة الروس فى عسكر محجر ، فخرج بنفسه ، وما زال يقاتل حتى قتل رحمه الله . وكان لم يتجاوز الأربعين من العمر ومن رآه يظن أنه فى نحو الثلاثين الوضاعة جاله ، وروى شبابه . وانتشر الخبر فى الدنيا كلها ، ولولوع الشرقيين بأنور ، وحرصهم على حياته ، لم يريدوا أن يصدقوا الخبر ، ومالوا الى تكذيبه ، لاسيما أنه ورد من القوقاس برقية بأن ذلك الخبر كان من أراجيف الروس . وبلغنا ذلك اذ كنا عام أول فى رومة ، فقلت لأول وهلة : هذا الذى كنت أستوقعه له ، وعزى بك والى يروت كان قال لى : أنور هذه المرة اما أن يعلو كثيراً أو يموت . على أن موته شهيداً فى سبيل تحرير قومه هو أشرف ميتة ، وأنوه منية . ثم لما ورد نباء التكذيب قلت : عسى ذلك صحيحاً . ولكننى كنت غير مطمئن البال . فلما عدت الى برلين سألت أخاه كامل بك وأهله ، فوجدتهم مطمئنين ينتظرون البريد الافغانى ، وهم لا يشكون انه آت بكتوب منه . فسألهم عن مصدر التكذيب لخبر القتل ، ظاناً انه بنى على كتاب جاء من نفس أنور بعد تلك الاشاعة ، فعلمت أنه لم يرد منه بعد الاشاعة شئ . فعند ذلك هجس فى فكرى انه لو كان حياً لأسرع بالكتابة الى أهله تكديماً للاشاعة ، اذ لا بد من أن يكون بلغه ما قيل . ثم كلفونى أن استقصى لهم الخبر من سفير افغانستان الذى كانوا سألوه فلم يخبرهم بسوء ، فأحفظونى على سؤاله من قبلى أنا فلما سألته بصورة خاصة ، قال لى ان الخبر صحيح ولكنه لا يريد أن يصرح لهم به ، ويكون ناعياً لأنور . وهو الذى أخبرنى عما أصاب الأمير أمان الله خان ملك الأفغان من الحزن لفقد أنور ، لاسيما انه كان بعث اليه يستقدمه بالحاح الى كابول فأبى . فلما عادوا يسألوننى عما سمعت من سفير الافغان ، أجبتهم ان السفير لا يقول شيئاً ولكننى أنا شخصياً فى قلق من سكوته المطلق ، وأرى انه مادام الباشا لا يكتب كالعادة بخطه الى السلطنة فيخشى من أن يكون هناك قضاء واقع . وما زالوا يعللون

أنفسهم بالآمال ويسمعون لأقوال من يروى لهم عن الجريدة الفلانية ان أنور سحي ، وعن القادم الفلاني من تلك الديار بأنه وقع تشابه بينه وبين قتيل آخر ، وان الذي وجدت جثته وكان ظن أولاً انه أنور ظهر بالتالي انه غير أنور الى غير ذلك من الأخبار المبنية على « بشروا ولا تنفروا » ، الى أن قدم ضابط من القوقاس لقيني في لوزان في هذا الشتاء ، وأخبرني بالقصة التي كنت عرفتها من سفارة الأفغان ببرلين قبل محي هذا الضابط بأشهر . ومع هذا فغرام الشرفيين بأنور كان يحدو جرائدهم على ترجيح خبر بقائه حياً . وما زالوا يلهجون بذلك حتى أعلن أمير الالاي على رضا بك نائب أنور بياناً في الجرائد الهندية يقول فيه : « مضى زمن على شهادة الغازي أنور باشا الذي كان يجاهد لنحرير تركستان فهو اليوم ليس في أفغانستان ولا في ايران ، ولا على حدود الهند ، بل قد انتقل الى جوار ربه الذي جاهد لمرضاته بماله ، ونفسه ، وقد انتقلنا نحن بعد هذه الفاجعة الى كابول ، وعسى أن نرجع قريباً الى أنقرة ، فرجاؤنا من مسلمي الهند أن لا يجددوا أحزاننا بنشر الأخبار الكاذبة عنه بل أن يسألوا الله تعالى له المغفرة والجنة » .

هكذا انتهت حياة ذلك الرجل الذي مهما قيل عن هنائه وأغلاطه ، فلم تخرجه عن كونه عظيماً . وان فيما ختمه الله له من الشهادة في سبيل أمته ، ما يكفر عن سيئاته ان كانت هناك سيئات تذكر . لاسيما انه قد دعاه أمير الأفغان لأعظم منصب في دولته ، فأبى وآثر الجهاد ، وهو يعلم مقدار قوة الدولة الروسية التي وقف في وجهها . وقد انفق الناس ، من قصرى وعمى ، على كون أنور بطلاً من الأبطال ، ليس في هذا العصر بين المسلمين ، من يدانيه في علو الهمة ، وبعد مرتى العزم ، واتقاد الحية ، وكان يعجب جميع من عرفه من جمعه بين البطولة والغشمومية ، من جهة ، والحياء والرقه والتواضع من جهة أخرى ، جمعاً مستولياً على الأمد ، يتمثل الانسان فيه وداعة الحمام ، في شكاسة الأسد . ولما عرف أحد أنور حتى من أشد الناس عداوة لمشر به الا أحبه وهفا قلبه عليه ، وكثيراً ما صرح لنا أناس أنهم قبل أن يشاهدوه كانت صدورهم تتأجج عليه بغضاً وشنائاً ، فلما شاهدوه وجالسوه عادت تلك النار في صدورهم بزدا وسلاماً ، وكان أنور يؤثر الفعل على القول ، ويكره التبجح والبأو وكان يقول لي : أكره الكلام الكبير . وأكثر ما نقم الناس على أنور كونه من أعظم أسباب دخول الدولة العثمانية في الحرب العامة . وكان أنور يرى أن الحلفاء تقاسموا

بلاد الدولة فيما بينهم شق الأبلعة ، قبل الحرب العامة . ففرنسة وانكلترة تقاسمتا سورية وفلسطين منذ سنة ١٩١٢ ، كما اعترف بذلك المسيو بوانكاره في مجلس الشيوخ الفرنسي جواباً على المسيو بيرار في العام الماضي . وكذلك لم يكن بعيداً عن العقل ، أنه لو خرجت الروسية من الحرب العامة غالباً لكانت السلطنة العثمانية أثراً بعد عين . لأنه مما لا ينكر ان الاستيلاء على الاستانة كان أول أهداف الروسية في دخولها هذه الحرب ، ومع ذهاب الاستانة يذهب الأناضول . ولقد اعترف الحلفاء أنه لو لم تدخل تركة الحرب وبقى الدردنيل مفتوحاً بين الروسية وحلفائها لما انهارت الروسية . وكذلك ثبت أن بعض الدول الغربية الكبرى كانت عرضت على ألمانية تقسيم السلطنة العثمانية ، وأن تكون حصة هذه الأناضول فهذه الأسباب كلها ، مع غيرها مما ليس هنا محل شرحه ، جعلت أنور وطلعت أمام هذه القضية يقولان : ان تأيينا الانضمام الى ألمانية نخشى اما أن تنتهى الحرب بالاتفاق علينا ، وألمانية من الجلالة بما نكون قد تركناها . واما أن يتم النصر للحلفاء وحينئذ فيقع تقسيمنا بين هؤلاء فيما بينهم فعلى الحاليين نكون من الغابرين . أما اذا انضمنا الى الالمان فنحن بين أمرين : اما أن تفوز ألمانية فنخاص نحن من الخطر الذي يتهددنا من جهة الحلفاء . واما أن تنكسر ألمانية فلا يصيدنا شيء أكثر مما سيصينا لو أهملنا الانضمام اليها . هذا مع كونهما لم يتوقعا لألمانية الدائرة التي دارت عليها . إذ لم يكن متوقعا دخول أميركا في الحرب وربما قيل ان الحلفاء عرضوا على تركة شروطاً مفيدة تؤمن لها استقبالها فيما ولزمت الحياد . والجواب أن تلك الشروط التي عرضها الحلفاء لم يكن فيها شيء من الأهمية ولا تعهدت روسيا بعدم مهاجمة تركة فوق ثلاثين سنة . واعمري لو عقد الحلفاء مائة عهد لتركية ثم خرجوا من الحرب ظافرين فن الذي كان في استطاعته اقامتهم على عهودهم ؟ أفلم يعاهدوا الشريف حسيناً على استقلال جميع بلاد العرب ؟ فاذا جرى ؟

كانت معرفتي بأنور يوم التقينا في ظاهر درنة في حرب طرابلس . ويظهر اني لما فصلت من مصر قاصداً طرابلس ، أبرق أناس الى أنور - ولا يوجد أكثر من السعاة والمفسدين وبالأسف - يحذرونه مني ، ولا أعلم الى الآن ماذا زينوا له بل علمت فيما بعد أنه بناء على هذه البرقيات المتواردة عليه أصدر أمره الى أدهم باشا الحلبي قائد معسكر طبرق ، بأن يردني من طبرق الى السالوم . ولما كان أدهم باشا رجلاً منجذراً قديماً ، أجاهه

بأنه لا يعتقد أنني مظنة سوء . وإن رده إياي بعد أن وصلت إلى المعسكر والتف حولي العرب قد يؤثر في هؤلاء تأثيراً سيئاً ، فالأحسن أن أمكن من الوصول إلى معسكر أنور بعين منصور فأكون هناك تحت مراقبة القائد العام نفسه ، فإن رأي هو ما يريه مني كانت معه سعة من الوقت لاخراجي من هناك . فافتتح أنور بهذا الجواب وتركني أكمل السير إلى عين منصور وأنا لا أعلم لي بشيء مما وقع . وبعد أيام من وصولي وملاقاتي به مراراً . وأخذنا بأطراف الأحداث من كل موضوع ، علم أن الأخبار التي وردته هي دسائس محضة ، أو ناشئة عن خدعة وحيلة ، من أناس قصدوا أن يدسوها لأغراض لهم ، ومن ذلك الوقت انعقدت بيننا صحبة أكيدة ، واستمرت إلى أن صار ناظراً للحربية ، فكان كلما علا رتبة ازداد تواضعاً بعكس ما عليه كثيرون من قومه . وفي تضاعيف الحرب رغب إلى أن أذهب إلى ألمانيا أول مرة لمراقبة الأحوال ، وما مضت مدة وجيزة حتى قال أنور لأحمد نسيمي بك ناظر الخارجية « كم أنفذنا إلى ألمانيا رجالاً من نخبة رجالنا ليقفوا لنا على حقائق الأحوال وأقاموا أشهراً فلم يبق أحد منهم ، ولا جميعهم ، بما قام به فلان (يشير إلى) في ١٥ يوماً » ثم لما رأى مارأي من الحفاوة التي أظهرها الألمان في عند مازرت ألمانيا سنة ١٩١٧ اعتقد أنني أقدر من غيري على حل المشكلات المتعلقة بينهم وبين الأتراك ، فاما وقع الخلاف بين الفريقين من أجل باكو والقوقاس والأسطول الروسي في البحر الأسود قال لي : « إن هؤلاء القوم يجلونك كثيراً ويعتقدون ميلك الخاص اليهم ، فأرجو منك أن تذهب إلى برلين ، وتسعى في نظارة الخارجية فيها في اعتراف ألمانيا باستقلال أذربيجان والطاقستان ، كما اعترفت باستقلال كرجستان . وأسر إلى غير ذلك من الأمور . فقلت له : « كنت على أوفاز إلى سورية ، ولكن لأجل خاطرِك هذا أذهب ألمانيا أولاً » . فقال لي : « يكفيك في برلين لهذه المهمة شهر أو عشرون يوماً ثم تعود إلى هنا وتسافر إلى سورية » . ففصلت من الاستانة في أوائل يونيو وأنا عازم على أن لا أمكث في برلين فوق ٣٠ يوماً . وها أنا ذا في أوروبا منذ ذلك الوقت ، وهي مدة تزيد على الخمس سنوات ، لم يتيسر لي فيها أن أضع رجلي في الشرق ، ومجنون من يظن أن المرء في حياته مخير لاسير . أما قضية الخلاف بين ألمانيا والأتراك ، فكنا على وشك انتهائها لابل قرر الألمان إجابة الترك إلى طلبهم من جهة الاعتراف باستقلال أذربيجان . وألححت عليهم أنا بناء على طلب الوفد الطاغستاني

الذي كان اعتمد على في قضية بلاده ، أن يسوّوا في هذا الاعتراف بين كرجستان ، والطاغستان ، وأذر بيجان بل يعترفوا أيضاً باستقلال جمهورية أريفان الأرمنية وبينما نحن في هذا الصدد إذ دهمنا خبر طلب البلغار المتاركة ، وارساهم وفداً الى معسكر الحلفاء بسلانيك وكان ذلك مبدءاً انهيار الجبهات الحربية الألمانية ، والنمساوية ، والعثمانية ، فطلبت كل من أوستريا - هنكارييا ، وتركية ، الهدنة وتبدلت الوزارة بالاستانة .

وقبل تبديل الوزارة بقليل جاءني الى برلين برقية رقية من أنور ، بواسطة السفارة العثمانية ، يستحث بها رجوعي الى الاستانة ، فلم أبادر الى السفر مترقباً سيرالحوادث الهائل يومئذ ، إذ في تلك الأيام كان من تتابع النوازل أعظم مشهد تاريخي يتهيأ للإنسان . وكان يتم في الجمع مالا يتم في الحقب ، ولا في القرون . ففي نحو خمسة عشر يوماً رأيت سلطنة أوستريا والمجر التي كانت ٥٥ مليون نسمة ، قد تساقطت حتاتاً ، وتفرقت أشتاناً ، وبعد مضيّ عشرين يوماً على برقية أنور قصدت الاستانة من طريق رومانيا وركبت الباخرة من برايلا فلما وصلت بنا الباخرة الى كوستنجه ، وردها الأمر بأن لاتكمل سيرها الى الاستانة ، وأن تنقلب على عقبيها فاصدة أودسا : فشق ذلك علىّ ، ولكن عسى أن تكرر هو شيئاً وهو خير لكم . فان عدم تمكني وقتئذ من دخول الاستانة ، أنقذني بموقع فيه أكثر زملائي الذين نفوا وغربوا وشربوا مياه مالمطة . فلما وصلنا الى أودسا سألت عن باخرة تذهب الى الاستانة فقبل لنا ان باخرة ألمانية اشتراها الأتراك ، أنت من الاستانة بعساكر ألمانية ، كانت بدأت تعود الى بلادها بحسب شروط الهدنة التي انعقدت في مودوروس فهذه الباخرة ستذهب لانزال العساكر المذكورة في نيقولايف ، وتعود الى دار السعادة . فتحولنا الى تلك الباخرة ، وذهبنا بها الى مرسي نيقولايف فنزل العسكر الألماني الذي فيها الى البر ، وبتنا هناك على أن نطلع ثاني يوم الى الاستانة . ففي اليوم التالي ، بينما الباخرة على وشك السفر إذ وقع مني نظرة على رصيف الميناء فبصرت بعأم بيض فأسرعت أرى من هناك ، فاذا بالمرحوم الأستاذ الشيخ صالح الشريف التونسي ، والأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويز ، والأستاذ الشيخ خضر حسين التونسي وعبد الحميد بك سعيد المصري والدكتور أحمد فؤاد المصري ، وابراهيم بك راتب ، ويوسف بك مصطفى ، وغيرهم من مصريين وتوانسة جلتهم ستة عشر شخصاً ، يقصدون ألمانية وسويسرة منهم من توارى

من وجه الحلفاء الذين كان يمكن أن يقبضوا عليه ، ومنهم من كان يعطل نفسه بعقد صلح على مبادئ ويلسون ، إذ لم تكن ظهرت ماهية ذلك الرجل وقتئذ . وقد علمت من بعضهم أن الحكومة الجديدة في الاستانة كانت تعلم سفرهم ، وترى ذلك أحزم وأحوط ، إذ لو تعرض لهم الحلفاء بحجة أن هذا مصرى وذلك تونسي ، ما كان يمكن الحكومة العثمانية في هاتيك الأيام الصعبة أن تحميمهم كما أن واحداً منهم أسرّ الى بأشارة من رأس الحكومة الجديدة بأن أتقى في أوربا تلك المدة ، وأجاهد في القضية العربية على موجب برنامج ويلسون فأطلعت هذا الواحد على برقية أنور الواردة الى . فقال لي : وأين أنور ؟ قد انسلوا من الاستانة خيفة : أنور وطلعت وجال الخ .

فبعد هذا الحديث قررت السفر آيبا الى المانية ، ومنها الى سويسرة ، وجئنا جميعا من طريق الروسية الى برلين . ومن برلين قصدنا سويسرة ، فبقيت فيها من أواخر ١٩١٨ الى أوائل سنة ١٩٢٠ . وعدت الى مينيخ فبرلين ، وهناك تلاقيت بأنور عائداً من موسكو . وكان يلح عليّ دائماً في الذهاب معه الى موسكو وأنا اعتذر له عن مشقة ذلك عليّ الى أن رضيت اخيراً بأن أذهب على شرط أن لا أقيم فوق جعتين وكان مرادى مشاهدة حالة الجر بنفسى والفحص عما اذا كان يصح الاعتماد عليهم في المسائل التي نحن فيها أم لا ؟ وعما اذا كان هناك من أمل بأن تستفيد منهم البلاد الشرقية والأمم المستضعفة أم لا ؟ فأقت بموسكو شهراً أجريت فيها بنفسى التحقيقات التي أردتها . وفي أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ فارقتها وودعت أنور وهذا آخر عهدي به ،

يودع بعضنا بعضا ويمشي أواخرنا على هام الاوالى

أما خبر طلعت فانه وصل الى برلين ، وتوارى في مصحة (ساناتور يوم) بظاهر تلك العاصمة وكان عقب فرارهم من الاستانة حصل هيحان بين الطلبة الاتراك في برلين ، والتمس هؤلاء من الحكومة الالمانية تسليمهم الى الحكومة العثمانية . وأخذ هذا الهياج بين الطلبة يتزايد الى أن صاروا يبحثون عنهم ليضربوهم أو يهينوهم . فلما أنور فلم يكن هناك ، وأما طلعت فأرسل الى الطلبة انه حاضر لمقا بلتهم ، وجاء فيما بلغنى منهم جماعة ليوبخوه على سوء ادارته وأسباب سقوط الدولة على يده وأيدى رفاقه ، وكانوا يحرقون عليه الارم ، فلما شاهدوه وسمعوا الدفاع الذي دافعه عن نفسه والاسباب التي بسطها لهم سكتوا ، وكان

سريع الدمعة لا سيما اذا تكلم في المسائل الوطنية غلب عليه البكاء فلما أجهش امامهم زال ما كان من حدتهم وانصرفوا عنه . وأما الحكومة الالمانية فانها كانت تعلم أن الحلفاء لا بد أن يطالبوها بتسليم هؤلاء ، فأعلنتهم جميعا وجوب مفارقة المانية ، ولم تستثن الا طلعت وأنور . وكنت لقيت تصادفاً كلا من عزمي وبدرى في منيخ ، فعلمت منهما أن الحكومة في برلين انذرتهم بأنهم ان لم يبرحوا أرضها سلمتهم الى الحلفاء . وسألت عن أنور وطلعت فأجابني عزمي : « بونلر مستثنى : أى انهما مستثنيان » ويظهر أن الحكومة الالمانية أبلغت جلالاً وعزى وبدرى والدكتور ناظما والدكتور بهاء الدين شاكر أسباب سخطها عليهم ، وعينت لكل واحد ذنوبه فجاء باشا وعزى بك غضبت عليهما لاجل المسئلة العربية ، لأن عزمي استشهد بي وقال لى : انت كنت في سورية فهل علمتني مسؤولا بشئ فيما أجراه جبال ؟ قلت لا . ولكننى عاتبته على أمور أخرى ليست من هذا الباب وكان مرادهم استعمال وسائل يتمكنون بها من دخول سويسره ويظهر ان جبالا دخل سويسرة متنكراً ولم نشعر بذلك وقتئذ ، بل علمناه من خاطراته التى انشرت مؤخراً . ثم انه رجع الى المانية بعد أن سكنت الزعازع واقام بمنيخ حيث كان بعض قواد الالمان الذين كانوا بمعيتة في سورية هم من ذوى الأمر والنهى بمنيخ .

وبقى طلعت متواريا عن الانظار مدة ثم بدأ يخرج وذهب الى هولانده ومعه نسيم مازلياح من الاتحاديين اليهود ، الذى كان مبعوثاً عن ازميز وكان يلزم طلعت في غربته ثم تلاقى طلعت مع هويمانس الاشتراكي البلجيكي وحصل بينهما حديث طويل ، فسأله عن قضية الارمن ، فاجابه طلعت بالواقع ولم يجتهد أن يتصل بما فعل . فقال له هويمانس Huymans : « كان يجب أن تكتب هذه القصة كلها وتنشرها لتشير الرأى العام الاوربي عليها لأنه لا يعرفها كما تقول » فوقع في نفس طلعت أن يحرق خاطراته فحرقها من الاول الى الآخر بالتركية ولم يغيب في الامور التى قصها ، ولا ستر حتى على اخوانه . ونال فيها من أنور ومن جبال في بعض الموضوعات . ثم طبع الكتاب وقبل أن وزعه كان أنور قدم الى برلين فبلغه الأمر ، فأخذ عليه ما كتب . فأجابه طلعت انه هو لم يكتب هاتيك العبارات التى فيها نيل من أنور ، وانما أضافها أحد أصحابه ، وطبع الكتاب بدون أن يقف هو عليه ، ومع هذا فانه سيجمع نسخ الكتاب ويحرقها . وجمعها طلعت يومئذ

ولم يوزعها . ولكن أنور لم يقبل منه ذلك التعليل ووقعت الوحشة بينهما باطنا ، واسرّ الى أنور بعض أمور عن طلعت علمت منها غيظه منه ، وكنت أهون الأمر عليه ، ولكن لم تنقطع بينهما الزيارات ، وبقى طلعت يجالس أنور ويحاله . وكان طلعت يرسل مصطفى كمالا ويؤازر سياسته من بعيد ، بخلاف أنور . وورده من مصطفى كمال كتاب قبل قتله بقليل يفوض اليه أمر السياسة في أوروبا ويؤكد له ثقته فيه . ولم يقعد طلعت بدون حركة في برلين ، فأقام في شارع هاردنبرغ نمرة ٤ ، وه تحت اسم « ساعي بك » وكان يختلف اليه كثير من أصحابه الألمان ومن رجال السياسة من غيرهم . وكان يأتي أحيانا الى سويسرة والى رومة ، ويقابل فيهما من بينه وبينهم موعده . وأسس محلا خاصا أشبه بدار قراءة كان يختلف اليه هو وأصحابه الدكتور ناظم وبهاء الدين شاكر والدكتور رسوخى وغيرهم لذاكرة والمطالعة ، وكنا نذهب الي هناك أنا والأستاذ الشيخ عبدالعزيز جاويش ، والمرحوم محمد الباشهانيه التونسي ، الذي فقدناه أحوج ما كنا اليه ، اذ كان من أفراد شبان العالم الاسلامى علما وذكاء ، وعلوهمة ، وطهارة أخلاق ، وكنا قبل ذلك بسنة فقدنا أخاه على الباشهانيه ، الذي كان رئيس دائرة التشكيلات في نظارة الحربية ، وكان على طراز أخيه في كل مزية . فكان هذان الصنوان من مفاخر تونس ، وماتا في الغربة ، وهما يندبان وطنهما كما أن وطنهما يندبهما .

وكان طلعت قد مال بادئ ذي بدء الى البولشفيك ، وحصلت له صلة مع « رادك » أحد زعمائهم وتفاعل خيرا بالعمل معهم حتى حدثته نفسه أن يذهب الى موسكو . ولكن قبل قتله بقليل رأيت زاهداً في مودتهم وصرح لي قائلا : « إن هؤلاء نقضوا كل ما كانوا وعدوا به المسلمين من الاستقلال والحرية ، واستأنفوا سياسة بلادهم القومية ، أفلا ترى كيف فعلوا باذربيجان وضموها ثانية الى الروسية ، بعد أن كانوا اعترفوا باستقلالها . وبناء على اقتراح طلعت تأسس في برلين النادي الشرقى ليكون مجمعا للشرقين قاطبة ، بدون تفریق بين الأجناس والأديان ، وعقد طلعت مجلس مؤسسين في البداية واقترح أن يكون هذا العاجز رئيس المؤسسين ، ووافق الجميع .

ثم لما انتظم عقد النادي والتأمت الجمعية العمومية لانتخاب مجلس الادارة بالاقتراع السرى ، انتخبت رئيساً باتفاق الآراء ، وكان طلعت ممن سعى في ذلك . ثم اجتمعنا في

النادى للذكرة في أمر بناء المقبرة الاسلامية بيرلين ، فانتخب الجمهور لجنة وأول من اقترح أن أكون أنا رئيسها كما حصل هو طلعت . وكان لا يصدر عن رأى الا شاورنى فيه أثناء مقامنا في عاصمة الألمان . وكان يختلف الى صاحب بولونى كان أبوه يوراً لساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان ، وأتاح له الزمن المحيى الى سورية ولبنان وتعرف بآل أرسلان منذ أكثر من ٤٥ سنة . فلما شاهدنى بيرلين وهو مهاجر اليها من الروسية ، وأنا مهاجر اليها من الشرق ، صار يتردد على هو وابنه ، ثم توفى الوالد وتبقى الولد على العهد ، وكان بين هذا وبين بعض رجال البعثة البريطانية بيرلين صحبة وصلة ، فشرع يرغبنى في الملاقاة مع بعضهم ويبين لى مافى ذلك من الفوائد لمصلحة بلادى . فكنت أجابه : « لأرى فى ذلك مصلحة ولا أعتقد أنهم يريدون من مواجهتى سوى الاطلاع على الأخبار ، وبقيت متأبياً الاجتماع معهم مدة ، والبولونى يغادبنى ويراوحنى ، الى أن شاورت طلعت فأشار علىّ بأن أقبل الملاقاة معهم لئرى ماذا يريدون ، ولعل هناك خيراً . فلما عاد البولونى إلىّ أجبته الى الملاقاة ، وذلك فى الفندق « كوتننتال » الذى يسكنه البولونى نفسه ، وحصلت المواجهة وطالت نحو ساعتين . وقد جرى البحث فى المسئلتين العربية والتركية ، فأبدت أفكارى فى كل منهما ، وصرحت بما يخالج ضميرى من التعجب لسياسة بريطانيا العظمى الموصوفة عند الخلق بسداد الآراء ، كيف لم ترنا شيئاً بعد الحرب العامة من هذا السداد ، وكيف انها تستخدم بعكس ماتنوى السياسة البولشيفيكية فى الشرق . وليس هنا محل سرد ما دار بيننا وبينهم من المناقشات ، اذ ذلك يطول ولكن هناك نقطة لا بد من تعيينها : كان الانكليز يريدون أن لا يرجعوا الى الوراء فى مسألة معاهدة سيفر التى كانت بنت فكر لويد جورج رئيس الوزارة ، ولكنهم كانوا بدأوا يدركون صعوبة تنفيذها ، فكانوا يحاولون اقناع الترك بقبول المعاهدة مبدأ ثم تعديل مايلزم تعديله منها فيما بعد ، لكن على شكل يقال له تعديل فى كيفية التطبيق . فأخذوا يبينون لى استحالة النكول عن معاهدة سيفر ، واصرار انكلترة عليها مع قبول تعديلات كثيرة فيما لو سلمت تركية مبدأ بها . فأجبتهم اننى لأرى امكاناً لامضاء الترك هذه المعاهدة ، اذ لم تبق لهم من أدوات الاستقلال شيئاً وكان يمكن الدول أن تقول للاتراك : ان كنتم لاتتمثلون لهذه المعاهدة فاننا نسلب من يدم البقية الباقية فعليكم أن تختاروا أهون الشرين . هذا فيما لو كان ثمة بقية باقية ، وكانوا يخافون

بعد هذه المعاهدة على شيء* تسلبونهم اياه . فأما وقد جردتهم هذه المعاهدة من كل أسباب الملك فلا تقدر ان بعد الآن أن تهددوهم ولأن تنذرهم بخطر أعظم . اذ يكون جوابهم : لن نفقد بالمقاومة شيئاً زيادة على ما سنفقد بقبول هذه المعاهدة ، لكن بالمقاومة نحفظ على الأقل شرفنا . فكان جواب الانكليز لى « كيف يقال هذا وقد تركنا لهم الاستانة . وكان ممكناً اخراجهم منها » فقلت : « بموجب هذه المعاهدة لا يبقى للأتراك حكم حقيقى لافى الاستانة ولا فى غيرها » . ثم قلت لهم : « انكم تناقشوننى فى أمر معاهدة سيفر فأنا أقول لكم بصراحة تامة انه لما دار البحث على المسئلة العربية ، جاو بتكم جواب رجل ذى علاقة وصلاحيه لأنتى عربى وكثير من العرب يوافقون على ما أقول ، وقد كنت من نواب الأمة العربية فى الندوة العثمانية . فأما الجواب على المسئلة التركية فهما كان من ارتباطى مع هؤلاء الجماعة سواء برابطة الاسلام ، أو بالرابطة الشرقية ، فأقول لكم ليس لى أن أبدى فيها رأياً . والرأى فيها انما هو للأتراك أنفسهم » . قالوا : « وهل يوجد من تقدر أن تتذاكر معه من الأتراك ذوى الصلاحيه للكلام » . قلت : « وهل تريدون ذا صلاحية أكثر من طلعت » ؟ وقد كانوا هم يعرفون أنه فى برلين ، ويعلمون علاقة أحدنا بالآخر . ولكنهم كانوا يتجاهلون ذلك تجاهل العارف « فقالوا : وهل يمكنك أن تجعل بيننا وبينه ملاقة ؟ » قلت : « ينبغى أن أسأله أولاً ثم أجابكم » . وبعد أيام دعوتهم ودعوت طلعت الى الغداء عندى ، ودار بحث طويل وسألوا طلعت فى نهاية الحديث هل اذا أعيد الى الصدارة العظمى يقدر أن ينفذ معاهدة سيفر ؟ فأجاب : « ان بقى الكلام على معاهدة سيفر هذه فلا أنا ولا غيرى يقدر على انفاذها . وان كان يمكن تغييرها فلا تبقى حاجة الى عودتى الى الصدارة لأجل تقرير الصلح » نعم وعدهم طلعت أنه اذا رضيت انكلترة بتغيير المعاهدة يذهب هو الى انقره ويجتهد فى اقناع الكمالين بالصلح . وأندكر أنه شاورنى بعد انصراف الجماعة قائلاً : « هل تذهب معى الى انقره فيما لورضى الانكليز بتغيير المعاهدة ، وتساعدنى فى اقناع الحكومة المليية بالصلح ؟ » قلت له : « أذهب معك بشرط أن يعطينا الانكليز ورقة رسمية بأنهم أصبحوا راضين بتبديل معاهدة سيفر ، وانهم يدعون تركية المليية الى الصلح ، والا لا يجوز أن نذهب بناء على مجرد القول ، لأننا نعلم أن رجال الدولة يفاوضون ويفوضون ثم لاقل سبب

يتصلون مما فوضوا به ، وينكرون ما فعلوه . فليكن بيدنا وثيقة تتوكأ عليها في أنقرة فقال « هذا لا ريب فيه » . ويظهر أن الانكليز وقتئذ لم يكونوا قطعوا أملهم من تنفيذ معاهدة سيفر ، وكانوا يظنون أن اليونانيين غالبون للترك لا محالة ، فلويد جورج الذي كان يرى النكوص عن معاهدة سيفر مسقطة له ، كان لا يزال منتظرا نتيجة الحرب الاناضولية فلذلك كتب الانكليز الذين واجهونا كل مدار بيننا وبينهم الى لندن التي كان منها صدور الأمر بمقابلتنا ، ولكن لم يردهم جواب صريح بقبول التعديل لمعاهدة سيفر وأما نحن فأرسلنا الى مصطفى كمال نخبره بما وقع معنا من المفاوضة . وبقي المأمور الانكليزي يجتهد ببقاء الحبس معنا موصولا ، فتوات الولائم وتبودلت الزيارات ، وارتاح طلعت كثيرا الى هذه العلاقة ، واغتبط بهذه المعرفة ، وصادف أثناء ذلك احدى جيئات أنور الى برلين ، فلم يسعني ولم يسع طلعت الا وقوفه على ما جرى بيننا وبين البعثة البريطانية . فلم يتلق أنور ذلك بالارتياح وقال : « كل هذه المفاوضات خداع في خداع » . وأظهر اصراره على العمل بالاتفاق مع الروس . ولما رجع الى موسكو قال للبشفيك ان طلعت اتصل بالانكليز وعول على صحبتهم . وفلا كنت أرى طلعت في تلك المدة مقلعا تماما على فكرة البشفيقة ، يراها مضررة بالترك والاسلام ، كضرر الاستعمار لا سيما بعد أن ثبت له أن الجر عادوا فاستردوا الحرية التي كانوا أعطوها للأمم التي أعلنت استقلالها عن الروسية . ولم يقنعوا بسلب الحرية السياسية حتى نهبوا معها الاموال وقتلوا الرجال وأهلكوا الحرث والنسل . وكان طلعت معرفة بمجلس نواب انكلترا محب لتركية منذ القديم يتناضل عنها كلما لاح له فرصة . فلما فر طلعت الى ألمانيا بعد الكسرة ، أرسل الى هذا الصاحب يلتمس ملاقاته في ألمانيا أو هولاندة ، أملا بحمله على السعي في مصلحة تركية ، فأجابته الانكليزي « ان التيران الآن على تركية شديد ، فلا أقدر أن أصنع لكم شيئا ، ولكن بمجرد ما أحس استعداد القوم لقبول الكلام ، لا تأخر عن الدفاع عنكم » فلما رأى طلعت انه قد حصلت بينه وبين الانكليز هذه الصلة ، كلف المأمور الانكليزي الذي كان يختلف الينا أن يسبر له غور هذه المسئلة ويعرف له ، هل يمكنه أن يتلاقى بذلك « السير الأنكليزي » صاحبه وكان هذا الكلام امامي ، لأنه من الأول الى الآخر ما جرى منهم اليه ولا منه اليهم حديث الا كنت حاضره ، والقسم المشارك لطلعت في الرأي فيه . فأبرق

الانكليزى الى نظارة الخارجية بما وقع فاستدعوا ذلك المبعوث وأوعزوا اليه بأن يميز المائش ويقابل طلعت فى جهات الرين ، وضربوا موعداً للمقابلة . وأبرقوا بالجواب الى الرجل الذى كان الكلام معه فى برلين بقاء هذا الى وطلب منى ابلاغ مآل البرقية الى طلعت باشا حالاً ، اذا كان لا يريد أن يخلف الميعاد . وكان طلعت ذهب الى منيخ لتبديل الهواء وأبقى عندى عنوانه موصياً اذا جد نبأ مهم ان ابرق اليه بالأوبة . فأبرقت اليه بأن صاحبه الانكليزى الذى يبغى هو لثاءه جاء الى مدينة «هام» فى الرين ينتظر مجيئه . فخف طلعت الى برلين وجاء رأساً الى وذهبت الى الانكليزى الذى كان هو الوسيط فكرر له مآل البرقية التى وردته وذهب طلعت الى هام ، وتلاقى مع صاحبه المبعوث وعقدتاً جلسيتين طويلتين وتفارقاً ، وعاد طلعت الى برلين فأعاد على كل ماجرى بينهما من المذاكرات . وكان من جملة كلام المبعوث الانكليزى قوله هذا : اننى أنا أشهد ان حكومتى تابعت نحو تركية سياسة خطأً قبل الحرب ، وأثناء الحرب ، وبعد الحرب ، وان سياسة انكسرة العوجاء نحو تركية فى السنين الأخيرة هى التى سافت الاتراك رغماً الى مخالفة الألمان . ولقد بينت لقومى مراراً خطل هذه السياسة فلم يسمع وبالإسلف لقولى ، لأن الأكرتية هى ضد تركية . والآن لست آتياً من قبل حكومتى ، ولا أنا منها ، ولكننى أقدر أن أبلغها مطالبكم ، وأن اعضدها بقدر استطاعنى . ولا لزوم لايراد مائه اليه طلعت لأنه معروف انه كان يطلب الغاء معاهدة سيفر ، واعادة استقلال تركية مع تراقية وازمير ، وكل بلاد أكرتية أهلها ترك ، وينزل عن كل حق للدولة العثمانية فى مصر وبلاد العرب ، وبعد ذلك تمشى تركية مع انكسرة بحسب مبادئ الصداقة القديمة ، وان لزم عقد مخالفة فتركية متهيئة لذلك . ووقعت هذه المقابلة فى أواخر فبراير (شباط) سنة ١٩٢١ . وفى ٩ مارس عقد الطلبة المصريون احتفالاً كبيراً بتذكار الثورة المصرية ، وكان طلعت فيه ، وخطبت أنا خطبة هنأتى عليها ولم أشاهده بعدها .

اذنى ١٥ مارس (آذار) نحو الظهيرة تلفن الى أحد أصحابى من رؤساء الدوائر بنظارة الخارجية فى برلين قائلاً « ان رجلاً ارمنياً قتل الصدر الأعظم الأسبق نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك النهار . وما مضى دقيقة حتى دخل على الشيخ عبد الرحمن سيف الايرانى صاحب مجلة «آزادى شرق» ومعه اثنان افغانيان ، ليخبرانى بالحادثة ، ثم وصل

الشيخ عبد العزيز جاویش ، وذهبنا الى محل الفقيه معا . وكان لا يبعد عن منزلي أكثر من عشر دقائق ، كما أن القتل وقع في نفس الشارع الذي كان يسكن فيه طلعت غير بعيد عن بيته ، اذ كان هو يسكن في نمرة ٤ الى ٥ والقتل حصل امام نمرة ١٧ . وكان لذلك وقع عظيم بيرلين ، فبعض الجرائد المنسوبة للحزب الامبراطوري نذبت طلعت ، وتأسفت عليه وذكرت مزياءه ، وانه كان مع أنور السبب في مخالفة تركة الألمانية . وأما الجرائد الديموقراطية واليهودية فعمزته . وعرضت بمسئلة الارمن ونسبت صداقته لالمانية . وأقيم له مأتم حافل حضره كثير من الألمان مع الجالية الشرقية ، وأودعت جثته محلا في مقبرة ألمانية الى أن أكلنا المسجد والابنية التي أنشأناها في الجبابة الاسلامية ، تحت نظارة هذا العاجز وبمساعي امام السفارة العثمانية حافظ شكري افندي . فنقلت التجاليد الى مستودع الاجساد الذي بنيناها فيها لأجل ايداع الاجساد التي يراد نقلها الى وطنها الأصلي . فهي هناك مع تجاليد جبال عزمي بك والدكتور بهاء الدين شاكر بك ، اللذين اغتالها الأرمن بعد واقعة طلعت بعدة أشهر عفا الله عنهم جميعاً . أما قتل هؤلاء كلهم فكان كله غيلةً وخلسة من الوراثة بحيث لم يكونوا يشعرون الا وهم صرعى . وقد كان طلعت في البدء بلغه ترصد الأرمن له ، فكان يدارى ويرامق ولا يخرج وحده ، ولكن ما مضت أشهر حتى استرسل واستهتر وأخذ يخرج وحده في النهار الواحد مرتين وثلاثاً . فلما بلغ الأرمن ذلك أرسلوا اليه شاباً مصاباً بالسل موتوراً فيما يقال يقتل أهله اسمه تاليريان ، فقالوا له أنت لا تعيش أكثر من سنة ، فاذا كان لا بد من أن تفارق الحياة قريباً فالأحسن أن لاتفارقها قبل أن تقتل طلعت هذا الذي قتل أمة بأسرها من الارمن . وقيل انهم تعهدوا له اذا قتل طاعت بتخليصه من القتل بل من الحبس ، وذلك بواسطة احدى الدول الكبرى ذات الكلمة العليا . ومن المحقق انهم سعوا في ذلك لدى تلك الدولة العظمى ، كما انه يقال كثيراً ان سفير هاتيك الدولة سعى بمزيد نفوذه في برلين بتخلية سبيل القاتل المذكور ، وأخلى سبيله لشهرين من حبسه . فنقم الترك ذلك على الالمان الى هذا اليوم ، وعند ما طلب الخلفاء في مؤتمر لوزان بهذه الايام تصفية أملاك الالمان التي في تركة لحساب الخلفاء أجاوبهم حالا الى طلبهم . ولما عوتبوا على ذلك من جهة الألمان أجاوبوا : « اتنا لم ننس اطلاق سبيل تاليريان قاتل طلعت لشهرين من حبسه . ويكون من باب الفضول أن نقول ان طلعت كان عصاميا

فكل أحد يعلم انه رقي في مدة عشر سنوات أو أقل من مأمورية تلغراف سلانيك ،
بمعاش الف وخمسة قرش في الشهر ، الى الصدارة العظمى . ولا جرم أن سرعة هذا الترقى
كانت بسبب الانقلاب و اعلان الدستور ، ونفوذ جمعية الاتحاد والترقى التي كانت هي سبب
الانقلاب ، وكان طلعت من أعضائها . ولكن لو لم يكن محمد طلعت رجلاً خارق العادة في
ذكائه ، ومضائه ، وحزمه ، وعزمه ، لما أصبح هو رئيس جمعية الاتحاد والترقى بلا منازع ،
فقد تصرفت هذه الجمعية بزمام السلطنة العثمانية عشر سنوات تامة ، وتصرفت طلعت بزمام
هذه الجمعية جميع هذه المدة . وكان هو دائماً روح هذه الجمعية ورئيسها الفعلي ، ولو لم
يكن كل الاحيان رئيسها الرسمي . وكان هو المرجع الاول والاخير للدولة من قبل أن يتولى
الصدارة ، بل لحظت أن الصدارة لم تزده نفوذاً ، بل بالعكس أظهرت شيئاً من ضعفه ، وخطأت
في نفسى رأيه بقبولها . وأظن أن الذين حفزوه الى ذلك هم رفاقه مدحت شكرى ، والدكتور
ناظم ، والبهاء شاكر ، وضيا كوك الب ، والدكتور رسوخى هؤلاء الذين كانوا أثناء الحرب
عماد المركز العمومى للجمعية . وبالجملة فالوكان في جميع أعضاء هذه الجمعية من يضارع طلعت أو
يقادره ، مع كثرة عددهم وطموح الكثيرين منهم الى اللعلى ، لما انفرد هو بالرئاسة على
جميعهم ، وقد قلت لمامات ان هذه الجمعية ماتت بموته ، والحق انهم لم يجدوا من بعده
رئيساً يتفوقون عليه ويضم شملهم . ولم يكن طلعت ممن حصلوا العلم في المكاتب العالية ،
بل كان جميع عرفانه شداً من هنا ومن هناك ، والتقاطاً من عشرين الذين كان منهم عدة
نفر من آتم الناس تحصيلاً ، ولكن كان طلعت يجبر ما نقصه من العلم المسموع بالعلم
المطبوع ، ويسد جورة جهله ، بغزارة فهمه ، وسرعة لحظه . وهناك مزية أخرى ضمنت
له حفظ تلك الرئاسة على أقرانه وهي معرفته أن يعصم نفسه من المطامع الدنيئة ، والمطامع
الو بيئة ، وعدم استخدامه شيئاً من نفوذه الطائل ، في افادة مال ، أو جمع ثروة ، بحيث
سطع له من حالة فقره برهان دائم على نزاهته ، ويمكن له ذلك دعاًم رئاسته ، بينما كثيرون
من زملائه قد غمسون أصابعهم في أدهان المنافع ، منهم من اشتت ومنهم من اقتصر . وكان
يقول : « أفلا يكفي كون هذه الأمة تحملتنى على جهلى ، أفاجلها أيضاً على سرقى واغلالى؟ »
نعم تولى طلعت أمور الدولة العثمانية عشر سنوات ، لم تشبه فيها شائبة اغلال ولا اسلال ،

وستر كثيراً من عيوبه وكفر عن كثير من أغلظه ، بعفة نفسه ، ونزاهة طبعه . ولما وصل الى ألمانيا سنة ١٩١٨ كان في جيبه ٥٠ الف مارك فلما نفدت أرسل اليه أحد أصحابه ممن أترى بسبب انتسابه الى طلعت مبلغ ٢٠٠ الف مارك ، كان ينفق منها ، فلصامات كان باقياً منها شيء يسير . ووجدت عنده بعض علب ذهبية وقطع نفيسة ، منها ما أنعم عليه به السلطان ، ومنها تذكارات من بعض اخوانه ، كان قد ادخرها للبيع فيما لو انبتت به أسباب المعيشة . أما خاطرات طلعت فقد كانت احسدى شركات الطبع بألمانية تقدمت لشراؤها بعد موته ، حتى تنشرها بالتركية ، وتنقلها الى سائر اللغات ، ولكن أرملة طلعت لم تبت الى اليوم في أمر هذه الخاطرات شيئاً .

أما جبال فقد تقدم شيء من ذكره وكيف كانت حركته بعد الحرب العامة ، وكيف ذهب الى افغانستان وحظى عند ملك الافغان بمنزلة سامية ، وذلك انه تولى تنظيم الجيش الافغانى ، واستجاد لذلك ضباطاً من الجيش العثمانى ، وأفلح في ترتيب الجيش وتدريبه ووزعه على الانماط العصرية الحديثة ، بحيث كان عند ظن الملك فيه . وبعد أن أقام بكابول نحو سنة جاء الى اوربا لمشاهدة عائلته التي كان تركها في مونيخ وقضاء بعض المهام المتعلقة بدولة افغانستان ، وكان قد اتدب ما يسنر باشا الالمانى ، رئيس مهندسى السكة الحجازية سابقاً للذهاب الى افغانستان ، ومعه رهط من المهندسين والاختصاصيين ، لفحص البلاد فحفاً مدققاً وعمل برامج للطرق الحديدية ، والاعمال الكهربائية ، والمشروعات الزراعية ، وعمليات استخراج المعادن وغير ذلك وقد لبي ما يسنر باشا الطلب ، واتدب لكل فن من أربابه من يوثق بعلمه وعمله . وليس أسهل من وجود هذه الطبقات في المانية ، لاسيما بعد الحرب العامة التي قلت فيها الاعمال وتوفر العمال . ولكن ابت الحكومة الالمانية ان تنفق على هذه البعثة من مالها أو ترسلها من قبلها - ربما كان ذلك خوفاً من انكسرتة ، التي تحذر جداً من تثقيف افغانستان على الطرق العصرية - فذهب جبال الى مونيخ واتخذ واسطة للدخول الى فرنسا ، وسمحوا له بالذهاب الى باريس ، وقيل انه قابل الميسو بوانكاره وعرض المشروع المذكور على الحكومة الفرنسية ، بشرط أن ترضى هى بالانفاق على البعثة الفنية من مالها ويكون للفرنسيس فيما بعد حق الرجحان على غيرهم في العمل . فرضيت الحكومة الفرنسية باقتراح جبال كما اخبرنى هو نفسه حيث لقيته ببرلين بعد اياه من فرنسا ، وان

كنت لم اسمع الى هذا اليوم بأن بعثة فرنسية ذهبت الى كابولي لهذا الغرض ، بل سمعت
بذهاب بعثة فنية ايطالية . ثم ان جال عاد قاصداً افغانستان من طريق موسكو ، وكان
ذلك بعد أن تولى انور كبر الثورة في تركستان على الروس ، فلم يتوقف جال عن المرور
من الروسية انكالا على كونه من رجال الحكومة الافغانية ، لا يقدر الروس أن يمسه بسوء
ولكن السوفييت وضعوه تحت المراقبة كما كانوا وضعوا الدكتور ناظما وخليلا عم انور .
فتمكن جال بذكائه أن يقنعهم باستيائه من حركة انور ، وأعلن ذلك في الجرائد وطعن
في سياسة انور ثم اتفق معهم على أن يذهب هو الى انقرة ، ويتكلم مع الحكومة الملية في
عمل قرار يمنع انور من الاستمرار على عداء الروسية . فذهب جال قاصداً الاناضول ،
وهبط أولاً تفليس عاصمة كرجستان وأخذ يجول في الشوارع مطمئناً ظاناً انه باستصحابه
مرافقين يأمن شر الغيلة فكان الارمن هياؤا له من يغتاله هو وصاحبيه . وجاء خبر قتله الى
اوربا في نحو ٢٥ يوليو (تموز) عام ١٩٢٢ على أن قتله وقع في ١٨ أو ١٩ من ذلك الشهر
واتذكر اننا كنا يومئذ في لندن ، نحتج على القرار الذي اصدره مجلس عصبة الأمم بتأييد
منطوق المعاهدة السرية التي بين انكلترا وفرنسا ، بشأن سورية وفلسطين تلك المعاهدة
التي اعطوها اسم « انتداب » فدخل جنرال انكليزي علينا ونحن في فندق سسيل وهو فرح
مستبشراً قائلاً « قد قتل جال باشا ، وعسى أن يلحق به انور » فلم أرد أن أعرفه بنفسى
لا علم ماذا يقول ، وانما علمت منه ومن غيره من الانكليز ، ومن لهجة الجرائد انه مع كل
بغضاء الانكليز للروس ، وعلى الخصوص للبولشفيك ، كانوا في المصارعة التي وقعت بين
انور وموسكو ، يفضلون انتصار البولشفيك على انتصار انور . هذه هي الحقيقة . وبعبارة
أخرى يرون في انكلترة الخطر الاسلامي أعظم من الخطر البلشي ، فيجب على المسلمين
والشركيين أن لا يتجاهلوا هذه الحقيقة ، لأن لها معنى كبيراً . فيكون بين موت جال
وموت انور ، نحو جعتين فقط ، وبينهما وبين طلعت نحو سنة وأربعة أشهر الى سنة
وخمسة أشهر . وهكذا هؤلاء الثلاثة الذين تصرفوا بازمة الدولة العثمانية طوال الحرب العامة ،
وكان لهم دور في التاريخ العام كله ، اصبحوا في مدة سنة واشهر كهشيم المحتظر . والبقاء لله
وحده . واختلفت الروايات في كيفية غيلة جال ، ف قيل ان البلاشفة وان كانوا اذنوا له
بالذهاب الى الاناضول فقد كانوا غير واثقين به ، ويخافون أن ينقلب عليهم كما انقلب انور

أو أن يقاوم سياستهم في افغانستان بعد رجوعه اليها فاذنوا له بالمسير الى أنقرة من جهة ،
 ودبروا له مكيدة القتل من جهة أخرى بواسطة الارمن الذين لهم علاقة بهم ، وهكذا
 استراحوا من غوائله . وقيل بل جمعيات الارمن التي قتلت طلعت وجمال عزمي والبهاء
 شاكرا والامير سعيد حليما الصدر الاعظم السابق ، هي التي قتله . وترى البلاشفة يتصلون
 كثيراً من تهمة قتله قائلين . « لماذا نسعى في قتل رجل كان يسعى في مصالحنا؟ » وقد
 قبضوا على اناس كثيرين من المتهمين بقتل جمال، ولكنني ما سمعت أنه قتل منهم أحد الى
 اليوم . وكان جمال ذكي الفؤاد ، متوقد الذهن ، سريع الفهم ، ماضى العزم كالسيف الصارم
 مهاب الطلعة ، لاتقاً بأن يكون قائداً عسكرياً كبيراً لمضائه ، وسداد تدابيره . ولكنه كان
 سريع الانفعال جداً ، متكهرب الاعصاب ، شديد الخنزوانه، مغرماً بالجد ، مولعاً باكتساب
 دوى الذكر ، متنفجاً ، متغطرساً ، جباراً ، مقتوناً بأن يوصف بالجبروت ، محباً للانتقام
 والبطش ، جنت الدولة جنانية كبرى على نفسها وعلى العرب والترك معاً بأن سلتمته زمام
 سورية مدة الحرب تسليماً مطلقاً ، مع ما في نخبته من الاستعداد للاستبداد ، والنشوة
 بنجمة النهى والأمر ، فصى في شهواته وأهوائه ، غير حاسب ولا مراقب ، ولا ناظر الى
 شئ من العواقب . وكان بعض المتملقين له وبعض المتهورين في السياسة التركية الطورانية
 يزنيون له أعماله ، ويشيرون من نخوته ، بقولهم له ان الآمال انما هي منعقدة به لا بغيره .
 فكانت تزيد هذه الأمادج طغياناً وجبروتاً ، ولم يكن يشك مع هذا في ككون الحرب
 ستنتهى ان لم يكن بظفر المانية وتركية ، فبصلح يضمن لكل فريق مكانه ولم يكن من
 غروره يعتقد أصلاً بأن بلاد العرب يمكن أن تخرج من يد تركية . فكان ذلك من الاسباب
 التي حملته على الجور ، والعسف ، وارهاف الحد ، وارهاق الخلق ، ولما خرج الشريف
 حسين على الدولة بقى مدة أيام وهو لا يصدق الخبر ويظن أن أولاده انما خرجوا من المدينة
 وشنوا الغارة على سكة الحديد ، بدون علمه ، وانه متى بلغ الشريف الخبر يردهم الى الطاعة .
 وكان يعلل ذلك بكون الشريف لا يجسر على هذا الأمر وأن رهبة الشريف من جمال تمنعه
 منه ، والحاصل أنه كان مغروراً بنفسه ، وقد زاده تمام حريته في العمل وانطلاق يده بما
 شاء غروراً وسكراً ، أيام كان في سورية . فخرج عن دائرة المعقول في كثير من الامور .
 ووصل الى أن صار يجمع أعيان بلدة بلدة ، ويخصى عددهم ، وينفي منهم ١٠ في المائة

آخذاً ايهم بالقرعة ، أو ترتفع الاوراق الى قيمة الذهب . أما كون سياسته هذه هي التي أحدثت المسئلة العربية ، ولولا قتله من قتل من كبار السوريين وأديابهم لم يكن ثار الشريف على الدولة ، ولا انشق العرب على الترك ، فليس بصحيح . اذ علاقة الشريف بالانكليز وتحفزه للقيام على الدولة في أول فرصة تلوح يرجعان الى أيام السلطان عبد الحميد نفسه ، الذي كان يعلم ذلك . ولما أخذ الاتحاديون على يد السلطان وأجبروه على نصب الشريف حسين أميراً على مكة ، مكان الشريف على قال لهم : « اننى ابرأ من تبعة كل ما سيعمله هذا الرجل لاننى أعرف حقيقته » . وقد كانت مداخلات الشريف لانكلترا في أمر الثورة من قبل الحرب العامة وسنة ١٩١٢ توجه أحد الأمراء المصريين الى لندرة مفوضاً اليه أن يسعى في اتفاق بين الانكليز والعرب على أن انكلترا تقدم للعرب السلاح وهم ينتفضون على الدولة ، ويكونون حلفاء لانكلترا في المستقبل . ولما عرض ذلك الامير المصرى - وهو سحى يرزق الآن - هذا الاقتراح على الانكليز تلكأت نظارة الخارجية بلندرة عن قبوله ، ولم تكتم السبب في رفضها هذا المشروع وهو : « ان انكلترا تريد هي الاستيلاء على بلاد العرب فلا يوافقها أن تعطى جزيرة العرب سلاحاً . وبالفعل كان الانكليز منذ سنين قد بدأوا يمنعون تجارهم من مبيع السلاح الى عرب اليمن . وعرب عمان ، وعرب العراق ، بل كانوا شرعوا يبتشون اناساً يشترون البنادق التى فى أيديهم بزيادة على ما تساوى ، وكل هذا حتى اذا أرادت انكلترا احتلال تلك الاقطار ، وجدت أهلها عزلاً مقامى الاظفار . ثم ان الشريف راجع انكلترا في مشروع التحالف العربى الانكليزى لاول الحرب ، فلم يجيبوا نداءه أملاً باستغنائهم عنه فلما تمطت الحرب عليهم بصلبها ، وناءت بكلكها ، شعر الانكليز بالاحتياج الى العرب ، فعادوا الى قبول اقتراح الشريف وعلى كل حال فليست قسوة جمال فى سورية وقتله من قتل هما سبب ثورة الشريف . وعلى فرض أن جمالا لم يفعل ما فعله ، فكانت الثورة واقعة ، وكان ما ظهر من نفور الاهالى من الترك ، وشماتة كثير من العرب بالترك يوم دارت الدائرة على المانية وتركية ، لا بل فرح كثيرين من العرب ، لا سيما فريق الشبان منهم ، بانتصار الحلفاء على الدولة العثمانية ، النصرى الكاثوليك بانتصار فرنسا ، والنصارى الارثوذكس بانتصار انكلترا والمسلمين أيضاً من ذلك الحزب المالى للشريف بظفر الحلف العربى الانكليزى . كل هذا

كان وقع كما وقع سواء قتل جبال من قتلهم أو لم يقتلهم ، يذبحى لنا أن نعترف بذلك ان كنا تتوخى حقيقة وتاريخاً ، ولكن خطأ جبال في رأيه وجنائته الكبرى على العرب والترك في فعله هما من الوجوه الآتية :-

أولاً - ان فريقا من الذين قتلهم أبرياء من خيانة الدولة ولم يكن لهم ذنب سوى وجودهم في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقى ، والقانون العثماني لا يعرف الاتحاد والترقى بل السلطنة العثمانية .

ثانياً - إن فريقا آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية ، ولا قرائن قطعية تذهب في جزائهم الى درجة القتل . وقد برر جبال هذا العمل فيما بلغنا من نفس رئيس الديوان العرفي بأنه من باب « القتل السياسى » مع أنه كان الأولى بهؤلاء أن يتركوا الى حكم القانون فيحكم عليهم بحبس أو نفي على حسب درجة جرمهم .

ثالثاً - على فرض غير الواقع ، وهو أن هؤلاء مجرمون أعداء للدولة ، فلم يكن من باب السياسة ولا حسن الرأى ، فتح هذه المسألة أثناء الحرب ومجازاة أناس قد عفا عنهم ونكء القروح التى كانت قد سكنت نوعاً ، وانازت عواطف العرب وحفاظتهم واطهار كون الترك يريدون الانتقام فى هذه الفرصة التى سنحت لهم للبطش ، وتعزيز النزعة الأجنبية بهذه السياسة .

رابعاً - ان الألوف الذين نفاهم الى الأناضول مع عيالهم وخراب بيوتهم ، وأمات كثيرين منهم فى الغربية لم يكن منهم مائة شخص يدرون ما هى السياسة ، فضلا عن أن يكونوا قائمين للدولة فكان تعريضهم عن أوطانهم مجرد عذاب وقهر بدون أدنى فائدة ، سوى النفور مع تكليف الدولة عليهم ١٥٠ ليرة شهرياً فكان خطأ جبال أنه سلح أعداء السلطنة العثمانية ، وأنصار الشقاق بين العرب والترك ، ورواد السياسة الأجنبية الكثيرين فى الشرق ، سلاح من البراهين لم يكونوا يملكونه فيما لو كان الأتراك انصرفوا من بلاد العرب بدون أمحال جبال ومواقفه فكان الذين يتذكرون فضل الدولة العثمانية اليوم « وبضدها تبين الأشياء » لا يجدون الأجوبة التى يجاوبها الآن سعاة السيطرة الأجنبية ، والمدنيون بهذه الأسلحة المعنوية لأجد جبال وحده . فجعل خدم الحلفاء فى بلاد العرب أثناء الحرب كما أن الحلفاء خدموا الأتراك فى بلاد العرب بعد الحرب

هذا هو أهم خطأ جال وجنائه على هاتين الامتين . ولقد خصصنا لهذه المسألة كتابا عن الحرب العامة نشرنا منه بعض مذكرات مؤخرأ تناقلتها الجرائد ، فلا نجد لزوما أن زيد هنا من هذا الموضوع على ما ذكرناه . وقد نشر جال أثناء وجوده بسورية كتابا بالتركي والعربي شرح فيه الأسباب التي دعت الى محاكمة الذين قبض عليهم وقتل من قتل منهم ، ونفى من نفى واستظهر على حقيقة ذلك بالوسائل والشهادات مما رآه كافيا للقصاص وان كان من يقرأ الكتاب لا يرى كل تلك البراهين نواضع ، ولا جيع أولئك الشهود مقانع . كما أنه قبل موته بقليل كان نشر خاطراته ، وتكلم فيها على الحرب العامة وعلى ثورة ملك الحجاز ومقدماتها ومصايرها وعلى مسألة سورية ، والأسباب التي حلتها على القتل ، والصلب والنفي من الأرض ، وما لها خيانة هؤلاء للجامعة الاسلامية وتآلبهم مع الأجانب أعداء ملتهم على ملتهم ، وتمهيدهم للأجانب الاستيلاء على أوطانهم ، وربما كلن بعض ما قاله صحيحا ان لم يكن كله ، وكان هناك من العرب من لم يكن يبالي بجماعة اسلامية ولا شرقية ومن يعتقد أن انتصار انكلترا هو انتصار العرب ولكن ليس للطورانيين الذين هم أنفسهم قد نبذوا هذه الجامعة ظهريا وقالوا بالقومية التركية البحتة أن يعاقبوا بالقتل من العرب من نبذ الجامعة الاسلامية وقال بالقومية العربية البحتة أفتأمرؤن الناس بالبر وتنسبون أنفسكم هذا ما اخترنا ذكره من خبر هؤلاء القوم مما عرفناه بالذات ، وشاهدناه بالعين ، وسمعناه بالأذن ، فيكون ذا قيمة عند الخلف الذين يهمهم أن يعرفوا حقائق ما جرى في الحرب العامة وفيها بعدها لأنه بيان عن عيان . وقد علمت الخلق التجارب ، انه كلما تطاولت الأيام وتراخت الآماد على الحوادث ، زيد في الأخبار ، ونقص منها ، وما زالت تعورها التصورات بالقلب والابدال الى أن تصبح الأخبار في واد والحوادث الحقيقية في واد ، ويعود التاريخ قصصاً موضوعاً ، فاخبر أمانة في ذمة المعاصر للحدث ، ولا سيما المطلع والمشهد ، ينبغي أن تؤدي تلك الأمانة على أصلها ، نصحاً بالرواية وحرصاً على التحقيق ، والله تعالى وحده من وراء العلم .

بعد تحرير ما حررناه من خبر المرحوم أنور بنحو شهرين أو أكثر ، قدم الى الاستاذة الملازم محيي الدين بك أحد مصاحبي (ياورية) أنور باشا ، ومعه ضابط آخر اسمه محيي الدين من فرغانة ، فأما الأول فقد عرفته جيداً في موسكو ، عند ما ذهبت اليها بناء

على رجاء أنور كما تقدم عن ذلك الخبر في محله .

وقد أفضى الضابطان المذكوران الى جريدة (توحيد أفكار) عددها المؤرخ في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ بالمعلومات الآتية ننشرها تنمة لترجة ذلك البطل وتصديقا بين يدي ما قدمناه . قالوا : -

« ان أنور باشا رحمه الله بعد انتهاء الحرب العامة اتفق مع الروس البولشفيين ، بناء على مواعيدهم له بانقاذ العالم الاسلامي ، ولكنه ما عتم أن لحظ بعد عودته الأخيرة من ألمانيا (وهي التي ألح علينا فيها أن نأتي معه الى موسكو) أن الروس كانوا يخدعونهم وانهم بدلاً من أن ينقذوا المسلمين ، كانوا يلحقون بهم فنون الأذى ، وأنواع العذاب ، فلحق بتركستان ، وأثار عليهم الأهالي هناك ، وما استقرت قدمه في تلك البلاد ، حتى نظم فيها قوة عصرية الشكل واشتغل بترقية أحوال الاهلين العلمية ، والصحية ، والأدبية والمادية ، فانضم اليه الأهالي من كل جانب ، وانسلوا من كل حذب لاسيما مهما كانوا يعانون من قسوة الروس ، والتحق بجهته خمسة آلاف فارس من فرسان تلك الأقطار ، وأسس معملا لصنع القرطاس الناري (الخرطوش) ، فأزاح بذلك علة عظيمة ، ومع نقصان الأعتاد والأسلحة بدأ الحرب ، وهزم الروس في وقائع عديدة ، وغنم منهم واحتلت جنوده خمس ولايات من أصل الولايات التسع التي تتركب منها بلاد تركستان فعند ذلك ارتاعت الحكومة البولشفية ، وسافت عليه ٨٠ ألف مقاتل تحت قيادة قامانيف .

قالا : ولم يكن بإمكان الروس مع ذلك أن يتغلبوا على أنور باشا . لو توفرت عنده عدة القرطاس ، فلما نفذت العدة من بين يديه اضطر أن يتقهقر الى الورا ، فبلغ بلد « بالجوان » وهناك وقع في مأزق آخر ، وهو أن جيشه لقلة الضباط أصبح لا يقدر على ادارة جناحيه فتمكن العدو من خرق ميمنة أنور ، فجاء المرحوم بنفسه وتولى قيادتها ، وكان ممتطيا جواده وهو يياشر الحرب والقيادة بنفسه . وكان الروس قد خبأوا رشاشات لم يعلم بها ، ووقعت الواقعة أمام ثكنة (آب دره) في بالجوان فأصابه رصاص من تلك الرشاشات أوداه شهيداً ، وذلك في الساعة التاسعة والدقيقة ٣٠ صباحا من أول يوم من أيام عيد الأضحى سنة ١٣٣٨ و بذلك انهزمت القوة التي كانت معه ، مع أنه الى تلك الدقيقة التي سقط بها كان النصر مرافقا له ، وكان نابور كامل من الروس قد استسلم له وبعد الواقعة باربع

وعشرين ساعة اجتمع نحو ٣٠ ألف من الأهالي وعملوا له ما تماً حافلاً جداً ، جرت به العبرات سيولا ، وجاوا نعشه على الأكتاف ، وواروه التراب في مكان يقال له « جكن » وبنوا عليه قبة وجعلوا يزورونه أفواجا والآن يقرأ القرآن عند قبره ١٢ حافظا بالتناوب بصورة دائمة وكان برنامج الحربى لولم يقع شهيدا التراجع بانتظام الى (پامير) والاعتصام بجبل قلعة خوم حيث كان يتربق فرصة الكرة على العدو . ولم يكن معه عدد عديد من ضباط الترك بل كان معه ملازمان نافع وخليل خلاصا من تلك الواقعة وقريباً يحضران الى تركيا . وقد استمرت حرب أنور للروس ١١ شهراً وأحبه أهالى تلك البلاد حباً جماً ، لما رأوه من تواضعه ودمائه أخلاقه وتوطئة كنفه لخاصتهم وعامتهم ، وقد أحدثت ثورته هذه انقباهاً لا يوصف في تلك البلاد ولا تزال الثورة مشتعلة ، ولا يشك أحد من سكان تلك الأقطار بأنهم لا بد من أن ينالوا استقلالهم » انتهى كلامهما

وقالت جريدة توحيد افكار التي يرأس تحريرها وليد بك أبو الضيا من كبار مفكرى الأتراك : ان المرحوم أنور باشا لم يحسن الادارة في تركيا ، وألحق بوطنه أضراراً لا تنكر ، ولكن له في جانب تلك المضار منافع عظيمة ، فقد خدم خدمة فائقة في حرب البلقان وفي حرب طرابلس الغرب ، ثم في تنسيق الجيش وكان شجاعاً ، دينياً ، عفيف المئزر ، حر السجية ، ثم استمطر عليه الوليد رحمة ربه ورضوانه .

ومما ذكروا عنه أنه وجد في جيبه ساعة شهادته كتابان من زوجته الأميرة ناجية ابنة الأمير سليمان أخى السلاطين عبد الحميد ، ومحمد الخامس ، ومحمد السادس . ووجد مصحف صغير كان مربوطاً بذراعته تحت القميص ، وكان لا يفارقه . رحمه الله وأكرم مثواه .

بقية السلف الصالح وخاتمة المجاهدين

سيدى أحمد الشريف السنوسى رضى الله عنه

(مكتبة)

- ١ -

بعد أن أرسلت الى المطبعة تكملة سيرة السيد احمد الشريف (١) رضى الله عنه بما تجدد من أخباره منذ الطبعة الأولى من هذا الكتاب الى حين فراقه هذه الدنيا اتفق لى أن اجتمعت بجعفر باشا العسكرى سفير العراق فى لندن وهو الذى كان بطل المعارك التى وقعت بين السنوسية والانكليز فى جهات مرسى مطروح فى أثناء الحرب العامة فسألته أن يروى لى من فقه تلك الوقائع ولو على وجه الاجال لأن روايتى الأولى كانت عما سمعته من فم السيد السنوسى وقد تكون ثمة أمور فانت السيد ولم تفت القائد العسكرى . فأخبرنى جعفر باشا بكل ما وقع وهو لا يختلف عما قاله لى السيد الا فى بعض تفاصيل حريرية فالقوة التى كانت تحت امره السيد فى جوار السلوم هى ١٢ ألف مقاتل وكان عدد المقاتلة التى زحفت الى أرض مصر خمسة آلاف مقاتل وكانوا شطرين شطراً مع السيد نزلوا عند البئر المسماة ببيير تونس وشطراً وصلوا الى مرسى مطروح تحت قيادة جعفر العسكرى ونورى أخى أنور . جاء الانكليز أولاً وقاتلوا الفئة التى كانت عند مرسى مطروح وكانوا خمسة آلاف جندى بين مشاة وخيالة ومدفعية وأحاطوا منها بشرذمة لا تزيد على ٨٠٠ رجل اعتصمت بأكام منيعة عند الوادى المسمى وادى ماجد فدافعت عن نفسها دفاع المستميت ولم يقدر الانكليز عليها لوعورة الارض . وبقى القتال نحواً من ١٠ ساعات وخسر الانكليز أكثر من أربعائة رجل بين قتلى وجرحى ونكصوا الى الورااء وبيناهم مشغولون بقتلاهم وجرحاهم تمكن العرب الذين كانوا مع جعفر ونورى من الانسحاب الى الورااء بعد أن

(١) راجع صفحات ٦٤ — ١٦٥ من الجزء الثانى وصفحات ٣٧٤ — ٣٧٦ من الجزء الثالث

دفنوا قتلاهم وحلوا جرحاهم وكان قتلى العرب ذلك اليوم ١٥٠ مجاهداً والجرحى مائتين
أما الفرقة التي كانت مع السيد عند بير تونس فهاجتها قوة نظير القوة التي جاءت الى
مرسى مطروح ودارت رحى الحرب واستشهد من العرب ٧٠ مجاهداً وجرح ضعف هذا
العدد ولكن خسائر الانكليز كانت أعظم فشغلوا بقتلاهم وجرحاهم وجاءتهم نجات كان
يمكنهم بها ان يحيطوا بالعرب لاسيما ان المكان حول بير تونس بسيط مستو ليس فيه شيء
من وعورة وادي ماجد . الا ان الله رحم العرب بزمته سخيةً أوحلت بها الارض وعاقبت
سير الدبابات والانتقال الانكليزية فتمكن العرب من الانسحاب الى جهات سيدي براني
وتلاقوا من فل مرسى مطروح فزحف اليهم الانكليز بجميع قواتهم وكانت بارجة حربية
تمطر العرب قنابرها من البحر وهناك تغلبوا على العرب بكثرة العدد والعدد فنهزم من انهزم
الى السلوم وعبر الحدود قافلاً ومنهم من استشهد ومنهم من جرح ومنهم من استسلم وبقى
جعفر باشا يقاتل ومعه جماعة الى أن جرحوا بالسيوف وسقطوا فنفقهم الانكليز اسرى
واتوا بجعفر الى الاسكندرية

وأما المرحوم السيد فانه انصرف بعد واقعة بير تونس الى واحة سيوه وبعد هذه
الواقعة جرت معه الحوادث التي ذكرناها في ترجمة حاله

- ٢ -

منذ انطوى استاذنا الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله لم يشعر الخوف قلبي فيما عدا
المصائب التي رزمت بها في أفراد عائلتي ما شعره النبأ الصادع والخبر الفاجع الذي نقل الى
الآفاق نعي الأستاذ الأكبر والسراج الأزهر خاتمة المجاهدين ومثال الغزاة المرابطين السيف
الباتر السائر على هدى الصحابة الكرام في العصر الحاضر محيي مآثر الأوائل في أيام الأواخر
سيدي أحمد الشريف ابن سيدي الشريف ابن سيدي محمد بن علي السنوسي رضي الله عنه
وعن سلفه وأرضاهم وجعل في جوار قدسه مأواهم^(١)

إن خيعة العالم الاسلامي بهذا الرجل الكبير من رجاله بل بهذا الجبل الراسي من جباله
هي من الحوادث التي تشغل مكاناً خاصاً في تاريخ مصائب الاسلام الذي أصبح أغنى تواريخ
الأمم بالمصائب ، وان هذا الفقيه العظيم لوعاش في زمن السلف الصالح وأيام الغزوات العربية

(١) كتب عطوفة الأمير هذه المقالة والتي تليها في جريدة الجهاد الغراء بمناسبة نعي الفقيه رحمه الله

والفتوحات العمرية لما كان مكانه في ذلك الوقت ليقصر عن مكان أحد من أولئك الأبطال الذين نشروا الاسلام في الخافقين ورفعوا لواءه من نهر الرون الى جدار الصين . فما ظنك وهو قد جاهد هذا الجهاد كله ووقف مدة عشرين سنة في وجه دولة من الدول العظام في عصر دثرت فيه معالم الجهاد وانظفأت جذوة الاسلام حتى لم يبق منها الا الرماد واستولى اليأس على قلوب المسلمين حتى حسبوا كل مقاومة لدولة أوربية ضرباً من ضروب الحماقة وعم ذلك جوعهم الحاضر منهم والباد. وانتشر في الربى والوهاد . ومع هذا فان سيدى أحد الشريف السنوسى قد أتى يبرهان ساطع ودليل قاطع على أن فئة من المسلمين في قطر لا يتجاوز عدد أهله عدة مئات من الألوف يمكنها بقوة الارادة وثبات العزم ومضاء الصريمة وإباء الضيم وترجيح المعنى على المادة وإيثار الشرف على الترف وامتلاء القلوب بالايمان ووقف النفوس على اعتزام عزائم الاسلام ان تثبت مدة ٢٤٠ شهراً بأزاء دولة عدد أهلها اثنان وأربعمائة مليوناً مجهزة بجميع ما هي مجهزة به عظيمات دول العالم المتمدن لها من فيالق البر وأساطيل البحر وسيارات الكهرباء والمحلقات في الفضاء مالا تملك أعظم منه دولة من الدول القاعدة في الصف الأول في ممالك الأرض .

وقد يقول المتعنتون الذين في قلوبهم مرض والذين لا يروهم إلا أن يروا الاسلام ذليلاً مهيناً : وماذا أفادنا قيام السيد السنوسى في وجه ايطاليا وهل كان ذلك إلا سبباً في زيادة قهر المسلمين وإرهاقهم بأفانين الظلم وأساليب الاستئصال في طرابلس الغرب ؟ فلو كان هؤلاء الأهالى قد خضعوا من بداية الأمر للدولة التي قد احتلت بلادهم وقضى الله بسيادتها عليهم لربما كانوا قد نجوا من العذاب المقيم الذى هم فيه واخطوب التي أبادت خضراءهم وما أشبه ذلك من الأعاليل التي تفيض بها قرائح النفوس الخاملة المولعة بالاستخذاء للأجنبي أياً كان .

وجوابنا على ذلك بسيط وهو : إننا مارأينا أمة أوربية مهما قل عددها وانقطع مددها قد رضيت بالاستخذاء لدولة أوربية عظيمة مهما علا سلطانها وغلظت ملكتها في الأرض بل القاعدة عند الاوربيين - الذين هم قدوة الشرقيين الآن في جميع المآخذ والتارك - هي أن الأمة المستقلة لا بد لها من أن تدود عن حوضها وتدافع عن شرفها الى النعمة الأخيرة من حياتها . وان الذى يموت بغير دفاع فلموت أولى به من الحياة بلا نزاع . وان

بقية السيف مهما قلت هي أشرف مقاماً وأرجى حياة من الكثرة المستنيمة الى الذل ولو كانت كالجراد المنتشر . وقد حققت الحوادث وأيدت التجارب أن الخضوع ليس من أحسن الوسائل التي تعالج بها عداوة الأعداء وأن قول الشاعر :

قاتل عدوك باللسان وان قدرت فباللسان
إن العداوة ليس يصح لمحها الخضوع مدى الزمان

لا تزال هي الحقيقة السياسية التي تدين بها دول العالم الحديث كما دانت بها دول العالم القديم . ولعمري لو خضع الطرابلسيون من أول الأمر أكل الخضوع لاطاليا لما كان لذلك نتيجة سوى زيادة الطغيان في معاملتهم واستخفافهم بملتهم ، وامتداد أيدي الأوربيين بدون أدنى تردد الى كل قطر من الاقطار الاسلامية قياسا على قضية طرابلس واعتقاداً بأن هذه الأمة قد فقدت حسيب الحياة فهي لا تبدي ولا تعيد ولا تفعل فيها الأسنة ولا السهام لأنه ما لجرح ببيت ايلام

قد استشهدنا على صحة مبدأ المقاومة ولو كان المعتدى قويا والمعتدى عليه ضعيفا بالقاعدة السياسية والمبادئ الأساسية التي يسير عليها الأوروبيون حربا وساما وعملا وعاما ولم تتعرض الى ما يجب من ذلك على المسلمين الذين ينهاتهم كتابهم عن الخضوع للاجبيين عنهم ويقول لهم « إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » ولم يكن تقديمنا الحجة الاولى لكوننا أشد بها اقتناعا من الحجة الثانية ولكن لمعرفةنا أن مثل هؤلاء المصايين بمرض الافتتان بالسلطة الاوربية ليسوا ممن يقبلون الجدال على قاعدة الأوامر والنواهي القرآنية وإنك ان لم تستظهر عليهم بكتاب أوربي أو سنة غربية لم يفدك الاخذ والرد معهم شيئا

فالسيد أحمد الشريف السنوسي هو خاتمة مجاهدي الاسلام الى هذا الوقت قد سبقه الشيخ شامل الداغستاني الذي قاوم الروسية أربعين سنة والامير عبد القادر الجزائري الذي ناهض فرنسا ١٧ سنة وتبعه في الجهاد واقتدى بسيرته محمد بن عبد الكريم الخطابي الريني الذي كانت مقاومته قصيرة ولكنها عريضة تواقف فيها مع دولتي فرنسا وأسبانيا

معا وجها لوجه وزلزلنا فى حربته زلزالا شديداً ولولا السيد أجد الشريف رحه الله لكانت ايطاليا استصفت قطرى طرابلس وبرقة من الشهر الاول من غارتها الغادرة عليهما واننا لا نزال نتذكر كلام القواد ورجال السياسة الاوربية عن الحملة الايطالية يوم جردتها على ذينك القطرين اذ قال بعضهم ان ايطاليا ستقبض على ناصية الامر وتستكمل هذا الفتح فى مدة ١٥ يوماً وقال أشدهم تشاؤماً وأقلهم تخيلاً وأبصرهم بأمور الشرق وهو اللورد كتشنر المشهور ان هذا الفتح الذى يستسهله الناس على ايطاليا أمامه من الصعوبات أكثر مما يظنون وقد يستغرق ثلاثة أشهر بالاقبل فليتأمل أولو الالباب كيف ان هذه الثلاثة الاشهر امتدت عشرين عاماً ورزأت الدولة الايطالية بمائة وخمسين الف عسكري قتلى عدا الجرحى وبثلثمائة مليون جنيه من الذهب الواضح . هذا كان مجموع خسائر ايطاليا منذ سنتين بحسب الاحصاءات الرسمية . وهذا كان ثمرة جهاد ذلك السيد السند

نعم لم تأكل ايطاليا فى اعتدائها الفظيع هذا مريثاً ولم تشرب هنيئاً وعلق فى حلقتها من سمك الاسلام حسك لا يزول فى الاحقاب ولا فى القرون وكل ذلك بما أراد الله على يد رجل قد كان يفهم الاسلام حق الفهم ويعمل بما يعلم منه بدون انحراف يمنة ولا يسرة ولم يكن فى قلبه شئ من الدنيا بجانب الآخرة وكانت جميع حطام هذا العالم الفانى لاتوازى عنده جناح بعوضة فى جانب الواجب الاسلامى وهذا الرجل هو السيد السنوسى الكبير الذى لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئاً ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهراً واحداً . وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار الاحسنة من حسنات السيد أجد الشريف وقائداً من قواده

قلت ان السيد السنوسى لو كان فى عصر السلف لكان يلزى فى صف أعظم أبطال المسلمين فكيف وهو فى عصر الخلف الذين بينهم وبين السلف ما بين المشرق والمغرب . وان هذه المقابلة تذكرنى بما قاله أحد العلماء عن أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ما قام أحد بأمر الاسلام بعد رسول الله ﷺ مثل أحمد بن حنبل فقيل لذلك القائل وأظنه ابن المدينى المحدث الشهير : ولا أبو بكر الصديق ؟ فأجاب ولا أبو بكر الصديق . وذلك لان أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان له رجال وأعوان وان أحمد بن حنبل لم يكن له رجال ولا أعوان وانما كان يناضل بقوة نفسه وحدها

ونحن نقول لو كانت الدولة العثمانية قاومت إيطاليا هذه المقاومة أو قاومت أعظم من إيطاليا مما سبقت لها العادة بمقاومته وأحياناً بموالاته الهزائم عليه لما كان في ذلك ما يقضى بالعجب . ولكن الذي قام هذا المقام الشريف ووقف هذا الموقف التاريخي النادر النظير هو رجل لا يملك سوى قوة إرادته ومثابته وإيمانه وإيمان رجاله وعزة أنفسهم بالاسلام وصرهم في البأساء وحين البأس . وبينهم وبين عدوهم في الأعداء والأسلحة والمال والعدد من الفروق الهائلة ما لا يحتمل التنظير في قليل ولا كثير . فضله إذن أعظم جداً من فضل الدولة العثمانية في جهادها وان كان فضلها عظيماً . وهو وحده كان مصدر هذه الإرادة التي أنشأت باذن الله هذا الجهاد الطويل العريض وحفظت شرف الاسلام المعتدى عليه في طرابلس وغير طرابلس لانه مما يجب أن لا نتأري فيه أن أوروبا لا تعرف في ذات نفسها إلا إسلاماً واحداً أن السيد أحمد الشريف هو بنفسه أمة ، وأن سيرة السيد أحمد الشريف هي بذاتها تاريخ . وإن كل من عرف عن كذب ذلك السيد الغطريف علم من أخلاقه وورعه وحلمه وعلمه وزهده في الدنيا وحبسه لمعالي الأمور وعزوفه عن سفاسفها ومؤاسانه للفقراء وحنانه على الضعفاء وشدهته مع ذلك في الدين وانحصار كل همومه في استتباب أمر المسلمين ومحافظة على الفرائض والسنن وغير ذلك من الأخلاق العالية والهمم الشماء والمنازع القعساء ما يذكر بأخلاق الصحابة الكرام بل يشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام ولا أقول هذا في مقام تأيين من عادة الناس أن يروا فيه الحسنات مجسمة وأن يحملهم الموت على طي الهنات وتناسي السيئات بل أقول انه كان هذا لسان جميع من خالطوه والتفقيده رجح الله ملائحة حياة وكل من خالطه يعرف منه هذه الأخلاق بأجمعها ويعرف أكثر منها . وطالما كان يقول الأمير سعيد حلیم الصدر الأعظم : ان الأمة الاسلامية والدولة العثمانية لم تقدر هذا الرجل حق قدره .

واقدم ترجمت السيد احمد الشريف في حياته في الجزء الأول من حاضر العالم الاسلامي في ثمان عشرة صفحة مطبوعة بالحرف الرفيع أوردت فيها خلاصة مواقف المرحوم في الحرب الطرابلسية من بدايتها الى أن قضت عليه الأحوال بمغادرة طرابلس في غواصة ألمانية الى الاستانة الى آخر مدة إقامته بتركيا ، ولما عزمنا مؤخراً على طبع هذا الكتاب استثنافاً وأضفنا اليه هذه المرة ضعف الحواشي التي علقناها في المرة الفاتنة ألحقنا بهذه الترجمة عدة

صفحات عن بقية تاريخ المرحوم بعد مفارقتى إياه فى مرسين وكيفية رحيله الى الشام فالحجاز حيث ألقى عصا التسيار ولم يزل يتردد فى تلك البقاع المباركة الى أن لقي ربه فهذا التاريخ الزاهر قد كتبناه فى حياته ولا نخشى فيه لومة لائم ولا قولة قائل إننا أعطينا السيد أكثر من حقه . ولست مقتنعاً بما حررتة فى «حاضر العالم الاسلامى» من سيرة هذا المجاهد العظيم الذى لا ينجب مثله الدهر فى مئات من السنين فى علو الهمة مع التواضع وشدة الأنفة مع الخشوع والتناهى فى التقوى مع مزيد الكياسة والاسراف فى الخير واكرام الضيف مع الاقتصاد على النفس والجمع بين الاضداد التى كانت تجتمع بمقاييس ولا شك أوسع فى جده أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه . أقول جده على بن أبى طالب لأنه ثابت بقدر ما يمكن ثبوت الانساب أن السادة السنوسية أبناء هذا البيت الكريم هم خطابيون أدارسة من ذرية إدريس صاحب المغرب حفيد الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام . فلا بد لى إن شاء الله من أن أجمع مناقب الفقيه فى كتاب خاص أنشره فى العالم الاسلامى شرقاً وغرباً وأسميه « التعريف بمناقب سيدى أحمد الشريف » وأفضل فيه ما أجمته فى الترجمة السابقة وذلك لأن الجميع لا يتسنى لهم أن يقتنوا «حاضر العالم الاسلامى» أربعة مجلدات وأرى من مصلحة هذه الأمة أن تقرأ سير مثل هؤلاء الرجال حتى تقتدى بهديهم وترى ما كانوا عليه من احتقار هذه الدنيا فى سبيل الواجب المقدس . إذ ليس هذا الخلق بكثير مع الأسف فى هذا العصر الذى تكالب الناس فيه على المادة وعبدها الكثيرون من دون الله وكذلك أرى من الواجب على نشر هذه السيرة الشريفة لأنتى أوسع الناس اطلاعا على أحوال هذا الامام الذى كنت له خليلاً وكان بحق إمام السيف والقلم ولأن سيرته هى جزء من التاريخ العام الذى لا يمكن أن يكتب بانصاف إن لم تتسع منه صفحات حافلة باعمال السيد أحمد الشريف السنوسى قدس الله روحه

ولذلك ترانى فى هذه المقالة مقتصراً على هذه اللوحة الدالة تاركا التفصيل لما بعد .
وانما أحب أن أذكر من مناقبه بعض الشئ الذى اطلمت عليه تمام الاطلاع أيام إقامتى بمدينة مرسين ملازماً له . فانى بعد استقلال تركيا كنت عزمت على السكنى فى الاستانة فرحاً بجلاء الأجانب عنها وانكشاف تلك الغمة ولله الحمد وكان السيد يومئذ ساكناً فى مرسين . فعند ما علم بورودى الاستانة أسرع بالكتابة الى يلتمس منى أن أسكن بقربه فى

مرسين لأننى كنت من قبل فى مراسلة متصلة معه من أيام ذهابى الى الجهاد فى برقة ، وكان بعد التجربة الطويلة لا يثق بأحد ثقته بى وكان يفضى الى بكل ما فى نفسه وكنت أنا أقوم بتبليغ الدولة أكثر ما يهمه من مهامه وكنت وسيطه الدائم لدى صديق أنور رجه الله وهذا كله قبل أن تعارفنا بالوجوه . فلما حصلت أنا فى الاستانة سنة ١٩٢٣ لم يكن أسرع منه إلى دعوتى الى السكنى بجواره فى مرسين لتمام بيننا المعرفة . وكانت الحكومة التركية قد أنزلته فى دار فسيحة ذات حديقة غناء فى ظاهر مرسين وجئت أنا فاكتريت داراً فى البلدة وكنت أختلف الى السيد كل يومين مرة أجلس فيها وإياه ساعات طوالاً فى ذلك القصر المشرف على الرياض والبساتين فكان كل منا يأنس بالآخر مالا يأنسه بأحد لما بيننا من ارتباط القلوب من قبل ومن بعد . وما من أحد تعمق فى معرفة حقيقة هذا الرجل الا ازداد له حرمة وتوقيراً . فكانت معرفة الوجوه بيننا سبباً لزيادة الحرمة وتضاعف الإعتباط بالصحة وما أمتن الوداد اذا كنت تحترم من تحبه وتحب من تحترمه

وإنى لمتذكر كوننا صمنا شهر رمضان فى مرسين وذلك سنة ١٣٤٢ فكنت أفطر فى منزلى بالبلدة ثم أذهب الى خرستيان كوى حيث يقيم السيد ونصلى وراءه العشاء والتراويح . وكان يجتمع المغاربة الذين فى مرسين نحواً من أربعين شخصاً ويصلون وراءه أيضاً . فكان يختم القرآن الكريم فى كل خمس ليال مرة أى كان يقرأ خمس القرآن فى كل صلاة وكنت صليت وراءه التراويح مرة أو مرتين فرأيته يبقى فيها زيادة على ساعتين ، فعجزت عن ذلك وصرت أقتصر على صلاة العشاء وكانوا هم يصلون التراويح وبعد الصلاة نجلس إلى السحور ، وكان فى القراءة يتدفق كالسيل ولا يتوقف ولا يتردد ولا يتلعثم وكنت أقضى من ذلك العجب العجاب وأقول كيف أن رجلاً كهذا الرجل قد توسط بين الحسين والسنتين من العمر وتحمل من الهموم والأثقال ماثقاً به الجبال وهو لا يزال يتذكر كتاب الله كله ويقرأه عن ظهر قلبه كقراءة للفاتحة . لم أذكر أنه مدة الشهر من أوله الى آخره وفى الخلمات الست التى ختمها لكتاب الله توقف فى القراءة أكثر من ثلاث أو أربع مرات كان يقف قليلاً ليتذكر الآية وكان وراءه شاب تونسى حافظ فيسرع بالقائه إياهاله فيمضى فى القراءة مضاء السهم وهذا غريب فيمن بلغ تلك السن وانطوى على ذلك الهم العظيم من فراق الأوطان وتنوع الأشجان وجور الحدثنان .

ولم يكن للسيد غرام فى الدنيا الا بأمر هذه الأمة ولما سألته عند اجتماعنا فى مكة عن اولاده الذين تركهم أطفالا أجنبي : قد صاروا الآن رجالا وما أنا بمفكر فى أمرهم . وانما يهمنى أمر هذه الأمة المعذبة فى طرابلس . وكان فى قلبه من أمر طرابلس مالا يعلمه إلا الله ولكنه كان من إيمانه فى ثبات الجبال وكان يرى فى هذه المصائب مقدمات يقظة الاسلام .

وقد أنشر فى الكتاب الذى أخصه به صور مکتوباته الى هذا الفقير الى ربه فانه لا يزال محفوفاً عندى لأقل من عشرين كتاباً وان كان فقدها الكثير بتوالى الأسفار .

وكم من مرة تزلفت اليه ايطاليا بأصناف المواعيد والتعهدات على أن تبقية على رياسته الدينية والنظارة العامة على جميع الزوايا السنوسية وأوقافها فى جميع البر الطرابلسي وأن تكون كلمته هى العليا الخ . . . وكانت أجوبته كلها واحدة وفى احدى المرات حررت الجواب أنا بقلمى وهو طالب الاستقلال التام فى الداخل وعقد اتفاق مع ايطاليا لايمس الاستقلال فى شئ* . وغاية ما كان يتساهل به هو توكيل ايطاليا فى العلاقات الخارجية . وأما سبب خروجه من تركيا فقد كنت أريد أن لا تعرض لبيانه الآن حتى لأشوب جلالة هذا التائبين بنشر أحداثه مستهجنة ان كانت قد رضيت بها حكومة أنقرة لنفسها فلا شك أن الأمة التركية الكريمة لن ترضى بها ولا بد أن يأتى يوم يناقش فيه الأتراك الكرام جماعة أنقرة الحساب على معاملتهم لرجل كانوا لجأوا اليه قبل أن انسق أمرهم واستنجدوه فى أخرج الأوقات ودعوه وهو فى بروسه أن ينضم اليهم واستفادوا من نفوذه فى فتنة قونية وفى فتنة الأكراد الأولى حتى عرضوا عليه الخلافة الاسلامية بالحاح مكان السلطان وحيد الدين وامتنع عن قبولها ولم تزل أنقرة تبهه وتكرمه وتودد اليه الى أن أمنت على نفسها بعد معاهدة لوزان فقلبت له ظهر المجن واتخذت لاجراجه من تركيا وسيلة واهية وهى أن شيخا تركيا من مريدى الطريقة السنوسية ألح على الاستاذ المرحوم فى اعطائه توصية الى الأمير سليم ابن السلطان عبد الجيد لينذهب الى بيروت ويتعرف الى الأمير بهذه الوصاة . فدافعه السيد كثيراً وقال له إنه ليس بينى وبين الأمير سليم مكاتبة .

ولكن هذا الشيخ كان ساذجا لا يفهم تلك القصص ولما كان السيد بسائق فطرته من كرم الأخلاق والحلم بحيث لا يكسر خواطر المنكسرين وكنت أنا غائبا حينئذ فى جنيف فكتب له سطرين الى الأمير سليم وختمهما بالآية الكريمة (والله مع الصابرين) فقبضت الشرطة

على حدود سوريا على هذا الرجل ووجدت معه هذا المكتوب فبعثت به الى أنقرة وهناك كانوا ينتظرون سبباً . ليتخلصوا من السنوسى بعد أن انتقضت حاجتهم اليه ومن أحبك حاجة أبعضك عند انقضائها فصدر الأمر فى الحال الى والى مرسين باخراجه من تركيا ونسيت أنقرة جميع ماسبق من جليل خدماته للدولة والملة ولتركيا الانقرية نفسها وكافأته بهذه النهاية التى تبقى سبة على الدهر فى حقها . لابل نشروا فى جرائدهم انه قد خان حكومة تركيا !! وأما هو فلما حصل فى الشام ثم فى الحجاز لم يكن يقول فيهم إلا الخير وكان يذكر حسن صنيعهم ويدعو لهم بالهداية والتوفيق ولم يكن يمن عليهم بخدماته ولا يعتد بشئ من أعماله وكان أكمل من أن يذكر شيئاً من ذلك . وقال لأخى حسن يوم خروجه من مرسين : لو كان أخوك هنا ماهفونا هذه الهفوة

ذكر الأخ السيد محمد على الطاهر صاحب الشورى قصة المكتوب الذى كنت أرسلته فى الأيام الأخيرة جواباً للفقيد على كتاب جاءنى منه منذ أشهر وكلفت الأخ أبا الحسن برسالة الى السيد بواسطة ذكرتها له . وفى الحقيقة لست أعلم ان كانت هذه الرسالة بلغت قبل وفاته أم بقيت فى الطريق وسأعلم ذلك . وسواء بلغت أم لم تبلغه فقد كنت معه وكان معى وكان يهمنى من أمره ما يهمنى من أمر نفسى وكان بين نفوسنا بريد دائم والأرواح جنود مجندة كما ورد فى الحديث الشريف

اللهم انه كان من أجل العارفين بك وأبر القائمين بأوامرك ونواهيك وأشد المحبين لعيالك الخلق وأصلب المتمسكين بكلمتك الحق وانه كان القدوة المثلى بين خلائقك والحجة الوثقى بحقائقك والرجل الذى أدى الى آخر نفس من أنفاسه جميع الواجب عليه لدينه ولقومه وناسه وللإنسانية التى كان لها مثالا ، فأعل درجته يارب فى جوار قدسك ونور وحشة قبره بأنسك وبوئه فى عقباه المقام الكريم الذى يليق بكرمك العميم وبثوابك لمن سلكوا الصراط المستقيم واستحقوا النعيم المقيم انك أنت الرحمن الرحيم آمين

— ٣ —

فى الطبعة الجديدة من حاضر العالم الاسلامى التى تم من الآن الى شهرين يحد القارىء ترجمة للمرحوم سيدى أجد الشريف أوفى معلومات من الترجمة التى فى الطبعة الاولى ومن جملة ذلك الكتب التى وردت على السيد من اللورد كيتشنر والجنرال ماكسويل وغيرهما من رجال الانكليز ومنها تتجلى المساعى التى سعتها انكثرة لاستجلاب مودة السيد والمحافظة على رضاه وهى مكتوبات لم تنشر فى محل ولن يجدها أحد إلا فى «حاضر العالم الاسلامى» الطبعة الجديدة

وبرغم جميع ما بذلته انكثرة للسيد من وسائل الاستعطاف فلما بلغ السيد أن بعض الناس يتهمونهم بموالاة الانكليز وبالتلكؤ عن الزحف الى مصر زحف الى مصر محتازا السلم بالقوة التى معه وهو واثق بأنه لا بعددها ولا بعددها تقدر أن تقاوم القوة الانكليزية التى كانت مرصدة لها

ولولا شجاعة العرب خارقة العادة لوقع الخمسة آلاف مقاتل الذين كانوا مع السيد فى الأسر بأجمعهم ووقع السيد نفسه أسيراً كما أن البطل جعفر باشا العسكرى - سفير العراق اليوم بلندن - جرح وأسر ذلك اليوم وما أمكن العرب أن يخلصوا من خطر إحاطة القوة الانكليزية بهم إذ كانت هذه القوة ثلاثين ألف مقاتل إلا بمعجزات من البسالة واشتغال الجيش البريطانى بدفن الالوف من قتلاه وحمل الالوف من جرحاه . وهكذا تمكن السيد ومن معه من العرب أن يخلصوا من الوقوع فى يد العدو ويقطعوا السلم راجعين وأفات نورى أخوان نور بأعجوبة .

وبعد هذه الحملة قلب الانكليز للسيد ظهر المجن وزحفوا لقتاله فاضطر أن يتقهقر الى سيوه فقصدوه الى سيوه بقوة عظيمة فدافع السيد تلك القوة دفاع المستميت ودحرها وخرب كثيراً من دبابات الانكليز المصفحة واتتهز فرصة ارتداد الانكليز الى الورا ففارق سيوه الى جغبوب الى آخر القصة مما ذكرناه فى تلك الترجمة وانتهى الأمر بذهاب السيد فى غواصة من ساحل العقيلة الى الأستانة .

وقد كان من نتائج عمل السيد هذا أن ضبظت السلطة الانكليزية أملاكه فى سيوه وفى الواحات الدواخل وأن باعتها جزاء له على مهاجمة مصر .

ولما جرى الصلح في لوزان سنة ١٩٢٣ بين تركيا ودول الحلفاء وأعاد الانكليز جميع ما ضبطوه للاتراك في أيام الحرب كان من الواجب على تركيا أن تسترجع أيضا أملاك السيد أحمد الشريف السنوسي التي لم تضبطها انكلترة إلا بسبب حرب أصلها إياها السيد بينما الانكليز يتزلفون اليه . وذلك قد كان من السيد لاجل خاطر تركيا وكان مصطفى كمال باشا وعد السيد عند انعقاد مؤتمر لوزان بأن الاتراك سيجعلون من شروط المعاهدة اعادة أملاك السيد بمصر

فما انعقدت المعاهدة لم يجد عصمة باشا ومن معه حاجة للاهتمام بالكلام في قضية أملاك السيد مع كونهم استرجعوا جميع ما كان الانكليز ضبطوه من أملاك التركة ، ولم تكن هذه المسألة عبثا ثقيلًا عليهم لانها طلب حق لا يقدر الانكليز أن يقولوا فيه شيئاً .

ولما تم امضاء معاهدة لوزان ذهب السيد الى أنقرة مهنتا وقابل الغازي ومن جملة الكلام سأله عما فعلوه من جهة أملاكه حسبما كان الغازي وعده به . فوجد السيد أنهم أهملوا هذه القضية لان الغازي ارتبك في الجواب وأحاله على عصمة باشا . ولما تكلم السيد مع هذا في القضية لحظ أنهم لم يفتحوا هذا البحث في لوزان . وأخذ عصمة يقول له أنهم يقدرون أن يراجعوا الانكليز ولو بعد عقد المعاهدة .

أخبرني المرحوم السيد بهذا في مرسين . فقلت له : أفسألتهم مرة ثانية هل راجعوا الانكليز في هذا الأمر ؟ فان هذا حق لك ومن الواجب على تركيا أن تسترد لك أملاكها ذهبت عليك بسببها .

فقال لي السيد : كلا ما راجعتهم ولن أراجعهم ولن أتلفظ بعد كلمة في هذا الموضوع . نعم يمكنني أن أسعى لدى الحكومة المصرية في رد هذه الاملاك لي فان ردها لي فذاك والا فلست معاودا الكلام لاجلها مع أنقرة وكان من الأنفة بحيث لم يكن يريد أن يحمل نفسه على مراجعة أنقرة في قضية كانوا وعدوه بها وأهملوها .

وهذه الاملاك تساوي مائة الف جنيهه بالاقبل . وقد بلغني فيما بعد أن الحصة التي للمرحوم في سيوه استردها له الامير ادريس ابن عمه . ولا أعلم ماذا جرى بالاملاك التي في

الواحات الدواخل . فعسى أن تكون الحكومة المصرية أعادتها للسيد أيضا .
 وخلاصة القول أن حكومة أنقرة كلفأت السيد أجد الشريف على موافقه العظام
 فى جانب تركيا عموما وجانب أنقرة هى نفسها بجأرتين :
 احداهما اهمال قضية أملاكه فى مؤتمر لوزان مع معرفتها أنه انما خسرها بسبب
 تركيا ومع استردادها أملاك جميع الأتراك الذين كان الانكليز ضبطوا أملاكهم فى أيام
 الحرب .

الثانية الأمر له بالخروج من تركيا بسبب مكتوب للأمر سليم العثمانى كتبه بناء على
 الحاح أحد مرىدى طريقته من الأتراك . وكان ساعة كتابته هذا المكتوب كارها ولم يقل
 فى هذا المكتوب شيئا يمس تركيا سوى أن هذا الرجل طاب منى هذه الوصاة ولم أجد بدأ
 من اجابة طلبه . وختم المكتوب بأية « والله مع الصابرين »

ولما كان الواجب التعريف بهذه الحقائق ألحقت هذا الخبر بالترجمة السابقة

الاسيف

« شكيب أرسلان »

جنيف ٣ ذى الحجة

